غالية المواعظ

ومصباح المتعظ وقبس الواعظ

تأليف

العالم العلامة السيد الشريف

خير الدين أبي البركات نعمان بن محمود الألوسي

الحسيني البغدادي

رحمه الله تعالى

١٢٥٢ - ١٣١٧هـ

طبعة محققة - مهذبة





لبنان ـ بيروت ـ فاكس : ٧٨٦٢٣٠
ص. ب : ٥٥٧٤/ ١٣/ بيروت

الطبعة الأولىٰ
١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م

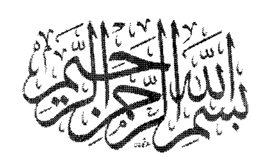
دار المنهاج للنشر والتوزيع
لصاحبها عمر سالم باجخيف
وفقه الله تعالى
جدة ـ هاتف رئيسي ٦٣٢٦٦٦٦ ـ فاكس ٦٣٢٠٣٩٢
الإدارة ٦٣١١٧١٠ ـ المكتبة ٦٣٢٢٤٧١

الموزعون المعتمدون

- السعودية : دار المنهاج للنشر والتوزيع ـ جدة
هاتف : ٦٣١١٧١٠ ـ فاكس : ٦٣٢٠٣٩٢
مكتبة دار كنوز المعرفة ـ جدة
هاتف : ٦٥١٠٤٢١ ـ فاكس : ٦٥١٦٥٩٣
مكتبة المؤيد ـ جدة ـ هاتف : ٦٨٧٧٠١٤
مكتبة المأمون ـ جدة ـ هاتف : ٦٤٤٦٦١٤
مكتبة الأسدي ـ مكة المكرمة ـ هاتف : ٥٥٧٠٥٠٦
مكتبة المصيف ـ الطائف ـ هاتف : ٧٣٦٨٨٤٠ ـ ٧٣٣٠٢٤٨
مكتبة الإيمان ـ المدينة المنورة ـ هاتف : ٨٢٢٥٨١٧
مكتبة الزمان ـ المدينة المنورة ـ هاتف : ٨٣٦٦٦٦٦
مكتبة العبيكان ـ الرياض
هاتف : ٤٦٥٠٠٧١ ـ ٤٦٥٤٤٢٤ ـ فاكس : ٤٦٥٠١٢٩
مكتبة الرشد ـ الرياض ـ هاتف : ٤٥٩٣٤٥١
مكتبة جرير ـ الرياض ـ هاتف ٤٦٢٦٠٠٠
وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها
دار التدمرية ـ الرياض ـ هاتف : ٤٩٢٤٧٠٦
مكتبة المتنبي ـ الدمام ـ هاتف : ٨٤١٣٠٠٠
- الإمارات العربية المتحدة : مكتبة دبي للتوزيع ـ دبي
هاتف : ٢٢١١٩٤٩ ـ ٢٢٢٤٠٠٥ ـ فاكس : ٢٢٢٥١٣٧
دار الفقيه ـ أبو ظبي ـ هاتف ٦٦٧٨٩٢٠ ـ فاكس ٦٦٧٨٩٢١
مكتبة الجامعة ـ أبو ظبي ـ هاتف : ٦٢٧٢٧٩٥ ـ ٦٢٧٢٧٢٦
- الكويت : دار البيان ـ الكويت
هاتف : ٢٦١٦٤٩٠ ـ فاكس : ٢٦١٦٤٩٠
دار الضياء للنشر والتوزيع ـ الكويت ـ تلفاكس ٢٦٥٨١٨٠
- قطر : مكتبة الأقصى ـ الدوحة
هاتف : ٤٤٣٧٤٠٩ ـ ٤٣١٦٨٩٥
- مصر : دار السلام ـ القاهرة
هاتف : ٢٧٤١٥٧٨ ـ فاكس : ٢٧٤١٧٥٠
- سوريا : دار السنابل ـ دمشق ـ هاتف : ٢٢٤٢٧٥٣
- جمهورية اليمن : مكتبة تريم الحديثة ـ تريم (اليمن)
هاتف : ٤١٧١٣٠ ـ فاكس : ٤١٨١٣٠
مكتبة الإرشاد ـ صنعاء ـ هاتف : ٢٧١٦٧٧
- لبنان : الدار العربية للعلوم ـ بيروت
هاتف : ٧٨٥١٠٨ ـ ٧٨٥١٠٧ ـ فاكس : ٧٨٦٢٣٠

www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com


غالية المواعظ
ومصباح المتعظ وقبس الواعظ



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد أكرم خلق الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

أما بعد فقد سرحت طرف الطرف في هذا الكتاب الكريم والسفر الجليل العظيم والمنتقد

النظيم فألفيته كتاباً جامعاً من أحكام الشرع وأسرار شتى لا ترى فيه عوجاً ولا

أمتاً توشح في كل صحائفه دراً وياقوتاً وصار لأرباب المعارف نبراساً و[illegible]

الشريعة قوتاً وعلى طلاب الحق كان ياقوتاً جمع فأوعى وفتش من أهل

البدعة الأفاعي وقام في محراب الهداية إماماً وانتقى لأعلام [illegible]

ورفع لحزب الله أعلاماً وأوقع في حزب الشيطان سهاماً إذ المصنف المعتبر

والبحر الخضم الأطهر والركن الشامخ والطود الذي هو على صخرة السنة راسخ

والحبر المتين والكتاب المبين جمعت شوارده ورصعت قلائده

بيد الحبر الأكمل والعالم الأفضل والعلم الأطول بقية السلف وبركة الخلف

سبيل [illegible] الأعيان ونقيبه أركان هذا الشأن العلامة [illegible]

السيد خير الدين أفندي نعمان نجل الإمام الجليل والأستاذ الفاضل النبيل

علم العراق وعالم العصر بالاتفاق صاحب القلم السيال [illegible] الذي

المرحوم المبرور [illegible] محمود أفندي لا زال [illegible]

[illegible] وجازيا جده ومجده [illegible] على [illegible]

ومن [illegible]

[illegible] شموس الناس جيلاً بعد جيل

[illegible] وصلتها [illegible]

[illegible] من سبيل

والحق [illegible] أن هذا الكتاب [illegible] الرجال في علم

[illegible]

[illegible] محمد أبو الهدى الصيادي

[illegible]

[illegible]

صورة بخط الإمام محمد أبو الهدى الصيادي

وجدت على ظهر النسخة الخطية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[تقريظ]

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أكرم خلق الله ، وعلى آله وأصحابه ومن والاه .

أما بعد : فقد سرحت طرف الطرف في هذا الكتاب الكريم ، والسفر الجليل العظيم ، والعقد النظيم . . فألفيته كتاباً جمع من أحكام الشرع فرائد شتىٰ ، لا ترى فيه عوجا ولا أمتا .

توشح في كل صحافه دُراً وياقوتا ، وصار لأرباب المعارف ربيعاً ولأصحاب الشريعة قوتا ، وعلى طلاب الحق كتاباً موقوتا .

جمع فأوعى ، وفتت من أهل البدعة الأمعا ، وقام في محراب الهداية إماما ، وانتضى لإعلاء كلمة الله حساما ، ورفع لحزب الله أعلاما ، وأوقع في حزب الشيطان سهاما .

إنه الصحيح المعتبر ، والبحر الخضم الأطهر ، والركن الشامخ ، والطود الذي هو على صحراء السنة راسخ ، والحبل المتين ، والكتاب المبين .

جمعت شوارده ، ورصعت قلائده : يد الحبر الأكمل ، والعالم الأفضل ، والعلم الأطول ، بقية السلف ، وبركة الخلف ، سليل العلماء الأعيان ، وبضعة أركان هذا الشان : العلامة الفهامة السيد خير الدين أفندي نعمان ؛ شبل الهمام الجليل ، والأستاذ الفاضل النبيل ، علم العراق ، وعالم العصر بالاتفاق ، صاحب القلم السيال ، واللسان العطر الندي : المرحوم المبرور السيد الآلوسي ، شهاب الدين محمود أفندي ، لا زال آخذاً أثر والده الفحل الأكرم ، وحاذياً حذو مجده وفضله قدماً على قدم ، ومن يشابه أَبَهُ فما ظلم .

هم الطهر الكرام بنو الأعالي ... شموس الناس جيلاً بعد جيل
فروع أصلها المختار طه ... ووصلتها بذا الحسب الجليل
وقد أخذوا العلوم سبيل قرب ... لجدهمُ فحسبك من سبيل

والحق يقال : إن هذا الكتاب فريد المنوال ، كما أن مؤلفه فريد الرجال ، في علو القدم وكرم الأخلاق والأفعال .

نفع الله به المسلمين ، كما نفع بآبائه الطاهرين ، آمين .

كتبه الفقير محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي
نقيب أشراف حلب الشهباء
غفر الله له آمين

بين يدي الكتاب

غالية المواعظ : مجالس وعظية ، ودررٌ ألوسيَّة جامعة لمهمات من الدين ، وتشتمل علىٰ فوائد جليلة ، وأحاديث منيرة ، وآثار وفيرة ، يتخلّل كل مجلس من مجالسها أحكامٌ تجب الإحاطة بها ، وتنبيهات علىٰ شؤون في الحياة لا غنىٰ عنها ، وعِظات تتصدع لها قلوب المخبتين ، وترقيقات تنقشع بها غموم الجاهلين ، وقَصصٌ صحيحٌ غير ملفَّق ، ينير قلوب المستفيدين ، وهي كما وصفها صاحب « المسك الأذفر » بقوله : (ومنها كتاب « غالية المواعظ » وهو كتاب شريف ، رتبه على أحسن ترتيب وأبدع ترصيف ، وقد طبع وانتشر ، وظهر ظهور القمر ، فغدا يتلىٰ بكل مكان ، ويدرس بسائر البلدان) اهـ[(١)]

وله مميزاتٌ استحق بها أن يقتحم ذروة القبول ، ويحتضنه أهل التقوىٰ في كل عصرٍ ومصرٍ ، ويرجع إلىٰ هـٰذه المجالس كل واعظ ومحدث .

وقد أبان المؤلف في مقدمته عن هـٰذه الخصائص ، فلا نرسل عنان القلم في تبيانها .

(ب)

وبنظرة فاحصةٍ في هـٰذه المجالس تبرز للناظر النقاط التالية :

ـ أن المؤلف بعد استهلاله بمقدمة المجلس المشتملة علىٰ محاسن البيان يصدر بالآيات التي تدل على الموضوع ، مفسراً لكلماتها ، موضحاً لمعانيها ، ذاكراً أحكامها ونفائسها .

ـ ثم يُتبع ذلك بالأحاديث الجياد ، طاوياً للإسناد ، مشيراً إلىٰ مخرج الحديث في الغالب ، موضحاً وجهه ، ومبيناً قصده ، بعبارات عليها سمة الإشراق ، ونور الإخلاص بالاتفاق ، تلتذ بها المسامع والأفهام ، ويستفيد منها الخاص والعام ، وهو بين هـٰذا وذاك يقيد نفائس الفوائد ، ومستجاد اللطائف .

---

(١) « المسلك الأذفر » (ص١١٣) .

ـ ومن محاسن هـٰذه المجالس : أنه يذكر أقوال الأئمة في المسألة ناسباً كل قول إلىٰ صاحبه ، بحيث يعرف المطلع علىٰ ذلك آراء الأئمة الفقهاء ، واجتهاد السادة العلماء ، ولذلك تلقف هـٰذه المجالس أصحاب الأئمة الأربعة الشهيرة .

ـ لما كان هـٰذا الإمام من بيت العلم والأدب . . فإنه قلّ أن يخلو مجلس إلا ويستشهد فيه بأبياتٍ حِسَان ، وأشعارٍ مثل عقود الجمان ، فيتلاحم في المجلس الواحد المصدران النيِّران : الفرقان ، وسنة المأمور بالبيان ، وهدي السلف الصالح ، وحِكَم أهل الإيمان .

(جـ)

وبعد : فإن هـٰذه المجالس عظات وعبر ، وفقه وأثر ، وتبيان يحكي الدرر ، كيف لا ومحبر سطورها أبو البركات المتفنن نعمان خير الدين ابن الإمام المفسر الشهير السيد محمود أفندي الآلوسي؟! فقد جاء في تحلية صاحب المجالس من « المسك الأذفر » ما نصه : (ولم يقبل منه العذار إلا وجمع من الفضائل ما لا تسعه أسفار ، ولم يبلغ سن العشرين إلا وصار من الأساتذة المعتبرين ، وقد أجازه العلماء الأعلام ، والمشايخ العظام بجميع العلوم من منطوق ومفهوم) .

(د)

هـٰذا ، ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك سطوراً فقط انتزعت من ثنايا الكتاب ، حرصاً علىٰ توحيد صف الأمة وجمع شملهم ، وهي لم تغير وجه هـٰذه العظات ؛ لأنها قليلة جداً .

(هـ)

وإن دار **المنهاج** لتفخر بإعادة طبع هـٰذه المجالس في حُلَّة قشيبة ، مطرزة بتعليقات وجيزة لما لا بد منه ، وضبط ما قد يصعب على العامي معرفته ، مع تفنّن في الطبع ، وتميّز في الإخراج ، ودقة في التصحيح ، والله تعالى أسال أن ينفع به المسلمين .

الناشر

وصف النسخ المعتمدة

ـ **النسخة الخطية** : وهي نسخة موقوفة على المكتبة النعمانية في المدرسة المرجانية ببغداد ، محفوظة بمكتبة الأوقاف العامة ببغداد ، استكتبها مؤلفها في إسلامبول سنة ثلاث مئة وألف هجرية ، وقد قوبلت بحضور المؤلف .

تتألف من جزءين ، عدد أوراق الجزء الأول (١٠٧) ورقات ، وعدد أوراق الجزء الثاني (١٤٠) ورقة ، عدد سطورها (٢٩) سطراً ، متوسط عدد كلمات السطر الواحد (١٣) كلمة ، بخط نسخي معتاد ، الناسخ لها من تسويد مؤلفها : الشيخ عبد اللطيف أفندي المولوي الطرابلسي في إسلامبول ، في ذي القعدة سنة (١٣٠٠هـ) .

ـ **النسخة المطبوعة** : وهي نسخة تم طبعها بالمطبعة الأميرية ببولاق ، سنة (١٣٠١هـ) ، ومعها ثبت مؤلفها رحمه الله تعالى .

* * *

عملنا في الكتاب

- اعتمدنا في إخراج الكتاب على نسختين : خطية ، ومطبوعة ، واستخلصنا منهما الأقرب للصواب ، مع تهذيبنا لبعض العبارات .

- أثبتنا بعض الحواشي الموجودة في هامش المطبوع وختمناها بقولنا : (اهـ منه) .

- قمنا بتزويد الكتاب ببعض الحركات المناسبة .

- وضعنا علامات الترقيم المناسبة للكتاب حسب المنهج المتبع في الدار .

- حصرنا الآيات القرآنية بين قوسين مزهرين ﴿﴾ ، وجعلناها برسم المصحف الشريف .

- عزفنا عن تخريج أحاديث الكتاب نظراً لعادة المصنف بسوقه الأحاديث من حفظه دون ضبط لها لا لفظاً ولا صحةً .

- ترجمنا في مقدمة الكتاب لمؤلفه العلامة خير الدين أبي البركات نعمان بن محمود أفندي الآلوسي الحسيني رحمه الله تعالى .

- علقنا على بعض المواطن التي وجدنا أنها بحاجة إلى تعليق .

- شرحنا بعض الكلمات التي يخفى معناها على الأغلب .

* * *

ترجمة المؤلِّف

اسمه ونسبه :

هو العلامة الجهبذ خير الدين أبو البركات نعمان بن محمود بن عبد الله الآلوسي الحسيني البغدادي .

مولده ونشأته وشيء من سيرته :

ولد في الثاني عشر من المحرم سنة ألف ومئتين واثنين وخمسين من الهجرة (١٢٥٢هـ) في مدينة بغداد ، ونشأ بها في بيت علم وفضل وأدب ؛ فأسرة الآلوسي معروفة بشرفها وفضلها بين الأسر التي حملت لواء العلم ، فنالت به المجد الشامخ والشرف الباذخ .

ووالده هو العلامة الكبير والحبر النحرير أبو الثناء صاحب التفسير الشهير بـ« روح المعاني » ، وساعد اجتماع هذه العوامل على نشأته نشأة إسلامية علمية ، وتحلِّيه بالآداب الإسلامية الفاضلة ، تولَّى العلامة نعمان في شبابه القضاء في بلاد متعددة ، فسار سيرة مرضية حُمد عليها ، وحبب إلى القلوب ، ثم ترك المناصب خشية أن تشغله عما هو آخذ بإتمامه من تأليف ونشر .

سافر إلى الآستانة ، ومرَّ على سورية وبلاد الأناضول ، واجتمع بعلماء هذه البلاد فحاز إعجابهم ، ولما وصل إلى الآستانة واجتمع بأولي الأمر . . عرفوا فضله وبالغوا في تكريمه ، ثم رجع إلى بغداد وتصدر للتدريس فيها ، وحصر أوقاته بين التدريس والتصنيف .

كان له ـ رحمه الله ـ في الوعظ يد طولى ، فكان في كل سنة يجلس في شهر رمضان للوعظ ، كما أنه كان شغوفاً بالمطالعة وميَّالاً إلى جمع الكتب النادرة ، حتى اجتمع لديه مكتبة حافلة ، تُعدُّ من أغنى خزائن الكتب في بغداد وأحفلها بالمخطوطات النادرة ، ثم وقفها على مدرسته .

شيوخه :

تتلمذ العلامة نعمان الآلوسي ـ رحمه الله ـ على أجلة علماء عصره ؛ منهم :

ـ والده العلامة الجليل أبو الثناء محمود بن عبد الله الآلوسي صاحب « التفسير » .

ـ العلامة السيد محمد صديق خان البخاري القنوجي .

ـ الشيخ كاكه أحمد بن معروف الشافعي السليماني .

ـ العلامة عيسى أفندي القادري البندنيجي .

ـ العلامة عبد الرحمن أفندي المحض القادري الكيلاني .

ـ العلامة عبد الغني الغنيمي الميداني .

ـ الشيخ أحمد بن عيسى الحنبلي .

ـ العلامة محمود أفندي الدمشقي ، وغيرهم .

مصنفاته :

له مصنفات كثيرة متنوعة منها :

ـ الآيات البينات في عدم سماع الأموات عند الحنفية السادات

ـ الأجوبة العقلية لأشرفية الشريعة المحمدية

ـ الإصابة في منع النساء من الكتابة

ـ جلاء العينين في محاكمة الأحمدين

ـ الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح

- حديقة الورود في مدائح أبي الثناء شهاب الدين محمود

- سلس الغانيات في ذوات الطرفين من الكلمات

- شقائق النعمان في رد شقائق أبي سليمان

- صادق الفجرين في جواب البحرين

- الطارف والتالد في إكمال حاشية الوالد

- غالية المواعظ ومصباح المتعظ وقبس الواعظ . **وهو كتابنا هذا**

صفاته :

أتصف الشيخ - رحمه الله - بصفات حميدة ، وخصال جليلة ، فقد كان نزيه القلم ، أديب النفس ، متنزهاً عن العبث ، منصفاً وعدلاً في الحكم ، واسع الحلم ، شديد التحري للحق . وكان جواداً معطاءً ، يجود بنفسه لسائله ، وفيّاً زكيّاً ، تقيّاً ، نقيّاً ، ورعاً زاهداً ، يأخذ ما صفا ويدع ما كدر ، حفيّاً بالأهل وذوي القربى والأصحاب ، منشطاً لأهل العلم ، مستقيماً في العمل ، حلو المفاكهة ، لطيف المحاضرة ، بشوش الوجه .

وأما عن صفاته الخَلْقية : فقد كان الشيخ - رحمه الله - ربعة ، نحيفاً ، أبيض اللون ، يميل إلى الصفرة .

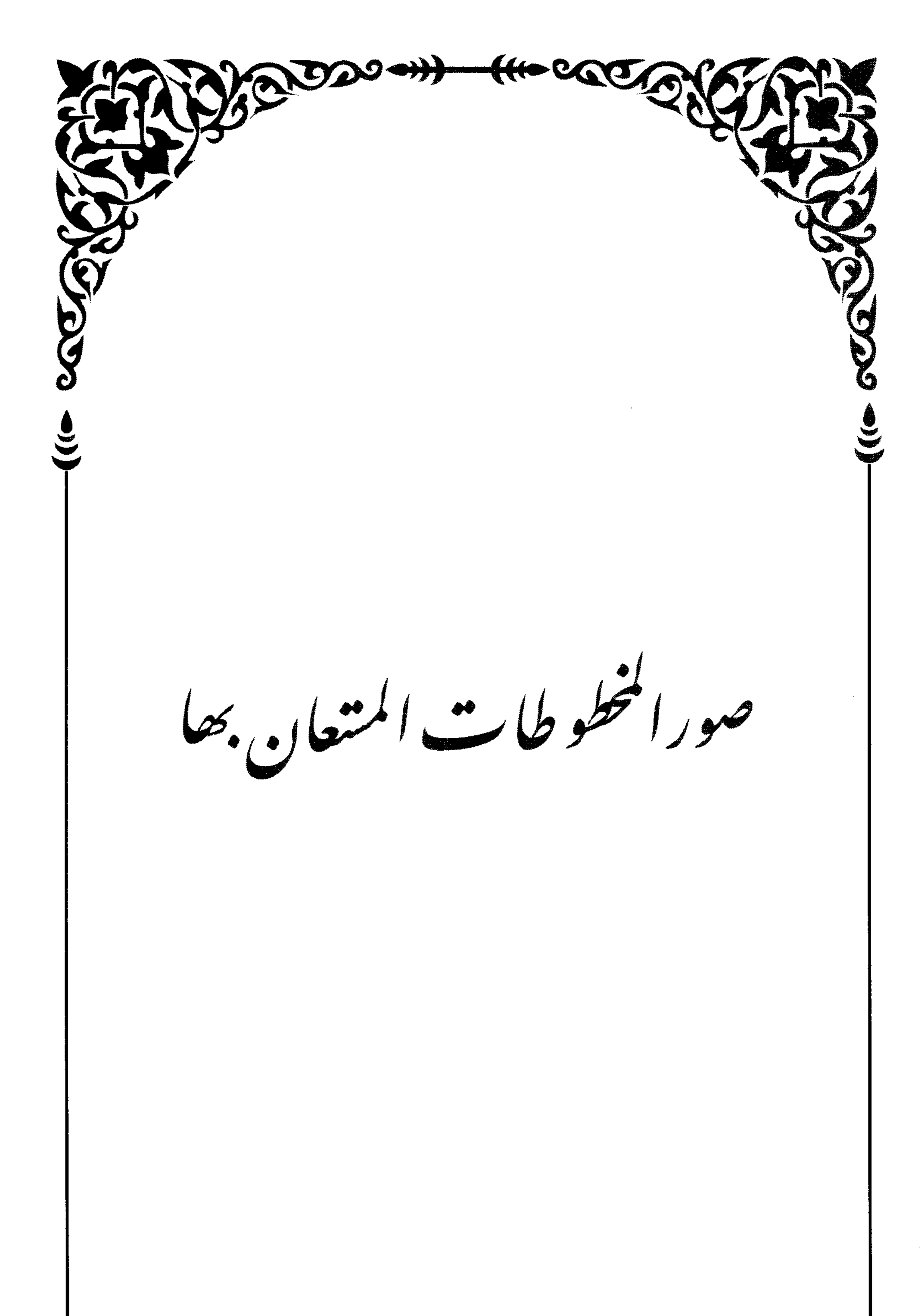
وفاته :

توفي ببغداد في الثاني من المحرم سنة ألف وثلاث مئة وسبع عشرة (١٣١٧هـ) .

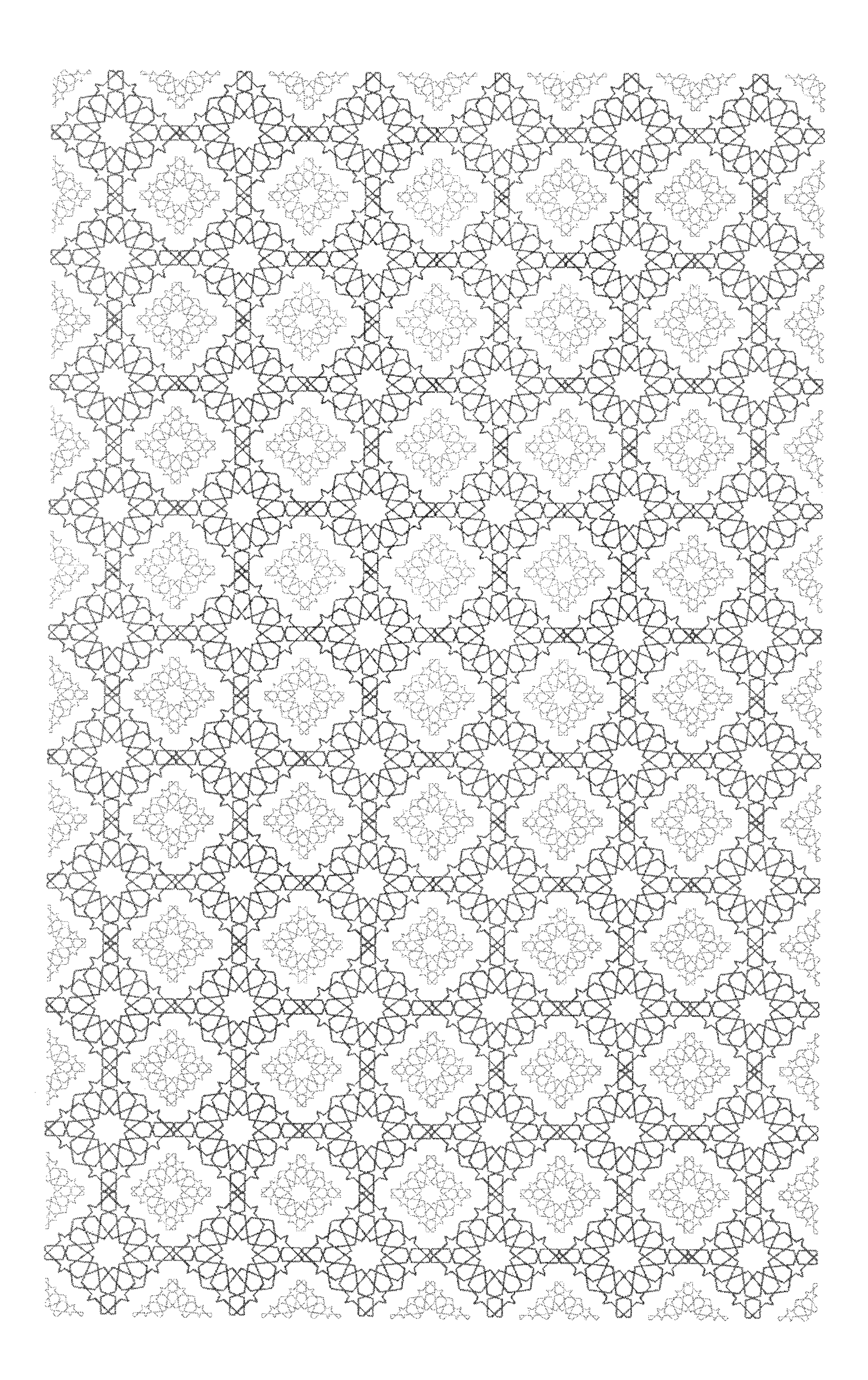
رحمه الله تعالى وعفا عنه .

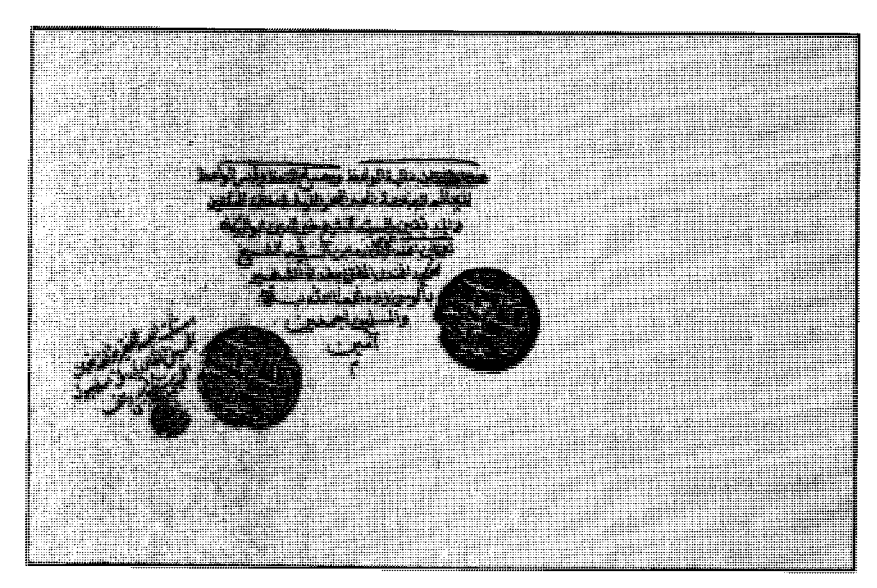
* * *





صور المخطوطات المستعان بها

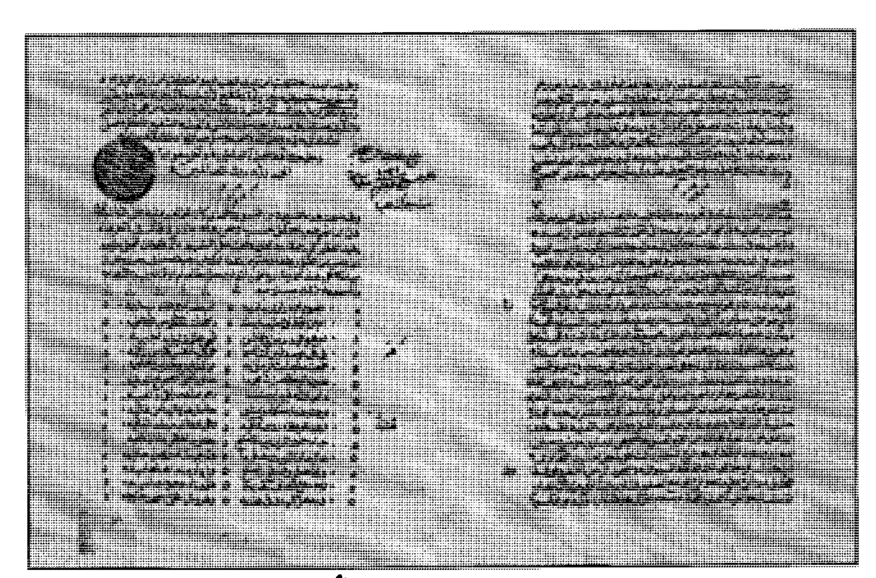




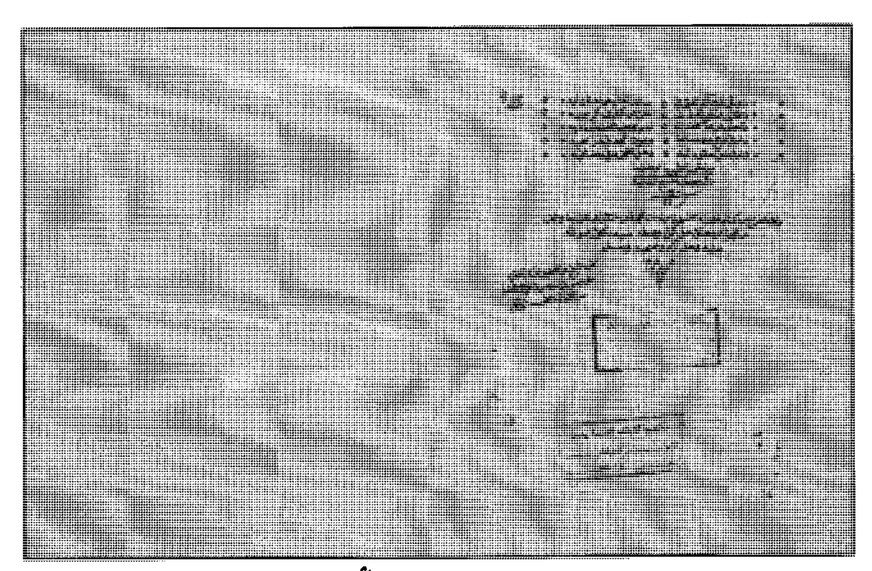
رموز ورقة العنوان



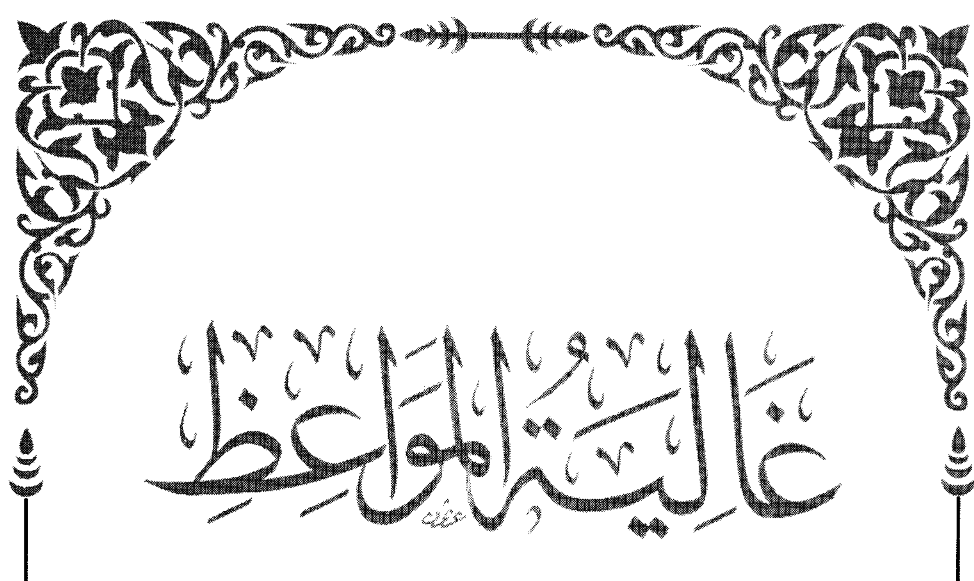
راموز الورقة الأولى



راموز الورقة قبل الأخيرة



راموز الورقة الأخيرة



غالية المواعظ

ومصباح المتعظ وقبس الواعظ

تأليف

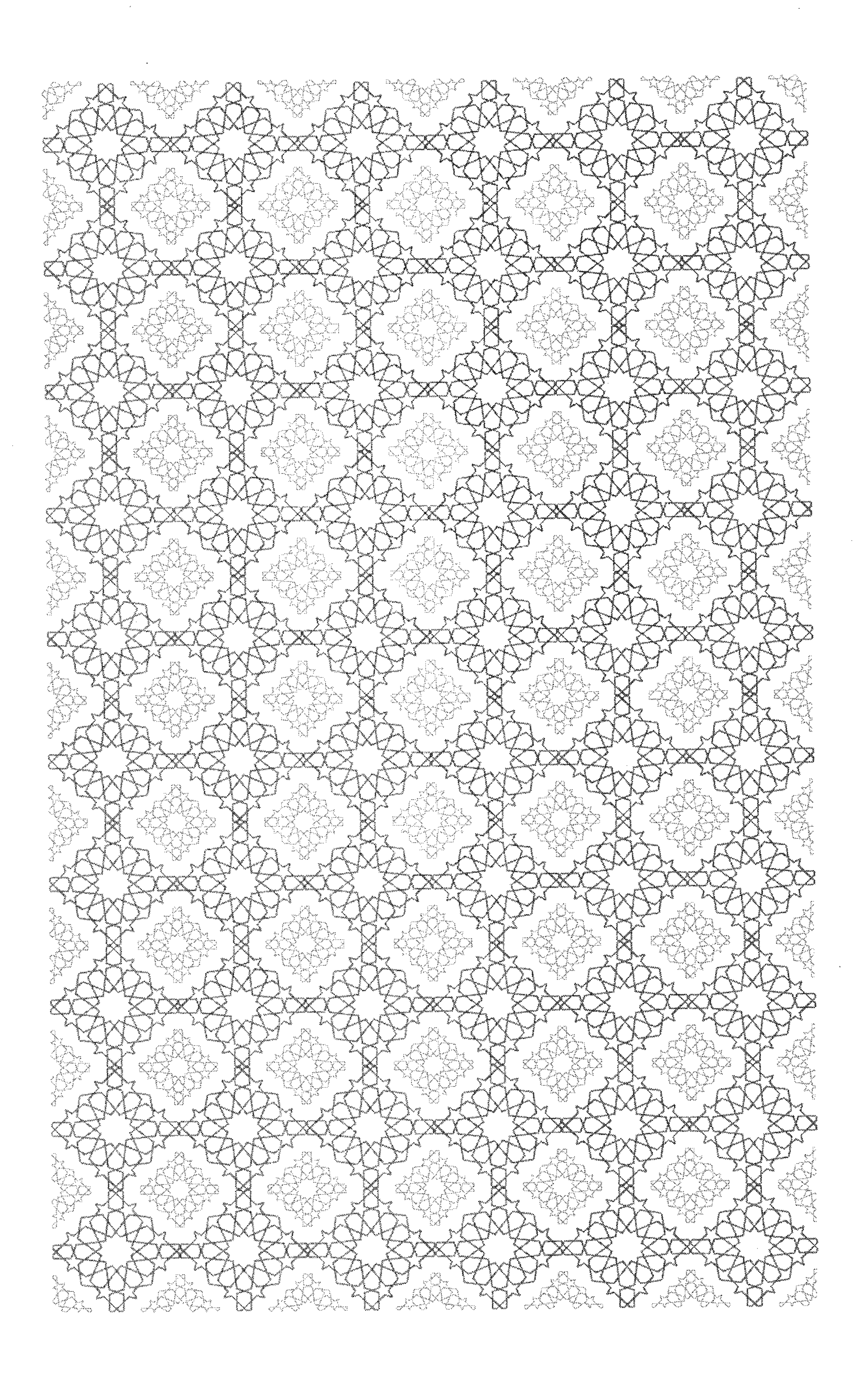
العالم العلامة السيد الشريف

خير الدين أبي البركات نعمان بن محمود الآلوسي

الحسيني البغدادي

رحمه الله تعالى

١٢٥٢ - ١٣١٧هـ



بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

[مقدمة المؤلف]

الحمدُ للهِ الَّذي أَحيا قلوبَ المؤْمنينَ بِتَبْصِرَتِه[١] ، وزجرَ الغافلينَ عن تذكرتِهِ بزواجرِ موعظته ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على البشيرِ النَّذير ، والنَّبيِّ السَّاطعِ هُداهُ كالصُّبحِ المستنير ، والرَّسولِ الَّذي غَدتْ مواعظهُ كيمياءَ السَّعادة[٢] ، وامتثالُ أَوامرِهِ والاجتنابُ عن مناهيهِ مُوصِلَينِ إِلى الحُسنىٰ والزِّيادة ، وعلىٰ آلهِ الحائزينَ مِنَ العِلمِ والعملِ أَوفرَ نصيب ، وأَصحابهِ الفائزينَ بنعْمَتَي التَّرغيبِ والتَّرهيب ، وعلىٰ مَنِ اقتفىٰ أَثرَهُم مِنْ علماءِ الأُمَّةِ الَّذينَ كَشَفوا بحُسْنِ توجُّهاتِهم وبديعِ تقريراتِهم عن قلوبِ المستمعينَ كلَّ غمَّة .

أَمَّا بعد :

فيقولُ أَسيرُ ذنوبهِ ، الغافلُ عن عيوبه ، المهملُ لنَفْسه ، الذَّاهلُ[٣] عن مُضيِّ أَمسِه ؛ نعمانُ ابنُ المرحومِ السَّيدِ محمودٍ أَفندي مفتي الحنفيَّةِ ببغداد ، الشَّهيرِ بآلوسي زادَه ، غفرَ ذنوبَهُما وسترَ عيوبَهُما المعيدُ المبدي :

إِنِّي لمَّا بُليتُ بالوعظِ للأَنامِ في مدينةِ السَّلام[٤] ، وتذكيرِ الخواصِّ وتعليمِ العوام ،

---

(١) **تبصرته** ؛ أي : تبصيره وتبيينه لمعالم الحلال والحرام على ألسنة رسله الكرام .
والتبصرة أيضاً بمعنى البصيرة ؛ وهي نورٌ يقذفه الله تعالىٰ في قلب من يُحب ؛ فيرىٰ به من الحقائق ما لا تراه العين الناظرة .

(٢) **الكيمياء** : ما يستعمل لتحويل بعض المعادن إلىٰ بعض ، ولا سيما إلى الذهب . والمراد بكون مواعظ الرسول صلى الله عليه وسلم كيمياء السعادة ؛ أي : كونها سبباً لنيل السعادة الدنيوية والأخروية ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم الرحمة المهداة والسراج المنير .

(٣) **الذاهل** : الغافل والناسي .

(٤) **مدينة السلام** : بغداد .

وأردتُ كتاباً ـ أَقرؤُه ـ مفيداً في هـٰذا الزَّمنِ للعموم ، وسِفراً تنقشعُ بهِ[1] عن قلوبِ الجاهلينَ واللاَّهينَ الغموم . . فلم أَجِدْ مؤَلَّفاً حاوياً لِلمسائلِ الفقهيَّةِ الدِّينيَّة ، والأَحاديثِ النَّبويَّة ، والقَصَصِ الصَّحيحةِ المرضيَّة ، والتَّرقيقاتِ الجوزيَّة ، اللاَّزم بيانُ جميعهِ في هـٰذا الزَّمن ، والواجبِ على العلماءِ قراءَتُهُ لمَنْ فَطَن ؛ إِذْ كلٌّ مِنَ المؤَلَّفاتِ في هـٰذا البابِ لَم يَجمَعْ هـٰذهِ الصِّفاتِ بأَسرِها فيما رأَينا مِنْ كتاب ، فأَحببتُ أَنْ أَجمعَ كتاباً متَّصفاً بهـٰذهِ الصِّفات ، فحرَّرتُ هـٰذهِ المجالسَ المهذَّبات ، فجاءَتْ كتاباً يحتوي ـ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ علىٰ ذلك ، ويُنيرُ لِلمستفيدينَ اللَّيلَ الحالك ، ويُسهِّلُ لَهم في معرفةِ ضروريّاتِ دِينِهمُ المسالك ، متتبِّعاً لِصحيحِ الرِّوايات ، متجنِّباً عن موضوعِ الحكايات ، مثبتاً لبعضِ أَقوالِ المذاهبِ الأَربعة ؛ ليدُلَّ ـ علىٰ ما ينبغي ـ طالِبَهُ وسامِعَهُ ، متوِّجاً كلَّ درسٍ منهُ بديباجةٍ مِنْ « تبصرةِ » العلاَّمة[2] ، الَّتي بَدَتْ لكلِّ واعظٍ إِمامَه ، وموشِّحاً بسجعٍ منها ختامَه ؛ لئَلاَّ تخلوَ هـٰذهِ الرِّياضُ عن تغريدِ حَمامه ، واللهَ تعالىٰ أَسأَلُ أَنْ يُعلِّمني ما لَم أَعلم ، وينفعني بما أَتعلَّم ، ويَجعلني ممَّنْ يتَّعظُ أَوَّلاً بمواعظِها ويَعملُ بفوائِدها ، وينزجرُ عن منهيَّاتِها ويمتثلُ لمرويَّاتِها ، وينالُ أَجرَ روايتِها وثوابَ تعليمِها ، وخيرَ جمعِها وتفهيمِها ، وأَنْ لا يجعلَني ممَّنْ أَمرَ النَّاسَ بالبرِّ ونسيَ نَفْسَه ، وأَنار القبورَ بمصباحِهِ وأظلم رمسه ، وأَبتهلُ إِليهِ سبحانَهُ أَنْ ينفعَ بها السَّامِعين ، ويكتبَ لي مثلَ أَجرِهم يومَ الدِّين ، ويَختمَ أَجلي بصالحِ الأَعمال ، ويَحفظني مِنْ كَيدِ الحسَّادِ والجهَّال ، ويتوفَّاني على الإِيمانِ الكامل ، ويَحشرني ووالديَّ معَ الأَبرار ، ويَرزقني كلَّ خيرٍ متواصلٍ في هـٰذهِ الدَّارِ وفي تلكَ الدَّار ، آمين .

ورتَّبتُهُ علىٰ أَحد وخمسينَ مجلساً ؛ ليَطيبَ الطالبُ بعبَقِهَا[3] نَفَساً ، وسمَّيتُه :

« غاليةَ المواعظِ ومصباحَ المتَّعظِ وقَبسَ الواعظ »

---

(١) تنقشع به : تزول وتذهب بسببه .

(٢) المراد بذلك : كتاب « التبصرة » للإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالىٰ .

(٣) العبَق : الرائحة الطيبة . وهل هنالك مجلسٌ أطيب رائحةً من مجلسٍ تتنزَّلُ عليه السكينة ، وتغشاه الرحمة ، وتحفُّه الملائكة ، ويذكره الله تعالىٰ في قدسه ؟!! .

هـٰذا ، وإِنِّي أَحمدُ اللهَ الوهَّابَ علىٰ أَنْ وفَّقني لجمعِ هـٰذا الكتاب ، في أَيّامِ خلافةِ ظلِّ اللهِ تعالىٰ على الأَنام ، وحامي سورِ الإِسلامِ عنِ الانثلام ، سلطانِ سلاطينِ العالَم ، وصاحبِ الرّأْفةِ والرَّحمةِ علىٰ كافَّةِ بني آدم ، مَنْ حَمدَتْ أَيّامَهُ المسلمون ، ونشرَ اللُّطفَ علىٰ كافَّةِ رعيَّتِهِ الَّذينَ هُم في ظلِّهِ الظَّليلِ قائلون ، والخاقانِ[1] الَّذي دلَّ النَّصُّ الجليُّ علىٰ خلافتهِ بالمنطوقِ والمفهوم ، وخصَّهُ اللهُ تعالىٰ بالشَّرفِ المحكمِ مِنْ بينِ هـٰذا العموم ، الخليفةِ الَّذي مَنْ يُفارقُ حِماه . . فهوَ مارق ، ومَنْ يَلزمُ إطاعتَه . . فهوَ في دِينهِ صادق ، المؤيَّدِ بتأْييدِ اللهِ المجيد ، ومَنْ أَوجبَ اللهُ تعالىٰ طاعتَهُ علىٰ كافَّةِ العبيد ، حضرةِ مولانا أَميرِ المؤمنينَ السُّلطانِ الغازي عبدِ الحميدِ خان ، ابنِ المبرورِ المرحومِ السُّلطانِ الغازي عبدِ المجيدِ خان ، لا زالَتْ أَعلامُ دولتهِ محفوفةً بالنَّصرِ مدى الزَّمان ، ودولتُهُ العليَّةُ محاطةً بالتَّأْييدِ ما دامَ الدَّوران ، ولا بَرِحَتْ أَقطارُ الأَرضِ مشرقةً بأَنوارِ معدلته ، وأَغصانُ الأَمنِ مورقةً بسحائبِ رأْفته ، ولا زالَتْ أَعتابُهُ السَّنيَّةُ ملجأً طوائفِ الأَنام ، وحِصناً حصيناً لِلخاصِّ والعام ، آمينَ آمين .

مَـنْ قَـالَ آمِيـنَ أَبْقَـى اللهُ مُهْجَتَـهُ ... فَـإِنَّ هَـٰذَا دُعَـاءٌ يَشْمَـلُ الْبَشَـرَا

ولِذا أَسرعَ قلمي بهـٰذهِ الأَبيات ، المخبرةِ عن بعضِ كريمِ الصِّفات ، والمفصحةِ بلازمِ الدَّعوات ، وهي :

بِمَـوْلاَنَـا أَمِيـرِ الْمُـؤْمِنِينَـا ... لَقَـدْ سُـرَّتْ قُلُـوبُ الْعَـالَمِينَـا
وَفِـي ظِـلِّ الإِلَـٰهِ هُـمُ أَقَـامُـوا ... وَظِـلُّ اللهِ يُـؤْوِي الْقَـائِلِينَـا
أَنَـامَ الْكُـلَّ فِـي ظِـلٍّ ظَلِيـلٍ ... فَكَـانَ لِجَمْعِهِـمْ كَهْفـاً أَمِينَـا
وَأَصْنَـافُ الـرَّعِيَّـةِ قَـدْ تَـرَاءَتْ ... بِـأَنْـوَاعِ الْمَعَـارِفِ عَـارِفِينَـا
مَلِيـكٌ لَيْـسَ يُشْبِهُـهُ مَلِيـكٌ ... فَـلاَ تَطْلُـبْ لَـهُ مَلِكـاً قَـرِينَـا
مَـلاَذُ الْخَلْـقِ فِـي الـدُّنْيَـا جَمِيعـاً ... وَسَيِّـدُنَـا إِمَـامُ الْمُسْلِمِينَـا
عِيَـاذُ النَّـاسِ سُلْطَـانُ الْبَـرَايَـا ... وَخَـاقَـانُ الْخَـلاَئِـقِ أَجْمَعِينَـا

---

(١) الخاقان : لقب لملوك الأتراك .

خَلِيفَــةَ رَبِّنَــا قَــدْ صَــارَ حَقّــاً   فَكَــانَ لِتَخْتِــهِ السَّــامِـي مُــزِينَــا
وَقَــدْ أَحْيَــا مَــآثِــرَ لَــنْ تُضَــاهَــىٰ   وَمَهَّـــدَ مُلْكَـــهُ لِلسَّـــاكِنِينَـــا
وَقَــدْ عَمَّـــتْ أَيَــادِيــهِ الْبَــرَايَــا   وَأَدَّبَ فِـــي الْفَـــلاَةِ الْمَـــارِقِينَــا
أَدَامَ اللهُ دَوْلَتَـــــــهُ عَلَيْنَــــــا   وَأَيَّـــدَنَـــا بِـــهِ دُنْيَـــا وَدِينَـــا
وَأَبْقَـــىٰ ذَاتَـــهُ الْعَلْيَـــاءَ فِينَـــا   وَأَعْطَـــانَـــا بِـــهِ فَتْحـــاً مُبِينَـــا
وَمَلَّكَـــهُ أَقَـــاصِـــي الأَرْضِ طُـــرّاً   شَمَـــائِلَهَـــا الْبَعِيـــدَةَ وَالْيَمِينَـــا
وَأَبْقَـــىٰ عَبْـــدَهُ الْمَـــوْلَـــىٰ حَمِيـــداً   حَمِيـــدَ الْعَيْـــشِ دَهْـــرَ الـــدَّاهِـــرِينَـــا
وَأَيَّـــدَ جُنْـــدَهُ الْبَـــارِي بِنَصْـــرٍ   وَفَتْـــحٍ كَـــائِـــنٍ حِينـــاً فَحِينَـــا

* * *

وقد آنَ الشُّروعُ في المقصود ، فأَقولُ مستمدّاً مِنْ فيضِ اللهِ تعالى الكريمِ ، وطالباً لِلفوزِ بجنّاتِ النَّعيم :

المجلسُ الأوَّلُ

في شهر رمضان المبارك ، وفرضية صومه ، وليقرأْ في آخر شعبان

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ خالقِ الخلقِ كلِّهم مِنْ تراب ، وفارقِ ما بينَهُم في المعاني والآداب ، رفعَ عن أَبصارِ بصائرِ الأَولياءِ الحجاب ، وأَشهدَهُم ما خفيَ عن غيرِهم وغاب ، فهُم علىٰ بابِ الدّلالةِ لِلخلْقِ على الباب ، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ ، وشَغلَ الجهّالَ الطَّغامَ[1] بالطَّعامِ والشَّراب ، فهُم في جَمْعِ الحطام بينَ المجيءِ والذَّهاب ، يَعمُرونَ بالهوىٰ أَجسامَهُم والقلوبُ في خراب ، وما ابيضَّ لَهُم عرضٌ حتَّى اسودَّ الكتاب ، فإذا عاينوا تفريطَهُم عندَ الموت.. بانَ المرتابُ ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ .

أَحمدُهُ علىٰ كلِّ ما عَرَضَ وناب ، وأُقرُّ بوحدانيَّتِهِ مِنْ غيرِ شكٍّ ولا ارتياب ، وأُصلِّي وأُسلِّمُ علىٰ رسولهِ محمَّدٍ الَّذي عُرجَ بهِ فكانَ قاب ، وعلىٰ أَبي بكرٍ السّابقِ إِلى الفضائلِ ولا سَبْقَ العِراب[2] ، وعلى العادلِ عمرَ بنِ الخطّاب ، وعلىٰ عثمانَ منفقِ الأَموالِ على الإِسلامِ مِنْ غيرِ حساب ، وعلى ابنِ عمِّهِ عليٍّ المُعدِّ لِكَشْفِ الكُرباتِ الصِّعاب ، وعلىٰ بقيَّةِ الصَّحابةِ والقرابةِ والتّابعينَ إِلىٰ يومِ الحشرِ والحساب ، **أمّا بعد** :

فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في مُحكمِ كتابهِ العزيز ، وكلامهِ البليغِ الوجيز : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا

---

(١) **الطَّغام** : أراذل الناس وأوغادهم .

(٢) **العِراب** : الإبل والخيل الأصيلة في عروبتها ؛ وهي من أفضل الإبل والخيل .

مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ صدق الله العظيم .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ، ومنهُ الهدايةُ إِلىٰ أَقومِ طريق ـ :

قالَ العلماء رحمهُمُ الله : الصَّومُ في اللُّغة : مُطلَقُ الإِمساك ، ومنهُ قولُه تعالىٰ ؛ حكايةً عن مريم عليها السلام : ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أَي : صَمتاً وسكوتاً عنِ الكلام .

ويقال : صامَتِ الرِّيح ؛ أَي : أَمسكَتْ عنِ الهبوب . وصامتِ الفرس ؛ أَي : أَمسكت عنِ العَدْوِ والرَّكض .

قالَ النّابغة :

خَيْـلٌ صِيَـامٌ وَخَيْـلٌ غَيْـرُ صَـائِمَـةٍ تَحْتَ الْعَجَاجِ وَأُخْرَىٰ تَعْلُكُ اللُّجُمَا

وقيل : صياماً ، لأَنَّهم كانوا لا يتكلَّمونَ في صيامِهِم .

وقد نهىٰ رسولُ اللهِ صلى الله تعالىٰ عليه وسلم عن صومِ الصَّمت ؛ لأَنَّهُ نُسخَ في أُمَّته .

وإِنَّما أَمرَها اللهُ تعالىٰ أَنْ تنذرَ الصَّوم ؛ لِئَلاَّ تشرعَ معَ البشرِ المتَّهِمينَ لَها في كلام ؛ لمعنيين :

أَحدهما : أَنَّ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ يَكفيها الكلامَ بما يُبرِّىءُ بِهِ ساحتَها مِنْ قوله : ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ إلخ .

والثّاني : كراهة مجادلةِ السُّفهاء ، وفيهِ إِشارةٌ إِلىٰ أَنَّ السُّكوتَ عنِ السَّفيهِ واجب ،

ولقد أَحسنَ مَنْ قال[1] :

إِذَا فَـاهَ السَّفِيـهُ بِسَـبِّ عِـرْضِـي كَـرِهْـتُ بِـأَنْ أَكُـونَ لَـهُ مُجِيبَـا
يَـزِيـدُ سَفَـاهَـةً وَأَزِيـدُ حِلْمـاً كَعُـودٍ زَادَهُ الإِحْـرَاقُ طِيبَـا

فتبيَّنَ أَنَّ الصَّومَ **لغة** : اَلإمساك .

وفي **الشَّرع** : إِمساكٌ مخصوص[2] ، مِنْ شخصٍ مخصوصٍ بشرطه[3] ، في زمنٍ مخصوصٍ بعَيْنه ؛ وهوَ اليوم .

وفي هـٰذهِ الآيةِ دلالةٌ ظاهرةٌ قطعيَّةٌ علىٰ وجوبِ صومِ رمضان ، وهوَ مِنَ الأُمورِ المعلومةِ مِنَ الدِّينِ بالضَّرورة ، ولذلكَ يَكفرُ جاحدُه ، بل قد ذُكرَ في « البزازيَّة »[4] أَنَّ مَنْ أَكلَ [في] شهر رمضانَ عِياناً متعمِّداً . . يُؤْمرُ بقتله ؛ لأَنَّ صنيعَهُ الفاحشَ دليلُ الاستحلال .

وهـٰهنا مسائلُ وفوائدُ نفيسة :

أُولاَها : فُرِضَ الصَّومُ في السَّنةِ الثَّانيةِ مِنَ الهجرةِ بالمدينة ، وفي الخطابِ بـ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إِشارةٌ إِلىٰ أَنَّهُ فُرِضَ فيها لا بمكَّة ؛ لأَنَّ الخطابَ بها[5] ـ علىٰ ما قيل ـ كانَ بـ : (يا أيها الناس) .

الفائِدةُ الثَّانية : اختلفَ العلماءُ في أَفضلِ العباداتِ البدنيَّة ، فقيل : الصَّومُ أَفضلُ أَعمالِ القرب ، وقيل : الحج ، وقيل : الطَّواف ، وبهِ قالَ جمع ، واستدلُّوا بقوله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « يُنْزِلُ اللهُ عَلَىٰ هَـٰذَا الْبَيْتِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عِشْرِينَ وَمِئَةَ

---

(١) وهو الإمام الشافعي رحمه الله تعالى الذي يقول أيضاً :

ـ إذا نطـق السفيـه فـلا تجبـهُ فخيـرٌ مـن إجـابتـه السكـوتُ
ـ فـإنْ كلمتَـهُ فـرَّجـتَ عنـهُ وإن خليتـهُ كمـداً يمـوتُ

(٢) أي : حقيقة أو حكماً ؛ كمن أكل ناسياً .

(٣) وهو : كونه مسلماً طاهراً عن حيض ونفاس مع النية ، وعلم بكون الوقت قابلاً للصوم .

(٤) كتابٌ في الفتاوىٰ لابن البزّاز الحنفي رحمه الله تعالىٰ .

(٥) يعني : بمكة .

رَحْمَة ، فَسِتُّونَ لِلطَّائِفِين ، وَأَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّين ، وَعِشْرُونَ لِلنَّاظِرِين » .

قالَ الماوردي : فجعلَ لِلطّائفِ أَكثرَ مِنَ المصلّي ، فدلَّ علىٰ أَنَّ الطَّوافَ أفضل .

وقيل : الجهادُ أَفضل ، وقيل : الصَّلاةُ بمكَّةَ أفضلُ والصَّومُ بالمدينةِ أفضل ؛ نظراً إلىٰ محلِّ فرْضيَّتهما .

وقيل : الدُّعاءُ أفضل ، وبهِ صرَّحَ الغزاليُّ في أَوّلِ كتابهِ « وسائل الحاجات » .

والصَّحيح ـ كما قالَ السَّفيري ـ الَّذي قالَهُ جمهورُ العلماء : أنَّ الصَّلاةَ أفضلُ عباداتِ البدن ؛ بدلائل :

منها : أَنَّ اللهَ تعالىٰ سمّاها إيماناً في قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ أَي : صَلاتَكُم لبيتِ المقدس .

ومنها : ما وردَ في « الصَّحيحين » مِنْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : سأَلتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : أَيُّ الأَعمالِ أَحبُّ إلى اللهِ تعالىٰ ـ وفي رواية : أَفضل ـ ؟ قال : « الصَّلاةُ لِوَقْتِهَا » .

ومنها : ما رواهُ عبدُ اللهِ بنُ عمرو [رضي الله عنه] : أَنَّ رجلاً أَتىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فسأَلَهُ عن أَفضلِ الأعمال ، فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الصَّلاة » قال : ثمَّ مَه ؟ قال : « ثُمَّ الصَّلاَة » قال : ثمَّ مَه ؟ قال : « ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله » .

ومنها : ما رواهُ عبدُ اللهِ بنُ قُرط رضيَ اللهُ تعالىٰ عَنْه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلاَة ، فَإِنْ صَلَحَت . صَلَحَ سَائِرُ عَمَلِه ، وَإِنْ فَسَدَت . فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِه » .

وَأَيضاً : إِنَّما فُضِّلتِ الصَّلاةُ ؛ لأَنَّها تجمعُ مِنَ القُرَبِ ما تفرَّقَ في غيرِها ؛ مِنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وذِكرِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، والقراءة ، والتَّسبيح ، والاستقبال ، والطَّهارة ، والسِّتارة ، وتركِ الأَكلِ والشُّربِ والكلام ، فما حَوتْهُ مِنْ مقاصدِ التَّكليف . . لا تجتمعُ في عبادةٍ غيرِها ؛ فإِنَّ باطنَها : الحضورُ بينَ يدي اللهِ

تعالىٰ وذلكَ مقصودُ التّكاليف ، وظاهرَها : شغلُ جميعِ الجوارحِ بالطّاعاتِ ومنعُها مِنَ المعصيات ، ولهـٰذا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ : اَلنِّسَاء ، وَالطِّيب ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَة » .

وليُعلَمْ أَنَّهُ ليسَ المراد ـ كما قالَ الإمامُ النَّوويّ ـ مِنْ قولِهم : (الصَّلاةُ أفضل) ـ : أَنَّ صلاةَ رَكعتينِ أَفضلُ مِنْ صيامِ يومٍ أَو يومين ؛ فإِنَّ صومَ يوم أَفضلُ مِنْ رَكعتين ، وإِنَّما معناه : أَنَّ مَنْ أَمكنَهُ الاستكثارُ مِنَ الصَّومِ والصَّلاة ، فأَرادَ أَنْ يَستكثرَ مِنْ أَحدِهما ويقتصرَ عنِ الآخَر . . فليستكثِرْ مِنَ الصَّلاة ، فهـٰذا محلُّ الخلاف .

واعلَمْ أَنَّهُ إِنَّما قُلنا سابقاً : (إِنَّ الصَّلاةَ أَفضلُ عباداتِ البدن) ؛ لإِخراجِ عباداتِ القلب ، كالإِيمانِ والمعرفةِ والتَّوكُّلِ ونحوِها ، فإِنَّها أَفضلُ مِنَ العباداتِ البدنيَّة ، وأَفضلُها الإِيمان ، ولإِخراجِ العباداتِ الماليَّةِ كالزَّكاةِ وشبهِها ؛ فإِنَّها أَفضلُ مِنَ العباداتِ البدنيَّةِ أَيضاً ؛ لِتعدِّي النَّفع بها علىٰ ما قالَهُ أَبو علي ، ونازعَهُ الشَّيخُ عزُّ الدِّينِ بما قالَهُ الشَّافعيُّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : إِنَّ الصَّلاةَ أَعظمُ مِنَ الزَّكاة .

والحاصل : أَنَّ أَفضلَ العباداتِ البدنيَّة : اَلصَّلاة ، ثمَّ الصَّوم . وأَفضلُ الصَّوم : صومُ رمضان . وكم وكم لَه مِنْ فضائلَ جليلة ، ومناقبَ جسيمة!!! فقد قال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً . . غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه » رواهُ أَبو هريرة رضي الله عنه .

وفي « البخاري » عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « اَلصِّيَامُ جُنَّة ، فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَل ، وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَه . . فَلْيَقُل : إِنِّي صَائِم ـ مَرَّتَيْن ـ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه : لَخُلُوفُ[1] فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ تعالىٰ مِنْ رِيحِ الْمِسْك ، يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي ، اَلصِّيَامُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِه ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا » .

وعنهُ عن أَنسٍ رضي الله عنه قَال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِتَارِكٍ أَحَداً مِنَ الْمُسْلِمِينَ صَبِيحَةَ أَوَّلِ يَوْمٍ من رَمَضَانَ إِلاَّ غَفَرَ لَه » .

---

(١) **الخُلوف ـ بضم الخاء ـ** : تغير ريح الفم .

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال : « مَنْ صَامَ يَوْماً مِنْ شَهْرِ رَمَضَان . . خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّه ، فَإِذَا انْسَلَخَ عَنْهُ الشَّهْرُ وَهُوَ حَي . . لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ إِلَى الْحَوْل » رواهُ في « الدُّرر واللآليء » .

وفي « الصَّحيحين » : « إِذَا دَخَلَ رَمَضَان . . فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الرَّحْمَة ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّم ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِين » .

وفي فضلِ الصِّيامِ مطلَقاً أحاديثُ كثيرة ، نذكرُ بعضَها إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ في محلِّها .

الفائِدةُ الثَّالثة : يُستحبُّ لمَنْ رأىٰ هلالَ رمضانَ أو غيرِهِ أنْ يُكبِّر ، وأنْ يقول : اللَّهُمَّ أهلَّهُ علينا باليُمنِ والإيمانِ والسَّلامةِ والإسلام ، ربِّي وربُّكَ الله . فقد روى التِّرمذيُّ عن طلحةَ بنِ عبيدِ الله رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه ، عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، أنَّهُ كانَ إذا رأى الهلالَ يقول : « اللّهم ؛ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالْيُمْنِ وَالإِيمَان ، وَالسَّلاَمَةِ وَالإِسْلاَم ، رَبِّي وَرَبُّكَ الله » .

ونقلَ السَّفيريُّ عن « نزهةِ المجالس » أنَّ أميرَ المؤمنينَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وَجهَهُ روىٰ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أنَّهُ قال : « إِذَا رَأَيْتَ الْهِلاَلَ أَوِ الشَّهْر . . فَقُل : اللهُ أَكْبَر ، ثَلاَثاً ، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَنِي وَخَلَقَك ، وَقَدَّرَ لَكَ مَنَازِلَ وَجَعَلَكَ آيَةً لِلْعَالَمِين ؛ يُبَاهِي اللهُ بِكَ الْمَلاَئِكَة ، وَيَقُول : يَا مَلاَئِكَتِي ؛ اشْهَدُوا أَنِّي قَدْ أَعْتَقْتُ هَـٰذَا الْعَبْدَ مِنَ النَّار » .

ورُوِّينا في « مسندِ أحمد » أنَّهُ كانَ يقول : « اللهُ أَكْبَر ، الْحَمْدُ لله ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله ، اللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَـٰذَا الشَّهْر ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ الْقَدَرِ وَمِنْ سُوءِ الْحَشْر » .

قالَ السُّبكي : ويُستحبُّ أنْ يَقرأَ سورة (تَبارَك) ؛ لأمرٍ وردَ في ذلك ، ولأنَّها المنجية ، قال : والحكمةُ في قراءَتِها أنَّها ثلاثونَ آيةً بعددِ أيَّام الشَّهر ؛ أي : فلعلَّهُ يُنجي اللهُ العبدَ بقراءَتِها عندَ رؤْيةِ الهلال ، ويَحفظُهُ جميعَ أيَّامِ الشَّهرِ ببركةِ كلِّ آيةٍ منها .

بل قالَ العلماء : يُستحبُّ قراءَتُها كلَّ ليلة ؛ لأَنَّها تُنجي مِنْ عذابِ القبر ، كما وردَ في ذلكَ أَخبارٌ وآثار ، منها : ما أَخرجَهُ عبدُ الرَّحمـٰنِ في « مسنده » عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما أَنَّهُ قالَ لرجل : أَلاَ أُتحفُكَ بحديثٍ تَفرحُ به ؟ قال : بلىٰ يا أبا عباس رحمك الله! قال : اقرأ (تبارك الذي بيده الملك) ، وعلِّمها أَهلَكَ وجميعَ ولدِكَ وصبيانِ بيتكَ وجيرانك ؛ فإِنَّها المنجيةُ والمجادلة ، تجادل وتُخاصم يومَ القيامةِ عندَ رَبِّها لِقارئِها ، وتطلبُ لَهُ أَنْ يُنجيَهُ مِنْ عذابِ النَّار .

وأَخرجَ خلفُ بنُ هشامٍ في « فضائلِ القرآن » عنِ ابنِ مسعود رضي الله عنه قال : سورةُ الملكِ هيَ المانعة ، تمنعُ مِنْ عذابِ القبر ، يُؤْتَىٰ صاحبُها في قبرِهِ مِنْ قِبلِ رأْسهِ فيقولُ رأْسُه : لا سبيلَ لكَ علي ؛ إِنَّهُ وعىٰ بي سورة (المُلك) ، ثمَّ يُؤْتىٰ مِنْ قِبلِ رِجليهِ فتقولُ رِجلاه : ليسَ لكَ عليَّ سبيل ؛ إِنَّهُ كانَ يقومُ عليَّ في سورة (المُلك) .

وهي إِحدى الأَشياءِ الَّتي تُنجي مِنْ عذابِ القبر ، فقد ذكرَ العلماء رحمهمُ اللهُ تعالىٰ أَشياءَ تُنجي مِنْ عذابِ القبر :

منها : الموتُ يومَ الجمعةِ أَو ليلتَها ، أَخرجَ أَبو يَعلىٰ عن أَنس رضي الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ مَاتَ يَوْمَ الْجُمُعَة . . وُقِيَ عَذَابَ الْقَبْر » ومعنىٰ : وُقِيَ عذابَ القبر ؛ أَي : المترتِّبَ على السُّؤَال ، وأَمَّا السُّؤَال . . فلا بدَّ منهُ لكلِّ أَحدٍ ما عدا الأَنبياء على الصَّحيح ـ لأَنَّهُ قيل : إِنَّ الأَنبياءَ أَيضاً يُسأَلون ـ وكذا الصِّبيانُ لا يُسأَلونَ على الصَّحيح ؛ بدليلِ أَنَّهُم قالوا : الصَّبيُّ لا يُسنُّ تلقينُهُ ولو مميِّزاً .

ومنها : الموتُ في رمضان ، وكذا لو ماتَ في غيرِ رمضانَ فإِنَّهُ يُرفعُ عنهُ العذابُ ؛ لشَرفِ رمضان ، بل عمَّمَ النَّسفيُّ في « بحرِ الكلام » فقال : إِنَّ الكافرَ يُرفَعُ عنهُ العذابُ يومَ الجمعةِ وليلتَها وجميعَ شهرِ رمضانَ كما يُرفَعُ عنِ المسلمِ العاصي .

وسنذكرُ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ بقيَّةَ مَنْ ينجو مِنْ عذابِ القبرِ في محلِّه .

الفائِدةُ الرَّابعة : قالَ الشَّيخُ شمسُ الدِّينِ محمَّدٌ السَّفيريّ : لمَّا كانَ شهرُ رمضانَ

شهراً مبارَكاً جليلاً . . شُرعتِ التَّهنئةُ فيه ، فيُهنِّىءُ الإنسانُ بقدومهِ إخوانَهُ المسلمين ؛ بأَنْ يقولَ لمَنْ رآهُ منهُم : جعلَ اللهُ تعالىٰ هـٰذا الشَّهرَ مبارَكاً علينا وعليكُم ، أَو : أَبشِرْ بشهرٍ مبارَكٍ علينا وعليكُم . فقد أَفادَ ابنُ رجبٍ وغيرُه : (أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم كانَ يُبشِّرُ أَصحابَهُ بقدومِ شهرِ رمضان) .

وقد صنَّفَ العلاَّمةُ السُّيوطيُّ كتاباً ذَكرَ فيهِ : أَنَّهُ يُهنَّأُ الإنسانُ بالفضائلِ العليَّة ، ويُهنّأُ بالعافيةِ مِنْ مرض ، ويُهنَّأُ بتمامِ الحج ، ويُهنّأُ بقدومهِ مِنَ الحج ، ويُهنّأُ بعقدِ النِّكاح ، ويُهنَّأُ بمولودِ ولده ، ويُهنَّأُ بشهرِ رمضانَ وغيرِ ذلك[١] ، والتَّهنئةُ في كلِّ واحدٍ مِن هـٰؤلاءِ بما يَليقُ لَه[٢] .

وللهِ درُّ القائل :

قَـدْ جَـاءَ شَهْـرُ الصَّـوْمِ فِيـهِ الأَمَـانْ ... وَالْعِتْـقُ وَالْفَـوْزُ بِسُكْنَـى الْجِنَـانْ

شَهْـرٌ شَـرِيـفٌ فِيـهِ نَيْـلُ الْمُنَـىٰ ... وَهْـوَ طِـرَازٌ فَـوْقَ كُـمِّ الـزَّمَـانْ

طُـوبَـىٰ لِمَـنْ قَـدْ صَـامَـهُ وَاتَّقَـىٰ ... مَـوْلاَهُ فِـي الْفِعْـلِ وَنُطْـقِ اللِّسَـانْ

وَيَـا هَنَـا مَـنْ قَـامَ فِـي لَيْلِـهِ ... وَدَمْعُـهُ فِـي الْخَـدِّ يَحْكِـي الْجُمَـانْ

ذَاكَ الَّـذِي قَـدْ خَصَّـهُ رَبُّـهُ ... بِجَنَّـةِ الْخُلْـدِ وَحُـورٍ حِسَـانْ

هَنَّـاكُـمُ اللهُ بِشَهْـرٍ أَتَـىٰ ... فِـي مَـدْحِـهِ الْقُـرْآنُ نَـصٌّ عِيَـانْ

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « مَا مِنْ يَوْمٍ إِلاَّ وَمَلَكٌ يَهْتِفُ فِي الْمَقَابِر ، فَيُنَادِي : يَا أَهْلَ الْقُبُورِ ؛ مَنْ تَحْسُدُونَ الْيَوْم ؟ فَيُجِيبُونَه : نَحْسُدُ أَهْلَ الْمَسَاجِدِ فِي مَسَاجِدِهِم ، يُصَلُّونَ وَلاَ نَقْدِرُ أَنْ نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ وَلاَ نَقْدِرُ أَنْ نَصُوم ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلاَ نَقْدِرُ أَنْ نَتَصَدَّق ، وَيَذْكُرُونَ وَلاَ نَقْدِرُ أَنْ نَذْكُر ، فَيَنْدَمُونَ عَلَىٰ مَا مَضَىٰ مِنْ زَمَانِهِم حَيْثُ لاَ يَنْفَعُ النَّدَم » .

الفائِدةُ الخامسة : لرمضانَ أَسماءٌ كثيرةٌ تزيدُ على السِّتين ، ذكرَها أَبو الخيرِ

---

(١) انظر رسالته التي سماها « وصول الأماني بأصول التهاني » ضمن كتابه « الحاوي للفتاوي » (٧٩/١) .

(٢) لـكن ذكروا : أنه لا تجوز التهنئة بالحرام كالمناصب المحرمة فلا تغفل .

الطَّالَقاني ، منها : شهرُ الله ، وشهرُ الأُمَّة ، وشهرُ القُرآن ، وشهرُ القيام ، وشهرُ النَّجاةِ وغيرُ ذلك .

واختلفوا في سببِ تسميةِ رمضان ، فقيل : إنَّهُ مأْخوذٌ مِنَ الرَّمض ، وهوَ شدَّةُ الحرِّ ؛ لأَنَّ العربَ لمَّا أَرادت أَنْ تضعَ أَسماءَ الشُّهور . . وافقَ أَنَّ الشَّهرَ المذكورَ في شدَّةِ الحر ، كما سُمِّيَ الرَّبيعانِ لموافقتِهما زمنَ الرَّبيع .

وقيل : سُمِّيَ بذلك ؛ لأَنَّهُ يرمضُ الذُّنوب ؛ أَي : يَحرقُها .

الفائِدةُ السَّادسة : قالَ الوالد عليهِ الرَّحمة : منعَ بعضُهم أَنْ يُقالَ رمضان ، بدونِ شهر ؛ لِمَا أَخرجَهُ ابنُ أَبي حاتمٍ وأَبو الشَّيخ ، عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه مرفوعاً : « لاَ تَقُولُوا رَمَضَان ؛ فَإِنَّ رَمَضَانَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَلَـٰكِنْ قُولُوا : شَهْرُ رَمَضَان » وإِلىٰ ذلكَ ذهبَ مجاهِد ، والصَّحيح : الَجواز ؛ فقد رويَ ذلكَ في الصَّحيح ، والاحتياطُ لا يَخفىٰ . اهـ كلامُه .

وقالَ بعضُهم في ذلك :

وَلاَ تُضِـفْ شَهْـراً لِلَفْـظِ شَهْـرِ ... إلاَّ الَّـذِي أَوَّلُـهُ الـرَّا فَـادْرِ
وَاسْتَثْـنِ مِـنْ ذَا رَجَبـاً فَيَمْتَنِـعْ ... لأَنَّـهُ فِيمَـا رَوَوْهُ مَـا سُمِـعْ

الَفائِدةُ السَّابعة : يجبُ صومُ شهرِ رمضانَ بأَحدِ أَمرين : إِمَّا بإِكمالِ شعبانَ ثلاثينَ يوماً ، وإِمَّا برؤْيةِ الهلالِ ليلةَ الثَّلاثينَ مِنْ شعبان ؛ لمَا وردَ في « صحيحِ البخاري » عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفطِرُوا لِرُؤْيَته ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُم . . فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلاَثِين » ومعنىٰ « غم » : اِستترَ عليكُم ؛ بأَنْ حالَ بينكُم وبينهُ غيم .

وفي بعضِ كتبِ أَئمَّتنا الحنفيَّة : أَنَّهُ لا بأْسَ بالاعتمادِ علىٰ قولِ المنجِّمين .

وعن محمَّدِ بنِ مقاتل : أَنَّهُ كانَ يَسأَلُهم ويعتمدُ علىٰ قولِهم بعدَ أَنْ يتَّفقَ علىٰ ذلكَ جماعةٌ منهُم ، وردَّهُ الإِمامُ السَّرخسيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ بقولهِ عليهِ الصلاة والسلام : « مَنْ صَدَّقَ كَاهِناً أَوْ مُنَجِّماً . . فَقَدْ كفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّد » .

وصومُ يومِ الشَّكِّ لا يَحرمُ عندَ الحنفيَّةِ والمالكيَّة ، خلافاً للشَّافعيَّة ، وأَمَّا قولُه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ صَامَ يَوْمَ الشَّك . . فَقَدْ عَصَىٰ أَبَا الْقَاسِم » كما رواهُ أَصحابُ السُّنن . . فهوَ حديثٌ موقوف ، وسيأْتي تفصيلُ هـٰذهِ المسأَلة ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ في المجلسِ المشتملِ علىٰ فضائلِ شعبانَ وليلةِ البراءة ، فراجعهُ فإِنَّهُ مفيد .

قيل : والسَّببُ في الكراهية أَنَّ فيهِ تشبُّهاً بأَهلِ الكتاب ؛ لأَنَّهُم زادوا في مدَّةِ الصَّوم ، وليتقوَّىٰ على العبادةِ بفطرِ يومٍ أَو يومينِ قَبْلَ رمضان ، وفي الحديث : « اَلطَّاعِمُ الشَّاكِرُ كَالصَّائِمِ الصَّابِر » .

وقد وردت أَخبارٌ كثيرةٌ وأَحاديثُ وفيرةٌ نذكرُ بعضَها ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ في عقابِ مَنْ أَفطرَ شهرَ رمضانَ مقرّاً به ، وأَمَّا إذا أَنكرَه . . فهوَ كافرٌ بالإجماع ، منها : ما رويَ في « نزهةِ الأَبصار » عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « سَمِعْتُ جِبْرِيلَ يَقُول : يُؤْتَىٰ بِشَابٍّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَاكِياً حَزِيناً ، وَالْمَلاَئِكَةُ تَسُوقُهُ بِمَقَامِعَ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ نَار ، وَهُوَ يَقُول : الأَمَانَ الأَمَان أَلْفَ سَنَةٍ وَلاَ أَمَانَ لَه ، ثُمَّ يُسَاقُ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَىٰ ، فَيَأْمُرُ اللهُ تَعَالَىٰ مَلاَئِكَةَ الْعَذَابِ تَسْحَبُهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ إِلَى النَّار ، قُلْت : يَا جِبْرِيل ؛ مَنْ هُو ؟ قَال : شَابٌّ مِنْ أُمَّتِك ، قُلْت : وَمَا ذَنْبُه ؟ قَال : أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَعَصَى اللهَ تَعَالَىٰ فِيهِ وَلَمْ يَتُب ، وَلَمْ يَسْتَغْفِرِ اللهَ تَعَالَىٰ كَي يَغْفِرَ لَه ، فَأَخَذَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَغْتَة » .

فعليكُم ـ عبادَ اللهِ تعالىٰ ـ بإخلاصِ الصِّيام والصَّلاةِ والنَّاسُ نيام ، فأَينَ مَنْ كانَ معنا في رمضانَ الماضي ؟! أَما أَتتْهُ آفاتُ المَنونِ القواضي ؟! واسمعوا ما قالَهُ سبحانَهُ في آياته العالية : ﴿ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ .

إِخواني ؛ توبوا مِنَ المعاصي ، واستعدُّوا ليوم يُؤْخَذُ بالنَّواصِي ، واقتدوا بالسَّلفِ لمَّا تلمَّحوا الطِّباعَ إلى الدُّنيا صابية[1] . . رفضوها عن عزيمةٍ آبية ، وثَنوا قلوبَهُم إلى الدَّارِ الثَّانية ، ورأَوها بعينِ اليقينِ دانية ، فآثروها على الحقيرةِ الفانية ، يَطلبونَ العيشةَ

---

(١) صابية : مائلة .

الهانية ، هِمَمُهم ليست متوانية ، تنهضُ نهوضَ السِّباعِ الضَّارية ، ساريةً عن عاداتِها منتصبةً في عباداتِها كالسَّارية[١] ، كانوا يقومونَ واللَّيالي داجية قيامَ نفسٍ خائفةٍ راجية ، يَسهرونَ طولَ اللَّيالي الشَّاتية ، يَستعدُّونَ لِلصَّيحةِ الآتية ، عيونُهم مِنَ البكاءِ عاشية[٢] ، والقلوبُ منزعجةٌ خاشية ، وأَسرارُ القومِ بالدَّمعِ واشية[٣] ، فلهـٰذا غَدوا في الحاشية ، يُصبحونَ والنُّفوسُ عطشىٰ صارية ، يَرضونَ بالخلقانِ[٤] والأَجسامُ بادية ، أَسماع . . لِما يَنفعُها واعية ، قلوب . . لِما يُصلِحُها راعية ، أَقدام . . إلىٰ أَرباحِها ساعية ، أَلسنة . . طولَ الزَّمانِ داعية ، بطون . . مِنَ الطَّعامِ خاوية ، غصونٌ . . مِنَ الإعدامِ ذاوية ، أَبدان . . مِنَ الجوعِ ضاوية[٥] ، تبيتُ اللَّيالي لِفقرِها طاوية[٦] ، اِقتنعوا مِنَ الدُّنيا بزاوية ، وتركوا الهوىٰ خوفَ الهُويِّ فهُم في عافية[٧] ، صاروا بالمجاعةِ كالشِّنانِ البالية[٨] ، آهِ لهمَمِهِم! إنَّها عالية ، آهِ لمطلوباتِهِم! إنَّها غالية ، واهٍ لِطيْبِهِم زادَ على الغالية[٩] ، فلو سمعتَ مناديَ الجزاءِ في الدَّارِ الباقية : ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ .

وفَّقنا اللهُ تعالىٰ وإِيَّاكُم لمراضيه ، وجَعلَ مستقبلَ حالِنا وحالِكُم خيراً مِنْ ماضيه ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وآلهِ وسلَّم .

* * *

---

(١) **السارية** : العمود .

(٢) **عاشية** : لا تبصر .

(٣) أي : أن دموعهم تنمُّ عما في قلوبهم .

(٤) **الخلقان** : الثياب البالية .

(٥) **ضاوية** : هزيلة ، نحيفة .

(٦) **طاوية** : لم تتناول طعاماً ، بلا تقييد بالجوع عُرفاً .

(٧) **يعني** : تركوا الشهوات خوف السقوط في المعاصي المؤدية إلىٰ نار الجحيم .

(٨) **الشنان البالية** : القِرب الخلق .

(٩) **الغالية** : أولاً عكس رخيصة ؛ وثانياً : أنواعٌ مجموعة من الطِّيب النفيس ، وهي المرادة هنا .

المجلسُ الثَّاني
فيما يتعلق بالصيام أيضاً

بِسمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

اَلحمدُ للهِ خالقِ الدُّجىٰ والصَّباح ، ومسبِّبِ الهدىٰ والصَّلاح ، ومقدِّرِ الغمومِ والأَفراح ، اَلجائِدِ بالفضلِ الزَّائِدِ والسَّماح ، مالكِ الملكِ والمنجي مِنَ الهُلْك ومسيِّرِ الفَلَكِ والفُلْكِ[1] مَسِيرَ النَّجاح ، عزَّ فارتفع ، وفرَّقَ وجَمعَ ووصلَ وقَطَع ، وحَرَّمَ وأَباح ، ملكَ وقَدَر وطوىٰ ، ونشَرَ وخلقَ البشر ، وفطرَ الأَشباح ، رفعَ السَّماءَ وأَنزلَ الماء ، وعلَّمَ آدمَ الأَسماء ، وذَرأَ الرِّياح ، أَعطىٰ ومنح ، وأَنعمَ ومدح ، وداوى الجِراح ، عَلِمَ ما كانَ وما يكون ، وخلقَ الحركةَ والسُّكون ، وإِليهِ الرُّجوعُ والرُّكونُ في الغدوِّ والرَّواح ، يتصرَّفُ في الطُّولِ والعرض ، وينصبُ ميزانَ العدلِ يومَ العرض ، ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ .

وأُصلي وأُسلِّمُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ رسولهِ المكرَّم، وحبيبهِ المعظَّم ، تفديهِ الأَرواح، وعلىٰ رفيقهِ أَبي بكرٍ في الغار ، وعلىٰ عمرَ مُبيدِ الكفَّار ، وعلىٰ عثمانَ شهيدِ الدَّار ، وعلىٰ عليٍّ الَّذي يفتِكُ رعبُهُ قَبْلَ السِّلاح ، وعلىٰ بقيَّةِ القَرابةِ والتَّابعينَ أَهلِ الصَّلاح .

أَمَّا بعد :

فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في كتابهِ العزيز ، وكلامهِ البليغِ الوجيز : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ . . . ﴾ وما بعدها . الآياتِ المتقدِّمةَ في الدَّرسِ الماضي ، فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ، وبيدهِ أَزمَّةُ[2] التَّحقيق ـ :

---

(١) **الفُلْك** : السُّفن ؛ يطلق على المفرد والجمع . **والفَلَك** : مدار يسبح فيه الجرم السماوي والنجم .

(٢) **أزمّة** ـ جمع زمام ـ وهو : مقود الدابة .

قد تقدَّمَ بعضُ الكلامِ في الدَّرسِ الماضي علىٰ هـٰذهِ الآيةِ الكريمة ، ولنُكملْ ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ الكلامَ اللازَمَ بيانُهُ علىٰ هـٰذهِ الآيات ، مختصَراً مِنْ تفاسيرِ الأَجلَّةِ الأَعلام ، ثمَّ نرجعُ بحولهِ سبحانَهُ إلىٰ ذِكرِ ما يتعلَّقُ بها مِنَ الأَبحاثِ المناسبةِ للمقام .

فاعلموا أَنَّهُ قالَ عزَّ وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ ﴾ ؛ أَي : فُرِض ﴿ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ وهوَ عدمُ الأَكلِ والشُّربِ والجماع ، مِنْ خروجِ الفجرِ الصَّادقِ إلىٰ غروبِ الشَّمسِ معَ النِّيَّة ، فإذا أَفسدَ الصَّائِمُ صومَهُ بشيءٍ مِنْ ذلك . . وجبَتْ عليهِ الكفَّارة ، وسيأْتي بيانُها إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ مِنَ الأَنبياءِ عليهِمُ السَّلامُ والأُممِ مِنْ لَدُنْ آدمَ عليهِ السَّلامُ إلىٰ عهدكُم ، واختلفَ المفسِّرونَ في وجهِ التَّشبيهِ ما هو ؟

فقيل : قدْرُ الصَّومِ ووقتُه ؛ فإِنَّ اللهَ تعالىٰ كتبَ على اليهودِ والنَّصارىٰ صومَ شهرِ رمضانَ فغيَّروا .

وقيل : وجوبُ مُطلَقِ الصَّوم .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أَي : تُحافظونَ علىٰ ذلك .

وقيل : تتَّقونَ المعاصيَ بسببِ هـٰذهِ العبادة ؛ لأَنَّها تَكسرُ الشَّهوةَ وتُضعفُ دواعي المعاصي ، كما وردَ في الحديثِ أَنَّهُ « جُنَّة »[1] ، وأَنَّه « وِجاء » في قولِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « يا مَعْشَرَ الشَّبَاب ؛ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ . . فَلْيَتَزَوَّج ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِع . . فَعَلَيْهِ بِالصَّوْم ؛ فَإِنَّهُ [له] وِجَاء » .

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ أَي : معيَّناتٍ بعَددٍ معلوم . وأَتىٰ بجَمْعِ القلَّةِ إشارةً إلىٰ تقليلِ الأَيَّام .

وقيل : إنَّ الصَّومَ كانَ في ابتداءِ الإِسلامِ ثلاثةَ أَيَّامٍ مِنْ كلِّ شهرٍ وصومَ عاشوراء ، ثمَّ نُسخَ ذلكَ بفرضيَّةِ شهرِ رمضان .

وأَخرجَ البخاريُّ في « تاريخه » ، والطَّبرانيُّ عن دَغْفَل بنِ حنظلة ، عنِ النَّبيِّ

(١) جُنَّة : وقاية ؛ كالترس .

صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قال : « كَانَ عَلَى النَّصارَىٰ صَوْمُ شَهْرِ رَمَضَان ، فَمَرِضَ مَلِكُهُم ، فَقَال : لَئِنْ شَفَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ . . لَيَزِيدَنَّ عَشْراً ، ثُمَّ كَانَ آخَر ، فَأَكَلَ لَحْماً فَوَجِعَ فُوه ، فقَال : لئنْ شَفَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ . . لَيزِيدَنَّ سَبْعَة ، ثُمَّ كَانَ عَلَيْهِمْ مَلِكٌ آخَر ، فَقَال : مَا نَدَعُ مِنْ هَـٰذِهِ الثَّلاثَةِ أَيَّامِ شَيْئاً ؛ نُتِمُّهَا وَنَجْعَلُ صَوْمَنَا فِي الرَّبِيع ، فَفَعَلَ فَصَارَتْ خَمْسِينَ يَوْماً » .

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا ﴾ وسنبيِّنُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ حدَّ المرض ، وأَنَّ المرضعَ أَيضاً يباحُ لَهَا الإفطارُ في الدروسِ الآتية .

﴿ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ واختلفوا في السَّفرِ المبيحِ لِلإفطار : فالَّذي عليهِ الجمهورُ أَنَّهُ مسيرةُ ثلاثةِ أَيَّامٍ لِلإبل . وقالَ غيرُ الجمهور : أَقلُّ مِنْ ذلك ، وهوَ ما صدقَ عليهِ اسمُ السَّفر .

واختلفوا في سَفرِ المعصية ، هل يجوزُ فيهِ الإفطارُ أَمْ لا ؟ فعندَ إمامِنا الأعظمِ يجوز ، وعندَ الشَّافعيِّ وأَحمدَ لا يجوزُ الإفطارُ إلاَّ في سفرِ طاعة .

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ قدِ اختلفَ العلماءُ في هـٰذهِ الآية ، هل هي مُحكمةٌ أَم منسوخةٌ ؟

فالَّذي عليهِ الجمهور : أَنَّها منسوخة ؛ وإنَّما كانت رخصةً عند ابتداءِ فَرْضِ الصِّيام ، وكانَ مَنْ أَطعمَ مِنَ الشُّيوخ والعجائزِ كلَّ يومٍ مسكيناً . . تركَ الصَّومَ وهوَ يُطيقه ، ثمَّ نُسخَ ذلك .

وقالَ بعضُ العلماء : إنَّها رخصةٌ لِلشُّيوخِ والعجائزِ خاصَّةً إذا كانوا لا يُطيقونَ الصَّومَ إلاَّ بمشقَّة . فعلىٰ هـٰذا : إنَّ لفظة : « لا » مقدَّرة ؛ أَي : وعلى الَّذينَ لا يُطيقونَهُ فدية ، فتكونُ الآيةُ غيرَ منسوخة .

واختلفوا في الفديةِ أَيضاً :

فقالَ الإمامُ الأَعظم : كلَّ يومٍ صاعٌ مِنْ غيرِ البرِّ ، ونصفُ صاعٍ منه[1] .

---

(١) **الصاع** : عند سيدنا أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ يعادل : ٣٢٥٠ غراماً ، فيكون نصفه : ١٦٢٥ غراماً .

وقيل : مد[1] .

وقالَ ابنُ عبَّاس : (يُعطي كلَّ مسكينٍ عَشاءَهُ وسَحورَه) . ورويَ عنه : (أَنَّ المُرضِعَ تُفطرُ وتُطعمُ ولا تقضي) ، وهـٰذا أَيضاً مرويٌّ عن جماعةٍ مِنَ التَّابعِين ، لـٰكنْ لا يُفتىٰ بهِ ولا يُعملُ بمقتضاه .

﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ ؛ أَي : مَنْ أَرادَ الإِطعامَ معَ الصَّوم ، أَو زادَ علىٰ إطعامِ المسكين .

﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ أَي : صيامُكُم ـ أَيُّها المطيقون ـ خيرٌ لكُم مِنَ الإِفطارِ معَ الفدية ، وهـٰذا قَبْلَ النَّسخ .

أَو معناها : وأَنْ تَصوموا في السَّفرِ والمرضِ غيرِ الشَّاقِّ خيرٌ لكُم مِنَ الإِفطار . وفي هـٰذا دليلٌ علىٰ خلافِ ما قالَتهُ الإِماميَّة[2] : إنَّ إفطارَ المسافرِ واجب ، والبحثُ في ذلكَ طويل .

﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَنَّ الصَّومَ خيرٌ لكُم .

واعلموا : أَنَّهُ لا رخصةَ لأَحدٍ مِنَ المكلَّفينَ في إفطارِ شهرِ رمضانَ بغيرِ عذر ، والأَعذارُ المبيحةُ لِلفطرِ ثلاثة :

أَحدُها : السَّفر ، والمرض ، والحيض ، والنِّفاس ، فإذا أَفطرَ هـٰؤلاء . . فعليهمُ القضاءُ دونَ الكفَّارة .

والثَّاني : الحاملُ والمرضِعُ إذا خافتا علىٰ ولديهما . . أَفطرتا وعليهما القضاءُ فقط عندَ الحنفيَّة ، وعندَ الإمامِ الشَّافعيِّ عليهِما الكفَّارةُ أَيضاً .

والثَّالث : الشَّيخُ الكبيرُ والعجوزُ الكبيرة ، والمريضُ الَّذي لا يُرجىٰ بُرؤُه ، فعليهِمُ الكفَّارةُ دونَ القضاء .

---

(١) **المدُّ** : ٥٤١,٧ غراماً .

(٢) **الإمامية** : فرقة من فرق الشيعة .

والكفّارةُ قد تقدَّمَ ذِكرُها ؛ بخلافِ المجامعِ في رمضان ، فعليهِ كفَّارةُ الظِّهار ، وسيأْتي ذِكرُها إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ ؛ أي : ذلكُم شهر . . . إلخ .

أَو : كُتبَ عليكُمُ الصِّيام ، صيامُ شهر .

وقُرِىءَ بالنَّصب[1] ؛ أَي : صوموا شهرَ رمضان . واسمُهُ في الجاهليةِ ناتق ؛ لأَنَّهُ كانَ ينتقهم ؛ لشدَّتهِ عليهِم .

والمرادُ مِنْ إِنزالِ القرآنِ العظيمِ فيه : إِنزالُهُ في ليلةِ القَدْرِ مِنَ اللَّوحِ المحفوظِ إِلىٰ سماءِ الدُّنيا ، ثمَّ كانَ ينزلُ بهِ جبريلُ عليهِ السَّلامُ منجَّماً ـ أَي : مفرَّقاً ـ إِلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

وقيل : معنى الآية : أُنزلَ في شأْنِ رمضانَ القرآن ، أَو في فرضِ صيامه .

وروى البيهقيُّ وغيرُه : أَنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال : « أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَان ، وَأُنْزِلَ الزَّبُورُ لِثَمَانِ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ رَمَضَان ، وَأُنْزِلَ الْقُرْآنُ لأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَان » . وفي روايةٍ زيادة : « وَأُنْزِلَ التَّوْرَاةُ لِستٍّ خَلَوْنَ مِنْ رَمَضَان ، وَأُنْزِلَ الإِنْجِيلُ لِثَمَانِي عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَان » .

وَالْقُرْآنُ هوَ كلامُ اللهِ تعالىٰ غيرُ مخلوق ، وسيأْتي تفصيلُ هٰذا البحثِ في حديثِ جبريلَ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ ؛ أَي : هادياً لَهُم مِنَ الضَّلالة .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ مِنْ عطفِ الخاصِّ على العام ، إِظهاراً لِشَرفِ المعطوفِ بإِفرادهِ بالذِّكر .

وقيل : الهُدى الأَوَّلُ في الأَحكامِ الاعتقاديَّة ، والهُدى الثَّاني في الفرعيَّة .

﴿ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ ؛ أَي : الفاصل بينَ الحقِّ والباطل .

---

(١) وهي قراءة شاذة ، غير متواترة .

﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ ؛ أَي : مَنْ حضرَ ولَمْ يَكنْ في سَفر . . فليصُم فيه ، وإذا سافر . . يُباحُ لَهُ الإفطار .

وقالَ جماعةٌ مِنَ العلماء : إنَّ مَنْ أَدركَهُ شهرُ رمضانَ مقيماً . . لَزِمَهُ إكمالُ صيامهِ ولو سافرَ بعدَ ذلك ، واستدلوا بهـٰذهِ الآية ، وخالفهُمُ الجمهورُ بدليلِ أَحاديثَ كثيرة : (أَنَّ النَّبيَّ سافرَ فأَفطرَ في رمضان) .

وقيل : مَنْ شَهِد ؛ أَي : رأَى الهلال ، ولذلكَ قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِه . . » الحديث .

فإذا رآهُ أَحدُ النّاسِ في بلدةٍ أَو نحوِها . . يَلزمُ الجميعَ أَنْ يَصوموا .

ونصابُ الشَّهادةِ عندَ عدمِ العلَّةِ في السَّماءِ جماعة ، وعندَ العلَّةِ واحد ، وتفصيلُ المسأَلةِ في الكتبِ الفقهيَّة .

﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ : إنَّما كرَّرهُ سبحانَه ؛ لأَنَّهُ ذَكرَ في الآيةِ الأُولىٰ تخييرَ المريضِ والمسافرِ والمقيمِ الصَّحيح ، ثمَّ نسخَهُ سبحانَهُ وتعالىٰ بقوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ فلوِ اقتصرَ علىٰ هـٰذا . . لاحتملَ أَنْ يشملَ النَّسخُ الجميع ، فأَعاد ـ بعدَ ذِكرِ النَّاسخ ـ الرُّخصةَ لِلمريضِ والمسافر ؛ ليُعلِمَ أَنَّ الحكمَ باقٍ علىٰ ما كانَ عليه .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ : فلذلك أباحَ الفطرَ لِلمسافرِ والمريض ، ومِثلُه قولُه سبحانَه : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ .

وقد ثبتَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا » .

﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ؛ أَي : تَقولوا : اللهُ أَكبر ، ليلةَ الفطر . وقد وقعَ الخلافُ بينَ العلماءِ في وقته ، وسنبيِّنُ ذلك ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ في الدُّروسِ الآتيةِ في آخِرِ الشَّهرِ بحَوْلهِ تعالىٰ .

﴿ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ ؛ أَي : علىٰ هدايتِهِ لكُم ، وإرشادِكُم إلىٰ طاعتهِ ﴿ وَلَعَلَّكُمْ

﴿تَشْكُرُونَ﴾ اللهَ عزَّ وجلَّ علىٰ نِعمهِ الَّتي لا تُعدُّ ولا تُحصىٰ .

ولنَرجِعْ إلى الأَبحاثِ المتعلِّقةِ بالصِّيام ، فنقول : قد تقدَّمَ أَنَّ المرادَ بكتابةِ الصِّيامِ على الأُممِ السَّالفةِ علىٰ بعضِ الأَقوالِ : ثلاثةُ أَيَّامٍ مِنْ كلِّ شهر ، وقد وردَ في التَّرغيبِ علىٰ ذلك ـ ولا سيَّما الأَيَّامُ البيض ، وكذا عاشوراءُ وغيرُها ـ أَحاديثُ كثيرة :

منها : عن أَبي الدَّرداءِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : (أَوصاني حبيبي بثلاث ، لَنْ أَدعَهُنَّ ما عشت : بصيامِ ثلاثةِ أَيَّامٍ مِنْ كلِّ شهر ، وصَلاةِ الضُّحىٰ ، وبأَنْ لا أَنامَ حتَّىٰ أُوتِر) رواهُ الإِمامُ مسلم .

ومنها : عن أَبي قتادةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « ثَلاَثٌ مِنْ كُلِّ شَهْر ، وَرَمَضَانُ إِلَىٰ رَمَضَان ، فَهـٰذَا صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّه » رواهُ مسلم .

ومنها : عن أَبي ذَرٍّ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ صَامَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاَثَةَ أَيَّام . فَذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْر » ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِه : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ . رواهُ الإِمامُ أَحمد .

ومنها : عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِي رضي الله عنهما : أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قالَ لَه : « بَلَغَنِي أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ فَلاَ تَفْعَل ؛ فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَظّاً ، وَلِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَظّاً ، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَظّاً ، صُمْ وَأَفْطِر ، صُمْ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاَثَةَ أَيَّام ، فَذَلِكَ صَوْمُ الدَّهْر » قلت : يا رسولَ الله ؛ إِنَّ بي قوَّة ، قال : « فَصُمْ صَوْمَ دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلام ، صُمْ يَوْماً وَأَفْطِرْ يَوْماً » .

أَقول : ولذا وردَ كراهيةُ صيامِ الدَّهر .

وأَمَّا ما وردَ في صومِ عاشوراء . . فعن أَبي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ صَامَ يَوْمَ عَرَفَة . . غُفِرَ لَهُ سَنَةٌ أَمَامَهُ وَسَنَةٌ خَلْفَه » ، « وَمَنْ صَامَ عَاشُورَاء . . غُفِرَ لَهُ سَنَة » .

وكذلكَ وردَ في صومِ الإِثنينِ والخميسِ عن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه ، عن

رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « تُعْرَضُ الأَعْمَالُ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ وَالْخَمِيس ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِم » رواهُ التِّرمذي .

وروىٰ مسلِم قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « تُعْرَضُ الأَعْمَالُ فِي كُلِّ خَمِيسٍ وَإِثْنَيْن ، فَيَغْفِرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِكُلِّ امْرِىءٍ لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئاً ، إِلاَّ امْرأً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ ، فَيَقُول : ارْكُوا[1] . هَـٰذَيْنِ حَتَّىٰ يَصْطَلِحَا ، ارْكُوا هَـٰذَيْن حَتَّىٰ يَصْطَلِحَا » .

وروي عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ صَامَ الأَرْبِعَاءَ وَالْخَمِيس . . كُتِبَتْ لَهُ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّار » .

وروي عنهُ أَيضاً قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ صَامَ الأَرْبِعَاءَ وَالْخَمِيسَ وَالْجُمُعَةَ . . بَنَى اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ يُرَىٰ ظَاهِرُهُ مِنْ بَاطِنِه ، وَبَاطِنُهُ مِنْ ظَاهِرِه » .

وليُعلَم : أَنَّ المرأَةَ لا تَصومُ تطوُّعاً وزوجُها حاضرٌ إلاَّ أَنْ تستأْذنَه ؛ فقد روىٰ أَبو هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ صَامَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ زَوْجِهَا ، فَأَرَادَهَا عَلَىٰ شَيْءٍ فَامْتَنَعَتْ عَلَيْه . . كَتَبَ اللهُ عَلَيْهَا ثَلاَثاً مِنَ الْكَبَائِر » .

وفي رواية : « فإِنْ فَعَلَت . . جَاعَتْ وَعَطِشَت ، وَلاَ يَقْبَلُهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْهَا » .

وفي « مختصَرِ التَّرغيب » : عن أَبي هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « لاَ يَحِلُّ لِلْمَرْأَة أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلاَّ بِإِذْنِه ، وَلاَ تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلاَّ بِإِذْنِه » رواهُ البخاري واللفظ له ، ومسلم . وزادَ الإِمامُ أَحمد : « إِلاَّ رَمَضَان » .

واعلَم : أَنَّ الصَّومَ لَهُ درجات ، كما قالَ حُجَّةُ الإِسلامِ الغزاليُّ عليهِ الرَّحمةُ في كتاب « الإِحياء » .

---

(١) اركوا : أَخِّروا .

الفصلُ الثَّاني : في أَسرارِ الصَّوم .

اعلَم : أَنَّ الصَّومَ ثلاثُ درجات : صومُ العموم ، وصومُ الخصوص ، وصومُ خصوصِ الخصوص .

أَمَّا صومُ العموم ، فهو : كفُّ البطنِ والفرْجِ عن قضاءِ الشَّهوة .

وأَمَّا صومُ الخصوص ، فهو : كفُّ السَّمع ، والبصر ، واللِّسان ، واليد ، والرِّجل ، وسائرِ الجوارحِ عنِ الآثام .

وأَمَّا صومُ خصوصِ الخصوص : فصومُ القلبِ عنِ الهِممِ الدَّنيَّةِ والأَفكارِ الدُّنيويَّة ، وكفُّهُ عمَّا سوى اللهِ تعالىٰ بالكليَّة . ويَحصلُ الفطرُ في هـٰذا الصَّومِ بالفكرِ في ما سوى اللهِ عزَّ وجلَّ واليومِ الآخِرِ ، وبالفكرِ في الدُّنيا ، إلاَّ دنيا تُرادُ للدِّين ، فإِنَّ ذلكَ مِنْ زادِ الآخرة .

حتَّىٰ قالَ أَربابُ القلوب : مَنْ تحرَّكَتْ هِمَّتُهُ بالتَّصرُّفِ في نهارِهِ لِتدبيرِ ما يفطرُ عليه . . كُتبتْ عليه خطيئة ؛ فإِنَّ ذلكَ مِنْ قلَّةِ الوثوقِ بفضلِ اللهِ عزَّ وجل ، وقلَّةِ اليقينِ برزقهِ الموعود . وهـٰذهِ رتبةُ الأَنبياءِ والصِّدِّيقينَ والمقرَّبين .

وأَمَّا صومُ الخصوص ـ وهو : صومُ الصَّالحين ـ فهو : كفُّ الجوارحِ عنِ الآثام . وتمامُهُ بستَّةِ أُمور :

الأَوَّلُ : غضُّ البصر ، وكفُّهُ عنِ الاتساعِ في النَّظرِ إِلىٰ كلِّ ما يُذمُّ ويُكرَه ، وإِلىٰ كلِّ ما يَشغلُ القلبَ ويُلهي عن ذِكرِ اللهِ عزَّ وجل ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيس ـ لَعَنَهُ الله ـ فَمَنْ تَرَكَهَا خَوْفاً مِنَ اللهِ . . آتَاهُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إِيمَاناً يَجِدُ حَلاَوَتَهُ فِي قَلْبِه » .

وروي عن جابر رضي الله عنه : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « خَمْسٌ يُفَطِّرْنَ الصَّائِمَ وَيَنْقُضْنَ الوضُوءَ : اَلْكَذِب ، وَالْغِيبَة ، وَالنَّمِيمَة ، وَالْيَمِينُ الْكَاذِبَة ، وَالنَّظَرُ بِشَهْوَة » .

الثَّاني : حفظُ اللِّسانِ عنِ الهذيان ، والكذب ، والغيبة ، والنَّميمة ، والفحش ،

والجفاء ، والخصومة ، والمراء ، وإلزامُهُ السُّكوت ، وشغلُهُ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وتلاوةِ القرآن ، فهـٰذا صومُ اللِّسان .

وقد قالَ سفيان بن عيينة رحمه الله : (الغيبةُ تُفسدُ الصَّوم) .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّمَا الصَّوْمُ جُنَّة ، فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِماً . . فَلاَ يَرْفُثْ[1] وَلاَ يَجْهَل ، وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ . . فَلْيَقُل : إِنِّي صَائِم ، إِنِّي صَائِم » .

قالَ الغزالي : وجاءَ في الخبر : أَنَّ امرأتينِ صامتا علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فأجهدَهُما الجوعُ والعطشُ مِنْ آخرِ النَّهارِ حتَّىٰ كادتا أَنْ تتلفا ، فبَعَثتا إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم تستأْذِناهُ في الإفطار ، فأرسلَ إليهما قَدَحاً وقال صلى الله عليه وسلم : « قُلْ لَهُمَا : قِيئَا فِيهِ مَا أَكَلْتُمَا » ، فقاءَتْ إحداهُما نصفَهُ دماً عبيطاً[2] ، ولحماً غريضاً[3] ، وقاءتِ الأُخرىٰ مثلَ ذلكَ حتَّىٰ ملأَتاه ، فعجبَ النَّاسُ مِنْ ذلك ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « هَاتَانِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللهُ لَهُمَا ، وَأَفْطَرَتَا عَلَىٰ مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمَا ، قَعَدَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَى الأُخْرَىٰ ، فَجَعَلَتَا تغْتَابَانِ النَّاس ، فَهَـٰذَا مَا أَكَلَتَا مِنْ لُحُومِهِم » .

الثَّالث : كفُّ السَّمعِ عنِ الإصغاءِ إلىٰ كلِّ مكروه ، فلذلكَ حرَّمَ اللهُ تعالىٰ سماعَ الغيبة ، فقال : ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ .

وقالَ عزَّ وجل : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ .

وقال عليهِ السَّلام : « الْمُغْتَابُ وَالْمُسْتَمِعُ شَرِيكَانِ فِي الإِثْم » .

الرَّابع : كفُّ بقيَّةِ الجوارحِ عنِ الآثامِ مِنَ اليدِ والرِّجل ، وكف البطنِ عنِ الشُّبهاتِ وقتَ الإفطار ، فلا معنىٰ لِلصَّوم ـ وهوَ الكفُّ عنِ الطَّعام الحلال ـ ثمَّ الإفطارُ على الحرام ، فمِثالُ هـٰذا الصَّائمِ كمَنْ يَبني قصراً ، ويَهدمُ مصراً! .

الخامس : أَنْ لاَ يَستكثرَ مِنَ الطَّعامِ الحلالِ وقتَ الإفطارِ بحيثُ يمتلىء [جوفُه] ،

---

(١) **يرفث** : يفحش أو يجامع .

(٢) **عبيطاً** : خالصاً طرياً .

(٣) **الغريض** : الطري أو المهزول .

فما مِنْ وعاءٍ أَبغضُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ بطنٍ مُلىءَ مِنْ حلال ، وكيفَ يستفادُ مِنَ الصَّومِ قهرُ عدوِّ اللهِ وكسرُ الشَّهوة إذا تداركَ الصَّائمُ عندَ فطرِه ما فاتَهُ ضحوةَ نهاره ؟! وربَّما يزيدُ عليهِ في ألوانِ الطَّعام ، حتَّى استمرَّتِ العادةُ بأَنْ تُدَّخرَ جميعُ الأَطعمةِ لشهرِ رمضان فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر ، معَ أَنَّ المقصودَ مِنَ الصَّوم : الخَواءُ[1] ، وكسرُ الهوىٰ ؛ لتقوى النَّفْسُ على التَّقوىٰ . إلىٰ أَنْ قال[2] :

السَّادس : أَنْ يكونَ قلبُهُ بعدَ الإفطارِ معلَّقاً مضطرباً بينَ الخوفِ والرَّجاء ؛ إذْ ليسَ يَدري أَيُقبلُ صومُهُ فهوَ مِنَ المقرَّبين ، أَو يُردُّ عليهِ فهوَ مِنَ الممقوتين ؟ وليَكُنْ كذلكَ في آخِرِ كلِّ عبادةٍ يفرغُ منها . اهـ

واعلموا : أَنَّ لشهرِ رمضانَ فضائلَ لا تُحصىٰ ، وكراماتٍ لا تُستقصىٰ ، ويَكفي فيهِ شرفاً وفضلاً ما رواهُ البيهقيُّ مِنْ أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « أُعْطِيَتْ أُمَّتِي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي ، أَمَّا واحدة : فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَان . . نَظَرَ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِم ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْه . . لَمْ يُعَذِّبْهُ أَبَداً . وَأَمَّا الثَّانِيَة : فَإِنَّ خُلُوفَ أَفْوَاهِهِمْ حِينَ يُمْسُونَ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ رِيحِ الْمِسْك . وَأَمَّا الثَّالِثَة : فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَة ، وَأَمَّا الرَّابِعَة : فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُ جَنَّتَهُ فَيَقُولُ لَهَا : اسْتَعِدِّي وَتَزَيَّنِي لِعِبَادِي ، أَوْشَكُوا أَنْ يَسْتَرِيحُوا مِنْ تَعَبِ الدُّنْيَا إِلَىٰ دَارِي وَكَرَامَتِي . وَأَمَّا الْخَامِسَة : فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ آخِرُ لَيْلَة . . غُفِرَ لَهُمْ جَمِيعاً » قالَ رجلٌ مِنَ القوم : أَهيَ ليلةُ القدر ؟ فقال : « لا ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الْعُمَّالِ يَعْمَلُون ، فَإِذَا فرَغُوا مِنْ أَعْمَالِهِم . . وُفُّوا أُجُورَهُم » .

وَمِنَ الفضلِ الَّذي يساوي فيهِ النَّاقصُ الكامل : تفتيحُ أَبوابِ الجنَّة ، وغَلْقُ أَبوابِ النَّار .

وعن سلمانَ الفارسي رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : خَطَبَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم في آخِرِ يومٍ مِنْ شعبانَ فقال :

---

(١) **الخواء** : خلوّ البطن من الطعام .

(٢) يعني : الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « الإحياء » (١/ ٢٣٥) .

« أَيُّهَا النَّاس ؛ قَدْ أَظَلَّكُمْ شَهْرٌ عَظِيمٌ شهر مُبَارَك ، شَهْرٌ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْر ، جعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ صِيَامَهُ فَرِيضَة ، وَقِيَامَ لَيْلِهِ تَطَوُّعاً ، مَنْ تَقَرَّبَ فِيهِ بِخَصْلَةٍ مِنَ الْخَيْر . . كَانَ كَمَنْ أَدَّىٰ فَرِيضَة فِيمَا سِوَاه ، وَمَنْ أَدَّىٰ فِيه فَرِيضَةً . . كَانَ كَمَنْ أَدَّىٰ سَبْعِينَ فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاه ، وَهُوَ شَهْرُ الصَّبْر ، وَالصَّبْرُ ثَوَابُهُ الْجَنَّة ، وَشَهْرُ الْمُوَاسَاة ، وَشَهْرٌ يَزْدَادُ فِيه رِزْقُ الْمُؤْمِن ، مَنْ فَطَّرَ فِيهِ صَائِماً . . كَانَ مَغْفِرَةً لِذُنُوبِه ، وَعِتْقَ رَقَبَتِهِ مِنَ النَّار ، وَكَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِ شَيْء » قالوا : يا رسولَ الله ؛ ليسَ كلُّنا يَجدُ ما يُفطِّرُ الصَّائم ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « يُعْطِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَـٰذَا الثَّوَابَ مَنْ فطَّرَ صَائِماً عَلَىٰ تَمْرة ، أَوْ شَرْبَةِ مَاء ، أَوْ مَذْقَةِ لَبَن . وَهَـٰذَا شَهْرٌ أَوَّلُهُ رَحْمَة ، وَأَوْسَطُهُ مَغْفِرَة ، وَآخِرُهُ عِتْقٌ مِنَ النَّار ، فَمَنْ خَفَّفَ عَنْ مَمْلُوكِهِ فِيه . . غَفَرَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ وَأَعْتَقَهُ مِنَ النَّار ، وَاسْتَكْثِرُوا فِيهِ مِنْ أَرْبَعِ خِصَال : خَصْلَتَيْنِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَل ، وَخَصْلَتَيْنِ لاَ غِنَىٰ لَكُمْ عَنْهُمَا ، أَمَّا الْخَصْلَتَانِ اللَّتَانِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَل . . فَشَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الله ، وَتَسْتَغْفِرُونَه ، وَأَمَّا الْخَصْلَتَانِ اللَّتَانِ لاَ غِنَىٰ لَكُمْ عَنْهُمَا . . فَتَسْأَلُونَ اللهَ تَعَالَى الْجَنَّة ، وَتَعُوذُونَ بِهِ مِنَ النَّار . وَمَنْ أَشْبَعَ صَائِماً . . سَقَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ حَوْضِي شَرْبَةً لاَ يَظْمَأُ حَتَّىٰ يَدْخُلَ الْجَنَّة » . رواهُ ابنُ خزيمة ، والبيهقي ، وأَبو الشَّيخِ ابنُ حيَّان .

فائدة : ثواب الصوم في الأيام شديدة الحر مضاعف : قد ورد في الحر والبرد والصيام فيهما الأحاديث الشريفة والآثار المنيفة قال العلامة ابن رجب الحنبلي في كتابه « اللطائف » : (خرجا في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَىٰ رَبِّهَا فَقَالَت : يَا رَب ؛ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضاً ، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ ؛ نَفَسٌ في الشِّتَاء ، وَنَفَسٌ في الصَّيْف ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الحَرِّ مِنْ سَمُومِ جَهَنَّم ، وأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ البَرْدِ مِن زَمْهَرِيرِ جَهَنَّم ») .

وروي عن أبي بكر رضي الله عنه : أنه كان يصوم في الصيف ويفطر في الشتاء ، وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول : صوموا يوماً شديداً حرُّه لطول النشور ، وصلوا ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور .

وفي الصحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره في اليوم الحار الشديد الحر ، وإن الرجل ليضع يده علىٰ رأسه من شدة الحر وما في القوم أحد صائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن رواحة . وقد ورد أن ذلك كان في شهر رمضان . انتهى

وأما الصوم في الشتاء فقد أُخرج من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الشتاء ربيع المؤمن » رواه أبو يعلىٰ وغيره ، وزاد فيه : « طال ليله فقامه ، وقصر نهاره فصامه » .

قال العلماء : وإنما كان ربيعه ؛ لأنه يرتع فيه في روضات الطاعات ، ويسرح في ميادين العبادات ، وروى الإمام أحمد في « المسند » ، والترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم : « الصوم في الشتاء الغنيمة الباردة » ومعنى (غنيمة باردة) كما قال العلماء : أنها غنيمة من غير قتال ولا تعب ولا مشقة فصاحبها يغنم الأجر بغير كلفة .

قال ابن رجب : ومن فضائِلِ الشِّتاء : أنَّهُ يذكر زمهرير جهنم ، ويوجب الاستعاذة منها .

فعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم شديد البرد فقال العبد : لا إله إلا الله ، ما أشد برد هـٰذا اليوم! اللهم ؛ أجرني من زمهرير جهنم . . قال الله تعالىٰ لجهنم : إن عبداً من عبيدي استجار بي من زمهريرك وإني قد أجرته . قالوا : وما زمهرير جهنم ؟ قال : بيت يلقىٰ فيه الكافر فيتميز من شدة بردها بعضه من بعض ») .

عن ابن عمير قال : بلغني أن أهل النار يسألون خازنها أن يخرجهم إلىٰ جانبها ، فيخرجهم ، فيقتلهم البرد والزمهرير حتى يرجعوا إليها فيدخلوها مما وجدوا من البرد وقد قال سبحانه : ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ (١) .

---

(١) المعنى : أنه يؤمر بإخراج أهل النار من أوديتها ووسطها الشديد الحرارة بطلبهم واستغاثتهم فينالهم من زمهريرها وبردها ما يطلبون بسببه الرجوع للحر الذي كانوا فيه ، والله أعلم .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ . قال ابن عباس رضي الله عنهما : الغساق الزمهرير البارد الذي يحرق من برده . وقيل : البارد المنتن والحميم الحار .

أجارنا الله تعالىٰ وإياكم من حر جهنم وزمهريرها .

وهٰذه فصول تنقضي بها الأعمار ، وتقرب بهَا الأَقطار ، فَهنيئاً لمن قطعها بصالح الأعمال ، ولقد أحسن من قال :[1] .

كَـمْ يَكُـونُ ٱلشِّتَـاءُ ثُـمَّ ٱلْمَصِيـفُ ... وَرَبِيـعٌ يَمْضِـي وَيَـأْتِـي ٱلْخَـرِيـفُ

وَٱنْتِقَـالٌ مِـنَ ٱلْحَـرُورِ إِلَـى البَـرْ ... دِ وَسَيْـفُ ٱلـرَّدىٰ عَلَيْـكَ مُنِيـفُ

يَـا عَليـلَ البَقَـاءِ فـي هٰـذِهِ ٱلـدُّنْـ ... ـيـا إِلـىٰ كَـمْ يَغُـرُّكَ ٱلتَّسْـوِيـفُ

وقال غيره :

يَـا أَيُّهَـا ٱلـزَّائِـلُ حَتَّـىٰ مَتَـىٰ ... قَلْبُـكَ بِـٱلـزَّائِـلِ مَشْغُـوفُ

واعلموا ـ أَيضاً ـ : أَنَّ للصِّيامِ آداباً كثيرة ، ولوازمَ غزيرة ، لا يحصلُ الأَجرُ التَّامُّ إِلاَّ بها .

منها : الإخلاصُ للهِ سبحانَهُ وتعالىٰ في العملِ ؛ لِقولهِ تعالىٰ : ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ وقولهِ عزَّ وجل : ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ .

ومِنها : أَكلُ الحلالِ والإِفطارُ على الحلال .

ومِنها : كفُّ الأَذىٰ عنِ النَّاس .

ومِنها : عدمُ سماعِ اللَّهوِ والغناءِ المحرَّم ، وعدمُ سماعِ القَصَصِ المحرَّمةِ ، والتردد في الأَماكنِ المذمومة ، وتركُ الكذبِ والغيبةِ والنَّميمة ، وغضُّ النَّظرِ عنِ المحرَّمات .

وللهِ درُّ الشَّاعرِ جابرٍ حيثُ يقول :

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي السَّمْعِ مِنِّي تَصَاوُنٌ ... وَفِي بَصَرِي غَضٌّ وَفِي مَنْطِقِي صَمْتُ

فَحَظِّي إِذاً مِنْ صَوْمِيَ الْجُوعُ وَالظَّمَا ... وَإِنْ قُلْتُ إِنِّي صُمْتُ يَوْماً فَمَا صُمْتُ

(١) هو أبو العتاهية .

بل قد نهىٰ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام عن فضولِ كلامِ غيرِ الصَّائِمِ أَيضاً بقوله : « مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ . . تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيه » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ . . فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ » .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « طُوبَىٰ لِمَنْ أَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِه ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِه » .

أَقول : وقد عكسَ النَّاسُ الأَمرَ في هٰذا الزَّمان ، فأَمسكوا المال ، وأَطلقوا اللِّسان ، ومِنْ أَعظمِ الفضول : تكلُّمُ الإِنسانِ بكلمةٍ ليُضحكَ بها أَصحابَه ، حتَّىٰ عُدَّ ذلكَ مِنَ الكبائر ، وقد يُستشهدُ لَهُ بالخبرِ المرفوع ، وهوَ قولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَة ، مَا يُرِيدُ بِهَا إِلاَّ أَنْ يُضْحِكَ الْقَوْم ، يَهْوِي بِهَا بُعْدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْض » .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَىٰ ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً . . يَرْفَعُهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا دَرَجَات ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ تَعَالَىٰ ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً . . يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِب » .

قالَ العلماءُ رحمهُمُ اللهُ تعالىٰ : ومِنْ ذلك : التَّكلُّمُ في موافقةِ مَنْ أَرادَ أَنْ يَسنَّ سنَّةً سيِّئة ؛ فإِنَّهُ يُعذَّبُ بتلكَ الكلمةِ ما دامَ أَحدٌ يَعملُ بتلكَ السُّنَّةِ السَّيِّئة .

ومنهُ أَيضاً : إِعانةُ الظَّالمِ على المظلومِ في أَخْذِ السُّحتِ والزَّقُّوم[1] .

قالوا : ومِنَ الفضولِ أَيضاً : أَنْ يُحدِّثَ الإِنسانُ بكلِّ شيءٍ مِنَ الأَخبارِ مِنْ غيرِ أَنْ يتحقَّقَ صِدْقَها ، فقد قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْماً . . أَنْ يُحدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِع » .

وقد قيل : إِيَّاكَ والفضول ؛ فإِنَّ حسابَهُ يَطول .

---

(١) أي : في أخذ الحرام الذي لا يحل كسبه .

فيا مَنْ طُولَ سَنتهِ قد نام ؛ إِنتبه لهٰذهِ الأَيَّام ، واحذرْ غفلةَ الطَّغام ، وخُذْ قَدْرَ البُلغةِ مِنَ الطَّعام ، واسمَعْ قولَ الملكِ العلاَّم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ .

يا مريضاً لا يَقبلُ مِنْ طَبيبه ؛ هٰذا شهرُ الحميةِ قد جاءَ لِتهذيبه ، صُنْ لِسانكَ عنِ اللَّغوِ ولا تَهْذي به ، فـ : (الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِه) ولٰكنْ أَينَ الصِّيَام ؟

هٰذا شهرُ عمارةِ المِحراب ، هٰذا زمانُ حضورِ الأَلباب ، هٰذا وقتُ تلاوةِ الكتاب ، لِلمتَّقينِ فيهِ على الباب كلَّ وقتٍ زحام : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ .

شهرٌ فيهِ تكفُّ النُّفوس ، كأَنَّها في حُبوس ، وتظمأُ عنِ الكؤُوس ، وتُطرِقُ مِنَ الخشيةِ الرُّؤُوس ، عنِ النَّظرِ الحرام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ .

شهرٌ فيهِ تُملأُ المساجد ، ويَخشعُ فيهِ الرَّاكعُ والسَّاجد ، وينهضُ إِلى الخيرِ كلُّ قاعد ، ويصيرُ الرَّاغبُ كالزَّاهد مِنْ قلَّةِ الطَّعام ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ .

شهرُ التَّعبُّدِ والتَّراويح ، شهرُ السَّهرِ والمصابيح ، شهرُ المتجرِ الرَّبيح ، شهرٌ يُتركُ فيهِ القبيح ، وتُهجرُ الآثام ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ .

فيهِ تصحُّ الأُمور ، فيهِ تُراقُ الخمور ، فيهِ يتعطَّلُ الزُّور ، فيهِ تَنحني الظُّهورُ مِنَ القيام ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ .

فيهِ تَرِقُّ القلوب ، فيهِ تُغفرُ الذُّنوب ، وتَتجافى المضاجعُ والجنوب ، فتجفو لذيذَ المنام ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ .

أَيقظوا فيهِ الأَسماعَ والأَبصار ، واحبسوا عنِ الفضولِ اللِّسانَ المهذار ، وانهضوا لِلاستغفارِ وقتَ الأَسحار ، واعجباً لِمَنْ ينام! ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ .

اِعزموا علىٰ تركِ القبائحِ في السَّنة ، واعملوا ما يصلحُ للضَّرائح ، فإِلىٰ متىٰ أَنتُم في السِّنَة ؟ هٰذا ما يقولُ لكُمُ النَّاصح ، والسَّلام .

* * *

المجلس الثَّالث
فيما يتعلق بالصَّوم أَيضاً

بسمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ لله ، اللَّطيفِ الرَّؤوفِ العظيمِ المنَّان ، الغنيِّ العليِّ القويِّ السُّلطان ، الحليمِ الكريمِ الرَّحيمِ الرَّحمـٰن ، الكبيرِ القديرِ القديمِ الدَّيان .

الأَوَّلِ فلا سَبْقَ لِسَبْقه ، المنعمِ فما قامَ مخلوقٌ بحقِّه ، المُولي بفضلهِ علىٰ جميعِ خَلْقه ، بشرائفِ المنائحِ علىٰ توالي الزَّمان .

جَلَّ عن شريكٍ وولد ، وعزَّ عنِ الاحتياجِ إِلىٰ أَحد ، وتقدَّسَ عن نظيرٍ وانفرد ، وعَلِمَ ما يكونُ وأَوجدَ ما كان .

أَنشأَ المخلوقاتِ بحكمتهِ وصنعَها ، وفَرَّقَ الأَشياءَ بقدرتهِ وجمعَها ، ودحا الأَرضَ على الماءِ وأَوسعَها ، والسَّماءَ رفعَها ووضعَ الميزان .

يُعزُّ ويُذل ، ويُفقرُ ويُغني ، ويُسعدُ ويُشقي ، ويُبقي ويُفني ، ويَشينُ ويَزيْن ، ويَنقضُ ويَبني ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ الآية .

مدَّ الأَرضَ فأَوسعَها بقدرته ، وأَجرىٰ فيها أَنهارَها بصَنْعته ، وصبغَ أَلوانَ نباتِها بحكمته ، فمَنْ يَقدرُ علىٰ صبغِ تلكَ الأَلوان ؟

ثبَّتَ بالجبالِ الرّاسياتِ نواحيها ، وأَرسلَ السَّحابَ بمياهِ تُحييها ، وقضىٰ ربُّكَ بالفناءِ علىٰ جميعِ ساكنِيها ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ الآية .

أَنعمَ علىٰ هـٰذهِ الأُمَّةِ بتمامِ إِحسانِه ، وعادَ عليها بفضلهِ وامتنانِه ، وجعلَ شهرَها مخصوصاً بعميمِ غفرانِه ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ .

أَحمدُهُ علىٰ ما خصَّنا بهِ مِنَ الصِّيامِ والقيام ، وأَشكرُهُ علىٰ بلوغِ الآمالِ وسبوغِ الإِنعام ، وأَشهدُ أَنْ لا إِلـٰهَ إِلاَّ اللهُ الَّذي لا تحيطُ بهِ العقولُ والأَذهان ، وأَنَّ محمَّداً أَفضلُ خَلْقهِ وبرِيَّتِه ، المقدَّمُ على الأَنبياءِ ببقاءِ مُعجزتِه ، الَّذي انشقَّ ليلةَ وِلادتهِ الإِيوان .

صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ أَبي بكرٍ رفيقهِ في الغار ، وعلىٰ عمرَ فتَّاحِ الأَمصار ، وعلىٰ عثمانَ شهيدِ الدَّار ، وعلىٰ عليٍّ راسخِ الإِيمان ، وعلىٰ سائرِ الآلِ والأَصحابِ علىٰ توالي الزَّمان .

أَمَّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في مُحكَمِ كتابهِ العزيز ، وكلامهِ البليغِ الوجيز : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ الآياتِ المتقدِّمَ ذِكرُها في الدَّرسِ الماضي .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ، وبيدهِ أَزِمَّةُ التَّحقيق ـ :

قد أَسلفنا لكُم في الدَّرسَينِ الماضيينِ جُملةً مِنَ الأَبحاثِ المتعلِّقةِ بالصَّوم ، وبقيَتْ أَبحاثٌ أُخَرُ نذكرُها ـ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ لكُم في هـٰذا اليوم .

فمِنها : ما في « الميزان » للعلاَّمةِ الشَّيخِ عبدِ الوهَّابِ الشَّعراني .

وملخَّصُه : أَنَّ أَئِمَّة المذاهب ـ رحمهُمُ اللهُ تعالىٰ ـ اختلفوا في بابِ الصَّومِ في مسائل :

مِنها : أَنَّ الحاملَ والمرضِعَ إِذا أَفطرتا خوفاً على الولد .. لزمَهُما القضاءُ والكفَّارة ، عن كلِّ يومٍ مُدٌّ علىٰ أَرجحِ قولَي الشَّافعيِّ وأَحمد ، معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّهُ لا كفَّارةَ عليهِما ، ومعَ قولِ ابنِ عمرَ وابنِ عبَّاس رضي الله عنهم : إِنَّهُ تجبُ الكفَّارةُ دونَ القضاء .

ومِنها : قولُ أَبي حنيفةَ وأَحمد : إِنَّ المسافرَ إِذا قدمَ مفطراً ، أَو برِىءَ المريض ، أَو بلغَ الصَّبي ، أَو أَسلمَ الكافر ، أَو طهرتِ الحائضُ في أَثناءِ النَّهار .. لَزمَهُم إِمساكُ بقيَّةِ النَّهار ، معَ قولِ مالكٍ والشَّافعيِّ في الأَصح : إِنَّهُ يُستحب .

ومِنها : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة : إِنَّ المرتدَّ إِذا أَسلم .. وجبَ عليهِ قضاءُ ما فاتَهُ مِنَ الصَّومِ حالَ رِدَّته ، معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّهُ لا يجب .

ومِنها : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة : إِنَّهُ يصحُّ صومُ الصَّبي ، معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّهُ لا يصح .

أَقول : سيأْتِي ـ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ بحثُ صومِ الصَّبيِّ مفصَّلاً ، فلا تَغفلْ وراجِع .

ومِنها : قولُ أَبي حنيفةَ والشَّافعي : إِنَّ المجنونَ إِذا أَفاق . . لا يجبُ عليهِ قضاءُ ما فاتَه ، معَ قولِ مالك : إِنَّهُ يجب ، وهوَ إِحدى الرِّوايتَينِ عن أَحمدَ ابنِ حنبل .

ومِنها : قولُ أَبي حنيفة ، وهوَ الأَصحُّ مِنْ مذهبِ الشَّافعي : إِنَّ المريضَ الَّذي لا يُرجىٰ بُرؤُه ، والشَّيخَ الكبيرَ لا صومَ عليهِما ، وإِنَّما تجبُ عليهِما الفديةُ فقط ، معَ قولِ مالك : إِنَّهُ لا صومَ عليهِما ولا فدية ، وهوَ قولٌ للشَّافعي ، وهيَ عندَ أَبي حنيفةَ وأَحمد : نصفُ صاعٍ مِنْ برٍّ عن كلِّ يوم ، وعندَ الشَّافعي : مد .

ومِنها : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة : إِنَّهُ لا بدَّ مِنَ التَّعيينِ في النِّيَّة ، معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّهُ لا يشترطُ التَّعيين ، بل إِنْ نوىٰ صوماً مطلَقاً أَو نفلاً . . جاز .

ومِنها : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة : إِنَّ وقتَ النِّيَّةِ في صوم رمضان : ما بينَ غروبِ الشَّمسِ إِلىٰ طلوعِ الفجرِ الثَّاني ، معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّهُ لا يجبُ التَّعيين ـ أَي : التَّبييت ـ بل تجوزُ النِّيَّةُ مِنَ اللَّيل ، فإِنْ لَم ينوِ ليلاً . . أَجزأَتْهُ النِّيَّةُ إِلى الزَّوال ، وكذلكَ قولُهم في النَّذرِ المعيَّن .

ومِنها : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة : إِنَّ صومَ رمضانَ يفتقرُ كلَّ ليلةٍ إِلىٰ نيَّةٍ مجرَّدة ، معَ قولِ مالك : إِنَّهُ يكفيهِ فيهِ واحدةٌ مِنْ أَوَّلِ ليلةٍ مِنَ الشَّهرِ أَنَّهُ يصومُ جميعَه .

ومِنها : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة : إِنَّ صومَ النَّفلِ يصحُّ بنيَّةٍ قبلَ الزَّوال ، معَ قولِ مالك : إِنَّهُ لا يصحُّ بنيَّةٍ مِنَ النَّهارِ كالواجب ، واختارَهُ المُزني .

ومِنها : قولُ الأَئِمَّةِ الأَربعة : إِنَّ صومَ الجنُبِ صحيح ، معَ قولِ أَبي هريرةَ وسالمِ بنِ عبدِ الله : إِنَّهُ يَبطلُ صومُه ـ كما مرَّ أَوَّلَ الباب ـ وإِنَّهُ يُمسكُ ويقضي ، ومعَ قولِ عروةَ والحسن : إِنَّهُ إِنْ أَخَّرَ الغُسلَ بغيرِ عذر . . بطلَ صومُه ، ومعَ قولِ النَّخعي : إِنْ كانَ في الفرض . . يَقضي .

ومنها : قولُ الأوزاعيِّ بإبطالِ الصَّومِ بالغيبةِ والكذب ، معَ قولِ الأئمَّةِ بصحَّةِ الصَّومِ معَ النَّقص .

ومنها : قولُ أَبي حنيفةَ وأكثرِ المالكيَّةِ والشَّافعيَّة : إنَّ الصَّومَ لا يَبطلُ بنيَّةِ الخروجِ منه ، معَ قولِ أَحمدَ ببطلانه .

ومنها : قولُ الإمامِ مالكٍ والشَّافعي : إنَّهُ يُفطرُ بالقيءِ عامداً ، معَ قولِ الإمامِ أَبي حنيفة : إنَّهُ لا يُفطرُ بالقيءِ إلاَّ إذا كانَ ملءَ فِيه ؛ أَي : إذا استقاءَ تعمُّداً . ومعَ قولِ أَحمدَ في أَشهرِ رواياته : إنَّهُ لا يُفطرُ إلاَّ بالقيءِ الفاحش ، ومعَ قولِ الحسن : إنَّهُ يُفطرُ إذا ذَرعَهُ القيء[1] .

ومنها : قولُ الأئمَّةِ الثَّلاثة : إنَّهُ لَو بقيَ بينَ أَسنانهِ طعامٌ فجرىٰ بهِ ريقُه . . لَم يُفطرْ إنْ عجزَ عن تمييزهِ ومجِّه ، وإنَّهُ إنِ ابتلعَه . . بطلَ صومُه ، معَ قولِ أَبي حنيفة : إنَّهُ لا يَبطلُ صومُه .

وقدَّرهُ بعضُهم بالحِمَّصة ، وبعضُهم بالسِّمسمةِ الكاملة .

ومنها : قولُ الأئمَّةِ الثَّلاثة : إنَّ الحُقنةَ تُفطر ـ إلاَّ في روايةٍ عن مالك ـ وكذلكَ التَّقطيرُ في باطنِ الأُذنِ والإحليل[2] ، والإسعاطُ[3] مفطِّرٌ عندَ الشَّافعي ، ولَم أَجِدْ لغيرهِ في ذلكَ كلاماً .

ومنها : قولُ الأَئمَّةِ الثَّلاثة : إنَّ الحِجامةَ لا تُفطر ، معَ قولِ أَحمد : إنَّها تُفطرُ الحاجمَ والمحجوم[4] .

ومنها : اتِّفاقُ الأَئمَّةِ علىٰ أَنَّهُ لَو أَكلَ شاكّاً في طلوعِ الفجر ، ثمَّ بانَ أَنَّهُ طلع . . بطلَ صومُه ، معَ قولِ عطاءٍ وداوودَ وإِسحاق : إنَّهُ لا قضاءَ عليه .

وحكي عن مالكٍ أَنَّهُ يقضي في الفرض .

---

(١) **ذرعه القيء** : سبقه وغلبه في الخروج .

(٢) **الإحليل** : مخرج اللبن من الضرع والثدي ، ومخرج البول أيضاً .

(٣) **الإسعاط** : أخذ السعوط ، وهو دواء يصبُّ في الأنف .

(٤) **الحجامة** : أخذ الدم من الجسم بالمحجم ؛ بقصد العلاج .

أقول : وقد ذهبَ إِلىٰ عدمِ الإِفطارِ في الفرْضِ وغيرِهِ مِنَ الحنابلةِ الشَّيخُ أَبو العبَّاسِ تقيُّ الدِّينِ عليهِ الرَّحمة .

ومِنها : قولُ أَبي حنيفةَ والشَّافعي : إِنَّهُ لا يُكرَهُ الكُحلُ لِلصَّائِم ، معَ قولِ مالكٍ وأَحمد : بكراهته ، بل لَو وُجِدَ طعمُ الكُحلِ في الحلق . . أَفطرَ عندَهُما .

وقالَ ابنُ أَبي ليلىٰ وابنُ سيرين : يُفطرُ بالكحل .

ومِنها : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة : إِنَّ العتقَ والإِطعامَ والصَّومَ في كفَّارةِ الجماعِ في نهارِ رمضانَ عامداً على التَّرتيب ، معَ قولِ مالك : إِنَّ الإِطعامَ أَولىٰ ، وإِنَّها على التَّخيير .

ومِنها : قولُ الشَّافعيِّ وأَحمد : إِنَّ الكفَّارةَ على الزَّوج ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ ومالك : إِنَّ علىٰ كلٍّ منهُما كفَّارة .

فإِنْ وطىءَ في يومينِ مِنْ رمضان . . لزمَهُ كفَّارتانِ عندَ مالكٍ والشَّافعي .

وقالَ أَبو حنيفة : إِذا لَم يُكفِّرْ عنِ الأَوَّل . . لَزمَهُ كفَّارةٌ واحدة ، وإِنْ وَطىءَ في اليومِ الواحدِ مرَّتين . . لَم يَجبْ بالوطءِ الثَّاني كفَّارة .

وقالَ أَحمد : يَلزمُهُ كفَّارةٌ ثانيةٌ وإِنْ كفَّرَ عنِ الأَوَّل[1] .

ومِنها : اتِّفاقُ الأَئِمَّةِ الأَربعةِ علىٰ أَنَّ الكفَّارةَ لا تجبُ إِلاَّ في أَداءِ رمضان ، معَ قولِ عطاءٍ وقتادة : إِنَّها تجبُ في قضائِه .

ومِنها : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة : إِنَّهُ لَو طلعَ الفجرُ وهوَ يُجامِع ، ونزعَ في الحالِ . . لَم يَبطلْ صومُه ، معَ قولِ مالك : إِنَّهُ يَبطل .

ومِنها : قولُ أَبي حنيفةَ والشَّافعي ، وأَحمدَ في إِحدىٰ روايتيه : إِنَّ القُبلةَ لا تحرمُ على الصَّائِمِ إِلاَّ إِنْ حرَّكَتْ شهوتَه ، معَ قولِ مالك : إِنَّها تَحرمُ عليهِ بكلِّ حال .

ومِنها : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة : إِنَّهُ لَو قَبَّلَ فأَمذىٰ[2] . . لَم يُفطر ، معَ قولِ أَحمد : إِنَّهُ يُفطر .

---

(١) مذهب الإمام الشافعي رحمه الله أيضاً عدم تعدُّد الكفارة عند تعدُّد الوطء في اليوم بل تلزمه واحدة .

(٢) **أمذىٰ**: خرج منه المذي؛ **والمذي**: ماءٌ رقيقٌ يخرج من مجرى البول عند الملاعبة والتقبيل من غير إرادة.

وكذلكَ لَو نظرَ بشهوةٍ فأَنزل . . لَم يُفطرْ عندَ الثَّلاثة ، وقالَ مالك : يُفطر .

ومِنها : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة : إِنَّ لِلمسافرِ الفطرَ بالأَكلِ والشُّربِ والجِماع ، معَ قولِ أَحمد : إِنَّهُ لا يجوزُ لهُ الفطرُ بالجماع ، ومتىٰ ما جامَعَ المسافرُ عندَه . . فعليهِ الكفَّارة .

ومِنها : قولُ أَبي حنيفةَ ومالك : إِنَّ مَنْ أَفطرَ في نهارِ رمضانَ وهوَ صحيحٌ مقيم . . تلزمُهُ الكفَّارةُ معَ القضاء ، معَ قولِ الشَّافعي ـ في أَرجحِ قولَيه ـ وأَحمد : إِنَّهُ لا كفَّارةَ عليه .

ومِنها : قولُ الأَئِمَّةِ الأَربعة : إِنَّ مَنْ أَفسدَ صومَ يومٍ مِنْ رمضانَ بالأَكلِ أَوِ الشُّربِ عامداً . . ليسَ عليهِ إِلاَّ قضاءُ يومٍ مكانَه[1] .

معَ قولِ ربيعة : لا يَحصل إِلاَّ بصومِ اثني عشَرَ يوماً .

ومعَ قولِ ابنِ المسيّب : إِنَّهُ يصومُ عن كلِّ يومٍ شهراً .

ومعَ قولِ النَّخعي : إِنَّهُ لا يَحصلُ إِلاَّ بصومِ أَلفِ يوم .

ومعَ قولِ عليٍّ وابنِ مسعود : إِنَّهُ لا يقضيهِ صومُ الدَّهر .

ومِنها : قولُ أَبي حنيفةَ والشَّافعي : إِنَّ مَنْ أَكلَ أَو شربَ أَو جامعَ ناسياً . . لَم يَبطلْ صومُه ، معَ قولِ مالك : إِنَّهُ يَبطل ، ومعَ قولِ أَحمد : إِنَّهُ يَبطلُ بالجماعِ دونَ الأَكلِ والشُّرب ، وتجبُ بهِ الكفَّارة .

ودليلُ أَبي حنيفة : قولُه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ أَكَلَ أَوْ شَرِبَ نَاسِياً وَهُوَ صَائِم . . فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَسَقَاه » .

ومِنها : قولُ أَبي حنيفةَ ومالك : إِنَّهُ لَو سبقَ ماءُ المضمضةِ أَوِ الاستنشاقِ إِلىٰ جوفِ الصَّائِمِ مِنْ غيرِ مبالَغة . . بَطَلَ صومُه ، معَ قولِ الشَّافعي ـ في أَرجحِ قولَيه ؛ وهوَ قولُ أَحمد : إِنَّهُ لا يَبطل .

---

(١) ويمسك بقية النهار ؛ لحرمةِ شهر رمضان .

ومِنها : قولُ مالكٍ والشَّافعيِّ وأَحمد : إِنَّ مَن أَخَّرَ قضاءَ رمضان ، معَ إِمكانِ القضاء ، حتَّىٰ يدخلَ رمضانٌ آخَر . . لَزِمَه ـ معَ القضاء ـ لكلِّ يومٍ مُد ، معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّهُ يجوزُ لَهُ التَّأْخيرُ ولا كفَّارةَ عليه ، واختارَهُ المزني .

وقالَ الأَئِمَّةُ الثَّلاثة : إِنَّهُ لا يجوزُ تأْخير القضاء .

ومِنها : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثةِ باستحبابِ صيامِ ستَّةِ أَيَّامٍ مِنْ شوَّال ، معَ قولِ مالك : إِنَّهُ لا يُستحبُّ صيامُها ، وقالَ في « الموطَّأ » : لَم أَرَ أَحداً مِنْ أَشياخي يَصومُها ، وأَخافُ أَنْ يُظنَّ أَنَّها فرض . اهـ

قلت : وما نقلَهُ المُناويُّ في « شرحِهِ الكبيرِ لِلجامعِ الصَّغير » وصاحبُ « الدُّررِ واللَّآلي » : أَنَّ الإمامَ الأَعظمَ قالَ بكراهيةِ صومِها . . فهوَ قولٌ غيرُ مصحَّحٍ عنهُ ، ولا مرويٌّ بطريقٍ سالمٍ منه ، فلا تَغفل .

أَقول : واتَّفقوا علىٰ أَنَّ الصَّائِمَ إِذا غمسَ جميعَ بدنهِ ورأْسهِ في الماء . . لا يفطر ، خلافاً لِلشِّيعة ؛ فإِنَّ ذلكَ عندَهُم مفطر .

واتَّفقَ العلماءُ المتأَخِّرونَ علىٰ أَنَّ شربَ الدُّخانِ والتُّتُنِ[1] وجعلَهُ في الأَنفِ والاستعاطُ به ، أَنَّ ذلكَ مفطر ؛ لِدخولِهِ إِلى الجوفِ والباطن ، فلا تَغفل .

وفي « حاشيةِ الحضرميَّة » للجدِّ العلاَّمةِ الشَّيخِ حسينٍ أَفندي عليهِ الرَّحمة : لو خَرجَتْ مِقْعَدَةُ مبسورٍ[2] . . لَم يُفطر ، وكذا إِنْ أَعادَها ، ولا يجبُ غسلُ ما عليها مِنَ القذر ، ولا يضرُّ عَودُهُ معَها لِلباطن ؛ لأَنَّهُ لَم يُفارِقْ معدتَه ، سواءٌ ضرَّهُ الغسلُ أَمْ لا . اهـ

قلت : وذكرَ أَئِمَّتُنا الحنفيَّة : أَنَّ الصَّائِمَ لا يُبالغُ في الاستنجاء ، خوفاً مِنْ أَنْ يُدخلَ في باطنهِ الماء ، فليُحفَظ .

واعلموا : أَنَّهُ يُسنُّ تعجيلُ الفطرِ إِذا تيقَّنَ الغروب ، وتقديمُهُ على الصَّلاة ؛ لِلخبرِ

---

(١) **التُّتُنْ** : اسم يُطلق على التبغ .

(٢) **مبسور** ، أي : مَنْ فيه باسور ؛ وهو : ورم في باطن المقعدة . وأما **الناسور** فهو : قرحة فاسدة لا تقبل البرء ما دام فيها ذلك الفساد .

الصَّحيح : « لاَ يَزَالُ النَّاسُ بخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْر » وفي خبر : « أَحَبُّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعْجَلُهُمْ فِطْراً » علىٰ تَمْر ، وأَفضلُ منهُ رطبٌ إنْ وُجِد ؛ لِما صح : (كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يُفطرُ قَبْلَ أَنْ يُصلِّيَ علىٰ رطبات ، فإنْ لَم يَكن . . فعلىٰ تمرات ، فإنْ لَم يَكن . . حسا حَسواتٍ مِنْ ماء) ؛ للخبرِ الصَّحيح : « إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِماً . . فَلْيُفْطِرْ عَلَى التَّمْر ؛ فَإِنَّهُ بَرَكَة ، فَإِنْ لَمْ يَجِد . . فَعَلَىٰ مَاء ؛ فَإِنَّهُ طَهُور » .

وأَخذَ منهُ ابنُ المنذِرِ وغيرُهُ وجوبَ الفطرِ على التَّمر ، وقالَ المحبُّ الطَّبري : يُسنُّ لَهُ علىٰ ماءِ زمزم ، ولَو جمع . . فحسَن ، وفيها مخالفةٌ لروايةِ التَّمر ، فلا تَغفل .

وقيل : الأَوْلىٰ في هٰذا الزَّمنِ أَنْ يُفطرَ علىٰ ماءِ النَّهْرِ ويأْخذَهُ بيده ؛ لعدمِ وجودِ الحلالِ الصِّرف ، وإنْ قيل : إنَّ ماءَ الأَنهرِ الكبار ـ كدجلة ـ لا يخلو عن شبهة ؛ لأَنَّهُ كما قالَ ابنُ حجر : إنَّ كثيراً مِنَ البلادِ الَّتي علىٰ حافَّتِها يَحفرونَ حُفَراً لِصيدِ السَّمك ، فيمتلىءُ ماء ، ثمَّ يَسدُّونَ عليه ، فإذا أَخذوا السَّمكَ منه . . فتحوا السَّد ؛ فيختلطُ ماؤُهُمُ المملوكُ بغيره ، وهٰذهِ شبهةٌ قويَّة . اهـ

وحِكمةُ الإفطارِ على التَّمر ـ كما قالَ ابنُ حجر ـ : أَنَّهُ لَم تَمسَّهُ نار ، معَ إزالتهِ لضعفِ البصرِ الحاصلِ مِنَ الصَّوم ؛ لإخراجهِ فضلاتِ المعدةِ إنْ كانت ، وإلا . . فتغذيةٌ لِلأَعضاءِ الرَّئيسة .

وقولُ الأَطباء : إنَّهُ يُضْعِفُه ؛ أَي : عندَ المداومةِ عليه ، والشَّيءُ قد ينفعُ قليلُهُ ويضرُّ كثيرُه .

قيل : والزَّبيبُ أَخو التَّمرِ إنْ لَم يُوجَد . اهـ

قالَ بعضُ الأَفاضل : ومِنَ القبيحِ إفطارُ كثيرٍ مِنَ النَّاسِ على الدُّخانِ والتُّتن ، معَ أَنَّ العلماءَ اختلفوا فيهِ كما قالَ العلاَّمةُ ابنُ عابدين ، فمنهُم مَنْ قالَ بحُرمته ، ومنهُم مَنْ قالَ بكراهته ، ومنهُم مَنْ قالَ بإباحتهِ كالثُّومِ والبصل(١) ، وقد وردَ فيهما : « مَنْ أَكَلَ

---

(١) وفي زماننا القطع بحرمته لثبوت ضرره ، فعلىٰ من ابتلي به ـ أو بغيره من المعاصي ـ الاجتهاد في الاستغفار والالتجاء إلى الله تعالى في الخلاص .

هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْن . . فَلاَ يَقْرَبْ مَسْجِدَنَا يُؤْذِنَا » وستأتي تتمَّةُ البحثِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ويُسنُّ أَنْ يقولَ عقبَ فطره : « اللّهُمَّ لَكَ صُمْت » ـ أي : لا لغرضٍ ولا لأحدٍ غيركَ ـ « وَعَلَىٰ رِزْقِكَ أَفْطَرْت » ، وروي : « ذَهَبَ الظَّمَأُ وَابْتَلَّتِ الْعُرُوقُ وَثَبَتَ الأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ » وفي رواية : « يا واسعَ الفضل ؛ اغفر لي » .

واعلموا : أَنَّ مِنَ السُّننِ في الصِّيام : السُّحورَ وتأخيرَه ؛ لِما في « صحيحِ البخاري » عن زيدِ بنِ ثابت رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : (تسحَّرنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، ثمَّ قامَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إلى الصَّلاة ، قلت : كم بينَ الأَذانِ والسُّحور ؟ قال : « قَدْرُ خَمْسِينَ آيَة ») .

وفي « الصَّحيحَين » عن أَنسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « تَسَحَّرُوا ؛ فَإِنَّ في السَّحُورِ بَرَكَة » والبركةُ الَّتي فيه : القوَّةُ على الصِّيام ؛ لخفَّةِ المشقَّةِ على المتسحِّر . وقيل : لأَنَّهُ يتضمَّنُ الاستيقاظَ والذِّكرَ والدُّعاءَ في وقتِ نزولِ الرَّحمة .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « فَصْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحُور » رواهُ مسلِم .

ومعناه : أَنَّهُ الفارقُ بينَ الصِّيامَينِ ؛ فإِنَّهُم لا يَتسحَّرون .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِين » .

واعلموا رحمَكُمُ اللهُ تعالىٰ وإيَّانا : أَنَّ مِنْ أَعظمِ القُرَبِ في شهرِ رمضانَ صلاةَ التَّراويح ، ففي « شرحِ السَّفيري » ، بابُ فضلِ مَنْ قامَ رمضان : حدَّثنا يحيىٰ بنُ بكير ، قال : حدَّثني اللَّيث ، عن عقيل ، عنِ ابنِ شهابٍ قال : حدَّثني أَبو سَلَمةَ أَنَّ أَبا هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول لرمَضَان : « مَنْ قَامَهُ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً . غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه » .

ومعنىٰ قولهِ عليهِ السَّلام : « إِيماناً » أَي : مصدِّقاً بما وعدَ اللهُ تعالىٰ مِنَ الثَّوابِ عليه ، ومعتقداً لِفضله .

وقوله : « احتساباً » ؛ أَي : يُريدُ بهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ والدّارَ الآخِرَة ، مِنْ غيرِ رياءٍ ولا سُمعة .

وقوله : « غُفِرَ لَهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبه » : قيل : الصَّغائِرُ والكبائِرُ ما عدا حقوقَ العباد ، وقيل : الصَّغائِرُ فقط .

قالَ العلماء : والمرادُ بقيامه : أَنْ يُصلِّيَ صَلاةَ التَّراويح في لياليه ، وهيَ سُنَّةٌ باتِّفاقِ العلماء ، وإِنَّما سمِّيت بالتَّراويح ؛ لأَنَّهُم كانوا يَستريحونَ بعدَ كلِّ تسليمتَين ، وتُسمَّىٰ كلُّ أَربعةٍ منها ترويحة ، فهيَ خمسُ ترويحات ، وأَهلُ المدينةِ كانوا يُصلُّونَها ستّاً وثلاثينَ ركعة .

قالَ الإِمامُ الشَّافعي رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : رأَيتُ أَهلَ المدينةِ يُصلُّونَ تسعاً وثلاثينَ ركعة ، منها ثلاث الوتر .

وروى الإِمامُ البخاريُّ في « صحيحه » عن عروة ، عن عائشة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها أَخبرته (أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ـ خرجَ ليلةً مِنْ جوفِ اللَّيل ، فصلَّىٰ في المسجد ، وصلَّىٰ رجالٌ بصَلاته ، فأَصبحَ النّاسُ فتحدَّثوا ، فكثرَ أَهلُ المسجدِ مِنَ اللَّيلةِ الثَّالثة ، فخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فصلَّىٰ ، فصلَّوا بصَلاته ، فلمّا كانتِ اللَّيلةُ الرَّابعة . . عجزَ المسجدُ عن أَهله ، حتَّىٰ خرجَ لِصَلاةِ الصُّبح ، فلمَّا قَضى الفجر . . أَقبلَ على النَّاس ، فتشهَّدَ ثمَّ قال :

« أَمَّا بَعْد : فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُم ، وَلَـٰكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا » .

فتوفِّيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم والأَمرُ علىٰ ذلك) .

قالَ بعضُ العلماء : يحتملُ عدمُ خروجهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وجوهاً :

الأَوَّل : أَنْ يكونَ أَوحى اللهُ تعالىٰ إِليه : إِنْ صلَّىٰ هـٰذهِ الصَّلاةَ معَهُم . . فُرِضَتْ عليهِم .

الثَّاني : أَنْ يكونَ ظَن عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام أَنَّها ستُفرضُ عليهِم .

الثَّالث : أَنْ يكونَ خافَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنْ يَظنَّ أَحدٌ مِنْ أُمَّتِه بعدَهُ إِذا داومَ عليها أَنَّها واجبة ؛ أَي : يتوهَّموا فرضيَّتها فيَعجزوا عنها ، واللهُ تعالىٰ يقول : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ وهٰذا مِنْ شفقتهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : فإِنَّهُ كانَ بالمؤمنينَ رحيماً .

قالَ العلماء : وصلاَّها باقي الشَّهرِ في بيته ، واستمرَّ تَرْكُ صَلاةِ التَّراويحِ معَ الجماعةِ إِلىٰ خلافةِ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه ، حتَّىٰ جمعَ النَّاسَ عليها جميعَ شهرِ رمضان .

قالَ ابنُ الملقِّن : ذُكرَ أَنَّ علياً كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَهُ مرَّ ليلةً ببعضِ مساجدِ الكوفةِ في رمضانَ وهُم يَقومون ، فقال : (نوَّرَ علينا عمرُ مساجدَنا ، نوَّرَ اللهُ عليهِ قبرَه) .

فإِنْ قيل : قد ثبتَ في « صحيحِ البخاري » عن عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ أَنَّهُ قالَ في التَّراويح : (نِعمَتِ البدعةُ هٰذه) . فسمَّاها بدعة ، معَ أَنَّ البدعةَ هي الفعلُ الَّذي لَم يُعهَدْ في عصرِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، وهٰذهِ قد عُهِدَ فِعلُها في الجملة . . فقد أَجابَ الكرمانيُّ بأَجوبة :

مِنها : أَنَّهُ لَم يَثبتْ فِعلُها كلَّ ليلةٍ معَ الجماعة .

ومِنها : أَنَّهُ لَم يثبتْ فِعلُها بهٰذهِ الصِّفة ؛ أَي : بهٰذا العَددِ المعيَّن ؛ فلذا قيل : أَربعون ، وقيل : ستٌّ وثلاثونَ ما عدا الوتر ، وقيل : عشرون ، وهوَ المشهور .

ومِنها : أَنَّهُ لَم يثبتْ فِعلُها أَوَّلَ اللَّيل ، فلهٰذا قالَ الحليميُّ في « منهاجه » : ينبغي أَنْ يكونَ الشُّروع فيها بعدَ مضيِّ ربعِ اللَّيلِ أَو قريباً منه .

فإِنْ قيل : البدعة ـ علىٰ ما قالَ غيرُ واحد ـ تنقسمُ إِلىٰ خمسةِ أَقسام : واجبة ، ومندوبة ، ومحرَّمة ، ومكروهة ، ومباحة ، فمِنْ أَيِّ قسمِ صَلاةُ التَّراويح ؟

فالجواب : أَنَّها مِنْ قسمِ المندوبة ، وقد صرَّحَ بذلكَ العزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ في « قواعده »[1] فمثَّلَ لِلبدعةِ الواجبةِ بتعلُّمِ النَّحوِ لأَجلِ القرآنِ والحديث ، والمحرَّمةِ

(١) المسمّىٰ : « قواعد الأحكام في مصالح الأنام » .

بمذهبِ القدَريَّةِ والمجسِّمةِ ونحوِهما ، وقال : إنَّ الرَّدَّ عليهم مِنَ البدعةِ الواجبة ، وللمندوبةِ بصلاةِ التَّراويحِ وبناءِ المدارسِ ونحوِهما ، وللمكروهةِ بزخرفةِ المساجدِ وتزويقِ المصاحف ، وللمباحةِ بالمصافحةِ بعدَ صَلاةِ العصر ، بل قيل : سنة ، وأَصلُ المصافحةِ سنة ؛ فقد ورد : « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ ، وَتَكَاشَرَا ، وَتَصَافَحَا . . تَحَاتَّتْ عَنْهُمَا ذُنُوبُهُمَا » .

وأَمَّا تقبيلُ يدِ العالمِ والسُّلطان . . فقيل : لا بأْسَ به .

والحاصل : أَنَّ التَّراويحَ مندوبةٌ ومسنونةٌ بفعلِ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه لقولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي ، أَبِي بَكْرٍ وَعُمَر » ، ولا سيَّما وقدِ اتَّفقت معَهُ الصَّحابة ، فقد زالَ اسمُ البدعةِ عنها ؛ لٰكنْ لا تُفعلُ بكثرةِ التَّطويلِ الممل ، ولا بالاستعجالِ المخل ، مِنْ غيرِ خشوعٍ ولا تكميلِ أَركان ، كما يَفعلُها كثيرٌ مِنْ أَئِمَّةِ الزَّمان ، وكذا صَلاتُها في البيتِ باستئجارِ الإِمام ، كما يَفعلُهُ كثيرٌ مِنَ الأَنام ، فذلكَ مكروهٌ أَشدَّ الكراهةِ كما ؛ نصَّ علىٰ ذلكَ في « الفتاوى الهنديَّة » ، فلا تَغفل .

عبادَ الله ؛ قد مضىٰ عنكُم شهرُ رجبَ وشعبان ، ولعلَّ أَكثرَ أَيَّامِهما ذَهبتْ في العصيان ، وها أَنتُمُ اليومَ في شهرِ رمضان ، وهوَ شهرُ الإِعتاقِ مِنَ النِّيران ، لِمَنْ تركَ الذُّنوبَ واستحيىٰ مِنْ رقيْبِهِ القائل : (الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِه) .

شهرٌ أَقبلَ على المقبولِينَ بتكثيرِ الأُجور ، وعلى الصَّادقِينَ بتوفيرِ النُّور ، وعلى المتَّقينَ بالفرحِ والسُّرور ، وعلى التَّائِبينَ بتقويمِ الأُمور ، وعلى العاملِ بتكميلِ نصيبه ، (الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجزِي بِه) .

شهرٌ يتمُّ بهِ الإِسعادُ والتَّكريم ، ويتفضَّلُ بجزيلِ الإِنعامِ الملكُ الكريم ، ويُصفَّدُ فيهِ كلُّ شيطانٍ رَجيم ، ويُعافىٰ فيهِ مريضُ الخطايا السَّقيم إِذا امتثلَ أَمرَ طبيبه ، (الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ) .

شهرٌ تتوفَّرُ فيهِ العطايا والمِنَح ، ويتحصَّلُ فيهِ كلُّ مأْمولٍ مقترَح ، ويتمُّ للعابدِ بالثَّوابِ الفرح ، ويُغفرُ لِلعاصي كلَّ ما اجترح ، ويُعادُ علىٰ مَنْ أَصلحَ وصلَحَ بإِدنائهِ وتقريبه ، (الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي به) .

فيهِ الأَحبابُ بالدُّعاءِ يَعجُّون ، وبالتَّضرُّعِ في جميعِ أَوقاتهِ يَضجُّون ، وفي نهارهِ مِنَ الغفلاتِ يَتحرَّجون ، وفي دياجيهِ لِلمولى الكريمِ يُناجون ، وبآمالِهم لسيِّدهم يَلتجئون إذا سَكنَ كلُّ حبيبٍ إِلىٰ حبيبه ، (الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِه) .

شهرٌ يَعفو فيهِ عن عبادهِ الرَّؤُوفُ الرَّحيم ، فَاحفظوهُ لعلَّهُ يَحصلُ لكُم جنَّاتُ النَّعيم ، ويَقيكُم في القيامةِ هولَ الجحيم ، إِذا انزعجتِ القلوبُ لِهَيْبَةِ لَهِيبه ، (الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِه) .

لقَدْ سعدَ مَنِ اتَّقىٰ فيهِ ونَجا ، ولقد نالَ مأْمولَ الغفرانِ فيهِ مَنْ رَجا ، ولقد تمَّ حالُ مَنْ أَفطرَ فيهِ على السُّؤَالِ والْتَجا ، وتسحَّرَ في جوفِ اللَّيلِ وظُلمةِ الدُّجا ببكائهِ ونحيبه ، (الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِه) .

فصحِّحوا رحمكُمُ الله الفروضَ والنَّوافل ، واحترسوا مِنْ سهواتِ الغفلاتِ القواتل ، وتيقَّظوا قَبْلَ لحاقِ الأَواخرِ بالأَوائِل . . تَنْجوا مِنْ عقابِ اللهِ وتعذيبه ، (الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِه) .

واحذروا غيبةَ النَّاس ؛ فإِنَّها تُحبطُ الأَجر ، وجانبوا أَكلَ الحرام ؛ فإِنَّهُ سببُ الطَّردِ والهجر ، وعظِّموا شهركُم ؛ فإِنَّهُ عظيمُ الأَمر ، وانتظروا فيهِ بحسنِ اليقظةِ ليلةَ القدر ؛ فإِنَّها غريبةُ غريبه ، وعجيبةُ عجيبه ، « الصَّوْمُ لِي وأَنَا أَجْزِي بِه » .

وإِيَّاكُم فيهِ وفضولَ النَّظرِ والكلام ، واجتهدوا فيهِ في الصَّلاةِ والصِّيام ، فإِذا سلمَ رمضان . . سلمَ جميعُ العام ، عساهُ يقيكُم شرَّ الوقوفِ على الأَقدام ، يومَ يفرُّ المرءُ مِنْ أَخيه ، والنَّسيبُ مِنْ نسيبه ، (الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِه) .

وحقِّقوا في صيامكُمُ التَّقوىٰ والورَع ، ولازِموا الحذرَ قَبْلَ يوم الفزع ، وراقِبوا مولاكُم لعلَّهُ إِذا اطلع . . منحكم أَفضلَ المِنحِ ، ووهبَ أَحسنَ الخِلَع في دارِ جزائِهِ وثوابه ، إِذا تبرَّأَ الحبيبُ مِنْ حبيبه ، (الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِه) .

اللَّهُمَّ ؛ أَيقِظنا مِنْ رقداتِ الغفلة ، ووفِّقنا لِلتَّزوُّدِ قَبْلَ النقلة ، وأَلهِمنا اغتنامَ الزَّمانِ ووقتَ المهلة .

اللَّهُمَّ ؛ إِنَّا نَستغفرُكَ ونتوبُ إِليك ، ونعتمدُ عليك ، ونسأَلُكَ بنورِ وجهكَ الكريم ، وسلطانكَ العظيم ، توبةً صادقة ، وأَوبةً خالِصة ، وإِنابةً كاملة ، ومحبةً غالبة ، وشوقاً إِليك ، ورغبةً فيما لديك ، وفَرَجاً عاجلاً ، ورزقاً حلالاً واسعاً .

اللَّهُمَّ ؛ إِنَّا نسأَلُكَ لِساناً رطباً بذِكرك ، وقلباً منعَّماً بشُكرك ، وبدناً هَيْناً لَيْناً بِطاعَتك ، وأَعطِنا معَ ذلكَ ما لا عينٌ رأَت ، ولا أُذنٌ سمعَت ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشر .

اللَّهُمَّ ؛ الطُفْ بِنا فِي قضائِك ، وعافِنا مِنْ بلائِك ، وَهَبْ لنا ما وهبتَهُ لأَوليائِك ، واجعلْ خيرَ أَيَّامِنا وأَسعدَها يومَ لقائِك ، وتوفَّنا وأَنتَ راضٍ عنَّا ، وقد قَبلتَ اليسيرَ منَّا ، واجعلنا ـ يا مولانا ـ مِنْ عبادكَ الَّذينَ لا خوفٌ عليهِم ولا هُم يَحزنون .

اللَّهُمَّ ؛ اعصمنا مِنْ شرِّ الفتَن ، وعافِنا مِنْ جميعِ المحن ، وأَصلِحْ مِنَّا ما ظَهرَ وما بطن ، ونقِّ قلوبَنا مِنَ الحقدِ والحسد ، ولا تَجعلْ علينا تباعةً لأَحد .

اللَّهُمَّ ؛ إِنَّا نعوذُ بكَ مِنَ الفقرِ إِلاَّ إِليك ، ومِنَ الذُّلِّ إِلاَّ لك ، ومِنَ الخوفِ إِلاَّ مِنك ، ونعوذُ بكَ أَنْ نقولَ زوراً ، وأَنْ نغشىٰ فجوراً ، ونعوذُ بكَ مِنْ شماتةِ الأَعداء ، وعُضالِ الدَّاء ، وخيبة الرَّجاء ، وزوال النِّعمة ، وفجأَةِ النِّقمة .

اللَّهُمَّ ؛ توفَّنا مسلِمين ، وأَلحِقنا بالصَّالِحين ، غيرَ خزايا ولا مَفتونِين ، واغفر لنا ولوالدِينا ولِلجماعةِ الحاضرِين ، ولجميعِ المسلِمين ، برحمتكَ يا أَرحمَ الرَّاحمين .

* * *

المجلس الرَّابع
في صوم الصَّبيِّ وما يتعلَّق به ، كالعقيقة ونحوها

بِسمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيم

الحمدُ للهِ الَّذي تُسبِّحُ لَهُ البحارُ الطَّوافح[1] ، والسُّحبُ السَّوافح[2] ، والأَبصارُ الطَّوامح ، والأَفكارُ والقرائح ، العزيزُ في سُلطانه ، الكريمُ في امتنانِه ، ساترُ المذنبِ في عصيانِه ، ورازقُ الصَّالحِ والطَّالح ، تقدَّسَ عن مِثلٍ وشَبيه ، وتنزَّهَ عن نقصٍ يَعتريه ، يَعلمُ خافيةَ الصَّدرِ وما فيه ، مِنْ سِرٍّ أَضمرتْهُ الجوانِح ، لا يَشغلُه شاغِل ، ولا يبرمهُ سائِل ، ولا ينقصهُ نائِل ، تعالىٰ عنِ النِّدِّ المماثِل ، والضِّدِّ المُكادح ، يَسمعُ تغريدَ الورقاءِ على الغُصن ، وما شاءَ كانَ وما لَم يَشأْ لَم يَكن ، ويَتكلَّمُ وكلامُهُ مكتوبٌ في اللَّوح ، مسموعٌ بالأُذنِ بغيرِ آلاتٍ ولا أَدواتٍ ولا جوانِح ، موصوفٌ بالسَّمعِ والبصَر ، مرئِيٌّ في الجنَّةِ كما يُرى القمر ، مَنْ شَبَّهَهُ أَو كيَّفَه . . فقد كفر ، هـٰذا مذهبُ أَهل السنَّةِ والأَثر ، ودليلُهم جليٌّ واضح ، يُنجي مَنْ يَشاءُ كما يشاء ويُهلِك ، فهوَ المسلِّم والمُسلمُ والمهلِك ، لَم يَنتفعْ كنعانُ[3] بالنَّسبِ يومَ الغرق ؛ لأَنَّهُ مشرِك ، ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ﴾ الآية .

أَحمدُهُ علىٰ تسهيلِ المصالِح ، وأَشكرُهُ علىٰ سترِ القبائِح ، وأُصلِّي علىٰ رسولهِ محمَّدٍ أَفضلِ غادٍ ورائِح ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ ذي الفضلِ الرَّاجِح ، وعلىٰ عمرَ العادلِ فلَم يُراقِب ولَم يُسامِح ، وعلىٰ عثمانَ الَّذي بايعَ عنهُ الرَّسولُ فيالَها

---

(١) **الطوافح** ـ من طفح الإناء ـ : امتلأ حتىٰ يفيض .

(٢) **السّوافح** : التي تهرق الماء .

(٣) اسم ابن سيدنا نوح عليه السلام فيما يقال .

صفقة رَابح ، وعلىٰ عليٍّ البحرِ الخِضمِّ الطافح ، وعلىٰ جميعِ آلهِ وأَصحابهِ ذي الرَّأْي السَّديدِ والعملِ الصَّالح .

أَمَّا بعد :

فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في محكمِ كتابهِ العزيز ، وكلامهِ البليغِ الوجيز : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ .

فنقولُ :

قالَ المفسِّرون : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ ﴾ المرادُ بهِم أَهلُ بيته ، وقيل : جميعُ أُمَّته ، ولَم يَذكرْ هـٰهنا الأمرَ مِنَ اللهِ تعالىٰ لَهُ ﴿ بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ، بل قصرَ الأَمرَ علىٰ أَهله ؛ إمَّا لِكونِ إِقامتهِ لها أَمراً معلوماً ، أَو لِكونِ أَمرهِ بها قد تقدَّمَ في قوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ . . . ﴾ إلخ .

أَو لِكونِ أَمرهِ بِالأَمرِ لأَهلهِ أَمراً لَه ، ولهـٰذا قال : ﴿ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ ﴾ ؛ أَي : اصبرْ علىٰ محافظةِ الصَّلاة ، فإِنَّها تنهىٰ عنِ الفحشاءِ والمنكَر ، ولا تَشتغلْ عنها بشيءٍ مِنْ أُمورِ الدُّنيا .

وقيل : اصبرْ عليها فعلاً ؛ فإِنَّ الوعظَ بلسانِ الفعلِ أَبلغُ منهُ بلسانِ القول .

أَخرجَ ابن النجار ، وابنُ عساكر وابنُ مردويه : عن أَبي سعيدٍ الخدريِّ قال : لمَّا نزلَتْ هـٰذهِ الآية . . (كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يَجيءُ إِلىٰ بابِ عليٍّ صلاةَ الغداةِ ثمانيةَ أَشهر ، يقول : « الصَّلاةَ رَحِمَكُمُ الله » ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ .

وأَخرجَ أَحمد والبيهقيُّ وغيرُهما عن ثابتٍ رضي الله عنه قال : كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إِذَا أَصابَتْ أَهلَهُ خَصاصة . . نادىٰ أَهلَه : « يَا أَهْلاَه ؛ صَلُّوا ، صَلُّوا » قالَ ثابت : وكانتِ الأَنبياءُ إِذا نزلَ بهِم أَمر . . فزِعوا إِلى الصَّلاة .

وعن عبدِ اللهِ بنِ سلام : قالَ السُّيوطيُّ بسندٍ صحيح : قال : كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إِذا نزلَتْ بأَهلهِ شدَّةٌ أَو ضِيق . . أَمرهُم بالصَّلاة ، وقرأَ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ . . . ﴾ الآية .

وكانَ عروةُ بنُ الزُّبيرِ إذا رأَىٰ ما عندَ السَّلاطين . . قرأَ هـٰذهِ الآية ، ثمَّ يُنادِي : الصَّلاَةَ الصَّلاة .

وكانَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المزنيُّ إذا أصابَ أهلَهُ خَصاصة . . قال : قوموا فصلُّوا ، بهـٰذا أمرَ اللهُ ورسولُه .

وعن مالكِ بنِ دينارٍ مثلُه .

﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ﴾ أَي : لا نُكلِّفُكَ أَنْ ترزقَ نَفْسَكَ ولا أَهلك ، وتشتغلَ بذلكَ عنِ الصَّلاة ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ ونرزقُهم ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ ﴾ المحمودة ؛ وهيَ الجنَّةُ ﴿ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ ؛ أَي : لأَهلِ التَّقوىٰ علىٰ حذفِ المضافِ ، كما قالَ الأَخفش .

وفيهِ دليلٌ علىٰ أَنَّ التَّقوىٰ هيَ ملاكُ الأَمر ، وعليها تدورُ دوائرُ الخير .

قالَ السَّفيريُّ عليهِ الرَّحمة : ويجبُ علىٰ وليِّ الصَّغيرِ أَنْ يأْمرهُ بالصَّلاةِ إذا بلغَ الصَّغيرُ سبعَ سنين ، وإذا بلغَ عشرَ سنينَ أَنْ يَضربَه ، وكذا الأَمرُ بالصَّومِ إِنْ أَطاقَه ، والمرادُ بالولي : الأَب ، والجد ، والوصي ، والقيِّم .

فإِنْ تركَ الوليُّ الأَمرَ أَوِ الضَّرب . . أَثم .

وكما يجبُ عليهِ ذلكَ يجبُ عليهِ تعليمُهُ الطَّهارةَ وما يلزمُ مِنَ العلم ، ونهيُهُ عن فِعلِ المحرَّمات ، وأَمرُهُ بقضاءِ ما فاتَهُ مِنَ الصَّلاة ، وضربُهُ عليها .

وليُعلَمْ أَنَّ الأَئِمَّةَ اختلفوا في رجوعِ ثوابِ الصَّبيِّ لِمَن ، مِنْ صَلاةٍ وحجٍّ وقراءةٍ ونحوِ ذلك ؟

فالَّذي ذكرَهُ الإِمامُ النَّوويُّ الشَّافعيُّ في « فتاويه » : أَنَّ ثوابَ ذلكَ لِلصَّبيِّ لا لوالديه ، بل يُثابُ وليُّهُ علىٰ أَمرِهِ لَهُ بذلك . وهـٰذا مذهبُ الشَّافعي رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه .

واختلفَ الحنفيَّة : ففي « فتاوىٰ قاضي خان »[1] إذا فعلَ الصَّغيرُ مِنَ الحسنات . . قالَ أَبو بكرٍ الإِسكافي : تكونُ حسناتُهُ لَهُ دونَ أَبويه ؛ لِقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ

---

(١) هو : حسن بن منصور الفرغاني .

﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ وإنَّما يكونُ لوالدهِ مِنْ ذلكَ أجرُ التَّعليم ، كما قالتِ الشَّافعيَّة .

وقالَ بعضهُم : حَسناتُهُ تكونُ لأبويه ؛ لِما روي عن أَنسِ بنِ مالك رضيَ اللهُ تعالىٰ عَنه أَنَّهُ قال : مِنْ جملةِ ما ينتفعُ بهِ المرءُ بعدَ موته : أَنْ يَترِكَ ولداً علَّمهُ القرآنَ والعِلم ، فيكونُ لوالديهِ أَجرُ ذلكَ مِنْ غيرِ أَنْ ينقصَ مِنْ أَجرِ الولدِ شيء . وهٰذا يَرجعُ إِلىٰ قولِ الشَّافعيِّ أَيضاً .

وأَما المرأَة : فكما ذكرنا : إنَّها مِنَ الأَهل ، فيلزمُ أَمرُها بذلك ، لٰكنَّ المرأَةَ إِذا أَرادت أَنْ تصومَ نفلاً . . فلا تصومُ إِلاَّ بِرضا زوجِها ؛ فإِنَّ الصِّيامَ بلا إِذنه ـ علىٰ ما قالَ ابنُ حجرٍ في « الزَّواجر » ـ مِنَ الكبائرِ كما تقدَّم .

وكذا يجبُ على السَّيِّدِ أَنْ يأمرَ رقيقَهُ ورقيقتَهُ بالصَّلاةِ والصَّومِ وغيرِ ذلك ، كالولدِ والأَقاربِ وأُولي الأَرحام .

وليُعلَم أَنَّ لِلوالدِ على الولدِ حقوقاً ، وللولدِ علىٰ والديهِ حقوقاً ، والحقوقُ قسمان : واجبة ، ومندوبة .

فمِنَ الحقوقِ الواجبةِ عليه : النَّفقةُ والكسوة ؛ فقد روي : « كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْماً . . أَنْ يُضِيعَ مَنْ يَعُول » .

ومِنها : أَمرُهُ بالصَّلاة ، كما تقدَّم .

وأَمَّا حقوقُهُ المستحبَّة . . فكثيرة :

مِنها : أَنْ يُؤَذِّنَ في أُذنهِ اليمنىٰ ويقيمَ في اليسرىٰ ، وللهِ درُّ مَنْ قال :

أَذانُ المَـرْءِ حِيـنَ الطِّفْـلُ يَـأْتِـي ... وَتَـأْخِيـرُ الصَّـلاةِ إِلـى الْمَمَـاتِ
دَلِيــلٌ أَنَّ مَحْيَـــاهُ قَلِيـــلٌ ... كَمَـا بَيْـنَ الأَذَانِ إِلَـى الصَّـلاةِ

وللهِ دَرُّ مَنْ قالَ أَيضاً :

وَلَـدَتْـكَ أُمُّـكَ يَـاابْـنَ آدَمَ بَـاكِيـاً ... وَالنَّـاسُ حَـوْلَـكَ يَضْحَكُـونَ سُـرُورَا
فَـاجْهَـدْ لِنَفْسِـكَ أَنْ تَكُـونَ إِذَا بَكَـوْا ... فِـي يَـوْمِ مَـوْتِـكَ ضَـاحِكـاً مَسْـرُورَا

ثمَّ ليُعلَمْ أَنَّ غيرَ الأَبِ يقومُ مقامَهُ في الأَذان ، روى التِّرمذي : (أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَذَّنَ في أُذنِ الحسن [بن عليٍّ] رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه حينَ وَلدتْهُ فاطمة) .

وروى ابنُ السُّني عنِ الحسين بنِ علي رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ وُلِدَ لَهُ مَوْلُودٌ فَأَذَّنَ فِي أُذُنِهِ الْيُمْنَىٰ وَأَقَامَ فِي أُذُنِهِ الْيُسْرَىٰ . . لَمْ تَضُرُّهُ أُمُّ الصِّبْيَان » . وأُمُّ الصِّبيان : التَّابعةُ مِنَ الجن .

والحكمةُ أَيضاً في الأَذانِ والإِقامة : أَنْ يكونَ أَوَّلَ ما يدخلُ سمعَهُ عندَ قدومهِ إِلى الدُّنيا توحيدُ ربِّهِ عزَّ وجل ، كما يُلقَّنُ التَّوحيدَ عندَ خروجهِ منها .

ويُستحبُّ أَيضاً قراءةُ سورةِ الإِخلاصِ في أُذنهِ اليمنىٰ ، فقد ورد : (أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قرأَها في أُذنِ مولود) .

وللإِخلاصِ فضائلُ عظيمة .

مِنها : ما رواهُ أَبو هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : أَقبلتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فسمعَ رجلاً يَقرأ : (قل هو الله أحد . . .) السُّورة ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « وَجَبَت » ، فسأَلتُهُ ماذا يا رسولَ الله ؟ فقال : « الْجَنَّة » .

وعن أَبي أَيُّوب رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآن ؟ مَنْ قَرَأَ : (قل هو الله أحد) فَقَدْ قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآن » .

وروى الإِمامُ أَحمدُ ابنُ حنبل عن معاذِ بنِ أَنس رضيَ اللهُ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ قَرَأَ (قل هو الله أحد) يَخْتِمُهَا عَشْرَ مَرَّات . . بَنَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ قَصْراً فِي الْجَنَّة » فقالَ عمر رضيَ اللهُ عنه : إِذنْ نستكثرُ يا رسولَ الله ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « اللهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَب » .

وهٰذا له ـ كما لكثيرٍ مِنَ الآياتِ والسُّوَرِ ـ خواصٌ وثوابٌ عظيم :

مِنْ ذلك :

ما وردَ عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في آيةِ الكرسي ، عن الطفيل بن أُبيِّ بنِ كعب رضيَ اللهُ عنه : أَنَّ أَباهُ أَخبرَهُ أَنَّهُ كانَ لَهُم جَرِينٌ[1] فيهِ تمر ، وكانَ ممَّا يتعاهدُهُ فيجدُهُ ينقص ، فحرسَهُ ذاتَ ليلة ، فإذا هوَ بدابَّةٍ كهيئَةِ الغلامِ المحتلِم ، قال : فسلمت ، فردَّ السَّلام ، فقلت : ما أَنت ، جِنٌّ أَم إِنس ؟ قال : جِن ، فقلت : ناوِلني يدك ، فإذا يدُ كلبٍ وشعرُ كلب ، فقلت : هٰذا خَلْقُ الجنّ ؟ فقال : لقد عَلِمَتِ الجنُّ أَنَّ ما فيهِم مَنْ هوَ أَشدُّ مِنِّي ، فقلت : ما يَحملُكَ علىٰ ما صنعتَ ؟ فقال : بَلغني أَنَّكَ تُحبُّ الصَّدقة ، فأَحببتُ أَنْ أُصيبَ مِنْ طعامِك ، فقلت : فما الَّذي يحرزُنا منكُم ؟ قالَ : هٰذهِ الآية ـ آيةَ الكرسي ـ قال : فتركتُه .

وغدا أُبيٌّ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فأَخبرَه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صَدَقَ الْخَبِيث » . رواهُ ابنُ حِبَّان بنقلِ « التَّرغيب » .

وروى الحاكم : « سُورَةُ الْبَقَرَةِ فِيهَا آيَةٌ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآن ، لاَ تُقْرَأُ فِي بَيْتٍ وَفِيهِ شَيْطَانٌ إِلاَّ خَرَجَ مِنْه ، آيَةُ الْكُرْسِي » .

وكذا وردَ في المعوَّذتَين ، قالَ عقبةُ بنُ عامر : بينا أَسيرُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بينَ الجحفةِ والأَبواء . . إِذ غَشِيتنا ريحٌ وظلمةٌ شديدة ، فجعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يَتعوَّذُ بـ :(أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَق) و(أعوذ برب الناس) ويقول : « يَا عُقْبَة ؛ تَعَوَّذْ بِهِمَا ، فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا » ، قال : وسمعتُهُ يَؤُمُّنا بهِما في الصَّلاة .

وفي سورةِ يٓس : قولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « وَيٓس قَلْبُ الْقُرْآنِ ، لاَ يَقْرَؤُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ الله تبارك وتعالىٰ وَالدَّارَ الآخِرَة . . إِلاَّ غُفِرَ لَه ، واقْرَؤُوهَا عَلَىٰ مَوْتَاكُم » . رواهُ الإِمامُ أَحمد .

وَلنَرْجِعْ إِلىٰ ما نحنُ بصددهِ مِنَ القراءَةِ في أُذنِ المولود :

---

(١) جرين : بيدر .

قالَ العلماء : فكما يُسنُّ قراءَةُ الإخلاصِ في أُذنه . . يُسنُّ قراءَة : ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ .

قالَ بعضُ الحنفيَّة : ويُلفُّ المولود ـ إذا وُلد ـ في خِرقةٍ بيضاءَ نقيَّة ، ولا يُلفُّ في خِرقةٍ صفراء .

ويُستحبُّ أَنْ يُحنَّكَ الولدُ عندَ وِلادتهِ بتمر ؛ بأَنْ يُمضَغَ التَّمرُ ويُدلكَ بهِ حَنَكُه ، ويُفتَحَ فمُهُ حتَّىٰ يدخلَ إلىٰ جوفهِ منهُ شيء ، فإنْ لَم يُوجَدْ تمر . . فبحُلو ؛ كعَسَل .

ويَنبغي أَنْ يكونَ المحنِّكُ لَهُ مِنْ أَهلِ الخير ، فإنْ لَم يكنْ رجل . . فامرأَةٌ صالحة ؛ فإنَّه : (كانَ يُؤْتىٰ بالصِّبيانِ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فيَدعو لَهُم ويُحنِّكهُم) .

قالَ الإمامُ الغزَالي : ويُستحبُّ أَنْ يُلقَّنَ الصَّبيُّ أَوَّلَ انطلاقِ لِسانه : لا إلـٰهَ إلاَّ الله ؛ ليكونَ ذلكَ أَوَّلَ حديثه .

ومِنْ حقوقِ الولدِ علىٰ وليِّه : أَنْ يُحسنَ اسمَه ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّكُم تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُم ، فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُم » وأَفْضَلُ الأَسْمَاء : عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَـٰن .

ويُستحبُّ أَنْ تكونَ التَّسميةُ يومَ السَّابعِ مِنْ وِلادته ، ويُستحبُّ تسميةُ السَّقط ؛ لخبرٍ وردَ فيه ، فإنْ تركَه . . طالبَهُ بذلكَ يومَ القيامة .

حكى الغزالي : أَنَّ السَّقطَ يومَ القيامةِ يَسعىٰ إلىٰ أَبيه ، فيقول : أَنتَ ضيَّعتني ، وأَنتَ تركتَني ولا اسمَ لي .

فإنْ لَم يُعلَمْ هلِ السَّقطُ ذكرٌ أَم أُنثىٰ ؟ . . سُمِّيَ باسمٍ يَصلحُ لهُما ؛ كحمزة ، وطلحة ، وعمارة ، ونحو ذلك .

وقالَ الإمامُ مالك : لا يُسمَّىٰ ما لَم يَستهلَّ صارخاً .

ويُستحبُّ تغييرُ الاسمِ القبيح ؛ فقد ورد : (أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم غيَّرَ اسمَ عاصيةَ إلىٰ جميلة) .

وفي « الصَّحيحَين » (أنَّ زينبَ كانَ اسمُها برَّة ، فقيل : تُزكِّي نَفْسَها ، فسمَّاها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : زينب) .

وفي « الصَّحيح » : أَنَّ شخصاً جاءَ إِلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فقال : « مَا اسْمُكَ ؟ » قال : حَزْن ، قال : « أَنْتَ سَهْل » ، قال : لا أُغيِّرُ اسماً سمَّانيهِ أَبي ، فما زالتِ الحزونة فيهِ وفي أَولاده .

والحزونة : غلظُ الوجهِ وشيءٌ مِنَ القساوة .

وبهـٰذا يُعرَفُ خطأُ مَنْ يُسمِّي ولدَهُ بعبدِ فلان ، وعبدِ فلان ، ويَشمئزُّ عنِ التَّسميةِ بعبدِ القادر ، وعبدِ الملك ، وعبدِ الرَّحمـٰن ، فهلاَّ علمَ سرَّ قولهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ ﴾ علىٰ بعضِ التَّفاسير . فتَذكَّر ، ولا تَغفل .

ومِنها : الخِتان ، قالَ ابنُ حجرٍ في كتابه « الزَّواجر » : الكبيرةُ التَّاسعةُ والثَّمانون بعدَ الثَّلاثِ مئة : تَرْكُ خِتانِ الرَّجُلِ والمرأَةِ بعدَ البلوغ ، كذا ذَكرَهُ بعضُهم ، ولَه نوعُ وجهٍ في تركِ ختانِ الرَّجُل ؛ لِما يترتَّبُ علىٰ ذلكَ مِنَ المفاسدِ الَّتي مِنْ جُملتِها عدمُ صحَّةِ الصَّلاةِ غالباً ؛ لأَنَّ غيرَ المختونِ لا يصحُّ استنجاؤُه ، حتَّىٰ يغسلَ الحشفةَ الَّتي داخلَ قلفته ؛ لأَنَّها لمَّا كانت مستحقَّةَ الإزالة . . كانَ ما تحتَها في حُكمِ الظَّاهرِ فوجبَ غسلُه ، والغالِبُ مِنْ أَحوالِ غير المختونينَ التَّساهلُ في ذلك ، وعدمُ الاعتناءِ بِه ، فلا تصحُّ صلاتُهُم ، فكأَنَّ هـٰذا هوَ ملحظُ مَنْ قالَ بأَنَّ ذلكَ كبيرة .

وأَمَّا كونُ تركهِ في حقِّ الأُنثىٰ كبيرةً . . فلا وجهَ لَه ، قالَ في « شرحِ المنهاج »[1] : (إِنَّا إِنْ أَوجبْنا الختان . . فتركُهُ بلا عذرٍ فسق) . اهـ

أَي : في حقِّ الذَّكرِ فسق ، دونَ الأُنثىٰ ؛ فإِنَّهُ في حقِّها ليسَ بكبيرة ، ولمّا كانَ لا يتمُّ تطهيرُ الحَشفةِ علىٰ أَتَمِّ وَجْه إلا به . . كانَ عدمُ الختانِ مِنْ الكبائرِ عندَ بعضِ العلماء ؛ لِما أَنَّ التَّحفُّظَ والاستبراءَ التَّامَّ والتَّنزُّهَ مِنَ البولِ أَمرٌ لازم ، فعَنْ أَنس

---

(١) المسمىٰ بـ« النجم الوهّاج » وهو للكمال الدميري رحمه الله تعالى ، وقد طبع مؤخراً ـ ولأول مرة ـ بتحقيق ثلة من طلاب العلم ، ونشرته دار المنهاج بجدة .

رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « تَنَزَّهُوا مِنَ الْبَوْل ؛ فَإِنَّ عَامَّةَ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنَ الْبَوْل » .

وعن أَبي هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : كنَّا نَمشي معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فمررنا علىٰ قبرين ، فقامَ فقُمنا معَه ، فجعلَ لونُهُ يتغيَّر ، حتَّىٰ رعدَ كُمُّ قميصه ، فقُلنا : ما لكَ يا رسولَ الله ؟ فقال : « أَلاَ تَسْمَعُونَ مَا أَسْمَع ؟ » فقُلنا : وما ذاكَ يا نبيَّ الله ؟ قال : « هَـٰذَانِ رَجُلاَنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا عَذَاباً شَدِيداً فِي ذَنْبٍ هَيِّن » قُلنا : فيمَ ذَاك ؟ قال : « كَانَ أَحَدُهُمَا لاَ يَسْتَنْزِهُ مِنَ الْبَوْل ، وَكَانَ الآخَرُ يُؤْذِي النَّاسَ بِلِسَانِه ، وَيَمْشِي بَيْنَهُمْ بِالنَّمِيمَة » ، فدَعا بِجَريدتَينِ مِنْ جرائدِ النَّخل ، فجعلَ في كلِّ قبرٍ واحدة ، قلنا : وهلْ يَنفعُهم ذلكَ ؟ قال : « نَعَم ، يُخَفِّفُ عَنْهُمَا مَا دَامَتَا رَطْبَتَيْن » .

وقولُه : « فِي ذَنْبٍ هَيِّن » يعني : هيِّن عندَهُما وفي ظنِّهما ، أَو هيِّن عليهما اجتنابُه ؛ لأَنَّ النَّميمةَ محرَّمةٌ اتِّفاقاً ؛ فقد رويَ عن أَبي هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « مَنْ مَشَىٰ بِالنَّمِيمَةِ بَيْنَ اثْنَيْن . سَلَّطَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ نَاراً فِي قَبْرِهِ تُحْرِقُهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَة ثُمَّ يُدخلهُ النَّار » .

وعن حذيفةَ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّات » . وفي روايةٍ : « نَمَّام » .

وسيأْتي ـ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ في الدُّروسِ الآتيةِ تفصيلُ الغِيبةِ والنَّميمة ، وكونُهُما مِنَ الكبائرِ المحرَّمة .

ولنَرجعْ إِلىٰ تتمَّةِ بحثِ الختان ، **فنقول** :

إِنَّ الإمامَ الأَعظمَ[1] قد توقَّفَ في زمنه[2] ، كما توقَّفَ مِنْ شدَّةِ ورَعه رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه في خمس عشرَةَ مسأَلةً أَو أَكثر .

---

(١) يعني : أبا حنيفة رحمه الله تعالىٰ .

(٢) يعني : في زمن الختان .

والَّذي يَقتضيهِ كلامُ العلماء : أَنَّ وقتَهُ عندَ السَّبع ؛ لأَنَّهُ وقتُ الأَمرِ بالصَّلاة .

واعلَم : أَنَّهُمُ اختلفوا في أَنَّ النَّبيَّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام ، هل وُلِدَ مختوناً أَم لا ؟ .

فقيل : نعَم ؛ لِمَا رواهُ في « الجامع الصَّغير » عن أَنس رضي الله عنه : « مِنْ كَرَامَتِي عَلَىٰ رَبِّي : أَنِّي وُلِدْتُ مَخْتُوناً وَلَمْ يَرَ أَحَدٌ سَوْأَتِي » .

وقيل : هـٰذا ضعيف ، وقد وُلِدَ اثنا عشرَ نبيّاً مختونين .

والخِتان ـ كما قيل ـ مِنَ الكلماتِ الَّتي ابتُلِيَ إِبراهيمُ عليهِ السَّلامُ بهنَّ فأَتمَّهن ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وقيل : هيَ شرائعُ الإِسلام ، وقيل : ذبحُ ولده ، وقيل : أَداءُ الرِّسالة ، وقيل : خصالُ الفطرة ؛ وهي : الخِتان ، ونتفُ العانة ، وتقليمُ الأَظفار ، ونحوُها .

ولنَرجِعْ إِلىٰ حقوقِ الولدِ علىٰ والده ، **فنقول** :

قالَ العلماء :

مِنها : أَنْ يُعلِّمَهُ القُرآن ، ويُزوِّجَهُ إِذا بَلغ ؛ فقد ذكرَ أَبو اللَّيثِ السَّمرقنديُّ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « حَقُّ الْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ ثَلاَثَةُ أَشْيَاء : أَنْ يُحْسِنَ اسْمَهُ إِذَا وَلَدَه ، وَيُعَلِّمَهُ الْكِتَابَ إِذَا عَقَل ، وَيُزَوِّجَهُ إِذَا أَدْرَك » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الْغُلاَمُ يُعَقُّ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِع ، وَيُسَمَّىٰ وَيُمَاط عَنْهُ الأَذَىٰ ، فَإِذَا بَلَغَ سِتَّ سِنِين . . أُدِّب ، فَإِذَا بَلَغَ تِسْعَ سِنِين . . عُزِلَ فِرَاشُه ، فَإِذَا بَلَغَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ سَنَة . . يُضْرَبُ عَلَى الصَّلاَة ، فَإِذَا بَلَغَ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَة . . زَوَّجَهُ أَبُوهُ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَال : قَدْ أَدَّبْتُكَ وَعَلَّمْتُكَ وَأَنْكَحْتُك ، أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ فِتْنَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابِكَ فِي الآخِرَة » .

قالَ في « شرعةِ الإِسلام » ـ لبعضِ العلماءِ الحنفيَّة[1] ـ : فإِنْ لَمْ يُزوِّجْهُ وأَحدثَ حدثاً . . فالإِثمُ بينَهُما .

---

(١) هو الإمام محمد بن أبي بكر ، المعروف بإمام زاده .

قال : والولدُ أَمانةُ اللهِ عندَ والده ، أَودعَهُ إِيَّاهُ طاهراً علىٰ فطرةِ الإِسلام ، فينبغي أَنْ يُؤَدِّيهُ إِلى اللهِ تعالىٰ طاهراً مطهَّراً ، ويَبذلَ الجهدَ في تربيتهِ وصيانةِ عِرضه .

قالَ أَبو اللَّيث : وجاءَ رجلٌ بابنهِ إِلىٰ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه فقال : ابني هـٰذا يَعقُّني ! .

فقالَ عمرُ للابن : أَما تخافُ مِنْ عقوقِ والدك ؟ فإِنَّ مِنْ حقِّ الوالدِ كذا وكذا .

فقالَ الابن : يا أَميرَ المؤمنين ؛ أَما للابنِ علىٰ والدهِ حق ؟ .

قال : نَعَم ، عليهِ أَنْ ينتخبَ أُمَّه ، ويُحسنَ اسمَه ، ويُعلِّمَهُ الكتاب .

قال : فواللهِ ما انتخبَ أُمِّي ؛ ما هي إِلاَّ سنديَّة ، اشتراها بأَربع مئةِ درهم ، ولا حسَّنَ اسمي ؛ سمَّاني جُعلاً ، ولا علَّمني مِنْ كتابِ اللهِ شيئاً .

فالتفتَ عمرُ إِلىٰ أَبيهِ وقال : (تقول : ابني يَعقُّني ، وقد عَققتَهُ قبلَ أَنْ يَعقَّك ؟! قُمْ عنِّي) .

ومِنْ حقوقِ الولدِ علىٰ والده : أَنْ يُسوِّي بينَهُ وبينَ بقيَّةِ أَولادهِ في العطيَّة ، ذُكورهم وإِناثهم سواء ، فإِنْ لَم يُسوِّ . كُرِهَ لَه ، إِلاَّ إِذا عَلِمَ ورعَ أَحدِ أَولاده ، فلا بأْس .

ومِنها : معاشرتُهُ بلطف ؛ فقد كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يُدْلِعُ[1] لسانَهُ لِلحُسينِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ فإِذا رآه . . حرَّكَهُ لَه .

ومنها : أَن يُعلِّمَهُ حِرفةً صالحة ؛ فإِنَّ الحِرفة أَمانٌ مِنَ الفقر ، فقد كانتِ الأَنبياءُ والأَولياءُ أَصحابَ حِرَفٍ يأْكلونَ منها .

ومِنها : أَنْ يدعوَ لَهُ بالخير ؛ ففي الحديث : « دُعَاءُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ كَدُعَاءِ النَّبِيِّ لأُمَّتِه » وَلاَ يَدْعُو عليهِ بالشَّر .

ومِنها : أَنْ يُطرفَهُ بشيءٍ مِنْ فواكهِ السُّوقِ ؛ فقد وردَ في الحديث : « مَنِ اشْتَرَىٰ لِعِيَالِهِ شَيْئاً ، ثُمَّ حَمَلَهُ بِيَدِهِ إِلَيْهِم . . حُطَّ عَنْهُ ذَنْبُ سَبْعِينَ سَنَة » .

(١) يُدلع : يُخرج .

وليَبدأْ بالإناثِ في الإعطاء ؛ لأَنَّهنَّ أَضعفُ قلوباً ، وجاءَ في الحديث : « مَنْ فَرَّحَ أُنْثىٰ . . فَكَأَنَّمَا بَكَىٰ مِنْ خَشْيَةِ الله ، وَمَنْ بَكَىٰ مِنْ خَشْيَةِ الله . . حَرَّمَ اللهُ بَدَنَهُ عَلَى النَّار » .

ومِنها : **العقيقة** : قالَ الشَّعرانيُّ في « الميزان » : العقيقةُ عندَ مالكٍ والشَّافعيِّ مستحبَّة ، وعندَ أَبي حنيفةَ مباحة ، وعندَ أَحمدَ في أَشهرِ روايتيهِ سُنَّة ، والثَّانيةِ أَنَّها واجبةٌ ، واختارَها بعضُ أَصحابه ، وهوَ مذهبُ الحسنِ البصري ، وداوودَ الظَّاهري .

وإنَّ السُّنَّةَ في العقيقةِ عندَ الأَئمَّةِ الثَّلاثة : عنِ الغلامِ شَاتان ، وعنِ الجاريةِ واحدة ، وقالَ مالك : عنِ الغلامِ شاةٌ واحدةٌ كما في الجارية .

وذهبَ الشَّافعيُّ وأَحمدُ إلى استحبابِ عدمِ كسرِ عظامِ العقيقة ، وذهبَ غيرُهما إلى استحبابِ كسرِها ؛ تفاؤُلاً بالذُّبولِ وكثرةِ التَّواضعِ وخمودِ نارِ البشريَّة . اهـ

وقالَ السَّفيري : قالَ العلماء : يُستحبُّ لِلوالدِ أَنْ يَعقَّ عن ولده ، وكلُّ مَنْ تَلزمُهُ النَّفقةُ في معنى الوالد .

والسُّنَّة : أَنْ يعقَّ عنِ الولدِ الذَّكرِ بشاتَين ، وعنِ الأُنثىٰ بشاة ، وفُضِّلَ الذَّكرُ على الأُنثىٰ في العقيقة ؛ لأَنَّ السُّرورَ بالغلامِ أَكثر .

فإنْ ذبحَ عنِ الغلامِ شاة . . حصلَ أَصلُ السنَّة ، ولَو وُلِدَ لَهُ ولدان ، فذبحَ عنهُما شاةً واحدة . . لَم تحصلْ سنَّةُ العقيقة .

ويُشترطُ أَنْ ينويَ عندَ ذبحِها أَنَّها عقيقةٌ كما في الأُضحية ، ويُستحبُّ أَنْ يقولَ عند ذبحِها بعدَ التَّسمية : اللَّهُمَّ لكَ وإليكَ عقيقةُ فلان .

ويُستحبُّ أَنْ يَفصلَ أَعضاءَها ، ولا يكسرَ شيئاً مِنْ عظامِها ، تفاؤُلاً بسلامةِ أَعضاءِ المولود .

نَعَم ، يجوزُ كسرُها بلا كراهة .

ويُستحبُّ أَنْ لا يتصدَّقَ بلحمِها نَيّاً ، بل يَطبخُهُ بشيءٍ حلو ، ويتصدَّقُ بهِ على الفقراء ، ويُستحبُّ أَنْ يأْكلَ منها ، ويتصدَّقَ ويُهدي .

والسُّنَّة : أَنْ يكونَ ذبحُها في اليومِ السَّابع ، ولا تفوتُ بتأخيرِها عنِ السَّبعة ، لـٰكنْ يُستحبُّ أَنْ لا يُؤَخِّرَها عنِ البلوغ ، فإِنْ بلغ . . سقطَ حكمُها عنِ الوالد ، والولدُ مخيَّر ، إِنْ شاء . . عقَّ عن نَفْسه .

ولَو ماتَ بعدَ اليومِ السَّابعِ وبعدَ التَّمكُّنِ مِنَ الذَّبح . . يُستحبُّ أَنْ يعقَّ عنه .

ويُستحبُّ أَنْ تُذبحَ أَوَّلَ النَّهار ، وأَنْ يُدفعَ لِلقابلةِ رِجلُ العقيقة .

ويُكرَهُ أَنْ يُلطَّخَ رأسُ المولودِ بدمِها كما كانَ في الجاهليَّة ؛ فإِنَّهُم كانوا يَضعونَ قطنةً في دمِ العقيقة ، ويَجعلونَها علىٰ رأْسِ المولود ، فأَمَرهُم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنْ يَجعلوا مكانَ الدَّمِ خلوقاً ، فالسُّنَّةُ أَنْ يُلطَّخَ رأْسُهُ بخلوقٍ أَو زعفران .

ويُستحبُّ أَنْ يُحلَقَ رأْسُهُ يومَ السَّابعِ أَيضاً ، وأَنْ يُتصدَّقَ بوزنِ شعرِهِ ذهباً أَو فضة ، سواءٌ فيهِ الذَّكرُ والأُنثىٰ ؛ فإِنَّ فاطمةَ بنتَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وزنَتْ شعرَ حسنٍ وحسين ، وزينبَ وأُمِّ كلثوم ، فتصدَّقت بزِنَةِ ذلكَ فضَّة .

ويُستحبُّ أَنْ يكونَ الحلقُ بعدَ الذَّبح ، وفِعلُ العقيقةِ أَفضلُ مِنَ التَّصدُّقِ بثَمنِها عندنا[1] .

وسِنُّ الشَّاةِ الَّتي تُذبَح ـ كالأُضحية ـ جذعةُ[2] ضأْنٍ أَو ثنيَّةُ[3] معز .

وذهبَ الإِمامُ أَحمدُ ابنُ حنبلٍ في إِحدىٰ روايتيهِ إِلىٰ أَنَّها واجبة .

وذهبَ الإِمامُ الأَعظمُ أَبو حنيفةَ إِلىٰ أَنَّها لَيستْ بواجبةٍ ولا سنَّة ، بل هيَ بدعة[4] .

واستدلَّ الشَّافعيُّ على استحبابِها بِما رواهُ التِّرمذي : أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « اَلْغُلَامُ مُرْتَهَنٌ بِعَقِيقَتِهِ ، يُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ ، وَيُسَمَّىٰ ، وَيُحْلَقُ رَأْسُه » .

---

(١) أي عند الشافعية رحمهم الله تعالىٰ .

(٢) الجذعة : ما تمت له سنة أو أقل .

(٣) الثنيّة : ما دخل في الثانية أو الثالثة .

(٤) سبق قول المصنف رحمه الله قريباً : أن العقيقة عند أبي حنيفة رحمه الله مباحة ، فقوله : (بدعة) هنا مؤول على أنه لم يثبت عنده ورود شيء فيها ، فلا يلزم من قوله ببدعيتها كراهتا عنده ، فيكون معنى ما تقدم وهاهنا سواء .

واختلفَ العلماء رحمهمُ اللهُ تعالىٰ في معنىٰ قولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مُرْتَهَنٌ بِعَقِيقَتِه » .

فقيل : معناه : لا يَنمو نموَّ مِثلهِ حتَّىٰ يُعقَّ عنه .

وأَجودُ ما قيلَ في معناه : إِنَّهُ إذا لَم يُعقَّ عنه . . لَم يَشفَعْ في والِدَيْهِ يومَ القيامة ، فإِنَّ الولدَ إِذا ماتَ دونَ البلوغ . . يَشفعُ في والِدَيه ، إلاَّ إِذا لَم يُعقَّ عنه ، هـٰذا ما اختارَهُ الإِمامُ أَحمدُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « ذَرَارِي الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَ الْعَرْشِ شَافِعِينَ مُشَفَّعِين » .

هـٰذا ، ومِنْ جملةِ حقوقه : تربيتُهُ وتأْديبُه ، روىٰ جابرٌ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « لأَنْ يُؤَدِّبَ الرَّجُلُ وَلَدَه ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِصَاع » .

وأَمَّا حقوقُ الوالِدَينِ فكثيرة ، وعقوقُهُما مِنْ أَكبرِ الكبائر ، وقد وردَ في ذلكَ آياتٌ عديدة ، وأَحاديثُ سديدة :

مِنها : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ وقولُهُ سبحانَه : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وغيرُ ذلك .

ومِنها : ما رواهُ طلحة رضي الله عنه قال : أَتيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فقلت : يا رسولَ الله ؛ إِنِّي أُريدُ الجهادَ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، قال : « أُمُّكَ حَيَّة ؟ » قلت : نَعَم ، قال : « الْزَمْ رِجْلَهَا فثَمَّ الْجَنَّة » .

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « عِفُّوا عَنْ نِسَاءِ النَّاس . . تَعِفَّ نِسَاؤُكُم ، وَبَرُّوا آبَاءَكُم . . تَبَرَّكُم أَبْنَاؤُكُم ، وَمَنْ أَتَاهُ أَخُوهُ مُتنصِّلاً . . فَلْيَقْبَلْ ذَلِكَ مُحِقّاً كَانَ أَوْ مُبْطِلاً ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَل . . لَمْ يَرِدْ عَلَيَّ الْحَوْض » .

وفي حديثٍ آخر : « كُلُّ الذُّنُوبِ يُؤَخِّرُ اللهُ مِنْهَا مَا شَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، إلاَّ الْعُقُوق ، فَإِنَّهُ يُعَجِّلُهُ لِصَاحِبِه » قبل الممات .

وفي حديثٍ آخَر : « لاَ يَنْظُرُ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَى الْعاق ، وَمُدْمِنِ الْخَمْر ، وَالْمَنَّانِ عَطَاءَه » .

وفي حديثٍ آخَر : « ثَلاَثَةٌ لاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّة ، الْعَاق ، وَالدَّيُّوث ، وَالرَّجِلَة » أَي : المرأَةُ المتشبِّهةُ بالرِّجال .

ومِنْ جملةِ عقوقه : انتسابُهُ إِلىٰ غيره ، قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « مَنِ ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ أَبيه ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبيه . . فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَام » .

وروىٰ أَميرُ المؤْمنينَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَه : « مَنِ ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيه ، أَوِ انْتَمَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ مَوَالِيه . . فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله ، وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين ، لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفاً وَلاَ عَدْلاً » رواهُ البخاري وغيرُه .

ورويَ عن جابر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : رَقى النَّبيُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم المنبر ، فلمَّا رقى الدَّرجةَ الأُولىٰ قال : « آمين » ، ثمَّ رقى الثَّانيةَ فقال : « آمِين » ثمَّ رقى الثَّالثةَ فقال : « آمين » ، فقالوا : يا رسولَ الله ؛ سمعناكَ تقول : آمِين ، ثلاثَ مرَّات! قال : « لَمَّا رَقِيتُ الدَّرَجَةَ الأُولَىٰ . . جَاءَني جِبْرِيلُ فَقَال : شَقِيَ عَبْدٌ أَدْرَكَ رَمَضَانَ ، فَانْسَلَخَ مِنْهُ وَلَمْ يُغْفَرْ لَه ، فَقُلْت : آمِين ، ثُمَّ قَال : شَقِيَ عَبْدٌ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا ، فَلَمْ يُدْخِلاَهُ الْجَنَّة ، فَقُلْت : آمِين ، ثُمَّ قَال : شَقِيَ عَبْدٌ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْك ، فَقُلْت : آمِين » .

فعليكُم ـ عبادَ الله ـ بحُسنِ تربيةِ أَولادكُم ، وبرِّ آبائِكُم ، وخدمةِ أُمَّهاتِكُم ، والتَّزوُّدِ لمعادِكُم ، فكأَنِّي بكَ ياغافل وعمركَ قدِ انقرض ، وهجمَ عليكَ المرض ، وغابَ كلُّ مرادٍ وغرض ، وإِذا بالتَّلفِ قد عرضَ أَخَاذاً ، ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ .

شخصَ البصرُ وسكنَ الصَّوت ، ولَم يُمكنِ التَّدارُكُ لِلفَوْت ، ونزلَ بكَ مَلَكُ الموتِ وحاذىٰ ، ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ .

عَالَجْتَ أَشَدَّ الشَّدائِد ، فيا عجباً لِمَا تُكابد ، كأَنَّكَ سُقيتَ سُمَّ الأَساود[1] ، فقطَّعَ أَفلاذاً ، ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ .

بلغتِ الرُّوحُ التَّراقي ، ولَم تعرفِ الرَّاقي مِنَ السَّاقي ، وما تدري عندَ الرَّحيلِ ما تُلاقي ، عياذاً باللهِ عياذاً ، ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ .

---

(١) **الأساود** : العظيم الخبيث من الحيّات .

ثـمَّ أدرجـوكَ فِـي الكَفـن ، وحَملـوكَ إِلىٰ بيـتِ العفَـن ، علـى العيـبِ والقبيـحِ والأَفَن[١] ، وإذا الحبيبُ مِنَ التُّرابِ قد حَفَن[٢] ، وصرتَ في القبرِ جُذاذاً[٣] ، ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ .

وتَسرَّبتِ الأَقاربُ عنكَ تَسرِي في مالِكَ وتُغري ، وغايةُ أَمرهم أَنْ تَجري دموعُهم رَذاذاً ، ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ .

قفلوا الأَقفالَ وبَضَّعوا البِضاعة ، ونَسوا ذِكرك ـ يا حبيبهُم ـ بعدَ سَاعة ، وبقيتَ هناكَ إِلىٰ يومِ السَّاعة ، لا تجدُ زاداً ولا مَعاذاً ، ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ .

ثمَّ قُمتَ مِنْ قبركَ فَقيراً ، لا تَملِكُ مِنَ المالِ نقيراً[٤] ، وأَصبحتَ بالذُّنوبِ عَقيراً[٥] ، فلو قدَّمتَ مِنَ الخيرِ حَقيراً[٦] . . صارَ ملجأً ومَلاذاً ، ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ .

ونُصبَ الصِّراطُ والميزان ، وتغيَّرتِ الوجوهُ والأَلوان ، ونُودي : شقيَ فلانُ بنُ فلان ، وما تَرىٰ لِلعذرِ نَفاذاً ، ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ .

كم بالغَ عذولكَ في المَلام ، وكم قعدَ في زجرِكَ وَقام!! فإِذا رأَىٰ قلبَكَ ما استَقام . . قَطعَ الكلامَ علىٰ ذا ، ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ .

اللَّهُمَّ يا مُصلحَ الصَّالِحين ؛ أَصلحْ فسادَ قلوبِنا ، واستُر في الدُّنيا والآخرةِ عيوبَنا ، واغفرْ بعفوِكَ ورحمتِكَ ذنوبَنا ، وامحُ عنَّا زَللاً وآثاماً ، واجعلنا بآبائِنا وأُمَّهاتِنا بارِّين ، واجعلنا مِنْ عبادِكَ المقرَّبين ، و﴿ هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وعلىٰ آلهِ وأَصحابهِ الطَّيِّبين .

* * *

---

(١) **الأفن** : النقص في العقل ، وضعف الرأي .

(٢) **يعني** : ملأ كفّه بالتراب ليحثوه على القبر .

(٣) **جذاذاً** : قطعاً صغيرة .

(٤) **يعني** : لا تملك شيئاً ، والنقير : هو النقرة في ظهر النواة .

(٥) **العقير** : ما ضُرب قوائمه بالسيف فأُقعد إلى الأرض ليذبح ، وهكذا تفعل الشهوات بالإنسان .

(٦) **الحقير** : الشيء الصغير التافه .

المجلسُ الخامسُ

في مبدأ الكلام علىٰ حديث جبريل عليه السَّلام

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي لا شأْنَ يَشغلُه ، ولا نسيانَ يذهلُه ، ولا قاطعَ لمَنْ يَصلُه ، ولا نافعَ لمَنْ يَخذلُه ، جلَّ عن ضدٍّ يُماثلُه ، أَو نِدٍّ يُشاكلُه ، أَو نظيرٍ يُقابلُه ، أَو مناظرٍ يُقابلُه ، يُثيبُ على العملِ القليلِ ويَقبلُه ، ويَحلمُ على العاصي فلا يُعاجلُه ، ويدَّعي الكافرُ لَهُ شريكاً ويُمهلُه ، ثمَّ إِذا بطش . . هلكَ كسرىٰ وصواهلُه[1] ، وذهبَ قيصرُ ومعاقلُه .

لقد حنَّتْ حَنَّةُ إِلىٰ ولدٍ فسأَلَتْ مَنْ لا يُردُّ سائِلُه ، فانكسرَتْ بوضعِ أُنثىٰ فجبرَ المكسورَ قابلُه ، ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ ﴾ فإِذا وكيلُ الغيبِ يُواصلُه ، فيالَها مِنْ مكفولٍ ما تعنَّىٰ كافلُه ، فلمَّا بلغَت . . حملَتْ بمَنْ شرفَ حاملُه ، فعَجبَتْ مِنْ ولدٍ لا عَنْ والدٍ يُشاكلُه ، فقيل : ﴿ وَهُزِّيٓ ﴾ ، فهزَّت جذعاً يابساً تزاولُه ، فأَخرجَ في الحالِ رطباً يلتذُّ آكلُه ، فاستدلَّتْ علىٰ تكوينِ ولدٍ تُحمدُ شمائِلُه ، فالنَّصارىٰ غلَت ، واليهودُ عتَت ، ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾ .

أَحمدُهُ حمداً أُديمُهُ وأُواصلُه ، وأُصلِّي علىٰ رسولِهِ محمَّدٍ الَّذي ارْتَجَّتْ ليلةَ وِلادتِهِ أَعالي الإيوانِ وأَسافلُه ، صلى اللهُ تعالىٰ عليه وعلىٰ صاحبِهِ أَبي بكرٍ ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ ﴾ واعرفوا مَنْ قائلُه ، وعلىٰ عمرَ الَّذي انتشرَ عدلُهُ في الأَقطارِ واشتهرَتْ فضائلُه ، وعلىٰ عثمانَ الَّذي زارتهُ الشَّهادةُ وما تعبَتْ رواحلُه ، وعلىٰ عليٍّ بحرِ العِلمِ المديدِ فما يُدرَكُ ساحلُه ، وعلىٰ سائرِ آلهِ وأَصحابِهِ الَّذينَ صفا الإِسلامُ بِجِدِّهم وعَذُبَتْ مَناهلُه .

---

(١) الصَّواهل ـ جمع صاهل ـ وهو : الفرس الذي يخبط بيده وتسمع له دوياً ؛ من عزّة نفسه .

أمَّا بعد :

فأَروي بسندي إِلى الإِمامِ الشَّهير ، والمحدِّثِ النِّحرير ، أَبي الحسين ، مسلمِ بنِ الحجَّاج ، بنِ مسلم ، القشيريِّ نسباً ، والنَّيسابوريِّ وطناً ، المتوفَّىٰ سنةَ إِحدىٰ وستِّينَ ومِئَتين ، نفعنا اللهُ تعالىٰ بعلومهِ اللَّدنيَّة ، وجعلَنا مِنَ العاملِينَ وإِيَّاكُم بما روىٰ مِنَ الأَحاديثِ النَّبويَّة ؛ فإِنَّهُ قد قالَ في كتابهِ « الصَّحيح » :

قالَ عبدُ اللهِ بنُ عمر رضيَ اللهُ عنهُما : حدَّثني أَبي عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه ، قال : بينما نحنُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ذاتَ يوم . . إِذ طلعَ علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثِّياب ، شديدُ سوادِ الشَّعر ، لا يُرىٰ عليهِ أَثَرُ السَّفر ، ولا يَعرفُهُ منَّا أَحد ، حتَّىٰ جلسَ إِلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فأَسندَ رُكبتيهِ إِلىٰ رُكبتيه ، ووضعَ كفَّيهِ علىٰ فخذيه ، وقال : يا محمَّد ؛ أَخبرني عنِ الإِسلامِ .

فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الإِسْلاَم : أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الله ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ، وَتُقِيمَ الصَّلاَة ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاة ، وَتَصُومَ رَمَضَان ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً » .

قال : صدقت . قال : فعجبنا لَهُ ؛ يَسأَلُهُ ويُصدِّقه .

قال : فأَخبرني عنِ الإِيمان . قال : « أَنْ تُؤْمِنَ بِالله ، وَمَلاَئِكَتِه ، وَكُتُبِه ، وَرُسُلِه ، وَالْيَوْمِ الآخِر ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّه » . قال : صدقت .

قال : فأَخبرني عنِ الإِحسان . قال : « أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاه ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاه . . فَإِنَّهُ يَرَاك » .

قال : فأَخبرني عنِ السَّاعة . قال : « مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِل » . قال : فأَخبرني عن أَماراتِها .

قال : « أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رعاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَان » .

قال : ثمَّ انطلق ، فلبثَ مليّاً ، ثمَّ قالَ لي : « يَا عُمَر ؛ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِل ؟ » قلت : اللهُ ورسولهُ أَعلم .

قال : « فَإِنَّهُ جِبْرِيل ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُم » .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ، ومنهُ الهدايةُ إِلىٰ أَقومِ طريق ـ : قالَ القاضي عياض عليهِ الرَّحمة كما نقلَهُ النَّووي : (وهـٰذا الحديث ـ أَي : المشهورُ بحديثِ جبريلَ عليهِ السَّلام ـ قدِ اشتملَ علىٰ شرحِ جميعِ وظائفِ العباداتِ الظَّاهرةِ والباطنة ، مِنْ عقودِ الإِيمان ، وأَعمالِ الجوارح ، وإِخلاصِ السَّرائر ، والتَّحفُّظِ مِنْ آفاتِ الأَعمال ، حتَّىٰ إِنَّ علومَ الشَّريعةِ كلَّها راجعةٌ إِليه ، ومتشعِّبةٌ منه .

قال : وعلىٰ هـٰذا الحديثِ وأَقسامهِ الثَّلاثةِ أَلَّفنا كتابنا الَّذي سمَّيناهُ بـ : « المقاصدِ الحِسانِ فيما يَلزمُ الإِنسان » إِذ لا يشذُّ شيءٌ مِنَ الواجبات ، والسُّنن ، والرَّغائب ، والمحظورات ، والمكروهاتِ عن أَقسامهِ الثَّلاثة) اهـ

قلت : ولنَذكُر ـ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ في درسِنا هـٰذا والدُّروسِ الآتيةِ بعضَ ما يتعلَّقُ بهـٰذهِ الكلماتِ الوافيةِ الشَّافية ؛ إِذ ما لا يُدرَكُ كلُّه . . لا يُترَكُ كلُّه ، مكرِّرينَ لَهُ في مبادىءِ الدُّروس ، فلعلَّهُ يرسخُ في بعضِ الأَذهان ، ويَسهلُ حفظُهُ على الإِخوان ؛ لأَنَّهُ العمدةُ في بابِ الإِيمان ، وقد قيل : (لا عطرَ بعدَ عروس) .

وقد وردَ هـٰذا الحديثُ الجليلُ برواياتٍ عديدةٍ في الكتبِ الصِّحاح ، وبهـٰذهِ الرِّوايةِ رواهُ أَبو داوود في بابِ القدر .

ورواهُ الإِمامُ مسلِم ـ كالإِمامِ البخاري ـ عن أَبي هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بارزاً يوماً لِلنَّاس ، فأَتاهُ رجل .

وفي رواية : أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام قال : « سَلُونِي ؟ » فَهَابُوهُ أَنْ يَسْأَلُوه ، فَجَاءَ رَجُلٌ فجلسَ عندَ رُكبتيه ، فقال : مَا الإِيمَان ؟

قال : « الإِيمَان : أَنْ تُؤْمِنَ بِالله ، وَمَلاَئِكَتِه ، وَبِلِقَائِه ، وَكُتُبِه ، وَرُسُلِه ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْث » .

قال : مَا الإِسلامُ ؟

قال : « الإِسلام : أَنْ تَعْبُدَ الله ، وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَتُقِيمَ الصَّلاَة ؛ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَة ، وَتَصُومَ رَمَضَان » .

قالَ : مَا الإِحسان ؟

قال : « أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاه ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاه . . فَإِنَّهُ يَرَاك » .

قال : متى السَّاعة ؟

قال : « مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِل ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا : إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا ، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ الْبُهْم فِي الْبُنْيَان ، فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ الله » ثُمَّ تلا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ . . . ﴾ الآية ، ثمَّ أَدبرَ الرَّجل ، فقال : « رُدُّوه » ، فلَم يَروا شيئاً ، فقال : « هَـٰذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُم » .

وفي رواية : « أَرَادَ أَنْ تَعَلَّمُوا إِذْ لَمْ تَسْأَلُوا » .

وفي حديثِ أَبي عامرٍ رضي الله عنه : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه ، مَا جَاءَنِي قَطُّ إِلاَّ وَأَنَا أَعْرِفُه ، إِلاَّ أَنْ تَكُونَ هَـٰذِهِ الْمَرَّة » .

وفي رواية : « مَا عَرَفْتُهُ حَتَّىٰ وَلَّىٰ » .

وفي « جامع الأُصول » لابنِ الأثيرِ عليهِ الرَّحمة : قال : فما الإِسلام ؟ قال : « إِقَامُ الصَّلاَة ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاة ، وَحَجُّ الْبَيْت ، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَان ، وَالاغْتِسَالُ مِنَ الْجَنَابَة » .

وفي روايةٍ أُخرىٰ : فلبثتُ ثلاثاً .

وفي أُخرىٰ : قالَ عمر : فلقيني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بعدَ ثلاث ، فقال : « يَا عُمَر ؛ هَلْ تَدْرِي مَنِ السَّائِل ؟ » . . . الحديث .

وفي روايةٍ في الإِحسان : « أَنْ تَخْشَى اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاه » .

وفي رواية : « إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ بَعْلَهَا » .

وفي روايةٍ : قالَ لَهُ في آخرِ كلِّ سؤَالٍ منها : صدقت .

وفي رواية : « وَإِذَا رَأَيْت ـ أَو وَإِذَا كَانَت ـ الْحُفَاةُ الْعُرَاةُ الصُّمُّ الْبُكْمُ مُلُوكَ الأَرْض ، فَذَاكَ مِنْ أَشراطِها » وفي آخرِها : « هٰذا جِبْرِيلُ أَرَادَ أَنْ تَعَلَّمُوا » اهـ

قالَ العلماءُ رحمهمُ اللهُ تعالىٰ : يُستفادُ مِنْ هٰذا الحديثِ أَنَّ التَّجمُّلَ باللِّباسِ الحسنِ والأَبيض ـ لا سيَّما لطلبِ العلم ـ أَمرٌ مشروع ، وفي المساجدِ مأمورٌ به ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ .

وقد فصَّلَ الفقهاءُ أَمرَ اللُّبسِ علىٰ وجوه : **فمِنها** : فرض ، **ومِنها** : سنَّة ، **ومِنها** : مباح ، **ومِنها** : حرام .

ولنَذْكُرْ أَوَّلاً صفةَ لباسهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام ؛ ليَقتدي بهِ المهتدي مِنْ كاملي الإِسلام :

قالَ الإمامُ الغزاليُّ في « إِحيائه » : (كانَ يلبسُ مِنَ الثِّيابِ ما وجد ، وكانَ يُعجبُهُ الثِّيابُ الخضر ، وأَكثرُ لباسهِ البياض ، ويقول : « أَلْبِسُوهَا أَحْيَاءَكُم ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُم » .

وكانَ لَهُ قباءُ سندس ، فتَحْسُنُ خُضرتُهُ علىٰ بياضِ لونه ، وكانت ثيابُهُ كلُّها مشمَّرةً فوقَ الكعبين ، ويكونُ الإِزارُ فوقَ ذلكَ إِلىٰ نصفِ السَّاق ، وكانَ لَهُ كساءٌ ملبَّد ، يَلبسُهُ ويقول : « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، أَلْبَسُ كَمَا يَلْبَسُ الْعَبْد » .

وكانَ لَهُ ثوبانِ لجُمعتهِ خاصَّة ، وكانَ لَهُ كساءٌ أَسودُ فوهبَه ، فقالَتْ لَهُ أُمُّ سَلَمَة : بأَبي أَنتَ وأُمِّي ، ما فعلَ ذلكَ الكساءُ الأَسودُ ؟

فقال : « كسوتُه » فقالت : ما رأَيتُ قطُّ كان أَحسنَ مِنْ بياضِكَ علىٰ سواده .

وكانَ يتختم ، وربَّما خرجَ وفي خاتمهِ الخيطُ المربوطُ يتذكَّرُ بهِ الشَّيء ، وكانَ يختمُ بهِ على الكتب ، ويقول : « الْخَاتَمُ عَلَى الْكِتَابِ خَيْرٌ مِنَ التُّهَمَة » .

وكانَ يلبسُ القلانسَ تحتَ العَمائِم وبغيرِ عِمامة ، وكانت لَهُ عمامةٌ تسمَّى : (السَّحاب) ، فوهبَها مِنْ علي ، فربَّما طلعَ عليٌّ فيها ، فيقولُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَتَاكُمْ عَلِيٌّ فِي السَّحَاب » .

وكانَ إذا لبسَ ثوباً . . لَبِسَهُ مِنْ قِبَلِ مَيامِنِهِ ويقول : « الْحَمْدُ للهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي النَّاس » وإذا نزعَ ثوبَه . . أَخرجَهُ مِنْ مياسره .

وكانَ إذا لبسَ جديداً . . أَعطىٰ خَلقَ ثيابهِ مسكيناً ، ثمَّ يقول : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَكْسُو مُسْلِماً مِنْ سَمَلِ ثِيَابِه ، لاَ يَكْسُوهُ إِلاَّ للهِ . . إِلاَّ كَانَ فِي ضَمَانِ اللهِ وَحِرْزِهِ وَخَيْرِه ، مَا وَارَاهُ حَيّاً وَمَيْتاً » .

وكانَ لَهُ فراشٌ مِنْ أُدم ليف ، طولُهُ ذراعانِ أَو نحوه ، وعرضُهُ ذراعٌ وشبرٌ أَو نحوه .

وكانت لَهُ عباءَةٌ تُفرشُ لهُ حيثُما تَنقَّل ، تُثنىٰ طاقَينِ تحتَه ، وكانَ ينامُ على الحصيرِ ليسَ تحتَه شيء غيرُه ، وكانَ يلبسُ المِنْطَقةَ مِنَ الأدمِ فيها ثلاثُ حلقٍ مِنْ فضَّة ، وكانَ له مِطْهَرةٌ مِنْ فخَّار ؛ يَتوضَّأُ فيها ويشربُ منها ، فيرسلُ النَّاسُ أَولادَهُم الصِّغارَ الَّذينَ عَقَلوا ، فيدخلونَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فلا يُدفعونَ عنه ، فإذا وَجدوا فيها ماء . . شَربوا ومَسَحوا أَجسادَهُم ووجوهَهُم ، يبتغون بذلك البركة) اهـ

وقالَ في « الدُّرِّ المختار » ، وحاشيتِهِ « ردُّ المحتار » ، ما ملخَّصُهُما معَ زيادةٍ مِنْ غيرِهما :

اعلَم : أَنَّ الكسوةَ منها فرض ؛ وهو : ما يسترُ العورة ، ويَدفعُ الحَرَّ والبرد ، والأَولىٰ كونُهُ مِنَ القطن ، أَوِ الكتَّان ، أَوِ الصُّوفِ علىٰ وفاقِ السُّنَّة ؛ بأَنْ يكونَ ذيلُهُ ـ لِلرِّجال ـ إِلىٰ نصفِ السَّاق ؛ لِمَا روىٰ أَبو هريرةَ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « مَا أَسْفَلَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الإِزَار . . فَفِي النَّار » ، وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَىٰ نِصْفِ السَّاق ، وَلاَ حَرَجَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْن ، مَا كَانَ

أَسْفَلَ مِنْ ذَلِك . . فَهُوَ فِي النَّار ، وَمَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَراً . . لَمْ يَنْظُرِ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَة » . وعلىٰ ذَلِكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أي : فقصِّر ؛ علىٰ بعضِ التَّفاسير .

وأَنْ يكونَ كمُّهُ إلىٰ رؤُوسِ أَصابعه ، وفمهُ قدرَ شبر ، بينَ النَّفيسِ والخسيس ؛ إذ « خيرُ الأُمورِ أَوساطُها » ، ولِلنَّهي عن الشّهرتين ؛ وهوَ : ما كانَ في غايةِ النَّفاسةِ أَوِ الخساسة .

ومستحب ، وهو : الزَّائدُ لأَخذِ الزِّينة ، وإظهارِ نِعمةِ اللهِ تعالىٰ ، قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَىٰ آثَارَ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِه » .

وَأَمَّا النِّساء : فتطويلُ الثِّيابِ لَهنَّ مشروع ، فقد أَخرجَ أَبو داوودَ في « سُننه » : عن صفيَّةَ بنتِ أَبي عبيد ، أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قالَتْ لرسولِ اللهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ ذَكرَ الإِزار : فالمرأَة يا رسولَ الله ؟

قال : « تُرْخِي شِبْراً » .

قالت أُمُّ سَلَمَة : إذاً يَنكشفُ عنها !

قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « فَذِرَاعاً لا تَزِيدُ عَلَيْه » .

ومباح ، وهو : الثَّوبُ الجميلُ للتَّزيُّنِ في الأَعيادِ والجُمعِ ومجامعِ النَّاس ، لا في جميعِ الأَوقات ؛ لأَنَّهُ صلفٌ[1] وخيلاء ، وربَّما يغيظُ المحتاجين ، فالتَّحرُّزُ عنهُ أَولىٰ .

قالَ بعضُ الأَفاضل : ويُستحبُّ التَّجمُّلُ لِطلبِ العِلمِ والقدومِ على الغير ، ومِنْ أَعظمِهِ القدومُ إلى المساجدِ والصَّلوات ، قالَ تعالىٰ : ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ .

قالَ العلاَّمةُ ابنُ عبدِ السَّلام : لا بأْسَ بلباسِ شعارِ العلماء ؛ ليُعرفوا بذلك فيُسأَلوا ، فإني كنتُ مُحرِماً ، فأَنكرتُ علىٰ جماعةٍ مُحرِمين ـ لا يَعرفونني ـ ما أَخلُّوا بهِ

(١) **الصلف** : الميل عن حدِّ الاعتدال .

مِنْ آدابِ الطَّواف ، فلَم يَقبلوا ، فلمّا لبستُ ثيابَ الفقهاء ، وأنكرتُ عليهِم ذلك . . سَمِعوا وأَطاعوا ، فإذا لبسَها لمثلِ ذلك . . كانَ فيهِ أَجر .

وَأَمَّا المكروه : وهوَ اللُّبسُ للتَّكبُّر ؛ لِما قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمين ؛ اِتَّقُوا الله ، وَصِلُوا أَرْحَامَكُم ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ ثَوَابٍ أَسْرَعَ مِنْ صِلَةِ رَحِم ، وَإِيَّاكُمْ وَالْبَغْي ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِن عُقُوبَةٍ أَسْرَعَ مِنْ عُقُوبَة بَغْي ، وَإِيَّاكُمْ وَعُقُوقَ الْوَالِدَين ، فَإِنَّ رِيحَ الْجَنَّةِ يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَلْفِ عَام ، وَاللهِ لاَ يَجِدُهُ عَاق ، وَلاَ قَاطِعُ رَحِم ، وَلاَ شَيْخٌ زَان ، وَلاَ جَارٌّ إِزَارَهُ خُيَلاَء ، إِنَّمَا الْكِبْرِيَاءُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين » .

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : « مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَة . . أَلْبَسَهُ اللهُ تَعَالَىٰ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَة ، ثُمَّ أَلْهَبَ فِيهِ النَّار » و« مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْم . . فَهُوَ مِنْهُم » .

قالوا : ومِثلُهُ مَنْ يلبسُ الثِّيابَ الخشنةَ لغيرِ غرضٍ شرعي ، فقد روي : أَنَّ الحسن رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه جذبَ فرقداً[1] ، فأَخذَ بكسائه وقالَ لَه : يا فرقد ، يا فريقد ؛ إِنَّ البرَّ ليسَ في لبسِ هـٰذا الكساء ، إنَّما البرُّ ما وقرَ في الصَّدرِ وصدَّقَهُ العمل . اهـ

ويُستحبُّ الأَبيض ؛ لقولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاض ؛ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُم ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُم » وكذا الأَسود ؛ لأَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام (دخلَ مكَّةَ وعلىٰ رأْسهِ عمامةٌ سوداء) .

ولبسُ الأَخضرِ سُنَّةٌ كما في « الشِّرعة » ، وقد جُعلَ علامةً للشُّرفاءِ العلويِّينَ الفاطميِّينَ في حدودِ سَنةِ ستِّ مئَة ، وعلىٰ ذلكَ قولُ الشَّاعر :

جَعَلُوا لأَبْنَاءِ الرَّسُولِ عَلاَمَةً ... إِنَّ الْعَلاَمَةَ شَأْنُ مَنْ لَمْ يُشْهَرِ
نُورُ النُّبُوَّةِ فِي جِبَاهِ وُجُوهِهِمْ ... يُغْنِي الشَّرِيفَ عَنِ الطِّرَازِ الأَخْضَرِ

ومِنَ المحرَّم : لبسُ الحريرِ والذَّهبِ والفضَّةِ لِلرِّجال ، إلاَّ مَا استُثني ، فعن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ وأَبي هريرة رضي الله عنهم ، قالا : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لاَ تَلْبَسُوا الْحَرِير ؛ فَإِنَّهُ مَنْ لَبِسَهُ فِي الدُّنْيَا . . لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَة » ،

---

(١) هو فرقد بن يعقوب السبخي (ت : ١٣١ هـ) .

و « مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا . . لَمْ يَشْرَبْهُ فِي الآخِرَة » ، و : « مَنْ شَرِبَ فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّة . . لَمْ يَشْرَبْ بِهِمَا فِي الآخِرَة » ، ثُمَّ قَال : « لِبَاسُ أَهْلِ الْجَنَّة ، وَشَرَابُ أَهْلِ الْجَنَّة ، وآنِيَةُ أَهْلِ الْجَنَّة » .

قلت : ويَحرمُ استعمالُهما بغيرِ شربٍ وأَكل ، كما إِذا جعلَهُما علبةً لِلتُّتن ، أَو ساعة ، أَو نحو ذلكَ ممَّا نصُّوا علىٰ حُرمته .

وكذا يُكرَهُ عندَ الحنفيَّةِ على الرَّجلِ لبسُ الثَّوبِ المنسوجِ بذهبٍ أَو فضَّة ، إلاَّ إِذا كانَ قدرَ أَربعِ أَصابع ؛ أَي : عرضَ ذلك ، وإِنْ زادَ طولُهُ علىٰ ما قيل ، ومِثْلُهُ الحرير ؛ لخبرِ مسلم : (نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم عن لبسِ الحريرِ إِلاَّ موضعَ أُصبُع ، أَو أُصبُعين ، أَو ثلاث ، أَو أَربع) .

والحاصل : أَنَّ استعمالَ أَواني الذَّهبِ والفضَّةِ للرِّجالِ والنِّساءِ مكروهٌ كراهيةَ التَّحريم ، إلاَّ السِّلاح ، ولبسهُما على الرِّجالِ حرام ، ولِلنِّساءِ مباحٌ للتَّزيُّن ، وكذا لبسُ الحريرِ على الرِّجالِ مكروه ، ولِلنِّساءِ حلال .

وفي « الهداية »[١] : ويُكرهُ أَنْ يُلبسَ الذُّكور مِنَ الصِّبيانِ الذَّهبَ والحرير .

قلت : ومِنها الجلاجلُ[٢] ونحوها ، والنَّاسُ عنهُ غافلون ، ولا بأْسَ بكِلَّةِ الدِّيباج[٣] ، وتكرهُ التِّكَّةُ[٤] منه ، والكيسُ الَّذي يُعلَّقُ معَه ، بخلافِ كيسِ[٥] الدَّراهمِ الَّذي يُوضعُ في الجَيب .

وفي « الدُّرِّ المنتقىٰ »[٦] : ولا تكرهُ الصَّلاةُ علىٰ سجَّادةٍ مِنَ الإِبريسَم ؛ لأَنَّ الحَرَامَ هوَ اللُّبس ، أَمّا الانتفاعُ بسائرِ الوجوه . . فليسَ بحرام .

---

(١) الهداية : شرح « بداية المبتدي » وهي في الفقه الحنفي لعلي بن أبي بكر المرغيناني .

(٢) **الجلاجل** : الأجراس التي توضع في رقاب الدواب .

(٣) **الكِلّة** : ستر رقيق شفاف يوضع علىٰ فراش النوم ؛ يُتوقَّىٰ به من البعوض .

(٤) **التكة** : رباط السراويل ؛ كالنطاق للإزار .

(٥) وذلك احتياطاً ؛ لندرة الأوعية عند الباعة ، أو غلائها مع قلة ذات اليد ، ونحوه .

(٦) « الدر المنتقىٰ » في شرح « ملتقى الأبحر » لإبراهيم بن محمد القسطنطيني .

وفي « القنية »[1] : لا بأسَ بشدِّ خمارٍ أَسودَ علىٰ عينيهِ مِنْ إبريسَمٍ لِعُذر ، ومنهُ الرَّمد ، ويحلُّ توسُّده ، وافتراشُه ، والنَّومُ عليهِ علىٰ روايةٍ عن أَبي حنيفة ، خلافاً لأَبي يوسف ، ومحمَّد ، ومالك ، والشَّافعي . اهـ

وعن معاذِ بنِ جبل رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : رأَىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم جبَّةً مجيَّبَةً بحرير ، فقال : « طَوْقٌ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَة » .

قالَ العلماء : وأَمَّا جعلُهُ دثاراً . . فحرامٌ عندَ الجميع .

ويحلُّ لبسُ ما سَداهُ إبريسَمٌ ولُحمتُهُ غيرُه ؛ لأَنَّ الثوبَ إنَّما يصيرُ ثوباً بالنَّسج ، والنَّسجُ باللُّحمة ، فكانت هيَ المعتبرةُ دونَ السَّدىٰ .

وكُرِهَ لبسُ المعصفرِ والمزعفر ، الأَحمرِ والأَصفر ، للرِّجالِ فقط ، ولا بأْسَ بسائرِ الأَلوان ، وبقيَ في هـٰذهِ الأَبحاثِ تفصيلاتٌ وتعريفاتٌ واختلافاتٌ لا يَسعُها المجلسُ العام ؛ لِضيقِ الوقتِ على الصُّوَّام ، فلنُفرِّقها في الدُّروسِ استطراداً ، بتوفيقِ الملكِ العلاَّم .

ومِنَ المحرَّمِ على النِّساء : إظهارُ الزِّينةِ للأَجانب ، والتَّمايل ، ولبسُ الثَّوبِ الرَّقيق ، حتَّىٰ عدَّ ذلكَ بعضُ العلماءِ مِنَ الكبائر ؛ ففي كتاب « الزَّواجر » لابنِ حجر رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : أَخرجَ الإمامُ مسلم وغيره : « صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا ، قَوْمٌ مَعَهُم سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَر ، يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاس ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَات ، مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَة ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا » .

وقولُه : « كَاسيات » أَي : مِنْ نِعمِ اللهِ تعالىٰ ، و« عَاريات » أَي : مِنْ شُكرِها . أَوِ المراد : كاسياتٌ صورة ، عارياتٌ معنى ؛ بأَنْ يَلبسنَ ثوباً رقيقاً يصفُ لونَ أَبدانِهن .

و« مائِلات » أَي : عن طاعةِ اللهِ وما يَلزمهنَّ فِعلُهُ وحِفظُه .

---

(١) هو : « قنية المنية لتتميم الغنية » لأبي الرجاء مختار بن محمود الزاهدي (ت : ٦٥٨ هـ) .

و« مميلات » أَي : لِغيرِهن ؛ أَي : يُعلِّمْن غيرَهُن ، أَو متبخترات .

وروى ابنُ حبّان : « سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَىٰ سُرُوجٍ كَأَشْبَاهِ الرِّحَال ، يَنْزِلُونَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الْمَسَاجِد ، نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَات ، عَلَىٰ رُؤُوسِهِنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَاف ، اِلْعَنُوهُنَّ ، فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَات ، لَوْ كَانَ وَرَاءَكُمْ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَم ، خَدَمَتْهُنَّ نِسَاؤُكُم كَمَا خَدَمَكُمْ نِسَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُم » .

وروىٰ أَبو داوود عن عائشة : أَنَّ أُختَها أَسماء رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهَا دخلَتْ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وعليها ثيابٌ رقاق ، فأَعرضَ عنها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وقال : « يَا أَسْمَاء ؛ إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتِ الْمَحِيض . لَمْ يَصْلُحْ أَنْ يُرَىٰ مِنْهَا إِلاَّ هَـٰذَا وَهَـٰذَا » . وَأَشَارَ إِلَىٰ وَجْهِه وكفَّيْه .

قالَ الذَّهبي : ومِنَ الأَفعالِ الَّتي تُلعنُ المرأَةُ عليها : إِظهارُ زينتِها ؛ كذهبٍ أَو لُؤْلُؤٍ مِنْ تحتِ نقابِها ، أَو تطيُّبُها بطِيبٍ كمسكٍ إِذا خَرجَت ، وكذا لبسُها عندَ خروجِها كلَّ ما يُؤَدِّي إِلى التَّبهرج ؛ كمصبوغٍ برّاق ، وإِزارِ حرير ، وتوسعةِ كُمٍّ ، وتطويله .

ولهـٰذِهِ القبائح . . قالَ عنهنَّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « اطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاء » .

وكذلكَ مِنَ الكبائر : تشبُّهُ النِّساءِ بالرِّجال ، وتشبُّهُ الرِّجالِ بالنِّساء ، أَخرجَ البخاري عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قال : (لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم الْمتشبِّهينَ مِنَ الرِّجالِ بالنِّساء ، والمتشبِّهاتِ مِنَ النِّساءِ بالرِّجال) .

وروى الطَّبراني : أَنَّ امرأَةً مرَّت علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم متقلِّدةً قوساً ، فقال : « لَعَنَ اللهُ الْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَال ، وَالْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاء » .

وروىٰ أَحمد : (لَعَنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم مخنَّثي الرِّجالِ الَّذينَ يتشبَّهونَ بالنِّساء ، والمترجِّلاتِ مِنَ النِّساءِ المتشبِّهاتِ بالرِّجال ، وراكبَ الفلاةِ وحدَه) .

وروى الطَّبراني : « أَرْبَعَةٌ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَأَمَّنَتِ الْمَلاَئِكَة ، رَجُلٌ جَعَلَهُ اللهُ ذَكَراً فَأَنَّثَ نَفْسَهُ وَتَشَبَّهَ بِالنِّسَاء ، وَامْرَأَةٌ جَعَلَهَا اللهُ أُنْثَىٰ فَتَذَكَّرَتْ وَتَشَبَّهَتْ

بِالرِّجَال ، وَالَّذِي يُضِلُّ الأَعْمَىٰ ، وَرَجُلٌ حَصُور ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللهُ حَصُوراً إِلاَّ يَحْيَىٰ بْنَ زَكَرِيَّا » .

والحصور : الَّذي لا يَأتي النِّساءَ ؛ إِمَّا مِنَ العُنَّة ، وإِمَّا مِنَ العفَّة ، أَوِ الاجتهادِ في إزالةِ الشَّهوة .

وينبغي للرَّجلِ أَنْ يمنعَ زوجتَهُ ممَّا تقعُ فيهِ مِنَ التَّشبُّهِ بالرِّجال ، في لبس ، أَو غيرِهِ أَو خروج ؛ خوفاً مِنَ اللَّعنةِ عليهِ وعليها ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ .

قالَ ابنُ حجرٍ في « الزَّواجر » : أَي : بتعليمهِم وتأديبهِم ، وأَمرِهم بطاعةِ ربِّهم ، ونهيهِم عن معصيته ، ولقولِ نبيِّهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه ؛ فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِه » .

وفي حديث : (أَنَّ هلاكَ الرِّجالِ طاعتُهم لِنسائِهم) .

ومِنْ ثم ، قالَ الحسن : والله ، ما أَصبحَ اليومَ رجلٌ يُطيعُ امرأَتَهُ فيما تهوىٰ . . إِلاَّ أَكبَّهُ اللهُ في النَّار .

ولنرجع إِلى الحديث :

قولُه : (شديدُ سوادِ الشَّعر) : لعلَّهُ يستدلُّ بهٰذا وما قبلَهُ أَنَّ جبريلَ عليهِ السَّلامُ لمَّا أَتىٰ يُعلِّمُ الصَّحابةَ دِينهُم ـ كما في آخرِ الحديث ـ . . برزَ لَهم في هٰذهِ الهيئَة ؛ معلِّماً لَهُم بفعلهِ أَيضاً التَّزيِّي بالزِّيِّ الحسن ، ويُشعرُ هٰذا بأَنَّ جبريلَ عليهِ السَّلامُ كانَ قد أَرخىٰ شعرَه ، وهوَ المسنونُ عن سيِّدِ العالمينَ عليهِ أَفضلُ صلاةِ المصلِّين ؛ فقد أَخرجَ أَبو داوود عنِ البراء ؛ قال : (ما رأَيتُ مِنْ ذي لِمَّةٍ أَحسنَ في حلَّةٍ حمراءَ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم) .

زادَ محمَّدُ بنُ سليمان : (لَهُ شَعرٌ يَضربُ مَنْكِبَيْه) .

وفي روايةٍ أُخرىٰ : (لَهُ شعرٌ يبلغُ شحمةَ أُذنيه) .

وعن أَنسٍ رضي الله عنه قال : (كانَ شعرُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إِلىٰ أَنصافِ أُذنيه) .

وعنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال : (نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم عنِ القزع) . والقزع : أَنْ يُحلقَ رأسُ الصَّبيِّ فيُترَكَ بعضُ شعرِه .

وفي روايةٍ قال : « احْلِقُوهُ كُلَّه ، أَوِ اترُكُوهُ كُلَّه » .

وكذلكَ سَنَّ عليهِ الصّلاةُ والسَّلامُ الأَخذَ مِنَ الشَّوارب ، فقال : « خَمْسٌ مِنَ الْفِطْرَة ـ أَي : فطرةِ الإسلام ـ : الْخِتَان ، وَالاسْتِحْدَاد ، وَنَتْفُ الإِبْط ، وَتَقْلِيمُ الأَظْفَار ، وَقَصُّ الشَّارِب » .

وفي روايةٍ عن أَنس رضي الله عنه : (وقَّتَ لَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم حَلْقَ العانة ، وتقليمَ الأظفار ، وقصَّ الشَّارب ، ونتفَ الإبطِ أَربعينَ يوماً مرَّة) .

وكذلكَ نهىٰ عن نتفِ الشَّيب ، وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « لاَ تَنْتِفُوا الشَّيْب ؛ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشِيبُ شَيْبَةً فِي الإِسْلاَم . . إلاَّ كَانَتْ لَهُ نُوراً يَوْمَ الْقِيَامَة » .

وَكذلكَ نهىٰ عنِ الخضابِ بالسَّواد ، وأمرَ بهِ في غيرِ السَّواد ، ونهى الرِّجالَ عن خضابِ الأَيدي ، وأَمر النِّساءَ به ، حتَّىٰ إِنَّ المرأَةَ إذا تركتْه ، وتركتِ الزِّينةَ لزوجِها . . لَهُ أَنْ يأْمرَها ، ثمَّ يُؤَدِّبها علىٰ ذلك .

وكذلكَ وَصْلُ شعرِ المرأَةِ بشعرِ أُخرىٰ حرام ؛ فقد (لَعَنَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : اَلْوَاصِلَة وَالْمُسْتَوْصِلَة ، وَالْوَاشِمَة وَالْمُسْتَوْشِمَة ، وَالْمُتَنَمِّصَة ، وَالْمُتَفَلِّجَة لِلْحُسْن ، الْمُغَيِّرَةَ خَلْقَ اللهِ تَعَالَىٰ) .

فعليكم ـ عبادَ الله ـ بامتثالِ أَوامره ، والاجتنابِ عن نواهيهِ وَزواجرِه ، فإِنَّ مَنْ خالفَ شرعَهُ القويم . . لَهُ العذابُ الأَليم ، فوا أَسفاً لأَهلِ النَّارِ قد هَلكوا وشَقوا ، لا يقدرُ الواصفُ أَنْ يصفَ ما قد لَقوا ، كلَّما عطشوا . . جيءَ بالحميمِ فسُقوا ، هـٰذا جزاؤُهم إذ خَرجوا مِنَ الطَّاعةِ وفسَقوا ، فقُطِّعوا ـ والله ـ بالعذابِ ومزِّقوا ، فلو رأَيتَهُم قد كُبِّلوا بالسَّلاسلِ وأُوثِقوا ، واشتدَّ زفيرهُم ، وتضرَّعَ أَسيرهُم وقلِقوا ، وتمنَّوا أَن لَم يكُونوا ، وتأَسَّفوا كيفَ خُلِقوا وندمُوا ؛ إِذ أَعرَضوا عنِ النُّصحِ وقد صدَّقوا ، فلا اعتذارهُم يُسمَع ، ولا بُكاؤُهم يَنفع ، ولا أُعتقوا .

يا مَنْ بينَ يديهِ يومٌ لا شكَّ فيهِ ولا مِرا ، يقعُ فيهِ الفراقُ وتنفصمُ فيهِ العُرا ؛ تدبَّر أَمركَ قبْلَ أَنْ تُحضرَ وتَرىٰ ، وانظرْ لنَفْسكَ نظرَ مَنْ فهِمَ ودرىٰ ، قبْلَ أَنْ يغضبَ الحاكمُ ربُّ الورىٰ ، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ .

يومٌ تشيبُ فيهِ الأَطفال ، يومٌ تُسيَّرُ فيهِ الجبال ، يومٌ يظهرُ فيهِ الوَبال ، يومٌ تنطقُ فيهِ الأَعضاءُ بالخِصال ، يومٌ لا تُقالُ فيهِ العثار ، وكم أَعذارٍ تُقال ، فترىٰ مَنْ قدِ افترىٰ يُقدِّمُ قَدَماً وأُخرىٰ إلىٰ ورا ، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ .

يُنصبُ الصِّراطُ فناجٍ وَواقع ، ويُوضَعُ الميزانُ فتكثرُ فيهِ الوضائِع ، وتُنشرُ الكتبُ وتسيلُ المدامع ، وتَظهرُ القبائحُ بينَ تلكَ المَجامِع ، ويُؤْلمُ العتابُ ويَملأُ المسامِع ، ويَخسرُ العاصي ويَربحُ الطَّائِع ، فكم غنيّ قد عادَ مِنَ الخيرِ مقتِّراً ؟ ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ .

اللَّهُمَّ ؛ إِنَّا نعوذُ بكَ مِنْ زوالِ نعمتِك ، وتحوُّلِ عافيتِك ، وفجأَةِ نقْمتِك ، وجميعِ سَخَطك .

اللَّهُمَّ ؛ احفظنا بالإِسلامِ قاعِدين ، واحفظنا بالإِسلامِ راقِدين ، ولا تُشْمِتْ بنا الأَعداءَ ولا الحاسِدين .

اللَّهُمَّ ؛ طهِّر قُلوبَنا مِنَ النِّفاق ، وأَعمالَنا مِنَ الرِّياء ، وأَلسنتَنا مِنَ الكذب ، وأَعيُنَنا مِنَ الخيانة ؛ فإِنَّكَ تعلمُ خائنةَ الأَعينِ وما تُخفي الصُّدور .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وعلىٰ آلهِ وأَصحابهِ وسلَّمَ تسليماً .

* * *

المجلسُ السَّادسُ
في حديث جبريل عليه السَّلام أَيضاً والكلام على الإِيمان

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ لله ، ومَنْ يُحمدُ سوى الله ؟! ولا إِلـٰهَ إلاَّ الله ، ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ، وسبحـانَ الله ، ولا ينبغـي التَّسبيـحُ إلاَّ لله ، واللهُ أَكبـر ، ولا كبيـرَ أَكبـرُ مِـنَ الله ، وأَستغفرُ الله ، ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ، ذلكُمُ اللهُ ربُّكُم الَّذي قامتِ الدلالةُ علىٰ ربوبيَّتِهِ في سجل ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ .

واحد ، بدليل : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ .

فرد ، بدليل : ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

عليم ، بدليل : ﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ .

سميع ، بدليل : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ .

بصير ، بدليل : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ ﴾ .

خبير ، بدليل : ﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ .

قدير ، بدليل : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ .

مريد ، بدليل : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾ .

متكلِّم ، بدليل : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ .

لا شريكَ لَه ، بدليل : ﴿ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ .

لا ولدَ له ، بدليل : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ رداً لليهودِ والنَّصارىٰ حيثُ قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ .

أَحمدُهُ علىٰ نعماه ، وأُصلِّي علىٰ محمَّدٍ الَّذي اختارَهُ واجتباه ، وأَحبَّهُ وارتضاه ، وعظَّمَهُ وكرَّمَهُ ورفعَهُ علىٰ مَنْ سواه ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ آلهِ وأَصحابه ، ولا سيّما أَبا بكرٍ الَّذي نزلَ فيهِ آية : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ ، وعمرَ الَّذي وافق حكمُهُ حكم : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ، وعثمانَ الَّذي شملَتْهُ آية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ .

وعليّاً الَّذي نزلَ فيهِ آية : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ .

صلاةً وسلاماً دائِمينِ ما أَضاءَ النَّهارُ بضياه ، واحلولكَ اللَّيلُ بظلماه .

أَمّا بعد : فإِنِّي أَروي بسندي إِلى الإِمامِ الشَّهيرِ والمحدِّثِ النِّحرير ، أَبي الحسينِ مسلمِ بنِ الحجّاجِ بنِ مسلم ، القشيريِّ نَسَباً ، والنَّيسابوريّ وطناً ، لا زالَ نائلاً بضريحهِ مِنناً ، فإِنَّهُ قد قالَ في كتابه « الصَّحيح » ، ومسندهِ الحريِّ بالتَّرجيح : عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : حدَّثني أَبي عمرُ بنُ الخطّاب ، قال : (بينَما نحنُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ذاتَ يومٍ إِذْ طَلَعَ علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثِّياب ، شديدُ سوادِ الشَّعر ، لا يُرىٰ عليهِ أَثرُ السَّفرِ ولا يَعرفُهُ مِنّا أَحد ، حتَّىٰ جلسَ إِلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فأَسندَ رُكبتيهِ إِلىٰ رُكبتيه ، ووضعَ كفَّيهِ علىٰ فَخِذَيْه ، وقال : يا محمَّد ؛ أَخبرني عنِ الإِسلام . . .) الحديثُ الَّذي تقدَّمَ في الدَّرسِ الماضي ، فنقولُ ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ، ومنهُ الهدايةُ إِلىٰ أَقومِ طريق ـ :

قولُه : (حتَّىٰ جلسَ إِلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم) أَي : دنا حتَّىٰ جلسَ قريباً منه .

واعلموا : أَنَّ الصَّحابة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُم كانوا يَجلسونَ بحضورِ النَّبيِّ عليهِ أَفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ لٰكنْ بزيادةِ السَّكينةِ والوَقار ، حتَّىٰ كأَنَّهُم علىٰ رؤُوسِهمُ الطَّير ، وما كانوا يقفونَ بينَ يديه ، ولا يقومُ بعضُهم لبعض ؛ لأَنَّ القيامَ لِلقادمِ عادةُ الأَعاجم .

قالَ أَبو أُمامة : خرجَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يَتوكّأُ علىٰ عصاً ، فقُمنا إِليه ، فقال : « لاَ تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الأَعَاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً » .

وقامَ رجلٌ مرَّةً لمعاوية ، فأَمرَهُ بالجلوسِ وقال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ النَّاسُ قِيَاماً . . فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّار » .

وقيل : المرادُ أَنْ يَقفوا وهوَ جالس .

وكذلكَ الإِنصاتُ مِنَ الجالسين ، واستماعُ كلام بعضهم لبعضٍ مِنَ السّنن ؛ فقد رويَ عنهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلام : « مَا تَجَالَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً فَلَمْ يُنْصِتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْض . . إلاَّ نَزَعَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ الْبَرَكَة » .

وَ : « مَنِ اسْتَمَعَ إِلَىٰ حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُون . . صُبَّ فِي أُذُنِهِ الآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَة » .

وكذلكَ نهىٰ عنِ الجلوسِ في مواضعِ التُّهم ، والمجالسِ الَّتي يُغتابُ النّاسُ فيها ، ومجالسِ اللَّهو ، وما يَقرأُ فيها القصَّاصون ، وبيَّنَ عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ أَنَّ أَشرفَ الأَماكنِ المساجد ، وشرَّها الأَسواق ، ونهىٰ عنِ الجلوسِ في الطُّرق ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَات » . فقالوا : يا رسولَ الله ؛ ما لنا مِنْ مجالِسنا بدٌّ نتحدَّثُ فيها ، فقال : « إِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْجُلُوس . . فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّه » . قالوا : وما حقُّه ؟ قال : « غَضُّ الْبَصَر ، وَكَفُّ الأَذَىٰ ، وَرَدُّ السَّلاَم ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوف ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَر ، وَإِرْشَادُ الضَّالَّةِ عَنِ الطَّرِيق ، وَإِغَاثَةُ الْمَلْهُوف ، وَحُسْنُ الْكَلاَم » وستأْتي تفصيلاتُ هـٰذهِ الأَبحاث .

قولُه : (إِلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم) ، ولَم يَقُل : بينَ يديه . . قيل : لأَنَّ حالَهُ تدلُّ علىٰ أَنَّهُ لَم يَجِىءْ متعلِّماً ، وإِنَّما جاءَ معلِّماً .

قولُه : (فأَسندَ رُكبتيهِ إِلىٰ ركبتيه ، ووضعَ كفَّيهِ علىٰ فَخذَيْه) . . قالَ الإِمامُ النَّوويُّ عليهِ الرَّحمة : علىٰ فخذَي نَفْسه ، وجلسَ علىٰ هيئَةِ المتعلِّم .

وقالَ بعضُ الأَفاضل : ظاهرهُ أَنَّهُ جلسَ بينَ يديه . وهوَ كذلك ؛ إِذ لَو جلسَ إِلىٰ جانبهِ لَمَا أَمكنَهُ إِلاَّ إِسنادُ ركبةٍ واحدة ، وهوَ غيرُ جلوسِ المتعلِّمِ بين يدي شيخهِ للتَّعلُّم ، وإِنَّما فعلَ ذلكَ لِلتَّنبيهِ علىٰ ما ينبغي لِلسائِلِ مِنْ قوَّةِ النَّفس ، وعدمِ الاستحياءِ

عندَ السّؤال وإنْ كانَ المسؤُولُ ممَّنْ يحترمُهُ ويَهابُه ، وعلىٰ ما ينبغي لِلمسؤُولِ مِنَ التَّواضع ، والصَّفحِ عنِ السائِلِ وإنْ تعدَّىٰ ما ينبغي مِنَ الاِحترامِ لِلمسؤُولِ والأَدبِ معَه ؛ لأَنَّ شرفَ المعلِّم ـ وكذا شرفُ المتعلِّم ـ عظيم ؛ فقد روىٰ أَبو أُمامةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لاَ يُرِيدُ إِلاَّ أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْراً أَوْ يُعَلِّمَه . . كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ تَامّاً حَجَّتُه » رواهُ الطَّبراني .

وعن أَبي الدَّرداء رضيَ اللهُ عنه قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « مَنْ غَدَا يُرِيدُ الْعِلْمَ يَتَعَلَّمُهُ للهِ تَعَالَىٰ . . فَتَحَ اللهُ لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّة ، وَفَرَشَتْ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ أَكْنَافَهَا ، وَصَلَّتْ عَلَيْهِ مَلاَئِكَةُ السَّمَـٰوَاتِ وَحِيتَانُ الْبَحْر ، وَلِلْعَالِمِ مِنَ الْفَضْلِ عَلَى الْعَابِدِ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَىٰ أَصْغَرِ كَوْكَبٍ فِي السَّمَاء ، وَالْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاء ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً وَلَـٰكِنَّهُمْ أَوْرَثُوا الْعِلْم ، فَمَنْ أَخَذَه . . أَخَذَ بِحَظِّه ، وَمَوْتُ الْعَالِمِ مُصِيبَةٌ لاَ تُجْبَر ، وَثُلْمَةٌ لاَ تُسَد ، وَهُوَ نَجْمٌ طُمِس ، مَوْتُ قَبِيلَةٍ أَيْسَرُ مِنْ مَوْتِ عَالِم » . رواهُ أَبو داوودَ وغيرُه ، وسيأْتي ـ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ في الدُّروسِ الآتيةِ تفصيلُ هـٰذهِ المطالبِ العالية .

وقيلَ في قوله : (ووضعَ كفَّيهِ علىٰ فَخِذَيْه) : أَي : فخذي النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، وفعلَ ذلكَ لِلاستئناسِ باعتبارِ ما بينَهُما مِنَ الأُنسِ في الأَصلِ حينَ يأْتيهِ بالوحي .

(قال : يا محمَّد ؛ أَخبرني عنِ الإِسلام) : إِنَّما ناداهُ باسمهِ كما تُناديهِ الأَعرابُ معَ أَنَّهُ حرام ؛ لِمَا قالَ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . . . ﴾ الآيات .

قالَ المفسِّرون : قالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ : هوَ أَنْ يَتكلَّموا بينَ يدي كلامه ، بل عليهِم أَنْ يُصغوا ولا يَتكلَّموا .

وقيل : معناه : لا تُخالفوا كتابَ اللهِ وسُنَّةَ رسوله .

وقولُه تعالىٰ : ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ ﴾ قالَ بعضُ أَجلَّةِ المفسِّرين : يحتملُ أَنَّ المرادَ حقيقةُ رفعِ الصَّوت ؛ لأَنَّ ذلكَ يدلُّ علىٰ تَرْكِ الاحترام ؛ لأَنَّ خفضَ الصَّوتِ مِنْ لوازمِ التَّعظيم .

ويحتملُ أَنْ يكونَ المراد : المنعَ مِنْ كثرةِ الكلامِ ومزيدِ اللَّغَط ، والمعنىٰ : لا ترفعوا أَصواتكُم إِلىٰ حدٍّ يكونُ فوقَ ما يبلغُهُ صوتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم .

قالَ المفسِّرون : والمرادُ مِنَ الآيةِ تعظيمُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام ، وأَنْ لا يُنادوهُ كما يُنادي بعضُهُم بعضاً ، حتىٰ إِنَّ أَبا بكرٍ الصِّديقَ رضي الله عنه قال : (لا أُكلِّمكَ ـ يا رسولَ اللهِ ـ إِلاَّ كأَخي السِّرارِ حتَّىٰ أَلقى اللهَ تعالىٰ) .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْهَرُواْ ﴾ أَي : لا يُنادىٰ وقتَ الخطابِ باسمه ، أَو كُنيته ؛ كنداءِ بعضِهِم لبعض ، فلا يقال : يا محمَّد ، يا أَحمد ، ولـٰكن : يا نبيَّ الله ، يا رسولَ الله .

﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾] أَي : كراهةَ حبوطِ أَعمالِكُم ، وذلكَ أَنَّ الرَّفعَ والجهرَ إِذا كانَ عنِ استخفافٍ وإِهانة . . فهوَ كفرٌ محبطٌ لِلأَعمال .

وقولُه تعالىٰ : ﴿ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ ﴾ أَي : أَخلصَ اللهُ قلوبَهُم لِلتَّقوىٰ ، كما يُمتحنُ الذَّهبُ بالنَّارِ ، فيُخرَجُ جيِّدُهُ مِنْ رديئه .

وقيل : طهَّرها مِنْ كلِّ قبيح . وقيل : وسَّعها وشرحَها .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ جمعُ حُجرة ، وهُم جفاةُ بني تميمٍ علىٰ قول ، وقيل : جاءَ رجلٌ فقال : يا محمَّد ؛ إِنَّ حمدي زينٌ وإِنَّ ذمِّي شين ، فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « ذَاكَ الله » .

وعن زيدِ بنِ أَرقم رضي الله عنه قال : اجتمعَ ناسٌ مِنَ العرب ، فقالوا : انطلِقوا بنا إِلىٰ هـٰذا الرَّجل ، فإِنْ يكُ نبياً . . فنحنُ أَسعدُ النَّاسِ به ، وإِنْ يكُ مَلِكاً . . نَعِشْ بجناحه ، فأَتيتُ النَّبيَّ فأَخبرتُهُ بما قالوا ، فجاؤُوا إِلىٰ حُجرتهِ فجعلوا ينادونَه :

يا محمَّد ، يا محمَّدُ ؛ فأنزلَ اللهُ تعالىٰ هـٰذهِ الآية ، فأَخذَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بأُذنيَّ وجعلَ يقول : « لَقَدْ صَدَّقَ اللهُ قَوْلَكَ يَا زَيْد » .

أَقول : ويُستفادُ مِنْ ذلكَ أَنَّ مَنْ زارَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ينبغي لَهُ أَنْ يمتثلَ هـٰذهِ الآيَةَ الكريمة ، ولا يَفعلَ ولا يَقولَ ما لا يُرضي رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم في حياته ؛ لأَنَّهُ عليهِ أَفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ حيٌّ في قبرهِ الشَّريفِ ، ويَسمعُ سلامَ المسلِّمِ عليهِ في مقامهِ العالي المنيف ، كما صرَّحت بذلكَ علماءُ المذاهبِ الأَربعة ، فاسمع قولَ الباري سبحانَهُ وكُنْ متَّبعَهُ .

إِمَّا لأَنَّهُ[1] معلِّم لا متعلِّم ، أَو قَبْلَ التَّحريم .

وبما تقرَّرَ عُلمَ أَنَّ نداءَ غيرِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ممَّنْ يَستحقُّ التَّوقيرَ باسمهِ غيرُ حرام ، وإِنَّما هوَ خلافُ الأَولىٰ ، إِلاَّ أَنْ يتأَذَّىٰ بهِ فينبغي تحريمُه ، حتَّىٰ قيل : مِنَ العقوقِ نداءُ الولدِ والدَهُ باسمه .

واعلموا : أَنَّ في مسأَلةِ الإِسلامِ والإِيمانِ مسائلَ كثيرةً يلزمُ التَّنبيهُ علىٰ بعضِها في هـٰذا المجلس :

مِنها : أَنَّ الإِيمانَ والإِسلامَ هل هُما بمعنىً واحد ، أَو مختلفان ؟ .

فذهبَ البخاريُّ وجماعةٌ إِلىٰ أَنَّ معناهُما واحد ، ويُؤَيِّدهُ قولُه تعالىٰ : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وذهبت طائفة مِنَ المعتزلةِ والحشويَّةِ إِلىٰ أَنَّ الإِسلامَ غيرُ الإِيمان ، واحتجُّوا بقولِه تعالىٰ : ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ .

قالَ الخطّابي : والصَّحيحُ في هـٰذا أَنْ يُقيَّدَ الكلام ، وذلكَ أَنَّ المسلِمَ قد يكونُ مؤْمِناً في بعضِ الأَحوال ، ولا يكونُ في بعضِها ، والمؤْمِنُ مسلِم في جميعِ الأَحوال ، وكلُّ مؤْمِنٍ مسلِم ، ولا عكس .

---

(١) أي : سيدنا جبريل عليه السلام .

وقيل : الخلافُ لفظي ، فقد قالَ الوالد نوَّرَ اللهُ تعالىٰ ضريحَه في بعضِ تعليقاتهِ علىٰ « شرحِ البخاري » للسّفيريِّ ما نصُّه : جَمَعَ السَّعدُ بينَ القولِ بالتَّرادُفِ والقولِ بعَدَمهِ بأنَّهُما خلافٌ في حال ؛ فإنَّ مفهومَ الإسلامِ إنْ فُسِّرَ بالانقيادِ الظّاهري ؛ بمعنى : امتثالِ الأَوامرِ والنَّواهي ، والعملِ بمقتضىٰ تلكَ الأَحكامِ مِنْ غيرِ ملاحظةِ الإذعانِ والتَّسليمِ القلبي . . كانَ مخالفاً لمفهومِ الإيمان ، وإنْ فُسِّرَ بالإسلام ، والانقيادِ الباطني ؛ بمعنىٰ : قَبولِ تلكَ الأَحكامِ والإذعانِ لها ، وتركِ الإيباءِ والاستكبارِ عنها . . كانَ متَّحداً فيه . فعلىٰ هـٰذا يصيرُ الخلافُ لفظيّاً ، ولِصيرورتهِ كذلكَ وجهٌ آخَرُ أَيضا ، فتدبَّر . اهـ

ومنها : أَنَّ الإيمانَ هل يزيدُ وينقصُ أَم لا ؟ .

اختلفَ العلماء رحمهُم اللهُ تعالىٰ في ذلكَ ، فذهبَ إمامُنا الأَعظمُ أَبو حنيفةَ عليهِ الرَّحمة وأَصحابُه ، وإمامُ الحَرَمين ، وجمعٌ كثيرٌ مِنَ الأَشاعرةِ إلىٰ أَنَّهُ لا يَزيدُ ولا ينقص ، وقالوا : متىٰ قَبِلَ الزِّيادة . . كانَ شكّاً وكفراً .

وذهبَ الإمامُ الشَّافعي ، والإمامُ أَحمدُ ابنُ حنبل ، والإمامُ مالكُ بنُ أَنس ، وسفيانُ الثَّوري ، وجماعةٌ كثيرةٌ مِنَ الصَّحابةِ والتّابعينَ وفقهاءِ الأَمصار ، وأَكثرُ الأَشاعرة رحمهُم اللهُ تعالىٰ أَجمعين إلىٰ أَنَّهُ يَزيدُ بزيادةِ الطّاعات ، وينقصُ بنقصانِها ؛ لِلقطعِ بأَنَّ إيمانَ آحادِ الأُمَّةِ ليسَ كإيمانِ أَبي بكرٍ الصِّديقِ ونحوهِ مِنَ الصَّحابةِ الكرام ، فضلاً عن إيمانِ الأَنبياءِ والملائكةِ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلام ، وأَدلَّتُهم مِنَ الكتابِ والسُّنَّة ، مثلُ قولهِ تعالىٰ : ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ﴾ . وقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ .

وما رواهُ ابنُ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما ، قُلنا : يا رسولَ الله ؛ إنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقص ؟ قال : « نعَم ، يَزِيدُ حَتَّىٰ يُدْخِلَ صَاحِبَهُ الْجَنَّة ، وَيَنْقُصُ حَتَّىٰ يُدْخِلَ صَاحِبَهُ النَّار » .

وقالَ سفيانُ بنُ عُيينة : الإيمانُ قولٌ وفعل ، ويزيدُ وينقص ، فقالَ أَخوهُ إبراهيم :

لا تَقُلْ ينقص ، فغضبَ وقال : اسكتْ يا صبي! بل ينقصُ حتَّىٰ لا يبقىٰ منهُ شيء . اهـ

قالوا : والدَّليلُ علىٰ نقصانه : أَنَّ كلَّ ما قَبِلَ الزِّيادةَ لا بدَّ وأَنْ يكونَ قابلاً لِلنُّقصانِ ضرورة . قالَ في « الشَّيبانيَّة » :

وَإِيمَـــانُنَـــا قَـــوْلٌ وَفِعْـــلٌ وَنِيَّـــةٌ   وَيَـزْدَادُ بِـالتَّقْـوَىٰ وَيَنْقُـصُ بِـالـرَّدَىٰ

وقالَ الخطّابي : الإِيمانُ قول ، وهوَ لا يزيدُ ولا ينقص ، وعملٌ وهوَ يزيدُ وينقص ، واعتقادٌ وهوَ يزيدُ ولا ينقص ، فإِنْ نقص . . ذهب .

قالَ بعضُ الأَفاضل : ومَنْ قال : إِنَّ الخلافَ لفظي . . فهوَ خطأ .

وأَجابتِ الحنفيَّةُ ومَنْ وافقَهُم : أَنَّ المرادَ بالزِّيادةِ الزِّيادةُ بحسبِ الدَّوامِ والثَّبات ، وكثرةِ الزَّمانِ والسّاعات .

أَوِ المراد : الزِّيادةُ بحسبِ زيادةِ ما يُؤْمنُ به . أَو أَنَّ المراد : زيادةُ ثمرتهِ وإِشراقُ نورهِ في القلب ، إلىٰ غيرِ ذلك .

ومنها : كما قالَ السّفيريُّ عليهِ الرَّحمة : اختلفَ العلماءُ في إِيمانِ المقلِّد ؛ والمقلِّدُ هو : أَنْ يسمعَ النّاسَ يقولون : إِنَّ لِلخَلق ربّاً خلقَهُم ، وخلقَ كلَّ شيء ، ويَستحقُّ العبادةَ عليهِم ، وحدَهُ لا شريكَ لَه ، فيَجزمُ بما سمعَهُ منهُم .

والمختارُ الَّذي عليهِ الفقهاءُ وكثيرٌ مِنَ العلماءِ صحَّتُهُ مِنْ غيرِ نظرٍ واستدلالٍ ؛ لحصولِ الجزمِ بالإِيمانِ الَّذي يُحصلهُ الاستدلال ، ولأَنَّ الصَّحابة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُم كانوا يقبلونَ إِيمانَ بعضِ عوامِّ الأَمصارِ الَّتي فتحوها مِنَ العجمِ حالَ كونِ إِيمانهِم صادراً تحتَ السَّيف ، ولا استدلال .

ومنعَ كثيرٌ مِنَ المعتزلةِ صحَّتَه ، ورُدَّ عليهِم بأَنَّهُ يلزمُ مِنْ قولِهم تكفيرُ العوام ، وهُم غالبُ المؤمنين .

ومنها : ما اختلفوا فيهِ أَيضاً أَنَّهُ هل يجوزُ للإِنسانِ أَنْ يقول : أَنا مؤمِنٌ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، أَم لا ؟ .

فذهبَ إمامُنا الأعظمُ وأصحابُهُ وكثيرٌ مِنَ العلماءِ إلىٰ أنَّهُ ليسَ لَهُ أَنْ يقولَ ذلك ، وإنَّما يقول : أنا مؤمنٌ حقّاً .

والَّذي ذهبَ إليهِ الإمامُ الشّافِعيُّ وأَصحابُه ، والإمامُ مالكٌ وأَصحابُه ، والإمامُ أَحمدُ وأَصحابُه ، وأكثرُ السَّلفِ مِنَ الصَّحابةِ والتّابعينَ ومَنْ بعدَهُم . . جوازُ قولِ الإنسان : أَنا مؤمِنٌ إنْ شاءَ الله[1] ، وبهِ قالتِ الأَشعريَّة .

هـٰذا إذا كانَ جازماً بالإيمانِ حالَ التَّكلُّم .

أَمّا إذا شكَّ في إيمانهِ حالَ التَّكلُّم ، وقال : إنْ شاءَ الله ، للشَّكِّ في إيمانه . . فإنَّ إيمانَهُ يكونُ منفيّاً ؛ لأَنَّ الشَّكَّ في ثبوتهِ في الحالِ كفر ، وليسَ محلّ قولِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ بالاتِّفاق ، بل محلُّ النِّزاعِ بينَ الفريقينِ إنَّما هوَ إيمانُ الموافاة ؛ وهوَ الَّذي يموتُ العبدُ عليهِ ويأْتي متَّصفاً بهِ آخِرَ حياتهِ وأَوّلَ منازلِ آخرته ، وهوَ المعتبرُ في النَّجاةِ في الدّارِ الآخرة ، وهوَ الملحوظُ عندَ المتكلِّمِ بالمشيئة ، فإذا جزمَ الإنسانُ بالإيمانِ في الحالِ ، ولـٰكنْ لا يعلمُ هل يبقىٰ هـٰذا الإيمانُ إلى الوفاةِ أَم لا ؟ . . فلَهُ عندَ الفريقِ الثّاني أَنْ يقول : أَنا مؤمِنٌ إنْ شاءَ الله ؛ أَي : أَنا أَموتُ على الإيمانِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، وهوَ أَمرٌ مستقبل ، فالقائل : أَنا مؤمِنٌ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ مقتدٍ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، وعاملٌ بقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ .

وأيضا : يقول : إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ؛ للتَّبرُّكِ بالمشيئة ؛ خوفاً مِنْ سوءِ الخاتمةِ معَ جزمهِ بالإيمانِ في الحال ، فكأَنَّ القائل : أَنا مؤمِنٌ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ . . يقول : أَطلبُ حسنَ الخاتمة ، فكم مِنْ إنسانٍ سُلبَ الإيمانَ عندَ موتهِ . ولذلكَ قالَ بعضُ العلماء : إنَّ الخلافَ في هـٰذهِ المسأَلةِ بينَ الأَئمَّةِ الحنفيَّةِ والأَئمَّةِ الشّافعيَّةِ لفظي ، فنسأَلُ اللهَ العظيمَ أَنْ يختمَ لنا ولِلمسلِمينَ بخيرٍ في عافيةٍ بلا محنة .

وحكى الإمامُ الغزاليُّ حجَّةُ الإسلامِ قدَّسَ اللهُ تعالىٰ روحَهُ في « منهاجِ العابدين » :

---

(١) وذلك إن قصد التبرك لا التعليق كما سيأتي .

أَنَّ تلميذاً للفضيلِ بنِ عياضٍ حَضرتْهُ الوفاة ، فدخلَ عليهِ الفضيلُ وجلسَ عندَ رأْسهِ وقرأَ سورة (يس) ، فقال : يا أُستاذ ؛ لا تقرأ هـٰذهِ . . فسكت ، ثمَّ لقَّنَهُ وقالَ له : قُلْ : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، قال : لا أَقولُها إنِّي مِنها بريء ، وماتَ علىٰ ذلك ، فدَخلَ الفضيلُ منزلَهُ وجعلَ يبكي أَربعينَ يوماً ، ولَم يَخرجْ مِنَ البيت ، ثمَّ رآهُ في النَّومِ وهوَ يُسحَبُ إلىٰ جهنَّم ـ أَجارنا اللهُ تعالىٰ مِنها بمَنِّه ـ فقال : بأَيِّ شيءٍ نزعَ اللهُ تعالى المعرفةَ عنكَ وكنتَ أَعلمَ تلامذتي ؟ فقال : بثلاثةِ أَشياء ، أَوَّلها : النَّميمة ؛ فإنِّي قلتُ لأَصحابي بخلافِ ما قلتُ لك ، والثّاني : الحسد ؛ حسدتُ أَصحابي ، والثّالث : كانَ بي علَّةٌ فجئتُ إلىٰ طبيبٍ وسأَلتُهُ عنها فقال : تشربُ في كلِّ سَنةٍ قدحاً مِنْ خمر ، فإنْ لَمْ تفعل . . تبقَ في تلكَ العلَّة ، فكنتُ أَشربُه . نعوذُ باللهِ تعالىٰ مِنْ سخطهِ الَّذي لا طاقةَ لنا به .

قالَ بعضُ العلماء : إنَّ سوءَ الخاتمة ـ والعياذُ باللهِ تعالىٰ ـ أَكثرُ ما تكونُ أَسبابُهُ مِنْ حبِّ الدُّنيا ، والاعتقاداتِ الفاسدة ، وكثرة المعاصي ومِنْ أَعظمِها ظلمُ العباد .

وسُئلَ بعضُ العارفينَ عن سببِ ذلك ، فقال : تَرْكُ الشُّكرِ على الإسلام ، وتَرْكُ الخوفِ علىٰ ذهابه ، والظُّلمُ لِلعباد[1] .

وقالَ بعضُ الواصلين : سببُها تَرْكُ الصّلاة ، وأَكلُ الرِّبا ، والعداوةُ لأَولياءِ اللهِ تعالىٰ .

وقد قالَ تعالىٰ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ الآية .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ مُتَعَمِّداً . . فَقَدْ كَفَر » .

وقالَ سبحانَهُ في حقِّ أَكلَةِ الرِّبا : ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ .

وقالَ في الحديثِ القدسيِّ في حقِّ المعادِينَ لأَوليائهِ عزَّ وجل : (مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيّا . . فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْب) .

---

(١) وأعظمه التساهل في تكفير أحد من أهل القبلة والوقوع في أعراض الأولياء ولا سيما الصحابة وآل البيت رضوان الله عليهم .

قالوا : لأَنَّ اللهَ تعالىٰ لا يُحارِبُ إِلاَّ الكافرين ، فينبغي للمسلمِ أَنْ لا يُعادي العبادَ الصّالحينَ والمتَّقينَ المؤْمِنين ، وأَنْ يخافَ مِنْ سلبِ إِيمانهِ عندَ الموتِ والعياذُ باللهِ تعالىٰ ، وقد وردَ في الحديث : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَبْقَىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ ذِرَاع ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُل النَّار ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار ، حَتَّىٰ مَا يَبْقَىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُل الْجَنَّة » . ولذا ورد : « إِنَّما الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيم » .

فنسأَلهُ عزَّ شأْنهُ أَنْ يُثبِّتنا وإِيّاكُم على القولِ الثّابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ إِنَّهُ أَرحمُ الرَّاحِمِين .

وقالَ في « الرَّوضِ الفائق » : يُروىٰ أَنَّ أَخوينِ كانَ أَحدُهما عابداً والآخَرُ مسرفاً علىٰ نفسه ، وكانَ العابدُ يتمنَّىٰ أَنْ يرىٰ إِبليسَ في محرابه ، فتمثَّلَ له ، فقالَ لَه : وا أَسفاً عليك ، ضيَّعتَ عُمركَ أَربعينَ سنةً في حصرِ نَفسكَ وإِتعابِ بدنك ، وقد بقيَ مِنْ عمركَ مِثلُ ما مضىٰ! فأَطلِقْ نَفْسَكَ في شهواتِها وتلذَّذ ، ثُمَّ تُبْ بعدَ ذلكَ وعُدْ إِلى العبادة ؛ فإِنَّ اللهَ غفورٌ رحيم .

فقالَ العابد : لعلّي أَنزلُ إِلىٰ أَخي في أَسفلِ الدّارِ وأُوافقُهُ على اللَّهوِ واللَّذاتِ عشرينَ سنة ، ثمَّ أَتوبُ وأَعبدُ اللهَ في العشرين الَّتي تبقىٰ مِن عمري ، فنزل .

وقالَ أَخوهُ المسرِفُ علىٰ نَفْسه : قد أَفنيتُ عمري في المعاصي وأَخي العابدُ يدخلُ الجنَّةَ وأَنا أَدخلُ النّار! واللهِ لأَتوبنَّ وأَصعد إِلىٰ أَخي العابدِ وأُوافقُهُ في العبادةِ ما بقيَ مِن عمري ، فلعلَّ اللهَ أَنْ يغفرَ لي .

فطلعَ علىٰ نيَّةِ التَّوبة ، ونزلَ أَخوهُ علىٰ نيَّةِ المعصية ، فزلَّت رِجلُهُ فوقعَ علىٰ أَخيهِ فماتا جميعاً في السُّلَّم ، فحُشِرَ العابدُ علىٰ نيَّةِ المعصية ، وحُشِرَ المسرفُ المسلمُ علىٰ نيَّةِ التَّوبة .

فرِّغوا قلوبكُم للاعتبارِ فيما يجري في اللَّيلِ والنَّهار ، كم مِنْ بعيدٍ قَرَّب ، وكم مِنْ قريبٍ أَبعَدَ وجفاهُ الأَهلُ والجيران ، وكانَ حظُّ الأَوّل الجنَّةَ ، وحظُّ الثّاني النّار ، ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ .

ندمَ العابدُ علىٰ تغييرِ نيَّتِهِ بلا شكٍّ ولا خَفا ، وبكىٰ علىٰ تفريطِهِ بعدَ عبادتهِ إِذْ زلَّ وهفا ، يودُّ لَو أَنَّ صافيَ ودِّهِ يُردُّ ويرجعُ إِلى الوفا ، وسيعلم أَنَّهُ كانَ يبني علىٰ شفا جرفٍ هار ، ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ .

اسمعوا أَيُّها القاعدون ، افهموا أَيُّها الرّاضونَ بالدُّون ؛ لَمَّا جدَّ في الجدِّ المتقون. . مدحَهُم مَنْ يقولُ لِلشَّيء : كُنْ فيكون ، والسّابقونَ السّابقون ، كانوا إِذَا جَنَّ اللَّيلُ يَسهرون ، وتجري مِنَ العيونِ عيون[1] ، فإِذا جاءتِ الهواجر[2] . . فللطّعامِ يَهجرون ، وما زالوا في الخدمةِ كالخَدَمِ ينتصبون ، إِنْ أَقبلَ البلاء. . فهُم صابرون ، وإِنْ وردتِ النَّعماء. . فهُم شاكرون ، وإِنْ تزخرفتِ الدُّنيا. . فهُم عنها مُعرِضون ، وكذا مَنْ أَرادَ الأُخرىٰ يكون ، أَذكارُهُم في الحياةِ وهُم ميّتون ، فإِذا انجابَ التُّرابُ عنِ الأَنجاب. . فعلى النَّجائبِ يُحملون ، وتبشِّرهُمُ الأَملاكُ هـٰذا يَومكُم الَّذي كنتُم تُوعدون ، لا يقفونَ إِلى الحسابِ بل إِلى الجنَّةِ يُحملون ، يعجبُ أَهلُ الموقفِ منهُم ثمَّ يَسأَلون : مَنْ هـٰؤلاءِ الَّذينَ إِلى النَّعيمِ يُحضَرونْ ؟ فإِذا الجواب : ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ ، فلـو قيـل : مـا صِفـاتُهـم ؟ قيـل : ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ ، وأَحسنُ ما بهِ القومُ يُمدَحون : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ .

اللّهُمَّ ؛ انظمنا في سلكِ السّابقينَ الأَخيار ، وأَلحِقنا بعبادِكَ الصّالحينَ الأَبرار ، وآتِنا في الدُّنيا حسنة ، وفي الآخرةِ حسنة ، وقِنا عذابَ النّار ، وَاغفر لنا ولوالدينا ولجميعِ المسلمين .

* * *

---

(١) يعني : تجري الدموع في مآقيهم ، كالماء من الينابيع .

(٢) **الهاجرة** : نصف النهار ، عند اشتداد الحر .

المجلس السابع
في حديث جبريل عليه السلام أيضاً
وفيه ما يتعلق ببعض ما يَجُبُّ الكفر

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيم

الحمدُ للهِ عالمِ الأَسرارِ المكنونة ، ومُخرجِ البذورِ المدفونة ، أَمر بالجدِّ وضَمِنَ المَؤُونة ، ونبَّهَ علىٰ عيبِ الدُّنيا فافتضحتِ الخؤُونة ، كلماتهُ مسموعةٌ في الصُّحفِ مصونة ، احذرْ طريقَ البدعِ فإنَّها مَسْبَعَةٌ[1] غيرُ مأْمونة ، هـٰذهِ أَمانةٌ أَدَّيتُها كانت عندي مخزونة ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ فسبحانَ مَنْ أَنشأَ الإِنسانَ وخلقَه ، وأَنعمَ عليهِ ورزقَه ، وأَلهمَهُ الهدىٰ ووفَّقَه ، وأَخرجَهُ بالتُّقىٰ مِنْ أَسرِ الهوىٰ وأَعتقَه ، عَلِمَ ما في كلِّ شجرةٍ مِنْ ورقة ، وسَمِعَ تطريبَ الحمامةِ المطوّقة ، وقوَّمَ أَعضاءَ الآدميِّ فتناسبَتْ متَّسقة ، واختطَّ الأَنفَ ونوَّرَ الحدقة .

أَحمدُه وتوفيقُهُ عليَّ صَدَقة ، وأُقرُّ بوحدانيّتِهِ إِقرارَ مَنْ صدَّقَه ، وأُصلِّي علىٰ رسولهِ محمَّدٍ ذي الرَّأْفةِ والشَّفقَة ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ أَبي بكرٍ الَّذي صاحَبهُ في الغارِ ورافقَه ، وعلىٰ عمرَ الَّذي كسرَ كِسرىٰ وخنقَه ، وعلىٰ عثمانَ الَّذي أَخرجَ المالَ وأَنفقَه ، وعلىٰ عليٍّ الَّذي بحارُ علومهِ مُغْدِقَة ، وعلىٰ سائرِ آلهِ وأَصحابهِ ما انهلت المتدفِّقة ، وسلَّمَ تسليماً .

أَمَّا بعد : فنروي بسندِنا إِلى الإِمامِ مسلمِ بنِ الحجّاجِ النَّيسابوري عليهِ الرَّحمةُ والرِّضوان ، فإِنَّهُ قد قالَ في كتابهِ « الصَّحيحِ » وجامعهِ الحريِّ بالتَّرجيح : عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما ؛ قال : حدَّثني أَبي عمرُ بنُ الخطَّابِ قال : بينما نحنُ

---

(١) مَسْبَعَة : ذات سباع .

عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ذاتَ يومٍ إذ طلعَ علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثِّياب ، شديدُ سوادِ الشَّعر ، لا يُرىٰ عليهِ أثرُ السَّفر ، ولا يَعرفُهُ منّا أحد ، حتَّىٰ جلسَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فأَسندَ رُكبتيهِ إلىٰ رُكبتيه ، ووضعَ كفَّيهِ علىٰ فَخِذَيْه ، وقال : يا محمَّد ؛ أَخبرني عنِ الإسلام ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الإِسْلاَمُ : أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله . . . » إلىٰ آخرِ الحديثِ الَّذي ذكرناهُ مراراً .

فنقولُ وباللهِ التَّوفيق ، ونسأَلُهُ الوصولَ بأَحسنِ طريق : قد تقدَّمَ الكلامُ علىٰ بعضِ المسائلِ المتعلِّقةِ بالإسلام والإيمان ، ولنَذْكُر في هـٰذا الدَّرس ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ تتمَّةً لذلك ؛ لِتستضيؤُوا بأَنوارِها في اللَّيلِ الحالك .

فاعلموا : أَنَّ معنى الشَّهادتينِ أَماتَنا الله تعالىٰ وإيّاكُم عليهما :

أَشهد ؛ أَي : أُذعنُ وأُقرُّ وأُصدِّقُ أَنْ لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ؛ أَي : لا معبودَ بحقٍّ في الوجودِ إلاَّ الله .

وأَشهد ؛ أَي : أُقرُّ وأُصدِّقُ أَنَّ محمَّدَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطَّلبِ بنِ هاشم ـ واسمُهُ عَمرو ـ بنِ عبدِ مناف بنِ قصي ، وينتهي نسبُه إلىٰ إبراهيمَ خليلِ الرَّحمـٰن ، هوَ رسولُ اللهِ وعبده ، وصفيُّهُ وحبيبه ، أَرسلَهُ رحمةً لِلعالَمين ، ونبيّاً للإِنسِ ولِلجنِّ أَجمعينَ[1] .

فمَنْ قالَ هاتينِ الكلمتَينِ الطَّيِّبَتَينِ خالصاً مخلِصاً . . فهوَ مِنْ أَهلِ الإيمانِ وأَصحابِ الجِنان ، وقد وردَ في فضلِهما أَحاديثُ كثيرة :

منها : ما رواهُ الإمامُ المنذريُّ في كتابه « التَّرغيبُ والتَّرهيب » عن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قال : قلت : يا رسولَ الله ؛ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَة ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هَـٰذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْك ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيث ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ : لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الله ، خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِه » رواهُ البخاري .

---

(١) وأما إرساله عليه الصلاة والسلام إلى الملائكة الكرام فمختلف فيه بين العلماء الأعلام .

وروىٰ أيضاً عن عبادةَ بنِ الصّامت رضي الله عنه ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَه ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه ، وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْه ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَق . . أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْ عَمَل » زادَ جنادة : « مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَيّهَا شَاء » .

وفي روايةٍ لمسلم : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله . . حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّار » .

قالَ العلماء : أَي : إِذَا أَتىٰ بلوازمِها مِنْ أَداءِ الفرائضِ واجتنابِ الكبائر ، والدَّليلُ علىٰ ذلك : ما رواهُ الطَّبرانيُّ قولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « مَنْ قَال : لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ مُخْلِصاً . . دَخَلَ الْجَنَّة » قيل : وما إِخلاصُها ؟ قال : « أَنْ يَحْجزَهُ عَنْ مَحَارِمِ الله » .

وعن أَبي سعيدٍ الخدري ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَم : يَا رَبّ ؛ عَلِّمْنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ به ؟ قَال : قُلْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الله ، قَال : يَا رَبّ ؛ كُلّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَـٰذَا ، قَال : قُلْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الله ، قَال : إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئاً تَخُصُّنِي بِه ، قَال : يَا مُوسَىٰ ؛ لَوْ أَنَّ السَّمَـٰوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّة ، وَلاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ فِي كِفَّة . . مَالَتْ بِهِمْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الله » .

ومِثلُهُ حديثُ البطاقة ، وهو : ما روي عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَة ، فَيَنْشُرُ عليه تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاً ، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَر ، ثُمَّ يَقُول : أَتُنْكِرُ مِنْ هَـٰذَا شَيْئاً ؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُون ؟ فَيَقُول : لاَ يَا رَب ، فَيَقُول : أَفَلَكَ عُذْر ؟ فَيَقُول : لاَ يَا رَب! فَيَقُولُ : بَلَىٰ ، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَة ؛ فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْم ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا : أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُول : احْضُرْ وَزْنَك ، فَيَقُول : يَا رَب ؛ مَا هَـٰذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَـٰذِهِ السِّجِلاَّت ؟ فقَال : فَإِنَّكَ لاَ تُظْلَم ، قال فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّة وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّة ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَة ، فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْء » .

فلذا قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما يرويهِ الحاكمُ عن عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لاَ يَقُولُهَا عَبْدٌ حَقّاً مِنْ قَلْبِهِ فَيَمُوتُ عَلَىٰ ذَلِكَ . . إِلاَّ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّار ؛ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الله » وقال : « أَكْثِرُوا مِنْ شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا » وقال : « مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَار . . إِلاَّ طَمَسَتْ مَا فِي الصُّحُفِ مِنَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ تَسْكُنَ إِلَىٰ مِثْلِهَا مِنَ الْحَسَنَات » .

واعلموا : أَنّه إِنَّما وردَ في بعضِ هـٰذهِ الأَحاديثِ ذِكرُ (لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الله) مِنْ دون : (محمَّدٌ رسولُ الله) ؛ لأَنَّ ذلكَ مرادٌ ومعلوم ؛ لأَنَّ مَنْ قال : لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الله ، ولَم يَقُل : محمَّدٌ رسولُ الله ، ولَم يشهدْ بهِما معاً . . فهوَ ليسَ بمسلم ، فالشَّهادتانِ بمنزلةِ شهادةٍ واحدة ، وكلمتانِ بمنزلةِ كلمةٍ واحدة ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية .

جعلَهُما اللهُ تعالىٰ آخِرَ كلامي وكلامِكُم ، وحشَرني وإِيّاكُم عليهِما ، وجعلَهُما ولوازمَهُما في موازينِ أَعمالِنا . آمين .

ثمَّ اعلموا : أَنَّ هاتينِ الشَّهادتينِ والكلمتَينِ الطَّيِّبتينِ لَهما شروطٌ ولوازمُ ينبغي تنبيهُكم عليها وتعليمُكم إِيّاها ، وهي : أَنْ لا يعتقدَ الإِنسانُ ما ينافيهما ، وأَنْ لا يتركَ ما يلزمهُما ، وأَنْ يموتَ عليهِما ، فإِذا أَتىٰ بالمنافي لهُما قولاً أو فعلاً ـ كما سنبيِّنهُ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ . فهوَ والعياذُ باللهِ تعالىٰ كافرٌ أَو منافق .

والكفرُ علىٰ أَقسام .

والنِّفاقُ علىٰ قسمين .

والشِّركُ علىٰ قسمين :

شركٌ أَصغر ؛ وهوَ الرِّياءُ ونحوهُ في العمل ، وهوَ الَّذي يُغفَر .

وشركٌ أَكبر ؛ وهوَ الَّذي لا يُغفَرُ ولا يُستر ، نعوذُ باللهِ تعالىٰ منه ، وهو ـ علىٰ ما قالَ في كتابِ « تبيينِ المحارم » ـ : مِنْ أَكبرِ الكبائرِ على الإِطلاق ، وهو : السّترُ

وجحودُ الحق ، قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ .

وإنَّما كانَ كذلكَ ؛ لأَنَّهُ يعدمُ المقصودَ الأَصليَّ مِنْ خَلْقِ العالَم ، والمقصودُ مِنْ خَلْقه : معرفةُ ذاتِ اللهِ تعالىٰ وصفاته ، وأَسمائهِ وأفعاله ، وأَحكامهِ وكُتبهِ ورُسله ، والوسيلةِ المقرِّبةِ إليه .

والكفرُ حجابٌ بينَ العبدِ وبينَ هـٰذهِ المعارف ، بخلافِ سائرِ المعاصي .

والعبدُ بقدرِ جهلهِ يبعدُ عن ربِّه ، وأَعظمُ الجهل : الكفرُ باللهِ تعالىٰ ، ومَنْ كفر . . بَعُدَ مِنَ اللهِ تعالىٰ بُعداً أَبديّاً .

ويتلو الكفرَ مِنَ المعاصي قتلُ النَّفسِ بغيرِ حق ، فهوَ أَكبرُ الكبائِرِ بعدَ الكفر ، ويتلو القتل : الزِّنا ، واللِّواطة ، وعقوقُ الوالدَين ، وسيأْتي الكلامُ عليها في محالِّها إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

وإنَّما كانَ القتلُ دونَ الكفر ؛ لأَنَّ الكفرَ يعدمُ عينَ المقصودِ كما ذكرنا ، وهـٰذا يعدمُ وسيلةَ المقصود ، وهيَ الحياةُ الدُّنيا الَّتي لا تُرادُ إلاَّ للآخرة ، والتَّوصُّلُ إليها بمعرفةِ اللهِ تعالىٰ .

ويتلو القتل : الزِّنا واللِّواطة ؛ لأَنَّ الزِّنا وإنْ كانَ لا يعدمُ عينَ المقصودِ ولا الوسيلةَ ولـٰكنْ يشوِّشُ الأَنساب ، ويُبطلُ التَّوارثَ والتَّناصُر ، ويُبطلُ جملةً مِنَ الأُمورِ الَّتي لا يَنتظمُ العيشُ إلاَّ بها ، ولما كانَ الزِّنا يُفوِّتُ تمييزَ الأَنسابِ ويُحرِّكُ مِنَ الأَسباب ، ما يكادَ يفضي إلى التَّقاتل . . قَرُبَ في الرُّتبةِ إلى القتل ، وكذا مرتبةُ اللِّواطة ؛ لأَنَّه لوِ اجتمعَ النّاسُ على الاكتفاءِ بالذُّكورِ في قضاءِ الشَّهوات . . انقطعَ النَّسل ، ودفعُ الوجودِ قريبٌ مِنْ قَطْعِ الوجود .

وكذلكَ عقوقُ الوالدَين ؛ مضارُّهُ ومخاطراتُهُ لا تخفىٰ علىٰ ذي عَينين .

واعلموا : أَنَّ ما يلزمُ بهِ الكفرُ علىٰ أَنواع : نوعٌ يتعلَّقُ باللهِ تعالىٰ ، ونوعٌ يتعلَّقُ بالقرآنِ العظيمِ وسائرِ الكتبِ المنزلة ، ونوعٌ يتعلَّقُ بنبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وسائرِ الأَنبياءِ والملائِكةِ والعلماء ، ونوعٌ يتعلَّقُ بالأَحكام .

وليُعلَم : أَنَّهُ إذا كانَ في المسأَلةِ وجوهٌ تُوجبُ الكفرَ ووجهٌ واحدٌ يَمنعُه . . فللعالِمِ أَنْ يميلَ إلىٰ هـٰذا الوجه ؛ لأَنَّ الأَليقَ لِلمؤمِنِ أَنْ يُريدَ هـٰذا الوجه ، إلاَّ إذا صرَّحَ الْقائلُ بأَنَّ مرادَهُ الوجْهُ الَّذيْ يوجِبُ الكفر . . فحينئذٍ لا يَنْفعُهُ التَّأويل ، فيكفُر .

ورَوى الطَّحاويُّ عن أَبي حنيفة رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ، وكذا روىٰ عن أَصحابه : أَنَّهُ لا يخرجُ المؤْمِنُ مِنَ الإيمانِ إلاَّ بجحودِ ما أَدخلَهُ فيه ، وهوَ الإقرارُ والتَّصديق ، فلا يُحكمُ بكفرِ المؤْمِنِ إلاَّ بالإنكار .

وقالَ بعضُ العلماء : الخطأُ في تركِ الحقِّ علىٰ كافرٍ أَهونُ مِنَ الخطأ في سفكِ محجمةٍ مِنْ دمِ مسلم .

فينبغي أَنْ لا يَعجَلَ المسلمُ في تكفيرِ مسلمٍ حتَّىٰ يُحيطَ خُبراً بالمسألةِ والرّاجحِ فيها ، ولـٰكنّا نذكرُ ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ ما ذكرَهُ الأَئِمَّةُ الحنفيَّةُ مِنْ بعضِ الأَلفاظِ حتَّىٰ يتجنَّبها المسلمُ ولا يقعَ في مُكفِّرٍ ولو علىٰ بعضِ الأَقوالِ ؛ لأَنَّ الكفرَ إذا لَم يَلزم . . فالحرمةُ أَوِ الحظرُ فيها موجودٌ أَو مظنون ، وكما وردَ « مَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَىٰ . . يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيه » ، و : « دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبُك » .

وليُعلَمْ أَيضاً : أَنَّ المسلمَ إذا صدرَ منه ـ والعياذُ باللهِ تعالىٰ ـ ما يوجبُ الكفر . . يَخرجُ مِنْ دينِ الإسلام ، وتَبينُ زوجتُه(١) ، فيُستتابُ ويُحبسُ ثلاثةَ أَيّام ، فإنْ تاب . . فبها ونِعْمَت ، وإلا . . قُتلَ وتَركَتُهُ لِبيتِ المال .

وكثيرٌ ممّا عملَهُ المرتدُّ والمرتدَّةُ يَحبطُ ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ حتَّىٰ إنَّ بعضَ الفقهاءِ مِنَ الحنفيَّةِ استحسنَ أَنْ يُجدِّدَ الرَّجلُ نِكاحَ زوجتهِ في كلِّ شهر ؛ لما يَظهرُ مِنْ طائفةِ النِّساءِ مِنَ المكفِّراتِ بلا عِلمٍ منهن ، فلا تَغفل .

فأَمّا ما يتعلَّقُ باللهِ تعالىٰ : إذا وَصفَ اللهَ تعالىٰ بما لا يَليقُ بهِ ؛ بأَنْ شبَّهَ اللهَ تعالىٰ بشيءٍ مِنَ المخلوقات ، أَو نعتَهُ بجارحة ، أَو نفىٰ صفاتِ كمال ، أَو قالَ بالحلولِ

---

(١) يعني : تطلق طلاقاً بائناً ؛ يعني : بينونة صغرى ، فترجع بلا عقد إذا أسلم قبل انقضاء عدَّتها ، فإن أسلم بعد انقضاء العدة عادت له بعقد ومهر جديدين ، هـٰذا مذهب الإمام الشافعي .

والاتِّحاد[1] ، أَو قال : إِنَّهُ مستقرٌّ في مكانٍ أَو في زمان ، أَو معَهُ قديمٌ آخَر ، أَو معَهُ مدبِّرٌ مستقلٌّ غيرُه ، أَوِ اعتقدَ أَنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ جِسمٌ أَو مُحدَث ، أَو غيرُ حي ، أَوِ اعتقدَ أَنَّهُ لا يعلمُ الجزئيّات ، أَو سَخِرَ باسمٍ مِنْ أَسمائهِ أَو أَمرٍ مِنْ أَوامره ، أَو وعدِهِ أَو وعيده ، أَو أَنكرَها ، أَو سَجَدَ لغيرِ اللهِ[2] ، أَو سبَّ اللهَ تعالىٰ ، أَوِ ادَّعىٰ أَنَّهُ لَهُ ولدٌ أَو صاحبة ، أَو أَنَّهُ متولِّدٌ مِنْ شيءٍ أَو كائنٌ عنه ، أَو أَشركَ بِعبادتهِ شيئاً مِنْ خَلْقه ، أَوِ افترىٰ على اللهِ الكذبَ بادِّعاءِ الإِلـٰهيّةِ والرِّسالة ، أَو نفىٰ أَنْ لا يكونَ خَلَقَهُ ربُّه ، وقال : ليسَ لي رب ، أَو قالَ لذرَّةٍ مِنَ الذَّرّات : هـٰذهِ خُلِقَتْ عبثاً أَو سهواً ، وما أَشبَهَ ذلكَ ممّا لا يليقُ به ، ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ . .

يَكفرُ في هـٰذهِ الوجوهِ كلِّها بالإِجماع ، سواءٌ فعلَ عمداً أَو هزلاً . .

يُقتَلُ إِنْ أَصرَّ علىٰ ذلكَ أَو أَحدٍ مِنَ المذكورات ، وإِنْ تاب . . تابَ اللهُ تعالىٰ عليه ، وسَلِمَ مِنَ القتل .

ومَنْ قال : إِنَّ اللهَ تعالىٰ في السَّماء :

إِنْ أَرادَ بهِ المكانَ وأَنَّهُ مستقرٌّ كاستقرارِنا . . يَكفر .

وإِنْ أَرادَ بهِ الحكايةَ والنَّقلَ عمّا جاءَ في ظاهرِ الأَخبار . . لا يَكفر .

وإِنْ لَم يَكنْ لَهُ نيَّة . . يَكفرُ عندَ أَكثرِهم .

ومذهبُ السّلفِ في ذلكَ أَسلمُ وأَحكم ، واللهُ تعالىٰ أَعلم[3] ، وتفصيلُ هـٰذا في الفتاوىٰ والكتبِ الكلاميّة .

---

(١) **الحلول** : القول بأنَّ الله تعالىٰ حالٌّ في الأشياء . **والاتحاد** : تصير ذات الله تعالىٰ والأشياء ذاتاً واحدة تعالى الله عن ذلك .

(٢) معتقداً فيه الربوبية ، وإلا . . فيحرم بالإجماع ، ولا يكفر فاعله بناءً على ما جاء في شريعة من قبلنا من جوازه على وجه التحية أو غير ذلك ؛ وقد ورد السجود لآدم وليوسف عليهما السلام ، وفي المسألة بسط ، انظر : « الإعلام بقواطع الإسلام » لابن حجر الهيتمي وغيره .

(٣) أي : في السكوت عن الخوض في المتشابه . وقال الإمام الغزالي والسبكي : (لولا ظهور أهل البدعِ . . لما خاض فيه العلماء) لـٰكن أجمع السلف والخلف على تنزيه الله تعالى عن ظواهر الآيات والآثار الموهمة للتشبيه والتجسيم .

وأَمّا ما يتعلَّقُ بالقرآن : فقد قالوا : إنَّ مَنِ استخفَّ بالقرآنِ أَو حَرْفٍ مِنْ حروفه ، أَوِ استخفَّ بالمصحفِ أَو سبَّه ، أَو أَلقى المصحفَ إِلى القاذورات ، أَو جحدَ حرفاً منهُ أَو آية ، أَو كذَّبَ بهِ أَو شيءٍ منه ، أَو كذَّبَ بشيءٍ ممّا صرّحَ بهِ فيهِ مِنْ حُكمٍ أَو خبر ، أَو أَثبتَ ما نفاهُ أَو نفىٰ ما أَثبتَهُ علىٰ عِلمٍ منهُ بذلك ، أَو شكَّ في شيءٍ مِن ذلك ، أَو نقصَ حرفاً منهُ قصداً ، أَو بدَّلَهُ بحرفٍ آخَرَ مكانَهُ عمداً ، أَو زادَ فيهِ حرفاً عالماً بما يشتملُ عليهِ المصحفُ الَّذي وقعَ الإجماعُ عليه ، أَو قال : القرآنُ جسمٌ إِذا كُتب ، وعَرَضٌ إِذا قُرِىء ، أَو قرأَ القرآنَ علىٰ وجهِ الهزلِ أَو الدُّفِّ والقصب[١] ، أَو قال : شبعت[٢] ، أَو قرأَ القرآنَ في بذلةِ كلامهِ ؛ كما لَو قالَ في موضعِ الأَمرِ بالشَّيء ، أَو قالَ في موضعِ الإجازةِ لمَنْ يقولُ لَه[٣] : آخذ ، أَو أَدخل ، أَو أَقوم ، أَو أَصعد ، أَو أَتقدَّم ، أَو أَسير؟ وقالَ المستشار : بِسمِ الله ، كما هوَ عادةُ بعضِ أَهلِ الحجازِ مِنْ مكَّةَ والمدينةِ وما حواليهما والأَعجام ؛ يعني به : أَذنتُ لكَ فيما استأذنت أَو حضرَ الطَّعام ، وقالَ واحد : بسمِ اللهِ مكانَ كُلوا . . يَكفر ، كذا في « تتمَّةِ الفتاوىٰ »[٤] إِلاَّ إِذا كانَ مرادُهُ مِنْ قول (بسمِ الله) التَّبرُّك ، أَو افْعَلْ مستعيناً باسمِ اللهِ تعالىٰ ، أَو كُلْ مبتدئاً باسمِ الله ، وفي هٰذا الوجهِ لا يكفر ؛ لأَنَّهُ لَم يستعملِ القرآنَ في بذلةِ كلامهِ مِنَ الإعلامِ والجواب ، بل أَرادَ بهِ التَّبرُّكَ والاستعانةَ باسمِ اللهِ تعالىٰ ، والاحتياطُ لا يخفىٰ عليك .

وكذا يَكفرُ مَنْ قال : القرآنُ مخلوقٌ أَو أَعجمي ، أَو قال : خُذْ أُجرةَ القرآنِ أَو أُجرةَ المصحف ، أَو عابَ شيئاً مِنَ القرآن ، أَو خطّأ[٥] ، أَو أَنكرَ المعوِّذتَينِ أَنْ يكونا مِنَ القرآن ، أَو سمعَ قراءةً فقالَ استهزاء : صوت طرفة ، أَو قالَ عندَ ازدحامِ النّاس : ﴿ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ ، أَو ملأَ قدحاً وقال : ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ ، أَو قال عندَ الكيلِ والوزن :

---

(١) **القصب** : المزمار ، ونحوه من آلات اللّهو .

(٢) **يعني** : من القرآن الكريم وذلك علىٰ وجه الإعراض عنه .

(٣) **يعني** : علىٰ وجه الاستفسار والسؤال وطلب الإذن .

(٤) « تتمة الفتاوىٰ » لمؤلفها : برهان الدين أبي المعالي ابن مازه ، صاحب « المحيط » . .

(٥) **يعني** : شيئاً من القرآن الكريم .

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ ، أَو قال : والنّازعاتِ نزعاً ونزع[١] ، أَرادَ بهِ الاستهزاءَ أَوِ المزاح ، أَو قالَ لِلقرّاء : هـٰؤلاءِ أَكَلَةُ الأَرز ؛ استخفافاً بهم ، وأَمثالُ هـٰذه . . لا يمكنُ عدُّه ، ويكفرُ في هـٰذهِ الوجوهِ كلِّها ، ويُقتلُ إِنْ أَصرَّ علىٰ ذلك ، وإِنْ تاب . . تُقبَلُ توبته .

ومَنْ أَنكر « التَّوراة » و« الإِنجيل » و« الزَّبور » ، أَو لَعنَها ، أَو سبَّها . . فقد كفر .

ومَنْ قرأَ أَو أَقرأَ بشواذ مِنَ الحروفِ ممّا ليسَ في المصحف[٢] . . قالوا : يجبُ عليهِ التَّوبةُ منهُ والرُّجوعُ عنه .

وأَمّا ما يتعلَّقُ بنبيّنا عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : مَنْ سبَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَو غيرَهُ مِنَ الأَنبياء ـ والعياذُ باللهِ تعالىٰ ـ أَو عابَه ، أَو شَبَّهَهُ بشيءٍ علىٰ طريقِ السَّبِّ لَهُ أَوِ الازدراءِ عليهِ أَو التَّصغيرِ لشأنه ، أَو لَعنَه ، أَو دعا عليه ، أَو تمنَّىٰ مضرَّةً لَه ، أَو نسبَ إِليهِ ما لا يليقُ بمنصبهِ العالي ، أَو قال لِشَعْرِه : شُعَيْر[٣] ، أَو قال : جُنَّ النَّبيُّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام ، أَو عيَّرهُ بشيءٍ ممّا جرىٰ مِنَ البلاءِ والمحن عليه ، أَو نَسبَ إِليهِ المداهنةَ في تبليغِ الرِّسالة ، أَو قال : إِنَّهُ شاعرٌ أَو كاهنٌ أَو ساحر ، أَو أَلحقَ نقصاً أَو دنيئةً عابَهُ بها أَو خصلةً مِنْ خصاله ، أَو عرَّض به[٤] ، أَو قال : إِنَّ رداءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَو إِزارَهُ وسخ ، وأَرادَ بهِ عيبَه ، أَو عيَّرهُ برعايةِ الغنمِ أَوِ السَّهوِ أَوِ النِّسيان ، أَو نسبَ إِليهِ المداهنةَ في حُكمٍ بينَ النّاس ، أَو نَسبَ إِليهِ سفهَ القول ، أَو قال : هُزِمَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم علىٰ وجهِ الاستخفاف ، أَو قالَ مراءٍ في زهدهِ وفقره ، أَو نفىٰ نبوَّتَهُ أَو رسالتَهُ أَو خَتْمَهُ لِلأَنبياء ، أَو قال : إِنَّهُ رسولٌ ولـٰكنْ رسولٌ إِلى العربِ فقط ، أَو قال : إِنَّهُ ليسَ مِنَ العرب . . فقد كَفَرَ مِنْ هـٰذهِ الوجوهِ كلِّها بالإِجماع[٥] ،

---

(١) والأصل قوله تعالىٰ : ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ .

(٢) بشرط قصد القرآنية ، وإلا . . فلا حرمة كاستشهاد وتعليم وغير ذلك . وقد تعقب ذلك كله العلامة ابن حجر الهيتمي في كتابه المار ذكره في التعليق ورد أكثره ، فانظره فإنه مهم جداً .

(٣) أراد بذلك التصغير والاحتقار .

(٤) من التعريض وهو ما يفهم من اللفظ بلا تصريح .

(٥) بل فيه تفصيل وفيما بعده كما تقدم في الهامش .

يُقتَلُ إِنْ أَصرَّ علىٰ ذلكَ لا خلافَ في وجوبِ قَتْله ، وأَمّا إِنْ تابَ هل تُقبلُ توبتُهُ أَم لا ؟ فعندنا وعندَ مالكٍ لا تُقبلُ توبتُه ، فقَبلَ التَّوبةِ يُقتلُ كفراً ، وبعدَ التَّوبةِ حدّاً عندنا ، وعندَ مالكٍ يُقتلُ بعدَ التَّوبةِ كفراً في روايةٍ وحدّاً في رواية ، ولا تَعملُ توبتُهُ في إِسقاطِ قَتْلهِ عندنا وعند مالك ، نُقلَ هـٰذا عن أَبي بكرٍ الصِّديقِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه .

ولا فرقَ بينَ أَنْ يَجيءَ تائباً مِنْ نَفْسهِ أَو شهدَ الشُّهودُ عليهِ بذلك ، بخلافِ الغيرِ مِنَ الكفر ، فإِنَّ الإِنكارَ فيهِ توبةٌ فلا تَعملُ الشَّهادةُ معَه ، حتَّىٰ قالوا : مَنْ سبَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم سكراناً . . يُقتلُ ولا يُعفىٰ عنه ، قالَهُ ابنُ الهمامِ في « شرحِ الهداية » .

ولا بدَّ مِنْ تقييدِهِ بما إِذا كانَ سُكرُهُ بسببِ محظورٍ باشرَهُ بلا إِكراه ، وإِلا . . فهوَ كالمجنون ، وأَمّا قتلُهُ في حقِّهِ تعالىٰ . . فيُعملُ بتوبتهِ في إِسقاطِ قَتْله ، نُقلَ هـٰذا عن عليٍّ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَه .

وقالَ القاضي عياض : واختُلفَ فيهِ عن أَبي حنيفة رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ثمَّ قال : والفرقُ بينَهُ وبينَ مَنْ سَبَّ اللهَ تعالىٰ علىٰ مشهورِ القولِ باستتابته : أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بشر ، والبشرُ جنسٌ تلحقُهمُ المعرَّةُ إِلاَّ مَنْ أَكرمَهُ اللهُ تعالىٰ بنبوَّته ، والباري تعالىٰ منزَّهٌ عن جميعِ المعايبِ قطعاً وليسَ مِنْ جنسِ مَنْ تلَحقهُ المعرَّة ، وليسَ سبُّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم كالارتدادِ المقبولِ فيهِ التَّوبة ؛ لأَنَّ الارتدادَ معنىً يَنفردُ به المرتد لا حقَّ فيهِ لغيرهِ مِنَ الآدميِّينَ فقُبلَتْ توبتُه ، ومَنْ سبَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم تعلَّقَ فيهِ حقُّ الآدميِّ فكانَ كالمرتدِّ فيُقتلُ حينَ ارتدادهِ فيهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بعدَ التَّوبةِ لِكُفْره ، لـٰكنْ لمعنىً يَرجعُ إِلىٰ تعظيمِ حُرمتهِ وزوالِ المعرَّة ، وذلكَ لا يسقطُ بالتَّوبة . اهـ كلامُ القاضي[1] .

هـٰذا حُكمُ المسلم ، وأَمّا الذِّميُّ إِذا سبَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَوِ استخفَّ به ، أَو وصفَهُ بما لا يليقُ بمنصبهِ العالي . . يُؤدَّبُ عندنا ويُعزَّر ، وعندَ مالكٍ يُقتَلُ إِنْ لَم يُسلِم ، فإِنْ أَسلم . . ففي ذلكَ روايتانِ في إِسقاطِ قَتْله ، قالَ ابنُ الهمام : والَّذي عندي

---

(١) وقد أُفردت مسألة سب الرسول بالتأليف للسبكي والسيوطي وغيرهما ، وفيها تفصيلٌ شافٍ متعلق بما هنا لا يستغنى عنه .

إنْ سبَّ الذِّميُّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَو نَسَبَ ما لا ينبغي إلى اللهِ تعالىٰ إنْ كانَ ممّا يعتقدونَه ؛ كنسبةِ الولدِ إليه ـ سبحانَهُ وتعالىٰ وتقدَّسَ عن ذلك ـ إذا أَظهرَه . . يُقتَلُ بهِ ويُنقضُ عهدُه ، وإنْ لَمْ يُظهرْهُ ولـٰكنْ تستَّرَ عليهِ وهوَ يكتمُه . . فلا يُقتل . اهـ

ومَنْ سبَّ سائرَ الأنبياءِ أَوِ الملائِكةِ عليهِمُ السَّلام ، أَوِ استخفَّ بِهم أَو كذَّبهُم بما أَتوا به ، أَو أَنكرَ واحداً منهُم ممَّن تعيَّنَ أَنَّهُ نبي ، أَو جحدَ حُكمَ نبيٍّ منهُم ، أَو قال : إنَّ جبريلَ أَخطأَ بالوحي إنَّما كانَ النَّبيُّ عليَّ بنَ أَبي طالبٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ ، أَو سبَّ سائرَ الملائِكة . . فعليهِ القتل ، وحُكمُهُ حُكمُ المرتدِّ عندنا[1] ، وعند مالكٍ لَم يُستتَب .

ومَنْ سَبَّ أَبا بكرٍ وعمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما ، أَو أَنكرَ خلافتَهُما . . يَكفر ، كذا قيل ، والَّذي صحَّحهُ غيرُ واحدٍ مِنَ الفقهاءِ : أَنَّهُ لا يكفرُ بسبِّ الشَّيخينِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما .

ومَنْ قَذَفَ عائشة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها بالزنا . . فهوَ كافرٌ بالإجماع[2] ، يُقتلُ إنْ لَم يَتُبْ عنه . وأَمّا سبُّ آلِ بيته ، وسائرِ أَزواجهِ المطهَّرات ، وسائرِ الصّحابةِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُم . . فهوَ حرام ، ملعونٌ فاعلُه ، ويُنكَّلُ النَّكالَ الشَّديد .

ومَنْ أَبغضَ عالماً مِنْ غيرِ سبب ظاهر . . قالَ في « الخلاصة » : خِيفَ عليهِ الكفر .

ومَنْ قالَ لِعالِم : عويلم ، أَو لعلويٍّ[3] عُلَيوي ، قاصداً بهِ الاستخفاف . . قالَ في « المحيط » : كَفَر .

وقد أَمرَ الإمامُ الفضيليُّ بقتلِ مَنْ قالَ لمَنْ تركَ كتابَهُ عنده[4] : تركتَ المنشارَ هـٰهنا وذهبت .

---

(١) أي : فيستتاب ، وإذا تاب . . قبلت توبته . .

(٢) لثبوت براءتها رضي الله تعالىٰ عنها بنصّ القرآن الكريم .

(٣) يعني : لمن ينتسب لسيدنا علي كرم الله وجهه من جهة الأب أو الأم ناداه بالتصغير تحقيراً لنسبه .

(٤) أي عند القائل لتلك الجملة .

واستخفافُ العلماءِ إنَّما يكونُ كفراً إذا كانَ عاملاً بعلمه ؛ لأَنَّ مَنْ لا يَعملُ بعلمِهِ لا يستحقُّ التَّعظيم .

ومَنْ قالَ لفقيهٍ أَخذَ شاربَه : ما أَعجبَ قُبْحَها ، أَو أَشدُّ قبحاً قصُّ الشَّارب ، أَو لفَّ العمامةِ تحتَ الذَّقن . . قالَ في « الظَّهيريَّة » : يَكفر ؛ لأَنَّهُ استخفافٌ بالعلماء[1] .

ومَنْ قال : قصصتَ شاربك ، وأَلقيتَ العمامةَ على العاتق ، استخفافاً . . كفر ، كذا في « الخلاصة » لِلحميدي .

والتَّشبُّهُ بالمعلِّمِ علىٰ وجهِ السُّخريةِ بأَخذِ الخشبةِ وضربِ الصِّبيان . . كفر ؛ لأَنَّهُ استخفَّ بالعلمِ والعالِم .

ومَنْ قالَ لرجلٍ صالح : لِقاؤُكَ عندي كلقاءِ الخنزير . . قالَ في « الذَّخيرة » : يُخافُ عليهِ الكفر . ومَنْ قال : مَنْ يقدرُ على الإِتيانِ بما قالَهُ العلماء ؟![2] كَفَر . كذا قيل وفيه نظر .

قالَ في « الخلاصة » : رجلٌ يَجلسُ في مكانٍ مرتفع ، ويسأَلونَهُ مسائلَ بطريقِ الاستهزاء ، ثمَّ يضربونَهُ بالوسائدِ وهُم يضحكون . . كفروا جميعاً ، وكذا لو لَم يَجلسْ علىٰ مكانٍ مرتفع .

قلت : وكذلكَ إذا تشبَّهَ المضحِكُ المذكورُ بقاض ، أَو مفت ، أَو خطيب ، أَو نحوِهم ، وأَتىٰ بحركاتٍ مضحكة ، أَو تكلَّمَ بكلماتٍ كفريَّةٍ ليُضحكَ السّامعين . . كفروا جميعُهُم ، وهـٰذا الفعلُ شائعٌ في زمانِنا هـٰذا ، ويُسمُّونَ المضحِكَ المذكورَ بالإِخباري ، معَ أَنَّ المطابقَ للحالِ تسميتُهُ بالإِكفاري .

فإِنّا لله ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بالله ، ونسأَلُه ـ وهوَ ذو النِّعمِ الفاخرة ـ أَنْ يثبِّتنا وإِيّاكُم على القولِ الثّابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة .

---

(١) أي : قال لفقيه إذا لف العمامة . . ما أعجب قبحها ، أو قال : لفها أشد قبحاً .

(٢) يعني : على وجه الاستكثار لهم والاستخفاف ، أو المراغمة والعناد .

وممّا يتعلَّقُ بالأَحكامِ مسائلُ متفرِّقةُ الأَلفاظِ كثيرةٌ أَيضاً ، نذكرُ بعضَها إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ؛ ليتوقّاها الإنسانُ الكاملُ الإيمان :

فمِنْ ذلك : إذا أَنكرَ حُكماً شرعيّاً ثابتاً مِنَ الدِّينِ بالضَّرورة ؛ كإنكارِ الصَّلاةِ أَو تَرْكِها[1] عندَ الإمامِ أَحمدَ ابنِ حنبلٍ وكثيرٍ مِنَ العلماء ، وكإنكارِ الحجِّ والزَّكاةِ والصِّيام ، والغُسلِ مِنَ الجنابةِ والحيضِ ونحوِ ذلك .

ومِنْهُ : إذا اعتقدَ الحلالَ حَراماً ، والحرامَ حلالاً .

ومِنْه : استحلالُ المعاصي والاستهانةُ بها ؛ لأَنَّ ذلكَ مِنْ أَماراتِ التَّكذيبِ ولو لَم يتكلَّمْ بكلمةِ الكفر ، وإذا تكلَّمَ بكلمةِ الكفرِ مِنْ غيرِ قصدٍ أَو مِنْ غيرِ عِلمٍ . . قيل : لا يَكفر ، وقالَ أَكثرُهُم : يكفر .

ومنه : العزمُ على الكفرِ بعد حين ، ورضاهُ بكفرِ الغيرِ كفر ، وقيل : لا .

ومنه : ما لو أَنكرَ وجودَ الجنِّ أَوِ الملائكة .

ومنه : ما لو صدَّقَ أَنَّ الكاهنَ يعلمُ الغيبَ أَوِ المنجِّم ، قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « مَنْ أَتَىٰ كَاهِناً فَصَدَّقَه . . كَفَرَ بِالله » .

ومِنْ ذلك : ما لو قال : قصعةُ ثريدٍ خيرٌ مِنَ العلم .

ومنه : ما لو قال : العزَّةُ للدّرهمِ لا لِلعلم ؛ لأَنَّهُ عارضَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

ومنه : ما لَو قال : لَو كانَ فلانٌ قِبلة . . ما توجَّهتُ إِليه .

ومنه : ما لَو قال : الصَّلاةُ وتركُها واحد .

ومنه : ما إذا تمنَّىٰ أَنْ يكونَ نصرانيّاً أَو يهوديّاً فيُسلمَ ليُعطىٰ .

ومنه : ما لو قالَ لِمَنْ أَسلم : ما ضرَّكَ دِينُكَ حتَّىٰ أَسلمتَ ؟!

ومنه : ما لَو قالَ لَه كافر : أُريدُ أَنْ أُسلِم ، فقالَ لَه : اصبر الآن .

---

(١) العطف بـ(أو) خاص بالترك كسلاً أو تهاوناً ، أما الإنكار بمعنى جحود الوجوب . . فهو مجمع عليه في كل حكم معلوم بالضرورة .

ومنه : ما إِذا قال : إِنْ أَمرني فلانٌ بالكفر . . كفرت .

ومنه : ما لَو قال : الحلالُ ما حلَّ في الكف ، أَو قال : الحرامُ أَحبُّ إِليَّ مِنَ الحلال .

ومنه : إِذا قال : حينَما يُعطي عالمٌ فقيراً درهما تَضربُ الملائِكةُ الطَّبلَ في السَّماوات .

ومنه : ما لَو قال : يَعلمُ اللهُ كذا ، وهوَ كاذب .

ومنه : ما لَو قالَ لَه خصمُه : نذهبُ إِلىٰ شرعِ الله ، فقال : لا أَعرفُ شرعَ الله .

ومنه : ما لَو صاحَ الطَّير ، فقال : يدلُّ علىٰ كذا ، يَكفرُ عندَ بعضِهم .

ومنه : إِذا قال : أَنا أَعلمُ المسروقات ، أَو إِنَّ الجنَّ تُخبرُ بالمغيَّبات[1] . . كفر ؛ لأَنَّهُ تكذيبٌ لقولهِ تعالىٰ : ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ .

ومنه : ما لو قالَ لَه المظلوم : سوفَ آخذُ دراهمي منكَ يومَ لا درهم ، فقال : زدني وخُذْ هناك .

ومنه : ما لَو وضعَ قلنسوةَ المجوسيِّ علىٰ رأسه ، أَو شدَّ الزّنّارَ ودخلَ دارَ الحرب ، أَو دعاهُ المجوسيُّ في أَعيادهِ وأَجابَه . . كفر .

قالَ الإِمامُ أَبو حفص : لَو أَنَّ رجلاً عبدَ ربَّهُ خمسينَ سنة ، ثمَّ جاءَ يومُ النَّيروزِ[2] فأَهدىٰ إِلىٰ بعضِ المشركينَ هديّةً يريدُ تعظيمَ ذلكَ اليوم . . فقد كفر .

قالَ العلماء : وإِذا قال : هوَ يهوديٌّ أَو نصراني ، أَو بريءٌ مِنَ الإِسلام ، أَو ما أَشبهَ ذلك ، إِنْ فعلَ كذا (علىٰ أَمرٍ مستقبل) . . فهوَ يمينٌ عندنا ، والمسأَلةُ معروفة ، فإِنْ أَتىٰ بالشَّرطِ وعندَهُ أَنَّهُ يكفر . . كفر ، وإِنْ كانَ عندَهُ أَنَّهُ لا يكفرُ متىٰ أَتىٰ

---

(١) (أل) في لفظة الغيب للجنس ، فإذا اعتقد أن مخلوقاً يعلم جنس الغيب ـ أي : من جميع الوجوه ـ على الإطلاق . . فهـٰذا محل التكفير ، أما علمه من بعض الوجوه . . فهو غير مستحيل عقلاً وشرعاً .

ومن قال غير ما ذكر وقع في تناقضات منها أن الطبيب يعلم ما في الأرحام من خمس لا يعلمهن إلا الله ، كما يردده من لا يكلف نفسه عناء الاطلاع على نحو ما تقدم .

(٢) ويقال له : نوروز أيضاً كما في نسخة أخرىٰ ؛ وهو : يوم عيد للفرس عموماً ، ويعدُّ أول يوم من أيام السنة الشمسية مع بداية الربيع ، ويوافق الحادي والعشرين من شهر آذار .

بالشَّرط . . فعليهِ كفَّارةُ اليمينِ لا غير ، ويكونُ قَصدُهُ بذلكَ الكلامِ هوَ المبالغةَ عنِ امتناعهِ وتقبيحَهُ لذلكَ المرام .

وإِنْ حلفَ بهـٰذهِ الأَلفاظِ علىٰ أَمرٍ في الماضي ، وعندَهُ أَنَّهُ لا يكفرُ كاذباً . . لا كفَّارةَ عليه ؛ لأَنَّهُ غموس ؛ لِكونهِ كبيرة ، فلا يكفرُ بهِ علىٰ ما ذكرنا ؛ أَي : كما قرَّرنا .

وفي الحاضر والمستقبلِ إِنْ كانَ عندَهُ أَنَّهُ يكفر . . كفر ؛ لأَنَّهُ رِضاً منهُ بالكفر .

ولو قال : باللهِ وبروحكَ أَو برأْسك . . قالَ بعضُ المشايخ : يكفر . ولو قال : بالله ، وبترابِ قَدَمِك . . كفرَ عندَ الكل .

ومنه : ما لو قالَ لغيره : رؤْيتُكَ كرؤْيةِ ملكِ الموت . . قيل : يكفر ؛ لأَنَّ بُغضَ الملائكةِ وسبَّهم كفر .

ومنه : ما لَو قال : قَتْلُ فلانٍ واجبٌ أَو مستحقُّ القتل ، ولَم يكنْ عليهِ في الشَّرعِ ما يَلزمُهُ القتل . . يكفرُ القائل ؛ لأَنَّهُ استحلَّ ما حرَّمَ اللهُ تعالىٰ ، وهـٰذا كثيرُ الوقوعِ والنَّاسُ عنهُ غافلون .

ومنه : ما لَو قالَ للظّالمِ حينَ ضربَ زيداً مثلاً ظُلماً : أَحسنت . . يكفر .

ومنه : ما لو قالَ لمَنْ لبسَ الحريرَ أَوِ استعملَ المحرَّم : مبارَك ، قيل . . يكفر .

ومنه : ما لَو تصدَّقَ مِنَ الحرامِ رجاءَ الثَّوابِ . . كفر .

قالَ في « تبيينِ المحارم » : والأَمنُ مِنْ مكرِ اللهِ واليأْسُ مِنْ رحمتهِ كفرٌ عندنا ، وعندَ غيرِنا مِنَ الكبائر ، وظاهرُ الآيةِ معَنا ؛ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ .

وينبغي للإِنسانِ أَنْ يتعوَّذَ بهـٰذا الدُّعاءِ المأْثورِ صباحاً ومساء ؛ فإِنَّهُ سببُ الحفظِ عمّا يُوقعُ في المكفِّرات ؛ وهو : **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعوذُ بكَ مِنْ أَنْ أُشركَ بكَ شيئاً وأَنا أَعلم ، وأَستغفركَ لِما لا أَعلم ، إِنَّكَ تعلم ، ولا أَعلم ، وأَنتَ علاَّمُ الغيوب .**

وأَمّا النِّفاق : فسيأْتي بحثُهُ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

فسبحانَ مَنْ خَلَقَ سعيداً وشقيّاً ، وعاصياً وتقيّاً ، وأَحضرَ جهنَّمَ متَّهماً وبَرِيّاً ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ .

جَمَعَ عدوّاً ووليّاً ، وفرّقَ على الفريقينِ زيّاً ، فترىٰ وجْهَ التَّقيِّ نقيّاً ، وبصرَ الشّقي عميّاً ، فسَلَّمَ طائعاً ، وأَهلكَ عصيّاً ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ .

نَشَرَ على الفريقينِ كتاباً مطويّاً ، وعرضَ أَعمالَهُم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ، فآتاهُم عيشاً مريّاً ، وعيشاً هنيّاً ، وكأَنَّكَ بهٰذا قد كان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ .

حَضروا يومَ الحسابِ فأَغنىٰ جميعَ الخلائقِ كلّهم برِّيّاً وبحْريّاً ، فميَّزَ الميزانُ مَنْ كانَ سعيداً أَو شقيّاً ، فما نجا إِلاَّ مَنْ كانَ مخلَصاً نقيّاً ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ .

خَرسَتْ أَلسنتهُم خوفاً لا عجزاً وعِيّاً ، وبَرَدَ اعتذارهُم وما ذاكَ بناكس رأسه خجلاً ؛ مَنْ لَم يكنْ حييّاً ، وسكتَ عنِ الكلامِ مَنْ لَم يَزَلْ جريّاً ، وانعجمَ اللِّسانُ وإِنْ كانَ عربيّاً ، يستغيثُ أَهلُ النّارِ بكرةً وعشيّاً ، يعطشون ولا يجدونَ ريّاً ، لَو رأَيتَهُم يَضجُّونَ شيخاً وصبيّاً ، يَستغيثونَ إِلىٰ أَنْ يرجعَ الصَّوتُ خفيّاً ـ وَيْلَهُم ـ مَنْ يَرحمُهم وقد غضبَ مَنْ لَم يَزَلْ حفيّاً . ما نفعَ فقيرهم أَنْ كانَ في الدُّنيا غنيّاً ، ولا ضعيفَهم أَنْ كانَ قويّاً ، ولا شجاعُهُم وكم قد حَمَلَ خطيّاً[1] ، ولا ذليلهُم وقد كانَ عليّاً ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ .

عموا عنِ الرَّشادِ فأَصبحَ كلٌّ غبيّاً ، كم سَلَكوا سبيلاً خالَفوا فيها دليلاً جليّاً! كَمْ آذوا صالحاً وكم ظَلموا وليّاً! كم حبسَ الحقوقَ منهُم مَنْ كانَ مليّاً! دخلوا سجناً وجدوهُ بالبلاءِ مبنيّاً ، قد أُفردوا في العذابِ لا يجدونَ نجيّاً ، يُعذَّبونَ عذاباً دائماً سرمديّاً ، يأْكلونَ لحمَ أَيديهِم فينبتُ طريّاً ، غرسوا شجرَ النَّدامةِ فتناولوا الأَسفَ جنيّاً ، اِنتبهْ بهٰذهِ الموعظة ، ولا تَنِ قَبْلَ أَنْ تقول : يا ليتني كنت نسياً منسياً .

* * *

(١) أي : الرمح .

المجلسُ الثامنُ
في حديثِ جبريلَ عليه السلام أيضاً في الصلاة وبعض لوازمها

بسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ المطَّلعِ علىٰ ظاهرِ الأَمرِ ومكنونه ، العالِم بسرِّ العبدِ وجهرِهِ وظنونه ، المتفردِ بإبداعِ العالَمِ وإنشاءِ فنونه ، ويقولُ للشيء : كُن ، فيكونُ بينَ كافهِ ونُونه ، فطرَ الخلائقَ علىٰ إرادته ، ودبَّرَ الكلَّ بمقتضىٰ حكمته ، وأَجراهُم في التَّصريفِ علىٰ مشيئته ، وقدَّرَ حالَ كلٍّ منهُم في حركتهِ وسكونه ، أَحسنَ إنشاءَ ما خَلَق ، وفتقَ الأَسماعَ وشقَّ الحدق ، وأَحصىٰ عددَ ما في الشَّجرِ مِنَ الورق ، في أَعوادهِ وغصونه ، مدَّ الأَرضَ ووضعَها ، وأَوسعَ السّماءَ ورفعَها ، وسيَّرَ النُّجومَ وأَطلعَها في حندسِ الظَّلام[1] ودجونه ، أَنزلَ القطرَ وبلاً ورَذاذاً ، فأَنقذَ بهِ البذرَ مِنَ اليبسِ إنقاذاً ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ .

أَحمدُهُ علىٰ جودهِ وإِحسانه ، وأُقرُّ أَنَّهُ لا شريكَ لَه في سلطانه ، وأَنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ المبعوثُ ببرهانه ، إلىٰ جاحدِ الحقِّ وخَؤُونه ، صلى اللهُ عليهِ وعلىٰ أَبي بكرٍ صاحبهِ في جميعِ شأنه ، وعلىٰ عمرَ مُقلِقِ كسرىٰ في سلطانِه ، وعلىٰ عثمانَ ساهرِ ليلهِ بقرآنِه ، وعلىٰ عليٍّ قالعِ بابِ خيبرَ ومزلزلِ حصونِه ، وعلىٰ سائرِ آلهِ وأَصحابه ، الَّذينَ اجتهدَ كلٌّ منهُم في الطَّاعةِ في حركاتهِ وسكونه .

أَمّا بعد : فنروي بسندِنا إلى الإمامِ مسلمِ بنِ حجاجِ النَّيسابوري عليهِ الرَّحمة ؛ فإِنَّهُ قد قالَ في « جامعهِ الصَّحيح » وكتابهِ الحريِّ بالتَّرجيح : عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما ، قال : حدَّثني أَبي عمرُ بنُ الخطّاب ، قال : بينما نحنُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ

(١) حندس الظلام : شديده .

عليهِ وسلَّم ذاتَ يومٍ إذ طلعَ علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثِّياب ، شديدُ سوادِ الشَّعر ، لا يُرىٰ عليهِ أثرُ السَّفر ، ولا يَعرفُهُ منّا أحد ، حتَّىٰ جلسَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فأسندَ رُكبتيهِ إلىٰ رُكبتيه ، ووضعَ كفَّيهِ علىٰ فخذيه ، وقال : يا محمَّد ؛ أخبرني عنِ الإسلام ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الإِسْلاَم : أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ، وَتُقِيمَ الصَّلاَة . . . » الحديث .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ، ونسألُهُ الهدايةَ إلىٰ أقومِ طريق ـ : قد تقدَّمَ الكلامُ علىٰ بعضِ المسائلِ المتعلِّقةِ بالإسلام ، ولنَذْكُرْ لكُم ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ ما يتعلَّقُ بأمرِ الصَّلاةِ الَّتي هيَ عمادُ الدِّين ، والفرقُ بينَ المسلمينَ والكافرين ، وإقامتُها كفَّارةٌ لِذنوبِ المذنبين ، ونورٌ على الصِّراط ، ووسيلةٌ لِلنَّجاةِ مِنَ العذابِ الأَليمِ ، والدُّخولِ في دارِ النَّعيم .

فقد روىٰ عَمرو بنُ مُرَّةَ الجهني رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : جاءَ رجلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فقال : يا رسولَ الله ؛ أرأيتَ إنْ شهدتُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وأنَّكَ رسولُ الله ، وصلَّيتُ الصَّلواتِ الخمس ، وأدَّيتُ الزَّكاة ، وصُمتُ رمضانَ وقمتُهُ فمِمَّنْ أنا ؟ قال : « مِنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء » .

وعن أبي مسلم قال : دخلتُ علىٰ أبي أُمامةَ وهوَ في المسجدِ فقلت : يا أبا أُمامة ؛ إنَّ رجلاً حدَّثني عنكَ أنَّكَ سمعتَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَسْبَغَ الْوُضُوء ؛ غَسَلَ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ وَمَسَحَ عَلَىٰ رَأْسِهِ وَأُذُنَيْهِ وَغَسَلَ رِجْلَيْه ، ثُمَّ قَامَ إِلَىٰ صَلاَةٍ مَفْرُوضَة . غَفَرَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَا مَشَتْ إِلَيْهِ رِجْلاَه ، وَقَبَضَتْ عَلَيْهِ يَدَاه ، وَسَمِعَتْ إِلَيْهِ أُذُنَاه ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ عَيْنَاه ، وَحَدَّثَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ سُوء » فقال : واللهِ لقد سمعتُهُ مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم مِراراً .

وعن أبي ذر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم خرجَ في الشِّتاءِ والورقُ يتهافت ، فأخذَ بغُصنٍ مِنْ شجرة ، قالَ فجعلَ ذلكَ الورقُ يتهافت ، فقال : « يَا أَبَا ذَر » قلت : لبَّيكَ يا رسولَ الله . قال : « إِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ لَيُصَلِّي الصَّلاَةَ يُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللهِ فتَهَافَتُ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا يَتَهَافَتُ هَـٰذَا الْوَرَقُ عَنِ هـٰذه الشَّجَرَة » .

وروىٰ جابرُ بنُ عبدِ الله رضي الله عنه ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الْكُفرِ تركُ الصَّلاَة » .

وعنِ الإمامِ أَحمد ، عن أُميمةَ مولاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قالَت : كنتُ أَصبُّ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وضوءَه ، فدخلَ رجلٌ فقال : أَوصني ؟ قال : « لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئاً وَإِنْ قُطِّعْتَ وَأُحْرِقْتَ بِالنَّار ، وَلاَ تَعْصِ وَالِدَيْكَ وَإِنْ أَمَرَاكَ أَنْ تخلَّىٰ مِنْ أَهْلِكَ وَدُنْيَاك . . فتخله ، وَلاَ تَشْرَبَنَّ خَمْراً ؛ فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَر ، وَلاَ تَتْرُكَنَّ صَلاَةً مُتَعَمِّداً ؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِك . . فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِه » .

وعن علي رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : (مَنْ لَم يُصلِّ فهوَ كافر) ، ولأَجلِ ذلكَ ذهبَ الإمامُ أَحمد رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه وبعضُ أَصحابِ الشَّافعي رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه وجماعاتٌ مِنَ الصَّحابةِ إِلىٰ أَنَّ الإنسانَ المكلَّفَ إِذا تركَ الصَّلاةَ عمداً مِنْ غيرِ حُجة . . يَكفرُ ويَخرجُ مِنَ الملَّةِ المحمَّديَّة ، وتجري عليهِ أَحكامُ المرتدِّين ، فلا يورثُ ولا يغسلُ ولا يُصلَّىٰ عليهِ وتَبينُ منهُ امرأَتُه ، واستدلَّ بحديثِ مسلم : « إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وبين الشرك والْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاَة » .

وقالَ أَبو هريرة رضي الله عنه : (كانَ أَصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم لا يرونَ شيئاً مِنَ الأَعمالِ تَرْكُهُ كفرٌ إِلاَّ الصَّلاة) .

لٰكنَّ جمهورَ العلماء ، كالإمامِ الأَعظمِ والشَّافعي رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قالوا : لا يكفرُ إِلاَّ الجاحدُ لوجوبِها ، وأَجابوا عنِ الأَحاديثِ بأَنَّها محمولةٌ علىٰ مقاربةِ الكفرِ أَو علىٰ كفرانِ النِّعمة ؛ كقولهِ عليهِ السَّلام : « سبَابُ الْمُسْلِمِ فِسْق ، وَقِتَالُهُ كُفْر » أَو علىٰ أَنَّ معناها : أَنَّهُ يستحقُّ بتركِها عقوبةَ الكافرِ وهيَ القتل ، وإِنَّما حملوهُ علىٰ ذلكَ لقولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِن . . فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْد ، إِنْ شَاء . . عَذَّبَه ، وَإِنْ شَاء . . أَدْخَلَهُ الْجَنَّة » .

وفي « الميزان » للشَّعراني : قالَ الإمامُ مالكٌ والشَّافعيُّ رحمَهُمَا اللهُ تعالىٰ : إِنَّ مَنْ تركَ الصَّلاةَ كسلاً لا جحداً . . قُتل ، ثمَّ تجري عليهِ أَحكامُ المسلمين ، والصَّحيحُ مِنْ

مذهبِ الشَّافعيِّ قتلُهُ بصَلاةٍ فقط بشرطِ إخراجِها عن وقتِ الضَّرورة ، ويستتاب ، فإِنْ تاب ، وإلا . . قُتل .

وقالَ أَبو حنيفة : إِنَّهُ يُحبسُ أَبداً حتَّىٰ يُصلِّي .

وقالَ الإِمامُ أَحمدُ ابنُ حنبل : يُقتلُ بتركِ صَلاةٍ واحدة ، وتجري عليهِ أَحكامُ المرتدِّين ، فلا يُصلَّىٰ عليهِ ولا يُورث ، ويكونُ مالُهُ فيئاً . انتهىٰ مِنَ « الميزان » ملخّصاً .

وقالَ السَّفيري : قيل : تقولُ الملائكةُ لِتاركِ الفجر : يا فاجر ، ولِتاركِ الظُّهر : يا خاسر ، ولِتاركِ العصر : يا عاصي ، ولِتاركِ المغرب : يا كافر ، ولِتاركِ العشاء : يا مضيِّعُ ضيَّعكَ اللهُ تعالىٰ .

وجاءَ في الخبر : « ألا مَنْ نامَ عن صَلاةِ العتمة حتىٰ يذهب وقتها . . نادتهُ الملائكة : لا نامَتْ عينكَ ولا قرَّت ، حبسكَ اللهُ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ كما حبستَنا » .

وليُعلَم : أَنَّ لِلصَّلاةِ فرائضَ وسُنناً ومستحبَّات .

أَمّا فرائضُ الصَّلاة : فأَجمعوا علىٰ أَنَّها سبعة ، وهي : النِّيَّةُ لِلصَّلاة، وتكبيرةُ الإِحرام ، والقيامُ معَ الاستطاعة ، والقراءةُ في الرَّكعتينِ لِلإمامِ والمنفرد ، والرُّكوع ، والسُّجود ، والجلوسُ آخِرِ الصَّلاةِ بمقدارِ إِيقاعِ السَّلام .

فهـٰذِهِ هي الشَّرائطُ والأَركانُ المجمعُ عليها في المذاهبِ الأَربع .

وأَمّا ما عدا هـٰذه : فمختلَفٌ فيهِ فيما بينَهُم .

ولِلصَّلاةِ شرائط ، وهي كما في « الدُّرِّ المختار » ستَّة :

الأَوّل : طهارةُ بدنه مِنْ حَدَثٍ وخبث .

والثّاني : طهارةُ ثوبهِ وكذا ما يتحرَّكُ بحركتهِ كمنديلٍ طرفُهُ علىٰ عنقهِ وفي الآخرِ نجاسةٌ مانعةٌ إِنْ تحرَّكَ موضعُ النَّجاسةِ بحركاتِ الصَّلاةِ منع ، وإِلاَّ لا ، بخلافِ ما لم يتَّصلْ كبساطٍ طرفُهُ نجس ، وموضعُ الوقوفِ والجبهةِ طاهرٌ فلا يمنع .

والثّالث : وكذا تشترطُ طهارةُ مكانه ؛ أَي : موضعُ قدميه ؛ لقولهِ تعالىٰ :

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فبدنه ومكانه أَولىٰ ؛ لأَنَّهُما أَلزم .

والرَّابع : سترُ عورته ، ووجوبُهُ عامٌّ ولو في الخلوة ، وهي للرَّجلِ ما تحتَ سُرَّتهِ إِلىٰ ما تحتَ رُكبته ، وشرطَ الإمامُ أَحمدُ سترَ أَحدِ مَنْكِبَيْهِ أَيضاً .

وعندَ الإِمامِ مالكٍ هيَ القُبلُ والدُّبرُ فقط .

وما هوَ عورةٌ مِنَ الرَّجلِ عورةٌ مِنَ الأَمةِ معَ ظَهرِها وبَطْنِها ، وجَنْبُها تبعٌ لهما . ولِلحُرَّة : جميعُ بَدَنِها حتَّىٰ شعرُها النَّازلُ في الأَصح ، خلا الوجهَ والكفَّين ، فظَهرُ الكفِّ عورة .

وتُمنعُ الشَّابَّةُ مِنْ كشفِ الوجهِ بينَ رجال ؛ لخوفِ الفتنة ، ولا يجوزُ النَّظرُ إِليهِ بشهوة ، كوجهِ أَمرد ؛ فإِنَّهُ يَحرمُ النَّظرُ إِلىٰ وجهِها ووجهِ الأَمردِ إِذا شكَّ في الشَّهوةِ .

والخامس : النِّيَّة ، وهي إِرادتُه ، والمعتبرُ فيها عملُ القلبِ وهو : أَنْ يعلمَ بداهةً أَيَّ صَلاةٍ يُصلِّي والتَّلفُّظُ بها مستحَب ، وعندَ الحنفيَّةِ أَنَّ مصلِّي الجنازةِ ينوي الصلاة لله تعالىٰ والدُّعاءَ لِلميت .

والسَّادس : استقبالُ القِبلةِ حقيقة ، أَو حُكماً كعاجز ، وهوَ شرطٌ زائد ؛ أَي : ليسَ مقصوداً ؛ لأَنَّ المسجودَ لَه هوَ اللهُ تعالىٰ ، حتَّىٰ لَو سجدَ لِلكعبةِ نفسِها . . كفرَ وشرطهُ تعالىٰ لِلابتلاء ؛ أَي : للاختبار ، كما ابتلى الملائكةَ بالسُّجودِ لآدم .

وصفةُ الصلاةِ التحريمة ، وهيَ شرط ، والقيامُ في فرضٍ للقادرِ عليه ، والقراءةُ وهيَ ركنٌ زائدٌ لسقوطهِ بالاقتداءِ لقادرٍ وهيَ قراءةُ آيةٍ مِنَ القرآن ، والرُّكوع ، والسُّجود ، والقعودُ الأَخير ، وهوَ شرطٌ أَو ركنٌ زائدٌ قدرَ التَّشهُّدِ إِلىٰ عبدهِ ورسوله ، والخروجُ بصنعه ، والصَّحيحُ أَنَّهُ ليسَ بفرض . اهـ

واعلموا : أَنَّ أَوقاتَ الصَّلاةِ اختلفتْ في بعضِها المذاهب :

أَمّا وقتُ الصُّبح : فهوَ مِنْ طلوعِ الفجرِ الصَّادق ، ونهايتُهُ إِلىٰ طلوعِ الشَّمسِ اتِّفاقاً .

وأَمّا أَوّلُ وقتِ الظُّهر : فهوَ مِنْ زوالِ الشَّمسِ عن وسطِ السَّماء ، وفي آخرهِ خلاف .

وأَمّا أَوّلُ وقتِ العصر : عندَ الشّافعيِّ إِذا صارَ ظلُّ كلِّ شيءٍ مِثلَهُ ما عدا فيءَ الزَّوال .

وعندَ أَئِمّتنا الحنفيّة : أَوّلُ وقتِ العصرِ إِذا صارَ ظلُّ كلِّ شيءٍ مِثلَيْهِ ما عدا فيءَ الزَّوال ، وآخِرُ وقتِها : غروبُ الشَّمس ، فيكونُ آخرَ الظُّهرِ علىٰ هٰذا الخلاف .

وأَمّا المغرب : فقالَ مالك والشّافعيُّ في الجديد : إِنَّ وقتَ المغربِ بعدَ غروبِ الشَّمس ، لا يُؤَخَّرُ عنهُ في الاختيارِ عندَ مالك . وفي القديم : الجوازُ عندَ الشّافعي .

وقالَ أَبو حنيفةَ وأَحمد : إِنَّ لَها وقتين ؛ أَحدُهما كقولِ مالكٍ والشّافعيِّ في الجديد ، والثّاني : أَنَّ وقتَها إِلىٰ أَنْ يغيبَ الشَّفق ، وهوَ القولُ القديم ، لِلشّافعي . والشَّفق : هوَ الحُمرةُ الَّتي تكونُ بعدَ الغروب اهـ قالَهُ في « الميزان » .

وفي « الدُّرِّ المختار » : وقتُ المغربِ مِنْ غروبِ الشَّمسِ إِلىٰ غروبِ الشَّفق ، وهوَ الحمرةُ عندَ أَبي يوسفَ ومحمَّد ، وبهِ قالتِ الأَئِمَّةُ الثَّلاثة ، وإِليهِ رجعَ الإِمامُ أَبو حنيفةَ فكانَ هوَ المذهب .

وفي كتابِ « الاختيار » : الشَّفقُ البياض ، وهوَ مذهبُ الصِّدِّيق ، ومعاذِ بنِ جبل ، وعائشةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُم . اهـ

فالشَّفقُ شفقان : أَحمرُ وأَبيض ، والخلافُ جارٍ فيهِ فلا تغفل ، والبحثُ مستوفىً في الكتبِ الفقهيّة .

وأَمّا أَوّلُ وقتِ العشاء : فإِنَّهُ يَدخُلُ إِذا غابَ الشَّفقُ الأَحمرُ عندَ مالكٍ والشّافعيِّ وأَحمد ، خلافاً لأَبي حنيفة علىٰ ما تقدَّم ، ويَبقى إِلى الفجرِ اتِّفاقاً عندَ الأَربعة ، وفي قولِ بعضِ الأَئِمَّةِ مِنَ التّابعين : إِنَّ العشاءَ لا تُؤَخَّرُ عن ثلثِ اللَّيل ، وفي قولٍ آخَر : إِنَّها لا تُؤَخَّرُ عن نصفه .

وأَمّا وقتُ الوترِ الواجبُ عند أَبي حنيفة : فهو بعدَ صَلاةِ العشاءِ إِلى الفجر .

واعلَم : أَنَّ هٰذهِ الأَوقات إِنَّما هيَ لِلمقيم ، وأَمّا المسافرُ سفرَ طاعة . . فيباحُ لَهُ القصرُ والجمعُ جمعَ تقديمٍ وتأْخيرٍ عندَ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة ، خلافاً لأَبي حنيفة ، وكذلكَ

اختلفوا في جوازِ الجمع تقديماً وتأْخيراً لِلمقيمِ عندَ المطر ، وتفصيلُ البحثِ في الكتبِ الفقهيّة ، فارجِعْ إِليها إِنْ أَردتَها .

وليُعلَم : أَنَّ الطَّهارةَ كما سبقَ شرطٌ في الصَّلاةِ على القادرِ عليها ، وهيَ عبارةٌ عنِ الاغتسالِ مِنَ الجنابة ، والحيض ، والنِّفاس ، والوضوء ، أَو بدلِ ذلك ؛ وهوَ التَّيمُّم .

أَمّا الاغتسالُ ففرضُه : المضمضة ، والاستنشاق ، وغسلُ جميعِ البدنِ عندَ الإِمامِ الأَعظمِ والإِمامِ أَحمد ، وعندَ الشَّافعي : المضمضةُ ليسَتْ بفرض ، وعندَ الإِمامِ مالك : الدَّلكُ أَيضاً واجب ، ونقضُ ضفائرِ الرَّجُلِ لا المرأَة ، ويقتضي أَنْ يتعهَّدَ ما تحتَ الأَظافرِ والأَنف .

وأَمّا الوضوء : ففرائضُهُ عندَ الحنفيَّةِ أَربعة : غسلُ الوجه ، وغسلُ اليدين ، ومسحُ ربعِ الرَّأْس ، وغسلُ الرِّجلَينِ أَو مسحُ الخفَّينِ أَوِ الجوربَينِ بشرطه .

وقد أَجمعوا على اشتراطِ النِّيَّةِ ، ما عدا الإِمامَ الأَعظم ، وكذا في الغُسل ؛ لقولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « إِنَّمَا الأَعمَالُ بِالنِّيَّات » .

وأَبو حنيفةَ يقول : إِنَّ الوضوءَ ليسَ مقصوداً لذاتهِ بل لغيره ، وهيَ الصَّلاة ، فالنِّيَّةُ فيها فرض ، والبسملةُ في ابتدائهِ غيرُ واجبةٍ خلافاً لأَحمدَ في إِحدىٰ روايتيه .

واتَّفقَ الأَربعةُ علىٰ أَنَّ التَّرتيبَ والموالاةَ في الطَّهارةِ مشروعان ، ثمَّ اختلفوا في وجوبِهما :

فقالَ أَبو حنيفة : لا يجبان .

وقالَ الإِمامُ مالك : الموالاةُ واجبةٌ دونَ التَّرتيب .

وقالَ الشَّافعي : التَّرتيبُ واجبٌ قولاً واحداً ، وعنهُ في الموالاةِ قولان .

وقالَ الإِمامُ أَحمدُ في المشهورِ عنه : إِنهما واجبان ، وعنهُ روايةٌ أُخرىٰ في الموالاةِ : أَنَّها لا تجب .

واختلفوا في مسحِ الرَّأْس :

فعند أَبي حنيفةَ الرُّبعُ ، أَو قدرُ أَربعِ أَصابع ، وعندَ مالكٍ وأَحمدَ في أَظهرِ الرِّواياتِ عنهُ : يجبُ استيعابُه .

والأُذنُ منهُ عندَ أَحمدَ في روايةٍ فيمسحهُما .

وقالَ الشَّافعي : يُجزىءُ أَنْ يمسحَ منهُ أَقلَّ ما يقعُ عليهِ اسمُ المسح .

والمرفقانِ والكعبانِ يُغسلان ، خلافاً لمالك .

والمضمضةُ والاستنشاقُ سُنَّة ، وأَوجبَهُما أَحمدُ في الوضوءِ والغُسل ، والإِمامُ الأَعظمُ في الغُسلِ فقط .

ويُستحبُّ أَنْ يَتوضّأَ مستقبلَ القِبلة ، وأَنْ لا يتكلَّمَ بلا حاجة ؛ لِمَا وردَ : أَنَّ فيهِ تنزَّلُ عليهِ الرَّحمةُ إذا توضّأ ، فإِذا تكلَّم . . ارتفعَت .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ تَوَضَّأَ فَقَال : أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَه ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه ، قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّم . . غَفَرَ اللهُ تَعَالَىٰ لَه مَا بَيْنَ الْوُضُوءَيْن » .

وأَنْ يقرأَ بعدَه : (قُلْ هو الله أحد) ؛ لأَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَمرَ عليَّ بنَ أَبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَه بها وقال : « يُنَادِي مُنَاد : يَا مَادحَ الرَّحْمـٰن ؛ قُمْ فَادْخُلِ الْجَنَّة » .

وأَنْ يقرأَ أَيضاً : (إنا أنزلناه) لِما وردَ في الحديث : « مَنْ قَرَأَ : (إنا أنزلناه) عَقِبَ وُضُوئِه . . غُفِرَ لَهُ ذُنُوبُ أَرْبَعِينَ سَنَة » .

والوضوءُ على الوضوءِ نورٌ علىٰ نور ؛ فقد قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « مَا مِنْ مُسلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُسْبِغُ الْوُضُوء ، ثُمَّ يَقُومُ فِي صَلاَتِهِ فَيَعْلَم مَا يَقُول . . إِلاَّ خَرَجَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّه » رواهُ الحاكم .

وأَمَّا التَّيمُّم : فهو عبارةٌ عن ضربِ اليدَينِ على الصَّعيد ـ وهوَ التُّراب ـ ومسحُ الوجهِ واليدَين . وقدِ اختلفوا فيهِ أَيضاً في بعضِ المسائل ، واتَّفقوا في بعضِها :

أَمّا ما اتَّفقوا عليه : فهو أَنَّ التَّيمُّمَ بالصَّعيدِ الطَّيبِ عندَ عدمِ الماءِ أَوِ الخوفِ مِن استعمالهِ جائز ، وأَجمعوا علىٰ وجوبِ التَّيمُّمِ لِلجُنبِ كالمحدث ، وعلىٰ أَنَّ المسافرَ إِذا كانَ معَهُ ماءٌ وخشيَ العطش . . فلَهُ أَنْ يَحبسَهُ ليشربَهُ ويتيمَّم ، وعلىٰ أَنَّ المحدثَ إِذا تيمَّمَ ثمَّ وجدَ الماءَ قَبْلَ الدُّخولِ في الصَّلاة . . بطلَ تيمُّمه ، ولزمَهُ استعمالُ الماء .

وأَمّا ما اختلفوا فيه :

فمِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ والشّافعي : التَّيمُّمُ ضربتان .

معَ قولِ مالكٍ وأَحمدَ : واحدةٌ ؛ بأَنْ يكونَ بطونُ الأَصابعِ لِلوجهِ وبطونُ الرّاحَتينِ لمَسحِ الكف .

ومِنْ ذلك : قولُ الشّافعيِّ وأَحمد : الصَّعيدُ التُّراب ، أَوِ الرَّملُ فيهِ الغبار .

وقالَ أَبو حنيفةَ ومالك : يجوزُ بجميعِ أَجْزاءِ الأَرض ، ولَوْ بحجرٍ لا ترابَ عليه ، وزادَ مالك : ما اتَّصلَ بالأَرضِ كالنَّبات .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفة ، والشّافعيِّ في الجديد : إِنَّ مسحَ اليدينِ إِلى المرافقِ كالغَسلِ في الوضوء ، معَ قولِ مالكٍ وأَحمد : إِلى المرافقِ مستحب ، وإِلى الكوعَينِ جائز ، وقولِ الزّهري : إِلى الآباط .

ومِنْ ذلك : قولُ الأَئمَّةِ الثَّلاثة : لا يجوزُ الجمعُ بينَ فرضَينِ بتيمُّمٍ واحد ، وقالَ أَبو حنيفة : التَّيمُّمُ كالوضوء .

ومِنْ ذلك : قولُ الأَئمَّةِ الثَّلاثة : لا يجوزُ التَّيمُّمُ لِصَلاةِ العيدَينِ والجنازةِ في الحضرِ وإِنْ خِيفَ فواتُهُما ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ بجوازِ ذلك .

ومِنْ ذلك : قولُ الشّافعي : إِنَّ مَنْ تعذَّرَ عليهِ الماءُ في الحضرِ وخافَ فواتَ الوقت ، فإِنْ كانَ الماءُ بعيداً عنهُ أَو في بئرٍ ولوِ استسقىٰ منهُ خرجَ الوقت . . إِنَّهُ يتيمَّمُ ويُصلِّي ، ثمَّ إِذا وجدَ الماء . . أَعاد . معَ قولِ مالك : إِنَّهُ يُصلِّي بالتَّيمُّمِ ولا يعيد ، ومعَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّهُ يصبرُ إِلىٰ أَنْ يقدرَ على الماء .

ومِنْ ذلك : قولُ الشّافعيِّ وأَحمدَ في روايةٍ عنه : إِنَّهُ إِذا وجدَ ماءً لا يكفي جميعَ

الأَعضاء . . يَغسلُ البعضَ ويتيمَّم ، وعندَ بقيَّةِ الأَئِمَّةِ يتيمَّمُ فقط .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعي : مَنْ كانَ بعضوهِ جراحةٌ وخافَ مِنْ نزعِ الجبيرة . . يمسحُ على الجبيرةِ ويتيمَّم ، ومعَ قولِ أَبي حنيفةَ ومالك : إِنْ كانَ بعضُ جسدهِ صحيحاً وبعضُهُ جريحاً ولٰكنَّ الأَكثرَ هوَ الصَّحيح . . غسلَه ، وسقطَ حكمُ الجريحِ ويستحبُّ مسحُهُ بالماء ، وإِنْ كانَ الصَّحيحُ هوَ الأَقل . . يتيمَّمُ وسقطَ غسلُ العضوِ الصَّحيح .

وقالَ أَحمد : يغسلُ الصَّحيحَ ويتيمَّمُ عنِ الجريحِ مِنْ غيرِ مسحٍ لِلجبيرة[1] .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفة : إِنَّ فاقدَ الطَّهورَينِ[2] لا يُصَلِّي ، معَ قولِ الشَّافعي : إِنَّهُ يُصلِّي ويعيدُ إِذا وجدَ أَحدَهُما ، وهوَ روايةٌ عن مالك ، وعن أَحمد : يُصلِّي ولا يعيدُ . اهـ مِن « الميزان » ملخَّصاً .

وأَمَّا نواقضُ الوضوء : فقدِ اتَّفقوا علىٰ أَنَّ الخارجَ مِنَ السَّبيلَينِ ناقض ؛ كالبولِ والغائطِ والمذْي ، واختلفوا في بعضِ النَّواقض ، قالَ في « الميزان » :

فمِنْ ذلك : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة : إِنَّهُ لا ينقضُ الخارجُ النّادر ؛ كالدُّودِ والحصاة ، والرِّيحِ مِنَ القُبل ، معَ قولِ أَبي حنيفة : ينقضُ الرِّيحُ الخارجُ مِنَ القُبل ، وهوَ الرَّاجحُ مِنْ مذهبِ الشَّافعي ؛ فإِنَّهُ قالَ بالنَّقضِ في الثّلاثة . اهـ

قلت : لٰكنَّ المصرَّحَ بهِ في كُتبِ الحنفيَّةِ خلافُه ؛ فقد قالَ في « التَّنوير » وَ« الدُّر » : لا ينقضُهُ خروجُ ريحٍ مِنْ قُبُلٍ وذَكر ؛ لأَنَّهُ اختلاج ، حتَّىٰ لَو خرجَ ريحٌ مِنَ الدُّبرِ وهوَ يَعلمُ أَنَّهُ لَم يكنْ مِنَ الأَعلىٰ . . فهوَ اختلاجٌ فلا ينقض ، وإِنَّما قيَّدنا بالرِّيح ؛ لأَنَّ خروجَ الدُّودةِ والحصاةِ منهُم ناقضٌ إِجماعاً . اهـ

قالَ في « الميزان » : **ومِنْ ذلك** : قولُ الإِمامِ أَبي حنيفة : لا ينقضُ الوضوءَ مسُّ الفرجِ مطلقاً علىٰ أَيِّ وجهٍ كان ، معَ قولِ الشَّافعيِّ والقولِ الأَرجحِ مِنْ مذهبِ أَحمدَ

(١) وهو مذهب الشافعي أيضاً ، فلا يسقط غسل الصحيح إذا قل مع مسح الجبيرة .

(٢) **الطهوران** : الماء ، والتراب .

بانتقاضه ببطنِ الكف ، وزادَ أَحمدُ نقضَ الطَّهارةِ بلمسِ الذَّكرِ بظَهرِ الكفِّ أَيضاً ، ومعَ قولِ مالك : إِنْ مسَّهُ بشهوة . . انتقض ، وإلا . . فلا .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعيِّ وأَحمدَ بنقضِ طهارةِ مَنْ مسَّ فرجَ غيره ، صغيراً كانَ الممسوسُ أَو كبيراً ، حيّاً كانَ أَو ميتاً ، معَ قولِ مالك : إِنَّهُ لا ينقضُ مسُّ فرج الصَّغير ، ومعَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّهُ لا ينقضُ مطلقاً .

ومِنْ ذلك : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثةِ بعدمِ نقضِ الطَّهارةِ بلمسِ الأَمردِ الجميل ، معَ قولِ الإِمامِ مالكٍ بإِيجابِ الوضوءِ بلَمْسه ، وحُكيَ ذلكَ أَيضاً عنِ الإِمامِ أَحمدَ وغيره .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعي : إِنَّ لمسَ المرأَةِ ينقضُ إِلاَّ إِنْ كانت مَحْرَماً ، معَ قولِ مالكٍ وأَحمد : إِنْ كانَ ذلكَ بشهوة . . نقض ، وإِلا . . فلا ، ومعَ قولِ أَبي حنيفة : لا ينقضُ إِلاَّ بالمباشرةِ الفاحشةِ وهيَ الانتشار[١] .

وأَمّا الملموس : فمذهبُ مالكٍ والرَّاجحُ مِنْ قولي الشَّافعيِّ وإِحدى الرِّوايتينِ عن أَحمدَ : أَنَّهُ كاللاّمسِ في النَّقض ، انتهىٰ .

وفي غيرِهِ مِنْ كتبِ اختلافِ المذاهبِ : أَنَّهم أَجمعوا علىٰ أَنَّهُ لا وضوءَ علىٰ مَنْ مَسَّ أُنثييه .

وقالتِ الثَّلاثة : إِنَّ أَكْلَ لحمِ الجزورِ وغسلَ الميتِ غيرُ ناقض ، خلافاً لأَحمد .

وقالتِ الثَّلاثة : القهقهةُ لا تنقضُ الوضوء ، بل تُبطلُ الصَّلاة ، خلافاً لأَبي حنيفةَ فإِنَّها تنقضُ عندَهُ بشروطِها[٢] المفصلة .

وينقضُهُ الإِغماءُ والجنونُ والسُّكرُ ولو بأَكلِ حشيشةٍ عندَ أَبي حنيفة .

واختلفوا في خروجِ النَّجاساتِ مِنْ غيرِ السَّبيلَين ؛ كالقيءِ والحجامةِ وخروجِ الدَّم :

قالَ أَبو حنيفة : القيءُ ملءَ الفم ، والدَّمُ السَّائل . . ناقض .

---

(١) أي : وملاقاة الفرجين . اهـ

(٢) قوله : (بشروطها) وهي أن تكون قهقهة بالغ في صلاة ذات ركوع وسجود . اهـ

وقالَ مالكٌ والشَّافعي : لا ينقض .

وقالَ أَحمد : إذا كانَ كثيراً فاحشاً . . ينقض ، وإِنْ كانَ يسيراً . . ففيهِ روايتان .

ونومُ غيرِ المتمكِّنِ ناقض . اهـ ملخَّصاً .

واعلموا : أَنَّ الصَّلاةَ لها درجاتٌ يزدادُ الأَجرُ فيها وينقص ، ومِنْ أَعظمِ ما يزدادُ الأَجرُ فيها صلاةُ الجماعة ، وقد أَجمعَ العلماءُ علىٰ أَنَّها مشروعة ، وأَنَّهُ يجبُ إِظهارُها في الناس ، فإِنِ امتنعوا مِنها . . قُوتلوا ، واختلفَ الأَئِمَّةُ فيها :

فقالَ أَبو حنيفةَ والشَّافعي : هيَ فرضُ كفايةٍ في غيرِ الجمعة ، وفي قولٍ عندَ الحنفيَّةِ واجبة ؛ فقد قالَ في « شرحِ المنية » : والأَحكامُ تدلُّ على الوجوبِ مِنْ أَنَّ تاركَها بلا عذرٍ يُعزَّرُ وتردُّ شهادتُه ، ويأْثَمُ الجيرانُ بالسُّكوتِ عنه . وفي « تنويرِ الأَبصار » : والجماعةُ سُنَّةٌ مؤَكَّدةٌ لِلرِّجال ، وأَقلُّها : اثنانِ واحدٌ معَ الإِمام ، وقيل : واجبة ، وعليهِ عامَّةُ المشايخ . اهـ

وقالَ الإِمامُ أَحمد : فرضُ عَين .

وقالَ مالك : سُنَّة .

واختلفوا في إِمامةِ الفاسق : فقالَ أَبو حنيفة ، والشَّافعي ، وأَحمدُ في إِحدىٰ روايتيه : بصحَّةِ إِمامته ، لٰكنْ معَ الكراهة .

وقالَ الإِمامُ مالك ، وأَحمدُ في أَشهرِ روايتيه : إِنَّها لا تصحُّ إِنْ كانَ فسقُهُ بلا تأْويل .

قالَ القطبُ الرَّبَّانيُّ الشَّيخُ عبدُ القادرِ الكيلانيُّ في كتابهِ « الغنية » : فصلٌ في الخروجِ إِلى المسجدِ والخشوع : عنِ ابنِ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَا بَيْنَ صَلاَةِ الْجَمَاعَةِ وَالْفَذِّ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَة » .

وعن أَبي هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْد ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِد . . كَتَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ حَسَنَة ،

وَمَحَا عَنْهُ سَيِّئَة ، وَرَفَعَ لَهُ دَرَجَة ، وَيَسْتَبْشِرُ اللهُ تَعَالَىٰ كَمَا يُسْتَبْشَرُ بِالْغَائِبِ الطَّوِيلِ غَيْبَةً إِذَا قَدِمَ عَلَىٰ أَهْلِه » .

وعن عمرَ بنِ الخطّابِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : جاءَ جبريلُ عليهِ السَّلامُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فقال : (بشِّرِ المشّائِينَ في ظُلَمِ اللَّيلِ إلى المساجدِ بالنُّورِ التَّامِّ يومَ القيامة) .

قالَ الشَّيخ : ويُستحبُّ للرَّجلِ إذا أقبلَ للمسجدِ أَنْ يُقبِلَ بخوفٍ ووجلٍ وخشوعٍ وخضوع ، وأَنْ تكونَ عليهِ السَّكينةُ والوقار ، مِنْ غيرِ عجبٍ ولا تكبُّر ، ولا رياءٍ وافتخار ، بل بذلٍّ وانكسار ، وينوي بذلكَ التَّوجُّهَ إلى اللهِ عزَّ وجل ؛ لأَنَّهُ رويَ : أَنَّهُ تباركَ وتعالىٰ لا يَتقبَّلُ مِنَ المتكبِّرينَ عملاً حتَّىٰ يَتوبوا ، وفي الحديث : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَىٰ إِلَىٰ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَم : إِذَا قُمْتَ بَيْنَ يَدَي . . فَقُمْ مَقَامَ الْخَائِفِ الذَّلِيلِ الذَّامِّ لِنَفْسِه ؛ فَإِنَّهَا أَوْلَىٰ بِالذَّم ، وَإِذَا دَعَوْتَنِي . . فَادْعُنِي وَأَعْضَاؤُكَ تَنْتَفِض » .

وأَبصرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم رجلاً يعبثُ بلحيتهِ في صَلاته ، فقال : « لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَـٰذَا . . خَشَعَتْ جَوَارِحُه » اهـ

قلت : ويَكفي في ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴾ وقولُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « الإِحْسَان : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ تَعَالَىٰ كَأَنَّكَ تَرَاه ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاه . . فَإِنَّهُ يَرَاك » ولذا كانَ العبثُ في الصَّلاةِ مكروهاً ، والحركاتُ الثَّلاثُ المتوالياتُ مبطلة ، أَوْ عملُ اليدينِ مبطل ، أَو إِذا رآهُ الرَّائي . . يَظنُّهُ ليسَ في الصَّلاة ، علىٰ أقوالٍ مبسوطةٍ في كتبِ الفقهاء .

ثمَّ اعلموا : أَنَّ العلاَّمةَ ابنَ حجرٍ الهيتمي قد عدَّ تَرْكَ الجماعةِ في كتابه « الزَّواجر » مِنَ الكبائر ، قال : أَخرجَ الشَّيخانِ عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلاَةِ فَتُقَام ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً فَيَؤُمَّ النَّاس ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حِزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَىٰ قَوْمٍ لاَ يَشْهَدُونَ الْجَمَاعَةَ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُم » .

وروىٰ أَحمدُ والطَّبراني : « بِحَسْبِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الشَّقَاءِ وَالْخَيْبَةِ أَنْ يَسْمَعَ الْمُؤَذِّنَ يُثَوِّبُ بِالصَّلاَةِ فَلاَ يُجِيبه » والتَّثويبُ هنا اسمٌ لإِقامةِ الصَّلاة .

وقالَ كعبُ الأَحبارِ رضي الله عنه في قولِهِ تعالىٰ ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ : واللهِ ما نزلَتْ إلاَّ في المتخلفين عنِ الجماعات .

وسُئلَ ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما عمَّنْ يَصومُ النَّهار ، ويقومُ اللَّيل ، ولا يُصلِّي في الجماعة ، ولا يُجمِّعُ يومَ الجُمعة ، فقال : (إِنْ ماتَ هٰذا . . فهوَ في النّار) .

واعلَم : أَنَّهُ قد ذهبَ بعضُ العلماءِ إِلىٰ تفضيلِ الصَّلاةِ في الفلاةِ على الجماعة ؛ لِما روىٰ أَبو داوود عن أَبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الصَّلَاةُ فِي جَمَاعَةٍ تَعْدِلُ خَمْساً وَعِشْرِينَ صَلَاة ، فَإِذَا صَلاَّهَا فِي فَلَاة ، فَأَتَمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا . . بَلَغَتْ خَمْسِينَ صَلَاة » .

فيا هٰذا ؛ إذا صلَّيتَ والقلبُ غائِب . . كانَ وجودُ الصَّلاةِ كالعدم .

هُـــــوَ بِـــــالــــرُّومِ مُقِيـــــمٌ   وَلَـــــهُ بِـــــالشَّـــــامِ قَلْـــــبُ

يا ذاهلَ القلبِ في الصَّلاة ، حاضرَ الذِّهنِ في الهوىٰ ؛ جسدُهُ في المحراب ، وقلبُهُ في بلادِ الغفلةِ يدورُ كلّ باب ، يا مَنْ شابَ وما تاب ؛ اكتسبْ باقي الرَّمق ، كانَ الشَّبابُ غصناً غضّاً فخلا عن ورق ، وأَنتَ في الشَّيبِ كالشَّبابِ تجري علىٰ نَسَق .

يا غريقاً في الهوىٰ ؛ صِح مِنْ قَبْلِ الغرق ، ليأْتينّكَ مِنَ الموتِ ما لا يَقبلُ رِشوةً ولا مالاً .

يا مختالاً جهلاً وضلالاً ؛ لقد حملتَ أَزركَ أَوزاراً ثقالاً ، إِيّاكَ والمُنىٰ ، فكم وعدَ المنىٰ محالاً! كم سقى الموتُ مِنَ الحسراتِ كؤُوساً ، كم فرَّغَ رَبعاً عامراً مأْنوساً! كم طَمسَ بدوراً وشموساً ، وأَغمضَ عيوناً ونكسَ رؤُوساً ، وأَبدلَ التُّرابَ عنِ الثِّيابِ ملبوساً!

يا هٰذا ؛ احذرِ الأَملَ وبادرِ العمل ، فكأَنَّكَ بالأَجلِ علىٰ عجل ، أَنتَ كلَّ يومٍ تتقرب ، وسترحلُ إِلى البلاد وتغرّب ، وسيأْكلُ المحبُّ بعدكَ ويَشرب ، وكأَنَّكَ بهِ إِذا ذكرتَهُ يَطرب ، فخذِ العدَّةَ واسمَعْ نصحي فنصحي مجرَّب .

اللّهُم ؛ إنّا إلىٰ رحمتكَ محتاجون ، وبكرمكَ واثقون ، وعلىٰ بابكَ عاكفون ، ولنعمائِكَ شاكرون ، ولآلائكَ ذاكرون ، وإلىٰ طاعتكَ داعون ، ولمخالفتكَ كارهون ، ومِنْ نوركَ مقتبسون.. فاحفظنا في أَحوالنا ووفِّقنا في أَقوالِنا وأَفعالِنا ، واجعل علينا رقيباً منّا حتّىٰ لا نعتمدَ إلاّ علىٰ رضاك ، ولا نقصدَ مِنَ الدّارينِ إلاّ إيّاك .

اللّهُم ؛ حسِّنْ إيمانَنا بالتّوفيق ، وزيِّنْ سرائِرَنا بالتَّحقيق ، وعلِّمنا ما لم نَعلم ، وانفعنا بما تُعلِّمنا ، وتجاوزْ عن آبَائِنا ، وأُمَّهاتِنا ، وجميعِ أَمواتِ المسلِمين .

اللّهُم ؛ إنّا نسأَلكَ مِنَ الخيرِ أَوّلهِ وآخِرِه ، والدَّرجاتِ العلىٰ مِنَ الجنَّة ، آمين .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وآلهِ وصحبهِ أَجمعين .

* * *

المجلسُ التاسعُ
فيما يتعلق بالصلاة أيضاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الواحدِ القديمِ الجبّار ، القادرِ العظيمِ القهّار ، المتعالي عن دَرْكِ الخواطرِ والأَفكار ، المتفرِّدِ بالعزِّ والقهرِ والاقتدار ، الَّذي وسمَ كلَّ مخلوقٍ بسمةِ الافتقار ، وأظهرَ آثارَ قدرتهِ بتصريفِ اللَّيلِ والنَّهار ، سميعٌ بصير ، يَسمعُ لا كالأَسماعِ ويُبصرُ لا كالأَبصار ، قادرٌ مدبِّرٌ حكيمٌ عليمٌ بالأَسرار ، يُبصرُ دبيبَ النَّملةِ السَّوداءِ في اللَّيلةِ الظَّلماءِ على الغار ، ويَسمعُ أَنينَ المدنَفِ يَشكو ما بهِ مِنْ أَضرار .

كلَّمَ موسىٰ كفاحاً لمّا قضى الأَجلَ وسار ، ورآهُ نبيُّنا كما دلَّ علىٰ ذلكَ القرآنُ والأَخبار ، ويَراهُ المؤْمِنونَ إِذا نزلوا دارَ القرار .

والمشبِّهةُ وأربابُ البحثِ في خَسار ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ .

أَحمدُهُ في الإِعلانِ والإِسرار ، وأَشهدُ بوحدانيَّتِهِ بأَصحِّ إِقرار ، وأُصلِّي علىٰ رسولهِ محمَّدٍ سيِّدِ الأَنبياءِ الأَطهار ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ أَبي بكرٍ رفيقهِ في الغار ، وعلىٰ عمرَ قامعِ الكفّار ، وعلىٰ عثمانَ شهيدِ الدّار ، وعلىٰ عليٍّ القائمِ بالأَسحار ، وعلىٰ سائرِ آلهِ وأَصحابهِ خصوصاً المهاجرينَ والأَنصار .

أَمّا بعد : فنروي بسندِنا إِلى الإِمامِ مسلمِ بنِ الحجّاجِ النَّيسابوري عليهِ الرَّحمة ؛ فإِنَّهُ قد قالَ في « جامعِهِ الصَّحيح » وكتابهِ الحريِّ بالتَّرجيح : عن عبدِ اللهِ بنِ عمر رضيَ اللهُ عنهُما قال : حدَّثني أَبي عمرُ بنُ الخطّاب ، قال : بينما نحنُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ذاتَ يومٍ إِذْ طلعَ علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثِّياب ، شديدُ سوادِ

الشَّعر ، لا يُرىٰ عليهِ أَثرُ السَّفر ، ولا يَعرفُهُ منّا أَحد ، حتَّىٰ جلسَ إِلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فأَسندَ رُكبتيهِ إِلىٰ رُكبتيه ، ووضعَ كفَّيهِ علىٰ فخذيه ، وقال : يا محمَّد ؛ أَخبرني عنِ الإِسلام ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الإِسْلاَم : أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ . . . . » الحديث .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ : قد تقدَّمَ الكلامُ في الدَّرسِ الماضي علىٰ بعضِ المسائلِ المتعلِّقةِ بالصَّلاة ، وبقيَ عليها كلامٌ كثيرٌ نذكرُ بعضَه ـ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ في هـٰذا الدَّرس :

فمنهُ الأَذانُ والإِقامة : قالَ الإِمامُ أَبو حنيفةَ ومالكٌ والشَّافعي : إِنَّ الأَذانَ والإِقامةَ سُنَّتانِ للصَّلواتِ الخمسِ والجمعة .

وقالَ الإِمامُ أَحمد : إِنَّهُما فرضُ كفايةٍ علىٰ أَهلِ الأَمصار .

وقالَ داوود : إِنَّهُما واجبان ، لـٰكنْ تصحُّ الصَّلاةُ بتركِهما .

وقالَ الأَوزاعي : إِنْ نسيَ الأَذانَ وصلَّىٰ . . أَعادَ في الوقت .

وقالَ عطاء : إِنَّ مَنْ نسيَ الإِقامة . . أَعادَ الصَّلاة .

وقالَ الأَئِمَّةُ الثَّلاثة : لا تُسنُّ لِلنِّساءِ الإِقامة ، وقالَ الشَّافعي : إِنَّها تُسنُّ في حقِّهن .

وفي كتاب « كشفِ الغمَّة » لِلشَّعراني عليهِ الرَّحمة : كانَ عبدُ اللهِ بنُ زيد رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه يقول : سببُ الأَذان ـ يعني علىٰ هـٰذهِ الهيئةِ المشروعة ـ : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم لمَّا أَجمعَ أَنْ يضربَ بالنَّاقوسِ وهوَ كارهٌ لَه لموافقتهِ النَّصارىٰ . . طافَ بي طائفٌ مِنَ اللَّيلِ وأَنا نائم ، رجلٌ عليهِ ثوبانِ أَخضران ، وفي يدهِ ناقوسٌ يَحملُه ، قال : فقلتُ لَه : يا عبدَ الله ؛ أَتبيعُ النّاقوس ؟ قال : وما تصنعُ به ؟ قال : قلت : ندعو بهِ إِلى الصَّلاة ، قال : أَفلا أَدلُّكَ علىٰ خيرٍ مِنْ ذلك ؟ فقلت : بلىٰ . قال : تقول :

اللهُ أَكبرُ اللهُ أَكبر ، اللهُ أَكبرُ اللهُ أَكبر ، أَشهدُ أَنْ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الله ، أَشهدُ أَنْ لا إِلَـٰهَ

إلاَّ الله ، أَشهدُ أَنَّ محمَّداً رسولُ الله ، أَشهدُ أَنَّ محمَّداً رسولُ الله ، حيَّ على الصَّلاةِ ، حيَّ على الصَّلاة ، حيَّ على الفلاح ، حيَّ على الفلاح ، اللهُ أَكبر ، اللهُ أَكبر ، لا إِلـٰهَ إلاَّ الله .

قال : ثمَّ استأْخرَ غيرَ بعيد ، قال : ثمَّ تقولُ إِذا قمتَ للصَّلاة :

اللهُ أَكبرُ اللهُ أَكبر ، أَشهدُ أَنْ لا إِلـٰهَ إلاَّ الله ، أَشهدُ أَنَّ محمَّداً رسولُ الله ، حيَّ على الصَّلاة ، حيَّ على الفلاح ، قد قامتِ الصَّلاة قد قامتِ الصَّلاة ، اللهُ أَكبر ، اللهُ أَكبر ، لا إِلـٰهَ إلاَّ الله .

قالَ عبدُ اللهِ بنُ زيد : فلمّا أَصبحت.. أَتيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فأَخبرتُهُ بما رأَيت ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ هَـٰذِهِ رُؤْيَا حَقّ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ ، فَقُمْ مَعَ بِلاَلٍ فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْت ؛ فَإِنَّهُ أَنْدَىٰ صَوْتاً مِنْك » قال : فقمتُ معَ بلال ، فجعلتُ أُلقيهِ عليهِ ويُؤَذِّنُ بِه ، فسمعَ بذلكَ عمرُ بنُ الخطَّابِ وهوَ في بيته ، فخرجَ يجرُّ رداءَهُ يقول : والَّذي بعثكَ بالحقِّ نبياً.. لقد رأَيتُ مثلَ الَّذي أُري . فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « فَلِلَّهِ الْحَمْد » .

فكانَ بلالٌ يُؤَذِّنُ بذلك ، ويَدعو رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إِلى الصَّلاة ، فجاءَهُ يوماً فدعاهُ ذاتَ غداةٍ إِلى الفجر ، فقيلَ لَه : إِنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم نائم ، فصرخَ بلالٌ بأَعلىٰ صوته : (الصَّلاةُ خيرٌ مِنَ النَّوم) فأُدخلَتْ هـٰذهِ الكلمةُ في التأْذينِ في صَلاةِ الفجرِ دونَ غيرِها .

وفي رواية : فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَا أَحْسَنَ هَـٰذَا يَا بِلاَل اجْعَلْهُ فِي أَذَانِك » .

وفي رواية : (أَنَّ بلالاً كانَ يُنادي بالصُّبح : حيَّ علىٰ خيرِ العمل ، فأَمرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنْ يقولَ مكانَها اَلصَّلاةُ خيرٌ مِنَ النَّوم ، وتركَ حيَّ علىٰ خيرِ العمل) .

وقد جاءَ في فضلِ الأَذانِ أَحاديثُ كثيرة ، فمنها : قولُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام :

« مَنْ أَذَّنَ سَنَةً مُحْتَسِباً . قِيلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : اشْفَعْ لِمَنْ شِئْت » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ خِيَارَ عِبَادِ اللهِ الَّذِينَ يُرَاعُونَ الشَّمْسَ ، وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَل » ، و« سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ سَفَلَتَهُمْ مُؤَذِّنُوهُم » .

وكانَ مجاهد رحمه الله يقول : المؤذِّنونَ احتساباً للهِ تعالىٰ لا يُدوِّدونَ في قبورِهم .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِذَا أُذِّنَ فِي قَرْيَةٍ . . أَمَّنَهَا اللهُ عز وجل مِنْ عَذَابِهِ ذَلِكَ الْيَوْم » .

وروىٰ أَبو سعيدٍ الخدري رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي التَّأْذِين . . لَتَضَارَبُوا عَلَيْهِ بِالسُّيُوف » .

وروىٰ أَيضاً عن أَبي هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « الْمُؤَذِّنُ يُغْفَرُ لَهُ مَدَىٰ صَوْتِه ، وَيُصَدِّقُهُ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِس » وزادَ النَّسائي : « وَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ صَلَّىٰ مَعَه » .

وروى الطَّبرانيُّ عن أَنس رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « لَوْ أَقْسَمْت . . لَبَرَرْت ، إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِ اللهِ إِلَيْهِ لَرُعَاةُ الشَّمْسِ وَالْقَمَر - يعني المؤذِّنين - وإِنَّهُمْ لَيُعْرَفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِطُولِ أَعْنَاقِهِم » .

وروى البخاريُّ في « تاريخه » عن عبدِ اللهِ بنِ عبّاس رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : جاءَ رجلٌ إِلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فقال : دُلَّني علىٰ عملٍ يُدخلني الجنَّة ، قال : « كُنْ مُؤَذِّناً » قال : لا أَستطيع ، قال : « كُنْ إِمَاماً » ، قال : لا أَستطيع ، قال : « قُمْ بِإِزَاءِ الإِمَام » .

وروىٰ أَبو داوود والنَّسائي ، عن عقبةَ بنِ عامر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « يَعْجَبُ رَبُّكَ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ شَظِيَّةِ الْجَبَل ، يُؤَذِّنُ بِالصَّلاَةِ وَيُصَلِّي ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَل : انْظُرُوا إِلَىٰ عَبْدِي هَـٰذَا ، يُؤَذِّنُ وَيُقِيمُ الصَّلاَة ؛ يَخَافُ مِنِّي ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي وَأَدْخَلْتُهُ الْجَنَّة » .

قالَ في « كشفِ الغمَّة » : وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يَجهرُ بإجابةِ المؤذِّنِ حتَّىٰ يسمعَ مَنْ حولَه .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاء : اللَّهُم ؛ رَبَّ هَـٰذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّة ، وَالصَّلاَةِ الْقَائِمَة ؛ آتِ مُحَمَّداً الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَة ، وَابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً الَّذِي وَعَدْتَه . . حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَة » .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « عَلَيْكُمْ بِالدُّعَاءِ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَة ؛ فَإِنَّ الدُّعَاءَ بَيْنَهُمَا لاَ يُرَد » .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « لَعَنَ اللهُ مَنْ سَمِعَ حَيَّ عَلَى الْفَلاَحِ ثُمَّ لَمْ يُجِب » .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « إِذَا كُنْتُمْ فِي الْمَسْجِدِ فَنُودِيَ بِالصَّلاَة . . فَلاَ يَخْرُجْ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُصَلِّي » .

خاتمة :

قالَ شيخُنا رضيَ اللهُ عنه : لَم يكنِ التَّسليمُ الَّذي يَفعلُهُ المؤذِّنونَ في أيّامِ حياتهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ولا الخلفاءِ الرّاشدين ، قال : كانَ في أيّامِ الرَّوافضِ بمصرَ شَرعوا التَّسليمَ على الخليفةِ ووزرائهِ بعدَ الأذان ، إلىٰ أَنْ توفِّيَ الحاكمُ بأَمرِ اللهِ وولّوا أُختَهُ فسلَّموا عليها وعلىٰ وزرائِها مِنَ النِّساء ، فلمّا تولَّى الملكُ العادلُ صلاحُ الدِّينِ بنُ أيوب . . أَبطلَ هـٰذهِ البدعة ، وأَمرَ المؤذِّنينَ بالصَّلاةِ والتَّسليمِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بدلَ تلكَ البدعة ، وأَمرَ بها أَهلَ الأَمصارِ والقُرىٰ ، فجزاهُ اللهُ تعالىٰ خيراً . اهـ

ومنه : الصَّلاةُ في المقبرة ، قالَ في « الميزان » : قالَ أَبو حنيفةَ والشَّافعي : تصحُّ الصَّلاةُ في المواضعِ المنهيّ عنها معَ الكراهة ، وبهِ قالَ مالك ، إلاَّ في المقبرةِ المنبوشة ، فإِنْ كانت غيرَ منبوشة . . كُرِهَتْ وأَجزأَت ، وقالَ الإِمامُ أَحمد : إِنَّها تَبطلُ على الإِطلاق . اهـ

وقالَ في « الدُّرِّ المختار » : تُكرَهُ الصَّلاةُ في أَماكن ، كفوقِ الكعبة ؛ لِما فيهِ مِنَ

تَركِ التَّعظيم ، وفي الطَّريقِ والمزبلةِ والمجزرةِ والمقبرة .

وكذا تُكرَهُ في مغتسَل وحمّام ، ومعابدِ الكفَّار ، وبطنِ واد ؛ فإِنَّ الغالبَ احتواؤُهُ علىٰ نجاسةٍ يحملُها إِليهِ السَّيلُ أَو تُلقىٰ فيه ، وكذا في معاطنِ إِبلٍ وغنمٍ وبقر ، ومرابطِ دواب ، وطاحونٍ ولعلَّهُ لشغلِ البالِ بصوتِها ، وكنيف[1] ، وسطوحِها ، وأَرضٍ مغصوبة .

قلت : وأَلحقَ بالأَرضِ المغصوبةِ بعضُ الفقهاء . . ما يفعلُهُ بعضُ النَّاسِ مِنْ إِرسالِ السّجّاداتِ قبلَهُم إِلى المساجد .

وكذا الأَرضُ المزروعةُ أَوِ المكروبة[2] ، وصحراءُ بلا سترٍ لمارّ . وقد نظمَ ذلكَ بعضُهم فقال :

نَهَى الـرَّسُـولُ أَحْمَـدٌ خَيْـرُ الْبَشَـرْ ... عَـنِ الصَّـلاَةِ فِـي بِقَـاعٍ تُعْتَبَـرْ
مَعَـاطِـنُ الْجِمَـالِ ثُـمَّ مَقْبُـرَة ... مَـزْبَلَـةٌ طَـرِيـقٌ ثُـمَّ مَجْـزَرَة
وَفَـوْقَ بَيْـتِ اللهِ وَالْحَمَّـام ... وَالْحَمْـدُ للهِ عَلَـى التَّمَـامِ

اهـ مزاداً مِنَ « الحاشية » وغيرِها .

وقالَ العلاَّمةُ ابنُ حجرٍ في « الزَّواجر » : ومِنَ الكبائر : اتِّخاذُ القبورِ مساجدَ وإِيقادُ السُّرُجِ عليها ، واتِّخاذُها أَوثاناً ، والطَّوافُ بها ، واستلامُها ، والصَّلاةُ إِليها ، أَخرجَ الطَّبراني : « لاَ تُصَلُّوا إِلَىٰ قَبْر ، وَلاَ تُصَلُّوا عَلَىٰ قَبْر » .

وروىٰ أَحمد رحمَهُ اللهُ تعالىٰ عنِ ابنِ عبّاس ، قال : (لَعَنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم زائراتِ القبورِ ، والمتَّخذينَ عليها المساجدَ والسُّرُج) .

وروى الحاكم : « الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ إِلاَّ الْمَقْبُرَة وَالْحَمَّام » .

وروىٰ أَبو هريرة رضي الله عنه : « لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ اِتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِد » .

---

(١) **الكنيف** : حظيرة من خشب أو شجر تتخذ للإبل والغنم تقيها الريح والبرد .

(٢) **كربَ الأرض** : قلبها للحرث ، وأثارها للزرع .

وروى الشَّيخان : « إِنَّ أُولـٰئك إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَات . . بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِداً وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَة ، أُولَـٰئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَة » اهـ

قلت : ويستفادُ مِنْ ذلكَ حُرمةُ ما يفعلُهُ كثيرٌ مِنْ جهلةِ العوام ، مِنْ نذرِ إِيقادِ الشُّموعِ والسُّرُجِ[1] عندَ مقابرِ الصَّالحين ، وهوَ باطلٌ وحرام[2] ، ومثلُهُ وضعُ الحنّاءِ علىٰ مقابرِهم ، وجَعْلُ الرَّايةِ البيضاءِ المتداولَةِ عندَ جهلةِ النّاسِ لَهم ؛ لأَنَّهُم ظَنُّوا أَنَّ الميتَ يتصرَّفُ بالأُمورِ دونَ اللهِ تعالىٰ ، واعتقادُ ذلكَ كفرٌ إِلاَّ إِنْ نذرَ للهِ تعالى الإِيقادَ في المساجد . . فهوَ جائز .

وقد فصّلَ هـٰذا البحثَ بأَتمَّ ممَّا ذَكرنا العلاَّمةُ ابنُ عابدينَ الحنفيُّ في « حاشيتهِ على الدُّرِّ المختار » ، وغيرُهُ مِنْ علماءِ الأَمصار ، ولعلَّ لنا عودةً إِلىٰ هـٰذا المبحثِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، ولنَرْجِعْ إِلى المسائلِ المتعلِّقةِ بالصَّلاة :

فاعلموا : أَنَّ أَهلَ الصَّلاةِ هوَ الطَّاهر ، فلا تصحُّ مِنْ غيرِ طاهر ، كما لا تصحُّ مِنْ جُنُبٍ حتَّىٰ يَغتسلَ أَو يتيمَّمَ لِفَقْدِ الماء ، ولا مِنْ نُفساءَ وحائضٍ حتَّىٰ تطهرَا وتغتسلا أَو تتيمّما لِفَقْدِ الماء . ولنُبيِّن ـ بحَوْلهِ تعالىٰ ـ مدَّةَ الحيضِ والنِّفاسِ على المذاهبِ الأَربعة ؛ فإِنَّ ذلكَ مِنْ ضروريّاتِ الدِّين ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ وروي : (ما أَخذَ اللهُ عَلَى الجهَّالِ أَنْ يَتعلَّموا إِلاَّ أَخذَ على الْعلمَاءِ أَنْ يُعلِّموا) .

وقالَ ابنُ حجرٍ في « شرحِ الحضرميَّة » يجبُ على النِّساءِ أَنْ يَتعلَّمنَ ما يحتجنَ إِليهِ مِنْ هـٰذا البابِ كغيره ، فإِنْ كانَ زوجُها عالماً . . لَزِمَهُ تعليمُها ، وإِلا . . فلها الخروجُ لِتعلُّمِ ما لزمَها تعلُّمهُ عَيْناً ، بل يَجب ، ويحرمُ منعُها إِلاَّ أَنْ يسأَلَ ويُخبرها ، وليسَ لَها خروجٌ لتَعلُّمِ غيرِ واجب عين إِلاَّ برضاه . اهـ

فنقول : قالَ الشَّيخُ عبدُ الوهّابِ الشَّعراني : أَجمعَ الأَئمَّةُ علىٰ أَنَّ فرضَ الصَّلاةِ

---

(١) السُّرج : المصابيح .

(٢) علة الحرمة عدم صحة الانتفاع به ، أما إذا قصد به نفع زائر ونحوه وهو الغالب من العوام . . فلا يحرم هو ولا ما ذكر بعده . أنظر « عمدة المفتي » للأهدل .

ساقطٌ عنِ الحائضِ مدَّةَ حيضِها ، وعلىٰ أَنَّهُ لا يجبُ عليها قضاؤُها ، وعلىٰ أَنَّهُ يَحرمُ عليها الطَّوافُ بالبيت ، واللُّبثُ بالمسجد ، وعلىٰ أَنَّهُ يَحرمُ وطؤُها حتَّىٰ ينقطعَ حيضُها ، وعلىٰ أَنَّهُ يَحرمُ بالنِّفاسِ ما يَحرمُ بالحيض ، هـٰذا ما أَجمعوا عليه .

واختلفوا في أَقلِّ الحيضِ وأَكثره :

فقالَ أَبو حنيفة : أَقلُّهُ ثلاثة ، وأَكثرُهُ عشرةُ أَيَّام ، والزّائدُ استحاضةٌ تصومُ وتصلِّي فيها .

وقالَ الشَّافعي : أَقلُّهُ يومٌ وليلة ، وأَكثرُهُ خمسةَ عشرَ يوماً .

وقالَ مالك : أَقلُّهُ ليسَ لَهُ حد ، وأَكثرُهُ خمسةَ عشر .

وأَقلُّ طهرٍ بينَ حيضتينِ خمسةَ عشرَ يوماً عندَ أَبي حنيفةَ والشَّافعي ، وقالَ أَحمد : ثلاثةَ عشرَ يوماً ، ومِنْ ذلكَ قولُ أَكثرِ العلماء : إِنَّهُ يَحرمُ وطءُ مَنِ انقطعَ دمُها حتَّىٰ تغتسل ، وقالَ أَبو حنيفة : إِنِ انقطعَ لأَكثرِ الحيض . . جازَ وطؤُها قَبْلَ الغُسل ، وإِنْ لِدُون . . حتَّىٰ تغتسلَ أَو يمضيَ عليها وقتُ صَلاة .

ومِنْ ذلك : اتَّفقوا علىٰ أَنَّ الحائضَ كالجنبِ في الصَّلاة ، وأَمَّا في القراءة . . فقالَ أَبو حنيفةَ والشَّافعيُّ وأَحمد : إِنَّها لا تقرأُ القرآن . وقالَ مالكُ وداوود : تقرأُ القرآن ، وفي أُخرىٰ عنهُ تقرأُ اليسيرَ فقط .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ وأَحمد : إِنَّ الحاملَ لا تحيض ، معَ قولِ مالكٍ والشَّافعي : إِنَّها تحيض ، فعلى الأَوّلِ تصلِّي إِذا رأَتِ الدَّم ، وعلى الثَّاني لا تُصلِّي ؛ لأَنَّهُ حيض .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ وأَحمد عليهِما الرَّحمة : أَكثرُ النِّفاسِ أَربعونَ يوماً . وقالَ مالكٌ والشَّافعي : ستُّونَ يوماً ، وأَقلُّهُ لحظةٌ عندنا والشَّافعيِّ إِلاَّ عندَ نُصُبِ العادةِ في الحيضِ والنِّفاس . اهـ

قلت : واتَّفقوا علىٰ أَنَّ الحائضَ لا تطوفُ بالكعبةِ المشرَّفة ، إِلاَّ في روايةٍ عن إِمامِنا الأَعظمِ أَنَّها تطوفُ وتفدي بدنة ، وقد وافقَهُ في جوازِ الطَّوافِ المذكورِ مِنَ

الحنابلةِ شيخُ الإسلامِ تقيُّ الدِّينِ الحرانيّ كما بيّناهُ في كتابِنا « الجلاء » فليُحفَظ .

وليُعلَم : أَنَّ العلاَّمةَ ابنَ حجرٍ قد عدَّ جملةً مِنَ المسائلِ المتعلِّقةِ بالصَّلاةِ مِنَ الكبائر .

فمنها : إمامةُ الإنسانِ لقومٍ وهُمْ لهُ كارهون ؛ فقدْ أَخرجَ الحاكم : « ثَلاَثَةٌ لَعَنَهُمُ الله : مَنْ تَقَدَّمَ قَوْماً وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ ، وَامْرَأَةٌ بَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَلَيْهَا سَاخِط ، وَرَجُلٌ يَسْمَعُ حَيَّ عَلَى الصَّلاَةِ حَيَّ عَلَى الْفَلاَحِ فَلَمْ يُجِب » .

وروى التِّرمذي : « ثَلاَثَةٌ لاَ تَتَجَاوَزُ صَلاَتُهُم آذَانَهُم : الْعَبْدُ الآبِقُ حَتَّىٰ يَرْجِع ، وَامْرَأَةٌ بَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَلَيْهَا سَاخِط ، وَإِمَامُ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُون » وفي رواية : « ورَجُلٌ اعْتَبَدَ حُرّاً » ؛ أَي : جعلَهُ عبداً « وَأَخَوَانِ مُتَصَارِمَان » .

وكذلكَ قالوا : لا يَؤُمّ الرَّجلُ جماعةً وفيهِم مَنْ هوَ أَعلَمُ وأتقىٰ منه ، فقد روي : « إِذَا أَمَّ الْقَوْمَ رَجُلٌ وَخَلْفَهُ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْه . . لَمْ يَزَالُوا فِي سفار وإِدْبَار » .

ومنها : مسابقةُ الإمام : أَخرجَ الشَّيخانِ أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « أَمَا يَخْشَىٰ أَحَدُكُمْ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ رُكُوعٍ أَوْ سُجُودٍ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَار ، أَوْ يَجْعَلَ اللهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَار ؟ » .

وفي رواية : « الَّذِي يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ قَبْلَ الإِمَامِ إِنَّمَا نَاصِيَتُهُ بِيَدِ شَيْطَان » .

ومنها : قَطْعُ الصَّفِّ وعدمُ تسويتِه : أَخرجَ جماعةٌ وصحَّحهُ الحاكم : « مَنْ وَصَلَ صَفّاً . . وَصَلَهُ الله ، وَمَنْ قَطَعَ صَفّاً . . قَطَعَهُ الله » وصحَّ أَيضاً : « إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الَّذِينَ يَصِلُونَ الصُّفُوف » .

وصحَّ أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم كانَ يُسوِّيهم في صفوفِهم بيدهِ الشَّريفة ، ويقول : « لاَ تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُم » .

ومنها : تخطِّي الرِّقاب ، لا سيَّما يومَ الجمعة : أَخرجَ التِّرمذي وابنُ ماجه : « مَنْ تَخَطَّىٰ رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَة . . اتُّخِذَ جِسْراً إِلَىٰ جَهَنَّم » وروي : أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قالَ لرجل : « قَدْ رَأَيْتُكَ تَتَخَطَّىٰ رِقَابَ النَّاسِ وَتُؤْذِيهِم ، مَنْ آذَىٰ مُسْلِماً . .

فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي . . فَقَدْ آذَى اللهَ عَزَّ وَجَل » اهـ

قلت : ويلتحقُ بذلكَ سُؤَّالُ المساجدِ الَّذينَ يَدورونَ بينَ الصُّفوف ، فلذا منعَ الفقهاءُ إعطاءَهُم ، ويلتحقُ بذلكَ مَنْ يُرسلُ سجّادتَهُ قَبْلَهُ ثمَّ يخترقُ الصُّفوفَ إليها ، وممَّا يلحقُ بذلكَ أَكَلَةُ الثُّومِ والبصلِ ونحوِهما ، وشَرَبةُ التُّتُنِ ، وذوو الرَّائحةِ الكريهةِ بالقياسِ علىٰ ذلك ؛ لقولِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « مَنْ أَكَلَ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْن ـ يعني الثُّومَ والبصل ـ فَلاَ يَقْرَبْ مَسْجِدَنَا يُؤْذِنَا » .

ومنها : المرورُ بينَ يدي المصلِّي إلاَّ بسترةٍ بشرطِها : أَخرجَ الشَّيخانِ وأَصحابُ السُّنن : « لَوْ يَعْلَمُ الْمَارُّ بَيْنَ يَدَيِ الْمُصَلِّي مَاذَا عَلَيْه . . لَكَانَ يَقِفُ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً ـ وفي رواية : « مِئَةَ عَام » ـ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْه » .

وصحَّ أَيضاً : « فَلاَ يَدَعْ أَحَداً يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْه ، وَإِنْ أَبَىٰ . . فَلْيُقَاتِلْهُ ؛ فَإِنَّهُ مَعَهُ الْقَرِين » ؛ أَي : الشَّيطانُ ، وَقَدْ أَطَاعَه .

قلت : ونحو ذلك : استقبالُ أَحدٍ لِلمصلِّي بوجهه ، بخلافِ صَلاتهِ إلىٰ ظَهرِهِ ؛ فقد رويَ في الأثر : (**مَا أَفْلَحَ وَجْهٌ صُلِّيَ إِلَيْه**) ؛ لأَنَّهُ يشبهُ العبادة ، ولذا كُرهتِ الصَّلاةُ إلى النَّارِ الَّتي هيَ جمر ، بخلافِ السِّراج .

واعلَم : أَنَّهُم اختلفوا في المرورِ الَّذي هوَ بينَ يدي المصلِّي ، فبعضُهم قال : هوَ ما بينَ المصلِّي وموضعِ سجوده ، وبعضُهم قال : مطلَقاً إلاَّ إذا كانتْ سترةً أَو بَعدتِ المسافة ، كما فصّلَ في الكتبِ الفقهيَّة .

وقالتِ الأَئمَّة : لا تَبطلُ الصَّلاةُ بمرورِ حيوانٍ بينَ يدي المصلِّي ، ولو كانَ حائضا ، أَو حمارا ، أَو كلباً أَسود .

وقالَ الإِمامُ أَحمد : الكلبُ الأَسودُ يقطعُ الصَّلاة ، وفي قلبي مِنَ الحمارِ والمرأَةِ شيءٌ .

فرحمَ اللهُ عبداً أَحسنَ صَلاتَهُ الَّتي هيَ عمادُ الإِسلام ، وسهرَ ليلَهُ والنَّاسُ نيام .

فيا مضيعَ الزَّمانِ فيما ينقصُ الإِيمان ، يا مُعرِضاً عنِ الأَرباحِ متعرِّضاً لِلخسران ؛

متىٰ تَنتبهُ مِنْ رقادكَ أَيُّها الوسنان ؟! متىٰ تفيقُ لِنَفْسك ؟! أَما حُقَّ أَما آن ؟! إلامَ ترفضُ قولَ النّاصح ، وقد أَتاكَ بأَمرٍ واضح ؟! أَترضىٰ بالشَّينِ والقبائح ؟! كأَنّي بكَ قد نُقلتَ إلىٰ بطونِ الصَّفائح ، وبقيتَ محبوساً إلى الحشر تحتَ الضَّرائح ، وخُتمَ الكتابُ علىٰ آفاتٍ وقبائح .

مَنْ رأَيتَ مِنْ آفاتِ الدُّنيا سَلِم ؟! ومَنْ شاهدتَ صحيحاً وما سَقِم ؟! أَيّ حياةٍ بالموتِ لَم تُختَم ؟! وأَيّ عُمرٍ بالسّاعاتِ لَم يَنصرم ؟!

إنّ الدُّنيا لغرورٌ حائل ، وسرورٌ إلى الشرورِ آيل ، تُردي مستزيدَها ، وتُؤذي مستفيدَها ، بينا طالبُها يَضحكُ أَبكتْه ، ويفرحُ بسلامتهِ أَهلكتْه ، فندمَ علىٰ زَلَلِه ؛ إذ قدم علىٰ عَملِه ، وبقيَ رهينَ خوفهِ ووَجَلِه ، ووَدَّ أَنْ لَو زِيدَ ساعةً في أَجَلِه ، فما هوَ إلاَّ أَسيرٌ في حفرته ، وحسيرٌ في سَفرته :

يَـا وَاقِفـاً يَسْـأَلُ الْقُبُـورَ أَفِـقْ	فَـأَهْلُهَـا الْيَـومَ عَنْـكَ قَـدْ شُغِلُـوا
قَـدْ هَـالَهُـمْ مُنْكَـرٌ وَصَـاحِبُـهُ	وَخَـوْفُ مَـا قَـدَّمُـوا وَمَـا عَمِلُـوا
رَهَـائِـنٌ لِلثَّـرَىٰ عَلَـىٰ مَـدَرٍ	تَسْمَـعُ لِلـدُّودِ بَيْنَهُـمْ زَجَـلُ
سَرَى الْبِلَىٰ فِي جُسُومِهِمْ فَجَرَتْ	دَمـاً وَقَيْحـاً وَسَـالَـتِ الْمُقَـلُ
يَنْتَظِـرُونَ النُّشُـورَ إذْ يَقِـفُ الـ	أَمْـلاَكُ وَالأَنْبِيَـاءُ وَالـرُّسُـلُ
يَـوْمـاً تَـرَى الصُّحْـفَ فِيـهِ طَـائِـرَةً	وَكُـلُّ قَلْـبٍ مِـنْ هَـوْلِـهِ وَجِـلُ
قَـدْ دَنَـتِ الشَّمْـسُ مِـنْ رُؤُوسِهِـمُ	وَالنَّـارُ قَـدْ أُبْـرِزَتْ لَهَـا شُعَـلُ
وَأُزْلِفَـتْ جَنَّـةُ النَّعِيـمِ فَيَـا	طُـوبَـىٰ لِقَـوْمٍ بِـرَبْعِهَـا نَـزَلُـوا
أَكْـوَابُهُـمْ عَسْجَـدٌ يُطَـافُ بِهَـا	وَالْخَمْـرُ وَالسَّلْسَبِيـلُ وَالْعَسَـلُ

* * *

المجلسُ العاشرُ
مِنْ حديثِ جبريلَ عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ أيضاً
في الزكاة وبعض واجباتها

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي أعانَ بفضلهِ الأَقدامَ السَّالِكَة ، وأَنقذَ برحمتهِ النُّفوسَ الهالكَة ، ذمَّ الدُّنيا وأَعلمَ أَنَّ سيوفَ غدرِها باتكَة[1] ، وأَعرضَ عن أَهلِها إلاَّ العصبةَ النَّاسكَة ، وكيفَ يُسكَنُ إِليها ونوقُ الرَّحيلِ باركَة ؟! وسيقرَعُ محبُّها سِنَّهُ ندماً إذا أَصبحَتْ سِنُّ الزّاهدِ ضاحكَة ، كم بينكَ وبينَهُم يا مَنْ نَفْسُهُ عليها متهالِكَة ؟ فالعملَ علىٰ تقوىٰ رابعة[2] ، لا على انبساطِ بورانَ وعاتكَة[3] ، سَعِدَ مَنْ رأَى الدُّنيا فتَصبر ، ورضيَ بوصفِ أَشعثَ أَغبر ، وأَقبلَتْ عليهِ بزخرفِها فأَدبر ، ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ .

أَحمدُهُ على الأُمورِ اللَّذيذةِ والشّائِكَة ، وأُقرُّ بوحدانيَّتِهِ إقرارَ عبدٍ يَعرفُ مالكَه ، وأُصلِّي وأُسلِّمُ علىٰ رسولهِ محمَّدٍ صلواتٍ متداركَة ، وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ الَّذي تُحرِّضُ عليهِ الفرقةُ الآفِكَة ، وعلىٰ عمرَ الَّذي كانت نَفْسُهُ لِنَفْسهِ مالِكَة ، وعلىٰ عثمانَ مُنفقِ الأَموالِ المتداركَة ، وعلىٰ عليٍّ مُجلي الكُربِ المظلمةِ الهالكَة ، وعلىٰ بقيَّةِ الصَّحابَةِ الَّذينَ هُم أَناروا الظُّلَمَ الحالكَة .

أَمّا بعد : فنروي بسندِنا إلى الإمامِ مسلمِ بنِ الحجّاجِ النَّيسابوري ، فإِنَّهُ قالَ في « جامعهِ الصَّحيح » الحريِّ بالتَّرجيح :

---

(١) **السيف الباتك** : القاطع .

(٢) عابدة زاهدة مشهورة .

(٣) من المرفَّهات والمشهورات بالترف والجمال ، في عهد بني العباس .

عن عبدِ اللهِ بنِ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : حدَّثني أَبي عمرُ بنُ الخطّاب ، قال : بينما نحنُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ذات يوم إِذ طلعَ علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثِّياب ، شديدُ سوادِ الشَّعر ، لا يُرىٰ عليهِ أَثرُ السّفر ، ولا يَعرفُهُ مِنّا أَحد ، حتَّىٰ جلسَ إِلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فأَسندَ رُكبتيه إِلىٰ رُكبتيه ، ووضعَ كفَّيهِ علىٰ فخذيه ، وقال : يا محمَّد ؛ أَخبرني عنِ الإسلام ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ، وَتُقِيمَ الصَّلاَة ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاة . . . » الحديث .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ، وبيدهِ أَزمَّةُ التَّحقيق ـ : قد تقدَّمَ الكلامُ علىٰ أَوّلِ الحديثِ في الدُّروسِ السّالفة ، وبقي الكلامُ علىٰ قولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « وتُؤْتِي الزَّكَاة » .

فالزّكاةُ هي مِنْ أَركانِ الإِسلام ، وقد وردتْ فيها آياتٌ عظيمةٌ وأَحاديثُ كريمة ، وقد قُرنت بالصّلاةِ في اثنينِ وثلاثينَ موضعاً في التَّنزيل ، وهـٰذا دليلٌ علىٰ كمالِ الاتِّصالِ بينَهُما ، ولذا قُدِّمَتْ على الصَّوم ، ولفَرْضِها قَبْلَه .

قيل : ولا تجبُ على الأَنبياءِ عليهِمُ الصَّلاةُ والسّلامُ إِجماعاً ؛ لأَنَّ الزَّكاةَ طُهرةٌ لمَنْ عساهُ أَنْ يتدنَّس ، والأَنبياءُ مبرَّؤُونَ منه ، وليسَ يبقىٰ لَهُم مال ، وأَمّا قولُه تعالىٰ حكايةً عن عيسىٰ عليهِ السّلام : ﴿ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ . . فالمراد بها :

زكاةُ النَّفسِ مِنَ الرَّذائلِ الَّتي لا تليقُ بمقاماتِ الأَنبياءِ عليهِمُ الصَّلاةُ والسّلام .

أو : أَوصاني بتبليغِ الزَّكاة .

والزَّكاةُ **لغة** : الطَّهارةُ والنَّماء[١] .

وشرعاً : تمليكُ جزءِ مالٍ ، خرجَ الإِباحة ، فلو أَطعمَ يتيماً ناوياً الزَّكاة . . لا يُجزئُهُ إِلاَّ إِذا دفعَ إِليهِ المطعوم ، كما لَو كساهُ فإِنَّهُ يُجزئُه . وقولُه : جزءِ مال ،

---

(١) ما ذكره هنا من الأحكام على مذهب الإمام أبي حنيفة فقط ولم يَتَعرَّض بالعزو لغيره . . ففيها خلاف يُطلَبُ من محلّه .

خرجَ المنفعة ، فلو سَكَّنَ فقيراً دارَهُ سَنةً ناويا . . لا يُجزئُه .

عيَّنَهُ الشَّارع ؛ وهو : ربعُ عُشرِ نصابٍ حولي ، خرجَ النافلةُ والفطرةُ مِنْ مسلمٍ فقيرٍ غيرِ هاشمي . قيل : ولا لِتاركِ الصَّلاةِ ولا مولاهُ ؛ أَي : معتق الهاشمي ، وهُم : آلُ عبّاس ، وعلي ، وجعفر ، وعقيل ، وولدِ الحارثِ بنِ عبدِ المطَّلب .

معَ قطعِ المنفعةِ عنِ المُمَلك ، فلا يَدفعُ لأَصلهِ وفَرْعه .

ويكونُ النِّصابُ فارغاً عن دَينٍ لَه مطالِبٌ مِنْ جهةِ العباد ، وهـٰذا إِذا كانَ الدَّينُ في ذمَّتهِ قَبْلَ وجوبِ الزَّكاة ، فلَو لَحِقَهُ بعدَه . . لَم تَسقط ؛ لأَنَّها ثبتتْ في ذمَّتهِ فلا يُسقطُها ما لَحِقَ مِنَ الدَّينِ بعدَ ثبوتِها .

ويشترطُ أَيضاً : أَنْ يكونَ النِّصابُ فارغاً عن حاجتهِ الأَصليَّة ؛ لأَنَّ المشغولَ بها كالمعدوم ، وفسَّرهُ ابنُ ملكٍ بما يَدفعُ عنهُ الهلاكَ تحقيقاً ؛ كثيابهِ ونفقتهِ ودُورِ سكناهُ وآلاتِ الحرب ، أَو تقديراً ؛ كالدَّين ، فإِنَّ المديونَ محتاجٌ إِلىٰ قضائهِ بما في يدهِ مِنَ النِّصابِ دفعاً لِلحبس ، وكآلاتِ الحرفةِ وأَثاثِ المنزلِ ودوابِّ الرُّكوبِ وكتبِ العلمِ لأَهلِها ولغيرِ أَهلِها ، غيرَ أَنَّ الأَهلَ لَهُ أَخذُ الزَّكاةِ مِنَ الغير ، والمديونُ يُزكِّي الفاضلَ عن دَينه .

وافتراضُها عمري ؛ أَي : على التَّراخي . وقيل : فوري ، وعليهِ الفتوىٰ ، فيأثمُ بتأْخيرِها بلا عذرٍ وتُردُّ شهادتُه .

ولا زكاةَ في اللّآلىءِ والجواهرِ إِلاَّ أَنْ تكونَ للتِّجارة ، ولا زكاةَ في السّائِمةِ المعلوفةِ في أَكثرِ الحولِ إِلاَّ أَنْ تكونَ للتِّجارة ، فتجبُ فيها زكاةُ التِّجارة .

وزكاةُ الإِبل : نصابُها خمس ، فيؤْخَذُ مِنْ كلِّ خمسٍ مِنها إِلىٰ خمسٍ وعشرينَ شاة .

وفي خمسٍ وعشرين . . بنتُ مخاض ؛ وهيَ الَّتي طَعنَتْ في الثّانية .

وفي ستٍّ وثلاثين . . بنتُ لبون ؛ وهيَ الَّتي طَعنَتْ في الثّالثة .

وفي ستٍّ وأَربعين . . حقَّة ؛ وهي الَّتي طَعنَتْ في الرّابعة .

وفي إِحدىٰ وستِّين . . جَذَعَة ؛ وهي الَّتي طعنت في الخامسة .

وفي ستٍّ وسبعين . . بنتا لَبون .

وفي إِحدىٰ وتسعين . . حقَّتانِ إِلىٰ مئةٍ وعشرين ، هـٰكذا كتبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وأَبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنه ثمَّ تستأنفُ الفريضةُ عندنا .

وقالَ الشّافعيُّ وأَحمد : إِذا زادَتْ علىٰ مئةٍ وعشرينَ واحدة . . ففيها ثلاثُ بناتِ لبون ، إِلىٰ مئةٍ وثلاثينَ ففيها حِقّةٌ وبنتا لبون .

وعن مالكٍ قولان ، أَحدُهما كمذهبِ الإِمامِ أَبي حنيفة ، والآخَرُ كالشّافعي .

ونصابُ البقرِ والجاموسِ : ثلاثونَ سائمة ، وفيها تبيعٌ وهوَ ذو سَنة .

وفي أَربعينَ مُسِنٌّ ذو سنتين ، وفيما زادَ بحسابه ، لا يكونُ عفواً إِلىٰ ستِّينَ ففيها ضعفُ ما في ثلاثين .

ونصابُ الغنم (ضأْنٌ ومعز) : أَربعون ، وفيها شاة .

وفي مئةٍ وإِحدىٰ وعشرينَ شاتان .

وفي مئتينِ وواحدةٍ ثلاثُ شياه .

وفي أَربعِ مئةٍ أَربعُ شياه ، وما بينَهُما عفو ، ثمَّ في كلِّ مئةٍ شاة .

ولو أَخذَ البغاةُ والسّلاطينُ الجائرَةُ زكاةَ السَّوائِمِ والعشرَ والخَراج . . لا إِعادةَ علىٰ أَربابِها إِنْ صُرفَ في محلِّهِ الشَّرعي ، وإِلا . . فعليهِم فيما بينَهُم وبينَ اللهِ تعالىٰ .

ونصابُ الذَّهب : عشرونَ مثقالاً ، **والفضَّة** : مِئتا درهم ، **وفي عرضِ تجارةٍ** : قيمتُهُ نصابُ ربعِ عشر ، وفي كلِّ خمسٍ بحسابه ، ففي كلِّ أَربعينَ درهماً درهم ، وفي كلِّ أَربعةِ مثاقيلَ قيراطان ، وما بينَ الخمسِ إِلى الخمسِ عفو[1] .

وقالا : ما زادَ بحسابه ، وإِليهِ ذهبَ أَحمدُ ومالك والشّافعي .

وشُرطَ حوَلانُ الحول ، وكمالُ النِّصابِ في طرفي الحول ، فلا يضرُّ نقصانُهُ

---

(١) هـٰذا ما ذهب إليه أبو حنيفة ، وسيأتي قول صاحبيه بقوله : (وقالا) .

بينَهُما ، ويُضمُّ عندَ الثّلاثةِ الذَّهبُ إلى الفضَّةِ وعكسُهُ قيمة ، خلافاً للشّافعي ، وتجبُ عندَ الحنفيَّةِ وإنْ كانَ حُليّاً . وقالَ مالكٌ وأحمد : لا تجب . وعنِ الشّافعيِّ قولان .

واتّفقَ الأئمَّةُ علىٰ وجوبِ الزّكاةِ في الأواني ذهباً وفضّة ، وإنْ كانت محرّمةً وعصى اللهَ تعالىٰ باستعمالها .

وأمّا الأحاديثُ الواردةُ في فضلِ الزّكاة . . **فمنها** :

ما روي عن أَبي هريرة وأَبي سعيد رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قالا : خطَبَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه » ثلاثَ مرّات ، ثمَّ أكب ، فأَكبَّ كلُّ رجلٍ مِنّا يبكي لا يدري علىٰ ماذا حلف ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ وفي وجههِ البشرى فكانت أَحبَّ إلينا مِنْ حُمرِ النّعم ، قال : « مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الْخَمْس ، وَيَصُومُ رَمَضَان ، وَيُخْرِجُ الزَّكَاة ، وَيَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ السَّبْع . . إلاَّ فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّة ، وَقِيلَ لَه : ادْخُلْ بِسَلاَم » .

وعن أَنسِ بنِ مالك رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قالَ : أَتىٰ رجلٌ مِنْ بني تميمٍ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فقال : يا رسولَ الله ؛ إنِّي ذو مالٍ كثيرٍ وذو أَهلٍ وولد وحاضرة ، فأَخبرني كيفَ أَصنعُ وكيفَ أُنفق ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « تُخْرِجُ الزَّكَاةَ مِنْ مَالِك ؛ فَإِنَّهَا طُهْرَةٌ تُطَهِّرُك ، وَتَصِلُ أَقْرِبَاءَك ، وَتَعْرِفُ حَقَّ السَّائِلِ وَالْجَارِ وَالْمِسْكِين » .

وعن عبيدِ بنِ عمير ، عن أَبيه ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم في حجَّةِ الوداع : « إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ الْمُصَلُّون ، وَمَنْ يُقِيمُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ الَّتِي كَتَبَهُنَّ اللهُ على عباده ، وَيَصُومُ رَمَضَان ، وَيَحْتَسِبُ صَوْمَه ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ مُحْتَسِباً ، طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُه ، وَيَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ الَّتِي نَهَى اللهُ عَنْهَا . فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله ؛ وكم الكبائر ؟ قال : « هِيَ تِسْع ، أَعْظَمُهُن : الإِشْرَاكُ بالله ، وَقَتْلُ الْمُؤْمِنِ بِغَيْرِ حَق ، وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْف ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَة ، وَالسِّحْر ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيم ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ الْمُسْلِمَيْن ، وَاسْتِحْلاَلُ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْحَرَام ؛ قِبْلَتُكُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً ، لاَ يَمُوتُ رَجُلٌ لَمْ يَعْملْ هَـٰؤُلاَءِ الْكَبَائِر ، وَيُقِيمُ الصَّلاَةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاة . . إِلاَّ رَافَقَ مُحَمَّداً

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فِي بُحْبُوحَةِ جَنَّة ، أَبْوَابُهَا مَصَارِعُ الذَّهَب » .

وعن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلاَ فِضَّةٍ لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا . . إلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَة . . صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَار ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَىٰ بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُه ، كُلَّمَا بَرَدَت . . أُعِيدَتْ لَه ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَة ، حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَىٰ سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النّار » قيل : يا رسولَ الله ؛ فالإبل ؟ قال : « وَلاَ صَاحِبُ إِبِلٍ لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا ، وَمِنْ حَقِّهَا : حَلْبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَة . . بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ[1] أَوْفَرَ مَا كَانَت ، لاَ يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلاً وَاحِداً ، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا ، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولاهَا . . رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَة ، حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ الْعِبَاد ، فَيَرَىٰ سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّة ، وَإِمَّا إِلَى النَّار » قيل : يا رسولَ الله ؛ فالبقرُ والغنم ؟ قال : « وَلاَ صَاحِبُ بَقَرٍ وَلاَ غَنَمٍ لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَة . . بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ أَوْفَرَ مَا كَانَت ، لاَ يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئاً ، لَيْسَ مِنْهَا عَقْصَاءُ وَلاَ جَلْحَاءُ وَلاَ عَضْبَاء ، تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلاَفِهَا ، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولاَهَا . . رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَة ، حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَىٰ سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّار » قيل : يا رسولَ الله ؛ فالخيل ؟ قال : « اَلْخَيْلُ ثَلاَثَة : هِيَ لِرَجُلٍ وِزْر ، وَهِيَ لِرَجُلٍ سِتْر ، وهِيَ لِرَجُلٍ أَجْر .

فَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ وِزْر : فَرَجُلٌ رَبَطَهَا رِيَاءً وَفَخْراً وَنِوَاءً لأَهْلِ الإِسْلاَم ، فَهِيَ لَهُ وِزْر .

وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ سِتْر : فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ الله ، ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللهِ فِي ظُهُورِهَا وَلاَ رِقَابِهَا ، فَهِيَ لَهُ سِتْر .

وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْر : فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَة ،

---

(١) القرقر : الأرض المطمئنة اللينة . اهـ منه .

فَمَا أَكَلَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ مِنْ شَيْءٍ . . إِلاَّ كُتِبَ لَهُ عَدَدَ مَا أَكَلَتْ حَسَنَات ، وَكُتِبَ لَهُ عَدَدَ أَرْوَاثِهَا وَأَبْوَالِهَا حَسَنَات ، وَلاَ تَقْتَطِعُ طولها فاستنت شَرَفاً أَوْ شَرَفَيْنِ . . إِلاَّ كُتِبَ لَهُ عَدَدَ آثَارِهَا وَأَرْوَاثِهَا حَسَنَات ، وَلامَرَّ بِهَا صَاحِبُهَا عَلَىٰ نَهرٍ فَشَرِبَتْ مِنْه ، وَلاَ يُرِيدُ أَنْ يَسْقِيَهَا . . إِلاَّ كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ عَدَدَ مَا شَرِبَتْ حَسَنَات » .

قيل : يا رسولَ الله ؛ فالحُمُر ؟ قال : « مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِي الْحُمُرِ إِلاَّ هَـٰذِهِ الآيَةُ الفاذَّةُ الْجَامِعَة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ » رواهُ البخاري ومسلم .

وفي روايةٍ للنَّسائي : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَا مِنْ رَجُلٍ لاَ يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلاَّ جُعلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعاً مِنْ نَار ، فَيُكْوَىٰ بِهَا جَبْهَتُهُ وَجَنْبُهُ وَظَهْرُه ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاس » .

وروي : أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « مَا تَلِفَ مَالٌ فِي بَرٍّ وَلاَ بَحْر . . إِلاَّ بِحَبْسِ الزَّكَاة » .

وروى ابنُ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما : أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِين ؛ خَمْسٌ إِنِ ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَنَزَلْنَ بِكُمْ وأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُن : لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّىٰ يُعْلِنُوا بِهَا . . إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلاَفِهِم ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَان . . إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَؤُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَان ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِم . . إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاء ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِم . . لَمْ يُمطَرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُوله . . إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِم ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُم بِكِتَابِ الله وَيَتَخَيَّرَوا مَا أَنْزَلَ الله . . إِلاَّ جَعَلَ الله بَأْسَهُم بَيْنَهُم » .

وقالَ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

قالَ ابنُ عمر : قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « إِنَّ الَّذِي لاَ يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ يُمَثَّلُ إِلَيْهِ

مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعاً أَقْرَع ، لَهُ زَبِيبَتَان[1] ، فَيَلْزَمُهُ أَو يُطَوِّقَه ، يَقُول : أَنَا كَنْزُك » .

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ، فَمَا لَهُمْ يَبْخَلُونَ عَلَيْهِ بِمِلْكِهِ وَلاَ يُنْفِقُونَهُ فِي سَبِيلِه ؟!

وحكىٰ في « نُزهةِ المجالس » : أَنَّهُ كانَ في زمنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما رجلٌ كثيرُ المال ، فلمّا مات . . حفروا قبرَهُ فوجدوا فيهِ ثُعباناً عظيماً ، فأخبروا ابنَ عبّاس بذلك ، فقال : احفروا غيرَه ، فحفروا فوجدوا الثُّعبانَ فيه ، حتّىٰ حفروا سبعةَ قبور ، فسأَلَ ابنُ عبّاس أَهله[2] عن حاله ، فقالوا : إِنَّهُ كانَ يمنعُ الزَّكاة ، فأَمرهُم بدفنهِ معَه .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « وَيْلٌ لِلأَغْنِيَاءِ مِنَ الْفُقَرَاء ، يَقُولُون : رَبَّنَا ظَلَمُونَا حُقُوقَنَا الَّتِي فُرِضَتْ لَنَا ، فَيَقُول : وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي ، لأُدْنِيَنَّكُمْ وَلأُبْعِدَنَّهُم » .

فائدة : اختلفَ العلماءُ هلِ الفقيرُ الصّابرُ أَفضلُ أَم الغنيُّ الشّاكر ؟ فقيل : الغنيُّ الشّاكر . وقالَ جمع : الفقيرُ الصّابر ؛ لِما رويَ أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاء ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاء » وفي رواية : « فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الأَغْنِيَاء » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الْتَقَىٰ مُؤْمِنَانِ عَلَىٰ بَابِ الْجَنَّة ، مُؤْمِنٌ غَنِيٌّ وَمُؤْمِنٌ فَقِير ، كَانَا فِي الدُّنْيَا ، فَأُدْخِلَ الْفَقِيرُ الْجَنَّةَ وَحُبِسَ الْغَنِيُّ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُحْبَس ، ثُمَّ أُدْخِلَ الْجَنَّة ، فَلَقِيَه ، فَقَال : يَا أَخِي ؛ مَاذَا حَبَسَك ؟ وَاللهِ لَقَدْ احْتُبِسْتَ حَتَّىٰ خِفْتُ عَلَيْك ، فَقَال : يَا أَخِي ؛ إِنِّي حُبِسْتُ بَعْدَكَ مَحْبساً فَظِيعاً كَرِيهاً ، وَمَا وَصَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ سَالَ مِنِّي الْعَرَق ، مَا لَوْ وَرَدَهُ أَلْفُ بَعِيرٍ كُلُّهَا آكِلَةُ حَمْضٍ . لَصَدرت عَنْه رِوَاء » .

ولمّا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « اللَّهُم ؛ أَحْيِنِي مِسْكِيناً وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَة » . . . قالتْ عائشة : لِمَ يا رسولَ الله ؟ قال : « إِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِم بِأَرْبَعِينَ خَرِيفاً ، يَا عَائِشَة ؛ لاَ تَرُدِّي الْمِسْكِينَ وَلَو بِشِقِّ

---

(١) الزبيب : سم الحية ، والزبيبتان : اسم ريق الحية . اهـ منه .

(٢) في الأصل : من أهله .

تَمْرَة ، يَا عَائِشَة ؛ أَحِبِّي الْمَسَاكِينَ وَقَرِّبِيهِم ؛ فَإِنَّ اللهَ يُقَرِّبُكِ يَوْمَ الْقِيَامَة » رواهُ التّرمذي .

واعلموا : أَنَّ الصَّدقة ـ ماعدا الزَّكاة ـ مِنْ أَفضلِ الأَعمال ، وموجبةٌ في الدُّنيا وَالآخِرةِ لِلخلاصِ مِنَ الشَّدائدِ والأَهوال ، ولاَ سيَّما صدقةُ السِّر ؛ فإِنَّها تُطْفِيءُ غضبَ الرَّب ، وقد روى التّرمذي وغيره : أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّه : اَلإِمَامُ الْعَادِل ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّه ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِد ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اِجْتَمَعَا عَلَيْهِ[1] وَتَفَرَّقَا عَلَيْه ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَال : إِنِّي أَخَافُ الله ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ أَخْفَىٰ حَتَّىٰ لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُه ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاه » .

روى الطَّبراني : « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَال قَط ، وَمَا مَدَّ عَبْدٌ يَدَهُ بِصَدَقَةٍ . . إِلاَّ أُلْقِيَتْ فِي يَدِ اللهِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ السَّائِل ، وَمَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ لَهُ عَنْهَا غِنَىً . . إِلاَّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْر » .

« يَقُولُ الْعَبْد : مَالِي مَالِي ، إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلاَثٌ : مَا أَكَلَ فَأَفْنَىٰ ، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَىٰ ، أَوْ أَعْطَىٰ فاقْتَنَىٰ ، وَمَا سِوَىٰ ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاس » .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ اللهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَان ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَىٰ إِلاَّ مَا قَدَّم ، فَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَمَا يَرَ إِلاَّ مَا قَدَّم ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَىٰ إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِه ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَة » .

وقال ـ أيضاً ـ عليه الصلاة والسلام : « والصَّدَقَةُ تُطْفِيءُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِيءُ الْمَاءُ النَّار » .

وفي حديثِ كعبِ بنِ عجرة [رضي الله عنه] : « يَا كَعْب ؛ إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ وَدَمٌ نَبَتَا عَلَىٰ سُحْت ، النَّارُ أَوْلَىٰ بِه ، يَا كَعْب ؛ الصَّلاَةُ قُرْبَانٌ وَالصَّوْمُ جُنَّة ، وَالصَّدَقَةُ

---

(١) في الأصل : « علىٰ ذلك » ، والمثبت لفظ « البخاري » .

تُطْفِىءُ الْخَطِيئَة ، وَتُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ ، وَتَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوء » .

وفي رواية : « إِنَّ اللهَ لَيَدْرَأُ بِالصَّدَقَةِ سَبْعِينَ بَاباً مِنْ مِيتَةِ السُّوء » .

« كُلُّ امْرِىءٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاس » .

وفي رواية : « الصَّدَقَةُ تُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّب ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي العُمُر ، وَكُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَة ، وَأَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الآخِرَة ، وَأَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الآخِرَة ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَهْلُ الْمَعْرُوف » .

وروي : « مَنْ كَسَا مُسْلِماً ثَوْباً . . لَمْ يَزَلْ فِي سِتْرِ اللهِ مَا دَامَ عَلَيْهِ مِنْهُ خَيْطٌ أَوْ سِلْك » .

وروي : « أَيُّمَا مُسْلِمٍ كَسَا مُسْلِماً ثَوْباً عَلَىٰ عُرِي . . كَسَاهُ اللهُ مِنْ خُضْرِ الْجَنَّة ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ أَطْعَمَ مُسْلِماً عَلَىٰ جُوع . . أَطْعَمَهُ اللهُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّة ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ سَقَىٰ مُسْلِماً عَلَىٰ ظَمَإٍ . . سَقَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُوم » ، « الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَة ، وَعَلَىٰ ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَان : صَدَقَةٌ وَصِلَة » ، « وَكُلُّ قَرْضٍ صَدَقَة » .

وفي رواية : « رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَىٰ بَابِ الْجَنَّةِ مَكْتُوباً : الصَّدَقَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وَالْقَرْضُ بِثَمَانِيَةَ عَشَر » .

« مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُقْرِضُ مُسْلِماً قَرْضاً مَرَّتين إِلاَّ كَانَ كَصَدقتها مَرَّة » .

« مَنْ يَسَّرَ عَلَىٰ مُعْسِر . . يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة » .

وروي : « أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْر ؟ قال : تُطْعِمُ الطَّعَام ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَىٰ مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِف » .

وروي : « مَنْ أَطْعَمَ أَخَاه خُبْزاً حَتَّىٰ يُشْبِعه ، وَسَقَاهُ مِنَ الْمَاءِ حَتَّىٰ يُرْوِيَه . . بَعَّدَهُ اللهُ مِنَ النَّارِ سَبْعَ خَنَادِق ، مَا بَيْنَ كُلِّ خَنْدَقَيْنِ خَمْسُ مِئَةِ عَام » .

وروي : أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يومَ القيامة : « يَا ابْنَ آدَم ؛ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي ، قَال : يَا رَب ؛ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِين ؟ قَال : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْه ، [أَمَا عَلِمْتَ] أَنَّكَ لَوْ عُدْتَه . . لَوَجَدْتَنِي عِنْدَه ؟!

يَا ابْنَ آدَم ؛ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي ، قَال : يَا رَب ؛ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِين ؟ قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فلَمْ تُطْعِمْه ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَه . . لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ؟!

يَا ابْنَ آدَم ؛ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي ، قَال : يَا رَب ؛ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِين ؟ قَال : اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تَسْقِه ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَه . . وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي » .

ورويَ في (الماء) قولُه : يا رسولَ الله ؛ إِنَّ أُمِّي توفِّيَتْ ولَم توص ، فينفعُها أَنْ أَتصدَّقَ عنها ؟ قال : « نَعَم ، وَعَلَيْكَ بِالْمَاء » .

وروي : يا رسولَ الله ؛ أَيّ الصَّدقةِ أَفضل ؟ قال : « سَقْيُ الْمَاء » .

وفي حديث : « سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْد أَجرُهُنَّ بَعْدَ مَوْتِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِه : مَنْ عَلَّمَ عِلْماً ، أَوْ أَجرَىٰ نَهراً ، أَوْ حفَرَ بِئْراً ، أَوْ غرَسَ نَخْلاً ، أَوْ بَنَىٰ مَسْجِداً ، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفاً ، أَوْ تَرَكَ وَلَداً يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِه » .

وفي رواية : « أَوْ غَرَسَ نَخْلاً ، أَوْ بَنَىٰ بَيْتاً لابْنِ السَّبِيل » .

واعلموا : أَنَّ مِنَ الكبائِرِ : سؤَالَ الغنيِّ ، وكسبَ الصَّدقةِ طمعاً وتكثراً : أَخرجَ الطَّبراني : « مَنْ سَأَلَ مِنْ غَيْرِ فَقْر . . فَكَأَنَّمَا يَأْكُلُ الْجَمْر » .

وروى الإِمامُ أَحمد « مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يُغْنِيه . . جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَسْأَلَتُهُ فِي وَجْهِهِ خُمُوشٌ أَو خُدُوش » .

وروي : « مَنْ فَتَحَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ مِنْ غَيْرِ فَاقَةٍ نَزَلَتْ بِهِ أَوْ عِيَالٍ لاَ يُطِيقُهُم . . فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَاقَةٍ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِب » ، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ .

ومِنَ الكبائر : الإِلحاحُ في السُّؤَالِ المؤذي لِلمسؤُول : أَخرجَ البزّار : « لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّىٰ يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَه » .

« مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِر . . فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَه ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ

الآخِرِ. . فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَسْكُت » ، « إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُحِبُّ الْغَنِيَّ الْحَلِيمَ الْمُتَعَفِّفَ ، وَيُبْغِضُ الْبَذِيءَ الْفَاجِرَ السَّائِلَ الْمُلِحّ » .

وروي : « إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَخْرُجُ مِنْ عِنْدِي لِحَاجَتِهِ مُتَأَبِّطَهَا ـ أي : جَاعِلَهَا تَحْتَ إِبْطِه ـ وَمَا هِيَ إِلاَّ النَّار » فقيل : يا رسولَ الله ؛ لمَ تُعطيهم ؟ قال : « يَأْبَوْنَ إِلاَّ أَنْ يَسْأَلُونِي ، وَيَأْبَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيَ الْبُخْل » .

وأمّا ما كانَ مِنْ غيرِ مسألة. . فإنَّما ذلكَ رزقٌ يرزُقُكَهُ اللهُ تعالَىٰ ، وروي : « مَنْ آتَاهُ اللهُ شَيْئاً مِنْ هَـٰذَا الْمَالِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْأَلَه. . فَلْيَقْبَلْه ، فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْه » لـٰكنْ صرَّحَ الفقهاءُ بأَنَّ مَنْ أُعطيَ شيئاً علىٰ ظنِّ عِلمهِ أَو صلاحِهِ مثلاً ، وهوَ ليسَ كذلك. . يَحرمُ عليهِ أَخذُه .

ومِنَ الكبائر : التَّطفُّل ، وهوَ الدُّخولُ علىٰ طعامِ الغيرِ لِيأْكلَ منهُ مِنْ غيرِ إذنهِ ولا رِضاه ، حتَّىٰ قَالَ ابنُ حجرٍ في « الزَّواجر » : إِنَّهُ لا تُقبلُ شهادةُ الطُّفيلي ، وبهِ قالَ الشَّافعي رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ؛ لِمَا رويَ مرفوعاً : « مَنْ أَتَىٰ طَعَاماً لَمْ يُدْعَ إِلَيْه. . دَخَلَ سَارِقاً وَخَرَجَ مغيراً » ولأَنَّهُ يأْكلُ حراماً ويفعلُ ما فيهِ دناءة ، وهـٰذا إذا تكرَّرَ منه ، وإلا. . فتقبل . قال : ولذا وردَ أَنَّ شرَّ الطَّعام طعامُ الوليمة ؛ فقد روى الشَّيخانِ عن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ موقوفاً عليه : « شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَة ، يُدْعَىٰ إِلَيْهِ الأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الْمَسَاكِين ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ الدَّعْوَة. . فَقَدْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَه » .

وفي روايةٍ لمسلم : « إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ أَخَاه. . فَلْيُجِب ، عُرْساً كَانَ أَوْ نحوه » .

قال : والحاصلُ عندنا : أَنَّ الإجابةَ لوليمةِ العرسِ واجبةٌ بشروطِها المقرَّرةِ في محلِّها ، ولسائرِ الولائِمِ وغيرِها. . مستحبَّة اهـ .

ومِنَ الكبائرِ أَيضاً : منعُ الإنسانِ لقريبهِ أَو مولاهُ ممّا سأَلَهُ فيهِ لاضطرارِهِ إِليه ، معَ قدرةِ المانعِ عليهِ وعدمِ عذرٍ لَهُ في المنع :

فقد أَخرجَ الطَّبرانيُّ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَا مِنْ ذِي رَحِمٍ يَأْتِي ذُو رَحِمِهِ إِلَيْهِ فَيَسْأَلُهُ فَضْلاً أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ فَيَبْخَلُ عَلَيْه. . إِلاَّ أَخْرَجَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جَهَنَّمَ حَيَّةً يُقَالُ لَهَا : شُجَاع ، يَتَلَمَّظُ فَتَطَوَّقَ بِه » .

وروي : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يُمَدَّ فِي عُمْرِهِ وَيُبْسَطَ فِي رِزْقِه . . فَلْيَصِلْ رَحِمَه » .

وقالَ صلَّى ٱللهُ عليهِ وسلَّم : « اللهَ اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم ، وَلاَ تُعَذِّبُوا خَلْقَ الله ، إِنَّ اللهَ مَلَّكَكُمْ إِيَّاهُمْ وَلَوْ شَاء . . لَمَلَّكَهُمْ إِيَّاكُم » ، وستأتي تتمَّةٌ لهـٰذهِ الأبحاثِ في الدُّروسِ الآتيةِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ومِنَ الكبائر : أَنْ يسألَ السّائلُ غيرَ الجنَّة ، وأَنْ يمنعَ المسؤولُ سائلَهُ بوجهِ اللهِ عزَّ وجل : قالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلام : « مَلْعُونٌ مَنْ سَأَلَ بِوَجْهِ الله ، وَمَلْعُونٌ مَنْ سُئِلَ بِوَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ ثُمَّ مَنَعَ سَائِلَهُ مَالَمْ يَسْأَلْ هَجْراً » أَي : قبيحاً .

وروى التّرمذي : « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ النَّاس ؟ رُجُلٌ يُسْأَلُ بِاللهِ وَلاَ يُعْطِي » .

والنَّسائي وغيرُه : « مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ . . فَأَعِيذُوه ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللهِ . . فَأَعْطُوه ، وَمَنْ دَعَاكُم . . فَأَجِيبُوه ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً . . فَكَافِؤُوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِؤُونَهُ . . فَادْعُوا لَهُ حَتَّىٰ تَرَوْا أَنَّكُم قَدْ كَافَأْتُمُوه » .

وفي روايةٍ زيادةُ قصَّةِ الخضر ، وهي : « أَلاَ أُحَدِّثُكُم عَنِ الْخَضِر ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسولَ الله .

قال : « بَيْنَمَا هُوَ يَمْشِي ذَاتَ يَوْمٍ فِي سُوقِ بَنِي إِسْرَائِيلَ . . أَبْصَرَهُ رَجُلٌ مُكَاتَبٌ فَقَال : تَصَدَّقْ عَلَيَّ بَارَكَ اللهُ تَعَالىٰ فِيكَ ، فَقَالَ الْخَضِر : آمَنْتُ بِاللهِ ، مَا شَاءَ اللهُ مِنْ أَمْرٍ يَكُونُ ، مَا عِنْدِي شَيءٌ أُعْطِيكَه ، فَقَالَ الْمِسْكِين : أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللهِ لَمَا تَصَدَّقْتَ عَلَيَّ ؛ فَإِنِّي نَظَرْتُ السَّمَاحَةَ فِي وَجْهِك ، وَرَجَوْتُ الْبَرَكَةَ عِنْدَك ، فَقَالَ الْخَضِر : آمَنْتُ بِاللهِ ، مَا عِنْدِي شَيْءٌ أُعْطِيكَهُ إِلاَّ أَنْ تَأْخُذَنِي فَتَبِيعَنِي ، فَقَالَ الْمِسْكِين : وَهَلْ يَسْتَقِيمُ هَـٰذَا ؟ قَال : نَعَم ، الْحَقَّ أَقُول : لَقَدْ سَأَلْتَنِي بِأَمْرٍ عَظِيم ، أَمَا إِنِّي لاَ أُخَيِّبُكَ بِوَجْهِ رَبِّي ، بِعْنِي . قَالَ فَقَدَّمَهُ إِلَى السُّوقِ ، فَبَاعَهُ بِأَرْبَعِ مِئَةِ دِرْهَم ، فَمَكَثَ ثَمَّ الْمُشْتَرِي زَمَاناً لاَ يَسْتَعْمِلُهُ فِي شَيْء ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ إِنَّمَا ابْتَعْتَنِي الْتِمَاسَ خَيْرٍ عِنْدِي فَأَوْصِنِي بِعَمَل ، قَال : أَكْرَهُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْك ، إِنَّكَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ضَعِيف ، قَالَ لَيْسَ تَشُقُّ عَلَي ، قَال : فَقُمْ فَانْقُلْ هَـٰذِهِ الْحِجَارَة ، وَكَانَ لاَ يَنْقُلُهَا دُونَ سِتَّةِ نَفَرٍ فِي يَوْم ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ لِبَعْضِ

حَاجَتِهِ ، ثُمَّ انْصَرفَ وَقَدْ نَقَلَ الْحِجَارَةَ فِي سَاعَة ، قَالَ : أَحْسَنْتَ وَأَجْمَلْتَ وَأَطَقْتَ مَالَمْ أَرَكَ تُطِيقُه ، ثُمَّ عَرَضَ لِلرَّجُلِ سَفَرٌ ، فَقَال : إِنِّي أَحْسَبُكَ أَمِيناً ، فَاخْلُفْنِي فِي أَهْلِي خِلاَفَةً حَسَنَة ، قَال : أَوْصِنِي بِعَمَل ، قَال : إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْك ، قَال : لَيْسَ تَشُقُّ عَلَي ، قَال : فَاضْرِبْ مِنَ اللَّبِنِ لِبَيْتِي حَتَّىٰ أَقْدَمَ عَلَيْك ، فَمَضَى الرَّجُلُ لِسَفَره ، قَال : فَرَجَعَ الرَّجُلُ وَقَدْ شَيَّد بِنَاءَه ، قَال : أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ الله ، مَاسَبَبُكَ وَمَا أَمْرُك ؟ قَال : سَأَلْتَنِي بِوَجْهِ الله ، وَوَجْهُ اللهِ أَوْقَعَنِي فِي هَـٰذِهِ الْعُبُودِيَّة ، فَقَال الْخَضِر : سَأُحَدِّثُكَ مَنْ أَنَا ، أَنَا الْخَضِرُ الَّذِي سَمِعْتَ به ، سَأَلَنِي مِسْكِينٌ صَدَقَةً فَلَمْ يَكُنْ عِنْدِي شَيْءٌ أُعْطِيه ، فَسَأَلَنِي بِوَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ فَأَمْكَنْتُهُ مِنْ رَقَبَتِي فَبَاعَنِي ، وَأُخْبِرُكَ أَنَّهُ مَنْ سُئِلَ بِوَجْهِ اللهِ فَرَدَّ سَائِلَهُ وَهُوَ يَقْدِر . . وَقَفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جِلْدُهُ لاَلَحْمَ لَهُ ولاعظم يَتَقَعْقَع ، فَقَالَ الرَّجُل : آمَنْتُ بِالله ، شَقَقْتُ عَلَيْكَ يَانَبِيَّ الله ، ولَمْ أَعْلَم ، قَال : لاَ بَأْس ، أَحْسَنْتَ وَأَنْفَقْت ، فَقَالَ الرَّجُل : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا نَبِيَّ الله ؛ احْكُمْ فِي مَالِي وَأَهْلِي مَا شِئْت ، أَوِ اخْتَرْ فَأُخَلِّي سَبِيلَك ، قَال : أُحِبُّ أَنْ تُخَلِّي سَبِيلِي فَأَعْبُدَ رَبِّي ، فَخَلَّىٰ سَبِيلَه فَقَال : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَوْقَعَنِي فِي الْعُبودِيَّةِ ثُمَّ نَجَّانِي مِنْهَا » اهـ

فعليكُم عبادَ اللهِ ؛ بِالتَّجنُّبِ عنِ الشُّبهاتِ والحرامِ وأَكلِ الحلال ، والتَّصدُّقِ بهِ على الأَهلِ والعيال ، ولا سيَّما الأَقاربُ والأَراملُ وأَبناءُ السَّبيلِ والأَيتام ، فقد قالَ عزَّ مِنْ قائل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ﴾ فيا عبادَ الله ؛ اطلبوا الحلالَ واحذروا مِنَ الشُّبهات ، واقنعوا باليسير ؛ فما يَحتملُ الصّافي الشَّهوات ، وليسَ الطَّيِّبُ ما طابَ طعمُهُ بلْ ماصفا مِنَ الآفات ، وبذلكَ أُمرَ الأَنبياءُ لا اتِّباع اللَّذات ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ﴾ الدُّنيا دارُ تكليفٍ لا منزلُ راحات ، اغتنموا زمانَكُم وجزِّؤُوا الأَوقات ، واحذروا لذيذ مطاعمِها فعمومُها سمومات ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ﴾ كانوا يقنعونَ مِنَ الدُّنيا بلُقيمات ، ويتناولونَ بينَ اللَّيلِ والنَّهارِ تمرات ، غَرسوا أَشجارَ الصَّبرِ يَرجونَ الثَّمرات ، فما مضتْ أَيامٌ إلاَّ وسَنْبَلَ النَّبات ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ﴾ ماضرَّهُم مامضىٰ مِنَ المُلمّات ، لقد عاشوا بالذِّكرِ بعدَ الممات ، ووصلوا بعدَ الرَّحيلِ إلى الجنّات ، فتلقَّتهُم براحاتِ الرّاحات ، حورٌ مقصورات ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ﴾

كانَ أُويس يتلقطُ مِنَ المزابلِ خُريقات ، وربَّما أَعدَّ لإفطارهِ حشفات ، فيأْكُلُهم ثمَّ يَرِدُ الفرات ، ماأَطيبَها ؛ إذ سلمتْ مِنَ الزلات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ وَيْحَكَ إنَّ اللَّذاتِ سببُ هلاكِ الذَّات ، كم تعزمُ علىٰ فعلِ الطَّاعات ، ثمَّ تتغيَّرُ في ساعةٍ لافي ساعات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أَينَ المجتهدُ في كَسْبه ؟ أَينَ الخائفُ مِنْ ربِّه ؟ إنَّ آكِلَ الرِّبا قد آذنَ بحَربه ، أَلا إنَّهُ مَنْ أَدخلَ الحرامَ علىٰ قلبهِ مات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ تأتي بقلبٍ قد أَظلم ، فتُحدَّثُ بالنُّصحِ ولا تَفهم ، وتقول : دلُّوني علىٰ طريقِ ابنِ أَدهم ، أَلاَ إنَّ العمىٰ مانعٌ ، والظُّلمَ ظُلمات .

وفَّقنا اللهُ تعالىٰ وإيّاكُم لمراضيه ، وجعلَ مستقبلَ حالِنا خيراً مِنْ ماضيه .

اللّٰهُمَّ ؛ اقسمْ لنا مِنْ خشيتكَ ما تحولُ به بيننا وبينَ معاصيك ، ومِنْ طاعتكَ ما تبلِّغنا بهِ جنَّتك ، ومِنَ اليقينِ ما تُهوِّنُ بهِ علينا مصائبَ الدُّنيا ، ومتِّعنا بأَسماعِنا وأَبصارِنا ما أَحييتَنا ، واجعلهُ الوارثَ منّا ، واجعل ثأْرَنا علىٰ مَنْ ظَلَمنا ، وانصرنا علىٰ مَنْ عادانا ، ولا تَجعلْ مصيبتَنا في دِيننا ، ولا تجعلِ الدُّنيا أَكبرَ همِّنا ولا مبلغَ عِلْمِنا ، ولا تُسلِّطْ علينا مَنْ لا يرحمُنا ، واغفر لنا ولكافَّةِ المسلِمين .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وآلهِ أَجمعين .

* * *

المجلس الحادي عشر
في الحج من حديث جبريل عليه السلام أيضاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيم

الحمدُ للهِ الملكِ العظيمِ الجليل ، المنزَّهِ عنِ النَّظيرِ والعديل ، المنعِمِ بقَبولِ القليل ، المكرِمِ بإعطاءِ الجزيل ، نصبَ للعقلِ علىٰ وجودهِ أَعظمَ دليل ، وهدىٰ إلىٰ جُودهِ أَبينَ سبيل ، وجعلَ للحسِّ[1] حظّاً إلىٰ مَيلهِ يَميل ، فأمرَ ببناءِ بيتٍ وجلَّ عنِ السُّكنى الجليل ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾ . . الآية . ثمَّ حمىٰ حِماهُ لمّا قصدَهُ أَصحابُ الفيل ، ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ .

أَحمدُهُ كلَّما نُطقَ بحمدِهِ وقيل ، وأُصلِّي وأُسلِّمُ علىٰ رسولهِ محمَّدٍ النَّبيِّ النَّبيلِ الجليل ، وعلىٰ أَبي بكرٍ الَّذي لا يُبغضُهُ إلاَّ ثقيل ، وعلىٰ عمرَ وفضلُهُ طويل ، وعلىٰ عثمانَ وكَم لهُ مِنْ فعلٍ جميل ، وعلىٰ عليٍّ مَنْ كسرَ الأَصنامَ وقمعَ الأَباطيل ، وعلىٰ بقيَّةِ الآلِ والصَّحابةِ الوارثِينَ التَّنزيل .

أَمّا بعد : فنروي بسندِنا إلى الإمامِ مسلمِ بنِ الحجّاج ، فإنَّهُ قالَ في « جامعهِ الصَّحيح » : عن عبدِ اللهِ بنِ عمر رضيَ اللهُ عنهُما قال : حدَّثني أَبي عمرُ بنُ الخطّاب ، قال : بينما نحنُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إذْ طلعَ علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثِّياب ، شديدُ سوادِ الشَّعر ، لا يُرىٰ عليهِ أَثرُ السَّفرِ ، ولا يَعرفُهُ منّا أَحد ، حتَّىٰ جلسَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فأسندَ رُكبتيهِ إلىٰ رُكبتيهِ ووضع كفَّيهِ على فخذيه ، وقال : يا محمَّد ؛ أَخبرني عنِ الإسلام ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الإِسْلاَم : أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ، وَتُقِيمَ الصَّلاَة ، وَتُؤْتِيَ

---

(١) أي : الحواس والمحسوس كما أشار إليه بعض العارفين .

الزَّكَاة ، وَتَصُومَ رَمَضَان ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيهِ سبيلاً » قال : صدقت. . . الحديث .

فنقول : قد تقدَّمَ الكلامُ على الإسلامِ والشَّهادتين ، والصَّلاةِ والزَّكاةِ والصَّومِ في الدُّروسِ السّالفة ، ولنَذْكرِ الآن ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ مايتعلَّقُ بالحجِّ وما بعدَه .

اعلَمْ : أَنَّ الحجَّ **لغة** : هوَ القصد ، **وشرعاً** : هوَ قصدُ الكعبةِ المكرَّمةِ ؛ لأَجْلِ النُّسكِ والطَّوافِ بها ، والسَّعي بينَ الصَّفا والمروةِ ، معَ الوقوفِ بعرفةَ في زمنٍ مخصوص ، وهوَ مِنْ أَعظمِ أَركانِ الإسلامِ وكفَّارةٌ لِلآثام ؛ فقد روى البخاري ومسلم ، عن أَبي هريرة رضيَ اللهُ عنه ـ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُق . . خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّه » .

وعن عمرِو بنِ عبسة ـ رضيَ اللهُ عنه قال : قالَ رجل : يارسولَ الله ؛ ماالإسلام ؟ قال : « أَنْ يُسْلِمَ قَلْبُكَ لله عز وجل ، وَأَنْ يَسْلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِك » قال : فأَيُّ الإسلامِ أَفضل ؟ قال : « الإِيمَان » قال : وَمَا الإيمان ؟ قال : « تُؤْمِنُ بالله ، وَمَلاَئِكَتِه ، وَكُتُبه ، وَرُسُلِه ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْت » قال : فأَيُّ الأَعمالِ أَفضل ؟ قال : « الْهِجْرَة » قال : فما الهجرة ؟ قال : « تَهْجُرُ السُّوء » قال : فأَيُّ الهجرةِ أَفضل ؟ قال : « الْجِهَاد » قال : وما الجهاد ؟ قال : « أَنْ تُقَاتِلَ الْكُفَّارَ إِذَا لَقِيتَهُم » قال : فأَيُّ الجهادِ أَفضل ؟ قال : « مَنْ عُقِرَ جَوَادُه ، وَأُهْرِيقَ دَمُه » قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « ثُمَّ عَمَلاَنِ هُمَا أَفْضَلُ الأَعْمَالِ إِلاَّ مَنْ عَمِلَ بِمِثْلِهِمَا : حَجَّةٌ مَبْرُورَة ، أَوْ عُمْرَةٌ » رواهُ الإمامُ أَحمد ، والطَّبراني ، والبيهقيُّ وغيرُهم .

والحجُّ المبرور ، قيل : هوَ الَّذي لا يقعُ فيهِ معصية . وقيل : هوَ المقبول .

ومِنْ علاماتِ قَبوله : أَنَّهُ إذا رجعَ إِلىٰ وطنهِ الحاجُّ . يكونُ حالُهُ خيراً مِنَ الأَوَّل .

وقيل : هوَ الَّذي لا رياءَ فيه .

وقيل : هوَ الَّذي لا تعقبهُ معصية .

وقيل : هوَ الَّذي لا ترتكبُ فيهِ المعاصي ، ولا يكونُ فيهِ فلسٌ مِنْ حرام .

وما أَحسنَ قولَ القائل :

وَمَـنْ كَـانَ بِـالْمَـالِ الْحَـرَامِ حَجِيجُـهُ فَعَـنْ حَجِّـهِ وَاللهِ مَـاكَـانَ أَغْنَـاهُ
إِذَا هُـوَ لَبَّـى اللهَ كَـانَ جَـوَابُـهُ مِـنَ الله : لاَ لَبَّيْـك ، حَـجٌّ رَدَدْنَـاهُ

قلت : ولعلَّ مِنْ علاماتِ الحجِّ غيرِ المبرور : أَنْ يحجَّ قاصِداً أَنْ يُدعىٰ بـ : حاجّ فلان ، حتَّىٰ إِنَّهُ إذا نوديَ باسمهِ فقط . . يغضب ، ويضجر ، ويُقطِّبُ وجهَه ، ويتكدَّر ، ففعلُهُ هـٰذا يَدلُّكَ علىٰ عدمِ إِخلاصهِ في الحج ، وعلىٰ ريائه ـ والعياذُ باللهِ تعالىٰ ـ في العجِّ والثَّج[1] .

وقد جاءَ مِنْ حديثِ جابرٍ مرفوعاً : « إِنَّ بِرَّ الْحَج : إِطْعَامُ الطَّعَام ، وَطِيبُ الْكَلاَم » ، وعندَ بعضِهِم : « وَإِفْشَاءُ السَّلاَم » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا ، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الْجَنَّة » رواهُ البخاري .

وعن أَبي موسىٰ رضيَ اللهُ عنه رفعَهُ إِلى النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « الْحَاجُّ يَشْفَعُ فِي أَرْبَعِ مِئَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِه ، وَيَخْرُجُ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّه » .

وعنِ ابنِ عمرَ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « مَاتَرْفَعُ إِبِلُ الْحَاجِّ رِجْلاً ، وَلاَ تَضَعُ يَداً . . إِلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِهَا حَسَنَة ، أَوْ مَحَا عَنْهُ سَيِّئَة ، أَوْ رَفَعَهُ بِهَا دَرَجَة » .

وفي رواية : « حَتَّىٰ إِذَا انْتَهَىٰ إِلَى الْبَيْتِ ، فَطَافَ وَطَافَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَة ثُمَّ حَلَقَ أَوْ قَصَّر . . إِلاَّ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّه » .

وقد مرضَ ابنُ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما ، فدعا ولدَه ، فجمعَهُم فقال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « مَنْ حَجَّ مِنْ مَكَّةَ مَاشِياً حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَىٰ مَكَّة . . كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ سَبْعَ مِئَةِ حَسَنَة ، كُلُّ حَسَنَةٍ مِثْلُ حَسَنَاتِ الْحَرَم » قيلَ له :

---

(١) **العجُّ** : رفع الصوت بالتلبية . **الثجُّ** : سيلان دماء الهدي والأضاحي .

وما حسناتُ الحرم ؟ قال : « بِكُلِّ حَسَنَةٍ مِئَةُ أَلْفِ حَسَنَة » .

وعن أَبي هريرة رضيَ اللهُ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « يُغْفَرُ لِلْحَاجِّ وَلِمَنِ اسْتَغْفَرَ لَهُ الْحَاج » .

وعنه : « مَنْ خَرَجَ حَاجّاً فَمَات . . كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْحَاجِّ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَة ، وَمَنْ خَرَجَ مُعْتَمِراً فَمَات . . كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْمُعْتَمِرِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَة ، وَمَنْ خَرَجَ غَازِياً فَمَات . . كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْغَازِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَة » .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ وَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْن . . كَانَ كَعِتْقِ رَقَبَة » .

ورويَ عن علي كرَّمَ اللهُ وجهَه ـ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ مَلَكَ زَاداً وَرَاحِلَةً تُبَلِّغُهُ إِلَىٰ بَيْتِ اللهِ وَلَمْ يَحُج . . فَلاَ عَلَيْهِ أَنْ يَمُوتَ يَهُودِيّاً أَوْ نَصْرَانِيّاً ، وذلكَ لأَنَّ اللهَ يقول : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ » وفيهِ ضعف .

نَعَم ؛ صحَّ عن عمر رضيَ اللهُ عنه : لقد هممتُ أَنْ أَبعثَ رجالاً إِلىٰ هٰذهِ الأَمصارِ فينظروا كلَّ مَنْ لَهُ نفقةٌ ولَم يَحُج ، فليَضْرِبْ عليهِمُ الجزية ، ماهُم بمسلِمين .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَة ؛ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّة ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ جَزَاءٌ إِلاَّ الْجَنَّة » .

ووردَ في بعضِ الرِّوايات : (أَنَّ الصَّلاَةَ الواحدةَ في مسجدِ مكَّةَ بثلاثِ مئةِ أَلفِ أَلفِ أَلفِ صَلاةٍ في غيرِها) .

وأَخرجَ الطَّبراني : (إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُنزِلُ علىٰ هٰذا المسجدِ في كلِّ يومٍ وليلة عشرينَ ومئةَ رحمة ، ستِّينَ للطَّائفين ، وأَربعينَ لِلمصلِّين ، وعشرينَ للنَّاظرين) .

ورويَ عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَنَّهُ قال : « النَّفَقَةُ فِي الْحَجِّ كَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ بِسَبْعِ مِئَةِ ضِعْف » .

وقالت عائشة : يارسولَ الله ؛ هل على النِّساءِ مِنْ جهاد ؟ قال : « نَعَم ، عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لاَقِتَالَ فِيه ؛ الْحَجُّ وَالْعُمْرَة » .

وليُعلَم : أَنَّ المرأَةَ لا يجبُ عليها الحجُّ إلاَّ إذا ملكتِ الزّادَ والرّاحلة ، ووجدَتْ معَها مَحْرَماً أَو زوجاً ؛ لأَنَّهُ لا يُباحُ لَها السَّفرُ مسيرةَ ثلاثةِ أَيّامٍ بلا ذلك ، وعبدُها ليسَ بمَحْرَم ؛ لأَنَّ تحريمَ نكاحِها عليهِ ليسَ على التَّأْبيد ، فإذا وُجدتِ الشُّروط . . لَها أَنْ تحجَّ بلا إِذنِ الزَّوج ، فليُحفَظ .

ولنَذْكُرْ بعضَ المسائلِ الَّتي اتَّفقَ العلماءُ عليها في بحثِ الحج ، وبعضاً مِنَ المسائلِ الَّتي اختُلفَ فيها علىٰ وجهِ الاقتصار :

قالَ في « الميزان » : أَجمعَ العلماءُ علىٰ أَنَّ الحجَّ أَحدُ أَركانِ الإِسلام ، وأَنَّهُ فرضٌ واجبٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ حُرٍّ بالغٍ عاقلٍ مستطيع ، في العمرِ مرَّةً واحدة .

وأَجمعوا علىٰ أَنَّهُ لايجبُ على الصَّبيِّ حج ، وأَنَّ حجَّهُ قَبْلَ البلوغِ لايُسقطُ عنهُ فريضةَ الحج .

واتَّفقوا على استحبابِ الحجِّ لمَنْ لَم يَجِدْ زاداً ولا راحلةً ولٰكنَّهُ يقدرُ على المشي وعلىٰ صنعةٍ يكتسبُ بها مايكفيهِ للنَّفقة ، وعلىٰ أَنَّهُ لايلزمُ بيعُ المسكنِ للحج ، وعلىٰ جوازِالنِّيابةِ في حجِّ الفرضِ عنِ الميت .

واختلفوا في العمرة : فقالَ أَبو حنيفةَ ومالك : إِنَّ العمرةَ سنَّةٌ لافريضة .

وقالَ أَحمدُ والشّافعيُّ في أَرجحِ قولَيه : إِنَّها فريضةٌ كالحج .

وقالَ الأَئِمَّةُ الثَّلاثةُ ماعدا مالكاً : إِنَّهُ يجوزُ فِعلُ العمرةِ في كلِّ وقتٍ مطلَقاً مِنْ غيرِ حصرٍ ؛ يعني : في العَددِ بلا كراهة .

وقالَ الإِمامُ مالك : يُكرَهُ أَنْ يعتمرَ في السَّنةِ مرَّتين .

والعمرةُ هي : إِحرام ، وطواف ، وسعيٌ بينَ الصَّفا والمروة ، وحلق ، ثمَّ يتحلَّل ، وليسَ فيها وقوفٌ في عرفات ، بخلافِ الحجِّ فإنَّ فيهِ وقوفَ اليومِ التّاسعِ مِنْ ذي الحجَّة ؛ لأَنَّ : « **الحجُّ عرفات** » .

واختلفوا فيمَنْ ماتَ بعدَ التَّمكُّنِ مِنَ الحج :

فقالَ الشَّافعيُّ وأَحمدُ لايسقطُ عنهُ الحج ، بل يجبُ الحجُّ عنهُ مِنْ رأْسِ ماله ، سواءٌ أَوصىٰ بهِ أَم لم يُوصِ به ؛ كالدَّين .

وقالَ أَبو حنيفةَ ومالك : يسقطُ عنهُ الحجُّ بالموت ، ولا يلزمُ ورثتَهُ أَنْ يحجُّوا عنهُ إلاَّ أَنْ يُوصيَ فيحجُّوا عنهُ مِنْ ثُلثه ، واختلفوا في موضعِ الحجِّ عنه :

فقالَ أَبو حنيفةَ وأَحمد : يحجُّ عنِ الميتِ مِنْ دويرةِ أَهله .

وقالَ مالك : مِنْ حيثُ أَوصىٰ به .

والرَّاجحُ مِنْ مذهبِ الشَّافعيِّ أَنَّهُ مِنَ الميقات .

واختلفوا في صحَّةِ حجِّ الصَّبي : فقالَ الأَئِمَّةُ الثّلاثةُ بصحَّةِ حجِّ الصَّبيِّ بإِذنِ وليِّهِ إذا كانَ يعقلُ ويُميِّز ، ومَنْ لا يُميِّز . . . يُحرِمُ عنهُ وليُّه .

وقالَ الإِمامُ أَبو حنيفة : لايصحُّ إِحرامُ الصَّبيِّ بالحج .

واختلفوا في حجِّ مَنْ يحتاجُ إِلىٰ مسألةِ النّاس : فقالَ الأَئِمَّةُ الثّلاثةُ بكراهته ، وقالَ مالك : إِنَّهُ إِنْ كانَ لَهُ عادةٌ بالسّؤَال . . وجبَ عليهِ الحج .

واختلفوا في حجِّ مَنِ استُؤجرَ للخدمةِ في الطَّريق : فقالَ الأَئِمَّةُ الثّلاثة : إِنَّهُ يصحُّ حجُّه .

وقالَ الإِمامُ أَحمد : لايصحُّ حجُّه .

واختلفوا فيما لَو غصبَ دابَّةً فحجَّ عليها ، أَو مالاً فحجَّ به فقالَ الأَئِمَّةُ الثَّلاثة : يصحُّ حجُّهُ وإِنْ كانَ عاصياً بذلك .

وقالَ أَحمد : لايصحُّ حجُّهُ ولا يُجزئُه .

واختلفوا في وجوبِ الحجِّ علىٰ مَنْ وجبَتْ عليهِ خفارةٌ[1] في الطَّريق : فقالَ الأَئِمَّةُ الثَّلاثة : لايجبُ الحجُّ علىٰ مَنْ وجبَتْ عليهِ أُجرةُ خفارة .

وقالَ مالك : يجبُ عليهِ الحجُّ إِنْ كانت يسيرةً وأَمِنَ العَدوَّ .

---

(١) أما الرسوم الجائرة والرشوة فلا خلاف في سقوطه بها .

واختلفوا في العاجز : فقالَ الأَئِمَّةُ الثَّلاثة : إِنَّ العاجزَ عنِ الحجِّ بنَفْسِهِ لمرض ، أَو زمانةٍ لا يُرجىٰ بُرؤُهُ مِنها أَو لهَرَمٍ ووَجَدَ أُجرةَ مَنْ يحجُّ عنه . . لَزِمَهُ الحج ، فإِنْ لَم يَفعل . . استقرَّ الفرضُ في ذمَّته .

وقالَ أَحمد : لايجبُ عليهِ الحج ، وإِنَّما يجبُ الحجُّ علىٰ مَنْ كانَ مستطيعاً بنَفْسهِ خاصّة .

واختلفوا في الأَعمىٰ : فقالتِ الأَئِمَّةُ الثَّلاثة : إِنَّ الأَعمىٰ إِذا وجدَ مَنْ يقودُه . . لَزِمَهُ الحجُّ بنَفْسِه ، ولا يجوزُ لَهُ الاستنابة .

وقالَ أَبو حنيفة : يلزمُهُ الحجُّ في ماله ، فيستنيبُ مَنْ يَحجُّ عنه .

واختلفوا فيمَنْ قصدَ دخولَ مكَّة ـ زادها اللهُ تعالىٰ شرفاً ـ : فقالَ الشّافعي : إِنَّ مَنْ قصدَ دخولَ مكَّةَ لالنُسك . . يُستحبُّ لَهُ أَنْ يُحرمَ بحجٍّ أَو عمرة .

وقالَ أَبو حنيفة : لايجوزُ لمَنْ هوَ وراءَ الميقاتِ أَنْ يجاوزَهُ إِلاَّ مُحرِماً ، وأَمّا مَنْ هوَ دونَهُ فيجوزُ لَهُ دخولُهُ بغيرِ إِحرام .

وقالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : لا يدخلُ أَحدٌ الحرمَ إِلاَّ مُحرِماً .

وقالَ مالكٌ والشّافعيُّ في القديم : لا تجوزُ مجاوزةُ الميقاتِ بغيرِ إِحرام ، ولا دخولُ مكَّةَ بغيرِ إِحرامٍ إِلاَّ أَنْ يتكرَّرَ دخولُه ؛ كحطّابٍ وصيّاد .

واختلفوا في المرأَةِ إِذا حاضت قَبْلَ طوافِ الإِفاضةِ لَم تَنْفِرْ حتَّىٰ تطهرَ وتطوف ، ولا يلزمُ الجمّالَ حبس الجملِ لها ، بل يَنفرُ معَ النّاسِ ويُركِبُ غيرَها .

وقالَ مالك : يَلزمُهُ حبسُ الجملِ أَكثرَ مِنْ مدَّةِ الحيضِ وزيادةُ ثلاثةِ أَيّام .

وقالَ أَبو حنيفة : إِنَّ الطَّوافَ لايشترطُ فيهِ طهارة ، فتطوفُ وتدخلُ معَ الحاج ، وقد أَفتى البارزيُّ النِّساءَ اللاّتي حِضْنَ في الحجِّ بذلك ، ونقلَهُ عن جماعةٍ مِنْ أَئِمَّةِ الشّافعيةِ اهـ

قلت : وقد سبقَ ذِكرُ هـٰذا القول عن أَبي حنيفة رحمَهُ اللهُ تعالىٰ وأَنَّها تُفدي بدنةً ، وإِلىٰ هـٰذا القولِ ذهبَ مِنَ الحنابلةِ تقيُّ الدِّينِ ابنُ تيميةَ عليهِ الرَّحمة .

وبقيت مِنْ مسائلِ الحجِّ خلافيّات كثيرة ، مَنْ أَرادَها . . فليرجع إِلى الكتبِ الفقهيَّة .

فوائدُ جليلة :

الفائدةُ الأُولىٰ : مواقيتُ الحجِّ زمانيَّةٌ ومكانيَّة .

فالزَّمانيّة : هي الَّتي يُحرِمُ فيها ، وهي : شوّال ، وذو القعدة ، وعشرٌ مِنْ ذي الحجَّة .

والمواقيتُ المكانيَّة :

لأَهلِ المدينةِ المنوَّرة : ذو الحليفة ، ولأَهلِ الشّام : الجحفة ، ولأَهلِ نجد : قرنُ المنازل ، ولأَهلِ اليمن : يلَمْلَم ، ولأَهلِ العراق : ذاتُ عِرق . وكذلكَ هي لمَنْ أَتىٰ عليها مِنْ غيرِ أَهلِها .

والإِحرام : عبارةٌ عن عدمِ لبسِ المخيط ، وتركِ الجماعِ والصَّيد ، وغيرِ ذلكَ ممّا هوَ مفصّلٌ في كتبِ المناسك . وموقتُ العمرةِ جميعُ السَّنةِ كما تقدَّم ، وكانَ عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ يقول : « **عُمْرَةٌ في رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً مَعِي** » .

الفائدةُ الثّانية : وردَ في ماءِ زمزمَ أَحاديثُ شريفة ، منها : قولُهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلام : « مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَه ، إِنْ شربتَهُ تستشفي به . . شفاكَ اللهُ عزَّ وجل ، وإِنْ شربتَهُ ليُشبعك . . أَشبعكَ الله ، وإِنْ شربتَهُ لِقَطْعِ ظمئِك . . قطعَهُ اللهُ تعالىٰ » .

ومنها : « آيَةُ مَابَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ لاَيَتَضَلَّعُونَ مِنْ مَاءِ زَمْزَم » . وكانَ ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما يقول إِذا شربَه : اللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وشفاءً مِنْ كلِّ داء .

وكانَ ابنُ المبارَكِ يقول : اللّهُمَّ إِنَّ نبيَّكَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَه » ، وها أَنا قد شربتُهُ لِعَطَشِ يومِ القيامة ، ثمَّ يشرب .

وروي : أَنَّ : « بينَ الرُّكنِ والمقامِ ملتزَمٌ مايَدعو بهِ صاحبُ عاهةٍ إِلاَّ بَرِىء » .

وأَنَّ جبريلَ لَمّا وكزَ زمزمَ بعَقِبه . . جعلَتْ أُمُّ إسماعيلَ تجمعُ البطحاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحمَ اللهُ هاجرَ لَو تركَتْها . . لكانت عَيناً معيناً » .

وأَنَّ ماءَها لِما شُربَ لَهُ مِنْ أُمورِ الدُّنيا والآخرة .

وجاءَ في حديثٍ صحيحٍ أَن : « الحجرَ الأَسودَ مِنَ الجنَّة » .

و : (أَنَّهُ يُرفَعُ بينما هُم يطوفونَ بهِ إِذ أَصبحوا وقد فقدوه) .

وأَنَّه : (يُبعثُ يومَ القيامةِ ولَهُ عينانِ ولسانٌ يَشهدُ علىٰ مَنِ استلمَه ـ وفي رواية : وقبَّلَه ـ مِنْ أَهلِ الدُّنيا) .

و : (أَنَّهُ شافعٌ مشفَّع) .

و : (أَنَّهُ كانَ أَشدَّ بياضاً مِنَ الثَّلجِ حتَّىٰ سوَّدتهُ خطايا أَهلِ الشّرك) .

و : (لولا ذلكَ مامسَّهُ ذو عاهةٍ إِلاَّ شُفي) .

و : (أَنَّهُ يمينُ اللهِ في الأَرضِ يُصافحُ بها عبادَه) ؛ أَي : يُمْنُه وبركتُهُ يُنزلُها عليهِم إِذا استلموه .

و : (أَنَّهُ والرُّكنَ اليمانيّ يَحطّانِ الخطايا والذُّنوب) .

الفائدةُ الثّالثة : كَرِهَ الإمامُ الأَعظمُ المجاورةَ بمكَّة زادَها اللهُ تعالىٰ شرفاً ؛ لتضاعفِ السَّيِّئاتِ فيها كالحسنات ؛ إِذ لايقدرُ المجاورُ علىٰ حفظِ نَفْسه ، خلافاً للصَّاحِبَين . وبالاستحبابِ قالتِ الأَئِمَّةُ الثَّلاثة .

قالَ حجَّةُ الإِسلامِ الغزالي ، وبقولهِ قالَ الخائفونَ المحتاطون : ولا يُظنُّ أَنَّ كراهةَ المقام تنافي فضلَ البقعة ؛ لأَنَّ هـٰذهِ الكراهةَ علَّتُها ضعفُ الخَلْقِ وقصورُهم عنِ القيامِ بحقِّ الموضعِ المكرَّم .

خاتمة ـ رزَقَنا اللهُ تعالىٰ وإِيّاكُم حسنَها : صرَّحَ علماءُ المذاهبِ كافَّةً أَنَّ الإِنسانَ إِذا قضىٰ حجَّه . . ينبغي لَهُ أَنْ يزورَ النَّبيَّ المصطفىٰ والحبيبَ المجتبىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، ويُصلِّيَ في مسجدهِ الشَّريف ؛ لأَنَّهُم قالوا بسُنِّيَّةِ شَدِّ الرَّحل إِلى المساجدِ الثَّلاثة ، وهي : المسجدُ الحرام ، والمسجدُ الأَقصىٰ وهوَ بيتُ المقدس ، ومسجدُ

النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، وثبتَ أَنَّ الصَّلاةَ تتضاعفُ في ذلك ـ كما سيأتي ـ وصرَّحوا بأَنَّ مَنْ أَتى المسجدَ النَّبوي ـ علىٰ ساكنهِ أَفضلُ الصَّلاةِ والسَّلام ـ سُنَّتْ لَهُ زيارةُ المصطفىٰ ـ أَرواحُنا لَهُ الفداء ـ حتَّىٰ قالَ بعضُهم بوجوبها .

ويأْتي الزَّائِرُ بعدَ صَلاةِ الرَّكعتينِ إِلىٰ روضتهِ المطهَّرةِ ، مقابلاً لِوَجْههِ الشَّريف ، خاضعاً متذلِّلاً ، متأَدِّباً متشوِّقاً كما يأْتي إِليهِ في حياته ، ويُصلِّي ويُسلِّمُ عليهِ وعلىٰ صاحبَيْهِ وضجيعيهِ المحترمَين ، ويدعو بالأَدعيةِ المشروعة ، مِنْ غيرِ تقبيلٍ لِلجدارِ المكرَّمِ كما نصَّ عليهِ النَّوويُّ في « مناسكه » ؛ لأنه عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ حيٌّ في قبره ، بل ذهبَ كثيرٌ مِنَ العلماءِ إِلىٰ سُنِّيَّةِ وجوازِ شدِّ الرَّحلِ إِلى الزِّيارةِ بخصوصِها ـ رزقَنا اللهُ العَوْدَ إِليها ـ لقولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « مَنْ جَاءَنِي زَائِراً لا يُعمِلُهُ حاجة إلا زيارتي . . كَانَ حَقّاً عَلَيَّ أَنْ أَكُونَ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَة » ، وقوله : « مَنْ حَجَّ ولَمْ يَزُرْنِي . . فَقَدْ جَفَانِي » ، وقوله : « مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَي . . إِلاَّ سَلَّمْتُ عَلَيْه ، وَلاَ يُصَلِّي عَلَيَّ أَحَد . . إِلاَّ صَلَّى اللهُ وَمَلاَئِكَتُهُ عَلَيْه » .

وقد صرَّحَتْ بسُنِّيَّةِ زيارتهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ علماءُ الحنابلةِ قاطبة ، ومنهُم : شيخُ الإِسلام ، وتلميذُهُ ابنُ القيِّمِ الهمام ، وغيرُهما مِنَ الأَعلام ، إِلاَّ أَنَّ الزّائرَ عندَهُما ينوي المسجدَ النَّبوي ، ثمَّ يقصدُ الزِّيارةَ المسنونةَ المشروعةَ بأَدعيتِها المَأثورة ، وهيَ لديهِم مِنْ أَعظمِ السُّننِ المرغوبةِ ، والطّاعاتِ المطلوبة .

واعلَمْ أَنَّهُ قد وردَ في المدينةِ المنوّرةِ أَحاديثُ كثيرة ، فمنها : ما رواهُ بلالُ بنُ الحارث : « رَمَضَانُ بِالْمَدِينَةِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ رَمَضَانَ فِيمَا سِوَاهَا مِنَ الْبُلْدَان ، وَجُمُعَةٌ بِالْمَدِينَةِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ جُمُعَةٍ فِيمَا سِوَاهَا مِنَ الْبُلْدَان » .

وفي « الجامع الصَّغير » : عن أَبي الدَّرداءِ رضي الله عنه أَنَّهُ عليهِ أَفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ قال : « الصَّلاَةُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِمِئَةِ أَلْفِ صَلاَة ، وَالصَّلاَةُ فِي مَسْجِدِي بِأَلْفِ صَلاَة ، وَالصَّلاَةُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِخَمْسِ مِئَةِ صَلاَة » .

وفي روايةٍ أُخرىٰ : « وَالصَّلاَةُ بِمَسْجِدِي عَشْرَةُ آلاَفِ صَلاَة ، وَالصَّلاَةُ فِي مَسْجِدِ الرِّبَاطَات ـ وهيَ ثغورُ العدو ـ أَلْفُ صَلاَة » .

ومنها : ما أَخرجَهُ الشَّيخانِ عن سعد رضيَ اللهُ عنه قال : سمعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « لاَ يَكِيدُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَحَدٌ إِلاَّ انْمَاعَ كَمَا يَنْمَاعُ الْمِلْحُ فِي الْمَاء » ، زَادَ مُسْلِم : « وَلاَ يُرِيدُ أَحَدٌ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِسُوءٍ إِلاَّ أَذَابَهُ اللهُ فِي النَّارِ ذَوْبَ الرَّصَاص ، أَو ذَوْبَ الْمِلْحِ فِي الْمَاء » .

وروى الإمامُ أَحمدُ وغيرُه : « مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَة . . فَقَدْ أَخافَ مَا بَيْنَ جَنْبَي» .

ومنها : ما رواهُ الطَّبراني : « اللَّهُمَّ ؛ مَنْ ظَلَمَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَأَخَافَهُم . . فَأَخِفْه ، وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين ، لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْل » أَي : فرضٌ ونافلة .

قالَ ابنُ حجر : صرَّحَ ابنُ القيِّمِ بأَنَّ استحلالَ حُرمةِ المدينةِ كبيرة ، وهيَ كمكَّة ؛ لخبرِ مسلمٍ أَنَّ أَنساً قيلَ لَه : أَحرَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم المدينة ؟ فقال : (**نعم ؛ هي** حَرَام ، لا يُختلىٰ ـ أَي : لا يُقطع ـ خلاها ـ أَي : كلؤُها الرَّطب ـ فمن فعلَ ذلك . . فعليهِ لعنةُ اللهِ والملائكةِ والنّاسِ أَجمعين) . وهـٰذهِ مسأَلةٌ خلافيّةٌ بينَ المذاهب .

ومنها : « لاَ يَصْبِرُ عَلَىٰ لأْوَاءِ الْمَدِينَةِ وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِي . . إِلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَة أَوْ شَهِيداً » ، « لاَ يَدَعُهَا أَحَدٌ رَغْبَةً إِلاَّ أَبْدَلَ اللهُ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْه » .

ومنها : « لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ أَهْلِ الْمَدِينَةِ زَمَانٌ يَنْطَلِقُ النَّاسُ مِنْهَا إِلَى الأَرْيَافِ ؛ يَلْتَمِسُونَ الرَّخَاءَ فَيَجِدُونَ الرَّخَاء ، ثُمَّ يَأْتُونَ فَيَحْتَمِلُونَ أَهْلَهُمْ إِلَى الرَّخَاء ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُم لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون » .

ومنها : « مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُم أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَمُت ، فَمَنْ مَاتَ بِالْمَدِينَة . . كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً وَشَهِيداً » ، « الْوَبَاءُ وَالدَّجَّالُ لاَ يَدْخُلاَنِهَا » .

ومنها : « اللَّهُمَّ ؛ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَيَمَنِنَا » قيل : وعِراقِنا ؟ قال : « إِنَّ بِهَا قَرْنَ الشَّيْطَان » . قالَ في « الزَّواجر » : أَي : أَتباعُه ، أَو قوَّةُ مُلكهِ وتصريفه ، وتهييجُ الفتن .

وفي « صحيحِ البخاري » في (بابِ الزَّلازل : عنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ قال : « اللَّهُمَّ ؛ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَفِي يَمَنِنَا » قال : قالوا : وفي نجدِنا ؟ قال : « اللَّهُمَّ ؛ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَفِي يَمَنِنَا » قال : قالوا : وفي نجدِنا ؟ قال : قال : « هُنَاكَ الزَّلاَزِلُ وَالْفِتَن ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَان » .

قالَ القسطلاني : والمرادُ بـ(شامِنا ويمنِنا) : الإقليمانِ المعروفان ، أَوِ البلادُ الَّتي عن يمينِنا وشِمالِنا أَعمُّ منها ، وإنَّما تركَ الدُّعاءَ لأَهلِ المشرقِ ؛ لأَنَّهُ علمَ العاقبةَ وأَنَّ القدر سبقَ بوقوعِ الفتنِ فيها . وفي (المشارقِ) عن مسلم : « غِلَظُ الْقُلُوب [وَالْجَفَاء] فِي أَهْلِ الْمَشْرِق ، وَالإِيمَانُ فِي أَهْلِ الْحِجَاز » .

قلت : ولأَنَّ مِنْ أَرضِ العراقِ أَرضَ بابل ، وهيَ كما قالَ علي كرَّمَ اللهُ وجهَه : نهاني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنْ أُصلِّيَ بأَرضِ بابلَ ؛ فإِنَّها ملعونة . كيفَ لا ؟ وقد وقعت فيها الوقائعُ الَّتي أَبكتِ المسلِمين ، وفلَّتْ أَعمدةَ الدِّين ، وخرجَ كثيرٌ مِنَ المبتدعةِ منها ، ورووا أَحاديثَ الفتنِ عنها ، وهـٰذا لا ينافي بُروزَ العلماءِ الأَجلَّةِ أَيضاً فيها ، فكَمْ وكَمْ بزغَ مِنْ بُرجِها إمامٌ كامل ، ومجتهدٌ فاضل ، ووَرِعٌ زاهد ، ووليٌّ مجاهد ، ومجدِّدٌ واصل ، وقُطبٌ كامل ، وعالمٌ تُشدُّ إِليهِ مِنَ الأَقطارِ الرَّواحل ، ومحدِّثٌ ومفسِّرٌ وفقيه ، وعلاَّمةٌ مدقِّقٌ نبيه! وطالما انتشرت منها العلومُ الإِسلاميّة ، وانتشرت مِنْ ساكِنِيها الأَحكامُ السَّنيَّة ، ونسأَلُهُ تعالىٰ أَنْ يدفعَ عنهُم كلَّ ضير ، ويَجزيَهُم عنَّا وعنِ المسلمينَ بكلِّ خير ، آمين .

فعليكُم عبادَ اللهِ بالحجِّ المبرور ، وزيارةِ النَّبيِّ الشَّافعِ المشفَّعِ يومَ النُّشور .

فَيَـا أَيُّهَـا النَّـاسِـي لِيَـوْمِ رَحِيلِـهِ — أَرَاكَ عَـنِ الْمَـوْتِ الْمُفَـرِّقِ لاَهِيَـا
أَلاَ تَعْتَبِـرْ بِـالظَّـاعِنِيـنَ إِلَـى الْبِلَـىٰ — وَتَـرْكِهِـمُ الـدُّنْيَـا جَمِيعـاً كَمَـا هِيَـا
وَلَـمْ يَخْـرُجُـوا إِلاَّ بِقُطْـنٍ وَخِـرْقَـةٍ — وَمَـا عَمَـرُوا مِـنْ مَنْـزِلٍ ظَـلَّ خَـالِيَـا
وَأَنْـتَ غَـداً أَوْ بَعْـدَهُ فِـي جِـوَارِهِـمْ — وَحِيـداً فَـرِيـداً فِـي الْمَقَـابِـرِ ثَـاوِيَـا

ويا مَنْ عليهِ منازلُ الموتِ تَدور ، وهوَ مستأْنسٌ بالمنازلِ والدُّور ؛ لا بدَّ أَنْ تخرجَ

مِنَ القصور على التَّواني والقصور ، لا بدَّ مِنَ الرَّحيلِ إلىٰ بلادِ القبور ، على الغفلاتِ وعلى الفتور .

يا مُظلمَ القلبِ وما لِلقلبِ نُور ؛ الباطنُ خرابٌ والظاهرُ معمور ، ستُحاسَبُ على الأيّامِ والشُّهور ، وترىٰ ما فعلْتَهُ مِنْ فجورٍ في النَّهارِ والدَّيجور[1] ، وستَحزنُ بعدَ السُّرورْ علىٰ تلكَ الشُّرور ، إذا وُفِّيتِ الأُجور ، ونجا المخلصونَ دونَ أَهلِ الزُّور ، تُصلِّي ولٰكنْ بلا حُضور ، وتصومُ والصَّومُ بالغيبةِ مغمور ، لو أردتَ الوِلدانَ والحور ، لسأَلتَهُم وقتَ السَّحورْ فكَمْ بارزتَ بالقبيحِ والكريمُ الغفور ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ .

اللّهُمَّ يا كريمُ يا غفور ؛ آنِسنا برحمتكَ في ظُلمةِ القبور ، واجعلنا يومَ القيامةِ ممَّنْ يَسعىٰ بينَ أَيديهِم وبأَيمانِهِمُ النُّور ، وأَسكنّا بفضلكَ وإِحسانِكَ الغُرفَ والقصور ، في جِوارِ هٰذا الشَّفيعِ المشفَّعِ يومَ العرضِ والنُّشور .

* * *

(١) الديجور : الظلام .

المجلس الثاني عشر
في الإيمان بالملائكة من حديث جبريل عليه السلام أيضاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ مستحِقِّ الحمدِ وأَهله ، وخالقِ الفرعِ وأَصلِه ، منشىءِ الكائناتِ بفعلِه ، ومُبينِ الهدىٰ بإِيضاحِ سُبُلِه ، فضَّلَ نبيَّنا بالقرآنِ فزادَ على الرُّسلِ مِنْ قَبْلِه ، وتحدَّىٰ بهِ المكذِّبينَ فخرسَ كلُّ ذي جهلٍ عن جَهْلِه ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ .

أَحمدُهُ علىٰ صعبِ القدرِ وسهلِه ، وأَشكرُهُ علىٰ قليلِ عطائهِ وجَزْلِه ، وأُقرُّ بوحدانيَّتهِ متفيِّئاً في حِمى الصِّدقِ وظِلِّه ، وأَشهدُ أَنَّ محمّداً عبدُهُ ورسولُهُ الَّذي ختمَ بهِ الأَنبياءَ ، فبتَّ كلَّ حبلٍ غيرَ حَبْلِه ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ؛ مزعجِ المرتدِّينَ بسيفِ عَزْمِهِ قَبْلَ سَلِّه ، وعلىٰ عمرَ الَّذي كانَ الشَّيطانُ يفرقُ مِنْ صوتِ نَعْلِه ، وعلىٰ عثمانَ الصَّابرِ علىٰ جراحهِ وقَتْلِه ، وعلىٰ عليٍّ المجاهدِ في سبيلِ اللهِ ومِنْ أَجْلِه ، وعلىٰ سائرِ آلهِ وأَصحابهِ الَّذينَ جعلَ كلٌّ منهُم طاعةَ اللهِ أَعظمَ شُغلِه .

أَمّا بعد : فنروي بسندِنا إِلى الإِمامِ مسلمِ بنِ الحجّاجِ عليهِ الرّحمة ، فإِنَّهُ قالَ في « جامعهِ الصَّحيح » : عن عبدِ اللهِ بنِ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : حدَّثني أَبي عمرُ بنُ الخطّابِ قال : بينما نحنُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إِذ طلعَ علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثِّيابِ ، شديدُ سوادِ الشَّعر ، لا يُرىٰ عليهِ أَثرُ السَّفرِ ولا يَعرفُهُ مِنّا أَحد ، حتَّىٰ جلسَ إِلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فأَسندَ رُكبتيهِ إِلىٰ رُكبتيه ، ووضعَ كفَّيهِ علىٰ فخذيه ، وقال : يا محمَّد ؛ أَخبرني عنِ الإِسلام ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الإِسْلَامُ : أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ، وَتُقِيمَ

الصَّلاَة ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاة ، وَتَصُومَ رَمَضَان ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً » قال : صدقت ، قال : فأَخبرني عنِ الإيمان ، قال : « أَنْ تُؤْمِنَ بِالله ، وَمَلاَئِكَتِه ، وَكُتبِهِ ، وَرُسُلِه ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّه » قال : صدقت. . . الحديث .

فنقول ـ وباللهِ التَّوفيق ، وبيدهِ أَزِمَّةُ التَّحقيق ـ : قولُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « أَنْ تُؤْمِنَ بِالله » ؛ أَي : تُصدِّقَ قلباً ولساناً بوجودهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، وأَنَّهُ قديمٌ أزليٌّ أَبدي ، سميعٌ بصيرٌ متكلِّم ، لا شبهَ لَهُ ولا نظير ، ولا يحتاجُ إِلىٰ أَحدٍ مِنْ خَلْقه ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .

وأَنْ تُؤْمِنَ بجميع صفاته ، مع تنزيهه عما يوهمه ظاهرها من التشبيه ، فكلُّ ما تصوَّرتَهُ في ذِهنكَ أَو توهَّمتَهُ في وهمك. . فاللهُ تعالىٰ بخلافهِ ؛ لأَنَّكَ مخلوق ، وكلُّ ما تصوَّرتَهُ أَو توهَّمتَه. . فهوَ مِثْلُكَ مخلوق .

وقولُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « وَمَلاَئِكَتِه » أَي : تُصدِّقَ بوجودِ ملائكته ، وأَنَّهُم ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ وهُم أَجسادٌ نورانيّة ، مبرّأَةٌ عنِ الكدوراتِ الجسمانيَّة ، قادرةٌ على التَّشكُّلِ بأَشكالٍ مختلفة ، لا يحتاجونَ إِلىٰ طعامٍ ولا شراب ، وهُم عبادُ اللهِ المكرمون ، وفيهِم سفراؤُهُ عزَّ وجلَّ بينَهُ وبينَ خَلْقه ، صادقونَ فيما يُخبرونَ بهِ عنه ، ومنهُمُ الكرامُ الكاتبون ، والمأْمورونَ في الأَرضِ والسّماء ، وهُم بالغونَ مِنَ الكثرةِ ما لا يَعلمُ عِلْمَها إلاَّ هو .

قالَ الوالد عليهِ الرَّحمة في « تفسيرِه » : اختلفَ النّاسُ في حقيقةِ الملائكةِ بعدَ اتِّفاقِهِم علىٰ أَنَّها موجودة سمعاً أَو عقلاً ، فذهبَ أَكثرُ المسلِمينَ إِلىٰ أَنَّها أَجسامٌ نورانيّة .

وقيل : هوائيَّةٌ قادرةٌ على التَّشكُّلِ والظُّهورِ بأَشكالٍ مختلفةٍ بإِذنِ اللهِ تعالىٰ .

وقالتِ النَّصارىٰ : إِنَّها الأَنفُسُ النَّاطقةُ المفارقةُ لأَبدانِها ، الصّافيةُ الخيِّرة ، والخبيثةُ عندَهُم شياطين .

وقالَتْ عَبَدةُ الأَوثان : إِنَّها هـٰذهِ الكواكب ، السَّعدُ منها ملائكةُ الرَّحمة ، والنَّحسُ

ملائكةُ العذاب ، والفلاسفة يقولون : إنها جواهر مجردة ، مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقة ، وصرَّحَ بعضهم بأنها العقول العشرة والنفوس الفلكية التي تحرك الأفلاك .

وهي عندنا منقسمةٌ إلىٰ قسمين : قسمٌ شأنُهُم الاستغراقُ في معرفةِ الحقِّ والتَّنزُّهُ عنِ الاشتغالِ بغيرِه ، يُسبِّحونَ الليل والنهار لا يفترون ، وهُم العُلْويُّونَ والملائكة المقرَّبون .

وقسمٌ يُدبِّرُ الأَمرَ مِنَ السَّماءِ إلى الأَرضِ علىٰ ما سبقَ بهِ القضاءُ وجرىٰ بهِ القلم ، لا يعصونَ اللهَ ما أَمرهُم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وهُمُ المدبِّراتُ أَمراً ، فمنهُم سماويَّةٌ ومنهُم أرضيَّة ، ولا يَعلمُ عددَهُم إلاَّ الله ، وفي الخبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِط ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ قَدَمٍ إلاَّ وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ رَاكِع » .

وهُم مختلفونَ في الهيآت ، متفاوتونَ في العِظَم ، لا يَراهُم علىٰ ما هُم عليهِ إلاَّ أَربابُ النُّفوسِ القدسيَّة ، وقد يَظهرونَ بأَبدانٍ يشتركُ في رؤْيتِها الخاصُّ والعام ، وهُم علىٰ ما هُم عليهِ ، حتَّىٰ قيل : إنَّ جبريلَ عليهِ السَّلامُ في وقتِ ظُهورِهِ في صورةِ دحيةَ الكلبيِّ بينَ يدي المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم . لم يفارقْ سدرةَ المنتهىٰ ، ومِثلُهُ يقعُ للكُمَّلِ مِنَ الأَولياء ، وهـٰذا ما وراءَ طورِ العقلِ وأَنا بهِ مِنْ المؤْمنين اهـ

وقد تبيَّنَ مِنْ هـٰذا الحديثِ ونحوهِ مِنَ الآياتِ وجوبُ الإِيمانِ بهِم ، وأَنَّ مُنكِرَهُم كافر ، وقالَ عزَّ وجل : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآية . وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ .

نقلَ الجلالُ السُّيوطي عليهِ الرَّحمة في كتابه « الحبائك » عن « شُعبِ الإِيمان » للبيهقيِّ أَنَّ الإِيمانَ بالملائكةِ ينتظمُ في معان :

أَحدُها : التَّصديقُ بوجودِهم .

والثَّاني : إِنزالُهم منازلَهُم ، وإِثباتُ أَنَّهُم عبادُ اللهِ وخَلْقُهُ كالإِنسِ والجن ،

مأمورونَ مكلَّفون ، لا يقدرونَ إلاّ علىٰ ما أَقدرَهُمُ اللهُ تعالىٰ عليه ، والموتُ عليهِم جائزٌ ، ولـٰكنَّ اللهَ تعالىٰ جَعَلَ لَهُم أَمداً بعيداً ؛ فلا يتوفّاهُم حتَّىٰ يبلغوه ، ولا يُوصفونَ بشيءٍ يُؤَدِّي وصفُهُم بهِ إِلىٰ إِشراكِهم باللهِ تعالىٰ [جدُّه] ، ولا يُدْعونَ آلهةً كما ادَّعتْهُمُ الأَوائِل .

والثّالث : الاعترافُ بأَنَّ منهُم رسل الله ، يُرسلُهُم إِلىٰ مَنْ يشاءُ مِنَ البشر ، وقد يجوزُ أَنْ يرسِلَ بعضَهُم إِلىٰ بعض ، ويتبعُ ذلكَ الاعترافُ بأَنَّ منهُم حملةَ العرش ، ومنهُمُ الصّافُّون ، ومِنهُم خزنةُ الجنَّة ، ومنهُم خزنةُ النّار ، ومنهُم كتبةُ الأَعمال ، ومنهُمُ الَّذينَ يسوقونَ السَّحاب ؛ فقد وردَ القرآنُ بذلكَ كلِّهِ أَو بأَكثرِه ، قال الله تعالى في الإيمان بهم خاصة : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ ، ورَوَيناهُ عنِ ابنِ عمرَ عن عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهما عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم حينَ سُئلَ عنِ الإيمان ، فقال : « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِه » اهـ

وقد نظمَ بعضَ ما يتعلَّقُ بِهِم الإِمامُ أَبو الحسنِ عليُّ بنُ أَبي بكرٍ الهرويُّ في أُرجوزتهِ المسمّاةِ بـ : « الجواهرِ المضيئة » فقال :

الْقَــوْلُ بِــالْمَــلاَئِــكِ الْكِــرَامِ	فَــرِيضَــةٌ لِصِحَّــةِ الإِسْــلاَمِ
وَهُــمْ عِبَــادُ الْخَــالِــقِ الْقَهَّــارِ	قَـدْ خُلِقُـوا مِـنْ خَـالِـصِ الأَنْـوَارِ
حَيَـاتُهُـم بِـالـذِّكْـرِ وَالتَّسْبِيـحِ	وَمَـالَهُـمْ فِـي الـذِّكْـرِ مِـنْ تَبْـرِيـحِ
قَـامُـوا صُفُـوفـاً لِلْعَـزِيـزِ الْمَـاجِـدِ	يَـدْعُـونَـهُ عَلَـىٰ مَقَـامٍ وَاحِـدِ
قَـدْ طُهِّـرُوا عَـنْ شَهْـوَةِ الْعِصْيَـانِ	وَمِـنْ شُـرُورِ النَّفْـسِ وَالشَّيْطَـانِ
وَمَـا لَهُـمْ نَسْـلٌ وَلاَ وِلاَدَهْ	وَلاَ لَهُـمْ شُغْـلٌ سِـوَى الْعِبَـادَه
فَمِنْهُـمُ كُتَّـابُ أَعْمَـالِ الْـوَرَىٰ	وَمِنْهُـمُ حُفَّـاظُ سُكَّـانِ الثَّـرَىٰ
وَمِنْهُـمُ مُـوَكَّـلٌ بِـالـرِّزْقِ	يُـوصِـلُ أَوْ يَـزْوِي بِـأَمْـرِ الْحَـقِّ
فَـوَصْـفُ حَـالِ الْقَـوْمِ بِـالتَّفْصِيـلِ	فِـي صُحُـفِ الآثَـارِ وَالتَّنْـزِيـلِ

وَنَفْيُهُمْ بِالْجَحْدِ وَالإِنْكَارِ كُفْرٌ صَرِيحٌ مُوجِبٌ لِلنَّارِ
وَمَنْ جَرَىٰ لِسَانُهُ بِالطَّعْنِ وَالنَّقْصِ فِيهِم فَهْوَ أَهْلُ اللَّعْنِ

ثمَّ قال :

كَذَا لِجِنْسِ الإِنْسِ فَضْلٌ بَادِي بِالْعِلْمِ وَالتَّكْلِيفِ وَالْجِهَادِ
عَلَىٰ كِرَامِ الْمَلاَ الْعُبَّادِ مِنْ سَاكِنِي السَّبْعِ الْعُلاَ الشِّدَادِ
فَالرُّسُلُ الْكِرَامُ مِنْ نَسْلِ الْبَشَرْ أَفْضَلُ مِنْ رُسْلِ أُولٰئِكَ النَّفَرْ
إِذْ مَوْعِدُ اللِّقَاءِ وَالنَّعِيمِ لِلإِنْسِ دُونَ الْمَلَكِ الْكَرِيمِ

وفي « شرحِ النَّسفيَّة » : رسُلُ البشرِ أَفضلُ مِنْ رسُلِ الملائكة ، ورسُلُ الملائكةِ أَفضلُ مِنْ عامَّةِ البشر ، أَمّا تفضيلُ رسلِ الملائكةِ علىٰ عامَّةِ البشر . . فبالإجماع ، بل بالضَّرورة ، وأَمّا تفضيلُ رسلِ البشرِ علىٰ رسلِ الملائكة ، وعامَّةِ البشرِ علىٰ عامَّةِ الملائكة . . فلوجوه :

مِنها : مسألةُ السُّجودِ لآدم .

ومِنها : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . والملائكةُ مِنْ جملةِ العالَم .

وذهبتِ المعتزلةُ والفلاسفةُ وبعضُ الأَشاعرةِ إِلىٰ تفضيلِ الملائكة ، وتمسَّكوا بوجوه :

مِنها : أَنَّ الأَنبياءَ يتعلَّمونَ مِنهُم ؛ بدليلِ قولهِ تعالىٰ : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ . والمعلِّمُ أَفضلُ مِنَ المتعلِّم .

ومِنها : تقديمُهم في الذِّكرِ كما في هٰذا الحديثِ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ ومفصَّلُ أَجوبةِ الطَّرفينِ في الكتبِ الكلاميَّة .

ولمّا كانَ الإِيمانُ بهِم واجباً . . فلنَذْكُرْ لكُم بعضَ الأَحاديثِ الواردة ، وبيانَ بعضِ فِرَقِهم وما يتعلَّقُ بالإِيمانِ بهِم ؛ لِتزدادوا معرفةً وإِيماناً مستمدّاً مِنَ الكتابِ المذكور ، ضوعفَتْ لمؤلِّفهِ الأُجور :

فقد أَخرجَ مسلم عن عائشة رضيَ اللهُ عنها قالَت : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « خُلِقَتِ الْمَلاَئِكَةُ مِنْ نُور ، وَخُلِقَتِ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَار ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُم » .

وأَخرجَ أَبو الشَّيخ ، عن يزيدَ بنِ رومانَ أَنَّهُ بلغَه : (أَنَّ الملائكةَ خُلقَتْ مِنْ روحِ الله عز وجل) .

وأَخرجَ البزّار ، وأَبو الشَّيخ ، وابنُ مندَه في كتاب « الرّد على الجهميَّة » عنِ ابنِ عمر رضيَ اللهُ عنهُما قال : (خلقَ اللهُ تعالى الملائكةَ مِنْ نور ، وينفخُ في ذلكَ ثمَّ يقول : ليَكُنْ مِنكُم أَلفُ أَلفين ، فإِنَّ مِنَ الملائكةِ خلْقاً أَصغرَ مِنَ الذُّباب ، وليسَ شيءٌ أَكثر مِنَ الملائكة) .

وروىٰ أَحمد عن أَبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِط ، مَا مِنْهَا مَوْضِعُ أَرْبَع أَصَابِعَ إِلاَّ وَعَلَيْهَا مَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَه » وفي رواية : « أَوْ قَائِم » ثُمَّ قرأَ : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ .

وأَخرجَ الدِّينَوري عن عبد الرَّحمـٰنِ بن زيدٍ ، قال : (ليسَ مِنْ خَلْقِ اللهِ شيءٌ أَكثرَ مِنَ الملائكة ، ليسَ مِنْ بني آدمَ إِلاَّ ومعَهُ ملكان : سائقٌ يسوقُهُ وشاهدٌ يشهدُ عليه ، فهـٰذا ضِعفُ بني آدم ، ثمَّ بعدَ ذلكَ السَّمـٰواتُ مكبوسات ، ومِنْ فوقِ السَّمـٰواتِ بعدَ الَّذينَ حَوْلَ العرش) .

وأَخرجَ أَبو الشَّيخ : (إِنَّ في الجنَّةِ لَنهْراً ، ما يدخله جبريل عليه السلام مَنْ دخلَهُ فيخرجُ فينتفضُ إِلاَّ خلقَ اللهُ مِنْ كلِّ قطرةٍ تقطرُ منهُ مَلكاً) .

وأَخرجَ أَيضاً : (لجبريلَ في كلِّ يومٍ اغتماسةٌ في الكوثرِ ثمَّ ينتفض ، فكلُّ قطرةٍ يُخلَقُ مِنها مَلك) .

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمر : الملائكةُ عشرةُ أَجزاء : تسعةُ أَجزاءِ الكروبيُّون ؛ وهُمُ الَّذينَ يَحملونَ العرش ، وجزءٌ وكِّلوا بخزانةِ كلِّ شيء ، وإِنَّ البيتَ المعمورَ بحيالِ الكعبةِ لَو سقط . . لسقطَ عليها ، يُصلِّي فيهِ كلَّ يومٍ سبعونَ أَلفَ مَلَكٍ ثمَّ لا يعودُونَ إِليه .

وفي الملائكةِ رؤساءُ أَربعة : فعنِ ابنِ سابط ؛ قال : تُدبِّرُ أَمرَ الدُّنيا أَربعة : جبريل ، وميكائيل ، ومَلكُ الموت ، وإِسرافيل .

فأَمّا جبريل : فموكلٌ بالرِّياحِ والجنود .

وأَمّا ميكائيل : فموكلٌ بالقطرِ والنَّبات .

وأَمّا مَلكُ الموت : فموكلٌ بقبض الأَرواح .

وأَمّا إِسرافيل : فهوَ ينزلُ بالأَمرِ عليهم .

وأَخرجَ البيهقيُّ عنِ المطَّلب : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « قُلْتُ لِجِبْرِيل : مَا لِي لاَ أَرَىٰ إِسْرَافِيلَ يَضْحَك ، وَلَمْ يَأْتِنِي أَحَدٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِلاَّ رَأَيْتُهُ يَضْحَك ؟ قالَ جِبْرِيل : مَا رَأَيْنَا ذَلِكَ الْمَلَكَ ضَاحِكاً مُنْذُ خُلِقَتِ النَّار » .

وفي رواية : « إِذَا سَبَّحَ إِسْرَافِيل . . قَطَعَ عَلَىٰ كُلِّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ صَلاَتَهُ اسْتِمَاعاً لَه ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ أَحْسَنَ صَوْتاً مِنْه ، وَهُوَ صَاحِبُ الصُّور » .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال : لمّا اتَّخذَ اللهُ إِبراهيمَ خليلاً . . سَأَلَ ملكُ الموتِ ربَّهُ أَنْ يأْذَنَ لَهُ فيبشِّرَهُ بذلك ، فأَذنَ له ، فجاءَ إِبراهيمَ فبشَّرَه ، فقال : الحمدُ لله ، ثمَّ قال : يا مَلكَ الموت ؛ أَرني كيفَ تقبضُ أَنفاسَ الكفّار . قال : يا إِبراهيم ؛ لا تُطيقُ ذلك ، قال : بلىٰ . قال : أَعرِضْ ، فأَعرَض ، ثمَّ نظرَ وإِذا برَجُلٍ أَسودَ ينالُ رأْسُهُ السَّماء ، يَخرجُ مِنْ فِيهِ لهبُ النّار ، ليسَ مِنْ شعرةٍ في جسدهِ إِلاَّ في صورةِ رَجلٍ يَخرجُ مِنْ فِيهِ ومسامعهِ لهبُ النَّار ، فغشيَ علىٰ إِبراهيم ، ثمَّ أَفاقَ وقد تحوّلَ مَلكُ الموتِ إِلى الصُّورةِ الأُولىٰ ، فقال : يا ملكَ الموت ؛ لَو لَم يَلقَ الكافرُ مِنَ البلاءِ والحَزَنِ إِلاَّ صورتَك . . لكفاه ، فأَرني كيفَ تقبضُ أَنفاسَ المؤمنين . قال : أَعرِض ، فأَعرَض ، ثمَّ التفتَ فإِذا برجلٍ شابٍّ أَحسن النَّاسِ وجهاً ، وأَطيب ريحاً في ثيابٍ بِيض ، فقال : يا ملكَ الموت ؛ لَو لَم يَرَ المؤمنُ عندَ موتهِ مِنْ قُرَّةِ العَينِ والكرامةِ إِلاَّ صورتَك . . لكانَ يكفيه .

وأَخرجَ ابنُ أَبي الدُّنيا ؛ قالَ : سأَلَ إِبراهيمُ عزرائيل ـ عليهِما السَّلام ـ إِذا كانت

نَفْسٌ بالمشرقِ ونَفْسٌ بالمغربِ ووقعَ الوباءُ بأَرضٍ واتَّفقَ الزَّمان . . كيفَ تصنعُ ؟ قال : أَدعو الأَرواحَ بإذنِ اللهِ تعالىٰ فتكونُ بينَ أُصبعيَّ هاتَين . قال : ودُحيَتْ لَهُ الأَرضُ فتُركَتْ مِثلَ الطَّشتِ يتناولُ مِنها حيثُ شاء .

وفي رواية : وجُعلَ لَهُ أَعوانٌ يتوفّونَ الأَنفُس ، ثمَّ يقبضُها منهُم .

وفي روايةٍ أُخرىٰ : وكلُّ خطوةٍ منهُ مِنَ المشرقِ إلى المغرب .

وأَخرجَ أَبو الشَّيخ : (إنَّ للهِ مَلَكاً في السّماءِ يقالُ لَه : الدِّيك ، فإذا سبَّحَ في السَّماء . . سبَّحتِ الدّيوكُ في الأَرض ، يقول : سبحانَ السّبّوحِ القدُّوس ، الرَّحمـٰنِ الملكِ الدَّيان ، الَّذي لا إلَـٰهَ إلاَّ هو ، فما قالها مكروبٌ أَو مريضٌ عندَ ذلك . . إلاَّ كشفَ اللهُ همَّه) .

وفي رواية : فيرونَ أَنَّ الدِّيَكَةَ إنَّما تضربُ بأَجنحتِها وتصرخُ إذا سمعَتْ ذلك .

وأَخرجَ التِّرمذي والبيهقيُّ عن أَبي هريرة رضيَ اللهُ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إذَا قُبِرَ الْمَيت . . أَتاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَان ، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا : مُنْكَر ، وَالآخَر : نَكِير ، فَيَقُولاَن : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَـٰذَا الرَّجُلِ ؟ فيَقُول : مَا كانَ يَقُولُ : هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه أَشْهَدُ أَن لا إلَـٰهَ إلا الله وأَنَّ مُحَمّداً عَبْدُهُ وَرسُولُه ، فيَقُولاَن : قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَـٰذَا ، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعاً فِي سَبْعِين ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيه ، فيُقَالُ لَه : نَم ، فيَقُول : أَرْجِعُ إلَىٰ أَهْلِي فَأُخْبِرُهُم ؟ فيَقُولاَنِ : نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لا يُوقِظُهُ إلاَّ أَحَبُّ أَهْلِه ، حَتَّىٰ يَبْعَثَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مَضْجَعِه ذلك . فَإنْ كَانَ مُنَافِقاً . قَال : سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثلَهُ ، لاَ أَدْرِي ، فيَقُولاَنِ : قَدْ كنّا عَلِمْنَا أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِك ، فيُقَالُ لِلأَرْض : الْتَئِمِي عَلَيْه ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ فَتَخْتَلِفُ فيها أَضْلاَعُه ، فَلاَ يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّباً حَتَّىٰ يَبْعَثَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِك » .

وأَخرجَ ابنُ أَبي الدُّنيا عن جابرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنهما ، قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « إنَّ ابْنَ آدَمَ لَفِي غَفْلَةٍ عَمَّا خُلِقَ لَه ، إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إذَا أَرَادَ خَلْقَهُ قَالَ لِمَلَك : اكْتُبْ رِزْقَه ، اكْتُبْ أَجَلَهُ اكتب شَقِيّاً أَمْ سَعِيداً ، ثُمَّ

يَرْتَفِعُ ذَلِكَ الْمَلَك ، ثُمَّ يُوَكِّلُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ مَلَكَيْنِ يَكْتُبَانِ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِه ، فَإِذَا حَضَرَهُ الْمَوْت . . ارْتَفَعَ ذانك الْمَلَكَانِ وَجَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوحَه ، فَإِذَا أُدْخِلَ قَبْرَهُ وَرُدَّ الرُّوحُ فِي جَسَدِه ـ وفي رواية : إِنَّهُ يَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِكُم ـ أَتَاهُ مُنْكَرٌ وَنَكِير ، أَعْيُنُهُمَا مِثْلُ قُدُورِ النُّحَاس ، وَأَنْيَابُهُمَا مِثْلُ صَيَاصِي الْبَقَر ، وَأَصْوَاتُهُمَا مِثْلُ الرَّعْد ، فَامْتَحَنَاه ـ أَي : سَأَلاَه ـ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ وَمَنْ كَانَ نَبِيُّه ، ثُمَّ يَرْتَفِعَان ، فَإِذَا قَامَتِ السَّاعَة . . انْحَطَّ عَلَيْهِ مَلَكُ الْحَسَنَاتِ وَمَلَكُ السَّيِّئَات ، فَانْتَشَطَا كِتَاباً مَعْقُوداً فِي عُنُقِه ، ثُمَّ حَضَرَا مَعَه ، وَاحِدٌ سَائِقٌ وآخَرُ شَهِيد » ثُمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ قُدَّامَكُمْ لأَمْراً عَظِيماً مَا تَقْدُرُونَه ، فَاسْتَعِينُوا باللهِ الْعَظِيم » .

وأَخرجَ ابنُ أَبي الدُّنيا عنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما ، قال : (كاتبُ الحَسناتِ عن يمينهِ يكتُبُ حسناته ، وكاتبُ السّيِّئاتِ عن يساره ، فإذا عملَ حسنة . . كتبَ صاحبُ اليَمينِ عشْراً ، وإذا عملَ سيِّئة . . قالَ صاحبُ اليمينِ لِصاحبِ الشِّمال : دَعْهُ حتَّىٰ يُسبِّحَ أَو يستغفر) . وفي رواية : (فيمسكُ ستَّ ساعات ، فإذا كانَ يومُ الخميس . كتبَ ما يجري بهِ الخيرُ والشَّر ، ويُلقي ما سوىٰ ذلكَ) ؛ أَي : لأَنَّهُ كانَ يكتبُ كلَّ ما يتكلَّمُ به ، حتَّىٰ إِنَّهُ يكتب : أَكلتُ وشربتُ ونحوه ، ثمَّ يُلقي ما ليسَ فيهِ خيرٌ ولا شرٌّ ، ويُثبتُ ما كانَ منهُ شرّاً أَو خيراً ، وعلىٰ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ وقولُهُ سبحانَه : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ .

وأَخرجَ الدِّينَوريُّ عن أَبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْمَلاَئِكَة : إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَة . . فَاكْتُبُوهَا وَاحِدَة ، فَإِنْ عَمِلَهَا . . فَاكْتُبُوهَا عَشْرا ، وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَة . . فَلاَ تَكْتُبُوهَا ، فَإِنْ عَمِلَهَا . . فَاكْتُبُوهَا وَاحِدَة » فقالَ رجل : يا أَبا محمَّد ؛ الملكانِ يعلمانِ الغيب ؟ قال : لا يعلمانِ الغيب ، ولـٰكنْ إذا همَّ العبدُ بحسنة . . فاحَ منهُ رائحةُ المسكِ فيعلمانِ أَنَّهُ قد هَمَّ بالحسنةِ وإذا همَّ بالسّيِّئة . . فاحَ منهُ رائحةُ النَّتنِ فيعلمانِ أَنَّهُ قد همَّ بالسَّيِّئة .

وأَخرجَ أَيضاً عنِ ابنِ المبارَك ، قال : بلغني أَنَّ ما مِنْ أَحدٍ مِنْ بَني آدمَ إلاَّ ومعَهُ خمسةٌ مِنَ الملائكة : واحدٌ عن يمينه ، وواحدٌ عن شماله ، وواحدٌ خَلْفَه ، وواحدٌ

أَمامَه ، وواحدٌ فوقَهُ يدفعُ عنهُ ما ينزلُ مِنْ فوق أَو مِنَ الهواء .

وأَخرجَ عبدُ الرّزاق ، عنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما في قولهِ تعالىٰ : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ ﴾ قال : ملائكةٌ يَحفظونَهُ مِنْ بينِ يديهِ ومِنْ خلفه ، فإذا جاءَ قَدرُه . . خَلّوا عنه .

وأَخرجَ ابنُ جرير ، عن إِبراهيم ﴿ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ قال : مِنَ الجن .

وفي روايةٍ عن السّدي : يحفظونَهُ مِنْ بينِ يديهِ ومِنْ خلفه ، ولا يُصيبُهُ شيءٌ لَم يُكتَبْ عليه ، إِذا غشيَ مِنْ ذلكَ شيئاً . . دفعاهُ عنه ، أَلَمْ تَرَهُ يَمُرُّ بالحائطِ فإِذا جاز . . سقط ؟ فإِذا جاءَ الكتاب . خَلَّوا بينَهُ وبينَ ما كُتِبَ لَه ، وهُم مِنْ أَمرِ اللهِ أَمرهُم أَنْ يَحفظوه .

وروى البيهقي : « إِنَّ للهِ عزَّ وجلَّ ملائكةً في الأَرضِ سوى الحفظةِ يكتبونَ ما يسقطُ مِنْ ورقِ الأَشجار ، فإِذا أَصابَ أَحدَكم شيءٌ بأَن أَفلتتْ دابَّتُهُ أَوْ احتاجَ إِلىٰ عون . . فليَقُل : يا عبادَ اللهِ ؛ أَعينونا رحمَكُمْ اللهُ تعالىٰ ، فإِنَّهُ يعانُ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ » .

وروىٰ عبدُ اللهِ ابنُ الإِمامِ أَحمدَ ابنِ حنبل ، قال : سمعتُ أَبي يقول : حججتُ خمسَ حجج ، منها اثنتانِ راكباً وثلاثٌ ماشياً ، فضللتُ الطَّريقَ في حجّةٍ وكنتُ ماشياً ، فجعلتُ أَقول : يا عبادَ الله ؛ دلّوني على الطَّريق ، فلَم أَزلْ أَقولُ ذلكَ حتَّىٰ وقفتُ على الطَّريق .

وأَخرجَ أَبو نعيمٍ في « الحلية » عن محمَّدِ بنِ كعبٍ القرظي ؛ قال : قرأتُ في التَّوراة ـ أَو قال : في صُحُفِ إِبراهيمَ الخليل عليهِ السّلام ـ فوجدتُ فيها : يقولُ اللهُ عزَّ وجل : « يَا ابْنَ آدَمَ ؛ مَا أَنْصَفْتَنِي ، خَلَقْتُكَ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ، وَجَعَلْتُكَ بَشَراً سَوِيّاً ، خَلَقْتُكَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ، فَجعَلْتُكَ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِين ، ثُمَّ خَلَقْتُ النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْتُ الْعَلَقَةَ مُضْغَة ، فَخَلَقْتُ المضْغَةَ عِظَاماً ، فَكَسَوْتُ الْعِظَامَ لَحْماً ، ثُمَّ أَنْشَأْتُكَ خَلْقاً آخر .

يَا ابْنَ آدَمَ ؛ هَلْ يَقْدِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ غَيْرِي ؟!

ثُمَّ خَفَّفْتُ ثِقَلَكَ عَنْ أُمِّكَ حَتَّى لاَ تتبرَّمَ بِكَ وتَتَأَذَّىٰ ، ثُمَّ أَوْحَيْتُ إِلَى الأَمْعَاءِ أَنِ اتَّسِعِي ، وَإِلَى الْجَوَارِحِ أَنْ تَفرَّقِي ، فَاتَّسَعَتِ الأَمْعَاءُ مِنْ بَعْدِ ضِيقِهَا ، وَتفرَّقَتِ الْجَوَارِحُ مِنْ بَعْدِ تَشَبُّكِهَا ، ثُمَّ أَوحَيْتُ إِلَى الْمَلَكِ الْمُوَكَّلِ بِالأَرْحَام أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ بَطْنِ أُمِّك ، فَاسْتَخْلَصَكَ عَلَىٰ رِيشَةٍ مِنْ جَنَاحِهِ فَاطَّلَعْتُ عَلَيْك ، فَإِذَا أَنْتَ خَلْقٌ ضَعِيف ، لَيْسَ لَكَ سِنٌّ يَقْطَع ، وَلاَ ضِرْسٌ يَطْحَن ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ فِي صَدْرِ أُمِّكَ عِرْقاً يَدُرُّ لَبَناً بَارِداً فِي الصَّيْفِ حَارّاً فِي الشِّتَاء ، وَاسْتَخْلَصْتُهُ لَكَ مِنْ بَيْنِ جِلْدٍ وَلَحْمٍ وَدَمٍ وَعُرُوق ، ثُمَّ قَذَفْتُ لَكَ فِي قَلْبِ وَالِدِكَ الرَّحْمَةَ وَفِي قَلْبِ أُمِّكَ التَّحَنُّن ، فَهُمَا يَكِدَّانِ وَيَجْهَدَانِ وَيُرَبِّيَانِكَ وَيُغَذِّيَانِك ، وَلاَ يَنَامَانِ حَتَّىٰ يُنَوِّمَاك .

يَا ابْنَ آدَمَ ؛ أَنَا فَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ لاَ لِشَيْءٍ اسْتَأْهَلْتَ بِهِ مِنِّي ، وَلاَ لِحَاجَةٍ اسْتَعَنْتُ بِكَ عَلَىٰ قَضَائِهَا .

يَا ابْنَ آدَم ؛ فَلَمَّا قَطَعَ سِنُّكَ وَطَحَنَ ضِرْسُك . . أَطْعَمْتُكَ فَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي أَوَانِهَا ، وَفَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي أَوَانِهَا ، فَلَمَّا أَنْ عَرَفْتَ أَنِّي رَبُّك . . عَصَيْتَنِي ! ! فَادْعُنِي ؛ فَإِنِّي قَرِيبٌ مُجِيب ، وَاسْتَغْفِرْنِي فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيم » .

وأَخرجَ أَبو الشَّيخِ بسندٍ جيِّدٍ عنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال : وكِّلَ بالجنينِ مَلك ، إذا نامتِ الأُمُّ واضطجعَت . . رفعَ رأْسَه ، لولا ذلك ؛ لَغرِقَ في الدَّم[1] .

فائدة : ذكرَ الفقهاءُ لأَجْلِ تسهيلِ الولادةِ كتابةَ بعضِ الآيات ، فمِنها : بسمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيم : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ أَهيا شَراهيا . اهـ

ورأَيتُ في بعضِ الكتبِ أَنَّ معناهُما : يا حيُّ يا قيُّوم .

قالوا : وتُكتبُ هـٰذهِ علىٰ ورقةِ قرطاسٍ وتُشدُّ بفخذِ المرأَةِ اليسرىٰ[2] ، فَيعجلُ الوضعُ بإِذنهِ تعالىٰ وترىٰ بعدَ العسرِ يسراً .

---

(١) المراد من النص أن الجنين محفوظ في نومه في بطن أمه ، ولولا الملك الموكل بذلك . . لهلك سواء ظهر لنا وجه الحفظ والهلاك أم خفي عنا .

(٢) وفي شدّها على فخذها نظرٌ ؛ لما فيه من كلام الله تعالى المعظم .

هٰذا ، ولنَرجعْ إلىٰ ما نحنُ بصددهِ مِنْ بيانِ وظائفِ بعضِ الملائكةِ وأَصنافِهم :

فقد أَخرجَ الأزرقيُّ في « تاريخِ مكَّة » : عنِ ابنِ عبّاس رضيَ اللهُ عنهُما أَنَّهُ سُئِلِ هَٰذهِ الجمارُ تُرمىٰ في الجاهليّةِ والإِسلام ، كيفَ لا تكونُ هضاباً تسدُّ الطَّريقَ ؟ فقال : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وكَّلَ بها مَلَكا ، فما تُقبِّلَ منه . . رُفِع ، وما لَمْ يُتقبَّلْ منه . . تُرِك) .

وأَخرجَ الحاكمُ في « تاريخه » ، والشِّيرازيُّ في « الأَلقاب » عن أَنس رضي الله عنه ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَلَكٌ مُوكَّلٌ بِالْقُرْآن ، فَمَنْ قَرَأَهُ مِنْ أَعْجَمِيٍّ أَوْ عَرَبِيٍّ فَلَمْ يُقَوِّمْه . . قَوَّمَهُ الْمَلَكُ ثُمَّ رَفَعَهُ قواماً » .

وأَخرجَ الخطيبُ عن أَبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي . . سَمِعْتُه ، وَمَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ نَائِياً . . وَكَّلَ اللهُ بِهَا مَلَكاً يُبَلِّغُنِي » .

وأَخرجَ الطبرانيُّ والبغويُّ عن أَبي طلحة قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَتَانِي جِبْرِيلُ بِبِشَارَةٍ مِنْ رَبِّي ، قَال : إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكَ أُبَشِّرُكَ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ يُصَلِّي عَلَيْكَ صَلاَة . . إِلاَّ صَلَّى اللهُ وَمَلاَئِكَتُهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً » .

وأَخرجَ ابنُ عساكر عن جابر قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ للهِ مَلاَئِكَةً وَهُمُ الْكَرُوبِيُّون[1] ، مِنْ شَحْمَةِ أُذنِ أَحَدِهِم إِلىٰ تَرْقُوَتِهِ[2] مَسِيرَةُ سَبْعِ مِئَةِ عَامٍ لِلطَّائِرِ السَّرِيعِ في انحطاطهِ » .

وأَخرجَ البيهقيُّ في « شُعبِ الإِيمان » عن عليِّ بنِ أَبي طالب كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَه ؛ قال : (إنَّ في السَّماءِ الرَّابعةِ حظيرة ، يقالُ لَها : حظيرةُ القُدُس ، فيها ملائكةٌ يقالُ لَهُم : الرُّوحانيّون ، فإذا كانَ ليلةُ القدر . استأْذنوا ربَّهُم في النُّزولِ إلى الدُّنيا ، فيأْذنُ لَهُم ، فلا يَمرُّونَ علىٰ مسجدٍ يُصلَّىٰ فيهِ ولا يَستقبلونَ أَحداً في طريق . . إلاَّ دعوا لَه ، فأَصابَهُ منهُم بركة) .

---

(١) **الكروبيون** : سادة الملائكة وهم المقربون ؛ منهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل .
(٢) **الترقوة** : ـ ولا تضم تاؤه ـ العظم بين ثغرة النحر والعاتق ، وجمعه التراقي والترائق اهـ منه .

وأَخرجَ أَحمدُ ، والبخاري ومسلم ، عن أَبي هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَة . . فَاسْأَلُوا الله مِنْ فَضْلِهِ ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكاً ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ . . فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَاناً » .

وليُعلَمْ أَنَّ طوائفَ المكلَّفينَ أَربعة : اَلملائكة ، وهُم أَكثرُ جميعِ المخلوقاتِ عدداً ، والإِنسُ والجنُّ والشَّياطين ، والاختلافُ بينَ الجنِّ والشَّياطينِ قيل : بالذّاتيّاتِ كما بينَ الإِنسانِ والفرَس . وقيل : بالعوارض ، فالجنُّ خيارُهُم ، والشَّياطينُ شرارُهُم .

وبعضُ الفِرَقِ أَنكرتْهُم ، وإِنكارُهُم كفر ؛ قالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ وقالَ عليهِ السّلام : « الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنِ ابْنِ ادَمَ مَجْرَى الدَّم » ، « مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ وَلَهُ شَيْطَان » قَالُوا : وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَال : « وَلاَ أَنَا ، إِلاَّ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَم » .

ويُروىٰ : أَنَّ عيسىٰ عليهِ السّلامُ دعا ربَّهُ أَنْ يُريَهُ موضعَ الشَّيطانِ مِنْ بني آدمَ وكيفيَّةَ وسوسته ، فأَراهُ ذلك ، فإِذا رأْسُهُ مِثلُ رأْسِ الحيَّة ، واضعٌ رأْسَهُ علىٰ قلبه ، فإِذا ذكرَ اللهَ تعالىٰ . . خنسَ وأَيس ، وإِذا لَم يذكرهُ ولَم يَستعِذ . . وضعَ رأْسَهُ علىٰ حبَّةِ قلبه .

وقالَ الوالد عليهِ الرَّحمة في « رُوحِ المعانِي » عندَ تفسيرِ قولهِ تعالىٰ : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ ما ملخَّصُه : الجنُّ واحدهُ جني ، كروم ورومي ، وهُم أَجسامٌ عاقلةٌ تغلبُ عليها النّاريّة ، كما يشهدُ لَهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ وقيل : الهوائيَّةُ .

قابلةٌ جميعُها أَو صنفٌ منها للتَّشكُّلِ بالأَشكالِ المختلفة ، مِنْ شأْنِها الخفاء ، وقد تُرىٰ بصورِ غيرِ صورِها الأَصليَّة ، بل وبصورِها الأَصليَّةِ الَّتي خُلقَتْ عليها ؛ كالملائكةِ عليهمُ السَّلام ، وهٰذا للأَنبياءِ صلواتُ اللهِ تعالىٰ وسلامُهُ عليهِم ، ومَنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ

مِنْ خواصِّ عبادهِ عزَّ وجل ، ولَها قوَّةٌ على الأَعمالِ الشّاقَّة . . . .

وأَكثرُ الفلاسفةِ علىٰ إنكارِ الجن ، وهوَ الَّذي يلوحُ مِنْ كلامِ ابنِ سينا في « رسالة الحدود » ، وذلكَ كفرٌ صريح .

واعترفَ جمعٌ عظيمٌ مِنْ قدماءِ الفلاسفةِ وأَصحابِ الرُّوحانيّاتِ بوجودِهم ، ويُسمُّونَهُم بالأَرواحِ السُّفليّة .

والآيةُ ظاهرةٌ في أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم عَلِمَ استماعَهُم لَهُ بالوحي لا بالمشاهدة ، وقد وقعَ في الأَحاديثِ أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ رآهُم ، وَجُمِعَ ذلكَ بتعدُّدِ القصَّة ؛ لأَنَّ ابنَ عبّاسٍ يقول : ما رآهُم . وقد روىٰ أَبو داوود عن علقمة ، عنِ ابنِ مسعود رضي الله عنه ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « أَتَانِي دَاعِي الْجِن ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ وَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآن » قال : وَانْطَلَقَ بِنَا وأَرانا آثارَهُم وآثارَ نيرانِهم .

وفي روايةٍ أُخرىٰ عنِ ابنِ مسعود : (أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم صلَّى العشاءَ فأَخذَ بيدي حتَّىٰ أَتينا مكانَ كذا ، فأَجلسني وخطَّ عليَّ خطّا ، ثمَّ قال : « لاَ تَبْرَحَنَّ خَطَّك » فبينما أَنا جالسٌ إذ أَتاني رجالٌ منهُم كأَنَّهُمُ الزّط)[1] ، فذكرَ حديثاً طويلاً ، وأَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ما جاءَهُ إِلى السَّحَر ، قال : وجعلتُ أَسمعُ الأَصوات ، ثمَّ جاءَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام ، فقلت : أَينَ كنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ فقال : « أُرسلتُ إِلى الجن » فقلتُ : ما هـٰذهِ الأَصواتُ الَّتي سمعت ؟ قال : « هِيَ أَصْوَاتُهُمْ حِينَ وَدَّعُونِي وَسَلَّمُوا عَلَي » .

واختلفَ العلماءُ فيما استمعوه ، فقالَ عكرمة : (اقرأ باسم ربك)[2] . وقيل : سورةُ الرَّحمـٰن .

وتمامُ الكلامِ في بحثِ الجانِّ يُطلَبُ مِنْ كتاب « آكامِ المرجان » .

فيا مَنْ بينَ يديهِ الموتُ والحساب ، والتَّوبيخُ الشَّديدُ والعتاب ، وعليهِ بأَقوالهِ

---

(١) قال الفيروزابادي عليه الرحمة : الزط ـ بالضم ـ : جيل من الهند معرب جت بالفتح اهـ منه .

(٢) يعني : سورة العلق .

وأفعالِهِ مِنَ الملائكةِ كتّاب ، وقدأَذنبَ كثيراً غيرَ أَنَّهُ ما تاب ، وكلَّما عُوتب . . خرجَ مِنْ بابٍ إِلىٰ باب ؛ أَلستَ الَّذي دُمتَ علىٰ الخطأ وعصيت ؟! وبارزتَ بالقبيحِ وما استحييت ؟! وعلمتَ تحريمَ الذَّنبِ ثمَّ أَتيت ؟! وعرفتَ عظيمَ الجزاءِ وتناسيت ؟! سَتُكَفُّ الخمسُ[1] بعدَ الحركةِ واللَّمس ، وسيذهبُ اليومُ كما ذهبَ أَمس ، وسيبدّلُ النُّطقُ بالسُّكوتِ والهمس ، وستعدمُ نورَ القمرِ وضوءَ الشَّمس ، وسيُقلَعُ البستانُ وييبسُ الغرس ، وقد قَرُبَ وقتُ الغمسِ في بحرِ الرّمس ، وسينسىٰ ذو العلمِ الدَّرسَ بالدَّرس .

نُشيدُ قُصُوراً لِلْخُلُودِ سَفَاهَةً ... وَنُبْصِرُ مَا شِئْنَا قُبُوراً دَوَارِسَا
لَقَدْ صَرمَتْ كِسْرَى الْمُلُوكُ وَتُبَّعاً ... وَقَيْصَرُ آمَالاً فَلَمْ تَرَ قَابِسَا
وَقَدْ نَصَحَ الدُّنْيَا لَنَا الْمَوْتُ وَاعِظاً ... وَهَيْهَاتَ مَا نَزْدَادُ إِلاَّ تَقَاعُسَا

فيا نائماً إِلىٰ كم ذا الهجوع ؟! إِلىٰ متىٰ بالهوىٰ هٰذا الولوع ؟! أَتنفعكَ وقتَ الموتِ الدُّموع ؟! تقول : فرِّقوا المال ، فالعجبَ يجودُ المَنُوع !!

هٰذا ، وملكُ الموتِ يَسلُّها مِنْ بينِ الضلوع ، وخَلَتْ مِنكَ المساكنُ وفرغتِ الرُّبوع ، وتمنَّيتَ أَنْ لَو زِدتَ مِنْ سجودٍ وركوع .

فيا إِخوتي ؛ الدُّنيا في إِدبارٍ وأَهلُها مِنها في استكثار ، فهٰذا حادي الممات قد أَسرع ، هٰذهِ قصورُ الإِخوانْ بَلْقَع[2] ، ما لصاحبِ المالِ إِذا المالُ يُوزَّع ؟ ما نفعَهُ حِرصُهُ فسُلبَ ما جَمَعَ أَجمَع ، أَينَ كِسرىٰ ، أَينَ قيصر ، أَينَ تُبَّع ؟ أَينَ حاتمُ الجود ، أَينَ مَنْ كانَ يَمنع ؟ أَينَ قسٌّ وسحبان ، أَينَ ابنُ المقفَّع ؟ إِنَّها لتمحو العين ، ثمَّ للأَثرِ تقلع .

فعليكُم عبادَ اللهِ بالتَّقوىٰ فهٰذهِ أَوقاتٌ معظَّمة ، وساعاتٌ مكرَّمة ، وقد صيَّرتُم ضُحاها بالذُّنوبِ عتمة ، فبيِّضوا بالتَّوبةِ صُحُفكُمُ المظلمة ، فالملَكُ يكتبُ خطاياكُم

---

(١) أي : أصابع اليد ستكف وتمنع من الحركة .
(٢) بلقع : خالية .

ونَفَسَكُم ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ ، قد ضيَّعتُم مُعظمَ السَّنَة ، فدعوا مِنَ الآن هـٰذهِ السَّنَة ، واسمعوا المواعظَ فقد نَطقَتْ بأَلسنة ، ودعوا الخطأَ فيكفي ما قد ركسَكُم ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ .

اللّهُمَّ ؛ إنَّا نسأَلُكَ موجباتِ رحمتِك ، وعزائمَ مغفرتِك ، والسّلامةَ مِنْ كلِّ إثم ، والغنيمةَ مِنْ كلِّ بر ، والفوزَ بالجنَّة ، والنَّجاةَ مِنَ النّار .

اللّهُمَّ ؛ لا تَدَعْ لَنا ذنباً إلاَّ غفرتَه ، ولا ميْتاً إلا رحمتَه ، ولا مريضاً إلاَّ شفيتَه ، ولا فاسقاً إلا أَصلحتَه ، ولا صالحاً إلا قَبلتَه ، ولا غائباً إلاَّ بالخير رددتَه ، ولا محتاجاً إلاَّ مِنَ الحَلالِ رزقتَه ، ولا كرباً إلاَّ فرَّجتَه ، ولا عُسراً إلاَّ يسرتَه ، ولا حاسداً إلاَّ خيَّبتَه ، ولا عدوّاً إلاَّ خذلتَهُ وبعَّدتَه ، ولا حقّاً إلاَّ استخلصتَه ، ولا عَملاً إلاَّ تقبَّلتَه ، ولا حاجةً مِنْ حوائجِ الدُّنيا والآخرةِ لكَ فيها رضاً ولنا فيها صلاح . . إلاَّ يسَّرتَها برحمتكَ يا أَرحمَ الرَّاحمين .

* * *

المجلس الثالث عشر
في الإيمان بالكتبِ المنزلة من حديث جبريل عليه السلام أيضاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الدّاعي إِلىٰ بابِه ، الهادي لأَحبابه ، المنعمِ بإِنزالِ كتابِه ، يشتملُ علىٰ مُحكَمٍ ومتشابِه ، وليسَ لِلمتكلِّم بهِ مشابِه ، شُغلَ بهِ محبُّهُ عن مِزْمارِهِ ورَبابِه[1] ، فكلَّما تلاه . . زادَ الحبُّ وربا بِه ، وكساهُ العرفانُ أثوابَ ثوابِه ، فأَلهاهُ عنِ الكونِ لذةُ شرابِه ، وسرىٰ بهِ عن سرابِه ، فهوَ دونَ النّاسِ أَولىٰ بِه .

أَحمدُهُ على الهدىٰ وتسهيلِ أَسبابِه ، وأُقرُّ بوحدانيَّتِهِ إِقرارَ مُؤْمنٍ يأْمنُ مِن عقابِه ، وأَنَّ سيِّدَنا محمّداً عبدُهُ ورسولُهُ الَّذي قدَّمَهُ علىٰ أضرابِه ، ورآهُ عِياناً ليلةَ أَسرىٰ بِه ، صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ الصّدِّيقِ المقدَّم علىٰ أَصحابِه ، وعلىٰ عمرَ الَّذي عزَّ بهِ الدِّينُ واستقامتِ الدُّنيا بِه ، وعلىٰ عثمانَ شهيدِ دارِهِ وقتيلِ مِحْرابِه ، وعلى ابنِ عمِّهِ عليٍّ حلاَّلِ كلِّ مُشكِلٍ وكاشفِ نقابِه ، وعلىٰ آلهِ وجميعِ أَصحابهِ ومَنْ هوَ أَولىٰ بِه .

أَمّا بعد : فنروي بسندِنا إِلى الإِمامِ مسلم بنِ الحجّاجِ عليهِ الرحمة ، فإِنَّهُ قالَ في « جامعهِ الصَّحيح » الحريِّ بالتَّرجيح : عن عبدِ اللهِ بنِ عمر رضيَ اللهُ عنهُما قال : حدَّثني أَبي عمرُ بنُ الخطّاب ، قال : بينما نحنُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إِذْ طلعَ علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثِّياب ، شديدُ سوادِ الشَّعر ، لا يُرىٰ عليهِ أَثرُ السَّفرِ ولا يَعرفُهُ مِنّا أَحد ، حتَّىٰ جلسَ إِلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فأَسندَ رُكبتيهِ إِلىٰ رُكبتيه ، ووضعَ كفَّيهِ علىٰ فخذيه ، وقال : يا محمَّد ؛ أَخبرني عنِ الإِسلام ، فقالَ رسولُ اللهِ

---

(١) الرَّباب : آلة لهو يضرب بها .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الإِسْلاَم : أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ، وَتُقِيمَ الصَّلاَة ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاة ، وَتَصُومَ رَمَضَان ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبيلاً » قال : صدقت ، فأَخبرني عنِ الإِيمان ، قال : « أَنْ تُؤْمِنَ بِالله ، وَمَلاَئِكَتِه ، وَكُتُبه ، وَرُسُلِه ، وَالْيَوْمِ الآخِر ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّه » قال : صدقت. . . إلخ .

فنقول ـ وباللهِ التَّوفيق ، ومنهُ الهدايةُ إلىٰ أَقومِ طريق ـ : قد تقدَّمَ الكلامُ في الدُّروسِ الماضيةِ علىٰ مبدأ هـٰذا الحديث ، وبقيَ الكلامُ علىٰ قولهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلام : « وَكُتُبه. . . » إلخ .

قالَ العلماء رحمَهُمُ اللهُ تعالىٰ : أَي : تُصدِّق بأَنَّها كلامُ اللهِ تعالى المنزلُ علىٰ أَنبيائه ، وكلّ ما تضمَّنتهُ حق ، وهيَ مئةُ كتابٍ وأَربعةُ كتب ، أَنزلَ مِنها علىٰ شِيثٍ خمسين ، وعلىٰ إِدريسَ ثلاثين ، وعلىٰ آدمَ عشرة ، وعلىٰ إبراهيمَ عشرة ، وعلىٰ داوودَ الزَّبور ، وعلىٰ موسى التَّوراة ، وعلىٰ عيسى الإِنجيل ، وعلىٰ نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم القرآنَ العظيم .

قالَ العلماء : إِنَّ اللهَ تعالىٰ أَنزلَ القرآنَ في رمضان ، وأُنزلَتْ صُحفُ إبراهيمَ أَوّلَ ليلةٍ مِنْ رمضان ، وأُنزلَتِ التَّوراةُ لِستٍّ مَضَيْنَ مِنْ رمضان ، والإِنجيلُ لثلاثَ عشرة ، والقرآنُ لأَربعٍ وعشرين .

ثمَّ إِنَّهُ لا شكَّ أَنَّ القرآنَ قد نزلَ منجَّماً مفرّقاً علىٰ حسبِ الوقائع والمصالح ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ ؛ أَي : أُنزلَ أَوَّلُه ، وذلكَ ليلةَ القدر ، أَو أَنَّه أُنزلَ جملةً إِلى السَّماءِ الدُّنيا في ليلةِ القدر ، ثمَّ نُزِّلَ إِلى الأَرضِ نجوماً في ثلاثٍ وعشرينَ سنة .

وهوَ أَفضلُ جميعِ الكتب ، ولنَذْكُرْ مسائلَ منثورةً مِنْ كتبِ العلماء ، ولا سيّما « الإِتقان » فيما يتعلَّقُ بالقرآن ، فقد قالوا : يُستحبُّ الإِكثارُ مِنْ تلاوته ؛ قالَ تعالىٰ : ﴿ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ﴾ .

وفي « الصَّحيحَين » : « لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي ٱثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَار » .

وروى التّرمذي : « مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ اللهِ . . فَلَهُ بِهِ حَسَنَة ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا » .

وروى ابنُ مسعود : يقولُ الرَّبُّ سبحانَهُ وتعالىٰ : « مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي . . أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِين ، وَفَضْلُ كَلاَمِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَلاَمِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَىٰ سَائِرِ خَلْقِه » .

وروىٰ أَبو أُمامة : « اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعاً لأصحابه » .

وأَخرجَ البيهقيُّ عن عائشة : « الْبَيْتُ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ يَتَرَاءَىٰ لأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا تَتَرَاءَى النُّجُومُ لأَهْلِ الأَرْض » .

وروى النُّعمانُ بنُ بشير رضي الله عنه ؛ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَفْضَلُ عِبَادَةِ أُمَّتِي قِرَاءَةُ الْقُرْآن » .

ويُكرَهُ تأْخيرُ خَتْمِهِ بلا عذرٍ أَكثرَ مِنْ أَربعينَ يوماً علىٰ ما قالَ غيرُ واحد . نصَّ عليهِ أَحمد .

وروى الحسنُ بنُ زيادٍ عن أَبي حنيفةَ أَنَّهُ قال : مَنْ قرأَ القرآنَ في كلِّ سَنةٍ مرَّتين . فقد أَدَّىٰ حقَّه ؛ لأَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم عرضَ علىٰ جبريلَ في السَّنةِ الَّتي قُبضَ فيها مرَّتين .

وللسّلفِ عادات : فأَكثرُ ما وردَ مَنْ كانَ يختمُ في اليومِ واللَّيلةِ ثمانِ ختمات ، أَربعاً في اللَّيلِ وأَربعاً في النَّهار .

وقد ذمَّت عائشةُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها مَنْ يختمُ فيهما ختمة ؛ قالَ مسلم بن مخراق[1] : قلتُ لعائشة : إِنَّ رجالاً يَقرأُ أَحدُهمُ القرآنَ في ليلةٍ مرَّتينِ أَو ثلاثاً ؟ فقالَت : أولٰئك قَرؤُوا ولَم يَقرؤوا ، كنتُ أَقومُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ليلةَ التَّمامِ فيقرأُ بالبقرةِ وآلِ عمرانَ والنِّساء ، فلا يمرُّ بآيةٍ فيها استبشارٌ إلاَّ دعا ورَغِب ، ولا بآيةٍ فيها تخويفٌ إلاَّ دعا واستعاذ) .

(١) هو مولى عائشة رضي الله عنها ، وعنها أخذه .

وكرهَ جماعاتٌ الختمَ في أَقلّ مِنْ ثلاثةِ أيّام ، وروى ابنُ عمرو رضي الله عنه : « اقرأ القرآنَ في شهر » .

ونسيانُهُ مِنَ الكبائر ؛ فقد روىٰ أَبو داوود : « عُرِضَتْ عَلَيَّ ذُنُوبُ أُمَّتِي فَلَمْ أَرَ ذَنْباً أَعْظَمَ مِنْ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآن أَوْ آيَةٍ أُوتِيَهَا رَجُلٌ ثُمَّ نَسِيَهَا » .

ويستحبُّ الوضوءُ لقراءته ، وقد (كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يَكرَهُ أَنْ يذكرَ اللهَ إِلاَّ علىٰ طُهر) .

ولا يكن فمُهُ نجساً ، وإِذا عَرضَتْ لَهُ ريح . . يُمسكُ عنِ القراءةِ حتَّىٰ تستتم .

وتُسنُّ القراءةُ في مكانٍ نظيف ، وأَفضلُهُ المسجد ، وكَرِهَ قومٌ في الحمّام ، والطَّريق .

ويستحب . . أَنْ يَجلسَ مستقبلاً لِلقبلةِ متخشِّعاً ، بسَكِينةٍ ووقار ، مُطرِقاً رأْسَه ، ويستاك .

ويُسنُّ التَّعوُّذُ قَبْلَها ، وذهبَ قومٌ بعدَها ، وذهبَ قومٌ إِلىٰ وجوبها . ولو مرَّ علىٰ قومٍ فسلَّمَ وعادَ إِلى القراءةِ . . عادَ إِلى التَّعوُّذ .

قيل : يَجهر . وقيل : يُسِرُّ به .

وليُحافِظْ على البسملة ، ولا تحتاجُ إِلى النِّيَّة ، ويُسنُّ التَّرتيلُ ؛ قالَ تعالىٰ : ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ قالوا : قراءةُ جزءٍ بترتيلٍ أَفضلُ مِنْ قراءةِ جزءَينِ بقدرِ ذلكَ الزّمانِ بلا ترتيل .

روى ابنُ عمروٍ رضي الله عنه مرفوعاً : « يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَة : اقْرَأْ وَارْقَ فِي الدَّرَجَات ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ كُنْتَ تَقْرَأُهَا » .

ويُسنُّ تحسينُ الصَّوتِ بالقراءةِ وترتيبُها ؛ لحديثِ ابنِ حبّانَ وغيره : « زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُم » .

وفي آخَر : « حُسْنُ الصَّوْتِ زِينَةُ الْقُرْآن » لـٰكنْ لا يخرجُ إِلىٰ حدِّ التَّمطيط .

وأمّا القراءةُ بالألحان : فنصَّ الشَّافعيُّ أَنَّهُ لا بأْسَ بها .

والقراءةُ في المصحفِ أَفضلُ مِنَ الحفظ ؛ لأَنَّ النَّظرَ فيهِ عبادةٌ مطلوبة ، روىٰ أَوسٌ موقوفاً : « قِرَاءَةُ الرَّجُلِ فِي غَيْرِ الْمُصْحَفِ أَلْفُ دَرَجَة ، وَقِرَاءَةٌ فِي الْمُصْحَفِ تُضَاعَفُ على ذلك أَلْفَيْ دَرَجَة » .

وقيل : مِنَ الحفظِ أَفضل .

ويُكرهُ قطعُ القراءةِ لمكالمةِ أَحد ، والضَّحك ، والعبث ، والنَّظرُ إِلىٰ ما يُلهي ، وقراءةُ السُّورةِ منكوسة ـ أَي : مِنْ آخِرِها إِلىٰ أَوَّلِها ـ ممنوع ؛ فعنِ ابنِ مسعودٍ [رضي الله عنه] أَنَّهُ سُئِلَ عن رجلٍ يقرأُ القرآنَ منكوساً فقال : (ذلكَ منكوسُ القلب) .

ويُسنُّ الاستماع ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ إِلىٰ آخره .

ويُسنُّ صومُ يومِ الختم ، وأَنْ يَحضرَهُ أَهلُهُ وأَصدقاؤُه ، والرَّحمةُ تنزلُ عندَ ختمه ، والدُّعاءُ مستجاب ؛ روي : « مَنْ خَتَمَ الْقُرْآنَ فَلَهُ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَة » .

ويُستحبُّ التَّكبيرُ مِنَ الضُّحىٰ إِلىٰ آخِرِ القرآن .

عنِ البزيِّ أَنَّ الأَصلَ في ذلك : أنه انقطعَ الوحي عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لِكلبٍ كانَ تحتَ السَّرير ، فقالَ المشركون : قَلىٰ محمَّداً ربُّهُ . . فنزلت سورةُ الضُّحىٰ ، فكبَّر .

وقيل : التَّشبُّهُ لِلقرآنِ بصومِ رمضانَ إِذا كمَّلَ عدتَه . . يُكبِّر .

وقيل : لا يُكبِّرُ خوفاً مِنْ مظنَّةِ الزِّيادة .

وعندَ السَّخاويِّ وأَبي شامة : سواءٌ في التَّكبيرِ الصَّلاةُ وخارجُها .

ويُسنُّ إِذا فرغَ أَنْ يشرَعَ في غيرِها إِلىٰ : ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

ويُكرَهُ اتِّخاذُ القرآنِ معيشةً يكتسبُ بها ، ومَنْ قرأَ القرآنَ عندَ ظالمٍ ليُرفعَ به . . لُعنَ بكلِّ حرفٍ عشرَ لعنات ، روي : « الْقُرْآنُ غِنَىً لاَ فَقْرَ بَعْدَهُ ، وَلاَ غِنَىٰ دُونَهُ » .

واتَّفقَ أَكثرُ الأَئمَّةِ علىٰ وصولِ ثوابِ القراءةِ للميت ، ومذهبُ المعتزلةِ خلافُه ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ .

وفي « الدُّرِّ المختار » و« حاشيته » لابن عابدين عليهِ الرَّحمة : أَنَّ مَنْ دخلَ إلى المقبرة. . يقرأُ يسٓ ؛ فقد ورد : « مَنْ دَخَلَ الْمَقَابِرَ فَقَرَأَ سُورَةَ يسٓ . . خَفَّفَ اللهُ عَنْهُمْ يَوْمَئذ ، وَكَانَ لَهُ بِعَدَدِ مَنْ فِيهَا حَسَنَات » . وفي حديث : « مَنْ قَرَأَ الإِخْلاَصَ أَحَدَ عَشَرَ مَرَّة ، ثُمَّ وَهَبَ أَجْرَهَا لِلأَمْوَات . . أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بِعَدَدِ الأَمْوَات » .

وفي « شرحِ اللُّباب » : ويقرأُ مِنَ القرآنِ ما تيسَّرَ لَهُ مِنَ الفاتحةِ وأَوّل البقرةِ إلى ﴿ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وآية الكرسي ، و﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾[1] ، وسورة (يسٓ) ، و(تباركَ) الملك ، وسورة التّكاثر ، والإخلاص اثني عشرَ مرَّةً ، أَو إحدىٰ عشرةَ ، أو سبعاً ، أَو ثلاثاً ، ثمَّ يقول : اللّهُمَّ أَوصلْ ثوابَ ما قرأْناهُ إلىٰ فلانٍ أَو إِليهم . اهـ

فقد صرَّحَ علماؤُنا في بابِ الحجِّ عنِ الغيرِ بأَنَّ للإنسانِ أَنْ يجعلَ ثوابَ عملهِ لغيرِه ، صلاةً أَو صوماً أَو صدقةً أَوْ غيرَها ، بل قيل : الأفضلُ لمَنْ يتصدَّقُ نفلاً أَنْ ينويَ لجميعِ المؤمنينَ والمؤمنات ؛ لأَنَّها تصلُ إِليهم ولا ينقصُ مِنْ أجرِهِ شيء ، وهوَ مذهبُ أَهلِ السُّنَّة ، لـٰكنِ استثنىٰ مالكٌ والشّافعيُّ العباداتِ البدنيَّةَ المحضة ؛ كالصّلاةِ والتّلاوة ، فلا يصلُ ثوابُها إلى الميتِ عندَهُما ، بخلافِ غيرِها ؛ كالصّدقةِ والحج ، وخالفَ المعتزلةُ في الكل .

أَقول : ما مرَّ عنِ الشَّافعيِّ هوَ المشهورُ عنه ، والّذي حرَّرهُ المتأَخِّرونَ مِنَ الشَّافعيَّةِ وصولُ القراءةِ لِلميتِ إِذا كانت بحضرتهِ ، أَو دعا لَهُ عَقِبَها ولَو غائباً ؛ لأَنَّ محلَّ القراءةِ تنزلُ الرَّحمة والبركة ، والدُّعاءُ عَقِبَها أَرجىٰ للقَبول ، ومقتضاه : أَنَّ المرادَ انتفاعُ الميتِ بالقراءةِ لا حصولُ ثوابِها له ، ولهـٰذا اختاروا في الدُّعاء : اللَّهُمَّ أَوصِلْ مثلَ ثوابِ ما قرأْتُهُ إلىٰ فلان .

وأَمّا عندنا : فالواصلُ إِليهِ نفسُ الثّواب .

وفي كتابِ « الرّوح » للحافظِ ابنِ القيِّم : أَنَّهُ اختُلفَ في إِهداءِ الثَّوابِ إلى الحي ، فقيل : يصح ؛ لإِطلاقِ قولِ أَحمد : يَفعلُ الخيرَ ويجعلُ نصفَهُ لأَبيهِ وأُمِّه .

---

(١) يعني : حتى نهاية سورة البقرة .

وقَد نُقلَ عن جماعةٍ أَنَّهُم جعلوا ثوابَ أَعمالِهم للمسلمين ، وقالوا : نلقى اللهَ تعالىٰ بالفقرِ والإفلاس ، والشَّريعةُ لا تمنعُ مِنْ ذلكَ اهـ باقتصارٍ واختصار

ويستحبُّ البكاءُ عندَ قراءةِ القرآن ، والتباكي لمَنْ لا يَقدر ، والحزنُ والخشوعُ .

قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « إِنِّي قَارِىءٌ عَلَيْكُمْ سُورَة ، فَمَنْ بَكَىٰ . . فَلَهُ الْجَنَّة ، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا » .

وطريقُ البكاء : أَنْ يتأَمّلَ في الوعدِ والوعيدِ وفي تقصيرِه[1] .

ويُكرَهُ الجماعُ بحضوره ، ومدُّ الرِّجلِ لَه ، ولا يَقرؤُهُ الجُنُبُ ولا يتوسَّدُه .

وعنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما : « أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ وَأَصْحَابُ اللَّيْل » .

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما : مَنْ قرأَ القرآنَ . . فقدِ استدرجَ النبوَّةَ بينَ جنبيهِ ، غيرَ أَنَّهُ لا يُوحىٰ إليه .

وعنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ . . يَكْثُرُ خَيْرُه ، والَّذِي لاَ يُقْرَأُ فِيهِ . . يَقِلُّ خَيْرُه » .

وعنه عليه الصلاة والسلام : « القُرْآنُ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِن» .

روىٰ أَحمد : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَأْخُذُ مَضْجَعَهُ فَيَقْرَأُ سُورَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ . . إِلاَّ وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَكاً ، فَلاَ يَقْرَبُهُ شَيْءٌ يُؤْذِيهِ حَتَّىٰ يَهُبَّ مَتَّىٰ هَبّ » .

أَخرجَ أَحمد : « لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ مِنْ إِهَابٍ . . مَا أَكَلَتْهُ النَّار » ؛ أَي : قلب المؤمن .

عن أَنسٍ رضي الله عنه مرفوعاً : « الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّع ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّق ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَه . . قَادَهُ إِلَى الْجَنَّة ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَه . . سَاقَهُ إِلَى النَّار » .

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه : « مَا مِنْ رَجُلٍ يُعَلِّمُ وَلَدَهُ الْقُرْآنَ . . إِلاَّ تُوِّجَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِتَاجٍ مِنَ الْجَنَّة » .

---

(١) فإن لم يحضره البكاء عند ذلك . . فليبك على فقده ؛ فإنه من أعظم المصائب . كما قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ .

ثمَّ اعلم أَنَّ العلماءَ اختلفوا في جوازِ الاستئجارِ علىٰ تعليمِ القرآن ، فحرَّمَهُ جماعةٌ لروايةِ البيهقي : « مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ يَتَأَكَّلُ بِهِ النَّاس . . جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ عَظْمٌ لَيْسَ عَلَيْهِ لَحْم » .

وعن أُبي بنِ كعبٍ رضي الله عنه قال : علَّمتُ رجلاً القرآنَ ، فأَهدىٰ لي قوساً ، فذكرتُ ذلكَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فقال : « إِنْ أَخَذْتَهَا . . أَخَذْتَ قَوْساً مِنْ نَار » .

ومَنْ جوّزَ . . استدلَّ بقولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْراً . . كِتَابُ الله » .

هـٰذا في التَّعليم .

وأَمّا في القراءةِ للميتِ بالاستئجار . . فلا يصحُّ **على القولِ الأصح** .

قالَ شيخُ مشايخِنا العلاّمةُ ابنُ عابدينَ في « حاشيته » مِنْ جملةِ كلامٍ طويل :

(قالَ تاجُ الشَّريعةِ في « شرحِ الهداية » : إِنَّ القرآنَ بالأُجرةِ لا يستحقُّ الثَّوابَ لا للميتِ ولا للقارىء .

وقالَ العيني : ويُمنعُ القارىءُ للدُّنيا ، والآخِذُ والمعطي آثمان .

وقالَ الشَّيخُ خيرُ الدِّينِ الرَّملي : المفتىٰ بهِ جوازُ الأَخذِ استحساناً علىٰ تعليمِ القرآنِ لا على القراءةِ المجرّدة ، والإِجارةُ في ذلكَ باطلة ، وهيَ بدعةٌ لَم يَفعلْها أَحدٌ مِنَ الخلفاء) .

وقالَ في « الولْوالجيّة »[1] : ولو زارَ قبرَ صديقٍ أَو قريبٍ لَهُ وقرأَ عندَهُ شيئاً مِنَ القرآن . . فهوَ حسن ، أَمّا الوصيَّةُ بذلك . . فلا معنىٰ لَها .

ونقلَ الخلوتي في « حاشيةِ المنتهىٰ » الحنبليّ عن شيخِ الإِسلامِ تقيِّ الدِّينِ

---

(١) **الولْوالجيّة** : فتاوىٰ لظهير الدين الولوالجي .

ما نصُّه : (ولا يصحُّ الاستئجارُ على القراءةِ وإهدائها إلى الميت ؛ لأنَّهُ لَمْ يُنقَلْ عن أَحدٍ مِنَ الأَئِمَّةِ الإِذنُ في ذلك ، وقد قالَ العلماء : إنَّ القارىء إذا قرأَ لأَجلِ المالِ . . فلا ثوابَ لَهُ ، فأيّ شيءٍ يهديهِ إلى الميت ؟!! وإنَّما يصلُ إلى الميتِ العملُ الصّالح ، والاستئجارُ علىٰ مجرَّدِ التّلاوةِ لَم يَقُلْ بهِ أَحدٌ مِنَ الأَئِمَّة ، وإنَّما تنازعوا على التّعليمِ) اهـ بحروفه .

وممَّنْ صرَّحَ بذلكَ أَيضاً الإمامُ البركوي قُدِّسَ سِرُّه في آخر « الطَّريقةِ المحمديَّة » فقال : (الفصلُ الثّالثُ في أُمورٍ مبتدعةٍ باطلةٍ أَكبَّ النّاسُ عليهَا علىٰ ظنٍّ أَنَّها قُرَبٌ مقصودة . . . إلىٰ أَنْ قال :

ومنها : الوصيّةُ مِنَ الميتِ باتِّخاذِ الطَّعامِ والضِّيافةِ يومَ موتهِ أَو بعدَه ، وبإعطاءِ دراهمَ لمَنْ يتلو القرآنَ لِرُوحهِ أَو يُسبِّحُ أَو يُهلِّلُ لَه ، وكلُّها بِدَعٌ منكَراتٌ باطلة ، والمأْخوذُ مِنها حرامٌ للآخذِ وهوَ عاصٍ بالتّلاوةِ والذِّكرِ لأَجْلِ الدُّنيا) اهـ ملخَّصاً .

وليُعلَمْ أَنَّ العلماءَ اختلفوا في أَخوفِ آيةٍ مِنَ القرآن :

فقيل : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ .

وقيل : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ .

وقيل : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ .

وقيل : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

وكذا في أَرجىٰ آية ، فقيل : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ .

وقيل : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ .

وقيل : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ .

وقيل : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾ .

ورويَ عن علي كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهه أنَّها : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ .

وما أَحسنَ ما قيل :

أَتَــرْضَــىٰ حَبِيبِــي أَنْ تَكُــونَ مُنَعَّمــاً وَنَحْــنُ عَلَــىٰ جَمْــرِ اللَّظَــىٰ نَتَقَلَّــبُ
أَلَمْ يُرْضِكَ الرَّحْمَـٰنُ فِي سُورَةِ الضُّحَىٰ وَحَـاشَـاكَ أَنْ تَـرْضَـىٰ وَفِينَـا مُعَـذَّبُ

واعلَم : أَنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ مقروءٌ بأَلسنتِنا ، محفوظٌ في صدورِنا ، مكتوبٌ في مصاحفِنا ، قديمٌ غيرُ مُحْدَث ، لا خالقٌ ولا مخلوق ، ومَنْ قال : إِنَّهُ مَخْلُوق. . فقد كفر ، وأَمّا صوتُ القارىء. . فهوَ حادث .

وأَنَّهُ فيهِ المحكَمُ والمتشابه .

فأَمَّا المحكَم : فهوَ الَّذي يُعرفُ معناهُ والمقصودُ منه ؛ كآيةِ الصّومِ والصَّلاة ، والحجِّ والزَّكاةِ ونحوِها .

والمتشابهُ ينقسمُ إِلىٰ قسمين :

الأَوَّل : الَّذي لا يَعلَمُ معناهُ والمرادَ بهِ إِلاَّ اللهُ تعالىٰ ؛ كـ : ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ﴾ ، و﴿الٓمٓ﴾ ، و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ونحوِها مِنْ أَوائلِ السّوَر .

والثّاني : كآيةِ الاستواءِ والوجهِ واليدِ في قولهِ تعالىٰ : ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ونحو ذلكَ مِنَ الأَحاديثِ ؛ كحديث : « يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا » .

فالخلَفُ علىٰ تأْويلِ جميعِ ذلك ؛ كتأْويلِ الاستواءِ بالاستيلاء .

والسّلفُ على الإِيمانِ بذلكَ مع تنزيهه تعالىٰ عن ظاهره[1] إجماعاً ؛ إِذ سبحانَهُ وتعالىٰ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ وهـٰذا مذهبُ الأَئمَّةِ الأَربعةِ وغيرِهم ، وهوَ أَسلمُ[2] .

---

(١) فلا فرق بين السلف والخلف في تنزيه المولىٰ عن ظاهره .

(٢) ومذهب الخلف والسلف لا خلاف فيه حقيقي ؛ لأن الحامل لهم على الخوض الردّ على المبتدعة ، =

ولنَرْجعْ إِلى الكلامِ علىٰ بقيّةِ الحديث ، فنقول : قولُهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلام : « وَرُسُلِه » أَي : وأَنْ تؤْمنَ برُسله ؛ أَي : تُصدِّقَ بما جاؤُوا بهِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، قالَ عزَّ وجل : ﴿ ۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ الآية . وقدَّمَ ذِكرَ الملائكةِ للتَّرتيبِ الوجودي ؛ لأَنَّهم خُلقوا قَبْلَ الأَنبياء ، أَو لأَنَّهُم واسطةٌ بينَ اللهِ وبينَ أَنبيائه .

والأَنبياءُ عددهُم مئةُ أَلفِ نبيٍّ وأَربعةٌ وعشرونَ أَلفَ نبي ، أَوَّلُهم آدمُ عليهِ السّلام ، وآخِرُهُم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، ومنهُمُ المرسلونَ ثلاثُ مئةٍ وثلاثةَ عشر ، وقيل : وأَربعةَ عشر ، وأُولو العزمِ منهُم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسىٰ ، وعيسىٰ ، ومحمَّدٌ عليهِمُ السَّلام .

والأَنبياءُ عليهِمُ السَّلامُ معصومونَ مِنَ الكبائرِ والصّغائر ، وأَمّا ما وقعَ مِنْ بعضِهم . . فهوَ محمولٌ علىٰ تَرْكِ الأَفضلِ والعملِ بالفاضل ، أَو مِنْ باب : حسناتُ الأَبرارِ سيِّئاتُ المقرَّبين ، ولولا خوفُ الإِطالة . . لذكرنا مفصَّلَ ذَلك .

ونبيُّنا محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَفضلُهُم ، وأُمَّتُهُ أَفضلُ الأُمم ، واختلفتِ المعتزلةُ معَ أَهلِ السُّنَّةِ في تفضيلِ بعضِ الأَنبياءِ علىٰ بعض :

فقالَ أَهلُ السُّنَّةِ بالتَّفضيل ، والمعتزلةُ بالمنع .

قالَ في « المواهبِ اللَّدنيَّة » : قد بيَّنَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أَنَّ مراتبَ الرُّسلِ والأَنبياءِ متفاوتة ، خلافاً لِلمعتزلةِ القائلينَ بأَنَّهُ لا فضلَ لبعضِهم علىٰ بعض ، وفي هٰذهِ الآيةِ ردٌّ عليهِم .

= فهم متفقون على التنزيه وعلى حرمة الخوض في ذلك لغير مصلحة ، وذلك بشرطه كما بيّنه الإمام الغزالي في « إلجام العوام عن علم الكلام » ، كما نصّوا على حرمة قراءة التوراة والإنجيل وكتب الكلام والمبتدعة كالمعتزلة والطوائف الشاذّة لما فيها من التّحريف والشّبه ، ولم يجوّزوا ذلك إلا لِعالمٍ متبحّر متمكن في الفقه والحديث والتفسير . كما حرّموا قراءة كل ما يشوّش ويؤدّي لمفسدة في مجالس العامة كقراءة قصص الأنبياء ومقتل الحسين وما جرى بين الصحابة ونحوها .

وقالَ قوم : آدمُ أَفضلُ الخلقِ لأُبوّته .

وتوقَّفَ بعضُهم ، فقال : السُّكوتُ أَفضل .

والجمهورُ علىٰ أَنَّ الرُّسلَ أَفضلُ مِنَ الأَنبياء ، والرُّسلُ بعضُهم أَفضلُ مِنْ بعض ، ونبيُّنا محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَفضلُ الجميع ؛ روى التِّرمذي : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْر ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلاَ فَخْر ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلاَّ تَحْتَ لِوَائِي » .

وفي حديثِ أَبي هريرة رضي الله عنه : « أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَة » وعنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَم ، وَعَلِيٌّ سَيِّدُ الْعَرَب » .

وأَمّا قولُهُ عليهِ السّلامُ ما تقدَّمَ . . فليسَ عجباً وافتخاراً علىٰ مَنْ دونَه ، حاشاهُ مِنْ ذلك ، بل لإِظهارِ نعمةِ اللهِ تعالىٰ ، وتعليماً للأُمَّةِ بقَدْرِ متبوعِهم .

وقولُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُول : أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بنِ مَتَّىٰ » .

وقولُه : « لاَ تُفَضِّلُونِي عَلَى الأَنْبِيَاء » كانَ قبلَ أَنْ يعلمَ أَنَّهُ سيِّدُ الأَنبياء ، ولَه أَجوبةٌ أُخرُ ليسَ هٰذا محلَّها .

وأَعظمُ دليلٍ علىٰ أَفضليّتِهِ حديثُ الشَّفاعةِ وأَخذُ الميثاقِ على الأَنبياء ، فقد قالَ علي كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَه : مابعثَ اللهُ تعالىٰ نبيّاً إِلاَّ أَخذَ عليهِ الميثاقَ : لَئِنْ بُعِثَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وهوَ حيٌّ ليُؤْمِنَنَّ بهِ ولَيَنْصُرنَّه ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ . . . ﴾ إِلىٰ آخِرِ الآيةِ الكريمة[1] .

---

(١) وقد صنف الحافظ أبو الحسن السبكي رسالة سماها « الفضل والمنة في قوله تعالى : ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ » .

وقولُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « وَالْيَوْمِ الآخِرِ » أي : أَنْ تُؤْمِنَ وتُصدِّقَ بأَنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ يُعيدُ الخَلْقَ بعدَ موتِهم ، قالَ ابنُ القيِّمِ في كتابه « الرّوح » : إنَّ مُنكِرَ المعادِ الجسمانيِّ كافر .

وقدِ اتَّفقَ عليهِ المسلمونَ واليهودُ والنَّصارىٰ ، وقالَ الجلالُ الدّواني : هوَ بإجماعِ أَهلِ المِلل ، وبشهادةِ نصوصِ القرآن ، بحيثُ لا يقبلُ التَّأويل ؛ كقولهِ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وقد أَخرجَ ابنُ جرير ، وابنُ المنذر ، وابن أبي حاتم ، والإسماعيليُّ في « معجمه » والحافظ ابنُ مردويه ، والبيهقيُّ في « البعث » عَنِ ابنِ عبَّاس رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : جاءَ العاصُ بنُ وائِلٍ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بعَظْمٍ بالٍ ففتَّتَهُ بيده ، فقال : يامحمَّد ؛ يُحيي اللهُ هـٰذا بعدَ ما أرم ؟ قال : « نَعَم ، يَبْعَثُ اللهُ هَـٰذَا ، ثُمَّ يُمِيتُكَ ، ثُمَّ يُحْيِيك ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّم » فنزلَتِ الآياتُ معَ آخِرِ سورةِ يٓس : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ إلىٰ آخِرِ السُّورة .

وهـٰذا نصٌّ صريحٌ في الحشرِ الجسمانيِّ يقلعُ عرقَ التّأويلِ بالكليَّة ، ولهـٰذا قالَ الإمامُ الرّازي : الإنصافُ أَنَّهُ لا يمكنُ الْجَمْعُ بينَ الإيمانِ بما جاءَ بِهِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وبينَ نفي الحشرِ الجسماني ؛ فإنَّهُ قد وردَ في عدَّةِ مواضعَ مِنَ القرآنِ المجيدِ التَّصريحُ بهِ بحيثُ لا يقبلُ التّأويلَ أَصلاً .

وقد سأَلَ إبراهيمُ عليهِ السّلامُ مِنَ الباري عزَّ وجلَّ أَنْ يُريَهُ كيفَ يُحيي الموتىٰ ، فحكىٰ ذلكَ عنهُ في كتابِهِ العزيز ؛ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

قالَ المفسِّرون : سببُ السُّؤَالِ منازعةُ النُّمروذِ إيّاهُ في الإحياء ، وتوعُّدُهُ بالقتلِ إنْ لَم يُحيِ اللهُ تعالى الميتَ بحيثُ يُشاهدُه ، فدعا ، فقالَ الرّبُّ جلَّ جلالُه : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً

﴿مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ ، وهي : الغرنوق ، والطّاووس ، والدِّيك ، والحمامة ، كما رويَ عنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي : فقطِّعهن ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ وهيَ أَربعةُ جبال ، أَو سبعة ، أَو عشرة ، جعلَ عليها أَجزاءَ الطُّيورِ المذكورةِ بعدَ أَنْ خلطَها وأَبقى الرُّؤوسَ بيدِه ، ثمَّ نادىٰ : أَيَّتُها العظامُ المتمزِّقة ، واللُّحومُ المتفرِّقة ، والعروقُ المتقطِّعة ، اجتمعي لِيرُدَّ اللهُ فيكُنَّ أَرواحكن ، فوثبَ العظمُ إِلى العظم ، وطارتِ الرِّيشةُ إِلى الرِّيشة ، وجرى الدَّمُ إِلى الدَّمِ حتَّىٰ رجعَ إِلىٰ كلِّ طائرٍ دمُهُ ولَحمُهُ وريشُهُ حتَّىٰ صارَتْ جُثثاً ، ثمَّ أَقبلنَ إِلىٰ رؤُوسهنَّ فانضمَّتْ كلُّ جثَّةٍ إِلىٰ رأْسِها ، فعادت كلُّ واحدةٍ منهنَّ إِلىٰ ما كانت عليهِ مِنَ الهيئةِ الأُولىٰ .

وأَخرجَ الطَّبرانيُّ بسندٍ حسنٍ عنِ المقدامِ بنِ معدِ يكرب ، قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « يُحْشَرُ مَابَيْنَ السّقْطِ إِلَى الشَّيْخِ الْفَانِي يَوْمَ الْقِيامَة » قالَ القرطبي : هـٰذا في السّقطِ الَّذي تمَّ خَلقهُ ونُفخَ فيهِ الرُّوح ، بخلافِ ما لَم يُنفخْ فيه .

وأَخرجَ الحاكمُ عنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنه قال : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَة . . مُدَّتِ الأَرْضُ مَدَّ الأَدِيم ، وَحَشَرَ اللهُ الْخَلاَئِقَ الإِنْسَ وَالْجِنَّ وَالدَّوَابَّ وَالْوُحُوش ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْم . . جَعَلَ اللهُ تَعَالَى الْقِصَاصَ بَيْنَ الدَّوَابِّ حَتَّىٰ يَقْضِيَ لِلشَّاةِ الْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ بِنَطْحَتِهَا ، فَإِذَا فَرَغَ اللهُ مِنَ الْقِصَاصِ بَيْنَ الدَّوَاب . . قَالَ لَهَا : كُونِي تُرَاباً ، فَيَرَاهَا الْكَافِرُ فَيَقُول : يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً » .

وأَخرجَ النَّسائي عن شريد بنِ سويد رضي الله عنه ؛ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « مَنْ قَتَلَ عُصْفُوراً عَبَثاً . . عَجَّ إِلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُول : يَا رَب ؛ إِنَّ فُلاَناً قَتَلَنِي عَبَثاً ، وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَة » .

وأَخرجَ ابنُ حبّان وغيرُهُ أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا ، فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ[1] الأَرْض ، فَهِيَ إِذَا أَقْبَلَت . . تَنْهَشُهَا ، وَإِذَا أَدْبَرَت . . تَنْهَشُهَا » .

---

(١) الخشاش ـ مثلثة الخاء ـ : حشرات الأرض والعصافير ونحوها اهـ منه .

وأَخرجَ الطَّبرانيُّ عن جنادة، قال : أَتيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بإِبلٍ قد وسمتُها في أَنفِها، فقال : « مَا وَجَدْتَ عُضواً تَسِمُهُ إِلاَّ فِي الْوَجْه ؟! أَمَا إِنَّ أَمَامَكَ الْقِصَاص ».

وسنذكر ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ تتمَّةَ هـٰذا البحثِ في الدّرسِ الثّامنَ عشر .

فعليكُم عبادَ اللهِ بالاستعدادِ ليومِ المحشر ، قَبْلَ أَنْ تفقدوا اللِّسانَ والسَّمعَ والبصر ، فإِذا أُعيدتِ الأَجسامُ البالية ، وجُمعتِ الأَوصالُ الفانية ، وسِيقَتِ النُّفوسُ العاتية ، وزفرتِ الحطيمُ الصّالية . . ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

عجباً أَيُّها المنغمسونَ في الذُّنوب ، والمرتدونَ في أَسمالِ المخازي والعيوب ؛ تَستخفونَ عنِ النّاسِ واللهُ علاَّمُ الغيوب ؛ فهل كذبتُمْ أَنْ يُعيدَكُمْ كما بدأَكُم ثانية ؟! ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

فياليتَ شِعري مَنْ لِلزّاني إذا افتضح ، واشتهرَ أَمرُهُ بينَ الخلائقِ واتَّضح ؟ ووزنَ عملُ آكلِ الرِّبا والمطفِّفِ فما رَجَح ، وقالَ الكافر : يا ليتني لم أدر ما حسابيه ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

أَيُّها اللاّهونَ عنِ البعث ، الرّاضونَ بالدُّونِ عن ذلكَ البحث ؛ لقد وَعظنا فما أَفادَ الوعظُ والحث ، فاستمعوا قولَ اللهِ بأُذنٍ واعية : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

يُجزى النَّاسُ بفعلهِم يومَ القيامة ، ويرىٰ كلُّ عاملٍ عملَهُ أَمامَه ، فيستبشرُ الصّالح ، ولا تنفعُ الطّالحَ النَّدامة ، ويُؤْمَرُ بالمتَّقينَ إِلىٰ دار ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

تبّاً لمَنْ كفَرَ وعصىٰ رسولَه ، وأَنكرَ عَرضَهُ على الدّيانِ ووصولَه ، ولمّا رأَىٰ نشرَهُ وحسابَهُ وكبولَهُ ومثولَه . . نادىٰ ولَم ينفعهُ إِذ ذاكَ ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

ويُحصىٰ ماتصاغرَ مِنَ الذُّنوبِ ولَو ذَر ، ويُجزى العبدُ بعملهِ إِنْ خيراً . . فخير ، وإِنْ شرّاً . . فشَر ، ولا ينجو إِلاَّ مَنْ آمنَ وتواصىٰ بالصَّبر ، أَو أَسلفَ مِنْ صومٍ في أَيّامٍ خاليَة ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

وعليكُم ـ عبادَ الله ـ بالتَّمسُّكِ بالكلامِ القديم ، والقرآنِ الَّذي هوَ الصِّراطُ المستقيم ، والاستعدادِ ليومِ القيامةِ لتفوزوا بالنَّعيم ، وتَخلَّصوا مِنَ النَّدامةِ والعذابِ الأَليم ، هـٰذا هوَ الكتابُ القديم ، هـٰذا كلامُ السَّميعِ العليم ، هـٰذا الَّذي منهُ ﴿الٓمٓر﴾ . تكلم بهِ في الأزل ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ .

هـٰذا كلامُ الرَّحمـٰن هـٰذا المسموعُ بالآذان ، هـٰذا الدّليلُ والبرهان ، هـٰذاالَّذي إذا سمعَهُ الشَّيطان . . ولّىٰ واعتزل ، ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ .

هـٰذا كلامُ ذي العزَّةِ والعُلا ، هـٰذا الَّذي أَعجزَ جميعَ الفُصحا ، هـٰذا الَّذي تكلَّم بهِ في الأَزل ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ .

هـٰذا الَّذي حيَّرَ الأَلباب ، فلمَّا قصدَ مسيلمةُ الكذّابُ معارضتَهُ ومناقضتَه . . خاب ، أَتراهُ لعبٌ أَوْ هَزَل ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ .

يَدفعُ غُواةَ النَّاسِ والجِنَّة ، ويَصِلُ بتاليهِ إِلى الجَنَّة ، ولقدْ والىٰ أَهلَ السُّنَّةِ وأَهلَ البدْعَةِ عزل ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ .

اللّهُمَّ ؛ إنّا عبادُكَ وأَبناءُ عِبادكَ وأَبناءُ إِمائِك ، نواصينا بيدك .

اللّهُمَّ ؛ إنَّا نسأَلُكَ بكلِّ اسمٍ هوَ لك ، سمَّيتَ بهِ نَفْسَك ، أَو أَنزلتَهُ في كتابك ، أَوِ استأْثرتَ بهِ في علمِ الغيبِ عندك ، أَو علَّمتَهُ أَحداً مِنْ خَلْقِك . . أَنْ تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلوبِنا ، وجلاءَ همومِنا ، وذهابَ أَحزانِنا ، ونورَ أَبصارِنا ، ونوراً يومَ القيامةِ بينَ أَيدينا ، وعلِّمنا ما فيه ، واجعلنا مِنَ المؤْمنينِ الممتثلينَ لظاهرهِ وخافيه ، واجعلهُ حجَّةً لنا ، ولا تجعلْهُ حجَّةً علينا .

اللّهُمَّ ؛ إنَّا قد أَمسينا لا نملِكُ لأَنْفُسِنا دفعاً ولا رفعاً ، ولا ضرّاً ولا نفعاً ، فأَعطِنا مِنَ الخيرِ فوقَ ما نرجوا ، واصرِفْ عنّا مِنَ السُّوءِ فوقَ ما نحذر ؛ فإِنَّكَ تمحو ما تشاءُ وتُثبت ، وعندكَ أُمُّ الكتاب ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ والآلِ والأَصحاب .

* * *

المجلس الرابع عشر
في الإيمان بالقدر وفي الإحسان من حديث جبريل عليه السلام

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ العظيمِ في قَدْرِه ، العزيزِ في قهرِه ، العليمِ بحالِ العبدِ في سرِّهِ وجَهْرِه ، وما يَجري عليهِ في دَهْرِه ، الجائدِ على المجاهدِ بنَصرِه ، المنعمِ على العاصي بسترِه ، الحليمِ عن آمِنِ مَكرِه ، فهوَ يرزقُ الكافرَ علىٰ كُفرِه ، يَسمعُ صريفَ القلمِ عندَ خطِّ سطرِه ، ونعيقَ الضّفدعِ في حافَّةِ بحرِه ، وأنينَ المدنفِ عندَ ضعفِ صبرِه ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ .

أَحمدُهُ على القدَرِ خيرِهِ وشرِّه ، وأَشكرُهُ على القضاءِ حلوهِ ومُرِّه ، وأَشهدُ بوحدانيَّتِهِ شهادةَ مَنْ لا يَجولُ التَّشبيهُ في فِكرِه ، وأَنَّ محمّداً عبدُهُ ورسولُه ، أَرسلَهُ داعياً إِلى البرِّ أَهلَ بحرِهِ وبَرِّه ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ سابقِ الكلِّ بشيءٍ وقرَ في صدرِه ، وعلىٰ عمرَ معزِّ الإِسلامِ بغضاضتهِ وقَهرِه ، وعلىٰ عثمانَ ذي النُّورينِ الصّابرِ مِنْ أَمرِهِ علىٰ مُرِّه ، وعلىٰ عليٍّ أَخيهِ وابنِ عمِّهِ وصِهرِه ، وعلىٰ سائرِ آلهِ وأصحابهِ ما جادَ السَّحابُ بقَطرِه .

أَمّا بعد : فنروي بسندِنا إِلى الإمامِ مسلمِ بنِ الحجّاجِ النَّيسابوري ، فإِنَّه قالَ في « جامعهِ الصَّحيح » : عن عبدِ اللهِ بنِ عمر رضيَ اللهُ عنهُما ؛ قال : حدَّثني أَبي عمرُ بنُ الخَطّاب ، قال : بينما نحنُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إِذْ طلعَ علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثّياب ، شديدُ سوادِ الشَّعر ، لا يُرىٰ عليهِ أَثرُ السَّفر ، ولا يَعرفُهُ منّا أَحد ، حتّىٰ جلسَ إِلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فأَسندَ رُكبتيه إِلىٰ رُكبتيهِ ، ووضعَ كفَّيهِ علىٰ فخذيه ، وقال : يا محمَّد ؛ أَخبرني عنِ الإِسلام ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ

عليهِ وسلَّم : « الإِسْلاَم : أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ، وَتُقِيمَ الصَّلاَة ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاة ، وَتَصُومَ رَمَضَان ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً » . قال : صدقت . قال : فأخبرني عنِ الإيمان . قال : « أَنْ تُؤْمِنَ بِالله ، وَمَلاَئِكَتِه ، وَكُتُبِه ، وَرُسُلِه ، وَالْيَوْمِ الآخِر ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّه » . قال : صدقت . قال : فعجبنا منهُ يسأَلُهُ ويُصدِّقُه . قال : فأَخبرني عنِ الإحسان ، قال : « أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاه ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاه . . فَإِنَّهُ يَرَاكَ » إلىٰ آخِرِه .

فنقول : ـ وباللهِ التَّوفيق ، ولُطفُهُ عزَّ شأْنُهُ أَقوىٰ رفيق ـ : قد تقدَّمَ الكلامُ علىٰ مبدأ هـٰذا الحديثِ في الدُّروسِ الماضية ، وبقيَ الكلامُ علىٰ قولهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلام : « وبالقَدَر » أَي : وبأَنْ تُؤمِنَ وتصدِّقَ بأَنَّ فِعلَ العبدِ بقضائِهِ تعالىٰ وقدره ، ما شاءَ اللهُ كانَ وما لمْ يشأْ لمْ يكُن ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ . وقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ .

وأَخرجَ البزّار ، والطَّبرانيُّ في « الأَوسط » والبيهقيُّ في « الأَسماءِ والصِّفات » عنِ ابنِ عمر رضي الله عنهما ، قال : جاءَ فئامٌ[1] مِنَ النَّاسِ إلى النَّبيِّ صلى اللهُ عليْهِ وسلَّم فقالوا : يا رسولَ الله ؛ زعمَ أَبو بكرٍ أَنَّ الحسناتِ مِنَ اللهِ والسَّيِّئاتِ مِنَ العباد ، وقالَ عمر : الحسناتُ والسَّيِّئاتُ مِنَ الله ، فتابعَ هـٰذا قومٌ وهـٰذا قوم ، فقالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليْهِ وسلَّم : « لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِقَضَاءِ إِسْرَافِيلَ بَيْنَ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ ؛ فَإِنَّهُمَا اخْتَلَفَا كَمَا تَخْتَلِفُ أَهْلُ الأَرْض ، فَتَحَاكَمَا إِلَىٰ إِسْرَافِيل ، فَقَضَىٰ بَيْنَهُمَا بِحَقِيقَةِ الْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ وَحُلْوِهِ وَمُرِّهِ كُلِّهُ مِنَ الله » ثُمَّ قال : « يا أَبَا بَكر ؛ إِنَّ اللهَ لَوْ أَرَادَ أَنْ لاَ يُعْصَىٰ . . لَمْ يَخْلُقْ إِبْلِيس » فقالَ أَبو بكر : صدقَ اللهُ ورسولُه . نقلَهُ في « الحبائِك » .

وقالَ ابنُ حجرٍ في كتابه « الزّواجر » : إنَّ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ أَكثرُ المفسرينَ أَنَّهَا نزلَتْ في القدريَّة ، ويُؤيِّدُهُ ما أَخرجَهُ مسلمٌ أَنَّ سببَ نزولِها : أَنَّ كفّارَ مكَّةَ أَتوا رسولَ اللهِ صلى اللهُ تعالىٰ عليْهِ وسلَّم يُخاصمونَ في القدَر ، فنزل :

---

(١) الفئام ـ بالفاء المكسورة ككتاب ـ : الجماعة من الناس لا واحد له من لفظه . اهـ منه .

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

وصح : « كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ مَقَادِيرَ الْخَلاَئِقِ كُلِّهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَة » .

وعن علي كرَّمَ اللهُ تعالى وجهَه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلى ٱللهُ عليهِ وسلَّم : « لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ بِاللهِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ بِأَرْبَع : يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الله ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ بَعَثَنِي بِالْحَق ، وَيُؤْمِنُ بِالْبَعْث بَعْدَ الْمَوْت ، وَيُؤْمِنُ بِالْقَدَر » .

وفي رواية : « خَيْرِهِ وَشَرِّه » .

ومذهبُ أَهلِ السُّنَّة : أَنَّ الأَفعالَ بخَلْقِ اللهِ تعالىٰ وكسبٍ مِنَ العبد ، قالَ صاحب « بدء الأَمالي »[1] في منظومته [٤] :

مُـــرِيــدُ الْخَيْــرِ وَالشَّــرِّ الْقَبِيـــحِ ... وَلَـٰكِـنْ لَيْـسَ يَـرْضَـىٰ بِـالْمُحَـالِ

قالَ بعضُ الشّارحين : اعلَمْ أَنَّ تقديرَ الخيرِ والشَّرِّ مِنَ اللهِ تَعالىٰ ، وهوَ خالقُ الخيرِ والشَّرِّ ومريدُهُما ، وفِعلُ الخيرِ والشَّرِّ مِنَ العبد ، والعبدُ مختارٌ في فِعلهِ اختيارَ تمييزٍ وتحصيل ، لا اختيارَ مشيئةٍ وقدرة ، وهـٰذا مذهبُ أَهلِ السُّنَّةِ والجماعة .

وقولُه : ولـٰكِنْ لَيْسَ يَرْضَىٰ بِالْمُحَال ؛ يعني : بالكفرِ والقبائحِ والمعاصي مريداً لَها ، ولا يكونُ الشَّيءُ بغيرِ قضاء .

وما أَحسنَ ما رواهُ الكُورانيُّ عنِ الإمامِ الشَّافعيِّ حيثُ يقول :

وَمَــا شِئْــتَ كَــانَ وَإِنْ لَــمْ أَشَــأْ ... وَمَــا شِئْــتُ إِنْ لَــمْ تَشَــأْ لَـمْ يَكُـنْ
خَلَقْــتَ الْعِبَـادَ عَلَــىٰ مَـا عَلِمْـتَ ... فَفِـي الْعِلْـمِ يَجْـرِي الْفَتَـىٰ وَالْمُسِـنْ
عَلَــىٰ ذَا مَنَنْــتَ وهَـٰـذَا خَــذَلْـتَ ... وَهَـٰـذَا أَعَنْــتَ وَذَا لَــمْ تُعِــنْ
فَمِنْهُــمْ شَقِــيٌّ وَمِنْهُــمْ سَعِيــدٌ ... وَمِنْهُــمْ قَبِيــحٌ وَمِنْهُــمْ حَسَــنْ

---

(١) هو : سراج الدين علي بن عثمان الأوشي ؛ ومنظومته المذكورة في العقيدة .

وذهبتِ القدَريَّة ـ وهُمُ المعتزلةُ ومَنْ وافقَهُم مِنَ الإماميَّة ـ إلىٰ أَنَّ الإنسانَ خالقٌ لأفعالِهِ مِنْ خيرٍ وشر ، قادرٌ على الفعلِ والتَّرْك ، متمكِّنٌ منهُما ، إنْ شاء . . فعل ، وإنْ لَم يَشأ . . لَم يَفعل ، ولذلكَ سُمُّوا قدريَّة ؛ لأَنَّهُم يَنفونَ القَدَرَ ويُثبتونَ القدرة .

وذهبتِ الجبريَّةُ إلىٰ أَنَّ الإنسانَ مجبورٌ على الفعلِ مطلَقاً ، كالسَّعَفَةِ في الهواء[1] ، وهـٰذا مذهبٌ باطلٌ أَيضاً ، وأَنشدوا لَه :

أَلْقَاهُ فِـي الْيَـمِّ مَكْتُـوفـاً وَقَـالَ لَـهُ   إِيَّـاكَ إِيَّـاكَ أَنْ تَبْتَـلَّ بِـالْمَـاءِ

ومذهبُ أَهلِ السُّنَّةِ والجماعة ـ وللهِ تعالى الحمد ـ مذهبٌ وسط ، لا جبرَ ولا تفويضَ كهـٰذهِ الأُمَّةِ المحمديَّة ، القائلُ في وصفِهم سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ .

وما أَحسنَ ما قيل :

تَنَكَّـبْ عَـنْ طَـرِيـقِ الْجَبْـرِ وَاحْـذَرْ   وُقُـوعَـكَ فِـي مَهَـاوِي الِاعْتِـزَالِ
وَخُــذْ وَسَطـاً طَـرِيقـاً مُسْتَقِيمـاً   كَمَـا سَـارَ الإِمَـامُ أَبُـو الْمَعَـالِـي

وهـٰذا البحثُ طويلُ الأَذيالِ ومعتركُ الفحولِ مِنَ الرّجال ، فاقنعِ الآنَ بما ذكرنا ، واعتصِمْ بالملكِ المتعال .

ولنَرْجِعْ إلى الحديث ، قولُه : (فعجبنا لَهُ يسأَلُهُ ويُصدِّقُه) :

قالَ الإمامُ النَّواوي ـ عليهِ الرَّحمة ـ : سببُ تعجُّبِهم أَنَّ هـٰذا خلافُ عادةِ السّائلِ الجاهل ، إنَّما هـٰذا كلامُ خبيرٍ بالمسؤُولِ عنه ، ولَم يكُنْ في ذلكَ الوقتِ مَنْ يَعلمُ هـٰذا غيرُ النَّبيِّ صلى اللهُ علَيْهِ وسلَّم .

وقولُهُ صلى اللهُ تعالىٰ علَيْهِ وسلَّم : « الإِحْسَان : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاه ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاه . . فَإِنَّهُ يَرَاك » هَـٰذا مِنْ جوامعِ الكَلِمِ الَّتي أُوتيَها صلى اللهُ علَيْهِ وسلَّم ؛ لأَنَّا لَو قدَّرنا أَنَّ أَحدنا قامَ في عبادةٍ وهوَ يُعاينُ ربَّهُ سبحانَهُ وتعالىٰ . . لَم يَترك شيئاً ممّا يقدرُ

---

(١) قال كثير من العلماء : إن مسألة القدر لن تنكشف إلاّ في الآخرة ، فهي اختبار ، وهي مقام تسليم وإذعان ، لا مقام تعليل وتعقّل ، وإنما خاض فيها العلماء للرد على المبتدعة كالقدرية .

عليهِ مِنَ الخضوعِ والخشوعِ وحُسنِ السَّمتِ واجتماعهِ بظاهرِهِ وباطنهِ على الاعتناءِ بتَتْميمِها علىٰ أَحسنِ وجوهِها إلاَّ أَتىٰ به ، فقالَ[1] صلى اللهُ علَيْهِ وسلَّم : اعبدِ اللهَ في جميعِ أَحوالِكَ كعبادتِكَ في حالِ العِيان ، فإنَّ التّتميمَ المذكورَ في حالِ العِيانِ إنَّما كانَ لِعلمِ العبدِ باطِّلاعِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ عليه ، فلا يقدرُ العبدُ علىٰ تقصيرٍ في هـٰذا الحالِ للاطِّلاعِ عليه ، وهـٰذا المعنىٰ موجودٌ معَ عدمِ رؤيةِ العبدِ فينبغي أَنْ يعملَ بمقتضاه ، فمقصودُ الكلام : اَلحثُّ على الإخلاصِ في العبادة ، ومراقبةُ العبدِ ربَّهُ تباركَ وتعالىٰ في إتمامِ الخشوعِ والخضوعِ وغيرِ ذلك ، وقد ندبَ أَهلُ الحقائقِ إلىٰ مجالسةِ الصّالحينَ ؛ ليكونَ ذلكَ مانعاً مِنْ تلبُّسِهِ بشيءٍ مِنَ النَّقائص ؛ احتراماً لهُم واستحياءً منهُم ، فكيفَ بمَنْ لا يزالُ اللهُ تعالىٰ مطّلعاً عليهِ في سرِّهِ وعلانيته ؟! اهـ .

قالَ القسطلاّنيُّ في بابِ الخشوعِ في الصّلاة : الصّلاةُ صلةُ العبدِ بربّه ، فمَنْ تحقَّقَ بالصِّلةِ في الصَّلاة . . لمعَتْ لَهُ طوالعُ التَّجلِّي ، فيخشع ، وقد شهدَ القرآنُ بفلاحِ مصلٍّ خاشع ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ ؛ أي : خائفونَ مِنَ اللهِ متذلِّلونَ لَه ، يُلزمونَ أَبصارَهُم مساجدَهُم ، وعلامةُ ذلك : أَنْ لا يلتفتَ المصلِّي يميناً ولا شمالاً ولا يجاوزَ بصرُهُ موضعَ سجوده ؛ صلَّىٰ بعضُهُم في جامعِ البصرة ، فسقطَتْ ناحيةٌ مِنَ المسجد ، فاجتمعَ النّاسُ عليها ، ولَم يَشعرْ هوَ بها .

والفلاح : أَجمعُ اسمٍ لسعادةِ الآخِرة ، وفَقْدُ الخشوعِ ينفيه ، وقد قالَ تعالىٰ : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ وظاهرُ الأَمرِ الوجوب ، فالغفلةُ ضد ، فمَنْ غفلَ في جميعِ صَلاته . . كيفَ يكونُ مقيماً للصَّلاةِ لذِكرِهِ تعالىٰ ؟ فافهم واعمَل .

فليُقبلِ العبدُ علىٰ ربِّهِ ، ويَستحضرْ بينَ يدي مَنْ هوَ واقف ، كانَ مكتوباً في محرابِ داوودَ عليهِ السّلام : أَيُّها المصلِّي ؛ مَنْ أَنت ، ولمَنْ أَنت ؟ وبينَ يدي مَنْ أَنت ؟ ومَنْ تناجي ؟ ومَنْ يَسمعُ كلامك ؟ ومَنْ يَنظرُ إليك ؟

---

(١) يعني : معنىٰ ما قاله صلى الله عليه وسلم .

وقالَ الخَرَّاز : ليَكُنْ إِقبالُكَ على الصّلاةِ كإِقبالكَ على اللهِ يومَ القيامة ، ووقوفكَ بينَ يديهِ وهوَ مقبلٌ عليكَ وأَنتَ تناجيه اهـ

وقيل : يجوزُ أَنْ يكونَ الإحسانُ بمعنىٰ إجادةِ العمل ، مِن : أَحسنَ في كذا .

والمشهورُ في الإحسان : الإِخلاص ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ . وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ .

وروىٰ أَنسُ بنُ مالك رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليْهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الإِخْلَاصِ للهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَه ، وَإِقَامِ الصَّلاة ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاة . . فَارَقَهَا وَاللهُ عَنْهُ رَاض » .

وروى البيهقيُّ عن الضَّحّاك ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليْهِ وسلَّم : « إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُول : أَنَا خَيْرُ شَرِيك ، فَمَنْ أَشْرَكَ مَعِيَ شَرِيكاً . . فَهُوَ لِشَرِيكِي ، يَا أَيُّهَا النَّاس ؛ أَخْلِصُوا أَعْمَالَكُم لله عز وجل ؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَقْبَلُ مِنَ الأَعْمَالِ إِلاَّ مَاأُخْلِصَ لَه ، وَلاَ تَقُولُوا : هَٰذا للهِ وَلِلرَّحِمِ ؛ فَإِنَّها لِلرَّحِم وَلَيْسَ للهِ تَعَالَىٰ مِنْهَا شَيء وَلاَ تَقُولُوا هَٰذِهِ لِلّٰهِ وَلِوُجُوهِكُمْ ؛ فَإِنَّها لِوُجُوهِكُمْ لَيْسَ لِلّٰهِ مِنها شَيْءٌ » .

وروى الإِمامُ أَحمدُ عن أَبي كبشةَ الأَنماري رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه أَنَّهُ سمعَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليْهِ وسلَّم يقول : « ثَلاَثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِن ، وَأُحَدِّثُكُم حَدِيثاً فَاحْفَظُوه : قَالَ مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَة ، وَلاَ ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فصَبرَ عَلَيْهَا . . إِلاَّ زَادَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عِزّا ، وَلاَ فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَة . . إِلاَّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْر ـ أَو كلمةً نحوَها ـ وَأُحَدِّثُكُم حَدِيثاً فَاحْفَظُوْه ، قال : إِنَّما الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَر :

عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَعِلْماً ، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَه ، وَيَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقّاً . . فَهَٰذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِل .

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْماً وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً ، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّة ، يَقُول : لَوْ أَنَّ لِي مَالاً . . لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلان ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاء .

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْماً [فَهُوَ] يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْم ، لاَ يَتَّقِي فِيهِ

رَبَّهُ ، وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَه ، وَلاَ يَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقّاً . . فَهَـٰذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِل .

وَعَبْدٍ لَم يَرْزُقْهُ اللهُ مَالاً وَلاَ عِلْماً ، فَهُوَ يَقُول : لَوْ أَنَّ لِي مَالاً . . لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَن ، فَهُوَ بِنِيَّتِه ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاء » . رواهُ أحمد والتِّرمذي وصحَّحه .

ولأَجْلِ ذلكَ كانَ الرِّياءُ في الأعمالِ مِنَ الكبائرِ وعملُ صاحبهِ مردوداً عليه ؛ فقد روي عنهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ أَنَّهُ قال : « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُم الشِّرْكُ الأَصْغَر ؛ الرِّيَاء ، يَقُولُ اللهُ عز وجلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِم : اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُم تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا ، فانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُم جَزَاء ؟! » .

وروى الطَّبراني : « إِنَّ أَدْنَى الرِّيَاءِ شِرْك ، وَأَحَبّ الْعَبِيدِ إِلَى الله : الأَتْقِيَاءُ الأَسْخِيَاءُ الأَخْفِيَاء » أَي : المبالغينَ في سترِ عبادتِهم وتنزيهِها عن شائبةِ الأَغراضِ الفانية .

وروى التّرمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنَّ اللهَ تبارك وتعالى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَاد ـ أَي : يتجلَّىٰ لَهم تجلّياً منزَّهاً عنِ الحركةِ والانتقالِ وسائرِ لوازمِ الجهاتِ والأَجسام ، وكل ما خطر بالبال ـ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُم وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَة ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو به : رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآن ، وَرَجُلٌ يَقْتَتِلُ فِي سَبِيلِ الله ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَال ، فَيَقُولُ الله لِلْقَارِىء : أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَىٰ رَسُولِي ؟ قال : بَلَىٰ يَا رَب . قَال : فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا علمْتَ ؟ قَال : كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَار ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ : كَذَبْت ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ كَذَبْت ، وَيَقُولُ اللهُ : بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَال : إِنَّ فُلاَناً قَارِىء ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ .

وَيُؤْتَىٰ بِصَاحِبِ الْمَال ، فَيَقُولُ اللهُ : أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّىٰ لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَىٰ أَحَد ؟ قَال : بَلَىٰ يَارَبّ . قَالَ فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُك ؟ قال : كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّق . فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ لَه : كَذَبْت . وتقولُ الْمَلاَئِكَة : كَذَبْت . وَيَقُولُ اللهُ تعالى : بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَال : فُلاَنٌ جَوَاد ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ .

وَيُؤْتَىٰ بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ لَه : فِي مَاذَا قُتِلْت ؟ فَيَقُول :

أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّىٰ قُتِلْت . فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ له : كَذَبْت . وَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ : كَذَبْت . وَيَقُولُ اللهُ لَه : بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَال : فُلاَنٌ جَرِيءٌ شُجَاع ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ .

ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال : « يَا أَبَا هُرَيْرَة ؛ أُولـٰئِكَ الثَّلاَثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ الله تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَة » .

وفي روايةٍ أُخرىٰ : « وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَه ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ فَعَرَفَهَا ، فَقَال : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَال : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُه . قَال : كَذَبْت ، وَلـٰكِنَّكَ تَعَلَّمْتَهُ لِيُقَال : عَالِم ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِك . ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّار » .

وروي : « أَنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُجَاءُ بِالأَعْمَالِ فِي صُحُفٍ مُحْكَمَة ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَل : اقْبَلُوا هَـٰذَا وَرُدُّوا هَـٰذَا ، فَتَقُولُ الْمَلاَئِكَة : وَعِزَّتِكَ مَا كَتَبْنَا إِلاَّ مَا عَمِل . فَيَقُول : إِنَّ عَمَلَهُ كَانَ لِغَيْرِ وَجْهِي ، وَإِنِّي لاَ أَقْبَلُ الْيَوْمَ إِلاَّ مَاكَانَ لِوَجْهِي » .

وروى الدَّيلمي : « إِنَّ الأَرضَ لتعجُّ إِلى اللهِ مِنَ الَّذينَ يلبسونَ الصُّوفَ رياء » .

وروى ابنُ ماجه : « رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلاَّ الْجُوعُ وَالْعَطَش ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلاَّ السَّهَر » .

وروى الدَّيلمي : « رِيحُ الْجَنَّةِ تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِ مِئَةِ عَام ، وَلاَ يجد رِيحهَا مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَة » .

وروى البيهقي : « مَنْ أَحْسَنَ الصَّلاَةَ حَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ وأَسَاءَهَا حَيْثُ يَخْلُو . فَتِلْكَ اسْتِهَانَةٌ يَسْتَهِينُ بِهَا رَبَّه » .

قالَ الفضيل : (تركُ العملِ لأَجْلِ النّاسِ رياء ، والعملُ لأَجْلِ النّاسِ شرك) .

والَّذي يُذهبُ الرِّياءَ ونحوَهُ قولُكَ كلَّ يومٍ ثلاثَ مرّات : **اللّهُمَّ إِنِّي أَعوذُ بكَ أَنْ أُشركَ بكَ شيئاً وأَنا أَعلم ، وأَستغفركَ لما لا أَعلم .**

ذكرَ حجَّةُ الإِسلامِ الغزاليُّ في « الإِحياء » : أَنَّ رجلاً عابداً بلغَهُ أَنَّ قوماً يعبدونَ شجرةً فخرجَ لِقَطْعِها ، فقالَ لَهُ إِبليس ـ لعنَهُ اللهُ تعالىٰ ـ : إِنْ قطعتَها . عبدوا غيرَها ،

فارجعْ إلىٰ عبادتك ، فقال : لا بدَّ مِنْ قطعِها ، فقاتلَهُ فصرعَهُ العابد ، فقال : أَنتَ رجلٌ فقيرٌ فارجِعْ إلىٰ عبادتكَ وأَجعلُ لكَ دينارينِ تحتَ رأسكَ كلَّ ليلة ، ولو شاءَ اللهُ تعالىٰ . لأرسلَ رسولاً يقطعُها ، وما عليكَ إذا لَم تَعبدْها أَنت ؟ قال : نَعَم . فلمّا أَصبح . . وجدَ دينارين ، وفي ثاني يومٍ لَم يَجد ، فخرجَ لقطعها فصرعَهُ إبليس ، فقالَ لَهُ العابد : كيفَ غلبتُكَ أَوّلاً ثمَّ غلبتَني ثانياً ؟ فقال : لأَنَّ غضبكَ كانَ أَوّلاً لله ، وثانياً للدِّينارينِ فصرعتُكَ وغلبتُك .

ثمَّ اعلَم : أَنَّ الإحسانَ بالمعنى الَّذي ذكرناهُ وتكلَّمنا عليهِ هوَ المرادُ مِنَ الحديثِ الشَّريف ، وقد يأْتي الإِحسانُ بمعنىً عامٍّ شاملٍ لإِحسانِ الإِنسانِ علىٰ نَفْسه ، وشاملٍ للإِحسان علىٰ غيره ؛ فلذلكَ يشملُ الإِحسانُ وجوهاً عديدة ، فلنَذْكُرْ بعضَها تكميلاً لفائدةِ المقام ؛ إِذِ الإِحسانُ كما قيلَ بالتّمام :

فمنها : الإِحسانُ لليتيم : قالَ تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « وَالَّذي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ نَبِيّاً لاَ يُعَذِّبُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ رَحِمَ الْيَتِيمَ وَلانَ لَهُ في الْكَلاَم ، وَرَحِمَ لَهُ يُتْمَهُ وَضَعْفَه » .

وقالَ ابنُ عبّاس رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى ٱللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ عَالَ ثَلاَثَةً مِنَ الأَيْتَام . . كَانَ كَمَنْ قَامَ لَيْلَهُ وَصَامَ نَهَارَهُ وَغَدَا وَرَاحَ شَاهِراً سَيْفَهُ فِي سَبيلِ الله ، وَكُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ أَخَوَيْنِ كَهَاتَيْنِ أُخْتَان » وأَلصَقَ إِصبعيهِ ؛ السَّبابةَ والوسطىٰ .

عن ابنِ عمر ـ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما ـ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ أَحَبَّ الْبُيُوتِ إِلَى اللهِ تَعَالَىٰ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ مُكْرَم » وفي رواية : « وَشَرُّ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الْمُسْلِمِينَ [بيت] فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْه » .

وعن أَبي هريرة [رضي الله عنه قال :] قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَفْتَحُ بَابَ الْجَنَّةِ إِلاَّ أَنِّي أَرَى امْرَأَةً تُبَادِرُنِي فَأَقُولُ لَهَا : مَا لَكِ وَمَنْ أَنْت ؟ فَتَقُول : أَنَا امْرَأَةٌ قَعَدْتُ عَلَىٰ أَيْتَامٍ لِي » .

وعن أَبي أُمامة رضي الله عنه ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « مَنْ

مسَحَ عَلَىٰ رَأْسِ يَتِيم ، لَمْ يَمْسَحْهُ إلاَّ لله . . كَانَ لَهُ فِي كُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَة » .

وعن أُمِّ سَلَمَة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها قالَت : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « مَنْ أَنْفَقَ عَلَى ابْنَتَيْنِ أَوْ أُخْتَيْنِ أَوْ ذَوَاتَي قَرَابَة ، يَحْتَسِبُ النَّفَقَةَ عَلَيْهِمَا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمَا مِنْ فَضْلِ اللهِ أَوْ يَكْفِيَهُمَا . . كَانَتَا لَهُ سِتْراً مِنَ النَّار » .

ومِنها : سترُ المسلمِ أخاه ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لاَيَرَىٰ مُؤْمِنٌ مِنْ أَخِيهِ عَوْرَةً فَيَسْتُرُهَا عَلَيْهِ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ بِهَا الْجَنَّة » ، و« مَنْ سَتَرَ مُسْلِماً . . سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِم . . كَشَفَ اللهُ تَعَالَىٰ عَوْرَتَهُ حَتَّىٰ يَفْتَضِحَ بِهَا فِي بَيْتِه » .

ومنها : إكرامُ الجارِ وتحمُّلُ أذيَّته : عن أَبي هريرة ـ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه ـ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْم الآخِر . . فَلاَ يُؤْذِ جَارَه ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِر . . فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَه ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِر . . فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَسْكُت » .

وعنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه ، لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِجَارِه ـ أو قال : لأَخِيه ـ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِه » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجِوَار ؟ إِنِ اسْتَعَانَ بِك . . أَعِنْه ، وَإِنِ اسْتَقْرَضَك . . أَقْرِضْه ، وَإِنِ افْتَقَر . . جُدْ عَلَيْه ، وَإِنْ مَرِض . . عُدْه ، وَإِنْ مَات . . اِتْبَعْ جنَازَته ، وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْر . . هَنِّه ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَة . . عَزِّه ، وَلاَ تَسْتَطِلْ عَلَيْهِ الْبِنَاءَ فَتَحْجُزَ عَنْهُ الرِّيحَ إِلاَّ بِإِذْنِه ، وَلاَ تُؤْذِهِ بِقتَارِ رِيح قِدْرِكَ إِلاَّ أَنْ تَغْرِفَ لَهُ مِنْهَا ، وَإِنِ اشْتَرَيْتَ فَاكِهَة . . فَاهْدِ لَهُ مِنْهَا ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَل . . فَأَدْخِلْهَا سِرّاً وَلاَ تُخْرِجْ بِهَا أَوْلاَدَكَ فَيَغِيظُوا بِهَا وَلَدَه » .

قالَ الحسنُ البصري : ليسَ حسنُ الجِوارِ كفَّ الأذىٰ عنِ الجار ، بل حسنُ الجوارِ الصَّبرُ علىٰ أذى الجار .

وكانَ للحسن بنِ علي رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما جارٌ يهوديٌّ قدِ انخرقَ جدارُهُ وصارتِ القاذوراتُ في دارِ الحسنِ واليهوديُّ لَم يَعلَم ، فدخلَتْ زوجةُ اليهوديِّ يوماً ، فرأَتْ ذلكَ فأَخبرَتْ زوجَها ، فجاءَ معتذراً ، فقالَ الحسن : أَمرني جدّي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بإِكرامِ الجار ، فعندَ ذلكَ قال : أَشهدُ أَنْ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَن محمّداً رسولُ الله ، فحسُنَ إِسلامُه .

وعن أَبي هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ يَأْخُذُ عَنِّي هَـٰؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ ؟ » فقلت : أَنا يا رسولَ الله ، فأَخذَ بيدي فعدَّ خَمسا ، قال : « اِتَّقِ الْمَحَارِمَ . . تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاس ، وَارْضَ بِمَا قُسِمَ لَكَ . . تَكُنْ أَغْنَى النَّاس ، وَأَحْسِنْ إِلَىٰ جَارِكَ . . تَكُنْ مُؤْمِناً ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ . . تَكُنْ مُسْلِماً ، وَلاَ تُكْثِرِ الضَّحِكَ ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْب » رواهُ التّرمذي .

وعنِ ابنِ عمر رضيَ اللهُ تعالى عنهُما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَدْفَعُ بِالْمُسْلِمِ الصَّالِحِ عَنْ مِئَةِ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِهِ الْبَلاَءَ » ثمَّ قرأَ : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ رواهُ في « التّرهيبِ والتَّرغيب » .

ومنها : طلاقةُ الوجهِ وطِيبُ الكلام : روىٰ مسلم عن أَبي ذر ـ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه ـ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً وَلَوْ أَنْ تَلْقَىٰ أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْق » وعن أَبي ذر رضي الله عنه ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « تَبَسُّمُكَ في وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَة ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَة ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ صَدَقَة » .

وعن أَبي جري الهجيمي ـ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه ـ قال : أَتيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فقلت : يا رسولَ الله ؛ إِنّا قومٌ مِنْ أَهلِ الباديةِ فعلِّمنا شيئاً ينفعُنا اللهُ به ؟ قال : « لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي ، وَلَوْ أَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِط ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَار ؛ فَإِنَّهُ مِنَ ٱلْمَخِيلَةِ وَلاَ

يُحِبُّهَا اللهُ ، وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيك . . فَلاَ تَشْتُمْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيه ؛ فَإِنَّ أَجْرَهُ لَكَ وَوَبَالُهُ عَلَىٰ مَنْ قَالَه » .

ومنها : أَنْ لا يستمعَ إِلىٰ كلامِ غيرِهِ : ففي الحديث : « مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلُمٍ لَمْ يَرَه . . كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَل ، وَمَنِ اسْتَمَعَ إِلىٰ حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُون . . صُبَّ فِي أُذُنِهِ الآنُكُ[1] يَوْمَ الْقِيَامَة ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَة . . عُذِّبَ وَكُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهِ الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخ » .

ومِنها : عدمُ التَّهاجر : عن أَنس رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لاَ تَقَاطَعُوا وَلاَ تَدَابَرُوا ، وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً ، وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَث » .

وروىٰ كعبٌ رضي الله عنه عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « اللهَ اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم ، أَلْبِسُوا ظُهُورَهُمْ وَأَشْبِعُوا بُطُونَهُمْ وَأَلِينُوا لَهُمُ الْقَوْل » .

وعن أَبي أُمامة رضي الله عنه ، عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « أَرْبَعَةٌ يُوَفَّوْنَ أُجُورَهُمْ مَرَّتَيْن : أَزْوَاجُ النَّبِي ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب ، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَأَعْجَبَتْهُ فَأَعْتَقَهَا ثُمَّ تَزَوَّجَهَا ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّىٰ حَقَّ اللهِ تَعَالَىٰ وَحَقَّ سَادَاتِه » .

وعنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما : « أَلاَ أُنَبِّئُكُم بِشِرَارِكُم ؟ » قالوا : بلىٰ إِنْ شئتَ يا رسولَ الله . قال : « إِنَّ شِرَارَكُم الَّذِي يَنْزِلُ وَحْدَه ، وَيَجْلِدُ عَبْدَه ، وَيَمْنَعُ رِفْدَه ، أَفَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِك ؟ » قالوا : بلىٰ إِنْ شئتَ يا رسولَ الله . قال : « مَنْ يُبْغِضُ النَّاسَ وَيُبْغِضُونه » قال : « أَفَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِك ؟ » قالوا : بلىٰ إِنْ شئتَ يا رسولَ اللهِ . قال : « الَّذِينَ لاَ يُقِيلُونَ عَثْرَة ، وَلاَ يَقْبَلُونَ مَعْذِرَة ، وَلاَ يَغْفِرُونَ ذَنْباً » قال : « أَفَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِك ؟ » قالوا : بلىٰ إِنْ شئتَ يا رسولَ الله . قال : « مَنْ لاَ يُرْجَىٰ خَيْرُه ، وَلاَ يُؤْمَنُ شَرُّه » .

ومِنها : شكرُ الإِحسان ؛ فلذا كانَ كفرُ الإِحسانِ مِنَ الكبائر : قالَ في « الزَّواجر » :

---

(١) **الآنُك** ـ بالمدِّ وضمِّ النّون ـ : الرَّصاصُ ونحوُه .

ومنها كفرانُ نعمةِ المحسن ، قالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلام : « لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَى امْرَأَةٍ لاَ تَشْكُرُ زَوْجَهَا وَهِيَ لاَ تَسْتَغْنِي عَنْه » ولذلك سمّاهُن : كافرات . وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « لاَ يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاس » .

روىٰ عبدُ اللهِ بنُ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوه ، وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِاللهِ فَأَعْطُوه ، وَمَنِ اسْتَجَارَ بِاللهِ فَأَجِيرُوه ، وَمَنْ آتىٰ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِؤُوه ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا . . فَادْعُوا لَهُ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوه » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِه : جَزَاكَ اللهُ خَيْراً . . فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاء » .

ومِنها : عدمُ احتقارِ المسلم ، وأَنَّهُ لا فضلَ لأَحدٍ علىٰ أَحدٍ إِلاَّ بالتَّقوىٰ : روىٰ مسلمٌ عن أَبي هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِم ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُه ، التَّقْوَىٰ هَـٰهُنَا ، التَّقْوَىٰ هَـٰهُنَا ، التَّقْوَىٰ هَـٰهُنَا ـ وأَشارَ إِلىٰ صدره ـ بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِم ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَام ، دَمُهُ وَعِرْضُهُ وَمَالُه » .

ومِنْها : أَنْ لا يكونَ ذا لِسانينِ ولا وجهين : عن أَنس رضي الله عنه : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « مَنْ كَانَ ذَا لِسَانَيْنِ جَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَيْنِ مِنْ نَار » وعن سعدِ بنِ أَبي وقّاصٍ رضي الله عنه قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « ذُو الْوَجْهَيْنِ فِي الدُّنْيَا يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ وَجْهَانِ مِنْ نَار » . رواهُ الطَّبراني .

ومِنها : الإِصلاحُ بينَ النّاس ، وقَبولُ اعتذارِ مَنِ اعتذرَ محقّاً كانَ أَو مبطلاً : روىٰ أَبو هريرة رضي الله عنه : أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَة ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسولَ الله . قال : « إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْن ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَة ، لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْر ، وَلَـٰكِنْ تَحْلِقُ الدِّين » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ أَتَاهُ أَخُوهُ مُتَنَصِّلاً[1] مِنْ ذَنْبٍ فَلْيَقْبَل ، مُحِقّاً ذَاكَ أَوْ مُبْطِلاً ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَل . . لَمْ يَرِدْ عَلَيَّ الْحَوْض » .

ومِنها : زيارةُ الإخوانِ والصّالحين ، وَإِكرامُ الزّائر ، روىٰ في « كشفِ الغمّة » قال : قالَ أَبو هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « زَارَ رَجُلٌ أَخاً لَهُ فِي قَرْيَة ، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَىٰ مَدْرَجَتِهِ مَلَكاً ، فَلَمَّا أَتَىٰ عَلَيْه . . قَال : أَيْنَ تُرِيد ؟ قَال : أُرِيدُ أَخاً لِي فِي هَـٰذِهِ الْقَرْيَة ، قَال : هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا ؟ قَال : لاَ ، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَل ، قال : فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيه » .

وَكَانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « مَنْ عَادَ مَرِيضاً أَوْ زَارَ أَخاً لَهُ فِي قَرْيَة . . نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْت ، وَطَابَ مَمْشَاك ، وَطَابَتْ لَكَ الْجَنَّة ، وإلا قَالَ اللهُ فِي مَلَكُوتِ عَرْشِه : عَبْدِي زَارَ فِيَّ وَعَلَيَّ قِرَاه ، فَلَمْ يَرْضَ لَهُ بِثَوَابٍ دُونَ الْجَنَّة » .

وفي رواية : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِرِجَالِكُمْ فِي الْجَنَّة ؟ » قلنا : بلىٰ يا رسولَ الله . قال : « النَّبِيُّ فِي الجَنَّة ، وَالصِّدِّيقُ فِي الْجَنَّة ، وَالرَّجُلُ يَزُورُ أَخَاهُ فِي نَاحِيَةِ الْمِصْر ، لاَ يَزُورُهُ إِلاَّ للهِ فِي الْجَنَّة » .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ : وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ » .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفاً يُرَىٰ ظَوَاهِرُهَا مِنْ بَوَاطِنِهَا ، وَبَوَاطِنُهَا مِنْ ظَوَاهِرِهَا ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُتَحَابِّينَ فِيهِ وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيه » .

و(كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم كثيراً ما يزورُ رجلاً مكفوفَ البصرِ بالْمدينةِ ويجلسُ عندَه) .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « زُرْ غِبّاً تَزْدَدْ حُبّاً » .

فيا أَيُّها المرائِي ؛ كيفَ رضيتَ بفسادِ أَمرِك ، حَتَّىٰ ضيَّعتَ أَيَّامَ عُمُرِك ؟! ويا أَيُّها

---

(١) يقال : تنصَّلَ إِليهِ مِنَ الجناية ؛ أَي : خرجَ وتبرأ . اهـ . منه .

الظَّالم ؛ كيفَ ركبتَ الضَّلالَ بعدَ عِلْمِكَ وخُبْرِك ، فلَم تَعملْ صالحاً لِقبرك ؟! وكيفَ آمنتَ بمعادِكَ وحشرِك ، ثمَّ وافقتَ في تركِ العملِ لَه المشرِك ؟! ويحك ، اجتهدْ في أيّام بَذْرِك ، وانتبهْ لإقامةِ عُذرِك ، واحذَرْ أَنْ يُنادىٰ عليكَ بغَدرِك ، فاندمْ علىٰ ما مضىٰ واستدرِك ، أَينَ علامة الإيمانِ يا مَنْ يدَّعيه ؟! أَينَ تأثيرُ الوعظِ يا مَنْ يسمعُهُ ويَعيه ؟! أَينَ اعتبارُكَ بمَنْ حوى الدُّنيا فأصبحَ اللَّحد يَحويه ؟! يا مسؤُولاً عمّا يُسِرُّهُ ويبديه ؛ يا مَنْ نَفْسُهُ في الحقيقةِ مِنْ أكبرِ أَعاديه ، يا مَنْ أَصمَّهُ الهوىٰ ومنادي الهدىٰ يُناديه ، يا مَنْ لا يفيقُ حتَّىٰ يَحلَّ الموتُ بناديه ، نَبِّهْ هـٰذهِ النَّفسَ النّائمة ، أَعلِمْهَا مَا هِيَ عليهِ قادمة ، قُلْ لها : إلىٰ متىٰ يا ظالمة ؟ إلىٰ متىٰ هـٰذهِ الآمالُ والنّاسُ كلُّهم على ارتحال ؟! أَترضىٰ بهـٰذا الحالِ ولَم تُراقبِ الرَّحيمَ المتعال ؟! فيا كثيرَ السَّيِّئاتِ وغزيرَ الرِّياءِ في الصَّلوات ، ومَنْ لَم يُخلِصِ الأَعمالَ في النِّيّات ؛ غداً ـ واللهِ ـ ترىٰ عَمَلك ، ويا هاتِكَ الحرماتِ إلىٰ متىٰ تُديمُ رياءَكَ وزللك ؟! أَما تعلمُ أَنَّ اللهَ مطَّلعٌ علىٰ قَلْبك ؟! أَما تعلمُ أَنَّ الموتَ يَسعىٰ في تبديدِ شَمْلِك ؟! أَما تخافُ أَنْ تُؤْخَذَ علىٰ قبيحِ فِعلِك ؟! وا عجباً لكَ مِنْ راحلٍ تركتَ الزّادَ في غيرِ رَحْلِك! أَينَ فِطنتُكَ ويقظتُكَ وتدبيرُ عقلك ؟! أَما بارزتَ بالقبيح ، فأَينَ التّوبةُ والحزن ؟! أَما دريتَ أَنَّ الحقَّ سبحانَهُ يعلمُ السِّرَّ والعلَن ؟!

فحقيقٌ أَيُّها الإِخوانُ لمَنْ علمَ ما بينَ يديه ، وتيقَّنَ أَنَّ العملَ يكتبُهُ الملكانِ عليه ، وأَنَّهُ لا بدَّ مِنَ الرَّحيلِ عمّا لَدَيْه ، إلىٰ موقفٍ صعبٍ يُساقُ إِليه ، أَنْ يتجافىٰ مِنْ مضجعِ البطالةِ بجَنْبَيْه ، وأَنْ يتذكَّرَ يوماً يقعُ فيهِ الفراقُ وتنفصمُ فيهِ العرىٰ ، فتدبَّرْ أَمركَ أَيُّها المُرائِي قَبْلَ أَنْ تَحضرَ وتَرىٰ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ يومٌ تشيبُ فيهِ الأَطفال ، يومٌ تُسيَّرُ فيهِ الجبال ، يومٌ يظهرُ فيهِ الوبال ، يومٌ تنطقُ فيهِ الأَعضاءُ بما جرىٰ مِنْ خيانةٍ فِي الأَفعالِ والأَقوال ، يومٌ لا تُقالُ فيهِ العثار ، وكم أَعذار تُقال ، فترىٰ مَنْ قدِ افترىٰ يُقدِّمُ قَدَماً ويُؤَخِّرُ أُخرىٰ إِلىٰ ورا ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ يُنصبُ الصِّراطُ فناجٍ وواقع ، ويُوضَعُ الميزان ، فتكثرُ فيهِ الوضائع ، وتُنشرُ الكتبُ وتسيلُ المدامع ، وتظهرُ القبائحُ بينَ تلكَ المجامِع ، ويُؤْلمُ العتابُ ويَملأُ المسامِع ،

ويَخسرُ المرائي والعاصي ، ويَربحُ المخلصُ والطّائع ، وكمْ غنيّ قدْ عادَ مِنَ الخيرِ مُقتّراً ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ .

اللّهُمَّ ؛ اغفرْ لنا ذنوبَنا ، وطهِّرْ قلوبَنا مِنَ النِّفاق ، وأَعمالَنا مِنَ الرِّياءِ قَبْلَ أَنْ تشهدَ علينا الجوارح ، ولا تَكِلْنا إِلىٰ أَنْفُسِنا طَرْفَةَ عَيْن ، وأَصلِحْ لنا شأْنَنا كلَّه ، ونبِّهنا مِنْ رَقَدَاتِ الغفلاتِ وسامِحْنا ، فأَنتَ الحليمُ المسامح .

اللّهُمَّ ؛ مغفرتُكَ أَوسعُ مِنْ ذنوبِنا ، ورحمتُكَ أَرجىٰ عندنا مِنْ أَعمالِنا ، يا مَنْ أَظهرَ الجميلَ وسترَ على القبائح ؛ اغفرْ لنا ولوالدينا وللجماعةِ الحاضرينَ وجميعِ المسلمين ، وانفعنا بما علَّمتنا ، وعلِّمنا ما ينفعُنا ، فمنكَ الفضلُ والمنائح .

وآخِرُ دعوانا أَنِ الحمدُ للهِ ربّ العالَمين ، والصّلاةُ والسّلامُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وآلهِ وصحبهِ أَجمعين .

* * *

المجلس الخامس عشر
في أمارات الساعة من حديث جبريل عليه السلام أيضاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ ذي النِّعم الظَّاهرة ، والحِكَمِ الباهِرَة ، والدِّلالاتِ الزاهرة ، والعقوباتِ القاهِرَة ، خَلَقَ الخلائِقَ مِنْ أُصولٍ متنافرة ، وعمَّ خَلْقَهُ بالأَيادي المتكاثِرَة ، ثمَّ عادَ بالفناءِ على المستحكماتِ النَّاضرة ، فإذا هيَ بالبلىٰ متناثِرَة ، ثمَّ يجمعُهُم بنفخةِ الصُّورِ إلى الدَّارِ الآخِرَة ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ .

أَحمدُهُ على النِّعمِ الغامرة ، حمداً يُعيدُ قفَارَ القلوبِ عامرة ، وأُقِرُّ لَهُ بالتَّوحيدِ علىٰ عقيدةٍ ظاهرة ، وأُصلِّي وأُسلِّمُ علىٰ رسولهِ محمَّدٍ صلاةً تجلبُ لنا صلاةً إلىٰ صلاةٍ إلىٰ عاشرة ، وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ النَّاهضِ يومَ الرِّدَّةِ نهضةً ظافرة ، وعلىٰ عمرَ الَّذي قلقل الأَكاسِرَة ، وعلىٰ عثمانَ ذي المقلةِ الساهرة ، وعلىٰ عليٍّ قامعِ النُّفوسِ الكافرة .

أَمَّا بعد : فنروي بسندِنا إلى الإمامِ مسلمِ بنِ الحجّاجِ النَّيسابوري ، فإنَّهُ قالَ في « جامعهِ الصَّحيح » : عن عبدِ اللهِ بنِ عمر رضيَ اللهُ عنهُما قال : حدَّثني أَبي عمرُ بنُ الخطَّاب ، قال : بينما نحنُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ذات يوم إذ طَلَعَ علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثِّياب ، شديدُ سوادِ الشَّعَر ، لا يُرىٰ عليهِ أَثرُ السَّفر ، ولا يعرِفُهُ منَّا أَحد ، حتَّىٰ جلسَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فأَسندَ رُكبتيهِ إلىٰ رُكبتيه ، ووضَعَ كفَّيهِ علىٰ فخذيه ، وقال : يا محمَّد ؛ أَخبرني عنِ الإِسلام ؟ .

فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الإِسْلاَم : أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ، وَتُقِيمَ الصَّلاَة ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاة ، وَتَصُومَ رَمَضَان ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً » قال : صدقت . قال : فعَجِبنا لَهُ يَسأَلُهُ ويُصدِّقُه . قال : فأَخبرني

عنِ الإيمانِ . قال : « أَنْ تُؤْمِنَ بِالله ، وَمَلاَئِكَتِه ، وَكُتُبِه ، وَرُسُلِه ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّه » قال : صدقت . قال : فأَخبرني عنِ الإحسان ؟ قال : « أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاه ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاه . . فَإِنَّهُ يَرَاكَ » قال : فأَخبرني عنِ السَّاعة ؟ قال : « مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » قال : فأَخبرني عنْ أَماراتِها . قال : « أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاء يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَان » قال : ثمَّ انطلق ، فلبثَ مليّاً ، ثمَّ قالَ لي : « يَا عُمَر ؛ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلِ ؟ » قلت : اَللهُ ورسولُهُ أَعلم . قال : « فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُم » .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ : قد تقدَّمَ الكلامُ في الدُّروسِ الماضيةِ علىٰ هـٰذا الحديثِ واختلافِ رواياته ، وبقي الكلامُ في هـٰذا الدَّرسِ علىٰ ما يتعلَّقُ بقولهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ في السّاعة : « مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » والكلامُ علىٰ أَماراتِها .

فقد قالَ العلماء عليهِمُ الرَّحمة : قولُه : فأَخبرني عنِ السَّاعة ؛ أَي : وقتِ القيامة . وسمِّيتِ ساعةً ؛ لسرعةِ قيامِها ووقوعِها بغتة ، أَو لأَنَّها عندَ اللهِ تعالىٰ كساعةٍ مِنَ السّاعاتِ عندَ الخلق .

قالَ بعضُ الفضلاء : ليسَ السُّؤَالُ عن وقتِ مجيئِها لِيَعْلَمَهُ الحاضرون ، بل لينزَجروا عنِ السُّؤَالِ عنها ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

والسَّاعةُ :

صغرىٰ ؛ وهي : موتُ الشَّخصِ نَفْسِه ، كما قيل : مَنْ ماتَ فقد قامت قيامتُه .

ووسطىٰ ؛ وهي : موتُ أَهلِ القرنِ كما وردَ في « الجامعِ الصَّغير » : « لاَ تَأْتِي مِئَةُ سَنَةٍ وَعَلَى الأَرْضِ نَفْسٌ مَنْفُوسَة » .

وكبرىٰ ؛ وهيَ : المعنيَّةُ في هٰذا الحديث ، وإِنكارُها كفرٌ والعياذُ باللهِ تعالىٰ ، وبها وردتِ الآياتُ الكريمةُ والأَحاديثُ العظيمةُ الآتي ذِكرُها إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ في هٰذا الدَّرس ، ولها أَماراتٌ وعلاماتٌ متقدِّمةٌ عليها .

فمِنها : بعثةُ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم الَّذي هوَ خاتمُ النَّبيِّينَ وعاقِبُ المرسلين ، وقد وردَ في الأَثرِ أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قال : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْن » وأَشارَ بِأُصبُعَيهِ الشَّريفتَين .

ومِنها : وفاتُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام .

ومِنها : فتحُ بيتِ المقدس .

ومِنها : قتلُ أَميرِ المؤمنينَ عثمان .

ومِنها : وقعةُ الجمل ، ووقعةُ صِفِّين ، فقد صحَّ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيمَتَانِ تَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَة ، دَعْوَاهُمَا وَاحِدَة » .

ومِنها : وقعةُ النَّهروان .

ومِنها : وقعةُ كربلاء ، ووقعةُ الحرَّة ، وقتلُ ابنِ الزبير ، ورميُ الكعبةِ بالمنجنيق ، وما جرىٰ في ذلكَ ممّا لا يَحسنُ ولا يليق .

ومِنها : نارُ الحجازِ الَّتي أَضاءَتْ مِنها أَعناقُ الإِبلِ ببصرىٰ .

ومِنها : خروجُ المبتدعةِ والكذّابينَ الدَّجالين .

ومِنها : زوالُ ملكِ العرب ، كما رواهُ التّرمذي .

ومِنها : كثرةُ المال ، وكثرةُ الزّلازلِ والمسخ ، وغيرُ ذلكَ ممّا أَخبرَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ مِنْ أَماراتِ السَّاعةِ فظهرَ ومضىٰ .

ومِنْ أَماراتِها ما وردَ في هٰذا الحديثِ الشَّريف ، مِنْ قوله : فأَخبرني عن أَماراتِها ؟ وهيَ بفتحِ الهمزةِ وبالتّاء ، وهيَ والأَمارُ بحذفِ الهاء : العلاَمة .

وقولُهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلام : « مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » فيهِ دلالةٌ علىٰ أَنَّهُ ينبغي لِلعالِمِ والمفتي وغيرِهما إِذا سُئِلَ عمّا لا يعلمُ أَنْ يقول : لا أَعلم ، وأَنَّ ذلكَ لا ينقصه ، بل يُستدلُّ بهِ علىٰ ورعهِ وتقواهُ ووفورِ عِلْمهِ كما اتَّفقَ لإِمامِنا الأَعظمِ وغيرِهِ مِنَ الأَئِمَّةِ الأَعلام .

وقولُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا » وفي الرِّوايةِ الأُخرىٰ : « رَبَّهَا » على التَّذكيرِ وفي الأُخرىٰ : « بَعْلَهَا » يعني السّراري ، ومعنىٰ ذلك : سيِّدَها ومالكَها ، وسيِّدَتَها ومالِكَتها .

قالَ النَّووي عليهِ الرَّحمة : قالَ الأَكثرونَ مِنَ العلماء : هوَ إِخبارٌ عن كثرةِ السَّراري وأَولادهن ، فإِنَّ ولدَها مِنْ سيِّدها بمنزلةِ سيِّدها ؛ لأَنَّ مالَ الإِنسانِ صائرٌ إِلىٰ ولده ، وقد يتصرَّفُ فيهِ في الحالِ تصرُّفَ المالكين ، إِمّا بتصريحِ أَبيهِ له بالإِذنِ وإِمّا بما يَعلمُهُ بقرينةِ الحالِ أَو عُرفِ الاستعمال .

وقيل : معناهُ أَنَّ الإِماءَ يَلِدْنَ الملوك ؛ فتكونَ أُمُّهُ مِنْ جملةِ رعيَّتِهِ وهوَ سيِّدُها وسيِّدُ غيرِها مِنْ رعيَّته .

وقيل : معناهُ أَنَّهُ تفسدُ أَحوالُ النّاسِ فيكثرُ بيعُ أُمَّهاتِ الأَولادِ في آخِرِ الزَّمان ، فيكثرُ ترداذُها في أَيدي المشترينَ حتَّىٰ يشتريَها ابنُها ولا يدري .

وأَمّا روايةُ « بَعْلَهَا ».. فالصَّحيحُ في معناه : أَنَّ البعلَ هوَ المالكُ أَوِ السَّيِّد ، فيكونُ بمعنىٰ ربِّها علىٰ ما ذكرناه . قالَ أَهلُ اللُّغة : بعلُ الشَّيءِ .. رَبُّهُ ومالكُه .

وقيل : المرادُ بهِ الزَّوج . ومعناهُ نحو ما تقدَّمَ أَنَّهُ يكثرُ بيعُ السَّراري ؛ أَي : المملوكات ، حتَّىٰ يتزوَّجَ الإِنسانُ أُمَّهُ وهوَ لا يدري ، فذلكَ مِنْ أَماراتِ السّاعة .

ومِنها : أَنْ ترى الحفاةَ العراةَ العالةَ رِعاءَ الشّاء يتطاولونَ في البنيان .

والحفاة ـ جمعُ حاف ـ وهو : ما لا نعلَ في رِجْله .

والعراة ـ جمعُ عار ـ وهو : الَّذي لا شيءَ علىٰ جسده .

والعالة ـ جمعُ عائِل ـ وهو : الفقير ، والعَيلةُ : اَلفقر ، وعالَ الرَّجُلُ يعيلُ عيلة ؛ أَي : افتقر .

والرِّعاء ـ بكسرِ الرّاءِ وبالمد ، ويقالُ فيهم : رُعاة ، بضمِّ الرّاءِ وزيادةِ الهاءِ بلا مد ، ومعناهُ كما قالَ النَّووي ـ : إِنَّ أَهلَ الباديةِ وأَشباهَهُم مِنْ أَهلِ الحاجةِ والفاقةِ تُبسطُ لَهمُ الدُّنيا ، وتكثرُ أَموالهُم ويستولونَ علىٰ أَهلِ الحاضرة ، فيتباهونَ في البنيانِ بتشييدهِ وارتفاعه .

قالَ العلماء : إِنَّ ارتفاعَ البنيانِ وتشييدهُ مِنْ غيرِ حاجةٍ ضروريةٍ مذموم ، كما قيل : بيتُ العنكبوتِ كثيرٌ علىٰ مَنْ يموت .

وقد وردَ في الأَثرِ عن سيِّدِ البشرِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « يُؤْجَرُ ابْنُ آدَمَ فِي نَفَقَتِهِ كُلِّهَا إِلاَّ مَا يُضَيِّعُهُ فِي هَـٰذَا التُّرَاب » حتَّىٰ قالَ العلماء : إِنَّ زخرفةَ المساجدِ مذمومةٌ شرعاً ، حتَّىٰ إِنَّ ذلكَ مِنْ جملةِ أَماراتِ السّاعةِ أَيضاً ، وقال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِذَا اتُّخِذَ الْفَيءُ دُوَلاً ، وَالأَمَانَةُ مَغْنَماً ، وَالزَّكَاةُ مَغْرَماً ، وَتُعُلِّمَ لِغَيْرِ دِين ، وَأَطَاعَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ وَعَقَّ أُمَّهُ ، وَأَدْنَىٰ صَدِيقَهُ وَأَقْصَىٰ أَبَاه ، وَظَهَرَتِ الأَصْوَاتُ فِي الْمَسَاجِد ، وَسَادَ الْقَبِيلَةَ فَاسِقُهُم ، وَكَانَ زَعِيمَ الْقَوْمِ أَرْذَلُهُم ، وَأُكْرِمَ الرَّجُلُ مَخَافَةَ شَرِّه ، وَظَهَرَتِ الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَازِف ، وَشُرِبَتِ الْخُمُورُ ـ وفي رواية وَلُبسَ الحَرِير ـ وَلَعَنَ آخِرُ هَـٰذِهِ الأُمَّةِ أَوَّلَهَا . . فَارْتَقِبُوا عِنْدَ ذَلِكَ رِيحاً حَمْرَاء ، وَ زَلْزَلَةً وَخَسْفاً وَمَسْخاً وَقَذْفاً ، وَآيَاتٍ تَتَابَعُ كَنِظَامٍ بَالٍ قُطِعَ سِلْكُهُ فَتَتَابَع » .

ومِنها : ما رويَ عنهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ أَنَّهُ قال : « إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيْطَاءَ ـ أَي : التَّبختر ـ وَخَدَمَتْهُمْ أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ أَبْنَاءُ فَارِسَ وَالرُّوم . . سَلَّطَ اللهُ شِرَارَهُمْ عَلَىٰ خِيَارِهِم » وَرُوِيَ : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ لُكَعُ ابْنُ لُكَع » .

ومِنها : ما رواهُ البخاري عن أَنس رضي الله عنه ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَة : أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْم ، وَيَثْبُتَ الْجَهْل ، وَيُشْرَبَ الْخَمْر ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا » .

وقالَ العلماء : ليسَ المرادُ برفعِ العلمِ محوهُ مِنْ صدورِ الحفّاظِ وقلوبِ العلماء ؛ فإِنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ لا يَهبُ العِلمَ لِخَلْقهِ ثمَّ ينتزعُهُ منهُم بعدَ أَنْ تفضّلَ عليهِم به ، تعالى اللهُ أَنْ يسترجعَ ما وهبَ مِنْ عِلمهِ الَّذي يُؤَدِّي إِلىٰ معرفتهِ والإِيمانِ بهِ وبرسله ، وإِنَّما يكونُ قبضُ العِلمِ بموتِ العلماءِ وعدمِ المتعلِّمين ، فلا يوجدُ فيمَنْ يبقىٰ مَنْ يَخلُفُ مَنْ مضىٰ ، قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَاد ، وَلَـٰكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِمَوْتِ الْعُلَمَاء ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِم . . اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالاً ، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا » .

ثمَّ موتُ العلماءِ نقصٌ في الدِّين ، كما قالَ عطاءٌ وجماعةٌ في قولهِ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ نُقصانُها موتُ العلماءِ وذهابُ الفقهاء .

وقالَ ابنُ مسعود : موتُ العالمِ ثلمةٌ في الإِسلامِ لا يسدُّها شيءٌ ما اختلفَ اللَّيلُ والنَّهار .

وقالَ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : موتُ أَلفِ عابدٍ صائمِ النَّهارِ قائمِ اللَّيلِ أَهونُ مِنْ موتِ عالم .

وقالَ سليمان : لا يزالُ النّاسُ بخيرٍ ما بقيَ الأَوّلُ حتَّىٰ يتعلَّمَ الآخِر .

وفضائلُ العلمِ كثيرةٌ لا يَسعُ ذِكرَها هـٰذا المجلس ، والمقصدُ الآنَ أَنَّ قلَّةَ العِلمِ وفُشُوَّ الجهلِ في الأَحكامِ الشَّرعيَّةِ . . مِنْ أَماراتِ السّاعة ، كما في زمانِنا هـٰذا مِنْ تَرْكِ أَكثرِ النّاسِ تعلُّمَ أُمورِ دينِهم وحضورِهم لسماعِ القصّاصينَ في الأَماكنِ المذمومة ، وجلوسِهم في المحالِّ الغيرِ المشروعة ، وبذلِ دراهمِهم للمحرّماتِ الممنوعة ، وصرفِ نقدِ عُمُرِهم في الأَحوالِ الَّتي لا تفيدُ في الحالِ والمآل .

ومِنها : شربُ الخمورِ وكثرةُ المسكرات ، كما وردَ في بعضِ الأَحاديثِ المتقدِّمةِ وهوَ مِنَ الكبائر ، روىٰ أَبو داوود : « لَعَنَ اللهُ الْخَمْرَ وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا ، وَمُبْتَاعَهَا وَبَائِعَهَا ، وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا ، وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْه » وفي رواية : « وآكِلَ ثَمَنِهَا » .

وروىٰ أَيضاً : « مَنْ بَاعَ الْخَمْرَ . . فَلْيُشَقِّصِ[1] الْخِنْزير » أَي : لا فَرقَ بَينهمَا فِي الحُرمة .

وعنهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلام : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ . . فَلاَ يَجْلِسْ عَلَىٰ مَائِدَةٍ يُشْرَبُ عَلَيْهَا الْخَمْر » .

وروى النَّسائي : « كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَام » وَ« مَنْ يَشْرَبِ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يَتُب . . لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الآخِرَة » ورويَ أَنَّ (شرابَ شاربي الخمرِ في جهنَّم مِنْ طينةِ الخَبال ، وهيَ صديدُ أَهلِ النّار) .

ورويَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « إِنَّ مَلِكاً مِنْ مُلُوكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَذَ رَجُلاً ، فَخَيَّرَهُ بَيْنَ أَنْ يَشْرَبَ الْخَمْر ، أَوْ يَقْتُلَ نَفْساً ، أَوْ يَزْنِي ، أَوْ يَأْكُلَ لَحْمَ خِنْزير ، أَوْ يَقْتُلُوه . . فَاخْتَارَ الْخَمْر ، وَأَنَّهُ لَمّا شَرِبَهَا لَمْ يَمْتَنِعْ مِنْ شَيءٍ أَرَادُوهُ وَفَعَلَ جَمِيعَ ذَلِك » .

وللهِ درُّ ابنِ الورديِّ حيثُ يقول :

واهْجُـرِ الْخَمْـرَةَ إِنْ كُنْـتَ فَتَـىٰ ... كَيْـفَ يَسْعَـىٰ فِي جُنُـونٍ مَـنْ عَقَـلْ

ومِنها ـ كما وردَ في الحديث ـ : قلَّةُ الرِّجالِ وكثرةُ النِّساءِ حتَّىٰ يكونَ لخمسينَ امرأَةً القيِّمُ الواحد .

ومِنها : ما رويَ عن حذيفةَ الغفاري رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : اطَّلَعَ عَلَيْنا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ونحنُ نتذاكر ، فقال : « مَا تَتَذَاكَرُون » قلنا : نذكرُ السّاعة ، فقالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلام : « إِنَّها لَنْ تَقُومَ حَتَّىٰ تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَات » فذكرَ عليهِ الصّلاةُ والسّلام : الدُّخان ، والدَّجّال ، ودابَّةَ الأَرض ، وطلوعَ الشَّمسِ مِنْ مغربِها ، ونزولَ عيسىٰ عليهِ السّلام ، وخروجَ يأْجوجَ ومأْجوج ، وثلاثةَ خسوف : خسفٌ بالمشرق ، وخسفٌ بالمغرب ، وخسفٌ بجزيرةِ العرب ، وآخِرُ ذلكَ نارٌ تخرجُ مِنَ اليمنِ تطردُ النّاسَ إِلىٰ محشرِهم . اهـ

(١) شقَّص : قطَّع ، والمراد كأنه استحلَّ أكلها .

قالَ العلاَّمةُ السّفارينيُّ في « منظومته » :

وَمَا أَتَىٰ فِي النَّصِّ مِنْ أَشْرَاطِ ... فَكُلُّهُ حَقٌّ بِلاَ شَطَاطِ

مِنْهَا الإِمَامُ الْخَاتَمُ الْفَصِيحُ ... مُحَمَّدُ الْمَهْدِيُّ وَالْمَسِيحُ

وَأَنَّهُ يَقْتُلُ لِلدَّجَّالِ ... بِبَابِ لُدٍّ خَلِّ عَنْ جِدَالِ

وَأَمْرَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ اثْبِتِ ... فَإِنَّهُ حَقٌّ كَهَدْمِ الْكَعْبَةِ

وَدَابَّةٌ وَآيَةُ الدُّخَانِ ... وَأَنَّهُ يُذْهَبُ بِالْقُرْآنِ

طُلُوعُ شَمْسِ الأُفْقِ مِنْ دُبُورِ ... كَذَاتِ أَجْيَادٍ عَلَى الْمَشْهُورِ

فَكُلُّهَا صَحَّتْ بِهَا الأَخْبَارُ ... وَسَطَّرَتْ آثَارَهَا الأَخْيَارُ

وَآخِرُ الآيَاتِ حَشْرُ النَّارِ ... كَمَا أَتَىٰ فِي مُحْكَمِ الأَخْبَارِ

ولنذكر مفصّلَ ذلك ، فنقول : إنَّ هٰذهِ العلاماتِ العشرَ هي الآياتُ الكبارُ القريبةُ لقيامِ السّاعة .

فمنها : خروجُ المهدي رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه على القولِ الأصحِّ عندَ أكثرِ العلماء ، ولا عبرةَ بمَنْ أنكرَ مجيئَهُ مِنَ الفضلاءِ وإنِ استدلّ بما في بعضِ الرِّواياتِ الضَّعيفة : « لاَ مَهْدِيّ إلاَّ عِيسَىٰ » حتَّىٰ قالَ ابنُ حجرٍ في « الصّواعق » ما نصُّه : (قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ قالَ مقاتلُ بنُ سليمانَ ومَنْ تبعَهُ مِنَ المفسِّرين : إنَّ هٰذهِ الآيةَ نزلَتْ في المهدي) اهـ

وأقول : أوّلُ الآيةِ يُشعرُ بأنّها في حقِّ عيسىٰ عليهِ السّلامُ وإشارةٌ إلىٰ نزوله ، وأَنَّهُ مِنْ أشراطِ السّاعة ، قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ ثمَّ قالَ سبحانَه : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ .

وفي مجيءِ المهديِّ أحاديثُ عديدة :

فقد روىٰ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّىٰ يَمْلِكَ الْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ، يُوَاطِىءُ اسْمُهُ اسْمِي » .

وفي روايةِ أَبي هريرة رضي الله عنه : « لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ يَوْم . . لَطَوَّلَ اللهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيهِ رَجُلاً مِنِّي ـ أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ـ يُوَاطِىءُ اسْمُهُ اسْمِي ، وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِي ، يَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً ، كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً » .

وفي رواية : « يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِين » .

وفي أُخرىٰ : « ثَمَانٍ أَو تِسْعَ سِنِين ، ثُمَّ يُتَوَفَّىٰ وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ مَعَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَم ، وَيُدْفَنُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِس » .

وفي رواية : « يَحْكُمُ أَرْبَعِينَ سَنَة » .

قالَ في « الإِشاعة » : (وهوَ الَّذي تقتضيهِ بشارةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم به ، وأَنَّ اللهَ تعالىٰ يُعوِّضُهم عنِ الظُّلمِ عدلاً .

واللاَّئقُ بكرمهِ تعالىٰ أَنْ تكونَ المدّةُ بقدرِ ما ينسونَ فيها الظُّلمَ السّابق ، معَ أَنَّهُ في مدَّتهِ تفتحُ الدُّنيا كما فتحَها ذو القرنينِ وسليمانُ عليهِ السّلام ، وهٰذا يقتضي مدَّةً طويلةً معَ ما وردَ أَنَّ الأَعمارَ تطولُ في زمانهِ فطولُها مستلزمٌ لطولِ مدَّته ، والتّسعُ ليست مِنَ الطُّولِ في شيء) اهـ

واختُلفَ في نَسَبه :

ـ فقيل : مِنْ أَولادِ العبّاسِ بنِ عبدِ المطَّلب .

ـ وقيل : مِنْ أَولادِ الحسن .

ـ والأَصح أَنَّهُ مِنْ أَولادِ الحسين .

قيل : وأُمُّهُ مِنْ أَولادِ العبّاس .

وفي « شرحِ عقيدةِ السّفاريني » ما ملخَّصُه : إِنَّ المهديَّ هوَ خاتمُ الأَئمَّة ، فلا إِمامَ بعدَه ، واسمُهُ محمَّد ، وفي بعضِ الأَخبارِ أَحمد ، واسمُ أَبيهِ عبدُ الله ، واشتهرَ بالمهدي ؛ لأَنَّهُ يهدي إِلىٰ أَمرٍ خفي ، ويَستخرجُ التَّوراةَ والإِنجيلَ مِنْ أَرضٍ يقالُ لَها : أَنطاكيّة ، أَو مِنْ جبالِ الشّام ، ويدعو إِليها اليهود ، فيُسلمُ علىٰ تلكَ جماعةٌ كثيرة .

وحليتُهُ كما في الأحاديث : أَنَّهُ رجلٌ رَبعة ، مشرَّبٌ بحُمرة ، ووجهُهُ كالكوكبِ الدُّرِّي ، ولونُهُ لونُ عربي ، وجسمُهُ جسمُ إسرائيلي ، يرضىٰ عن خلافتهِ أَهلُ الأَرضِ وأَهلُ السَّماءِ والطَّيرُ في الجو ، يملكُ عشرينَ سَنة .

وروى ابنُ مسعود رضي الله عنه : « الْمَهْدِيُّ مِنِّي أَجْلَى الْجَبْهَةِ أَقْنَى الأَنْف » .

وعن عبدِ الرَّحمـٰنِ بنِ عوف رضي الله عنه عنهُ صلَّى ٱللهُ عليهِ وسلَّم : « لَيَبْعَثَنَّ اللهُ فِي عِتْرَتِي رَجُلاً أَفْرَقَ الثَّنَايَا أَجْلَى الْجَبْهَة ، يَمْلأُ الأَرْضَ عَدْلاً ، وَيَقْبِضُ الْمَالَ قَبْضاً » .

وفي حديثٍ آخَر : « فِي خَدِّهِ الأَيْمَنِ خَالٌ أَسْوَد ، اِبْنُ أَرْبَعِينَ سَنَة » .

وفي آخر : « يَسْتَخْرِجُ الْكُنُوزَ وَيَفْتَحُ مَدَائِنَ التُّرْك » .

وعن أَبي جعفرٍ محمَّدٍ الباقر قال : سُئلَ أَميرُ المؤمنينَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَهُ عن صفته ، فقال : هو شابٌّ مربوع ، حسنُ الوجه ، يَسيلُ شعرهُ علىٰ مَنْكِبَيْه ، يعلو نورَ وجهِهِ سوادُ شعرهِ ولحيتهِ ورأْسه .

وفي أُخرىٰ عنه : أَنَّهُ كثُّ اللِّحية ، أَكحلُ العينين ، برّاقُ الثَّنايا ، في وجههِ خالٌ ، أَقنىٰ ، في كتفهِ علامةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم .

وفي روايةٍ لأَبي نُعيم : بِكَفِّهِ الْيُمْنَىٰ خال .

وفي رواية : في لِسانهِ ثِقل ، وإِذا أَبطأَ عليهِ الكلام . . ضربَ فخذهُ الأَيسرَ بيدهِ اليُمنىٰ .

قالَ العلماء : اَلمهديُّ يُقاتِلُ على السُّنَّة ، لا يتركُ سُنَّةً إِلاَّ أَقامَها ، ولا بدعةً إِلاَّ رفعَها ، يكسرُ الصَّليبَ ويقتلُ الخنزير ، ويَردُّ إِلى المسلمينَ أُلفتَهُم ونعمتَهُم .

ولظهورهِ علاماتٌ جاءَتْ بها الآثار . .

فمِنها : كسوفُ الشَّمسِ والقمر ، ونجمُ الذَّنب ، والظُّلمة ، وسماعُ الصَّوتِ برمضان ، وتحاربُ القبائلِ بذي القعدة ، وظهورُ الخسفِ والفتن ، وأَنَّ معَهُ قميصَ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وسيفَهُ ورايتَه ، ويغرسُ قضيباً يابساً في أَرضٍ يابسةٍ

فَيَخضرُّ ويُورق ، ويُطلَبُ منهُ آيةٌ فيومىءُ إِلىٰ طيرٍ في الهواءِ بيدهِ فيسقطُ علىٰ يده ، وينادي منادٍ مِنَ السّماء : أَيُّها النّاس ؛ إِنَّ اللهَ قطعَ عنكُمُ الجبّارينَ والمنافقينَ وأَشياعَهُم وولاَّكُم خيرَ أُمَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فالحقُوهُ بمكةَ فإِنَّهُ المهدي ، ويُخرجُ كنزَ الكعبةِ المدفونَ فيها فيقسمُهُ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ .

وعن عليٍّ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَه : أَنَّهُ سيُخرجُ تابوتَ السّكينةِ مِنْ غارِ أَنطاكيّة ، أَو مِنْ بحيرةِ طبريّةَ فيوضعُ بينَ يديهِ ببيت المقدس ، فإِذا نظرَ إِليهِ اليهود . أَسلموا ، إِلاَّ قليلاً منهُم ، وتأْتيهِ الرّاياتُ السُّودُ مِنْ خراسانَ فيرسلونَ إِليهِ البيعة ، وينشقُّ الفراتُ فينحسرُ عن جبلٍ مِنْ ذهب .

وذكروا أَنَّهُ ينكسفُ القمرُ أَوّلَ ليلةٍ مِنْ رمضان ، والشَّمسُ ليلةَ النِّصف ، ولعلَّ ذلكَ خرقٌ للعادة ، وإِلا . . فانكسافُ القمرِ ليلةَ الإِبدارِ والشَّمسُ أَيّامَ الإِسرار .

وقالَ كعبُ الأَحبار : ينكسفُ ثلاثَ ليالٍ متواليات ، ورُوي عنه : أَنَّهُ يطلعُ نجمٌ بالمشرقِ ولَه ذَنَبٌ يُضيءُ كما يُضيءُ القمرُ ينعطفُ حتَّىٰ يلتقيَ طرفاهُ أَو يكاد .

وفي الدَّيلمي : « تَكُونُ هَزَّةٌ في رَمَضَانَ هَائِلَةٌ » .

ومِنْ علاماتِهِ : خسفُ قريةٍ ببلاد الشّامِ يقالُ لها : حرستا . كما قالَهُ في كتابِ « الإِشاعة » .

وفيه : أَنَّهُ إِذا انحسرَ الفراتُ عن جبلٍ ذَهَب . . يقتتلونَ عليه .

ورويَ أَنَّهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ قال : « مَنْ حَضَرَ . . فَلاَ يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئاً » .

ورويَ أَنَّهُ قال : « إِنَّ بيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ كَذَّابِين فَاحْذَرُوهُم » .

وفي أُخرىٰ : « أَنَّهُم دَجّالُونَ كَذَّابُون ، قَرِيباً مِنْ ثَلاَثِين ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ » .

ورويَ عن جعفرٍ الصّادقِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : أَنَّهُ لا يظهرُ إِلاَّ علىٰ خوفٍ شديدٍ مِنَ النّاس ، وزلزال ، وفتنة ، وبلاءٍ يصيبُ النّاس ، والطَّاعونُ قبلَ ذلك ، وسيفٌ قاطعٌ بينَ العرب ، واختلافٌ شديدٌ في النّاسِ وتشتُّتٌ في دِينهم وتغيُّرٌ في حالِهم ، حتَّىٰ

يُتمنّى الموتُ صباحاً ومساءً مِنْ عظيمِ ما يرى مِنْ كَلَبِ النّاسِ وأَكْلِ بعضِهِم بعضاً ، فحينئذٍ يخرج ، فطوبىٰ لمَنْ أَدركَهُ وكانَ مِنْ أَنصارِه ، والويلُ لمَنْ خالفَه .

وقالَ محمَّدُ بنُ الصّامت : قلتُ للحسينِ بنِ علي رضيَ اللهُ عنهُما : أَما مِنْ علامةٍ لظهورِ المهدي ؟ قال : بلىٰ ؛ هلاكُ بني العبّاس ، وخروجُ السّفياني ، والخسفُ بالبيداء .

قالَ السّفاريني : ومِنْ أَقوى العلاماتِ خروجُ السّفياني ، والأَبقع ، والأَصهب ، والأَعرج ، والكندي .

أَمّا السّفياني : فاسمهُ عروة ، قيل : وهوَ مِنْ ولدِ خالدِ بنِ يزيدَ بنِ أَبي سفيان ، ملعونٌ في السّماءِ والأَرض ، يخرجُ مِنْ ناحيةِ دمشق ، وعامَّةُ أَتباعهِ مِنْ كلبٍ ، ويُخسفُ بهِم .

والأَبقعُ : يخرجُ مِنْ مصر ، أَو مِنْ بلادِ الجزيرة .

والجرهميُّ مِنَ الشّام ، ويخرجُ القحطانيُّ مِنْ بلادِ اليمنِ ويتقاتلونَ فيقتلهُمُ السُّفياني ، ثمَّ يقاتلُ التُّركَ فيظهرُ عليهِم ، ثمَّ يفسدُ في الأَرضِ ويدخلُ الزّوراءَ ويقتلُ مِنْ أَهلِها ، ثمَّ يخرجُ وراءَ النَّهرِ خارجٌ يقالُ لَه : الحارث ، واجبٌ علىٰ كلِّ مؤمنٍ نصرُه ، ويثورُ أَهلُ خراسانَ بعساكرِ السُّفيانيِّ وتكونُ بينَهُم واقعات ، ثمَّ إِنَّهُ يُقتلُ علىٰ يدِ المهدي .

وأَمّا مولدُ المهديِّ وبيعتُه : فقد أَخرجَ نعيمُ بنُ حمّاد ، عن عليِّ بنِ أَبي طالب كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَه قال : مولدُهُ بالمدينة ، ومهاجرُهُ بيتُ المقدس .

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاص رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : يخرجُ مِنْ قريةٍ يقالُ لَها : كريمة .

وأَمّا بيعتُه : فيُبايَعُ بمكَّةَ المشرَّفةَ بينَ الرُّكنِ والمقامِ ليلةَ عاشوراء .

وإِذا هاجرَ المهديُّ مِن المدينةِ إِلىٰ بيتِ المقدِس . . تخربُ المدينةُ بعدَ هجرتهِ وتصيرُ مأْوىً للوحش ، وقد وردَ : أَنَّ عَمَارَ بيتِ المقدِسِ خرَابُ يثرب ، وفي حديثِ

قتادة : يخرجُ المهديُّ مِنَ المدينةِ إلىٰ مكَّة ، وفي خبرٍ : أَنَّ السُّفيانيَّ يَبعثُ جيشاً إلىٰ مكَّةَ فيأْمرُ بقتلِ مَنْ كانَ فيها مِنْ بني هاشم ، فيقتتلونَ ويهربونَ إلى الجبالِ حتَّىٰ يظهرَ المهديُّ فيطلبونَهُ فيصيبونَهُ بمكَّة ، فيقولون : أَلستَ فلاناً ؟ فيقول : بلىٰ ، أَنا رجلٌ مِنَ الأَنصار ، ثمَّ يلحقُ بالمدينةِ فيطلبونَهُ فيرجعُ إلىٰ مكَّة ، وهٰكذا ثلاثَ مرّات ، فيصيبونَهُ بمكَّةَ في الثّالثة ، فيبايعونَهُ بينَ الرُّكنِ والمقامِ وقد أَقبلَ عسكرُ السُّفياني ، وأَنصارُ المهديِّ مِنْ أَهلِ الشّامِ عددُ أَصحابِ بدر ، ثمَّ يتوجَّهُ إلى المدينةِ ومعَهُ المؤمنون ، ثمَّ يسيرُ إلىٰ جهةِ الكوفة ، ثمَّ يعودُ منهزماً مِنْ جيشِ السُّفيانيِّ إلى الشَّامِ فيُخرجُ اللهُ تعالىٰ على السُّفيانيِّ مِنْ أَهلِ المشرقِ وزيرَ المهديِّ فيهزمُ السُّفيانيَّ إلى الشَّام ، فيقصدُهُ المهديُّ فيذبحُهُ عندَ عتبةِ بيتِ المقدسِ ويغنمُهُ ومَنْ معَهُ مِنْ أَخوالهِ الّذينَ هُم جندهُ مِنْ بني كلبٍ غنيمةً عظيمة .

وفي حديثٍ آخَر : « لاَ تُحشَرُ أُمَّتِي حَتَّىٰ يَخْرُجَ الْمَهْدِي ، يُمِدُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَة ، وَيَخْرُجُ إِلَيْهِ الأَبْدَالُ مِنَ الشَّام ، وَالنُّجَبَاءُ مِنْ مِصْر ، وَعَصَائِبُ أَهْلِ الْشَّرْقِ حَتَّىٰ يَأْتُوا مَكَّةَ فَيُبَايَعُ لَهُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَام ، ثُمَّ يَتَوَجَّهُ إِلَى الشَّام وَجِبْرِيلُ عَلَىٰ مُقَدِّمَتِهِ وَمِيكَائِيلُ عَلَىٰ يَسَارِه ، وَمَعَهُ أَهْلُ الْكَهْفِ أَعْوَانٌ له ، فَيَقْدُمُ إِلَى الشَّام وَيَأْخُذُ السُّفْيَانِيَّ فَيَذْبَحُهُ تَحتَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَغْصَانُهَا إِلَىٰ بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّة ، ثُمَّ تُمَهَّدُ الأَرْضُ لَهُ وَتَدْخُلُ فِي طَاعَتِهِ مُلُوكُ الأَرْضِ كُلُّهُم » .

وقدِ اختُلفَ في مدَّته ، فقيل : خمساً ، أَو سبعاً ، أَو ثلاثين ، أَو أَربعينَ سنة .

ويفتحُ القسطنطينيّةَ وروميةَ المدائنِ وغيرَهما ، ثمَّ يستمرُّ حتَّىٰ يُسلِّمَ الأَمرَ لسيِّدنا عيسىٰ عليهِ السّلام ، ويُصلِّي المهدي رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه بعيسىٰ عليهِ السّلامُ صلاةً واحدةً وهيَ صلاةُ الفجر ، ثمَّ يستمرُّ المهديُّ على الصّلاةِ خلفَ سيِّدنا عيسىٰ عليهِ السّلامُ بعدَ تسليمهِ الأَمرَ إليه ، ويخرجُ معَ عيسىٰ عليهِ السّلامُ فيساعدُهُ علىٰ قتلِ الدَّجال ـ عليهِ اللَّعنة ـ ببابِ لُدٍّ بأَرضِ فلسطين ، كما سنفصِّلُهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، ثمَّ يموتُ المهديُّ ويُصلِّي عليهِ روحُ اللهِ عيسىٰ عليهِ السّلامُ ويدفنُهُ في بيتِ المقدس . اهـ

وهٰذا الَّذي ذكرناهُ في أَمرِ المهديِّ هوَ الصَّحيحُ مِنْ أَقوالِ أَهلِ السُّنَّةِ والجماعة ،

وأمّا عندَ الشِّيعَة . . فقدِ اختلفوا فيهِ أيضاً علىٰ أقوالٍ شتَّىٰ ، والمشهورُ مِنْ مذاهبِهِم مذهبُ الإماميّةِ الاثني عشريّة : أَنَّ المهديَّ هوَ محمَّدُ بنُ الحسنِ العسكري ، بنِ عليٍّ الهادي ، بنِ محمَّد الجواد ، بنِ علي الرِّضا ، بنِ موسى الكاظم ، بنِ جعفرَ الصَّادق رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُم ، ويُعرَفُ عندَهُم بالحجَّةِ والمنتظَر والقائِم ، وهوَ الَّذي غابَ في سِردابِ دارِ أَبيهِ في سامرّاءَ صغيراً وأُمُّهُ تنظرُ إليه ، وذلكَ في سنةِ خمسٍ وستِّينَ ومئتين ، وهوَ حيٌّ الآنَ موجودٌ في الدُّنيا ، وهـٰذا معَ بُعدهِ في العقلِ لا يُؤَيِّدُهُ صحيحُ نقل ، ولقد أَنشدَ بعضُ الشُّعراءِ مخاطباً لمَنْ يعتقدُ هـٰذهِ العقيدةَ الشّنعاء :

مَا آنَ لِلسِّرْدَابِ أَنْ يَلِدَ الَّذِي ... وَلَّدْتُمُوهُ بِزَعْمِكُم مَا آنَا
فَعَلَىٰ عُقُولِكُمُ الْعَفَاءُ لأَنَّكُم ... ثَلَّثْتُمُ الْعَنْقَاءَ وَالْغِيلانَا

والكلامُ في هـٰذهِ المباحثِ طويل ، ومَنْ أَرادَ تفصيلَها . . فعليهِ بالكُتبِ الجامعةِ لمتفرّقِ الأَقاويل ، واللهُ يقولُ الحقَّ وهوَ يهدي السَّبيل .

فانتبهوا أَيُّها النِّيام ، فقد بقيت لكم قليلاتُ الأيام ، وتوالت أَماراتُ السّاعة فاتَّخِذوا لكمُ التَّقوىٰ بضاعة :

هِيَ الدُّنْيَا فَلاَ يَغْرُرْكَ مِنْهَا ... زَخَارِفُ تَسْتَفِزُّ ذَوِي الْعُقُولِ
أَقَلُّ قَلِيلِهَا يَكْفِيكَ مِنْهَا ... وَلَكِنْ لَسْتَ تَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ

فيا أَيُّها الرّاحلُ وما لَهُ رواحل ؛ متىٰ تسمعُ قولَ العاذل ؟! هـٰذا العدوُّ ينصبُ الحبائل ، إلىٰ كم ترضىٰ باسمِ الجاهل ؟! كم تَعِدُ بالتَّوبة ، وكم تُماطل ؟ كم أَسمعكَ الموتُ وعيدَك ؟ فلم تنتهِ حتَّىٰ قطّعَ وريدك ، ونقضَ منزلكَ وهدمَ مشيدك ، ومزَّقَ مالكَ وفرّقَ عبيدك ، وأَخلىٰ داركَ وملأَ بيدك ، أَما رأَيتَ قرينَك ؟! أَما أَبصرتَ فقيْدَك ؟! يا ميّتاً عن قليلٍ مهِّد تمهيدك ، لقد أَمرضكَ الهوىٰ وفي عزمهِ أَنْ يَزيدك ، أُفٍّ لعيشٍ آخِرُهُ النَّدامة ، آهِ مِنْ سفرٍ بدايتُهُ القيامة! هـٰذا نذيرُ الموتِ قد غدا يقولُ لكم : الرَّحيلُ غداً ، كيفَ بكم إذا صاحَ إسرافيلُ في الصُّورِ بالصُّورِ فخرجْتَ تسعىٰ مِنْ تحتِ المدر ؟ وقد رُجَّتِ الأَرضُ وبُسَّتِ الجبال ، وشَخصتِ الأَبصارُ لتلكَ الأَهوال ،

وطارتِ الصّحائفُ وقَلِقَ الخائف ، وشابَ الصِّغارُ وزفرتِ النارُ وأَحاطتِ الأَوزار ، ونُصب الصِّراطُ وحَضرَ الحساب ، وقَرُبَ العذابُ وشَهدَ الكتاب ، وقُطِّعتِ الأَسباب ، فكم مِنْ شيخٍ يقول : واشيبتاه ؛ وكم مِنْ كهلٍ ينادي : واخيبتاه ، وكم مِنْ شابٍّ يصيح : واشباباه ؛ برزتِ النّارُ فأَحرقَت ، وقُطِّعتِ الأَفئِدةُ وتفرَّقت ، والأَحداقُ قد سالَت ، والأَعناقُ قد مالَت ، والمحنُ قد توالَت ، أَينَ عُدَّتُكَ لذلكَ الزّمان ؟! أَينَ تصحيحُ اليقينِ والإِيمان ؟! أَترضىٰ يومئذٍ بالخسران ؟! أَما تعلمُ أَنَّكَ كما تدينُ تدان ؟! يا مَنْ قد ملأَ كتابَهُ بالقبيح ، وهوَ عن قليلٍ رهنُ الضَّريح ؛ كم في كتابكَ مِنْ زَلل! ، وكم في عَملِكَ مِنْ خَلل! هـٰذا وقد قَرُبَ الأَجَل ، كم ضيَّعتَ واجباً وفرضاً! ونقضتَ عهداً مُحكماً نقضاً! وأَتيتَ حراماً صريحاً مَحْضاً! يا أَجساداً صحاحاً فيها القلوبُ مرضىٰ :

إِنَّمَـــا الــدُّنْيَــا بَــــلاَءٌ	لَيْــسَ فِــي الــدُّنْيَــا ثُبُــوتُ
إِنَّمَـــا الـــدُّنْيَـــا كَبَيْــتٍ	نَسَجَتْـــــهُ الْعَنْكَبُـــــوتُ
كُـــلُّ مَـــنْ فِيهَـــا لَعَمْـــرِي	عَـــنْ قَـــرِيـــبٍ سَيَمُـــوتُ
إِنَّمَــا يَكْفِيـــكَ مِنْهَـــا	أَيُّهَـــا الـــرَّاغِـــبُ قُـــوتُ

فنسأَلهُ تعالىٰ أَنْ يوفِّقنا وإِيّاكُم لمراضيه ، ويجعلَ مستقبلَ حالِنا وحالِكُم خيراً مِنْ ماضيه ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وعلىٰ آلهِ وصحبهِ وسلَّمَ تسليماً .

* * *

المجلس السادس عشر
في أمارات الساعة من حديث جبريل عليه السلام أيضاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الواحدِ الماجدِ العظيم ، الدّائمِ القائمِ القديم ، السَّميعِ البصيرِ الحليم ، القويِّ العليِّ الغنيِّ الحكيم ، قضىٰ فأَسقمَ الصَّحيحَ وعافى السَّقيم ، وقدَّرَ فأَعانَ الضَّعيفَ وأَوهى القويم ، وقسمَ عبادَهُ إِلىٰ قسمين : طائعٍ وأَثيم ، وجعلَ مآلَهُم إِلىٰ دارَين : دارِ النَّعيمِ ودارِ الجحيم ، فمنهُم مَنْ عَصَمَهُ عنِ الخطايا فكأَنَّهُ في حريم ، ومنهُم مَنْ قضىٰ لَهُ أَنْ يبقىٰ على الذُّنوبِ ويُقيم ، ومنهُم مَنْ تردَّدَ بينَ الأَمرين ، والعملُ بالخواتيم .

خرجَ موسىٰ عليه الصلاة والسلام راعياً فعادَ وهوَ الكليم ، وذهبَ ذو النُّونِ عليه الصلاة والسلام مغاضباً فالتقمَهُ الحوتُ وهوَ مُليم ، وكانَ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم يتيماً فصارَ الكونُ لذلكَ اليتيم .

أَنعمَ علينا بالفضلِ الوافرِ العميم ، وهَدانا بمنِّهِ إِلى الصِّراطِ القويم ، وحذَّرَنا بلُطفهِ مِنَ العذابِ الأَليم ، وَمَنَّ عَلَيْنَا بالكتابِ العزيزِ القديم ، فهوَ سبحانَهُ مستوجبٌ للتَّعظيم .

أَحمدهُ وكيفَ لا يُحمَد ؟ وأَشهدُ أَنَّهُ لَم يَلدْ ولَم يُولَد ، وأَنَّ محمَّداً عبدُهُ الأَمجد ورسولُهُ الأَوحد ، أَخذَ لَهُ الميثاقَ علىٰ أَقربِ الأَنبياءِ والأَبعد ، وأَقامَ عيسىٰ يقول : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ وبهِ توسّلَ آدمُ وقد أَسجدَ لَهُ مَنْ أَسجد ، مِنْ كلِّ ملكٍ كريم ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ الصِّديقِ الرَّفيقِ حينَ يُسافرُ وحينَ يُقيم ، وعلىٰ عمرَ الفاروقِ الَّذي عمَرَ مِنَ الدِّينِ ما غَمرَ بأَحسنِ تدبيرٍ وأَكملِ تقويم ، وعلىٰ

عثمانَ الشَّريفِ قدرُه ، الجليلِ صبرُهُ علىٰ ما أُضيم ، وعلىٰ عليٍّ مُقدَّمِ الشُّجعانِ في حربِهِم والمؤمنونَ بهِ مِنْ كربهِم في مقعدٍ مقيم ، وعلىٰ سائرِ آلهِ وأَصحابهِ ما سُلكَ الطَّريقُ المستقيم .

أَمّا بعد : فقد قالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ في أَماراتِ السّاعة : « أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَان. . . » إلىٰ آخرِ الحديثِ الَّذي قدَّمناهُ مراراً عديدة ، وقد تكلَّمنا عليهِ وذكرنا ما يتعلَّقُ بهِ مِنْ بعضِ أَماراتِ السّاعةِ وعلاماتِها ، وبقيَ علاماتٌ أُخَرُ نذكرُ تفصيلَها في هٰذا الدّرسِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ؛ لِيَعرفَها المسلمُ إِذِ الإِيمانُ بها واجب ، فمِنْ ذلك :

خروجُ الدَّجالِ عليهِ اللَّعنةُ والوبال ، فنقول : هوَ منبعُ الكفرِ والضَّلال ، وينبوعُ الفتنِ والأَوجال ، قد أَنذرتْ بهِ الأنبياءُ قومَها وحذَّرَتْ منهُ أُمَمهَا ، حتَّىٰ كانَ النَّبيُّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَدعُو في آخِرِ صَلاتهِ بقوله : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا ومن فِتْنَةِ الْمَمَات ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْر ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَة الْمَسِيحِ الدَّجَّال » فلذا ذهبَ بعضُ العلماءِ مِنَ الشّافعيَّةِ إِلىٰ وجوبِ هٰذا الدُّعاءِ في الصَّلاة .

وفي الحديث : « مَا كَانَتْ وَلاَ تَكُونُ فِتْنَةٌ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّال ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَحَذَّرَ قَوْمَهُ الدَّجَّال » رواهُ الحاكم .

وقالَ ابنُ ماجه : سمعتُ المشايخَ يقولون : ينبغي أَنْ يُعطىٰ حديثُ الدَّجّالِ لِلمؤدِّبينَ حتَّىٰ يُعلِّموهُ الصِّبيانَ في الكُتّاب .

وقد وردَ أن مِنْ علاماتِ خروجه : نسيان ذِكرِهِ على المنابر ، فينبغي لكلِّ عالمٍ ـ ولا سيّما في زمانِنا ـ التَّذكيرُ بهِ والتَّحذيرُ مِنْ فتنتهِ وفتنةِ أَمثالهِ المتلاعبينَ في الدِّين ، أَجارَنا اللهُ تعالىٰ وإِيّاكُم مِنْ فتنتهِم أَجمعين .

وقدِ اختلفَ العلماءُ في نَسبِه ، فقيل : إِنَّهُ صاف بنُ صيّاد ، وأَنَّهُ ولدَ بالمدينة .

وقيل : هوَ شيطانٌ موثَقٌ في بعضِ الجزائر ، وأَنَّهُ مِنْ أَولادِ شقٍّ الكاهن ، أَو شقٌّ نَفْسُه ، وأَنَّ أُمَّهُ كانت جنيَّةً عشقَتْ أَباهُ فأَولدَها إِيّاه ، وكانتِ الشَّياطينُ تعملُ لَهُ

العجائبَ فحبسَهُ سليمانُ بنُ داوودَ عليهِماالسّلام . وهـٰذا قولٌ مردود .

وقالَ كعبُ الأَحبار : الدَّجّالُ تلدُهُ أُمُّهُ بقوص مِنْ أَرضِ مصر ، وبينَ مولدِهِ وخروجهِ أَربعونَ سَنة .

وفي التِّرمذي : يَخرجُ مِنْ خراسان .

وفي « صحيحِ مسلم » عن أَنس رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه مرفوعاً : « يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفاً عَلَيْهِمُ الطَّيَالِسَة » .

وفي « مستدرَكِ الحاكم » عنِ ابنِ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما : يَخرجُ الدَّجّالُ مِنْ يهوديَّةِ أَصبهان ، ثم يُخلَقُ لَهُ عين ، والأُخرىٰ كأَنَّها كوكب ، يشوي في الشَّمسِ سمكاً ، ويتناولُ الطَّيرَ مِنْ حوله ، ولَهُ ثلاثُ صيحاتٍ يَسمعُهاأَهلُ المشرقِ والمغرب .

ومِنْ حِليته : أَنَّهُ شاب ، وفي رواية : شيخٌ جسيمٌ أَحمر ، وفي رواية : أَبيضُ أَمهق ، وفي أُخرىٰ : آدمُ أَعورُ العينِ اليمنىٰ كأَنَّها عنبةٌ طافية ، وفي روايةٍ أُخرىٰ : أَعورُ العينِ اليسرىٰ ، وفي رواية : أَنَّهُ أَعورُ العينِ مطموسة .

ومِنْ أَوصافه : أَنَّهُ قصيرٌ أَفحج ؛ أَي : متباعدُ ما بين السّاقين ، عظيمُ اللِّحيةِ والجثَّة ، مكتوبٌ بينَ عينيهِ (ك . ا . ف . ر) حروفاً مقطَّعَةً يقرؤُها كلُّ مسلم ، كاتبٌ وغيرُ كاتب ، ولا يَقرؤُها الكافر ، ولا يولَدُ لَه ، ولا يدخلُ المدينةَ ولا مَكَّة ، تتبعُهُ أَقوامٌ كأَنَّ وجوهَهُمُ المِجانُ المطرقة ، وسبعونَ أَلفاً مِنْ يهودِ أَصبهانَ عليهِمُ التِّيجانُ وكلُّهم ذو سيفٍ محلًّىٰ .

ومِنْ صفاتهِ أَيضاً : أَنَّهُ تنامُ عيناهُ ولا ينامُ قلبُه ، وأَبوهُ طِوال ، ضَربُ اللَّحمِ كأَنَّ أَنفَهُ منقار ، وأُمُّهُ كثيرةُ اللَّحمِ عظيمةُ الثَّديينِ طويلةُ الشَّفتين .

وللدَّجالِ حمارٌ أَهلب ـ وهوَ المُشْعر ـ ما بينَ أُذنيهِ أَربعونَ ذراعاً ، يضعُ خطوتَهُ عندَ منتهىٰ طرفه .

قيل : وَأَوّلُ خروجهِ يَدَّعي الإيمانَ والصَّلاحَ حتَّىٰ يقدمَ الكوفةَ فيُظهرَ الدِّينَ ويُتَّبَع ، ثمَّ يَدَّعي الإِلـٰهيَّةَ فيقول : أَنَا الله ، فتُغشىٰ عينُهُ وتُقطعُ أُذناهُ ويُكتبُ بينَ عينيه : كافر ، فيفارقُهُ المسلمون .

قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « إِنَّ الدَّجَّالَ أَعْوَر ، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بأَعْوَر » . قالَ العلماء : ولذا سُمِّيَ مسيحاً ؛ لأَنَّ المسيحَ هوَ الممسوحةُ عينُه .

وأَمّا عيسىٰ عليهِ السَّلامُ فسُمِّيَ مسيحاً ؛ لأَنَّهُ كانَ يَمسحُ ذا العاهةِ فيبرأ .

وقال كعبُ الأَحبار رضي الله عنه : يتوجَّهُ فينزلُ عندَ بابِ دمشقَ الشَّرقيِّ ابتداءً قَبْلَ خروجه ، ثمَّ لا يدرىٰ أَينَ توجه ، ثمَّ يظهرُ في المشرقِ فيُعطى الخلافة ، ثمَّ يُظهرُ السِّحر ، ثمَّ يدَّعي النُّبوَّةَ فينصرفُ عنهُ المسلمون ، فيأْتي النَّهرَ فيأْمرُهُ أَنْ يَسيلَ فيَسيلُ ثمَّ يَأْمرُهُ أَنْ يرجعَ فيَرجع ، ثمَّ يأْمرُهُ أَنْ ييبسَ فييبس ، ويبعثُ اللهُ تعالىٰ لَهُ شياطينَ فيقولونَ لَه : استعنْ بِنا علىٰ ما تريد ، فيقولُ لَهم : نَعَم ، اذهبوا إِلى النّاسِ فقولوا : أَنَا ربُّهُم ، فيبثهُم في الآفاقِ ويدَّعي الإِلَـٰهِيَّة ، ويقتل النُّفوسَ ويُحييهِم .

وقيل : يخرجُ مِنْ كوثىٰ بالكوفة ، وأَكثرُ مَنْ يتبعُه : اليهودُ والنِّساءُ والأَعراب .

وفي الحديث : « إِنَّ السَّمَاءَ تُمْسِكُ مَا فِيهَا ، وَيَهْلِكُ كُلُّ ذِي ضِرْسٍ وَظِلْفٍ سَنَةَ خُرُوجِه ، وَهُوَ يَسِيرُ مَعَهُ جَبلَانِ : أَحَدُهُمَا فِيهِ أَشْجَارٌ وَأَثْمَارٌ وَمَاء ، وَالآخَرُ فِيهِ دُخَان ، فَيَقُول : هَـٰذِهِ الْجَنَّةُ وَهَـٰذِهِ النَّار » .

وعن حذيفة رضي الله عنه أَنَّ معَهُ رجالاً يقتلُهم ثمَّ يُحييهِم ، وفي « صحيحِ مسلم » : أَنَّ نارَهُ جنةٌ وجنَّتَهُ نار ، وفي حديثٍ آخَرَ في « صحيحِ مسلم » : أَنَّ الدَّجّالَ معَهُ نهرانِ يَجريان : أَحدُهُما رأْيَ العينِ ماءٌ أَبيض ، والآخَرُ رأْيَ العينِ نارٌ تأَجَّج ، فأَمّا إِنْ أَدركَ ذلكَ أَحدٌ منكُم . . فليأْتِ النَّهرَ الَّذي يراهُ ناراً وليُغمِضْ ثمَّ ليطأْطِىءْ رأْسَهُ فيشربَ ؛ فإِنَّهُ ماءٌ بارد .

وفي الحديث : أَنَّ مَنْ أَدركَهُ . . فليَقرأْ عليهِ فواتحَ سورةِ الكهف ، وأَنَّ الصَّحابةَ قالوا : يا رسولَ الله ؛ فما لُبْثُهُ فِي الأَرض ؟ قال : « أَرْبَعُونَ يَوْماً ، يَوْمٌ كَسَنَة ، وَيَوْمٌ كَشَهْر ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَة ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُم » قُلنا : يا رسولَ الله ؛ فذلكَ اليومُ الَّذي كسَنَةٍ تكفينا فيهِ صَلاةُ يوم ؟ قال : « لا ، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَه » قلنا : يا رسولَ الله ؛ ما إِسراعُهُ في الأَرض ؟ قال : « كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيح » ، فيَأْتي على القومِ فيدعوهُم

فيؤمنونَ بهِ ويستجيبونَ لَه ، فيأمرُ السَّماءَ فتمطر ، والأَرضَ فتُنبت ، فتروحُ عليهِم سارحتُهم أَطولَ ما كانت درّاً ، ثمَّ يأْتي القومَ فيدعوهُم فيَرُدُّونَ عليهِ قولَه ، فينصرفُ عنهُم فيصبحونَ مُمحلينَ ليسَ بأَيديهِم شيءٌ مِنْ أَموالهِم ، ويمرُّ بالخربةِ فيقول : أَخرجي كنوزَك ، فتتبعُهُ كنوزُها كيعاسيبِ النَّحل ، ثمَّ يدعو رجلاً ممتلِئاً شابّاً ، فيضربُهُ بالسَّيفِ فيقطعُه ، ثمَّ يدعوهُ فيُقبلُ يتهلَّلُ وجهُهُ يضحك ، فبينما هوَ كذلكَ إِذْ بعثَ اللهُ تعالى المسيحَ ابنَ مريمَ عليهِ السَّلامُ فينزلُ مِنَ المنارةِ البيضاءِ شرقي دمشق ، ثمَّ يقتلُ الدَّجال ، كما سنفصِّلُهُ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ في بحثِ عيسىٰ عليهِ السَّلام .

ومِنها : العلامةُ الثَّالثة ، وهي : **نزولُ عيسىٰ** عليهِ السّلامُ مِنَ السّماء ، وذلكَ ثابتٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ وإِجماعِ الأُمَّة .

أَمّا الكتاب : فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ أَي : ليُؤْمِننَّ بعيسىٰ قَبْلَ موتِ عيسىٰ ، وذلكَ عندَ نزولهِ مِنَ السَّماءِ آخِرَ الزّمانِ حتَّىٰ تكونَ الملَّةُ واحدة ، ملَّةَ إِبراهيمَ حنيفاً مسلِماً .

قالَ بعضُ المفسِّرين : إِنَّ الضَّميرَ في قوله : ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ راجعٌ لليهود ، ويُؤَيِّدهُ قراءةُ أُبي رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : ﴿قبل موتهم﴾ .

وأَمّا السُّنّة : ففي « الصَّحيحين » وغيرِهما ، عن أَبي هريرة رضيَ اللهُ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « وَالَّذي نَفْسي بيَدِه ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَماً عَدْلاً ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيب ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِير ، وَيَضَعُ الْجِزْيَة » الحديث .

وأَخرجَ مسلم عن جابر رضيَ اللهُ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَة ، فَيَنْزِلُ عِيسَىٰ بنُ مَرْيَم ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُم : تَعَالَ صَلِّ لَنَا ، فَيَقُول : أَلاَ إِنَّ بَعْضَكُم عَلَىٰ بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةُ اللهِ هَـٰذِهِ الأُمَّة » .

وأَمّا الإِجماع : فقد أَجمعتِ الأُمَّةُ علىٰ نزوله ، ولَم يخالِفْ فيهِ أَحدٌ مِنْ أَهلِ الشَّريعة ، وإِنَّما أَنكرَ ذلكَ الفلاسفةُ والملاحدةُ مما لا يعتدُّ بخلافِهم .

وقدِ انعقدَ إِجماعُ الأُمَّةِ علىٰ أَنَّهُ ينزلُ ويَحكمُ بهـٰذِهِ الشَّريعةِ المطهَّرةِ المحمَّديَّة ،

وليسَ ينزلُ بشريعةٍ مستقلةٍ وإنْ كانت نبوَّتُهُ قائمةً به ، وقولُ مَنْ زعمَ مِنَ العلماءِ أَنَّهُ يَرفعُ التَّكليفَ مردود .

ويتسلَّمُ الأمرَ مِنَ المهدي ، ويكونُ المهديُّ مِنْ أَصحابهِ وأَتباعهِ حتَّىٰ أَصحابُ الكهفِ الَّذينَ هُم مِنْ أَتباعِ المهدي ، ويُسلِّمُ إِليهِ تابوتُ بني إِسرائيلَ وكلُّ ما معَهُ مِنْ آلاتِ الأَمر ، كما تقدَّم .

ولنَذْكُر فوائدَ تتعلَّقُ بحليتهِ وسيرتهِ عليهِ السَّلام :

فعَنِ البخاريِّ مِنْ حديثِ عقيلِ بنِ خالد : أَنَّهُ أَحمرُ أَجعدُ عريضُ الصَّدر ، وفي رواية : لَهُ لِمَّة ـ أي : بكسرِ اللاّم وتشديدِ الميم ـ قد رجَّلَها ؛ أَي : سرَّحَها . وفي رواية : « لِمَّتُهُ بَيْنَ مَنْكِبَيْه ، رَجِلُ الشَّعْر ، يَقْطُرُ رَأْسُهُ مَاء » .

وفي حديثِ ابنِ عبَّاس رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما مرفوعاً : « وَرَأَيْتُ عِيسَىٰ بنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مَرْبُوعَ الْخَلْق ، إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاض ، سَبَطَ الرَّأْس » .

وفي حديثِ أَبي هريرة[رضي الله عنه] : « كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاس » يعني الحمام .

وأَمّا سيرتُه : فيكسرُ الصَّليب ، ويقتلُ الخنزيرَ والقرد ، ويضعُ الجزيةَ ولا يقبلُ إِلاَّ الإِسلام ، ويتَّحدُ الدِّينُ فلا يُعبدُ إِلاَّ الله ، ويتركُ الزَّكاة ؛ لِعدمِ مَنْ يَقبلُها ، وتظهرُ الكنوزُ في زمنهِ ولا يُرغبُ في اقتناءِ المال ، ويَرفعُ الشَّحناءَ والتَّباغض ، ويَنزعُ اللهُ سُمَّ كلِّ ذي سمٍّ حتَّىٰ تلعبَ الأَولادُ بالحيّاتِ والعقاربِ ويرعى الذِّئبُ معَ الشَّاة ، وينعدمُ القتال ، وتُنبتُ الأَرضُ كعهدِ آدمَ عليهِ السّلامُ حتَّىٰ يجتمعَ النَّفرُ على الرُّمانةِ فتشبعُهم ، وترخصُ الخيلُ ؛ لعدمِ القتال ، ويغلو الثَّورُ لكثرةِ الحرث .

وأَمّا نزولُهُ مِنَ السَّماءِ وما يجري علىٰ يديهِ مِنَ الملاحم : فقد وردَ في الأَحاديثِ الصَّحيحة ؛ ففي « صحيح مسلم » : « بَيْنَمَا الدَّجَّالُ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَم ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مُهْرُودَتَيْن ، أَوْ شقتين ، أَوْ حُلَّتَيْن ، أَوْ ثَوْبَيْنِ صَفْرَاوَيْنِ وَاضِعاً كَفَّيْهِ عَلَىٰ أَجْنِحَةِ مَلَكَيْن ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَه . . قَطَر ، وَإِذَا رَفَعَ رَأْسَه . . تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤ » اهـ

ويكونُ نزولُهُ لستِّ ساعاتٍ مضتْ مِنَ النَّهار ، حتَّىٰ يأْتيَ مسجدَ دمشقَ ويقعدَ على المنبر ، فيدخلَ المسلمونَ المسجد ، وكذا النَّصارىٰ واليهودُ كلُّهم يَرجونَه ، ويأْتي مؤذِّنُ المسلمين ، وصاحبُ بوقِ اليهود ، وناقوسِ النَّصارىٰ ، فيقترعون ، فلا يخرجُ إلاَّ سهمُ المسلمينَ وحينئذٍ يُؤذِّنُ مؤذِّنُهم ، ويَخرجُ اليهودُ والنَّصارىٰ مِنَ المسجد ، ويُصلِّي بالمسلمينَ صلاةَ العصر .

وفي رواية : « بَيْنَمَا إِمَامُهُم ـ أَي : المهدي ـ قَدْ تَقَدَّمَ يُصَلِّي بِهِمُ الصُّبْحَ إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ بنُ مَرْيَمَ لِلصُّبْح ، فَيَرْجِعُ الْمَهْدِيُّ قهقرىٰ[1] لِيَتَقَدَّمَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَيُقَالُ لَه : يَارُوحَ اللهِ تَقَدَّم ـ أَي : يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ لَمْ يُحْرِمْ بِالصَّلَاةِ إِذَن ـ فَيَقُول : لِيَتَقَدَّمْ إِمَامُكُم ، فَيَضَعُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَي الْمَهْدِي ، فَيَقُولُ لَه : تَقَدَّمْ فَإِنَّهَا لَكَ أُقِيمَت ، فَيُصَلِّي بِهِمْ إِمَامُهُم ، فَإِذَا انْصَرَف . . قَالَ عِيسَىٰ : افْتَح ، فَيُفْتَحُ وَوَرَاءَه ـ أَي : وراءَ الباب ـ الدَّجَّال ، وَمَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ كُلُّهُم ذُو سَيْفٍ مُحَلًّى ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَّال . . ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ وَانْطَلَقَ هَارِباً ، فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ لُد ـ وهيَ بلدة مشهورة ، بينَها وبينَ رملةِ فلسطينَ مقدارُ فرسخ ـ فَيَقْتُلُهُ هُنَاكَ بِحَرْبَتِهِ الَّتِي نزَلَ بِهَا مِنَ السَّمَاء » .

وفي رواية : « يَذْبَحُهُ بِالسِّكِّين ، فَيَنْهَزِمُ جُنُودُهُ فَلاَ يَبْقَىٰ شَيءٌ مِمَّا خَلَقَ اللهُ يَتَوَارَىٰ بِهِ يَهُودِيٌّ إِلاَّ أَنْطَقَ اللهُ تَعَالَىٰ ذَلِكَ الشَّيْءَ مِنْ شَجَرٍ وَحَجَرٍ وَدَابَّةٍ إِلاَّ قَال : يَا عَبْدَ الله ؛ هَـٰذَا يَهُودِي ـ وفي لفظ : دَجَّالِي ـ فَتَعَالَ اقْتُلْه ، إِلاَّ الْغَرْقَد[2] ؛ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُود » .

ثمَّ إنَّ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ بعدَ قتلِ الدَّجّالِ يذهبُ إلى المدينةِ فيزورُ قبرَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ويَحج ، ويُتوفَّىٰ بالمدينةِ فيُدفنُ هناك ، وفي الحديث : « وَلَيَأْتِيَنَّ قَبْرِي حَتَّىٰ يُسَلِّمَ عَلَي ، وَلأَرُدَّنَّ عَلَيْه » .

---

(١) القهقرىٰ : الرجوع إلى الخلف .

(٢) الغرقد : العوسج .

وأَخرجَ البخاريُّ في « تاريخه » : يدفنُ ابنُ مريمَ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وصاحبَيْهِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما .

وفي « المواهب » : بقيَ مِنَ البيتِ موضعُ قبرٍ يُدفنُ فيهِ عيسىٰ بنُ مريمَ عليهِ السَّلام ، ويكونُ قبرُهُ الرّابع ، وقد تقدَّمَ أَنَّ المهديَّ يُتوفَّىٰ قَبْلَه .

وروىٰ أَبو هريرة[رضي الله عنه] : أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « يَنْزِلُ عِيسَىٰ بْنُ مَرْيَمَ فَيَمْكُثُ فِي النَّاسِ أَرْبَعِينَ سَنَة » .

وعن الإمامِ أَحمد وأَبي داوود : أَنَّهُ يمكثُ أَربعينَ سَنة ، ثمَّ يُتوفَّىٰ ويُصلِّي عليهِ المسلمونَ ويدفنونَهُ عندَ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم .

ونقلَ السّفارينيُّ عنِ ابنِ الجوزيِّ أَنَّهُ روىٰ في كتابه « المنتظم » عنِ ابنِ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « يَنْزِلُ عِيسَىٰ بْنُ مَرْيَم ، فَيَتَزَوَّجُ وَيُولَدُ لَه » ذكرَ بعضُهُم ولدَين : أَحدهُما يسمِّيهِ موسىٰ ، والآخَرُ محمّداً ، وأَنَّ أُمَّهما مِنَ اليزد . قال : « وَيَمْكُثُ خَمْساً وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يَموتُ وَيُدْفَنُ مَعِي فِي قَبْرِي فَأَقُومُ أَنَا وَعِيسَىٰ مِنْ قَبْرٍ وَاحِد » بَيْنَ أَبي بكرٍ وعمر .

جعلنا اللهُ تعالى وإِيّاكُم مِنَ المؤمنينَ بهِم المصدِّقينَ بمجيئِهِم ، والمحبِّينَ لَهُم والمحشورِينَ معَهُم ، ووقانا وإِيّاكُم مِنَ الفتنِ والأَهواء ، وتوفّانا علىٰ شريعةِ سيِّدِ الأَنبياءِ عليهِ وعليهِم أَفضلُ الصَّلاةِ والسّلامُ ما مضت ساعةٌ ومرَّ يومٌ مِنَ الأَيّامِ إِلىٰ قيامِ السَّاعةِ وساعةِ القيام .

ومِنها : الأَمارةُ الرّابعة : وهيَ **خروجُ يأْجوجَ ومأْجوج** : وهُم مِنْ ولدِ يافثَ بنِ نوحٍ عليهِ السّلامُ كما قالَ مقاتل ، وقالَ الضَّحّاك : هُم مِنَ التُّرك[1] .

وقالَ أَهلُ التّاريخ : أَولادُ نوحٍ عليهِ السّلامُ ثلاثة : سام ، وحام ، ويافث .

فسام : أَبو العرب ، والعجم ، والرُّوم .

وحام : أَبو الحبشة ، والزِّنج ، والنّوبة .

---

(١) أي : الذين هم في بلاد العجم . اهـ منه .

ويافث : أَبو التُّرك ، والصّقالبة ، ويأْجوجَ ومأْجوج .

قالَ ابنُ عبّاس : يأْجوجُ ومأْجوجُ عشرةُ أَجزاء ، وولدُ آدمَ كلُّهم جزء ؛ لأَنَّهم لا يموتُ أَحدهُم حتَّىٰ ينظرَ إِلىٰ أَلفِ ذَكَرٍ مِنْ صُلبهِ يحملونَ السّلاح ، فمنهُم مَنْ طُولُهُ مئةٌ وعشرونَ ذراعاً أَو خمسون ، ومنهُم مَنْ طُولُهُ وعَرضُهُ كذلك ، ومنهُم مَنْ يَلتحفُ بإِحدىٰ أُذنيهِ ويفترشُ الأُخرىٰ .

وقالَ علي رضيَ اللهُ عنه : منهُم مَنْ طُولُهُ شبر ، ومنهُم مَنْ هوَ مفرطٌ في الطُّول ، لَهم مخالبُ في موضعِ الأَظفارِ مِنْ أَيدينا ، وأَنيابٌ وأَضراسٌ كأَضراسِ السِّباع ، ولَهم شعرٌ في أَجسادِهم .

واعلَم : أَنَّ خروجَهُم ثابتٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ وإِجماعِ الأُمَّة .

قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴾ .

وروىٰ مسلم مِنْ حديثِ النَّواسِ بنِ سمعان رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُوحِي إِلَىٰ عِيسَىٰ بنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بَعْدَ قَتْلِهِ الدَّجَّالَ إِنِّي قَدْ أَخرَجْتُ عِبَاداً لِي لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِم ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّور ، وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُون . . . » الحديث .

وفي روايةٍ لمسلم : « ثُمَّ يَسِيرُونَ حَتَّىٰ يَنْتَهُوا إِلَىٰ جَبَلِ الْخَمْر ، وَهُوَ جَبَلُ بَيْتِ الْمَقْدِس ، فَيَقُولُون : لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الأَرْض ، هَلُمّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاء ، فَيَرْمُونَ بِنُشَّابِهِم إِلَى السَّمَاء ، فَيَرُدُّ اللهُ عَلَيْهِمْ نُشَّابَهُم مَخْضُوبَةً دَماً ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ تَعَالَىٰ فَيُرْسِلُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمُ النَّغَف ـ بفتحِ النُّونِ والغينِ المعجمةِ ففاء ـ وفي رواية : « دُوداً كَالنَّغَفِ فِي أَعْنَاقِهِم » وهوَ دودٌ يكونُ في أُنوفِ الإِبلِ والغنم ـ فَيُصْبِحُونَ مَوْتَىٰ كَمَوْتَىٰ نَفْسٍ وَاحِدَة ـ أَي قَتْلَىٰ ـ ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحاً يَمَانِيَةً فَتَقْذِفُ جِيَفَهُم فِي الْبَحْر » .

ولفظُ « صحيح مسلم » : « فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْراً كَأَعْنَاقِ الْبُخْت ، فَتَحْمِلُهُم فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ الله ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَراً لاَ يَكُنُّ مَعَهُ

بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ ـ أي : كالمرآة ـ ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْض : أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَك ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّون بِقِحْفِهَا ، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ[1] حَتَّىٰ إِنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ[2] مِنَ النَّاس » .

وروىٰ مسلم : « فَبَيْنَمَا هُم كذلك ـ يَعْنِي عيسىٰ وأَصحابه فِي ذَلِكَ الْعَيْشِ الرَّغدِ وَقَدْ هَلَكَ عَدُوُّهُمْ ـ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحاً طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُم تَحْتَ آبَاطِهِم ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِم ، وَيَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِم تَقُومُ السَّاعَة » واللهُ تعالىٰ أعلم .

فيا مَنْ قد أَخذَ الموتُ منهُم ولداً و عِرسا ، وغرسَ بعضَهُ في القبورِ غَرسا ، كم رأَيت مصبحاً في الدُّنيا ما أَمسىٰ! كم عاينتَ بطّاشاً كفَّ الموتُ منهُ خمسا! كأَنَّكَ باليقينِ قد جاءَ فرَفعَ شكّاً ولَبْسا ؛ وكأَنَّك بمركبِ العمرِ على اللَّحدِ قد أَرسىٰ ، وسكنت بعدَ القصورِ العاليةِ حُفيرةً ورَمْسا ، أَرأَيتَ في الحبوسِ مثلَ القبرِ حَبْسا ؟! وعلمتَ أَنَّ جميعَ مالكَ لا يساوي فَلْسا ، وتَخلعُ ثيابكَ فتَكسىٰ مِنَ التُّرابِ لبسا! وينساكَ مَنْ كانَ خديناً[3] ورفيقاً وأُنسا ، تركوا ـ والله ـ ذكرَكَ فوقعتَ في المنسىٰ ، ولو بكوا. . ما انتفعتَ ولو ندبتكَ الخنسا ، ودرسَكَ البلىٰ بكلكله دَرْسا ، ويحك!! إِلىٰ متىٰ تُؤْثِرُ بخساً ورِجْساً ؟ متىٰ تُحصِّلُ تطهيراً بالتَّوبةِ وقُدسا ؟! أُفٍّ لقلبٍ ما أَصلبَهُ وما أَقسىٰ ، أَتؤْثِرُ ما يفنىٰ علىٰ ما يبقىٰ ؟! تَعساً لرأْيكَ تَعسا . ويحك!! خلِّصْ نَفْسَكَ فيا لهَا نَفْسا ، أَما هـٰذا بينَ يديكَ ما أَكثرَ ما تنسىٰ ! ثمَّ تقومُ مِنْ قبركَ وقد سكتتِ الأَلسُنُ هيبةً حتَّىٰ كأَنَّها خُرسا ، وخشعتِ الأَصواتُ للرَّحمـٰنِ فلا تسمعُ إِلاَّ هَمسا ، يومَ تنكدرُ النُّجوم ، وتنقلعُ الجبالُ مِنَ التُّخوم ، وتصعدُ القلوبُ إِلى الحلقوم ، ويُنشَرُ الكتابُ المطويُّ المختوم ، ويَظهرُ مِنَ الهولِ ما لَم يكنْ في الوهوم ، فتتحيَّرُ العقولُ وتذهلُ الفهوم ، ويَعمُّ الإِزعاجُ الخصوصَ والعموم ، ويتمنى الموجودُ أَنَّهُ معدوم ، هـٰذا

(١) **الرِّسل** : اللَّبن .

(٢) **الفئام** : الجماعة الكثيرة .

(٣) **الخدين** : الصديق .

والنَّارُ حولَ العصاةِ تحوم ، فإذا أَخذتْهُم. . لَم يبقَ شحومٌ ولا لُحوم ، والشَّرابُ الحميمُ والمَأكولُ الزَّقوم ، يا بئسَ المشروبُ ويا بئسَ المطعوم ، لكلِّ بابٍ منهُم جزءٌ مقسوم ، تاللهِ إِنَّ نسيانَ هـٰذا جهلٌ ونَوم ، أَلا ينتبهُ مِنْ رقدتهِ هـٰذا النَّؤوم ؟! جَسدُهُ عندَنا وقَلْبهُ في الرُّوم! متىٰ ترىٰ هـٰذهِ الأَهوال ؟! حينَ ينشقُّ القبرُ وتقوم ؟! وعنتِ الوجوهُ للحيِّ القيوم .

اللَّهُمَّ ؛ سلِّمنا مِنْ تلكَ الأَهوال ، وآمِنّا مِنَ الفزعِ والزِّلزال ، وارزقنا الاستعدادَ لِما وعدتَنا ، وأَدِمْ لنا إِحسانَكَ ومعروفكَ كما عوَّدتَنا ، وبارِكْ لنا في كلِّ ما أَعطيتَنا ، وأَتمم علينا نعمتكَ وفضلكَ ومِنَّتك ، واجعل في قلوبِنا نوراً نهتدي بهِ إِليك ، ووفِّقنا للأَعمالِ الصّالحةِ المقرِّبةِ لديك ، واجعلْنا يا مولانا ممَّنْ توكَّلَ في جميعِ أُمورهِ عليك ، ولا تفضحنا يا سيِّدنا يومَ العرضِ والوقوفِ بينَ يديك ، واغفرْ لَنا ولوالدينا ولجميعِ المسلمين .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وآلهِ أَجمعين .

* * *

المجلس السابع عشر
في بقية أمارات الساعة

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الملكِ القديمِ الواحد ، العزيزِ العظيمِ الشّاهد ، سامعِ ذِكرِ الذّاكرِ وحَمدِ الحامد ، وعالِمِ ضميرِ المريدِ ونيّةِ القاصد ، لعظمته خضعَ الرّاكعُ وذلَّ السّاجد ، وبهداهُ اهتدى الطّالبُ وأَدركَ الواجد ، ورفعَ السّماءَ فعلاها ولَم يَحْتَجْ إِلىٰ مساعد ، وأَلقىٰ في الأَرضِ رواسيَ راسياتِ القواعد ، فتنزَّهَ عن شريكٍ مشاققٍ أَوْ ندٍّ معانِد ، وعزَّ عن ولدٍ وجلَّ عن والد ، وأَحاطَ عِلماً بالأَسرارِ والعقائد ، وأَبصرَ حتّىٰ دبيبَ النَّملِ في الجلامد ، وَسَطَا فسالَتْ لهيبتهِ صعابُ الجوامد ، ويقولُ في اللَّيل : هل مِنْ سائلٍ ؟ فانتبهْ يا راقد .

بنىٰ بيتاً أَمرَ بقَصدِهِ وتلقّى الوافد ، وأَقسمَ علىٰ وحدانيّتِهِ وما يُنكِرُ إلاَّمعانِد ﴿ وَالصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾ . أَحمَدُهُ على الرَّخاءِ والشَّدائِد ؛ وأُقِرُّ بتوحيدِهِ إِقرارَ عابد ، وأُصَلِّي علىٰ رسولهِ بيتِ القصائد ، صلَّى الله تعالىٰ عليهِ وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ التَّقِيِّ النَّقيِّ الزَّاهد ، وعلىٰ عمَر العادلِ فلا يراقبُ الولدَ ولا الوالد ، وعلىٰ عثمانَ المقتولِ ظلماً بكفِّ الحاسد ، وعلىٰ عليٍّ البحرِ الخضمِّ والبطلِ المجاهد ، وعلىٰ سائرِ آلهِ وأَصحابهِ الأَقاربِ منهُم والأَباعد .

أَمّا بعد : فقد ذكرْنا في الدُّروسِ الماضيةِ بعضَ أَماراتِ السّاعةِ المتعلِّقةِ بحديثِ جبريلَ عليهِ السّلام ، وبقيَ منها علاماتٌ نذكرُها في هـٰذا الدَّرسِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

فنقول :

مِنها العلامةُ الخامسة ، وهي : **هدمُ الكعبةِ** المكرَّمة زادَها اللهُ تعالىٰ شرفاً وإِخراجُ

كنزِها : فقد أَخرجَ البخاري ومسلم والنَّسائي ، مِنْ حديثِ أَبي هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُعليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَة » .

وَأَخرجَ الإِمامُ أَحمدُ ابنُ حنبل مِنْ حديثِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما نحوه ، وزاد : « وَيَسْلُبُهَا حِلْيَتَهَا وَيُجَرِّدُهَا مِنْ كِسْوَتِهَا ، وَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ أُصَيْلِعَ أُفَيْدِع ، يَضْرِبُ عَلَيْهَا بِمِسْحَاتِهِ وْ مِعْوَلِه » .

وفي روايةٍ أُخرىٰ : « يُحْبَسُ الْبَحْرُ عَنْ فِئَةٍ مِنَ السُّودَان ، ثُمَّ يَسِيلُونَ سَيْلَ النَّمْلِ حَتَّىٰ يَنْتَهُوا إِلَى الْكَعْبَةِ فَيُخَرِّبُونَهَا ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ صِفَتِهِ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ : أُفَيْحِجُ أُصَيْلِعُ أُفَيْدِع » وفي رواية : « أَسْوَد » ، وفي أُخرىٰ : « حَبَشِيٌّ أَحْمَرُ السَّاقَيْن ، أَزْرَقُ الْعَيْنَيْن ، أَفْطَسُ الأَنْف ، كَبِيرُ الْبَطْن ، قَائِماً يَهْدِمُهَا هُوَ وَأَصْحَابُهُ يَنْقُضُونَهَا حَجَراً حَجَراً ، وَيَتَنَاوَلُونَهَا حَتَّىٰ يَطْرَحُوهَا فِي الْبَحْر » .

وقولُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « أُصَيْلِع » : تصغيرُ الأَصلع ؛ وهوَ : مَنْ ذهبَ شعرُ مقدَّمِ رأسه .

والأُفيدع : مَنْ بيدهِ اعوجاجٌ مِنَ الرُسغِ حتَّىٰ ينقلبَ الكفُّ وكذلكَ الرِّجل ، أَو هوَ المشيُ علىٰ ظهرِ القدم .

والأُفيحجُ : المتباعدُ الفخذين .

فإِنْ قلت : قد تقدَّمَ أَنَّ المهديَّ هوَ الَّذي يُخرجُ كنزَ الكعبة .

.. قلت : قد أَجابَ العلاَّمةُ السّفارينيُّ الحنبلي عليهِ الرَّحمة بأَنَّ المهديَّ لعلَّهُ لمّا يَستخرجُهُ يجتمعُ فيهِ بعدَ ذلكَ المالُ الكثيرُ في أَيّامهِ وأَيّامِ عيسىٰ عليهِ السّلام ، أَو أَنَّ المهديَّ أَخذَ البعضَ وتركَ البعضَ ثمَّ يَستخرجُهُ الحبشي .

واعلَمْ أَنَّ العلماءَ اختلفوا هل هـٰذا الهدمُ في أَيّامِ المسيحِ عيسىٰ عليهِ السّلامُ أَو بعدَهُ عندَ قيامِ السّاعةِ حيثُ لا يبقىٰ في الأَرضِ مَنْ يقول : الله ؟ .

فعن كعبِ الأَحبارِ رضي الله عنه : أَنَّهُ زمنَ عيسىٰ .

وقيل : بعدَ زمنه ، وبعدَ هلاكِ يأجوجَ ومأجوج .

وقيل : بعدَ موتِ سيِّدنا عيسىٰ عليهِ السَّلام ، وبعدَ هبوبِ الرِّيحِ الَّتي يموتُ بها مَنْ في قلبهِ ذرَّةٌ مِنْ إيمان .

وقيل : إنَّ هدمَ الكعبةِ بعدَ خروجِ الدَّابَّة .

وقيل : بعدَ الآياتِ كلِّها ، فعند ذلكَ يَرتفعُ القرآنُ الكريم .

وقالَ الشَّيخُ مرعي الحنبلي : يمكثُ النَّاسُ ما شاءَ اللهُ في الخِصْبِ والدَّعةِ بعدَ هلاكِ يأجوجَ ومأجوجَ وطلوعِ الشَّمسِ وخروجِ الدَّابَّة ، ثمَّ يخرجُ الحبشةُ فيُخرِّبونَ مكَّة ، ثمَّ لا تعمرُ أبداً ، ثمَّ يجتمعُ بقايا المسلمينَ فيقتلونَهُم ويَسْبونَهُم حتَّىٰ يباع الحبشيُّ بعباءَة . واللهُ تعالىٰ أعلمُ بالصَّواب .

ومِنها : العلامةُ السَّادسة ؛ وهي : **الدُّخان** : قالَ العلماء رحمهمُ اللهُ تعالىٰ : آيةُ الدُّخانِ ثابتةٌ بالكتابِ والسُّنَّة .

أمَّا الكتاب : فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ الآية .

قالَ ابنُ عبَّاس ، وابنُ عمر ، والحسن ، وزيدُ بنُ علي رضيَ اللهُ عنهُم : هوَ دخانٌ قَبْلَ قيامِ السَّاعة ، يَدخلُ في أَسماعِ الكفَّارِ والمنافقين ، ويعتري المؤمنَ كهيئةِ الزُّكام ، وتكونُ الأَرضُ كلُّها كبيتٍ أُوقدَ فيه .

وهـٰذهِ العلامةُ لَم تأتِ إلى الآنَ ، وهي آتية .

وأمَّا السُّنَّة : فأخرجَ مسلم مِنْ حديثِ حذيفةَ بنِ أسيد رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : طلعَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ونحنُ نتذاكر ، فقال : « مَا تَذَاكَرُون ؟ » قالوا : السَّاعةَ يا رسولَ الله . قال : « إِنَّها لَنْ تَقُومَ حَتَّىٰ تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَات » فذكرَ مِنها الدُّخان .

وفي حديثِ حذيفةَ بنِ اليمان رضي الله عنه : « إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ دُخَاناً يَمْلأُ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ يَمْكُثُ أَرْبَعِينَ يَوْماً ، فَالْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ مِنْهُ شِبْهُ الزُّكَام ، وَأَمَّا الْكَافِر . . فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ السَّكرَان ، يَخْرُجُ الدُّخَانُ مِنْ فِيهِ وَمَنْخِرَيْهِ وَعَيْنَيْهِ وَأُذُنَيْهِ وَدُبُرِه » .

وقالَ ابنُ مسعود رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : خمسٌ قد مَضينَ :

١ـ الدُّخان : وهوَ القحطُ الَّذي صارَ في زَمنهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام ؛ لأَنَّهُ صلى اللهُ تعالىٰ عليه وسلم دَعا عليهِم بقولِه : « اللَّهُمَّ ؛ سَبْعٌ كَسَبْعِ يُوسُف » فأَخذتهُم سَنَةٌ مُمحِلَةٌ حتَّىٰ أَكلوا الْميتةَ مِنَ الجوعِ ، فيرىٰ أَحدُهم حينما يَنظرُ إلى السَّماءِ هيئةَ الدُّخانِ مِنَ الجوع .

٢ـ واللِّزام : وهوَ يومُ بدر . ٣ـ وكَذا البطشةُ : يومَ بدرٍ قالَ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ .

٤ـ والقمر : قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ .

٥ـ والخامسة : الرُّوم(١) .

قالَ العلاَّمةُ الشَّيخُ مرعي الحنبلي : كلامُ ابنِ مسعود رضيَ الله تعالىٰ عنه موافقٌ لظاهرِ الآية .

والجمهورُ دليلُهمُ السُّنَّة ، معَ أنَّهُ وردَ عنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه أَنَّهُما دخانانِ مضىٰ واحدٌ والَّذي بقيَ لم يأْتِ بَعْد ، والصَّحيحُ قولُ الجُمهور ، وهوَ المرويُّ عن بابِ مدينةِ العِلم علي كرَّمَ الله تعالىٰ وجهَه ، واللهُ تعالىٰ أَعلَمُ بالصَّواب ، وإِليهِ المرجعُ والمآب .

ومِنها : العلامةُ السَّابعةُ مِنَ العشرِ الْعظمىٰ : **ذهابُ القرآنِ العظيم** وكلامهِ المنزلِ علىٰ نبيِّهِ الكريمِ مِنَ المصاحفِ والصُّدور ، وهيَ مِنْ أَشدِّ معضلاتِ الأُمور :

أَخرجَ الدَّيلميُّ مِنْ حديثِ أَبي هريرةَ وحذيفة رضيَ الله عنهُما « يَسْري عَلَىٰ كِتَابِ الله تَعَالىٰ لَيلٌ فَيُصْبِحُ النَّاسُ وَلَيْسَ مِنْهُ آيَةٌ وَلاَ حَرْفٌ فِي جَوفِ مُسْلِمٍ إِلاَّ نُسِخَت » .

---

(١) يعني غلبة الروم المذكورة في قوله تعالى : ﴿ألم . غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ [الروم : ١ـ٣] .

وفي الحديث :

« أَكْثِرُوا مِنَ الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ وَيَنْسَى النَّاسُ مَكَانَه » ، و« أَكْثِرُوا تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُرْفَع » ووردَ أَنَّهم ينسونَ أَيضاً قولَ لا إِلَهَ إِلاَّ الله .

وعنِ ابنِ عمر رضيَ الله عنهُما : « لاتَقُومُ السَّاعةُ حَتَّىٰ يَرْجِعَ الْقُرْآنُ مِنْ حَيْثُ جَاء ، لَهُ دَوِيٌّ حَوْلَ الْعَرْشِ كَدَوِيِّ النَّحْل ، فَيَقُولُ له الله عَزَّ وَجَل : مَا لَك ؟ فَيَقُولُ مِنْكَ خَرَجْتُ وَإِلَيْكَ أَعُود ، أُتلىٰ فَلاَ يُعْمَلُ بِي » .

وَحَكَى ابْنُ تَيْمية عليهِ الرَّحمة عَنِ السَّلفِ مِنْ أَنَّ القرآنَ العظيمَ كلامُ الله ، منزلٌ غيرُ مخلوق ، منهُ بدأَ وإِليهِ يَعود ؛ أَي يُسرىٰ بِه ، حتَّىٰ لا يَبقىٰ في المصاحفِ منهُ حرفٌ ولا في القلوبِ منهُ آية .

ومنها : العلامةُ الثَّامنة : **طلوعُ الشَّمسِ مِنْ مغرِبِها** : وذلكَ ثابتٌ بالكِتابِ والسُّنَّةِ الصَّحيحة . **أَمَّا الكتاب** : فقالَ تعالىٰ : ﴿ **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا** ﴾ قالَ جمهورُ المُفسِّرين : إِنَّها طلُوعُ الشَّمسِ مِنْ مَغْرِبِها .

وأَمَّا السُّنَّة : فقد أَخرج الشَّيخانِ وغيرُهما مِنْ حديثِ أَبي هريرة رضيَ الله تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلَّم : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاس . . آمَنُوا أَجْمَعُون ، فَذَلِكَ حِينُ ﴿ **لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا** ﴾ الآية . ونحوهُ عنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما .

وقالَ أَيضاً : « خَلَقَ اللهُ تعالىٰ بَاباً لِلتَّوْبَة ، فَذَلِكَ الْبَابُ مَفْتُوحٌ مُنْذُ خَلَقَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ صَبِيحَةِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنْ مَغْرِبِهِمَا » إِلَىٰ أَنْ قَال : « فَإِذَا غُلِّقَ بَابُ التَّوْبَة . . لَمْ يُقْبَلْ لِعَبْدٍ بَعْدَ ذَلِكَ تَوْبَة ، وَلَمْ تَنْفَعْهُ حَسَنَةٌ يَعْمَلُهَا بَعْدَ ذَلِك » وهٰذا الحديثُ وإِنْ كانَ في سندهِ ضعفٌ إِلاَّ أَنَّ له شواهدَ أُخَر .

وأَخرجَ ابنُ مردويه عن حذيفة رضي الله عنه قال : سأَلتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : ما آيةُ طلوعِ الشَّمسِ مِنْ مغرِبِها ؟ قال : « تَطُولُ تِلْكَ اللَّيْلَةُ حَتَّىٰ تَكُونَ قَدْرَ

لَيْلَتَيْن ـ وفي رواية : « أَوْ ثَلاَث » ـ فَيَسْتَيْقِظُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ فَيُصَلُّون ، ثُمَّ يَرْقُدُون ثُمَّ يَقُومُونَ وَاللَّيْلُ كَأَنَّهُ لَمْ يَنْقُص ، حَتَّىٰ يَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ فَيَفْزَعُ النَّاسُ إِلَى الْمَسَاجِدِ خَائِفِين ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَنْظُرُونَ طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِذْ هِيَ طَالِعَةٌ مِنَ الْمَغْرب ، فَيَضِجُّ النَّاس ، حَتَّىٰ إِذَا صَارَتْ فِي وَسَطِ السَّمَاء . . رَجَعَتْ وَطَلَعَتْ مِنْ مَطْلَعِهَا » وفي رواية : « فَعِنْدَ ذَٰلِكَ يَصِيرُ فِي هَـٰذِهِ الأُمَّةِ قِرَدَةٌ وَخَنَازِير » .

وعنِ ابنِ عمر : يمكثُ النّاسُ بعدَ ذلك عشرينَ ومئة سنةٍ لـٰكنَّها تمرُّ سريعاً كمقدارِ مئةٍ وعشرينَ شهراً ، وقيلَ أقلُّ مِنْ ذلِك ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ بما هُنالِك .

ومِنها : العلامةُ التَّاسِعة ، وهيَ **خروجُ دابَّةِ الأَرض** ، وهيَ المُسمَّاةُ بذاتِ أَجيادٍ ؛ أَي : صاحبة أَجياد ، وهوَ اسمُ أَرضِ مكَّةَ أَو جبلٌ بها .

ويقالُ لها : جياد ، بلا همز ، وخروجُها ثَابِتٌ بالكتاب والسُّنَّة .

أَمَّا الكتاب : فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ .

وأَمَّا السُّنَّة : فالأَحاديثُ كثيرة ، مِنها : ما رواهُ أبو هريرة رَضِيَ الله عنه مرفوعاً : « تَخْرُجُ دَابَّةُ الأَرْضِ مِنْ أَجْيَاد ، فَيَبْلُغُ صَدْرُهَا الرُّكْنَ اليَمَانِيَّ وَلَمْ يَخْرُجْ ذَنَبُهَا بَعْد ، وَهِيَ دَابَّةٌ ذَاتُ قَوَائِم » وفي رواية : « تَصْرُخُ ثَلاَثَ صَرَخَاتٍ فَيَسْمَعُهَا مَنْ فِي الْخَافِقَيْن » . وقالَ السَّخاوي : خروجُها مِنْ مَكَّة ، إِمَّا مِنْ صدعِ الصَّفا أَو مِنَ المروة ، أَو مِنْ شُعبِ أَجياد ، أَو مِنْ بعضِ أَوديةِ تهامة ، أَو مِنْ مدينةِ قومِ لوط .

وقيل : مِنْ أَقصى اليمن .

وقيل : إِنَّ لَها ثلاثَ خرجاتٍ في الدَّهر : أَوّلُ خرجةٍ مِنْ أَقصى اليمن ، ثمَّ تمكثُ زماناً ، ثمَّ تخرجُ أُخرىٰ ، ثمَّ تخرجُ ثالثة ، وتُرىٰ في ناحيةِ المسجدِ مِنَ الرُّكنِ الأَسودِ وبابِ بني مخزوم .

وقيل : تخرجُ مِنْ أَرضِ الطّائف ، ومعها عصىٰ موسىٰ وخاتمُ سليمانَ عليهِما السّلام ، لا يُدرِكُها طالبٌ ، ولا يُعجِزُها هارب .

ورويَ أنَّها تخرجُ ليلةَ جَمْعٍ والنّاسُ سائرونَ إلىٰ مِنىٰ ، فيتصدَّعُ الصَّفا فتخرجُ منه .

وفي حديثِ حذيفة رضي الله عنه : « أَوَّلُ مَا يَبْدُو رَأْسُهَا مُعَلَّمَةً ذَاتَ وَبَرٍ وَرِيش » .

وقالَ علي كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَه : تخرجُ ثلاثةَ أيامٍ والنّاسُ ينظرونَ فلا يخرجُ إلاَّ ثلثُها . ورويَ : فلا يخرجُ إلاَّ رأسُها ، فيبلغُ عَنانَ السَّماءِ وتبلغُ السَّحاب .

وقالَ أبو هريرة رضي الله عنه : فيها مِنْ كلِّ لون ، وما بينَ قَرْنَيْها فرسخٌ للرَّاكب .

وقالَ وهب : وجهُها وجهُ رجل ، وسائرُ خَلْقِها كخَلْقِ الطَّير .

وفي حديثٍ آخر : « تَجْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ بِالْعَصَا ، وَتَخْطمُ أَنْفَ الْكَافِرِ بِالْخَاتَم ؛ حَتَّىٰ إِنَّ أَهْلَ الْخُوَانِ[1] لَيَجْتَمِعُونَ فَيَقُولَ هٰذَا : يَا مُؤْمِن ، وَيَقُولُ هٰذَا : يَا كَافِر » .

وقالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : إنَّ لَها عنقاً مُشرِفاً ـ أي : طويلاً ـ يَراها مَنْ بالمشرقِ كما يراها مَنْ بالمغرب ، وأنَّها ذاتُ زغبٍ وريش ، فيها مِنْ ألوانِ الدَّوابِّ كلِّها ، وفيها مِنْ كلِّ أُمَّةٍ سِمة ، وسِيماها مِنْ هٰذهِ الأُمَّةِ أنَّها تُكلِّمُ النّاسَ بلسانٍ عربيٍّ مبين .

وفي روايةٍ أنَّها تنادي بأعلىٰ صوتِها : إنَّ النّاسَ كانوا بآياتِنا لا يوقنون .

وتَسِمُ المؤْمن ، فيُرىٰ وجهُهُ كأنَّهُ كوكبٌ دُرِّي ، ويكتبُ بينَ عينيهِ مؤْمِن ، وتَسِمُ الكافرَ فتنكتُ بينَ عينيهِ نكتةً سوداءَ ويكتبُ بينَ عينيهِ كافِر ، ثمَّ تنطلِق ، ويَشتركُ النّاسُ في الأموالِ ، ويصطحبونَ في الأمصار .

وروى ابنُ مسعود رضي الله عنه : أنَّ إبليس عليهِ اللَّعنة بعدَ يأْجوجَ ومأْجوجَ يخرُّ ساجدا ، وينادي : إلٰهي مُرني أَسجدْ لمَنْ شئت ، وتجتمعُ إليهِ الشّياطينُ تقول : يا سيِّدَنا ؛ إلىٰ مَنْ تفزع ؟ فيقول : إنَّما سألتُ ربِّي أنْ يُنظرني إلىٰ يوم البعث ، فأنظرني إلىٰ يومِ الوقتِ المعلوم ، وقد طلعتِ الشَّمسُ مِنْ مغربِها فهٰذا يومُ الوقتِ المعلوم ، وتصيرُ الشَّياطينُ ظاهرةً في الأرضِ حتَّىٰ يقولَ الرَّجل : هٰذا قريني الَّذي كانَ يغويني ؛

(١) الخوان : مايُوضع عليه الطعام ليؤكَل .

فالحمدُ للهِ الَّذي أَخزاه ، ولا يزالُ إبليسُ ساجداً باكياً حتَّىٰ تخرجَ الدَّابَّةُ فتقتلهُ وهوَ ساجد .

وهـٰذا أَصحُّ مِنْ قولِ كعب : إِنَّ إبليسَ إِنَّما يذوقُ الموتَ يومَ الحشر .

وقيل : إِنَّ دابَّةَ الأَرضِ هي الجسَّاسةُ الَّتي حدَّثَ عنها تميمٌ الدّاري رضي الله عنه ، وقصَّتُها طويلةٌ مذكورةٌ في كتبِ الأَحاديث ، وملخَّصُها : أَنَّ الجسَّاسةَ هي دابَّةٌ كثيرةُ الشَّعرِ في إِحدىٰ جزائرِ بحرِ القلزم ، تجسُّ الأَخبار ، قريبةٌ إلى المحلِّ الَّذي فيهِ الدَّجّالُ وقد قُيِّدَ بالحديد .

وعنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما : هيَ الثُّعبانُ الَّذي كانَ في بئرِ الكعبةِ فاختطفَهُ العُقابُ حينَ أَرادت قريشٌ بناءَ البيتِ الحرام ، وأَلقاهُ بالحَجُونِ أَو في أَجياد ، فالتقمتها الأَرض .

وهـٰذهِ كلُّها أَقوالٌ ضعيفة ، والأَوَّلُ هوَ الصَّحيح .

والأَغربُ والأَعجبُ مِنْ هـٰذهِ الأَقوالِ ما قالَهُ جابرٌ الجعفيُّ الكوفي : إِنَّ دابَّةَ الأَرضِ المذكورةَ في القرآنِ هيَ عليُّ بنُ أَبي طالب رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه ، وكرَّمَ اللهُ وجهَه!! فقد قالَ الحافظُ الذَّهبي : إِنَّ جابراً شيعيٌّ يرى الرَّجعة ؛ أَي : يعتقدُ أَنَّ علياً يرجعُ إلى الدُّنيا ويتخلَّفُ ويَحكم .

وقالَ أَبو حنيفة : ما لقيتُ أَحداً أَكذبَ مِنْ جابرٍ الجعفي .

وقالَ الشَّافعي : أَخبرني سفيانُ بنُ عيينة ، قال : كنّا في منزلِ جابر ، فتكلَّمَ بشيء ، فنزلنا خوفاً أَنْ يقعَ علينا السَّقف ، وماتَ سنةَ ثمانٍ وعشرينَ ومئة .

قلت : ولا يبعدُ ممَّنْ يعتقدُ الغَيبةَ والرَّجعةَ بالوجهِ الَّذي يزعمونه أَنْ يجعلَ أَميرَ المؤمنين ، ومولى الموحِّدين ، ويعسوبَ المسلمين . . الدَّابةَ الموعودَ بها في الكتابِ المبين ، فكَم وكَم لَهُم مِثلُ هـٰذا الهذيانِ والتُّرَّهاتِ الَّتي لا يقامُ عليها ساطعُ برهان ؟! فنسأَلُهُ تعالىٰ أَنْ يتوفاّنا علىٰ كاملِ الإيمان ، ويَحشرَنا معَ الهداةِ المهديِّينَ إلىٰ أَعلىٰ فراديسِ الجِنان ، بشفاعةِ سيِّدِ ولدِ عدنان ، عليهِ وعلىٰ آلهِ الكرامِ أَفضلُ الصَّلاةِ والسّلام .

ومِنها : العلامةُ العاشرة ؛ وهي : **خروجُ النّارِ مِنْ قعرِ عدنٍ تحشرُ النّاسَ إلىٰ محشرِهم** ، وقد ثبتَ ذلكَ في الأَحاديثِ العديدةِ الصَّحيحةِ كما تقدَّم ، ومِنها : ما أَخرجَهُ الإِمامُ أَحمدُ في « مسندِه » والبخاري وغيرُهما ، عن أَنس رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْمَشْرِقِ فَتَحْشُرُ النَّاسَ إِلَى الْمَغْرِب » .

ومِنها : ما رواهُ حذيفةُ بنُ أسيدٍ الغفاري رضي الله عنه : أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « لَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يُرىٰ قَبْلَهَا عَشْرُ آيَات » فذكرَ الدَّجّال ، والدُّخان ، ويأجوجَ ومأجوج ، وثلاثَ خسوف : خسفٌ بالمشرق ، وخسفٌ بالمغرب ، وخسفٌ بجزيرةِ العرب ، قال : « وآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَىٰ مَحْشَرِهِم » وفي رواية : « تَنْزِلُ مَعَهُم إِذَا نَزَلُوا وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا » .

قالَ بعضُ العلماء : وفي هـٰذا إِشكال ؛ لأَنَّ في الحديثِ الأَوّلِ أَنَّ النّارَ أَوّلُ أَشراطِ السّاعة ، وفي الحديثِ الثّاني أَنَّ النّارَ آخِرُ الأَمارات .

والجوابُ عنه : أَنَّ النّارَ ناران : إِحداهُما تحشرُ النّاسَ مِنَ المشرقِ إِلى المغرب ، والثّانيةُ تخرجُ مِنَ اليمنِ فتطردُ النّاسَ إِلى المحشرِ الَّذي هوَ أَرضُ الشّام ، فلعلَّ إِحدى النّارينِ في أَوّلِ الآياتِ والأُخرىٰ في آخِرِها .

وقالَ السّخاوي : المرادُ مِنْ كونِها أَوّلَ الآياتِ الّتي لا شيءَ بعدَها مِنْ أُمورِ الدُّنيا أَصلاً ؛ لأَنَّ بعدَها النَّفخَ في الصُّور ، وهوَ جوابٌ ضعيف .

وأَخرجَ الإِمامُ أَحمد ، والتّرمذي عنِ ابنِ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما مرفوعاً : « سَتَخْرُجُ نَارٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَحْشُرُ النَّاس » قالوا : يا رسولَ الله ؛ فما تأمرُنا ؟ قال : « عَلَيْكُمْ بِالشَّام » .

وأَخرجَ الطَّبراني وابنُ عساكرَ عن حذيفةَ بنِ اليمانِ رضي الله عنه مرفوعاً : « لَتَقْصِدَنَّكُم نَارٌ هِيَ الْيَوْمَ خَامِدَةٌ فِي وَادٍ يُقَالُ لَه : بَرْهُوت ، يَغْشَى النَّاسَ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيم ، تَأْكُلُ الأَنْفُسَ وَالأَمْوَال ، تَدُورُ الدُّنْيَا كُلَّهَا في ثَمَانِيَةِ أَيَّام ، تَطِيرُ طَيْرَ الرِّيحِ

وَالسَّحَاب ، مَرُّهَا بِاللَّيْلِ أَشَدُّ مِنْ مَرِّهَا بِالنَّهَار ، وَلَهَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ الرَّعْدِ الْقَاصِف ، هِيَ مِنْ رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ أَدْنَىٰ مِنَ الْعَرْش » قيل : يا رسولَ الله ؛ أَسَلِيمَةٌ يَوْمَئِذٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات ؟ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسّلام : « وأَيْنَ الْمُؤْمِنُون وَالْمُؤْمِنَات ؟ يَوْمَئِذٍ هُمْ شَرٌّ مِنَ الْحُمُر ، يَتَسَافَدُونَ كَمَا تَتَسَافَدُ الْبَهَائِم[1] ، وَلَيْسَ فِيهِمْ رَجُلٌ يَقُول : مَهٍ مَه » أي : اتْرُكُوا .

وفي حديثِ أَبي هريرةَ مرفوعاً : « إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَبْعَثُ رِيحاً مِنَ الْيَمَنِ أَلْيَنَ مِنَ الْحَرِير ، فَلاَ تَدَعُ أَحَداً فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ إِلاَّ قَبَضَتْه » .

وفي رواية : أَنَّ الرِّيحَ تأْتي مِنْ قبل الشّام .

قالَ العلماء : لا مضادَّةَ بينَ الحديثين ؛ لأَنَّهُما ريحان : شاميَّةٌ ويمانيَّة .

واعلموا : أَنَّ العلماء عليهِمُ الرَّحمة اختلفوا في حشرِ النَّارِ مِنَ المشرقِ إِلى المغرب ، هلْ هوَ يومَ القيامة أَو قبلَه ؟ .

فقالَ العلاَّمةُ القرطبيُّ المالكي ، والإمامُ الخطّابي ، وصوَّبَهُ القاضي عياض : إِنَّ هـٰذا الحشرَ يكونُ قَبْلَ يومِ القيامة ، وأَمّا الحشرُ مِنَ القبور . فهوَ علىٰ ما في حديثِ ابنِ عبّاس رضيَ اللهُ عنهُما مرفوعاً كما في « الصَّحيحين » : « إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً[2] » .

وقالَ الحكيمُ التِّرمذي ، وأَبو حامدٍ الغزالي عليهِما الرَّحمة : هوَ يومَ القيامةِ عندَما يحشرونَ وينشرونَ مِنْ قبورِهم إِلى الموقفِ للحساب . واللهُ تعالىٰ أَعلمُ بالصَّواب .

ثمَّ إِنَّهُ بعدَ أَنْ تمضيَ هـٰذهِ الأَماراتُ المذكورةُ ينفخُ إِسرافيلُ في الصُّورِ النَّفخةَ الأُولىٰ ؛ لأَنَّ النَّفخَ في الصُّورِ ثلاثُ نفخات :

فَالأُولىٰ : نفخةُ الفزع ، وهيَ الَّتي يتغيَّرُ بها هـٰذا العالمُ ويَفسدُ نظامُه ، وهي

---

(١) السِّفاد : جماع البهائم ونزوها على بعض .

(٢) أي : غير مختونين . اهـ منه .

المشارُ إليها في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ أي : مِنْ رجوعٍ ومرد .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ قيل : هُم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، ومَلَكُ الموت .

والنَّفخةُ الثَّانية : نفخةُ الصَّعق ، وفيها هلاكُ كلِّ شيء ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وفُسِّرَ الصَّعقُ بالموت ، فتموتُ الخلائق .

ثمَّ النَّفخةُ الثَّالثةُ ، وهيَ نفخةُ البعثِ والنُّشور ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ والزَّجرة : هي النَّفخُ في الصُّور ، والسّاهرة : الأَرض .

وغيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ والأَحاديثِ القاطعةِ بإعادةِ الأَموات ، وسنفصّل ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ كيفيَّةَ الحشرِ ببعضِ الدُّروسِ الآتيات .

فاستعدُّوا رحمكُمُ اللهُ تعالىٰ للحشرِ والحساب ، وتوبوا قَبْلَ أَنْ يُطوى الكتاب ، واخشوا يوماً تُعرضُ فيهِ الخلائقُ علىٰ ربِّ الأَرباب ، فما هٰذا السُّكونُ إِلىٰ دَارِ الدوائر ؟! وما هٰذا الانحرافُ إِلىٰ حَرفِ جُرفٍ هائر ؟! أَما تلمَّحت أَبصارُ البصائر ، ما إِليهِ الأَمرُ صائر ، كم آثرتُمُ الرّذائلَ على المفاخر ، إِنَّ عينَ اللَّبيبِ ترى الآخر .

فيا أَيُّها الغافل ؛ أَمَا أَنتَ عن قريبٍ راحل ؟ وساكنٌ بيتاً أَنتَ فيهِ غريبٌ حائرٌ ذاهل ؟ ويا أَهلَ القصورِ العامرة ؛ عن قليلٍ تعودُ غامرة ، يا مُعجبينَ بالنَّضارةِ الظَّاهرة ؛ عن قريبٍ ترجعُ العظامُ ناخرة ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ .

يذهبونَ ولا يدرونَ إِلىٰ أَينَ ، ويهربونَ وهيهاتَ عليهِم دَين ، ولا ينجو إِلاَّ قائلُ الكلمتَين ، ثمَّ طوبىٰ وطوبىٰ لِلعَينِ الَّتي كانت ساهرة .

تبرزُ النّارُ باللَّهيبِ والجمر ، فيبكي آكلُ الرِّبا وشاربُ الخمر ، ويشتغلُ زيدٌ بنَفْسِهِ عن عَمْرو ، وقد عرَّفتُكَ أَوَّلَ الأَمرِ وآخِرَه ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ .

فنسأَلُكَ اللّهُمَّ ؛ أَنْ تُجيرَنا مِنْ خزي الدُّنيا وعذابِ الآخرة ، وتُلبسَنا في جنّاتِ النَّعيمِ حُلَلَ رحمتِكَ الفاخرة ، وتوفِّقنا لصالحِ الأَعمالِ وتنجِّينا مِنْ جميعِ الأَهوال ، وتحشُرنا وآباءَنا معَ الصّحابةِ والعترةِ الطّاهرة .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أَجمعين .

* * *

المجلس الثامن عشر
في البعث بعد الموت

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ المنفردِ بالقدرة ، العظيمِ فلا يَقْدِرُ أَحدٌ قَدْرَه ، أَنعمَ فكَم أَقالَ عَثْرَة ، ووعظَ فكَمْ أَسالَ عَبرة ، خَلَقَ الآدميَّ وأَحصىٰ عُمُرَه ، وأَراهُ قَبْلَ رحيلهِ عنِ الدُّنيا قَبرَه ، وأَنَّهُ سيخلو في بيداءَ قَفْرَة ، ثمَّ يُخرجُهُ فيُحضرهُ الحضرة ، ويَسأَلهُ عنِ الكلمةِ والنَّظرة ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ .

أَحمدُهُ حمداً دائماً بلا فترة ، وأَشكرُهُ علىٰ نِعمهِ الَّتي لا تُحصىٰ كثرة ، وأَشهدُ أَنْ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَه ، شهادةً أَدَّخرُها نجاةً مِنْ عذابِ الحفرة ، وسلاحاً مِنَ العدوِّ في العسرةِ واليسرة ، وأَشهدُ أَنَّ سيِّدَنا محمَّداً عبدُهُ ورسولُه ، أَرسلَهُ بالهدىٰ ودِينِ الحقِّ وضَمِنَ لَهُ نصرَه ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ الصِّدّيقِ رفيقهِ في الحفرة ، وعلىٰ عمرَ بنِ الخطّابِ ثالثِهما في الحجرة ، وعلىٰ عثمانَ مجهِّزِ جيشِ العُسرة ، وعلى ابنِ عمِّهِ عليِّ بنِ أَبي طالبٍ الَّذي اشترىٰ (هل أَتىٰ) بكسرة ، وعلىٰ سائرِ آلهِ وأَصحابِه ، ومَنِ امتثلَ نهيَهُ وأَمرَه ، وسلَّمَ تسليماً .

أَمّا بعد : فنروي بسندِنا إِلى الإِمامِ الشَّهيرِ أَبي الحسينِ مسلمِ بنِ الحجّاجِ النَّيسابوري عليهِ الرَّحمةُ والرِّضوانُ قال : كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بارزاً يوماً لِلنّاس ، فجاءَ رجلٌ فجلسَ عندَ رُكبتيه ، فقال : مَا الإِيمان ؟ قال : « اَلإِيمَان : أَنْ تؤمِنَ بِالله ، وَمَلاَئِكَتِه ، وَبِلِقَائِه ، وَكُتُبِه ، وَرُسُلِه ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ . . . » الحديث .

فنقول ـ وباللهِ التَّوفيق ـ : قد تقدَّمَ الكلامُ في مبدأ الدُّروسِ الماضيةِ المتعلِّقةِ بهـٰذا

الحديث ، وتقدَّمَ ذِكرُ الرِّواياتِ المختلفةِ لهـٰذا الحديث ، وأَسلفنا الكلامَ على الإيمانِ باللهِ تعالىٰ وملائكته ، وكُتبهِ ورُسله ، والإسلام ، والصَّلاةِ والزَّكاة ، والصَّومِ والحج ، والإحسان ، وأَماراتِ السّاعةِ المتقدِّمةِ والمتأَخِّرة ، وبقيَ الكلامُ الآنَ فيما يتعلَّقُ بلقاءِ اللهِ تعالىٰ ، والبعثِ بعدَ الموت ، والخمسِ الَّتي لاَ يَعلمُهُنَّ إلاَّ الله ، وبيانِ جبريلَ عليهِ السّلام ، فلنَذْكُر لَكُم ذلكَ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ في هـٰذا الدَّرسِ خاتِمينَ بهِ حديثَ جبريل ، وهوَ سبحانَهُ الموفِّقُ الهادي إلىٰ أَقومِ سبيل .

فاعلموا : أَنَّ قولَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَبِلِقَائِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ » أَي : بكسرِ الخاءِ المعجمة .

اختلفَ العلماءُ في المرادِ بالجمعِ بينَ الإيمانِ بلقاءِ اللهِ تعالىٰ والبعث :

قالَ الإمامُ النَّووي : قيل : اللِّقاءُ يحصلُ بالانتقالِ إلىٰ دارِ الجزاء ، والبعثُ بعدَهُ عندَ قيامِ السّاعة .

وقيل : اللِّقاءُ ما يكونُ بعدَ البعثِ عندَ الحساب .

ثمَّ ليسَ المرادُ باللِّقاءِ رؤيةَ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ أَحداً لا يقطعُ لِنَفْسهِ برؤْيةِ اللهِ تعالىٰ ؛ لأَنَّ الرُّؤْيةَ مختصَّةٌ بالمؤْمنينَ ولا يدري الإنسانُ بماذا يُختَمُ لَه .

وأَمّا وصفُ البعثِ بالآخِرِ . فقيل : هوَ مبالغةٌ في البيانِ والإيضاح ، وذلكَ لشدَّةِ الاهتمامِ به .

وقيل : سببُهُ أَنَّ خروجَ الإنسانِ إلى الدُّنيا بعثٌ مِنَ الأَرحام ، وخروجَهُ مِنَ القبرِ لِلحشرِ بعثٌ مِنَ الأَرض ، فَقُيِّدَ البعثُ بالآخِرِ ليتميز . اهـ .

ثمَّ اعلموا أَنَّ منكرَ البعثِ والحشرِ كافرٌ مخلَّد ؛ لِلدَّلائلِ القطعيَّةِ مِنَ الآياتِ القرآنيَّة ، والأَحاديثِ النَّبويَّة ، وإجماعِ الأُممِ الكتابيَّةِ والإسلاميَّة ؛ فقد وردتِ الكتبُ الإلـٰهيَّةُ وبيَّنتْ كافَّةُ الأَنبياءِ عليهِمُ السَّلامُ لأُممهِم أَنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ يُميتُ المخلوقاتِ كافَّة ، ثمَّ يُعيدُ المكلَّفينَ بعدَ موتهِم عندَ قيامِ السّاعةِ إعادةً جسمانيَّة ، ويَحشرهُم ويَسأَلُهم ويُجازيهِم ، ويُدخلُ بعضَهُمُ النّارَ وبعضَهُمُ الجنَّةَ دارَ القرار ،

والعقلُ أَيضاً مطابقٌ لذلك ؛ لأَنَّ هـٰذا العالَمَ لا بدَّ لَهُ مِنْ صانع ، وأَنَّ صانعَهُ لا بدَّ أَنْ يكونَ واحداً ؛ وهو : اللهُ سبحانَه ، فإذا سلَّمنا ذلك . علِمنا أَنَّ اللهَ سبحانَهُ أَوجدَنا مِنَ العدمِ ولم نكُ شيئاً ، فالإعادةُ أَهونُ مِنَ الإيجاد ، وأَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حاكمٌ عَدْل فلا بدَّ أَنْ يُجازيَ العباد ، الظَّالمَ بظُلمهِ والمحسنَ علىٰ إحسانه ، ويَجعلَ الدّارَ الآخرةَ دارَ الجزاءِ والحساب ، ويعاملَ بعضاً بعدلهِ وبعضاً بغُفرانهِ وامتنانه .

ولنَذْكُر ما وردَ في ذلكَ مِنَ الآياتِ والأَخبار ، مبيِّنينَ لِمَا يتعلَّقُ بالبعثِ بأَصحِّ الآثار :

فقد وردَ أَنَّ إسرافيلَ عليهِ السّلامُ ينفخُ في الصّور ـ وهوَ قرنٌ مِنْ نورٍ يجعلُ فيهِ أَرواحَ الخلائق ـ النَّفخةَ الأُولىٰ ، وهيَ نفخةُ الفزع ـ كما تقدَّمتِ الإشارةُ إلىٰ ذلكَ في أَحدِ الدُّروسِ الماضية ـ فيختلُّ نظامُ العالَم ، ويفزعُ أَهلُ السَّماءِ والأَرضِ إلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ وهُمُ الشُّهداء ، فيمدُّها ويطيلها ، وهيَ الَّتي يقولُ اللهُ تعالىٰ فيها :

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ .

فيُسيِّرُ اللهُ تعالى الجبالَ فتمرُّ مرَّ السَّحابِ فتكونُ سراباً ، وترتجُّ الأَرضُ بأَهلِها رجّاً فتكونُ كالسَّفينةِ الموقرةِ في البحرِ تضربُها الأَمواج ، فتميلُ الأَرضُ بالنّاسِ علىٰ ظهرِها ، فتذهلُ المراضعُ وتضعُ الحوامل ، وتشيبُ الولدان ، وتطيرُ الشَّياطينُ هاربةً مِنَ الفزعِ حتَّىٰ تأْتي الأَقطارَ ، فتتلقّاها الملائكةُ فتضربُ وجوهَها فترجع ، ويولِّي النّاسُ مُدبرِينَ ينادي بعضُهم بعضاً ، وهوَ الَّذي يقولُ اللهُ تعالىٰ فيه :

﴿ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٍ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾ .

وروى البغويُّ عن أُبي بنِ كعب رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : ستُّ آياتٍ قَبْلَ يومِ القيامة : بينما النّاسُ فِي أَسواقِهم إِذْ ذهبَ ضوءُ الشَّمس ، فبينما هُم كذلكَ إذ تناثرتِ

النُّجوم ، فبينما هُم كذلكَ إذْ وقعتِ الجبالُ علىٰ وجهِ الأَرضِ ، فتحرَّكتْ واضطربت ، وفزعتِ الجنُّ إلى الإنسِ والإنسُ إلى الجن ، واختلطتِ الدَّوابُّ والطَّيرُ والوحوش والسباع ، وماجَ بعضُهُم في بعض ، فذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ اختلطَتْ ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ أُهملَتْ ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قالَ ابنُ عبّاس رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما : أُوقِدَتْ فصارتْ ناراً تَضْرَم .

قالَ أُبي : قالت الجنُّ لِلإنس : نحنُ نأْتيكُم بالخبر ، فانطلَقوا إلى البحرِ فإذا هوَ نارٌ تأَجَّج ، فبينما هُم كذلكَ إذ تصدَّعتِ الأَرضُ صدعةً واحدةً إلى الأَرضِ السّابعةِ السُّفلىٰ ، وانشقَّتِ السَّماءُ انشقاقةً واحدةً إلى السَّماءِ السّابعةِ العليا ، فبينما هُم كذلكَ إذ جاءَتهُمُ الرِّيحُ فأَماتتهُم . اهـ

ثمَّ ينفخُ النَّفخةَ الثّانية ، وهيَ نفخةُ الصَّعقِ ؛ أَي : الموت ، وفيها هلاكُ كلِّ شيءٍ إلاَّ مَنْ لَم يُخلَقْ لِلفناءِ فإنَّهُ لَم يَفنَ ؛ كالجنَّةِ وما فيها مِنَ الحورِ والولدان ، وكذا النّارُ وما فيها مِنَ الحيّاتِ والعقاربِ والخُزّان ، قالَ تعالىٰ :

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ .

وروىٰ أَبو هريرة رضيَ اللهُ عنه عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ إِسْرَافِيلَ فَيَنْفُخُ نَفْخَةَ الصَّعْق ، فَيَصْعَقُ أَهْلُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ الله ، فَيَقُولُ مَلَكُ الْمَوْت : قَدْ مَاتَ أَهْلُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ الله ، فَيَقُولُ الله ـ وَهُوَ أَعْلَم ـ : (فَمَنْ بَقِيَ ؟) فَيَقُول : أَي رَبِّ ؛ بَقِيتَ أَنْتَ الْحَيُّ الْقَيُّوم ، وَبَقِيَتْ حَمَلَةُ الْعَرْش ، وَبَقِيَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيل ، وَبَقِيتُ أَنَا فَيَقُولُ الله : (فَلْيَمُتْ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيل) فَيَمُوتَا ، ثُمَّ يَأْتِي مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى الْجَبَّارِ فَيَقُول : قَدْ مَاتَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيل . فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ : (فَلْيَمُتْ حَمَلَةُ الْعَرْش) فَيَمُوتُون ، وَيَأْمُرُ اللهُ الْعَرْشَ أَنْ يَقْبِضَ الصُّورَ مِنْ إِسْرَافِيل ، ثُمَّ يَقُول : (لِيَمُتْ إِسْرَافِيل) فَيَمُوت ، ثُمَّ يَأْتِي مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى الْجَبَّار ، فَيَقُول : رَبِّ ؛ قَدْ مَاتَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ . فَيَقُول ـ وَهُوَ أَعْلَم ـ فَمَنْ بَقِي ؟ فَيَقُول : بقيتَ أَنْتَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي لاَ يَمُوت ، وَبَقِيتُ أَنَا . فَيَقُول : (أَنْتَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِي خَلَقْتُكَ لِمَا رَأَيْت ، فَمُت) فَيَمُوت ، فَإِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ اللهُ الْوَاحِدُ

الْقَهَّار . طَوَى السَّمَاءَ وَالأَرْضَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ وَقَال : (أَنَا الْجَبَّار ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْم ؟) ثَلاَثَ مَرَّات ، فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَد ، ثُمَّ يَقُولُ لِنَفْسِه : (للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّار) . وَتُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَات ، فَيَبْسُطُهَا وَيَسْطَحُهَا وَيَمُدُّهَا مَدَّ الأَدِيمِ لاَ تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً . . . » الحديث .

وأَخرجَ أَبو الشَّيخ ، قال : هـٰؤُلاءِ الأَربعةُ أملاك ؛ جِبريلُ وميكائِيلُ وإِسرافيلُ ومَلَكُ الموت ، أَوّلُ مَنْ خَلقهُم اللهُ مِنَ الخلْقِ وَآخِرُ مَنْ يُميتهُم وأَوّلُ مَنْ يُحييهِم ، وهُمُ المدبِّراتُ أمراً والمقسّماتُ أمراً .

وأَخرجَ الشّيخانِ وغيرُهما عن أَبي هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه مَرفوعاً : « يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِه ، ثُمَّ يَقُول : أَنَا الْمَلِك ، أَيْنَ الْمُلُوك ؟! » .

وَأَخرجَ مُسلم مِنْ حَديثِ ابنِ عُمر رضيَ اللهُ عنهُما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « يَطْوِي اللهُ عز وجل السَّمَـٰوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ ، ثُمَّ يَقُول : أَنَا الْمَلِك ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأرضين بِشِمَالِه ، ثُمَّ يَقُول : أَنَا الْمَلِك ، أَيْنَ الْجَبَّارُون ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُون ؟! » .

ثُمَّ يَنفخُ إِسرافيلُ النَّفخةَ الثّالثةَ في الصُّور ، وهيَ نفخةُ البعثِ والنُّشور ، وبينَ هاتينِ النَّفختينِ أَربعونَ عاماً علىٰ ما في بعضِ الرِّوايات ، وقد جاءَتْ في الكتابِ العزيزِ آياتٌ تدلُّ عليها وأَخبارٌ تشيرُ إِليها ؛ كقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ ، ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية .

قالَ المفسِّرون : ﴿ ٱلْمُنَادِ ﴾ هوَ إِسرافيلُ عليهِ السّلام ، يَنفخُ في الصُّور ، وينادي : أَيَّتها العظامُ الباليةُ ، والأَوصالُ المتقطِّعة ، واللُّحومُ المتمزِّقةُ ، والشُّعورُ المتفرِّقة ؛ إِنَّ اللهَ يأْمركُنَّ أَنْ تجتمعنَ لِفصلِ القضاء .

وقيلَ : يَنفخُ إِسرافيل ، ويُنادي جبريل .

وفي « تفسيرِ الثّعلبي » : عن أَبي هريرة رضيَ اللهُ عنه في تفسيرِ سورةِ الزُّمرِ مرفوعاً : « إِنَّ اللهَ يُرْسِلُ مَطَراً عَلَى الأَرْضِ فَيَنْزِلُ عَلَيْهَا أَرْبَعِين يَوْماً حَتَّىٰ يَكُون فَوْقَهُمْ اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعاً ، فَيَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى الأَجْسَادَ أَنْ تَنْبُتَ كَنَبَاتِ الْبَقْل ، حَتَّىٰ إِذَا تَكَامَلَتْ أَجْسَادُهُم كَمَا كَانَت . . قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : لِيَحْيَىٰ حَمَلَةُ الْعَرْش ، لِيَحْيَىٰ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَعِزْرَائِيل ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ إِسْرَافِيلَ فَيَأْخُذُ الصُّورَ فَيَضَعُهُ عَلَىٰ فِيهِ ثُمَّ يَدْعُو الأَرْوَاح ، فَيَأْتِي بِهَا تَتَوَهَّجُ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ نُوراً وَالأُخْرَىٰ ظُلْمَة ، فَيَقْبِضُهَا جَمِيعاً ثُمَّ يُلْقِيهَا فِي الصُّور ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ أَنْ يَنْفُخَ نَفْخَةَ الْبَعْثِ فَتَخْرُجُ الأَرْوَاحُ كُلُّهَا كَأَنَّهَا النَّحْلُ قَدْ مَلأَتْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْض ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ : وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لَتَرْجِعَنَّ كُلُّ رُوحٍ إِلَىٰ جَسَدِهَا ، فَتَدْخُلُ الأَرْوَاحُ مِنَ الْخَيَاشِيمِ ثُمَّ تَمْشِي مَشْيَ السُّمِّ فِي اللَّدِيغ ثُمَّ تَنْشَقُّ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْض ، فَتَخْرُجُونَ مِنْهَا إِلَىٰ رَبِّكُمْ تَنْسِلُون » .

وفي حديثٍ آخَر « يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْل، لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَىٰ إِلاَّ عَظْمٌ وَاحِدٌ وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَب ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَة».

وفي روايةٍ لمسلم : « إِنَّ فِي الإِنْسَانِ عَظْماً لاَ تَأْكُلُهُ الأَرْضُ أَبَداً ، فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَة » قالوا : أَيّ عَظْمٍ هوَ يا رسولَ اللهِ ؟ قال : « عَجْبُ الذَّنَب »[(١)] .

وفي رواية : « مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّب » وهوَ مثلُ حبّةِ خردل ، وهوَ بفتحِ العينِ المهملةِ وإسكانِ الجيمِ بعدَها باءٌ موحَّدةٌ أَو ميم .

وفي « تفسيرِ الثّعلبي » في سورةِ الأَعراف ، و« تفسيرِ ابنِ عطيّة » : عنِ ابنِ عبّاس رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهما : إذا ماتَ النّاسُ كلُّهُم . . أُمطِرَ عليهِم أَربعينَ عاماً كمنيِّ الرِّجالِ مِنْ ماءٍ تحتَ العرشِ يُدعىٰ ماءَ الحيوان[(٢)] ، فينبتونَ مِنْ قبورِهم بذلكَ المطرِ كما ينبتُ الزَّرعُ مِنَ الماء ، حتَّىٰ إذا استكملَتْ أَجسادُهم . . نُفِخَ فيهِمُ الرُّوح ، ثمَّ يُلقىٰ عليهم

(١) عجب الذنب : العظم الذي في أسفل العمود الفقري .

(٢) يعني : ماء الحياة .

نومةٌ فينامونَ في قبورِهم ، فإذا نُفِخَ في الصُّورِ النَّفخةُ الثّانية . . قاموا وهُم يَجدونَ طعمَ النَّومِ في أَعيُنِهِم كما يَجِدُهُ النَّائمُ إِذا استيقظَ مِنْ نومه ، فعندَ ذلكَ يقولون : ﴿ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ ﴾ .

وأخرجَ مسلم في « صحيحه » مِنْ حديثِ أَبي هريرة رضيَ اللهُ عنه : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدم ، أَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْر ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّع » .

وفي « صحيحِ البخاري » : « أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ بَعْدَ النَّفْخَةِ الآخِرَةِ فَإِذَا بِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مُتَعَلِّقٌ بِالْعَرْش ، فَلاَ أَدْرِي : أَكَذَلِكَ كَانَ أَمْ بَعْدَ النَّفْخَةِ ؟ » .

وفي بعضِ أَلفاظِ « البخاري » : « فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْش ، فَلاَ أَدْري : أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِي بِصَعْقَةِ الطُّورِ ؟ » .

وأَخرجَ الحكيمُ التِّرمذيُّ عنِ ابنِ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : خرجَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ويمينُهُ إِلىٰ أَبي بكرٍ وشمالُهُ علىٰ عمر ، فقال : « هَـٰكَذَا نُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيامَة » .

وفي « الصَّحيحين » مِنْ حديثِ أَنس رضيَ اللهُ عنه : أَنَّ رجلاً قال : يا رسولَ الله ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ أَيحشر الكافرُ علىٰ وجهه ؟ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِراً عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِه ؟ » قالَ قتادةُ حينَ بلغَه : بلىٰ وعزَّةِ ربِّنا .

وروى النَّسائِيُّ والتِّرمذي ، وحسَّنَه ، عن عَمرِو بنِ شعيب ، عن أَبيه ، عن جدِّه : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَال ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَان ، فَيُسَاقُونَ إِلَىٰ سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَه : بُولَس[1] تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَار ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ ؛ طِينَةَ الْخَبَال » .

---

(١) **بُولَس** : سجن في جهنم .

وروى البزّارُ مِنْ حديثِ جابر رضيَ اللهُ عنه مرفوعاً : « يَبْعَثُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاساً فِي صُوَرِ الذَّرِّ يَطَؤُهُمُ النَّاسُ بِأَقْدَامِهِم ، فَيُقَال : مَا هَـٰؤُلَاءِ فِي صُوَرِ الذَّر ؟ فَيُقَال : هَـٰؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرُونَ فِي الدُّنْيَا » .

وروى الجلالُ السّيوطي عليهِ الرَّحمة في كتابهِ « البدورُ السّافرة » عنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما في قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ قال : يُحشرُ كلُّ شيء ، حتَّىٰ إنَّ الذُّبابَ لَيُحْشَر .

قالَ العلماء : ثمَّ إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ لِلوحوش : كونوا تراباً ، فعندَ ذلكَ يقولُ الكافر : ﴿ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾ .

قال : وأَخرجَ أَبو نعيمٍ في « الحلية » : عن عكرمةَ قال : إنَّ الَّذينَ يَغرقونَ في البحرِ فتَقسِمُ لُحومَهُمُ الحيتانُ فلا يَبقىٰ منهُم شيءٌ إلاَّ العظامُ تلوح ، فتقلبها الأمواج حتى تلقيها على البَر ، فتمكثُ العظامُ حيناً حتى تَصيرَ حائلاً[1] نخرة ، فتمرُّ بها الإبلُ فتأْكُلُها ، ثمَّ تَسيرُ الإبلُ فتَبْعرُه ، ثمَّ يَجيءُ بعدَهُم قومٌ فينزلونَ منزلاً فيأْخذونَ ذلكَ البعرَ فيوقدونَه ، ثمَّ تخمدُ تلكَ النّار ، فتجيءُ ريحٌ فتُلقي ذلكَ الرّمادَ على الأَرض ، فإذا جاءَتِ النَّفخة . . خرجَ أُولئِكَ وأَهلُ القُبورِ سواء .

وأَخرجَ الطَّبرانيُّ في « الأَوسط » : عن أُمِّ سلمة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهَا قالَت : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاة » وفي رواية : « مُشَاةً غُرْلاً » أَي : غيرَ مختونينَ « قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ وَبَلَغَ شُحُومَ الآذَان » فقلت : يا رسولَ الله ؛ واسوأَتاه ؛ ينظرُ بعضُنا إِلىٰ بعضٍ ؟ قال : « شُغِلَ النَّاس » قلت : ما شَغلَهُم ؟ قال : « نَشْرُ الصَّحَائِفِ فِيهَا مَثَاقِيلُ الذَّر » . وفي رواية : فقال : ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ .

وقالَ السّيوطي عليهِ الرَّحمة في « البدورِ السّافرة » : أَخرجَ الخطيب : « يُحْشَرُ عَشْرَةُ أَصْنَافٍ مِنْ أُمَّتِي أَشْتَاتاً ، فَمِنْهُمْ عَلَىٰ صُورَةِ الْقِرَدَةِ ؛ وَهُمُ النَّمَّامُون ، وَبَعْضُهُمْ

(١) أي : متغيرة .

عَلَىٰ صُورَةِ الْخَنَازِيرِ ؛ وَهُمْ أَهْلُ السُّحْتِ وَالْحَرَامِ وَالْمَكْسِ ، وَبَعْضُهُمْ مُنَكَّسُونَ ؛ أَرْجُلُهُمْ أَعْلاهُم ، وَوُجُوهُهُمْ يُسْحَبُونَ عَلَيْهَا ، وَهُمْ أَكَلَةُ الرِّبَا ، وَبَعْضُهُمْ عُمْيٌ يَتَرَدَّدُونَ وَهُمْ مَنْ يَجُورُ فِي الْحُكْمِ ، وَبَعْضُهُمْ صُمٌّ بُكْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ وَهُمُ الَّذِينَ يُعْجَبُونَ بِأَعْمَالِهِم ، وَبَعْضُهُمْ يَمْضَغُونَ أَلْسِنَتَهُمْ مُدَلاَّةً عَلَىٰ صُدُورِهِمْ ، يَسِيلُ الْقَيْحُ مِنْ أَفْوَاهِهِم ، يقذرهم أَهْلُ الْجَمْعِ ؛ وَهُمُ الْعُلَمَاءُ وَالْقُصَّاصُ الَّذِينَ يُخَالِفُ قَوْلُهُمْ فِعْلَهُم ، وَبَعْضُهُم مُقَطَّعَةٌ أَيْدِيهِم وَأَرْجُلُهُمْ وَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْجِيرَان ، وَبَعْضُهُم مُصَلَّبُونَ عَلَىٰ جُذُوعٍ مِنَ النَّارِ وَهُمُ السُّعَاةُ بِالنَّاسِ إِلى السُّلْطَان ، وَبَعْضُهُمْ أَشَدُّ نَتْناً مِنَ الْجِيَفِ وَهُمُ الَّذِينَ يَتَمَتَّعُونَ بِالشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ وَيَمْنَعُونَ حَقَّ اللهِ مِنْ أَمْوَالِهِم ، وَبَعْضُهُمْ يَلْبَسُونَ جَلاَبِيبَ سَابِغَةً مِنَ الْقَطِرَان ، وَهُمْ أَهْلُ الْكِبْرِ وَالْفَخْرِ وَالْخُيَلاَءِ » .

ولنَرْجِعْ إلىٰ قولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ في حديثِ جبريلَ عليه السلام المذكورِ آنفاً في خمسٍ لا يَعلمهنَّ إلاَّ اللهُ تعالىٰ ، ثمَّ تلا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ :

قالَ والدُنا عليهِ الرَّحمة في تفسيره « روحُ المعاني » : أَخرجَ ابنُ المنذرِ عن عكرمة : أَنَّ رجلاً ـ يقالُ لَه : الوارثُ بنُ عَمرو ـ جاءَ إِلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فقال : يا محمَّد ؛ متىٰ قيامُ السّاعة ؟ وقد أَجدبَتْ بلادُنا ، فمتىٰ تُخصِب ؟ وقد تركتُ امرأَتي حُبلىٰ ، فما تَلِدُ ؟ وقد علمتُ ما كسبتُ اليوم ، فماذا أَكسبُ غداً ؟ وقد علمتُ بأَيِّ أَرضٍ وُلِدت ، فبأَيِّ أَرضٍ أَموتُ ؟ فنزلَتْ هـٰذهِ الآيةُ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ أَي : عِلمُ وقتِ القيامةِ مختصٌّ بهِ عزَّ وجل ، حتَّىٰ روى الشَّعبي : أَنَّ عيسىٰ عليهِ السّلامُ سأَلَ جبريلَ عليهِ السَّلامُ عنِ السّاعة ، فانتفضَ بأَجنحته ، وقال : ما المسؤُولُ عنها بأَعلمَ مِنَ السّائل .

والمراد : التَّساوي في العِلمِ ؛ لأَنَّ اللهَ تعالى استأْثرَ بعِلْمِها على الوجهِ الأَكمل .

قيل : ويجوزُ أَنْ يكونَ اللهُ تعالىٰ قد أَطلعَ حبيبَهُ المصطفىٰ عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ

علىٰ وقتِ قيامِها ، وأَوجبَ عليهِ كتمَهُ لحكمة ، ويكونُ ذلكَ مِنْ خصائصهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ أي : ويَعلمُ هوَ لاَ غيرُهُ زمانَ نزولِهِ مِنْ غيرِ تقديمٍ ولا تأْخير ، ومكانَهُ ومقدارَه .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ أَي : أَذكراً أَم أُنثىٰ ، أَتامّاً أَم ناقصاً ، وكذلكَ ما سوىٰ ذلكَ مِنَ الأَحوال .

﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ ﴾ أَي : كلُّ نفس ، برَّةً كانت أَو فاجرةً ﴿ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ أَي : في الزَّمانِ المستقبل ، مِنْ خيرٍ أَو شر .

﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ أَي : لا يدري أَحدٌ أَينَ مضجعُه ، أَفي برٍّ أَم في بحر ؟ في سهلٍ أَمْ في جبل ؟ وهـٰذا يستلزمُ أَنْ لا يعلمَ الإِنسانُ وقتَ موتهِ أَيضاً مِنْ بابِ أَولىٰ .

قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَه : لَم يُغَمَّ علىٰ نبيِّكُم إِلاَّ الخمسُ مِنْ سائرِ الغيب .

وقالَ ابنُ مسعود رضي الله عنه أُوتيَ نبيُّكُم صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم مفاتيحَ كلِّ شيءٍ غيرَ الخمسِ وهيَ ما في هـٰذهِ الآيةِ .

والَّذي ينبغي أَنْ يُعلَم : أَنَّ كلَّ غيبٍ لا يَعلَمهُ إِلاَّ اللهُ عزَّ وجل ، وليسَ المغيَّباتُ محصورةً بهـٰذهِ الخمسِ وإِنَّما خُصَّت بالذِّكرِ لوقوعِ السُّؤَالِ عنها ، كما أَشارَ إِليهِ القسطلاني .

لـٰكنْ قالَ المناويُّ في « شرحهِ الكبير »[1] في الكلامِ علىٰ حديثِ « خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ الله » أَي : علىٰ وجهِ الإِحاطةِ والشُّمول ، كليّاً وجزئيّاً ، فلا ينافيهِ إِطلاعُ اللهِ تعالىٰ بعضَ خواصِّهِ علىٰ بعضِ المغيَّباتِ حتَّىٰ مِنْ هـٰذهِ الخمس ؛ لأَنَّها جزئيّاتٌ معدودة ، وإِنكارُ المعتزلةِ لذلكَ مكابرة اهـ معَ زيادةٍ وتلخيص .

ولنَرْجعْ إِلىٰ قولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « هَـٰذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُم دِينَكُم » .

---

(١) المسمّىٰ « فيض القدير » .

فَجبريلُ اسمُهُ عبدُ الله ، كما روي عن عليٍّ بنِ الحسينِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما ، فقد أَخرجَ ابنُ جريرٍ وأَبو الشَّيخ ، عن عليٍّ بنِ الحسينِ قال : اسمُ جِبريلَ عبدُ الله ، واسمُ ميكائِيلَ عُبيدُ الله ، وإِسرافيلُ عبدُ الرَّحمـٰن ، وكلُّ شيءٍ رجعَ إِلىٰ إِيل فهوَ معبدٌ للهِ عزَّ وجل .

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ عمير : اسمُ جبريلَ في الملائكةِ خادمُ ربِّهِ عزَّ وجل .

وقالَ موسىٰ بنُ أبي عائشة : بلغني أَنَّ جبريلَ إِمامُ أَهلِ السَّماء .

وقالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَلاَ أُخْبِرُكُم بِأَفْضَلِ الْمَلاَئِكَة ؟ جِبْرِيل » .

وسُئِلَ وهبُ بنُ منبهٍ عن خَلْقِ جبريل ، فذكرَ أَنَّ ما بينَ مَنْكِبَيْهِ خَفْقُ الطَّيرِ سبعَ مئةِ عام .

وقالَ ابنُ مسعود رضي الله عنه : إِنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم لَمْ يرَ جبريلَ في صورتهِ إِلاَّ مرَّتين ، أَمّا الأُولىٰ : فإِنَّهُ سأَلَهُ أَنْ يُريَهُ نفْسَهُ فسدَّ الأُفق ، وأَمّا الأُخرىٰ : فليلة الإِسراءِ عندَ سدرةِ المنتهىٰ .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما مرفوعاً ، قال : « جِبْرِيلُ لَهُ سِتُّ مِئَةِ جَنَاحٍ مِنْ لُؤْلُؤ ، قَدْ نَشَرَهَا مِثْلَ رِيشِ الطَّوَاوِيس » .

وعن قتادةَ وغيره : لجبريلَ جناحان ، وعليهِ وشاحٌ مِنْ دُرٍّ منظوم ، وهوَ برّاقُ الثَّنايا أَجلى الجبينِ ورأْسُهُ حبكٌ مِثلُ المرجان ، وهوَ كاللُّؤلؤِ كأَنَّهُ الثَّلج ، وقدماهُ إِلى الخضرة .

وأَخرجَ أَبو الشَّيخ : عن أَنس رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم لجبريل : « هَلْ تَرَىٰ رَبَّك ؟ » قال : إِنَّ بيني وبينَهُ لسبعينَ حجاباً مِنْ نارٍ أَو نور ، لَو رأيتُ مِنْ أَدناها . . لاحترقت .

ذكرَ ذلكَ السُّيوطيُّ كلَّهُ في كتابه « الحبائك » .

وقد وصفَهُ سبحانَهُ بالقوَّةِ في قولهِ عزَّ وجل : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾

أَي : هوَ صاحبُ استحكامٍ في العقل ، أَو ذو منظرٍ حسن .

قالَ الوالد عليهِ الرَّحمة وناهيكَ دليلاً علىٰ شدَّةِ قوَّتهِ أَنَّهُ قلعَ قُرىٰ قومِ لوطٍ مِنَ الماءِ الأَسودِ الَّذي تحتَ الثَّرىٰ ، وحملَها علىٰ جناحه ، ورفعَها إِلى السَّماءِ ثمَّ قَلَبَها ، وصاحَ بثمودَ صيحةً فأَصبحوا جاثمين ، وكانَ هبوطُهُ على الأَنبياءِ عليهِمُ السّلامُ وصعودُه في أَسرع مِنْ رجعةِ الطَّرف . اهـ

هـٰذا وقد تبيَّنَ لَكم مِنْ هـٰذا الحديثِ أَنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ يَبعثُ مَنْ في القبور ، ويُجازي على العملِ الصّالحِ والفجور ، فاستعدّوا ـ رحمكُمُ اللهُ تعالىٰ ـ لصالحِ الأَعمال ؛ لتكونَ ذخيرةً لكُم عندَ الزَّلزلةِ والأَهوال ، فهيَ زلزلةٌ توجلُ لها القلوب ، زلزلةٌ تظهرُ عندَها العيوب ، زلزلةٌ تشتدُّ فيها الكروب ، زلزلةٌ فيها أَفئدةُ العصاةِ تذوب ؛ فالعذابُ شديدٌ والعقابُ أَليم ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ .

زلزلةٌ يشيبُ فيها المولود ، زلزلةٌ تشهدُ فيها الجلود ، زلزلةٌ تخدُّ فيها الدُّموعُ الخدود ، زلزلةٌ يتمنَّى العدمَ عندَها الموجود ، زلزلةٌ يَظهرُ عندَها التَّقاطعُ والصُّدود ، ويفرُّ الولدُ عنِ الوالدِ والحميمُ عنِ الحميم ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ .

انظرْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ أَنْ لا يُمكنَ النَّظر ، وتفكَّرْ في أَمركَ قَبْلَ أَنْ لا ينفعَ الفكر ، ومَثِّلْ يومَ الحشرِ إِذا بدا الهولُ وظَهَر ، وتزوَّدْ للرَّحيلِ وتأَهَّبْ لِلسَّفر ، وخُذْ عدَّتكَ لنقلتكَ فلستَ بمُقيم ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ .

اَللّهُمَّ ؛ يا سامعَ الصَّوت ، ويا كاسيَ العظامِ لحماً بعدَ الموت ؛ نسأَلكَ باسمكَ الأَعظم ، وبأَسمائِكَ الحسنىٰ ما نعلمُ منها وما لَم نَعلَم ، وبحُبِّكَ لنبيِّكَ الأَكرمْ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنْ توفِّقنا لطاعتك ، وتجنِّبنا عن معصيتك ، وتعمَّنا في الدُّنيا والآخرة برحمتك ، وتثبِّتَ قلوبَنا علىٰ دِينك ، وتحفظَنا في جميعِ أَحوالنا ، وتوفِّقنا في أَقوالِنا وأَفعالِنا ، وتغفرَ ما سلفَ مِنْ ذنوبِنا ، وتسترَ ما بدا مِنْ عيوبِنا ، واعصمنا فيما بقيَ مِنْ أَعمارِنا ، قَبْلَ أَنْ يشتملَ الهدمُ على البناء ، والكدرُ على الصَّفاء ، وينقطعَ مِنَ الحياةِ حبلُ الرَّجاء ، وتصيرَ المنازلُ تحتَ أَطباقِ الثَّرىٰ ، وقَبْلَ أَنْ يَصِيرَ الصُّبحُ ليلاً ، ويَسحبَ الموتُ علىٰ أَهلِ الأَرضِ والسَّماءِ ذيلاً ، فيقولُ الشَّيخُ الكبير : واشيبتاه .

ويقولُ الكهلُ الخطير : واخجلتاه . ويقولُ المذنبُ المسيء : يا خيبتاه . ويقولُ الحَدَثُ الصَّغير : واحسرتاه . وخجلوا مِنْ عملِهم وأَشفقوا ، وعاينوا مِنَ الأَهوالِ ما ودُّوا معَهُ أَنَّهُم لَم يُخلَقوا .

وارحمِ اللّهُمَّ أَهلَ القبور ؛ فإِنَّهم رَهائنُ ذنوبٍ لا يُطلَقون ، أُسراءُ وحشةٍ لا يُفكُّون ، مَحَتْ دارساتُ الثَّرىٰ محاسنَ وجوهِهم ، وجاورتهمُ الهوامُّ في ملاحدِ قبورِهم ، فهُم خمودٌ لا يتكلَّمون ، وسكّانُ لحدٍ إِلى الحشرِ لا يظعنون ، وفيهِم محسنونَ ومسيئُون ، ومقصِّرونَ ومجتهدون .

اللّهُمَّ ؛ فمَنْ كانَ منهُم مسروراً . . فزدْهُ كرامةً وحُبوراً ، ومَنْ كانَ منهُم ملهوفا . . فبدِّلْ حُزنَهُ فرحاً وسروراً .

اللّهم ؛ وتعطَّفْ علىٰ كافَّةِ أَمواتِ المسلمين ، وارحمهُم وارحمنا إِذا عُدنا إِليهِم برحمتكَ الواسعةِ يا أَرحمَ الرّاحمين ، لا سيّما الآباءُ والأُمّهات ، والأَعمامُ والإِخوةُ والأَخوات ، وجميعُ الأَقربين ، وأَمواتُ الجماعةِ الحاضرين ، ومشايخُنا ومَنْ لَهُ حقٌّ علينا مِنَ المسلمين .

اللّهُمَّ ؛ اجعلْ قبورَهُم مفائضَ صَلاتِك ، ومقارَّ هِباتِك ، وطُرُقَ إِحسانِك ، ومجاريَ عفوِكَ وغفرانِك .

اللّهُمَّ ؛ ، لا تَدَعْ لنا ذنباً إِلاَّ غفرتَه ، ولا همّاً إِلاَّ فرَّجتَه ، ولا كرباً إِلاَّ كشفتَه ، ولا مبتلىً إِلاَّ عافيتَه ، ولا غائباً إِلاَّ بالخيرِ رددتَه ، ولا عاصياً إِلاَّ هديتَه ، ولا حقّاً إِلاَّ استخلصتَه ، ولا حاجةً مِنْ حوائجِ الدُّنيا والآخرةِ لكَ فيها رضاً ولنا فيها صلاحٌ إِلاَّ يسرتَها وقضيتَها بمنِّك ، وانصرْ سلطانَنا ومَنْ نصرَ الدِّين ، واحفظِ المجاهدينَ وعساكرَ الموحِّدِين .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وآلِهِ أَجمعين .

* * *

المجلس التاسع عشر
في إطاعة السلطان والجهاد وما يتعلق بذلك

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ ربِّ الأَربابِ ومُنزلِ الكتاب ، حَفِظَ الأَرضَ بِالجبالِ مِنَ الاضطراب ، وقهرَ الجبّارينَ الصّعاب ، وسَمِعَ خفيَّ النُّطقِ ومهموسَ الخطاب ، وأَبصرَ فلَم يَسترْ نظرَهُ حجاب ، أَنزلَ القرآنَ يحثُّ فيهِ على الجهادِ واكتسابِ الثّواب ، وزجرَ عنِ الفرارِ وأَسبابِ العقاب ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ .

أَحمدُهُ علىٰ رفعِ الشّكِّ والارتياب ، وأَشكرهُ علىٰ سترِ الخطايا والعاب[1] ، وأُقرُّ لَه بالتَّوحيدِ إِقراراً نافعاً يومَ الحساب .

وأُصلِّي وَأُسلِّمُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ الَّذي رفعَ لَهُ الحجاب ، وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ خيرِ الأَصحاب ، وعلىٰ عمرَ الَّذي إِذا ذُكرَ في المجلسِ طاب ، وعلىٰ عثمانَ جامعِ القرآنِ وشهيدِ المحراب ، وعلىٰ عليٍّ البدرِ يومَ بَدْر ، والصَّدرِ يومَ الأَحزاب .

أَمّا بعد : فنروي بسندِنا إِلى الإِمامِ الهمام ، محيي الدِّينِ أَبي زكريّا يحيى النَّواوي عليهِ رحمةُ الملكِ العلاَّمِ ، فإِنَّهُ روىٰ في كتابهِ « الأَربعين » عنِ التِّرمذي ، عن معاذِ بنِ جبل رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قلت : يا رسولَ الله ؛ أَخبرني بعملٍ يُدخلني الجنَّةَ ويُباعدني مِنَ النّارِ ؟ قال : « لَقَدْ سَأَلْتَني عَنْ عَظِيم ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَىٰ مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْه : تَعْبُدُ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً ، وَتُقِيمُ الصَّلاَة ، وَتُؤْتِي الزَّكَاة ، وَتَصُومُ رَمَضَان ، وَتَحُجُّ الْبَيْت » ثمَّ قال : « أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الْخَير ؟ الصَّومُ جُنَّة ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِىءُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِىءُ الْمَاءُ النَّار ، وَصَلاَةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْل » ثمَّ تلا : ﴿ تَتَجَافَىٰ

(١) العاب والعيب والعيبة : الوصمة .

﴿جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ ثمَّ قال : « أَلاَ أُخبرُكَ بِرأسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِه ؟ » قلت : بلىٰ يا رسولَ الله . قال : « رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَم ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَة ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَاد » ثمَّ قال : « أَلاَ أُخبرُكَ بِمَلاَكِ ذَلِكَ كُلِّه ؟ » قلت : بلىٰ يا نَبِيَّ الله . فأَخذَ بلسانهِ ؛ قال : « كُفَّ عَلَيْكَ هـٰذَا » قلت : يا نَبِيَّ الله ؛ وإِنّا لمؤاخذونَ بما نتكلَّمُ به ؟! فقال : « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَامُعَاذ ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم ؟ » .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ : هـٰذا الحديثُ مِنْ أَعظمِ الأَحاديثِ النَّبويَّةِ المفصَّلةِ فيهِ الأَحكامُ الدِّينيَّة ، بل والدُّنيويَّة ، وقد تكلَّمنا فيما سبقَ مِنَ الدُّروسِ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ ، وأَنَّها إِظهارُ العبوديَّةِ لَهُ مِنْ تصديقٍ بِهِ وعدمِ إِشراكٍ بهِ عزَّ وجل ، والإِيمانِ بما أَنزل ، وذكرنا بحثَ الصَّومِ والصَّلاةِ والحجِّ والزَّكاة ، ولنذكرِ الآن ـ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ ما يتعلَّقُ بالجهادِ وإِطاعةِ السُّلطان ؛ لأَنَّهُ لَهُ أَقوىٰ عماد ، ونُوردُ الآياتِ الكريمةَ والأَحاديثَ العظيمةَ المتعلِّقةَ بالجهاد ، وإِطاعةِ السُّلطان ، والرِّباط ، والإِنفاقِ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ؛ مِنْ تجهيزِ الغُزاةِ والهجرةِ مِنْ دارِ الكفّار ، ونحوِ ذلكَ ممّا أَتىٰ في صحيحِ الأَخبار .

فاعلموا : أَنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ قال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ .

قالَ أَبو هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : أُولو الأَمرِ هُمُ الأُمراء . وفي لفظ : هُم أُمراءُ السَّرايا .

وقالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : هُمُ الفقهاءُ والعلماءُ الَّذينَ يُعلِّمونَ النّاسَ معالمَ دِينهِم .

وقالَ مالكٌ والضَّحاك : هُم أَصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم .

قالَ العلماء : والمرادُ مِنْ إِطاعةِ اللهِ تعالىٰ : اتِّباعُ كتابه ، ومِنْ إِطاعةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : اتِّباعُ أَوامرِهِ وسُنَّته ، ومِنْ إِطاعةِ السّلاطينِ والأَئمَّةِ والقضاةِ

والولاة : إطاعتُهم فيما يأمرونَ بهِ وينهونَ عنهُ ما لم تكنْ معصية ؛ فقد ثبتَ عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ أَنَّهُ قال : « لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ » .

وقالَ ابن تيمية في كتابه « السّياسةُ الشّرعيّة » ما نصُّه : ويجبُ أَنْ يُعرفَ أَنَّ ولايةَ أُمورِ النّاسِ مِنْ أَعظمِ واجباتِ الدِّين ، بل لا يُقامُ الدِّينُ ولا الدُّنيا إلاَّ بها ؛ فإِنَّ بني آدمَ لا تتمُّ مصلحتُهم إلاَّ بالاجتماعِ لحاجةِ بعضِهم إِلىٰ بعض ، ولا بدَّ لَهُم عندَ الاجتماعِ مِنْ رأس ، حتَّىٰ قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِذَا خَرَجَ ثَلاَثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُم » رواهُ أَبو داوودَ مِنْ حديثِ أَبي سعيدٍ وأَبي هريرة رضي الله عنهما .

وروى الإمامُ أَحمدُ في « المسند » عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو : أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « لاَ يَحِلُّ لِثَلاَثَةِ نَفَرٍ يَكُونُونَ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ إِلاَّ أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُم » .

فأَوجبَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم تأْميرَ الواحدِ في الاجتماعِ القليلِ العارضِ في السّفر ؛ تنبيهاً بذلكَ علىٰ سائرِ أَنواعِ الاجتماع ؛ ولأَنَّ اللهَ تعالىٰ أَوجبَ الأَمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عنِ المنكَر ، ولا يتمُّ ذلكَ إلاَّ بقوَّةٍ وإمارة ، وكذلكَ سائرُ مَا أَوجبَهُ مِنَ الجهادِ والعدل ، وإقامةِ الحجِّ والجُمَعِ والأَعياد ، ونصرِ المظلوم ، وإقامةِ الحدود . . لا تتم إلاَّ بالقوَّةِ والإمارة ، ولهٰذا رويَ : « إنَّ السُّلطانَ ظِلُّ اللهِ في الأَرض » ، ويقال : ستّونَ سنةً مِنْ إمامٍ جائرٍ . أَصلحُ مِنْ ليلةٍ واحدةٍ بلا سلطان ، والتَّجربةُ تُبيِّنُ ذلك .

ولهٰذا كانَ السّلف ؛ كالفضيلِ بنِ عياضٍ وأَحمدَ ابنِ حنبلٍ وغيرِهما يقولون : لَو كانَ لَنا دعوةٌ مستجابة . . لدعونا بها لِلسُّلطان .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ اللهَ يَرْضَىٰ لَكُمْ ثَلاَثاً : أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ، وَأَنْ تَنَاصِحُوا مَنْ وَلاَّهُ اللهُ أَمْرَكُم » رواهُ مسلمٌ .

وروى العرباضُ بنُ سارية رضي الله عنه ، قال : وعظَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم موعظةً وَجِلَتْ منها القلوبُ وذَرفَتْ منها العيون ، قلنا : يا رسولَ الله ؛ كأَنَّها

موعظةُ مودِّع ، فأَوصِنا ؟ قال : « أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد ، وَإِنَّ مَنْ يَعِشْ مِنكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلاَفاً كَثِيراً ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّين ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُور ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَة ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّار » .

وفي « التِّبيانِ في إطاعةِ السُّلطان » لوالدِنا المبرور : أَخرجَ الحاكمُ في « المستدرك » : عن عبادةَ بنِ الصّامتِ أَنَّهُ قالَ لَهُ النَّبيُّ صلَّى ٱللهُ عليهِ وسلَّم : « اسْمَعْ وَأَطِعْ خَلِيفَةَ زَمَانِكَ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِك ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِك ، وَأَثَرَةً عَلَيْك ، وَإِنْ أَكَلُوا مَالَكَ وَضَرَبُوا ظَهْرَك ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَعْصِيَةً للهِ بَوَاحاً » أَي : جهاراً ظاهراً .

وأَخرجَ الطَّبراني ، والبيهقيُّ بنحوه في « شُعبِ الإيمان » : عن أَبي بكرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « السُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ فِي الأَرْض ، فَمَنْ أَكْرَمَه . . أَكْرَمَهُ الله ، وَمَنْ أَهَانَه . . أَهَانَهُ الله » .

وروى البخاريُّ في « تاريخه » : عن أَبي ذرٍّ الغفاري قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « سَيَكُونُ بَعْدِي سُلْطَانٌ فَأَعِزُّوه ؛ فَإِنَّهُ مَنْ أَرَادَ ذُلَّه . . ثَغَرَ ثَغْرَة ـ أي : ثلمَ ثلمةً في الإسلام ـ وَلَيْسَتْ لَهُ تَوْبَةٌ إِلاَّ إِنْ سَدَّهَا ، وَلَيْسَ بِسَادِّهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَة » .

وأَخرجَ أَبو داوودَ في « سُننه » عن عامرِ بنِ مسهر ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « تَمَسَّكُوا بِطَاعَةِ أَئِمَّتِكُم وَلاَ تُخَالِفُوهُم ؛ فَإِنَّ طَاعَتَهُمْ طَاعَةُ الله ، وَإِنَّ مَعْصِيَتَهُمْ مَعْصِيَةُ الله ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِنَّمَا بَعَثَنِي أَدْعُو إِلَىٰ سَبِيلِهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَة » .

وعنِ ابنِ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما كما أَخرجَهُ الدَّيلمي ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « السُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ فِي الأَرْضِ يَأْوِي إِلَيْهِ كُلُّ مَظْلُومٍ مِنْ عِبَادِه ، فَإِنْ عَدَلَ . . كَانَ لَهُ الأَجْرُ ، وعَلَى الرَّعِيَّةِ الشُّكْر ، وَإِنْ جَارَ وحافَ وَظَلَمَ . . كَانَ عَلَيْهِ الإِصْرُ ، وعَلَى الرَّعِيَّةِ الصَّبْر » . وفي هٰذا الحديثِ ضعفٌ لٰكنْ لَهُ متابعات ، فقد روى البيهقيُّ في « شُعبِ الإيمان » : عن عبدِ اللهِ بنِ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما أَيضاً ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « السُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ فِي الأَرْض ، يَأْوِي إِلَيْهِ

كُلُّ مَظْلُومٍ مِنْ عِبَادِهِ ، فَإِنْ عَدَلَ . . كَانَ لَهُ الأَجْرُ وَعَلَى الرَّعِيَّةِ الشُّكْر ، وَإِذَا جَارَ . . كَانَ عَلَيْهِ الإصر وعَلَى الرَّعِيَّةِ الصَّبْر ، وَإِذَا جَارَتِ الْوُلاَة . . قَحَطَتِ السَّمَاء » .

وأَخرجَ الدَّيلمي قالَ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الإِسْلاَمُ وَالسُّلْطَانُ أَخَوَان ، لاَ يَصْلُحُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا إِلاَّ بِصَاحِبِه ، فَالإِسْلاَمُ أُس - أي : أَسَاس - وَالسُّلْطَانُ حَارِس ، وَمَا لاَ أُسَّ لَهُ يُهْدَم ، وَمَا لاَ حَارِسَ لَهُ ضَائع » .

وعنِ ابنِ عباس رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الإِمَامُ الْعَادِلُ الْمُتَوَاضِعُ ظِلُّ اللهِ وَرُمْحُهُ فِي الأَرْض ، وَيُرْفَعُ لِلْوَالِي الْعَادِلِ الْمُتَوَاضِعِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَمَلُ سِتِّين - وفي رواية - سَبْعِينَ صِدِّيقاً ، كُلُّهُمْ عَابِدٌ مُجْتَهِد » .

وأَخرجَ الغزاليُّ في كتابهِ « نصيحةُ الملوك » : عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه ، إِنَّهُ يُرْفَعُ لِلسُّلْطَانِ الْعَادِلِ إِلَى السَّمَاءِ مِنَ الْعَمَلِ مِثْلُ عَمَلِ رَعِيَّتِه ، وَكُلُّ صَلاَةٍ يُصَلِّيهَا تَعْدِلُ سَبْعِينَ أَلْفَ صَلاَة » .

وعن أَنسٍ رضي الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ بَلَداً لَيْسَ فِيهِ سُلْطَانٌ فَلاَ يُقِيمَنَّ بِه » أَي : لأَنَّهُ لا يكادُ يأْمنُ علىٰ نَفْسهِ ومالهِ ودِينه ؛ إِذْ لا يحصلُ ذلكَ إِلاَّ بالأَمانِ المنوطِ بوجودِ السُّلطان ، ولهٰذا صارَ اتِّخاذُ الإِمامِ واجباً في كلِّ زمان .

ونصَّ بعضُهُم أَنَّ البلدةَ الَّتي ليسَ فيها حَجَّامٌ أَو طبيبٌ مسلمٌ مثلاً لا يجوزُ السُّكنىٰ فيها ، فإِذا لَم تَجزِ الإِقامةُ في بلدةٍ خَلَتْ عن طبيبٍ وحَجَّام . . فكيفَ حالُ الإِقامةِ في بلدةٍ إِذا خَلَتْ عنْ إِمام ؟!

وعنِ ابنِ عمر رضي الله عنهما : مَنْ أَكرمَ سلطانَ اللهِ في الدُّنيا . . أَكرمَهُ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامة .

وعن أَبي هريرةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لاَ تَسُبُّوا الأَئِمَّةَ وَادْعُوا لَهُمْ بِالصَّلاَح ؛ فَإِنَّ صَلاَحَهُم لِكُلِّ أَحَدٍ صَلاَح » .

وفي بعضِ الكتبِ المنزلة : (أَنا اللهُ مَلِكُ الملوك ، قلوبُ الملوكِ ونواصِيها

بيدي ، فإنِ العبادُ أَطاعوني . . جعلتُهم رحمة ، وإنْ هُم عَصوني . . جعلتُهُم عليهِم عقوبة ، فلا تشتغلوا بسبِّ الملوك ، ولـٰكنْ توبوا إِليَّ أُعطِّفْهُم عليكُم) .

وكانَ مِنْ دعاءِ نبيِّنا المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « اللَّهُمَّ لاَ تُسَلِّطْ عَلَيْنَا بِذُنُوبِنَا مَنْ لاَ يَرْحَمُنَا » .

وعن أَبي هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : « مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ ـ أَي : طاعةِ الإمام ـ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ ـ أَي : جماعةَ المسلمين ـ فَمَاتَ . . مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّة » ؛ أَي : على الضَّلالة .

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ـ واللَّفظُ للبخاري ـ أَنَّهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيْهِم ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم : رَجُلٌ عَلَىٰ فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلاَةِ يَمْنَعُهُ مِنِ ابْنِ السَّبِيل ، وَرَجُلٌ سَاوَمَ رَجُلاً سِلْعَةً بَعْدَ الْعَصْرِ فَحَلَفَ لَهُ لأَخَذَهَا بِكَذَا وَكَذَا ، فَصَدَّقَهُ وَهُوَ عَلَىٰ غَيْرِ ذَلِك ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَاماً لاَ يُبَايِعُهُ إِلاَّ لِلدُّنْيَا ، فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا . . وَفَّىٰ لَه ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِه . . لَمْ يَفِ لَه » .

ولقد أَحسنَ السِّلفيُّ حيثُ يقول :

عَلَيْكَ بِطَاعَةِ الْحُكَّامِ سِرّاً ... وَجَهْراً مَا حَيِيتَ مَدَى الزَّمَانِ

وَلاَ تَعْبَأْ بِذِي سَفَهٍ وَطَيْشٍ ... رَقِيعٍ قَدْ يُمَنِّيكَ الأَمَانِي

فَطَاعَةُ مَنْ لَهُ أَمْرٌ وَنَهْيٌ ... أَمَانٌ فِي أَمَانٍ فِي أَمَانِ

والأَحاديثُ في ذلكَ كثيرةٌ مشحونةٌ بها الكتبُ الحديثيَّة ، وصادحةٌ بمثلِ أَحكامِها القوانينُ الشَّرعيَّة ، ونقلَ في « البرهان » أَنَّ الشَّيخَ الأَكبر قُدِّسَ سِرُّهُ الأَطهر صرَّحَ بأَنَّ السُّلطانَ إنْ كانَ صالحاً . . فمِنَ الأَقطاب ، وإِنْ كانَ غيرَ صالح . . فمِنَ الأَبدال .

فنحمدُهُ تعالىٰ علىٰ أَنْ جعلَ سلطانَنا الأَعظم ، والخليفةَ على الخليقةِ في هـٰذا العالمِ عبدَهُ الخاضعَ لسلطانه ، وأَميرَ المؤمنينَ في زمانه ، حضرةَ مولانا السّلطانِ الغازي عبدِ الحميدِ خان ، ابنِ الخاقانِ المرحومِ عبدِ المجيدِ خان ، ابنِ المبرورِ

الخاقانِ السُّلطانِ محمود خان ، شيّدَ اللهُ تعالىٰ دولتَهُ بالشَّرعِ الأقوم ، ونصرَهُ علىٰ سائرِ الأُمم ، ووفَّقَهُ للخيرِ الأتم ، وأذلَّ لَهُ الطّاغينَ الباغين ، وأعلا بهِ كلمةَ الدِّينِ المبين ، وجعلَ في حوزتهِ جميعَ الأقطار ، وسدَّدَ أركانَ دولتهِ ما تعاقبَ اللَّيلُ والنَّهار ، كيفَ لا ؟ وهوَ والحمدُ للهِ تعالىٰ بدرُ سماءِ السّلطنةِ العثمانيّة ، وشمسُ أَوجِ سلطنتها السَّنيَّةِ الَّتي قالَ فيها الشَّيخُ عبدُ الغنيّ النّابلسي عليهِ الرَّحمة إنَّها المشارُ إليها في قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ ونقلَ أيضاً صاحب « كتابِ البرهان » عن بعضِ أهلِ العرفان : أنَّ الدَّولةَ العليَّةَ مِنْ بني عثمانَ تمتدُّ إلىٰ آخِرِ الزَّمانِ حتَّىٰ يَظهرَ المهديُّ مِنْ ذريَّةِ سَيِّدِ وَلَدِ عَدْنَانِ عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ ما تعاقبَ الملوان[1] .

وليُعلَمْ أنَّهُ كما يجبُ على النّاسِ إطاعةُ السُّلطان ، يجبُ عليهِ العدلُ بينَ رعيَّته ، وتوليةُ الأُمورِ لأَحسنِ مَنْ في دولته ؛ فقد وردَ في الحديثِ الصَّحيحِ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُم مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَة ، حَتَّىٰ إِنَّ الرَّجُلَ رَاعٍ فِي أَهْلِ بَيْتِه » .

وروى ابنُ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما : ما مِنْ أَميرٍ ولا والٍ إلاَّ و يُؤْتَىٰ بهِ يومَ القيامةِ مغلولةً يداهُ إلىٰ عنقه ، أَطلقهُ عدلُهُ أَو أَوبقَهُ جَوره .

وعن علي كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَه : الإيمانُ علىٰ أَربعةِ دعائم : الصَّبر ، واليقينُ والعدلُ والجهاد .

وفي كتابِ « هدايةِ الولاة » : عن صعصعةَ بنِ صوحانَ قال : خطبَنا عليُّ بنُ أَبي طَالب رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه وعلىٰ رأْسهِ عمامةٌ سوداء ، فقال : أَيُّها النّاس ؛ إنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَاضٍ وَلاَ وَالٍ إِلاَّ يُؤْتَىٰ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُوقَفَ بَيْنَ يَدَي اللهِ تَعَالَىٰ عَلَى الصِّرَاط ، ثُمَّ تَنْشُرُ الْمَلاَئِكَةُ سِيرَتَه ـ أَي : صحيفتَه ـ معَ رَعِيَّتِهِ أَعَدَلَ أَمْ جَار ؟ فَيَقْرَؤُهَا عَلَىٰ رُؤُوس الْخَلاَئِق ، فَإِنْ كَانَ عَدْلاً . .

(١) الملوان : الليل والنهار ، وهـٰذا كناية عن دوامها واستمرارها .

أَنْجَاهُ اللهُ بِعَدْلِه ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ عَدْل . . انْتُفَضَ الصِّرَاطُ بِهِ انْتِفَاضَة ، وَصَارَ بَيْنَ كُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ مَسِيرَةَ مِئَةِ سَنَة ، ثُمَّ يَنْخَرِقُ بِهِ الصِّرَاطُ فَمَا يَتَلَقَّىٰ قَعْرَ جَهَنَّمَ إِلاَّ بِوَجْهِهِ وَحَرِّ جَبِينِه »

وروى الحاكمُ في « صحيحه » عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً فَوَلَّىٰ رَجُلاً وَهُوَ يَجِدُ مَنْ هُوَ أَصْلَحُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْه . . فَقَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَخَانَ الْمُؤْمِنِين » .

وقالَ عمرُ بنُ الخطّاب رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : مَنْ وليَ مِنْ أَمرِ المسلمينَ شيئاً فولَّىٰ رجلاً لمودَّةٍ أَو قرابةٍ بينَهُما . . فقد خانَ اللهَ ورسولَهُ والمؤْمنين . اهـ

ولنشْرَعْ في سردِ أَحاديثَ وآياتٍ تدلُّ علىٰ فضلِ الرّباطِ والجهادِ وما يتعلَّقُ بذلكَ علىٰ وجهِ الاقتصارِ والاقتصاد :

فمنها : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

ومنها : ما رويَ عن أَبي هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : أَيُّ العملِ أَفضل ؟ قال : « الإِيمَانُ بِاللهِ وَرَسُولِه » قيل : ثمَّ ماذا ؟ قال : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله » قيل : ثمَّ ماذا ؟ قالَ « حَجٌّ مَبْرُور » رواهُ البخاري ومسلم ، والتِّرمذي والنَّسائي .

ومنها : عن أَبي هريرة رضي الله عنه ورواهُ التِّرمذي أَيضاً ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلاَثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّة : شَهِيد ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّف ، وَعَبْدٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ اللهِ وَنَصَحَ لِمَوَالِيه » .

ومنها : عنِ المقدادِ بنِ معديكرب رضيَ اللهُ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

وسلَّم : « لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَال : يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَة ، وَيَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّة ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْر ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَر ، وَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ ؛ الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِين ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقْرِبَائِه » رواهُ التّرمذي وابنُ ماجَه .

ومنها : عنهُ أَيضاً ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الشَّهِيدُ لاَ يَجِدُ أَلَمَ الْقَتْلِ إِلاَّ كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ أَلَمَ الْقَرْصَة » رواهُ التّرمذي ، والنَّسائي ، والدّارمي .

ومنها : عن معاذ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الْغَزْوُ غَزْوَان : فَأَمَّا مَنِ ابْتَغَىٰ وَجْهَ اللهِ ، وَأَطَاعَ الإِمَامَ ، وَأَنْفَقَ الْكَرِيمَةَ وَيَاسَرَ الشَّرِيكَ ، وَاجْتَنَبَ الْفَسَاد . . فَإِنَّ نَوْمَهُ وَنُبْهَهُ أَجْرٌ كُلُّه ، وَأَمَّا مَنْ غَزَا فَخْراً وَرِيَاءً وَسُمْعَةً ، وَعَصَى الإِمَامَ ، وَأَفْسَدَ فِي الأَرْض . . فَإِنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ بِالْكَفَاف » رواهُ مالك ، وأَبو داوود ، والنَّسائي .

ومنها : عن أَبي أُمامة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : خرجنا معَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم في سَرِيَّة ، فمرَّ رجلٌ بغارٍ فيهِ شيءٌ مِنْ ماءٍ وبقل ، فحدَّثَ نَفْسَهُ بأَنْ يُقيمَ فيهِ ويتخلَّىٰ مِنَ الدُّنيا ، فاستأذنَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم في ذلك ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ بِالْيَهُودِيَّةِ وَلاَ بِالنَّصْرَانِيَّة ، وَلَـٰكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَة ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَغَدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَمُقَامُ أَحَدِكُمْ فِي الصَّفِّ خَيْرٌ مِنْ صَلاَتِهِ سِتِّينَ سَنَة » رواهُ أَحمد .

ومنها : عن علي ، وأَبي الدَّرداء ، وأَبي هريرة ، وأَبي أُمامة ، وعبدِ اللهِ بنِ عمر ، وجابرِ بنِ عبدِ الله ، وعمرانَ بنِ حصين رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُم كلُّهم يُحدِّثُ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « مَنْ أَرْسَلَ بِنَفَقَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأَقَامَ فِي بَيْتِه . . فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُ مِئَةِ دِرْهَم ، وَمَنْ غَزَا بِنَفْسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأَنْفَقَ فِي وَجْهِ ذَلِك . . فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُ مِئَةِ أَلْفِ دِرْهَم » ثُمَّ تلا الآية ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ رواهُ ابنُ ماجه .

ومنها : عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ الله ، لاَ يَفْتُرُ

مِنْ صِيَامٍ وَلاَ صَلاَةٍ حَتَّىٰ يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ الله » متَّفقٌ عليه .

ومنها : عنهُ أيضاً ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « انْتَدَبَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِه ، لاَ يُخْرِجُهُ إلاَّ إِيمَانٌ بِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي ، أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ ، أَوْ غَنِيمَة ، أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّة » متَّفقٌ عليه .

ومنها : عن أَبي أُمامة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ لَمْ يَغْزِ ، أَوْ لَمْ يُجَهِّزْ غَازِياً ، أَوْ يَخْلُفْ غَازِياً فِي أَهْلِهِ بِخَيْر . . أَصَابَهُ اللهُ بِقَارِعَةٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَة » رواهُ أَبو داوود ، والنَّسائي ، والدّارمي .

وعن سهلِ بنِ سعد رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » متَّفقٌ عليه .

وعن سلمانَ الفارسي رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِه ، وَإِنْ مَات . . جَرَىٰ عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُه ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُه ، وَأَمِنَ الْفُتَّان » رواهُ مسلم .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « مَنْ جَهَّزَ غَازِياً . . كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِه ، وَمَنْ جَهَّزَ غَازِيا . . فَقَدْ غزَا » .

وروىٰ ميمونُ بنُ مهران ، عنِ ابنِ عبّاس رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ حَبَسَ فَرَساً فِي سَبِيلِ الله . . كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ حَسَنَة ، وَحُطَّ عَنْهُ سَيِّئَة ، وَرُفِعَ لَهُ دَرَجَة » وعن عبدِ اللهِ بنِ عمرو : « غَزْوَةٌ فِي الْبَحْرِ خَيْرٌ مِنْ عَشْرِ غَزَوَاتٍ فِي الْبَر ، وَمَنْ أَجَازَ الْبَحْر . . فَكَأَنَّمَا أَجَازَ الأَوْدِيَةَ كُلَّهَا ، وَالْمَائِدُ[1] فِيهِ كَالْمُتَشَحِّطِ فِي دَمِه » رواهُ الطَّبراني .

ولذا كانَ الفرارُ يومَ الزَّحفِ مِنَ الكبائر ؛ فقد روى الطَّبرانيُّ عن ثوبانَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْفَعُ مَعَهُنَّ عَمَل : الشِّرْكُ بِاللهِ تَعَالَىٰ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْن ، وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْف » .

---

(١) **المائد** : الذي يُدار برأسه من ريح البحر واضطراب السفينة بالأمواج .

وكذا الغلولُ في الجهادِ مِنَ الكبائر ، وهو : أَخذُ شيءٍ مِنَ الغنيمة ؛ فقد روىٰ ثوبانُ رضي الله عنه أَيضاً : « مَنْ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَرِيئاً مِنْ ثَلاَث . . دَخَلَ الْجَنَّة : الْكِبْر ، وَالْغُلُول ، وَالدَّيْن » .

وعن سَمُرَة : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم كانَ يقول : « مَنْ يَكتُمْ غَالاً فَإِنَّهُ مِثْلُه » .

وليُعلَم أَيضاً أَنَّ الهجرةَ مِنْ بلادِ الكفرِ إِلىٰ ديارِ الإِسلام وردت فيها أَيضاً آياتٌ وأَحاديثُ عظام ، **فمنها** : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ ﴾ .

ومِنها : ما رواهُ عمرُ بنُ الخطّاب رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّات ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَىٰ ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِه . . فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِه ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا . . فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْه » .

فتبيَّنَ مِنْ هٰذهِ الآياتِ والأَحاديثِ أَنَّ إِطاعةَ أُولي الأَمرِ والجهادِ واجبانِ علىٰ كافَّةِ العباد، ولنذكر بعضَ الحكاياتِ الصَّحيحة؛ لتكونَ في ذلكَ عبرةٌ لذوي العقولِ الرَّجيحة .

فمنها ـ علىٰ ما نقلَهُ الوالد عليهِ الرَّحمة في كتابهِ « التِّبيان » ـ عن معاذ النَّسفي ، قال :

كانَ شابٌّ مراهقٌ لا يُصلِّي الصّلاة ، فلَمّا مات . . حضرَ النّاسُ جنازتَهُ ولَم يَحضرْ أَبوهُ فعوتبَ بذلك ، فقال : إِنَّهُ كانَ عاصياً للهِ ولرسوله ، فرآهُ في منامهِ وهوَ يقول : أَبَت ؛ إِنْ لَم تَحضرْ جنازتي فقد حضرَ مَنْ هوَ خيرٌ منك ، أَتاني جبريلُ عليهِ السّلامُ معَ سبعينَ أَلف ملَكٍ فصلَّىٰ عليَّ وبشَّرني مِنَ اللهِ تعالىٰ بالمغفرة ، فقالَ لَهُ أَبوه : يا بُني ؛ مِنْ أَينَ لكَ هٰذهِ الكرامةُ وقد كنتَ عاصياً للهِ ولرسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ؟ قال : يا أَبت ؛ بلغني أَنَّ المسلمينَ قد رَجعوا مِنْ غزوتِهم سالمينَ فكنتُ مسروراً بذلك ، فأَكرمني اللهُ تعالىٰ بهٰذهِ الكرامة .

فهٰذا حالُ مَنِ استبشرَ بسلامةِ الغزاةِ وليسَ معَهُم ، فكيفَ حالُ مَنْ هوَ مِنْ جملتِهِم؟!

وذَكرَ الإمامُ ناصرُ السُّنَّةِ ابنُ الجوزيِّ في « عيونِ الحكايات » بسندهِ عن أَبي علي ، وهوَ أَوّلُ مَنْ سكنَ طرسوسَ حتَّىٰ بناها أَبو سليم ، قال :

إنَّ ثلاثةَ إخوةٍ مِنَ الشَّامِ كانوا يغزونَ وكانوا فُرساناً شُجعاناً ، فأَسرهُمُ الرُّومُ مرَّة ، فقالَ الملِك : إنِّي أَجعلُ فيكم المُلكَ وأُزوِّجُكُم بناتي ، وتدخلونَ في النَّصرانيَّة ، فأَبوا وقالوا : يا محمَّداه ؛ فأَمرَ بثلاثِ قدورٍ فصُبَّ فيها الزَّيت ، ثمَّ أُوقدَ تحتَها ثلاثةَ أيّامٍ يُعرَضونَ في كلِّ يومٍ علىٰ تلكَ القدورِ ويُدعونَ إلى النَّصرانيَّةِ فيأْبون ، فأَلقى الأَكبرَ في القدرِ ثمَّ الثّاني ، ثمَّ أَدنى الأَصغرَ فجعلَ يفتنُهُ عن دِينِهِ بكلِّ أَمر ، فقامَ إِليهِ عِلْجٌ فقال : أَيُّها الملِك ؛ أَنا أَفتنُهُ عن دِينِه ، قال : بماذا ؟ قال : لقد علمتُ أَنَّ العَرَبَ أَسرعُ شيءٍ إلى النِّساء ، وليسَ في الرُّومِ أَجملُ مِنْ بنتي ، فادفعهُ إليَّ حتَّىٰ أُخليه معها فإنَّها ستفتنُه .

فضربَ لَهُ أَجلاً أَربعينَ يوماً ودفعَهُ إِليه ، فجاءَ بِهِ فأَدخلَهُ معَ ابنتهِ وأَخبرَها بالأَمر ، فقالَتْ لَه : دعهُ فقد كفيتُكَ أَمرَه ، فقامَ معها نهارُهُ صائم وليلُهُ قائم حتَّىٰ مضىٰ أَكثرُ الأَجل ، فقالَ العِلْجُ لابنته : ما صنعت ؟ قالَت : ما صنعتُ شيئاً ، هٰذا الرَّجلُ فَقَدَ أَخويهِ في هٰذهِ البَلدة ، فأَخافُ أَنْ يكونَ امتناعُهُ مِنْ أَجلِهِما كلَّما رأَىٰ آثارَهُما ، ولٰكنِ استزدِ الملِكَ في الأَجْلِ وانقلني أَنا وإِيّاهُ إِلىٰ بلدٍ آخَرَ غيرِ هٰذا ، فزادَهُ أَيّاماً وأَخرجَهُما إِلىٰ بلدٍ آخَر ، فمكثَ علىٰ ذلكَ أَيّاماً صائمَ النَّهارِ قائمَ اللَّيل ، حتَّىٰ إِذَا بقيَ مِنَ الأَجَلِ أَيّام . قالَتْ لَهُ الجاريةُ ليلة : يا هٰذا ؛ إِنِّي أَراكَ تُقدِّسُ ربّاً عظيماً ، وإِنِّي قد دخلتُ في دِينكَ وتركتُ دِينَ آبائي ، قالَ لَها : كيفَ تكونُ الحيلةُ في أَمرِ الهرب ؟ قالَت : أَنا أَحتالُ لك ، فجاءَتهُ بدوابَّ فركِبها ، فكانا يسيرانِ باللَّيلِ ويكمنانِ بالنَّهار ، فبينما هُما يسيرانِ ليلةً إِذْ سَمِعَ وَقْعَ خيلٍ فإِذا هوَ بأَخويهِ ومعَهُما ملائكة ، فسلَّمَ عليهِما وسأَلَهُما عن حالِهِما ، فقالا : ما كانت إلاَّ الغطسةَ الَّتي رأَيتَ حتَّىٰ خرجنا في الفردوس ، وإِنَّ اللهَ أَرسلَنا إِليكَ لنشهدَ تزويجكَ بهٰذهِ الفتاة ، فزوّجاهُ إِيّاها ، وخرجَ مِنْ بلادِ الرُّومِ فأَقامَ معَها .

وكانوا مشهورينِ بذلكَ معروفَينِ بالشّامِ في الزَّمنِ الأوّل ، وقالَ فيهما الشُّعراءُ أَبياتاً ، منها :

سَيُعْطَى الصَّادِقُونَ بِفَضْلِ صِدْقٍ نَجَاةً فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ

قلت : بحسبِ الظّاهرِ في هٰذهِ الحكايةِ بُعْد ، غيرَ أَنَّهُ لا يبعدُ مِنْ كرمِ اللهِ تعالىٰ أَنْ يُرسلَ ملائكةً علىٰ صورةِ أَخويهِ المذكورَينِ كما كانَ جبريلُ عليهِ السّلامُ يتصوّرُ أَحياناً بصورةِ دحية رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه ومعَ هٰذا فعالَمُ البرزخِ ما وراءَ طَوْرِ العقول ، وقد ثبتَتْ حياةُ الشُّهداءِ حياةً برزخيَّةً بأَصحِّ المنقول .

ويُروىٰ : أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ المبارَكِ كتبَ لِلفضيلِ بنِ عياضٍ بمكَّةَ المكرَّمةَ يحثُّهُ على الجهاد ، وكانَ الفضيلُ قدِ اعتزلَ النّاسَ ولازمَ العزلةَ والعبادةَ وتركَ الجهاد ، فقال :

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ فَخُيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتْعَبُ
رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا وَهْجُ السَّنَابِكِ وَالْغُبَارُ الأَطْيَبُ[1]
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لاَ يَكْذِبُ
لاَ يَسْتَوِي وَغُبَارُ خَيْلِ اللهِ فِي أَنْفِ امْرِىءٍ وَدُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ
هَٰذَا كِتَابُ اللهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لاَ يَكْذِبُ

فلمّا قرأَها الفضيل . . بكىٰ ، وقال : نصحَنا جزاهُ اللهُ تعالىٰ خيراً .

فيا إِخواني ؛ أَقبلَ المجاهدونَ ولازمَ المرابطونَ علىٰ خدمةِ الحقِّ إِقبالَ عالم ، وما سلكوا قطُّ إِلاَّ الطَّريقَ السَّالم ، بلغوا مِنَ الجهادِ فوقَ ما يرومُ الرّائم ، يُجاهدونَ في سبيلِ اللهِ ولا يخافونَ لومةَ لائم ، تذكَّروا ذنوبَهُم القدائم ، وخافوا مِنْ أَنْ تكونَ جرَتْ

---

(١) السُّنْبُك من السيف : طرف حليته .

منهُم مظالم ، فحزنُهُم عليها دائِم ، الحزينُ مطرقٌ والخائفُ واجِم ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ ﴾ ، أَربابُ اجتهادٍ وجهادٍ وعزائم ، وأَهلُ إِقدامٍ قد أَمنوا الهزائِم ، الشّوقُ حاديهِم والصِّدقُ خادِم ﴿ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ ﴾ ، يَعدُّونَ التّقصيرَ مِنَ العظائِم ، ولتأْييدِ دِينهِم يبذلونَ المُهَجَ الكرائِم ، فإِذا جنَّ اللّيل . . فساجدٌ وقائِم ، وإِذا حاربوا . . قَمعوا كلَّ كافرٍ وظالم ، ﴿ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ ﴾ أَينَ أَنتَ وهُم ؟ ما ساهرٌ كنائِم ، كلاَّ والله ، ولا مفطرٌ كصائِم ، أَنتَ وقتَ الغنائِمْ نائِم ، وقلبُكَ في شهواتِ البهائِمِ هائِم :

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ ... وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَىٰ لَكَ لاَزِمُ

يَغُرُّكَ مَا يَفْنَىٰ وَتُشْغَلُ بِالْمُنَىٰ ... كَمَا غُرَّ بِاللَّذَّاتِ فِي النَّوْمِ حَالِمُ

وَتُشْغَلُ فِيمَا سَوْفَ يُكْرَهُ غِبُّهُ ... كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ الْبَهَائِمُ

فنسأَلُكَ **اللّهُمَّ** ؛ أَنْ تجعلَنا مِنْ أَوليائِكَ المجاهدين ، وعبادِكَ المطيعين ، ولأَوامرِ أُولي الأَمرِ ممتثلين ، وأَحيينا في الدُّنيا مُؤْمِنين ، وتوفَّنا مسلمينَ تائبين ، واجعلنا عندَ السُّؤَالِ ثابتين ، واجعلنا ممَّنْ يأْخذُ الكتابَ باليمين ، واجعلنا يومَ الفزعِ الأَكبرِ آمنين .

اللّهُمَّ ؛ ثبِّتِ المسلمينَ أَيَّ ثبات ، وشتِّتِ الكافرينَ أَيَّ شتات ، وانصرِ **اللّهُمَّ** سلطانَنا أَميرَ المؤمنين ، وأَعلِ كلمتَه ، وشيِّد دولتَهُ ، وكثِّرْ فرقتَه ، وأَيِّدهُ بتأْييدكَ وسدِّدهُ بتسديدك ، واحفظ عساكرَه ، وكثِّرْ جنودَه ، وأَعطِهم مِنَ الخيرِ فوقَ ما يرجون ، واصرفْ عنهُم مِنَ السُّوءِ فوقَ ما يَحذرون ، فإِنَّكَ تمحو ما تشاءُ وتُثبتُ وعندكَ أُمُّ الكتاب ، وارحَمِ . **اللّهُمَّ** ـ كافَّةَ المسلمين .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وعلىٰ آلهِ وصحبهِ أَجمعين .

* * *

المجلس العشرون
في التوبة النصوح

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي أَوضحَ سبيلَ هدايتهِ لأَربابِ ولايتهِ وأَبْهَج ، وحرَّكَ أَهلَ عبادتهِ إِلى التَّوبةِ النَّصوحِ وأَزعج ، وأَبدعَ بدائعَ قدرتهِ في مُحكمِ صنعتهِ وأَخرج ، وأَوقدَ نيرانَ محبَّتهِ في أَفئدةِ أَحبَّتهِ وأَجَّج ، مَنْ عرفَ لطفَه . . ثنىٰ عطفَهُ إِليهِ وأَدلَج[1] ، ومَنْ خافَ عتبَه . . تركَ ذنبَهُ وتحرَّج ، يُحبُّ الإِخلاصَ في الأَعمالِ ولا يَخفىٰ عليهِ البهرج[2] ، حليمٌ فإِنْ غضب . . مكرَ بالعبدِ واستدرَج ، لا تغترَّ بحلمهِ فكَم عقاب في الحلمِ أَدرج ، لا يَخفىٰ عليهِ ضميرُ القلبِ في سوادِ اللَّيلِ ولا طرفٌ أَدعج ، يُبصرُ جريَ اللَّبنِ يَسري في العروقِ نحوَ المخرَج ، ويَنزلُ إِلى السَّماءِ فأَينَ الَّذي بالمناجاةِ والاستغفارِ يَلهَج ؟! فيَستعرضُ الحوائجَ إِلىٰ أَنْ يلوحَ الفجرُ ويَتبَلَّج ، وما انتقل ، ومَنْ عَقَل . . رأَى الحقَّ أَبلَج[3] ، هـٰذا مذهبٌ مِنَ القرآنِ القديمِ والنَّقلِ القويمِ مُستخرَج ، وهوَ المنهاجُ السّليمُ فلا تُعرِّجْ عنِ المنهج .

أَحمدُهُ علىٰ ما أَسرَّ وما أَزعج ، وأَشهدُ بوحدانيَّتِهِ شهادةَ موقنٍ ما تلجلج ، وأَنَّ محمّداً عبدُهُ ورسولُهُ الَّذي محاسنُ الشَّرائعِ في شريعتهِ تُدرَج ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ أَوّلِ مَنْ أَنفقَ مالَهُ وأَخرج ، وعلىٰ عمرَ الَّذي اضطرَّ كسرىٰ إِلى الهَرَبِ وأَحوج ، وعلىٰ عثمانَ المظلومِ وقد عدلَ وما عذلَ ولا عرج ، وعلىٰ عليٍّ مُبيدِ الطُّغاةِ

---

(١) **أَدلج** : سار ليلاً ؛ وهو كناية عن إسراعه وتحمُّله للمشاقّ ، ذلك أنه لمّا رأىٰ من عظيم لطفه ما رأىٰ . . حثّه ذلك على السير في طريق الوصول إليه مهما صَعُب .

(٢) **البهرج** : الزائف .

(٣) **أبلج** : مشرق ، صافٍ ، واضح . .

فلَم يَكنْ لَهمْ منهُ مهربٌ ولا مَخرَج ، وعلىٰ سائرِ آلهِ وأَصحابهِ الَّذينَ نصرَ اللهُ بهِمُ الدِّينَ وأَبهج .

أَمّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في مُحكَمِ كتابهِ العزيزِ وكلامهِ البليغِ الوجيز ، بعدَ أَعوذُ باللهِ السَّميعِ العليمِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ، وبيدهِ أَزِمَّةُ التَّحقيق ـ : لمّا كانَ الباري سبحانَهُ وتعالىٰ رؤُوفاً بعباده ، لا سيّما هٰذهِ الأُمّةَ الَّتي هيَ مِنْ أَهلِ ودادهِ وأَنَّ نبيَّها حبيبُهُ وصفيُّه . . بشَّرَها سبحانَهُ وتعالىٰ علىٰ لسانِ نبيِّهِ عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ بهٰذهِ الآياتِ الكريمة ، ووعدَهُم بالعفوِ والمغفرةِ بعدَ التَّوبةِ والاستغفارِ مِنْ كلِّ جريمة ، وقالَ عزَّ مِنْ قائل : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

وليُعلَم : أَنَّهُ قرأَ الجمهور : ﴿نَصوحاً﴾ بالفتح . وقرأَ الحسنُ وشعبة عن عاصم : ﴿نُصوحاً﴾ بالضم ، وهوَ مصدرُ نَصَح ؛ فإِنَّ النّصحَ والنُّصوحَ كالشُّكرِ والشُّكورِ والكفرِ والكفور ؛ أَي : ذاتُ نصح ، أَو تنصحُ نصوحاً .

أَو توبوا لنُصحِ أَنفُسِكُم ؛ علىٰ أَنَّهُ مفعولٌ لَه .

والتَّوبةُ **لغة** : الرَّجوع . **وشرعاً** : هي الرُّجوعُ عنِ المعاصي .

والتَّوبةُ النّصوحُ أَي : مبالغةٌ في النُّصح ، فهوَ مِنْ أَمثلةِ المبالغة ؛ كضروب ، وُصفَتِ التَّوبةُ بهِ على الإِسنادِ المجازي ، وهوَ وصفُ التّائِبين ؛ وهو : أَنْ يَنصحوا بالتَّوبةِ أَنفُسَهُم فيأْتوا بها علىٰ طريقَتها .

وقيل : نصوح ، مِنْ نصاحةِ الثّوب ؛ أَي : خياطتِه ؛ أَي : توبة ترفو خروقك في دِينكَ (١) وترمُّ خَلَلَك (٢) .

---

(١) رفا الخرق في الثوب : أصلحه .

(٢) ترمّ : ترمم وتصلح .

وقيل : خالصة ، مِنْ قولِهم : عسلٌ ناصحٌ ؛ إذا خلصَ مِنَ الشَّمع .

وجوَّزَ أَنْ يُراد : توبةٌ تنصحُ النّاس ؛ أَي : تدعوهُم إلىٰ مِثلِها ؛ لِظُهورِ أَثرِها في صاحبِها .

وفي المرادِ بها في الآيةِ الكَريمةِ أَقوالٌ كثيرةٌ أَوصلَها بعضُهُم إلىٰ نيّفٍ وعشرينَ قولاً ، ستسمعُ أكثرَها إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

أَخرجَ ابنُ مردويه ، عنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قال : قالَ معاذ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُم : يا رسولَ الله ؛ ما التَّوبةُ النَّصوح ؟ قال : « أَنْ يَنْدَمَ الْعَبْدُ عَلَى الذَّنْبِ الَّذِي أَصَابَه ، فَيَعْتَذِرَ إِلَى اللهِ تَعَالَىٰ ثُمَّ لاَ يَعُودَ إِلَيْهِ كَمَا لاَ يَعُودُ اللَّبَنُ إِلَى الضَّرْعِ » .

قالَ العلماء : النَّدمُ تحزُّنٌ وتوجُّعٌ علىٰ أَنْ فَعَل ، وتمنِّي كونِهِ لَم يَفعل ؛ ولذا قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « النَّدمُ تَوْبَة » .

وقالَ الحسنُ البصري رحمَهُ اللهُ تعالى : التَّوبةُ النَّصوحُ وهي : النَّدمُ بالقلب ، والاستغفارُ باللِّسان ، والتَّركُ بالجوارح ، والإضمارُ أَنْ لا يعود .

وقالَ غيرُ واحدٍ منَ العلماء : يُشترطُ معَ ذلكَ ردُّ ظلامةِ آدميٍّ إنْ تعلَّقتْ به ، فإنْ ظلمه بأَخذِ مالهِ ومات . . وجبَ ردُّهُ إلىٰ وارثه ؛ لأَنَّهُ المطالبُ بهِ في الآخرة ، فلو أَعسرَ وانتظرَ الوارثُ يسارَه ، وتاب . . صحَّتْ توبتُه .

قالَ الماوردي : فإنْ ماتَ مُعسراً . . أَوفى اللهُ تعالىٰ عنه .

ويُشترطُ لصحَّةِ التَّوبة : أَنْ يكونَ قادراً على المعصية ، فلو تابَ عنِ الذَّنبِ مثلاً لِعَجْزِهِ عنهُ بهَرمٍ أَو غيره . . فلا .

ويُشترطُ أَنْ تكونَ التَّوبةُ للهِ تعالىٰ ، فلو كانَ يَعصي بمالهِ فتركَ المعصيةَ لبُخلهِ مثلاً . . فلا تُقبلُ توبتُه ، قالَهُ الإسنوي .

ولا يُشترطُ لصحَّةِ التَّوبةِ أَنْ يفضحَ نفسَهُ عندَ الحاكم ، بل عليهِ أَنْ يَستترَ بسترِ اللهِ تعالىٰ ، ولا أَنْ يُقيمَ الحدَّ علىٰ نَفْسه ؛ لأَنَّ العفوَ في حقوقِ اللهِ تعالىٰ قريبٌ مِنَ التَّائبين .

وأمّا مظالمُ العباد : فيجبُ إظهارُها للتّمكُّنِ مِنِ استيفائِها ، وأمّا غيرُها مِنَ المعاصي ؛ كالنَّظرِ إلىٰ غيرِ مَحْرَم ، وسماعِ الملاهي ، والقعودِ في المسجدِ معَ الجنابة ، ومسِّ المصحفِ بغيرِ وضوء ، وشربِ الخمر . . فيستحبُّ عندَ التَّوبةِ أَنْ يُكفِّرَ كلَّ معصيةٍ بحسنةٍ مِنْ جنسِها ؛ فيُكفِّر سماعَ الملاهي مثلاً بسماعِ القرآن ، وأذى المسلمينَ بالإحسانِ إليهم ، وكذا الباقي .

ولذا قالَ بعضُهم : التّوبةُ النَّصوحُ لا تحصلُ إلاَّ بثمانيةِ أشياء ؛ وهي : النَّدمُ علىٰ ما سلفَ مِنَ الذَّنب ، وقضاءُ الفرائض ، وردُّ المظالم ، واستحلالُ الخصوم ، وأَنْ تعزمَ علىٰ أَنْ لا تعود ، وأَنْ تُربي نفسَكَ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ كما ربَّيتَها في المعصية ، وأَنْ تُذيقَها مرارةَ الطَّاعاتِ كما أذقتَها حلاوةَ المعاصي ، وإصلاحُ المآكلِ والمشاربِ مِنَ الحلال .

وليُعلَم : أَنَّ تأخيرَ التَّوبةِ أَو تركَها عدَّهُ بعضُهم مِنَ الكبائر ، رويَ عنِ ابنِ عبَّاس رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما أَنَّهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « هَلَكَ الْمُسَوِّفُون » .

والمسوِّفُ مَنْ يقول : سوفَ أَتوب ، وهوَ هالك ؛ لأَنَّهُ بنى الأَمرَ على البقاءِ الّذي ليسَ مفوّضاً إليه ، فلعلَّهُ لا يبقىٰ ، وإنْ بقيَ فإنَّهُ كما لا يقدرُ علىٰ تركِ الذَّنبِ اليومَ لا يقدرُ علىٰ تركهِ غداً ؛ لأَنَّ عجزَهُ مِنَ التَّركِ في الحالِ ليسَ إلاَّ لغلبةِ الشَّهوةِ عليهِ والشَّهوةُ لا تفارقُهُ غداً ، بل تتضاعفُ وتتأكَّدُ بالاعتياد .

وروى ابنُ ماجه : « يَا أَيُّهَا النَّاس ؛ تُوبُوا إِلَى اللهِ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا ، وَبَادِرُوا بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تَشْتَغِلُوا ، وَصِلُوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ بِكَثْرَةِ ذِكْرِكُمْ لَهُ وَكَثْرَةِ الصَّدَقَةِ فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَة ، تُرْزَقُوا وَتُنْصَرُوا وَتُجْبَرُوا » .

وروى الحاكم : « اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْس : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِك ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِك ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِك ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِك ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِك » .

أَي : فينبغي للإنسانِ أَنْ يتوبَ ويعملَ الصَّالحاتِ ما دامَ صحيحاً في قيدِ الحياة ؛

لأنَّهُ يخافُ أَنْ يَفجأَهُ الموتُ قَبْلَ التَّوبة ، أَو يتوبَ عندَ الغرغرة ، وقد قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

وقولُهُ عزَّ وجل : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ . قال حجَّةُ الإسلامِ الغزالي عليهِ الرَّحمة : الأَجلُ القريبُ معناه : أَنْ يقولَ العبدُ عندَ كشف الغطاء : يا ملكَ الموت ؛ أَخِّرني يوماً أَعتذرُ فيهِ إِلىٰ ربِّي وأَتوبُ ، وأَتزوَّدُ صالحاً لنفْسي .

فيقول : فنيتِ الأَيّام ، فلا يوم .

فيقول : فأَخِّرني ساعة .

فيقول : فنيتِ السّاعات ، فلا ساعة ، فيُغلَقُ عليهِ بابُ التَّوبة ، فيتغرغرُ بروحهِ وتتردَّدُ أَنفاسُهُ في حلقومهِ وضلوعه ، ويتجرَّعُ غصَّةَ اليأْسِ عنِ التّداركِ وحسرةَ النّدامةِ علىٰ تضييعِ العمر ، فإِنْ خرجَتْ روحُهُ على التَّوحيد . . فذلكَ حُسنُ الخاتمة ، وإِنْ سبقَ لَهُ القضاءُ بالشَّقاوةِ والعياذُ باللهِ تعالىٰ . . خرجَتْ روحُهُ على الشّك ، وذلكَ سوءُ الخاتمة ، ولمثلِ هـٰذا يقال : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ اهـ

هـٰذا ، وحيثُ كانتِ التَّوبةُ أَهمَّ الأَوامرِ الإِسلاميَّة ، وأَوَّلَ المقاماتِ الإِيمانيَّة ، ومبدأَ طريقِ السّالِكِينَ ومفتاحَ بابِ الواصلِين . . فلنذكر أَيضاً ما يتعلَّقُ بها مِنَ الأَحاديثِ الَّتي فاقَتْ روضاً :

روى الإِمامُ مسلم عن أَبي موسىٰ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهار ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » .

وعن أَبي هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قال : « لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّىٰ تَبْلُغَ خَطَايَاكُمُ السَّمَاءَ ، ثُمَّ تُبْتُم . . لَتَابَ عَلَيْكُم » .

وعنه رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : أَنَّهُ سمعَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « إِنَّ عَبْداً أَصَابَ ذَنْباً فَقَال : يَا رَبِّ ؛ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْباً فَاغْفِرْ لِي ، فَقَالَ لَهُ رَبُّه : عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذنب وَيَأْخُذُ به ، فَغَفَرَ لَه ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْباً آخر ، فَقَال : يَا رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْباً آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي ، فقَالَ رَبُّه : عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِه ، فغفَرَ لَه ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ الله ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْباً آخر ، فَقَال : يَا رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْباً فَاغْفِرْهُ لِي ، فَقَالَ رَبُّه : عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِه ، فَقَالَ رَبُّه : غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاء » رواهُ البخاري .

وقولُه « فَلْيَعْمَلْ مَا شَاء » معناه ـ واللهُ تعالىٰ أعلم ـ علىٰ ما قالَ المنذري : أَنَّهُ ما دامَ كلَّما أَذنبَ ذنباً . . استغفرَ وتابَ عنهُ ولَم يَعُدْ إِليه ، بدليلِ قوله : « ثمَّ أَصابَ ذنباً آخَرَ » فليفعلْ إِذا كانَ هـٰذا دأبَهُ ما شاء ؛ لأَنَّهُ كلَّما أَذنب . . كانت توبتُهُ واستغفارُهُ كفَّارةً لذنبه ، فلا يَضرُّه ؛ لا أَنَّهُ يُذنبُ الَّذنبَ فيستغفرُ منهُ بلسانهِ مِنْ غيرِ إِقلاعٍ ثمَّ يُعاودُه ، فإِنَّها توبةُ الكذَّابين ، ولذا قالت رابعةُ العدويَّة رحمَها اللهُ تعالىٰ : إِنَّ استِغْفَارَنَا يُحْتَاجُ لَهُ اسْتِغْفَار .

وروىٰ مسلم : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا . . لَذَهَبَ اللهُ تَعَالَىٰ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَيَغْفِرُ لَهُم » .

وروي : « مَا عَلِمَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ عَبْدٍ نَدَامَةً عَلَىٰ ذَنْبٍ إِلاَّ غَفَرَ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ مِنْه » .

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمر رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما : أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِر » ومعنىٰ « يُغرغر » بغينينِ معجمتَين ؛ أَي : ما لَم تَبلغْ روحُهُ حلقومَه .

وروي عن أَنس رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِذَا تَابَ الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوبِه . . أَنْسَى اللهُ عز وجل حَفَظَتَهُ ذُنُوبَه ، وَأَنْسَىٰ ذَلِكَ جَوَارِحَهُ وَمَعَالِمَهُ مِنَ الأَرْضِ حَتَّىٰ يَلْقَى اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ شَاهِدٌ مِنَ اللهِ بِذَنْب » .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « النَّادِمُ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ الرَّحْمَة ، وَالْمُعْجَبُ يَنْتَظِرُ الْمَقْت ، وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ كلَّ عَامِلٍ سَيَقْدَمُ عَلَىٰ عَمَلِهِ وَلاَ يَخْرُجُ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّىٰ يَرَىٰ حُسْنَ عَمَلِه ، وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا ، وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَطِيَّتَانِ فَأَحْسِنُوا السَّيْرَ عَلَيْهِمَا إِلَى الآخِرَة ، واحْذَرُوا التَّسْوِيف ؛ فَإِنَّ الْمَوْتَ يَأْتِي بَغْتَة ، وَلاَ يَغْتَرَّنَّ أَحَدُكُمْ بِحِلْمِ اللهِ عَزَّ وَجَل ؛ فإِنَّ الجنَّةَ وَالنَّارَ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِه » ثُمَّ قرأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

وروي عن ابنِ مسعود رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أنَّهُ قال : « التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَه ، وَالْمُسْتَغْفِرُ مِنَ الذَّنْبِ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ كَالْمُسْتَهْزِىءِ بِرَبِّه » .

وعنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « كَانَ الْكِفلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَه ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِيناراً عَلَىٰ أَنْ يَطَأَهَا ، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِن امْرَأَتِه . . أَرْعَدَتْ وَبَكَت ، فَقَال : مَا يُبْكِيك! أَكْرَهْتُك ؟ قَالَت : لا ، وَلَـٰكِنَّهُ عَمَلٌ مَا عَمِلْتُهُ قَط ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَيْهِ إِلاَّ الْحَاجَة ، فَقَال : تَفْعَلِينَ أَنْتِ هَـٰذَا وَمَا فَعَلْتِهِ قَطُّ! اذْهَبِي فَهِيَ لَك ، وَقَال : لاَ والله ، لاَ أَعْصِي اللهَ بَعْدَهَا أَبَداً ، فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِه ، فَأَصْبَحَ مَكْتُوباً عَلَىٰ بَابِه : إِنَّ اللهَ قَدْ غفَرَ لِلْكِفْل » قال : وسمعتُهُ مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أكثرَ مِنْ عشرينَ مرَّة .

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : « كَانَتْ قَرْيَتَان ، إِحْدَاهُمَا صَالِحَةٌ وَالأُخْرَىٰ ظَالِمَة ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِنَ الْقَرْيَةِ الظَّالِمَةِ يُرِيدُ الْقَرْيَةَ الصَّالِحَة ، فَأَتَاهُ الْمَوْتُ حَيْثُ شَاءَ الله ، وَاخْتَصَمَ فِيهِ الْمَلَكُ وَالشَّيْطَان ، فَقَالَ الشَّيْطَان : وَاللهِ مَا عَصَانِي قَط ، فَقَالَ الْمَلَك : إِنَّهُ قَدْ خَرَجَ يُرِيدُ التَّوْبَة ، فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا أَنْ يُنْظَرَ إِلَىٰ أَيِّهِمَا أَقْرَب ، فَوَجَدُوهُ أَقْرَبَ إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ بِشِبْر ، فَغُفِرَ لَه » قالَ معمر : وسمعتُ مَنْ يقول : « قَرَّبَ اللهُ إِلَيْهِ الْقَرْيَةَ الصَّالِحَة » رواهُ الطَّبراني .

وروي عن أَبي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ : أَنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم

قال : « كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْض ، فَدُلَّ عَلَىٰ رَاهِب ، فَأَتَاهُ فَقَال : إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَة ؟ فَقَال : لا ، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مئة ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْض ، فَدُلَّ عَلَىٰ رَجُلٍ عَالِم ، فَقَال : إِنَّهُ قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَة ؟ فَقَال : نَعَم ، مَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَة ؟! اِنْطَلِقْ إِلَىٰ أَرْضِ كَذَا وَكَذَا ؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاساً يَعْبُدُونَ الله ، فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَىٰ أَرْضِك ؛ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوء ، فَانْطَلَق ، حَتَّىٰ إِذَا نَصَفَ الطَّرِيق . . أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَاب ، فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَة : جَاءَنَا تَائِباً مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَىٰ ، وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَاب : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَط ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُم ، فَقَال : قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَىٰ أَيِّهِمَا كَانَ أَدْنَىٰ . . فَهُوَ لَه ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَىٰ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَاد ، فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَة » .

وفي رواية : « فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ هَـٰذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي وَإِلَىٰ هَـٰذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي ، وَقَال : قِيسُوا بَيْنَهُمَا ، فَوَجَدُوهُ إِلَىٰ هَـٰذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْر ، فَغُفِرَ لَه » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ تقرَّبَ إِلَى اللهِ شِبْراً . . تَقرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعاً ، وَمَنْ تَقرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعاً . . تَقرَّبَ إِلَيْهِ بَاعاً ، وَمَنْ أَقْبَلَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَاشِياً . . أَقْبَلَ إِلَيْهِ مُهَرْوِلاً ، وَاللهُ أَعْلاَ وَأَجَل ، وَاللهُ أَعْلاَ وَأَجَل ، وَاللهُ أَعْلاَ وَأَجَل » رواهُ الإمامُ أحمد .

وعن أَنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَىٰ بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ بِأَرْضِ فَلاَة » .

وفي روايةٍ لمسلم : « للهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاَة ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُه ، فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَىٰ شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِه ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَح : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّك ؛ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَح » .

ورويَ عن معاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : أَخذَ بيدي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ

عليهِ وسلَّم فمشىٰ قليلاً ، ثمَّ قال : « يَا مُعَاذ ؛ أُوصِيكَ بِتَقْوَى الله ، وَصِدْقِ الْحَدِيث ، وَوَفَاءِ الْعَهْد ، وَأَدَاءِ الأَمَانَة ، وَتَرْكِ الْخِيَانَة ، وَرَحِمِ الْيَتِيم ، وَحِفْظِ الْجِوَار ، وَكَظْمِ الْغَيْظ ، وَلِينِ الْكَلاَم ، وَبَذْلِ السَّلاَم ، وَلُزُومِ الإِمَام ، وَالتفقه فِي الْقُرْآن ، وَحُبِّ الآخِرَة ، وَالْجَزَعِ مِنَ الْحِسَاب ، وَقِصَرِ الأَمَل ، وَحُسْنِ الْعَمَل .

وَأَنْهَاكَ أَنْ تَشْتِمَ مُسْلِماً ، أَوْ تُصَدِّقَ كَاذِباً ، أَوْ تُكَذِّبَ صَادِقاً ، أَوْ تَعْصِيَ إِمَاماً عَادِلاً ، وَأَنْ تُفْسِدَ فِي الأَرْض ، وَإِذَا أَسَأْت . . فَأَحْسِن .

يَا مُعَاذ ؛ اذْكُرِ اللهَ عِنْدَ كُلِّ شَجَرٍ وَحَجَر ، وَأَحْدِثْ لِكُلِّ ذَنْبٍ تَوْبَة ؛ السِّرُّ بِالسِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةُ بِالْعَلاَنِيَة ، وَاتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَن » رواهُ التِّرمذي .

وقالَ العلاَّمةُ عبدُ الرَّحمـٰنِ ابنُ الجوزيِّ في « التَّبصرة » : (واعلَمْ أَنَّ التّائبَ الصَّادقَ كلّما اشتدَّ ندمُه . . زادَ مقتُهُ لِنَفْسِهِ علىٰ قُبحِ ذلَّته ، فمنهُم مَنْ قويَ مقتُهُ لَها ورأىٰ تعريضَها لِلقتل ؛ كما فعلَ ماعزٌ والغامديَّة ، رويَ عن عبدِ اللهِ بنِ بريدة ، عن أَبيه ، قال : كنتُ جالساً عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إِذْ جاءَهُ رجلٌ يقالُ لَه : ماعزُ بنُ مالك ، فقال : يا نبيَّ الله ؛ إِنِّي قد زنيت ، وأَنا أُريدُ أَنْ تطهِّرني ، فقالَ لَهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « ارْجِع » فلمّا كانَ مِنَ الغدِ أَتاهُ أَيضاً ، فاعترفَ عندَهُ بالزِّنا ، فقالَ لَهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « اِرْجِع » ثمَّ أَرسلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إِلىٰ قومِهِ فسأَلَهُم عنه ، فقالَ لَهُم : « مَا تَعْلَمُونَ مِنْ مَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ الأَسْلَمِي ، هَلْ تَرَوْنَ بِهِ بَأْساً أَوْ تُنْكِرُونَ مِنْ عَقْلِهِ شَيْئاً ؟ » فقالوا : ما نرىٰ بِهِ بأْساً ولا ننكرُ مِنْ عَقْلِهِ شيئاً ، ثمَّ عادَ إِلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم الثَّالثة ، فاعترفَ عندَهُ بالزِّنا ، وقال : يا نبيَّ الله ؛ طهِّرني ، فأَرسلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إِلىٰ قومِهِ أَيضاً فسأَلَهُم عنه ، فقالوا كما قالوا في المرَّةِ الأُولىٰ : ما نرىٰ بهِ بأْساً وما ننكرُ مِنْ عَقْلِهِ شيئاً ، ثمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فاعترفَ عندَهُ بالزِّنا ، فأَمرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فحُفرَ لَهُ حفيرةٌ فجُعلَ فيها إِلىٰ صدره ، ثمَّ أَمرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم النَّاسَ أَنْ يَرجموه .

وقالَ بريدة : وكنتُ جالساً عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فجاءتهُ امرأَةٌ مِنْ

غامد ، فقالَت : يا نبيَّ الله ؛ إِنِّي زنيتُ وأَنا أُريدُ أَنْ تُطهِّرني ، فقالَ لَها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « ارْجِعِي » فلمّا كانَ الغدُ أَتتهُ فاعترفَتْ عندَهُ بالزِّنا ، وقالَت : يا نبيَّ الله ؛ طهِّرني ، فلعلّك أَنْ تردَّني كما رددتَ ماعزَ بنَ مالك فواللهِ إِنِّي لحُبلىٰ يا نبيَّ الله ، فقالَ لَها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « ارْجِعِي حَتَّىٰ تَلِدِي » فلمّا وَلَدَتْ جاءَتْ بالصَّبيِّ تَحْمِلُه ، فقالَت : يا نبيَّ اللهِ هـٰذا ولدتُهُ قال : « اذهبي فأَرضعيهِ حتَّىٰ تَفْطِميه » فلمّا فَطَمَتْه . . جاءَتْ بالصَّبيِّ في يدهِ كسرةُ خبز ، فقالَت : يا نبيَّ الله ؛ هـٰذا قد فطمتُه ، فأَمرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بالصَّبيِّ فدُفعَ إِلىٰ رجلٍ مِنَ المسلمين ، وأَمرَ بها فحُفرَ لها حُفيرةٌ فجُعلَتْ فيها إِلىٰ صدرِها ، ثمَّ أَمرَ النّاسَ أَنْ يَرجموها ، فأَقبلَ خالدُ بنُ الوليدِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ بحجرٍ فرمىٰ رأْسَها ، فنضحَ الدَّمُ علىٰ وجنةِ خالدٍ فسبَّها ، فسمعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم سبَّهُ إِيّاها ، فقال : « مَهْلاً يَا خَالِد ، لاَ تَسُبَّهَا ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْس . . لَغُفِرَ لَه » فأَمرَ بها فصلَّىٰ عليها وَدفنَت) .

فانظرْ إِلىٰ مقتِ هـٰؤلاءِ أَنفسَهُم حتَّىٰ أَسلموها إِلى الهلاكِ غضباً عليها لِما فعلَت ، ومِنَ النّاسِ مَنْ لَمْ يَجُزْ لَهُ التَّعرُّضُ لقتلِها ، فكانَ يُنغِّصُ عيشَها .

قالَ بعضُ السّلف : رأَيتُ ضيغماً العابد قد أَخذَ كوزاً مِنْ ماءٍ باردٍ فصبَّهُ في الحُبِّ[1] واكتازَ غيرَه ، فقلتُ لَهُ في ذلك ، فقال : نظرتُ نظرةً وأَنا شابٌّ فجعلتُ علىٰ نفسي أَنْ لا أُذيقَها الماءَ البارد ، أُنغِّصُ عليها أَيّامَ الحياة .

لهجَ بعضُ العبّادِ بالبكاء ، فعوتبَ علىٰ كثرته ، فقالَ شعراً :

بَكَيْتُ عَلَى الذُّنُوبِ لِعُظْمِ جُرْمِي ... وَحَقَّ لِكُلِّ مَنْ يَعْصِي الْبُكَاءُ
فَلَوْ كَانَ الْبُكَاءُ يَرُدُّ هَمِّي ... لأَسْعَدَتِ الدُّمُوعَ معاً دماءُ

فعليكُم إِخواني بالتَّوبةِ والاستغفارِ في آناءِ اللَّيلِ والنَّهار ، فقد وردَ أَيضاً فيهِ أَحاديثُ كثيرةٌ وآياتٌ غزيرة ، فلنذكر لكُم بعضَها ؛ لِتَشمّوا وَرْدَها :

---

(١) **الحُبُّ** : الخابية .

فقد روىٰ أَبو هريرةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، عن ربِّ العزَّةِ جلَّ جلالُهُ أَنَّهُ قال : (يَا بَنِي آدَم ؛ كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلاَّ مَنْ عَافَيْتُه ، فَاسْتَغْفِرُونِي . . أَغْفِرْ لَكُم ، يَا ابْنَ آدَم ؛ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي . . غَفَرْتُ لَك ، يَا ابْنَ آدَم ؛ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُم لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئاً . . لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَة) .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « قَالَ إِبْلِيس : وَعِزَّتِكَ لاَ أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِم ، فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ : وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي ، لاَ أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي » .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ دَوَائِكُمْ مِنَ الذُّنُوب ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسولَ الله ؛ قال : « دَوَاؤُكُمُ الِاسْتِغْفَار » .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَار . . جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِب » .

كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « طُوبَىٰ لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَاراً كَثِيراً » ، « فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسُرَّهُ صَحِيفَتُه . . فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الِاسْتِغْفَار » .

وكان صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات . . كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَة » .

وفي رواية : « مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعاً وَعِشْرِينَ مَرَّةً أَوْ خَمْساً وَعِشْرِينَ مَرَّة . . كَانَ مِنَ الَّذِينَ يُسْتَجَابُ لَهُم ، وَيُرْزَقُ بِهِ أَهْلُ الأَرْض ، وَمَنِ اسْتَغْفَرَ اللهَ عِنْدَ الْغُرُوبِ سَبْعِينَ مَرَّةً كُلَّ يَوْم . . لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْكَاذِبِين ، وَمَنِ اسْتَغْفَرَ اللهَ فِي لَيْلَةٍ سَبْعِينَ مَرَّة . . لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِين » .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعْمَلُ ذَنْباً إِلاَّ وَقَفَ الْمَلَكُ الموكلُ بإحصاءِ ذُنوبهِ ثَلاَثَ سَاعَات ، فَإِنِ اسْتَغْفَرَ مِنْ ذنبه ذلك في شيءٍ من تلك الساعات . . لَمْ يُوقِفْهُ عَلَيْه وَلَمْ يُعَذِّبْهُ يَوْمَ الْقِيَامَة » .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَة . . نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاء ، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَر . . صُقِلَت ، فَإِنْ عَاد . . زِيدَ فِيهَا حَتَّىٰ تَعْلُوَ عَلَىٰ قَلْبِه ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « مَنْ قَال : أَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْه . . غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنَ الزَّحْف » ، « وَمَنْ قَالَهَا فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَة . . غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ كُلُّهَا » ، « وَمَنِ اسْتَغْفَرَ اللهَ تَعَالَىٰ سَبْعِينَ مَرَّةً فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَة . . غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الذُّنُوب ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّىٰ يَرَىٰ أَزْوَاجَهُ وَمَسَاكِنَهُ مِنَ الْجَنَّة » .

وجاءَ رجلٌ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فقال : واذنوباه . فقالَ لَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « قُل : اللَّهُمَّ مَغْفِرَتُكَ أَوْسَعُ مِنْ ذُنُوبِي ، وَرَحْمَتُكَ أَرْجَىٰ عِنْدِي مِنْ عَمَلِي » فقالها ، فقالَ لَه : « قُم ، فَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَك » .

وأَخرجَ البيهقيُّ وغيرُهُ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الآخِر ، فَيَقُول : هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْه ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَه . . . » الحديث .

وقالَ ابنُ مسعود : كانَ بنو إِسرائيلَ إِذا أَذنبوا . . أَصبحَ مكتوباً علىٰ بابِ أَحدِهم الذَّنبُ وكفَّارتُهُ فيفتضح ، فأُعطِينا خيراً مِنْ ذلك ؛ وهو : الاستغفارُ وذِكرُ اللهِ عزَّ وجل ، ويقرأُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

فعليكُم ـ إِخواني ـ بالتَّوبةِ والاستغفار ، والابتهالِ إِلىٰ ذي الجلالِ والإِفضال ، واغسِلوا بالدَّمعِ دَرَنَ الذُّنوبِ قبْلَ أَنْ تفتضحوا بالعيوب .

فيا هـٰذا ؛ ماءُ العينِ في الأرضِ حياةُ الزَّرع ، وماءُ العينِ في الخدِّ حياةُ القلب .

يا طالبَ الجنَّة ؛ بذنبٍ واحدٍ أَبوكَ أُخرجَ مِنها ، أَفتُريدُ دخولَها بذنوبٍ ما تُبتَ عنها ؟! .

وإنِ امرؤٌ تنقضي بالجهلِ ساعاتُه ، وتذهبُ في المعاصي أَوقاتُه . . فخليقٌ أَنْ يَجريَ دماً دموعُه ، وحقيقٌ أَنْ يَقِلَّ في الدُّجىٰ هجوعُه .

يا مَنْ ذهبَ عمرُهُ في الخلاف ، وصارَ قلبُهُ في الخطايا في غلاف ؛ إلىٰ كَم تعصي وتتمَرَّد ؟! وأَقبحُ مِنْ قبيحكَ أَنَّكَ تتعمَّد! .

يا رديءَ العزمِ يا سيّءَ المقصد ، يانقيَّ الثّوبِ والقلبُ أَسود ؛ ما هٰذا الأَملُ ولَسْتَ بمخلَّد ؟! أَمَا تَخَافُ مَنْ أَوعدَ وهدَّد ؟! يا مسؤُولاً عنِ القبيح ؛ أَتقرُّ أَمْ تَجْحَد ؟! يا مَنْ شابَ وما تاب ؛ هٰذا الدّأبُ مُذْ أَنتَ أَمرد ، ميِّزْ ما يبقىٰ ممّا يفنىٰ ثمَّ اطلبِ الأَجود .

أَسفاً لنَفْسٍ لا تعقلُ أَمرَها ، مضتْ أَيّامُها في الذُّنوبِ وجهلَتْ قدرَها ، ولَم تَزَلْ في المعاصي تُضيعُ عمرَها .

يا نادماً على الذُّنوب ؛ أَينَ أَثرُ ندمِك ؟! أَينَ بكاؤُكَ علىٰ زلَّةِ قدمِك ؟! أَينَ حذركَ مِنْ أَليمِ العقاب ؟! أَينَ قلقُكَ مِنْ خوفِ العتاب ؟! أَتعتقدُ أَنَّ التّوبةَ قولٌ باللِّسان ؟! .

إِنَّما التَّوبةُ نارٌ تحرقُ الجَنان ، جرِّدِ الإِقرار ، ثمَّ أَلبسْهُ الاعتذار ، ثمَّ حَلِّهِ بحليةِ الانكسار ، ثمَّ أَقمهُ علىٰ بابِ الدّار ، اكتبْ قصَّةَ الرُّجوعِ بقلمِ النُّزوعِ بمدادِ الدُّموع ، واسعَ بها علىٰ قَدَمِ الخضوعْ إلىٰ بابِ الخشوع ، وأَتبِعها بالعطشِ والجوع ، وسَلْ رفعَها فربَّ سؤَالٍ مسموع .

مناجاتُكَ نجاتُك ، وصَلاتُكَ صِلاتُك ، نادِ في نادي الأَسحارِ والنّاسُ نائمون : يا أَكرمَ مَنْ أَمَّلَهُ الآملون ؛ إِنْ طردتَني فإِلىٰ مَنْ أَذهب ؟! وإِنْ أَبعدتَني فإِليكَ أُنسب ، علمتَ ذنبي وخلقتَني ، ورأَيتَ زلَلي ورزقتَني .

لَئِـنْ جَـلَّ ذَنْبِي وَارْتَكَبْـتُ الْمَـآثِمَـا ... وَأَصْبَحْتُ فِي بَحْرِ الْخَطِيئَةِ عَائِمَا
فَهَـا أَنَـا ذَا يَـا رَبِّ أَقْـرَرْتُ بِـالَّـذِي ... جَنَيْتُ عَلَىٰ نَفْسِي وَأَصْبَحْتُ نَادِما
أَجَـلُّ ذُنُـوبِـي عِنْـدَ عَفْـوِكَ سَيِّـدِي ... حَقِيرٌ وَإِنْ كَـانَـتْ ذُنُوبِـي عَظَـائِمَـا

لو رأَيتَ التّائب.. رأيتَ جَفناً مقروحاً ، تراهُ في الأَسحارِ علىٰ بابِ الاعتذارِ مطروحاً ، سمعَ قولَ الإلـه : ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ مطعمهُ يسير ، وحزنُهُ كثير ، ومزعجُهُ مثير ، كأَنَّهُ أَسيرٌ قد رُميَ مجروحاً ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ .

أَنحلَ بدنَهُ الصِّيام ، وأَتعبَ قدمَهُ القيام ، فبذلَ بدناً ورُوحاً ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ .

الذُّلُّ قد علاه ، والحزنُ قد وهّاه ، يذمُّ نَفْسَهُ علىٰ هواه ، وبهـٰذا صارَ ممدوحاً ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ .

أَينَ مَنْ يبكي جناياتِ الشَّباب ، الَّتي بها قدِ اسودَّ الكتاب ؟ أَينَ مَنْ أَتى البابَ ؟ يجدِ البابَ مفتوحاً ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ .

اَللّٰهُمَّ ؛ إِنّا نسأَلُكَ التَّوبةَ ودوامَها ، ونعوذُ بكَ مِنَ المعصيةِ وأَسبابِها ، وذكِّرنا بالخوفِ منكَ قَبْلَ هجومِ خطراتِها ، وأَفِضْ علينا مِنْ بحرِ كرمِكَ وعفوِكَ ؛ حتَّىٰ نخرجَ مِنَ الدُّنيا على السّلامةِ مِنْ وبالِها ، وارأَفْ بِنا رأْفةَ الحبيبِ بحبيبهِ عندَ الشَّدائدِ ونزولِها ، وارحمنا بقَبولكَ توبتَنا وسترِ عيوبَنا يا أَرحمَ الرّاحمين .

وصلى الله علىٰ سيِّدِنا محمَّد وآلهِ وصحبهِ وسلَّمَ تسليماً .

* * *

المجلس الحادي والعشرون
في ليلةِ القدْرِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ عالِمِ السِّرِّ والجهر ، وقاصمِ الجبابرةِ بالعزِّ والقهر ، مُحصي قطراتِ الماءِ وهوَ يجري في النَّهر ، مُوفِّرِ الثّوابِ للأَحبابِ ومَكمِّلِ الأَجر ، وباعثِ ظلامِ اللَّيلِ يَنسخُهُ[1] نُورُ الفجر ، يَعلمُ خائنةَ الأَعينِ وخافيةَ الصَّدر ، المُوالي رزقَهُ فلَم يَنسَ النَّملَ في الرَّملِ والفرخَ في الوكر ، جلَّ أَنْ تنالَهُ أَيدي الحوادثِ علىٰ مرورِ الدَّهر ، أَحصىٰ عَددَ الرَّملِ في الفيافي والنَّملِ في القفر ، أَغنىٰ وأَفقر ، فبإرادتهِ وقوعُ الغنىٰ والفقر ، وفضّلَ بعضَ المخلوقاتِ علىٰ بعض ، حتَّىٰ أَوقاتَ الدَّهرِ ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ .

أَحمدُهُ حَمْداً لا منتهىٰ لِعَدده ، وأَشهدُ بتوحيدهِ شهادةَ مخلِصٍ في معتقدِه ، وأَنَّ محمّداً عبدُهُ ورسولُهُ الَّذي نبعَ الماءُ مِنْ بينِ أَصابعِ يدِه ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ رفيقهِ في شدائدِه ، وعلىٰ عمرَ كهفِ الإِسلامِ وعَضُدِه ، وعلىٰ عثمانَ جامعِ القرآنِ في رَقِّهِ بعدَ تبدُّدِه ، وعلىٰ عليٍّ كافي الحروبِ وشجعانِها بمفردِه ، وعلىٰ سائرِ آلهِ وأَصحابهِ المحسنِ كلٌّ منهُم في مقصدِه .

أَمّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في مُحكمِ كتابهِ العزيزِ وكلامهِ البليغِ الوجيز : .

بسمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ .

---

(١) النسخ : الإزالة .

ونقول ـ وبالله تعالى التَّوفيق ، ومنهُ الهدايةُ إِلىٰ أَقومِ طريقٍ ـ : إِنَّ البسملةَ المذكورةَ في أَوائلِ السُّوَرِ مِنَ القرآنِ الكريمِ اختلفَ العلماءُ في كونِها مِنَ السّورَةِ أَمْ لا ، ومِنَ القرآنِ أَمْ لا ؟ علىٰ أَقوالٍ كثيرةٍ ليسَ هـٰذا موضعَ ذِكرِها ، لـٰكنّا نذكرُ المهمَّ مِنها ؛ وهو : أَنَّ البسملةَ هل هيَ آيةٌ مِنَ الفاتحة ، أَمْ آيةٌ برأْسِها مستقلَّةٌ ذُكِرتْ لِلفصلِ بينَ السّوَر ؟ .

فالَّذي ذهبتْ إِليهِ أَئِمَّتُنا الحنفيَّةُ أَنَّها ليست مِنَ الفاتحة ، فلا يجبُ قراءَتُها معَها ، فتصحُّ الصَّلاةُ وإِنْ لَم يَقرأ البسملةَ أَوِ الفاتحة ؛ لأَنَّ الفرْضَ قراءةُ بعضِ القرآن .

والَّذي ذهبَتْ إِليهِ ساداتُنا الشّافعيَّةُ فَرْضيَّةُ قراءةِ الفاتحةِ في الصّلاة ، والبسملةُ آيةٌ مِنها ، ودليلُ كلٍّ واحدٍ في موضعه .

ولنرجعْ إِلىٰ قولهِ تعالىٰ : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ فالهاءُ عائدٌ إِلى القرآن ، كما قالَ جمهورُ المفسِّرين ، وهوَ وإِنْ لَمْ يتقدَّمْ ذِكرُهُ غيرَ أَنَّهُ في قوَّةِ المذكور ؛ لعلوِّ شأْنه ، فكأَنَّهُ حاضرٌ عندَ كلِّ أَحد .

والمرادُ بإِنزالهِ فيها : إِنزالُهُ كلّهُ جملةً واحدةً مِنَ اللَّوحِ المحفوظِ إِلى السَّماءِ الدُّنيا ؛ فقد صحَّ عنِ ابنِ عبّاس رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُماأَنَّهُ قال : أُنزلَ القرآنُ في ليلةِ القدرِ جملةً واحدةً إِلى السَّماءِ الدُّنيا .

وفي رواية : ثمَّ نزلَ بعدَ ذلكَ في عشرينَ سنة .

وفي روايةٍ أُخرىٰ عنهُ أَيضاً : أُنزلَ جملةً واحدةً حتَّىٰ وُضِعَ في بيتِ العزَّةِ فِي السّماءِ الدُّنيا ، ونزلَ بهِ جبريلُ عليهِ السّلامُ علىٰ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم منجّماً بجوابِ كلامِ العبادِ وأَعمالِهم .

وفي أُخرىٰ : أَنَّهُ أُنزلَ في رمضانَ ليلةَ القدْرِ جملةً واحدة ، ثُمَّ أُنزلَ علىٰ مواقعِ النُّجومِ رِسلاً في الشُّهورِ والأَيّام .

قالَ الوالدُ عليهِ الرَّحمةُ : وقالَ بعضُهُم ـ وهوَ الأَشهر ـ : في ثلاثٍ وعشرين سنة .

وقالَ آخَر : في خمسٍ وعشرين .

وهٰذا لِلخلافِ في مدَّةِ إقامتهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بمكَّةَ بعدَ البعث .

والمرادُ بالإنزال : إظهارُ القرآنِ مِنْ عالَمِ الغيبِ إِلىٰ عالَمِ الشَّهادة ، أَو إِثباتُهُ لدى السَّفرةِ هناك ، أَو نحو ذلكَ ممّا لا يُشكلُ نسبتُهُ إِلى القرآن .

واختلفَ العلماءُ في سببِ نزولِ هٰذهِ السّورةِ علىٰ أَقوال :

فمنها : كما أَخرجَ ابنُ المنذِر ، وابنُ أَبي حاتم ، والبيهقيُّ في « سُننه » : عن مجاهد : (أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ذكر رَجُلاً مِنْ بني إِسرائيلَ لبسَ السِّلاحَ في سبيلِ اللهِ أَلفَ شهر ، فعجبَ المسلمونَ مِنْ ذلكَ وتقاصَرتْ إِليهِم أَعمالُهم ، فأَنزلَ اللهُ تعالى السُّورة) .

وأَخرجَ ابنُ أَبي حاتمٍ عن عليِّ بنِ عروة ، قال : (ذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يوماً أربعةً مِنْ بني إِسرائيلَ عبدوا اللهَ تعالىٰ ثمانينَ عاماً لَم يَعصوهُ طرفةَ عَين ، فذكرَ أَيّوبَ وزكريّا ، وحزقيلَ ابنَ العجوز ، ويوشعَ بنَ نون ، فعجبَ أَصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم مِنْ ذلك ، فأَتاهُ جبريلُ عليهِ السّلامُ فقال : يا محمَّد ؛ عجبتْ أُمَّتُكَ مِنْ عبادةِ هٰؤلاءِ النَّفرِ ثمانينَ سنة ، فقد أَنزلَ اللهُ تعالىٰ عليكَ خيراً مِنْ ذلك ، فقرأَ عليه : (إنا أنزلناه)[1] ثُمَّ قال : هٰذا أَفضلُ ممّا عجبتَ أَنتَ وأُمَّتُكَ منه ، فسُرَّ بذلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم)[2] .

وقيل : إِنَّ الرَّجلَ فيما مضىٰ ما كانَ يقالُ لَهُ عابدٌ حتَّىٰ يعبدَ اللهَ تعالىٰ أَلفَ شهر ، فأُعطوا ليلةً إِنْ أَحيَوْها . . كانوا أَحقَّ بأَنْ يُسمّوا عابدِينَ مِنْ أُولـٰئِكَ العباد .

وقالَ أَبو بكرٍ الورّاق : كانَ مُلكُ كلٍّ مِنْ سليمانَ وذي القرنينِ خمسَ مئةِ شهر ، فجعلَ اللهُ تعالى العملَ في هٰذهِ اللَّيلةِ لمَنْ أَدركَها خيراً مِنْ مُلْكِهِما . وفي هٰذا نظر .

وقيل : أُريَ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ أَعمارَ الأُمم ، فاستقصرَ أَعمارَ أُمَّته ، فخافَ عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ أَنْ لا يبلغوا مِنَ العملِ مثلَ ما بلغَ غيرُهُم في طولِ العمر ،

---

(١) يعني سورة القدر .

(٢) ذكره الزرقاني في شرحه على « الموطأ » .

فأَعطاهُ اللهُ تعالىٰ ليلةَ القدرِ وجعلَها خيراً مِنْ أَلفِ شهرٍ لسائرِ الأُمم ، وذكرَهُ الإمامُ مالكٌ في « الموطّأ » .

وقيل : إِنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أُري بني أُميَّةَ علىٰ منبرِهِ فساءَهُ ذلك ، فنزلَتْ سورةُ الكوثرِ وسورةُ القدْر ، قالَ القاسمُ بنُ الفضل : قد عَددنا مدَّةَ مُلكهِم فإِذا هيَ أَلفُ شهر .

ورويَ هـٰذا عنِ الحسنِ بنِ علي ، وابنِ عبّاس ، وسعيدِ بنِ المسيِّب رضي الله عنهم ، قالَ المزي : هوَ حديثٌ منكَرٌ وبعضُ رواتهِ مطعونٌ فيهم .

ونَقَلَ السَّفيريُّ عن ثعلب ، عن وهبِ بنِ منبه : أَنَّ نبيّاً مِنَ الأَنبياءِ عليهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ يقالُ لَه : سمنون ، كانَ يُجاهدُ قومَهُ فيقتلُ منهم ويأْخذُ مِنْ أَموالهِم ، وكانَ لا يُوثِقُهُ الحديد ، فلمّا عجَزوا عنه . . قالوا لزوجته : إِنْ أَوثقتيهِ لَنا أَعطيناكِ مالاً كثيراً ، فلمّا نامَ أَوثقتْهُ بحبل ، فلمّا استيقظ . . وقعَ مِنْ يديهِ ورِجليهِ فسأَلَها عن ذلك ، فقالَت : لأَرىٰ قوَّتك ، ثمَّ أَوثَقَتْهُ بحديد ، فلمّا استيقظ . . سقطَ عنهُ الحديد ، فسأَلها عن ذلك ، فقالَت : لأَرىٰ قوَّتكَ في الحديدِ أَيضاً ، ثمَّ قالَتْ لَه : أَما في الدُّنيا شيءٌ يُوثِقُك ؟ قالَ شَعري ، فلمّا نامَ أَوثقتْهُ بشَعرِهِ وبعثَتْ إِلىٰ قومه ، فقطعوا أَنفَهُ وأُذنيهِ وقلَعوا عينيه ، فخسفَ اللهُ تعالىٰ بهِمُ الأَرض ، وأَرسلَ على المرأَةِ صاعقة ، وردَّ اللهُ تعالىٰ ذلكَ النَّبيَّ إِلىٰ أَحسنِ حال ، وكانَ قد جاهدَهُم أَلفَ شهر ، فتعجَّبَ أَصحابُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فأَنزلَ اللهُ تعالىٰ هـٰذهِ السُّورة . وقيلَ غيرُ ذلكَ ممّا فيهِ ضعفٌ أَيضاً .

قالَ الوالدُ عليهِ الرَّحمةُ : وخيريَّتُها مِنْ أَلفِ شهرٍ باعتبارِ العبادةِ عندَ الأَكثرين ، علىٰ معنىٰ أَنَّ العبادةَ فيها خيرٌ مِنَ العبادةِ في أَلفِ شهرٍ ليسَ فيها ليلةُ القدر ، ولا يَعلمُ مقدارَ خيريَّتِها منها إِلاّ هوَ سبحانَهُ وتعالىٰ وهـٰذا تفضُّلٌ منهُ عزَّ وجل .

واختُلفَ في أَنَّ تلكَ اللَّيلةَ هل تستتبعُ يومَها أَمْ لا ؟ .

فقالَ الشَّعبي : نعَم ، يومُها مِثلُها .

قالَ الزّهري : وإنّما سُمّيت ليلةَ القدرِ ؛ لِعظَمِها وشَرَفِها ، مِنْ قولِهم : رجلٌ لَهُ قدرٌ عندَ فلان ؛ أَي : منزلةٌ وشرف .

أَو سُمِّيتْ بذلكَ ؛ لأَنَّ مَنْ أَتىٰ بفعلِ الطّاعاتِ فيها . . صارَ ذا قدرٍ وشَرفٍ عندَ اللهِ عزَّ وجل ، أَو لأَنَّ لِلطّاعاتِ فيها قدْراً عظيماً وثواباً جزيلاً .

وقيل : لأَنَّهُ نزلَ فيها كتابٌ ذو قدر ، بواسطةِ مَلَكٍ ذي قَدْر ، علىٰ رسولٍ ذي قَدْر ، لأُمَّةٍ ذاتِ قدر .

وقالَ الخليلُ بنُ أَحمد : سُمِّيتْ ليلةَ القدرِ ؛ لأَنَّ الأَرضَ تضيقُ فيها بالملائكةِ عليهِمُ السّلام ؛ كقوله : ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ أَي : ضيّقه .

وقالَ غيرُ واحدٍ مِنَ العلماء : سمِّيتْ ليلةَ القدْرِ لأَنَّ اللهَ سبحانَهُ يُقدِّرُ فيها ما شاءَ مِنْ أَمرِهِ إِلى السَّنةِ القابلةِ مِنْ أَمرِ الموتِ والأَجَلِ وغيرِ ذلك .

قلت : وهوَ الرّاجحُ عندي ؛ بدليلِ قولهِ تعالىٰ ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ﴾ أي : يُفصَلُ ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ .

قالَ ابنُ الجوزي : في اللَّيلةِ المباركةِ قولان :

أَحدُهُما : أَنَّها ليلةُ القدر .

والثّاني : ليلةُ النِّصفِ مِنْ شعبان ، كما سنفصّلُ ذلكَ في محلِّهِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ؛ فقد روىٰ أَصحابُ السُّننِ عن عائشةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها قالَت : كانَت ليلةُ النِّصفِ مِنْ شعبانَ ليلتي ، فباتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم عندي ، فلمّا كانَ في جوفِ اللَّيلِ فقدتُه ، فأَخذني عليهِ ما يأْخذُ النِّساءَ مِنَ الغيرة ، فتلفَّعتُ بمِرْطِي ، أَما واللهِ ما كانَ مِرْطِي خزّاً ولا قزّاً ، ولا حريراً ولا ديباجاً ، ولا قُطناً ولا كتّاناً ، قيل : ممَّ كان ؟ قالَت : سداهُ كانَ شعراً ، ولُحمتهُ أَوبارَ الإِبل ، فطلبتُهُ في حُجَرِ نسائهِ فلَم أَجدْه ، فانصرفتُ إِلىٰ حُجرتي فإِذا بهِ كالثّوبِ السّاقطِ علىٰ وجهِ الأَرضِ ساجداً وهوَ يقولُ في سجوده : « سَجَدَ لَكَ سَوَادِي وَخَيَالِي ، وَآمَنَ بِكَ فُؤَادِي ، هَٰذِهِ يَدِي وَمَا جَنَيْتُ بِهَا عَلَىٰ نَفْسِي ، يَا عَظِيماً يُرْجَىٰ لِكُلِّ عَظِيم ، اغفِرِ الذَّنْبَ الْعَظِيم ، أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي

داوُود : أُعفِّر وَجْهِي بِالتُّرابِ لِسَيِّدِي ، وَحُقَّ لَهُ أَنْ يَسْجُد ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَه » ثمَّ رفعَ رأسَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فقال : « اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي قَلْباً نَقِيّاً تَقِيّاً ، مِنَ الشِّرْكِ بَرِيّاً ، لاَ كَافِراً وَلاَ شَقِيّاً » ثُمَّ سَجَدَ وَقَال : « أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ مُعَاقَبَتِكَ لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِك » قالَت : ثمَّ انصرفَ ودخلَ معي في الخميلةِ ولي نَفَسٌ عال ، فقال : « مَا هَـٰذَا النَّفَسُ يَا حُمَيْرَاء ؟ » فأَخبرتُه ، فطفقَ يمسحُ بيدهِ علىٰ رُكبتَيَّ ويقول : « وَيْسَ هَاتَيْنِ الرُّكْبَتَيْنِ مَاذَا لَقِيَتَا فِي هَـٰذِهِ اللَّيْلَة ؟ لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَان ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَغْفِرُ لِعِبَادِهِ إِلاَّ لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِن » وفي روايةٍ أُخرىٰ : « إِنَّ للهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَـٰذِهِ اللَّيْلَةِ عُتَقَاءَ مِنَ النَّارِ بِعَدَدِ شَعْرِ غَنَمِ بَنِي كَلْب ، لاَ أَقُولُ فِيهِم سِتَّةٌ : مُدْمِنُ خَمْر ، وَلاَ عَاقٌّ وَالِدَيْه ، وَلاَ مُصِرٌّ عَلَىٰ رِباً أَوْ زِناً ، وَلاَ مُصَارِم[1] ، وَلاَ مُصَوِّر ، وَلاَ قَتَّات »[2] .

وعن عليٍّ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَهُ أَنَّهُ قال : إذا كانَ ليلةُ النِّصفِ مِنْ شعبان . . قالَ اللهُ تعالىٰ : (هَلْ مِنْ سائلٍ فأُعطيَه ، هَلْ مِنْ مُستغفرٍ فأَغفرَ لَه ، هَلْ مِنْ مُسترزِقٍ فأَرزقَه ، حتَّىٰ يَنفجرَ الفجر) فأمرنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بقيامِ ليلِها وصيامِ نهارِها .

وعن عكرمةَ في قولهِ تعالىٰ : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ قال : في ليلةِ النِّصفِ مِنْ شعبانَ يُدبِّرُ اللهُ تعالىٰ أَمرَ السَّنة ، ويَنسخُ الأَحياءَ مِنَ الأَموات ، ويكتبُ حاجَّ بيتِ اللهِ تعالىٰ فلا يَزيدُ فيهِم أَحدٌ ولا ينقصُ منهُم أَحد . اهـ

وفي « روحِ المعاني » : ومعنىٰ (ليلة القدر) : ليلةُ التَّقدير ، وسُمِّيتْ بذلكَ ؛ لِما رويَ عنِ ابنِ عبّاسٍ وغيرِهِ : أَنَّهُ يُقدَّرُ فيها ويُقضىٰ ما يكونُ في تلكَ السَّنةِ مِنْ مطرٍ ورزقٍ وإِحياءٍ وإِماتةٍ إِلى السَّنةِ القابلة ، والمراد : إِظهارُ تقديرِه تعالىٰ ذلكَ لِلملائكةِ عليهِمُ السَّلامُ المأمورينَ بالحوادثِ الكونيَّة ، وإلا . . فتقديرُهُ تعالىٰ جميعَ الأَشياءِ أَزليٌّ قَبْلَ خَلْقِ السَّمـٰواتِ والأَرض ، لـٰكنْ قالَ بعضُ الأَجلَّة : كونُ التَّقديرِ في هـٰذهِ اللَّيلةِ

---

(١) المصارم : المقاطع لأخيه المسلم اهـ منه .

(٢) القتات : النمام اهـ منه .

يُشكِلُ عليهِ قولُ كثير : إنَّهُ ليلةُ النِّصفِ مِنْ شعبان ، وهيَ المرادُ باللَّيلةِ المباركة التي ، قالَ اللهُ تعالىٰ فيها : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ .

وأجابَ بأنَّ هـٰهُنا ثلاثةَ أشياء :

الأوّل : نفسُ تقدير الأمور ؛ أي : تعيينُ مقاديرِها وأوقاتِها ، وذلكَ في الأزل .

والثّاني : إظهارُ تلكَ المقاديرِ لِلملائكةِ عليهِمُ السّلامُ بأَنْ تُكتبَ في اللّوحِ المحفوظ ؛ وذلكَ في ليلةِ النِّصفِ مِنْ شعبان .

والثّالث : إثباتُ تلكَ المقاديرِ في نُسَخٍ وتسليمُها إلىٰ أربابِها مِنَ المدبّرات ، فتُدفعُ نسخةُ الأَرزاقِ والنّباتاتِ والأَمطارِ إلىٰ ميكائيلَ عليهِ السّلام ، ونسخةُ الحروبِ والرّياحِ والجنودِ والزّلازلِ والصّواعقِ والخسفِ إلىٰ جبريلَ عليهِ السّلام ، ونسخةُ الأَعمالِ إلىٰ إسرافيلَ عليهِ السّلام ، ونسخةُ المصائبِ إلىٰ مَلَكِ الموت ، وذلكَ في ليلةِ القدر .

وقيل : يُقدَّرُ في ليلةِ النِّصفِ الآجالُ وَالأرزاق ، وفي ليلةِ القدرِ الأُمورُ الَّتي فيها الخيرُ والبركةُ والسّلامة .

وقيل : يُقدَّرُ في هـٰذهِ ما يتعلَّقُ بهِ إعزازُ الدِّين ، وما فيهِ النَّفعُ العظيمُ لِلمسلِمين .

وفي ليلةِ النِّصفِ يُكتبُ أَسماءُ مَنْ يموتُ ويُسلَّمُ إلىٰ مَلَكِ الموت ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ بحقيقةِ الحال .

واعلَم : أنَّ العلماءَ اختلفوا في ليلةِ القدْر :

فقيل : رُفعَت ، وهوَ قولٌ مردود .

وعن عكرمةَ أَنَّها ليلةُ النِّصفِ مِنْ شعبان ، وهوَ قولٌ شاذ ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ .

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه أَنَّها تنتقلُ فتكونُ في كلِّ سَنةٍ في ليلة .

والأَكثرونَ علىٰ أَنَّها في شهرِ رمضان ، فعنِ ابنِ رزينٍ أَنَّها اللَّيلةُ الأُولىٰ منه ، وعنِ الحسنِ البصريِّ السّابعةَ عشر ؛ لأَنَّ وقعةَ بدرٍ كانت في صبيحتِها .

وحكيَ عن زيدِ بنِ أَرقم وعن أَنسٍ رضي الله عنهما مرفوعاً التَّاسعةَ عشر .

وحكيَ موقوفاً على ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه أَيضاً وعن محمَّدِ بنِ إسحـٰقَ : الحاديةُ والعشرون ؛ لِما في « الصَّحيحين » وغيرهما مِنْ حديثِ أَبي سعيدٍ الخدري [رضي الله عنه] : أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قال : « قَدْ أُريتُ هَـٰذِهِ اللَّيْلَةَ ـ يعني ليلةَ القدرِ ـ ثُمَّ أُنْسِيتُهَا ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي أَسْجُدُ فِي مَاءٍ وَطِين مِنْ صَبِيحَتِهَا » قالَ أَبو سعيد : فمطرتِ السَّماءُ مِنْ تلكَ الليلة ، فوكَفَ المسجدُ فأَبصرَتْ عينايَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وعلىٰ جبهتهِ وأَنفهِ أَثرُ الماءِ والطِّينِ مِنْ صبيحةِ إِحدىٰ وعشرين ، وفي « مسلم » : مِنْ صبيحةِ ثلاثٍ وعشرين .

ومنهُ معَ ما قبلَهُ مالَ الشّافعيُّ عليهِ الرَّحمةُ إِلىٰ أَنَّها اللَّيلةُ الحاديةُ أَوِ الثّالثةُ والعشرون .

وأَخرجَ أَحمد ومسلمٌ وغيرُهما ، عن عبدِ اللهِ بنِ أنيسٍ رضي الله عنه : أَنَّهُ سُئِلَ عن ليلةِ القدر ، فقال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « الْتَمِسُوهَا اللَّيْلَة » وتلكَ اللَّيلةُ ليلةُ ثلاثٍ وعشرين .

وأَخرجَ أَحمد ، وأَبو داوود ، والتِّرمذي ، وابنُ جريرٍ وغيرُهم ، عن بلالٍ رضي الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ أَرْبَعٍ وَعِشْرِين » .

وفي « الإِتقان » وغيرِهِ أَنَّها اللَّيلةُ الَّتي أُنزلَ فيها القرآن .

وأَخرجَ ابنُ أَبي شيبة ، عن أَبي ذرٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ سُئِلَ عن ليلةِ القدر ، فقال : كانَ عمرُ وحذيفةُ وناسٌ مِنْ أَصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم لا يَشكُّونَ أَنَّها ليلةُ سبعٍ وعشرين .

وأَخرجَ ابنُ نصر ، وابنُ جريرٍ في « تهذيبه » عن معاوية رضي الله عنه ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « اِلتَمِسُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَان » .

وفي روايةِ أَحمدَ عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه مرفوعاً أَنَّها آخِرُ ليلة .

وقيل : هي في العَشرِ الأوسطِ تنتقلُ فيه .

وقيل : في أَوتاره ، وقيل : في أَشفاعه .

وأَخرجَ أَحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والتّرمذيُّ عن عائشةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها قالَت : قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « تَحَرَّوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوِتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ فِي شَهْرِ رَمَضَان » .

وبالجملة : الأَقوالُ فيها مختلِفةٌ جدّاً ؛ إلا أَنَّ الأَكثرِينَ علىٰ أَنَّها في العَشرِ الأَواخِر ؛ لِكثرةِ الأَحاديثِ الصَّحيحةِ في ذلك ، وأَكثرُهُم علىٰ أَنَّها في أَوتارِها لِذلكَ أَيضاً ، وكثيرٌ منهُم ذهبَ إِلىٰ أَنَّها الليلة السّابعة مِنْ تلكَ الأَوتار[1] .

وصحَّ مِنْ روايةِ الإمامِ أَحمدَ ومسلم ، وأَبي داوودَ والتّرمذيّ والنَّسائي ، وابنِ حبّانَ وغيرِهم : أَنَّ زر بن حبيش سأَلَ أُبيَّ بنَ كعبٍ عنها ، فحلفَ لا يستثني أَنَّها ليلةُ سبعٍ وعشرين ، فقالَ لَه : بِمَ تقولُ ذلكَ يا أَبا المنذر ؟ فقال : بالآيةِ والعلامَةِ الَّتي قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إِنَّها تُصبحُ مِنْ ذلكَ اليومِ تَطلعُ الشَّمسُ ليسَ لَها شعاع .

وبعضُ الأَخبارِ عنِ ابنِ عبّاسٍ ظاهرٌ في ذلك ، وفي بعضِها الاستئناسُ لَهُ بما يدلُّ علىٰ جلالةِ شأْنِ السَّبعةِ الَّتي قالوا فيها : إِنَّها عددٌ تام ، مِنْ كونِ السمٰواتِ سَبعاً ، والأَرضينَ سَبعاً ، والأَيام سَبعاً ، والجمارِ سَبعاً ، والطَّوافِ بالبيتِ سَبعاً ، والسُّجودِ علىٰ سبع . . إِلىٰ غيرِ ذلكَ ممّا ذكره ؛ لِمَا عَلِمتَ مِنَ الأَخبارِ الصَّحيحةِ المتضافرةِ وهوَ زمانُ ضعفِ البدن ، وفيهِ يَزيدُ أَجرُ العمل ، ووقتُ قوَّةِ الاستعدادِ للتَّجليّاتِ لمزيدِ التَّصفية ، وأَنَّها في الأَوتارِ أَرْجَىٰ ؛ لِلأَحاديثِ أَيضاً مع : « إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْر » .

وقالَ ابنُ حجرِ الهيتمي : اختارَ جمعٌ أَنَّها لا تلزمُ ليلةً بعينِها مِنَ العَشرِ الأَواخرِ بل تنتقلُ في لياليه ، فعاماً أَو أَعواماً تكونُ وتراً إحدىٰ أَو ثلاثاً أَو غيرَهُما ، وعاماً أَو أَعواماً تكونُ شفعاً اثنتينِ أَو أَربعاً أَو غيرَهُما ، قالوا : ولا تجتمعُ الأَحاديثُ المتعارِضةُ

(١) أي ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان .

فيها إلاَّ بذلك ، وكلامُ الشَّافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ في الجمعِ بينَ الأَحاديثِ يقتضيه . اهـ

ولا يَخفىٰ أَنَّ الجمعَ بذلكَ بينَ الأَحاديثِ المتعارِضةِ فيها مطلقاً مِمّا لا يُستثنىٰ ، وإنَّما يُستثنى الجمعُ بذلكَ بينَ الأَحاديثِ المتعارِضةِ فيها بالنَّظرِ إلى العَشر ، وقيل في الجمعِ مطلقاً أَنَّها تنتقل .

وما صحَّ مِنَ التَّعيينِ في الجملةِ أَو على التَّحقيق . . محمولٌ علىٰ ليلةِ قدرٍ في شهرِ رمضانٍ مخصوص ، وعَلمَ عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ أَنَّها في شهرِ رمضانٍ بعدَهُ ليلةُ كذا ، وفي هٰذا نظر .

وفي بعضِ الأَخبارِ ذِكرُ علاماتٍ لها :

ففي حديثِ الإمامِ أَحمدَ عن عبادةَ بنِ الصّامت : مِنْ أَماراتِها : أَنَّها ليلةٌ بلجةٌ صافيةٌ ساكنة ، لا حارّةٌ ولا باردة ، وكأَنَّ فيها قمراً ساطعاً لا يُرمىٰ فيها بنجمٍ حتَّى الصَّباح .

وقيل : إنَّ ماءَ البحرِ يَعْذُب .

وقيل : إنَّ الشَّمسَ تكونُ صبيحتَها غيرَ مضيئةٍ[1] جدّاً .

وقيل : إنَّ الأَشجارَ كلَّها تخرُّ ساجدة .

قالَ العلماء : **والحكمةُ في إخفائِها** : أَنْ يجتهدَ مَنْ يَطلبُها في العبادةِ في غيرِها ليُصادفَها ؛ كأَنْ يُحيي لياليَ شهرِ رمضانَ كلَّها ، كما كانَ دأْبُ السّلف ، قالوا : ولذلكَ أَيضاً لم تُعيَّنْ ساعةُ الإِجابةِ يومَ الجمعة ، واللهُ تعالىٰ أَعلم .

وليُعلَم : أَنَّ ظاهرَ الآيةِ دلَّ علىٰ أَنَّ ليلةَ القدْرِ أَفضلُ مِنْ ليلةِ الجمعة ، والمسأَلةُ خلافيّة ، وأَكثرُ الأَئِمَّةِ علىٰ أَنَّها أَفضلُ منها ؛ للآية ، ولأَنَّ اللهَ تعالىٰ أَنزلَ فيها القرآنَ وهو هو ولَم يُنزلْهُ في غيرِها ، ولأَنَّهُ سبحانَهُ أَمرَ بطلبِها ؛ فعنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قالَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ليلةَ القدر .

---

(١) أي : لنزول الملائكة وصعودهم .

ولأنَّهُ عزَّ وجلَّ جعلَها ليلةَ الفَرْقِ والحُكم ، فقالَ جلَّ شأنه : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وسمّاها جلَّ وعلا ليلةَ القدرِ ؛ أَي : التَّقدير .

ولِما رويَ عن كعبٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قال : إِنَّ اللهَ تعالى اختارَ السّاعاتِ فاختارَ ساعاتِ أَوقاتِ الصّلاة ، واختارَ الأَيّامَ فَاختارَ يومَ الجمعة ، واختارَ الشُّهورَ فَاختارَ رمضان ، واختارَ اللَّيالي فاختارَ ليلةَ القدْر ، فهيَ أَفضلُ ليلةٍ في أَفضلِ شهر .

ولأَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم حثَّ على العملِ فيها ؛ فقد صَح : « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً . غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه » وفي رواية : « وَمَا تَأَخَّر » .

ونهىٰ عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ أَنْ تُخصَّ ليلةُ الجمعةِ بقيامٍ ويومُها بصيام .

ولأَنَّهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أَخفاها ولَم يُبيِّنها ، كما أَخفىٰ سبحانَهُ أَعظمَ أَسمائهِ عزَّ وجل ، وكما أَخفىٰ جلَّ شأْنُهُ أَفضلَ الصَّلاةِ وهي الصّلاةُ الوسطىٰ ، إِلىٰ غيرِ ذلك .

وذهبَ أَكثرُ الحنابلة ؛ كأَبي حسنٍ الجزري ، وعبدِ اللهِ بنِ بطَّة ، وأَبي حفصٍ البرمكيّ وغيرِهم إِلىٰ أَنَّ ليلةَ الجمعةِ أَفضل ؛ لِما أَخرجَ مقاتلٌ عنِ الضَّحّاك ، عنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى ٱللهُ عليهِ وسلَّم : « يَغْفِرُ اللهُ تَعَالَىٰ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ أَجْمَعِين » وهٰذهِ فضيلةٌ لَم تجىءْ لغيرِها .

ونحوه ما رويَ عنِ ابنِ مسعود رضي الله عنه ، قال : قالَ رَسُول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَا مِنْ لَيْلَةِ جُمُعَةٍ إِلاَّ وَيَنْظُرُ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ خَلْقِهِ ثَلاَثَ مَرَّات ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ لم يُشْرِكْ بِاللهِ تَعَالَىٰ شَيْئاً » .

ولأَنَّهُ روى ابنُ بشكوال في كتابهِ « القربة إِلىٰ ربِّ العالَمِين » بسندهِ إِلىٰ عمرَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « أَكْثِرُوا الصَّلاَةَ عَلَيَّ فِي اللَّيْلَةِ الْغَرَّاءِ والْيَوْمِ الأَزْهَر ، لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ وَيَوْمَ الْجُمُعَة » والغرَّةُ مِنَ الشَّيءِ : خيارُه .

ولأَنَّهُ قد روىٰ كثيرون ، منهمُ الإِمامُ أَحمد : أَنَّ يومَها سيِّدُ الأَيّام ، وأَعظمُ عند اللهِ تعالىٰ مِنْ يومِ الفطرِ ويومِ الأَضحىٰ .

وصحَّح ابنُ حبّانَ خبر : « لاَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَلاَ تَغْرُبُ عَلَىٰ يَوْمٍ أَفْضَلَ مِنْ يَوْمِ

الْجُمُعَة » . فهيَ لذلكَ سيِّدةُ اللَّيالي وأَعظمُها وأَفضلُها ؛ ولأَنَّها متعيِّنةٌ مشهودة ، يَشهدُها الخاصُّ والعام ، مِنْ ذَكرٍ وأُنثىٰ ، وصغيرٍ وكبير ، وبصيرٍ وضرير ، وتصلُ بَرَكتُها إلى الأَحياءِ والأَموات ، وليلةُ القدرِ غيرُ معيَّنةٍ فلا ينتفعُ بها إلاَّ قليل ، إلىٰ غيرِ ذلك .

وأَجوبةُ الطَّرفينِ في « روحِ المعاني » قالَ الوالدُ عليهِ الرَّحمةُ : وهـٰهنا قولٌ متوسِّطٌ بينَ القولين ، حكى القاضي أَبو يَعلىٰ : أَنَّ أَبا الحسنِ التَّميميّ مِنَ الحنابلةِ أَيضاً كانَ يقول : ليلةُ القدرِ الَّتي أُنزلَ فيها القرآنُ أَفضلُ مِنْ ليلةِ الجمعة ؛ لِما حصلَ فيها مِنَ الخيرِ الكثيرِ الَّذي لَم يَحصلْ في غيرِها ، فأَمَّا أَمثالُها مِنْ ليالي القدْر . . فليلةُ الجمعةِ أَفضلُ مِنها ، وقيلَ نظيرُهُ في ليلةِ المعراجِ معَ ليلةِ الجمعةِ ونحوِها .

ثمَّ إنَّ ظاهرَ كلامِ بعضِ الحنفيَّة ؛ كصاحبِ « الجوهرة » أَنَّ ليلةَ النَّحرِ أَفضلُ مِنْ ليلةِ القدْرِ وسائرِ ليالي السَّنَة ، ويَرد عليهِ ظاهرُ الآيةِ أَيضاً .

ونقلَ الطحطاوي عليهِ الرَّحمةُ في حواشي « الدُّرِّ المختار » عن بعضِ الشَّافعيَّة : أَنَّ أَفضلَ اللَّيالي ليلةُ مولدهِ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام . اهـ

ولقد أَحسنَ البوصيريُّ حيثُ قال :

لَيْلَـةُ الْمَـوْلِـدِ الَّـذِي كَـانَ لِلـدِّيْـ ـنِ سُـرُورٌ بِيَـوْمِـهِ وَازْدِهَـاءُ
وَتَـدَاعَـىٰ إِيـوَانُ كِسْـرَىٰ وَلَـوْلاَ آيَـةٌ مِنْـكَ مَـا تَـدَاعَـى الْبِنَـاءُ

ثمَّ ليلةُ القدر ، ثمَّ ليلةُ الإِسراءِ والمعراج ، ثمَّ ليلةُ عرفة ، ثمَّ ليلةُ الجمعة ، ثمَّ ليلةُ النِّصفِ مِنْ شعبان ، ثمَّ ليلةُ العيد .

وليلةُ القدْرِ عندَ السّادةِ الصُّوفيَّةِ قُدِّسَتْ أَسرارُهمُ الزَّكيَّةُ ليلةٌ يَختصُّ فيها السّالكُ بتجلٍّ خاصٍّ يُعرفُ بهِ قدْرُهُ ورتبتُهُ بالنِّسبةِ إلىٰ محبوبه ، وهيَ وقتُ ابتداءِ وصولِ السّالكِ إلىٰ عينِ الجمعِ ومقامِ البالِغينَ في المعرفة ، وما أَلطفَ قولَ الشَّيخِ عمرَ بنِ الفارضِ قُدِّسَ سِرُّه :

وَكُـلُّ اللَّيَـالِـي لَيْلَـةُ الْقَـدْرِ إِنْ دَنَـتْ كَمَـا كُـلُّ أَيَّـامِ اللِّقَـا يَـوْمُ جُمُعَـةِ

فائدةٌ في ليلةِ القدرِ يلزمُ التَّنبيهُ عليها لبعضِ العلماءِ الأعلام ، وإنْ لَم يَلزمْ قراءتُها لِلعوامِّ في المجلسِ العام . وهي ملخَّصُ ماذكرَهُ العلاَّمةُ الوالدُ عليهِ الرَّحمةُ : أنَّه علىٰ قولِ المعتبِرينَ لاختلافِ المطالِعِ يلزمُ القولُ بتعدُّدِ ليلةِ القدْرِ في رمضانَ وكونِها وتراً مِنْ لياليهِ عندَ قومٍ شفعاً عندَ آخرين ، فلا يصحُّ القولُ بأحدِهما ، بل لا يصحُّ إطلاقُ القولِ بأَنَّ وقتَ التَّقديرِ وتنزُّلِ الملائكةِ ليل ، فاللَّيلةُ عندَ قومٍ نهارٌ في الجهةِ المسامتةِ لأقدامِهم وهي قد تكونُ مسكونةً ولو بواسطةِ سفينة ، وربَّما يكونُ زمانُ اللَّيلِ عندَ قومٍ بعضُهُ ليلاً وبعضُهُ نهاراً عندَ آخرين .

وأَجابَ بعضٌ بالتزامِ أَنَّ ما أُطلقَ مِنَ القولِ فيها ليسَ علىٰ إطلاقه ، فيكونُ القولُ بوتريَّتها بالنِّسبةِ إلىٰ قومٍ وبشفعيَّتها بالنِّسبةِ إلىٰ آخَرين ، وهـٰكذا القولُ بأَنَّها ليلةُ كذا مِنَ الشَّهر ، وأَنَّ التَّعبيرَ باللَّيلةِ لرعايةِ مكانِ المنزَّلِ عليهِ القرآنُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وغالبِ المؤمنينَ به ، وفيهِ نظر .

وأُجيبَ أَيضاً : بأَنَّهُ ربَّما يقال : إنَّها لكلِّ قومٍ ليلتُهم وإنِ اختلفَتْ دخولاً وخروجاً بالنِّسبةِ إلىٰ آفاقِهم كسائرِ لياليهِم ، فكأَنَّ اللَّيلةَ راكبٌ يسيرُ إلىٰ جهةٍ فيصلُ إلىٰ كلِّ منزلٍ في وقت ، ويلتزمُ أَنْ تنزلَ الملائكةُ حسبَ سَيْرِها ، ولا يبعدُ أَنْ يتنزَّلَ عندَ كلِّ قومٍ ما شاءَ اللهُ تعالىٰ منهُم عندَ أَوّلِ دخولِها عندَهُم ويعرجونَ عندَ مَطلَعِ فجرِها عندَهُم ، أَوَ يبقى التَّنزُّلُ منهُم هناكَ إلىٰ أَنْ تنقضيَ اللَّيلةُ في جميعِ المعمورةِ فيعرجونَ معاً عندَ انقضائِها ، ويلتزمُ القول بتعدُّدِ التَّقديرِ حسبَ السَّيرِ أَيضاً .

ومثلُ ليلةِ القدْرِ فيما ذُكرَ وقتُ نزولهِ سبحانَهُ وتعالىٰ إلى السَّماءِ الدُّنيا ، وساعةُ الإجابة ، وارتضاهُ الوالد ، واللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أَعلم .

ولْنَرْجِعْ إلىٰ قولهِ تعالىٰ : ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ أَي : تهبطُ الملائكةُ مِنَ السَّمـٰواتِ إلى الأَرض .

قرأَ الجمهور : ﴿ تَنَزَّلُ ﴾ بفتحِ التّاء ، وقُرِىءَ[1] بضمِّها .

---

(١) شذوذاً .

والرُّوحُ عندَ الجمهورِ هوَ جبريلُ عليهِ السّلام ، وخصَّ بالذِّكرِ لزيادةِ شرفهِ معَ أَنَّهُ النّازلُ بالذِّكر .

وقيل : حفظةٌ على الملائكةِ كالملائكةِ الحفظة علينا .

وقيل : خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ الله ، يأْكلونَ ويَلبسون ، ليسوا مِنَ الملائكةِ ولا مِنَ الإنس . ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

ولعلَّهُم علىٰ ما قيل : خدمُ أَهلِ الجنَّة .

وقيل : هوَ عيسىٰ عليهِ السّلام ، ينزلُ لمطالعةِ هـٰذهِ الأُمَّة ، وليزورَ قبرَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم .

وقيل : أَرواحُ المؤمنين ، ينزلونَ لعيادةِ أَهليهم .

وقيل : الرَّحمة ، كما قُرِىء[1] : (لا تيأسوا من رُوح الله) بالضَّم .

قالَ الوالد : على الأَوّلِ المعوّل ، والظّاهرُ الَّذي تشهدُ لَهُ الأَخبار : أَنَّ التَّنزُّلَ إِلى الأَرضِ لأَجْلِ ما ذكرَ اللهُ تعالىٰ مِنْ قوله ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أَي : تَتَنزَّلُ مِنْ أَجْلِ الأُمورِ الَّتي قضى اللهُ تعالىٰ بها في تلكَ السَّنَة .

وقد تمَّ الكلامُ عندَ قولهِ تعالىٰ : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ ثمَّ ابتدأَ بفضلِها أَيضا ، فقال : ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ ﴾ أَي : ما هي إِلاَّ سلامةٌ وخيرٌ كلُّها ، لا شرَّ فيها ، ولا يستطيعُ الشَّيطانُ أَنْ يعملَ فيها سوءاً .

وقيل : يَنزلونَ فيها للتَّسليمِ على المؤمنين .

وقيل : لأَنَّ اللهَ تعالىٰ جعلَ فضيلةَ هـٰذهِ اللَّيلةِ في الاشتغالِ بطاعتهِ في الأَرض ، فهُم ينزلونَ إِليها لتصيرَ طاعاتهُم أَكثرَ ثواباً ، كما أَنّا نروحُ إِلىٰ مكّةَ ليَكثرَ ثوابُنا . وقيلَ غيرُ ذلك .

وقالَ القطبُ الرَّبّاني ، الشَّيخُ عبدُ القادرِ الكيلانيُّ قُدِّسَ سِرُّهُ النُّورانيّ في كتابهِ

---

(١) شذوذاً .

« الغُنية » ما نصُّه : عنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : إذا كانَ ليلةُ القدرِ . . يأمرُ اللهُ تعالىٰ جبريلَ عليهِ السّلام أَنْ ينزلَ إلى الأرضِ ومعَهُ سُكّانُ سِدرةِ المنتهىٰ سبعونَ أَلفَ مَلَك ، ومعَهُم أَلويةٌ مِنْ نور ، فإذا هَبطوا إلى الأَرض . . ركزَ جبريلُ لواءَهُ والملائكةُ أَلويَتهُم في أَربعةِ مواطن : عندَ الكعبة ، وقبرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، ومسجدِ بيتِ المقْدِس ، ومسجدِ طورِ سيناء .

ثمَّ يقولُ جبريلُ عليهِ السّلام : تفرَّقوا ، فيتفرَّقون ، فلا تبقىٰ دارٌ ولا حُجرةٌ ولا بيتٌ ولا سفينةٌ فيها مُؤْمِنٌ أَو مُؤْمِنةٌ إلا دخلتِ الملائكةُ فيها ، إلاَّ بيتاً فيهِ كلبٌ أَو خنزيرٌ أَو جُنُبٌ مِنْ حرامٍ أَو صورةُ تماثيل ، فيُسبِّحونَ ويُقدِّسونَ ويُهلِّلون ، ويَستغفرونَ لأُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، حتَّىٰ إذا كانَ وقتُ الفجرِ . . صَعدوا إلى السّماءِ فيستقبلُهم أَهلُ سكّانِ سماءِ الدُّنيا ، فيقولونَ لَهُم : مِنْ أَينَ أَقبلتُم ؟ فيقولون : كنّا في الدُّنيا ؛ لأَنَّ اللَّيلةَ ليلةُ القدرِ لأُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فيقولُ سُكّانُ سماءِ الدُّنيا : ما فعلَ اللهُ بحوائجِ أُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ؟ فيقولُ جبريلُ عليهِ السّلام : إنَّ اللهَ تعالىٰ غَفَرَ لِصالحيهِم وشفَّعَهُم في طالحيهِم .

فترفعُ ملائكةُ سماءِ الدُّنيا أَصواتَهُم بالتَّسبيحِ والتَّقديسِ والثَّناءِ علىٰ ربِّ العالَمينَ شكراً لِما أَعطى اللهُ عزَّ وجلَّ هـٰذهِ الأُمَّةَ مِنَ المغفرةِ والرِّضوان .

ثمَّ تُشيِّعُهم ملائكةُ سماءِ الدُّنيا إلى الثّانيةِ كذلك ، ثمَّ كذلكَ إلىٰ سماءٍ إلىٰ سماءٍ إلى السّابعة ، ثمَّ يقولُ جبريل : يا سكّانَ السَّمـٰوات ؛ ارجعوا ، فيرجعُ ملائكةُ كلِّ سماءٍ إلىٰ مواضعهِم ، فإذا وصلوا إلىٰ سِدرةِ المنتهىٰ . . يقولونَ لَهُم : أَينَ كُنتُم ؟ فيُجيبُونَهُم مثلَ ما أَجابوا أَهلَ السَّمـٰوات ، فترفعُ سكّانُ سِدرةِ المنتهىٰ أَصواتَهُم بالتَّسبيحِ والتَّهليلِ والثَّناء ، فتسمعُ جنَّةُ المأْوىٰ ، ثمَّ جنَّةُ النَّعيمِ وجنَّةُ عَدْنٍ والفردوس ، ويَسمعُ عرشُ الرَّحمـٰن ، فيرفعُ العرشُ صوتَهُ بالتَّسبيحِ والتَّهليلِ والثَّناءِ علىٰ ربِّ العالَمينَ شكراً لِما أَعطىٰ هـٰذهِ الأُمَّة ، فيقول :

إلـٰهي ؛ بلغني عنكَ أَنَّكَ غفرتَ البارحةَ لصالحي أُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، وشَفَّعتَ صالِحيْها في طالِحِيها ! .

فيقولُ اللهُ عزَّ وجل : صدقتَ يا عرشي ، ولأُمَّةِ محمَّدٍ عندي مِنَ الكرامةِ ما لا عينٌ رأَت ، ولا أُذنٌ سَمِعَت ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بَشَر . اهـ

وليُعلَم : أَنَّ في قيامِ ليلةِ القدْرِ ثواباً عظيماً وأَجراً جزيلاً ؛ لأَحاديثَ كثيرةٍ وردَتْ في ذلك ، كما تقدَّمَ بعضُها مِنْ قولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً ـ أي : مصدِّقاً غيرَ مُراءٍ في عمله ـ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه » وفي رواية : « وَمَا تَأَخَّر » .

ولذا كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يَجتهدُ في العَشرِ الأَواخرِ ما لا يجتهدُ في غيرِها ، فقد قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يَخلِطُ العشرينَ بصلاةٍ ونوم ، فإذا كانَ العشر . . شمّرَ وشدَّ المئزر) أَي : اجتهدَ في أَنواعِ العباداتِ مِنْ صَلاةٍ وغيرِها .

وكانت تقولُ لَه : يا رسولَ الله ؛ إِنْ وافقتُ ليلةَ القدْر . . فما أَقول ؟ قال : « قُولِي : اللّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي » .

وقالَ سفيانُ الثَّورِي : الدُّعاءُ في تلكَ اللَّيلةِ أَحبُّ مِنَ الصَّلاة ، ثمَّ أَفادَ أَنَّهُ إذا قرأَ ودعا كانَ حَسناً .

وذكرَ ابنُ رجب عليهِ الرَّحمةُ : أَنَّ الأَكمل الجمعُ بينَ الصَّلاةِ والقراءةِ والدُّعاءِ والتَّفكر .

ويحصلُ قيامُها ـ علىٰ ما قالَ بعضُ العلماء ـ بصَلاةِ التَّراويح ، وأَخرجَ البيهقيُّ عن أَنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ صَلَّى الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ حَتَّىٰ يَنْقَضِيَ شَهْرُ رَمَضَان . . فَقَدْ أَصَابَ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ بِحَظٍّ وَافِر » .

وأَخرجَ البيهقي ، عن سعيدِ بنِ المسيّبِ قال : مَنْ شهدَ العِشاءَ ليلةَ القدرِ في جماعة . . فقد أَخذَ بحظِّهِ مِنها ؛ ولذا قالَ الشّافعيُّ كما نقلَ عنه : إِنَّهُ تحصلُ فضيلةُ الإِحياءِ بساعة .

ولهٰذهِ الأَحاديثِ ونحوِها تأَكَّدتْ سنيَّةُ الاعتكافِ في العشرِ الأَواخر ، ولنذكر لكُم ما وردَ في الاعتكافِ مطلقاً ، ولا سيّما في العشر ، وما يتعلَّقُ بالاعتكافِ علىٰ مذاهبِ الأَئِمَّةِ الأَربعةِ الأَشراف ، فأَقول :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ .

وروى الشَّعرانيُّ في « كَشْفِ الغُمَّة » عنِ الإمامِ أَبي عبدِ اللهِ الحسينِ بنِ علي ، عن عليِّ بنِ أَبي طالب ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « مَنِ اعْتَكَفَ عَشْراً فِي رَمَضَان . . كَانَ كَحَجَّتَيْنِ وَعُمْرَتَيْن » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنِ اعْتَكَفَ مَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ فِي مَسْجِدِ جَمَاعَة، لَمْ يَتَكَلَّمْ إِلاَّ بِصَلاةٍ وَقُرْآن . . كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ قَصْراً فِي الْجَنَّة » اهـ

وروِيَ عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « مَنِ اعْتَكَفَ فُوَاقَ نَاقَة . . فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ رَقَبَة » وَالْفُواقُ هوَ الزَّمانُ الَّذي بينَ الحلبتَين .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ مَشَىٰ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ وَبَلَغَ فِيهَا . . كَانَ لَهُ خَيْراً مِن اعْتِكَافِ عَشْرِ سِنِين ، وَمَنِ اعْتَكَفَ يَوْماً ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ . . . جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ ثَلاَثَ خَنَادِق ، أَبْعَدُها مِمَّا بَيْنَ الْخَافِقَيْن » .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قالَ في المعتكِف : « هُوَ يَعْتَكِفُ عَنِ الذُّنُوبِ وَيَجْرِي لَهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ كَعَامِلِ الْحَسَنَاتِ كُلِّهَا » .

واعلَم : أَنَّ الأَئِمَّةَ اتَّفقوا علىٰ أَنَّ الاعتكافَ مشروع ، وأَنَّهُ قُربةٌ إِلى اللهِ تعالىٰ ، وأَنَّهُ مستحَبٌّ كلَّ وقتٍ وفي العشرِ الأَواخرِ مِنْ رمضانَ أَفضلُ لطالبِ ليلةِ القَدْر .

واتَّفقوا أَنَّهُ لا يصحُّ اعتكافٌ إِلاَّ بالنِّيَّة .

وأَجمعوا علىٰ أَنَّ خروجَ المعتكِفِ لِما لا بدَّ منه ـ كقضاءِ الحاجةِ وغسلِ الجنابة ـ

جائز ، وعلىٰ أَنَّهُ إذا اعتكفَ بغيرِ المسجدِ الجامعِ وحضرتِ الجمعة. . وجبَ عليهِ الخروجُ لَها ، وعلىٰ أَنَّهُ إذا باشرَ المعتكِفُ في الفرجِ عمداً. . بَطَلَ اعتكافُهُ ولا كَفَّارةَ عليه .

وقالَ الحسنُ البصريُّ والزّهري : يَلزمُهُ كفَّارةُ يمين[1] .

وكذلكَ **أَجمعوا** علىٰ أَنَّ الصَّمتَ إلى اللَّيلِ مكروه ، قالَ الشَّافعي : ولو نذرَ الصَّمتَ في اعتكافه. . تكلَّمَ ولا كفَّارةَ عليه .

وكذلكَ **أَجمعوا** على استحبابِ الصَّلاةِ والقراءةِ والذِّكرِ لِلمعتكف .

وأَجمعوا علىٰ أَنَّهُ ليسَ لِلمعتكِفِ أَنْ يَتَّجِرَ ولا يكتسب بالصَّنعةِ على الإطلاق .

قالَ في كتابِ « اختلافُ المذاهب » : واختلَفوا ، هل يصحُّ الاعتكافُ بغيرِ صوم ؟

فقالَ أَبو حنيفة ، ومالك ، وأَحمدُ في إِحدىٰ روايتيه : لا يصحُّ بغيرِ صوم .

وقالَ الشَّافعي ، وأَحمدُ في الرِّوايةِ المشهورة : يصحُّ بغيره .

وأَجمَعوا علىٰ أَنَّهُ يصحُّ الاعتكافُ في كلِّ مسجد ، إلاَّ أَحمدَ فإِنَّهُ قال : لا يصحُّ إلاَّ في مسجدٍ تُقامُ فيهِ الجَماعة .

وأَجمَعوا علىٰ أَنَّهُ لا يصحُّ اعتكافُ المرأَةِ في بيتِها ، إلاَّ أَبا حنيفةَ فإِنَّهُ قال : يجوزُ اعتكافُها في مسجدِ بيتِهَا .

واتَّفَقوا علىٰ أَنَّ الوطءَ عامداً يُبطلُ الاعتكافَ المنذورَ والمسنونَ معاً ، **واختلَفوا** في وجوبِ الكفَّارةِ فيه ، فقالوا : لا تجب ، إلاَّ أَحمدَ فعنهُ روايتان ، أَظهرُهُما : وجوبُ الكفَّارة ، وهيَ كفَّارةُ يمين .

واختلَفوا في القُبلةِ واللَّمسِ بشهوة :

---

(١) كفَّارةُ اليمين : عتقُ رقبة ، وإِنْ شاء. . كسا عشرةَ مساكينَ كلَّ واحدٍ منهُم ثوباً فما زاد ، وأَدناه : ما يُجزىءُ فيهِ الصَّلاة ، وإِنْ شاء. . أَطعمَ عشرةَ مساكين ، وإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ أَحَدِ الثّلاثة. . صامَ ثلاثةَ أَيّامٍ متتابعات اهـ منه .

فقالَ أَبو حنيفةَ وأَحمد : قد أَساءَ ؛ لأَنَّهُ قد أَتىٰ ما يَحرمُ عليه ، ولا يفسدُ اعتكافُه .

وقالَ مالك : يفسدُ اعتكافُه .

وعنِ الشّافعيِّ قولان .

واتَّفقوا علىٰ أَنَّهُ يجوزُ لِلمعتكِفِ الخروجُ إِلىٰ ما لا بدَّ منه ؛ كحاجةِ الإِنسان ، وغسلِ الجنابة ، وخوفِ الفتنة ، ولقضاءِ عدَّةِ المتوفَّىٰ عنها زوجُها ، والحيضِ والنّفاس .

واتَّفَقوا علىٰ أَنَّهُ إِذا نذرَ اعتكافَ شهرٍ ثمَّ ماتَ قَبْلَ انقضائه . . فإِنَّهُ لا يُقضىٰ عنه ، إِلاَّ أَحمدَ فإِنَّهُ قال : يجبُ أَنْ يَقضيَ ذلكَ عنهُ وليُّه .

واختلَفوا فيمَنْ أَذِنَ لِزوجتهِ في الاعتكافِ فدخلَتْ فيه ، هل لَهُ منعُها مِنْ إِتمامه ؟

فقالَ أَبو حنيفةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ والإِمامُ مالك : ليسَ لَهُ منعُها .

وقالَ الشّافعيُّ وأَحمد : لَهُ منعُها .

وأَجمَعوا علىٰ أَنَّ العبدَ ليسَ لَهُ أَنْ يَعتكفَ إِلاَّ بإِذنِ مولاه .

واتَّفَقوا علىٰ أَنَّهُ يُكرَهُ لِلمعتكِفِ الصَّمتُ إِلى اللَّيل ، إِلاَّ أَنَّهُ لا يَتكلَّمُ إِلاَّ بخير .

وأَجمَعوا علىٰ أَنَّهُ يُستحبُّ لِلمعتكِفِ ذِكرُ اللهِ تعالىٰ والصَّلاةُ وقراءةُ القُرآن ، ثمَّ **اختلَفوا** في إِقرائهِ القرآنَ أَوِ الحديثَ أَوِ الفقه :

فقالَ مالكٌ وأَحمدُ رحمَهُما اللهُ تعالىٰ : لا يُستحبُّ لَهُ ذلكَ ولا ينبغي لَهُ إِقراؤُهُ غيرَه .

وعن مالكٍ روايةٌ أُخرىٰ : أَنَّهُ لا بأْسَ أَنْ يكتبَ ويُقرىءَ غيرَهُ القرآن .

وقالَ أَبو حنيفةَ والشّافعي : يُستحبُّ لَهُ ذلك .

ورويَ عن أَحمدَ في الرَّجُلِ يُقرىءُ في المسجدِ ويريدُ أَنْ يعتكف ، فقال : يُقرىءُ أَحبُّ إِلي .

واختلَفوا في جوازِ البيع : فقالَ أَبو حنيفة : لَهُ أَنْ يبيعَ ويبتاعَ وهوَ في المسجدِ مِنْ غيرِ أَنْ يُحضِرَ السِّلَع .

وقالَ الشّافعي : لَهُ أَنْ يأْمرَ بالأَمرِ الخفيفِ في مالهِ ويبيعَ ويشتريَ مِنْ غيرِ إِكثار .

وقالَ مالك : لَهُ أَنْ يفعلَ ذلكَ إِذا كانَ الاعتكافُ تطوُّعاً وكانَ يسيراً . وعنهُ روايةٌ أُخرىٰ بالمنعِ مِنْ ذلكَ على الإِطلاق .

وقالَ أَحمد : لا يجوزُ لَهُ البيعُ والشِّراءُ على الإِطلاق ، ولا يجوزُ لَهُ فِعلُ الخياطةِ فيهِ ولَو كانَ محتاجاً . اهـ

ولنختمِ البحثَ بعبارةٍ ملخَّصةٍ مِنْ كتبِ أَئِمَّتِنا الحنفيَّةِ رحمهُم ربُّ البريَّةِ : فقد قالَ في « الدُّرِّ المختار » :

الاِعتكافُ لغة : اللُّبث .

وشرعاً : لبثٌ في مسجدِ جماعة .

وأَفضلُه : ما كانَ في المسجدِ الحرام ، ثمَّ في مسجدهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، ثمَّ في المسجدِ الأَقصىٰ ، ثُمَّ في الجامع .

ويتعيَّنُ بالشُّروعِ فيه ، فليسَ لَهُ أَنْ ينتقلَ إِلىٰ مسجدٍ آخَرَ مِنْ غيرِ عذر ، وعندَ الصَّاحبين : يصحُّ في كلِّ مسجد ، والمرأَةُ في مسجدِ بيتِها ، ويُكرَهُ لَها في المسجدِ إِلاَّ أَنَّهُ جائز .

وشرطُه : النيَّةُ مِنْ مسلمٍ عاقلٍ طاهر .

وهوَ ثلاثةُ أَقسام : واجبٌ بالنَّذر ، وسنَّةٌ مؤكَّدةٌ في العشر ، وسنَّةٌ في غيرِها ، وشُرِطَ لِلنَّذرِ الصَّوم .

وأَقلُّهُ نفلاً ساعةٌ مِنْ ليلٍ أَو نهارٍ عندَ محمَّد ، وهوَ ظاهرُ الرِّوايةِ عنِ الإِمام ، والسّاعةُ عندَ الفقهاءِ جزءٌ مِنَ الزَّمان .

ونظمَ ذلكَ بعضُهُم ، فقال :

ثُـمَّ أَقَـلُّ الاعْتِكَـافِ النَّفْـلِ   يَـوْمٌ لَـدَىٰ أُسْتَـاذِنَـا الأَجَـلِّ
وَأَكْثَـرُ النَّهَـارِ عِنْـدَ الثَّـانِـي   وَسَـاعَـةٌ فِـي مَـذْهَـبِ الشَّيْبَـانِـي

وحرمَ عليه ـ أَي : المعتكِفُ واجباً ـ الخروجُ إلاَّ لحاجةِ الإِنسان ، طبيعيَّةً كانت ؛ كبولٍ وغائط ، وغسلٍ لوِ احتلمَ ولا يمكنُهُ الاغتسالُ في المسجد ، أَو شرعيَّة ؛ كعيدٍ وأَذانٍ وجمعةٍ وقتَ الزَّوالِ . اهـ مزاداً مِنَ « الحاشية » .

فعليكُم ـ عبادَ الله ـ بالاعتكافِ وإِحياءِ ليلةِ القَدْر ؛ فإِنَّهُ مِنْ أَعظمِ موجباتِ القَبولِ والأَجر ، فإِن العمرَ يمضي كساعةٍ مِنَ الدَّهر ، فيا مَنْ أَملُهُ إِلىٰ أَجَلِهِ يقودُه . . ما أَنتَ علىٰ يقينٍ مِنْ نيلِ ما تريدُه ، كم مِنْ غصنٍ كُسِرَ عودُه ؟ كم مِنْ مَلِكٍ غابَ تفرَّقَتْ جنودُه ؟ .

إِخواني ؛ تأَمَّلوا حقَّ هـٰذهِ الأَيَّامِ مهما أَمكنكُم ، واشكروا للَّذي وهبَ لكُمُ السّلامةَ ومكّنكُم ، فكم مِنْ مُؤَمِّلٍ لَم يَبلغ ما أَمَّل ، وإِنْ شككت . . فتلمَّحْ جيرانكَ وتأَمّل ، كم مِنْ أُناسٍ صَلّوا معكُم في أَوَّلِ الشّهرِ التَّراويح ، وأَوقدوا في المساجدِ طلباً للأَجرِ المصابيح . . اِقتنصَهُم قَبْلَ تمامهِ الصَّائدُ فقُهروا ، وأَسرتْهُمُ المصائِدُ فأُسِروا ، ولَم ينفعهُمُ المالُ والآمالُ لمَّا قُبروا ؟ أَدارت عليهِمُ المنونُ رَحاها ، وأَحلَّتْ وجوهَهُم بالثَّرىٰ فمحاها ، فأَعدمتْهمُ صوماً وفِطراً ، وزوَّدتهُم مِنَ الحَنوطِ عِطراً ، وهـٰذا حالكَ يا مَنْ لا يعقلُ أَمراً .

وَفِي الشَّيْبِ مَا يَنْهَى الْحَلِيْمَ عَنِ الصِّبَا   إِذَا اسْتُـوقِـدَتْ نِيـرَانُـهُ فِـي عِـذَارِهِ
وأَيُّ امْرِىءٍ يَرْجُو مِنَ الْعَيْشِ غِبْطَةً   إِذَا اصْفَرَّ مِنْهُ الْعُودُ بَعْدَ اخْضِرَارِهِ
وللهِ فِـي عَـرْضِ السَّمَـٰوَاتِ جَنَّـةٌ   وَلَـٰكِنَّهَـا مَحْفُـوفَـةٌ بِـالْمَكَـارِهِ

إِخواني ؛ ليلةُ القَدْرِ ليلةٌ يُفتحُ فيها الباب ، ويُقرَّبُ فيها الأَحباب ، ويُسمعُ الخطاب ، ويُردُّ الجواب ، ويُرجىٰ للعاملينَ عظيمُ الأَجر ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ .

ليلةٌ تتلقىٰ فيها الوفود ، ويَحصلُ لَهُمُ المقصود ، أَترىٰ ما يُؤْلمكَ أَيُّها المطرود ؟ هـٰذا الهجر ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ .

أَخلَصوا وما أَخلصتَ قَصدَك ، وبَلَغوا المرادَ وما بلغتَ رُشدَك ، أما يؤثر عندك تشريدك هـٰذا الزجر ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ .

أَيقِظْ نفسَكَ لِما بينَ يديهَا ، وانتظر ما سيأْتي عن قليلٍ إِليها ، وأَسمعها المواعظَ فقد حضرَتْ لديها ، واقبَلْ نُصحي وخُذْ عليها ضرب الحجر ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ .

هـٰذهِ أَوقاتٌ يَربحُ فيها مَنْ فهِمَ ودرىٰ ، ويَصلُ إِلىٰ مرادهِ كلُّ مَنْ جَدَّ وسرىٰ ، ويُفكُّ منهُ الجاني وتُطلَقُ منهُ الأُسرا ، تقدَّمَ القومُ وأَنتَ راجعٌ إِلىٰ ورا ، أَليسَ هـٰذا كلُّهُ قد جَرىٰ ؟ وكأَنَّهُ لَم يَجر ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ .

اللّٰهم ؛ يا مَنْ خلقَ الإِنسانَ وبَناه ، واللِّسانَ وأَجراه ، يا مَنْ لا يَخيب مِنْ دعاه . . هَبْ لِكلٍّ مِنّا في هـٰذهِ اللَّيلةِ ما رَجاه ، وبلِّغهُ مِنْ خيرِ الدّارينِ مُناه ، يا أَكرمَ مِنْ كلِّ كريم .

اللّٰهم ؛ وإِذ اطَّلعتَ في ليلتِنا هـٰذهِ علىٰ خلقك . . فعُدْ علينا بمنِّكَ وعِتقك ، وقدِّرْ لَنا مِنَ الحلالِ واسعَ رزقِك ، واجعلْنا ممَّنْ عرفكَ وقامَ بحقِّك ، وارحمنا برحمتكَ يا أَرحمَ الرّاحمين .

اللّٰهم ؛ مَنْ قضيتَ بوفاته . . فاقضِ معَ ذلكَ رحمتَك ، ومَنْ قدَّرتَ طولَ حياته . . فاجعلْ في ذلكَ نعمتَك ، وأَسبِلْ على الجميعِ سترَكَ ومغفرتَك ، وعامِلنا بعفوكَ يا حليم .

اللّٰهم ؛ اشفِ في هـٰذهِ اللَّيلةِ مرضانا ، وارحمْ بفضلِكَ موتانا ، واستُر علينا عيوبَنا ، واغفرْ لَنا ذنوبَنا ، برحمتكَ يا أَرحمَ الرّاحمين .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وآلهِ وصحبهِ وأَزواجهِ أَجمعين .

* * *

المجلس الثاني والعشرون
في صلاة الجمعة ومتعلقاتها

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي يَغفرُ الزَّللَ ويَصفح ، ويَعفو عنِ الخطل ويَسمح ، كلُّ مَنْ لاذَ بهِ أَنجح ، وكلُّ مَنْ عاملَهُ يَربح ، تَشبيهُهُ قبيحٌ وجحدُهُ أَقبح ، ورفعَ السّماءَ بغيرِ عمدٍ فتأَمَّلْ والْمَح ، وأَنزلَ القَطْرَ فإِذا الزَّرعُ في الماءِ يَسبح ، والمواشي بعدَ الجدوبِ الغواشي في الخصبِ تَسرح ، وأَقامَ الوُرقَ[1] على الورَقِ تشكرُ وتَمدَح ، أَغنىٰ وأَفقرَ والفقرُ في الأَغلبِ أَصلَح ، كم مِنْ غنيٍّ طرحَهُ البَطَرُ وَالأَشَرُ أَقبحَ مطرَح ، هـٰذا قارونُ ملكَ الكثيرَ وبالقليلِ لَمْ يَسمَح ، نُبِّهَ فلَم يزل نومُه ، ولِيمَ فلَم يَنفعْ لَومُه ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ﴾ .

أَحمدُهُ ما أَمسى المساءُ وأَصبَح ، وأُصلِّي علىٰ رسولهِ محمَّدٍ الَّذي أَنزلَ عليهِ (أَلم نشرح) صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ أَبي بكرٍ صاحبهِ في الدّارِ والغارِ لَمْ يَبْرَح ، وعلىٰ عمرَ الَّذي لَم يَزلْ في إِعزازِ الدِّينِ يَكدَح ، وعلىٰ عثمانَ ولا أَذكرُ ما جرىٰ ولا أَشرَح ، وعلىٰ عليٍّ الَّذي كانَ يَغسلُ قدمَهُ في الوضوءِ ولا يَمْسَح ، وعلىٰ جميعِ آلهِ وأَصحابهِ صلاةً دائمةً لا تَبرح .

أَمّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في مُحكَمِ كتابهِ العزيز : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠

---

(١) يعني الحمائم .

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ .

فنقولُ ومِنَ اللهِ تعالى التَّوفيقُ :

قالَ العلماء : سببُ نزولِ هٰذهِ الآيات : أَنَّهُ كانَ بأَهلِ المدينةِ فاقةٌ وحاجة ، فأَقبلَتْ عِيرٌ مِنَ الشّامِ وضُربَ لقدومِها الطَّبلُ والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يَخطبُ يومَ الجمعة ، فانفتلَ النّاسُ إِليها حتَّىٰ لم يبقَ إِلاّ اثنا عشرَ رجلاً وسبعُ نسوة ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لَوْ خَرَجَ كُلُّهُم .. لاضطرم عَلَيْهِمُ الْمَسْجِدُ نَاراً » .

قالَ العلاّمةُ في « فتحِ البيان » : والَّذي سوَّغَ لَهمُ الخروجَ وتَرْكَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يَخطبُ أَنَّهُم ظنُّوا أَنَّ الخروجَ بعدَ تمامِ الصّلاةِ جائز ؛ لانقضاءِ المقصودِ وهوَ الصَّلاة ؛ لأَنَّهُ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَوّلَ الإِسلام يُصلِّي الجمعةَ قَبْلَ الخُطبةِ كالعيدين ، فلمّا وقعت هٰذهِ الواقعةُ ونزلَتِ الآية .. قدَّمَ الخُطبةَ وأَخَّرَ الصَّلاة . اهـ باختصار .

ولنذكر ما يتعلَّقُ بتفسيرِ هٰذهِ الآيةِ علىٰ وجهِ الإِجمال ، ثمَّ ما يتعلَّقُ بالجمعةِ وما فيها علىٰ سننِ الكمال :

فليُعلَم : أَنَّ قولَهُ تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ﴾ الآية ، أَي : وقعَ النّداءُ لَها ، والمرادُ به : الأَذانُ الثّاني ، وهوَ عندَ قعودِ الإِمامِ على المنبرِ لِلخُطبة ، فعنِ السّائبِ بنِ يزيد ، قال : كانَ النِّداءُ يومَ الجمعةِ أَوّلَهُ إِذا جلسَ الإِمامُ على المنبرِ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وأَبي بكرٍ وعمر ، فلمّا كانَ عثمانُ وكثرَ النّاسُ زادَ النِّداءَ الثّاني ، وعلى الزَّوراء ؛ يعني : علىٰ دارِهِ المسمّاة زوراء ، وجعلَ لِلجمعةِ مؤَذِّنَين .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ أَي : فيه ، كقولهِ تعالىٰ : ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أَي : فيها . والجُمعةُ ـ بضمِّ الميم ـ وبهِ قرأَ الجمهور ، وقرأَ ابنُ الزُّبيرِ وزيدُ بنُ عليٍّ بسكونِها ، وجاءَ فتحُها ولَم يُقرَأْ به ، ونقلَ بعضُهُمُ الكسرَ أَيضاً[1] .

(١) وما عدا الضم شاذٌّ كله .

قالَ أَبو البقاء : الجُمعةُ ـ بالضمِّ ـ مصدرٌ بمعنى الاجتماع ، وكانتِ العربُ تسمِّي يومَ الجمعةِ عروبة .

وفي كتاب « المعربات » : إنَّ عروبةَ هوَ يومُ الْجُمعة ، اِسمٌ سُرْيَانِيٌّ ، قالَ السُّهيلي : ومعنى العروبة : اَلرَّحمة ، فيما بلغنا عن بعضِ أَهلِ العِلم . اهـ

وأَوّلُ مَنْ سمّاهُ جمعة ، قيل : كعبُ بنُ لؤي ، أَخرجَ عبدُ الرّزّاقِ عنِ ابنِ سيرينَ قالَ جُمِعَ أَهلُ المدينةِ قَبْلَ أَنْ يقدمَ المدينةَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وقَبْلَ أَنْ تنزلَ الجمعة ، فقالَتِ الأَنصار : لليهودِ يومٌ يجتمعونَ فيهِ بكلِّ سبعةِ أَيّام ، وللنَّصارىٰ مِثلُ ذلك ، فهلمَّ فلنجعَلْ لنا يوماً نجتمعُ فيهِ فنذكرَ اللهَ تعالىٰ ونشكرَه .

فقالوا : يومُ السَّبتِ لليهود ، ويومُ الأَحدِ للنَّصارىٰ ، فاجعلوهُ يومَ العروبة ، وكانوا يُسمُّونَ يومَ الْجمعةِ بذلك .

فاجتمعوا إِلىٰ سعدِ بنِ زرارةَ فصلَّىٰ بهِم يومئذٍ ركعتينِ وذكَّرَهُم ، فسمَّوهُ الجمعةَ حينَ اجتمعوا إِليه ، فذبحَ لهُم شاةً فتغدّوا وتعشّوا منها ، وذلكَ لعامَّتِهم ، فأَنزلَ اللهُ تعالىٰ في ذلكَ بعد : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ ﴾ الآية . وفي هٰذهِ المسأَلةِ أَقوالٌ أُخَرُ مذكورةٌ في « روحِ المعاني » .

وقالَ بعضُهم : إِنَّما سمّيَ يومَ الجمعةِ لأَنَّ آدمَ عليهِ السّلامُ اجتمعَ فيهِ معَ حواءَ في الأَرض .

وقيل : لأَنَّ خَلْقَ آدمَ عليهِ السَّلامُ جُمِعَ فيه .

ويُسمِّيهِ الملائكة : يومَ المزيد ؛ لأَنَّ اللهَ تعالىٰ يتجلَّىٰ فيهِ لأَهلِ الجنَّةِ فيعطيهِم ما لَم ترَ عينٌ ولَم تَسمعْ أُذنٌ ولَم يَخطرْ علىٰ قلبِ بشر .

وفي حديثٍ آخر : « يَوْمُ الْجُمُعَةِ سَيِّدُ الأَيّام ، وَأَعْظَمُها عِنْدَ اللهِ ، وهو أعظم عند الله مِنْ يَوْمِ الْفِطْرِ وَالأَضْحَىٰ ، وَفِيهِ خَلْقُ آدَمَ وَإِهْبَاطُهُ إِلَى الأَرْضِ وَمَوْتُه ، وَسَاعَةُ الإِجَابَةِ مَا لَمْ يَكُنْ سُؤَالَ حَرَام ، وَقِيَامُ السّاعَة » ولذلكَ قالَ كثيرٌ مِنَ الحنابلةِ بأَفضليّتهِ علىٰ سائرِ الأَيّامِ كما تقدَّمَ في بحثِ ليلةِ القدر .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أَي : اِمشوا إِليه ، وليسَ المرادُ مِنَ السَّعيِ الإِسراع ، وقد كانَ يقرأُ بعضُ الصَّحابة : (فامضوا إلىٰ ذكر الله) . قالَ الحسن : أَما والله ، ما هوَ بالسَّعي على الأَقدامِ والسّرعةِ فيها ، وقد نُهوا أَنْ يأْتوا الصّلاةَ إلاَّ وعليهِمُ السَّكينةُ والوَقار ، ولـٰكنَّ السَّعيَ بالنِّيَّةِ والخشوعِ بالقلب .

واختُلفَ في المرادِ بذِكرِ الله ، فقيل : الصّلاةُ والخُطبة .

وقيل : موعظةُ القرآن .

وقالَ سعيدُ بنُ المسيّب : الخطبة ، وهوَ مَوعظةُ الإمام .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ أَي : اتركوا المعاملةَ مِنْ بيعٍ وشراءٍ وإِجارةٍ وغيرِها ، وقد صرَّحوا بكراهةِ التَّحريمِ في ذلكَ بل بالحرمة .

أَخرجَ عبدُ بنُ حميد ، عن عبدِ الرَّحمـٰنِ بنِ القاسم : أَنَّ القاسمَ دخلَ علىٰ أَهلهِ يومَ الجمعةِ وعندَهُم عطّارٌ يُبايعونَهُ فاشتروا منه ، وخرجَ القاسمُ إلى الجمعةِ فوجدَ الإمامَ قد خرج ، فلمّا رجع . . أَمرَهُم أَنْ يُناقضوا البيع .

وظاهره : حرمةُ البيعِ إِذا نوديَ للصَّلاةِ علىٰ غيرِ مَنْ تجبُ عليهِ أَيضاً .

والظّاهر : حرمةُ البيعِ والشّراءِ حالةَ السَّعي ، وصرَّحَ في « السِّراجِ الوهّاج » بعدمِها إذا لَم يَشغلْهُ ذلك .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ أي : الرِّبحَ علىٰ ما قيل . وقالَ الحسنُ وابنُ المسيّب : المأْمورُ بابتغائهِ هوَ العِلم .

وأَخرجَ ابنُ مردويَه ، عنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قال : لم يأْمر بشيءٍ مِنْ طلبِ الدُّنيا إنَّما هي : عيادةُ مريض ، وحضورُ جنازة ، وزيارةُ أَخٍ في اللهِ تعالىٰ .

قالَ الوالدُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ وغَفرَ لَهُ : والأَمرُ للإِباحةِ على الأَصح ، فيباحُ بعدَ قضاءِ الصَّلاةِ الجلوسُ في المسجد .

وحكى الكرمانيُّ الاتِّفاقَ علىٰ ذلك ، وفيهِ نظر .

وقد حكى السَّرخسيُّ القولَ بأَنَّهُ لِلوجوب ، وقيل : هوَ للنَّدب .

وأَخرجَ أَبو عبيد عن عبدِ اللهِ بنِ بُسرِ الحراني ، قال : رأَيتُ عبدَ اللهِ المازنيَّ صاحبَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إِذا صلَّى الجمعة . . خرجَ فدارَ في السُّوقِ ساعة ، ثمَّ رجعَ إِلى المسجدِ فصلَّىٰ ما شاءَ اللهُ تعالىٰ أَنْ يُصلِّي ، فقيلَ لَه : لأَيِّ شيءٍ تصنعُ هـٰذا ؟ قال : إِنِّي رأَيتُ سيِّدَ المرسَلِينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم هـٰكذا يصنع ، وتلىٰ : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ الآية .

وأَخرجَ ابنُ المنذر عن سعيدِ بنِ جبيرٍ قال : إِذا انصرفتَ يومَ الجمعة . . فاخرجْ إِلىٰ بابِ المسجدِ فساوِمْ بالشَّيءِ وإِنْ لَم تشتره ، ونُقلَ عنهُ القولُ بالنَّدبيَّةِ وهوَ الأَقرب . اهـ

ولنرجع إِلىٰ بيانِ شروطِها ، وأَحكامِها ، وفضائِلها ، والوعيدِ علىٰ ترْكِها ، وما يتعلَّقُ بها وفيها :

فمِنْ ذلك : التَّرغيبُ في قراءةِ سورةِ (الكهفِ) فيها : قالَ المنذريُّ في « التَّرغيبِ والتَّرهيب » : (روى النَّسائيُّ عن أَبي سعيدِ الخدريِّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَة . . أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْن » .

وفي روايةٍ عنِ ابنِ عمر رضي الله عنهما : « يَسْطَعُ لَهُ نُورٌ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ إِلَىٰ عَنَانِ السَّمَاءِ يُضِيءُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَة ، وَغُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْن » .

وكذلكَ وردَ في سورةِ (الدُّخانِ) عن أَبي هريرة رضي الله عنه : « مَنْ قَرَأَ حـٰمٓ ـ الدُّخَان ـ ليلةَ الْجُمُعَة . . غُفِرَ لَه » . وفي رواية : « فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ أَوْ يَوْمَ الْجُمُعَة . . بَنَى اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّة » .

وروى الأَصبهاني : أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ يـٰسٓ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَة . . غُفِرَ لَه »

وقد وردَ في فضلِ (يـٰسٓ) أَحاديثُ كثيرة .

منها : ما رواهُ الإِمامُ أَحمد عن معقلِ بنِ يسارٍ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ

عليهِ وسلَّم قال : « قَلْبُ الْقُرْآنِ يَـس ، لاَ يَقْرَؤُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللهَ وَالدَّارَ الآخِرَةَ إِلاَّ غُفِرَ لَه ، اقْرَؤُوهَا عَلَىٰ مَوْتَاكُم » .

وفي رواية : « مَنْ قَرَأَ يَـس فِي لَيْلَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ . . غُفِرَ لَه ») اهـ

وفي « الجامع الصَّغير » : عن أَنسٍ رضي الله عنه عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام ، قال : « اغْتَسِلُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَوْ كَأْساً بِدِينَار » .

وعن أَبي أُمامة رضي الله عنه : « اِغْتَسِلُوا يَوْمَ الْجُمُعَة ؛ فَإِنَّهُ مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَة ـ أَي : ولَو معَ الجنابةِ ـ فَلَهُ كفّارة مَا بَيْنَ الْجُمُعَة إِلَى الْجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلاَثَةِ أَيَام » وزادَ مسلم : « مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِر » . وعنهُ أَنَّ الغُسلَ يومَ الجمعةِ ليسلُّ الخطايا مِنْ أُصولِ الشَّعرِ استلالاً .

وفي حديث : (كانَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَغتسلُ يومَ الجمعة ، ويومَ الفطر ، ويومَ النَّحر ، ويومَ عرفة) .

روىٰ عمَّار رضي الله عنه : إِنَّ مِنَ الفطرة : اَلمضمضةَ والاستنشاقَ والسِّواك ، وقصَّ الشّاربِ وتقليمَ الأَظفار ، ونتفَ الإِبطِ والاستحدادَ بالحديد ـ أَي : حَلْقَ العانة ـ وغَسْلَ البراجم ، وهيَ العُقَدُ بظهرِ الأَصابع ، والانتضاحَ بالماء ـ أَي : الاستنجاء ـ والاختتان .

وعن عائشة رضي الله عنها ، عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام : « الإِسْلاَمُ نَظِيفٌ فَتَنَظَّفُوا ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ نَظِيف » ولذا رويَ في حديثٍ آخر : « نَظِّفُوا أَفْنِيَتَكُم ، فَإِنَّ الْيَهُودَ لاَ يُنَظِّفُونَ أَفْنِيَتَهُم » .

وقالَ الشَّيخُ عبدُ القادرِ الكيلانيُّ قدَّسَ سرَّهُ في كتابهِ « الغنية » : عنِ ابنِ عمر رضي الله عنهما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنِ اغْتَسَلَ فِي كُلِّ يَوْمِ جُمُعَة . . . أَخرجَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ ذُنُوبه ، ثُمَّ قِيلَ لَه : اسْتَأْنِفِ الْعَمَل » وقال : « مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَل ، وَغَدَا وَابْتَكَر ، وَدَنَا مِنَ الإِمَامِ وَلَمْ يَلْغ . . كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ صِيَامُ سَنَةٍ وَقِيَامُهَا » .

قالَ الشَّيخ : وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ غَسَّل » بالتَّشديد ؛ أَي : غسَّلَ أَهلَه ، كناية عنِ الجماع ، ولهٰذا يُستحبُّ عندَ أَهلِ العِلمِ إِتيانُ الزَّوجةِ في يومِ الجمعة ، ويَفعلونَهُ اتِّباعاً لهٰذا الحديث .

ويَشتغلُ فيهِ بالذِّكرِ والتَّسبيح ، واستماعِ العِلم ، والدُّعاء ، ولا يستحبُّ لَهُ حضورُ القاصِّ .

قالَ الشَّيخ : وكانَ ابنُ عمرَ وغيرُهُ مِنَ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُم يُخرجونَ القُصَّاصَ مِنَ الجامع ، اللَّهُمَّ إِلاَّ أَنْ يكونَ عالماً باللهِ تعالىٰ مِنْ أَهلِ المعرفةِ واليقين ، فيكونُ حضورُ مجلسهِ أَفضلَ مِنْ صلاةِ أَلفِ ركعة .

وإِذا أَتى الجامع . . لا يتخطَّىٰ رقابَ النّاسِ إِلاَّ أَنْ يكونَ إِماماً أَو مؤذِّناً ؛ لِما رويَ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قالَ لرجلٍ رآهُ يتخطَّىٰ رقابَ النّاس : « يَا فُلاَن ؛ مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَنَا الْجُمُعَة ؟ » فقال : أَوَلَم ترني يا رسولَ الله ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « رَأَيْتُكَ تَلَبَّسْتَ وَآذَيْت » أَي : تأَخَّرتَ مِنَ البكور ، وآذيتَ الحضور .

وقد قيل : (إِنَّ مَنْ فعلَ ذلك . . جُعلَ جسراً يومَ القيامةِ علىٰ ظهرِ جهنَّمَ يتخطّاهُ النّاس) .

قالَ الشَّيخ : ولا تمرنَّ بينَ يدي المصلِّي ؛ ففي خبر : « لأَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ رَمَاداً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيِ الْمُصَلِّي » .

ولا يُقيمنَّ أَحداً مِنْ موضعهِ ويجلسَ مكانَه ؛ لِما رويَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لاَ يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيه » وكانَ ابنُ عمرَ رضي الله عنهما إِذا قامَ لَهُ الرَّجلُ مِنْ مجلسهِ . . لَم يَجلسْ فيهِ حتَّىٰ يعودَ إِليه .

وإِنْ رأَىٰ بينَ يديهِ فُرجة . . فهل يَجوزُ لَهُ أَنْ يتخطَّى الرِّقابَ فيَجلس ؟ علىٰ روايتينِ عندَ إِمامِنا أَحمد .

وإِنْ بسطَ لَهُ شيئاً . . فهل لغيرهِ أَنْ يَرفعَهُ ويجلسَ هناك ؟ علىٰ وجهينِ عندَ أَصحابِنا . اهـ

ومِنْ ذلك : الأَحاديثُ الواردةُ في فضلِها :

وردَ في الصِّحاحِ عن أَبي هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَة . . وَقفَتِ الْمَلائِكَةُ عَلَىٰ بَابِ الْمَسْجِدِ يَكْتُبُونَ الأَوَّلَ فالأَوَّل ، وَمَثَلُ الْمُبكرِ كَمَثَلِ الَّذِي يُهْدِي بَدَنَة ، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي بَقَرَة ، ثُمَّ كَبْشا ، ثُمَّ دَجاجَة ، ثُمَّ بَيْضَة ، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَام . . طَوَوْا صُحُفَهُمْ وَيَسْتَمِعُونَ الذِّكْر » .

وعن أَبي هريرةَ رضي الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوء ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَت . . غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ـ وذلكَ لأَنَّ منْ جاءَ بالحسنةِ فلَهُ عشرُ أَمثالِها[1] ـ ومَنْ مَسَّ الْحَصَا . . فَقَدْ لَغَا » .

وعنه رضي الله عنه ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الصَّلَوَاتُ الْخَمْس ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَة، وَرَمَضَانُ إِلَىٰ رَمَضَان . . مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِر » .

وعن أَبي سعيدٍ رضي الله عنه أَنَّهُ سمعَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « خَمْسٌ مَنْ عَمِلَهُنَّ فِي يَوْم . . كَتَبَهُ اللهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّة : مَنْ عَادَ مَرِيضاً ، وَشَهِدَ جَنَازَة ، وَصَامَ يَوْماً ، وَرَاحَ إِلَى الْجُمُعَة ، وَأَعْتَقَ رَقَبَة » .

وعن أَبي أَيوبَ الأَنصاريِّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول : « مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَة ، وَمَسَّ مِنْ طِيبٍ إِنْ كَانَ عِنْدَه ، وَلَبِسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِه ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّىٰ يَأْتِيَ الْمَسْجِدَ فَيَرْكَعَ مَا بَدَا لَهُ وَلَمْ يُؤْذِ أَحَداً ، ثُمَّ أَنْصَتَ حَتَّىٰ يُصَلِّي . . كَانَ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الأُخْرَىٰ » .

ورويَ عن عتيقٍ أَبي بكرٍ الصِّديقِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَة . . كُفِّرَتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ وَخَطَايَاه ، فَإِذَا أَخَذَ فِي الْمَشْي . . كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عِشْرُونَ حَسَنَة ، فَإِذَا انْصَرَفَ مِنَ الصَّلاَة . . أُجِيزَ بِعَمَلِ مِئَتَي سَنَة » .

(١) أي : لأَنَّهم كانوا يُصلُّونَ على الأَرضِ والتُّرابِ والحصا الصِّغار اهـ منه .

وعن أَنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قال : (عُرضَتِ الجُمعةُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : جاءَ جبريلُ عليهِ السّلامُ في كفِّهِ كالمرآةِ البيضاء ، في وسطِها كالنُكتةِ السَّوداء ، فقال : « مَا هَـٰذَا يَا جِبْرِيل ؟ » قال : هـٰذهِ الجمعةُ يعرضُها عليكَ ربُّكَ لتكونَ لكَ عيداً ولقومِكَ مِنْ بعدك ، ولَكُم فيها خير ، تكونُ أَنتَ الأَوَّلَ ويكونُ اليهودُ والنَّصارىٰ مِنْ بعدك) .

وعن أَنسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : « إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ لَيْسَ بِتَارِكٍ أَحَداً مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلاَّ غَفَرَ لَه » .

وعن أَبي موسى الأَشعريِّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « تُحْشَرُ الأَيَّامُ عَلَىٰ هَيْآتِهَا ، وَتُحْشَرُ الْجُمُعَةُ زَهْرَاءَ مُنِيرَة ، أَهْلُهَا يَحُفُّونَ بِهَا كَالْعَرُوسِ تُهْدَىٰ إِلَىٰ خِدْرِهَا ، تُضِيءُ لَهُمْ يَمْشُونَ فِي ضَوْئِهَا ، أَلْوَانُهُمْ كَالثَّلْجِ بيَاضاً ، وَرِيحُهُم كَالْمِسْكِ يَخُوضُونَ فِي جِبَالِ الْكَافُور ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ الثَّقَلاَنِ لاَ يُطْرِقُونَ تَعَجُّباً حَتَّىٰ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ لاَ يُخَالِطُهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ الْمُؤَذِّنُونَ الْمُحْتَسِبُون » .

ومِنها : التَّرهيبُ علىٰ تركِ الجمعةِ مِنْ غيرِ عذرٍ شرعي ، وإِنَّ ذلكَ مِنَ الكبائرِ كما قالَ العلاَّمةُ ابنُ حجرٍ في « الزَّواجر » ، فعنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قالَ لقومٍ يتخلَّفونَ عنِ الجمعة : « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رَجُلاً يُصَلِّي بِالنَّاسِ ثُمَّ أُحَرِّقَ عَلَىٰ رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمُعَةِ بُـيُوتَهُم » رواهُ مسلم .

وعن أُسامة رضي الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ تَرَكَ ثَلاَثَ جُمُعَاتٍ مِنْ غَيْرِ عُذْر . . كُتِبَ مِنَ الْمُنَافِقِين » .

وروي عن جابرٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : خطَبَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاس ؛ تُوبُوا إِلَى اللهِ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا ، وَبَادِرُوا بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا ، وَصِلُوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُم بِكَثْرَةِ ذِكْرِكُمْ لَهُ وَكَثْرَةِ الصَّدَقَةِ فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَة ؛ تُرْزَقُوا وَتُنْصَرُوا وَتُجْبَرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ تَعَالَى افْتَرَضَ عَلَيْكُمُ الْجُمُعَةَ فِي مَقَامِي هَـٰذَا ، فِي يَوْمِيَ هَـٰذَا ، من شَهْرِي هَـٰذَا ، مِن عَامِي هَـٰذَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَة ، فَمَنْ

تَرَكَهَا فِي حَيَاتِي أَوْ بَعْدِيْ وَلَهُ إِمَامٌ عَادِلٌ أَوْ جَائِرٌ اسْتِخْفافاً بِهَا أَوْ جُحُوداً لَهَا . . فَلاَ جَمَعَ اللهُ لَهُ شَمْلَهُ وَلاَ بَارَكَ لَهُ فِي أَمْرِه أَلاَ وَلاَ صَلاَةَ لَه ، وَلاَ زَكَاةَ لَهُ وَلاَ حَجَّ لَهُ وَلاَ صَوْمَ لَهُ وَلاَ بِرَّ لَهُ حَتَّىٰ يَتُوب ، فَمَنْ تَاب . . تَابَ اللهُ عَلَيْه » .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما : مَنْ تركَ الجمعةَ ثلاثَ جمعٍ متواليات . . فقد نبذَ الإسلامَ وراءَ ظهره .

أقول : قد تبيَّنَ للمنصف مِنْ هٰذهِ الآيةِ الكريمةِ والأحاديثِ العظيمةِ خطأُ الإماميّةِ التّاركينَ لِصَلاةِ الجمعةِ في الأمصارِ الإسلاميّة ، فليتَ شِعري كيفَ يكونُ جوابُهم إذا سألهُم عن تركِها عالِمُ الأسرارِ الخفيّة ؟! فإنْ قالوا : يا ربَّنا ؛ عندنا مِنْ شروطِها حضورُ الإمام، وهوَ قد غابَ في السِّردابِ منذُ ألفِ عام . . فالظّاهرُ أنْ يكونَ لَهُمُ الجواب :

إنَّ وجودَهُ ليسَ مشروطاً في آيِ الكتاب ، ومعَ ذا لِمَ أَخذتُم ـ أيُّها العلماء ـ مِنَ النّاسِ أموالاً وأَعلمتموهُم بزعمِكُم أنَّكُم في ذلكَ عنِ الإمامِ وكلاءُ أُمناء! ؟ فالمقتضىٰ أنَّكُم لمّا ادَّعيتُم عنهُ الوكالة . . فاللاَّزمُ أنْ تكونَ عامَّةً في أَخْذِ الدَّراهمِ مِنْ حقِّ الإمامِ وردِّ المظالمِ وصلاةِ الجمعةِ التّامَّة ، ومتىٰ فرَّقتُم بينَ الاثنتين . . فقدْ أرحتُم أنفُسَكُم مِنْ تعبِ الجمعةِ وقبضتُم زيفَ الدِّرهمِ والعين ، ولعبتُمْ بالمسأَلةَ مرَّتين .

فنسأَلُهُ تعالىٰ أَنْ يجعلَنا وإيّاكُم مِنْ خالصي أَهلِ السُّنةِ والجمعةِ والجماعة ، ولا يَجعلَنا وإيّاكُم ممَّنِ اتَّخذَ الهوىٰ بعدَ العِلمِ بضاعة .

ومِنْ ذلك : الأَحكامُ الفقهيَّةُ المتعلِّقةُ بها ، نذكرُها على اختلافِ المذاهبِ سالكينَ الاختصارَ علىٰ كثيرٍ منها ، فقد قالَ في « الميزان » :

اتَّفقوا علىٰ أَنَّ صلاةَ الجمعةِ فرضُ عين ، وغلَّطوا مَنْ قال : هيَ فرضُ كفايةٍ وعلىٰ أَنَّها تجبُ على المقيمِ دونَ المسافر ، إلاَّ في قولِ الزُّهريِّ والنَّخعي : إذا سمعَ النِّداء .

واتَّفقوا علىٰ أَنَّهُم إذا فاتتهُمُ الجمعة . . صَلَّوها ظهراً .

وأَمّا ما اختلفوا فيه ، فمنه : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة : إنّ الأَعمىٰ لا تجبُ عليهِ إلاَّ إذا وَجَدَ قائداً ، خلافاً لأَبي حنيفةَ رحمَهُ الله .

ومنهُ : قولُ الأئِمَّة : إنَّ الجمعةَ لا تجبُ علىٰ صبيٍّ ولا عبدٍ ولا مسافرٍ ولا امرأة ، إلاَّ في روايةٍ عن أحمدَ في العبدِ خاصَّة .

وقالَ داوودُ بنُ عليٍّ الظَّاهري : تجب .

قلت : وإذا صلَّوها هٰؤلاء . . صحَّت .

ومنهُ : قولُ الأئِمَّةِ الثَّلاثةِ : أنَّها تجبُ علىٰ كلِّ مَنْ سمعَ النِّداءَ وهوَ ساكنٌ بموضعٍ خارجٍ عنِ المصرِ خلافاً لأبي حنيفة .

ومنهُ قولُ الأئِمَّةِ الثَّلاثة : إنَّهُ لا تُكرَهُ الجماعةُ في صلاةِ الظُّهرِ في حقِّ مَنْ لَم يُمكنهُ إتيانُ مكانِ الجمعة ، بل قالَ الشَّافعيُّ باستحبابِها ، معَ قولِ أبي حنيفةَ بكراهةِ الجماعةِ فيها .

ومنه : إذا وافقَ يومُ عيدٍ يومَ الجمعة . . فلا تسقطُ الجمعةُ بصلاةِ العيدِ عن أهلِ البلد ، بخلافِ أهلِ القُرىٰ إذا حَضروا فإنَّها تسقطُ عنهُم ، ويجوزُ لَهُم تركُ الجمعةِ والانصرافُ عندَ الشَّافعي ، معَ قولِ أبي حنيفةَ بوجوبِ الجمعةِ علىٰ أهلِ البلدِ والقُرىٰ معاً ، ومعَ قولِ أحمد : يَسقطُ عنِ الجميعِ فرضُ الجمعةِ بصَلاةِ العيدِ ويُصلُّونَ الظُّهر ، ومعَ قولِ عطاء : تَسقطُ الجمعةُ والظُّهرُ معاً في ذلكَ اليوم ، فلا صَلاةَ بعدَ العيدِ إلاَّ العصر .

ومنهُ : قولُ أبي حنيفةَ ومالك : إنَّهُ يجوزُ لمَنْ لزمتْهُ الجمعةُ السَّفرُ قبلَ الزَّوال ، معَ قولِ الشَّافعيِّ وأحمدَ بعدمِ جوازِ ذلكَ إلاَّ أنْ يكونَ سفرَ جهاد[١] .

ومنهُ : قولُ أبي حنيفةَ والشَّافعي : يَحرمُ البيعُ بعدَ الأذانِ الثَّاني لٰكنَّهُ صحيح ، معَ قولِ مالكٍ وأحمد : إنَّهُ لا يصح .

ومنه : قولُ الشَّافعيِّ وأحمدَ بجوازِ الكلامِ حالَ الخطبةِ لمَنْ لا يَسمعُها ولٰكنْ يُستحبُّ الإنصات ، معَ قولِ أبي حنيفةَ بتحريمِ الكلامِ حالَ الخطبةِ علىٰ مَنْ سمعَ ومَنْ لَم يَسمع ، ومعَ قولِ مالك : الإنصاتُ واجبٌ قَرُبَ أمْ بَعُد .

---

(١) أو يدركها في طريقه .

قلت : والمشهورُ أَنَّ مَنْ قال : صَه . . فقد لَغا ، ومَنْ لَغا . . فلا جُمعةَ لَه ، وبهِ يُعلمُ خطأُ كثيرٍ مِنَ النّاس .

ومنهُ : قولُ أَبي حنيفةَ ومالك ، والشَّافعيِّ في القديم : إِنَّهُ يَحرمُ الكلامُ لمَنْ يَسمعُ الخطبةَ حتَّى الخطيب ، إِلاَّ أَنَّ مالكاً أَجازَ الكلامَ لِلخطيبِ خاصَّةً بما فيهِ مصلحةٌ للصَّلاة ؛ كنحوِ زجرِ الدّاخلينَ عن تخطِّي الرِّقاب ، وإِنْ خاطبَ إِنساناً بعينه . . جازَ لذلكَ الإِنسانِ أَنْ يُجيبَه .

وقالَ الشَّافعيُّ في « الأُم » لا يحرمُ عليهِما بل يُكرَه ، وعن أَحمدَ نحوه ، والرّوايةُ المشهورةُ عن أَحمد : أَنَّهُ يَحرمُ على المستمعِ دونَ الخطيب .

ومنهُ : قولُ الشَّافعي : لا تصحُّ الجمعةُ إِلاَّ في أَبنيةٍ يَستوطنُها مَنْ تنعقدُ بهِمُ الجمعةُ مِنْ بلدةٍ أَو قرية ، معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّها لا تصحُّ إِلاَّ في مصرٍ جامعٍ لهُم سلطان .

ومنهُ : قولُ الشَّافعيِّ وأَحمد : إِنَّ الجمعةَ لا تنعقدُ إِلاَّ بأَربعين ، معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّها تنعقدُ بأَربعة ، ومعَ قولِ مالك : إِنَّها تصحُّ بما دونَ الأَربعينَ غيرَ أَنَّها لا تجبُ على الثّلاثةِ والأَربعة ، ومعَ قولِ الأَوزاعيِّ وأَبي يوسف : إِنَّها تنعقدُ بثلاثة ، ومعَ قولِ أَبي ثور : إِنَّها كسائرِ الصَّلوات .

ومنهُ : قولُ الأَئمَّةِ الثَّلاثة : إِنَّها لا تصحُّ إِلاَّ في وقتِ الظُّهر ، معَ قولِ أَحمدَ بصحَّةِ فِعلِها قَبْلَ الزَّوال .

ومنه : اتِّفاقُ الأَئمَّةِ الأَربعةِ علىٰ أَنَّ الخُطبتَينِ قَبْلَ الصَّلاةِ شرطٌ في صحَّةِ انعقادِ الجمعة ، معَ قولِ الحسنِ البصري : هُما سُنَّة .

ومنهُ : قولُ الشَّافعي ، ومالكٍ في أَرجحِ روايتيه : إِنَّهُ لا بدَّ مِنَ الإِتيانِ في خطبةِ الجمعةِ بحمدلةٍ وتصلية ، ووصيَّةٍ بتقوى الله ، وقراءةِ آيةٍ مفهِمة ، والدُّعاءِ لِلمؤمنينَ والمؤمنات .

معَ قولِ أَبي حنيفة ، ومالكٍ في إِحدىٰ روايتيه : إِنَّهُ لَو سبَّحَ ، أَو هلَّل ، أَو قال :

اَلحمدُ للهِ ونزَل. . كَفَاه ، خلافاً لأَبي يوسفَ ومحمَّدٍ فقالا : لا بدَّ مِنْ كلامٍ يُسمَّىٰ خطبةً في العادة .

ومنه : قولُ مالكٍ والشَّافعيِّ بوجوبِ القيامِ على القادرِ فيهما ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ وأَحمدَ بعدمِ وجوبه .

ومنهُ : قولُ الشَّافعيِّ بوجوب الجلوسِ بينَ الخُطبتين ، معَ قولِ غيرِهِ بعدمِ الوجوب .

ومنهُ : قولُ الشَّافعيِّ وأَحمد : يُستحبُّ للخطيبِ إِذا صعدَ المنبرَ أَنْ يُسلِّمَ على الحاضرين ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ ومالك : إِنَّ ذلكَ مكروه .

ومنهُ : قولُ أَبي حنيفة ، ومالكٍ في أَرجحِ روايتيه : لا يجوزُ أَنْ يُصلِّيَ بالنّاسِ في الجمعةِ إلاَّ مَنْ خَطبَ إلاَّ لِعذرٍ فيجوزُ معَ قولِ مالكٍ في الرِّوايةِ الأُخرىٰ : إِنَّهُ لا يُصلِّي إلاَّ مَنْ خَطب ، ومعَ قولِ الشَّافعيِّ في أَرجحِ قولَيهِ بجوازِ ذلك ، وهوَ إِحدى الرِّوايتينِ عن أَحمد .

ومنه : أَنَّ الجنبَ لوِ اغتسلَ بنيَّةِ غسلِ الجنابةِ والجمعةِ معاً . . أَجزأَه ، معَ قولِ مالك : إِنَّهُ لا يُجزئُهُ عن واحدٍ منهُما .

ومنهُ : قولُ الأَئمَّةِ الأَربعة : إِنَّهُ لا يجوزُ تعدُّدُ الجمعةِ في بلدٍ إلاَّ إِذا كثروا وعسرَ اجتماعُهُم في مكانٍ واحد .

قالَ مالك : وإِذا أُقيمت في جوامع . . فالقديمُ أَولىٰ .

وليسَ لِلإمامِ أَبي حنيفةَ في المسألةِ شيء ، ولٰكنْ قالَ أَبو يوسف : إِذا كانَ للبلدِ جانبان . . جازَ فيهِ إِقامةُ جُمعتين ، وإِنْ كانَ لها جانبٌ واحد . . فلا تجوز .

وعبارةُ الإِمامِ أَحمد : وإِذا عظمَ البلدُ وكثرَ أَهله ؛ كبغداد . . جازَ فيهِ جُمعتان ، وإِنْ لَم يكنْ لَهُم حاجةٌ إِلىٰ أَكثرَ مِنْ جُمعة . . لَم يَجُز .

وقالَ الطَّحاوي : يجوزُ تعدُّدُ الجمعةِ في البلدِ الواحدِ بحسبِ الحاجةِ ولو أَكثرَ مِنْ جمعتين .

وقالَ داوود : الجمعةُ كسائرِ الصّلوات ، يجوزُ لأَهلِ البلدِ أَنْ يُصلُّوها في مساجدِهم . اهـ

خاتمة : قالَ الحصكفيُّ في « الدُّرِّ المختار » : وتُؤَدَّىٰ في مصرٍ واحدٍ بمواضعَ كثيرةٍ مطلَقاً ؛ أَي : سواءٌ كانَ المصرُ كبيراً أَو لا ، وسواءٌ فصلَ بينَ جانبيهِ نهرٌ كبير ـ كبغداد ـ أَو لا ، وسواءٌ قُطعَ الجسرُ أَو بقيَ متَّصلاً على المذهبِ وعليهِ الفتوىٰ .

وعلى القولِ المرجوحِ مِنْ عدمِ الجوازِ في أَكثرَ مِنْ موضعين . . فالجمعةُ لمَنْ سَبَقَ وتفسدُ بالمعيَّةِ والاشتباه ، فيُصلِّي بعدَها آخِرَ ظُهر ، وكلُّ ذلكَ خلافُ المذهب .

قالَ في « البحر » : وقد أَفتيتُ مراراً بعدمِ صلاةِ الأَربعِ بعدَها بنيَّةِ آخِرِ ظُهر ، خوف اعتقادِ عدمِ فرضيَّةِ الجمعة ، وهوَ الاحتياطُ في زمانِنا ، وأَمّا مَنْ لا يخافُ عليهِ مفسدةً منها . . فالأَولىٰ أَنْ تكونَ في بيتهِ خفية . اهـ

وقالَ العلاَّمةُ ابنُ عابدين : نقلَ المقدسيُّ عنِ « المحيط » : كلُّ موضعٍ وقعَ الشَّكُّ في كونهِ مصراً . . ينبغي لَهم أَنْ يُصلُّوا بعدَ الجمعةِ أَربعاً بنيَّةِ الظُّهرِ احتياطاً ، حتَّىٰ إِنَّهُ لَو لَم تقعِ الجمعةُ موقعَها يخرجونَ عن عهدةِ فرضِ الوقتِ بأَداءِ الظُّهر ، ومثلُهُ في « الكافي » اهـ باختصار .

فاختَرْ لنَفْسِكَ من هٰذينِ القولَينِ ما يحلو لديك ، وسلامُ اللهِ علينا وعليك .

وليُعلَمْ أَنَّ مِنْ أَعظمِ القُرَبِ يومَ الجمعة : التَّصليةُ والتَّسليمُ علىٰ نبيِّنا وشفيعنا الَّذي هوَ بالمؤمنينَ رؤُوفٌ رحيم ، حتى قالَ كثيرٌ مِنَ العلماء : إِنَّها عليهِ فيهِ أَفضلُ مِنْ قراءةِ القرآنِ العظيم ، والصَّلاةُ عليهِ واجبة ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ .

وروى ابنُ ماجه وغيرُه ، عن أَوسِ بنِ أَوسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَة ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ وَفِيهِ الصَّعْقَة ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاَةِ فِيهِ ؛ فَإِنَّ صَلاَتَكُم مَعْرُوضَةٌ عَلَي » قالوا : وكيفَ تُعرَضُ صَلاتُنا عليكَ وقد أَرمتَ ؛ أَي : بليتَ ؟ فقال : « إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأنبياء » .

وعنِ الحسنِ بنِ عليٍّ بنِ أَبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُما ، أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَي ؛ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ تَبْلُغُنِي » .

وعن عمّارِ بنِ ياسر قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ اللهَ وَكَّلَ بِقَبْرِي مَلَكاً أَعْطَاهُ أَسْمَاعَ الْخَلاَئِق ، فَلاَ يُصَلِّي عَلَيَّ أَحَدٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلاَّ أَبْلَغَنِي بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيه ، هَـٰذَا فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ قَدْ صَلَّىٰ عَلَيْك » .

وعن أَبي أُمامةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاَةِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَة ؛ فَإِنَّ صَلاَةَ أُمَّتِي تُعْرَضُ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمِ جُمُعَة ، فَمَنْ كَانَ أَكْثَرَهُم عَلَيَّ صَلاَة . . كَانَ أَقْرَبَهُم مِنِّي مَنْزِلَة » .

ورویٰ مسلمٌ عن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ وَاحِدَة . . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْراً » .

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُم عَلَيَّ صَلاَة » .

وعن أَنسِ بنِ مالك رضي الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ فِي يَوْمٍ أَلْفَ مَرَّة . . لَمْ يَمُتْ حَتَّىٰ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّة » .

وعنِ الحسينِ بنِ عليٍّ بنِ أَبي طالبٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَن ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَخَطَى الصَّلاَةَ عَلَيَّ . . خَطِیَٔ طَرِيقَ الْجَنَّة » .

وعن عليٍّ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَه : كلُّ دعاءٍ محجوبٌ حتَّىٰ يُصلِّىٰ علىٰ محمَّد .

ورويَ في الحديثِ الصَّحيح : أَنَّهُ قيلَ لَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : كيفَ نُصلِّي عليكَ يا رسولَ الله ؟ قال : « قُولُوا : اَللّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّد ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيم ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيد ، وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّد ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيم ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيد » .

فعليكُم عبادَ اللهِ بإِقامةِ الجمعة ، والصَّلاةِ والسلام علىٰ رسولِ الله ؛ لتنالوا الأَجرَ العظيم ، فما أَشرفَ مَنْ أَكرمَهُ المولى الكريم ، ومَا أَعلىٰ مَنْ مدحَهُ في الكلامِ القديم ، وما أَسعدَ مَنْ خصَّهُ بالتَّشريفِ والتَّكريم ، وما أَقربَ مَنْ أَهَّلَهُ لِلفوزِ والتَّقديم ،

وما أَجلَّ مَنْ أَثنىٰ عليهِ العزيزُ الرَّحيم . . ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ .

نَعموا في الدُّنيا بالإِخلاصِ والطَّاعة ، وفازوا يومَ القيامةِ بالرِّبحِ في البضاعة ، ولَبسوا ثيابَ التُّقىٰ وارتدَوا بالقناعة ، وداوَموا في الدُّنيا على السَّهرِ والمجاعة ، فيا فخرهُم إِذا قامتِ السّاعةُ وقد قُرِّبت لَهُم مطايا التَّكريم . . ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ .

نَعموا في الدُّنيا بالوحدةِ والخلوة ، واعتذروا في الأَسحارِ مِنْ زلَّةٍ وهَفوة ، وحذِروا مِنْ موجباتِ الإِبعادِ والجفوة ، أُولـٰئكَ هُمُ المختارونَ الصَّفوة ، الصِّدقُ قرينُهم والصَّبرُ نَديم . . ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ .

طالما تعبت أَبدانُهم بينَ الجوعِ والسَّهر ، وكفَّت جوارحهُم عنِ اللَّهوِ والأَشَر ، وحَبسوا أَغراضَهُم عنِ الكلامِ والنَّظر ، وانتهَوا عمّا نهاهُم وامتثلوا ما أَمَر ، وتقبَّلوا مفروضاتهِ بالسَّمعِ والبصر ، واستعَدُّوا مِنَ الزّادِ ما يَصلُحُ للسَّفر ، فالخوفُ يُقلقهُم فيمنعهُم قضاءَ الوطَر ، والعَبرةُ تجري والقلبُ قدِ اعتبَر ، فيا حسنهُم في جوفِ اللَّيلِ وقتَ السَّحَر ؛ السِّرُّ صافٍ والحالُ مستقيم . . ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ .

جنَّ الظَّلامُ فَزُمَّت مطاياهُم ، وجاءَ السَّحَرُ فتوفَّرتْ عطاياهُم ، فسبحانَ مَنِ اختارَهُم مِنَ الكلِّ واصطفاهُم ، فليسَ المقصودُ بالمحبَّةِ مِنَ الخلْقِ سواهُم ، أَزعجتهُم عواصفُ المخافة فتداركهُم مِنَ الرَّجاءِ نَسيم . . ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ .

قصورهُم في الجِنانِ عالية ، وعيشتُهم في القصورِ صافية ، وهُم في عفوٍ ممزوجٍ بعافية ، وقطوفُ الأَشجارِ مِنَ القومِ دانية ، وأَقدامهُمْ علىٰ أَرضٍ مِنَ المسكِ ساعية ، وأَبدانُهم مِنَ السُّندسِ والإِستبرقِ كاسية ، والعيشُ لذيذٌ والمُلْكُ عظيم . . ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ .

رضيَ عنهُم جبّارهُم ، وأَشرقَتْ برضاهُ دارهُم ، وارتفعَتْ مِنْ كلِّ أَوجهٍ أَكدارهُم ، وورَّدتْ في الجِنانِ أَشجارهُم ، واطَّردتْ تحتَ القصورِ أَنهارهُم ، فرنَّمتْ على الورَقِ أَطيارهُم ، فالملائكةُ تخصُّهم بالتَّسليم ، والعيونُ تجري مِنْ رحيقٍ وتَسنِيم ، والمَلِكُ قد وصفَهُم في كلامهِ القديم . . ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ .

* * *

المجلس الثالث والعشرون
في الصلاة على الميت وما يتعلق به

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الحيِّ القيوم ، الباقي وغيرُهُ لا يَدوم ، رَفَعَ السَّماءَ مزيَّنةً بالنُّجوم ، وأَمسكَ الأَرضَ بجبالٍ في التُّخوم ، بنىٰ بحكمتهِ هـٰذهِ الجسوم ، ثمَّ أَماتَها ومحا الرُّسوم ، ثمَّ يُنفخُ في الصُّورِ فإذا الهالكُ يَقوم ، فالمؤْمنُ إِلىٰ جَنَّةٍ لذيذةِ المطعومِ والمشموم ، والكافرُ إِلىٰ نارٍ يلقىٰ منها عذابَ السَّموم ، لها سبعةُ أَبواب ، لكلِّ بابٍ منهُم جزءٌ مقسوم .

أَحمدُهُ حمداً يبلغُ أَقصى المروم ، وأُقرُّ بوحدانيَّتِهِ لا كاعتقادِ المحروم ، وأُصلِّي علىٰ رسولهِ محمَّدٍ عَددَ قطراتِ الغيوم ، وعلىٰ أَبي بكرٍ الَّذي ذِكرُهُ لِلمُبغضِ شجاً في الحلقوم ، وعلىٰ عمرَ الَّذي عمَّ بعدلهِ الخصوصَ والعموم ، وعلىٰ عثمانَ التَّقيِّ الشَّهيدِ المظلوم ، وعلىٰ أَخيهِ وابنِ عمِّهِ عليٍّ بابِ مدينةِ العلوم ، وعلىٰ بقيَّةِ الصَّحابةِ الَّذينَ كلٌّ منهُم مأموم .

أَمّا بعد : فنروي بسندِنا إِلى الإِمامِ الهمام أَبي عبدِ الله محمَّدِ بنِ إِسماعيل بن بردزبة ، الجعفيِّ ، البخاري ، فإِنَّهُ قالَ في كتابهِ الصَّحيحِ الحريِّ بالتَّرجيح : بابُ اتِّباعِ الجنائزِ مِنَ الإِيمان : حدَّثنا أَحمدُ بنُ عبدِ اللهِ المنجوفي ، قال : حدَّثنا روح ، قال : حدَّثنا عوفٌ عنِ الحسن ، ومحمَّدٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً وَكَانَ مَعَهُ حَتَّىٰ يُصَلَّىٰ عَلَيْهَا وَيُفْرَغَ مِنْ دَفْنِهَا . فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الأَجْرِ بِقِيرَاطَيْن ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُد ، وَمَنْ صَلَّىٰ عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَن . فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاط » .

فنقولُ ـ وباللهِ تعالى التَّوفيقُ ـ : في هٰذا الحديثِ فوائد :

الفائدةُ الأُولىٰ : الحثُّ على الصَّلاةِ على الميت ، واتّباعِ جنازتهِ وحضورِ دفنه ، قالَ السّفيري : حضَّ الشَّارعُ على التَّواصلِ في الحياةِ بقوله : « صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَك » وحضَّ على التَّواصلِ بعدَ الموتِ بالصَّلاةِ والتَّشييعِ إِلى القبرِ والدُّعاءِ له .

والتَّشييعُ إِلى القبرِ مِنْ حقِّ المسلِمِ على المسلِم ، وقد وردتِ الأَخبارُ ودلَّتِ الآثارُ علىٰ أَنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ يَغفرُ الذُّنوبَ والأَوزارَ لمَنْ تَبعَ جنازةَ المؤمنِ إِلىٰ قبره ، قالَ في « البرزخ » : أَخرجَ ابنُ أَبي الدُّنيا ، عن أَبي عاصمٍ حدِيثاً مرفوعاً : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُتْحَفُ بِهِ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أَنْ يُقَالَ له : أَبْشِر ، فَقَدْ غُفِرَ لِمَنْ تَبِعَ جَنَازَتَك » .

وأَخرجَ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ تعالَىٰ عنهُ : أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « إِنَّ أَوَّلَ تُحْفَةِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يُغْفَرَ لِمَنْ خَرَجَ فِي جَنَازَتِه » .

وأَخرجَ البزَّارُ وغيرُه ، عنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ تعالَىٰ عنهُما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُجَازَىٰ بِهِ الْمُؤْمِنُ بَعْدَ مَوْتِهِ أَنْ يُغْفَرَ لِجَمِيعِ مَنْ تَبِعَه » .

وأَمّا الأَحاديثُ الواردةُ في أَنَّ التَّشييعَ مِنْ حقِّ المسلمِ على المسلمِ فكثيرة ، منها ما في كتابِ « التَّرغيبِ والتَّرهيب » للمنذري ، قال :

روى الإِمامُ أَحمدُ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما : أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِم ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُه » « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا » « وَلِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ مِنَ الْمَعْرُوفِ سِتٌّ : يُشَمِّتُهُ إِذَا عَطَس ، وَيَعُودُهُ إِذَا مَرِض ، وَيَنْصَحُهُ إِذَا غَابَ وَيَشْهَدُهُ وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيَه ، وَيُجِيبُهُ إِذَا دَعَاه ، وَيَتْبَعُهُ إِذَا مَات » وفي رواية : أَنَّ هٰذِهِ السِّتَّ وَاجِبَة ، فَمَنْ تَرَكَ وَاحِدَةً مِنْهَا . فَقَدْ تَرَكَ حَقّاً وَاجِباً .

وروى الإِمَامُ أَحمد عن أَبي سعيدٍ رضيَ اللهُ تعالَىٰ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « عُودُوا الْمَرْضَىٰ ، وَاتَّبِعُوا الْجَنَائِزَ . تُذَكِّرْكُمُ الآخِرَة » .

وممّا حضَّ عليهِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : كثرةُ المصلِّين ، فقد روَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِئَة ، كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَه . . إِلاَّ شُفِّعُوا فِيه » .

وفي روايةِ ابنِ عمر رضي الله عنهما : « مَا مِنْ رَجُلٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ مِئَة . . إِلاَّ غَفَرَ اللهُ تَعَالَىٰ لَه » .

وفي رواية : « أُمَّةٌ مِنَ النَّاس » قالَ بعضُهم : هيَ أَربعون .

وكذلكَ رغَّبَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم في الثَّناءِ على الميتِ إِنْ كانَ أَهلاً ؛ فقد روىٰ عثمانُ بنُ عفّانَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إِذا فرغَ مِنْ دفنِ الميِّت . . وقفَ عليهِ فقال : « اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ ؛ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ » .

وعن أَنسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَشْهَدُ لَهُ أَرْبَعَةُ أَهْلِ أَبْيَاتٍ مِنْ جِيرَانِهِ الأَدْنَيْنَ أَنَّهُم لاَ يَعْلَمُونَ إِلاَّ خَيْراً . . إِلاَّ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : قَدْ قَبِلْتُ عِلْمَكُم فِيه ، وَغَفَرْتُ لَهُ مَا لاَ تَعْلَمُون » .

وروى البزَّارُ عن عامرِ بنِ ربيعةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ وَاللهُ يَعْلَمُ مِنْهُ شَرّاً وَيَقُولُ النَّاسُ خَيْراً ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلاَئِكَتِه : قَدْ قَبِلْتُ شَهَادَةَ عبادِي وَغَفَرْتُ لَهُ عِلْمِي فِيه » .

وروىٰ أَبو داوود عن عبدِ اللهِ بنِ عمر رضي الله عنهما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « اذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُم وَكُفُّوا عَنْ مَسَاوِئِهم » .

الفائدةُ الثّانية : قالَ الشَّيخُ شمسُ الدِّينِ محمَّدُ بنُ عمرَ السّفيريُّ الحلبيُّ في شرحهِ لهٰذا الحديث : إِنَّ القيراطَ الَّذي يحصلُ بالصَّلاةِ على الميتِ احتساباً لوجهِ اللهِ وطلباً لِلثَّوابِ وبحضور دفنهِ اِسمٌ لمقدَّرٍ مِنَ الثَّواب ، يقعُ على القليلِ والكثير ، بيَّنَ في هٰذا الحديثِ أَنَّهُ مثلُ أُحُد .

وفي روايةٍ للحاكم : « الْقِيرَاطُ أَعْظَمُ مِنْ أُحُد » . وفي أُخرىٰ له : « فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُد » .

والمقصودُ مِنْ قولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الأَجْرِ بِقِيرَاطَيْن » أَنَّهُ يَرجعُ بحصَّتينِ مِنْ جنسِ الأَجر .

وأُحُدٌ جبلٌ بجنبِ المدينةِ علىٰ نحوِ مِيلَينِ مِنها ، وإنَّما خصَّهُ بالذِّكرِ لأَنَّهُ أَعظمُ جبالها ، وكانَ يُحبُّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ويقول : « أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّه » .

والَّذي يُستفادُ مِنَ الحديث : أَنَّ مَنْ شَهِدَ جِنازتينِ مِنْ مكانِهما إلى المصلَّىٰ وصلَّىٰ عليهِما صلاةً واحدة ، فإِنْ تعدَّدَ مكانُهما . . حصلَ لَهُ بكلِّ واحدةٍ قيراطٌ بلا شك ، وإِنِ اتَّحدَ مكانُهما ومشىٰ معهُما حتَّىٰ صلَّىٰ عليهِما صلاةً واحدة . . **فالظَّاهرُ** أَنَّهُ يحصلُ لَهُ قيراطٌ بكلِّ ميت ، نظراً إِلى التَّعدُّد .

وذهبَ بعضُ العلماءِ إِلىٰ أَنَّهُ قد يَحصلُ لِلمشيِّعِ أَربعةُ قراريط ؛ لحديث : « مَنْ أُوذِن -أَي : أُخبر- بِجِنَازَةٍ فَأَتَىٰ أَهْلَهَا فَعَزَّاهُم . . كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ قِيرَاطاً ، فَإِنْ شَيَّعَهَا . . كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ قِيرَاطَيْن ، فَإِنْ صَلَّىٰ عَلَيْهَا . . كَتَبَ اللهُ لَهُ ثَلاَثَةَ قَرَارِيط ، فَإِنْ شَهِدَ دَفْنَهَا . . كَتَبَ اللهُ لَهُ أَرْبَعَةَ قَرَارِيط ، الْقِيرَاطُ مِثْلُ أُحُد » . والمعنىٰ : أَنَّ ذلكَ يكونُ في ميزانِ عملهِ يومَ القيامة .

واعلَم : أَنَّ ظاهرَ الحديثِ يدلُّ علىٰ أَنَّ لِمَنْ حضرَ الدَّفنَ أَنْ ينصرفَ بغيرِ إِذنِ أَهلِ الميت ، وحُكي عن مالكٍ عدمُ الانصرافِ إِلاَّ بالإِذن .

الفائدةُ الثَّالثة : اِختلَفوا هلِ المشيُ خلفَ الجنازةِ أَفضلُ أَم أَمامَها ؟

فالإِمامُ الأَعظمُ قال : إِنَّ المشيَ خلفَها أَفضل ؛ لأَنَّها متبوعة ، ففي « صحيحِ البخاري » عنِ البراءِ بنِ عازب : (أَمرَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم باتِّباعِ الجنازة) وعن عليٍّ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَهُ قدِّمها بينَ يديكَ واجعلْهَا نُصبَ عينيك ؛ فإِنَّما هيَ موعظةٌ وتذكرةٌ وعبرة .

إِلاَّ أَنْ يكونَ خلفَها نساءٌ فالمشيُ أَمامَها أَحسن ، ويُكرَهُ خروجهنَّ تحريماً .

وقالَ الأَئِمَّةُ الثّلاثة : المشيُ قُدَّامَها أَفضل ؛ لِمَا روي : (أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم والشَّيخينِ كانوا يمشونَ أَمامَها) ، ولأَنَّهم كالشّافعينَ لها .

قالَ الحصكفيُّ الحنفيُّ في « الدُّرِّ المختار » : وإذا حَمَلَ الجنازة . . وضعَ ندباً مقدَّمَها علىٰ يمينهِ عشرَ خطوات ؛ لحديث : « مَنْ حَمَلَ جَنَازَةً أَرْبَعِينَ خُطْوَة . . كَفَّرَتْ عَنْهُ أَرْبَعِينَ كَبِيرَة » ثمَّ وضعَ مؤَخَّرَها علىٰ يمينهِ كذلك ، ثمَّ مقدَّمَها علىٰ يساره ، ثمَّ مؤَخَّرِها كذلك ، فيقعُ الفراغُ خَلْفَ الجنازةِ فيمشي خلْفَها .

مسائلُ منثورة : استُفيدَ مِنَ الأَحاديثِ المتقدِّمةِ فرضيَّةُ الصَّلاةِ على الميتِ كفاية ، فيأْثمُ أَهلُ البلدةِ جميعهُم بتَرْكِها ، ولذا قيل : إنَّ فَرْضَ الكفايةِ أَفضلُ مِنْ فرضِ العين ؛ لأَنَّ في أَداءِ فرضِ الكفايةِ يَرتفعُ الإِثمُ عن جميعِ النّاس .

ومِنها : أَنَّ اللَّغطَ والكلامَ يُكرهانِ خَلْفَ الجنازة .

ومِنها : أَنَّ الغاسلَ ومَنْ حضرَ إذا رأَوا ما يُكرَهُ ذِكرُهُ مِنْ حالِ الميت . . لَمْ يَجُزْ أَنْ يَذكروهُ إلاَّ إذا كانَ صاحبَ بدعة ؛ لينزجرَ غيرُه .

ومِنها : التَّرغيبُ في تغسيلهِ وتكفينهِ وحفرِ قبره ؛ فقد روى الطَّبرانيُّ وغيرُهُ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « مَنْ حَفَرَ قَبْراً . . بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّة ، وَمَنْ كَفَّنَ مَيْتاً . . كَسَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ حُلَّتَيْنِ لاَ تَقُومُ لَهُمَا الدُّنْيَا ، وَمَنْ كَفَلَ يَتِيماً أَوْ أَرْمَلَة . . أَظَلَّهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي ظِلِّه ، وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّة » .

وعن أَبي ذرٍّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : قال لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « زُرِ الْقُبُورَ تَذْكُرْ بِهَا الآخِرَة ، وَاغْسِلِ الْمَوْتَىٰ فَإِنَّ مُعَالَجَةَ جَسَدٍ خَاوٍ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَة ، وَصَلِّ عَلَى الْجَنَائِزِ لَعَلَّ ذَلِكَ أَنْ يُحْزِنَك ؛ فَإِنَّ الْحَزِينَ فِي ظِلِّ اللهِ يَتَعَرَّضُ لِكُلِّ خَيْر » .

ومِنها : أَنَّ مَنْ رأَىٰ جِنازة . . فلا يَقُمْ فالقيامُ منسوخ ، وليَقُلْ ما رواهُ الطَّبرانيُّ عنِ ابنِ عُمر رضي الله عنهما : « هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُه ، اللَّهُمَّ ؛ زِدْنَا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ، فَإِذَا قَالَ ذَلِك . . كُتِبَ لَهُ عِشْرُونَ حَسَنَة » . وفي رواية : « يَقُول : سُبْحَانَ الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوت » .

ومِنها : كما نقلَهُ السّفيري : أَنَّهُ يُكرَهُ أَنْ تُتبعَ الجنازةُ بنارٍ في مِجمرةٍ أَو غيرِها ، ونقلَ ابنُ المنذرِ وغيرُهُ الإجماعَ عليه ، وكذا يُكرَهُ أَنْ يكونَ عندَ القبرِ مِجمرة .

قلت : ولعلَّ لنا عودةً إِلىٰ هـٰذا البحثِ في الدُّروسِ الآتيةِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ومِنها : أَنَّ تعزيةَ أَهلِ المصيبةِ أَمرٌ مسنون ؛ فقد روى ابنُ ماجه عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَزِّي أَخَاهُ بِمُصِيبَتِهِ إِلاَّ كَسَاهُ اللهُ مِنْ حُلَلِ الْكَرَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَة » .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « مِنْ عَزَّىٰ مُصَاباً فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِه » .

وَالتَّعزيةُ أَنْ يقول : أَعظمَ اللهُ أَجرَك ، وأَحسنَ عزاك ، وغفرَ لميِّتك .

ولا بأْس ـ بل يُستحب ـ اتِّخاذُ طعامٍ لَهُم ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « اصْنَعُوا لآلِ جَعْفَرٍ طَعَاماً ؛ فَقَدْ جَاءَهُمْ مَا يَشْغَلُهُم » لأَنَّهُ بِرٌّ ومعروف .

وليُلِحَّ علىٰ أَهلِ المصيبةِ بالأَكل ؛ لأَنَّ الحزنَ مانعُهم ، ويُكرهُ اتِّخاذُ الضِّيافةِ مِنَ الطَّعامِ مِنْ أَهلِ الميت ؛ لأَنَّهُ شُرعَ في السُّرور .

وفي « البزّازيّة » : ويُكرَهُ اتِّخاذُ الطَّعامِ في اليومِ الأَوَّلِ والثّالث ، وبعدَ الأُسبوع ، ونَقْلُ الطَّعامِ إِلى القبرِ في المواسم ، واتِّخاذُ الدَّعوةِ لقراءةِ القرآنِ مكروه .

والحاصل : أَنَّ اتِّخاذَ الطَّعامِ عندَ قراءةِ القرآنِ لأَجْلِ الأَكلِ مكروه ، وإِنِ اتُّخِذَ طعاماً لِلفقراء . . كانَ حسناً ، قالَ في « المعراج » : وهـٰذهِ الأَفعالُ كلُّها لِلسُّمعةِ والرِّياء ، فيحترزُ عنها ؛ لأَنَّهُم لا يريدونَ بها وجهَ اللهِ تعالىٰ .

ولا بأْسَ بالجلوسِ للتَّعزيةِ للرِّجالِ لا للنِّساءِ قطعاً ، وبزيارةِ القبورِ للرِّجال ، قيل : وللنِّساء ، قالَ الخيرُ الرَّملي : إِنْ كانَ لِتجديدِ الحزنِ والبكاء . . فلا ؛ لحديث : « لَعَنَ اللهُ زَائِرَاتِ الْقُبُور ، وَمَنْ عَلَّقْنَ التَّمَائِمَ وَالْخَرَز » وإِنْ كانَ للاعتبارِ والتَّرحُّم . . فلا بأْسَ إِذا كن عجائز .

قالَ في « الدُّرِّ المختار » : ولا بأْسَ بزيارةِ القبورِ ولو للنِّساء ؛ لحديث : « كُنْتُ نَهَيْتُكُم عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ أَلاَ فَزُورُوهَا » .

وَيقول : السَّلامُ عليكُم دارَ قومٍ مؤمنين ، إنّا إنْ شاءَ اللهُ بِكُم لاَحِقون ، ويقرأُ (يّس) .

وفي الحديث : « مَنْ قَرَأَ (الإِخْلاَصَ) إِحْدَىٰ عَشْرَةَ مَرَّةً ثُمَّ وَهَبَ أَجْرَهَا لِلأَمْوَات . . أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بِعَدَدِ الأَمْوَات ») اهـ

قالَ العلاّمةُ شيخُ مشايخِنا السَّيِّدُ محمَّدُ أَمين بنُ عابدينَ في « حاشيته » : (تندبُ زيارةُ القبور ، وتزارُ في كلِّ أُسبوع ، ونقلَ عن « شرحِ لبابِ المناسك » : أَنَّ الأَفضلَ يومُ الجمعةِ والسَّبتِ والإِثنينِ والخميس ، فقد قالَ محمَّدُ بنُ واسع : اَلموتىٰ يعلمونَ بزوّارِهم يومَ الجمعةِ ويوماً قَبْلَهُ ويوماً بعدَه ، فتحصّلَ أَنَّ يومَ الجمعةِ أفضل .

ومِنها : أَنَّهُ يجبُ على المسلمِ أنْ يعتقدَ سؤَالَ القبر ، قالَ في « الأمالي » :

وَفِـي الأَجْـدَاثِ عَـنْ تَـوْحِيـدِ رَبِّـي سَيُبْلَـىٰ كُـلُّ شَخْـصٍ بِـالسُّـؤَالِ

لحديثِ البخاري عن أَنسٍ رضي الله عنه مرفوعاً ، قال : « الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّىٰ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِم . . أَتَاهُ مَلَكَان ، فَأَقْعَدَاهُ فَيَقُولاَنِ لَه : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَـٰذَا الرَّجُل ؛ مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم ؟ فَيَقُول : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه ، فَيُقَال : انظُرْ إِلَىٰ مَقْعَدِكَ مِنَ النَّار ، أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَداً مِنَ الْجَنَّة » قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « فَيَرَاهُمَا جَمِيعاً ، وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوِ الْمُنَافِقُ فَيَقُول : لاَ أَدْرِي ؛ كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاس ، فَيُقَال : لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ[1] ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْه ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلاَّ الثَّقَلَيْن »[2] .

قالَ الوالدُ عليهِ الرَّحمةُ : وفيهِ ما يدلُ علىٰ عمومهِ المؤمنَ والكافر ، وبهِ قالَ القرطبيُّ وابنُ القيِّم وعبدُ الحقِّ والجمهور ، وقالوا بدخولِ الجنيِّ في العموم .

وقالَ ابنُ عبدِ البرّ في « التّمهيد » : إنَّ الكافرَ لا يُسأَل ، وإنَّما يُسأَلُ المؤمنُ والمنافق .

---

(١) **تليت** : تبعتَ من يدري .

(٢) **الثقلان** : الإنس والجن .

قالَ الحافظُ ابنُ حجر : الرِّواياتُ مجتمعةٌ معنىً علىٰ أَنَّ كلاًّ مِنَ الثَّلاثةِ يُسأَل ، وهل هوَ مِنْ خواص هـٰذهِ الأُمَّةِ أَمْ لا ؟ قولان .

وجزمَ ابنُ عبدِ البَرِّ والتِّرمذيُّ في « النَّوادر » بالاختصاص .

وقالَ ابنُ القيِّم : كلُّ نبيٍّ معَ أُمَّتهِ كذلك .

وتوقَّفَ ابنُ الفاكهانيّ في أَهلِ الفترةِ والمجانينِ والبُلْه .

قالَ الجلال : ومقتضىٰ كلامِ « الرَّوضة » أَنَّهُ لا يُسأَلُ إلاَّ المكلَّفون ؛ أَي : مِنَ الإِنسِ والجن ، وإِلاَّ فالملَكُ وإِنْ عُدَّ مكلَّفاً لا يُسأَلُ كما استظهرَهُ الحافظُ ابنُ حجر .

والحقُّ أَنَّ الأَنبياءَ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يُسأَلون ، بل لا ينبغي أَنْ يكونوا محلَّ خلاف ، وكذا لا يُسأَلُ المرابِطُ والملازِمُ قراءةَ تبارَكَ كلَّ ليلة ، والميتُ ليلةَ الجمعةِ أَو يومَها ، والميتُ بالطّاعون ، والشَّهيدُ إِلىٰ آخرين ؛ لأَحاديثَ خصَّصت أَحاديثَ العموم .

والسُّؤَالُ عنِ العقائدِ فقط ، يقولُ الملَكُ لِلميت : مَنْ ربُّك ، وما دِينك ، وما كنتَ تقولُ في هـٰذا الرَّجلِ الَّذي بُعثَ فيكُم ؟ وفي روايةٍ زيادة : ومَنْ أَبوك ، وما قِبلتُك ؟ وفي أُخرى الاقتصارُ علىٰ بعضِ المذكورات ، وجُمِعَ باختلافِ أَحوالِ المسؤولين ، وبأَنَّ بعضَ الرِّواياتِ اقتصرَ وبعضاً أَتم .

وهوَ لِلرُّوحِ والبدَنِ على الصَّحيح .

وفي حديثِ أَسماءَ أَنَّ العبدَ يُسأَلُ ثلاثاً ، وجزمَ الجلالُ في رسالةٍ مفردةٍ في المسأَلةِ بأَنَّ المؤمنَ يُسأَلُ سبعةَ أَيّام ، والكافرَ أَربعينَ صباحاً .

ووقتُ السّؤَال : أَوَّلُ يومٍ بعدَ تمامِ الدَّفنِ فيمَنْ يُدفَنُ وعندَ انصرافِ النّاس ، ويتولّى السّؤَالَ ملكانِ على المشهور ، وجزمَ الجلالُ بأَنَّهُما يأْتيانِ معاً ولا يتولاّهُ إِلاَّ أَحدُهُما ، وهُما : منكَرٌ ونكير ، لِلمؤمنِ الطّائع وغيرِهِ على الصَّحيح ، وقيل : لِلكافرِ والعاصي ، ولِلطّائع : مبشّرٌ وبشيرٌ ومَعهُما آخرُ يقالُ لَه : ناكور ، قيل : ويجيءُ قبلَهُما مَلَكٌ يقالُ لَه : رومان ، وحديثُهُ قيلَ موضوع ، وقيلَ فيه : لِين .

وثبتَ حضورُ إبليسَ عليهِ اللَّعنةُ في زاويةٍ مِنَ القبر ، يشيرُ إِلىٰ نَفْسهِ عندَ قولِ الملَكِ للميت : مَنْ ربُّك ؟

والحكمةُ في السُّؤَال : هتكُ سترِ المنافق ، ونوعُ تعذيبٍ للكافر ، وتذكرةٌ للمؤمنِ المكلَّف ، ومباهاةٌ بالطِّفلِ إِلىٰ أُمورٍ يَعلمُها اللهُ تعالىٰ .

وذكرَ بعضُ العلماءِ أَنَّ الشُّهداءَ الَّذينَ لا يُسألونَ كثيرون ، ومنهُم : المطعونُ بالرُّمح ، والمطعونُ[1] ، والمبطون[2] ، والنُّفساءُ ، والحرق ، والغرق ، وذاتُ الجنبِ ، والسّلّ ، والهدم ، وسادنُ بيتِ المقدس ؛ أَي : خادمُه ، والقارىءُ في مرضِ موته : (قل هو الله أحد) اهـ

ومِنها : التَّلقين ، قالَ في « الدُّرِّ المختار » : ويُلقَّنُ ندباً ، وقيل : وجوباً ؛ لقولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لَقِّنُوا مَوْتَاكُم لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مُسْلِمٌ يَقُولُهَا عِنْدَ الْمَوْتِ إِلاَّ أَنْجَتْهُ مِنَ النَّارِ بِذِكْرِ الشَّهَادَتَيْنِ عِنْدَ الْمُحْتَضر » أي : يجبُ علىٰ إخوانهِ وأَصدقائهِ أَنْ يُلقِّنوهُ ذلكَ مِنْ غيرِ أَمرهِ بها ؛ لئَلاّ يَضجرَ ـ أي : ويردَّها ـ والعياذُ باللهِ تعالىٰ . ويُندبُ قراءةُ (يٓس) و(الرَّعد) .

ولا يُلقَّنُ بعدَ تلحيده ، وإِنْ فُعِل . . لا يُنهىٰ عنه ، وفي « الجوهرة » أَنَّهُ مشروعٌ عندَ أَهلِ السُّنَّة . وقد رويَ عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَنَّهُ أَمر بالتَّلقينِ بعدَ الدَّفن .

فيقول : يا فلانُ بنَ فلان ، اذكر دِينكَ الَّذي كنتَ عليهِ مِنْ شهادةِ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ محمَّداً رسولُ الله ، وأَنَّ الجنَّةَ حق ، والنَّارَ حق ، وأَنَّ البعثَ حق ، وأَنَّ السَّاعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها ، وأَنَّ اللهَ يبعثُ مَنْ في القبور ، وأَنَّكَ رضيتَ باللهِ ربّاً وبالإِسلامِ دِيناً وبمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم نبيّاً ، وبالقرآنِ إِماماً ، وبالكعبةِ قِبلة ، وبالمؤمنينَ إِخواناً . اهـ مزاداً مِنَ « الحاشية » .

وليُعلَم : أَنَّ العلاَّمةَ ابنَ حَجَرٍ قد عدَّ جملةً ممّا يتعلَّقُ بهـٰذا البحثِ مِنَ الكبائر ،

---

(١) الذي يموت بمرض الطاعون .

(٢) الذي يموت بمرض بطنه ، كالاستسقاء ، ونحوه .

فمنها : كسرُ عظمِ الميتِ والجلوسُ علىٰ قبره ، أخرجَ أبو داوودَ عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام ، أنَّهُ قال : « كَسْرُ عَظْمِ الْمَيِّتِ كَكَسْرِهِ حَيّاً » .

وروى الإمامُ مسلم : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « لأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُم عَلَىٰ جَمْرَةٍ فَتَحْرِقَ ثِيَابَهُ فَتَخْلُصَ إِلَىٰ جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَىٰ قَبْر » . وروى ابنُ ماجه : « لأَنْ أَمْشِيَ عَلَىٰ جَمْرَةٍ أَوْ سَيْف ، أَوْ أَخْصِفَ نَعْلِي بِرِجْلِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمْشِيَ عَلَىٰ قَبْر » .

ومنها : النِّياحةُ وشقُّ الجيوبِ ونحو ذلك ، فعن عمرَ بنِ الخطّابِ رضيَ اللهُ تعالَىٰ عنهُ قال : قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الْمَيِّتُ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْه » . قالَ بعضُ العلماء : أي : إذا أوصىٰ بذلكَ . . يُعذَّب .

وأخرجَ الشَّيخان : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّة » وفي رواية : (بَرِيءَ مِنَ النَّائحةِ ، والحالقةِ لرأسِها عندَ المصيبة) .

روى ابنُ ماجه : « النَّائِحَةُ إِذَا مَاتَتْ وَلَمْ تَتُب . . قَطَعَ اللهُ لَهَا ثِيَاباً مِنْ قطران ، وَدِرْعاً مِنْ لَهَبِ النَّار » والطَّبراني : « إِنَّ هَؤلاء النَّوَائِحَ يُجْعَلْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَفَّيْنِ فِي جَهَنَّم ، صَفٌّ عَنْ يَمِينِهِم ، وَصَفٌّ عَنْ يَسَارِهِم ، فَيَنْبَحْنَ عَلَىٰ أَهْلِ النَّارِ كَمَا تَنْبَحُ الْكِلاَب » .

وعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه : (لعنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم النَّائحةَ والمستمعة) .

ورُوي : أنَّ عمرَ بنَ الخطّابِ رضيَ اللهُ تعالَىٰ عنهُ سَمِعَ صوتَ بكاءِ رجلٍ فدخلَ ومعَهُ غيرُه ، فمالَ عليهِم ضرباً ، حتَّىٰ بلغَ إلى النَّائحةِ فضربَها حتَّىٰ سقطَ خِمارُها ، وقال : اضربْ فإنَّها نائحةٌ ولا حُرمةَ لَها ، إنَّها لا تبكي بشَجْوِكُم ، إنَّها تُهريقُ دموعَها علىٰ أخذِ دراهِمِكُم ، وإنَّها تُؤذي موتاكُم في قبورِهم وأحياءَكُم في دورِهم ؛ لأنَّها تنهىٰ عنِ الصَّبرِ وقد أمرَ اللهُ تعالىٰ به ، وتأمرُ بالجزعِ وقد نهى اللهُ تعالىٰ عنه .

قالَ العلماء : أمّا البكاءُ على الميتِ بلا رَفْعِ أصوات . . فليسَ فيهِ بأس ؛ فقد قالَ

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إنَّ اللهَ لا يُعذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلاَ بِحُزْنِ الْقَلْب ، وَلَـٰكِنْ يُعَذِّبُ بِهَـٰذَا ، وَيَرْحَمُ بِهَـٰذَا » وأشارَ إلىٰ لسانهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم .

وأخرجَ الشَّيخان : أَنَّهُ رُفعَ إليهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ابنٌ لابنتهِ وهوَ في الموت ، ففاضَتْ عيناه ، فقالَ سعد : ما هـٰذا يا رسولَ الله ! ؟ قال : « هَـٰذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي قُلُوبِ عِبَادِه ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاء » .

وروى البخاري : أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم دخلَ على ابنهِ إبراهيمَ وهوَ يَجودُ بنَفْسه ، فجعلَتْ عينا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم تذرفان ، فقالَ لَهُ عبدُ الرَّحمـٰنِ بنُ عوف : وأَنتَ يا رسولَ الله ؟! فقال : « يَا ابْنَ عَوْف ، إِنَّهَا رَحْمَة » ثم أَتبعها بأُخرىٰ ، فقال : « إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ ، وَالْقَلْبَ يَحْزَن ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يُرْضِي رَبَّنَا ، وَإِنَّا لِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُون » .

وليُعلَمْ أَنَّهُ يتأَكَّدُ لمَنِ ابتُليَ بمصيبةٍ بميتٍ أَو غيرهِ ـ وإنْ خفَّتْ ـ أَنْ يُكثرَ مِنْ قوله : إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعون ، اللّهُمَّ ؛ آجِرني في مُصيبتي واخلفْ لي خَيراً مِنها ؛ لخبرِ مسلم : أَنَّ مَنْ قَالَ ذَلِك . . « آجَرَهُ اللهُ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْراً مِنْهَا » ولأَنَّهُ تعالىٰ وعدَ مَنْ قالَ ذلكَ بأَنَّ عَلَيهم صَلواتٌ مِنْ ربِّهم ورحمةٌ وأَنَّهم لَمهتدون ؛ أَي : للتَّرجيع ، أَوِ الجنَّة ، أَوِ الثَّواب .

ورُوي عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَنَّهُ قال : « إِنَّ مَنْ حَمِدَ اللهَ وَاسْتَرْجَعَ عِنْدَ مَوْتِ وَلَدِهِ أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ مَلاَئِكَتَهُ أَنْ يَبْنُوا لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ يُسَمُّونَهُ بَيْتَ الْحَمْد » وفي حديثٍ آخَر : « إِنَّ الْوَلَدَ الصَّغِيرَ إِذَا مَاتَ كَانَ حِصْناً لأَبَوَيْهِ مِنَ النَّار » وفي حديثٍ آخَر : « يَفْتَحُ لَهُمَا بَابَ الْجَنَّة » اهـ

فيا مَنْ يظنُّ أَنَّهُ بالمنىٰ ظافر ، وقد عَلِقَتْ بهِ مِنَ المنونِ أَظافر ، يا مَنْ نقصُهُ على الدَّوامِ وافر ؛ أَينَ زادُك ؟ قُلْ لي يا مسافر .

ويحَك! اذكرِ الغاسلَ ولا تنسَ الحافر ، واعجباً لك ، أَمؤْمنٌ أَنتَ أَمْ كافر ؟! يا ساكنَ الدُّنيا ؛ أَتعمرُ منزلاً لَم يَبْقَ فيهِ معَ المنيَّةِ ساكن ؟!

الْمَـوْتُ شَـيءٌ أَنْـتَ تَعْلَـمُ أَنَّـهُ حَـقٌّ وَأَنْـتَ بِـذِكْـرِهِ مُتَهَـاوِنُ
إِنَّ الْمَنِيَّـةَ لاَ تُـؤَامِـرُ مَـنْ أَتَـتْ فِـي نَفْسِـهِ يَـوْمـاً وَلاَ تَسْتَـأْذِنُ

فانظروا - إخواني - إلى المقابر ، فاللَّبيبُ يرى الآخِر ، فأَيُّ صحيحٍ مِنَ الدُّنيا لَم يَمرض ؟ وأَيُّ بناءٍ شيدَ فلَم يُنقض ؟ يا عجباً لمُصابٍ فيها بالملمَّاتِ انزعج! أَما تعلمُ أَنَّ مَنْ دخلَ دارَ غيرِه. . خَرَج ؟! فتفكَّروا في الرَّاحلِين ، واعتبروا بالسّالفين ، وتأَمَّلُوا بالبصائرِ حالَ الدَّفين ، وتأَهَّبوا فأَنتُم - واللهِ - في إِثرِ الماضين ، أَينَ الأَخلاَّءُ وأَينَ الإِخوان ؟ أَينَ الرُّفقاءُ والأَقرباءُ وأَينَ الأَقران ؟ رَحلوا عنّا إِلىٰ أَعجبِ الأَوطان ، وبَنوا في القلوبِ بيوتَ الأَحزان ، وقد مضتِ الأَعمارُ في الذُّنوب ، وامتلأَتْ عيب القلوبِ بالعيوب ، وما راقبتُم عالِمَ الغيوب ، وأَعظمُ المصائِب : فَقْدُ الطَّبيب ، وأَعظمُ العظائِم : غفلةُ المطلوب ، فهل فيكُم مَنْ يَغسلُ دَرَنَ ذنوبهِ بدَمْعه ؟! هَلْ مِنكُم معتذرٌ مِنْ قبيحِ صُنعِه ؟! .

أَينَ المذكِّرُ حلولَ الموتِ برَبْعِه ؟! أَينَ مَنْ يزرعُ فهـٰذا أَوانُ زَرعِه ؟! تاللهِ لَو حَضَرَتِ القلوب. . لَطابَت ، غيرَ أَنَّها غائبة ، ولَو صَدَقَتِ اليوم. . لقُبلت ، لـٰكنَّها كاذبة ، كيفَ بكم إِذا فازَ الأَبرارُ وخِبتُم ؟! وحضرَ المتَّقونَ وغِبتُم ؟! كم ضيَّعتُمُ الأَوقاتَ النَّفيسةَ ولعبتُم ؟! ولَو سمعتُم وصفَكُم مِنْ غيرِكُم. . لَعِبْتُم .

أَمَا الموتُ عن قليلٍ يأْتيكُم ؟! أَما اللُّحودُ بعدَ أَيّامٍ مثاويكُم ؟! أَما يومُ القيامةِ غداً يجمعكُم ؟! كمْ بارزتُمْ خالِقكُم بذنبٍ وما استحييتُم ؟! كَمْ خُوِّفتُم من العذاب وما ارعويتُم ؟! أَنسيتُم أَنَّ اللهَ يَعلمُ ما أَخفيتُم ؟! فاحذروا مِنَ الدُّنيا ؛ فإِنَّ حُسنَ الدُّنيا زور ، وإِنَّها لتودّعُ من أَوّل ما تزور ، إِنَّما هيَ قنطرةٌ لِلعبور ، وما الحياةُ الدُّنيا إِلاَّ متاعُ الغرور .

اللَّهُمَّ ؛ أَيقظْ قلوبَنا مِنْ رقداتِ الآمال ، وذكِّرنا قُرْبَ الرَّحيلِ ودنو الآجال ، وصبِّرنا علىٰ أَقومِ الأُمورِ وأَشرفِ الخصال ، وثبِّتْ قلوبَنا على الإِيمان ، وتوفَّنا جميعاً على الإِسلام ، ووفِّقنا لصالحِ الأَعمال ، ونجِّنا مِنْ جميعِ الأَهوال ، وآمِنّا مِنَ الفزعِ

الأكبرِ يومَ الرجفِ والزِّلزال ، وبارِكْ لَنا في الأَعمارِ والأَولادِ والأَموال ، ولا تقطعْ مِنّا في الحياةِ والمماتِ صالحَ الأَعمال ، واشفِ بلطفكَ مرضانا ، وارحمْ بفضلِكَ موتانا ، واستُرْ علينا عيوبَنا ، واغفرْ لَنا ذنوبَنا ، وأَصلِحْ شأْنَنا كلَّه ، وارحَمْ كافَّةَ المسلِمينَ والمسلِمات ، برحمتكَ يا أَرحمَ الرّاحمين .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وعلىٰ آلهِ وصحبهِ أَجمعين ، وآخِرُ دعوانا أَنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمِين .

* * *

المجلس الرابع والعشرون
في الاستعداد للموت وما يتعلق بذلك

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي جعلَ الدُّنيا معبرَ اعتبار ، يَفتقرُ ملاَّحُ سفينتِها إِلىٰ حذقٍ واصطبار ، ولَم يَرضَها لأَوليائهِ فبنىٰ لَهم داراً غيرَ هـٰذهِ الدّار ، وبالَغَ في ذمِّها ، ويكفي ما فيها مِنَ الآثامِ والأَكدار ، غيرَ أَنَّهُ زيَّنها بالدُّوَلِ والأَموالِ للمالِكِ والنُّظّار ، فبينا هيَ في صعودِ الزِّيادةِ إِذ صاحبُها إِلى القبرِ في انحدار ، وغربانُ البَيْنِ قامَتْ تندبُ الآثار ، ذلكَ متاعُ الحياةِ الدُّنيا وهلِ المتاعُ إلاَّ عاريةٌ تعار ؟ أَمَا سمعتُم عيوبَ العاجلة ؟! إِذ بينما تجري براكِبِها . . عثرَتْ بهِ أَيَ عثار ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ .

أَحمدُهُ عددَ الرَّملِ في القفار ، وأُقرُّ بوحدانيَّتِهِ أَصحَّ إِقرار ، وأُصلِّي وأُسلِّمُ علىٰ رسولِهِ محمَّدٍ الَّذي مُذْ أَقبل . . وقعَ الكفرُ في إِدبار ، وعلىٰ جليسهِ وأَنيسهِ في الدّارِ والغار ، وعلىٰ عمرَ الَّذي فتحَ بهيبتِهِ الأَقطار ، وعلىٰ عثمانَ قائمِ اللَّيلِ والدُّموعُ غزار ، وعلىٰ عليٍّ معشوقِنا ، وما علىٰ عاشقِ عليٍّ مِنْ عار ، وعلىٰ عمِّهِ العبّاسِ آخذِ البيعةِ له على الأَنصار ، وعلىٰ بقيَّةِ الصَّحابةِ والتّابعينَ الأَخيار .

أَمّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في مُحكَمِ كتابه ، ومبينِ خطابه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ الآية .

فنقولُ ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ : هـٰذا يقولُهُ مَنْ يَسأَلُ الرَّجعةَ لِلملائكةِ الَّذينَ يقبضونَ الأَرواح ، والمعنىٰ : ارجعونِ إِلى الدُّنيا لعلِّي أَعملُ صالحاً فيما تركتُ مِنَ العملِ الَّذي مضىٰ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ ﴾ أَي : لا يرجعُ إِلى الدُّنيا ﴿ إِنَّهَا ﴾ يعني مسألةَ الرَّجعة ﴿ كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾] أَي : هيَ كلامٌ يقولُهُ لا فائدةَ فيهِ ولا نفع .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم ﴾ أَي : أَمامَهم وبينَ أَيديهِم ، فالوراءُ بمعنى القدَّام ﴿ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قالَ الزَّجّاج : البرزخُ في اللُّغة : الحاجز ، وهوَ هٰهنا : ما بينَ موتِ الميتِ وبعثِه .

واعلموا أَنَّهُ جديرٌ بِمَنْ بينَ يديهِ الموتُ أَنْ يُكثِرَ ذِكرَه ، كما قالَ عليهِ الصّلاةُ والسَّلام : « أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّات » وأَنْ يَعدَّ نَفْسَهُ مِنَ الموتىٰ ؛ لأَنَّ كلَّ آتٍ قريب .

قالَ العلاَّمةُ ابنُ الجوزيّ في « التَّبصرة » : ثُمَّ إِنَّ النّاسَ في ذِكرِ الموتِ علىٰ ضربين :

أَحدُهُما : أَهلُ الغفلة ، فمنهُم مَنْ لا يذكرُه ، فإِنْ عَرَضَ لَهُ ذِكرُه . . صرفَ ذلكَ عن قلبه ، ومنهُم مَنْ إِذا عَرَضَ لَهُ ذِكرُه . . حَزِنَ لفراقِ الدُّنيا ونقضِ البنية ، فهٰذانِ داخلانِ في حزبِ الغافلينَ الجاهلين .

والثّاني : أَهلُ اليقظة ، وهُم منقسمونَ إِلىٰ :

خائفٍ منهُ إِمّا بالطَّبع ، وإِمّا لأَنَّهُ لا يرضىٰ عملَه ، وإِمّا لأَنَّهُ بابُ الجزاءِ على الأَعمال ، فإِنَّ آدمَ عليهِ السّلامُ كرهَ الموت ، والخليلَ عليهِ السّلامُ كَرهَ الموت ، وموسىٰ عليهِ السَّلامُ لَطَمَ عينَ ملَكِ الموتِ لكراهيةِ الموت ، وكانَ داوودُ عليهِ السّلامُ إِذا ذكرَ الموتَ والقيامة . . بكىٰ حتّىٰ تنخلعَ أَوصالُه ، فإِذا ذكرَ الرَّحمة . . رجعَتْ إِليهِ نَفْسُه ، وكانَ ابنُ سيرينَ إِذا ذكرَ الموت . . ماتَ كلُّ عضوٍ منهُ علىٰ حدته ، وكانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إِذا ذكرَ الموت . . اضطربت أَوصالُهُ وانتفضَ انتفاضَ الطَّير .

وقد كانَ في الصَّالحينَ مَنْ يغلبُ شوقُهُ إِلىٰ ربِّهِ علىٰ خوفهِ مِنَ الموت ، فيُؤْثرُ الموت ؛ لأَنَّهُ موعدُ لقاءِ الحبيب .

قالَ حذيفةُ عندَ الموت : حبيبٌ جاءَ علىٰ فاقة ، لا أَفلحَ مَنْ ندم .

وفيهِم مَنْ يَكرهُ الموتَ ليُصحِّحَ العمل ، وفيهِم مَنْ تخايلَ شدائدَ الموتِ فقويَ حذره :

فالشِّدَّةُ الأُولىٰ : تقوىٰ في حقِّ الغافلين ، وهي : مفارقةُ المالِ والولد ، وهيَ خفيفةٌ عندَ المتيقِّظينَ لاشتغالِهم بما هوَ أَهم .

والشِّدَّةُ الثّانية : رؤْيةُ الأَعمال ، قالَ أَبو جعفر ، محمَّدُ بنُ علي : ليسَ مِنْ ميِّتٍ إلاَّ مُثِّلَ لَهُ عندَ الموتِ أعمالُهُ الحسنةُ وأَعمالُهُ السّيِّئة ، فيشخصُ إِلىٰ حسناتهِ ويُطرقُ عندَ سيِّئاتِه .

وقالَ مجاهد : ما مِنْ ميِّتٍ إلاّ عُرِضَ عليهِ جلساؤُه ، إِنْ كانوا أَهلَ ذِكرٍ وإِنْ كانوا أَهْلَ لهو .

والشِّدَّةُ الثّالثة : حسراتُ الفوتِ حينَ لا يمكنُ الاستدراك ، وهٰذهِ أَشدُّ شدَّةٍ على المتيقِّظين .

ويقال : إِنَّ الميتَ يقولُ لملَكِ الموت : أَخِّرني يوماً ، فيقول : ذهبتِ الأَيّام ، فيقول : أَخِّرني ساعة ، فيقول : ذهبتِ السّاعات .

قالَ قتادة : والله ، ما يتمنَّىٰ أَنْ يرجعَ إِلىٰ أَهلٍ ولا عشيرة ، ولٰكنْ يتمنَّىٰ أَنْ يرجعَ فيعملَ بطاعةِ الله .

والشِّدَّةُ الرّابعة : معاينةُ ملكِ الموت ، وهيَ حالةٌ عظيمة ، قالَ إِبراهيمُ الخليلُ عليهِ السّلامُ لملكِ الموت : أَرني كيفَ تقبضُ أَرواحَ الكفّار ؟ قال : لا تطيق ، قال : بلىٰ ، قال : فأَعرِض ، فأَعرض ، ثمَّ نظرَ فإِذا هوَ برجلٍ أَسودَ ينالُ رأْسُهُ السَّماء ، يخرجُ مِنْ فيهِ لَهَبُ النَّار ، ليسَ مِنْ شعرةٍ في جسدهِ إِلاَّ في صورةِ رَجُلٍ يَخرجُ مِنْ فيهِ ومسامعهِ لهيبُ النّار ، فغشيَ علىٰ إِبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فلمّا أَفاقَ قال : لَو لَم يَلْقَ الكافرُ مِنَ البلاءِ والحزنِ إِلاّ صورتَك . . لاكتفىٰ ، فأَرني كيفَ تقبضُ أَرواحَ المؤْمنين .

قال : أَعرِض ، فأَعرض ، ثمَّ التفتَ فإِذا برجُلٍ شاب ، أَحسنُ النّاسِ وجهاً

وأَطيبُهم رِيحاً ، في ثيابٍ بِيض . . . كما قدَّمنا هـٰذا في بعضِ الدُّروس .

والشِّدَّةُ الخامسة : أَلمُ الموت ، روي أَنَّ موسىٰ عليهِ السّلامُ لمّا توفِّي . . قيلَ لَه : كيفَ وجدتَ طعمَ الموت ؟ قال : كسفُّودٍ أُدخلَ في جزَّةِ صوفٍ فانسلخ .

وفي « صحيحِ البخاري » مِنْ حديثِ عائشة : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم كانَ يُدخلُ يديهِ في الماءِ فيمسحُ بهِما وجهَه ، ويقول : « لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الله ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ » .

وعن أَبي حسينٍ البرجميّ مرفوعاً ، قال : « احْضُرُوا مَوْتَاكُم وَلَقِّنُوهُم : لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الله ، وَبَشِّرُوهُمْ بِالْجَنَّة ، فَإِنَّ الْحَكِيمَ الْعَلِيمَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ يَتَحَيَّرُ عِنْدَ ذَلِكَ الْمَصْرَع ، وَإِنَّ إِبْلِيس ـ عَدُوَّ الله ـ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعَبْدِ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ عِنْدَ فِرَاقِ الدُّنْيَا وَتَرْكِ الأَحِبَّة ، وَلاَ تَعِظُوهُم ؛ فَإِنَّ الْكَرْبَ شَدِيدٌ وَالأَمْرَ عَظِيم ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَمُعَالَجَةُ مَلَكِ الْمَوْتِ أَشَدُّ مِنْ أَلْفِ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْف ، وَمَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ إِلاَّ وَكُلُّ عِرْقٍ مِنْهُ يَأْلَمُ عَلَىٰ حِدَتِه » .

وقالَ عليُّ بنُ أَبي طالبٍ رضوانُ اللهِ عليه : والَّذي نفسُ ابنِ أَبي طالبٍ بيده ، لأَلفُ ضربةٍ بالسَّيفِ أَهونُ مِنْ موتٍ علىٰ فراش .

وقالَ شدَّادُ بنُ أَوس : لو أَنَّ الميتَ نُشِرَ فأَخبرَ أَهلَ الدُّنيا بأَلمِ الموت . . ما انتفعوا بعيشٍ ولا لذُّوا بنوم .

وقالَ وهب : لَو أَنَّ أَلمَ عِرقٍ مِنْ عروق الميت قُسِّمَ علىٰ أَهلِ الأَرض . . لأَوسعَهُم أَلماً .

وسُئلَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : ما بالُ الميتِ تُنزعُ نَفْسُهُ وهوَ ساكتٌ وابنُ آدمَ يضطربُ مِنَ القرصة ؟ فقال : إِنَّ الملائكةَ توثقُه .

والشِّدَّةُ السّادسة : رؤيةُ المجرمينَ مواضعَهُم مِنَ النّار ، وخوفُ هـٰذا كانَ يُقلقلُ الصّالحينَ عندَ النَّزعِ فينسونَ كلَّ شدَّةٍ في جانبه .

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : ما تخرجُ نفسُ ابنِ آدمَ حتَّىٰ يَعلمَ أَنَّ مصيرَهُ إِلىٰ جنَّةٍ أَم إِلىٰ نار .

وبكىٰ إِبراهيمُ النَّخعيُّ عندَ الموت ، فقيلَ لَه : ما يُبكيك ؟ قال : أَنتظرُ رسلَ ربِّي ، إِمّا إِلى الجنَّةِ وإِمّا إِلى النّار .

والشِّدَّةُ السّابعة ـ أُمُّ الشَّدائد ـ وهي : سوءُ الخاتمة ، أَعاذنا اللهُ تعالىٰ وإِيّاكُم منها ، وأَماتَنا على الإِيمانِ الكاملِ بمنِّهِ وكرمه ، وقد فسَّروها بشيئَين :

أَحدُهُما : أَنْ يغلبَ على القلبِ عند سَكراتِ الموتِ وظهورِ أَحوالهِ إِمّا الشّكُّ وإِمّا الجحود ، فتخرجُ الرُّوحُ في حالةِ غلبةِ تلكَ الآفة ، فيلقى اللهَ تعالىٰ في حزبِ الكفّار ، نعوذُ باللهِ تعالىٰ مِنْ ذلك .

والثّاني : أَنْ يغلبَ على القلبِ حينئذٍ حبُّ الدُّنيا وشهواتِها ، فتخرجُ الرُّوحُ في حالةِ استغراقِ تلكَ الحالة ، فيعمىٰ بذلكَ عن تداركِ زلَّةٍ أَو تأَهُّبٍ لِلقاءِ الحق ، وذلكَ حجابٌ يُوجبُ الطَّردَ عنِ التَّقريبِ بعدَ المماتِ وفي الحشر ؛ لأَنَّ كلَّ ميتٍ يُحشَرُ علىٰ ما ماتَ عليه .

وللهِ تعالىٰ درُّ القائل :

لاَ تَأْمَنِ الْمَوْتَ فِي طَرْفٍ وَلاَ نَفَسٍ	وَلَـوْ تَمَنَّعْـتَ بِـالْحُجَّـابِ وَالْحَـرَسِ
وَاعْلَـمْ بِـأَنَّ سِهَـامَ الْمَـوْتِ نَـافِـذَةٌ	فِـي كُـلِّ مُـدَّرِعٍ مِنَّـا وَمُتَّـرِسِ
مَـا بَـالُ دِينِـكَ تَـرْضَـىٰ أَنْ تُـدَنِّسَـهُ	وَثَوْبُ جِسْمِكَ مَحْفُوظٌ مِنَ الدَّنَسِ
تَرْجُوا النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا	إِنَّ السَّفِينَـةَ لاَ تَجْـرِي عَلَـى الْيَبَـسِ

فاستعدّوا ـ إِخواني ـ لِلمماتِ قَبْلَ الفوات ؛ فقد روىٰ أَنسٌ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً . . اسْتَعْمَلَه » قالوا : وكيفَ يَستعملُه ؟ قال : « يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ مَوْتِه » وعنِ البراءِ بنِ عازبٍ رضيَ اللهُ عنهُ قال : (خرجنا معَ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم في جنازةِ رجلٍ مِنَ الأَنصار ، فانتهينا إِلى القبرِ ولمّا يُلحَد ، فجلسَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وجلَسْنا حولَهُ

وكأَنَّ علىٰ رؤُوسِنا الطَّيرَ وفي يدهِ عودٌ ينكتُ بهِ الأَرض ، فرفعَ رأسَه ، فقال : « اسْتَعِيذُوا باللهِ مِنْ عَذابِ الْقَبْرِ » ـ مرَّتينِ أَو ثلاثاً ـ ثمَّ قال : « إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَة . . نَزَلَ إِلَيْهِ مَلاَئِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْس ، مَعَهُم كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّة ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّة ، حَتَّىٰ يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَر ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِه ، فَيَقُول : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَة ؛ اخْرُجِي إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَان .

قال : فَتَخْرُجُ فتَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنَ السِّقَاء ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا . . لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يَأْخُذُوهَا ، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوط ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ .

قال : فَيَصْعَدُونَ بِهَا ، فَلاَ يَمُرُّونَ بِهَا عَلَىٰ ملإٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِلاَّ قَالُوا : مَا هَـٰذَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ ؟ فَيَقُولُون : فُلاَنُ بنُ فُلاَن ؛ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّىٰ يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَه ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَة ، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْض ؛ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُم وَمِنْهَا أُخْرِجُهُم تَارَةً أُخْرَىٰ .

قال : فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِه ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَان ، فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنِ لَه : مَنْ رَبُّك ؟ فَيَقُول : رَبِّيَ الله ، فَيَقُولاَنِ لَه : مَا دِينُك ؟ فَيَقُولُ : دِينِي الإِسْلاَم ؟ فَيَقُولاَنِ لَه : مَا هَـٰذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُم ؟ فَيَقُول : هُوَ رَسُولُ الله ، فَيَقُولاَنِ لَه : مَا عَمَلُكَ ؟ فَيَقُول : قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْت ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاء : أَنْ صَدَقَ عَبْدِي ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّة ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّة ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّة .

قَال : فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا ، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِه .

قال : وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَاب ، طَيِّبُ الرِّيح ، فَيَقُول : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّك ، هَـٰذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَد ، فَيَقُولُ لَه : مَنْ أَنْتَ ؟ فَوَجْهُكَ الَّذِي يَجِيءُ

بِالْخَيْر ، فَيَقُول : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالح ، فَيَقُول : رَبِّ أَقِمِ السَّاعَة ، حَتَّىٰ أَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِي وَمَالِي .

قَال : وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَة . . نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السماء مَلاَئِكَة سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُوح ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَر ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ يَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِه ، فَيَقُول : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ ؛ اخْرُجِي إِلَىٰ سُخْطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَب .

قال : فَتُفَرَّقُ في جَسَدِه ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُول ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا . . لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوح ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْض ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا ، فَلاَ يَمُرُّونَ بِهَا عَلَىٰ مَلإٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِلاَّ قَالُوا : مَا هَـٰذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ ؟ فَيَقُولُونَ : فُلاَنُ بنُ فُلاَن ؛ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْتَفْتِحُ لَهُ فَلاَ يُفْتَحُ لَهُ .

ثُمَّ قرأَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ .

فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَل : (اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي سِجِّين ، فِي الأَرْضِ السُّفْلَىٰ) ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحاً » . ثُمَّ قرأَ : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ .

فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِه ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَان ، فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنِ لَه : مَنْ رَبُّك ؟ فَيَقُول : هَاهْ هَاه ، لاَ أَدْرِي! فَيَقُولُون : مَا دِينُك ؟ فَيَقُول : هَاهْ هَاه ، لاَ أَدْرِي! فَيَقُولُونَ لَه : مَا هَـٰذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُم ؟ فَيَقُول : هَاهْ هَاه ، لاَ أَدْرِي! فَيُنَادِي مُنَاد : أَنْ كَذَبَ عَبْدِي ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّار ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى النَّار ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا ، وَيَضِيقُ قَبْرُهُ حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ أَضْلاَعُه ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيح ، فَيَقُول : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُك ، هَـٰذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَد ، فَيَقُول :

مَنْ أَنْتَ ؟ فَوَجْهُكَ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّر ؟! فَيَقُول : أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيث ، فَيَقُول : رَبّ لاَ تُقِمِ السَّاعَة » .

وفي « الصَّحيحين » مِنْ حديثِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما عنهُ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال : « إِنَّ أَحَدَكُم إِذَا مَات . . عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِي ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّة . . فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّة ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّار . . فَمِنْ أَهْلِ النَّار ، فَيُقَال : هَـٰذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَة » .

وقالَ كعب : إذا وُضِعَ العبدُ الصّالحُ في قبره . . احتوَشَتْهُ أَعمالُهُ الصّالحة ، فتجيءُ ملائكةُ العذابِ مِنْ قِبَلِ رِجلَيه ، فتقولُ الصّلاة : إليكُم عنهُ فلا سبيلَ لكُم عليه ؛ فقد أَطالَ القيامَ للهِ عزَّ وجل ، فيأْتونَهُ مِنْ قِبَلِ رأْسه ، فيقولُ الصِّيام : لا سبيلَ لكُم عليه ؛ فقد أَطالَ ظمأَهُ للهِ في دارِ الدُّنيا ، فيأْتونَهُ مِنْ قِبَلِ جسده ، فيقولُ الحجُّ والجهاد : إليكُم عنه ؛ فقد أَنصبَ[1] نَفْسَهُ وأَتعبَ بدنَهُ وحجَّ وجاهَدَ للهِ تعالىٰ ، لا سبيلَ لكُم عليه ، فيأْتونَهُ مِنْ قِبَلِ يديه ، فتقولُ الصَّدقة : كفُّوا عن صاحبي ؛ فكَم مِنْ صدقةٍ خرجَتْ مِنْ هاتينِ اليدينِ حتَّىٰ وقعَتْ في يدِ اللهِ عزَّ وجلَّ ابتغاءَ وجهه ، فلا سبيلَ لكُم عليه ، فيقالُ لَه : نَمْ هَنيئاً طِبْتَ حيّاً وميتاً .

قال : ويأْتيهِ ملائكةُ الرَّحمةِ فيُفرشونَهُ فراشاً مِنَ الجنَّةِ ودثاراً مِنَ الجنَّة ، ويفسحُ لَهُ في قبرهِ مدَّ بصره ، ويُؤْتىٰ بقنديلٍ مِنَ الجنَّةِ فيستضيءُ بنورهِ إِلىٰ يومٍ يبعثهُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ قبره . اهـ باختصار .

ولنَذْكرْ مِنَ الكبائرِ الَّتي ذُكرَتْ في « الزّواجر » والأَبحاثَ الفقهيَّةَ المتعلِّقةَ بهـٰذهِ الأَبحاث :

فمنها : كراهةُ لقاءِ اللهِ تعالىٰ : أَخرجَ الشَّيخانِ عن عائشة ، قالت : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله . . أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَه ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله . . كَرِهَ اللهُ لِقَاءَه » فقلت : يا نبيَّ الله ؛ أَمّا كراهةُ الموت . . فكلُّنا نكرهُ الموت ؟ فقال :

---

(١) النَّصب : التَّعب الشديد .

« لَيسَ ذَلِك ، وَلَـٰكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِه . . أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَه ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذابِ اللهِ وَسَخَطِه . . كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَه » وفي أُخرىٰ : « لَيسَ ذَاكَ كَرَاهَة ، وَلَـٰكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَر . . جَاءَهُ الْمُبَشِّرُ مِنَ الله ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ لَقِيَ الله ، فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَه ، وَإِنَّ الْكَافِرَ أَوِ الْفَاجِرَ إِذَا حَضَر . . جَاءَهُ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ مِنَ الشَّر ، فَكَرِهَ لِقَاءَ اللهِ فَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَه » .

والطَّبراني : « اللّهُمّ ؛ مَنْ آمَنَ بِكَ وَشَهِدَ أَنِّي رَسُولُك . . فَحَبِّبْ إِلَيْهِ لِقَاءَك ، وَسَهِّلْ عَلَيْهِ قَضَاءَك ، وَأَقْلِلْ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِكَ وَلَمْ يَشْهَدْ أَنِّي رَسُولُك . . فَلاَ تُحَبِّبْ إِلَيْهِ لِقَاءَك ، وَلاَ تُسَهِّلْ عَلَيْهِ قَضَاءَك ، وَكَثِّرْ لَهُ الدُّنْيَا » .

ومِنها : الفرارُ مِنَ الموتِ والطَّاعون : فقد رويَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « الْفَارُّ مِنَ الطَّاعُونِ كَالْفَارِّ مِنَ الزَّحْف ، وَمَنْ صَبَرَ فِيه . . كَانَ لَهُ أَجْرُ شَهِيد » .

وفي حديثٍ آخَر : « فَنَاءُ أُمَّتِي بِالطَّعْنِ وَالطَّاعُون ، وَهُوَ وَخْزُ أَعْدَائِكُم مِنَ الْجِنّ ، فِي كُلٍّ شَهَادَة » .

ورويَ أَنَّه (لمّا خرجَ عمرُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ إِلى الشّامِ وبلغَ سَرْغَ[1] . . بلغَهُ أَنَّ الوباءَ قد وقعَ بالشّام ، فاستشارَ كبارَ الصَّحابةِ فلَم يَجدوا عندَ أَحدٍ منهُم عِلماً ، حتَّىٰ جاءَ عبدُ الرَّحمـٰنِ بنُ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ فقال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْض . . فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْه ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا . . فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْه » فرجعَ عمر ، فقالَ لَهُ أَبو عبيدة : أَفراراً مِنْ قَدَرِ الله ؟ فقال : لَو غيرُكَ قالَها يا أَبا عبيدة ؛ نَعَم ، نفرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلىٰ قَدَرِ الله) . يعني : أَمرَنا اللهُ بالتَّحرُّزِ مِنَ المهالكِ واستفراغِ الوسعِ في التَّوقِّي مِنَ المكروهات .

وقالَ أَكثرُ المفسِّرينَ في قولهِ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ هيَ قريةٌ قربَ واسط ، وقعَ بها الطّاعونُ فخرجَ عامَّةُ أَهلِها ، وبقيَتْ طائفةٌ لَم يبقَ منهُم إِلاَّ قليلٌ مرضىٰ ، فلمّا ارتفعَ الطّاعون . . رجعَ الهاربونَ سالمين ، فقالَ المرضىٰ : هـٰؤلاءِ أَحزمُ منّا نَجوا ، لَو صنعْنا كما

(١) موضع بين الشام والحجاز .

صنعُوا . . نجونا ، ولئنْ وقعَ ثانياً لنخرجنَّ إِلىٰ أَرضٍ لا وباءَ فيها ، فوقعَ الطَّاعونُ مِنْ قابل ، فهربَ عامَّةُ أَهلِها وهُم بضعٌ وثلاثونَ أَلفاً ، حتَّىٰ نزلوا وادياً فظنُّوا النَّجاةَ فناداهُم مَلَكٌ مِنْ أَسفلِ الوادي وآخَرُ مِنْ أَعلاهُ أَنْ موتوا ، فماتوا جميعاً وبَلِيَتْ أَجسامُهم ، فمرَّ بهِم حزقيلُ وقعَد متفكِّراً متعجِّباً ، فأَوحى اللهُ تعالىٰ إِليه : تريدُ أَنْ أُريكَ آية ؟ قال : نَعَم ، فقيلَ لَه : نادِ : أَيَّتُها العظامُ ؛ إِنَّ اللهَ يأمركِ أَنْ تجتمعي ، فتطايرَ بعضُها إِلىٰ بعضٍ حتَّى التأَمَت ، ثمَّ أَوحى اللهُ تعالىٰ إِليهِ أَنْ ناد : أَيَّتُها العظامُ ؛ إِنَّ اللهَ تعالىٰ يأمركِ أَنْ تكتسي لحماً ودماً ، ثمَّ ناد : إِنَّ اللهَ تعالىٰ يأمركِ أَنْ تقومي ، فقاموا أَحياءً قائلين : سبحانكَ ربَّنا وحدكَ لا إِلـٰهَ إِلاَّ أَنت ، ثمَّ رَجعوا إِلىٰ قومِهم وأَماراتُ الموتىٰ ظاهرةٌ عليهِم في وجوهِهِم وأَبدانهِم إِلىٰ أَنْ ماتوا بَعْدُ متفرِّقينَ بحسبِ آجالِهم .

ومِنها : الوصيَّةُ : روى الشَّيخان : « مَنْ مَاتَ عَلَىٰ وَصِيَّة . . مَاتَ عَلَىٰ سَبِيلٍ وَسُنَّة ، وَمَاتَ عَلَىٰ تُقَىً وَشَهَادَة ، وَمَاتَ مَغْفُوراً لَه » .

وقالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلام : « تَرْكُ الْوَصِيَّةِ عَارٌ فِي الدُّنْيَا وَشَنَارٌ فِي الآخِرَة » .

وروى ابنُ الجوزيِّ في « التَّبصرة » : قالَ أَبو بكرٍ القرشي : إِنَّ رجلاً كانَ يحفرُ القبورَ بالبصرةِ قال : حفرتُ قبراً ووضعتُ رأسي قريباً منه ، فأَتتني امرأَتانِ في منامي ، فقالَتْ إِحداهُما : نشدتكَ اللهَ إِلاَّ صرفتَ عنّا هـٰذهِ المرأَةَ ولم تُجاوِرْنا بها ، فاستيقظتُ فزِعاً ، فإِذا جنازةُ امرأَةٍ قد جِيءَ بها ، فصرفتُهم إِلىٰ غيرِ ذلكَ القبر ، فلمّا كانَ اللَّيلُ إِذا أَنا بالمرأَتينِ في منامي تقولُ لي إِحداهُما : جزاكَ اللهُ خيراً ، صرفتَ عنّا شرّاً طويلاً ، قلت : ما بالُ صاحبتكِ لا تكلِّمُني كما تكلِّميني أَنت ؟ قالَت : إِنَّ هـٰذهِ ماتت عن غيرِ وصيَّة ، وحقٌّ لمَنْ ماتت عن غيرِ وصيَّةٍ أَنْ لا تتكلَّمَ إِلىٰ يومِ القيامة . اهـ

قالَ العلماء : والصَّدقةُ في الحياةِ أَفضل ؛ فقد روي : لأَنْ يتصدَّقَ المرءُ في حياتهِ وصحَّتهِ بدرهمٍ خيرٌ مِنْ أَنْ يتصدَّقَ بمئةِ درهمٍ عندَ موته .

ومِنها : الإِضرارُ في الوصيَّة : ويقعُ علىٰ وجوه ، مِنها : أَنْ يُوصيَ بأَكثرَ مِنَ الثُّلث ، أَو يُقرَّ بكلِّ مالهِ أَو بعضهِ لأَجنبي ، أَو يقرَّ علىٰ نَفْسهِ بدَينٍ لا حقيقةَ لَه ، أَو

بقبض دين لَهُ على الغير ، وبَيعِ شيءٍ بأَرخص ، أَو يوصي بالثُّلثِ لا لوجهِ اللهِ بل لِلإِضرارِ بالورثة .

رویٰ عكرمةُ عنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً فإذا أوصىٰ . . حاف في وصيته ، فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّة » .

وقالَ عليهِ السَّلام : « مَنْ قَطَعَ مِيرَاثاً فَرَضَهُ اللهُ تَعَالَىٰ . . قَطَعَ اللهُ مِيرَاثَهُ فِي الْجَنَّة » .

ومِنَ الإِضرار : أَنْ يوصيَ علىٰ نحوِ أَطفالهِ مَنْ يعلمُ مِنْ حالهِ أَنَّه يأْكلَ مالَهُم أَو يكونَ سبباً لضياعه .

والأَكبرُ مِنْ ذلك : أَنْ يجعلَ القاضي وصيّاً غيرَ أَهل ؛ لقولِهِ عليهِ السّلام : « مَنْ وَلَّىٰ رَجُلاً وَفِي رَعِيَّتِهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْه . . فَقَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَعَامَّةَ الْمُسْلِمِين » اهـ

وأَمَّا المسائلُ الفقهيَّةُ المتعلِّقةُ بالجنائزِ فنذكرُها لكُم على اختلافِ المذاهب ؛ لِتعرفوا الواجبَ والسُّنَّةَ والجائز :

قالَ الشَّعرانيُّ في « الميزان » : أَجمعَ العلماءُ علىٰ أَنَّ الوصيَّةَ مستحبَّةٌ حالَ الصّحَّةِ لِكلِّ مَنْ لَهُ مالٌ أَو عندَهُ لأَحدٍ مال ، وعلىٰ تأَكُّدِها في المرض ، وعلىٰ أَنَّهُ إِذا تُيقِّنَ الموت . . وُجِّهَ الميتُ لِلقِبلة .

واتَّفقوا علىٰ أَنَّ غسلَ الميتِ فرضُ كفاية ، وعلىٰ أَنَّ لِلزَّوجةِ أَنْ تغسِّلَ زوجَها ، وعلىٰ أَنَّ السّقطَ إِذا لَم يَبلغْ أَربعةَ أَشهرٍ لا يُغسَّلُ ولا يُصلَّىٰ عليه ، وعلىٰ أَنَّهُ إِذا استهلَّ وبكىٰ . . يكونُ حكمُهُ حكمَ الكبير ، وعن سعيدِ بنِ جبيرٍ أَنَّهُ لا يُصلَّىٰ على الصَّبيِّ ما لَم يَبلغ .

وأَجمعوا علىٰ أَنَّهُ إِذا ماتَ غيرَ مختون . . لا يُختَن ، وعلىٰ أَنَّ الشَّهيدَ الَّذي ماتَ في قتالِ الكفّارِ لا يُغسّل ، وعلىٰ أَنَّ النُّفساءَ تُغسَّلُ ويُصلَّىٰ عليها .

واتَّفَقوا علىٰ أَنَّ الواجبَ مِنَ الغسلِ ما تحصلُ بِهِ الطَّهارة ، وأَنْ يكونَ الغسلُ وتراً ، وأَنْ يكونَ ندباً بسِدْرٍ وفي الأَخيرةِ كافور ، وعلىٰ أَنَّ التَّكفينَ مقدَّمٌ على الدَّينِ والورثة .

واتَّفَقوا علىٰ أَنَّ المحرمَ لا يُطيَّبُ ولا يُلبَسُ المخيطَ ولا يُخمَّرُ رأْسُه ، إلاَّ في روايةٍ لأَبي حنيفةَ أَنَّ إِحرامَهُ يبطلُ بموته ، فيُفعلُ بِهِ ما يُفعلُ بجميعِ الموتىٰ .

واتَّفَقوا علىٰ أَنَّ تكبيراتِ الجنازةِ أَربع ، وعلىٰ أَنَّ قاتلَ نَفْسهِ يُصلَّىٰ عليهِ ، وإِنَّما الخلافُ في صَلاةِ الإمامِ عليه ؛ يعني : الأَعظم .

واتَّفَقوا علىٰ أَنَّهُ لا يجوزُ حفرُ قبرِ الميتِ ليُدفنَ آخَرُ إلاَّ إِذا مضىٰ زمانٌ يَبلىٰ في مِثله .

واتَّفَقوا علىٰ أَنَّ الدَّفنَ في التَّابوتِ لا يُستحب .

وأَجمَعوا على استحبابِ اللَّبِنِ والقصبِ في القبر ، وعلىٰ كراهةِ الآجُرِّ والخشب .

واتَّفَقوا علىٰ أَنَّ السُّنَّةَ اللَّحد ، وأَنَّ الشَّقَّ ليسَ بسُنَّة .

واتَّفَقوا علىٰ أَنَّ الاستغفارَ لِلميتِ والدُّعاءَ والصَّدقةَ والعتقَ والحجَّ عنهُ يَنفعُه .

واتَّفَقوا علىٰ أَنَّ مَنْ دُفنَ بغيرِ صَلاةٍ عليه. . يُصلَّىٰ علىٰ قبره ، وعلىٰ عدمِ كراهةِ الدَّفنِ ليلاً معَ قولِ الحسنِ البصريِّ بكراهته ، واللهُ تعالىٰ أَعلم .

وأَمّا ما اختلَفوا فيه :

فمِنْ ذلك : أَنَّ الأَولىٰ عندَ الشَّافعي : أَنْ يكونَ غسلُ الميتِ تحتَ السَّماء ، وقيل : الأَولىٰ أَنْ يكونَ تحتَ سقف .

ومِنْ ذلك : قولُ الأَئِمَّة : إِنَّ غسلَ الميتِ بالماءِ الباردِ أَولىٰ إلاَّ لضرورة ؛ كبردٍ شديدٍ ووسخ ، معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّ الماءَ المسخَّنَ أَولىٰ بكلِّ حال ، ولعلَّ وجهَ الأَوّل : التَّفاؤُلُ بالنَّعيم ، بقرينةِ نهيهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم عنِ اتِّباعِ الجنازةِ بنار .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثة : للزَّوجِ أَنْ يُغسِّلَ زوجتَه ، خلافاً لأَبي حنيفة ، وإِذا ماتتِ امرأَةٌ لا زوجَ لَها ولا غاسل. . يُمِّمَتْ عندَ أَبي حنيفةَ ومالكٍ وعلى الرّاجحِ مِنْ مذهبِ

الشَّافعيِّ وأَحمد ، والرِّوايةُ الأُخرىٰ عنهُما : أَنَّ الغاسلَ يَلفُّ علىٰ يديهِ خرقةً ويُغسِّلُها .

وقالَ الأَوزاعي : تُدفَنُ مِنْ غيرِ غسلٍ ولا تيمُّم .

ومِنْ ذلك : قولُ الثلاثة : إِنهُ يجوزُ للمسلمِ تغسيلُ قريبِهِ الكافر ، خلافاً لمالك .

ومنْ ذلكَ : قولُ الثلاثة : إنه يُستحبُّ للغاسلِ أَن يُوضِّيءَ الميتَ كالحي ، ويسوِّكَ أَسنانَهُ ويُدخلَ أُصبُعيهِ في منخريهِ ويَغسلَهُما ، معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّ ذلكَ لا يُستحب .

وكذلكَ قالوا باستحبابِ ضَفْرِ شعرِ المرأَةِ ثلاثَ ضفائرَ ثمَّ تُلقىٰ خلفَها إِذا غُسِّلَت ، معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّ الشَّعرَ يُترَكُ علىٰ حالهِ مِنْ غيرِ ضَفْر .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ والشَّافعي : إِنَّ الحاملَ إِذا ماتت وفي بطنِها جنينٌ حي . . يُشقُّ بطنُها ، معَ قولِ مالكٍ في إِحدىٰ روايتيهِ وأَحمدَ إِنَّهُ لا يُشق .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفة ، وأَحمدَ في إِحدىٰ روايتيهِ إِنَّهُ يُصلَّىٰ على الشَّهيد ، معَ قولِ مالكٍ والشَّافعيِّ إِنَّهُ لا يُصلَّىٰ عليه ؛ لاستغنائهِ عن شافع .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعي : إِنَّ الصَّلاةَ لا تُكرَهُ في شيءٍ مِنَ الأَوقاتِ المنهيِّ عنِ الصَّلاةِ فيها ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ وأَحمد : إِنَّها تُكرَهُ فيها ، ومعَ قولِ مالك : إِنَّها تُكرَهُ عندَ طلوعِ الشَّمسِ وعندَ غروبِها فقط .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعيِّ وأَحمدَ بعدمِ كراهةِ الصَّلاةِ على الميتِ في المسجد ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ ومالكٍ بكراهةِ ذلك[1] .

ومِنْ ذلك : قولُ الأَئمَّةِ الأَربعة : إِنَّ الطَّهارةَ شرطٌ في صحَّةِ الصَّلاةِ عليه ، معَ قولِ الشَّعبيِّ ومحمَّدِ بنِ جريرٍ الطَّبري : إِنَّها تجوزُ بغيرِ طهارة .

أَقول : وعندَ الحنفيَّةِ يجوزُ التَّيمُّمُ وإِنْ وُجِدَ الماءُ إِذا لَم يُنتظَر .

---

(١) أَي : لخوفِ نزولِ شيءٍ منهُ في المسجد اهـ منه .

ومِنْ ذلك : قول أَبي حنيفةَ ومالك : إِنَّهُ لا يَرفعُ يديهِ في التَّكبيراتِ إلاَّ في الأُولىٰ ، معَ قولِ الشّافعي : يَرفعُ في الجميع .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعيِّ وأَحمد : إِنَّ قراءةَ الفاتحةِ بعدَ التَّكبيرةِ الأُولىٰ فرض ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ ومالك : إِنَّهُ لا يُقرأُ فيها شيءٌ مِنَ القرآن .

قلت : وعن بعضِ الحنفيَّةِ أَنَّهُ يَقرؤُها خروجاً مِنَ الخلاف ، وكذا يَقرؤُها خَلْفَ الإِمامِ في سائرِ الصَّلواتِ لـكنَّ ذلكَ خلافُ المفتىٰ به .

ومِنْ ذلك : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة : إِنَّهُ يُسلِّمُ مِنْ صَلاةِ الجنازةِ تسليمتين ، معَ قولِ أَحمدَ وهوَ المشهورُ عن مالك : إِنَّهُ يُسلِّمُ واحدةً عن يمينه .

ومِنْ ذلك : قولُ أَحمد : إِنَّ مَنْ فاتتهُ الصَّلاةُ على الميتِ يُصلِّي علىٰ قبرِهِ إِلىٰ شهر ، وهوَ مذهبُ جماعةٍ مِنَ الشَّافعيَّة ، معَ قولِ بعضِهِم : إِنَّهُ يُصلَّىٰ عليهِ ما لَم يَبْل ، وقيل : أَبداً ، وشرطَ أَبو حنيفةَ ومالكٌ في صحَّةِ الصَّلاةِ على القبرِ أَنْ يكونَ قد دُفِنَ قَبْلَ أَنْ يُصلَّىٰ عليه .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعيِّ وأَحمدَ بصحَّةِ الصَّلاةِ على الغائب ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ ومالكٍ بعدمِ صحَّتها .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعيِّ وأَحمد : إِذا وُجِدَ عضوُ ميِّت . . غُسِّلَ وصُلِّيَ عليه ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ ومالك : إِنَّهُ لا يُصلَّىٰ إِلاَّ إِنْ وُجِدَ أَكثرُ الميت .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ والشَّافعي : إِنَّ الإِمامَ يُصلِّي علىٰ قاتلِ نَفْسه ، معَ قولِ مالكٍ وأَحمد : مَنْ قتلَ نَفْسَهُ أَو قُتِلَ في حَد . . فإِنَّ الإِمامَ لا يُصلِّي عليه ، ومعَ قولِ أَحمد : لا يُصلِّي الإِمامُ على الغالِّ[1] ولا علىٰ قاتلِ نَفْسه ، ومعَ قولِ الزُّهري : لا يُصلَّىٰ علىٰ مَنْ قُتِلَ في رَجْمٍ أَو قِصاص .

وكَرِهَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ الصَّلاةَ علىٰ مَنْ قَتَلَ نَفْسَه ، وقالَ الأَوزاعي : لا يُصلَّىٰ عليه .

---

(١) أَي : الآخذِ السّارقِ مِنَ الغنيمة اهـ منه .

وعن قتادةَ أنَّهُ لا يُصلَّىٰ علىٰ ولدِ الزِّنا ، وعنِ الحسنِ أنَّهُ لا يُصلَّىٰ على النُّفساء .

ومِنْ ذلك : قولُ مالك والشَّافعيِّ في أَرجحِ قولَيْه : إِنَّ المقتولَ مِنْ أَهلِ العدلِ في قتالِ البُغاةِ غيرُ شهيد ، فيُغسَّلُ ويُصلَّىٰ عليه ، وعن أَحمدَ روايتان .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثة : إِنَّ مَنْ قُتلَ ظلماً في غيرِ حربٍ . . يُغسَّلُ ويُصلَّىٰ عليه ، معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّهُ إِنْ قُتلَ بحديدة . . لَم يُغسَّلْ وإِن قُتل بمثقل . . غُسِّلَ وصُلِّيَ عليه .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثة : إِنَّ مَنْ ماتَ بالبحرِ ولَم يَكنْ بقربهِ ساحل . . جُعلَ بينَ لوحينِ وأُلقيَ في البحرِ إِنْ كانَ في السَّاحلِ مسلِمون ، وإِنْ كانَ فيهِ كفَّار . . ثُقِّلَ وأُلقيَ في البحرِ ليُجعلَ بقراره ، معَ قولِ أَحمد : إِنَّهُ يُثقَّلُ ويُرمىٰ في البحرِ بكلِّ حالٍ إِذا تعذَّرَ دفنُه .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثة : إِنَّ التَّسنيمَ لِلقبرِ أَولىٰ ؛ لأَنَّ التَّسطيحَ قد صارَ مِنْ شعارِ غيرِ أَهلِ السُّنَّة ، معَ قولِ الشَّافعيِّ في أَرجحِ القولين : إِنَّ التَّسطيحَ أَولىٰ .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثةِ بعدمِ كراهةِ المشي بالنِّعالِ بينَ القبور ، معَ قولِ أَحمدَ بكراهته .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفة : إِنَّ التَّعزيةَ سُنَّةٌ قَبْلَ الدَّفنِ لا بعدَه ، وبهِ قالَ الثَّوري ، معَ قولِ الشَّافعيِّ وأَحمد : إِنَّها تُسنُّ قَبْلَهُ وبعدَهُ إِلىٰ ثلاثةِ أَيَّام .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثةِ بكراهةِ الجلوسِ لِلتَّعزية ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ بعدمِ الكراهة .

ومِنْ ذلك : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة : إِنَّ القبرَ لا يُبنىٰ ولا يُجصَّص ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ بجوازِ ذلك .

ومِنْ ذلك : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثةِ باستحبابِ القراءةِ للقُرآنِ عندَ القبر ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ بكراهتِها . اهـ باختصار .

فيا أَيُّها الإِخوان ؛ تذكَّرُوا ما لا يَنساكُم ، وتَفكَّروا فيما لا بدَّ أَنْ يَلقاكُم ، واعمروا

القبور فإنَّها مأواكُم ، واحذروا الغرورَ فكَم غرَّتْ دُنياكُم ، واعتبروا فقد وعظكُم مَنْ سَوَّاكُم بسِواكُم .

شَغَلَتْنَا الدُّنْيَا بِهَاكَ وَهَاتِ ... وَنَسِينَا مَصَارِعَ الأَمْوَاتِ

نَحْنُ مَوْتَىٰ وَإِنَّمَا بَيْنَ مَنْ يَمْـ ... ـضِي وَيَبْقَىٰ تَفَاوُتُ الأَوْقَاتِ

إخواني ؛ أَكثرُ أَهلِ القبورِ في تجاراتِهم قد خَسِروا ، فمُرُّوا على القبورِ واعتَبِروا ، وتفكَّروا في أَحوالِهم وانتظِروا ، يتمنّونَ العَوْد ، وهيهات! ويَسأَلونَ الرُّجوعَ وقد فات ، فيا مطلَقاً . . اذكرْ قيودَهُم ، ويا متحرِّكاً . . قد عرفتَ همودهُم ، خلِّصْ نَفْسَكَ مِنْ أَسرِ الذُّنوب ، وتأَهَّب ؛ فإنَّكَ بالغيبةِ والنَّميمةِ مطلوب ، وتذكَّرْ بقلبكَ يومَ تقلُّبِ القلوب ، قَبْلَ أَنْ يُمسَكَ اللِّسان ، ويتحيَّرَ الإنسان ، ويَزولَ العرفان ، وتُنشرَ الأَكفان ، وتُزارَ الحفرة ، وتَطولَ السَّفرة ، ويأْتي منكَرٌ ونكير ، ويَقوى الشَّهيقُ والزَّفير ، ويَلحقَ المذنبُ سلَفَه ، ويَنسىٰ مَنْ خلفَه ، ويُلقىٰ هنالكَ أَسيراً إِلىٰ أَنْ يقومَ عُرياناً حسيراً ، فحينئذٍ تنتثرُ الكواكب ، وتنتشرُ المصائب ، وتنسدُّ المذاهب ، وتتبيَّنُ العجائب ، وتسودُّ وجوه ، ويَفوتُ العاصيَ ما يرجوه ، وتَثقلُ على الظُّهورِ الأَوزار ، ويُؤْخَذُ الكتابُ باليمينِ أَو باليسار ، وليسَ هنالكَ لأَحدٍ قرار ، إلاَّ الجنَّة أَوِ النَّار .

فاعتَبروا بالسّابقين مِنَ الآباءِ والأُمّهاتِ والأَقربين ، وتفكَّروا في الرّاحلِين ، فلعلَّ القلبَ القاسيَ يَلين ، وابكوا علىٰ أَنْفُسِكُم قَبْلَ الحلولِ في رَمْسِكُم ، فواعجباً لمَنْ رأَىٰ فِعْلَ الموتِ بصحبه ، وسكنَ الإيمانُ في قلبه ، كيفَ باتَ غافلاً علىٰ جَنْبه ، وذاهلاً عن عَيْبه ، وناسياً جزاءَهُ علىٰ جُرْمِهِ وذَنْبه ، ومُعرِضاً عن ربِّهِ إِلىٰ أَربه ؟! وكأَنّي بهِ قد سُقيَ كأسَ حِمامٍ يَضجُّ مِنْ شُربه ، وأَفردَهُ الموتُ عن أَهلهِ وسِرْبه ، ونقلَهُ إِلىٰ قبرٍ بعيدٍ عن خليلهِ وصَحْبه ، فياذا اللُّبِّ جُزْ علىٰ قبره ، واتَّعِظْ به .

فيا أَيُّها النّاس ؛ لا دافعَ عنكُم مِنَ الموتِ يَقيكُم ، وإِنَّهُ الَّذي في هُوَّةِ الهلاكِ يُلقيكُم ، وإِنَّما تندمونَ إِذا غصَّتْ تراقيكُم ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ .

يَا لها مِنْ صرعةٍ عجيبة ، ومصيبةٍ فوقَ كلِّ مصيبة! مرَّتْ سهامُ الموتِ لكُم مصيبة ، فهل يَردُّها توقِّيكُم ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ .

أَقبلَ التَّلفُ وحد ، فردمَ بابَ السَّلامةِ وسَد ، وجاوزَ الأَلَمُ الحد ، وما ردَّ راقيكُم بلغَ الرُّوح التَّراقي ، وبادرَ بالجدِّ الرَّاقي ، ووقعَ اليأْسُ مِنَ التَّلاقي ، فتحيَّرَ السَّاقي الَّذي يَسقيكُم ، سبحانَ مَنْ حَكَمَ وقضىٰ بسُكنى الثَّرىٰ بعدَ الفضا ، ليسَ لَنا إِلاَّ الرِّضا ، كما ذهبَ مَنْ مضىٰ يذهبُ باقيكُم ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ .

اَللّهُمَّ يا حَيُّ يا قيُّوم ؛ برحمتكَ نستغيث .

اللّهُمَّ ؛ لا تكِلْنا إِلىٰ أَنفُسِنا طرفةَ عين ، وأَصلِحْ لنا شأْنَنا كُلَّه .

اَللّهُمَّ ؛ إِنّا نَسأَلُكَ العفوَ والعافية ، في الدِّينِ والدُّنيا والآخرة .

اَللّهُمَّ ؛ استرنا بسترِكَ الجميلِ في الدّارَين .

اَللّهُمَّ ؛ اجعل قبورَ آبائِنا وأُمّهاتِنا وأَقارِبنا مِنْ رياضِ جنَّتكَ ومحلّ مغفرتك ، وآتِنا في الدُّنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النّار ، وأَلحِقْنا بأَوليائكَ الأَخيار ، وأَسكنَّا معهُم بشفاعةِ نبيِّكَ الجنَّةَ دارَ القرار .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وآلهِ وأَصحابهِ السَّادةِ الأَبرار .

* * *

المجلس الخامس والعشرون
في الظهار والإيلاء والطلاق

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي لا مانعَ لِمَا وَهَب ، ولا واهبَ لِما سَلَب ، طاعتُهُ أَفضلُ مُكتَسَب ، وتقواهُ لِلمتَّقي أَعلا نَسَب ، والمعاصي مِنْ خوفهِ تُجتنَب ، والمصائبُ في جَنْبِ أَجرهِ تُحتَسَب ، والعطايا مِنْ فضلهِ تُرتَقَب ، وهوَ المرجوُّ لِكشفِ الكُرَب ، هيَّأَ قلوبَ أَحبّائهِ لِلإِيمانِ وكَتَب ، فتقرَّبوا إِليهِ بالتَّقوىٰ والورعِ والأَدب ، وحَلَّىٰ لَهُم في طاعتهِ النَّصَب ، ولَم يَجِدوا لحُبِّهِ مِنْ تَعَب ، وقاموا بأَعباءِ التَّكلف علىٰ أَكملِ الأَدب ، وقدَّرَ الشَّقاءَ للأَشقياءِ فغلب ، وأَعرضَ عنهُم فوقعوا في العَطَب ، لا يَعرفونَ السَّبب! ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ ﴾ .

أَحمدُهُ إِذ وَهَبَ خيراً مِنَ الذَّهب ، وأَشهدُ بوحدانيَّتِهِ شهادةً تقضي ما وَجَب ، وأَنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ الَّذي اختارَهُ وانتخَب ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ صاحبِهِ أَبي بكرٍ الصِّدِّيق العالي علىٰ أَعلى الرُّتَب ، اَلَّذي كانَ ليلةَ الغارِ بينَ يديهِ خوفَ الرَّصَدِ وخَلْفَهُ خَوْفَ الطَّلَب ، وعلىٰ عمرَ الفاروقِ الَّذي لَم يعلقِ الشَّيطانُ منهُ بسَبَب[1] ، وكانَ يَفرقُ مِنْ حِسِّهِ فيطلبُ لَهُ طريقاً لِلهَرَب ، وعلىٰ عثمانَ ذي النُّورَينِ الزَّكيِّ العِرْضِ النَّقيِّ الحَسَب ، وعلىٰ عليِّ بنِ أَبي طالبِ الوافي وحدَهُ لجميعِ أَبطالِ العرب ، الرَّاغبِ في الأُخرىٰ فما لَهُ في الدُّنيا مِنْ أَرَب[2] ، وعلىٰ عمِّهِ العبَّاسِ أَقربِ الخَلْقِ في النَّسَب ، ثمَّ اكتسبَ بالدِّينِ شرفاً فنِعْمَ المُكتَسَب .

---

(١) السبب : الصلة .

(٢) الأرب : الغاية والهدف .

أمّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في مُحكَمِ كتابهِ العزيز ، وكلامهِ البليغ الوجيز : بسمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيم : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

فنقول ؛ وباللهِ تعالى التَّوفيق :

قالَ العلماءُ رحمَهُمُ اللهُ تعالىٰ : نزلَتْ هـٰذهِ الآياتُ الجليلةُ في خولةَ بنتِ ثعلبة رضي الله عنها ، وكانت تحتَ أَوسِ بنِ الصَّامت رضي الله عنه ، وكانت حسنةَ الجسم ، وكانَ بهِ دمَمٌ ، فأَرادَها فأَبَت ، فقالَ لها : أَنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمِّي ، ثمَّ نَدِمَ علىٰ ما قال ، وكانَ الظِّهارُ والإِيلاءُ مِنْ طلاقِ أَهلِ الجاهليّة ، فقالَ لَها : ما أَظنُّكِ إِلاَّ قد حَرُمْتِ علي ، فقالَت : واللهِ ما ذاكَ طلاق ، وأَتَتْ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وعائشةُ رضيَ اللهُ عنها تَغْسِلُ شقَّ رأْسه ، فقالَت : يا رسولَ الله ؛ إِنَّ زوجي أَوسَ بنَ الصَّامتِ تزوَّجني وأَنا شابَّةٌ غنيَّةٌ ذاتُ مالٍ وأَهل ، حتَّىٰ إِذا أَكلَ مالي وأَفنىٰ شبابي ، وتفرَّقَ أَهلي وكَبرتْ سِنِّي . . ظاهَرَ مِنِّي ، وقد نَدِم ، فهلْ مِنْ شيءٍ يَجمعُني وإِياهُ تُنعشني به ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « حَرُمْتِ عَلَيْه » فقالَت : يا رسولَ الله ؛ والَّذي أَنزلَ عليكَ الكتابَ ما ذكرَ طلاقاً ، وإِنَّهُ أَبو ولدي وأَحبُّ النّاسِ إِلي ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « حَرُمْتِ عَلَيْه » فقالَت : أَشكو إِلى اللهِ فاقتي ووحدَتي ، قد طالَتْ صُحبتي ونفضتُ لَهُ بطني . فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَا أَرَاكِ إِلاَّ وَقَدْ حَرُمْتِ عَلَيْه ، وَلَمْ أُومَرْ فِي شَأْنِكِ بِشَيْء » فجعلَتْ تُراجِعُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، وإِذا قالَ لَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « حَرُمْتِ عَلَيْه » . . هتَفَتْ قائلة : أَشكو إِلى اللهِ فاقتي وشدَّةَ حالي ، وإِنَّ لي صبيةً صغاراً ، إِنْ ضممتُهم إِليه . . ضاعوا ، وإِنْ ضممتُهم إِلي . . جاعوا ، وجعلَتْ ترفعُ

رأسَها إلى السَّماءِ وتقول : اللَّهُمَّ ؛ إنِّي أَشكو إِليك ، اللَّهُمَّ ؛ فأَنزِلْ علىٰ لسانِ نبيِّك ـ وكانَ هـٰذا أَوّلَ ظِهارٍ في الإسلام ـ فقامَتْ عائشةُ تغسلُ شقَّ رأْسهِ الآخَر ، فقالَت : انظرْ في أَمري ، جعلَني اللهُ فداكَ يا رسولَ الله ؛ فقالَتْ عائشة : اقصري حديثَكِ ومجادلتَك ، أَما ترينَ وجْهَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ؟! وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إذا نزلَ عليه الوحي . . أَخذَهُ مِثلُ السُّبات ، فلمّا قضى الوحي . . قال : « ادْعِ زَوْجَك » فتلا عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ الآيات ، قالَتْ عائشة : تبارَكَ الَّذي وَسِعَ سمعُهُ الأَصواتَ كلَّها . إنَّ المرأَةَ لتُحاوِرُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وأَنا في ناحيةِ البيتِ أَسمعُ بعضَ كلامِها ويَخفىٰ عليَّ بعضُهُ إذْ أَنزلَ الله ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ الآيات .

وأَخرجَ البخاريُّ في « تاريخه » عن ثمامة ، قالَت : بينما عمرُ بنُ الخطّابِ رضيَ اللهُ عنهُ يَسيرُ علىٰ حماره . . لَقِيَتْهُ امرأَة ، فقالَت : قِفْ يا عمر . فوقف ، فأَغلظَتْ لَهُ القول ، فقالَ رجل : يا أَميرَ المؤمنين ؛ ما رأَيتُ كاليوم . فقال : وما يمنعني أَنْ أَستمِعَ إليها وهيَ الَّتي سَمِعَ اللهُ لها ، أَنزل فيها ما أَنزل ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ الآية .

وأَخرجَ سعيدُ بنُ منصور : لمّا نزل ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ فقالَ لامرأَته : « مُرِيهِ فَلْيُعْتِق » فقالَت : يا رسولَ الله ؛ والَّذي أَعطاكَ ما أَعطاكَ ما جئتُ إلاَّ رحمةً له ، إنَّ لَهُ فيَّ منافع ، واللهِ ما عندَهُ رقبةٌ ولا يَملِكُها ، قالَتْ : فنزلَ القرآنُ وهيَ عندَهُ في البيت ، فقال : « مُرِيهِ فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْن » فقالَت : والَّذي أَعطاكَ ما أَعطاكَ ما يَقدرُ عليه ، قال : « مُرِيهِ فَلْيَتَصَدَّقْ عَلَىٰ سِتِّينَ مِسْكِيناً » فقالَت : يا رسولَ الله ؛ ما عندَهُ ما يتصدَّقُ به ، فقال : « اذْهَبِي إِلَىٰ فُلاَنٍ الأَنْصَارِي ، فَإِنَّ عِندَهُ شَطْرَ وَسْقٍ تَمراً أَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِه ، فَلْيَأْخُذْ مِنْه ، ثُمَّ لِيَصْرِفْ عَلَىٰ سِتِّينَ مِسْكِيناً » .

ولنَذكُرْ ما ذكرَهُ الفقهاءُ رحمهمُ اللهُ تعالىٰ مِنْ أَحكامِ الظِّهار ؛ فإنَّها كثيرةُ الوقوعِ والنَّاسُ عنها غافلون ؛ كغفلتِهم عنِ الإيلاءِ وحُرمةِ المصاهرَة ، وسنذكرُها معَ ما يتعلَّقُ

ويقربُ بهٰذهِ المباحثِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ أَيضاً .

فنقول : قالتِ الأَئِمَّةُ الحنفيَّةُ في كُتبِهِم : **الظِّهار** : تشبيهُ المسلِمِ زوجتَه ، ولَو صغيرةً أَو كتابيَّة ، أَو تشبيهُ ما يُعبَّرُ بهِ عنها مِنْ أَعضائِها ؛ كالرّأْسِ والرَّقبة ، أَو تشبيهُ جزءٍ شائعٍ منها ؛ كنصفِك ، بمحرَّمٍ عليهِ تأْبيداً .

ولو قال : أَنتِ عليَّ كالدَّمِ أَوالخمرِ أَوالخنزير ، أَوالغيبةِ أَوالنَّميمة ، أَوالزِّنا أَوالرِّبا ، ـ والرّشوةِ ـ وقتلِ المسلم :

إِنْ نوىٰ طلاقاً أَو ظِهاراً . . يكونُ طلاقاً ، ولا يكونُ ظِهاراً علىٰ ما في « الخانيَّة » .

وقيل : إِنْ نوى الظِّهار . . يكونُ ظهاراً ؛ كأَنتِ عليَّ كأُمِّي ، وظهارُ الزَّوجةِ منهُ لغو .

وقيل : رويَ عن أَبي يوسفَ عليها كفَّارةُ ظِهار ، وقيل : كفّارةُ يمين .

والظِّهار ؛ كأَنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمِّي أَو أُمِّك ، أَو رأْسُكِ ونحوه أَو نصفُكِ كظَهْرِ أُمِّي أَو كبطنِها ، أَو أُختي أَو عمَّتي ، ويصيرُ بهِ مظاهِراً بلا نيَّةٍ لأنه صريح ، فيحرمُ عليهِ وطؤُها ودواعيه ، مِنَ القُبلةِ والمسِّ بشهوة ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ﴾ حتَّىٰ يُكفِّر ، فإِنْ وَطِىءَ قَبْلَهُ تابَ واستغفر ، وكفَّرَ لِلظِّهارِ فقط .

وقالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ والزّهري : كفَّارتَين .

وقالَ الحسنُ البصري : ثلاثَ كفّارات .

ولِلمرأَةِ أَنْ تُطالبَهُ بالوطءِ وأَنْ تمنعَهُ منهُ حتَّىٰ يُكفِّر ، وعلى القاضي إِلزامُهُ بالتَّكفيرِ ولو بحبس ، أَو يُطلِّق .

وإِنْ نوىٰ بأَنتِ كأُمِّي برّاً أَو ظِهاراً أَو طلاقاً . . صحَّت نيَّتُه ، وإِلاَّ ينوي شيئاً . . لغا ؛ لأَنَّهُ كناية .

ولا ظِهارَ مِنْ أَمَتِه ، ولو ظاهرَ مِنْ نسائه . . كفَّرَ لكلٍّ واحدة ، بخلافِ لو آلىٰ منهن .

وقالَ مالكٌ وأَحمد : يكفيهِ واحدةٌ أَيضاً .

ولو ظاهَرَ مِنِ امرأَتهِ مراراً . . فعليهِ لكلِّ ظِهارٍ كفَّارة .

واعلَم : أَنَّ الكفَّارةَ **لغة** : مِنْ كفَّرَ اللهُ عنهُ الذَّنب ؛ أَي : ستَرَه .

وشرعاً : تحريرُ رقبةٍ ولو كافرةً قَبْلَ التَّماس ؛ أَي : قَبْلَ العزم على الوطء ، فإِنْ لَم يَجِد . . صامَ شهرينِ متتابعينِ قَبْلَ المسيسِ ليسَ فيهما رمضانُ والأَيّامُ المنهيَّة .

فإِنْ أَفطرَ فيهما . . استأْنفَ الصَّوم ، فإِنْ عَجزَ المظاهِرُ عنِ الصَّومِ لمرضٍ لا يُرجىٰ بُرؤُهُ أَو كبر . . أَطعم ـ أَي : ملَّك ـ ستِّينَ مسكيناً أَو فقيراً . ولا يُجزىءُ غيرُ المراهقِ ؛ كالفطرةِ قدراً ، وهيَ نصفُ صاعٍ مِنْ بر ، أَو صاعٌ مِنْ شعير ، أَو قيمةُ ذلك ، وإِنْ غدَّاهُم وعشَّاهُم . . جاز ؛ كما لو أَطعمَ واحداً ستِّينَ يوماً . . فإِنَّهُ جائز . هـٰذا ملخَّصُ ما ذكرَهُ أَئِمَّتنا الحنفيَّة .

وفي « الميزان » : **اتَّفقَ الأَئِمَّةُ** علىٰ أَنَّ المسلِمَ متىٰ قالَ لزوجته : أَنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمِّي . . كانَ مُظاهِراً منها ، لا يحلُّ لَهُ وَطؤُها حتَّىٰ يُقدِّمَ الكفّارة ؛ وهي : عتقُ رقبةٍ إِنْ وجدَها ، فإِنْ لَم يَجِدْها . . فصيامُ شهرينِ متتابعين ، فإِنْ لَم يَستطع . . فإِطعامُ ستِّينَ مسكيناً مسلِماً .

وكذلكَ **اتَّفقوا** علىٰ أَنَّ المرأَةَ إِذا قالت لزوجِها ذلك . . فلا كفَّارةَ عليها ، إِلاَّ في روايةٍ اختارَها الخرقي .

وأَمّا ما اختلَفوا فيه :

فمِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ إِنَّهُ لَو قالَ لزوجتِهِ حرَّةً كانت أَو أَمة : أَنتِ عليَّ حرام :

فإِنْ نوى الطَّلاقَ بذلك . . كانَ طلاقاً .

وإِنْ نوى الطَّلاقَ ثلاثاً . . كانَ ثلاثاً .

وإِنْ نوىٰ ثنتينِ أَو واحدةً فواحدة : فإِنْ نوى التَّحريمَ ولَم ينوِ الطَّلاقَ ولَم يَكنْ لَهُ نيَّة . . فهوَ يمين ، وهوَ مول ، إِنْ تركَها أَربعةَ أَشهُر . . وقعت عليهِ طلقةٌ بائنة .

وإنْ نوى الظِّهار . . كانَ مظاهراً ، وإنْ نوى اليمين . . كانت يميناً ، ويَرجعُ إِلىٰ نيَّتِهِ كم أَرادَ بها ، واحدةً أَو أَكثر ، سواءٌ المدخولُ بها وغيرُها .

معَ قولِ مالك : إنَّ ذلكَ طلاقُ ثلاثٍ إنْ كانت مدخولاً بها ، وواحدةٌ إنْ كانت غيرَ مدخولٍ بها .

ومعَ قولِ الشَّافعي : إنْ نوىٰ بذلكَ الطَّلاقَ أَوِ الظِّهار . . كانَ ما نواه ، وإنْ نوى اليمين . . لَم يَكنْ يميناً ولـٰكنْ عليهِ كفَّارةُ يمين ، وإنْ لَم ينوِ شيئاً . . فالأَرجحُ مِنْ قولَيهِ أَنَّهُ لا شيءَ عليه ، والثَّاني : أَنَّ عليهِ كفَّارةَ يمين .

ومعَ قولِ أَحمدَ في أَظهرِ روايتيه : إنَّ ذلكَ صريحٌ في الظِّهار ، نواهُ أَو لَم يَنوِه ، وفيهِ كفَّارةُ الظِّهار ، والثّاني أَنَّهُ طلاق .

ومن ذلك قولُ أَبي حنيفةَ وَأَحمد : إن من حرَّمَ طعامَهُ أَو شرابَهُ أَو أَمَتَه . . كانَ حالفاً ، وعليه كفارةُ يمينٍ بالحنثِ مِنْ غيرِ أَنْ يُحرِّمَ ذلك ، ويَحصلُ الحنثُ عندَهُما بأَكْلِ جزءٍ منه ، معَ قولِ الشَّافعي : إنَّ مَنْ حرَّمَ طعامَهُ أَو شرابَهُ أَو لباسَه . . فلا كفَّارةَ عليه ، وليسَ بشيء .

وإنْ حرَّمَ أَمَتَه . . فالرّاجحُ أَنَّها لا تَحرمُ ولـٰكنْ عليهِ كفَّارةُ يمين .

ومعَ قولِ مالكٍ : إنَّهُ لا يَحرمُ عليهِ شيءٌ مِنْ ذلكَ على الإطلاق ، ولا كفَّارةَ عليهِ . اهـ ما في « الميزان » باقتصار .

ولنذكرْ لكُم مِنْ أَحكامِ الإيلاءِ شيئاً ؛ لأَنَّ النّاسَ في غفلةٍ عنهُ أَيضاً .

فنقول : قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قالَ أَئِمَّتُنا الحنفيَّةُ رحمهُم ربُّ البريَّة : الإيلاءُ مِنْ آلىٰ يُولي إيلاء ، وجمعُهُ أَلايا ، وهوَ **لغة** : اَليمين . **وشرعاً** : اَلحلفُ علىٰ تَرْكِ قربانِ زوجته ـ ولَو قَبْلَ الزَّواج ـ أَربعةَ أَشهرٍ أَو أَكثرَ لِلحرَّة ، وشهرانِ لِلأَمَةِ أَو أَكثر .

وحكمُه : وقوعُ طلقةٍ بائنةٍ إِنْ برَّ بيمينه ، ولزومُ الكفّارةِ أَوِ الجزاءِ ؛ كالحجِّ مثلاً إِنْ حنثَ بالقربان .

وأَقلُّ المدَّةِ لِلحُرَّةِ أَربعةٌ كما ذكرنا ، فلَو حلفَ علىٰ أَقل. . فعليهِ الكفَّارةُ فقط ولا إِيلاء ، ولَو عجزَ عن وطْئِها لِسَفرٍ أَو مرضٍ أَو صغرٍ أَو لحبسه. . ففيؤُهُ نحو قولهِ بلسانه : فِئْتُ إِليها ، أَو راجعتُك ، أَو أَبطلتُ الإِيلاء ، أَو رجعتُ عمّا قلت .

فلا يقعُ الطَّلاقُ إِذا مضتِ المدَّة ، غيرَ أَنَّ اليمينَ باقية ، فلو وطئها بعدَ الفيءِ باللِّسانِ في مدَّةِ الإِيلاء. . لَزِمَهُ كفَّارةٌ لِتحقُّقِ الحنثِ . اهـ

وقالَ في « الميزان » : اتَّفقتِ الأَئِمَّةُ علىٰ أَنَّهُ إِذا حَلفَ باللهِ عزَّ وجلَّ علىٰ أَنْ لا يُجامِعَ زوجتَهُ مدَّةً تزيدُ علىٰ أَربعةِ أَشهر. . كانَ مُولياً ، وإِنْ حَلفَ علىٰ أَقلّ مِنْ ذلك. . لَم يَكنْ مُولِياً ، وعلىٰ أَنَّ المُوليَ إِذا فاء. . لَزمتْهُ كفَّارةُ يمينٍ باللهِ تعالىٰ ، إِلاَّ في قولٍ قديمٍ للشَّافعي .

وأَمّا ما اختلَفوا فيه :

فمِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ أَنْ لا يطأَ زوجتَهُ أَربعةَ أَشهرٍ إِيلاء ، ويُروىٰ مِثلُ ذلكَ عن أَحمد ، معَ قولِ مالكٍ والشَّافعيِّ في المشهورِ عنه : إِنَّهُ ليسَ بإِيلاء .

ومِنْ ذلك : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة : إِنَّهُ إِذا مضتِ الأَربعةُ أَشهر. . لا يقعُ بمضيِّها طلاق ، بلْ يُوقَفُ الأَمرُ لِيَفيءَ أَو يُطلِّق ، معَ قولِ أَبي حنيفة : أَنَّهُ متىٰ مضتِ المدَّةُ وقعَ الطَّلاق .

ومِنْ ذلك : قولُ مالكٍ وأَحمد : إِنَّ الموليَ إِذا امتنعَ مِنَ الطَّلاقِ علىٰ قولِ الوقف. . يُطلِّقُ عليهِ الحاكمُ وهوَ الأَظهرُ مِنْ قولَي الشَّافعيِّ معَ قولَي أَحمدَ في الرِّوايةِ الأُخرىٰ والشَّافعيّ في القولِ الآخَرِ عنهُ : إِنَّ الحاكم ، يُضيِّقُ عليهِ حتَّىٰ يُطلِّق .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفة ، والشَّافعيِّ في أَصحِّ قولَيه : إِنْ آلىٰ بغيرِ اليمينِ باللهِ تعالىٰ ؛ كالعتاقِ والحج. . يكونُ مُولياً ، سواءٌ قصدَ الإِضرارَ بِها أَو رَفْعَهُ عنها ؛ كالمرضعِ والمريضة ، أَو عن نَفْسه ، معَ قولِ مالك : إِنَّهُ لا يكونُ مُولياً إِلاَّ أَنْ يَحلِفَ حالَ الغضبِ أَو يقصدَ الإِضرارَ بها .

قيل : قالَ الإمامُ أَحمد : لا يكونُ مُولياً إذا قصدَ دفعَ الضَّررِ عنها ، فإِنْ قصدَ الإِضرارَ بِها . . فإِنَّهُ يكونُ مُولياً .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ والشَّافعي : إِنَّهُ لَو تَرَكَ وَطْءَ زوجتهِ للإِضرارِ بها مِنْ غيرِ يمينٍ أَكثرَ مِنْ أَربعةِ أَشهُرٍ . . لا يكونُ مُولياً ، معَ قولِ مالكٍ وأَحمدَ في إِحدىٰ روايتيه : إِنَّهُ يكونُ مُولياً .

وليُعلَمْ أَيضاً أَنَّ مسأَلةَ حُرمةِ المصاهَرةِ علىٰ مذهبِ أَئِمَّتِنا الحنفيَّةِ مِنْ أَعظمِ المسائلِ الدِّينيَّة ، فيلزمُ التَّنبيهُ عليها بطريقِ الإِجمال ؛ لأَنَّ كثيراً مِنَ النّاسِ عنها غافلون ، وفي وَرْطتِها يَقعونَ ولا يعلمون .

قالَ في « الدُّرِّ المختار » : وأَسبابُ التَّحريمِ أَنواع :

قرابة ؛ أَي : كفروعهِ وأُصوله .

ومصاهرة ؛ أَي : كفروعِ نسائهِ وأُصولهن .

ورَضاع : فيَحرمُ بهِ ما يَحرمُ مِنَ النَّسَبِ إِلاَّ ما استثني .

وجمع ؛ أَي : بينَ المحارمِ كأُختينِ ونحوِهما ، أَو بينَ الأَجنبيّاتِ زيادةً على الأَربع .

ومِلك ؛ كنكاحِ السَّيِّدةِ مملوكَها .

وشِرك ؛ أَي : كالمجوسيَّةِ والمرتدَّة .

وإِدخالُ أَمةٍ علىٰ حرَّة .

والتَّطليقُ ثلاثاً .

وتعلُّقُ حَقِّ الغير[1] . اهـ

قالَ مُحشِّيهِ العلاَّمةُ ابنُ عابدين : قولُه : مصاهَرة ؛ كفروعِ نسائهِ المدخولِ بهنَّ وإِنْ نزلن ، وأُمَّهاتُ الزَّوجاتِ وجدَّاتُهنَّ بعقدٍ صحيحٍ وإِنْ علونَ وإِنْ لَم يَدخلْ

(١) بنكاحٍ أو عدة .

بالزَّوجات ، وتحرمُ موطوآتُ آبائهِ وأَجدادهِ وإِنْ عَلَوا ولَو بزنا ، والمعقوداتُ لَهُم عليهنَّ بعَقْدٍ صحيحٍ وموطوآت أَبنائهِ وأَبناءِ أَولادهِ وإِنْ سَفَلوا ولَو بزنا ، والمعقوداتُ لَهُم عليهن بعَقْدٍ صحيح « فتح » ، وكذا المقبَّلاتُ أَوِ الملموساتُ بشهوةٍ لأُصولهِ أَو فروعه ، أَو مَنْ قبَّلَ أَو لَمَسَ أُصولَهُنَّ أَو فروعهنَّ . اهـ

ونَقَلَ في « الدُّر » عنِ « الكشّاف » : أَنَّ اللَّمسَ ونحوهُ كالدُّخولِ عندَ أَبي حنيفة . وقالَ في « الفتح » : ولا فَرْقَ بينَ عمدٍ ونسيان ، فلو أَيقظَ زوجتَهُ أَو أَيقظتْهُ لجماعِها ، فمسَّتْ يدُهُ بنتَها المشتهاةَ أَو يدُها ابنَه . . حَرُمَتِ الأُمُّ أَبداً . اهـ

وقالَ في « الميزان » : إِنَّ مِنْ جملةِ المحرَّماتِ أَيضاً : نكاحُ الزّانيةِ قَبْلَ التَّوبةِ عندَ أَحمدَ خلافاً للثّلاثة .

قال : ومِنَ المسائلِ المختلَفِ فيها : قولُ مالكٍ والشّافعي : إِنَّ مَنْ زنا بامرأَة . . لَم يَحرُمْ عليهِ نكاحُها ولا نكاحُ أُمِّهَا وبنتِها ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ وأَحمد : يتعلَّقُ تحريمُ المصاهَرةِ بالزِّنا ، وزادَ عليهِ أَحمدُ فقال : إِذا لاطَ بغلام . . حَرُمَتْ عليهِ أُمُّهُ وبنتُه . اهـ

وليُعلَم : أَنَّ العلاَّمةَ ابنَ حَجَرٍ قد عدَّ في « الزَّواجر » أَنَّ مِنْ جملةِ الكبائرِ الظِّهار ؛ لقولهِ تعالىٰ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ وكذا الإِيلاء ؛ لأَنَّ فيهِ مضارَّةً لِلزَّوجة ؛ لأَنَّ صبرَها عنِ الرَّجُلِ يَفنىٰ بعدَ الأَربعةِ أَشهر ، كما قالت حفصةُ أُمُّ المؤمنينَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها لأَبيها عمرَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ لمّا سأَلها عن مقدارِ صبرِ المرأَةِ عن زوجِها حينما سَمِعَ امرأَةً مِنْ نساءِ المجاهِدِينَ الغائبينَ تقول :

فَـوَاللهِ لَـوْلاَ اللهُ تُخْشَـىٰ عَـوَاقِبُـهْ لَـزُحْـزِحَ مِـنْ هَـٰذَا السَّرِيـرِ جَـوَانِبُـهْ

فأَمرَ عمرُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ حينئذٍ أَنْ لا يَغيبَ أَحدٌ عن زوجتهِ أَكثرَ مِنْ ذلك .

وكذا أَيضاً أُمرتِ الزَّوجةُ بعدمِ إِضرارِ زوجِها ، وعدمِ نشوزِها ، وعدمِ سؤَالها الطَّلاق ، وكانَ كلُّ ذلكَ مِنَ الكبائرِ أَيضاً علىٰ ما قال ؛ فقد رويَ عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَنَّهُ قال : « أَوَّلُ مَا تُسْأَلُ الْمَرْأَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ صَلاَتِهَا وَعَنْ بَعْلِهَا » .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ لِفِرَاشِهِ فَامْتَنَعَتْ . . بَاتَتْ تَلْعَنُهَا الْمَلاَئِكَةُ حَتَّىٰ تُصْبِح » .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا ، وَصَامَتْ شَهْرَهَا ، وحصنت فرجها ، وَأَطَاعَتْ بَعْلَهَا . . دَخَلت مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَت » .

وأَخرجَ التِّرمذيُّ عن ثوبانَ رضيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلاَقَ مِنْ غَيْرِ بَأْس . . فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّة » .

وورد : « أَبْغَضُ الْحَلاَلِ إِلَى اللهِ الطَّلاَق » ولذا قسَّمَهُ أَئِمَّتُنا الحنفيَّةُ إِلىٰ ثلاثةِ أَقسام : الأَوّلُ حَسَن ، والثّاني أَحسن ، والثَّالثُ بدعيٌّ يأْثمُ به .

فالأَحسن ـ أَي : بالنِّسبةِ إِلىٰ غيره ؛ لا أَنَّهُ في نَفْسهِ حسن ـ طلقةٌ رجعيَّةٌ فقط في طُهرٍ لا وطءَ فيه ، وتركُها حتَّىٰ تمضيَ عدَّتُها .

والحسن هو : أَنْ يُطلِّقَها ـ أَي : الموطوءَة ـ ثلاثاً متفرِّقةً في ثلاثةِ أَطهارٍ لا وطءَ فيها .

والبدعيّ : ثلاثٌ متفرِّقةٌ أَو بكلمةٍ واحدة ، أَو ثنتانِ بمرَّةٍ أَو مرَّتين ، في طهرٍ واحدٍ لا رجعةَ فيه ، أَو واحدةٌ في طُهْرٍ وُطِئَتْ فيه ، أَو واحدةٌ في حيض مدخولٍ بها .

وتجبُ رجعتُها في الحيضِ دفعاً لِلمعصية ، فإِذا طهرت . . طلَّقها إِنْ شاءَ أَو أَمسكَها . والخُلْعُ في الحيضِ والنّفاسِ لا يُكرَهُ .

وليُعلَمْ أَنَّهُ ممّا ينبغي التَّنبيهُ عليهِ أَيضاً : أَنَّ الطَّلاقَ الثَّلاثَ بلفظٍ واحد ـ أَي : إِذا قالَ زيدٌ لزوجتهِ المدخولِ بها : أَنتِ كذا ثلاثاً ـ يقعُ ثلاثاً ، ولا تحلُّ لَهُ حتَّىٰ تَنكِحَ زوجاً غيرَهُ كما هوَ مذهبُ الأَئِمَّةِ الأَربعة ، ولا يُشترطُ لوقوعهِ تكرير : أَنتِ طالقٌ ثلاثَ مرَّات ، كما ذهبَ إِليهِ بعضُ أَجلَّةِ الحنابلةِ ونسبهُ أَيضاً لابنِ عبّاسٍ وغيرِهِ وبعضِ الحنفيَّةِ والشَّافعيَّة ؛ لأَنَّ ذلكَ خلافُ قولِ جمهورِ الصَّحابة ، وخلافُ ما عليهِ الأَئِمَّةُ الأَربعة ، ولا يجوزُ لأَحدِ العملُ به ، فلا يعملُ بهـٰذا القول ، ولا أَدينُ اللهَ تعالىٰ به ، ويدُ اللهِ على الجماعة ، فإِذا طلَّقَ الرَّجُلُ ثلاثاً ولو بلفظٍ واحد . . فلا يَحلُّ لَهُ الرُّجوعُ إِلاَّ

بعدَ التَّحليل ، واللهُ يقولُ الحقَّ وهوَ يهدي السَّبيل .

وسنذكرُ تكملةَ أَبحاثِ الزَّوجِ والزَّوجةِ والنِّساءِ في بعضِ الدُّروسِ الآتيةِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

فعليكُم عبادَ اللهِ ؛ بتحصيلِ ما ينفعكُم ، وتعلُّمِ ما ينجِيكُم في آخرتِكُم ، والتَّجنُّبِ عنِ المحرّمات ، والتَّورُّعِ عنِ المكروهات .

فيا إخواني ؛ الأَيّامُ سُفنٌ ومراحل ، وما يُحسُّ بسَيْرِها الرّاحل ، حتَّىٰ يبلغَ البلدَ أَوِ السّاحل ، ما هٰذهِ الغفلةُ والفتور ؟! أَمَا المآلُ إلى اللُّحودِ والقبور ؟! أَمَا علمتُم منتهى السُّرور ؟! أَمَا الأَجداثُ المنازلُ إلى النُّشور ؟! .

أَيُّها الشاب ؛ ضيَّعتَ الشَّبابَ في جَهْلِك ، أَيُّها الكهل ؛ ببعضِ فِعْلِكَ تهلِك ، أَيُّها الشَّيخ ؛ آنَ الرَّحيلُ عَنْ أَهلِك ، أَيُّها الغافل ؛ أَما تذكرُ مَنْ كانَ قَبْلَك ؟ لقد نطقتِ العبر ، فأَينَ سامعُها ؟ واستنارتْ طريقُ الهدىٰ ، فأَينَ تابعُها ؟ وتجلَّتِ الحقائق ، فأَينَ مُطالِعُها ؟ أَما المنيَّةُ قد دنتْ واقتربَت ؟! فما بالُ النُّفوسِ قد غفلَتْ ولَعِبَت ؟! يا مَنْ إذا دُعيَ لِنَفْعِهِ وتعليمه ؛ تولَّىٰ وفر ، ويا مَنْ علىٰ ما يضرُّهُ قدِ استمر ، يا مَنْ أَعلنَ المعاصيَ وأَسَر ، أَما تعتبرُ بمَنْ رحلَ عنِ القُرناءِ ومر ؟! أَما تعلمُ أَنَّ مَنْ حالفَ الذُّنوبَ استضرّ ؟! أَما الموتُ إذا أَتىٰ حَمَلَ وكَرّ ؟! .

كأَنِّي بكَ إذا برقَ البصر . تطلبُ المفر ، إلىٰ متىٰ تُؤْثِرُ الفسادَ على السَّداد ؟! وتُسرعُ في جوادِ الهوىٰ إسراعَ الجواد ؟! متىٰ يتيقَّظُ القلبُ ويَصحو الفؤَاد ؟! كيفَ بكَ إذا حُشرتَ يومَ المعاد ؟! .

يَسُـــرُّكَ أَنْ تَكُــونَ رَفِيــقَ قَــوْمٍ   لَهُـــمْ زَادٌ وَأَنْــــتَ بِغَيْــــرِ زَادِ

فيا أَيُّها الضّالُّ عن طريقِ الهدىٰ ؛ أَما تَسمعُ صوتَ الحادي قد حَدا ؟ مَنْ لكَ إذا ظهرَ الجزاءُ وبدا ؟ وربَّما كانَ فيهِ أَنْ تشقىٰ أَبداً ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ .

يا مَنْ تُكتَبُ لحظاتُه ، وتُجمَعُ لفظاتُه ، وتُعلَمُ عزماتُه ، وتُحسَبُ عليهِ حركاتُهُ إنْ راحَ أَو غدا ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ .

ويحك! الرقيب حاضر ، يرعىٰ عليكَ اللِّسانَ والناظر ، وهوَ إلىٰ جميع أَفعالكَ ناظر ، إنَّما الدُّنيا مراحلُ إلى المقابر ، وسينقضي هـٰذا المدىٰ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ .

مالي أَراكَ في الذُّنوبِ تَعجل ، وإذا زُجرتَ عنها لا تَقْبَل ؟ ويحك! انتبهْ لِقُبحِ ما تَفعل ، إنَّ الأَيّامَ في الآجلِ تعمل ، مِثْلَ عملِ المدىٰ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ .

كأَنَّكَ ببساطِ العُمرِ قدِ انطوىٰ ، وبعُودِ الصّحّةِ بَعْدُ قد ذوىٰ ، وبسلكِ الإمهالِ قد قُطعَ فهوىٰ ، اِنتبهْ لنفسك! فقد أَشمتَّ واللهِ العِدا ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ .

فبادِرْ زَمنَكَ واحذرِ الفَوْت ، وأَصغِ للزَّواجرِ فقد رفَعتُ لكَ الصَّوت ، واتَّبعِ الشَّرعَ وتنبَّهْ فطالَ ما قد سَهوت ، واعلَم قطعاً ويقيناً أَنَّ الموتَ لاَ يقبل الفِدىٰ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ .

انْهَضْ إلى التُّقىٰ بقريحة ، وابكِ الذُّنوبَ بعينٍ قريحة ، وأَزعجْ للتَّهجُّدِ في اللَّيلِ أَعضاءَكَ المستريحة ، تاللهِ لَئِنْ لَم تَقبلْ مِنّا هـٰذهِ النَّصيحةَ لتندمنَّ غداً ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ .

اللّهُمّ ؛ وفِّقنا لِقولِ الحقِّ واتِّباعِه ، وخلِّصنا مِنْ وساوس قَلْبنا وابتداعِه ، وكُنْ لنا ـ يا إلـٰهي ـ مُؤَيِّداً واجعل إيمانَنا محمَّديّاً ثابتاً راسخاً ، دائماً قوياً ، ولا تجعل لفاجرٍ علينا يداً ، وارزقنا في محبَّتكَ عِلماً نافعاً ، ورزقاً حلالاً واسعاً ، ولا تُشْمِتْ بِنا عَدوّاً ولا حاسداً ، وارزقنا ذرِّيَّةً علماءَ عاملين ، وأَلحِقنا بأَوليائكَ الصَّالحين ، واجعلْ عيشنا في الدَّارينِ عيشاً رغداً ، وارحمنا وجميعَ المؤمنين .

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وآلهِ أَجمعينَ آمين .

* * *

المجلسُ السَّادسُ والعشرون
في الزِّنا واللِّواطة

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي أَحكمَ الأَشياءَ كلَّها صُنعا ، وتَصرَّفَ كما شاءَ إِعطاءً ومنعا ، أَنشأَ الآدميَّ مِنْ قطرةٍ فإِذا هوَ يسعىٰ ، وخَلَقَ لَهُ عينينِ ليُبصرَ المَسعىٰ ، ووالَىٰ لَديهِ النِّعمَ وَتراً وشَفعا ، وضمَّ إِليهِ زوجَهُ تُدَبِّرُ أَمرَ البيتِ وتَرعىٰ ، وأَباحَهُ محلَّ الزَّرعِ وقد فُهِّمَ مقصودَ المرعىٰ ، فتعدَّىٰ قومٌ إِلى الفاحشةِ الشَّنعا ، وعدّوا ستّاً وسبعا ، فرُجموا بالحجارةِ فلَو رأَيتَهُم صرعىٰ ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ .

أَحمدُهُ ما أَرسلَ سحاباً وأَنْبتَ زَرْعا ، وأُصلِّي وأُسلِّمُ علىٰ رسولِهِ محمَّدٍ أَفضلِ نبيٍّ علَّمَهُ اللهُ شَرعا ، وعلىٰ صاحبِهِ أَبي بكرٍ الَّذي كانت نفقتُهُ للإِسلامِ نَفعا ، وعلىٰ عمرَ ضيفِ الإِسلام بدعوةِ الرَّسول المستدعىٰ ، وعلىٰ عثمانَ الَّذي ارتكبَ منهُ الفجَّارُ بِدعا ، وعلىٰ عليٍّ الَّذي يُحبُّهُ أَهلُ السُّنَّةِ طَبعا ، وعلىٰ بقيَّةِ الصَّحابةِ والآلِ الَّذينَ قَطَعَ اللهُ بهمُ الكفرَ قَطْعا ، وسلِّمْ تسليماً .

أَمَّا بَعد : فقد قالَ اللهُ تَعالَىٰ في القرآنِ العظيمِ والكتابِ الكريم ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ .

فنقولُ وباللهِ تعالى التَّوفيق : قد تعدَّدتِ الآياتُ الكريمةُ في تحريمِ الزِّنا ـ أَعاذنا اللهُ تَعالَىٰ وإِيّاكم منهُ ومِنْ غيرهِ مِنَ المعاصي بمَنِّهِ وكَرَمِه ـ منها هـٰذهِ الآية ، ومِنها قولُهُ تَعالَىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ الآية . وغيرُ ذلك .

وأَمَّا الأَحاديثُ في تحريمِهِ وتقبيحِه . . فكثيرةٌ جدّاً .

وأَمَّا حُكمُهُ في الدُّنيا : فالرَّجمُ بالحجارةِ لِلمُحْصَن ـ وهوَ المتزوِّج ـ حتَّىٰ يموت ، وجَلْدُ مئةِ سَوْطٍ لغيرِ المتزوِّج . ولا بدَّ لإِجراءِ الحَدّ الشَّرعيِّ مِنْ شهادةِ أَربعةِ شهود ، أَو يُقرّ الزّاني في أَربعةِ مجالسَ عندَ أَبي حنيفةَ وأَحمد ، وعندَ الإِمامِ الشَّافعيِّ بإِقرارِهِ مرَّةً واحدةً كما هوَ مُفصَّلٌ في الكتبِ الفقهيَّة .

ولنذكر بعضَ الأَحاديثِ الواردةِ فيه .

فمنها : ما أَخرجَهُ الشَّيخانِ وأَحمد عنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ قال : سأَلتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم أَيُّ الذَّنبِ أَعظمُ عندَ الله ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدّاً وَهُوَ خَلَقَك » قلت : إِنَّ ذلكَ لعظيم! قلت : ثُمَّ أَي ؟ قال : « أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَك » قلت : ثُمَّ أَي ؟ قال : « أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِك » وتلا هـٰذهِ الآية : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية .

وورِدَ أَنَّ في الزَّبورِ مكتوباً « إِنَّ الزُّناةَ يُعلَّقونَ بفروجِهم في النَّارِ ويُضربونَ عليها بسياطٍ مِنْ حديد ، فإِذا استغاثَ أَحدُهُم مِنَ الضَّرب . . نادَتْهُ الملائكةُ الزَّبانية : أَينَ كانَ هـٰذا الصَّوتُ وأَنتَ تضحكُ وتفرحُ وتمرحُ ولا تراقبُ اللهَ تَعَالَىٰ ولا تستحيي ؟! » نقلَهُ في « الزَّواجر » .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « يَا مَعْشَرَ النَّاس ؛ اتَّقُوا الزِّنَا فَإِنَّ فِيهِ سِتَّ خِصَال ، ثَلاَثَةٌ فِي الدُّنْيَا وَثَلاَثَةٌ فِي الآخِرَة ؛ أَمَّا الَّتِي فِي الدُّنْيَا : فَيُذْهِبُ الْبَهَاء ، وَيُورِثُ الْفَقْر ، وَيَنْقُصُ الْعُمُرَ . وَأَمَّا الَّتِي فِي الآخِرَة : فَسَخَطُ الله ، وَسُوءُ الْحِسَاب ، وَعَذَابُ النَّار » .

وروى النَّسائي عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قال : « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِم ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم : شَيْخٌ زَان ، وَمَلِكٌ كَذَّاب ، وَعَائِل ـ أَي : فقير ـ مُسْتَكْبِر » وفي حديثٍ آخَر : « هُم : الشَّيْخُ الزَّانِي ، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَال ، وَالْغَنِيُّ الظَّلُوم » .

وروىٰ أَبو يعلىٰ بسندٍ حسن : « مَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الزِّنَا والرِّبا . . إِلاَّ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِم عَذَابَ الله » .

وروى الإِمامُ أَحمد : « لاَ تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْر ، مُتَمَاسِكٌ أَمْرُهَا ، مَا لَمْ يَظْهَرْ فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا » . وروىٰ مسلم : « حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِم ، مَا مِنْ رُجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِم . . إِلاَّ وُقِفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شَاءَ حَتَّىٰ يَرْضَىٰ » وفي رواية : « قِيلَ لَه : هَـٰذَا خَلَفَكَ فِي أَهْلِكَ فَخُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْت ، أَتَرَوْنَ يَدَعُ لَهُ مِنْ حَسَنَاته شَيْئاً ؟ » .

وروى الإِمامُ أَحمد : « لأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نُسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِه » .

وروى الطَّبرانيُّ : « مَنْ قَعَدَ عَلَىٰ فِرَاشِ مُغَيَّبَةٍ - أَي : الَّتي غابَ عنها زوجُها - قَيَّضَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ ثُعْباناً يَوْمَ القِيَامَة »

وقال عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « مَنْ زَنَىٰ بِامْرَأَةٍ مُزَوَّجَة . . كَانَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهَا فِي الْقَبْرِ نِصْفُ عَذَابِ هـٰذِهِ الأُمَّة ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَة . . يُحَكِّمَ اللهُ زَوْجَهَا فِي حَسَنَاتِه » هـٰذا إذا كانَ بغيرِ عِلْمِه ، فإِنْ عَلِمَ وسكت . . حرَّمَ اللهُ عليهِ الجنَّة ؛ لأَنَّ اللهَ كتبَ علىٰ بابِها : أَنتِ حرامٌ على الدَّيُّوث ؛ وهو الَّذي يسكتُ ولا يغار .

ورويَ أَنَّهُ « مَنْ وضعَ يدَهُ على امرأَةٍ لا تحلُّ لَهُ بشهوةٍ جاءَ يومَ القيامةِ مغلولةً يدهُ إِلىٰ عنقه ، فإِنْ قَبَّلَها . . قُرِضَتْ شفتاهُ في النَّار ، فإِنْ زنىٰ بها . . نَطَقَتْ فخذُهُ وشَهِدَتْ عليه ، وقالت : أَنا لِلحرامِ ركبت ، فينظرُ الله إِليهِ بِعَيْنِ الغضب ، فيقعُ لَحمُ وجههِ فيُكابرُ ويقول : ما فعلت . فيشهدُ عليهِ لِسانُهُ ويقول : أَنا بما لا يحلُّ نطقت ، وتقولُ يداه : أَنا لِلحرامِ تناولت ، وتقولُ عيناه : أَنا لِلحرام نظرت ، وتقولُ رجلُه : أَنا لِما لا يحلُّ مشيت . ويقولُ فَرْجُه : أَنا فعلت - ومصداقُ ذلكَ مِنَ القرآنِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ قالَ المُفَسِّرون : أَي لِفُروجِهِم - ويقولُ الحافظُ مِنَ الملائكة : وأَنا سمعت . ويقولُ المَلَكُ الآخَر : وأَنا كتبت . ويقولُ اللهُ تعالىٰ :

(وأنا اطَّلعتُ وسترت) . ثُمَّ يقولُ اللهُ عزَّ وجل : (يا ملائكتي ؛ خذوه ، ومِنْ عذابي أَذيقوهُ فقدِ اشتدَّ غضبي علىٰ مَنْ قلَّ حياؤُه منّي) وتصديقُ ذلكَ مِنْ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

وأَعظمُ الزِّنا على الإطلاق : الزِّنَا بالمحارم ؛ فقد صحَّحَ الحاكمُ أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « مَنْ وَقَعَ عَلَىٰ ذَاتِ مَحْرَمٍ . . فَاقْتُلُوه » .

وروى الطَّبرانيُّ ـ واللَّفظُ لَهُ ـ : « تُفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ نِصْفَ اللَّيْلِ ، فَيُنَادِي مُنَاد : هَلْ مِنْ دَاعٍ فَيُسْتَجَابَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَىٰ ؟ هَلْ مِنْ مَكْرُوبٍ فَيُفَرَّجَ عَنْهُ ؟ فَلاَ يَبْقَىٰ مُسْلِمٌ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ إِلاَّ زَانِيَةٌ تَسْعَىٰ بِفَرْجِهَا ، أَوْ عَشَّار »[1] .

وروى الشَّيخانِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِن ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِن ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِن » .

وروى الحاكم : « مَنْ زَنىٰ أَوْ شَرِبَ الْخَمْرَ . . نَزَعَ اللهُ مِنْهُ الإِيمَانَ كَمَا يَخْلَعُ الإِنْسَانُ الْقَمِيصَ مِنْ رَأْسِه » وفي رواية : « فَإِذَا تَاب . . رُدَّ عَلَيْه » .

وعن أَبي أُمامةَ رضي الله عنه مِنْ بعضِ حديثِهِ الطَّويلِ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذ أَتَانِي رَجُلاَنِ فَأَخَذَا بِضَبْعَيَّ فَأَتَيَا بِي جَبَلاً ، فَإِذَا أَنَا بِأَصْوَاتٍ شَدِيدَةٍ فَقُلْت : مَا هَـٰذِهِ الأَصْوَاتُ ؟ فَقَالُوا : هَـٰذا عُوَاءُ أَهْلِ النَّار . فَانْطَلَقُوا بِي ، فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ مُعَلَّقِينَ بِعَرَاقِيبِهِم ، مُشَقَّقَةً أَشْدَاقُهُمْ تَسِيلُ دَماً ، قَال : قُلْت : مَنْ هَـٰؤُلاَءِ ؟ قَال : الَّذِينَ يُفْطِرُونَ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ فِطْرُهُم مِنْ صَوْمِهِم . ثُمَّ انْطَلَقَا بِي ، فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ أَشَدَّ شَيءٍ انْتِفَاخاً ، وَأَنْتَنَهُ رِيحاً ، وَأَسْوَأَهُ مَنْظَراً ، فَقُلْت : مَنْ هَـٰؤُلاَءِ ؟ قَال : قَتْلَى الْكُفَّار ، ثُمَّ انْطَلَقَا بِي ، فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ أَشَدَّ شَيءٍ انْتِفَاخاً وَأَنْتَنَهُ رِيحاً ، كَأَنَّ رِيحَهُمُ الْمَرَاحِيض ، قُلْت : مَنْ هَـٰؤُلاَءِ ؟ قَال : هَـٰؤُلاَءِ الزَّانُونَ وَالزَّوَانِي . ثُمَّ انْطَلَقَا بِي ، فَإِذَا أَنَا بِنِسَاءٍ يَنْهَشْنَ ثَدْيَهُنَّ الْحَيَّات ، قُلْت : مَا بَالُ

---

(١) قوله (عشار) : هو قابض عشر الأموال ، وذلك هو المتعدي حقَّ الشرع ، بأخذ زيادة . وأما من يأخذ من الناس حق الإمام علىٰ وجه الحق . . فلا يدخل في هـٰذا الوعيد . اهـ منه .

هَـٰؤُلَاءِ ؟ قَال : يَمْنَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ أَلْبَانَهُن . ثُمَّ انْطَلَقَا بِي ، وَإِذَا أَنَا بِغِلْمَانٍ يَلعَبُونَ بَيْنَ نَهْرَيْن ، قُلْت : مَنْ هَـٰؤُلَاءِ ؟ قِيل : هَـٰؤُلَاءِ ذَرَارِي الْمُؤْمِنِين » وعن عليٍّ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَهُ : أَنَّ النَّاسَ يُرسَلُ عليهِم يومَ القيامةِ ريحٌ منتنةٌ حَتَّىٰ يتأَذَّىٰ منها كلُّ برٍّ وفاجر ، حتَّىٰ إِذا بلغت منهُم كلَّ مبلغ . . ناداهُم منادٍ يُسمعهم الصَّوتَ ويقولُ لَهم : هل تدرونَ هـٰذهِ الريحَ الَّتي آذتكُم ؟ فيقولون : لا ندري . فيُقال : أَلاَ إِنَّهَا ريحُ فُرُوجِ الزُّناةِ الَّذينَ لَقوا اللهَ بزِناهُم ولَم يَتوبوا منه ، ثُمَّ ينصرفُ بهِم .

واعلَمْ أَنَّهُ قد جاءَ في حفظِ الْفَرْجِ أَحاديثُ عظيمة ، منها : ما رواهُ البيهقيُّ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « يَا شَبَابَ قُرَيْش ؛ احْفَظُوا فُرُوجَكُم ، لاَ تَزْنُوا ، أَلاَ مَنْ حَفِظَ فَرْجَهُ . . فَلَهُ الْجَنَّة » .

وروى البخاريُّ : « مَنْ يَضْمَنْ لِيَ مَابَيْنَ لَحْيَيْهِ ـ أَي : لسانَهُ ـ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ ـ أَي : فرجَهُ ـ ضَمِنْتُ لَهُ الْجَنَّة » .

وروىٰ أَحمدُ : « اضْمَنُوا لِيَ سِتّاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّة ؛ أُصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُم ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُم ، وَأَدُّوا إِذَا ائْتُمِنْتُم ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُم ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُم ، وَكُفُّوا أَيْدِيكُم » .

وأَخرجَ الشَّيخانِ عن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّه : إِمَامٌ عَادِل ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ ، وَرَجُلٌ مُعَلَّقٌ قَلْبُهُ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّىٰ يَعُودَ إِلَيْه ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْه ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاه ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ حَسَبٍ وَجَمَالٍ فَقَال : إِنِّي أَخَافُ الله ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُه » .

وقد تبيَّنَ لكُم أَنَّ الزِّنا مِنَ الكبائرِ وهوَ بعدَ الشِّركِ باللهِ تعالىٰ ، وقالَ كثيرٌ مِنَ العلماء : إِنَّ الَّذي يلي الشِّركَ هوَ القتلُ ثمَّ الزِّنا .

واختلفَ العلماءُ في الزِّنا واللِّواطة ، أَيُّهُما أَعظمُ ؟

فقالَ جمع : إنَّ اللِّواطةَ أَعظم ؛ لِلتَّشديدِ الآتي ذِكرُه .

وقالَ في « الإحياء » : الزِّنا أَكبرُ مِنَ اللِّواط ؛ لأَنَّ الشَّهوةَ داعيةٌ إِليهِ مِنَ الجانبينِ فيكثرُ وقوعُهُ ويَعظمُ الضَّرَرُ لِكثرته ؛ أَي : ولأَنَّهُ يترتَّبُ عليهِ اختلاطُ الأَنساب .

قالَ ابنُ حجرٍ في « الزَّواجر » : اختلفَ أَهلُ العِلمِ في حدِّ اللُّوطي ، فذهبَ قومٌ إِلىٰ أَنَّ حدَّ الفاعلِ حدُّ الزِّنا ؛ إِنْ كانَ مُحصَناً . يُرجَم ، وإِنْ لَم يكنْ مُحصَناً . يُجلَدُ مئة ، وهوَ قولُ ابنِ المسيِّبِ وعطاءٍ والحسنِ والنَّخعي ، وبهِ قالَ الثَّوريُّ والأَوزاعي ، وهوَ أَظهرُ قولَي الشَّافعي ، وحُكيَ أَيضاً عن أَبي يوسفَ ومحمَّدِ بنِ الحسن .

وعلى المفعولِ بهِ عندَ الشَّافعيّ ـ علىٰ هـٰذا القولِ ـ جلدُ مئةٍ وتغريبُ عام ، رجلاً كانَ أَوِ امرأَة ، مُحصَناً أَو غيرَ مُحصَن .

وذهبَ قومٌ إِلىٰ أَنَّ اللُّوطيَّ يُرجَمُ ولَو غيرَ مُحصَن ، رواهُ سعيدُ بنُ جبيرٍ ومجاهدٌ عنِ ابنِ عبّاس ، وبهِ قالَ الزُّهريُّ والشَّعبي ، وهوَ قولُ مالكٍ وأَحمدَ وإِسحاقَ ، ورويَ عن حمّادِ بنِ إِبراهيم .

والقولُ الآخَرُ لِلشَّافعيِّ أَنَّهُ يُقتَلُ الفاعلُ والمفعولُ بهِ كما جاءَ في الحديث .

وقالَ الحافظُ المنذريُّ : حَرَقَ اللُّوطيَّةَ بالنَّارِ أَربعةٌ مِنَ الخلفاء : أَبو بكر ، وعلي ، وعبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُم وهشامُ بنُ عبدِ الملك .

وروى ابنُ أَبي الدُّنيا : أَنَّ خالدَ بنَ الوليدِ كتبَ إِلىٰ أَبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ أَنَّهُ وجدَ رجلاً في بعضِ ضواحي العربِ يُنكَحُ كما تُنكَحُ المرأَة ، فجمعَ لذلكَ أَبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ أَصحابَ رسولِ اللهِ وفيهِم عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ فقال : إِنَّ هـٰذا ذنبٌ لَم يَعملْ بهِ إِلاَّ أُمَّةٌ واحدةٌ ففعلَ اللهُ بهِم ما قد علمتُم ، أَرىٰ أَنْ تَحرقوهُ بالنَّار . فاجتمعَ رأَيُ أَصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ أَنْ يَحرقوهُ بالنَّار ، فأَمرَ بهِ أَبو بكرٍ أَنْ يُحرقَ بالنَّارِ فأَحرقَهُ خالد . اهـ

وفي « الميزان » أَنَّ حدَّ اللِّواطِ عندَ مالك ، والشَّافعيِّ في أَحدِ قولَيْه ، وأَحمدَ في أَظهرِ روايتيهِ الرَّجمُ بكلِّ حال ، ثيِّباً كانَ أَو بِكراً .

وعنِ الشَّافعيِّ في أَرجحِ قولَيْه ، وأَحمدَ في إِحدىٰ روايتيه : إِنَّ حدَّهُ كحدِّ الزِّنا .

وأَمَّا عندَ أَبي حنيفة : فإِنَّهُ يُعزَّرُ في أَوَّلِ مرَّة ، فإِنْ تكرَّرَ منه . . قُتِل . وجوَّزَ بعضُ الحنفيَّةِ أَنْ يُعزَّرَ بإِلقائه مِنْ شاهقٍ وإِنْ أَدَّىٰ إِلىٰ موته .

وليُعلَمْ أَنَّ ممَّا اختلفوا في حدِّهِ أَيضاً إِتيانَ البهيمة :

قالَ أَبو حنيفةَ ومالك ، والشَّافعيُّ في الرَّاجحِ مِنْ أَقواله : إِنَّهُ يُعزَّر ، وهيَ الرِّوايةُ الَّتي اختارَها الخرقيُّ مِنْ أَقوالِ أَحمد .

وعن مالكٍ في الرِّوايةِ الأُخرىٰ عنه ، والشَّافعيِّ في أَحدِ أَقواله : إِنَّهُ يُحد ، ويَختلفُ بالبكارةِ والثُّيوبة .

والقولُ الثَّالثُ لِلشَّافعيِّ : أَنَّهُ يُقتَل ، بكراً كانَ أَو ثيِّباً .

وأَمَّا البهيمة : فقالَ أَبو حنيفةَ إِنْ كانت ممَّا تُؤْكَل . . ذُبحَت ، وإِلا . . فلا[1] . وهوَ الرَّاجحُ عندَ أَصحابِ الشَّافعيِّ مِنْ عدَّةِ أَوجه ، معَ قولِ مالك : إِنَّها لا تذبحُ بحال ، ومعَ قولِ أَحمد : إِنَّها تذبح ، سواءٌ كانت لَهُ أَو لغيره ، وسواءٌ كانت ممَّا يُؤْكَلُ لَحْمُها أَم لا يُؤْكَل ، وعلى الواطىءِ قيمتُها لِصاحبِها .

وأَمَّا الاستمناءُ بالكف : فهوَ حرام ؛ وليسَ فيهِ حد . وعن بعضِ العلماءِ أَنَّهُ يُباحُ إِذا خِيفَ الزِّنا .

وقد ذكَر بعضُ الأَطباءِ أَنَّهُ ـ أَيضاً ـ يورثُ الخوفَ في الإِنسانِ وأَمراضاً عظيمةً في بدنه .

وأَمَّا المتعة : فإِنَّها حرام ؛ لأَنَّها منسوخة ، وليسَ علىٰ فاعِلها حدٌّ شرعي ، لٰكنَّ إِثمها قريبٌ مِنَ الزِّنا ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ وهٰذهِ ليست بزوجةٍ ولا ملكَ يمين ؛ لأَنَّها لو كانت زوجة . . لَوَرِثَتْ ـ مع أَنَّ الإِماميَّةَ

(١) قوله (فقال أَبو حنيفة) إلخ والذي يخطر بالبال أنَّ في كتب أئمتنا الحنفية أنه لو أتىٰ بهيمة . . تذبح وتحرق حتىٰ لا يبقى العار فليراجع . اهـ منه .

لا يقولونَ بوراثتِها أيضاً ـ فهيَ حرامٌ بإجماعِ الأئمَّةِ الأربعةِ عليهِمُ الرَّحمةُ والرِّضوان .

ولنذكر مِنَ الآياتِ والأحاديثِ المتعلِّقةِ باللِّواطةِ ونحوِها ممَّا تقدَّمَ ذِكرُهُ وما يلتحقُ بهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ :

فقد قالَ في « الزَّواجر » : أخرجَ ابنُ ماجه والتِّرمذيُّ والحاكمُ وصححه عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي عَمَلُ قَوْمِ لُوط » .

وأخرج الْحَاكِم : « مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ . . إلاَّ كَانَ الْقَتْلُ بَيْنَهُم ، وَلاَ ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ . . إلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُون ، وَلاَ مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ . . إلاَّ حُبِسَ عَنْهُمُ الْقَطْر » .

وروى الطَّبراني : « إِذَا ظُلِمَ أَهْلُ الذِّمَّة . . كَانَتِ الدَّوْلَةُ دَوْلَةَ الْعَدُو ، وَإِذَا كَثُرَ الزِّنَا . . كَثُرَ السَّبْي ، وَإِذَا كَثُرَ اللِّوَاط . . رَفَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَدَهُ عَنِ الْخَلْقِ فَلاَ يُبَالِي فِي أَيِّ وَادٍ هَلَكُوا » .

وعن أَبي هريرة رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « لَعَنَ اللهُ سَبْعَةً مِنْ خَلْقِهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَـٰوَات ، وَرَدَّ اللَّعْنَةَ عَلَىٰ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثلاثاً ولعن كل واحدمنهم لَعْنَةً تَكْفِيه ، قَال : مَلْعُونٌ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوط ، مَلْعُونٌ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوْط ، مَلْعُونٌ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوط ، مَلْعُونٌ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله ، مَلْعُونٌ مَنْ أَتَىٰ شَيْئاً مِنَ الْبَهَائِم ، مَلْعُونٌ مَنْ عَقَّ وَالِدَيْه ، مَلْعُونٌ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ امْرَأَةٍ وَأُخْتِها ، مَلْعُونٌ مَنْ غَيَّرَ حُدُودَ الله ، مَلْعُونٌ مَنِ ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ مَوَالِيه » .

وروى ابنُ حبّان في « صحيحه » والبيهقي : « لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ تُخُومَ الأَرْض[١] ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ كَمَّهَ أَعْمَىٰ عَنِ السَّبيل ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْه ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ تَوَلَّىٰ غَيْرَ مَوَالِيه ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوط » قالها ثلاثاً فيمَنْ عمِلَ عملَ قومِ لوط .

وروى الطَّبرانيُّ والبيهقي : « أَرْبَعَةٌ يُصْبِحُونَ فِي غَضَبِ اللهِ وَيُمْسُونَ فِي سَخَطِ الله »

---

(١) قوله (تخوم الأرض) : هي الحدود التي بينك وبين جارك . اهـ منه .

قلت : مَنْ هُمْ يا رسولَ اللهِ ؟ قال : « الْمُتَشَبِّهُونَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاء ، وَالْمُتَشَبِّهَاتُ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَال ، وَالَّذِي يَأْتِي البَهِيمَة ، وَالَّذِي يَأْتِي الرِّجَال » .

وروى ابنُ ماجه : « مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوط . . فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » .

وقالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : « إِنَّ اللُّوطِيَّ إِذَا مَاتَ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ . . مُسِخَ فِي قَبْرِهِ خِنْزِيراً » . وفي روايةِ أنس (رضي الله عنه) : أَنَّهُ يُحْشَرُ معَ قومِ لوط .

وروى الطَّبراني : « ثَلاَثَةٌ لاَ تُقْبَلُ لَهُمْ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الله : الرَّاكِبُ وَالْمَرْكُوب ، وَالرَّاكِبَةُ وَالْمَرْكُوبَة ، وَالإِمَامُ الْجَائِر » .

وروى ابنُ ماجه : « مَنْ أَتَىٰ حَائِضاً أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا ، أَوْ كَاهِناً فَصَدَّقَه بما يقول . . فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ .

وأَمَّا الآيات : فمنها قولُهُ تعالىٰ في حقِّ قومِ لوط : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ ﴾ أَي : لوطاً ﴿ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ .

قالَ العلماء : فأَعظمُ خبائثِهم إِتيانُ الذُّكورِ بحضرةِ بعضِهم .

ومنها : أَنَّهم كانوا يتضارطونَ في مجالسِهم ، ويمشونَ ويجلسونَ كاشفي عوراتِهم ، وكانوا يتحنّونَ ويتزيّنونَ كالنِّساء .

وذُكِرَ عنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما مِنْ خبائثِهم عشر : تصفيفُ الشَّعر ، ورميُ البندق ، والحَذْفُ بالحصا ، واللَّعبُ بالحمَامِ الطَّيارةِ ـ وقد ورد : « مَنْ لَعِبَ بِالحَمَامِ . . لَمْ يَمُتْ حَتَّىٰ يَذُوقَ أَلَمَ الْفَقْر » ـ والصَّفيرُ بالأَصابع ، وفرقعةُ العلك ، وإِسبالُ الإِزار ، وإِدمانُ شربِ الخمر ، وإِتيانُ الذُّكور ، وستزيدُ عليها هـٰذهِ الأُمَّةُ مساحقةَ النِّساء .

ورويَ أَيضاً مِنْ أعمالِهِم : اللَّعِبُ بالنَّرد ، والمهارشةُ بينَ[1] الكلاب ، والمناطَحةُ بالكِباش ، والمناقرةُ بالدُّيوك ، ودخولُ الحمّامِ بلا مئزر ، ونقصُ المكيالِ والميزان .

ولنذكر لكُم قصَّةَ إهلاكِ قومِ لوطٍ عليهِ السَّلام ؛ لتزدادوا عبرةً واتِّعاظاً ، فنقول :

قالَ في « التَّبصرة » : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ .

لوطٌ عليهِ السَّلامُ ابنُ هارانَ بنِ تارخ ، فهوَ ابنُ أخي إبراهيمَ الخليلِ عليهِ السَّلام ، وكانَ قد آمنَ بهِ وهاجرَ معَهُ إلى الشَّامِ بعدَ نجاتهِ منَ النَّار ، فنزلَ إبراهيمُ فِلسطينَ[2] ونزلَ لوطٌ الأُردنَّ[3] ، فأَرسلَ اللهُ تعالىٰ لوطاً إلىٰ أَهلِ سذوم[4] ـ وكانوا معَ كفرِهم باللهِ عزَّ وجلَّ يرتكبونَ الفاحشةَ ـ فدعاهُم إلىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ ونهاهُم عنِ الفاحشةِ فلَم يَزدهُم ذلكَ إلاَّ عتوّا ، فدعا اللهَ تعالىٰ أَنْ ينصرَهُ عليهِم ، فبعثَ اللهُ تعالىٰ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيل ، فأَقبلوا مشاةً في صورةِ رجالٍ شبّان ، فنزلوا علىٰ إبراهيمَ عليهِ السَّلام ، فقامَ يخدمُهم وقدَّمَ إليهمُ الطَّعامَ فلم يأكلوا ، فقالوا : لا نأكلُ طعاماً إلاَّ بثَمَنه .

قال : فإنَّ لَهُ ثَمناً .

قالوا : ما هوَ ؟

قال : تذكرونَ اسمَ اللهِ عزَّ وجلَّ علىٰ أوَّلهِ وتحمدونَهُ علىٰ آخره .

فنظرَ جبريلُ إلىٰ ميكائيلَ وقال : حُقَّ لهـٰذا أَنْ يتَّخِذَهُ اللهُ خليلاً .

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ أي : خافَ أَنْ يكونوا لصوصاً . فقالوا : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ فضحكت سارةُ تعجُّباً ، وقالت : نخدمُهم بأَنفُسِنا

---

(١) المهارشة : تحريش بعض الكلاب على بعض .

(٢) قولُهُ فِلَسطين . . هيَ كورةٌ بالشَّام وبلدٌ بالعراقِ كما في « القاموسِ » اهـ منه .

(٣) قولُهُ الأُردنُّ . . هي كورةٌ بالشَّام اهـ منه .

(٤) قولُهُ سَذوم . . في « القاموسِ » : سَذومُ اسمٌ لقريةِ قومِ لوطٍ ، غلط فيه الجوهري ، والصَّوابُ بالذّالِ المعجمةِ سذومُ اهـ منه .

ولا يأكلونَ طعامَنا! فقالَ جبريل : أَيَّتُها الضَّاحكة ، أَبشري بإِسحقَ ومِنْ وراءِ إِسحقَ يعقوب ، وكانتْ بنتَ تسعينَ سنةً ، وإِبراهيمُ ابنَ مئةٍ وعشرينَ سنة .

فلمّا سكنَ روعُ إِبراهيمَ وعلِمَ أَنَّهم ملائكة . . أَخذَ يناظرُهم ، وقال : أَتُهلِكونَ قريةً فيها أَربعُ مئةِ مؤمنٍ ؟! قالوا : لا ، قال : أَربعونَ . قالوا : لا ، قال : أَربعةَ عشرَ . قالوا : لا . وكان يعدُّهُم أَربعةَ عشرَ معَ امرأَةِ لوط .

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ فسكنَ واطمأَنَّتْ نفسُه .

ثمَّ خَرجوا مِنْ عندِهِ فجاؤُوا إِلىٰ لوطٍ وهوَ في أَرضٍ لَهُ يَعملُ فيها ، فقالوا : إِنَّا متضيِّفوكَ اللَّيلة ، فانطلَقَ بهِم والتفتَ إِليهِم في بعضِ الطَّريق ، فقال : أَما تعلمونَ ما يعملُ أَهلُ هٰذهِ القرية ؟ والله ، ما أَعلمُ علىٰ ظهرِ الأَرضِ أَخبثَ منهُم . فلمّا دخلوا منزلَه . . انطلقتِ امرأَتُهُ فأَخبرتْ بهِم قومَها .

قولُهُ تعالىٰ : ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أَي : أَساءَهُ مجيءُ الرُّسُلِ ؛ لأَنَّهُ لَم يَعرفْهُم فخافَ عليهِم مِنْ قومهِ ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أَي : شديد .

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ﴾ مجيءِ الأَضيافِ ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قالَ لوط : ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ يعني النِّساء ، ولكونِهنَّ مِنْ أُمَّتِهِ صارَ كالأَبِ لَهُم ، ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أَي : أَحلُّ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أَي : احذروا عقوبتَهُ ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ أَي : لا تفعلوا بهِم فعلاً يوجبُ حيائي ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ ؟! فيأْمرَ بمعروفٍ ، وينهىٰ عن منكرٍ ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أَي : مِنْ حاجةٍ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أَي : ما نريدُ إِلاَّ الرِّجالَ لا النِّساء .

﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ أَي : جماعةً أَقوىٰ بها عليكُم ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أَي : إِلىٰ عشيرةٍ منيعةٍ ، وإِنَّما قالَ هٰذا لأَنَّهُ كانَ أَغلَقَ بابَهُ وهُم يعالجونَ البابَ ويرومونَ تسوُّرَ الجدارِ ، فلمّا رأَتِ الملائكةُ ما يلقىٰ مِنَ الكرب :

﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ فافتَحِ البابَ ، ودَعْنا وإِيّاهُم . ففتحَ البابَ فدخلوا ، واستأْذنَ جبريلُ ربَّه في عقوبتِهم فأَذِنَ لَه ، فضربَ بجناحِهِ وجوهَهُم فأَعماهُم ،

فانصرَفُوا يقولون : النَّجاء ؛ النَّجاء ؛ فإِنَّ في بيتِ لوطٍ أَسحرَ قومٍ في الأَرض . وجَعلوا يقولون : كما أَنتَ حتَّىٰ تصبح ، يُوعدونَه .

فقالَ لَهُم لوط : متىٰ موعدُ هلاكِهم ؟ قالوا : الصُّبح . قال : لو أَهلكتموهُمُ الآنَ! فقالوا : ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ .

ثم قالتِ الملائكةُ لَه : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ فخرجَ بامرأَتهِ وابنتَيْهِ وغنمِهِ وبقرِهِ ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ أَي : ببقيَّةٍ تبقىٰ مِنْ آخرِه ، وأَوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إِلىٰ جبريل : تولَّ هلاكَهُم ، فلمّا طلعَ الصُّبح . . عدا عليهِم جبريلُ واحتمل بلادَهُم علىٰ جناحه ، وكانت خمسَ قرىٰ أَعظمُها سذوم ، في كلِّ قريةٍ مئةُ أَلف ، فلم يَنكَسِرْ في وقتِ رفعِهم إِناء ، ثمَّ صعدَ بها حتَّىٰ خرجَ الطَّيرُ في الهوىٰ أَينَ يذهب ، وسمعتِ الملائكةُ نباحَ كلابهِم ، ثمَّ كفأَها عليهِم ، وسمعوا وجبةً شديدة ، فالتفتتِ امرأَةُ لوطٍ فرماها جبريلُ بحجرٍ فقتلَها ، ثمَّ صعدَ حتَّىٰ أَشرفَ على الأَرض ، فجعلَ يتبعُ مسافرَهُم ورعاتَهُم ومَنْ تحوَّلَ عنِ القريةِ فرماهُم بالحجارةِ حتَّىٰ قتلَهُم ، وكانتِ الحجارةُ مِنْ سجِّيل ، قالَ أَبو عبيد : هوَ الشَّديدُ الصَّلبُ مِنَ الحجارة .

﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ أَي : معلَّمة . قالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : كانَ الحجرُ أَسودَ وفيهِ نقطةٌ بيضاء .

وقالَ الرَّبيع : كانَ علىٰ كلِّ حَجَرٍ مِنها اسمُ صاحبه .

﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ تخويفاً لِلمخالفينَ .

خاتمةٌ مهمَّةٌ :

قالَ في « الزَّواجر » : في هـٰذهِ الأُمَّةِ قومٌ يقالُ لَهم : اللُّوطيَّة ، وهيَ ثلاثةُ أَصناف : صنفٌ ينظرون ، وصنفٌ يُصافحون ، وصنفٌ يعملونَ ذلكَ العملَ الخبيث . ولذا قالَ بعضُهُم : النَّظرُ إِلى المرأَةِ والأَمردِ زنا ؛ لِما صحَّ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « زِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ ، وَزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ ، وَزِنَا الْيَدِ الْبَطْشُ ـ أَي : اللَّمسُ ـ وَزِنَا الرِّجْلِ الْخُطَا ، وَالنَّفْسُ تَتَمَنَّىٰ وَتَشْتَهِي » .

ورويَ أَنَّ وفدَ عبدِ القيسِ لمَّا قدِموا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ فيهِم أَمردُ حسن ، فأَجلسَهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خَلْفَ ظهره ، وقال : « إِنَّمَا كَانَتْ فِتْنَةُ دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مِنَ النَّظَر » وكانَ يقال : النَّظرُ بريدُ الزِّنا .

وفي الحديثِ الَّذي رواهُ المنذري : « يَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ جَلاَلُه : النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيس ، مَنْ تَرَكَهَا مِنْ مَخَافَتِي . . أَبْدَلْتُهُ إِيمَاناً يَجِدُ حَلاَوَتَهُ فِي قَلْبِه » .

ولقد أَحسنَ مَنْ قال :

كُـلُّ الْحَـوَادِثِ مَبْـدَاهَـا مِـنَ النَّظَـرِ ... وَمُعْظَـمُ النَّـارِ مِـنْ مُسْتَصْغَـرِ الشَّـرَرِ
وَالْمَـرْءُ مَـا دَامَ ذَا عَيْـنٍ يُقَلِّبُهَـا ... فِي أَعْيُنِ الْعِينِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ فَعَلَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا ... فِعْـلَ السِّهَـامِ بِـلاَ قَـوْسٍ وَلاَ وَتَـرِ
يَسُـرُّ نَـاظِـرَهُ مَـا ضَـرَّ خَـاطِـرَهُ ... لاَ مَـرْحَباً بِسُـرُورٍ عَـادَ بِـالضَّـرَرِ[1]

ولأَجلِ ذلكَ بالغَ الصَّالحونَ في الإِعراضِ عنِ المُرْدِ والنَّظرِ إِليهم ومجالستهِم ، قالَ الحسنُ بنُ ذكوان : لا تُجالسوا أَولادَ الأَغنياء ؛ فإِنَّ لَهُم صُوَراً كصُوَرِ العذارىٰ ، وهُم أَشدُّ فتنةً مِنَ النِّساء ، ولذا حرَّمَ كثيرٌ مِنَ العلماءِ الخلوةَ بالأَمردِ كالنِّساء ، بلِ الفتنةُ بهِ أَعظم ؛ لأَنَّهُ يمكنُ في حقِّهِ مِنَ الشَّرِّ ما لا يمكنُ في حقِّ النِّساءِ فهوَ بالتَّحريمِ أَولىٰ .

أَقول : ولذا رويَ عنِ الإِمامِ مالك ، وكذا الإِمامِ أَحمد ، أَنَّ لَمْسَهُ بشهوةٍ ناقضٌ كالمرأَة ، وسواءٌ في كلِّ ما ذكِرَ النَّظرُ مِنَ الصَّالحِ والطَّالح ، ومَنْ خالفَ هـٰذا . . فقد زيَّنَ لَهُ الشَّيطانُ عملَه .

قالَ ابنُ حجر : دخلَ سفيانُ الثَّوريُّ ـ وناهيكَ بهِ علماً وزُهداً ـ إِلى الحمّام ، فدخلَ

---

(١) وتمامها :

العيـن أصـل عنـاهـا فتنـة النظـر ... والقلـب كـل أذاه الشغـل بـالفكـر
فـالقلـب يحسـد نـور العيـن إذ نظـرت ... والعيـن تحسـده حقـاً علـى الفكـر
يقـول قلبـي لعينـي كلمـا نظـرت ... كـم تنظـريـن بـلاك الله بـالسهـر
فـالعيـن تـورثـه همـاً فتشغلـه ... والقلـب بـالـدمـع ينهـاهـا عـن النظـر
هـٰذان خصمـان لا أرضـى بحكمهمـا ... فـاحكـم فـديتـك بيـن القلـب والنظـر

عليهِ صبيٌّ حسنُ الوجه ، فقال : أَخرجوهُ عنِّي ، فإِنِّي أَرىٰ معَ كلِّ امرأَةٍ شيطاناً ، ومعَ كلِّ صبيٍّ بضعةَ عشرَ شيطاناً .

وجاءَ رجلٌ إِلى الإمامِ أَحمدَ ابنِ حنبلٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ ومعهُ صبيٌّ حسنُ الوجه ، فقالَ لَهُ الإمام : مَنْ هٰذا منكَ ؟ قال : ابنُ أَخي .

قال : لا تجيء به إِلينا مرَّةً أُخرىٰ ، ولا تمشِ معَهُ في الطَّريق ؛ لئلاَّ يظنَّ بكَ مَنْ لا يعرفكَ ولا تعرفُهُ سوءاً .

وقد نبَّهَ القرآنُ العظيمُ علىٰ أَنَّ النَّظرَ سببٌ للفعلِ الوخيمِ المستوجبِ لِلعذابِ الأَليمِ في قولهِ تعالىٰ : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ .

قالَ ناصرُ السُّنَّةِ ابنُ الجوزيِّ في « تبصرته » : وقد كانَ بعضُ السَّلفِ رحمةُ اللهِ عليهِم يُبالغونَ في الاحترازِ مِنَ النَّظر ، حذراً مِنْ فتنتهِ وخوفاً مِنْ عقوبته ، فأَمَّا فتنتُه : فكَمْ مِنْ عابدٍ خرجَ مِنْ صومعته بعدَ تعبُّدهِ بسببِ نظره ، وأَمَّا عقوبتُه : فقد روى ابنُ عبّاسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما ، أَنَّ رجلاً جاءَ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَتشلشلُ دماً ، فقالَ لَهُ « مَالَكَ ؟ » قال : مرَّت بيَ امرأَةٌ فنظرتُ إِليها ، فلَم أَزلْ أُتبعُها بصري فاستقبلني جدارٌ فضربني فصنعَ بي ما ترىٰ ، فقالَ : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْراً . عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا » .

وعن أَبي الأَديانِ قال : كنتُ معَ أُستاذي أَبي بكرٍ الدّقاق ، فمرَّ حدثٌ فنظرتُ إِليه ، فرآني أُستاذي وأَنا أَنظرُ إِليه ، فقال : يا بني ؛ لتجدَنَّ غِبَّها ولو بعدَ حين ، فبقيتُ عشرينَ سنةً وأَنا أُراعي ذلكَ الغب ، فنمتُ ليلةً وأَنا أَتفكَّرُ فيهِ فأَصبحتُ وقد نسيتُ القرآنَ كلَّه .

وعن أَبي عبدِ اللهِ الزَّرّادِ أَنَّهُ رؤيَ في المنام ، فقيلَ لَه : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي كلَّ ذنبٍ أَقررتُ به ، إِلاَّ واحداً استحييتُ أَنْ أُقرَّ به ، فواقفني في العرَقِ حتَّىٰ سقطَ لحمُ وجهي ، قيل : ما الذَّنبُ ؟ قال : نظرتُ إِلىٰ شخصٍ جميل .

وقد روىٰ أَبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « كُلُّ عَيْنٍ بَاكِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ عَيْنٌ غُضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ الله ، وَعَيْنٌ سَهِرَتْ فِي سَبِيلِ الله ، وَعَيْنٌ يَخْرُجُ مِنْهَا مِثْلُ الذّبَابِ ـ يعني : الدُّموعَ ـ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ »[1] .

فيا إِخواني ؛ تذكَّروا مصيرَ الصُّوَر ، وتفكَّروا في نزولِ الحُفَر ، واعلموا أَنَّ المصيرَ إِلى القبور ، وأَنَّ اللهَ سبحانَهُ يعلمُ خائنةَ الأَعينِ وما تُخفي الصُّدور .

إِنَّ الدُّنيا سمومٌ قاتلَة ، والنُّفوسُ عن مكائدِها غافلَة ، فكم نظرةٍ تحلو في العاجلةِ ومرارتُها لا تُطاقُ في الآجلَة ، فإِلىٰ متىٰ عينُكَ مطلَقةٌ في الحرام ؟! وقلبُكَ لا يخشى الملِكَ العلاّم ؟!

فيا عجباً لِلمشغولينَ بأَوطارِهِم عن ذِكرِ أَخطارِهم! لو تفكَّروا في حالِ صفائِهم في أَكدارِهم ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ .

الدُّنيا دارُ الآفاتِ والمِحَن ، كم غرَّتْ غِرّاً وما فَطِن! أَرتْهُ ظاهرَها والظَّاهرُ حَسَن ، فلمّا فتحَ عينَ الفِكرِ مِنْ رقادِ الوسَن . . قال : ربِّ ارجعونِ ولَنْ[2] .

ويح المقتولينَ بسيفِ اغترارِهم ، والشَّرعُ ينهاهُم عَنْ أَوزارِهم ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ .

أَينَ أَربابُ الهوىٰ والشَّهوات ؟ ذهبَتْ ـ واللهِ ـ اللَّذاتُ دونَ التَّبِعات ، وندموا إِذْ

---

(١) تنبيهٌ فيهِ فائدتانِ يكثرُ وقوعُهما والنَّاسُ عنهُما غافلون :

الأُولىٰ : إِنَّ نظرَ الكافراتِ إِلىٰ عوراتِ المسلماتِ حرام ، كالرِّجالِ عندَ إِمامنا الأَعظم ، وكذا رؤيةُ النِّساءِ وتلذُّذُهنَّ برؤيةِ الرِّجال .

الثَّانيةُ : قالَ أَبو الوفاءِ بنُ عقيلٍ الحنبلي : يَحرمُ خلوةُ النِّساءِ بالخصيانِ والمجبوبين ؛ إِذ غايةُ ما تجدُ فيهم عدمُ العضوِ أَو ضَعفُه ، ولا يمنعُ ذلك ؛ لإِمكانِ الاستمتاعِ بجسِّهم ولمسِهم واعتناقِهم ، والخصيُّ يقرع قَرْعَ الفحل ، والمجبوبُ يُساحقُ . اِنتهىٰ

وسنذكرُ بعضَ هـٰذا في الدَّرسِ الآتي إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، فلا تغفل . اهـ منه .

(٢) إِشارة إِلى قوله تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ .

قَدِمُوا علىٰ ما فات ، وتمنّوا بعدَ يبسِ العُودِ وهيهات ، فتلمَّحْ في الآثارِ سوءَ أذكارِهم ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ .

نازلَهُم الموتُ على الذُّنوب ، وأُسِروا في قيودِ الجهلِ والعيوب ، فرحلَتْ لذَّاتٌ خلَتْ مِنَ الأَفواهِ والقلوب ، وحَزِنوا على الفائتِ ولا حُزنَ يعقوب ، حينَ أُخرجوا مِنْ ديارِهم في تبابِ أَدبارِهم وعصا التَّوبيخِ في أَدبارِهم ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ .

اللَّهُم ؛ وفِّقنا لِلهدىٰ ، واعصمنا مِنْ أَسبابِ الجهلِ والرَّدىٰ ، وسلِّمنا مِنْ آفاتِ النُّفوسِ فإِنَّها شرُّ العِدا ، واجعلنا مِنَ المنتفعينَ بوَعْظِ خيارِهم ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ .

اللَّهُم ؛ اجعلْ أَبصارَنا مصروفةً إِلىٰ طاعتك ، وجوارِحنَا مشغولَةً بعبادتِك ، وأَذهبْ ظُلمةَ قلوبِنا بنورِ مغفرتك .

اللَّهُم ؛ إِنَّا إِنْ عصيناكَ بجوارحِنا . . فقلوبُنا بتوحيدكَ طائعة ، وأَفئدتُنا عندَ الشَّدائدِ إِليكَ راجعة ، فندعوكَ **اللَّهُم** ؛ اضطراراً بذُلِّ العبوديَّةِ ووثوقاً بكَرمِ الرُّبوبيَّة ، متبرِّئينَ مِنْ حَوْلِنا وقوَّتِنا ، راجعينَ إِلىٰ حَوْلكَ وقوَّتكَ أَنْ تَغفِرَ ذنوبَنا وتُحسنَ في الدَّارينِ عواقِبَنا ، وترحمَنا ووالدينا والمسلمين ، وتصلِّيَ وتسلِّمَ علىٰ محمَّدٍ وإِخوانهِ النَّبيِّينَ والمرسلين ، وعبادِكَ الصَّالحينَ وآلهِ أَجمعين .

* * *

المجلسُ السَّابعُ والعشرونَ
في التزوج وما يتعلق بأَحكامِ النساء

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي لا مثلَ لَهُ يُوجَد ، ولا إِلـٰهَ سواهُ يُعبَد ، ولا كريمَ غيرُهُ يُقصَد ، قدرتُهُ تجمعُ ما انتشرَ وتَبدَّد ، ومشيئتُهُ تُظهرُ ما تكوَّنَ وتجدَّد ، وإِرادتُهُ نافذةٌ بمَنْ أَلحدَ ووحَّد ، وحِلْمُهُ يَسعُ مَنْ عتىٰ وتَمرّد ، ولا يَعزبُ عن سمعه صوتُ الحَمامِ إِذا غرَّد ، ولا أَنينُ المذنبِ إِذا قامَ يتهجَّد ، ولا يغيبُ عن نظرهِ سوادُ النَّملِ في اللَّيلِ الأَسود ، ذابَ لهيبتهِ الصَّخرُ والجلمد ، وأَحاطَ عِلمُهُ بحالِ الفكرِ كلَّما جالَ وتردَّد ، وتنزَّهَ عنِ الشَّريكِ وتعالىٰ عنِ المُعينِ والصّاحبةِ والولد ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .

أَحمدُهُ وهوَ أَحقُّ مَنْ يُحمَد ، وأَشهدُ أَنْ لا إِلـٰهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ شهادةً تُقبَلُ وتَصعد ، وأَشهدُ أَنَّ سيِّدنا وسندَنا ، وذخرَنا وملاذَنا ، محمَّداً عبدُهُ ورسولُه ، وصفيُّهُ وخليلُهُ المزَّمِّلُ المدَّثِّر ، الحامدُ الأَحمد .

وأُصلِّي وأُسلِّمُ عليهِ وعلىٰ آلهِ وصحبهِ وجُنده وحِزْبه ، لا سيّما علىٰ أَبي بكرٍ الصِّديقِ أَوّلِ مَنْ أَنفقَ وأَسعد ، وعلىٰ عمرَ بنِ الخطّابِ المحدَّثِ[1] الموفَّقِ الأَرشد ، وعلىٰ عثمانَ بنِ عفّان الكريمِ الأَمجد ، وعلىٰ عليِّ بنِ أَبي طالبٍ بحرِ العلمِ الزَّاخرِ الَّذي لا يَنفد ، صلاةً وسلاماً دائمَينِ باقيينِ ما غنَّىٰ حمامٌ علىٰ غصنٍ وغرَّد .

أَمَّا بعد : فقد روى الإِمامُ مسلمٌ والإِمامُ البخاريُّ عليهما رحمةُ الملِكِ الباري ، عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ أَنَّهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم :

---

(١) قولُهُ (محدث) كمحمَّد : الصادق . قاله في « القاموس » اهـ منه .

« يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ ؛ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَة . . فَلْيَتَزَوَّجْ ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ . . فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاء »[1] .

فنقولُ (وباللهِ تعالى التَّوفيقُ :

قد تقدَّمَ أَنَّ الزِّنا ودواعيه مِنَ الكبائر ، وأَنَّ صاحبَهُ ممقوتٌ في الدُّنيا وهالكٌ في اليومِ الآخِرِ ، ومِنْ أَعظمِ أَسبابِهِ الدَّاعيةِ لذلكَ مِنَ المرأَةِ والرَّجُلِ عدمُ الزَّواج ؛ إِذْ بالعزوبةِ يكونُ لَهُ رواج ، فلذلكَ ولأَجلِ بقاءِ نوعِ بني آدمَ إِلىٰ ما شاءَ اللهُ تعالىٰ أَمرَ اللهُ تعالىٰ في كتابهِ الكريمِ بالنِّكاح ، وحضَّ عليهِ رسولُهُ الرَّؤُوفُ الرَّحيمُ وأَباحَ لَنا مِنهُ ما أَباح .

فلنُبيِّنْ لكُم في هٰذا الدَّرسِ ـ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ ما يتعلَّقُ بذلك ؛ لِتسلُكوا منهُ أَحسنَ المسالك ، فاسمعوا وعُوا ، واقبلوا ما روتهُ العلماءُ واتَّبعوا .

قالَ الشَّعرانيُّ في « الميزان » : أَجمعَ الأُمَّةُ علىٰ أَنَّ النِّكاحَ مِنَ العقودِ الشَّرعيَّةِ المسنونةِ بأَصلِ الشَّرع ، واتَّفقَ الأَئِمَّةُ على استحبابِهِ لمَنْ تاقتْ نَفْسُهُ إِليهِ وخافَ الزِّنا ، ويكونُ في حقِّهِ أَفضلَ لَهُ مِنَ الحجِّ والجهادِ والصَّلاةِ والصَّومِ التَّطوُّع .

واتَّفقوا علىٰ أَنَّهُ إِذا قصدَ نِكاحَ امرأَة . . سُنَّ لَهُ نظرُهُ إِلىٰ وجهِها وكفَّيها ، خلافاً لِداوود ؛ فإِنَّهُ قال : يجوزُ النَّظرُ إِلىٰ سائرِ جسدِها خلا السَّوأَتَين .

وأَمَّا ما اختلفوا فيه . . فمِنْ ذلك : قولُ مالكٍ والشَّافعي : إِنَّ النِّكاحَ مستحبٌّ لمحتاجٍ إِليهِ يجدُ أَهبتَه ، معَ قولِ أَحمد : إِنَّهُ متىٰ تاقت نَفْسُهُ إِليهِ وخشيَ العنت . . وجب ، ومعَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّهُ يُستحبُّ مطلقاً بكلِّ حال ، ومعَ قولِ داوودَ الظَّاهريِّ بوجوبهِ مطلقاً على الرَّجلِ والمرأَةِ لٰكنْ مرَّةً في العمر .

قلت : لٰكنْ في « الدُّرِّ المختار » لِلحصكفيِّ الحنفي : والنِّكاحُ يكونُ واجباً عندَ

---

(١) قوله في القاموس وجَاً : دق عروق خصيبه بين حجرين ولم يخرجهما ، والمراد من الحديث . . أن الصوم بمنزلة الخصاء له . اهـ منه .

التَّوقان ، فإنْ تيقَّنَ الزِّنا إلاَّ به . . فُرِضَ أَو تسرَّىٰ جارية ، وهـٰذا إِنْ مَلَكَ المهرَ والنَّفقة .

وسُنَّةً : حالَ الاعتدال ؛ أَي : القدرةِ علىٰ وطءٍ ومهرٍ ونفقة .

ومكروهاً : لخوفِ الجور ، فإِنْ تيقنَه . . حرمَ ذلك .

وينبغي النَّظرُ إِليها قَبْلَه .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعيِّ وأَحمد : إِنَّهُ لا يصحُّ العقدُ إِلاَّ بوليٍّ ذكَر ، فإِنْ عقدتِ المرأَةُ النِّكاح . . فهوَ باطل .

معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّ لِلمرأَةِ أَنْ تتزوَّجَ بنَفْسِها وأَنْ توكِّلَ في نِكاحِها إِذا كانتْ مِنْ أَهلِ التَّصرُّفِ في مالِها ، ولا اعتراضَ عليها إِلاَّ أَنْ تضعَ نَفْسَها في غيرِ كُفءٍ فهناكَ يَعترضُ الوليُّ عليها .

ومعَ قولِ مالك : إِنْ كانتْ ذات شرفٍ ومالٍ يُرغَبُ في مِثْلِها . . لَم يَصحَّ نكاحُها إِلاَّ بولي ، وإِنْ كانت بخلافِ ذلك . . جازَ أَنْ يتولَّىٰ نكاحَها أَجنبيٌّ برضاها .

ومعَ قولِ داوود : إِنْ كانت بِكراً . . لَم يصحَّ نكاحُها بغيرِ ولي ، وإِنْ كانت ثيِّباً . . صح .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعي : إِنَّ لِلجدِّ والأَبِ تزويجَ البكرِ بغيرِ رضاها ، صغيرةً كانت أَو كبيرة ، وبذلكَ قالَ مالكٌ في الجَد ، وهوَ أَشهرُ الرِّوايتَينِ عن أَحمدَ في الجَد .

معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّ تزويجَ البِكرِ البالغةِ العاقلةِ بغيرِ رضاها لايصحُّ لأَحد .

ومعَ قولِ مالك ، وأَحمدَ في إِحدى الرِّوايتَين : إِنَّهُ لا يثبتُ لِلجَدِّ ولايةُ الإِجبار ، بخلافِ الأَب .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثة : إِنَّهُ لا يجوزُ لغيرِ الأَبِ تزويجُ الصَّغيرةِ حتَّىٰ تبلغَ وتأْذن ، معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّ ذلكَ يجوزُ لسائرِ العصباتِ غيرَ أَنَّها يثبتُ لها الخيارُ إِذا بلغَت .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعيِّ وأَحمد : إِنَّهُ لا يثبت النِّكاحُ إِلاَّ بشاهدَينِ عدلَينِ

ذَكَرين ، معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّهُ ينعقدُ برَجُلٍ وامرأَتين وبشهادةِ فاسقَين .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثة : إِنَّهُ يجوزُ لِلمسلمِ أَنْ يتزوَّجَ كتابيَّةً مِنْ وليِّها الكتابي ، خلافاً لأَحمد .

ومِنْ ذلك : إذا تزوَّجَها لأَجْلِ أَنْ تحلَّ للأَوَّل :

فعندَ أَبي حنيفة : النِّكاحُ صحيح ، وعن مالكٍ وأَحمدَ أَنَّهُ لا يصح ، وعنِ الشَّافعيِّ أَنَّهُ مكروه ، والبحثُ في ذلكَ طويل .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفة : إِنَّهُ لا يُفسخُ النِّكاحُ بشيءٍ مِنَ العيوب ، وإِنَّما لِلمرأَةِ الخيارُ في الجبِّ والعُنَّةِ فقط .

معَ قولِ مالكٍ والشَّافعي : إِنَّهُ يثبتُ في ذلكَ كلِّهِ الخيارُ إِلاَّ في الفتق .

ومعَ قولِ أَحمدَ بثبوتهِ في الكل .

والعيوبُ تسعة : وهي : الجنون ، والجذام ، والبرَص ، والجب ، والعُنَّة ، والقَرَنُ ؛ وهو : عظمٌ في الفَرْج ، والرَّتق ؛ وهو : انسداده ، والفتق ؛ وهو : انخراقُه ، والعفل ؛ وهو : لحمٌ يكونُ في الفَرْج .

ومِنْ ذلك : أَنَّ أَقلَّ الصَّداقِ عندَ أَبي حنيفةَ ما تُقطعُ بِهِ يدُ السَّارق ؛ وهو : عشرةُ دراهمَ أَو دينار ، وعندَ مالكٍ ثلاثةُ دراهم ، وقالَ الشَّافعيُّ وأَحمد : لا حدَّ لأَقلِّه .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعي : إِنَّ العزلَ[1] عنِ الحرَّةِ ولو بغيرِ إِذنِها جائزٌ معَ الكراهة .

معَ قولِ الثَّلاثةِ : إِنَّهُ لا يجوزُ إِلاَّ بإِذنِها ، انتهىٰ باقتصار .

ولنذكُر لكُمُ الأَحاديثَ والآثار :

قالَ في « كشفِ الغمَّة » : كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « إِذَا أَفَادَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً أَوْ خَادِماً أَوْ دَابَّة . فَلْيَأْخُذْ بِنَاصِيَتِهَا ، ولْيَقُل : اللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهَا وَخَيْرِ

---

(١) قوله (العزل) هو أن يخرج ذكره عند إرادة الإنزال اهـ منه .

مَا جُبِلَتْ عَلَيْه ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا جُبِلَتْ عَلَيْه » .

وعن أَنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْقَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ طَاهِراً مُطَهَّراً . . فَلْيَتَزَوَّجِ الْحَرَائِر » رواهُ في « التَّرغيب » .

وروىٰ أَيضاً عن عبدِ اللهِ بن عمرِو بنِ العاص : اَلدُّنيا متاع ، وخيرُ متاعِها امرأَةٌ تُعينُ زوجَها على الآخرة ، مسكينٌ مسكينٌ رَجُلٌ لا امرأَةَ لَه ، مسكينةٌ مسكينةٌ امرأَةٌ لا زوجَ لها .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « أَرْبَعٌ مَنْ أُعْطِيَهُنَّ فقَدْ أُعْطِيَ خيرَ الدُّنْيا وَالآخِرَة : قَلْباً شَاكِراً ، وَلِسَاناً ذَاكِراً ، وَبَدَناً عَلَى الْبَلاءِ صَابِراً ، وَزَوْجَةً لاَ تَبْغِيهِ حُوباً[1] فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ » .

وعن محمَّدِ بنِ سعدِ بنِ أَبي وقّاص ، عن أَبيهِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُم ، أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « ثلاثَةٌ مِنَ السَّعَادَة : الْمَرأَةُ تَرَاهَا تُعْجِبُك ، وَتَغِيبُ تَأْمَنُها عَلَىٰ نَفْسِهَا وَمَالِك ، وَالدَّابَّة تَكُونُ طَيِّبَةً فَتُلْحِقُكَ بِأَصْحَابِك ، وَالدَّارُ تَكُونُ وَاسِعَةً كَثِيرَةَ الْمَرَافِق .

وَثلاثَةٌ مِنَ الشَّقَاوَة : الْمَرأَةُ تَرَاهَا تَسُوؤُك ، وَتَحْمِلُ لِسَانَهَا عَلَيْك ، وَإِنْ غِبْتَ لَمْ تَأْمَنْهَا ، وَالدَّابَّةُ تَكُونُ قطوفاً ، فَإِنْ ضَرَبْتَهَا . . أَتْعَبَتْك ، وَإِنْ تَرَكْتَها . . لَمْ تُلْحِقْكَ بِأَصْحَابِك ، وَالدَّارُ تَكُونُ ضَيِّقَةً قَلِيلَةَ الْمَرافِق » . رواهُ الحاكمُ .

وعن أَنسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « مَنْ رَزَقَهُ اللهُ امْرَأَةً صَالِحَة . . فَقَدْ أَعَانَهُ عَلَىٰ شَطْرِ دِينِه ، فَلْيَتَّقِ اللهَ تَعَالَىٰ فِي الشَّطْرِ الآخَر » رواهُ الطَّبرانيُّ .

وعن أَنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لِعِزِّهَا . . لَمْ يَزِدْهُ اللهُ تَعَالَىٰ إِلاَّ ذُلاً ، وَمَنْ تَزَوَّجَهَا لِمَالِهَا . . لَمْ يَزِدْهُ اللهُ تَعَالَىٰ إِلاَّ فَقْراً ، وَمَنْ تَزَوَّجَهَا لِحُسْنِهَا . . لَمْ يَزِدْهُ اللهُ تَعَالَىٰ إِلاَّ دَنَاءَة ، وَمَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لَمْ يُرِدْهَا إِلاَّ أَنْ

---

(١) الحُوب : الإِثم وله معان أخر . اهـ منه .

يَغُضَّ بَصَرَهُ وَيُحَصِّنَ فَرْجَهُ وَيَصِلَ رَحِمَه . . بَارَكَ اللهُ لَهُ فِيهَا وَبَارَكَ لَهَا فِيه » .

وقال : « تَزَوَّجُوا الودود الوَلُود ؛ فإنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَم » .

وقال : « إنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنَهُمْ خُلُقاً وَأَلْطَفَهُم بِأَهْلِه » .

وقال : « لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَى امْرَأَةٍ لاَ تَشْكُرُ لِزَوْجِهَا وَهِي لاَ تَسْتَغْنِي عَنْه » .

ولذلكَ وردَ أَيضاً في حديثٍ آخَر : « لاَ يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَر ، وَلَوْ صَلُح . . لأَمَرْتُ الْمَرأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا ؛ لِعِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا » .

وفي حديثٍ آخَر : « إذا دَعَا رَجُلٌ امْرَأَتَهُ إِلىٰ فِرَاشِهِ فَلَمْ تَأْتِه ، فَبَاتَ وَهُوَ عَلَيها غَضْبَان . . لَعَنَتْهَا الْمَلاَئِكَةُ حَتَّىٰ تُصْبِح » .

وفي حديثٍ آخَر : « إذا خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِها وَزَوْجُهَا كَارِه . . لَعَنَهَا كُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي الأَرْض » .

وقد أُمرَ الرِّجالُ أَيضاً بالإِحسانِ إليهنَّ ومداراتهن ؛ فقد وردَ عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَنَّهُ قال : « كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْماً أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوت » رواهُ أَبو داوود .

وروى الشَّيخان . « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه ، وَالْمَرأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِها ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه » .

وروىٰ مسلمٌ والتِّرمذي : « أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُل : دِينَارٌ يُنفِقُهُ عَلَىٰ عِيَالِه ، وَدِينَارٌ يُنفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَىٰ دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ الله ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ الله » .

وروى الطبراني : « مَنْ أَنْفَقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ نَفَقَةً يَسْتَعِفُّ بِهَا . . فَهِيَ صَدَقَة ، وَمَنْ أَنْفَقَ عَلَى امْرَأَتِهِ وَوَلَدِهِ وَأَهْلِ بَيْتِه . . فَهِيَ صَدَقَة » .

وروىٰ أَيضاً : « أَوَّلُ مَا يُوضَعُ فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ نَفَقَتُهُ عَلَىٰ أَهْلِه » .

وفي حديثٍ آخر : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَكُونُ لَهُ ثَلاَثُ بَنَاتٍ فَيُنْفِقُ عَلَيْهِن . . إِلاَّ كُنَّ لَهُ

حِجَاباً مِنَ النَّار » وفي رواية : « فَأَدَّبَهُنَّ ، وأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ ، وَزَوَّجَهُنَّ . فَلَهُ الْجَنَّة » .

وأَخرجَ الطبراني : « مَا مِنْ ذِي مَحْرَمٍ يَأْتِي ذُو رَحِمِهِ إِلَيْهِ فَيَسْأَلُهُ فَضْلاً أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ إِيَّاهُ فَيَبْخَلُ عَلَيْه . . إِلاَّ أَخْرَجَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ جَهَنَّمَ حَيَّةً يُقَالُ لَهَا : شُجَاع ، تَتَلَمَّظُ فَتَطَوّقُ بِه » .

وقالَ صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وسلَّم : « اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ[١] ؛ فإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ـ أَي : خُلِقَتْ حَوَّاءُ مِنْ ضِلَعِ آدَمَ اليُسرىٰ ـ وَإِنَّ أَعْوَجَ مَا فِي الضِّلَعِ أَعْلاَه ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُه . . كَسَرْتَه ، وَإِنْ تَرَكْتَه . لَمْ يَزَلْ أَعْوَج » وفي رواية : « فَدَارِهَا تَعِشْ بِهَا » .

ولذلكَ أُمِرَ الرِّجالُ بالعدلِ بينَ النِّساء ، فقد روىٰ أَبو هريرة [رضي الله عنه] عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ امْرَأَتَانِ فَلَمْ يَعْدِلْ بَيْنَهُمَا . . جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ سَاقِط » حَتَّىٰ عدَّ ذلكَ ابنُ حجرٍ مِنَ الكبائر .

وعدَّ منها أَيضاً : إِفشاءَ أَحدِهما سرَّ صاحبه ؛ فقد أَخرجَ مسلمٌ وأَبو داوودَ عن أَبي سعيدٍ الخدري ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَة : الرَّجُلُ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ ، ثُمَّ يَنْشُرُ أَحَدُهُمَا سِرَّ صَاحِبِه » .

وروىٰ أَبو داوودَ : « أَلاَ عَسَىٰ أَحَدُكُمْ أَنْ يَخْلُوَ بِأَهْلِهِ يُغْلِقُ بَاباً ، ثُمَّ يُرْخِي سِتْراً ، ثُمَّ يَقْضِي حَاجَتَه ، ثُمَّ إِذا خَرج . . حَدَّثَ أَصْحَابَهُ بِذلك ، أَلاَ عَسَىٰ إِحْدَاكُنَّ أَنْ تُغْلِقَ بَابَهَا ، وَتُرْخِيَ سِتْرَهَا ، فَإِذَا قَضَتْ حَاجَتَهَا . . حَدَّثَتْ صَوَاحِبَهَا » فقالتِ امرأَة : يا رسولَ الله ؛ إِنَّهُنَّ ليفعلْنَ وإِنَّهم ليَفعلونَ ؟ قال : « فَلاَ يَفْعَلُوا ؛ فَإِنَّ ذلِكَ مِثْلُ شَيْطَانٍ لَقِيَ شَيْطَانَةً عَلَىٰ قَارِعَةِ الطَّرِيقِ ، فَقَضَىٰ حَاجَتَهُ ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَتَرَكَهَا » .

وكذلكَ مِنَ الكبائر : أَنْ يُجَامِعَ الرَّجُلُ حليلتَهُ بحضرةِ امْرَأَةٍ أَجنبيَّةٍ أَو رجل .

---

(١) وعلىٰ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ اهـ منه .

وكذا مِنَ الكبائر : لبسُ المرأةِ ثوباً رقيقاً يَصِفُ بشرتَها وميلَها وإمالتَها ؛ فقد أخرجَ مسلمٌ وغيرُهُ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « صِنفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا : قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاس ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَات[1] ، مُمِيلاَتٌ[2] مَائِلاَتٌ[3] مُتَمَيِّلاَت ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ[4] الْبُخْتِ[5] الْمَائِلَة ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وكذا » .

والمراد : كاسياتٌ صورةً عارياتٌ معنى ، بأَنْ يَلبسنَ ثوباً رقيقاً .

روى ابنُ حبّان : « يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَىٰ سُرُجٍ كَأَشْبَاهِ الرِّجَال ، يَنْزِلُونَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الْمَسَاجِد ، نِسَاؤُهُم كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ عَلَىٰ رُؤُوسِهِم كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَاف ، الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَات » .

عن عائشةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها أَنَّ أُختها أَسماءَ دخلَتْ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعليها ثيابٌ رِقاق ، فأَعرضَ عنها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقال : « يَا أَسْمَاء ؛ إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذا بَلَغَتْ زَمَنَ الحَيْض . لَمْ يَصْلُحْ أَنْ يُرَىٰ مِنْهَا إِلاَّ هَـٰذا » وأَشارَ إِلىٰ وجهِها وكفَّيها .

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « إِنَّ الرُّقَىٰ والتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْك » والتِّولةُ : شيءٌ تصنعهُ النِّساءُ يتحببنَ إِلىٰ أَزواجِهِن .

فاعتقادُ ذلكَ حرام ؛ لأَنَّهُ مِنَ السِّحر ، ويعتقدونَ أَنَّها تجلبُ نفعاً أَو تدفعُ ضرراً بنفسها ، لـٰكنَّ تعليقَ الآياتِ القرآنيَّةِ جائز ، وكذلكَ جعلُها رقيةً لمريضٍ أَو لديغ ؛ لأَنَّها شفاءٌ ورحمة ، بخلافِ الأَلفاظِ الَّتي لا يُعرفُ معناها مِنْ غيرِ اللُّغاتِ العربيَّةِ فإِنَّهُ

---

(١) أي : ثيابهن شفافة تصف ماتحتها ، أو محسورة لا تستر .

(٢) أي : مميلات لأكتافهنّ أثناء المشي ، ومميلات للناظر لهنّ .

(٣) أي : مائلات عن الحق ، أو مائلات يمشين بتبختر وميوعة .

(٤) السَّنَم : أعلى كل شيء .

(٥) البخت : جمال طويلة الأعناق .

لا تجوزُ قراءتُهُ ولا التَّعوُّذُ به ، كما هوَ مفصّلٌ في الكتبِ الشَّرعيّة .

ومِنَ الكبائرِ أَيضاً : الوشم ، وإِيصالُ الشَّعر ، ونحو ذلك ؛ فقد رويَ عن أَسماءَ بنتِ أَبي بكرٍ الصِّدّيق ، رضيَ اللهُ عنهما أَنَّها قالت : جاءَتِ امرأَةٌ إِلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَت : يا رسولَ الله ؛ إِنَّ لي ابنةً عروساً ، وإِنَّهُ أَصابَها حصبٌ فتمزَّقَ شعرُها وسقط ، أَفأَصِلُه ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لَعَنَ اللهُ الوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَة ، وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَة ، وَالنَّامِصَةَ وَالْمُتَنَمِّصَة ، وَالْوَاشِرَةَ وَالْمُسْتَوْشِرَة ، وَالْمُتَفَلِّجَةَ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَةَ خَلْقَ الله » .

قالَ العلماء : والنَّامصة : ناتفةُ الشَّعرِ مِنَ الوجهِ[١] .

والواشرة : الَّتي تنشرُ الأَسنانَ حتَّىٰ تكونَ محدودةً رقيقة ، تفعلُهُ المرأَةُ الكبيرةُ تشبُّهاً بالحديثةِ السِّن[٢] .

والواشمة : الَّتي تغرزُ اليدَ أَو نحوَها بإِبرةٍ ثمَّ تحشىٰ بالكحلِ أَو بدخانِ الشَّحمِ حتَّىٰ يخضر .

لٰكنْ لا بأْسَ بالخضاب ، فقد كانتْ عائشةُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها تقولُ للنِّساء : ليسَ عليكُنَّ بأْسٌ في الخضابِ بالحِنّاءِ بينَ كلِّ حيضتَين ، أَو عندَ كلِّ حيضة ، فإِنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كان يَكرهُ الرَّجلَةَ مِنَ النِّساء[٣] . ورأَىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ امرأَةً أَظفارُها بيضٌ فأَمرَها أَنْ تخضبَهُم بالحنّاء .

وكانَ صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وسلَّمَ يأْمرُ أَهلَ العروسِ بإِصلاحِ أَمرِها للدُّخول ، وأَنْ يُكثِرُوا عليها مِنَ الطِّيبِ بعدَ غسلِ رأْسِها وبَدَنِها ، وأَنْ يُلبسوها الحلي ، وكذلكَ كانَ يأْمرُ أَهلَ الزَّوج .

---

(١) وهٰذا ما تفعله بعض النساء فتنتف شعر حاجبها ليدق ؛ وهو حرام ، وفي الأمر سعة إذا أدى ذلك لشين ولم تقصد التشبه وأذن زوجها ، وللمسألة نظائر فهي اجتهادية ، والله أعلم .

(٢) وهٰذا معنى المتفلّجة للحسن .

(٣) وفي الحديث « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجلة من النساء » وهي : المتشبهة بالرجال في زيهم وهيآتهم .

لكنْ ينبغي للمرأةِ أَنْ لا تُظهِرَ زينتَها للأَجانب ؛ فقد أَخرجَ أَبو داوودَ عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قال : « كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَة ، وَالْمَرْأَةُ إِذا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِس . . فَهِيَ زَانِيَة » .

وروى ابنُ ماجه : بينما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المسجدِ دخلَتِ امرأَةٌ مِنْ مُزينةَ ترفلُ في زينةٍ لَها في المسجد ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « يا أَيُّها النَّاس ؛ انهَوْا نِسَاءَكُمْ عَنْ لُبْسِ الزِّينَةِ وَالتَّبَخْتُرِ فِي الْمَسْجِد ؛ فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يُلْعَنُوا حتَّىٰ لَبِسَ نِسَاؤُهُمُ الزِّينَةَ وَتَبَخْتَرُوا فِي الْمَسَاجِد » .

وكَما يُستحبُّ تزيُّنُ المرأَةِ لزوجِها يُستحبُّ لَهُ أَيضاً التَّزيُّنُ لَها ؛ فقد كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « اغْسِلُوا ثِيَابَكُم ، وخُذُوا مِنْ شُعُورِكُم ، وَاسْتَاكُوا ، وتَزَيَّنُوا ؛ فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكُونُوا يَفْعَلُوا ذلكَ فَزَنَتْ نِسَاؤُهُم » .

وكانَ عطاء ـ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ ـ يقول : سمعتُ ابنَ عبَّاسٍ يقول : إِنِّي أُحبُّ أَنْ أَتزيَّنَ لِزوجتي كما أُحبُّ أَنْ تتزيَّنَ لي .

واعلموا أَنَّ السّيوطيَّ قد روىٰ في كتابه : « الأَجرُ الجزلُ في الغَزْل » عن عائشةَ ـ رضيَ اللهُ عنها ـ قالَت : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لاَ تُسْكِنُوهُنَّ الْغُرَف ، وَلاَ تُعَلِّمُوهُن الْكِتَابَة ، وَعَلِّمُوهُنَّ الْغَزْلَ وَسُورَةَ النُّور » .

وقد وردَ في فضلِ الغزلِ أَحاديثُ كثيرة .

منها : عن عبدِ اللهِ بن ربيع ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « عَلِّمُوا أَبْنَاءَكُمُ السِّبَاحَةَ والرِّمَايَة ، وَنِعْمَ لَهْوُ الْمُؤْمِنَةِ فِي بَيْتِهَا الْغَزْل » .

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ مرفوعاً : « لاَ تُعَلِّمُوا نِسَاءَكُمُ الْكِتَابَةَ وَلاَ تُسْكِنُوهُنَّ الْعَالي » وقال : « خيرُ لهوِ المؤمنِ السِّباحة ، وخيرُ لهوِ المرأَةِ المغزل » .

وعن سهلٍ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « عَمَلُ الأَبْرَارِ مِنَ الرِّجَال : الخِيَاطَة ، وَعَمَلُ الأَبْرَارِ مِنَ النِّساء : الْغَزْل » .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنه عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « زَيِّنُوا مَجَالِسَ نِسَائِكُمْ بالمغزل » .

وقالَ زياد : دخلتُ علىٰ أُمِّ سَلمةَ رضيَ اللهُ عنها وبيدِها مغزلٌ لتغزلَ به ، فقلت : كلَّما أَتيتُكِ وجدتُ في يدِكِ مغزلاً ، فقالَت : إِنَّهُ يطردُ الشَّيطانَ ويُذهبُ حديثَ النَّفس ، وإِذ بلغني أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « إِنَّ أَعْظَمَكُنَّ أَجراً أَطْوَلُكُنَّ طَاقَة » والأَحاديثُ كثيرة .

تنبيهٌ يلزمُ بيانُهُ لِما ذكرنا أَنَّ المرأَةَ عورة ، ويقتضي أَنْ لا تُبْديَ زينتَها للأَجانب ، فنقول :

اختلفوا في حدودِ العورةِ في الصَّلاةِ لِلرَّجُل : فقالَ أَبو حنيفةَ ومالكٌ والشَّافعيُّ وأَحمدُ في إِحدى الرِّوايتينِ عنه : هيَ ما بينَ السُّرَّةِ والرُّكبة .

وقالَ أَحمدُ في الأُخرىٰ ـ وهيَ أَيضاً روايةٌ عن مالكٍ ـ : القُبُلُ والدُّبُرُ في الرَّجُلِ[1] .

واختلفوا في رُكبته : فقالَ أَبو حنيفةَ وبعضُ أَصحابِ الشَّافعي : عورة .

وأَحمدُ ومالك : ليست بعورة . والسُّرَّةُ بالإِجماعِ ليست بعورة .

واختلفوا في عورةِ الحرَّة : فقالَ أَبو حنيفة : كلُّها عورةٌ إِلاَّ الوجهَ والكفَّينِ والقدمَين . وقد رويَ عنهُ أَنَّ القدمَينِ منهاعورة .

ومالكٌ والشَّافعي : كلّها عورةٌ إِلاَّ وجهَها وكفَّيها .

وعن أَحمدَ روايات ، مِنها : أَنَّها كلَّها عورةٌ إِلاَّ وجهَها خاصَّة .

واختلفوا في عورةِ الأَمة : فقالَ مالكٌ والشَّافعي : هيَ كعورةِ الرَّجل .

وعن أَبي هريرةَ كعورةِ الحرَّة .

---

(١) قالَ بعضُهُم : هـٰذا عن مالكٍ في الصَّلاةِ فقط وأَمَّا خارجَها وبالنَّظرِ إِلى النَّظرِ فغيرُ القُبُلِ والدُّبرِ مِنَ الفخذينِ ونحوِهما أَيضاً عورةٌ عندَهُ ويَحرمُ نظرُهُ فلا تَغفل اهـ منه .

وعن أَحمدَ روايتان : **إحداهُما** : ما بينَ السُّرَّةِ والرُّكبة ، **والأُخرىٰ** : اَلقُبُلُ والدُّبُر .

وقالَ أَبو حنيفة : عورةُ الأَمةِ كعورةِ الرَّجُل . إِلاَّ أَنَّهُ زادَ فقال : جميعُ بطنِها وظهرِها عورة .

وهٰذا بالنِّسبةِ إِلى الصَّلاة ، وأَمَّا بالنِّسبةِ إِلى الحرمة . . فمدارُها الشَّهوة ، سواءٌ كانَ ذَكراً أَم أُنثىٰ .

ويجوزُ النَّظرُ إِلى العورةِ لأُمورٍ مِنها : لأَجلِ تحمُّلِ الشَّهادةِ على الزِّنا لا لِلتَّلذُّذ ، وكذا نظرُ القابلةِ والخافضةِ[1] ، والخَتّان ، والطَّبيب ، والاحتقان ، والبكارةِ في الْعنَّة ، والرَّدِّ بالعيب .

وليُعلَمْ أَنَّ كشفَ العورةِ لغيرِ ضرورةٍ حرام ، بل عدَّهُ كثيرٌ مِنَ العلماءِ مِنَ الكبائر ؛ للأَحاديثِ الواردةِ بذلك :

روى البيهقي : « احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلاَّ مِنْ زَوْجَتِكَ ، أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُك » قيل : فإِذا كانَ أَحدُنا خالياً ؟ قال : « اللهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَىٰ مِنْهُ مِنَ النَّاس » .

وروى الإِمامُ أَحمدُ : « إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسِّتْر ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُم . . فَلْيَسْتَتِر » .

وروى الدَّيلمي : « لاَ تَدْخُلُوا الْمَاءَ إِلاَّ بِمِئْزَر ، فَإِنَّ لِلْمَاءِ عَيْنَيْن » .

وروىٰ عبدُ الرَّزاقِ وابنُ جريج ، قال : بلغني أَنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خرجَ فإِذا هوَ بأَجيرٍ لَهُ يغتسلُ عارياً ، فقال : « لاَ أَرَاكَ تَسْتَحْيِي مِنْ رَبِّكَ ، خُذْ إِجَارَتَك ، لاَ حَاجَةَ لَنَا بِك » .

قالَ ابنُ حجر : وأَخرجَ النَّسائيُّ والتِّرمذيُّ ، وصحَّحهُ الحاكم : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ . . فَلاَ يَدْخُلِ الْحَمَّامَ إِلاَّ بِمِئْزَر ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ . . فَلاَ يُدْخِلْ حَلِيلَتَهُ الْحَمَّام » .

---

(١) قولُه : (**والخافضة**) أَي : الَّتي تَختِنُ المرأَة اهـ منه .

وروى ابنُ ماجه وأبو داوودَ : « سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرْضُ الْعَجَم ، وَسَتَجِدُونَ فِيهَا بُيُوتاً يُقَالُ لَهَا : الْحَمَّامَات ، فَلاَ يَدْخُلَنَّها الرِّجَالُ إِلاَّ بِالأُزُر ، وَامْنَعُوهَا النِّسَاءَ إِلاَّ مَرِيضَةً أَوْ نُفَسَاء » .

وفي رواية : « مَنْ دَخَلَهُ فَلْيَسْتَتِر » وفي رواية : « لاَ تَدْخُلْهُ وَإِنْ بِإِزَارٍ وَدِرْعٍ وَخِمَار ، وَمَا مِنِ امْرَأَةٍ تَنْزِعُ خِمَارَهَا فِي غَيْرِ بَيْتِ زَوْجِهَا إِلاَّ كَشَفَتِ السِّتْرَ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَبِّهَا » .

وروى الشِّيرازي : « مَنْ دخلَ الحمَّامَ بغيرِ مئزر . . لعنهُ الملكان » .

وروى الطَّبراني : « شَرُّ الْبَيْت : الْحَمَّام ؛ تَعْلُو فِيهِ الأَصْوَاتُ وَتُكْشَفُ فِيهِ الْعَوْرَات ، فَمَنْ دَخَلَه . . فَلاَ يَدْخُلْهُ إِلاَّ مُسْتَتِراً » .

وروى ابنُ السّنيِّ وابنُ عساكر : « نِعمَ البيتُ يدخلهُ الرَّجلُ المسلمُ بيتُ الحمّام ؛ وذلكَ أنَّهُ إذا دخلَه . . سأَلَ اللهَ الجنَّةَ واستعاذَ باللهِ مِنَ النَّار ، وبئسَ البيتُ يدخلهُ الرَّجُلُ المسلمُ بيتُ العروس ؛ وذلكَ أنَّهُ يرغبُهُ في الدُّنيا وينسيهِ الآخرة » .

وروى البيهقي : أَوَّلُ مَنْ دخلَ الحمَّاماتِ وصُنِعتْ لَهُ النُّورةُ سليمانُ بنُ داوود ، فلمَّا دخلَه . . قال : أَوَّه[1] مِنْ عذابِ الله ، قَبْلَ أَنْ لا يكونَ أَوَّه .

وروى ابنُ عساكر : « إِذَا كَانَ آخِرُ الزَّمَان . . حُرِّمَ دُخُولُ الْحَمَّامِ عَلَىٰ ذُكُورِ أُمَّتِي بِمَآزِرِهَا » قالوا : لِمَ ذاكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قال : « لأَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ عَلَىٰ قَوْمٍ عُرَاة ، أَلاَ وَقَدْ لَعَنَ اللهُ النَّاظِرَ وَالْمَنْظُورَ إِلَيْه » .

وقالَ زكريّا السّاجي : لا تجوزُ شهادةُ مَنْ دخلَ الحمَّامَ بغيرِ مئزر ، أَو وقعَ في نهرٍ بغيرِ مئزر .

وفي كتابِ « نصابُ الاحتساب » للشَّيخِ عمر الحنفي : إِنَّ المرأَةَ يجوزُ لَها أَنْ تنظرَ إِلى المرأَةِ إِلاَّ ما تحتَ السُّرَّةِ إِلى الرُّكبة ، وإِنَّهُ لا يحلُّ لامرأَةٍ مسلمةٍ أَنْ تتجرَّدَ بينَ يدي امرأَةٍ مشركةٍ إِلاَّ أَنْ تكونَ المشركةُ أَمةً لها . اهـ

---

(١) قولُه : (أَوَّه) فيها لغاتٌ كثيرة ، كلمةٌ تقالُ عندَ الشّكايةِ أَوِ التَّوجُّعِ . اهـ منه .

وفي كتبِ الأئمَّةِ الحنفيَّةِ روايةٌ عنِ الإمامِ الأعظمِ أَنَّ الكافرةَ بالنِّسبةِ إلى النِّساءِ المسلماتِ كالرَّجُل ، فلا يجوزُ أَنْ يُطِلعْنَها علىٰ ما لا يحلُّ للرِّجالِ رؤيتُهُ منهن .

وصرَّحَ ابنُ عقيلٍ الحنبليُّ والحنفيَّةُ أَنَّ خلوةَ الخَصيِّ والمجبوبِ بالنِّساءِ حرام ، وكذا إخصاؤه ، والنَّاسُ عن جميعِ هـٰذهِ المسائلِ غافلونَ فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعون .

فعليكُم ـ عبادَ اللهِ ـ بتحصينِ فُروجِكُم ، وسترِ عوراتِكُم ، وغضِّ أَبصارِكُم ، وإصلاحِ أَنفُسِكُم ، والعدلِ بينَ أَزواجِكُم ، والتَّعليمِ لأَولادكُم ، والتَّزوُّدِ لآخِرَتكُم .

وتفكَّروا في صحيفةٍ قدِ اسودَّت ، وفي نَفْسٍ كلَّما نُصِحَتْ صدَّت ، وفي كفِّ المنايا فقدِ امتدَّت ، وفي ذنوبٍ ما تحصىٰ لَو عُدَّت .

فيا ذاهباً في شَطَطِه ، يا متعرضاً لعقوبةِ اللهِ وسخطِه ؛ أَمَا تعلمُ أَنَّ الزَّمانَ يهدمُ الأَعمارَ ؟! ويكفي علمُكَ بأَنَّ الموتَ لا يُبقي أَحداً في هـٰذهِ الدَّار .

فلينتبهِ الحيُّ قَبْلَ أَنْ يموت ، وليستدرك عُمراً في كلِّ آنٍ يَفوت ، فأَموالُكم بعدَكم مَواريث ، وأَنتُم عن قليلٍ أَحاديث .

فيا هـٰذا ؛ تُعمِّرُ مِنَ الحرامِ قَصْرك ، والأَيَّامُ تخرِّبُ عُمرك ؟! فهلاَّ عرفتَ أَنَّ عمركَ في مدَّةِ حياتكَ معدود ؟ وأَنَّ جسمك بعدَ مماتكَ يأْكلُهُ الدُّود ؟

فتهيَّأْ لِلموتِ فكأَنْ قد لاحَ وطلَع ، ومَنْ أَحاطَتْ بهِ أَشراكُ الهوىٰ لا بدَّ أَنْ يَقع .

فأَينَ النُّفوسُ الَّتي كانت في طلبِ المعاصي هائمة ؟! أَقعدتْها محنُ البلايا بعدَ أَنْ كانت قائمَة ! !

أَينَ عادٌ وثمودُ والأُممُ المتقادمَة ؟! بينا هُم في خطاياهُم إذا بلاياهُم قادِمَة ، هجموا على المخالَفاتِ فإذا الآفاتُ هاجِمَة ، أُخِذوا علىٰ ذنوبهِم وأُسروا بعيوبهِمُ المتراكمَة ، ذهبَ الفرحُ وجاءَ التَّرَحُ فإذا النُّفوسُ واجمَة ، أَصبحَتْ دموعُهم إذْ تفرَّقَتْ جموعُهم علىٰ خدودهِم ساجمَة .

وأَمَّا الصَّالحونَ الَّذينَ هُم لهواهُم زاجرون . . فهُم في الجنانِ ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ إذْ كانوا في دياجي اللَّيلِ يَسهرون ، ويصومونَ وهُم على الطَّعامِ يَقدرون ، ويُسارعونَ إلىٰ

ما يُرضي مولاهُم ويُبادرون ، فقد أَبدلَهُم بتعبِ تلكَ الطَّاعاتِ لذَّةَ السُّكون ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ .

يا حسنَهُم والولدانُ بهِم يحفُّون ، والملائكةُ لَهُم يَزفُّون ، والخدّامُ بينَ أَيديهِم يقفون ، وقد أَمِنوا ما كانوا يخافون ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ وبالحُورِ الحسانِ هُم وأَزواجُهُم يُخدَمون ، وفي خيامِ اللُّؤلؤِ يتنعَّمون ، وعلىٰ أَسرَّةِ الذَّهبِ والفضَّةِ يَتزاورون ، وبالوجوهِ النَّاضرةِ يتقابلون ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ .

فنسأَلُكَ يا مَنْ يقولُ للشَّيءِ كُنْ فيكون : أَنْ تهبَ لَنا مِنْ أَزواجِنا وذرِّياتِنا قُرَّةَ أَعين ، وأَنْ تجعلَنا لِلمتَّقينَ إِماماً ، وممَّنْ إِلى الخيراتِ يُسارعونَ و﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ .

ربَّنا آتِنا في الدُّنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النَّار ، ولا تجعلْنا مِنَ الَّذينَ لأَوزارِهِم يَحملون ، بل اجعلْنا يا إِلـٰهَنا مِنْ عبادِكَ الَّذينَ يَرثونَ الفردوسَ وهُم فيها خالدونَ ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وعلىٰ آلهِ وصحبهِ أَجمعينَ وسلَّم تسليماً ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمين .

* * *

المجلس الثامن والعشرون
في التطفيف والربا والبيع والشراء

بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ القديم ، ولا يُقال : متىٰ كان ؟ العظيمُ ؛ فلا يحويهِ مكان ، أَنشأَ آدمَ وأَخرجَ ذرِّيتهُ بنعمان[1] ، ورفعَ إدريسَ إلىٰ أَعالي الجنان ، ونجَّىٰ نوحاً وأَهلكَ كنعان ، وسلَّمَ الخليلَ بلُطفهِ يومَ النِّيران ، ويوسفَ مِنَ الفاحشةِ حينَ البرهان ، وبعثَ شعيباً إلىٰ مدينَ فنهىٰ عنِ البخسِ والعدوان ، ويناديهم في ناديهِم ولٰكنْ صُمَّتِ الآذان ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ .

أَحمدُهُ حمداً يملأُ الميزان ، وأُصلِّي علىٰ رسولِهِ محمَّدٍ الَّذي فاقَ دِينُهُ الأَديان ، وعلىٰ صاحبِهِ أَبي بكر ، أَوَّلِ مَنْ جمعَ القرآن ، وعلى الفاروقِ الَّذي كانَ يَفرقُ منهُ الشَّيطان ، وعلىٰ زوجِ الاثنتينِ عثمان ، وعلىٰ عليٍّ بحرِ العلومِ ومُبيدِ الشُّجعان ، وعلىٰ بقيَّةِ آلهِ وأَصحابه وذرِّيتهِ وأَزواجهِ ما سُمِعَ صوتُ أَذان .

أَمَّا بعد : فقد قالَ تعالىٰ في كتابهِ الكريم : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الآياتُ .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ : اختلفَ العلماءُ في هٰذهِ السُّورة :

فقيل : مكيَّة .

وقيل : مدنيَّة .

---

(١) قوله : نعمان : واد وراء عرفة وهو نعمان الأَراك . اهـ منه .

وقيل : نزلَتْ بينَ مكَّةَ والمدينةِ ليُصلحَ اللهُ تعالىٰ أمرَ أَهلِ المدينةِ قَبْلَ ورودِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم .

وأَخرجَ النَّسائيُّ ، والبيهقيُّ في « شعبِ الإيمان » أَنَّهُ لمَّا قَدِمَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المدينةَ كانوا مِنْ أَخبَثِ النَّاسِ كيلاً ، فأَنزلَ اللهُ تعالىٰ : (ويل للمطففين) فأَحسنوا الكيلَ بعدَ ذلك .

وقالَ السُّدي : قَدِمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المدينةَ وبها رجلٌ يُقالُ لَهُ أَبو جهينة ، ومعَهُ صاعان ، يكيلُ بأَحدِهما ويكتالُ بالآخر ، فأَنزلَ اللهُ هٰذهِ الآية .

وأَمَّا (ويل) فاختلفَ فيهِ العلماء :

فقيل : الويلُ : شدَّةُ الشَّر .

وقيل : الحزنُ والهلاك .

وقيل : العذابُ الأَليم .

وقيل : جبلٌ في جهنَّم .

وذهبَ كثيرٌ إِلىٰ أَنَّهُ وادٍ في جهنَّم ؛ لأَنَّ فيهِ أَوديةً وجبالاً ونحو ذلكَ مِنَ النَّارِ ـ أَعاذنا اللهُ تعالىٰ وإِيّاكم مِنها ـ .

فمنها : علىٰ ما في « البحورِ الزَّاخرة » : ويل : فقد أَخرجَ الإمامُ أَحمدُ عن أَبي سعيد ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « وَيْلٌ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَهْوِي بِهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَه » .

ومنها : الغي : فهوَ وادٍ في جهنم ، خبيثُ الطَّعمِ بعيدُ القعر ، يُقذَفُ بهِ الَّذين يتَّبعونَ الشَّهوات .

ومنها : أَثام : وهوَ وادٍ فيهِ حيّاتٌ وعقارب ، العقربُ مِثلُ البغل .

ومنها : الفلق : وإِنَّ جهنَّم لتتأَذَّىٰ منه .

ومنها : جبُّ الحزن : فقد روىٰ أَبو هريرة رضي الله عنه : « نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ جُبِّ

الْحَزَن » قالوا : وما جبُّ الحزنِ ؟ قال : « وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلَّ يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّة »قيل : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ يدخلُهُ ؟ قال : « الْقُرَّاءُ الْمُراؤُونَ بِأَعْمَالِهِم » .

ومنها : هبهب : ففي الخبرِ عن أبي بردة ، عن أبيهِ مرفوعا : « إِنَّ فِي جَهَنمَ وَادِيا، وَلِذَلكَ الْوَادِي بِئْرٌ يُقالُ لَه : هَبْهَب ، حَقٌّ على اللهِ أَنْ يُسْكِنَهَا كُلَّ جَبَّارٍ مُتَكَبِّرٍ » .

وأَخرجَ الإمامُ أَحمدُ : « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ[1] في صُوَرِ النَّاس ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيءٍ مِنَ الصَّغَارِ حَتَّىٰ يَدْخُلُوا سِجْناً فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَه : بُولس فَتَعْلُوهُمْ نارُ ٱلأَنْيَارِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَال ؛ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّار » .

وأَخرجَ ابنُ أَبي الدُّنيا عن عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لاَ يَلِي أَحَدٌ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ شَيْئاً إِلاَّ أَوْقَفَهُ اللهُ عَلَىٰ جِسْرِ جَهَنَّم ، فَزُلْزِلَ بِهِ الْجِسْرُ زَلْزَلَةً فَنَاجٍ أَوْ غَيْرُ نَاج ، لاَ يَبْقَىٰ مِنْهُ عَظْمٌ إِلاَّ فَارَقَ صَاحِبَه ، فَإِنْ هُوَ لَمْ يَنْج . . ذَهَبَ بِهِ فِي جُبٍّ مُظْلِمٍ كَالْقَصْرِ فِي جَهَنَّمَ لاَ يَبْلُغُ قَعْرَهُ سَبْعِينَ خَرِيفاً » .

وأَخرجَ أَبو نعيم : إِنَّ طارقاً قالَ لسليمانَ بنِ عبدِ الملك : يا أَميرَ المؤمنين ؛ إِنَّ صخرةً كانتْ علىٰ شفيرِ جبٍّ في جهنَّمَ هَوَتْ فيها سبعينَ خريفاً حتَّى استقرَّت ، أَتدري لمَنْ أَعدَّها اللهُ تعالىٰ ؟ قال : لا ، ويلك ، لمَنْ أَعدَّها اللهُ تعالىٰ ؟ قال : لمَنْ أَشركَهُ الله تعالىٰ في حُكمهِ فجار . قال : فبكىٰ لَها .

ومِنْ جبالِها : صَعود ، قالَ تعالىٰ : ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ قالَ ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما : هوَ جبلٌ في النَّار ، يزلقُ الكافرُ فيه كلَّما صعدَه .

وقالَ ابنُ السَّائب : هوَ جبلٌ مِنْ صخرةٍ ملساءَ في النَّارِ يُكلَّفُ أَنْ يصعدَها ، حتَّىٰ إِذا بلغَ أَعلاها . . انحدر إِلىٰ أَسفلِها ، ثمَّ يُكلَّفُ أَنْ يَصعدَها ، فذلكَ دأْبُه أَبداً ، يُجْذبُ مِنْ أَمامِهِ بسلاسلِ الحديدِ ويُضربُ مِنْ خلفهِ بمقامعِ الحديد ، فيصعدُها في أَربعينَ سنة .

ومنها : العقبة ، كما قالَ تعالىٰ ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ هوَ جبلُ زلزالٍ في جهنَّم .

---

(١) الذر : صغار النمل .

وأَخرجَ البخاريُّ في « تاريخه » عن نفيرِ بنِ مجيب ، قال : إِنَّ في جهنَّمَ سبعينَ أَلفَ واد ، في كلِّ وادٍ سبعونَ أَلفَ شِعب ، في كلِّ شِعبٍ سبعونَ أَلفَ دار ، في كلِّ دارٍ سبعونَ أَلفَ بيت ، في كلِّ بيتٍ سبعونَ أَلفَ بئر ، في كلِّ بئرٍ سبعونَ أَلفَ ثعبان ، في شِدْقِ كلِّ ثعبانٍ سبعونَ أَلفَ عقرب ، لا ينتهي الكافرُ أَوِ المنافقُ حتَّىٰ يواقعَ ذلكَ كلَّه .

قالَ المنذري : فيهِ سعيد الحمصيُّ ؛ ضعَّفَهُ ابنُ معين .

وعن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّت ، ثمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّت ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدت ، فَهِيَ سَوْدَاءُ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِم » .

وقالَ الضَّحَّاك : جهنَّمُ سوداءُ وماؤُها أَسود ، وشجرُها أَسودُ وأَهلُها سود . وقد دلَّ علىٰ سوادِ أَهلِها قولُهُ تعالىٰ : ﴿ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ فنعوذُ باللهِ تعالىٰ مِنْ جميعِ ذلك ، ونسأَلُهُ السَّلامةَ في الدُّنيا والآخرةِ مِنْ كافَّةِ المهالِك .

فقد تبيَّنَ أَنَّ ويلٌ وادٍ في جهنَّمَ وهوَ معدودٌ للمطفِّفين ، و(التَّطفيف) لغة : التَّقليل . فالمطفِّفُ هوَ المُقلِّلُ حقَّ صاحبهِ بنقصانهِ عنِ الحقِّ في كيلٍ أَو وزن .

قالَ الزَّجاج : إِنَّما قيلَ لَهُ مطفِّفٌ لأَنَّهُ لا يكادُ يَسرقُ في المكيالِ والميزانِ إِلاَّ الشَّيءَ اليسيرَ الطَّفيف .

ورويَ أَنَّ أَهلَ المدينةِ كانوا تجَّاراً يُطفِّفون ، وكانت بياعاتُهم المنابذةَ والملامسةَ والمخاطرةَ ، فنزلَت ، فخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقرأَها عليهِم ، وقال : « خَمْسٌ بِخَمْس »قيل : يا رسولَ الله ؛ وما خمسٌ بخمسٍ ؟ قال : « مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْد . . إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِم عَدُوَّهُم ، وَمَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ . . إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الْفَقْر ، وَمَا ظَهَرَتْ فِيهِمُ الْفَاحِشَة . . إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الْمَوْت ، وَلاَ طَفَّفُوا الْكَيْل . . إِلاَّ مُنِعُوا النَّبَاتَ وَأُخِذُوا بِالسِّنِين ، وَلاَ مَنَعُوا الزَّكَاة . . إِلاَّ حُبِسَ عَنْهُمُ الْقَطْر ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا » .

وأَخرجَ سعيدُ بنُ منصورٍ عن سلمانَ رضيَ اللهُ عنهُ قال : إنَّما الصَّلاةُ مكيالٌ ، فمَنْ أَوفىٰ . . أُوفِيَ لَه ، ومَنْ طفَّف . . فقد علمتم ما قالَ اللهُ في المطَّففينَ .

وعن أُبيٍّ بنِ كعب : رضي الله عنه لا تلتمسوا الحوائجَ ممَّنْ رِزْقُهُ في رؤوسِ المكاييلِ وأَلسُنِ الموازين .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما قال : القَتلُ في سبيلِ اللهِ يُكفِّرُ الذُّنوبَ كلَّها إلاَّ الأَمانة ، قال : يؤْتىٰ بالعبدِ يومَ القيامةِ وإنْ قُتلَ في سبيلِ اللهِ فيقال : أَدِّ أَمانتك ، فيقول : أَيّ رب ؛ كيفَ وقد ذهبتِ الدُّنيا ؟ قال : فيُقال : انطلقوا بهِ إِلى الهاوية ، فينطلقُ بهِ إلى الهاويةِ ، ويُمثَّلُ لَهُ أَمانتُهُ كهيئتِها يومَ دُفعَتْ إِليه ، فيراها فيعرفُها ، فيهوي في أَثرِها حتَّىٰ يدركَها ، فيحملَها علىٰ منكبيه ، حتَّىٰ إذا نظرَ وظنَّ أَنَّهُ خارج . . زلَّتْ عن منكبيه ، فهوَ يهوي في أَثرِها أَبدَ الآبدِين ، ثمَّ قال : الصَّلاةُ أَمانة ، والوضوءُ أَمانة ، والوزنُ أَمانة ، والكيلُ أَمانة ، وأَشياء عدَّدها ، وأَشدُّ ذلكَ الودائع .

قالَ ابنُ حجرٍ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : قالَ مالكُ بنُ دينارٍ رضيَ اللهُ عنهُ : دخلتُ علىٰ جارٍ لي وقد نزلَ بهِ الموت ، فجعلَ يقول : جَبَلَينِ مِنْ نار ، جَبَلَينِ مِنْ نار ، قال : فقلت : ما تقولُ ؟ قال : يا أَبا يحيىٰ ؛ كانَ لي مكيالان ، كنتُ أَكيلُ بِأَحدِهما وأَكتالُ بالآخر ، قال : يا مالك ؛ فنمتُ فجعلتُ أَضربُ أَحدَهُما بالآخَر ، فكلَّما ضربتُ أَحدَهُما بالآخَر . . ازدادَ الأَمرُ عِظَماً وشدَّة ، فماتَ في مرضه .

قال : وقالَ بعضُ السَّلف : أَشهدُ علىٰ كلِّ كيّالٍ بالنَّار ؛ لأَنَّهُ لا يكادُ يَسلَمُ إلاَّ مَنْ عصمَهُ اللهُ تعالىٰ .

وقالَ بعضُهُم : دخلتُ علىٰ مريضٍ قد نزلَ بهِ الموت ، فجعلتُ أُلقِّنُهُ الشَّهادةَ ولِسانُهُ لا ينطقُ بها ، فلمَّا أَفاق . . قلتُ لَه : يا أَخي ؛ ما لي أُلقِّنكَ الشَّهادةَ ولسانكَ لا ينطقُ بها ؟ قال : يا أَخي ؛ لسانُ الميزانِ علىٰ لساني يمنعني مِنَ النُّطقِ بها ، فقلتُ لَه : باللهِ أَكُنتَ تَزِنُ ناقصاً ؟ قال : لا والله ، ولـٰكنِّي كنتُ أَقفُ مدَّةً لا أَعتبرُ صفحةَ ميزاني .

فإذا كانَ هـٰذا حالَ مَنْ لا يعتبرُ صفحةَ ميزانه ، فكيفَ حالُ مَنْ يَزِنُ ناقصاً ؟ !

قالَ ابنُ حجر : كالكيَّالِينَ والوزّانِينَ التُّجّارِ إذا شدَّدوا أَيديهُم في الذَّرعِ وقتَ البيعِ وأَرخوها وقتَ الشِّراء ، وهـٰذا مِنْ تطفيفِ فَسَقَةِ البزّازينَ والتُّجّار ، وإِنَّ العَرقَ يومَ القيامةِ يَلجمهُم إلىٰ أَنصافِ آذانهِم ، ثمَّ بعدَ ذلكَ إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النَّار .

ونحو هـٰذا ، بل أَشدُّ منهُ تغييرُ حدودِ الأَرضِ والسَّرقةُ مِنْ أَرضِ جارِك ؛ فقد روى البخاريُّ عن عائِشةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُا قالت : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ ظَلَمَ قيْدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْض . . طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِين » .

وروى الإمامُ أَحمدُ : « أَيُّمَا رَجُلٍ ظَلَمَ شِبْرا . . كَلَّفَهُ اللهُ أَنْ يَحْفِرَهُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ سَبْعَ أَرَضِين ، ثُمَّ يُطَوِّقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بيْنَ النَّاس » .

وروى الطَّبراني : « مَنْ أَخذَ مِنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ شِبْراً . . جَاءَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَحْمِلُهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِين » نقلَهُ في « التَّرغيب » ويقربُ مِنْ هـٰذا إكراءُ شيءٍ مِنَ الشَّوارعِ والطُّرقِ وأَخذُ أُجرتِهِ وإِنْ كانَ حريمَ مِلْكِهِ أَو دُكَّانه ، حتَّىٰ عدَّهُ بعضُهُم مِنَ الكبائر .

قالَ العلاَّمةُ ابنُ حجر : ومِنْ ثمَّ قالَ الأَوزاعيُّ فيما يَفعلُهُ وكلاءُ بيتِ المالِ في الشَّوارعِ مِنْ نحوِ أَخْذ أُجرةٍ مِنَ الجالسين : لا أَدري بأَيِّ وجهٍ يلقى اللهَ عزَّ وجلَّ مَنْ يفعلُ ذلكَ ؟

ونحو ذلك ، بل أَضرّ منهُ إِنفاقُ الفلوسِ الزّيفِ وغيرِ الخالصةِ وضربُها ـ يعني سكُّها ـ وإِعطائُها لِلنَّاسِ ولَو عَلِمَ الآخذُ ذلك ، حتَّىٰ قالَ في كتابِ « نصابِ الحسبة » ناقلاً عنِ العلماء : إنَّ إنفاقَ درهمٍ مزيَّفٍ أَشدُّ مِنْ سرقةِ مئةِ درهمٍ جياد ؛ لأَنَّ سرقتَها معصيةٌ واحدةٌ منقضية ، وأَمَّا إنفاقُ الزّيفِ ـ وهيَ القلبُ ـ سيئةٌ يُعمَلُ بِها ما بقيَ ذلكَ الدرهم يدورُ في أَيدي النَّاس ، ويكونُ الإِثمُ علىٰ فاعلهِ ومعطيهِ إلىٰ آخرِ فنائه ، ومَنْ أَلقاهُ في البحرِ أَو أَذابَهُ في النَّار . . فهوَ أَفضلُ لَهُ مِنْ أَنْ يتصدَّقَ بمثله ، وأَفضلُ مِنْ كثرةِ الصَّلاةِ والصَّومِ النَّافلتَينِ انتهىٰ .

ومِثلُ ذلكَ في الاشتراكِ بالإِثمِ مَنِ اشترىٰ مالاً مسروقاً ؛ فقد روىٰ أَبو

هريرةَ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « مَنِ اشْتَرَىٰ سَرِقَةً وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهَا سَرِقَةٌ فَقَدْ اشترَكَ فِي عَارِهَا وَإِثْمِهَا » رواه البيهقيُّ .

وكما أَنَّ التَّطفيفَ حرامٌ فكذا الغشُّ في البيعِ حرام ؛ فقد روىٰ مسلمٌ عن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّ علىٰ صبرةِ طعام ، فأَدخلَ يدَهُ فيها فنالَتْ أَصابعُهُ بللاً ، فقال : « مَا هَـٰذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ ؟ » قال : أَصابَتْهُ السَّماءُ يا رسولَ اللهِ ؛ قال : « أَفلا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّىٰ يَرَاهُ النَّاس ، مَنْ غَشَّنَا . . فَلَيْسَ مِنَّا » .

وروى الإِمامُ أَحمدُ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قال : مرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بطعامٍ وقد حسَّنَهُ صاحبُه ، فأَدخلَ يدَهُ فيهِ فإِذا طعامٌ رديء ، فقال : « بِعْ هـٰذَا عَلَىٰ حِدَة ، وَهَـٰذَا عَلَىٰ حِدَة ، فَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » .

وعنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لاَ تَشُوبُوا اللَّبَنَ لِلْبَيْعِ ، أَلاَ وَإِنَّ رَجُلاً مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ جَلَبَ خَمْراً إِلَىٰ قَرْيَةٍ فَشَابَهَا بِالْمَاءِ فَأَضْعَفَ أَضْعَافاً ، فَاشْتَرَىٰ قِرْداً فَرَكِبَ الْبَحْرَ حَتَّىٰ إِذا لَجَّجَ فِيه . . أَلْهَمَ اللهُ الْقِرْدَ صُرَّةَ الدَّنَانِيرِ فَأَخَذَهَا ، فَصَعِدَ الدَّقَل[1] ، فَفَتَحَ الصُّرَةَ وَصَاحِبُهَا يَنْظُرُ إِلَيْه ، فَأَخَذَ دِينَاراً فَرَمَىٰ بِهِ فِي الْبَحْرِ وَدِينَاراً فِي السَّفِينَةِ حَتَّىٰ قَسَمَهَا نِصْفَيْن » رواهُ في « التَّرغيب » وغيرهِ عنِ البيهقيِّ .

وروى الإِمامُ أَحمدُ : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِم ، لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ بَاعَ مِنْ أَخِيهِ بَيْعاً فِيهِ عَيْبٌ إِلاَّ بَيَّنَهُ لَهُ » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَة » قلنا : لِمَنْ يا رسولَ اللهِ ؟ قال : « للهِ وَلِرَسُولِه ، وَلِكِتَابِه ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِم » .

وكذا الاحتكارُ[2] مِنَ الكبائر ، روىٰ معمر بن عبد اللهِ بن نضلة ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنِ احْتَكَرَ . . فَهُوَ خَاطِىء » .

---

(١) الدقل : خشبة طويلة تشد في وسط السفينة ، يُمدُّ عليها الشراع .

(٢) الاحتكار : حبس الطعام إرادة الغلاء ، والاحتكار المحرَّم خاصٌّ في الأقوات .

وعنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنِ احْتَكَرَ طَعَاماً أَرْبَعِينَ لَيْلَة . . فَقَدْ بَرِيءَ مِنَ اللهِ وَبَرِيءَ اللهُ مِنْه ، وَأَيُّمَا أَهْلِ عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعاً . . فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُم ذِمَّةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ » رواهُ أَحمدُ .

وعن عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الْجَالِبُ مَرْزُوق ، وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُون » ، و« مَنِ احْتَكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامَهُم . . ضَرَبَهُ اللهُ بِالْجُذَامِ وَالإِفْلاَس » .

وعن معاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « بِئْسَ الْعَبْدُ الْمُحْتَكِر ؛ إِنْ أَرْخَصَ اللهُ الأَسْعَار . . حَزِن ، وَإِنْ أَغْلاَهَا . . فَرِح » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ دَخَلَ فِي شَيءٍ مِنْ أَسْعَارِ الْمُسْلِمِينَ لِيُغْلِيَهُ عَلَيْهِم . . كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يَقْذِفَهُ فِي [معظم] النَّارِ رَأْسُهُ أَسْفَلَهُ » رواهُ الحسن[1] .

وكذا كُرِهَ النَّجْش ـ وهو : أَنْ يزيدَ في ثمنِ السّلعةِ وهوَ لا يريدُ شراءَها ، أَو يمدحُها لِيروِّجَها ـ والبيعُ علىٰ بيعِ الغير ، والشِّراءُ علىٰ شرائه ، وتلقِّي الجَلَبِ لشراءِ الطَّعامِ مِنْ خارجِ البلدة ، وبيعُ العبدِ المسلمِ للكافر ، وكذا المصحفُ وكتبُ العلمِ الشَّرعيِّ لَه ، وعدَّ بعضُهُم جميعَ ذلكَ مِنَ الكبائر .

قلت : ويلحقُ بهِ بيعُ الأَسلحةِ والخيلِ لِلحربيِّين ، وعُدَّ مِنها بيعُ الأَمةِ ووطؤُها قَبْلَ استبرائِها ، وكذلكَ عُدَّ مِنها أَيضاً منعُ ماءِ الفحل ؛ فقد روى البزَّارُ عن بريدة : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ : الإِشْرَاكُ بِالله ، وَعقُوقُ الْوَالِدَيْن ، وَمَنْعُ فَضْلِ الْمَاء ، وَمَنْعُ الْفَحْلِ » .

وكذا كُرِه التَّفرقةُ بينَ الوالدةِ وولدِها بالبيع ، عن أَبي أَيوبَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا . . فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَة » .

---

(١) هو الحسن بن أبي الحسن يسار ؛ تابعي من البصرة .

وروىٰ أَبو موسىٰ : (لَعَنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مَنْ فَرَّقَ بينَ الوالدةِ وولدِها ، وبينَ الأخِ وأخيه) .

وكذا يحرمُ مطلُ الغني ، عن عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجههُ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « لاَ يُحِبُّ اللهُ الْغَنِيَّ الظَّلُومَ ـ وَهُوَ الَّذِي يَمْطُلُ دَائِنَهُ ـ وَلاَ الشَّيْخَ الْجَهُول ، وَلاَ الْفَقِيرَ الْمُخْتَال » .

وعن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ـ وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَه . . خَصَمْتُهُ ـ : رَجُلٌ أَعْطَىٰ بِهِ[1] ثُمَّ غَدَر ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرّاً فَأَكَلَ ثَمَنَه ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيراً فَاسْتَوْفَىٰ مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَه » . رواهُ البخاريُّ .

وكذا يحرمُ إِنفاقُ السّلعةِ بالحَلِفِ الكاذب ، أَخرجَ مسلمٌ والأَربعةُ عن أَبي ذرٍّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِم وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم » ثلاثَ مرَّات ، قلت : خابوا وخسِروا ، مَنْ هُم يا رسولَ اللهِ ؟ قال : « الْمُسْبِلُ إِزَارَه ، وَالْمَنّان ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِب » وفي رواية : « ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَة : أُشَيْمَطُ زان ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِر ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ لاَ يَشْتَرِي إِلاَّ بِيَمِينِهِ وَلاَ يَبِيعُ إِلاَّ بِيَمِينِه » .

وروى الشَّيخان : « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِم ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم : رَجُلٌ عَلَىٰ فَضْلِ ماءٍ بِفَلاَةٍ يَمْنَعُهُ ابْنَ السَّبِيل ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلاً سِلْعَةً بَعْدَ الْعَصْرِ[2] فَحَلَفَ بِاللهِ لأَخَذَهَا بِكَذا وَكَذَا ، فَصَدَّقَهُ وَأَخَذَهَا وَهُوَ عَلَىٰ غَيْرِ ذلِك ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَاماً لاَ يُبَايِعُهُ إِلاَّ لِلدُّنْيَا ، فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا مَا يُرِيد . . وَفَىٰ لَه ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِه . . لَمْ يُوَفِّ لَه » . وفي رواية : « وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَىٰ سِلْعَةٍ لَقَدْ أَعطىٰ بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعطىٰ وَهُوَ كَاذِب » .

---

(١) أي : عاهد بالله عز وجل ثمَّ غدر ونقضَ عهده اهـ منه .

(٢) لأنه بعد العصر تختم صحيفة أعمال النهار . اهـ منه .

فاليمينُ الكاذبةُ تَدَعُ الدِّيارَ بلاقعَ ، ويقالُ لَها : الغموس ؛ لأَنَّها تغمسُ صاحبَها في النَّار ، وعنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « الْكَبَائِر : الإِشْرَاكُ بِالله ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْن ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوس » .

وعنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وسلَّم : « مَنِ اقْتَطَعَ مَالَ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِه . . حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَأَوْجَبَ لَهُ النَّار » قيل : وإنْ يسيراً ؟ قال : « وَإِنْ سِوَاكاً » .

وعن أَبي هريرة رضيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ لَقِيَ اللهَ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً ، وَأَدَّىٰ زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ مُحْتَسِباً ، وَسَمِعَ وَأَطَاع . . فلَهُ الْجَنَّة ، وَخَمْسٌ لَيْسَ لَهُنَّ كَفَّارَة : الشِّرْكُ بِالله ، وَقَتْلُ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَق ، وَبَهْتُ مُؤْمِن ، وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْف ، وَيَمِينٌ صَابِرَةٌ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالاً بِغَيْرِ حَق » رواهُ الإمام أَحمدُ .

وليُعْلَم : أَنَّ كفَّارةَ اليمينِ إذا حنثَ الحالف . . إطعامُ عشرةِ مساكين ، أَو كسوتُهُم ، أَو تحريرُ رقبةٍ بالاتِّفاق ، والحالفُ مخيَّرٌ في فِعْلِ أَيِّها شاء ، فإِنْ لَم يَجد . . انتقلَ إلىٰ صيامِ ثلاثةِ أَيَّام .

والرَّقبةُ شرطُها أَنْ تكونَ مؤمنة ، خلافاً لِلإمامِ أَبي حنيفة .

واعلَمْ أَنَّ الأئمَّةَ اختلفوا في اليمينِ الغموس ؛ وهي : الحلفُ باللهِ تعالىٰ علىٰ أَمرٍ ماضٍ متعمِّداً لِلكذبِ فيه :

فعندَ أَبي حنيفة ومالكٍ وأَحمدَ في إِحدىٰ روايتيهِ أَنَّها لا كفَّارةَ لَها ؛ لأَنَّها أَعظمُ مِنْ أَنْ تكفَّر ؛ لأَنَّها تغمسُ صاحبَها في النَّار .

وعندَ الشَّافعيِّ وأَحمدَ في الرِّوايةِ الأُخرىٰ أَنَّها تُكَفَّر ؛ أَي : يلزمُ فيها الكفَّارةُ المذكورة .

وأَمَّا اليمينُ اللَّغو : فعندَ أَبي حنيفةَ ومالكٍ وأَحمدَ في إِحدىٰ روايتيهِ هو : أَنْ يحلفَ علىٰ أَمرٍ يظنُّهُ علىٰ ما حلفَ عليه ، ثمَّ يتبيَّنُ أَنَّهُ بخلافه ، سواءٌ قصدَهُ أَم لَم يَقصدْه ، فسبقَ علىٰ لسانِه ، سواءٌ كانَ في الماضي أَم في الحال .

وقالَ أَحمد : إِنَّهُ في الماضي فقط .

وقالَ الشَّافعي : لَغوُ اليمينِ ما لَم يُعقِّدْه ؛ كقوله : لا والله ، و : بلىٰ والله ، عندَ المحاورةِ والغضبِ واللّجاجِ مِنْ غيرِ قصد ، سواءٌ كانَ علىٰ ماضٍ أَم مستقبلٍ . وهي روايةٌ عن مالكٍ وأَحمدَ أَيضاً .

واختلفوا فيها : فقالتِ الأَئمةُ الثّلاثة : لا إِثمَ في لَغوِ اليمينِ ولا كفَّارة ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ .

وقالَ أَحمد : إِنَّ فيهِ الإِثم . ولذلكَ كانَ الإِمامُ الشَّافعيُّ يقول : ما حلفتُ باللهِ تعالىٰ صادقاً ولا كاذباً .

فتبيَّنَ أَنَّ الأَيمانَ ثلاثة :

منعقدة ، وهيَ الَّتي فيها الكفَّارةُ بالاتِّفاق ؛ وهي : أَنْ يحلفَ علىٰ شيءٍ أَنْ يَفعلَهُ أَو لا يَفعلَهُ فيَحنث ، فتلزمُهُ الكفَّارةُ المذكورة .

وغموسٌ ولَغو .

قالَ العلماء : واليمينُ الَّتي تلزمُ فيها الكفَّارةُ هيَ ما كانت باللهِ تعالىٰ أَو بصفاته ، أَو بالقرآنِ العظيم .

وعندَ الإِمامِ أَحمدَ في روايةٍ عنه : لَو حلفَ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وسلَّم . . اِنعقدَ يمينُه ، فإِنْ حنث . . لزمتْهُ الكفَّارة ، وأَمَّا ما عدا ذلكَ فلا يجوزُ بهِ الحلفُ ولا تجبُ كفَّارة .

قالَ الأَئمَّة : وكما أَنَّ الحلفَ باللهِ تعالىٰ كاذباً حرامٌ كذلكَ الحلفُ بغيرِ اللهِ حرام ، سواءٌ كانَ صادقاً أَم كاذباً ؛ فعنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَلاَ إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُم ، فَمَنْ كَانَ حَالِفا . . فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُت » .

وسمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجُلاً يحلفُ بأَبيه ، فقال : « لاَ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُم ، مَنْ حَلَفَ بِالله . . فَلْيَصْدُق ، وَمَنْ حُلِفَ لَه . . فَلْيَرْض ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِالله . . فَلَيْسَ مِنَ الله » .

وعنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ سمعَ رجلاً يقول : لا والكعبة ، فقالَ ابنُ عمر رضي الله عنهما : لا تَحلِفْ بغيرِ الله ؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله . . فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ » .

وعن عبدِ اللهِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال : لأَنْ أَحلِفَ باللهِ كاذباً أَحبُّ إِليَّ مِنْ أَحلِفَ بغيرِه وأَنا صادق .

قالَ عليٌّ الرَّازي : أَخافُ علىٰ مَنْ يقول : بحياتي وحياتك . . الكفرَ .

ولنَرجِعْ إِلىٰ ما نحنُ بصدده ، ومِنَ الكبائرِ العظيمة : الرِّبا في البيعِ والشِّراء ، وهوَ بضعٌ وسبعونَ بابا ، وأَدناها كمَنْ يقعُ علىٰ أُمِّهِ كما رواهُ البزّار .

ولنذكُرْ ما يتعلَّقُ ببعضهِ مِنَ الآياتِ والأَحاديثِ والأَحكام :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

فتأَمَّل هـٰذهِ الآياتِ الَّتي اشتملَتْ علىٰ عقوبةِ آكلِ الرِّبا ، وينكشفُ ذلكَ بالأَحاديث الواردةِ أَيضاً :

فعن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الرِّبَا

سَبْعُونَ حُوباً[1] ، أَيسَرُهَا : أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّه » .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَة . . فَقَدْ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِم عَذَابَ اللهِ » .

وروى الإمامُ أَحمدُ : « مَا مِنْ قَوْمٍ يَظْهَرُ فِيهِمُ الرِّبَا إِلاَّ أُخِذُوا بِالسَّنَةِ[2] ، وَمَا مِنْ قَوْمٍ يَظْهَرُ فِيهِمُ الرِّشَا . .[3] إِلاَّ أُخِذُوا بِالرُّعْبِ »[4] .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « إِنَّ آكِلَ الرِّبَا يُعَذَّبُ مِنْ حِينَ يَمُوتُ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِالسِّبَاحَةِ فِي نَهْرٍ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّم ، وَإِنَّهُ يُلْقَمُ الْحِجَارَة ، كُلَّمَا أُلْقِمَ حَجَراً . . سَبَحَ به ، ثُمَّ عَادَ فَاغِراً فَاهُ فَيُلْقَمُ حَجَراً آخَر » وهٰكذا إلى البعث ، وتلكَ الحجارةُ هيَ نظيرُ المالِ الحرامِ الَّذي جمعَهُ في الدُّنيا ، ولذلكَ قالَ سبحانَه : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ أَي : تصير عاقبتُهُ إِلى الفقر ، ﴿ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ أَي : يزيدُها في الدُّنيا بسؤَالِ الملكِ لَهُ أَنْ يُعطيَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ خلفا ، كما جاءَ في الأَحاديث : « إِنَّهُ مَا مِنْ يَوْمٍ إِلاَّ وفِيهِ مَلَكٌ يُنَادِي : اللَّهُمَّ ؛ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً » وبأَنَّهُ يزدادُ كلَّ يومٍ جاهُهُ وذِكرُهُ الجميل ، ومَيْلُ القلوبِ إِليه ، والدُّعاءُ الخالصُ لَهُ مِنْ قلوبِ الفقراء .

وروى البيهقيُّ : خطَبنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فذكرَ أَمرَ الرِّبا وعظَّمَ شأْنَه ، وقال : « إِنَّ الدِّرْهَمَ يُصِيبُهُ الرَّجُلُ مِنَ الرِّبَا أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلاَثِينَ زَنْيَةً يَزْنِيهَا الرَّجُل ، وإِنَّ أَرْبَا الرِّبَا : عِرْضُ الرَّجُلِ الْمُسْلِم ، وَمَنْ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنْ سُحْت . . فَالنَّارُ أَوْلَىٰ بِه » .

وروي : « أَرْبَعَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُدْخِلَهُمُ الْجَنَّة : مُدْمِنُ خَمْر ، وَآكِلُ الرِّبَا ، وَآكِلُ مَالِ الْيَتِيم ، وَالْعَاقُّ لِوَالِدَيْه » .

وروى البخاريُّ : (لَعنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ آكلَ الرِّبا ، ومُوكِلَهُ ،

---

(١) الحوب : الإثم ، وسبعون حوباً ؛ أي : سبعون ضرباً من الإثم .

(٢) قوله : بالسنة ؛ أي : بالقحط . اهـ منه .

(٣) قوله : الرشا ؛ جمع الرشوة . اهـ منه .

(٤) قوله : بالرعب ؛ أي : بالخوف من الأعداء . اهـ منه .

والمصوِّرينَ ، ونَهىٰ عنْ ثَمنِ الكلب ، وكَسْبِ البغي) وهي الفاجرة .

وروى ابنُ مسعودٍ ـ رضيَ اللهُ عنهُ : آكلُ الرِّبا ومُوكِله ، وشاهداهُ وكاتباهُ إِذا عِلموا به ، والواشمةُ والمستوشمةُ لِلحُسنِ ، ولاوي الصَّدقة[1] ، والمرتدُّ أَعرابياً بعدَ الهجرة . . ملعونونَ علىٰ لسانِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم .

وأَخرجَ الشَّيخانِ عن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات » أَي : المهلكات . قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ وما هنَّ ؟ قال : « الشِّرْكُ بِالله ، وَالسِّحْر ، وَقَتْلُ النَّفَسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَق ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيم ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْف ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَات » .

وقالَ قتادة : آكلُ الرِّبا يُبعَثُ يومَ القيامةِ مجنوناً . قالوا : والدَّليلُ علىٰ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ في أَكلَةِ الرِّبا : ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ أَي : مِنْ أَجلِ مسِّهِ لَه ، أَو مِنْ جهةِ الجنون : فإِنَّهم يومَ القيامةِ كلَّما قاموا . . سَقطوا علىٰ وجوهِهم وجنوبِهم كالمصروعِين ، وسرُّ ذلك : أَنَّ السُّحتَ رَبا في بطونِهم حتَّىٰ أَثقلَها وزادَ عذابَهُم . اهـ

ومِنْ جملةِ أَبوابِ الرِّبا : ما اعتادَهُ كثيرٌ مِنَ التَّجارِ والمتموِّلينِ والدَّائنين ، مِنَ الدَّراهمِ الَّتي يأْخذونَها ويُسمُّونها (نزول الوعدةِ عنِ المديونين) ، وكذا انتفاعُ المرتهنِ بنَماءِ مِلْكِ الرَّاهنين ، وكذا إِعطاءُ دراهمَ وأَخْذُ غيرِها في غيرِ بلدٍ لسلامةِ خطرِ الطَّريق[2] ، وكذا إِعطاءُ دراهمَ معروفةٍ[3] عندَ أَربابِها لسلامةِ المالِ الموضوعِ في السُّفنِ مِنْ غرقٍ وحريق ، وكذا البيوعُ الفاسدةُ والعقودُ الكاسدةُ فإِنَّهُ يجبُ على العاقدينَ فسخُها رعايةً وامتثالاً لشريعةِ سيِّدِ المرسلين ، عليهِ وعلىٰ آلهِ وأَصحابهِ أَفضلُ صلاةِ المصلِّين ، وأَزكىٰ سَلامِ المسلِّمين .

---

(١) قوله : ولاوي الصدقة ؛ أَي : المماطل فيها . اهـ منه .

(٢) أفتى العلامة عبد الله بن حسين الفقيه بجواز ذلك . انظر « فتاوى مشهور » .

(٣) وتسمَّى الآنَ : سكوسيترو ، وهيَ لفظةٌ أَفرنجيَّةٌ . اهـ منه .

ومِنَ المحرَّماتِ أَيضاً علىٰ ما قالَ بعضُهُم : الحيلةُ في التَّخلُّصِ مِنَ الرِّبا ، كما يَفعلُهُ كثيرٌ مِنَ الرِّبَويِّين مِنْ بيعِ شيءٍ بثَمنٍ وفيرٍ للمديون ، فقد أَباحَهُ الإمامانِ أَبو حنيفةَ والشَّافعي ، وقالَ الإمامُ مالكٌ والإمامُ أَحمدُ بالتَّحريم ، ونقلَ ابنُ حجرٍ في « الزَّواجر » عن بعضِهم أَنَّ آكِلَهُ بالحيلةِ يُحشرُ في صورةِ الكلبِ والخنزيرِ مِنْ أَجْلِ تحيُّلِهم علىٰ أَكلِ الرِّبا ، كما مُسِخَ أَصحابُ السَّبتِ حينَ تحيَّلوافي اصطيادِ الحيتانِ الَّتي نهاهُمُ اللهُ تعالىٰ عن اصطيادِها يومَ السَّبت ، فحفَروا لَها حياضاً تقعُ فيها يومَ السَّبتِ حتَّىٰ يأْخذُوها يومَ الأَحد ، فلمَّا فعلوا ذلك . . مُسِخوا قردةً وخنازير ، نعوذُ باللهِ تعالىٰ مِنْ ذلكَ[1] .

تنبيه : **أَجمعوا** علىٰ أَنَّ الأَعيانَ المنصوصَ علىٰ تحريمِ الرِّبا فيها سبعة : اَلذَّهب ، والفضَّة ، والبر ، والشَّعير ، والتَّمر ، والزَّبيب ، والملح .

وأَجمعوا علىٰ أَنَّهُ لا يجوزُ بيعُ الذَّهبِ بالذَّهبِ منفرداً ، والوَرِقِ بالورِقِ منفرداً ، تبرِها ومضروبِها وحليِّها إِلاَّ مِثلاً بِمثل ، وَزْناً بوزن ، يداً بيد ، ويحرمُ نسيئة .

واتَّفقوا علىٰ أَنَّهُ لا يجوزُ بيعُ الحنطةِ بالحنطة ، والشَّعيرِ بالشَّعير ، والتَّمرِ بالتَّمر ، والملحِ بالملحِ إِذا كانَ بعيارٍ إِلاَّ مِثلاً بمثلٍ ويداً بيد . ويجوزُ بيعُ التَّمرِ بالملح ، والملحِ بالتَّمرِ متفاضلَين ، يداً بيد ، قالَهُ في « الميزان » .

وفي كتبِ أَئِمَّتِنا الحنفيَّة : الرِّبَا هوَ فَضلُ مالٍ خالٍ عن عِوض ، شُرِطَ لأَحدِ العاقدَين ، في معاوضةِ مالٍ بمال ، وعلة القدر والجنس . والمرادُ مِنَ القدر : الكيلُ في المكيلات ، والوزنُ في الموزونات . فحرمَ بيعُ الكيليِّ أَوِ الوزنيِّ بجنسهِ متفاضلاً أَو نسيئةً ولَو غيرَ مطعوم ؛ كالجصِّ والحديد ، وحَلَّ متماثلاً معَ التَّقابض ، فإِنْ وجدَ الوصفان . . حَرُمَ الفضلُ والنَّساء ، وإِنْ عُدِما . . حَلا ، وإِنْ وُجِدَ أَحدُهما فقط . . حلَّ

---

(١) ومِنْ أَخبثِ أَنواعِ الرِّبا : ما يُقامرُ عليهِ في النَّردِ ونحوه ، فقد روي : أَنَّهُ عليهِ الصَّلاة والسَّلامُ قال : « مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِير . . فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي دَمِ خِنْزِيرٍ وَلَحْمِه » .

قالَ العلماء : سرُّ هٰذا التَّشبيهِ ـ واللهُ أَعلمُ ـ أَنَّ اللاَّعبَ لمَّا كانَ مقصودُهُ أَكلَ المالِ بالباطلِ الَّذي هوَ حرامٌ كحُرمةِ لحمِ الخنزير ، وتوصَّلَ إِليهِ بالقمار ، وظنَّ أَنَّهُ يفيدُهُ حلّ المال . . كانَ كالمتوصِّلِ إِلىٰ أَكلِ لحمِ الخنزيرِ بذكاته . اهـ باختصارٍ مِنْ كلامِهم ، وسيأْتي في بعضِ الدُّروسِ . اهـ منه .

التَّفاضلُ لا النَّساء . وتفصيلُ مسائلهِ والاختلافِ في بعضِها في الكتبِ الفقهيَّة ، مَنْ أَرادَها . . فليَرْجِعْ إِليها .

ولنَذْكُرْ لكُمُ التَّرغيبَ في حُسنِ البيعِ والشِّراءِ وشبهِ ذلكَ ممَّا يُوجبُ الثَّوابَ في دارِ الجزاء :

فمنه : **المسامحةُ** فيهما : روى البخاريُّ عن جابرِ بن عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « رَحِمَ اللهُ عَبْداً سَمْحاً إِذَا بَاع ، سَمْحاً إِذا اشْتَرَىٰ ، سَمْحاً إِذا اقتَضَىٰ » .

وعن عثمانَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَدْخَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَجُلاً كَانَ سَهْلاً مُشْتَرِياً وَبَائِعاً وَقَاضِياً وَمُقْتَضِياً[1] الْجَنَّة » .

وروي : « مَنْ كَانَ هَيْناً لَيْناً قَرِيباً . . حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّار » رواهُ مسلم .

ومنه : **إنظارُ المُعْسِر** : عن حذيفةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « أَتَى اللهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللهُ مَالاً ، فَقَالَ لَه : مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا ؟ قَال : وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً ، قَال : يَا رَب ؛ آتَيْتَنِي مَالاً فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاس ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَاز ، فَكُنْتُ أُيَسِّرُ عَلَى الْمُوسِرِ وَأُنْظِرُ الْمُعْسِر ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : أَنَا أَحَقُّ بِذلِكَ مِنْك ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي » .

ولذا كانَ في بيعِ السَّلمِ الشَّرعيِّ بركة ؛ فقد روى ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « ثَلاَثَةٌ فِيهِنَّ الْبَرَكَة : الْبَيْعُ إِلىٰ أَجَل ، وَالْمُقَارَضَة ، وَخَلْطُ الْبُرِّ بِالشَّعِير » ؛ للأكلِ لا للبيع .

ومنه : **إقالةُ النَّادمِ** : وهي مِنْ خِصالِ أَهلِ الجنَّة ، فعن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ أَقَالَ مُسْلِماً بَيْعَتَه . . أَقَالَهُ اللهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَة » وفي رواية : « مَنْ أَقَالَ مُسْلِماً عَثْرَتَه . . أَقَالَهُ اللهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَة » وفي رواية : « مَنْ أَقَالَ أَخَاهُ بَيْعاً . . أَقَالَ اللهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَة » .

---

(١) قولُه : وقاضياً ومقتضياً ؛ أَي : إذا أَعطىٰ دَيْنَهُ وإذا طلبَ مِنَ النَّاس . اهـ منه .

ومنه : **صِدقُ التُّجّارِ** : موجبٌ للنَّجاةِ مِنَ النَّار ، فعن أَبي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء » .

وعن أَنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « التَّاجِرُ الصَّدُوقُ تَحْتَ ظِلِّ الْعَرْش » .

ورويَ عن أَبي أُمامةَ رضيَ اللهُ عنه : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « إِنَّ التَّاجِرَ إِذا كَانَ فِيهِ أَرْبَعُ خِصَال . . طَابَ كَسْبُه : إِذا اشْتَرَىٰ لَم يَذُم ، وَإِذا بَاعَ لَمْ يَمْدَح ، وَلَمْ يُدَلِّسْ فِي البَيْع ، وَلَمْ يَحْلِفْ فِيمَا بَيْنَ ذلك » .

وعن معاذٍ رضي الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ أَطْيَبَ الْكَسْبِ كَسْبُ التُّجَّارِ الَّذِينَ إِذا حَدَّثُوا . . لَمْ يَكْذِبُوا ، وَإِذا ائتُمِنُوا . . لَمْ يَخُونُوا ، وَإِذا وَعَدُوا . . لَمْ يُخْلِفُوا ، وَإِذا اشْتَرَوْا . . لَمْ يَذُمُّوا ، وَإِذا بَاعُوا . . لَمْ يَمْدَحُوا ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِم . . لَمْ يَمْطُلُوا ، وَإِذا كَانَ لَهُم . . لَمْ يُعَسِّرُوا » ، وقال : « إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَّاراً إِلاَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَبَرَّ وَصَدَق » رواهُ التِّرمذيُّ ؛ لأَنَّهُم يَحلفونَ فيأْثمون ، ويُحدِّثونَ فيَكذبون .

ومنه : **عدمُ خيانةِ الشَّريكينِ** ؛ لأَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « يَقُولُ الله : أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَه ، فَإِذا خَانَه . . خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا » وفي رواية : « وَجاءَ الشَّيْطَان » .

فعليكُم ـ عبادَ الله ـ بعدم تطفيفِ الموازين ، والتَّجنُّبِ عنِ الرِّبا فإِنَّهُ منقصةٌ لِلدِّين ، وذِلَّةٌ للقاسطين ، فالويلُ كلُّ الويلِ لمَنْ لَم يَسمعْ كلامَ ربِّ العالمين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

فالأَسفُ لمَنْ بَاعَ دينَهُ بحبَّةِ طعام ، وواهاً لمَنْ طفَّفَ الكيلَ ولَمْ يُراقبِ الملكَ العلاَّم ، واشترى النَّارَ بكسرةٍ لِما تحمَّلَ مِنَ الأَوزارِ والآثام ، أَلَم يعلمْ أَنَّ اللهَ لا يهدي كيدَ الخائنين ؟ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

ليتَ شِعري ، هلاَّ اتَّعظَ آكِلُ الرِّبا بأَمْثالِه ؟ وتفكَّرَ بعاقبةِ أَحواله ، وأَبصرَ نموَّ

الصَّدقةِ ومَحْقَ الرِّبَا لمالِه ، وينظرُ إِلىٰ قول مَنْ كتبَ رزقَهُ وهوَ جنين : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

إِنَّ آكِلَ الرِّبا كمَنْ جاءَ أُمَّه ، كما أَخبرَ الصَّادقُ نبيُّ الأُمَّة ، وإِنَّ الكاذبَ في بيعهِ يسقيهِ الشُّجاعُ الأَقرعُ سُمَّه ، ويُحشرُ يومَ القيامةِ معَ المنافقين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

يقفُ لسانُ الميزانِ بلسانهِ عندَ الممات ، فيقول : ربِّ ارجعون ، وهيهات! فلَو كانَ يعلمُ هـٰذا حالَ الحياة.. لمَا فاتَ منه ما فات ، ولأَعطىٰ بدلَ الحبَّةِ حبَّاتٍ لِلمشترين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

أَيُّها الخائنُ ؛ تذكَّر يومَ القيامة ، يومَ لا تنفعُ الأَموالُ والنَّدامة ، واسلُكِ الآنَ طريقَ السَّلامة ، قَبْلَ أَنْ يُؤخَذَ بالوتين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

ويلٌ : وادٍ تستغيثُ منهُ النَّار ، ولا يقرُّ لِلعاصينَ فيهِ القرار ، ولا يَستطيعونَ الفرار ، مِنْ أَبوابٍ غُلِّقَتْ على المعذَّبين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

فتبّاً لِلمحتكرينَ والمقامرين ، وسحقاً لمَنْ يقومُ في المحشرِ كالمجانين ، وخسراناً لمَنْ مسَّتْهُ الشَّياطين ، ولَم يَخَفْ ديّانَ يوم الدِّين ، يومَ هُم بارزونَ لربِّ العالَمين ، وبعداً لمَنْ تلقَّى الجلبَ ولَم يتَّقِ النَّارَ الَّتي أُعدَّتْ لِلكافرين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

لقد جَعلوا البيعَ مثلَ الرِّبا ، ولم يتَّقوا بالصَّدقةِ لَهباً ، وقد أَورثَهُم عزُّ المالِ ذُلاً ونَصَباً ، وقد خاطبَهُم في كتابهِ المبينِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

أَيُّها النَّاس ؛ لا تُخسِروا الميزان ، واشتروا الجنَّة بحبَّةٍ مِنَ الدَّيان ، ولا تَجعلوا اللهَ عرضةً للأَيمان ، وسامِحوا في البيعِ والشِّراء ، فقد سمعتُم ما قيلَ في المسامحين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

وتجنَّبوا الغشَّ والاحتكار ، فهُما سببُ الهلاكِ والبوار ، والإِفلاسِ والجذامِ في هـٰذهِ الدَّار ، ولَهُم في العقبىٰ خزيٌ وعارٌ ونار ، وقد رأَيتُم أَموالَ غيرِكُم كيفَ قُسِّمَتْ على الوارثين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

وانظُروا إِلىٰ ما جمَعوا مِنْ حلالٍ وحرام ، كيفَ تنعَّمَ بها غيرُهم مِنَ الأَنام ، وكُتبت عليهِم تبعاتُهُ والآثام ، وبقَوا بذلكَ السُّحتِ لِلغرماءِ مطلوبين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

أَمَا يذكرُ العاصي أَن مأْواهُ اللُّحود ، وأَنَّ جسمَهُ مأْكلةٌ لِلدُّود ؟! أَما يرى المحتكِرُ قبورَ الأَحبَّةِ والآباءِ والجدود ؟! فهلاَّ عَدَلَ في الموازين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

فليندمْ آكِلُ السُّحتِ علىٰ ما أَسلف ، ولْيُرجِع المطفِّفُ إِلى المشْتري ما طفَّف ، وليتبْ عمَّا أَجرمَ وأَسرف ، قبلَ أَنْ تُؤْخذَ حسناتُهُ فتعطىٰ للطَّالبين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

وفَّقنا اللهُ تعالىٰ وإِيَّاكُم لمراضيه ، وجعلَ مُستقبَلَ حالِنا خيراً مِنْ ماضِيه ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيدِنا محمدٍ وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ أَجمعين ، وسلَّم تسليماً .

* * *

المجلس التاسع والعشرون
في الصيد والذبائح وما يناسب ذلك

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي خلقَ آدمَ وما مسَّه ، وقمرَ الكونِ وشمسَه ، واليومَ وأَمسَه ، عَرَفَهُ الموحِّد فنزَّهَ قُدسَه ، وجَهلَ المشبِّهُ فاستَفتىٰ حِسَّه ، فقاسَ الخالقَ بالأَشياءِ المُحَسَّه ، كمْ عثرَ مبتدِعٌ والسُّنَّةُ تصيحُ بهِ تَعسه! وسيحضُرُ يومَ الحسابِ ويرىٰ جزاءَ ما افترىٰ ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ ﴾م .

أَحمدُهُ حقَّ حمدِهِ وأَنَّىٰ وليت ، وأُقِرُّ بِأَنَّهُ يُخرجُ الحيَّ منَ الميت ، ويُكثر لسانِي الصَّلاةَ علىٰ نبيِّهِ وأُنادي ما وفَّيت ، وعلىٰ صاحبه أَبي بكرٍ المقدَّمِ وإِن أَبَيت ، وعلىٰ عمرَ الَّذي كسرَ كِسرىٰ وقدْ رأَيت ، وعلىٰ عثمانَ ذِي النُّورَيْنِ وإِن تعامَيت ، وعلىٰ عَليٍّ الَّذي لا يُبغضُهُ إِلاَّ منافقٌ خَربُ البيت ، وعلى بقيَّةِ الآلِ والصَّحابةِ وأَهلِ البيت .

أمَّا بعد : فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ في كتابهِ المبين : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ الآية . .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ، وبيدِهِ أَزِمَّةُ التَّحقيق ـ : هٰذهِ الآياتُ الجليلةُ من سورةِ المائدة ، وهي مدنيَّةٌ بالإجماعِ علىٰ ما قالهُ القُرطبي ، وعن محمَّدِ بنِ كعب : أَنَّها نزلتْ في حَجَّةِ الوَداعِ فيما بينَ مكَّةَ والمدينة .

وأَخرجَ أَبو عبيدٍ عنْ ضمرةَ بنِ حبيبٍ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « الْمَائِدَةُ مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ تَنْزِيلاً ، فَأَحِلُّوا حَلاَلَهَا وَحَرِّمُوا حَرَامَهَا » وقال مَيسرة : إِنَّ اللهَ تعالىٰ أَنزلَ في هٰذهِ السُّورةِ ثمانيةَ عشرَ حُكماً لَمْ يُنزلها في غيرِها منْ سوَرِ القُرآن .

قلت : ولعلَّها لهٰذا افتُتِحتْ هٰذهِ السُّورةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ** ﴾ والمرادُ بها علىٰ ما قالَ غَيرُ واحد : ما عقدَهُ اللهُ تعالىٰ على عبادِهِ وأَلزمهُم بهِ منَ الأَحكام .

ونحنُ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ سنبيِّنُ لكُم في هٰذا الدَّرسِ بعضَ تلكَ الأَحكام ؛ لتعرفُوا الْحلالَ مِنها والحرام .

فَمنْها : حرمةُ أَكلِ الميتة : قالَ العلماء : وإِنَّما حرَّمها اللهُ تعالىٰ إِلاَّ حالةَ الاضطرار ؛ لأَنَّ الدَّمَ جوهرٌ لطيف .

فإِذا ماتَ الحيوان . . احتبسَ الدَّمُ وتعفَّنَ فيحصلُ منهُ مضار ، ويُستثنىٰ مِنْ ذلك : السَّمكُ والجراد ؛ لقولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « أُحِلَّتْ لَكُمْ مَيْتَتَانِ وَدَمَان ، أَمَّا الْمَيْتَتَان . . فَالسَّمَكُ وَالْجَرَاد ، وَأَمَّا الدَّمَان . . فَالكَبِدُ وَالطِّحَال » وكذا يستثنى الجنين ؛ لأَنَّ ذكاتَهُ ذكاةُ أُمِّهِ عندَ الإِمامِ الشَّافعي .

ومنها : الدَّم : وسببُ تحريمهِ نجاستُه ، وكانوا يملؤونَ المعيَ منهُ ويَشوونَهُ ويُطعمونَهُ الضَّيف ، فحرَّمَ اللهُ تعالىٰ ذلك ، واتَّفقَ العلماءُ علىٰ تحريمهِ ونجاسته ، قالَ ابنُ حجر : نَعَم ، يُعفىٰ عمَّا يبقىٰ في العروقِ وعلى اللَّحمِ علىٰ أَنَّهُ خرجَ بالمسفوحِ[1] في الآيةِ الأُخرىٰ ؛ كالكبدِ والطِّحال .

ومنها : الْخنزير : وسببُ تحريمهِ نجاستُهُ أَيضاً ، قالَ العلماء : ولأَنَّ غذاءَ

---

(١) لأن المسفوح هو السائل ، وهنا لا يسيل .

الحيوانِ يصيرُ جَوهراً مِنْ بدنه ، ويورثُهُ أَخلاقاً وصفاتٍ مِنْ جنسِ ما كانَ حاصلاً في الغذاء ، والخنزيرُ مطبوعٌ علىٰ أَخلاقٍ ذميمةٍ جدّاً ، مِنها : الحرصُ الفاحش ، والرَّغبةُ الشَّديدةُ في المنهيَّات ، وعدمُ الغيرة ، فحُرِّمَ أَكلُهُ على الإِنسان ؛ لئَلاَّ يتكيَّفَ بتلكَ الكيفيَّات ، أَلا ترىٰ مَنْ واظبَ علىٰ أَكلهِ كيفَ أَورثَهُ حرصاً عظيماً على المنهيَّاتِ وعدمَ غيرةٍ ؟ فإِنَّهُ يَرى الذَّكَرَ مِنْ جنسهِ ينزو علىٰ أُنثاهُ ولا يمنعُه ، بخلافِ الغنمِ وسائرِ الحيوانات .

قالَ ابنُ حجر : وجملةُ الخنزيرِ محرَّمةٌ إِلاَّ شعرَهُ فيجوزُ الخرزُ به ، وخنزيرُ الماءِ مأْكولٌ عندنا اِنتهىٰ .

ومنها : ما أُهِلَّ بهِ لغيرِ الله : أَي : ذُبِحَ على اسمِ الصَّنم ، إِذِ الإِهلالُ رفعُ الصَّوت ، ومنهُ فلانٌ أَهلَّ بالحجِّ إِذا لبَّىٰ ، وكانوا يقولونَ عندَ الذَّبح : باسمِ اللاَّتِ والعزَّىٰ ، فحُرِّمَ عليهِم .

فمعنىٰ ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ : ما ذُبِحَ للطَّواغيتِ والأَصنام ، قالَهُ جمع .

وقالَ آخرون : يعني ما ذُكِرَ عليهِ غيرُ اسمِ الله .

ونقلَ ابنُ حجرٍ في « الزَّواجر » عنِ العلماءِ أَنَّهُ لَو ذَبحَ مسلمٌ ذبيحةً للتَّقرُّبِ بها إِلىٰ غيرِ اللهِ عزَّ وجل . . صارَ مرتدّاً ، وذبيحتُهُ ذبيحةُ مرتدٍّ لا تؤكَل .

ونقلَ ابنُ عطيَّةَ عن بعضهم أَنَّهُ استُفتي عنِ امرأَةٍ مترفةٍ نَحَرَتْ جزوراً للكعبة ، فأَفتىٰ بأَنَّهُ لا يحلُّ أَكلُها ؛ لأَنَّها ذُبِحَتْ لِصنم .

ومنها : المنخنقة : وهي : اَلَّتي تموتُ خنقاً ؛ بأَنْ يُحبسَ نفَسُها بفعلِ آدميٍّ أَو غيرهِ إِلىٰ أَنْ تموت ، وكانتِ الجاهليَّةُ يخنقونَ الحيوان ، فإِذا مات . . أَكلوه .

ومنها : الموقوذة : وهي : اَلَّتي وُقِذَت ـ أَي : ضُرِبَت ـ حتَّى استرخَتْ وماتَت . ونحوها المقتولةُ بالبندق ، فهيَ في معنى الميتةِ والمنخنقة ؛ لأَنَّها ماتت ولَم يَسلْ دمُها .

ومنها : المتردِّية : وهي : اَلسَّاقطةُ مِنْ علو ، كجبلٍ أَو شجر ، أَو في بئرٍ فهَلَكَتْ وماتت .

ومنها : النَّطيحة : وهيَ التَّي نَطَحَتْها أُخرىٰ ، فهيَ أَيضاً ميتة ، لِفَقْدِ سيلانِ الدَّم .

ومنها : ما أَكلَ السَّبُع : قالَ قتادة : كانَ أَهْلُ الجاهليَّةِ إِذا جَرحَ السَّبعُ شيئاً فقتلَهُ وأَكلَ بعضَه . . أَكلوا ما بقي ، ففي الآيةِ حذف ، والتَّقدير : وما أَكلَ منهُ السَّبع .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ أَي : إِلاَّ ما وجدتُم فيهِ الحياةَ مِنَ المنخنقةِ وما بعدَها ، أَو ممَّا أَكلَ السَّبعُ فقط فذكَّيتموهُ فهو حلال ، وإِلا . . فلا .

وقيل : إِنَّهُ استثناءٌ منقطعٌ مِنَ المحرَّماتِ المذكورة ، كأَنَّهُ قيل : لـٰكنْ ما ذكَّيتُم مِنْ غيرِ هـٰذا فحلال .

ومنها : وهوَ عاشرُها : ما ذُبِحَ على النُّصُب : أَي : تُذبحُ للأَصنامِ على اعتقادِ تعظيمِها ، أَو علىٰ حَجَرٍ منصوبٍ حولَ الكعبة ، يَذبحونَ عليها للأَصنامِ ويُلطِّخونَها بدمِها .

قالَ مجاهدٌ وقتادة : كانَ حولَ الكعبةِ ثلاثُ مئةٍ وستُّونَ حَجَراً منصوبة ، يعبدُها أَهلُ الجاهليَّةِ ويُعظِّمونَها ويَذبحونَ لَها ، وليستْ بأَصنامٍ ، وإِنَّما الأَصنامُ هيَ المصوَّرةُ المنقوشة ، وكانو يُلطِّخونَها بتلكَ الأَدميةِ ويَضعونَ اللَّحمَ عليها ، فقالَ المسلمون : يا رسولَ الله ؛ كانَ أَهلُ الجاهليَّةِ يُعظِّمونَ البيتَ بالدَّم ، فنحنُ أَحَقُّ أَنْ نُعظِّمَه ، فسكتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ نزلَ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ .

ومعنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ﴾ النَّهيُ عما كانَ يَفعلُهُ الجاهليَّةُ مِنْ أَنَّ مَنْ أَرادَ منهُم سفراً أَو حاجة ، أَيَّ حاجةٍ كانت ، جاءَ إِلىٰ سادنِ الكعبةِ وكانَ عندَهُ سبعةُ أقداحٍ[1] ـ أَي : عيدان ـ مسوَّاةٍ مِنْ شوحط ، وسمِّيت بالأَزلامِ لأَنَّها زُلمَت ؛ أَي :

---

(١) أقداح وقداح ؛ كلاهما جمع قِدْح ؛ وهو : السهم قبل أن يراش وينصل .

سُوِّيَت ، وكانَ مكتوباً علىٰ واحدٍ منها : نَعَم ، وعلى الآخَر : لا . وقيل : مكتوبٌ علىٰ بعضِها : أَمرني ربِّي ، وعلىٰ بعضِها : نهاني ربِّي ، وتَركُوا بعضَها غفْلا ؛ أَي : خالياً ، فإِذا أَرادوا أَمراً أَوِ اختلفوا في نسب . . جاؤُوا إِلىٰ هُبل ـ وهوَ عظيمُ أَصنامِهِم ـ بِدَراهِمَ وجزورٍ أَو نحوِهِ لِصاحبِ الأَقداحِ حتَّىٰ يُجيلها لَهُم .

فمعنى الاستقسام : طلبُ معرفةِ الخيرِ والشَّر بواسطةِ القداح ، ووجهُ ذِكرِها معَ هٰذهِ المطاعم : أَنَّها كانت تُرفعُ عندَ البيتِ معهَا .

وردَ أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ (كانَ يُحبُّ الفأْلَ ويَكرهُ الطِّيرة) ولقد أَحسنَ مَنْ قال :

لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي الطَّوَارِقُ بِالْحَصَىٰ وَلاَ زَاجِـرَاتُ الطَّيْـرِ مَـا اللهُ صَـانِـعُ

وقالَ جماعةٌ مِنَ المفسرين : اَلمرادُ بالآية : اَلقمار .

وقالَ ابنُ جبير : الأَزلامُ حصىً كانوا يَضربون بها .

وقالَ مجاهد : هيَ كعابُ فارسَ والرُّوم الَّتي يتقامرونَ بها .

وقالَ الشَّعبي : الأَزلامُ لِلعرب ، والكعابُ للعجم .

واعلموا : أَنَّ القمارَ أَيضاً مِنْ جملةِ الكبائر ، قالوا : والدَّليلُ علىٰ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ .

وقولُهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلام: « إِنَّ رِجَالاً يَخُوضُونَ فِي مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّار » .

وروى البخاريُّ عنهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ أَنَّهُ قال : « مَنْ قالَ لِصَاحِبِه : تَعَالَ أُقَامِرْك . . فَلْيَتَصَدَّق » .

قالَ العلماء : فما ظَنُّكَ إِذا باشرَ القمارَ الَّذي هوَ الميسرُ ؟

قالَ العلماء : ولا قمارَ بالمسابقةِ بالخيلِ ونحوِها ، كما قالَ في « المنهاج » : ويجوزُ شرطُ المالِ مِنْ غيرِهما ويجوزُ شرطُهُ مِنْ أَحدِهما ، فيقول : إِنْ سبقتَني . .

فلكَ عليَّ كذا ، أَو سبقتُك . . فلا شيء لي عليك ؛ إِذْ لا قمار ، فإِنْ شرطَ أَنَّ مَنْ سبقَ منهُما فلَهُ على الآخرِ كذا . . لَم يصح ؛ لترددُدِ كلٍّ بينَ أَنْ يغنمَ أَو يغرم ، وهوَ القمارُ المحرَّمُ إِنتهىٰ .

واعلَم : أَنَّ مِنْ جملةِ أَنواعِ الميسرِ والقمار : اللَّعبُ بالشَّطرنجِ والنَّردِ حتَّىٰ عُدَّا مِنَ الكبائرِ أَيضاً ؛ فقد روىٰ أَبو موسى الأَشعريُّ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْد . . فَقَدْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَه » .

وروىٰ مسلم : « مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِير . . فَكَأَنَّمَا غَمَسَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِه » .

وروى الإِمامُ أَحمدُ : أَنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ قال : « مَثَلُ الَّذِي يَلْعَب بِالنَّرْدِ ثُمَّ يَقُومُ يُصَلِّي . . مَثَلُ الَّذِي يَتَوَضَّأُ بِالْقَيْحِ وَدَمِ الْخِنْزِيرِ ثُمَّ يَقُومُ وَيُصَلِّي » أَي : فلا تُقبلُ لَهُ صلاة .

وأَخرجَ الدَّيلمي : « إِذا مَرَرْتُمْ بِهَـٰؤُلاَءِ الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِهَـٰذِهِ الأَزْلاَمِ وَالشَّطْرَنْجِ وَالنَّرْدِ وَمَا كَانَ مِنْ هَـٰذه ـ أَي وما شابهَ ذلكَ مِنْ لهوٍ محرَّمٍ ـ فَلاَ تُسَلِّمُوا عَلَيْهِم ، وَإِنْ سَلَّمُوا عَلَيْكُم . . فَلاَ تَرُدُّوا عَلَيْهِم » .

وعن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « إِذا مَرَرْتُمْ بِهَـٰؤُلاَءِ الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِهَـٰذِهِ الأَزْلاَم : النَّرْد ، وَالشَّطْرَنْج ، وَمَا كَانَ مِنَ اللَّهْو . . فَلاَ تُسَلِّمُوا عَلَيْهِم » .

ومرَّ عليٌّ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَهُ علىٰ قومٍ يلعبونَ الشَّطرنج ، فقال : ما هـٰذهِ التَّماثيلُ الَّتي أَنتُم لها عاكفونَ ؟ لأَنْ يمسَّ أَحدُكم جمراً خيرٌ مِنْ أَنْ يمسَّها ، ثمَّ قال : واللهِ لغيرِ هـٰذا خُلِقتُم .

وقالَ أَيضاً رضيَ اللهُ عنه : صاحبُ الشَّطرنجِ أَكثرُ النَّاسِ كذباً ، يقول : قتلت ، وما قتل ، و : مات ، وما مات .

وعن واثلةَ بن الأَسقع قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ للهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ ثَلاَثَ مِئَةٍ وَسِتِّينَ نَظْرَةً إِلىٰ خَلْقِه ، لَيْسَ لِصَاحِبِ الشَّاهِ فِيهَا نَصِيب » .

وقالَ سفيانُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ﴾ هيَ الشَّطرنج .

وقالَ مجاهدٌ رضيَ اللهُ عنه : ما مِنْ ميتٍ يموتُ إلاَّ مُثِّلَ جلساؤهُ الَّذين يُجالسُهم ، فاحتضرَ رجلٌ ممَّنْ كانَ يلعبُ بالشَّطرنج ، فقيلَ لَهُ قُل : لا إلـٰهَ إلاَّ الله ، فقال : شاه ، ثمَّ مات . وهـٰذا مصداقُ الحديث : « يَمُوتُ كُلُّ إِنْسَانٍ عَلَىٰ مَا عَاشَ عَلَيْه ، وَيُبْعَثُ عَلَىٰ مَا مَاتَ عَلَيْه » .

ونقلَ ابنُ حجرٍ عن « فتاوى النَّووي » : اَلشَّطرنجُ حرامٌ عند أكثرِ العلماء ، وكذا عندَنا ، إنْ فوَّتَ بهِ الصَّلاةَ عن وقتِها أَو لَعِبَ بهِ علىٰ عِوض ، فإنِ انتفىٰ ذلك . . كُرِهَ عندَ الشَّافعيِّ وحَرُمَ عندَ غيره .

وقالَ أَيضاً في « الزَّواجر » : قالَ الشَّافعيُّ رضيَ اللهُ عنه : وأَكرَهُ اللَّعِبَ بالحزَّةِ والقرق ، اِنتهىٰ .

والحزَّة - بحاءٍ مهملة ، وزاي مشدَّدة - : قطعةٌ مِنْ خشبٍ يُحفرُ فيها حفرٌ ثلاثةَ أَسطر ، ويُجعلُ فيها حصياتٌ صغارٌ يُلعَبُ بها ، قد تسمَّى الأَربعةَ عشرَةَ وهيَ المسمَّاةُ في مصرَ بالمنقلة ، وفسَّرها سليمٌ في « تقريبه » بأَنَّها خشبةٌ يُحفرُ فيها ثمانيةٌ وعشرونَ حفرة ، أَربعةَ عشرَ مِنْ جانب ، وأَربعةَ عشرَ مِنَ الجانب الآخر ، ويلعبُ بها . فلعلّها نوعان .

والقِرْق - بكسرِ القافِ وسكونِ الرَّاء ، وحكى الرَّافعيُّ عن خطِّ القاضي الرُّوياني فتحَها - ويُسمَّىٰ شطرنجَ المغاربة ، بأَنْ يُخَطَّ على الأَرضِ خطٌّ مربَّع ، ويُجعلَ في وسطِهِ خطَّانِ كالصَّليب ، ويُجعلَ علىٰ رأسِ الخطوطِ حصىً صغارٌ يلعبُ بها .

قالَ الرَّافعي : هوَ كالنَّرد .

وعنِ الشَّيخِ أَبي حامدٍ أَنَّهُ كالشَّطرنج .

وأَمَّا اللَّعبُ بالخاتم : فكلامُ الرَّافعيِّ يقتضي جوازَه ، اِنتهىٰ .

وفي « نصابِ الاحتساب » : قالَ عطاءٌ رحمَهُ الله : المَيسرُ كلُّ قمار ، حتَّىٰ لعبُ الصِّبيانِ بالكعاب .

قلت : ومنه : المقامرةُ بالبَيْضِ والجوز ، والبيعُ الَّذي يُسمُّونَهُ يانصيب ، وشبهُ ذلكَ فلا تغفل .

وبقيَ في البحثِ تفصيلاتٌ واختلافات ، مَنْ أرادَها . . فليرجِعْ إلى الكتبِ المفصَّلات .

ولنرجع إلىٰ ما نحنُ بصددِهِ مِنْ بيانِ أَحكامِ الذَّبائح والأَطعمةِ والصَّيد ، فليُعلَم أنَّهُ لا يحلُّ أكلُ شيءٍ مِنَ الحيواناتِ الَّتي تُؤكَلُ إلاَّ بالذَّبحِ أَو بجرحِ الكلبِ المعلَّمِ له ، كما سنفصِّلهُ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، ففي كتابِ الأَطعمةِ والصَّيدِ والذَّبائحِ مِنَ « الميزان » ما ملخَّصه :

أَجمعُوا : على الذَّبائحِ المعتدِّ بها ، ذبيحةُ المسلمِ العاقلِ الَّذي يتأَتَّىٰ منهُ الذَّبح ، سواءٌ الذَّكرُ والأُنثىٰ .

وأَجمعوا علىٰ تحريمِ ذبائحِ الكفَّارِ غيرِ أَهلِ الكتاب ، وعلىٰ أَنَّ الذَّكاةَ تصحُّ بكلِّ ما أَنهرَ الدمَ وحصلَ بهِ قَطعُ الحلقومِ والمريء ، مِنْ سكِّينٍ وسيف ، وزجاجٍ وحجر ، وقصبٍ لَهُ حدٌّ يَقطعُ كما يَقطعُ السِّلاحُ المحدَّد .

واتَّفقوا علىٰ أَنَّهُ لَو أَبانَ الرَّأس . . لَم يَحرمْ ذلكَ المذبوح ، خلافاً لسعيدِ بنِ المسيِّب .

واتَّفقوا علىٰ أَنَّ السُّنَّةَ أَنْ تُنحرَ الإبلُ قائمةً معقولة ، وعلىٰ أَنْ تُذبحَ البقرُ والغَنَمُ مضطجعة .

واتَّفقوا علىٰ جوازِ الاصطيادِ بالجوارحِ المعلَّمة ، كالكلبِ والفهدِ والصَّقرِ والشَّاهينِ والبازي ، إلاَّ الكلبَ الأَسودَ عندَ الإِمامِ أَحمدَ رضيَ اللهُ عنه .

وعنِ ابنِ عمرَ ومجاهدٍ أَنَّهُ لا يجوزُ إلاَّ بالكلبِ فقط .

واتَّفقَ الأَربعةُ علىٰ أَنَّهُ لو رمىٰ[1] طائراً فجرحَهُ فسقطَ إِلى الأَرضِ فوجدَهُ ميتاً . . حلّ .

---

(١) قوله : لو رمىٰ ؛ أَي : بآلة جارحة . اهـ منه .

وأَمَّا ما أَجمعوا عليهِ في الأَطعمة . . فقد أَجمعوا علىٰ أَنَّ لحومَ النّعمِ حلال .

واتَّفقوا علىٰ أَنَّ كلَّ طيرٍ لا مخلبَ لَهُ فهوَ حلال .

واتَّفقوا علىٰ أَنَّ الأَرنبَ حلال ، وعلىٰ أَنَّ الحلالَ مِنْ حيوانِ البحرِ هوَ السَّمك .

واتَّفقوا علىٰ أَنَّ الجلاَّلَةَ[1] إذا حُبِسَتْ وعُلِفَتْ طاهِراً حتَّىٰ زالَتْ رائحةُ النَّجاسة . . حلَّتْ عندَ أَحمد ، وزالتِ الكراهةُ عندَ مَنْ لا يقولُ بتحريمِها كالأَئمَّةِ الثَّلاثة ، قالوا : ويحبسُ البعيرُ والبقرةُ أَربعينَ يوماً ، والشَّاةُ سبعةَ أَيَّام ، والدَّجاجةُ ثلاثةَ أَيَّام .

وأَمَّا ما اختلفوا فيه :

فمِنْ ذلك : قولُ الأَئمَّةِ الثَّلاثةِ إِنَّهُ لا تجوزُ الذَّكاةُ بالسِّنِّ والظّفر ، معَ قولِ أَبي حنيفة : تَصحُّ إذا كانا منفصلَين ، يعني : عنِ الذَّابح .

ومِنْ ذلك : قولُ مالك : يجبُ قطعُ هٰذهِ الأَربعة ، وهي : الحلقومُ وهو مجرى النَّفَس ، والمريء ـ بالهمزِ كأَمير ـ وهو مجرى الطَّعامِ والشَّراب ، والودجانِ ـ تثنيةُ وَدَج بفتحتين ـ : عرقان عظيمانِ في جانبي قدّام العنقِ بينَهُما الحلقومُ والمريء .

معَ قولِ الشَّافعيِّ إِنَّهُ يجبُ قَطْعُ الحلقومِ والمريءِ فقط .

ومعَ قولِ أَبي حنيفةَ أَنَّهُ يجبُ قَطْعُ ثلاثةٍ مِنَ الحلقومِ والمريءِ والودجين .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ والشَّافعيِّ إِنَّهُ لَو ذُبِحَ الحيوانُ مِنْ قفاهُ وبقيَ فيهِ حياةٌ مستقرَّةٌ عندَ قطعِ الحلقوم . . حل ، وإلا . . فلا . وتُعرفُ الحياةُ المستقرَّةُ بالحركةِ الشَّديدةِ معَ خروجِ الدَّم .

وقالَ مالكٌ وأَحمد : لا تحلُّ بحال .

ومِنْ ذلك : قولُ الأَئمَّةِ الثَّلاثةِ إِنَّهُ لَو نُحِرَ ما يُذبَح ، أَو ذُبِحَ ما يُنحر . . حلَّ معَ الكراهة .

معَ قولِ مالكٍ إِنَّهُ لَو ذَبحَ بعيراً ، أَو نحرَ شاةً مِنْ غيرِ ضرورة . . لَم يُؤْكَل ، وحملَهُ بعضُ أَصحابِهِ على الكراهة .

---

(١) جلَّ البعْر : التقطه . ومنه سمِّيت الدَّابَّةُ الَّتي تأْكل العَذِرَة : الجلاَّلة .

ومِنْ ذلك : قولُ الأَئمَّةِ الثَّلاثةِ إِنَّهُ لَو ذبحَ حيواناً مأكولاً فوجدَ في جوفهِ جنيناً ميتاً . . حلَّ أَكلُه .

معَ قولِ أَبي حنيفةَ إِنَّهُ لا يحل .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعيِّ باستحبابِ التَّسميةِ عندَ إِرسالِ الكلبِ المعلّمِ أَو نحوِه على الصَّيد ، وأَنَّهُ لَو تركَها ولو عامداً . . لَم يَحرم .

معَ قولِ أَبي حنيفةَ إِنَّها شرطٌ في حالِ كونهِ ذاكراً ، فإِنْ تركها ناسياً . . حلّ ، أَو عامداً . . فلا .

ومعَ قولِ مالك : إِنَّهُ إِنْ تعمَّدَ تركها . . لَم يحل ، وإِنْ نسي . . فيهِ روايتان .

ومعَ قولِ أَحمدَ في أَظهرِ رواياتهِ إِنَّهُ إِنْ تركَها عندَ إِرسالِ الكلبِ أَوِ الرَّمي . . لَم يحلَّ الأَكلُ مِنْ ذلكَ الصَّيدِ على الإِطلاق ، عمداً كانَ التَّركُ أَو سهواً .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ والشَّافعيِّ في أَرجحِ قولَيْهِ وأَحمد : إِنَّ الكلبَ المعلَّمَ لَو أَكلَ مِنَ الصَّيد . . حرم ، وكذا ما صادَهُ قَبْلَ ذلكَ ممَّا لَم يأْكُلْ منه .

معَ قولِ مالكٍ والشَّافعيِّ في القولِ الآخَرِ إِنَّهُ يحلّ .

ومِنْ ذلك : قولُ الأَئمَّةِ الثَّلاثةِ إِنَّهُ لَو نصبَ أُحبولةً فوقعَ فيها صيدٌ ومات . . لَم يحل .

معَ قولِ أَبي حنيفةَ إِنَّهُ إِنْ كانَ فيها سلاحٌ فقتلَهُ بحدِّه . . حلّ .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثةِ إِنَّهُ لَو توحَّشَ إِنسيٌّ فلَم يَقدرْ عليه . . فذكاتُهُ حيثُ قدرَ عليهِ كذكاةِ الوحشي .

معَ قولِ مالكٍ : إِنَّ ذكاتَهُ في الحلقِ واللّبَّة .

ومِنْ ذلكَ قولُ الإِمامِ الشَّافعيِّ وأَحمدَ وأَبي يوسفَ ومحمَّد : يحلُّ أَكلُ لحمِ الخيل .

معَ قولِ مالكٍ بكراهته ، وقولِ أَصحابهِ بحرمته ، وهوَ قولُ أَبي حنيفة .

ومِنْ ذلك : قولُ الأَئمَّةِ الثَّلاثةِ بتحريمِ أَكلِ لحمِ البغالِ والحميرِ الأَهليَّة .

معَ قولِ مالكٍ بكراهتهِ كراهةً مطلَقة ، وقالَ محقِّقو أَصحابه : إِنَّهُ حرام .

ومعَ قولِ الحسن : يَحلُّ أَكلُ لحمِ البغال .

وقالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : يَحلُّ أَكلُ لحومِ الحمرِ الأَهليَّة .

ومِنْ ذلكَ اتِّفاقُ الأَئمَّةِ الثَّلاثةِ علىٰ تحريمِ كلِّ ذي نابٍ مِنَ السِّباع ، ومخلبٍ مِنَ الطَّيرِ يَعدو بهِ علىٰ غيره ؛ كالعقابِ والصَّقرِ والبازيِّ والشَّاهين ، وكذا ما لا مخلبَ لَهُ إِذا كانَ يأْكلُ الجيف ؛ كالنَّسرِ والرّخمِ والغرابِ الأَبقعِ والأَسودِ غير غرابِ الزَّرع .

معَ قولِ مالكٍ بإِباحةِ ذلكَ كلِّهِ على الإِطلاق ، فالأَوَّلُ مشدِّدٌ ، وقولُ مالكٍ فيهِ تخفيف ، فرجعَ الأَمرُ إِلىٰ مرتبتي الميزان .

ووجهُ الأَوَّل : أَنَّهُ غيرُ مستطابٍ لأَهلِ الطِّباعِ السَّليمة ، ولأَنَّ فيهِ قسوةً مِنْ حيثُ أَنَّهُ يَقسرُ غيرَهُ ويَقهرهُ مِنْ غيرِ رحمةٍ بذلكَ الحيوانِ المقسور ، فيسري نَظيرُ تلكَ القسوةِ في قلبِ الآكلِ لَه ، وإِذا قَسا قلبُ العبد . . صارَ لا يحنُّ قَلْبُهُ إِلىٰ موعظةٍ وصارَ كالحمار ، ومِنْ هنا وردَ النَّهيُ عن الجلوسِ علىٰ جلودِ النِّمارِ والسِّباع ؛ لأَنَّهُ يورثُ القسوةَ في القلبِ كما جُرِّب .

ووجهُ تحريمِ ما يأْكلُ الجيف : أَنَّهُ مستخبث .

ووجهُ قولِ مالك : إِنَّ بعضَ النَّاسِ يَستطيبهُ فيُباحُ لَهُ أَكلُه ، فإِنَّ العلَّةَ في تحريمِ غيرِ المستطابِ إِنَّما هيَ مِنْ جهةِ الطِّب ، وذلكَ لأَنَّ أَكلَ كلِّ ما لا تشتهيهِ النَّفْسُ يكونُ بطيءَ الهضمِ فيورثُ الأَمراض ، عكس أَكلِ الإِنسانِ ما تشتهيهِ نَفْسُهُ فإِنَّهُ يكونُ سريعَ الهضم ، وكلَّما اشتدَّتِ الشَّهوةُ إِليهِ . . كان أَسرع ، فافهَم .

ومِنْ ذلكَ : قولُ الأَئمَّةِ الثَّلاثةِ في المشهورِ عنهُم إِنَّهُ لا كراهةَ فيما نُهِيَ عن قتله ؛ كالخطّافِ والهدهد ، والخفَّاشِ والبوم ، والببغاءِ والطّاووس .

معَ قولِ الشَّافعيِّ في أَرجحِ القولَينِ : إِنَّهُ حرام .

ومِنْ ذلك : قولُ الأئمةِ الثَّلاثةِ بتحريمِ أَكلِ كلِّ ذي نابٍ مِنَ السِّباعِ يعدو بهِ علىٰ غيرِه ؛ كالأَسدِ والنَّمرِ والذِّئب ، والفيلِ والدّبِّ والهرَّة ، إلاَّ مالكاً فإنَّهُ أَباحَ أَكْلَ ذلكَ معَ الكراهة .

ومِنْ ذلك : قولُ صاحبِ « التَّعجيز » بتحريمِ أَكْلِ الزَّرافة ، معَ قولِ السّبكيِّ في « الفتاوى الحلبيَّة » : إنَّ المختارَ حِلُّ أَكلِها .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعيِّ وأَحمد بحلِّ الثَّعلبِ والضَّبع ، معَ قولِ مالكٍ بكراهةِ أَكلِ لحمِهما ، ومعَ قولِ أَبي حنيفةَ بتحريمِهما .

ومِنْ ذلك : قولُ مالكٍ والشَّافعيِّ بإِباحةِ لحمِ الضَّبِّ واليربوع ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ بالكراهة ، ومعَ قولِ أَحمدَ بإِباحةِ لحمِ الضَّب ، وفي اليربوعِ روايتان .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثةِ بتحريمِ أَكلِ جميعِ حشراتِ الأَرض ؛ كالفأْرِ والذُّبابِ والدُّود ، معَ قولِ مالكٍ بكراهته .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثة : إنَّ الجرادَ يُؤْكَلُ ميتاً علىٰ كلِّ حال ، معَ قولِ مالك : إنَّهُ لا يُؤْكَلُ منهُ ما ماتَ حَتْفَ أَنفهِ مِنْ غيرِ سببٍ يصنعُ به .

ومِنْ ذلك : قولُ مالكٍ والشَّافعي بحلِّ أَكلِ القنفذ ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ وأَحمدَ بتحريمه ، ومعَ قولِ مالك : لا بأْسَ بأَكلِ الخلدِ والحيَّاتِ إذا ذُكِّيَت . والخلد : دابَّةٌ عمياءُ تشبهُ الفأْر .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ وأَحمدَ والشَّافعيِّ في أَصحّ قولَيْهِ إنَّهُ يَحرمُ أَكلُ ابنِ آوىٰ ، معَ قولِ مالكٍ إنَّهُ مكروه .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفة ، والشَّافعيِّ في أَصحِّ قولَيْه : إنَّ الهرَّةَ الوحشيَّةَ حرام ، معَ قولِ مالك : إنها مكروهةٌ فقط ، وعن أَحمدَ روايتان : اَلإِباحةُ والحرمة .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفة : لا يُؤكَلُ مِنْ حيوانِ البحرِ إلاَّ السَّمكُ وما كانَ مِنْ جنسهِ خاصَّة .

معَ قولِ مالكٍ إنَّهُ يجوزُ أكلُ غيرِ السمَّكِ مِنَ السَّرطانِ وكلبِ الماءِ والضِّفدعِ وخنزيرِه ، لٰكنَّ الخنزيرَ مكروهٌ عندَه ، ورويَ أنَّهُ توقَّفَ فيه .

ومعَ قولِ أَحمد : يُؤكلُ جميعُ ما في البحرِ إلاَّ التّمساحَ والضِّفدعَ والكوسج ، ويفتقرُ غيرُ السَّمكِ عِندَهُ إلى الذَّكاة ، كخنزيرِ البحرِ وكلبهِ وإِنسانه .

ومعَ قولِ بعض أَصحابِ الشَّافعي ، وهوَ الأَصحُّ عندَهُم ، إنَّهُ يُؤكَلُ جميعُ ما في البحر .

وقالَ بعضُهم : لا يُؤكَلُ إلاَّ السَّمك .

وقالَ بعضُهم : لا يُؤكَلُ كلبُ الماءِ ولا خنزيرُه ، ولا فأرتُهُ ولا عقربُهُ ولا حيَّتُه ، وكلُّ ما لَهُ شبهٌ في البرِّ لا يُؤكَل .

ورجَّحَ بعضُ الشَّافعيَّةِ أَنَّ كلَّ ما في البحرِ حلال ، إلاَّ التِّمساحَ والضِّفدع ، والحيَّةَ والسَّرطانَ والسُّلحفاة .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثةِ بكراهةِ أَكلِ لحمِ الجَلاَّلةِ مِنْ بقرٍ وشاةٍ وغيرِهما ، معَ قولِ أَحمدَ بتحريمِ أَكلِ لحمِها ولبنِها وبيضِها .

ومِنْ ذلك : اتِّفاقُ الأَئمَّةِ الأَربعةِ علىٰ تعذُّرِ تطهيرِ الدُّهنِ المائعِ إذا تنجَّس ، وأَنَّ ثمنَهُ حرام .

معَ قولِ بعضِهم : إنَّ الدُّهنَ يَطهرُ بغَسله .

قلت : وقد صرَّحَ أَئمَّتُنا الحنفيَّةُ بأَنَّهُ يُغلىٰ معَ الماءِ ثلاثَ مرَّاتٍ فيطهر .

وكذلك :

اتَّفقوا علىٰ جوازِ الاستصباحِ به ، معَ قولِ الشَّافعيِّ لا يجوزُ الاستصباحُ به .

قلت : والَّذي يخطرُ ببالي أَنهم خصُّوهُ في غيرِ المسجد ، وأَمَّا فيه . . فلا يجوز .

ومِنْ ذلك : قولُ الأَئمَّةِ الثَّلاثةِ باستحبابِ ضيافةِ المسلمِ للمسلمِ إذا مرَّ علىٰ قريتهِ ولم تكنْ ذاتَ سوقٍ ولَم يكنْ بهِ ضرورة ، دونَ الوجوب .

معَ قولِ أَحمدَ بوجوبِ الضِّيافةِ المذكورة ، لٰكنَّ الوجوبَ ليلةٌ واحدة ، والثَّلاثُ مستحبَّةٌ ومتى امتنعَ مِنَ الواجب . . صارَ عليهِ دَيناً .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفة ، والشَّافعيِّ في أَحدِ قولَيهِ إِنَّهُ لا يجوزُ لِلمضطر إِلىٰ أَكلِ الميتةِ ونحوِها الشِّبَع ، وإِنَّما يأْكلُ ما يسدُّ الرَّمق .

معَ قولِ مالك ، وأَحمدَ في إِحدىٰ روايتيهِ إِنَّهُ يشبعُ . اهـ باختصار .

ولنذكر مِنْ كلامِ أَئمَّتِنا الحنفيَّةِ في بحثِ الذَّبائحِ تتميماً للفائدة ، **فأَقول** :

قالَ في « الدُّر » و« حاشيته » : حرمَ حيوانٌ مِنْ شأْنهِ الذَّبحُ ما لَم يُذَكَّ ،[1] وذكاةُ الضَّرورة : جرحُ الصَّيدِ غير المستأْنس في أَيِّ موضعٍ وقعَ مِنَ البدن .

وذكاةُ الاختيار : ذبحٌ بينَ الحلقِ واللَّبةِ ، وعروقه : الحلقومُ ؛ وسطهُ أَو أَعلاهُ أَو أَسفله ، والمريءُ والودجان ، وحلَّ بقَطْعِ أَيِّ ثلاثٍ منها ، وبكلِّ ما أَفرى الأَوداجَ وأَنهرَ الدَّم ، ولو بنارٍ أَو ليطةٍ أَو حجر ، كالسِّكين ، إِلاَّ سِناً وظُفراً قائمين ، ولو كانا منزوعَين . . حلَّ معَ الكراهة ، لِما فيهِ مِنَ الضَّررِ بالحيوان ؛ كذبحهِ بشفرةٍ كليلة .

ونُدبَ إِحدادُ شفرتهِ قَبْلَ الإِضجاع ، وكُرِهَ بعدَه ؛ كالجرّ برجلِها إِلى المذبح ؛ لأَنَّها تَعرفُ ما يُرادُ بها ، كما جاءَ في الخبر : « أَبْهَمَتِ الْبَهَائِمُ إِلاَّ عَنْ أَرْبَعَة : خَالِقِها ، وَرَازِقِهَا ، وَحَتْفِهَا ، وَسِفَادِهَا » .

وكُرِهَ ذبحُها مِنْ قفاها إِنْ بقيَتْ حيَّة ؛ حتَّىٰ تُقطعَ العروق ، وإِلا . . لَم تحل ؛ لموتِها بلا ذكاة .

ويُكرهُ النَّخع ؛ وهوَ : إِبلاغُ السِّكِّينِ النّخاع ، وهو : عرقٌ أَبيضُ في جوف عظمِ الرَّقبة .

ويُكرهُ أَنْ يُمدَّ رأْسُهُ حتَّىٰ يَظهرَ مذبحُه ، وكُرِهَ كسرُ عنقهِ قَبْلَ أَنْ يَسكنَ عنِ الاضطراب .

وكُرِهَ أَيضاً كلُّ تعذيبٍ بلا فائدة ؛ مثلُ قطْعِ الرَّأْسِ والسَّلخِ قَبْلَ أَنْ تبرد .

وكُرِهَ تركُ التوجُّهِ إِلى القبلة ؛ لمخالفتهِ السُّنَّة .

---

(١) يُذَكَّ : يذبح .

وشرطُ كونِ الذَّابحِ مسلماً أَو كتابياً ، ذمياً أَو حربياً ، إِلاَّ إِذا سُمِعَ منهُ عندَ الذَّبحِ ذِكرُ المسيح .

وذَبحُ الشَّاةِ يجوزُ مِنْ مُحرِمٍ وغيرِهِ ولَو في الحرم ، ولا تحلُّ ذبيحةُ وثنيٍّ ومجوسيٍّ ومرتد ، قيل : وجهميٍّ ونحوه . وهوَ قولٌ ضعيفٌ مردود .

ولا تحلُّ ذبيحةُ مَنْ تعمَّدَ تَركَ تسميةٍ ، مسلماً أَو كتابيّاً ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ خلافاً للشَّافعي ، وهوَ خلافُ الإِجماع ، وأَمَّا ما استدلَّ بهِ مِنْ قولِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « الْمُسْلِمُ يَذْبَحُ عَلَى اسْمِ اللهِ سَمَّىٰ أَوْ لَمْ يُسَم » فمحمولٌ علىٰ حالةِ النِّسيان .

وتُشترطُ التَّسميةُ مِنَ الذَّابحِ حالَ الذَّبحِ أَوِ الرَّمي لصيدٍ أَوِ الإِرسالِ لِكلْبٍ أَو نحوه ، وكفىٰ جرحُ بقرٍ وغنمٍ توحَّشَ فيجرحُ كصيد ، أَو تعذَّرَ ذبحُه ؛ كأَنْ تردَّىٰ في بئرٍ أَو ندّ ـ أَي : نَفَر ـ أَو صال حتَّىٰ لو قتلَه المصولُ عليهِ مريداً ذكاتَه . . حلَّ إِذا كانَ سمَّىٰ عندَ جَرْحهِ مريداً ذكاتَه .

والجنينُ لا بدَّ مِنْ تذكيته .

ولو ذبحَ شاةً مريضةً فتحرَّكَتْ أَو خرجَ الدَّم . . حل ، وإِلا . . لا إِنْ لَم تُدرَ حياتُهُ عندَ الذَّبح ، وإِنْ عُلمَ حياتُه . . حلَّتْ مطلَقاً ؛ أَي : وإِنْ لَم يتحرَّكْ ولَم يَخرجِ الدَّم .

ولو ذبحَ لقدومِ الأَميرِ ونحوه . . يَحرمُ وإِنْ ذُكِرَ اسمُ اللهِ تعالىٰ عليها . . ولو ذبحَ لِلضَّيف . . لا يَحرم ، وإِنْ قصدَ التَّعظيمَ لغيرِ اللهِ تعالىٰ . . قيل : يكفر .

والعضو المنفصلُ مِنَ الحيِّ حُكمُهُ كميتته ، إِلاَّ مِنْ مذبوحٍ قَبْلَ موته . . فيحلُّ أَكلُهُ لَو مِنَ الحيوانِ المأْكول ، لـٰكنَّهُ مكروهٌ . اهـ

وفي كتابِ « الزَّواجر » إِنَّ مِنْ جملةِ الكبائر : اَلمثلةُ بالحيوان ؛ بقَطْعِ شيءٍ مِنْ نحوِ أَنفهِ أَو أُذنه ، أَو وسمهِ في وجهه ، أَوِ اتِّخاذهِ غرضاً ، أَو قتلهِ لغيرِ الأَكل ، أَو عدمِ إِحسانِ ذبحه ؛ فقد أَخرجَ أَحمدُ ابنُ حنبلَ أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « مَنْ مَثَّلَ بِذِي رُوحٍ ثُمَّ لَمْ يَتُب . . مَثَّلَ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَة » .

وأَخرجَ مسلمٌ : أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّ بحمارٍ وقد أُشعرَ في وجهه ، فقال : « لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَه » .

وصحَّ نهيُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الضَّربِ في الوجوهِ وعنِ الوسمِ فيه ، وروى ابنُ عمر : « لَعَنَ اللهُ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئاً فِيهِ الرُّوحُ غَرَضاً » وهوَ ـ بالغينِ المعجمة ـ : ما ينصبُهُ الرُّماةُ يقصدونَ إصابتَه .

وأَخرجَ النَّسائي وابنُ حبّان : « مَنْ قتَلَ عُصْفُوراً عَبَثاً . . عَجَّ إلى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُول : إِنَّ فُلاَناً قَتَلَنِي عَبَثاً وَلَمْ يَقْتُلْنِي مَنْفَعَة » .

وروى الحاكمُ أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّ علىٰ رجلٍ واضعٍ رجلَهُ علىٰ صَفْحَةِ شاة ، وهوَ يُحِدُّ شَفْرَتَهُ وهيَ تلحظُ إليه ببصرِها ، قال : « أَفَلاَ قَبْلَ هـٰذَا تُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَاتٍ ؟! هَلاَّ أَحْدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضْجِعَهَا » .

وفي « الصَّحيحين » : « إِنَّ امْرَأَةً دَخَلَتِ النَّارَ بِهِرَّةٍ حَبَسَتْهَا » .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « مَنْ لاَ يَرْحَمِ النَّاسَ لاَ يَرْحَمُهُ الله » [وقال] : « لَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَرَاحَمُوا » [وقال] : « اِرْحَمُوا تُرْحَمُوا ، وَاغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُم » .

ومِنَ الكبائرِ أَيضاً : اَلذَّبحُ لغيرِ اللهِ تعالىٰ ، لا علىٰ وجهِ التَّعظيمِ والعبادة ، فإِنْ كانت علىٰ وجهِهما . . فذلكَ كفر .

قالَ ابنُ حجر : وجعلَ أَصحابُنا مِمَّا يُحَرِّمُ الذَّبيحةَ أَنْ يقول : باسمِ اللهِ واسمِ محمَّد ، أَو : محمَّدٌ رسولُ الله . أَو أَنْ يذبحَ كتابيٌّ لـكنيسته ، أَو لِلصَّليب ، أَو لموسىٰ ، أَو لعيسىٰ . أَو ذبحَ مسلمٌ لِلكعبة ، أَو لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، أَو تقرُّباً لِسلطانٍ أَو غيره ، أَو لِلجن . . فهـٰذا كلُّهُ ميتة .

بخلافِ ما لَو قصدَ الفرحَ بقدومه ، أَو شُكرَ اللهِ تعالىٰ عليه ، أَو للهِ تعالىٰ ليدفعَ عنهُ شرَّ الجن .

ومِنَ الكبائرِ أَيضاً : تسييبُ السَّوائب ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ وذلكَ أَنَّ الجاهليَّةَ كانوا إذا وَلَدَتِ النَّاقةُ عشرةَ أَبطن . . شقُّوا

أُذُنَها فيُسيِّبونَها ، فلا تُركَبُ ولاَ يُحمَلُ عليها وهيَ البحيرة .

وأَمَّا السَّائبة : فهيَ الَّتي تُرِكَتْ حيثُ شاءَت . وقيل : كانَ الرَّجلُ إِذا مرضَ أَو قَدِمَ مِنْ سفر . . سَيَّبَ بعيرَهُ شكراً .

وقالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : هيَ الَّتي تُسيَّبُ للأَصنام .

وأَمَّا الوصيلة ، فهي : إِذا وَلدتِ الشَّاةُ أُنثىٰ . . فهيَ لَهُم ، وإِنْ وَلَدَت ذكراً . . فهوَ لآلهتِهِم ، فإِنْ وَلَدَتْ ذَكراً وأُنثىٰ . . قالوا : وَصلَتْ أَخاها ، فلَم يَذبحوا الذَّكرَ لآلهتِهم .

وأَمَّا الحام : فيقال : حماهُ يحميهِ إِذا حفظَه .

قالَ السُّدي : هوَ الفحلُ الَّذي يَضربُ في الإِبلِ عشرَ سنينَ فيُخلَّىٰ .

وقيل : إِنَّ الفحلَ إِذا رَكِبَ ولدَ ولده . . قالوا : قد حمىٰ ظهرَه ، فلا يُركَبُ ولا يُحمَلَ عليه ، ولا يُمنعُ مِنْ ماءٍ ولا مرعىً حتَّىٰ يموت .

ثمَّ قال : وقالَ أَصحابُنا : مَنْ ملكَ صيداً ثمَّ سيَّبَه . . أَثِم .

فيا إِخواني ؛ عليكُم بأَكلِ الطَّيِّبات ، والرَّحمةِ علىٰ كافةِ المخلوقات ، وامتثالِ ما أَمرَ بهِ سيِّدُ الرُّسلِ الكرام ، والاجتنابِ عمَّا نهىٰ مِنَ الآثام ، فقد أَعذَرَتْ إِليكُمُ الأَيّام ، بمَنْ سَلبتْ مِنَ الأَنام ، وأَيقظتِ الخطوبُ مَنْ غفلَ ونام ، أَمَا علمتُم أَنَّ هـٰذهِ الدُّنيا غدّارة ؟! أَمَا بَردُ لذَّاتِها ينقلبُ حرارَة ؟! أَمَا رِبحُها على التَّحقيقِ خسارَة ؟! أَمَا يَنقصُ الدِّينُ كلَّما ازدادتِ العمارَة ؟!

رحلَ الإِخوانُ ومرُّوا علىٰ جَدَدَ ، هـٰذهِ ديارُهم سَلُوها ما بقيَ أَحد .

مضَتْ ـ واللهِ ـ الخيلُ بفُرسانِها ، وتهدَّمتِ الحصونُ علىٰ سُكَّانِها ، فجُزْ عليها واعتَبِرْ بشأْنِها .

فتنبَّهْ لِنَفْسِكَ أَيُّها الظَّلوم ، وتَيقَّظْ مِنْ رقادِكَ إِلىٰ كم يا نَؤُوم ؟! وحصِّل شيئاً ترضي بهِ الخصوم ، قَتلتكَ همومُ الدُّنيا وبئسَ الهموم ، أَتلعبُ بالزَّنابيرِ ولَم تَشربْ درياقَ السُّموم .

قد بقيَ القليل ، فبادرْ تحصيلَ المَروم ، وهـٰذا هاجمُ الموتِ قد تهيَّأَ لِلهجوم ، أَينَ الَّذينَ كانوا في اللَّذاتِ يتقلَّبون ، ويتجبَّرونَ على الخلقِ ولا يُغلبون ؟! مُزِجَتْ لَهم كؤوسُ المنايا فباتوا يَتجرَّعون ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ .

مَدّوا أَيديَهُم إلى الحرام ، وأَكثروا مِنَ الزَّلَلِ والآثام ، وكم وُعِظُوا بمنثورٍ ومنظومٍ مِنَ الكلام ، لو أَنَّهُم يَسمعون ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ .

حُمِلَ كلٌّ منهُم إِلىٰ كَفَن ، إِلىٰ بيتِ البلا والعَفَن ، وما صَحِبَهُم غيرُهُ مِنَ الوطن ، مِنْ كلِّ ما كانوا يَجمعون ، ضمَّهُم ـ واللهِ ـ التُّراب ، وسُدَّ عليهم في ثراهُمُ الباب ، وتقطَّعتْ بهِمُ الأَسباب ، والأَحبابُ يَرجعون ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ .

أَينَ أَموالهُم والذَّخائر ؟! أَينَ أَصحابُهُم والعشائِر ؟! دارَتْ على القومِ الدَّوائِر ، ففيمَ أَنتُم تطمَعون ؟! شُغِلوا عنِ الأَهلِ والأَولاد ، وافتقرُوا إِلىٰ يسيرٍ مِنَ الزَّاد ، وباتُوا مِنَ النَّدمِ علىٰ أَخشنِ مهاد ، وإِنَّما هـٰذا مِنْ حصارِ ما كانوا يَزعمون ، أَينَ الجنودُ والخدم ؟ أَينَ الحُرُم والحُرَم ؟ أَينَ النِّعَمُ والنَّعَم ؟! بعدَ ما كانوا يَرتعونَ فيما يرتعون ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ .

لَو رأَيتَهُم في حُلَلٍ مِنَ النَّدامة ، إِذْ بَرزُوا يومَ القيامة ، وعليهم لِلعقابِ علامة ، يُساقونَ إِلى الذُّلِّ لا بالكرامة ، إِلى النَّارِ فهم يوزعون ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ .

يا معشرَ العاصين ؛ قد بقيَ القليل ، والأَيَّامُ تُنادي : دنا الرَّحيل !! وقد صاحَ بكُم إِلى الهدىٰ إِنْ كنتُم تَسمعون ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ .

اللَّهُم ؛ يا مَنْ فازَ بطاعتهِ المفلحون ، ورجا مغفرتَهُ العاصون . . اجعلْنا ممَّنْ بالمواعظِ يتَّعظون ، وجُدْ علينا ـ يا ربِّ ـ بأَفضلِ ما سأَلكَ السَّائلون ، وكُنْ لنا ـ يا ربِّ ـ في الحركةِ والسُّكون ، وارحمنا إِذا نزلَتْ بِنا المَنون ، وأَنِلْنا ما نالَهُ عبادُكَ الصَّالحون ، إِنَّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قدير .

* * *

المجلسُ الثَّلاثون
في زكاةِ الفطرِ وتفسير سورة الأعلىٰ

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ المنزَّهِ عنِ الأَشباهِ في الأَسماءِ والأَوصاف ، المقدَّسِ عنِ الجوارحِ والآلاتِ والأَطراف ، خَضَعَتْ لعزَّتهِ الأَكوانُ وأَقرَّتْ عنِ اعتراف ، وانقادَتْ لَهُ القلوبُ وهيَ في انقيادِها تخاف ، أَنزلَ القَطْرَ فمنهُ الدُّرُّ تحويهِ الأَصداف ، ومنهُ قوتُ البذرِ ويُربِّي الضِّعاف ، كشفَ لِلمتَّقينَ اليقينَ فشهدوا ، وأَقامَهُم في اللَّيلِ فسَهِروا ، فأَراهُم عيبَ الدُّنيا فرفَضوا وزَهِدوا ، وقالوا : نحنُ أَضياف ، وقضىٰ على المخالفينَ بالبعادِ فأَفاتَهُم التَّوفيقَ والإِسعاد ، فكلُّهم هامَ في الضَّلالِ وما عاد ، ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ .

أَحمدُهُ علىٰ سترِ الخطايا والاقتراف ، وأُصلِّي علىٰ رسولِهِ محمَّدٍ الَّذي أَنزلَ عليهِ (ق) ، وعلىٰ صاحِبِهِ أَبي بكرٍ مقدَّمِ الأَشراف ، وعلىٰ عمرَ صاحبِ العدلِ والإِنصاف ، وعلىٰ عثمانَ الصَّابرِ على الشَّهادةِ صبرَ النِّظاف ، وعلىٰ عليٍّ محبوبِ أَهلِ السُّنَّةِ الظِّراف ، وعلىٰ بقيَّةِ آلهِ وأَصحابهِ وزوجاتهِ المتَّصفينَ بالعفاف ، وسلِّم تسليماً .

أَمَّا بعد : فقد قالَ اللهُ تباركَ وتعالىٰ :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ .

فنقولُ ـ وباللهِ تعالى التَّوفيقُ ـ : تُسمَّىٰ هـٰذهِ السُّورةُ سورةَ الأَعلىٰ ، وسورةَ سبّح . والجمهورُ علىٰ أَنَّها مكيّة ، وقيل : إِنها مدنيَّة ؛ لِذكرِ صَلاةِ العيدِ وزكاةِ الفطرِ فيها .

وكانَ صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وسلَّمَ يُحبُّها ، فقد أَخرجَ الإِمامُ أَحمدُ ابنُ حنبلَ عن عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ قال : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يحبُّ هـٰذهِ السُّورة : (سبح اسم ربك الأَعلىٰ) .

وجاءَ في حديثٍ أَخرجهُ أَبو عبيدةَ أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ سمَّاها : أَفضلَ المسبِّحات .

وأَخرجَ أَبو داوود ، والتِّرمذيّ ، والنَّسائيّ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقرأُ في الوتر [في] الرَّكعةِ الأُولىٰ : (سبح) وفي الثَّانية : (قل يا أيها الكافرون) وفي الثَّالثة : (قل هو الله أحد) والمعوِّذتَين .

وأَخرجَ الإِمامُ أَحمدُ ومسلمٌ وابنُ أَبي شيبة ، عنِ النَّعمانِ بنِ بشير : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يقرأُ في العيدينِ ويومِ الجمعة : (سبح اسم ربك الأعلىٰ) و : (هل أتاك حديث الغاشية) وإِنْ وافقَ يومَ جمعة . . قرأَهُما جميعاً .

وأَخرجَ الطَّبرانيُّ عن عبدِ اللهِ بنِ الحارث قال : آخِرُ صَلاةٍ صلاَّها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : المغرب ، فقرأَ في الرَّكعةِ الأُولىٰ بـ (سبح اسم ربك الأعلىٰ) وفي الثَّانيةِ بـ (قل يا أيها الكافرون) .

وقولُهُ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ كما قالَ الوالد عليهِ الرَّحمةُ في تفسيرِهِ « روح المعاني » أَي : نزِّهْ أَسماءَهُ تعالىٰ عمَّا لا يليق ، فلا تُؤَوِّلْ ممَّا وردَ منها اسماً مِنْ غيرِ مُقتضٍ ، ولا تُبقهِ علىٰ ظاهرِهِ إِذا كانَ ما وضِعَ لَهُ ممَّا لا يَصحُّ لَهُ تعالىٰ ، ولا تُطلقْهُ علىٰ غيرِهِ سبحانَهُ أَصلاً إِذا كانَ مختصّاً ؛ كالاسمِ الجليل ، أَو علىٰ وجهٍ يُشعرُ بأَنَّهُ تعالىٰ والغيرَ فيهِ سواءٌ إِذا لَم يكنْ مختصّاً ، فلا تَقُلْ لمَنْ أَعطاكَ شيئاً مَثلاً : هـٰذا رازقي ، علىٰ وجهٍ يُشعرُ بذلك .

وصُنْهُ عنِ الابتذالِ والتَّلفُّظِ بهِ في محلٍّ لا يليقُ به ؛ كالخلاءِ وحالةِ التَّغوُّط ، وذكرِهِ لا علىٰ وجهِ الخشوعِ والتَّعظيم ، وربَّما يُعدُّ ممَّا لا يليقُ ذِكرُهُ عندَ مَنْ يَكرهُ سماعَهُ مِنْ غيرِ ضرورةٍ إليه .

وعنِ الإمامِ مالكٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه : أَنَّهُ كانَ إذا لَم يَجِدْ ما يُعطي السَّائل . . يقول : ما عندي ما أُعطيك . أَو : ائتني في وقتٍ آخَر ، أَو نحو ذلك ، ولا يقولُ نحو ما يقولُ النَّاس : يَرزقُكَ اللهُ تعالىٰ ، أَو : يَبعثُ اللهُ تعالىٰ لك ، أَو : يُعطيكَ اللهُ تعالىٰ ، أَو نحوه ، فسُئلَ عن ذلك ، فقال : إنَّ السَّائلَ أَثقلُ شيءٍ علىٰ سَمْعهِ وأَبغضُهُ إليهِ قولُ المسؤولِ لَهُ ما يفيدُهُ ردَّهُ وحرمانَه ، فأَنَا أُجِلُّ اسمَ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ مِنْ أَنْ أَذكرَهُ لمَنْ يَكرهُ سماعَهُ ولَو في ضمنِ جملة . وهٰذا منهُ رضيَ اللهُ عنهُ غايةٌ في الورع .

وما ذُكرَ مِنَ التَّفسيرِ مبنيٌّ على الظَّاهرِ مِنْ أَنَّ لفظَ اسمٍ غيرُ مقحم ، وذهبَ كثيرٌ إلىٰ أَنَّهُ مقحم ـ أَي : زائد ـ لِضربٍ مِنَ التَّعظيمِ علىٰ سبيلِ الكناية ، ومنهُ قولُ لَبيد :

إِلـى الحَـوْلِ ثُـمَّ اسْـمُ السَّـلاَمِ عَلَيْكُمَـا

فالمعنىٰ : نزِّهْ ربَّكَ عمَّا لا يليقُ بهِ مِنَ الأَوصاف ، واستدل لهٰذا بما أَخرجهُ الإمامُ أَحمدُ عن عقبةَ بن عامر ، قال : لمَّا نزلَتْ ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ قالَ لَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُم » فلمَّا نزلَتْ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال : « اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُم » . ومِنَ المعلومِ أَنَّ المجعولَ فيهما : سبحانَ ربِّي العظيم ، وسبحانَ ربيَّ الأَعلىٰ .

وبما أَخرجَ الإمامُ أَحمدُ عنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ إذا قرأ : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال : « سَبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَىٰ » .

وروىٰ عبدُ بنُ حميدٍ وجماعة : أَنَّ علياً كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَهُ قرأَ ذلك ، فقال : سبحانَ ربِّيَ الأَعلىٰ ، وهوَ في الصَّلاة ، فقيلَ لَه : أَتزيدُ في القرآن ؟ قال : لا ، إنَّما أُمرنا بشيءٍ فنفعلُه .

والأَعلىٰ : صفةٌ لِلرَّب ، وأُريدُ بالعلو : اَلعلوُّ بالقهرِ والاقتدار ، لا بالمكان ؛

لاستحالتهِ عليهِ سبحانَه ، والسَّلَفُ وإِنْ لَم يُؤَوِّلوهُ بذلكَ لكنَّهُم أَيضاً يقولونَ باستحالةِ العلوِّ المكانيِّ عليهِ عزَّ وجلّ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أَي : خَلَقَ كلَّ شيءٍ فجعلَهُ متساوياً ؛ أَي : كما تقتضيهِ حكمتُهُ سبحانَه .

وقيل : أَي فجعلَ الأَشياءَ سواءً في بابِ الإِحكامِ والإِتقان ، لا أَنَّهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أَتقنَ بعضاً دونَ بعض .

وقالَ الزَّجاج : خَلَقَ الإِنسانَ مستوياً ، لَم يَجعلْهُ منكوساً كالبهائم .

وقالَ الكلبي : خَلَقَ كلَّ ذي روحٍ فسوَّىٰ بينَ يديهِ وعينيهِ ورجلَيه .

وقيل : خَلَقَ الأَجسادَ فسوَّى الأَفهام .

وقيل : خَلَقَ الإِنسانَ وهيَّئَهُ لِلتَّكليفِ والقيام بأَداءِ العبادات .

وقيل : خَلَقَ في أَصلابِ الآباء ، وسوَّىٰ في أَرحامِ الأُمَّهات . وقيلَ غيرُ ذلك .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ صفةٌ أُخرىٰ لِلرَّب . قرأَ عليُّ بنُ أَبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَهُ والكسائي : ﴿قَدَرَ﴾ بالتَّخفيف[1] ، مِنَ القدرةِ أَوِ التَّقدير ، وقرأَ الباقونَ مشدَّداً .

والمعنىٰ : قدَّرَ أَجناسَ الأَشياء ، وأَنواعَها وصفاتِها ، وأَفعالَها وأَقوالَها ، وآجالَها ، فهدىٰ كلَّ واحدٍ منها إِلىٰ ما يصدرُ عنهُ وينبغي لَه ، ويَسَّرَهُ لِمَا خُلِقَ لَه ، وأَلهمَهُ إِلىٰ أُمورِ دينهِ ودُنياه .

وقالَ المفسِّرون : قدَّرَ خَلْقَ الذَّكرِ والأُنثىٰ مِنَ الدَّواب ، فهدى الذَّكرَ لِلأُنثىٰ كيفَ يأْتيها .

وقالَ مجاهد : هدى الإِنسانَ لِسبيلِ الخيرِ والشَّر ، والسَّعادةِ والشَّقاوة .

ورُويَ عنهُ أَيضاً أَنَّهُ قال : قدَّرَ السَّعادةَ والشَّقاوة ، وهدىٰ للرُّشدِ والضَّلالة ، وهدى الأَنعامَ لمراعيْها .

---

(١) وهي من القراءات المتواترة .

وقيل : قدَّرَ أَرزاقَهُم وأَقواتَهُم ، وهداهُم لمعايشِهم إنْ كانوا إنْساً ، ولمراعيهم إنْ كانوا وحشاً .

وقالَ عطاء : جَعلَ لكلِّ دابَّةٍ ما يصلحُها وهداها لَه .

وقيل : خَلَق المنافعَ في الأَشياء ، وهدى الإنسانَ لِوَجْهِ استخراجِها مِنها .

وقالَ السُّدي : قدَّرَ مدَّةَ الجنينِ في الرَّحمِ تسعةَ أَشهرٍ وأَقلَّ وأَكثر ، ثمَّ هداهُ لِلخروجِ مِنَ الرَّحم .

قالَ الفرَّاء : أَي : قدَّرَ فهدىٰ وأَضل ، فاكتفىٰ بأَحدِهما . وقيلَ غير ذلك .

ولمّا ذكرَ سبحانَهُ ما يختصُّ بالنَّاس . . أَتبعَهُ بما يختصُّ بالحيوان ، فقال : ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴾ أَي : أَنبتَ سبحانَهُ العشبَ وما ترعاهُ الدَّوابُّ مِنَ النَّباتِ الغضِّ الرَّطبِ الأَخضر . ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ هوَ ما يَقذفُ بِهِ السَّيلُ علىٰ جانبِ الوادي مِنَ الحشيشِ والنَّبات ؛ أَي : جَعلَ النَّباتَ الأَخضرَ يابساً .

﴿ أَحۡوَىٰ ﴾ أَي : أَسود ، وفي « الصِّحاح »[ص ١١٩] : الحُوَّة : السُّمرة . فالمرادُ بأَحوىٰ : أَسودَ أَو أَسمر ، ولا تنافي بينَهُما .

وقولُه : ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ بيانٌ لهدايتِه ـ تعالىٰ شأْنُهُ ـ الخاصَّةِ برسولهِ صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وسلَّمَ إثرَ بيانِ هدايتهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ العامَّةِ لكافَّةِ مخلوقاتهِ سبحانهُ وتعالىٰ ، وهي هدايتُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لتلقِّي الوحي وحفظِ القرآن ، الَّذي هوَ هدىً للعالمين ، وتوفيقُهُ صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وسلَّمَ لهدايةِ النَّاسِ أَجمعين .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ فيهِ أَقوال :

قيل : (لا) نافية ، وهوَ الظَّاهر .

وقيل : (لا) ناهية ، والأَلفُ لمراعاةِ الفاصلة ، كما في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ . وإِسنادُ الإِقراءِ إِليهِ تعالىٰ مجازي ، أَي : سنُقرئكَ بالوحي إِليكَ الآنَ وفيما بَعدُ علىٰ لسانِ جبريلَ عليهِ السَّلامُ الواسطةِ في ذلك .

قالَ مجاهدٌ والكلبي : كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إِذا نزلَ عليهِ جبريلُ بالوحي . . لَم يفرغ جبريلُ مِن آخِرِ الآيةِ حتَّىٰ يتكلَّمَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وسلَّمَ بأَوَّلِها مخافةَ أَنْ ينساها ، فنزلَتْ هٰذهِ الآية ، فلَم ينسَ شيئاً بعدَ ذلك .

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما : كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَستذكرُ القرآنَ مخافةَ أَنْ يَنسىٰ ، فقيلَ لَه : قد كفيناكَ ذلك ، ونزلَتْ هٰذهِ الآية . وهٰذهِ الآيةُ تدلُّ علىٰ نبوَّتهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام ؛ فإنَّهُ كانَ أُمِّيّاً ؛ أَي : لا يقرأُ ولا يكتبُ كما هوَ الصَّحيح ، فحِفظُهُ للقُرآنِ العظيمِ مِنْ غيرِ دراسةٍ ولا تكرارٍ مِنْ أَعظمِ المعجزاتِ الخارقةِ لِلعادات .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ مِنْ أَعمِّ المفاعيل ؛ أَي : لا تنسىٰ ممّا تقرؤُهُ شيئاً مِنَ الأَشياءِ إِلا ما شاءَ اللهُ أَنْ تنساه . قالَ الفرَّاء : وهوَ سبحانَهُ لَم يَشأْ أَنْ يُنسي محمَّداً صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وسلَّمَ شيئاً ، وهٰذا كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ وبقيَ فيها وجوهٌ أُخَرُ لا يسعُ المقامُ ذكرَها ، ومَنْ أَرادَها . . فليرجع إِلىٰ « روحِ المعاني » .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ تعليلٌ لما قبلَه ؛ أَي : يعلم ما ظهرَ وما بطن ، والإِعلانَ والإِسرار ، أَي : أَنَّهُ تعالىٰ يَعلمُ ما ظهرَ وما بطنَ مِنَ الأُمورِ الَّتي مِنْ جُملتِها حالُكَ وحرصُكَ علىٰ حفظِ ما يوحىٰ إِليكَ بأَسره ، فيُقرئكَ ما يُقرئك ، ويَحفظُكَ عن نسيانِ ما شاءَ منهُ ويُنسيكَ ما شاءَ منه ، مراعاةً لِما نيطَ بكلٍّ مِنَ المصالحِ والحِكَمِ التَّشريعيَّة .

وقيل : توكيدٌ لجميعِ ما تقدَّمَهُ وما بعده .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أَي : نوفِّقُكَ توفيقاً مستمرّاً لِلطَّريقةِ اليسرىٰ في كلِّ بابٍ مِنْ أَبوابِ الدِّين ، عِلماً وتعليما ، فيندرجُ فيهِ تيسيرُ تلقِّي طريقي الوحي والإِحاطةِ بما فيهِ مِنَ الأَحكام . وقيلَ غيرُ ذلك .

وقولُهُ تعالىٰ ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ أَي : عِظِ النَّاسَ يا محمَّدُ بما أَوحينا إِليك ،

وأَرشِدهُم إِلىٰ سبلِ الخير ، واهدِهم إِلىٰ شرائعِ الدِّين .

وقالَ الفرَّاءُ والنَّحاس : اَلكلامُ على الاكتفاء ، والأَصل : فذكِّر إِنْ نفعتِ الذِّكرىٰ وإِنْ لَم تنفع ؛ كقولهِ تعالىٰ : ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ أَي : والبرد .

قالَ الواحدي : لأَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وسلَّمَ بُعثَ مبلِّغاً ، فعليهِ التَّذكير في كلِّ حال ، وقيلَ غيرُ ذلك .

ثمَّ بيَّنَ سبحانَهُ الفرقَ بينَ مَنْ تنفعهُ الذِّكرىٰ ومَنْ لا تنفعه ، فقالَ سبحانه : ﴿ سَيَذَّكَّرُ ﴾ أَي : سيتَّعظُ بوَعْظِكَ ﴿ مَن يَخْشَىٰ ﴾ الله ، فيزدادُ بالتَّذكيرِ خشيةً وصلاحاً ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ أَي : ويتجنَّبُ الذِّكرىٰ ويَبعدُ عنها فلا يَقبلُها ﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾ مِنَ الكفَّار ؛ لإِصرارِهِ على الكفرِ وانهماكِهِ في المعاصي .

وقيل : اَلمرادُ به : اَلكافرُ المتوغِّلُ في عداوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وسلَّم ؛ كالوليدِ بنِ المغيرة ، وعتبةَ بنِ ربيعة ، وقد روي أَنَّ الآيةَ نزلَتْ فيهِما .

ثُمَّ وصفَ سبحانَهُ الأَشقىٰ ، فقال : ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ هي الطَّبقةُ السُّفلىٰ من أَطباقِ النَّار ، وقالَ الحسن : اَلكبرىٰ نارُ الآخرة ، والصُّغرىٰ نارُ الدُّنيا .

وقد روى الإِمامُ أَحمدُ مرفوعاً : « إِنَّ هـٰذِهِ النَّارَ جُزْءٌ مِنْ مِئَةِ جُزْءٍ مِنْ جَهَنَّم » أَجارَنا اللهُ تعالىٰ وإِيَّاكُم منها .

﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ ذلكَ الشَّقيُّ فيستريح ﴿ وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ حياةً تنفعُه .

وقيل : إِنَّ روحَ أَحدِهِم تصيرُ في حَلْقِهِ فلا تخرجُ فيموت ، ولا ترجعُ إِلىٰ موضعِها مِنَ الجسدِ فيحيا . ومنهُ قولُ الشَّاعر :

أَلاَ مَـا لِنَفْـسٍ لاتَمُـوتُ فَيَنْقَضِـي عَنَـاهَـا وَلاَ تَحْيَـا حَيَـاةً لَهَـا طَعْـمُ

قالَ الوالدُ عليهِ الرَّحمة : اعلَمْ أَنَّ عدمَ الموتِ في النَّارِ مخصوصٌ بالكفرة ، وأَمَّا عُصاةُ المؤمنين . . فيموتونَ فيها .

واستدلَّ لذلكَ بما أَخرجهُ مسلمٌ أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فإِنهم لاَ يَمُوتُونَ فِيهَا وَلاَ يَحْيَوْن ، وَلَـٰكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِم

فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةَ حَتَّىٰ إِذا كَانُوا فَحماً . . أَذِنَ بالشَّفَاعَة ، فَجيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ[1] ، فَبُثُّوا عَلَىٰ أَنْهَارِ الْجَنَّة ، ثُمَّ قِيل : يَا أَهْلَ الْجَنَّة ؛ أَفِيضُوا عَلَيْهِم ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ[2] السَّيْل » .

ولما ذكرَ سبحانَهُ وعيدَ مَنْ أَعرضَ عنِ النَّظرِ في دلائلِ أُلوهيَّته . . أَتبعَهُ بالوعدِ لمَنْ آمنَ بربوبيَّتِهِ وصدَّقَ بنبيِّهِ وأَتىٰ بأَحكامِ شريعته ، فقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أَي : نالَ الفوزَ مَنْ تطهَّرَ مِنَ الشِّركِ فآمنَ باللهِ ووحَّدَهُ وصدَّقَ رسولَه ؛ فقد أَخرجَ البزّارُ وابنُ مردويه ، عن جابرِ بنِ عبدِ الله [رضي الله عنهما] ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قالَ في ذلك : « مَنْ شَهِدَ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَخَلَعَ الأَنْدَاد ، وَشَهِدَ أَنِّي رَسُولُ الله » .

واعتبرَ بعضُهم أَمرين ، فقال : أَي : تطهَّرَ مِنَ الكفرِ والمعصية .

وقيل : ﴿ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أَي تكثَّرَ مِنَ التَّقوىٰ والخشيةِ مِنَ الزَّكاء ، وهوَ النُّماء ، ونحوه قولُهُ تعالىٰ ـ حكايةً عن عيسىٰ ـ : ﴿ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ .

وقيل : تطهَّرَ لِلصَّلاة .

وقيل : أَعطى الزَّكاة .

وعن عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَه : ﴿ تَزَكَّىٰ ﴾ أَي : تصدَّقَ صدقةَ الفطر .

﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ ﴾ كبَّرَ يومَ العيدِ أَيضاً ﴿ فَصَلَّىٰ ﴾ صلاةَ العيد . وعن جماعةٍ مِنَ السَّلفِ ما يقتضي ظاهرُهُ ذلك ، فعن عطاءٍ وقتادةَ وأَبي العاليةِ : أَنَّها نزلَتْ في صدقةِ الفطر .

وعن عوفٍ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أَنَّهُ (كانَ يأْمرُ بزكاةِ الفطرِ قَبْلَ أَنْ يُصلِّيَ صلاةَ العيد ، ويتلو هٰذهِ الآية) ، أَخرجهُ ستَّةٌ مِنْ أَصحابِ السُّنن .

وأَخرجَ ابنُ مردويهْ عن أَبي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تزكَّىٰ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ » ثمَّ يقسمُ الفطرةَ قَبْلَ أَنْ يغدوَ إِلى المصلَّىٰ يومَ الفطرِ .

---

(١) قولُهُ : ضبائر ضبائر ؛ أَي : جماعات جماعات .

(٢) الحميل : ما يحمله السيل من طين ونحوه .

ولنذكر ـ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ في هٰذا الدَّرسِ ما وردَ في فضائلِ زكاةِ الفطرِ مِنَ الآثار ، وأَحكامِها الفقهيَّةِ مِنْ كتبِ الأَئمَّةِ الأَخيار ، فأَقول :

قالَ في « الدُّرِّ المختار » : واجباتُ الإِسلامِ سبعة : الفطرة ، ونفقةُ ذي رحم ، ووتر ، وأُضحية ، وعمرة ، وخدمةُ أَبويه ، والمرأَة لزوجِها اهـ .

وروىٰ ناصرُ السُّنَّةِ ابنُ الجوزيِّ في « التَّبصرة » عن جريرِ بنِ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « رَمَضَانُ مُعَلَّقٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْض ، لاَ يُرْفَعُ إِلاَّ بِزَكَاةِ الْفِطْر » .

وروىٰ أَبو داوودَ عنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « زَكَاةُ الْفِطْرِ طُهْرَةٌ لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَث ، وَطُعْمَةٌ لِلْمَسَاكِين ، فَمَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلاَة . . فَهِيَ صَدَقَةٌ مَقْبُولَة ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلاَة . . فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَات » .

وفي « الدُّر » و« حاشيته » أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كان يخطبُ قَبْلَ الفطرِ بيومٍ أَو يومين ، فيقول : « أَدُّوا صَاعاً مِنْ بُرٍّ أَوْ قَمْحٍ بَيْنَ اثْنَيْن ، أَوْ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ أَوْ شَعِيرٍ عَنْ كُلِّ حُرٍّ أَوْ عَبْدٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِير » قالوا : وهوَ واجبٌ علىٰ كلِّ مسلم ، ولو صغيراً مجنوناً ، ذي نصابٍ فاضلٍ عن حاجتهِ الأَصليّة ، وإِنْ لَم يَنْمُ ذلكَ النِّصاب .

والصَّاع : ما يسعُ أَلفاً وأَربعينَ درهماً ، وهوَ أَربعةُ أَمداد ، والمدُّ رَطلان ، والرَّطلُ نصفُ مَنٍّ ، والمَنُّ بالدَّراهمِ مئتانِ وستُّونَ درهماً ، وبالإِستارِ أَربعون ، والإِستار ـ بكسرِ الهمزةِ ـ بالدَّراهمِ ستَّةٌ ونصف ، وبالمثاقيلِ أَربعةٌ ونصف ، فالمدُّ والمنُّ سواء ، كلٌّ منهما رُبعُ صاع ، رِطلانِ بالعراقي ، والرَّطلُ مئةٌ وثلاثونَ درهماً .

وفي « الزَّيلعي » : اختُلِفَ في الصَّاع ، فقالَ الطَّرفان : ثمانيةُ أَرطالٍ بالعراقي .

وقالَ الثَّاني : خمسةُ أَرطالٍ وثلث .

وقيل : لا خلاف ؛ لأَنَّ الثَّانيَ قدَّرَهُ برطلِ المدينة .

وعندَ الأَئمَّةِ الثَّلاثة : اَلصَّاعُ ما يسعُ خمسةَ أَرطالٍ وثلثٍ بالعراقي .

ثمَّ اعلَم : أَنَّ الدِّرهمَ الشَّرعيَّ أَربعةَ عشرَ قيراطاً ، والمتعارفُ الآنَ ستَّةَ عشر ، فإِذا

كانَ الصَّاعُ أَلفاً وأَربعينَ درهماً شرعيّاً . . يكونُ بالدِّرهمِ المتعارفِ ستَ مئةٍ وعشرة .

وتجبُ زكاةُ الفطرِ موسَّعاً في العمر ، وقيل : مضيّقاً في يومِ الفطر ؛ لقولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « أَغْنُوهُم ـ يعني الفقراءَ ـ عَنِ الْمَسْأَلَةِ فِي هَـٰذا الْيَوْمِ » .

وجازَ دَفْعُ فِطرته إِلىٰ مسكينٍ أَو مساكين ، كما جازَ دَفْعُ صدقةِ جماعةٍ إِلىٰ مسكينٍ واحد . ويُكرَهُ أَنْ يدفعَها إِلىٰ ذمي ، وعندَ الشَّافعيِّ وإِحدى الرّوايتينِ عن أَبي يوسف : أَنهُ لا يجوز ، والفتوىٰ علىٰ قولهِ اِنتهىٰ .

وقالَ الشَّعرانيُّ في « الميزان » : زكاةُ الفطرِ واجبةٌ باتِّفاقِ الأئِمَّةِ الأَربعة .

وقالَ الأَصمُّ وإِسماعيلُ بنُ عليّة : هيَ مستحبّة .

واتَّفقوا أَنَّ كلَّ مَنْ لَزِمَتْهُ زكاةُ الفطرِ . . لزمَتْه زكاةُ أَولادهِ الصِّغارِ ومماليكهِ المسلمين .

كما اتَّفقوا علىٰ وجوبِها عن الصَّغيرِ والكبير .

وعن عليٍّ بن أَبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : أَنها تجبُ علىٰ كلِّ مَنْ أَطاقَ الصَّلاةَ والصَّوم ، وعن سعيدِ بنِ المسيّبِ : أَنها لا تجبُ إِلاَّ علىٰ مَنْ صامَ وصلَّىٰ .

واتَّفقوا علىٰ أَنَّهُ يجوزُ تعجيلُ الفطرة قَبْلَ العيدِ بيومين .

واتَّفقوا علىٰ أَنها لا تسقطُ بالتَّأخيرِ بعدَ الوجوب ، بل تصيرُ دَيناً حتَّىٰ تُؤدَّىٰ .

وأَمَّا ما اختلفوا فيه . .

فمِنْ ذلك : قولُ مالكٍ والشَّافعيِّ والجمهور : إِن زكاةَ الفطرِ فرضٌ واجب ، بناءً علىٰ أَنَّ الفرضَ هوَ الواجبُ والواجبَ هوَ الفرض ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ : إِنَّها واجبةٌ وليست بفرض ؛ لأَنَّ الفرضَ عندَهُ آكدُ مِنَ الواجب .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثة : إِنها تجبُ على الشَّريكينِ في العبدِ المشترك ، وفي روايةٍ لأَحمد أَنَّ كلاًّ مِنَ الشَّريكينِ يُؤدِّي عن حصَّتهِ صاعاً كاملاً ، معَ قولِ أَبي حنيفة إِنَّها لا تجبُ على الشَّريكينِ عنه .

ومِنْ ذلك : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة أَنَّهُ يجبُ على الزَّوجِ فطرةُ زوجتهِ كما يجبُ عليهِ نفقتُها ، معَ قولِ أَبي حنيفة إِنَّهُ لا يجبُ عَليهِ فطرتُها .

ومِنْ ذلك : قولُ مالكٍ والشَّافعيِّ وأَحمد إِنَّهُ لا يُعتبرُ في وجوبِ زكاةِ الفطرِ أَنْ يكونَ المخرِجُ يَملكُ نصاباً مِنَ الفضَّة ، وهوَ مئتا درهم ، بل قالوا : إِنَّ كلَّ مَنْ فضلَ عن قوتهِ وقوتِ مَنْ تلزمُهُ نفقتُهُ يومَ العيدِ وليلتهِ شيءٌ قَدْرَ زكاةِ الفطر . . وجبتْ عليه ، معَ قولِ أَبي حنيفة إِنَّها لا تجبُ إِلاَّ علىٰ مَنْ ملكَ نِصاباً كاملاً فاضلاًعن مَسْكَنِهِ وعبدهِ وفرَسِهِ وسلاحه .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفة إِنَّها تجبُ بطلوعِ فجرِ أَوَّلِ يومٍ مِنْ شوَّال ، معَ قولِ أَحمدَ إِنَّها تجبُ بغروبِ الشَّمسِ ليلةَ العيد ، ومعَ قولِ مالكٍ والشَّافعيِّ إِنَّها تجبُ بغروبِ شمسِ ليلةِ العيد ، على الرَّاجحِ مِنْ قوليهما .

ومِنْ ذلك : اتِّفاقُهُم علىٰ أَنَّهُ لا يجوزُ تأْخيرُها عن يومِ العيد ، وقالَ أَحمد : أَرجو أَلاَّ يكونَ بهِ بأْس .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثةِ إِنَّهُ يجوزُ إِخراجُها مِنْ خمسةِ أَصناف : البرِّ ، والشَّعيرِ ، والتَّمرِ ، والزَّبيبِ ، والأَقِط ـ وهو : لبنٌ يابسٌ مجفَّفٌ يُطبخُ بهِ ـ إِذا كانَ قوتاً ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ إِنَّها لا تُجزىءُ في الأَقِط بنَفْسِه ، وتُجزىءُ بقيمته ، وقالَ الشَّافعي : كلُّ ما يجبُ فيهِ العُشر . . فهوَ صالحٌ لإِخراجِ زكاةِ الفطرِ منه ؛ كالأَرزِّ والذُّرةِ والدُّخْنِ ونحوه .

قلت : ونقلَ في « الدُّررِ واللآلي » عنِ الشَّيخِ ابنِ تيميةَ الحنبليِّ أَنَّهُ يُجزىءُ قُوتُ بلده ؛ مثلُ الأَرزِّ وغيره ، واحتجَّ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ .

ومِنْ ذلكَ : قولُهُم إِنَّ القيمةَ لا تُجزىء ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ إِنَّها تُجزىء .

ومِنْ ذلك : قولُ مالكٍ وأَحمد : إِنَّ إِخراجَ التَّمرِ أَفضل ، معَ قولِ الشَّافعي : إِنَّ البرَّ أَفضل ، ومعَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّ أَفضلَ ذلكَ أَكثرُهُ ثمناً .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثة : إِنَّ الواجبَ صاعٌ بصاعِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ كلِّ

جنسٍ مِنَ الأَجناسِ الخمسةِ السَّابقة ، معَ قولِ أَبي حنيفة : إِنَّهُ يُجزىءُ مِنَ البرِّ نصفُ صاع .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعيِّ وجمهورِ أَصحابه : إِنَّ مصرفَ الفطرةِ يكونُ إِلى الأَصنافِ الثَّمانيةِ كما في الزَّكاة ، وهُم :

الفقراء . والمساكين . والعاملونَ عليها . والمؤلَّفَةُ قلوبُهم . وفي الرِّقاب ، وهُم : المكاتبون . والغارمون ، وهُم : المديونون . وفي سبيلِ الله ، وهُم : الغزاة . وابنُ السَّبيل ، وهوَ : المسافر .

معَ قولِ الإِصطخريِّ منهُم : يجوزُ صرفُها إِلىٰ ثلاثةٍ مِنَ الفقراءِ والمساكين ، ومعَ قولِ مالكٍ وأَبي حنيفةَ وأَحمدَ بجوازِ صَرْفِها إِلىٰ فقيرٍ واحدٍ فقط .

قالوا : ويجوزُ صَرْفُ فطرةِ جماعةٍ إِلىٰ مسكينٍ واحد ، واختارَهُ ابنُ المنذرِ وأَبو إِسحـٰقَ الشِّيرازي .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ إِنَّهُ يجوزُ تقديمُ زكاةِ الفطرِ علىٰ شهرِ رمضان ، معَ قولِ الشَّافعيّ إِنَّهُ لا يجوزُ تقديمُها إِلاَّ مِنْ أَوَّلِ شهرِ رمضان ، ومعَ قولِ مالكٍ وأَحمدَ إِنَّهُ لا يجوزُ التَّقديمُ عن وقتِ الوجوبِ . اهـ

أَقول : وقولُ أَبي حنيفةَ أَوسعُ في مسأَلةِ دَفْعِ القيمةِ أَو دَفْعِها إِلىٰ فقيرٍ واحد ، فمَنْ أَرادَ تقليدَ الإِمامِ أَبي حنيفةَ مِنْ أَتباعِ سائرِ المذاهب . . فعليهِ بالتَّقليدِ في هـٰذهِ المسأَلة ، فإِنَّ تقليدَ المذهبِ المخالفِ جائزٌ مِنْ غيرِ تلفيق ، كما صرَّحَتْ بِهِ أَئمَّةُ المذاهبِ الأَربعة .

فيا إِخواني ؛ إِنَّ شهرَ رمضانَ قد قَرُبَ رحيلُه ، وأَزفَ تحويلُه ، وهوَ ذاهبٌ عنكُم بأَفعالِكُم ، وشاهدٌ عليكُم غداً بأَعمالِكُم ، فيا ليتَ شِعري ؛ ماذا قد أَودعتموه ، وبأَيِّ الأَعمالِ ودَّعتموه ؟

أَتراهُ يَرحلُ حامداً صنيعَكُم ، أَو ذامّاً تضييعكُم ؟! ما كانَ أَعظمَ ساعاته ، وما كانَ أَحلىٰ جميعِ طاعاتهِ!

كانت لياليهِ عتقاً ومباهاة ، وأَسحارُهُ أَوقاتَ خدمةٍ ومناجاة ، ونهارُهُ زمانَ قُربةٍ ومُصافاة ، وساعاتُهُ أَحيانَ اجتهادٍ ومعاناة ، فبادروا البقيَّةَ بالتَّقيَّة ، قَبْلَ فواتِ البرِّ ونزولِ البليَّة .

أَينَ المخلصُ المتعبِّد ؟ ! أَينَ الرَّاهبُ المتزهِّد ؟ ! أَينَ المنقطعُ المتفرِّد ؟ ! أَينَ العاملُ المجوِّد ؟ هيهات! بقيَ عبدُ الدُّنيا وماتَ السَّيِّد ، وهلكَ مَنْ خطاياهُ خطأ وعاشَ المتعمِّد ، وصارَ مكانُ الخاشعينَ لكلِّ منافقٍ متمرِّد .

رحلَ عنكَ شهرُ الصِّيام ، وودَّعكَ زمانُ القيام ، وبحَّ النَّصيحُ وقَدْ لام ، فاستدرِكْ ما بقيَ مِنَ الأَيام .

أَسفاً لمَنْ ضيَّعَ الأَوقاتَ وقد عرفَها ، وسلكَ بنَفْسهِ طريقَ الهوىٰ فأَهلكَها ، أَنِسَ بالدُّنيا كأَنَّهُ خُلِقَ فيهْا لها ، وأَمَلُهُ لا ينتهي وأَجلُهُ قدِ انتهىٰ!

عجباً لِعَيْنٍ أَمست باللَّيلِ هاجِعَة ، ونسيَتْ أَهوالَ يومِ الواقعة!

كم يوم غابتْ شمسُهُ وقلبُكَ غائب ؟! وكم ظلام أَسبلَ سترَهُ وأَنتَ في عصيانٍ وعجائب ؟ وكم صحيفة ملأَها بالذُّنوبِ عليكَ الكاتب ؟! وكم يُنذرُكَ فراقُ رفيقكَ وأَنت لاعب ؟

يا مَنْ يأملُ الإقامةَ وقد زمَّتِ الرَّكائب ؛ أَفِقْ مِنْ سكرتكَ قَبْلَ حسرتِكَ على المعائِب ، وتذكَّرْ نزولَ حفرتكَ وهجرانَ الأَقارب :

تَبْكِـي وَتَنْـدُبُ آثَـارَ الَّـذِيـنَ مَضَـوْا ... وَسَـــوْفَ تَلْحَـــقُ آثَـــارٌ بِـــآثَـــارِ
طَـالَـتْ عِمَـارَتُنَـاالـدنيـا عَلَـىٰ غَـرَرٍ ... وَنَحْـــنُ نَعْلَـــمُ أَنَّـــا غَيْـــرُ عُمَّـــارِ
اتْـرُكْ مَفَـاخِـرَ فِـي الـدُّنْيَـا وَزِينَتَهَـا ... يَـوْمُ القِيَـامَـةِ يَـوْمُ الْفَخْـرِ وَالْعَـارِ

لقد أَبانتِ الدُّنيا للنَّاظرِ عيوبَها ، وكشفَتْ لِلبصائرِ غيوبَها ، وعدَّدتْ على المسامعِ ذنوبَها ، وما مرَّتْ حتَّىٰ أَمرَّتْ مشروبَها ، فلذَّتُها مثلُ لمعانِ برق ، ومصائبُها واسعةُ الخرق ، ساوت عواقبُها بينَ سلطانِ الغربِ والشَّرق ، وبينَ عبدٍ حقيرٍ ولا فَرْق ، فما

نجىٰ منها ذو مالٍ وعُدد ، ولا سَلِمَ فيها صاحبُ عَددٍ وولد ، فرَّقَت ـ والله ـ الكلَّ بكفِّ البَدد ، ثمَّ ولَّتْ ولا أَلوتْ علىٰ أَحد .

وفَّقنا اللهُ تعالىٰ وإِيَّاكُم لمراضيه ، وجعلَ مستقبلَ حالِنا وحالِكم خيراً مِنْ ماضِيه ، وختمَ لَنا بصالحِ الأَعمال ، وأَعادنا وإِيَّاكُم علىٰ هـٰذا الشَّهرِ في أَحسنِ حال ، ورَحِمَنا وكافَّةَ المسلمين .

وصلَّى اللهَ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وآله وصحبهِ أَجمعين .

* * *

المجلس الحادي والثلاثون
في صلاة عيد الفطر وشوال

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ موفِرِ الثَّوابِ للأَحبابِ ومُكمِّلِ الأَجر ، وباعثِ ظلامِ اللَّيلِ يَنسخُهُ[1] نور الفجر ، المحيطِ علماً بخائنةِ الأَعيُنِ وخافيةِ الصَّدْر ، ويُعلِّمُ الإِنسانَ ما لم يَعلَمْ ولَم يَدْر ، المتعالي عن إِدراكِ خواطرِ النَّفسِ وهواجسِ الفكر ، الموالي برزقهِ فلَم ينْسَ النَّملَ في الرَّملِ والفرخَ في الوكر ، جلَّ أَنْ تنالَهُ يدُ الحوادثِ علىٰ مرورِ الدَّهر .

أَغنىٰ وأَفقر ، وأَجاعَ وأَشبع ، وأَصمَّ وأَسمع ، فبإِرادتهِ وقوعُ الغنا والفقر ، وبمشيئتهِ إِدراكُ السَّمعِ ومنعُ الوقر .

أَبصرَ فلَم يَخفَ عليهِ دبيبُ الذَّرِّ في البر ، وسَمِعَ فلَم يَعزبْ عن سمعه دعاء المضطر ، وقَدَرَ فلَم يَحتجْ إِلىٰ معينٍ يمدُّهُ للإِعانةِ والنَّصر .

وخصَّنا مِنْ بينِ سائرِ الأُممِ بشهرِ الصِّيامِ والصَّبر ، وغَسَلَ بهِ ذنوبَ الصَّائمينَ كغسلِ الثَّوبِ بماءِ القَطْر ، فلَهُ الحمدُ إِذْ رزقنا إِتمامَهُ ومَنَّ علينا بعيدِ الفِطر .

أَحمدُهُ حمداً لا منتهىٰ لِعَدده ، وأَشكرُهُ شكراً لا يُحصىٰ موصولُ مَدده ، وأَتوكَّلُ عليهِ توكُّلَ عبدٍ علىٰ سيِّده .

وأَشهدُ أَنْ لا إِلـٰهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ شهادةَ مخلصٍ في معتقده ، وأَشهدُ أَنَّ سيِّدنا محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ الَّذي نبعَ الماءُ مِنْ أَصابعِ يَدِه ، صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وسلَّمَ وعلىٰ آلهِ وأَصحابهِ وأَزواجهِ وتابعي مَقصده ، لا سيِّما علىٰ أَبي بكرٍ الصِّدِّيقِ التَّاركِ لحُبِّهِ طيبَ وطنِهْ وعزيزَ وَلَدِه ، وعلىٰ عمرَ بنِ الخطَّابِ ناصرِ الإِسلامِ ومقوِّمِ أَوَدِه ،

---

(١) ينسخه : يُزيله .

وعلىٰ عثمانَ بنِ عفّانَ الصَّابرِ مِنْ مُرِّ البلاءِ علىٰ أَشدِّه ، وعلى ابنِ عمِّهِ عليٍّ بنِ أَبي طالبِ الفائقِ على الأَصحابِ بشجاعتهِ وعِلْمِهِ ورُشدِه ، وعلىٰ بقيّةِ الصَّحابةِ والقرابةِ والتَّابعين ، ومَنْ تبعَهُم بإِحسانٍ إِلىٰ يومِ الدِّين ، رِضوانُ اللهِ تعالىٰ عليهم أجمعين .

أَمَّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في كلامهِ جلَّ وعَلا : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ الآيات .

ونقول ـ وباللهِ تعالى الاستعانةُ ومنهُ عزَّ شأْنُهُ الإِعانة ـ : قد تقدَّمَ الكلامُ في الدَّرس الماضي علىٰ هٰذهِ السُّورةِ إِلىٰ قولِه تعالىٰ : ﴿ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ .

ولنذكر في هٰذا الدَّرس ـ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ ما يتعلَّقُ بذِكرِ اسمِ الرَّبِّ جلَّ جلالُهُ وصلاة العيد وما يلتحقُ بذلك ، سالِكين ـ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ أَوضحَ المسالك .

فليُعلَمْ : أَنَّ في هٰذهِ الآيةِ أَقوالاً :

فقيل : المعنىٰ : ذَكَر اسمَ ربِّهِ بالخوف ، وعَبَدَهُ وصلَّىٰ له .

وقيل : ذَكَرَ اسمَ ربِّهِ بلسانهِ وكبَّرَ لِلافتتاح ، فصلَّىٰ ؛ أَي : فأَقامَ الصَّلواتِ الخمس .

وقيل : ذَكَرَ موقفَهُ ومعادَهُ فعبدَه .

وقيل : ذَكَرَ اسمَ ربِّهِ بالتَّكبير ؛ أَي : قال : اللهُ أَكبر ، في أَوَّلِ الصَّلاة .

وعن عليٍّ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَه : تَزَكَّىٰ ؛ أَي : تصدَّقَ صدقةَ الفطر ، وَذَكَرَ اسمَ ربِّهِ : كبَّر يومَ الْعيدِ فصلَّىٰ صَلاةَ العيد ، وعلىٰ ذلكَ جماعةٌ مِنَ السَّلَفِ كما قدَّمنا لك .

وفي كتاب « الميزان » لِلشَّعراني : أَنَّ الأَئمَّةَ اختلفوا في بابِ صَلاةِ العيدين في مسائل :

فمنها : قولُ أَبي حنيفةَ في إِحدىٰ روايتيهِ : إِنَّ صَلاةَ العيدِ واجبةٌ على الأَعيانِ كالجمعة ، معَ قولِ مالكٍ والشَّافعي : إِنَّها سُنَّة ، ومعَ قولِ أَحمد : إِنَّها فرضٌ على الكفاية .

وقد قالَ كثيرٌ مِنَ العلماء : إِنَّهُ أَفضلُ مِنْ فرضِ العين ؛ لِكونهِ أَسقطَ الحرجَ عن صاحبهِ وعن غيره .

وَمِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ وأَحمد : إِنَّ مِنْ شرائطِ صَلاةِ العيدَين : العدَد ، والاستيطان ، وإِذنَ الإِمامِ في إِحدى الرِّوايتَينِ عن أَحمد ، كما في الجُمعة ، وزادَ أَبو حنيفة : وأَنْ تُقامَ في مصرٍ أَو فنائِه ، معَ قولِ مالكٍ والشَّافعي : إِنَّ ذلكَ كلَّهُ ليسَ بشرط ، وأَجازا صَلاتَهُما فرادىٰ لمَنْ شاءَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساء .

وَمِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفة : إِنَّهُ يُستحبُّ أَنْ يُكبِّرَ بعدَ تكبيرةِ الإِحرامِ ثلاثَ تكبيراتٍ في الرَّكعةِ الأُولىٰ ، وثلاثاً في الثَّانية ، معَ قولِ مالكٍ وأَحمد : إِنَّهُ يُكبِّرُ ستاً في الأُولىٰ ، وخمساً في الثَّانية ، ومعَ قولِ الشَّافعي : يُكبِّرُ سَبعاً في الأُولىٰ وخَمساً في الثَّانية . ثمَّ قالَ الشَّافعيُّ وأَحمد : إِنَّهُ يُستحبُّ الذِّكرُ بينَ كلِّ تكبيرتَين ، خلافاً لأَبي حنيفةَ ومالك .

وَمِنْ ذلك : قولُ مالكٍ والشَّافعي : إِنَّهُ يُقدِّم ، التَّكبيرَ على القراءةِ في الرَّكعتَينِ وهوَ إِحدى الرِّوايتَينِ عن أَحمد ، معَ قولِ أَبي حنيفةَ وأَحمدَ في الرِّوايةِ الأُخرىٰ : إِنَّهُ يُغايرُ بينَ القراءَتَين ؛ فيُكبِّرُ في الأُولىٰ قَبْلَ القراءة ، وفي الثَّانيةِ بعدَ القراءة .

وَمِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ ومالك : إِنَّ مَنْ فاتتهُ صَلاةُ العيدِ معَ الإِمامِ لا يقضيها ، معَ قولِ أَحمدَ والشَّافعيِّ في أَحدِ قولَيْه : إِنَّها تُقضىٰ فُرادىٰ ، وعن أَحمدَ ثنتينِ أَو أَربعاً .

وَمِنْ ذلك : قولُ الأئمَّة : إِنَّ فِعْلَها بالصَّحراءِ بظاهرِ البلدِ أَفضلُ مِنْ فِعْلِها في المسجد ، معَ قولِ الشَّافعيَّةِ بأَنَّ فِعْلَها في المسجدِ أَفضلُ إِذا كانَ واسعاً .

وَمِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفة : إِنَّهُ لا يجوزُ التَّنفُّلُ قَبْلَها ، وأَمَّا بعدَها . . فيجوز ، ومعَ قولِ الشَّافعيِّ بأَنَّهُ يَتنفَّلُ قَبْلَها وبعدَها في المسجدِ وغيرِهِ إِلاَّ الإِمام ، ومعَ قولِ أَحمد : لا يَتنفَّلُ قَبْلَها ولا بعدَها مطلقاً .

وَمِنْ ذلك : قولُ الشَّافعيِّ في أَرجحِ القولَينِ : إِنَّهُم لَو شَهِدوا يومَ الثَّلاثينَ مِنْ رمضانَ بعدَ الزَّوالِ برؤيةِ الهلال . . قُضيت موسَّعاً ، معَ قولِ مالك : إِنَّها لا تُقضىٰ ، وهوَ مذهبُ أَحمد ، فإِنْ لَم يُمكن جَمْعُ النَّاسِ في ذلكَ اليوم . . صُلِّيَتْ مِنَ الغدِ عندَ

الشَّافعيّ ومَنْ قالَ بقولِه، وقالَ أَبو حنيفة: صَلاةُ عيدِ الفطرِ تُقضى اليومَ الثَّاني والثَّالث.

ومِنْ ذلك : اتِّفاقُهُم علىٰ أَنَّ التَّكبيرَ في عيدِ النَّحرِ مسنون ، وكذلكَ في عيدِ الفطرِ إلاَّ عند أَبي حنيفة ، معَ قولِ داوودَ بوجوبه .

قالَ ابنُ هبيرة : والصَّحيحُ أَنَّ تكبيرَ الفطرِ آكدُ مِنْ يوم النَّحر ؛ لقولِهِ تعالىٰ ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

ومِنْ ذلك : قولُ مالك : إِنَّهُ يُكبِّرُ يومَ عيدِ الفطرِ دونَ ليلته ، وانتهاؤُهُ عندَه : إِلىٰ أَنْ يخرجَ الإمامُ إِلى المصلَّىٰ ، وفي قولٍ لَه : إِلىٰ أَنْ يُحرمَ الإِمامُ بصَلاةِ العيد ، وهوَ الرَّاجحُ مِنْ قولَي الشَّافعي ، والثَّالث : إِلىٰ أَنْ يخرجَ مِنها .

وأَمَّا ابتداؤُه : فمِنْ حينِ يُرى الهلال ، وهوَ إِحدى الرِّوايتَينِ عن أَحمد .

وأَمَّا انتهاؤُه : ففيهِ روايتانِ لَه :

إِحداهُما : إِذا خرجَ الإِمام .

والثَّانية : إِذا فرغَ مِنَ الخطبتَين .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ وأَحمد : إِنَّهُ يشفعُ التَّكبيرَ في أَوَّلِهِ وآخرِه ، فيقول : اَللهُ أَكبرُ اللهُ أَكبر ، لا إِلـٰهَ إِلاَّ اللهُ واَللهُ أَكبر ، اللهُ أَكبرُ وللهِ الحمد . معَ قولِ مالكٍ في روايةٍ لَه : إِنْ شاءَ كبَّرَ ثلاثاً . وإِنْ شاءَ مرَّتَين ، ومعَ قولِ الشَّافعي : إِنَّهُ يُكبِّرُ ثلاثاً نسقاً في أَوَّله ، وثلاثاً في آخرِه . واختارَ أَصحابُهُ أَنْ يُكبِّرَ ثلاثاً في أَوَّله ، ويُكبِّرَ ثنتينِ في آخرِه .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ وأَحمد : إِنَّ ابتداءَ التَّكبيرِ في عيدِ يوم النَّحرِ مِنْ صَلاةِ الفجرِ يومَ عرفةَ إِلىٰ أَنْ يُكبِّرَ لِصَلاةِ العيدِ مِنْ يومِ النَّحر ، وقالَ مالكٌ والشَّافعيّ ـ في أَظهرِ القولَين ـ : إِنَّهُ يُكبِّرُ مِنْ ظُهرِ النَّحرِ إِلىٰ صَلاةِ الصُّبحِ مِنْ آخرِ أَيَّام التَّشريق ، وهوَ رابعُ يومِ النَّحر ، سواءٌ كانَ مُحِلاًّ أَو مُحرِماً عندَهُما ، والعملُ عندَ أَصحابِ الشَّافعيِّ علىٰ أَنَّ ابتداءَ التَّكبيرِ في غيرِ الحاجِّ مِنْ صبحِ يومِ عرفةَ إِلىٰ أَنْ يُصلَّىٰ عصرُ آخرِ أَيَّامِ التَّشريق .

ومِنْ ذلك : قولُ أَبي حنيفةَ وأَحمدَ في إِحدىٰ روايتيهِ إِنَّ مَنْ صلَّىٰ منفرداً في هٰذهِ الأَوقاتِ مِنْ مُحِلٍّ ومُحرِمٍ . . لا يُكبِّر ، معَ قولِ مالكٍ والشَّافعيِّ وأَحمدَ في روايتهِ الأُخرىٰ إِنَّهُ يُكبِّر ، وأَمَّا خَلْفَ النَّوافلِ فاتَّفقوا علىٰ أَنَّهُ لا يُكبِّرُ عقبَها ، إِلاَّ في القولِ الرَّاجحِ لِلشَّافعيِّ اِنتهىٰ باختصار .

وليُعلَمْ أَنَّهُ روى التِّرمذيُّ أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « إِنَّ هٰذَا يَوْمٌ جَعَلَهُ اللهُ عِيداً لِلْمُسْلِمِين ، فَاغْتَسِلُوا ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طِيبٌ فَلاَ يَضُرُّهُ أَنْ يَمَسَّ مِنْه ، وَعَلَيْكُمْ بِالسِّوَاك » .

وقال في « كشفِ الغمَّة » أَيضاً : كانتِ الصَّحابةُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُم يَحثُّونَ علىٰ غسلِ العيدَين ، وكانوا يغتسلونَ قَبْلَ أَنْ يَذهبوا إِلى المصلّىٰ .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَحثُّ على التَّجمُّلِ بالثِّيابِ الحسنِة في العيد ، ويَكرهُ لبسَ السِّلاحِ في يومهِ إِلاَّ لخوفٍ مِنْ عدو .

وكانَ لَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بردةٌ حبرة يَلبسُها في كلِّ عيد .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَخرجُ إِلى الصَّحراءِ يومَ العيدِ ماشياً .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يَخرجُ في عيدِ الفطرِ حتَّىٰ يأْكُلَ شيئاً مِنْ تمرٍ ونحوه ، فكانَ يأْكلُ ثلاثَ تمرات ، ولا يأْكلُ في عيدِ الأَضحىٰ حتَّىٰ يرجع .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأْمرُ بإِخراجِ العواتقِ والحُيَّضِ وذواتِ الخدور ، حتَّىٰ لا يَدعُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَحداً منْ أَهلِ بيتهِ إِلاَّ أَخرجه ، وكانَ الحيَّضُ يَعتزلْنَ الصَّلاةَ والمصلَّىٰ ، فيُكبِّرنَ خَلْفَ النَّاسِ ويَشهدْنَ الخيرَ ودعوةَ المسلمين ، ولمَّا أَمرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ النِّساءَ بالخروج . . قالتِ امرأَةٌ يا رسولَ اللهِ ؛ إِحدانا لا يكونُ لها جلباب ، فقال : « لِتُلْبِسْهَا أُخْتُها مِنْ جِلْبَابِها » .

قلت : وهٰذا بخلافِ نساءِ زمانِنا ؛ فإِنَّهنَّ يَخرجنَ لغيرِ الصَّلاةِ والدُّعاء ، فلا تغفل .

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما إِذا طلعتِ الشَّمس . . غدا إِلى المصلَّىٰ ، وكانَ يُكبِّرُ

ويرفعُ صوتَهُ بالتَّكبيرِ حتَّىٰ يأْتيَ المصلَّىٰ ، ثمَّ يُكبِّر بالمصلَّىٰ ، حتَّىٰ إذا جلسَ الإمام . . تركَ التَّكبير .

وكان صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَرجعُ مِنْ مصلَّى العيدِ في غيرِ الطَّريقِ الَّذي خرجَ منه ، وفي بعضِ الأَوقاتِ كانَ يرجعُ فيما جاءَ منه ، وكان صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُعجِّلُ صَلاةَ الأَضحىٰ ، واعتباره مِنِ ارتِّفاعِ الشَّمسِ قَدْرَ رمح ، ويُؤخِّرُ صَلاةَ الفطرِ إِلىٰ قريبٍ مِنْ وقتِ الضُّحىٰ .

قالَ أَنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : كانتِ الصَّحابةُ رضيَ اللهُ عنهُم يقولُونَ لرسول اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا انصرفوا من صلاةِ العيد : تقبَّلَ اللهُ منَّا ومِنْكَ يا رسولَ الله ، فيقول : « نَعَم ، تقَبَّلَ اللهُ مِنَّا وَمِنْكُم » .

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَحثُّ على الذِّكر والطَّاعةِ في ليلتي العيدين ، وعلى التَّكبيرِ ليلةَ الفطر ، ويقول : « مَنْ أَحْيَا لَيْلَتَي الْعِيدَيْن . . لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَمُوتُ الْقُلُوب » . وكانَ ربَّما يضربُ لَهُ بالدُّفِّ يومَ الفطرِ ولا ينهىٰ . انتهىٰ

وليُعلَمْ أَنَّهُ إنَّما سمِّيَ العيدُ عيداً ـ قيلَ ـ : لعَوْدِهِ في السِّنين ، وقالَ شهابُ الدِّينِ أَحمدُ في كتابه « عقدُ الدُّررِ واللآلي » : لأَنَّ اللهَ تعالىٰ يُعيدُ إِلىٰ عبادهِ الفرحَ والسُّرورَ في يومِ عيدِهم .

وقيل : إِنَّما سمِّيَ عيداً ؛ لأَنَّ فيهِ عوائدَ الإِحسانِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ وفوائدَ الامتنان .

ورويَ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « إذا كَانَ يَوْمُ عِيدِ الْفِطْرِ وَخَرَجَ النَّاسُ إِلى الْجَبَّانَة . . اطَّلَعُ اللهُ عَلَيْهِمْ فَيَقُول : عِبَادِي ، لِيَ صُمْتُمْ وَلِيَ صَلَّيْتُم ، انْصَرِفُوا مَغْفُوراً لَكُم » وفي روايةِ أَنس رضي الله عنه : « ارْجِعُوا مَغْفُوراً لَكُم » .

وقيل : إِنَّما سمِّيَ عيداً ؛ لأَنَّهُ يَعودُ العبدُ فيهِ إِلى التَّضرُّعِ والبكاء ، ويُعيدُ الرَّبُّ فيهِ الهبةَ والعطاء .

وفي حديثِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما المرفوع : « إذا كَانَ يَوْمُ الْفِطْر . . هَبَطَتِ

الْمَلاَئِكَة ، فَيَقُومُوْنَ عَلَىٰ أَفْوَاهِ السِّكَكِ يُنَادُونَ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ جَمِيعُ مَنْ خَلَقَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ الْجِنّ وَالإِنس ، يَقُولُون : يَا أُمَّةَ مُحَمَّد ؛ اخْرُجُوا إِلىٰ رَبٍّ كَرِيم ، يُعْطِي الْجَزِيلَ وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ الْعَظِيم . فَإِذا بَرَزُوا إِلىٰ مُصَلاَّهُم.. يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمَلاَئِكَة : يَا مَلاَئِكَتِي ؛ مَا جَزَاءُ الأَجِيرِ إِذا عَمِلَ عَمَلَهُ ؟ فَيَقُولُون : إِلَـٰهَنَا وَسَيِّدَنَا ؛ جَزَاؤُهُ أَنْ يُوَفَّىٰ أَجْرَه . فَيَقُول : أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرتُ لَهُم » . فَمَنْ وَفَّىٰ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ كَامِلاً.. وَفَّىٰ لَهُ الأَجر كاملاً ، ومَنْ نقصَ مِنَ العملِ الَّذي عليه.. نقصَ مِنَ الأَجرِ بحسب نقصه ، فلَم يلُم إِلاَّ نفْسَه .

وقيل : معناهُ العَوْدُ مِنْ طاعةِ اللهِ تعالىٰ إِلىٰ طاعةِ الرَّسول ، ومِنَ الفريضةِ إِلى السُّنَّة ، ومِنْ صومِ رمضانَ إِلىٰ صومِ ستَّةِ أَيَّامٍ مِنْ شوَّال .

وقد ثبتَ في « صحيحِ مسلم » رحمهُ اللهُ قال : حدَّثنا يحيىٰ بنُ أيوبَ وقتيبةُ وعليُّ بنُ حُجْر ، عن إِسماعيلَ بنِ جعفر : أَخبرَني سعيدُ بنُ قيسٍ عن عمرَ بنِ ثابت بنِ الحارثِ الخزرجي ، عن أَبي أَيوبَ الأَنصاريِّ رضي الله عنه أَنَّهُ حدَّثَهُ : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « مَنْ صامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِستٍّ مِنْ شَوَّال.. كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْر » .

قالَ الشَّيخُ محيي الدِّينِ النَّوويّ في « شرحِ مسلم » : في هـٰذا الحديثِ دلالةٌ ظاهرةٌ لمذهبِ الشَّافعيِّ وأَحمدَ وداوودَ وموافقيهِم في استحبابِ صومِ السِّتَّة ، وقالَ مالكٌ وأَبو حنيفة : يُكرَهُ ذلك . قالَ مالكٌ في « الموطَّأ » : ما رأَيتُ أَحداً مِنْ أَهلِ العِلمِ يَصومُها ، قال : فيُكره ؛ لِئَلاَّ يُظنَّ وجوبُها . اِنتهىٰ

وقالَ المناوي : وفيهِ ندبُ صومِ السِّتَّةِ المذكورة ، وهوَ مذهبُ الشَّافعي .

قالَ الزَّاهدي : وصومُها متتابعاً أَو متفرِّقاً يُكرَهُ عندَ أَبي حنيفة ، وعن أَبي يوسف : يُكرَهُ متتابعاً لا متفرِّقاً ، وعن مالك : يُكرَهُ مطلَقاً . اِنتهىٰ

قلت : وهـٰذا العزو إِلىٰ إِمامِنا الأَعظمِ لَم يُصحِّحهُ شيخُ مشايخِنا العلاَّمةُ ابنُ عابدين ، وصحَّحَ أَنَّ الإِمامَ الأَعظمَ أَيضاً قائلٌ بسُنِّيَّةِ ستَّة شوّال ، وردَّ قولَ مَنْ روىٰ عنهُ

خلافَ ذلك ، وقد تبيَّنَ أَنَّ مَنْ نقلَ عنهُ الكراهية . . فهوَ غيرُ مطَّلعٍ علىٰ مذهبه ، فليُحفَظ .

وقالَ في « عقدِ الدُّرر » : الَّذينَ استحبُّوا صيامَ ستَّةٍ مِنْ شوَّالَ علىٰ ثلاثةِ أَقوال :

أَحدُها : أَنَّهُ يُستحبُّ صيامُها مِنْ أَوَّلِ الشَّهرِ متتابعة ، وهوَ قولُ الشَّافعيِّ وابنِ المبارك .

والثَّاني : أَنَّهُ لا فَرْقَ بينَ أَنْ يُتابعَها أَو يُفرِّقَها مِنَ الشَّهرِ كلِّهِ وهُما سواء ، وهوَ قولُ وكيعٍ وأَحمد .

والثَّالث : أَنَّهُ لا تُصامُ عقبَ يومِ الفطر ؛ فإِنَّها أَيَّامُ أَكلٍ وشرب ، ولـٰكنْ تُصامُ ثلاثةَ أَيَّامٍ قَبْلَ أَيَّامِ البيضِ وبعدَها . وهـٰذا قولُ معمرٍ والزُّهريِّ وعبدِ الرَّزاق .

وأَكثر العلماءِ أَنَّهُ لا يُكرَهُ ثاني الفطر .

قالَ العلماء : وإِنَّما كان صيامُ رمضانَ وإِتباعُه ستّاً مِنْ شوّالَ يَعدلُ صيامَ الدَّهر ؛ لأَنَّ الحسنةَ بعَشْرِ أَمثالِها ، وقد جاءَ ذلكَ مفسّراً مِنْ حديثِ ثوبانَ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « صِيَامُ رَمَضَانَ بِعَشْرَةِ أَشْهُر ، وَصِيَامُ سِتَّةِ أَيَّام بِشَهْرَيْن ، فَذلك صِيَامُ سَنَة » . يعني : رمضانَ وستَّةَ أَيَّامٍ بعدَه . أَخرجهُ الإِمامُ أَحمد .

ومِنها : أَنَّ صيامَ شوَّالَ وشعبانَ كصلاةِ السُّنَنِ الرَّواتبِ قَبْلَ الصَّلاةِ المفروضةِ وبعدَها ، فيكمل بذلكَ ما حصل في الفروضِ من زلل ونقص . اِنتهىٰ

فينبغي لِلعبدِ أَنْ يَجدَّ في العملِ الصَّالحِ فيما بعدَ رمضانَ كما كانَ يَعملُ فيه ؛ فإِنَّ اللهَ تعالىٰ إِذا تقبَّلَ عملَ عبد . . وفَّقَهُ لِعملٍ صالحٍ بعدَه ، كما قالوا : ثوابُ الحسنةِ الحسنةُ بعدَها ، وإِنَّ مَنْ عملَ حسنةً ثمَّ أَتبعَها بسيِّئة . . كانَ ذلكَ علامةَ عدمِ قَبُولِها .

وقيلَ لبشرٍ الحافي : إِنَّ قوماً يتعبَّدونَ في رمضانَ دونَ غيره ، فقال : هُم بئسَ القوم ، لا يعرفونَ للهِ عزَّ وجلَّ حقّاً إِلاَّ في شهرِ رمضان .

وقالوا : يَنبغي لِلإِنسانِ أَنْ يكونَ ممتثلاً لقولِهِ تعالىٰ مخاطباً نبيَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

وهـٰذهِ هيَ الآيةُ الَّتي شيَّبت رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فقد قالَ ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما : ما نزلَتْ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ آيةٌ في القرآنِ أشدُّ ولا أشقُّ مِنْ هـٰذه ، حتَّىٰ قالَ أَصحابُهُ لَه : لقد أَسرعَ فيكَ الشَّيبُ ؟ فقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « شَيَّبَتْنِي هُود » يعني هـٰذهِ الآية .

وورد في الحديثِ الصَّحيحِ « إِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ » .

وفي « عقدِ الدُّرَر » : رويَ عن كعبِ الأَحبارِ أَنَّهُ قال : مَنْ صامَ رمضانَ وهوَ يُحدِّثُ نَفْسَهُ إِنَّهُ إِذا أَفطرَ عصىٰ ربَّه . . فصومُهُ عليهِ مردود ، ويكونُ مثالُ مَنْ عملَ صالحاً فِي شهر رمضانَ وعادَ بعده إِلى الفسوقِ والعصيانِ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ أَي : مِنْ بعدِ إِبرامهِ وإِحكامه .

قالَ الكلبيُّ ومقاتلٌ ؛ نزلت في امرأَةٍ خرقاءَ حمقاءَ مِنْ قريش ، يقالُ لها : ريطة بنت عمرو ، وتلقبُ بجعراء . وكانت بها وسوسة ، كانت قدِ اتَّخذَتْ مغزلاً قَدْرَ ذراع ، وكانت تغزلُ الغزلَ مِنَ الصُّوفِ والشّعرِ والوبر ، وتأْمرُ جَواريها بذلكَ فُكن ، يَغزلْنَ مِنَ الغداةِ إِلىٰ نصفِ النَّهار ، فإِذا انتصفَ النَّهار . . أَمرتْهُنَّ أَن يَنقضنَ ما غزَلْن . كانَ ذلكَ دأْبَها ، وضربَ اللهُ سبحانَهُ ذلكَ مثلاً لِنَقْضِ العهد ، كذلكَ يُخشىٰ علىٰ مَنْ كانَ في رمضانَ متشبِّهاً بالصَّالحينَ بعَمله ، ثمَّ يعودُ بعدَهُ إِلىٰ أَقبحِ المعصيةِ بجهله ، وأَشدُّ الظُّلمة : ما يتقدَّمُها نور .

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ . . مثَّلَ لِعملِ رجلٍ يَعملُ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ يوسوسُ لَهُ الشَّيطانُ فيَعملُ بالمعاصي حتَّىٰ تحترقَ أَعمالُهُ الصَّالحة ، فكذلكَ يُخافُ على المتشبِّهِ بالصَّالحينَ في رمضانَ إِذا تركَ الطَّاعاتِ وعادَ بعدَهُ إِلى العصيان ؛ كما أَخرجَ ابنُ أَبي الدُّنيا : أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لرجل : « إِنَّكَ تَبْنِي وتهدِم » ـ يعني : تعملُ الحسناتِ ثمَّ السَّيئاتِ ـ فقال : يا رسولَ الله ؛ سوفَ أَبني ولا أَهدمُ .

فينبغي لِلعاقلِ أَنْ يُتبعَ الحسنةَ بحسنات ، ويمتثلَ قولَهُ تعالىٰ ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ .

واعلموا أَنَّ الأَعيادَ لِلمُؤمنينَ خَمسةٌ ـ كما قالَ بعضُ العارفينَ ـ :

الأوَّل : اليومُ الَّذي يمرُّ على المؤمنِ ولا يَعملُ فيهِ معصية فيُكتَبَ عليهِ ذنب .

والثَّاني : يومُ خروجهِ مِنَ الدُّنيا معَ الإِيمانِ باللهِ ورسولهِ وبجميعِ ما جاءَ عنهُما .

والثَّالث : وقتُ مجاوزتهِ الصِّراطَ وسلامتهِ مِنَ النِّيران .

والرَّابع : وقتُ دخولهِ الجِنان .

والخامس : اليومُ الَّذي يَنظرُ فيهِ إِلى الرَّحمـٰن ، فهوَ العيدُ الأَكبر ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

وقالَ بعض العارفين : إِنَّ مِنْ جملةِ حِكَمِ عيدِ الدُّنيا تذكيرهُ لعيدِ الآخرة ، فإِذا رأى النَّاسَ بينَ ماشٍ وراكب ، ولابسٍ وعريان ، واختلافَ ملابِسهم وحشمِهم وأَتباعِهم . . تذكَّرَ العاقلُ تفاوتَ النَّاسِ يومَ القيامة . وما ذلكَ إِلاَّ بصالحِ الأَعمالِ والصَّدقاتِ مِنَ المالِ الحلال ، أَنالَنا اللهُ تعالىٰ وإِيَّاكُمُ الخيرَ والعافيةَ في البدءِ والمآل .

ولنرجعْ إِلىٰ تفسيرِ بقيَّةِ السُّورةِ الكريمة ، فنقول :

قالَ اللهُ عزَّ وجل : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ هـٰذا إِضرابٌ عن كلامٍ مقدَّر ، يدلُّ عليهِ السِّياقُ ويَنساقُ إِليهِ الكلام . أَي : أَنتُم لا تَفعلونَ ذلك ، بل تُؤثرونَ اللَّذاتِ الفانيةَ العاجلةَ الكائنةَ في الدُّنيا على الدَّارِ الآخرةِ الآجلةِ الباقية ، فلا تَفعلونَ ما بهِ تُفلحون .

قرأَ الجمهورُ بالفوقيَّة[1] ، على الخطابِ لِلكفَّارِ أَو لمُطلقِ النَّاس ، ويُؤيِّدُها قراءةُ أُبي رضي الله عنه : (بل أَنتم تؤثرونَ)[2] وقُرِىءَ بالتَّحتيَّةِ على الغَيْبة[3] ، والضَّميرُ راجعٌ للأَشقىٰ .

---

(١) يعني : (تؤثرون) . وهي متواترة .

(٢) وهـٰذه قراءة شاذة .

(٣) يعني : (يؤثرون) وهـٰذه قراءة أبي عمرو ، وهي في المتواتر .

قيل : المرادُ بالآية : الكَفرة . وبالإيثارِ للحياةِ الدُّنيا : هوَ الرِّضا بها والإعراضُ عنِ الآخرةِ بالكليّة .

وقيل : المرادُ بها المؤمنُ والكافر ، والمرادُ بإيثارِها : ما هوَ أَعمُّ مِنْ ذلك ، ممَّا لا يخلو عنهُ غالبُ النَّاسِ مِنَ الاهتمامِ بها اهتماماً زائداً على اهتمامهِ بالطَّاعات ، ويُؤيِّدُه : أَن ابنَ مسعودٍ رضي الله عنه قرأَها مرَّةً فأَقبلَ علىٰ أَصحابه ، فقال : آثَرْنا الدُّنيا على الآخرة ؛ لأنَّا رأَيْنا زينتَها ونساءَها وطعامَها وشرابَها ، وزويت عنّا الآخرةُ فاخترنا هـٰذا العاجلَ وتَرَكْنا الآجِل .

﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أَي : والحالُ أَنَّ الدَّارَ الآخرةَ الَّتي هيَ الجنَّةُ أَفضلُ وأَدومُ مِنَ الدُّنيا ؛ لأَنَّها تَشتملُ على السَّعادةِ الأَبديَّة ، الجسمانيَّةِ والرُّوحانية ، الخاليةِ عن كافَّةِ الآلام . والدُّنيا لذَّاتُها كأَضغاثِ أَحلام ، وهيَ مقرونةٌ بالانصرامِ والآلام .

قالَ مالكُ بنُ دينار : لَو كانتِ الدُّنيا مِنْ ذهبٍ يَفنىٰ والآخرةُ مِنْ خَزَفٍ يَبقىٰ . لكانَ الواجبُ أَنْ يُؤْثَرَ خَزفٌ يبقىٰ علىٰ ذَهَبٍ يفنىٰ ، فكيف ؟! والآخرةُ مِنْ ذهبٍ يبقىٰ والدُّنيا مِنْ خَزَفٍ يَفنىٰ !

جُبِلَتْ علىٰ كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْواً مِنَ الأَقْذَاءِ وَالأَكْدَارِ

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أَي : جميعُ ما في هـٰذهِ السُّورةِ ثابتٌ في صُحفِ إِبراهيمَ وموسىٰ .

قالَ الوالدُ عليهِ الرَّحمة : وكانتْ صُحفُ إِبراهيمَ عشرة ، وصحفُ موسىٰ عليهِ السَّلامُ عشرة ، والمرادُ بها ما عدا التَّوراة .

أَخرجَ عبدُ بنُ حميد ، عن أَبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : قلت : يا رسولَ الله ؛ كَم أَنزلَ اللهُ تعالىٰ مِنْ كتابٍ ؟ قال : « مِئَةَ كِتَابٍ وأَرْبَعَةَ كُتُب : أَنْزَلَ عَلَىٰ شِيثٍ خَمْسِينَ صَحِيفَةً ، وَعَلَىٰ إِدْرِيسَ ثَلاثِينَ صَحِيفَةً ، وَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَشْرَ صَحَائِف ، وَعَلَىٰ مُوسَىٰ قَبْلَ التَّوْرَاةِ عَشْرَ صَحَائِف ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَان » .

قلت : يا رسولَ الله ؛ فما كانت صُحفُ إبراهيمَ ؟ قال : « أَمْثَالٌ كُلُّهَا : أَيُّهَا المَلكُ المُتَسَلِّطُ عَلَى المُبْتَلَى الْمَغْرُور ؛ لَمْ أَبْعَثْكَ لِتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعْضَهَا إِلَىٰ بَعْض ، وَلَـٰكِنْ بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّي دَعْوَةَ الْمَظْلُوم ؛ فَإِنِّي لا أَرُدُّهَا وَلَوْ كَانَتْ مِنْ كَافِر . وَعَلَى الْعَاقِلِ مَا لَمْ يَكُنْ مَغْلُوباً عَلَىٰ عَقْلِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَلاَثُ سَاعَات : سَاعَةٌ يُنَاجِي فيها ربَّه ، وسَاعَةٌ يُحاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ وَيَتَذَّكَرُ فِيمَا صَنَع ، وسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِحَاجَتِهِ مِنَ الحَلاَل ؛ فَإِنَّ فِي هـٰذِهِ السَّاعَةِ عَوْناً لِتِلْكَ السَّاعات ، وَاسْتِجْمَاعاً لِلْقُلُوب ، وَتَفْرِيقاً لَهَا . وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُون : بَصِيراً بِزَمَانِه ، مُقْبِلاً عَلَىٰ شأْنِه ، حَافِظاً لِلِسَانِه ؛ فإِنَّ مَنْ حَسَبَ كَلاَمَهُ مِنْ عَمَلِه . . أَقَلَّ الكَلاَمَ إِلاَّ فِيمَا يَعْنِيه . وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ طَالِباً لِثَلاَث : حِرْفَةٍ لِمَعَاش ، وَتَزَوُّدٍ لِمَعَاد ، وَتَلَذُّذٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّم » .

قلت : يا رسولَ الله ؛ فمَا كانتْ صُحفُ موسىٰ ؟ قالَ : « كَانَتْ عِبَراً : عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ ثُمَّ يَفْرَح ، وَلِمَنْ أَيْقَنَ بِالنَّارِ ثُمَّ يَضْحَك ، وَلِمَنْ يَرَى الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا ثُمَّ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا ، وَلِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ يَغْضَب ، وَمَنْ أَيْقَنَ بِالْحِسَابِ ثُمَّ لاَ يَعْمَل » .

قلتُ يا رسولَ الله ؛ هَلْ أُنزلَ عليكَ شيءٌ ممّا كانَ في صُحفِ إبراهيمِ وموسىٰ ؟ قال : « يا أَبَا ذر ؛ نعم : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ . واللهُ تعالىٰ أعلمُ بصحَّةِ الحديث .

فعليكُم ـ إخواني ـ بالتَّوبةِ النَّصوح ، ومداومةِ العملِ الراجح غيرِ المرجوح ، وتوالي الحسنات ، والتَّجنُّبِ عن مثوى السَّيِّئات ، فكَم مِنَ النَّاسِ السَّالفينَ صلُّوا في هـٰذا الشَّهرِ صَلاةَ التَّراويح ، وأوقدوا للأجرِ المصابيح ، ومَلَؤُوا بالعبادةِ المكانَ الفسيح . . اقتنصتهُم في آخرهِ المصائِد ، وأَسرَتْهُمُ الحصائِد ؟! دارت عليهمُ المنونُ رحاها ، وحلَّت وجوهُهم في الثَّرىٰ فمحاها ، أَعدمتْهُم صوماً وفطراً ، وأَصبحَ كلٌّ منهُم في اللَّحدِ شطراً . وهـٰذا حالُكَ عن قريبٍ فتيقَّظ ، ومآلُكَ عن قريبٍ مثلُ مآلِهم فاجتهِدْ وتحفَّظ .

فيا مشغولاً بلهوك ؛ أَأَعددتَ عُدَّةَ حازمٍ لِقَبْرِك ؟أَحصَّلتَ عملاً يُنجيكَ في حشرِك ؟ أَحفظتَ حدودَ صَوْمِكَ في شهرِك ؟

كم صومٌ بالغيبةِ فَسَد ، وكم مِنْ عملٍ بالرِّياءِ تعطَّلَ فكَسَد ؟ ، فيا لَيتَ شِعري مَنِ المقبولِ منّا والمردود! أَما سمعتُم ما قالَهُ سيِّدُ البَشر : « رُبَّ صَائِمٍ مَا حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلاَّ الْجُوعُ والْعَطَش ، ورُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قيامِهِ إِلاَّ السَّهَر » ؟!

فبادِرُوا رحمَكُمُ اللهُ تعالىٰ ساعاتِ أَعمارِكُم الباقيةْ فإِنَّها مُغتنَم ، واستدرِكوا ما مضىٰ بالاستغفارِ والنَّدم ، فليسَ العيدُ لمَنْ لبسَ الجديد ، بلِ العيدُ لمَنْ حسناتُهُ تزيد ، وعَمِلَ للقاءِ يومِ الوعيد .

فيا مُعرضاً عنِ الهدىٰ لا يَسعىٰ في طَلَبه ، يا مشغولاً بلهوهِ مفتوناً بلَعبه ، يا مَنْ قد صاحَ بهِ الموتُ عندَ أَخذِ صاحبه : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ ؛ جُزْ علىٰ قبرِ الصَّديق ، وتلمَّحْ آثارَ الرَّفيق . . تُخبرْكَ عن حُسنهِ الأَنيقْ ، أَنَّه استُلبَ بكفِّ التَّمزيق ، هـٰذا لَحدُهُ وغداً أَنتَ به ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ .

كم نُهيَ عن خطإٍ فما انتهىٰ ، وكم زَجَرَتْهُ الدُّنيا ثمَّ سعىٰ لها ؟ هـٰذا رُكنُهُ القويمُ قد وَهىٰ! وها أَنتَ في سَلَبه ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ .

أَينَ مَنْ عَتَا وظَلَمْ ولَقِيَ النَّاسُ مِنْهُ الأَلم ؟ اقتطعَهُ الرَّدى اقتطاعَ الجلم[1] ، فما نفعَهُ ما جمع ـ لا واللهِ ـ ولا لَم ، ولَم يدفعْ عنه منصبه ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ .

باتَ في لحدهِ أَسيراً ، ولا يملكُ مِنَ الدُّنيا نقيراً ، بل عادَ بوزرِ ذنبهِ عقيراً! أَصبحَ مِنْ مُلْكِهِ فقيراً ، علىٰ عزِّ نَسَبَهْ وكثرةِ نشبه ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ .

اَللَّذاتُ عن قليلٍ تفنىٰ وتَمر ، وآخِرُ الهوى الحلوِ مر ، وليسَ في الدُّنيا شيءٌ يَسرُّ إِلاَّ ويغرُّ ويضر ، ثمَّ يَخلو الزَّاني وشاربُ الخمرِ وآكلُ الحرامِ بمكتسبه ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ .

اَلكتابُ يحوي حتَّى النَّظرة ، والحسابُ يأْتي على الذَّرَّة ، وخاتمةُ كأْسِ اللَّذاتِ مُرَّة ، والأَمرُ جليٌّ للفهومِ ما يشتبَه ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ .

تقومُ ـ أَيُّها المغتابُ ـ في حشركَ ذليلاً ، وتبكي ـ أَيُّها الظالمُ ـ لِلعبادِ على الذُّنوبِ

(١) قوله : الجلم : المقص . اهـ منه .

طويلاً ، وتحملُ - أيُّها النَّمامُ والعاقُّ - علىٰ أزركَ وزراً ثقيلاً ، فويلٌ لِتارِكِ الصَّومِ والصَّلاة والحجِّ والزَّكاة وقُبِّحَ منقلبُه ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ** ﴾ .

يُجمَعُ الخلائقُ كُلُّهم في صعيد ، ويَنقسمونَ إِلىٰ شقيٍّ وسعيد ، فقومٌ قد حلَّ بهِمُ الوعيد ، وقومٌ قيامتهم نزهةٌ وعيد ، وكلُّ عاملٍ يَغرفُ مِنْ مشربه ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ** ﴾ .

إِنَّما يَقعُ الجزاءُ علىٰ أَعمالِك ، وإِنَّما تَلقىٰ في غدٍ غبَّ أَفعالِك ، قد نصحناكَ نقصدُ إِصلاحَ حالِك ، فإِنْ كنتَ متيقِّظا . . فاعملْ بذلكَ وإِنْ كنتَ نائما . . فانتبهْ ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ** ﴾ .

نسأَلُكَ - اللَّهُمَّ - باسمِكَ الأَعظم ، وأَسمائِكَ الحسنىٰ ما نَعلمُ منها وما لَم نَعلمْ وبِحبِّكَ لِنبيِّكَ الأَكرم ، وجاهِه الملتزم . . أَنْ تَختمَ لَنا هـٰذا الشَّهرَ بغفرانِك ، وتعمَّنا وكافَّة الموحِّدينَ بأَلطافِكَ وإحسانِك ، وتجعلَنا ممَّنْ قَبِلْتَ صيامَهُ وصلاتَهُ وصدقاتِه ، وبدَّلتَ سيئاتِهِ بحسناتِه ، وأَنْ تُحسنَ عاقبتَنا في الأُمورِ كلِّها ، وتُجيرَنا مِنْ خِزي الدُّنيا وعذابِ الآخرة ، وأَنْ تتغمَّدَنا والجماعةَ الحاضرينَ وآبائَنا وأُمَّهاتِنا وأَقاربَنا برحمتكَ الباطنةِ والظَّاهرة ، وأَنْ تجعلَ شهرَنا هـٰذا شاهداً لَنا بأَداءِ فَرْضِك ، ولا تُخزِنا بقبائِحِ أَعمالِنا يومَ عَرضِك ، ولا تجعلْنا ممَّنْ تَعِبَ واجتهدَ فلَم يُرضِك .

اللَّهُم ؛ أَلْهِمْنا الشُّكرَ علىٰ صيامِ الأَيَّامِ الماضية ، وأَعِدْ شهرَ رمضانَ علينا بالخيرِ أَعواماً متوالية .

اللَّهُم ؛ لا تَدَعْ لَنا ذنباً إِلاَّ غفرتَه ، ولا همّاً إِلاَّ فرَّجتَه ، ولا عاصياً إِلاَّ هديتَه ، ولا صالحاً إِلاَّ تقبَّلْتَه .

اللَّهُم ؛ أَصلِحْ أُمراءَنا ، وولِّ أُمورَنا أَخيارَنا ، واحفَظْ أَولادَنا ووفِّقهُم لِما فيهِ رضاك ، وانصُرْ سلطانَنا وعساكرَهُ علىٰ مَنْ عاداك .

وارفَعْ منازِلَنا ومنازلَ آبائِنا وأُمَّهاتِنا ، وأَعمامِنا وإِخوانِنا وأَقاربِنا ومشايخِنا في جنَّةٍ عاليةٍ قُطوفُها دانية .

واجعلْنا ممَّنْ يُنادىٰ غداً في الدَّارِ الباقية : ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وآلهِ وصحبهِ وسلَّم .

خاتمة : مقتصرةٌ مِنَ « الغُنية » يَقرؤها مَنْ أرادَها في آخِرِ رمضانَ المبارَك ، وهي :

اعلَموا ـ رحمَكُمُ اللهُ تعالىٰ ـ أَنَّ ليلتَكُم هـٰذهِ ليلةُ الوداعِ لشهركُمُ الَّذي شرَّفَهُ اللهُ وعظَّمَه ، ورفعَ قدرَهُ وكرَّمَهُ بالصِّيامِ والقيامِ وتلاوةِ القرآن ، ونزولِ الرَّحمةِ فيهِ عليكم مِنَ اللهِ تعالىٰ والرِّضوان . جعلَهُ اللهُ مصباحَ العامِ وواسطةَ النِّظام ، وشرَّفَ قواعدَ الإسلامِ المشرقة بأنوارِ الصِّيامِ والقيام . أَنزلَ اللهُ تعالىٰ فيهِ كتابَه ، وفتحَ فيهِ للتَّائبينَ أَبوابَه ، فلا دعاءَ فيهِ إلاَّ مسموع ، ولا خيرَ إلا مجموع ، ولا ضرَّ إلاَّ مدفوع ، ولا عملَ إلاَّ مرفوع .

الظَّافرُ الميمونُ مَنِ اغتنمَ أَوقاتَه ، والخاسرُ المغبونُ مَنْ أَهملَهُ ففاتَه .

شهرٌ جعلَهُ اللهُ لذنوبكُم تطهيراً ، ولسيِّآتِكُم تكفيراً ، ولِمَنْ أَحسنَ منكُم صحبتَهُ ذخيرةً ونوراً ، ولِمَنْ وفَّىٰ بشَرْطِهِ وقامَ بحقِّهِ فرحاً وسروراً . فرحمَ اللهُ امرأً مهَّدَ فيهِ لنَفْسِهِ قَبْلَ حلولِ رَمْسه ، واشتغلَّ بيومهِ عن غدهِ وأَمْسه ، وتزوَّدَ مِنْ بقيَّةِ زاده ؛ ففي نفادِهِ نفادُ أَمره ، وأَظهرَ لِفراقهِ جزعَه ، وسلَّمَ علىٰ شهرهِ وودَّعَه ، وقال : السَّلامُ عليكَ يا شهرَ رمضان .

السَّلامُ عليكَ يا شهرَ الصِّيامِ والقيامِ وتلاوةِ القرآن .

السَّلامُ عليكَ يا شهرَ التَّجاوزِ والغفران .

السَّلامُ عليكَ يا شهرَ البركةِ والإِحسان .

السَّلامُ عليكَ يا شهرَ التُّحَفِ والرّضوان .

السَّلامُ عليكَ يا شهرَ النُّسكِ والتَّعبُّد .

السَّلامُ عليكَ يا شهرَ الصِّيامِ والتَّهجُّد .

السَّلامُ عليكَ يا شهرَ التَّراويح .

السَّلامُ عليكَ يا شهرَ الأنوارِ والمصابيح .

السَّلامُ عليكَ يا أُنسَ العارِفين .

السَّلامُ عليكَ يا روضةَ العابدِين .

فيا شهرَنا ؛ غيرَ مُودَّعٍ ودَّعناك ، وغيرَ مقليٍّ[1] فارقناك ، كانَ نهارُكَ صدقةً وصياماً ، وليلُكَ قراءةً وقياماً ، فعليكَ منَّاتحية وسلامٌ . أَتُراكَ تعودُ بعدَها علينا ، أَو يُدركُنا المنونُ فلا تَؤُولُ إِلينا ؟

مصابيحُنا فيكَ مشهورة ، ومساجدُنا فيكَ معمورة ، فالآنَ! تَنطفىءُ المصابيحُ وتنقطعُ التَّراويح ، ونرجعُ إِلى العادةِ ونفارقُ شهرَ العبادة . فيا ليتَ شعري! مَنِ المقبولُ منَّا فنُهنِّيه ، ومَن المطرودُ بسوءِ عملهِ فنُعزِّيَه ؟

فيا أَيُّها المقبول ؛ هنيئاً لكَ بثوابِ اللهِ عزَّ وجلَّ وغفرانه ، وتَعساً لكَ يا مطرودُ بإِصرارِكَ علىٰ عصيانه ، لقد عَظُمَتْ مصيبتُكَ فأَينَ دمعتُكَ وتوبتُك ؟! فلأَيِّ يومٍ أَخَّرتَ توبتَك ، ولأَيِّ عامٍ ادَّخرتَ عدَّتَك ؟ أَإِلىٰ عامٍ قابلٍ وحولٍ حائل ؟ كلا : فما إِليكَ مدَّةُ الأَعمارِ ولا معرفةُ المقدار ؛ فكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ أَمَّل بلوغَهُ فلَم يَبلغه ، وكم مِنْ مدرك له ولَم يختمه ، وكم مَنْ أَعدَّ طيباً لِعيدهِ جُعلَ في تلحيده ، وثياباً لتزيينهِ صارت لِتكفينه! ومتأَهِّبٍ لِفطرهِ صارَ مرتهناً في قبره ، وكم مَنْ لا يصومُ بعدَهُ سواهُ وهوَ يَطمعُ في غيرهِ أَنْ يراه ؟!

فاحمدوا اللهَ علىٰ بلوغِ اختتامه ، وسَلوهُ قَبولَ صيامهِ وقيامه ، وراقبوُهُ بأَداءِ حقوقه ، واعتصموا بحبلِ اللهِ وتوفيقه .

ويا عبادَ الله ؛ مَنْ كانَ مَنَعَ نَفْسَهُ مِن الحرامِ في شهر رمضان . . فلْيَمْنَعْهَا فيما بعدَهُ مِنَ الشُّهورِ والأَعوام ؛ فإِنَّ إِلـٰهَ الشَّهرينِ واحد ، وهوَ على الزَّمانَينِ مطَّلعٌ شاهد . جزانا اللهُ تعالىٰ وإِيَّاكُم علىٰ فراقِ شهرِ البركة ، وأَجزلَ أَقسامَنا وأَقسامَكُم مِنْ رحمتهِ

---

(١) مقليّ : مُبعَد .

المشتركة ، وبارِكَ لَنا ولُكم في بقيَّته ، وسَلكَ بِنَا وبكُم طريقَ هدايته ، برحمتهِ وفَضْلهِ ومِنَّته .

اللَّهُم ؛ وما قسمتَ في هـٰذهِ اللَّيلةِ مِنْ عتقٍ وغفران ، ورحمةٍ ورضوان ، وعفوٍ وامتنان ، وكرمٍ وإحسان ، ونجاةٍ مِنَ النِّيران ، وخلودٍ في نعيمِ الجنان . . فاجعلْ لَنا منهُ وافرَ الحظِّ وأَجزلَ الأَقسام ، برحمتكَ يا أَرحمَ الرَّاحمين .

اللَّهُم ؛ فكما بلَّغتَنا شهرَ الصِّيام . . فاجعلْ عامَهُ علينا مِنْ أَبركِ الأَعوام ، وأَيَّامَهُ مِنْ أَسعدِ الأَيام ، وتقبَّلْ مِنَّا ما قدَّمناهُ فيهِ مِنَ الصِّيامِ والقيام ، واغفِرْ لَنا ما اقترفْنا فيهِ مِنَ الآثام ، وخلِّصنا منْ مظالمِ الأنام يومَ لا يُرجىٰ فيهِ سواك ، يا أَرحمَ الرَّاحمين .

اللَّهُم ؛ إنَّا قد تولَّينا صيامَ شهرِنا وقيامَهُ علىٰ تقصير ، وأَدَّينا فيهِ مِنْ حقِّكَ قليلاً مِنْ كثير ، وقد أَنخنا ببابِكَ سائلين ، ولمعروفكَ طالِبين . . فلا تردَّنا خائِبين ، ولا مِنْ رحمتكَ آيسين ، فنحنُ الفقراءُ إِليك ، الأُسراءُ بين يديك ، إِليكَ توجَّهنا ، ولمعروفكَ تعرَّضنا ، ولبابِكَ قَرعنا ، ومِنْ رحمتِكَ سأَلْنا ، فارحم خضوعَنا واجبر قلوبَنا ، واستُرْ عيوبَنا ، واغفِرْ ذنوبَنا ، وأَقِرَّ في القيامةِ عيونَنا ، ولا تَصرِفْ وجهكَ الكريمَ عنَّا ، واجعل عملَنا مقبولاً ، وسعيَنا مشكوراً ، وحظَّنا في هـٰذهِ اللَّيلةِ موفوراً .

اللَّهُم ؛ إنْ كانَ في سابق عِلْمِكَ أَنْ تجمعَنا في مِثلِه . . فبارِكْ لنا فيه ، وإِنْ قضيتَ بقطْعِ آجالِنا وما يحولُ بيننا وبينَه . . فأَحسِنِ الخلافةَ علىٰ باقينا ، وأَوسِعِ الرَّحمة علىٰ ماضينا ، وعُمَّنا جميعاً برحمتكَ وغفرانك ، واجعلِ الموعدَ بحبوحَ جنَّتكَ ورضوانك ، معَ الَّذينَ أَنعمَ اللهُ عليهِم مِنَ النَّبيِّنَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحين ، وحَسُنَ أُولـٰئكَ رفيقاً ، برحمتكَ يا أَرحمَ الرَّاحمين .

اللَّهُم ، يا عالِمَ الخفيَّات ، ويا دافعَ البليَّات ، ويا مُجيبَ الدَّعوات ، ويا كاشفَ الكربات ؛ صلِّ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وآلهِ أَفضلَ الصَّلوات ، واغفِرْ لَنا ذنوبَنا ولآبائِنا وأُمَّهاتِنا ، وقراباتِنا وأَصدقائِنا ، ومشايخِنا ومعلِّمينا ، ومَنْ تعلَّمَ منَّا ، ومَنْ أَحبَّنا فيكَ وأَحببناه ، ولا تَدَعْ لَنا في هـٰذهِ اللَّيلةِ الشَّريفةِ ذنباً إِلاَّ غفرتَه ، ولا همّاً إِلاَّ فرَّجتَه ، ولا كرباً إِلاَّ كشفتَه ، ولا مبتلىً إِلا عافيتَه ، ولا حقاً إِلاَّ استخلصتَه ، ولا غائباً إِلاَّ

بالخيرِ رددتَه ، ولا عاصياً إلاَّ هديتَه ، ولا حاسداً إلا خيَّبتَه ، ولا عدوّاً إلاَّ صرفته ، ولا سِعراً إلاَّ أَرخصتَه ، ولاخوفاً إلاَّ أَزلتَه .

وأَحينا اللَّهُمَّ علىٰ حُبِّ الآلِ والصَّحابةِ الأَخيار ، واجمَعْ بينَنا وبينَهُم في دارِ القرار ، واجعلْنا وإِيَّاهُم في شفاعةِ نبيِّكَ المختار .

وبارِكْ لَنا في كلِّ ما أَعطيتَنا ، ولا تُزِغْ قلوبَنا بعدَ إِذْ هديتَنا ، وارحمنا وكافَّةَ الأُمَّةِ المحمَّديَّة ، واجعلْنا وإِيَّاهُم في عيشةٍ مرضيَّة .

وصلِّ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وآلهِ وصحبهِ أَجمعينَ وسلِّم تسليماً . وآخِرُ دعوانا أَنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمِين .

* * *

المجلس الثَّاني والثلاثون

في الأئمَّة الأَربعة المجتهدين رضوان الله تعالىٰ عليهم

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي إذا لطف . . أعان ، وإذا عطف . . صان ، أَكرمَ مَنْ شاءَ كما شاء ، وأَهان ، أَخرجَ الخليلَ مِنْ آزرَ ومِنْ نوحٍ كنعان . يُميتُ ويحيي ، ويُفني ويُبقي ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ يُزيِّنُ بموهبةِ العلم ، فإذا لَم يُعمَلْ به . . شان ، خَلَعَ خِلعةَ العِلمِ علىٰ بلعامَ فلَم يَصُنها ، ومالَ بهواهُ إِلىٰ ما عنهُ يُنهىٰ ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ .

أَحمدُهُ في السِّرِّ والإِعلان ، وأُصلِّي علىٰ محمَّدٍ الَّذي انشقَ ليلةَ ولادتهِ الإِيوان ، صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ أَوَّلِ مَنْ جمعَ القرآن ، وعلى الفاروقِ الموصوفِ بالعدلِ وكذلكَ كان ، وعلىٰ عثمانَ التَّقيِّ الحييِّ الَّذي تستحيي منهُ ملائكةُ الرَّحمـٰن ، وعلىٰ عليٍّ سيِّدِ العلماءِ والشُّجعان ، وعلىٰ سائرِ آلهِ وأَصحابه ، صَلاةً تامَّةً علىٰ ممرِ الزَّمانِ وسلَّم تسليماً .

أَمَّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في مُحكَمِ كتابهِ العزيز : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ اِختلفَ المفسِّرونَ في معنىٰ هـٰذهِ الآية :

فذهبَ جماعةٌ إِلىٰ أَنَّهُ مِنْ بقيَّةِ أَحكامِ الجهادِ في الآياتِ المتقدِّمة ، وكانَ المسلمونَ إِذا بعثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سَريةً إِلى الكفَّار . . ينفرونَ جميعاً ويتركونَ المدينةَ خالية ، فأَخبرَهُم سبحانَهُ بأَنْ ليسَ لَهم ذلك ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَوْلَا ﴾

أَي : فهلاَّ ﴿ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ ؛ أَي : جماعة . ويبقىٰ ما عدا هـٰذهِ الطائفة النَّافرة ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ أَي : الفرقةُ الباقيةُ لأجلِ طَلَبِ العلمِ ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ أَي : يُعلِّموهُم . ففيهِ إِشارةٌ إِلىٰ أَنَّهُ ينبغي لِلمتعلِّمِ العملُ وتبليغُ الشَّريعة .

وذهبَ آخرونَ إِلىٰ أَنَّ هـٰذهِ الآيةَ حُكمٌ مستقلٌّ بنَفْسهِ في مشروعيَّةِ الخروجِ لِطَلَبِ العلمِ إِذا لَم يَجِدْ مَنْ يُعلِّمُهُ في بلدته .

والفقهُ هو : العلمُ بالأَحكامِ الشَّرعيَّة . فيجبُ علىٰ كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ أَنْ يتعلَّمَ العِلم ، ويجبُ على العلماءِ التَّعليمُ كما قدَّمنا بعضَ ما يتعلَّقُ بذلكَ في الدُّروسِ الماضية .

وتعلُّمُ العِلمِ وتعليمُهُ مِنْ أَفضلِ العباداتِ وأَجلِّ الطَّاعات ؛ قالَ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ قالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : درجاتُ العلماءِ فوقَ المؤمنينَ بسبعِ مئةِ درجة ، ما بينَ الدَّرجتَينِ خمسُ مئةِ عام .

ولَو لَم يكنْ مِنْ فضيلةِ العلمِ إِلاَّ آية : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فبدأَ اللهُ تعالىٰ بنَفْسه ، وثنَّىٰ بملائكته ، وثلَّثَ بأَهلِ العلم ، وناهيكَ بهـٰذا شرفاً .

والعلماءُ ورثةُ الأَنبياء ، كما ثبتَ بالحديث ، وإِذا كانَ لا رتبةَ فوقَ النُّبوَّة . . فلا شرَفَ فوقَ شرفِ الوراثةِ لتلكَ الرُّتبة .

وغايةُ العِلم : العمل ؛ لأَنَّهُ ثمرتُهُ وفائدةُ العمرِ وزادُ الآخرة ، فمَنْ ظَفِرَ به . . سَعِد ، ومَنْ فاتَه . . خَسِر ، وقد نالَ هـٰذهِ الرُّتبةَ العاليةَ والحسنةَ الباقيةَ أَكثرُ علماءِ المسلمينَ والفقهاءِ والمحدِّثين ، ولا سيَّما الأَئمَّة الأَربعة المجتهدين ؛ فقد أَحكموا الأَحكامَ الشَّرعيَّة ، وبيَّنوا المسائِلَ الخفيَّة ، وأَسَّسوا الأُصولَ والمباني ، ونقَّحوا الفروعَ والمعاني ، فلنُعطِّرْ مجلسَنا هـٰذا بطِيبِ ذِكرِهم ، ولنُسمعكُم بعضاً مِنْ جليلِ قَدْرِهم .

فأوَّلُهم : الإمامُ الصَّفِي ، أَبو حنيفةَ النُّعمانُ بنُ ثابتٍ الكوفيُّ عليهِ الرَّحمةُ والرِّضوان .

هوَ النُّعمانُ بنُ ثابت ، بنِ النُّعمان ، ابنِ المرزبان ، مِنْ أَبناءِ فارس .

قالَ حفيدهُ إِسماعيلُ بنُ حمَّاد : وُلِدَ جدِّي أَبو حنيفةَ سنةَ ثمانين ، وذهبَ ثابتٌ إِلىٰ عليِّ بنِ أَبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ صغيرٌ فدعا لَهُ بالبركةِ فيهِ وفي ذُرِّيَّته ، ونحنُ نرجو أَنْ يكونَ اللهُ تعالىٰ قدِ استجابَ لعليٍّ فينا ، وقد توفِّيَ سنةَ مئةٍ وخمسين ، وعمرُهُ سبعونَ سنة ، وقبرهُ في بغدادَ مشهور .

وقد وردت أَحاديثُ صحيحةٌ تشيرُ إِلىٰ فضلِ إِمامِنا الأَعظم ، منها :

قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ الشَّيخانِ عن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ ، والطَّبرانيّ عنِ ابنِ مسعود رضي الله عنه : أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا . . لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ أَبْنَاءِ فَارِس » .

ورواهُ أَبو نعيم ، عن قيسِ بنِ سعد بنِ عبادة ، بلفظِ أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « لَوْ كَانَ الْعِلْمُ مُعَلَّقاً عِنْدَ الثُّرَيَّا . . لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ أَبْنَاءِ فَارِس » .

وفي روايةِ مسلمٍ : « لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا . . لَذَهَبَ بِهِ رَجُلٌ مِنْ أَبْنَاءِ فَارِسَ حَتَّىٰ يَتَنَاوَلَه » .

وفي روايةٍ لِلشَّيخين : « وَالَّذِيْ نَفْسِي بِيَدِه ، لَوْ كَانَ الدِّينُ مُعَلَّقاً بِالثُّرَيَّا . . لَتَنَاوَلَهُ رَجُلٌ مِنْ فَارِس » .

وليسَ المرادُ بفارسَ البلاد المعروفة ، بل جنسٌ مِنَ العجم ، وهُمُ الفرس ؛ لخبرِ الدَّيلمي : « خَيْرُ الْعَجَمِ فَارِس » وقد كانَ جدُّ أَبي حنيفةَ مِنْ فارسَ علىٰ ما عليهِ الأَكثرون .

قالَ الحافظُ السّيوطي : هـٰذا الحديث الَّذي رواهُ الشَّيخانِ أَصلٌ صحيحٌ يُعتمَدُ عليهِ في الإِشارةِ لأَبي حنيفة ، وهوَ متَّفَقٌ علىٰ صحَّته .

ومناقبُ الإِمامِ أَبي حنيفةَ أَكثرُ مِنْ أَنْ تُحصىٰ وأَشهرُ مِنْ أَنْ تُذكَر ، وقد صنَّفَ

العلماءُ فيها كُتباً كثيرة ، ورسائلَ وفيرة ، وقد كانَ في فقهِهِ وزهدِهِ وورَعِهِ وعبادتِهِ وعِلْمِهِ وفَهْمِهِ غيرَ مُشَارَكٍ ، ولذا قالَ فيهِ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ رضِيَ اللهُ عَنْه :

لَقَدْ زَانَ الْبِلاَدَ وَمَنْ عَلَيْهَا ... إِمَامُ الْمُسْلِمِينَ أَبُو حَنِيفَهْ

بِأَحْكَامٍ وَآثَارٍ وَفِقْهٍ ... كَآيَاتِ الزَّبُورِ عَلَىٰ صَحِيفَهْ

فَمَا فِي الْمَشْرِقَيْنِ لَهُ نَظِيرٌ ... وَلاَ فِي الْمَغْرِبَيْنِ وَلاَ بِكُوفَهْ

يَبِيتُ مُشَمِّرا ، سَهِرَ اللَّيَالِي ... وَصَامَ نَهَارَهُ للهِ خِيفَهْ

فَمَنْ كَأَبِي حَنِيفَةَ فِي عُلاَهُ ... إِمَامٌ لِلْخَلِيقَةِ والْخَلِيفَهْ

وَقَدْ قَالَ ابْنُ إِدْرِيسٍ مَقَالاً ... صَحِيحَ النَّقْلِ فِي حِكَمٍ لَطِيفَهْ

بِأَنَّ النَّاسَ فِي فِقْهٍ عِيَالٌ ... عَلَىٰ فِقْهِ الإِمَامِ أَبِي حَنِيفَهْ

وَصَانَ لِسَانَهُ عَنْ كُلِّ إِفْكٍ ... وَمَا زَالَتْ جَوَارِحُهُ عَفِيفَهْ

يَعِفُّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَلاَهِي ... وَمَرْضَاةُ الإِلَـٰهِ لَهُ وَظِيفَهْ

قالَ الحافظُ الذَّهبي : قد تواترَ قيامُهُ باللَّيلِ وتهجُّدهُ وتعبُّده . ومِنْ ثمَّ كانَ يُسمَّى الوَتَدُ ؛ لكثرةِ قيامهِ باللَّيل ، بل إحياؤُهُ بقراءةِ القرآنِ في ركعةٍ ثلاثينَ سنة ، وكانَ يُسمَعُ بكاؤُهُ باللَّيلِ حتَّىٰ يَرحمهُ جيرانُه .

وقالَ ابنُ المبارك : صلَّىٰ خمساً وأَربعينَ سنةً الخمسَ صلواتٍ بوضوءٍ واحد ، وكانَ يَجمعُ القرآنَ في ركعة .

ولمَّا غسَّلَهُ الحسنُ بنُ عُمارة . . قال : رَحِمكَ اللهُ وغفرَ لك ، لم تُفْطِرْ منذُ ثلاثينَ سنةً! وأَتعبتَ مَنْ بعدَك ، وفضَحْتَ القُرَّاء .

وكانَ هيوباً ، لا يتكلَّمُ إلاَّ جواباً ، ولا يخوضُ فيما لا يعنيهِ ولا يَستمعُ إليه .

وقالَ الحسنُ بنُ صالح : كانَ شديدَ الورَعِ هائِباً لِلحرام ، تاركاً لكثيرٍ مِنَ الحلالِ مخافةَ الشُّبهة ، ما رأَيتُ فقيهاً أَشدَّ منهُ صيانةً لِنَفْسه . قالوا : ولذا امتنعَ عنِ القضاء ، وقد ضُرِبَ وحُبسَ لذلكَ في أَيَّامِ المنصورِ وغيره .

وقد كانَ في علمِ الحديثِ علىٰ جانبٍ عظيمٍ وكانَ إماماً فيه ؛ فإِنَّهُ أَخذَ الحديثَ عن

أَربعةِ آلافِ شيخٍ مِنْ أَئمَّةِ التَّابعينَ وغيرِهم ، ومِنْ ثمَّ ذكرَهُ الذَّهبيُّ وغيرُهُ في طبقاتِ الحفَّاظِ مِنَ المحدِّثين ، وروى الخطيبُ عن إِسرائيلَ بنِ يونسَ أَنَّهُ كانَ يَحفظُ كل حديثٍ فيهِ فقهٌ وأَشدَّ فحصه عنه .

ورويَ عنِ الإمامِ الشَّافعيِّ أَنَّهُ قال : مَنْ أَرادَ أَنْ يتبحَّرَ بالفقه . . فهوَ عيالٌ علىٰ أَبي حنيفة ، إِنَّهُ ممَّنْ وُفِّقَ لَهُ الفقه .

وروى الرَّبيعُ عنه : اَلنَّاسُ عيالٌ في الفقهِ علىٰ أَبي حنيفة ، ما رأَيتُ ـ أَي : ما علمتُ ـ أَحداً أَفقهَ منه .

وجاءَ عنهُ أَيضاً : مَنْ لَم يَنظرْ في كُتبه . . لَم يتبحَّرْ في العِلمِ ولَم يتفقَّه .

ونُقلَ عنِ الشَّافعيِّ أَنَّهُ صلَّى الصُّبحَ عندَ قبرِهِ فلَم يَقنت ، فقيلَ لَه : لِمَ ؟ قال : تأَدُّباً معَ صاحبِ هـٰذا القبر . وزادَ بعضُهم أَنَّهُ لَم يَجهرْ بالبسملة . نقلَهُ في « ردِّ المحتار » .

وقالَ سفيانُ الثَّوري : أَبو حنيفةَ أَفقهُ أَهلِ الأَرض .

ومِنْ مناقبهِ : أَنَّ امرأَةً جاءَتْهُ وهوَ في الدَّرْس ، فأَلقتْ إِليهِ تفاحةً نصفُها أَحمرُ ونصفُها أَصفر ، فأَخذَها وشقها وأَعادَها إِليها ، ففهمتِ المرأَةُ الجواب ، فسُئلَ عن ذلك ، فقال :

قالت : إِنَّها ترى الحُمرةَ والصُّفرة ، فمتىٰ أَغتسلُ ؟ فقلتُ لَها : حتَّىٰ تري الطُّهرَ الأَبيضَ كبياضِ التُّفاحة .

ومما أَنشدَنيهِ الفاروقيُّ عليهِ الرَّحمةُ لِنَفسهِ قولُهُ في الإمامِ الأَعظمِ مِنْ قصيدة :

يَـا مَـنْ عَـلاَ فِـي الاجْتِهَـادِ مَنَـارُهُ	وَبِـدْرٌ مَـذْهَبِـهِ غَـلا مِقْـدَارُهُ ؟
للهِ دَرُّكَ مِـــنْ إِمَـــامٍ أَعْظَـــمِ	يُعْزَىٰ إِلَىٰ كِسْرَى ٱلْمُلُوكِ نِجَارُهُ ؟
أَنْـتَ الإِمَـامُ الْمُهْتَـدَىٰ وَالْمُقْتَـدَىٰ	وَالْمُجْتَبَـىٰ وَالْمُـرْتَضَـىٰ أَطْـوَارُهُ
صَلَّـىٰ فَـرِيضَـةَ صُبْحِـهِ بِـوُضُـوئِـهِ	وَقْـتَ الْعِشَـا حِينـاً وَذَاكَ شِعَـارُهُ
قَـدْ كَلَّفُـوهُ لِلْقَضَـا فَـأَبَـىٰ وَلَـمْ	يَـرْضَـىٰ وَطَـالَ بِسَجْنِـهِ اسْتِمْـرَارُهُ

فَقَضَىٰ شَهِيداً لاَ عَلَيْهِ وَلاَ لَهُ ... مِنْ أَمْرِهِمْ شَيءٌ يُدَنِّسُ عَارُهُ
لاَ زَالَ نَوْءُ اللُّطْفِ مِنْ بَرَكَاتِهِ ... يُرْوِي ضَرِيحَكَ بِالرِّضَا مِدْرَارُهُ

وثانيهم : السالِكُ أَحسنَ المسالك ، إِمامُ دارِ الهجرة ، مالكُ بنُ أَنسِ بنِ أبي عامرٍ التَّيمي ، وكُنيتُه : أَبو عبدُ اللهِ الأَصبحي .

أَحدُ الأَعلامِ الَّذينَ شيَّدُوا الإِسلام . قالَ السَّفيري : وِلِدَ في خلافةِ الوليدِ بن عبدِ الملكِ سنةَ أَربعٍ وقيل : سنةَ ثلاثٍ وتسعين .

ومناقبُهُ جمَّةٌ أُفردَتْ بالتَّأْليف ، وثناءُ النَّاسِ عليهِ مشهورٌ معروف .

أَخذَ الرِّوايةَ مِنْ تسعِ مئةِ شيخ ، منهُم ثلاثُ مئَةٍ مِنَ التَّابعين ، وستُّ مئةٍ ممَّنْ تابَعَهُم ممَّنِ اختارَهُ وارتضىٰ دينَهُ وفقهَهُ وقيامَهُ بحقِّ شروطِها وسَكنَتِ النَّفسُ إِليه .

ومِنْ أَجَلِّ مناقبه : أَنَّهُ العالِمُ الَّذي بشرَّ بهِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِه : « يَنْقَطِعُ الْعِلْم ، فَلاَ يَبْقَىٰ عَالِمٌ أَعْلَم مِنْ عَالِم الْمَدِينَة » رواهُ التِّرمذيُّ وغيرُه .

وفي حديثٍ آخَر : « لَيْسَ عَلَىٰ ظَهْرِ الدُّنْيَا أَعْلَم مِنْه ، فَتَضْرِبُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الإِبِل » .

وفي لفظٍ آخَر : « يُوشِكُ أَنْ يَضْرِبَ النَّاسُ آبَاطَ الإِبِلِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَلاَ يَجِدُونَ أحداً أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَة » .

فالمرادُ بعَالِمِ المدينةِ في الأَحاديثِ المذكورةِ هوَ الإمامُ مالكٌ كما قالَهُ التَّابعونَ وتابعوهُم ، ولَم يُعرَفْ أَنَّ أَحداً ضُرِبَتْ إِلَيْهِ أَكبادُ الإِبلِ مثلَ ما ضُرِبَتْ إِليه .

قالَ أَبو مصعب : كانَ النَّاسُ يزدحمونَ علىٰ بابِ مالك ، ويَقتتلونَ عليهِ مِنَ الزِّحامِ لِطَلَبِ العلم .

وقالَ يحيىٰ عن شُعبة : دخلتُ المدينةَ سنةَ أَربعٍ وأَربعينَ ومئة ، ومالكٌ أَسودُ الرَّأْسِ واللِّحية ، والنَّاسُ حولَهُ سكوت ، لا يتكلَّمُ أَحدٌ منهُم لَه ، ولا يُفتي أَحدٌ في مسجدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غيره ، فجلستُ بينَ يديه ، فسأَلْتُهُ فحدَّثَني ، فاستزَدْتُهُ فزادني ، ثمَّ غَمزني أَصحابُهُ فسكتُّ .

ومِنْ مناقبه : أَنَّ امرأَةً غسَّلتِ امرأَةً بالمدينةِ في زمنهِ رضيَ اللهُ عنهُ فوضعتِ الغاسلةُ يدَها علىٰ فَرْجِها ـ أَي : فَرْجِ الميتةِ ـ وقالَت : طالَما عصىٰ هـٰذا الفَرْجُ ربه! فالتصقت يدُ الغاسلةِ في فَرْجِها ، فسَأَلوا علماءَ المدينةِ عن أَمرِها ، فبعضُهم قال : تُقطعُ يدُ الغاسلة ، وبعضٌ آخَرُ قال : يُشقُّ فَرْجُ الميتة ، وبعضٌ آخَرُ تحيَّرَ في أَمرِها .

فاستفتي الإمامُ مالك ، فقال : اسئلوا الغاسلة : ما قالَتْ في حقِّ الميتةِ لمَّا وضعت يدَها علىٰ فَرْجِها ؟ فسأَلوها ، فقالَت : قلت : طالما عصىٰ هـٰذا الفَرْجُ رَبَّه! فقالَ مالك : هـٰذا قذف ، اجلِدُوها ثمانينَ جلدةً تخلصْ يدُها ، فجلدوها ذلكَ فتخلَّصت يدُها . فمِنْ ثمَّ قيل : لا يُفتىٰ ومالكٌ في المدينة .

ومِنها : ما قالَهُ عبدُ اللهِ بنُ المبارَك ، قال : كنتُ عندَ مالكٍ وهوَ يُحدِّثُنا حديثَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فلدغتْهُ عقربٌ ستَّةَ عشرَ مرَّةً وهوَ يتغيَّرُ لونُهُ ويَصفرُّ ولا يَقطعُ حديثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فلمَّا تفرَّقَ النَّاسُ عنه . . قلت : يا أَبا عبدِ اللهِ ؛ لقد رأَيتُ اليومَ منكَ عجيباً ؟! قال : نَعَم ، صَبرتُ إِجلالاً لحديثِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وسلَّم .

ولذا رويَ أَنَّهُ كان إِذا أَرادَ أَنْ يُحدِّثَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم . . اغتسلَ وتبخَّرَ وتطيَّب ، فإِذا رفعَ أَحدٌ صوتَه . قال : اخفضْ صوتَك ؛ فإِنَّ اللهَ تعالىٰ يقول : ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ فمَنْ رفعَ صوتَهُ عندَ حديثهِ . . فكأَنَّما رفعَهُ عندَ صوته .

ووجَّهَ هارونُ الرَّشيدُ إِليهِ ليُحدِّثَه ، فقالَ مالك : إِنَّ العِلمَ يُؤْتَىٰ ، فصارَ الرَّشيدُ إِلىٰ منزلهِ واستندَ إِلى الجدار ، فقالَ مالك : يا أَميرَ المؤمنين ؛ مِنْ إِجلالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إِجلالُ العِلمِ . فقامَ وجلسَ بينَ يديهِ فحدَّثَه .

وبعثَ الرَّشيدُ إِلىٰ سفيانَ بنِ عيينة ، فأَتاهُ سفيانُ فقعدَ بينَ يديهِ فحدَّثَهُ وبحث ، فكانَ الرَّشيدُ يقول : يا مالك ؛ تواضَعْنا لِعِلْمِكَ فانتفَعْنا به ، وتواضعَ لَنا عِلمُ سفيانَ فلَم ننتفعْ به .

وكانَ لا يَركبُ دابَّةً في المدينة ، ويقول : أَنا أَستحيي مِنَ اللهِ أَنْ أَطأَ تربةً فيها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بحافرِ دابَّتي .

وقد سعىٰ بهِ الحسَّادُ عندَ بني العبَّاسِ ؛ لقولِهِ بعدَمِ طلاقِ المُكرَه ، فدعاهُ جعفرُ بنُ سليمانَ وقد غضبَ عليه ، ثمَّ جرَّدَهُ وضربَه ، ولمَّا حضرتْهُ الوفاة . . تشهَّدَ ثمَّ قال : للهِ الأَمرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بعد .

فتُوفِّيَ رضيَ اللهُ عنهُ سنةَ تسعٍ وسبعينَ ومئةٍ بالمدينةِ الشَّريفة ، وعمرهُ خمسٌ وثمانونَ سنة ، ودُفنَ ببقيعِ الغرقدِ[1] . نفعنا اللهُ تعالىٰ وإِيَّاكُم بعلومه ، آمين .

وثالثُ الأَئمَّة : محمَّدُ بنُ إِدريسَ بنِ العبَّاسِ بنِ عثمانَ بنِ شافعِ بنِ السَّائبِ بنِ عبيدِ بنِ عبدِ يزيدَ بنِ هاشم بنِ المطَّلبِ بنِ عبدِ منافٍ الشَّافعيُّ القرشي .

ولدَ بمدينةِ غزَّة ، وقيل : بعسقلان ، وقيل : باليمنِ سنةَ خمسينَ ومئة .

وحُمِلَ إِلىٰ مكَّةَ وهوَ ابنُ سَنتين ، وحَفظَ القرآنَ وهوَ ابنُ سبعِ سنين ، وأَذِنَ لَهُ الإِمامُ مالكُ بنُ أَنسٍ بالفتوىٰ وهوَ ابنُ خمسَ عشرةَ سنة .

وكانَ كثيرَ المناقبِ جمَّ المفاخرِ منقطعَ القرين ، اجتمعتْ فيهِ مِنَ العلومِ بالكتابِ ، والسُّنَّةِ ، وكلامِ الصَّحابةِ ، واختلافِ أَقاويلِ العلماءِ ، ومعرفةِ اللُّغةِ والعربيَّةِ . . ما لَم يَجتمعْ في غيره .

قالَ بعضُ العلماء : وقد أَخبرَ بهِ النَّبيُّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ حيثُ قال : « لاَ تَسُبُّوا قُرَيْشاً ؛ فَإِنَّ عَالِمَهَا يَمْلأُ الأَرْضَ عِلْماً » وقد حملَهُ كثيرٌ منهُم على الإِمامِ الشَّافعي ، وحملَهُ بعضُهم على ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما .

قالَ السَّفيري : والشَّافعيُّ مُجدِّدُ رأْسِ المئةِ الثَّانيةِ المشارُ إِليهِ في حديثِ أَبي داوودَ : « يَبْعَثُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ رَأْسِ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لِهَـٰذِهِ الأُمَّةِ أَمْرَ دِينِهَا » فإِنَّهُ ماتَ سنةَ أَربعٍ ومئتين .

---

(١) الغرقدُ ، بالغينِ المعجَمة : العوسجُ . اهـ منه .

وكان رضيَ اللهُ عنهُ يختمُ القرآنَ في كلِّ يومٍ مرّة ، وكانَ يختمُهُ في رمضانَ ستِّينَ مرّة ، كلُّ ذلكَ في الصَّلاة .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ الإمامِ أَحمدَ ابنِ حنبل لأَبيهِ يوماً : يا أَبت ؛ أَراكَ تُكثرُ الثَّناءَ والمدحَ للإمامِ الشَّافعي ، وتُكثرُ الدُّعاءَ لَه ، أَيّ رَجلٍ كانَ الشَّافعي ؟ قالَ لَه : يا بني ؛ كانَ الشَّافعيُّ كالشَّمسِ لِلنَّهار ، وكالعافيةِ لِلنَّاس ، فانظرْ هل لهٰذينِ مِنْ خَلَفٍ أَو عنهُما عِوَض ؟!

وكانت للإمامِ أَحمدَ ابنةٌ صالحة ، تقومُ اللَّيلَ وتصومُ النَّهار ، وتُحبُّ أَخبارَ الصَّالِحينَ ومناقبَ الأَولياءِ الوَرِعين ، وتودُّ أَنْ ترى الشَّافعي ، فاتَّفقَ أَنَّ مبيتَ الشَّافعيّ عندَ أَبيها في بغداد ، ففرحَتِ البنتُ بذلكَ طَمعاً أَنْ ترىٰ أَفعالَهُ وتسمعَ مقالَه ، فلمَّا كانَ اللَّيل . . قامَ أَبوهَا الإمامُ أَحمدُ إِلى وظيفتهِ مِنْ صَلاةٍ وتهجُّدٍ وذِكْر ، والإمام الشَّافعيُّ مُسْتَلقٍ علىٰ ظَهره ، والبنتُ تَرْقُبُهُ إِلى الفجر ، فقالت لأَبيها : يا أَبت ؛ أَنتَ تُعظِّمُ الشَّافعيَّ وما رأَيتُ لَهُ في هٰذهِ اللَّيلةِ لا صَلاةً ولا ذِكراً ولا ورداً . فبينما هُما في الحديثِ إِذْ قامَ الإمامُ الشَّافعي ، فقالَ لَهُ الإمامُ أَحمد : كيفَ كانت ليلتُكَ ؟ فقال : ما بتُّ ليلةً أَطيبَ ولا أَبركَ ولا أَربحَ مِنها ، فقال : كيفَ ذلكَ ؟ قال : لأَنّي رتَّبتُ في هٰذهِ اللَّيلةِ مئةَ مسألةٍ وأَنا مستلقٍ علىٰ ظَهري ، والكلُّ فيما يَنفعُ المسلمين . ثمَّ ودَّعَهُ ومضىٰ ، فقالَ الإمامُ أَحمدُ لابنته : هٰذا عَملُهُ اللَّيلةَ وهوَ نائمٌ أَفضلُ مِنَ الَّذي عَمِلْتُهُ وأَنا قائم .

وقَدِمَ بغدادَ سنةَ خمسٍ وتسعينَ ومئة ، فأَقامَ بها سَنتينِ ثم خرجَ إِلىٰ مكَّة ، ثمَّ عادَ إِلىٰ بغدادَ سَنةَ ثمانٍ وتسعينَ ومئةٍ فأَقامَ بها شهراً ، ثمَّ خرجَ إِلىٰ مصرَ ولَم يَزلْ بها إِلىٰ أَنْ تَوفِّيَ يومَ الجمعةِ آخِرَ يوم مِنْ رجبَ سنةَ أَربعٍ ومئتين ، ودُفنِ بالقرافةِ الصُّغرىٰ بمصرَ المحروسة ، وقبرُهُ مشهور ، وعلىٰ قبرِهِ قبَّةٌ وعلى القُبَّةِ هيئةُ سفينةٍ مِنْ نحاس ، وقد قالَ فيها بعضُ الأَفاضل :

أَتَيْتُ لِقَبْرِ الشَّافِعِيِّ أَزُورُهُ ... فَعَارَضَنِي فُلْكٌ ومَا عِنْدَهُ بَحْرُ
فَقُلْتُ : تَعَالَى اللهُ تِلْكَ إِشَارَةٌ ... إِلىٰ أَنَّ هٰذا الْبَحْرَ قَدْ طَمَّهُ الْقَبْرُ

ولقد أَحسنَ ابنُ دريدٍ في مرثيَّتِهِ حيثُ يقول :

أَلَـمْ تَـرَ آثَـارَ ابْـنِ إِدْرِيـسَ بَعْـدَهُ ... دَلاَئِلُهَـا فِـي الْمُشْكِـلاَتِ لَـوَامِـعُ

مَعَـالِـمُ يَفْنَـى الـدَّهْـرُ وَهْـيَ خَـوَالِـدٌ ... وَتَنْخَفِـضُ الأَعْـلاَمُ وَهْـيَ رَوَافِـعُ

لِـرَأْيِ ابْـنِ إِدْرِيـسَ ابْـنِ عَـمِّ مُحَمَّـدٍ ... ضِيَاءٌ إِذا مَا أَظْلَمَ الْخَطْبُ سَاطِعُ

أَبَـى اللهُ إِلاَّ رَفْعَـهُ وَعُلُـوَّهُ ... وَلَيْسَ لِمَا يُعْلِيهِ ذُو الْعَرْشِ وَاضِعُ

سَـلاَمٌ عَلَـىٰ قَبْـرٍ تَضَمَّـنَ جِسْمَـهُ ... وَجَادَتْ عَلَيْهِ المدجناتُ الْهَوَامِعُ

لَئِـنْ فَجَعَتْنَـا الْحَـادِثَـاتُ بِشَخْصِـهِ ... لَهُـنَّ لِمَـا حَكَّمْـنَ فِيـهِ فَـوَاجِـعُ

فَـأَحْكَـامُـهُ فِينَـا بُـدُورٌ زَوَاهِـرُ ... وَآثَـارُهُ فِينَـا نُجُـومٌ طَـوَالِـعُ

ورابعُ الأئمَّةِ المجتهدين : الإمامُ أَبو عبدِ الله ، أَحمدُ بنُ محمَّدِ بنِ حنبل ، المتَّصلُ نسبُهُ بعدنانَ الشَّيبانيِّ المروزيِّ الأَصل .

خرجَتْ أُمُّهُ مِنْ مروَ وهيَ حاملٌ بهِ ، فوَلَدَتْهُ في بغدادَ في شهرِ ربيعِ الأَوَّلَ سنةَ أَربعٍ وستِّينَ ومئة .

وقيل : إِنَّهُ وُلِدَ بمرو ، وحُمِلَ إِلىٰ بغدادَ وهوَ رضيع ، وتُوفِّيَ أَبوهُ وهوَ طفل ، ونشأَ ببغدادَ وطَلَبَ بها العِلمَ والحديثَ مِنْ شيوخِها ، ثمَّ رحلَ بعدَ ذلكَ في طلبِ العِلمِ للبلاد ؛ كالكوفةِ والبصرة ، والمدينةِ والشَّام ، واليمنِ والجزيرة ، وكتبَ عن علماءِ كلِّ بلد ، وقال : أَوَّلُ مَنْ كتبتُ عنهُ الحديثَ أَبو يوسف .

ومشايخُهُ كثيرون ، ومِنْ أَجلِّهم : الإمامُ الشَّافعي ، وممَّا يُنسَبُ لَهُ فيه :

قَـالُـوا : يَـزُورُكَ أَحْمَـدٌ وَتَـزُورُهُ ... قُلْت : اَلْفَضَائِلُ مَا تَعَدَّتْ مَنْزِلَهْ

إِنْ زَارَنِـي فَبِفَضْلِـهِ أَوْ زُرْتُـهُ ... فَلِفَضْلِهِ فَالْفَضْلُ فِي الْحَالَيْنِ لَهْ

قالَ الدَّميري : وحُكيَ أَنَّ الشَّافعيَّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ لمَّا حضرَ في مصر . . رأَىٰ في المنامِ سيِّدَ المرسلينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يقولُ لَه : بَشِّرْ أَحمدَ ابنَ حنبل بالجنَّةِ علىٰ بلوىً تُصيبُه ؛ فإِنَّهُ يُدعىٰ إِلى القولِ بخَلقِ القرآنِ فلا يُجيبُ إِلىٰ ذلك ، بل يقول :

هوَ منزَّلٌ غيرُ مخلوق . فلمَّا أَصبحَ الشَّافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ كتبَ صورةَ ما رأَىٰ في منامهِ وأَرسلَهُ معَ الرَّبيعِ إِلىٰ بغدادَ إِلى الإِمامِ أَحمدَ رحمهُ اللهُ تعالىٰ فلمَّا وصلَ بغداد . . قصدَ منزلَ أَحمدَ واستأذنَ عليهِ فأَذِنَ لَه ، فلمَّا دخلَ عليه . . قالَ لَه : هـٰذا كتابُ أَخيكَ الشَّافعي ، فقالَ لَه : هل تعلمُ ما فيهِ ؟ قال : لا ، ففتحَهُ ، وقرأَهُ ، وبكىٰ ، وقال : ما شاءَ الله ، لا قوَّةَ إِلاَّ بالله ، ثمَّ أَخبرَهُ بما فيه ، فقال : الجائزة ، وكانَ عليهِ قميصانِ أَحدُهُما علىٰ جسدِهِ والآخَرُ فوقَه ، فنزعَ الَّذي علىٰ جسدِهِ ودفعَهُ إِلَيه ، فأَخذَهُ ورجعَ إِلى الشَّافعي ، فقالَ لَهُ الشَّافعي : ما أَجازك ؟ قال : أَعطاني القميصَ الَّذي علىٰ جسده ، فقالَ لَه : أَمَّا أَنا فلا أَفجعُكَ فيه ، ولـٰكنِ اغسلهُ بمائه ، فغسلَهُ وأَتاهُ بالماء ، فأَفاضَهُ علىٰ سائرِ جسدِهِ . اهـ

وقالَ حرملةُ بنُ يحيىٰ : سمعتُ الشَّافعيَّ يقول : خرجتُ مِنْ بغدادَ وما خلَّفتُ فيها أَحداً أَورعَ ولا أَتقىٰ ولا أَفقهَ ـ وأَظنُّهُ قال : ولا أَعلمَ ـ مِنْ أَحمدَ ابنِ حنبل .

وقالَ عليُّ بنُ المديني : إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَعزَّ هـٰذا الدِّينَ برَجُلَيْنِ ليسَ لهما ثالث ، أَبو بكرٍ الصِّديقُ يومَ الرِّدَّة ، وأَحمدُ ابنُ حنبل يومَ المحنة .

قالَ أَبو زرعة : كانَ أَحمدُ يَحفظُ أَلفَ أَلفِ حديث .

وقالَ الإِمامُ أَحمد : ما كتبتُ حديثاً عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . إِلاَّ وقد عملتُ به .

وقد دُعِيَ إِلى القولِ بخَلْقِ القرآنِ فلَمْ يُجب ، وضُرِبَ وحُبِسَ وهوَ مُصِرٌّ على الامتناع .

وقد أَخذَ عنهُ جماعةٌ مِنَ الأَماثلِ والمُحدِّثينَ الأَفاضل ، منهُم : محمَّدُ بنُ إِسماعيلَ البخاري ، ومسلمُ بنُ الحجَّاجِ النَّيسابوري .

وقالَ غيرُ واحدٍ مِنَ العلماء : إِذا رأَيتَ الرَّجُلَ يُحبُّ أَحمدَ ابنَ حنبل . . فاعلَمْ أَنَّهُ صاحبُ سُنَّة ، ومَنْ ذكرَهُ بسوء . . فهوَ صاحبُ بدعةٍ وسوءِ عقيدة .

وفي ذلكَ قالَ مزاحم :

لَقَدْ صَارَ فِي الآفَاقِ أَحْمَدُ مِحْنَةً ... وَأَمْرُ الْوَرَىٰ فِيهَا فَلَيْسَ بِمُشْكِلِ
تَرَىٰ ذَا الْهَوَىٰ جَهْلاً لأَحْمَدَ مُبْغِضاً ... وَتَعْرِفُ ذَا التَّقْوَىٰ بِحُبِّ ابْنِ حَنْبَلِ

وقالَ ابنُ أَعين :

أَضْحَى ابْنُ حَنْبَلَ مِحْنَةً مَأْمُونَةً ... وَبِحُبِّ أَحْمَدَ يُعْرَفُ الْمُتَنَسِّكُ
وَإِذا رَأَيْتَ لأَحْمَدٍ مُتَنَقِّصاً ... فَاعْلَمْ بِأَنَّ سُتُورَهُ سَتُهَتَّكُ

وقد توفِّيَ ضحوةَ نهارِ الجمعةِ لثنتي عشرةَ ليلةً خَلَتْ مِنْ شهرِ ربيعِ الأَوَّل ، سنةَ إِحدىٰ وأَربعينَ ومئتين ، ببغداد ، ودُفِنَ بمقبرةِ باب حرب ، وقدِ استولَتْ دجلةُ علىٰ جميعِ هٰذهِ المقبرةِ بحيثُ لَم يبقَ لَهَا أَثرٌ الآن .

وقد حضرَ جنازَتَهُ مِنَ الرِّجالِ أُلوفٌ كثيرةٌ وكذلكَ مِنَ النِّساء ، وأَسلمَ يومَ موتِهِ عددٌ كثيرٌ مِنَ النَّصارىٰ واليهودِ والمجوس .

ورُؤِيَ بعدَ موتِهِ برؤياتٍ عديدةٍ تدلُّ علىٰ حالةٍ حميدة ، نفعنا اللهُ تعالىٰ وإِيَّاكُم بعلومِهِ الشَّريفة ، وجعلَنا مِنَ المتَّبعينَ لأَقوالِ الأَئمَّةِ ولا سيَّما أَقوالِ أَبي حنيفة ؛ فإِنَّ هٰؤلاءِ المجتهدينَ هُمُ الَّذينَ أَوصَلوا إِلَينا أَقوالَ سيِّدِ المرسلينَ عليهِ أَفضلُ صلاةِ المصلِّين ، فليسَ لأَحدٍ الآنَ غنىً عن اتِّباعِ أَقوالِهِم والتَّمسُّكِ بأَسبابِهِم ، والتَّقليدِ لِما نقَّحوهُ والاتِّباعِ لِمَا رجَّحوه ، فجزاهُمُ اللهُ تعالىٰ عنِ الإِسلامِ وأَهلهِ خيرَ الجزاء ، وحشرَنا وإِيَّاهُم تحتَ لواءِ خاتَمِ الأَنبياء .

وعليكُم ـ إِخواني ـ بالحذرِ مِنَ الزَّلَل ، والاحتقارِ للعمل ، فلَو رأَيتُم أَربابَ القلوبِ والأَسرار ، وقد أَخذوا أُهبةَ التَّعبُّدِ في الأَسحار ، وقاموا في مقامِ الخوفِ علىٰ قدمِ الانكسار ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ .

عقدوا عزمَ الصِّيامِ وما جاءَ النَّهار ، وَسَجنوا الأَلسنةَ فليسَ فيهِم مهذار ، وغَضّوا أَبصارَهُم ولازَموا غضَّ الأَبصار ، فانظرْ مدحَهُم إِلىٰ أَينَ انتهَىٰ وصار ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ .

أَحزانُهُم أَحزانُ ثَكلىٰ ما لَها اصطبار ، ودموعُهم لولا التَّحرِّي لَقُلْت : كالأَنهار ، ووجوهُهم مِنَ الخوفِ قد علاها الصَّفار ، والقلقُ قد أَحاطَ بالقومِ ودار ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ .

جَدُّوا في انطلاقِهم إِلىٰ خلاَّقهم ، وراضوا أَنفُسَهُم بتحسينِ أَخلاقِهم ، فإِذا بِهم قد أَذابهُم كربُ اشتياقِهم ، أَتدري ما الَّذي حبسكَ عن لحاقِهم ؟ حبُّ الدّرهمِ والدِّينار .

يا غافلاً طولَ دهرِهِ عن مرِّ يومهِ وشَهره ، يا مُوعَظاً في سرِّهِ وجهرِهِ بجافِّ النَّباتِ وزهره ، يا عصفوراً لا بدَّ مِنْ ذبْحِه ، وتخريبِ وكره ، ثمَّ لا يجولُ ذلكَ علىٰ فِكرِه ؛ متىٰ يفيقُ سكرانُ الهوىٰ مِنْ سُكرِه ؟ فلَو تفكَّرَ حقَّ التَّفكُّرِ في نَشْرِه . . لَمْ يَبِعْ ثَوباً ولَم يَشرِه .

مضى الزَّمانُ في مدِّ اللَّهوِ وضررِه ، وما حظيَ المقصِّرُ المُفرِطُ بغيرِ وِزْرِه :

حَيَـاةٌ وَمُـوتٌ وَانْتِظَـارُ قِيَـامَـةٍ ثَـلاَثٌ أَفَـادَتْنَـا أُلُـوفَ مَعَـان

إِخواني ؛ أَيَّامكُم قلائل ، وأَهواؤُكم قواتل ، فليعتبرِ الأَواخرُ بالأَوائل .

أَينَ مَنْ يُوقنُ أَنَّهُ لا شكَّ راحل ، ومالَهُ زادٌ ولا رواحل ؟ هلاَّ تنبَّهتَ مِنْ رقادٍ شامل ، وحَضَرْتَ المواعظَ بقلبٍ قابل ، وقُمتَ في الدُّجا قيامَ عاقل ، وكتبتَ بالدُّموعِ سطورَ الرَّسائل ، وبعثتَها في سفينةِ سائل ، لعلَّها تُرسي بساحلِ هَل مِنْ سائل ؟

فأَفِقْ مِنْ سكرتِكَ قَبْلَ حسرتِك ، وتذكَّر نزولَ حضرتكَ وهجرانَ قرابتِكَ ورُفقتِك .

فبادِرْ إِلىٰ تحصيلِ العفوِ قَبْلَ فوتِ المطالب ، وانهَضْ عن بساطِ الوَنَىٰ وقُل : إِلـٰهي . . أَنا تائب :

إِلَى اللهِ تُبْ قَبْلَ انْقِضَا زَمَنِ العُمْرِ أُخَـيَّ ، وَلاَ تَـأْمَـنْ مُسَـارَرَةَ الـدَّهْـرِ
لَقَـدْ حَـدَّثَتْـكَ الْحَـادِثَـاتُ نُـزُولُهَـا وَنَـادَتْـكَ إِلاَّ أَنَّ سَمْعَـكَ ذُو وَقْـرِ
تَنُـوحُ وَتَبْكِـي لِـلأَحِبَّـةِ إِذْ مَضَـوْا وَنَفْسَكَ لاَ تَبْكِي وَأَنْتَ عَلَى الإِثْرِ

فيا حاملاً مِنَ الذُّنوبِ أَثقالاً ، يا مرسلاً عنانَ لهوِهِ في ميدانِ زهوهِ إِرسالاً ؛ قِفْ

وقوفَ المنكسرِينَ وتَبتَّل ، واستشعرِ الخضوعَ واستجلبِ الدُّموعَ واحتل ، واغسلْ بمياهِ الحسراتِ أَنجاسَ الخطيآت ، واعتذرْ إلىٰ مولاكَ وتُبْ مِنْ خطاياك ، واحذر سَهْمَ الغضبِ أَنْ يُصيبَ المقتل ، والجأْ إلىٰ مولاكَ في خلاصِكَ واسأَل :

أَيَـا سَيِّـدِي مَـا هَفْـوَتِـي بِغَـرِيبَـةٍ إِلَيْـكَ وَلاَ غُفْـرَانُهَـا بِطَـرِيـفِ
فَـإِنْ تَقْبَـلِ الْعَبْـدَ الضَّعِيـفَ تَطَـوُّلاً فَـإِنَّ رَجَـائِـي فِيـكَ غَيْـرُ ضَعِيـفِ

اللَّهُم ؛ وفِّقنا لِلتَّوبةِ والإِنابة ، وافتحْ لأَدعيتِنا أَبوابَ الإِجابة ، يا مَنْ إذا سأَلَهُ المضطَّر . . أَجابَه .

اللَّهُم ؛ أَنتَ المدعوُّ بكلِّ لسان ، والمقصودُ في كلِّ آن ، أَنتَ قلت : ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فها نحنُ متوجِّهونَ إِليك ، فلا تردَّنا واستجِبْ لَنا كما وعدتَنا .

اللَّهُم ؛ أَذِقْنَا بَرْدَ عفوِك ، وحلاوةَ مغفرتِك ، ونزِّهْ قلوبَنا عنِ التَّعلُّقِ بمَنْ دونَك ، واجعلْنا مِنْ قومٍ تُحبُّهم ويُحبُّونَك ، وأَعطِنا ما لا عينٌ رأَت ، ولا أُذنٌ سمعَت ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشر .

اللَّهُم ؛ اعصِمنا مِنْ شرِّ الفتن ، وعافِنا في الدَّارَينِ مِنْ جميعِ المحَن ، وأَصلحْ مِنَّا ما ظهرَ وما بطن ، وأَلحِقْنا بالصَّالِحين ، وارحَمْ كافَّةَ المسلمين .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وآلهِ أَجمعين .

* * *

المجلس الثالث والثلاثون
في التَّقوىٰ والمودة بين المسلمين

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ خالقِ الجامدِ والحسَّاس ، ومُبدعِ الأَنواعِ والأَجناس ، القويّ في سلطانهِ الشَّديدِ الباس ، اَلمنزَّهِ عنِ السِّنَةِ والنُّعاس ، المخرِجِ رطبَ الثِّمارِ مِنْ يابسِ الأَغراس ، نفذَ قضاؤُهُ فَلمْ يُمنَعْ باحتراس ، لا يَعزُبُ[1] عن سمعهِ ما تجترحُهُ الحواس ، ولا دبيبُ ذرٍّ باللَّيلِ في مطاوي قرطاس ، نفذتْ مشيئتُهُ فكُمْ مجتهد عادَ بالياس ، يفعلُ ما يريدُ لا بمقتضىٰ تدبيرِ الخلقِ والقياس ، قدَّمَ نبيَّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ كلِّ نبيٍّ دبَّرَ وساس ، فسبحانَ مَنْ أَجزلَ لَهُ العطا ، وجعلَهُ خيرَ نبيٍّ حاربَ وسَطاً ، وقالَ لأُمَّته : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ .

أَحمدُهُ حمداً يدومُ بدوامِ اللَّحظاتِ والأَنفاس ، وأُصلِّي علىٰ رسولهِ محمَّدٍ الَّذي شرعُهُ مستقرٌّ ثابتُ الأَساس ، وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ الثَّابتِ العزمِ وقدِ ارتدَّ النَّاس ، وعلىٰ عمرَ قاهرِ الجبابرةِ الأَشراس[2] ، وعلىٰ عثمانَ الصَّابرِ يومَ الشَّهادةِ علىٰ مريرِ الكاس ، وعلىٰ عليٍّ أَهدى الجماعةِ إِلىٰ نصٍّ أَو قياس ، الواجبة طاعتُهُ على العينِ والرَّاس .

أَمَّا بعد : فقد قالَ اللهُ في كتابهِ الكريم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ

---

(١) لا يعزب : لا يتباعد ولا يغيب .

(٢) الأَشرسُ : اَلجريءُ في القتالِ والأَسدُ كالشَّريسِ قالَهُ في « القاموس » اهـ منه .

يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ .

فنقولُ ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ : الكلام على هـٰذهِ الآياتِ الكريماتِ يشتملُ علىٰ فصول :

الفصلُ الأوَّل : قولُهُ تعالىٰ : ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ مِنْ بابِ إضافة الصِّفةِ إلىٰ موصوفها ؛ إذِ الأَصل : اتَّقوا اللهَ التّقاةَ الحق ؛ أَي : الثَّابتة . وتقاةٌ مصدر .

والتّقاةُ الحق : التّقوى الّتي تحقُّ لَهُ تعالىٰ ، وهي : أَنْ لا يتركَ العبدُ شيئاً ممَّا يلزمُهُ فِعلُه ، ولا يفعلَ شيئاً ممَّا يَلزمُه تركُه ، ويبذلَ في ذلكَ جهدَهُ ومستطاعَه .

وفي « روحِ المعاني » : روىٰ غيرُ واحدٍ عنِ ابنِ مسعودٍ [رضي الله عنه] موقوفاً ومرفوعاً ، هو : « أَنْ يُطَاعَ فَلاَ يُعْصَىٰ ، وَيُذْكَرَ فَلاَ يُنْسَىٰ ، وَيُشْكَرَ فَلاَ يُكْفَر » .

وادَّعىٰ كثيرٌ نَسْخَ هـٰذهِ الآية ، فعن سعيدِ بنِ جبيرٍ قال : لمَّا نزلَت . اشتدَّ على القومِ العمل ، قاموا حتَّىٰ وَرِمَتْ عراقيبُهم[1] وتقرَّحَتْ جباهُهم ، فأَنزلَ اللهُ تعالىٰ تخفيفاً على المسلمين : ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فنُسختِ الأُولىٰ .

وفي إحدى الرِّوايتَينِ عنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قال : لَم تُنْسَخ ، ولـٰكن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أَنْ يُجاهدوا في اللهِ حقَّ جهاده ، ولا تأْخذَهُم في اللهِ لومةُ لائم ،

(١) العُرقوبُ ـ بالضَّمِّ ـ : عصبٌ غليظ فوقَ عَقِبِ الإنسانِ وجمعُهُ عراقيبُ . اهـ منه .

ويَقوموا للهِ سبحانَهُ بالقِسطِ ولَو علىٰ أَنفُسهِم وآبائِهم وأُمَّهاتِهم[اهـ] .

وفي « تحفةِ الإِخوان » : التَّقوىٰ : امتثالُ الأَوامر ، واجتنابُ المناهي ، ولَها ثلاثُ مراتب :

الأُولىٰ : التَّوقيِّ مِنَ العذابِ المخلَّدِ بالتَّبرِّي مِنَ الشِّرك ، وعليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ .

وَالثَّانية : التَّجنُّبُ عن كلِّ ما يُؤْثمُ مِنْ فعلٍ أَو تَرْك ، حتَّى الصَّغائر عندَ قوم . وهٰذا التَّجنُّبُ هوَ المتعارفُ بالتَّقوىٰ في الشَّرع ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ وعلىٰ هٰذا قولُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنهُ : التَّقوىٰ : تَرْكُ ما حرَّمَ الله ، وأَداءُ ما افترضَ الله ، فما رَزقَ اللهُ بعدَ ذلك . . فهوَ خيرٌ إِلىٰ خير .

وَالثَّالثة : أَنْ يتنزَّهَ عمَّا يَشغلُ سرَّهُ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وهٰذهِ هيَ التَّقوى الحقيقيَّةُ المطلوبةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ .

وقالَ ابنُ عمر رضي الله عنهما : التَّقوىٰ : أَنْ لا ترىٰ نَفْسَكَ خيراً مِنْ أَحد .

وقد بيَّنَ اللهُ تعالىٰ أَنَّ التَّقوىٰ خيرُ لباس ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ .

وقالَ الشَّاعر :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَاباً مِنَ التُّقَىٰ ... تَقَلَّبَ عُرْيَاناً وَلَوْ كَانَ كَاسِيَا
فَخَيْرُ خِصَالِ الْعَبْدِ طَاعَةُ رَبِّهِ ... وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ للهِ عَاصِيَا

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ قالَ بعضُ المفسِّرين : الذُّرِّيَّةُ الضِّعافُ هُنَّ البنات ، فتقوى الأُصول تنفعُ الفروع ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ قيل : كانَ عاشرَ جدٍّ لأُمٍّ . انتهىٰ

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أَي : مخلِصونَ نفوسَكُم للهِ عزَّ وجل ، لا تجعلونَ فيها شركةً لِسواهُ أَصلاً .

وقرأَ أَبو عبدِ الله (مسلِّمون) بالتَّشديد[1] ، ومعناه : مستسلمونَ لِما أَتىٰ بهِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منقادونَ له .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ . . . ﴾ قالَ الوالدُ عليه الرَّحمة : أَي : القرآن .

ورويَ بسندٍ صحيحٍ عنِ ابنِ مسعود رضي الله عنه ، وأَخرجَ غيرُ واحدٍ عن أَبي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « كِتَابُ اللهِ هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلى الأَرْض » .

وأَخرجَ أَحمدُ عن زيدِ بنِ ثابت قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ خَلِيفَتَيْن : كِتَابُ اللهِ ؛ حَبلٌ ممدودٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْض ، وَعِتْرَتِي ؛ أَهْلُ بَيْتِي ، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَتفَرَّقَا حَتَّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْض » . ووردَ بمعنىٰ ذلكَ أَخبارٌ كثيرة .

وقيل : المرادُ بحبلِ الله : الطَّاعةُ والجماعة .

وقيل : إِنَّهُ الإِخلاصُ للهِ تعالىٰ وحدَه .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ أَي : بعدَ الإِسلامِ كما تفرَّقتِ اليهودُ والنَّصارىٰ ، أَو كما كنتُم في الجاهليَّةِ متدابرين .

وقيل : لا تتَّخِذوا ما يكونُ عنهُ التَّفرُّقُ ويزولُ معَهُ الاجتماع ، وقد نهىٰ سبحانَهُ وتعالىٰ عنِ التَّفرُّقِ في الدِّينِ ، وعنِ التَّدابُرِ ، والتَّنازُع بينَ المسلمين في آياتٍ كثيرةٍ مِنْ كتابهِ المبين ، فقالَ عزَّ مِنْ قائل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ .

وأَخرجَ ابنُ ماجَه عن عوفِ بنِ مالك قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم :

(١) وهي قراءة شاذة .

« اِفْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ إحدىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَة ، فَوَاحِدَةٌ في الْجَنَّةِ ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَىٰ علىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَة ، فَإِحْدَىٰ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّة ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه . . لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَة ، وَاحِدَةٌ فِيَ الْجَنَّةِ ، وَثِنْتَانِ وَسبْعُونَ فِي النَّار » قيل : يا رسولَ الله ؛ مَنْ هُم ؟ قال : **الجماعة** .

وفي رواية : قيلَ له : ما الواحدة ؟ قال : « مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي » .

ثمَّ إنَّ هٰذا الاختلافَ المذمومَ محمول ـ كما قيل ـ على الاختلافِ في الأُصولِ دونَ الفروع ، واستُدلَّ علىٰ ذلكَ بقولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام « اخْتِلاَفُ أُمَّتِي رَحْمَة » وبقولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَهْمَا أُوتِيتُمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ فَالْعَمَلُ به ، لاَ عُذْرَ لأَحَدٍ فِي تَرْكِه ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ الله . . فَسُنَّةٌ مِنِّي مَاضِيَة ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ سُنَّةٌ مِنِّي . . فَمَا قَالَ أَصْحَابِي ، إِنَّ أَصْحَابِي بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ فَأَيَّمَا أَخَذْتُمْ بِهِ اهْتَدَيْتُم ، وَاخْتِلاَفُ أَصْحَابِي لَكُمْ رَحْمَة » وأرادَ بهِم صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خواصَّهم البالغينَ رتبةَ الاجتهاد .

وفي حديثِ العرباضِ رضي الله عنه المتقدِّم في بعضِ الدُّروسِ الماضية : « فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّين ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّواجِذ ، وإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُور ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَة ، وكُلُّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّار » .

وليُعلَمْ أَنَّهُ سبحانَهُ وتعالىٰ قد أَمرَ أَيضاً في آياتٍ وفيرةٍ على اتِّفاقِ المسلمينَ وعدمِ شقاقِهم ، وحضَّ علىٰ موالاةِ بعضِهم لبعض ، وكذا نبيُّهُ الكريمُ عليهِ أفضلُ الصَّلاةِ والتَّسليم ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾[1] .

---

(١) وفي « الجامع الصَّغير » عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لاَ تُمَارِ أَخاكَ » أي : لا تُخاصمه « وَلاَ تُمَازِحْه » أي : بما يتأذَّىٰ به « وَلاَ تَعِدْهُ مَوْعِداً فَتُخْلِفُه » انتهىٰ .

ورَوىٰ أيضاً عن أنس : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّىٰ يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِه » وفي روايةٍ أُخرىٰ لمسلم : « حَتَّىٰ يُحِبَّ لِجَاره » اهـ منه .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « لاَ تَبَاغَضُوا ، ولا تحاسدوا ،[ولاتدابروا] وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانا » . وفي الأَثر : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً » ومِصداقُ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ .

قالَ العلماء : فينبغي للمسلِمينَ ويجبُ على الموحِّدينَ أَنْ تتحاببَ قلوبُهم وتتَّفقَ كلمتُهم وتتحدَّ فِرقُهُم لإعلاءِ كلمةِ اللهِ تعالىٰ ، وأَنْ يَجتمعوا علىٰ طاعةِ خليفةِ رسولِ الله ، وأَنْ يُطيعوا سلطانَ المسلمينَ ويَنقادوا لأَميرِ المؤمنين .

قلت : ولا سيّما في هـٰذا الزَّمنِ الَّذي كثُرَتْ فيهِ على المسلمينَ البلايا والمِحَن ، فالواجبُ علىٰ كافَّةِ أَهل الإِسلامِ اتّحادُهم في طاعةِ وليِّ الأَنامِ وظلِّ اللهِ على الخاصِّ والعام ، حضرة مولانا أَميرِ المؤمنين ، السُّلطانِ الأَعم ، شمسِ سماءِ بني عثمان : السُّلطان عبد الحميد خان ، ابنِ السُّلطانِ المبرورِ عبد المجيد خان ، وفَّقَهُ اللهُ تعالىٰ لِلخير الأَتم ، وأَيَّدَهُ بنصرِهِ الأَعم ، وأَدامَ دَولتَهُ وأَعزَّ رعيَّتَه ، وجَعَلَ ملوكَ الأَرضِ كلَّهُم تحتَ لوائه ، وأَظهرَهُ علىٰ حُسادِهِ وأَعدائه ، آمين .

الفصلُ الثَّاني : قد أَمرَ سبحانَهُ وتعالىٰ في هـٰذهِ الآياتِ بالدُّعاءِ إِلى الخير ، وهوَ ما فيهِ صلاحٌ دينيٌّ ودنيوي .

فعطفَ الأَمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عنِ المنكرِ عليهِ في قولهِ سبحانَه : ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ مِنْ باب عَطْفِ الخاصِّ على العام ، كما قيل .

وقد وردت أَحاديثُ كثيرةٌ في الحثِّ علىٰ ذلك ، فلنذكر بعضَ ما يتعلَّقُ بما هنالك :

قالَ العلماءُ رحمهُم اللهُ تعالىٰ : مِنَ الكبائرِ تَرْكُ الأَمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ .

وروىٰ مسلم وغيرُهُ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « منْ رأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَراً . . فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِه ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِع . . فَبِلِسَانِه ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِع . . فَبِقَلْبِهِ وَذلكَ أَضْعَفُ الإِيمَان » .

وأَخرجَ أَحمد وأَبو يعلىٰ عن درَّةَ بنتِ أَبي لهب ، قالَت : سُئِلَ رسولُ الله : مَنْ خيرُ النَّاس ؟ قال : « آمَرُهُم بِالْمَعْرُوف ، وأَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَر ، وأَتْقَاهُم لله ، وأَوْصَلُهُم لِلرَّحِم » .

وفي « روحِ المعاني » : روى الحسن :« مَنْ أَمرَ بالمعروفِ ونهىٰ عنِ المنكر . . فهوَ خليفةُ اللهِ ، وخليفةُ رسولهِ صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وسلَّمَ ، وخليفةُ كتابه » .

وروىٰ « لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ، أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ظَالِماً لاَ يُجِلُّ كَبِيرَكُم وَلاَ يَرْحَمُ صَغِيرَكُم ، وَيَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُم ، وتَسْتَنْصِرُونَ فلا تُنْصَرُون » .

ورويَ في « تبيينِ المحارم » عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَنَّهُ قال : « مَا مِنْ قَوْم عَمِلُوا بِالْمَعَاصِي وَفِيهِمْ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يُنْكِرَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَفْعَل . . إِلاَّ يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُم بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِه » .

وفي رواية : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَىٰ يَدَيْه . . أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِه » . رواهُ أَبو داوود وغيرُه .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُل ، فَيَقُول : يَا هٰذَا ؛ اتَّقِ اللهَ وَدَعْ مَا تَصْنَع ، فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَك ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ عَلَىٰ حَالِهِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَه ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذلِك . . ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْض » ثمَّ قال : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ إلى قوله ﴿ فَٰسِقُونَ ﴾ .

وروى الأَصبهانيُّ أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قال : « يَا أَيُّهَا النَّاس ؛ مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا اللهَ فَلاَ يَسْتَجِيبَ لَكُم ، وَقَبْلَ أَنْ تَسْتَغْفِرُوا فَلاَ يُغْفَرَ

لَكُم ، إنَّ الأَمْرَ بالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لاَ يَدْفَعُ رِزْقاً وَلاَ يُقَرِّبُ أَجَلاً ، وَإِنَّ الأَحْبَارَ مِنَ الْيَهُودِ وَالرُّهْبَانَ مِنَ النَّصارىٰ لَمَّا تركُوا الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَر . . لَعَنَهُمُ اللهُ عَلَىٰ لِسَانِ أَنْبيَائِهِم ، ثُمَّ عَمَّهُمُ الْبَلاَء » .

وروى الأصبهاني ـ أيضاً ـ عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَنَّهُ قال : « لاَ تَزَالُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ تَنْفَعُ مَنْ قَالَهَا وَتَرُدُّ عَنهُمُ الْعَذَابَ وَالنِّقْمَةَ مَا لَمْ يَسْتَخِفُّوا بِحَقِّهَا » قالوا : يا رسولَ الله ؛ وما الاستخفافُ بحقِّها ؟ قال : « يَظْهَرُ الْعَمَلُ بِمَعَاصِي اللهِ فَلاَ يُنْكَرُ وَلاَ يُغَيَّر » .

ورویٰ أَبو ثعلبةَ الخشنيّ رضي الله عنه أَنَّهُ سأَلَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ فقال : « بَل ائْتَمِرُوا ؛ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَر ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً ، وَهَوىً مُتَّبَعاً ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِه . . فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامّ » .

قال : « وَأَوْحَى اللهُ إِلىٰ يُوشَعَ بْنِ نُون : إِنِّي مُهْلِكٌ مِنْ قَرْيَتِكَ أَرْبَعِينَ أَلْفاً مِنْ خِيَارِهِمْ وَسِتِّينَ أَلْفاً مِنْ شِرَارِهِم ، فَقَال : يَا رَب ؛ هَـٰؤُلاَءِ الأَشْرَار ، فَمَا بَالُ الأَخْيَار ؟ قَال : إِنَّهُمْ لَمْ يَغْضَبُوا لِغَضَبِي ، وَآكَلُوهُمْ ، وَشَارَبُوهُم » .

ومصداقُ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ .

وليُعلم أَنَّ العلماءَ اتَّفقوا علىٰ أَنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عنِ المنكرِ مِنْ فروضِ الكفايات .

وقيل : مِنْ فروضِ الأعيان .

ولَهُ شروط :

منها : يلزمُ أَنْ يكونَ ذلكَ إِيماناً واحتساباً ، لا لسمعةٍ ولا رياء ، ولا لِغرضٍ نَفْساني .

ومِنها : العدالة ، فقد اعتبرَها قومٌ ولَم يَعتبرْها آخرون ، وربَّما استدلَّ الأَوَّلونَ

بقولِه تعالىٰ : ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، وبقولِهِ عزَّ وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

وكانَ يحيىٰ بن معاذٍ رحمهُ اللهُ تعالىٰ ينشدُ في مجالسه :

مَـواعِـظُ الْـواعِـظِ لَـنْ تُقْبَـلا ... حَتَّـىٰ تَعِيهَـا نَفْسُـهُ أَوَّلا
يَـاقَـوْمِ مَـنْ أَظْلَـمُ مِـنْ وَاعِـظٍ ... خَـالَـفَ مَـا قَـدْ قَـالَـهُ لِلْمَـلا ؟
أَظْهَـرَ بَيْـنَ النَّـاسِ إِحْسَـانَـهُ ... وَبَـارَزَ الـرَّحْمَـٰنَ لَمَّـا خَـلا

وأَنشدَ آخَر :

وَغَيْـرُ تَقِـي يَـأْمُـرُ النَّـاسَ بِـالتُّقـىٰ ... طَبِيـبٌ يُـدَاوِي النَّـاسَ وَهْـوَ سَقِيـمُ

وأَنشدَ آخَر :

يَـا أَيُّهَـا الـرَّجُـلُ الْمُعَلِّـمُ غَيْـرَهُ ... هَـلاَّ لِنَفْسِـكَ كَـانَ ذَا التَّعْلِيـمُ
اِبْـدَأْ بِنَفْسِـكَ فَـانْهَهَـا عَـنْ غَيِّهَـا ... فَـإِذَا انْتَهَيْـتَ إِذَنْ فَـأَنْـتَ حَكِيـمُ

وفي هـٰذا البابِ أَخبارٌ كثيرةٌ ومطالبُ غزيرة ، مَنْ أَرادَها . . فليَرجعْ إِلىٰ محلِّها .

الفصلُ الثَّالث : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ الآية .

قالَ المفسِّرونَ رحمهُمُ اللهُ تعالىٰ : هـٰذا كلامٌ مُستأْنف ، يتضمَّنُ بيانَ حالِ هـٰذهِ الأُمَّةِ في الفضلِ علىٰ غيرِها مِنَ الأُمم ، سيقَ لتثبيتِ المؤمنينَ علىٰ ما هُم عليهِ مِنَ الاتِّفاقِ على الحقِّ والدَّعوةِ إِلى الخير .

و(كان) قيل : تامة ؛ أَي : خُلقتُم .

وقيل : ناقصة ؛ أَي : كنتُم في علمِ اللهِ خيرَ أُمَّة .

وقيل : كنتُم مذكورينَ في الأُممِ الماضيةِ خيرَ أُمَّة .

وقيل : ﴿ كُنتُمْ ﴾ بمعنىٰ : أَنتم ، ونحو هـٰذهِ الآيةِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أَي : عدولاً خياراً ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أَي : خيرُهم وأَعدلُهم .

﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أَي : لِتكونوا شهداءَ يومَ القيامةِ لأنبيائهِم على أُممهم .

قالَ ناصرُ السُّنَّةِ ابنُ الجوزيِّ في الكلامِ على هاتينِ الآيتَينِ في « تبصرتِه » ما نصُّه : رويَ عن أَبي سعيدٍ رضي الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « يُدْعَىٰ نُوحٌ فَيُقَالُ لَه : هَلْ بَلَّغْت ؟ فيَقُول : نَعَم . فَيُدْعَىٰ قَوْمُهُ فَيُقَالُ لَهُم : هَلْ بَلَّغَكُم ؟ فَيَقُولُون : مَا أَتَانَا مِنْ نَذِير وَمَا أَتَانَا مِنْ أَحَدٍ . فَيُقَالُ مَنْ شُهُودُكَ ؟ فَيَقُول : مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُه .قال : فَيُؤْتَىٰ بِكُمْ تَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ فَذلِكَ قَوْل الله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ » .

قال : والوسط : العدل .

قالَ « فَيُدْعَوْنَ فَيَشْهَدُونَ لَهُ بِالْبَلاَغ » قال : « ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْكُم » .

رويَ عن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة. . . » الحديث .

وعنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ كَرَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عُمَّالاً ، فَقَال : مَنْ يَعْمَلُ مِنْ صَلاَةِ الصُّبْحِ إِلَىٰ نِصْفِ النَّهَارِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ ؟أَلاَ فَعَمِلَتِ الْيَهُود . ثُمَّ قَال : مَنْ يَعْمَلُ لِيَ مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلىٰ صَلاَةِ الْعَصْرِ عَلَىٰ قِيرَاط قِيرَاطٍ ؟أَلاَ فَعَمِلَتِ النَّصَارىٰ . ثُمَّ قَال : مَنْ يَعْمَلُ لِيَ مِنْ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلىٰ غُرُوبِ الشَّمْسِ عَلَىٰ قِيراطَيْن قِيراطَيْنِ ؟أَلاَ فَأَنْتُمُ الَّذِينَ عَمِلْتُم . فَغَضِبَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارىٰ ، قَالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلاً ، وَأَقَلُّ عَطَاء! قَال : هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئاً ؟ قَالُوا : لا ، قَال : فَإِنَّمَا هُوَ فَضْلِي أُوْتِيهِ مَنْ أَشَاء » .

واعلَمْ أَنَّ فضيلةَ هـٰذهِ الأُمَّةِ على الأُممِ المتقدِّمةِ وإِنْ كانَ ذلكَ باختيارِ الحقِّ لَها وتقديمهِ إِيَّاها إِلاَّ أَنَّهُ جعلَ لذلكَ سبباً ، كما جعل سببَ سجودِ الملائكةِ لآدمَ علمَهُ بما جَهلوا ، فكذلكَ جعلَ لتقديمِ هـٰذهِ الأُمَّةِ شيئاً هوَ الفطنةُ والفَهمُ واليقينُ وتسليمُ النُّفوس ، واعتُبرَ حالُهُم بمَنْ قبلَهُم ؛ فإِنَّ قومَ موسىٰ رأَوا قدرةِ الخالقِ في شقِّ البحرِ ثمَّ

قالوا : اجعل لَنا إلهاً ! ثمَّ مالَ كثيرٌ منهُم إلىٰ عبادةِ العجل .

وعرضتْ لَهم غزاةٌ فقالوا : اذهب أَنتَ وربُّكَ فقاتِلا !

ولَم يَقبلوا التَّوراةَ حتَّىٰ نُتِقَ عليهِمُ الجبلُ ، وأُمروا بقولِ : ﴿حِطَّةٌ﴾ فقالوا : حنطة . وقيلَ لَهم : ادخلوا البابَ سُجَّداً ، فدَخَلوا زَحفاً ! وقالوا عن نبيِّهم : هوَ آدر[1] .

ومِنْ مذهبِهم : التَّشبيهُ والتَّجسيم ، وهٰذا مِنْ أَعظمِ التَّعطيل ؛ لأَنَّ الجسمَ مؤَلَّف ، ولا بدَّ لِلمؤَلَّفِ مِنْ مُؤَلِّف ، ومِنْ غفلةِ النَّصارىٰ : اعتقادُهُم أَنَّ اللهَ تعالىٰ جوهرٌ[2] والجواهرُ تتماثلُ ولا مِثلَ لِلخالق ، ثمَّ يقولون : عيسى ابنُه ، وقد عُلِمَ أَنَّ

---

(١) قولُهُ : آدر ، الآدر : هو منتفخ الخصيتين . اهـ منه .

(٢) وليُعلَمْ أَنَّ النَّصارىٰ زَعموا أَنَّ الإلـٰهَ جوهرُ ثلاثةِ أَقانيم : أَبٌ وابنٌ وروحُ القُدس ، كلُّ واحدٍ منها إلـٰهٌ تام ، والكلُّ إلـٰهٌ واحد ، ثمَّ قالوا بأَنَّ الَّذي هوَ أَحدُ الأَقانيمِ وثانيها نزلَ إلى الأَرضِ وتجسَّدَ مِنْ مريمَ ومِنْ رُوحِ القُدُس ، ووُلِدَ ونشأَ وكبرَ إلىٰ أَنْ بلغَ مِنَ العمرِ ثلاثاً وثلاثينَ سنةً وشهوراً ، ثمَّ إنَّ اليهودَ صَلبوهُ وماتَ وقبروه ، ثمَّ قامَ مِنْ قبرِه في اليوم الثَّالث ، وأَكلَ السَّمكَ وشربَ الماء ، وظهرَ لِلحواريِّين ، ثمَّ ارتفعَ إلى السَّماءِ وجلسَ عن يمينِ الأَب ، وهوَ في هـٰذهِ الأَحوالِ كلِّها إلـٰهٌ تامٌّ وإنسانٌ تام .

ولَهم في الأَقانيمِ تسعةُ أَقوالٍ مذكورةٌ في كتابِ « مثيرُ العزم » والأُقنومُ لفظةٌ سريانيَّة ، معناها : الشَّخص . وردُّ هـٰذا القول أَظهرُ مِنْ أَنْ يذكر ؛ فإنَّ جنَّة قائلة لا تخفىٰ علىٰ عاقل .

وأَمَّا اليهود : فأَقوالُهم السَّخيفةُ كثيرة ، منها : تحريفُهم للتَّوراةِ وتبديلُها ، ومِنها : أَنَّ الإلـٰهَ سبحانَهُ وتعالىٰ مساحةُ جبهتِهِ خمسةُ آلافِ ذراع ، وتاجُ رأسِهِ أَلفُ قنطار ، وفصُّ خاتمهِ تضيءُ منهُ الشَّمسُ والنُّجوم .

وقالوا : إنَّ موسىٰ هوَ الَّذي قَتلَ أَخاهُ هارونَ لميلِ بني إسرائيلَ إليه .

ومِنها : أَنَّ سليمانَ بنىٰ لنسائهِ بيوتَ الأَوثانِ وأَباحَ لَهُنَّ عبادتَها .

ومِنها : قولُهم : إنَّ داوودَ زنىٰ بامرأَة ، أَو زنىٰ وابنُهُ سليمانُ منها ، سبحانَكَ ! هـٰذا بهتانٌ عظيم .

وليُعلَمْ أَيضاً أَنَّهُ قد وردَ في التَّوراةِ والإنجيلِ ما يدلُّ علىٰ نبوَّةِ نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، منها : قولُ اللهِ تعالىٰ مخاطباً لموسىٰ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « سأُقيمُ لَهُم نبياً مِثلَكَ مِنْ إخوانِك ، أَجعلُ كلامي علىٰ فمه » وفي موضعٍ آخرَ مِنها : « جاءَ اللهُ مِنْ طورِ سيناءَ وظهرَ بساعير وعلن بفاران » . =

الابنَ بعضٌ والخالقُ لا يتجزّأ ، ثمَّ قد عَلِموا أَنْ لا يقوم إلاَّ بالطَّعام ، والإلـٰهُ هوَ مَنْ قامتْ بهِ الأَشياءُ لا مَنْ قامَ بها .

وقد عُرِفَ يقينُ أُمَّتِنا ، وبَذْلُهُم أَنفُسَهُم في الحروبِ وطاعةِ الرَّسول ، وحفظُهُم لِلقُرآن ، وأُولَئِكَ كانوا لا يَحفظونَ كتابَهُم ، فلهـٰذا فُضِّلوا ، فهُم أَوَّلُ أُمَّةٍ يَدخلونَ الجنَّة ، وقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَهْلُ الْجَنَّةِ مِئَةٌ وَعشْرُون صَفّاً ، أُمَّتِي مِنْهُمْ ثَمَانُونَ صَفّاً » . .

وعنهَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « أَلاَ إِنَّكُم تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ تَعَالَىٰ » .

رویٰ أَبو موسیٰ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَىٰ قَوْمَه ، فَقَال : يَا قَوْم ؛ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنِي وَأَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَان ، فَالنَّجَاء . فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِه ، فَأَدْلَجُوا وَانْطَلَقُوا عَلَىٰ مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُم فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُم ، فَذلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِه ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَق » . أَخرجاهُ في « الصَّحيحَين » .

وروىٰ أَبو هريرةَ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ إِلاَّ نَدِم »قالوا : فما ندمُهُ يا رسولَ اللهِ ؟ قال : « إِنْ كَانَ مُحْسِناً . . نَدِمَ أَنْ لاَ يَكُونَ ازْدَاد ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئاً . . نَدِمَ أَنْ لاَ يَكُونَ نَزَع » .

وروِيَ عن أَنسٍ رضيَ اللهُ عنه عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَر ، لاَ يُدْرَىٰ أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُه ؟ » .

= والمراد بالمجيء : مجيءُ الشَّرائع والسُّننِ والأَنبياء ؛ لأَنَّ اللهَ تعالىٰ مُنزَّهٌ عنِ المجيء .
وجبلُ الطُّورِ معلوم ، وكانَ مبدأُ ظهورِ موسىٰ منه .
وساعير : جبلُ القدس ، ومنهُ مبدأُ ظهورِ عيسىٰ .
وفاران : جبلُ مكَّةَ أَوِ الحجاز ، ففي التَّوراة : « وإسماعيلُ سكنَ بريَّةَ فارانَ ونشأَ بها » . ومَنْ أَرادَ تفصيلَ أَقوالِهمُ الباطلة . . فعليهِ بالمطوَّلاتِ الكافلةِ اهـ منه .

فإنْ قيل : فهٰذا يوجبُ تردُّداً في تفضيلِ الصَّحابة . .

فالجواب : أَنَّهُ أَرادَ تقريبَ آخِرِ أُمَّتهِ إِلىٰ أَوَّلِها في الفضل ، كما تقول : لا أَدري أَوَجْهُ هٰذا الثَّوبِ خيرٌ أَو مُؤَخّره ؟ وقد علمَ أَنَّ وجههُ أَفضل ، لٰكنَّكَ تريدُ تقريبَ مُؤَخّرهِ مِنْ وجههِ مِنَ الجودة . ذَكرهُ ابنُ قتيبة .

فأَمَّا فضلُ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم فلا شكَّ فيه ؛ إِذ لَهم صبرٌ على الحقِّ لا يشاركُهم فيهِ أَحد .

كانَ بلالٌ رضيَ اللهُ عنهُ يُعذَّبُ في الرَّمضاءِ ويقولونَ لَه : قُل : اللاَّت والعزَّىٰ ، وهوَ يقول : أَحدٌ أَحد .

وكانَ عمُّ الزُّبيرِ يُعلِّقُهُ ويُدخِّنُ عليهِ بالنَّار ، ويقول : ارجعْ إِلى الكفر ، فيقول : لا أَرجع .

ولقد جاءَ مِنْ بعدِ الصَّحابةِ ساداتٌ برزوا في العِلمِ والعمل ، كانَ أَبو مسلم الخولانيُّ قد علَّقَ في مسجدهِ سَوطاً يُؤدِّبُ بهِ نَفْسَهُ كلَّما فتَر ، ويقول : أَيظنُّ الصَّحابةُ أَنْ يَستأْثِروا بمحمَّدٍ دونَنا ، واللهِ . . لأُزاحمنَّهُم عليهِ زِحاماً حتَّىٰ يَعلموا أَنَّهُم قد خلَّفوا رجالاً .

وكانَ عامرُ بنُ عبد الله بن قيسٍ يُصلِّي كلَّ يوم أَلْفَ ركعة ، وكانَ كهمسُ بنُ الحسنِ يَختمُ في الشَّهرِ تسعينَ ختمة ، وصلَّىٰ سليمانُ التَّيميُّ الفجرَ بوضوءِ العشاءِ أَربعينَ سنة .

وكانَ سفيانُ الثَّوريُّ غايةً في العِلم والعمل ، فغلبَهُ الخوفُ فصارَ يبولُ الدَّم ، وحُمِلَ ماؤُهُ إِلى الطَّبيب ، فقال : هٰذا لا يُشبهُ بولَ المسلمين ، هٰذا ماءُ الرُّهبان! هٰذا الرَّجلُ قد فتَّتَ الخوفُ كبدَه .

وحُملَ ماءُ سَريٍّ السّقطيِّ إِلى الطَّبيب ، فلمَّا نظرَ إِليه . . قال : هٰذا بولُ عاشق! قالَ حاملُه : فصُعقتُ وغشيَ علي ، ثمَّ رجعتُ إِلىٰ سَريٍّ فأَخبرتُه ، فقال : قاتلَهُ اللهُ ما أَبصرَه!

قالَ الشِّبلي : جزتُ براهبٍ فقلتُ لَه : لمَنْ تَعبد ؟ فقال : عيسىٰ ، قلت : ولِم ؟ قال : بقيَ أَربعينَ يوماً لَم يأْكل ، قلت : فعُدَّها علي ، فأَقمتُ تحتَ صومعتهِ أَربعينَ يوماً لم آكل ، فأَسلم .

وكانَ أَبو عبيدَة الخوَّاصُ يقول : واشوقاهُ إِلىٰ مَنْ يَراني ولا أَراه .

وفي الحديثِ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « اشْتَاقَتِ الْجَنَّةُ إِلىٰ عَلِيٍّ وَعَمَّارٍ وَسَلْمَان » .

قالَ بعضُ الصَّالِحين : لقيتُ غلاماً في طريقِ مكَّةَ يمشي وحدَه ، فقلت : ما معكَ مُؤْنس ؟

قال : بلىٰ .

قلت : أَينَ هو ؟

قال : أَمامي وخَلْفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومِنْ فوقي .

قلت : أَما معكَ زاد ؟

قال : بلىٰ .

قلت : أَينَ هو ؟

قال : الإِخلاصُ والتَّوحيد ، والإِيمانُ والتَّوكُّل .

قلت : هل لكَ في مرافقتي ؟

فقال : الرَّفيقُ يشغلُ عنِ الله ، ولا أُحبُّ أَنْ أُرافقَ ما يَشغلني عنهُ طَرْفَةَ عَيْن .

قلت : أَما تستوحشُ في هٰذهِ البرِّيَّة ؟ قال : إِنَّ الأُنسَ باللهِ قَطَعَ عنِّي كلَّ وحشة ، فلو كنتُ بينَ السِّباع . . ما خِفْتُها .

قلت : أَلكَ حاجة ؟ قال : نَعَم ، إِذا رأَيتَني . . فلا تُكلِّمني .

قلت : ادْعُ لِي .

قال : حَجَبَ اللهُ طَرْفَكَ عن كلِّ معصية ، وأَلهمَ قلبكَ الفكرَ فيما يُرضيه .

قلت : حبيبي ، أَينَ أَلقاك ؟

قال : أَمَّا في الدُّنيا . . فلا تُحدِّثْ نَفْسَكَ بِلقائي ، وأَمَّا في الآخِرة . . فإنَّها مَجمعُ المتَّقين ، فإنْ طلبتَني هناك . . فاطلبني في زُمرةِ النَّاظِرينَ إلى اللهِ عزَّ وجل .

قلت : وكيفَ علمت ؟

قال : بِغضِّ طَرْفي لَهُ عَنْ كلِّ مُحرَّم ، واجتنابي فيهِ كلَّ مُنكَرٍ ومأثَم ، وقد سأَلتُهُ أَنْ يجعلَ جنَّتي النَّظرَ إليه . ثمَّ صاح ، وأَقبلَ يَسعىٰ حتَّىٰ غابَ عن بَصري . إخواني ؛ إنَّ مَنْ كانَ مِنْ أُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم . . فهوَ مِنْ خيرِ الأُممِ عندَ اللهِ الملكِ الأعظم ، ولمَّا كانَ هـٰذا الرَّسولُ الأكرمُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خيرَ الخَلْقِ وأَفضلَهُم . . كانت أُمَّتُهُ خيرَ الأُممِ وأَفضلَها وأَقدمَها وأَكرمَها ، فما يحسنُ بمَنْ كانَ خيراً مِنَ الأُممِ الماضينَ ومتَّبعاً لسيّدِ المرسلِينَ إلاَّ أَن يكونَ متَّصفاً بصفاتِ الخير ، متجنِّباً لِصفاتِ الشَّرِّ المُعَقِّبةِ للضَّيْر ، ولا يَرضىٰ لنفسه أَنْ يَكونَ مِنْ شرِّ النَّاسِ معَ انتسابهِ إلىٰ خيرِ الأُمم ، ورسولُهُ خيرُ الرُّسلِ الكرام .

ولمّا تمسَّكَ رسولُ اللهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بعَروسِ الإسلام ، وأَبرزَها لِلبصائرِ مِنْ خِدْرِها . . أَخرجَ أَبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ مالَهُ كلَّهُ نثاراً لهـٰذهِ العروس ، ونثرَهُ على الرُّؤُوس .

ثمَّ أَخرجَ عمرُ الفاروقُ رضيَ اللهُ عنهُ النِّصفَ موافقةً لَه ، فقامَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ بوليمةِ ذلكَ العرس ، فجهَّزَ جيشَ العسرة ، وقام عليٌّ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَهُ إلى الدُّنيا الدَّنية ، لمّا علِمَ أَنَّها ضرَّةٌ لهـٰذهِ العروسِ البهيَّة ، وأَنَّهُما لا يَجتمعان ، وفي قلبٍ واحدٍ لا يَسكنان . . ثلَّثَ طلاقَها واختارَ فراقَها راضياً بضرَّتِها الباقية ، المشفِقةِ الوافية ، طارداً لِلفانية ، الغدَّارةِ العاتية .

فالحمدُ للهِ الَّذي خصَّنا بهـٰذهِ الرَّحمة ، وأَسبغَ علينا هـٰذهِ النِّعمة ، وأَعطانا ببركةِ نبيِّنا المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هـٰذهِ الفضائلَ الجمَّة ، فقال لنا : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ .

فمِنْ أينَ لِلأُممِ مثلُ أَبي بكرٍ الصِّدِّيق ، أَو عمرَ الَّذي ما سلكَ طريقاً إِلاَّ هربَ الشَّيطانُ مِنْ ذلكَ الطَّريق ، أَو عثمانَ الَّذي صبرَ علىٰ مرِّ المضيق ، أَو عليٍّ بحرِ العِلمِ الخضمِّ العميق ، أَو مِثلُ العمَّين : الحمزة والعبّاس ؟! ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ .

أَفيهم مِثلُ طلحةَ والزُّبيرِ القرينَين ؟! أَو سعدٍ وسعيد ، هيهاتَ مِنْ أَين ؟! أَوِ السَّجّادِ وجعفرَ ذو الجناحَين ، أَو مِثلُ ابن عوفٍ وأَبي عبيدة ، ومَنْ مِثلُ الاثنين ؟! إِنْ شبَّهتَهُم[1] بهِم . . فقد أَبعدتَ في القياس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ .

هل شجرةُ الرِّضوانِ في أَشجارِهم ؟! هل وقعةُ بدرٍ مِنْ أَثمارهم ؟! إِنَّما عُرضَتْ لهم غزاةٌ في جميعِ أَعمارِهم ، وجهادُنا معَ الأَنفاس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ .

غمرَهُمُ التَّغفيلُ وتناهىٰ ، واعتقَدوا لِلخالقِ أَشباها ، فقالوا : في اليمِّ اجعلْ لَنا إِلـٰها ، وما في عقائدِنا نحنُ التباس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ .

أَعندَ رُهبانِهم كزُهدِ أُوَيس ؟! أَو في عابدِيهم كعامرِ بني قيس ؟! أَو في خائِفيهم كالفضيل ، هيهات! ليسَ ضوءُ الشَّمسِ كالمقباس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ .

أَفيهم مثلُ بشرٍ ومعروف ؟! أَفي زُهَّادِهم كابنِ أَدهمَ موصوف ؟! أَو في طوائفِهم طائفةٌ صلَّت وقد سُلَّتِ السُّيوفْ ورنَّتِ الأَقواس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ .

أَفيهم مثل أَبي حنيفةَ ومالك ، أَو كالشَّافعيِّ الهادي إِلى المسالك ؟! كيفَ نمدحُهُم وهُم أَجلُّ مِنْ ذلك ؟! ما أَحسنَ بنيانَهُم والأَساس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ .

أَفيهِم أَعلىٰ مِنَ الحسنِ البصريِّ وأَنبل ؟! أَوِ ابنِ سيرينَ الَّذي بالورعِ تبتَّل ، أَو سفيانَ الَّذي بالعِلمِ والخوفِ تسربَل ، أَو كأَحمدَ الَّذي بذلَ نفْسَهُ لِلحقِّ وسبَّل ؟! تاللهِ ما فيهِم مثلُ ابنِ حَنبل ، ارفَعْ صوتَكَ بهـٰذا ولا باس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ .

اللَّهُم ؛ إِنَّا نسأَلُكَ الثَّباتَ علىٰ دينِك ، وشُكرَ نعمتِك ، وحُسنَ عبادتِك ، ونسأَلُكَ

(١) أي : أمة محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته على الأخص ، وما بعده مبني عليه .

لِساناً صادقاً ، وقلباً سليماً ، وفؤاداً حليماً . ونسألُكَ مِنْ خيرِ ما تعلَم ، ونستغفرُكَ ممّا تعلَم .

اللَّهُم ؛ لكَ أَسلَمْنا وبكَ آمنَّا ، وبجميعِ ما جاءَ بهِ نبيُّكَ المصطفىٰ صدَّقنا ، وعليكَ توكَّلنا ، وإليكَ أَنبنا ، وبكَ خاصَمْنا .

اللَّهُم ؛ إنّا نعوذُ بكَ مِنْ عذابِ القبر ، ووسوسةِ الصَّدر ، وشتاتِ الأَمر .

اللَّهُم ؛ أَحسِنْ عاقبتَنا في الأُمورِ كلِّها ، وأَجِرْنا مِنْ خزي الدُّنيا وعذابِ الآخرة .

اللَّهُم ؛ وارحمْ آباءَنا وأُمَّهاتِنا وأَقارِبَنا وكافَّةَ المسلمين ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمين .

* * *

المجلس الرابع والثّلاثون
في التّفكر وعجائب المخلوقات

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ القديمِ السَّابق ، العظيمِ الخالق ، الكريمِ الصادق ، الرَّحيمِ الرَّازق ، رافعِ السَّبعِ الطَّوابق ، بلا عمدٍ ولا علائِق ، ومثبتِ الأَرضِ بالشُّمِّ الشَّواهق ، مزيَّنةً بالأَشجارِ والحدائق ، المتعرِّفِ إِلىٰ خَلْقهِ بالبراهينِ والحقائق ، المتكفِّلِ بأَرزاقِ جميعِ الخلائق ، خالقِ الحيوانِ النَّاطق ، مِنْ ماءٍ دافق ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ .

أَحمدُهُ ما سكتَ ساكتٌ ونطقَ ناطق ، وأُقِرُّ بوحدانيَّتِه إِقرارَ مخلصٍ لا منافق ، وأُصلِّي علىٰ رسولِهِ محمَّدٍ الَّذي عمَّتْ دعوتُهُ الحضيضَ والشَّاهق ، وعلىٰ صاحبِهِ أَبي بكرٍ القائمِ يومَ الرِّدَّةِ بالحزمِ اللاَّئِق ، وعلىٰ عمرَ مدوِّخِ الكفَّارِ وفاتحِ المغالق ، وعلىٰ عثمانَ الَّذي مااستحلَّ حُرمتَهُ إلاّ مارق ، وعلىٰ عليٍّ الَّذي كانَ يدخلُ بالشَّجاعةِ المضائق ، وعلىٰ سائرِ آلهِ وأَصحابهِ ما أَضاءَ صبحٌ وذرَّ شارق ، وسلَّم تسليماً .

أَمَّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في محكم كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ .

فنقولُ وباللهِ تعالى التَّوفيق :

قالَ المفسِّرون : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ .

المراد : ذاتُ السَّمٰواتِ والأَرضِ وصفاتُهما ، وما فيهما مِنَ العجائب .

والمرادُ باختلافِ اللَّيلِ والنَّهار : تعاقبُهما بالمجيءِ والذَّهاب ، وزيادةِ أَحدِهما

ونقصانِ الآخَر ، وتفاوتُهمَا طولاً وقصراً وحَرّاً وبرداً .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَآيَٰتٍ ﴾ أَي : دلالاتٍ واضحةً وبراهينَ بيِّنةً لأَهلِ العقولِ الصَّحيحةِ على الخالقِ سبحانَهُ وتعالىٰ :

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ ﴾ الآية . اختُلِفَ في المرادِ بالذِّكر :

فقيل : ذِكرُهُ سبحانَهُ وتعالىٰ في هٰذهِ الأَحوال ، مِنْ غيرِ فرقٍ بينَ حالِ الصَّلاةِ وغيرِها .

وذهبَ جماعةٌ مِنَ المفسِّرينَ إِلىٰ أَنَّ الذِّكرَ هنا عبارةٌ عن الصَّلاة ، وبهِ قالَ عليٌّ وابنُ عبّاسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُم ؛ أَي : لا يضيعونَها في حالٍ مِنَ الأَحوالِ ، فيصلُّونَها ﴿ قِيَٰمًا ﴾ معَ عدمِ العذر ﴿ وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ معَ العذر .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَي : في بديعِ صُنْعِهِما وإِتقانِهِما معَ عظمِ أَجرامِهِما ، فإِنَّ هٰذا الفكرَ إِذا كانَ صادقاً . . أَوصلَهُم إِلى الإِيمانِ بهِ سبحانَه .

وعن عائشةَ رضي الله عنها مرفوعاً : « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هٰذِهِ الآيَةِ وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا » . .

وقد مدحَ اللهُ تعالى المتفكِّرين ، ووردت آثارٌ[1] في استحبابِ التَّفكُّرِ كما سنذكرُ ذلك .

وقولُه : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ أَي : عبثاً ، بل خَلَقْتَهُ دليلاً علىٰ حِكمتِك ووحدانيَّتِك وقُدرتِك .

واعلَم : أَنَّ التَّفكُّرَ معناه : أَنْ يُحضرَ الإِنسانُ في قَلْبِهِ معرفتينِ ليستثمرَ منهُما معرفةً ثالثة ، فإِذا تفكَّرَ في السَّمٰواتِ والأَرض . . عَلِمَ أَنَّها مخلوقةٌ وَعلِمَ أَنَّهُ لا بدَّ لَها مِنْ

---

(١) سُئِلَ أَعرابِيٍّ : بمَ عرفتَ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ ؟ فقال : البعرةُ تدلُّ على البعير ، والأَثرُ يدلُّ على المسير ، فأَرضٌ ذاتُ فجاج وسماءٌ ذاتُ أَبراج . . أَفلا يدلاّنِ على السَّميعِ البصيرِ ! ؟ اهـ منه .

خالق ، فأثمرتِ المعرفتانِ معرفةً ثالثة ؛ وهي : طاعتُهُ ولُزومُ أمره .

وكذلكَ إذا عَلمَ أَنَّ الباقي أَولىٰ مِنَ الفاني ، ثمَّ عَلِمَ أَنَّ الآخرةَ أَبقىٰ . . حَصَلَ لَهُ مِنْ هاتَينِ المعرفتَينِ معرفةٌ ثالثة ، وهي : أَنَّ الآخرةَ أَولىٰ بالإِيثار .

وثمرةُ الفكر : العلومُ والأَحوال ، ومتىٰ حصلَ العِلمُ في القلب . . تغيَّرَ حالُ القلبِ فتغيَّرتْ أَعمالُ الجوارح ، فالفكرُ هوَ المبدأُ والمفتاحُ لِلخيراتِ كلِّها ، فإِنَّهُ إذا تفكَّرنا فعَلِمْنَا أَنَّ الآخرةَ خيرٌ مِنَ الدُّنيا . . تغيَّرتِ القلوبُ عنِ الرَّغبةِ في الدُّنيا فرَغِبَتْ في الآخرة .

قالَ حُجَّةُ الإِسلام أَبو حامدٍ الغزَّاليُّ في « الإحياء » : قد أَمرَ اللهُ تعالىٰ بالتَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ في كتابِهِ العزيزِ في مواضعَ لا تُحصىٰ ، وأَثنىٰ على المتفكِّرين ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية .

وقد قالَ ابنُ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : إنَّ قوماً تفكَّروا في اللهِ عزَّ وجلَّ فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « تَفكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ وَلاَ تَتَفَكَّرُوا فِي اللهِ ؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدُرُوا قَدْرَه » .

وعنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ خرجَ علىٰ قومٍ ذاتَ يومٍ وهُم يتفكَّرون ، فقال : « مَا لَكُمْ لاَ تَتكلَّمُون ؟ » فقالوا : نتفكَّرُ في خَلْقِ اللهِ عزَّ وجل ، قال : « فَكَذَلِكَ فَافْعَلُوا ، تفَكَّرُوا فِي خَلْقِهِ وَلاَ تَتَفَكَّرُوا فِيه ، فَإِنَّ بِهـٰذَا الْمَغْرِبِ أَرْضاً بَيْضَاء ، نُورُهَا بَيَاضُهَا وَبَيَاضُهَا نُورُهَا ، مَسِيرَةُ الشَّمْسِ أَرْبَعِينَ يَوْماً بِهَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَعْصُوا اللهَ طَرْفَةَ عَيْن » قالوا : يا رسولَ الله ؛ فأَينَ الشَّيطانُ منهُم ؟ قال : « ما يَدْرُونَ : خُلِقَ الشَّيْطَانُ أَمْ لا » قالوا : ومِنْ وَلَدِ آدم ؟ قال : « لاَ يَدْرُونَ : خُلِقَ آدَمُ أَمْ لا » اهـ .

وعنِ الحسن : تَفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِنْ قيامِ ليلة .

وعنِ الفضيلِ قال : الفكرُ مرآةٌ تُريكَ حَسناتِكَ وسيِّآتِك .

وقيلَ لإبراهيم : إنَّكَ تُطيلُ الفكرة ؟ فقال : الفكرةُ مخُّ العقل .

وكانَ سفيانُ بنُ عيينةَ كثيراً ما يتمثَّلُ بقولِ القائل :

إِذَا الْمَــرْءُ كَــانَــتْ لَــهُ فِكْــرَةٌ　　فَفِــي كُــلِّ شَــيْءٍ لَــهُ عِبْــرَةٌ

وعن طاووس قال : قالَ الحواريُّونَ لعيسىٰ بنِ مريم[عليه الصلاة والسلام] : يا رُوحَ الله ؛ هل على الأَرضِ اليومَ مِثلُك ؟ فقال : نَعَم ، مَنْ كانَ مَنْطقُهُ ذِكراً ، وصمتُهُ فِكراً ، ونظرُهُ عِبرة . . فإنَّهُ مِثلي .

وقالَ الحسن : مَنْ لَم يَكنْ كلامُهُ حكمة . . فهوَ لغو ، ومَنْ لَم يَكنْ سكوتُهُ تفكُّراً . . فهوَ سهو ، ومَنْ لَم يَكنْ نظرُهُ اعتباراً . . فهوَ لهو .

وفي قولهِ تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ قال : أَمنعُ قلوبَهُم عنِ التَّفكُّرِ في أَمري .

وعن أَبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَعْطُوا أَعْيُنَكُمْ حَظَّهَا مِنَ الْعِبَادَة » فقالوا : يا رسولَ الله ؛ وما حظُّها مِنَ العبادة ؟ قال : « النَّظَرُ فِي الْمُصْحَفِ ، وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ ، وَالاعْتِبَارُ عِنْدَ عَجَائِبِه » .

وقالَ وهبُ بنُ مُنبِّه : ما طالَتْ فِكرةُ امرىءٍ قطُّ إلاَّ عَلِم ، وما عَلِمَ امرؤٌ قطُّ إلاَّ عَمِل .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيز : الفكرةُ في نِعَمِ اللهِ عزَّ وجلَّ مِن أَفضلِ العبادة .

وقالَ بشر : لَو تفكَّرَ النَّاسُ في عَظمةِ الله . . ما عَصَوا اللهَ عزَّ وجل .

وقالَ الشَّافعيُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : الفضائلُ أَربع :

إحداهَا : الحكمة ، وقوامُها الفِكر .

والثَّانية : العفَّة ، وقوامُها في الشَّهوة .

والثَّالثة : القوَّة ، وقوامُها في الغضب .

والرَّابعة : العدل ، وقوامُهُ في اعتدالِ قوى النَّفْس .

وليُعلَمْ أَنَّ التَّفكُّرَ يلزمُ في أَنواعٍ عديدة ، مِنها : ينبغي لِلعاقلِ أَنْ يُفتِّشَ صبيحةَ كلِّ يومٍ جميعَ أَعضائهِ السَّبعةِ تفصيلاً ثمَّ بدنهُ على الجملة ، هل هوَ في الحالِ مُلابسٌ لمعصيتهِ بها فيَتْرُكَها ، أَو لابسَها بالأَمسِ فيتداركُها بالتَّركِ والنَّدم ، أَو هوَ متعرِّضٌ لَها في نهارهِ فيَستعدَّ لِلاحترازِ والتَّباعدِ عنها .

فيَنظُرُ مثلاً في اللِّسان ، ويقول : إِنَّهُ متعرِّضٌ لِلغيبةِ والكذب ، وتزكيةِ النَّفسِ والاستهزاءِ بالغير ، والممازحةِ والخوضِ فيما لا يعنيه ، فيُقرِّرُ أَوَّلاً في نَفْسِهِ أَنَّها مكروهةٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ويَتفكَّرُ في شواهدِ القرآنِ والسُّنَّةِ علىٰ شدَّةِ العذابِ فيها ، ثمَّ يتفكَّرُ في أَحوالهِ أَنَّهُ كيفَ يتعرَّضُ لهَا مِنْ حيث لا يشعر ، ويتفكَّر : ما الفائدةُ لهُ في ذلك ؟ ثُمَّ يتفكَّرُ كيفَ يحترزُ مِنْ هـٰذه المهالك ؟ ويَعلمُ أَنَّهُ لا يتمُّ لَهُ ذلكَ إِلاَّ بالعزلة ، أَو بأَنْ لا يُجالِسَ إِلاَّ صالحاً وعالماً تقياً يُنكِرُ عليهِ مهما تكلَّمَ بما يَكرهُهُ اللهُ تعالىٰ ، وإِلا . . فيَضعُ حجراً في فمهِ إِذا جالسَ غيرَه ، حتَّىٰ يكونَ ذلكَ مذكِّراً له .

ونحو هـٰذا يتفكَّرُ في بقيَّةِ أَعضائه ، ويَجعلُ نصبَ عينيهِ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ .

ولنذكر لكُم تفسيرَ هـٰذهِ الآيات ؛ ثمَّ نرجعُ إِلىٰ ما نحنُ بصددهِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ :

قالَ العلماءُ رحمَهُم اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ أَي : لا تتَّبعْ ما لا تعلَم ، لا تَقُل : رأَيتُ ولَم تَر ، سمعتُ ولَم تَسمَع ، وعلمتُ ولَمْ تَعلَم .

وقالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : لا تذمَّ أَحداً بما ليس لكَ بهِ علم .

وقالَ محمَّدُ ابنُ الحنفيَّة : هيَ في شهادةِ الزُّور .

وقيل : هيَ في القذف .

وقيل : معناها لا تتَّبعِ الحدسَ والظُّنون .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ ﴾ الآيةُ ؛ أَي : كلّ واحدٍ مِنَ الحواسِّ الثَّلاثةِ يُسأَلُ عنه .

وقيل : إنَّ اللهَ سبحانَهُ يُنطِقُ هـٰذهِ الأَعضاءَ عندَ سُؤَالِها لِتُخبرَ عمَّا فَعَلَهُ صاحبُها .

والفؤَادُ : هوَ القلب ، ولَهُ إطلاقان : تارةً على الجسمانيِّ الَّذي في الصَّدر ، وتارة علىٰ غيره .

وقالَ في « التَّبصرة » : اِعلَمْ أَنَّ القلبَ إذا أُطلِق . . أُريدَ بهِ الجسمانيُّ الَّذي في الصَّدر ، وليسَ المرادُ بهِ هـٰذا في قوله عزَّ وجل : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ؛ لأَنَّ الحيوانَ البهيميَّ يُشاركُ الآدميَّ في ذلك ، وإِنَّما اللَّطيفةُ الَّتي هيَ في الآدميِّ حقيقةً تارةً تُسمَّىٰ بالقلب ، وتارةً بالرُّوح ، وتارةً بالنَّفْس ، وتارةً بالعقل .

قالَ الزَّجاجي : ومعنى الآية : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ ؛ لمَنْ صرفَ قلبَهُ إلى التَّفهُّم ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ أَي : استمعَ ولَم يَشغلْ قلبَهُ بغيرِ ما استمعَ ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أَي : وقلبُهُ حاضرٌ غيرُ غائب .

ثمَّ اعلَمْ أَنَّ القلبَ أَميرُ البدن ، والجوارحُ خَدَمه ، وقد رُكِّبَ في الآدميِّ ما رُكِّبَ في المَلَكِ مِنَ العلمِ والعملِ بمقتضاه ، ورُكِّبَ فيهِ ما رُكِّبَ في البهيميَّة مِنَ الحرصِ والحسدِ والشّهرةِ والشَّهوات ، فالعلومُ تُحرِّكُهُ إِلى الأَخلاقِ الرَّفيعة ، والشَّيطانُ يدعوهُ إلى الأَخلاقِ البهيميَّة ، فإِنْ مالَ إلى التُّقىٰ . . فرَّ الشَّيطانُ مِنْ ظِلِّه ، وإِنْ مالَ إلى الشَّهواتِ البهيميَّة . . تمكَّنَ الشَّيطانُ منه ، وربَّما قبضَ عليهِ فقتلَه .

وعنِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « أَلاَ إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَت . . صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّه ، وَإِذَا فَسَدَت . . فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّه ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْب » أَخرجاهُ في « الصَّحيحين » .

ولمَّا اكتنفَ القلبَ صفاتُ الخيرِ وصفاتُ الشَّر . . كانَ كلَّما تَشبَّثَتْ بهِ صفةٌ أَثَّرَتْ فيه ، وهـٰذا معنىٰ تقلُّبِ القلوب .

عن أَنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ قال : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كثيراً يقول : « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِك » .

واعلَم : أَنَّ القلبَ يمرضُ مِنَ الخطايا كما يمرضُ البدنُ مِنَ التَّخليط ، فالمتَّقونَ يَستعملونَ الحميةَ بالتَّقوىٰ قَبْلَ الوقوعِ في المرض ، ومنهُم مَنْ تزلُّ قدمُهُ بزلَّةٍ فيَتنبَّهُ لَها فَيرفعُ الخللَ بالاستغفار ، ومنهُم مَنْ يتوانىٰ في الإِصلاحِ فيَعظُمُ فسادُ القلبِ فيَقسو ويُظلِمُ ويَصدأ ، اِنتهىٰ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أَي : مختالاً فخوراً . وقيل : هوَ شدَّةُ الفرح . وقيل : اَلتَّكبُّر في المشي .

وقُرِىء[1] : ﴿مرِحاً﴾ بكسرِ الرَّاء ، علىٰ أَنَّهُ اسمُ فاعل .

ثمَّ علَّلَ سبحانَهُ هٰذا النَّهي ، فقال : ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أَي : لَنْ تقطعَها في المسافة أَو تنقبها . وفيهِ تهكُّمٌ بالمختالِ المتكبِّر .

﴿ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ أَي : ولَنْ تبلغَ قدرتُكَ إِلىٰ أَنْ تُطاولَ الجبالَ وتُساويها بكبرك ، فما الحاملُ لكَ علىٰ ما أَنتَ فيهِ وأَنتَ أَصغرُ وأَحقرُ مِنْ كلٍّ واحدٍ مِنَ الجمادَين ، وأَنتَ تفنىٰ وتَهلِكُ قَبْلَ هٰذين ؟! فكيفَ يليقُ بكَ الكبر ؟!

ولقد أَحسنَ مَنْ قال :

وَلاَ تَمْشِ فَوْقَ الأَرْضِ إِلاَّ تَوَاضُعاً فَكَـمْ تَحْتَهَـا قَـوْمٌ هُـمْ مِنْـكَ أَرْفَـعُ
فَـإِنْ كُنْـتَ فِـي عِـزٍّ وَحِـرْزٍ وَمَنْعَـةٍ فَكَمْ مَاتَ مِنْ قَوْمٍ هُمُ مِنْكَ أَمْنَعُ

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ ﴾ أَي : جميع ما تقدَّمَ أَو ما نهىٰ عنه ﴿ كَانَ سَيِّئُهُۥ ﴾ .

وقرأَ أُبيّ : (كَانَ سَيِّئاته)[2] .

وقرأَ نافع وابن كثير ،وأبو عمرو ،وأبو جعفر ،ويعقوب : (سَيِّئَةً) علىٰ أَنَّها واحدةُ السَّيِّئات[3] .

﴿ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ والمكروهُ هوَ الَّذي يُبغضُهُ ولا يرضاهُ سبحانَه .

---

(١) في الشّاذ .

(٢) وهي قراءة شاذة .

(٣) وهي قراءة متواترة .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ أي : تلومُ نفسَكَ مُبعداً مَطروداً مِنْ رحمةِ الله .

ولنرجع إلىٰ ما نحنُ بصددهِ مِنْ بَحْثِ التَّفكُّر :

فليُعلَمْ أنَّهُ ينبغي لِلعاقلِ أيضاً أنْ يَنظرَ أوّلاً في الفرائضِ المكتوبةِ عليه ، أنَّهُ كيفَ يؤدِّيها ؟ وكيفَ يَحرسُها عنِ النُّقصانِ والتَّقصير ؟ وكيفَ يصونُها عن تَرْكِ الطُّمأنينةِ والرِّياء ؟ وكيفَ يَجبرُ نقصانَها بكثرةِ النَّوافل ؟ ثمَّ يَرجعُ إلىٰ عضوٍ عضوٍ مِنْ أعضائهِ فَيتفكَّر في الأفعالِ الَّتي تتعلَّقُ بِه ممَّا يحبُّ اللهُ تعالىٰ ، فيقولُ مثلاً :

إنَّ العينَ لَم تُخلَقْ لِرؤيةِ المحرَّمات ، بل خُلقَتْ لِلنَّظرِ في ملكوتِ الأَرضِ والسَّمٰواتِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الطَّاعات .

وكذلكَ يقولُ في سَمْعه : إنَّ سَمْعِي لَم يُخلَقْ لِسماعِ الغيبةِ والنَّميمة ، فيقول : إنِّي قادرٌ على استماعِ مظلومٍ وكلامِ ملهوف ، أوِ استماعِ عِلمٍ أو قراءةٍ ووعظٍ وذِكر ، فما لي أُعطِّلُهُ وقد أنعمَ اللهُ تعالىٰ عليَّ بهِ وأَودعَنِيهِ لأَشكُره ؟ فما لي أَكفرُ نعمةَ اللهِ تعالىٰ فيهِ بتضييعهِ وتعطيله ؟

وكذلكَ يتفكَّرُ في فَرْجهِ وبَطنه ، وأَنَّهما لماذا خُلِقا ؟ وفي بقيَّةِ أَعضائه ، وهٰكذا يُفتِّشُ عن جملةِ بدنهِ وأَولادهِ وأَموالهِ وغلمانهِ ودوابِّه ؛ بأَنْ يَنظرَ أَنَّ اللهَ تعالىٰ أَعطاهُ ذلكَ ليستعينَ بهِ علىٰ طاعاتهِ لا معاصيه .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية .

قالَ العلماء : إنَّ كلَّ ما في الوجودِ ممَّا سوى اللهِ تعالىٰ فهوَ فِعلُ اللهِ وخَلْقُه ، وكلُّ ذرَّةٍ مِنَ الذَّراتِ مِنْ جوهرٍ وعَرَضٍ وصفةٍ موصوف . . ففيها عجائبُ وغرائبُ تَظهرُ بها حكمةُ اللهِ تعالىٰ ووحدانيَّتُهُ وعَظمتُه ، وإحصاءُ ذلكَ غيرُ ممكن ، ولٰكنَّا نُشيرُ إلىٰ بعضٍ منه ؛ ليكونَ كالمثالِ لِما عداه .

فنقول : الموجوداتُ المخلوقَةُ منقسمةٌ إلىٰ :

ما لا يُعرَفُ أَصلُهُ فلا يُمكننا التَّفكُّرُ فيه ـ وكم مِنَ الموجوداتِ ما لا نَعلمُه! كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ـ وإلىٰ ما يُعرَفُ أَصلُهُ ولا يُعرَفُ تفصيلُه .

وإلىٰ :

ما ندركُهُ بالبصرِ .

وما لا ندركُهُ بالبصر .

أَمَّا الَّذي لا ندركُهُ بالبصر : فكالملائكة ، والجن ، والشَّياطين ، والعرش ، والكرسيِّ وغيرِ ذلك ، ومجالُ الفكرِ في هٰذهِ الأَشياءِ مما يضيق ، فلنعدل إلى الأقربِ إلى الأفهام ، وهي : المُدْرَكاتُ بالبصر ، وذلكَ هوَ السَّمٰواتُ السَّبعُ والأَرضُ وما بينَهُما .

فالسَّمٰواتُ مشاهدةٌ ، بكواكبِها وشمسِها وقمرِها وحركاتِها ، والأَرضُ مشاهدةٌ ، بما فيها مِنْ جبالِها ومَعادِنها وأَنهارِها وبحارِها وأَشجارِها وحيوانِها ، وما بينَ السَّماءِ والأَرض ؛ وهوَ الجو ، مدرَكٌ بغيومهِ وأَمطارهِ وثلوجه ، ورعدهِ وبَرْقهِ وصواعقهِ وعواصفِ رياحه ، وفي جميعِ ذلكَ حِكَمٌ عظيمةٌ لا يَعلمُ عددَها إلاَّ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ .

ومِنْ جملةِ تلكَ الآيات : الإنسانُ المخلوقُ مِنَ النُّطفة ، وأَقربُ شيءٍ إليكَ نَفْسُك ، وفيكَ مِنَ العجائبِ الدَّالةِ علىٰ عظمةِ اللهِ تعالىٰ ما تنقضي الأَعمارُ في الوقوفِ علىٰ عُشْرِ عشيرهِ وأَنتَ غافلٌ عنه .

فيا مَنْ هوَ غافلٌ عن نَفْسهِ وجاهلٌ بها ؛ كيفَ تطمعُ في معرفةِ غيرِك ، وقد أَمركَ سبحانَهُ وتعالىٰ بالتَّدبُّرِ في نَفْسِك ؛ حيثُ قالَ عزَّ وجل : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

وذكرَ أَنَّكَ مخلوقٌ مِنْ نطفةٍ قذرة ، فقال : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ .

فتكريرُ ذِكرِ النُّطفةِ في القرآنِ العظيمِ ليسَ ليُسمعَ لفظُها فقط بل ليُتفكَّرَ في المعنىٰ :

فانظرِ الآنَ إلى النُّطفةِ وهيَ قطرةٌ مِنْ ماءِ الذَّكرِ والأُنثىٰ قذرة ، لو تُرِكَتْ ساعةً في الهواء . . فَسَدتْ وأَنتَنَت ، كيفَ أَخرجَها ربُّ الأربابِ مِنَ الصُّلبِ والتَّرائب ؟!

وكيفَ جمعَ بينَ الذَّكرِ والأُنثىٰ ، وجعلَ بينهُما مودَّةً ورحمة! وكيفَ قادَهُم بسلسلةِ المحبَّةِ والشَّهوةِ إلى الاجتماع ؟!

وكيفَ استخرجَ النُّطفَةَ مِنَ الرَّجلِ بحركةِ الوقاع ، واستجلبَ دمَ الحيضِ مِنْ أَعماقِ العروقِ وجمعَهُ في الرَّحم ، ثمَّ خلقَ المولودَ مِنَ النُّطفةِ وسقاهُ بماءِ الحيض ، وغذَّاهُ حتَّىٰ نما وكبر ؟!

وكيفَ جعلَ النُّطفةَ وهيَ بيضاءُ مشرقةٌ علقةً حمراء ، ثمَّ جعلَها مضغة[1] ؟!

ثمَّ كيفَ قسَّمَها وهي متشابهةٌ إلى العظامِ والأعصاب ، والعروقِ والأَوتادِ واللَّحم ، ودوَّرَ الرَّأس ، وشقَّ السَّمعَ والبصرَ والأَنفَ والفمَ وسائرَ المنافذ ، ثمَّ مدَّ اليدَ والرِّجلَ وقسمَ رؤُوسَها بالأَصابع ، وجعلَ فيها مفاصلَ وأَظافر ؟!

ثمَّ كيفَ ركَّبَ الأَعضاءَ الباطنةَ مِنَ القلبِ والمعدة ، والكبدِ والطِّحال ، والرِّئةِ والرَّحم ، والمثانةِ والأَمعاء ؟! كلّ واحدٍ علىٰ شكلٍ مخصوص .

وانظرْ كيفَ ركَّبَ العينَ مِنْ سبعِ طبقات ، لَو فُقِدَتْ طبقةٌ منها . . اِنقطعَتْ عنِ الرُّؤْيَة .

وانظرْ كيفَ شقَّ أُذنيَهِ وأَودعَهُما ماءً مرّاً ليَحفظَ سمْعَها ويدفعَ الهوامَّ عنها ، وحوَّطَها بصدفةِ الأُذنِ لتجمعَ الصَّوتَ فتردَّهُ إلىٰ صماخِها .

وفتحَ منخريهِ وأَودعَ فيهما حاسَّةَ الشَّم ؛ ليَستنشقَ روحَ الهواءِ غذاءً لِقَلْبِهِ وترويحاً لحرارةِ باطنه .

وفَتحَ الفمَ وأَودعَهُ اللِّسانَ ناطقاً وترجماناً عمّا في القلب ، وزيَّنَ الفمَ بالأَسنانِ

(١) أَي : قطعةَ لحمٍ . اهـ منه .

وبيَّضَ لَوْنَها ورتَّبَ صفوفَها ، فأَحكمَ أُصولَها وحدَّدَ رؤُوسَها ؛ لتكونَ آلةَ الطَّحنِ والقطع .

وخَلَقَ الشَّفتَينِ ليتمَّ بها حروفُ الكلام ، وخَلَقَ الحناجرَ مختلفةَ الأَشكالِ في الضِّيقِ والسّعةِ والطُّولِ والقِصَرِ حتَّىٰ تَختلفَ به الأَصواتُ كما اختلفتِ الصُّوَر .

ثمَّ انظره! إِنَّهُ لمَّا ضاقَ الرَّحِمُ عنِ الجنينِ لمّا كبر . . كيفَ هداهُ السَّبيلَ حتَّىٰ تحرَّكَ وتنكَّسَ وخرجَ مِنْ ذلكَ المضيق ، وطلبَ المنفذَ كأَنَّهُ عاقلٌ بصير ؟! ثمَّ لمّا كانَ بدنهُ لا يحتملُ الأَغذيةَ الكثيفة ، كيفَ خلقَ اللهُ لَهُ اللَّبنَ اللَّطيفَ واستخرجَهُ مِنْ بينِ الفرثِ[1] والدَّمِ سائغاً خالصاً ؟! وكيفَ هداهُ لالتقامِ الثَّدي ، ولا سيَّما سائر الحيوانات! وكيفَ أَنبتَ منهما حلمتينِ علىٰ قدرِ ما ينطبقُ عليهِما فمُ الصَّغير ، ثمَّ فتحَ في حلمتهِ فتقاً ضيِّقاً حتَّىٰ لا يخرجَ منهُ اللَّبنُ إِلاَّ تدريجاً ؟!

ثمَّ انظر كيفَ خلقَ الأَسنانَ عندَ احتياجهِ إِلى الطَّعام ؟!

ثمَّ انظرْ كيفَ جَعلَ الرَّحمةَ في قلبِ والدَيه ؟!

ثمَّ انظرْ كيفَ رزقَهُ العقلَ والقدرةَ تدريجاً ، والتَّمييزَ والهدايةَ حتَّىٰ بلغَ وتكاملَ وصارَ شابّاً ، ثمَّ كهلاً ثمَّ شيخاً ، إِمّا كفوراً أَو شكوراً . . فتباركَ اللهُ أَحسنُ الخالقين .

فهٰذهِ عُشرُ عُشيرٍ مِنْ عجائبِ بدنكَ الَّتي لا يُمكنُ استقصاؤُها ، فهوَ أَقربُ مجالٍ لِفكرِك ، وأَجلىٰ شاهدٍ علىٰ وجودِ خالقِكَ وعَظَمتِهِ وقُدرتهِ وحِكمته ، وأَنتَ غافلٌ عن ذلك ، مشغولٌ ببطنِكَ وفَرْجِك ، لا تعرفُ مِنْ نَفْسِكَ إِلاَّ أَنْ تجوعَ فتأْكلَ وتشبعَ وتنام ، وتشتهيَ فتُجامِع ، وتغضبَ فتُقاتل ، والبهائمُ تشارِكُكَ في معرفةِ ذلك ، وإِنما خاصيَّةُ الإِنسانِ الَّتي حُجبَتِ البهائمُ عن كمالِها معرفةُ اللهِ تعالىٰ بالنَّظرِ في ملكوتِ السَّمواتِ والأَرضِ وعجائبِ الآفاقِ والأَنفُس ، إِذْ بها يدخلُ العبدُ في زمرةِ الملائكةِ المقرَّبين ، ويُحشَرُ في زمرةِ الصِّدِّيقين .

---

(١) وهوَ ما في مَعِدَةِ الإِنسانِ . اهـ منه .

فإذا رضيَ الإنسانُ بشهواتِ البهائم.. فإنَّهُ شرٌّ منها ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

وإذا عرفتَ طريقَ فِكرِكَ في نَفْسِك.. فتفكَّرْ في الأرضِ الَّتي هيَ مقرّك ، ثمَّ ارتفِعْ مِنها إلىٰ ملكوتِ السَّموات ، أمَّا الأرض.. فانظرْ إليها وهي ميتة ، فإذا أُنزلَ عليها الماء.. اهتزَّتْ وربَت ، وأنبتَتْ عجائبَ النَّبات ، لكلِّ نبتٍ طعمٌ ولونٌ وريحٌ يخالفُ الشَّكلَ الآخَر ، وانظُرْ إلى اختلافِ منافعهِ وأذيَّته ، فهـٰذا يُغذِّي ، وهـٰذا يقوِّي ، وهـٰذا يُحيي وهـٰذا يَقتل ، وهـٰذا يُبرِّدُ وهـٰذا يُسخِّن ، وهـٰذا يُنوِّمُ وهـٰذا يُسهِر ، وبعضُهُ يَخرجُ مِنْ نواةٍ وبعضُهُ مِنْ حبَّة .

ولَو أَردنا أَنْ نذكرَ عجائبَ النَّباتات.. لانقضَتِ الأيَّامُ في وصفِ ذلك ، ولقد أَحسنَ القائل :

تَأَمَّلْ فِي رِيَاضِ الأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَىٰ آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... عَلَىٰ أَحْدَاقِهَا ذَهَبٌ سَبِيكُ
عَلَىٰ قَصَبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

ومِنْ آياتِه : الجواهرُ المودعةُ تحتُ الجبال ، والمعادنُ الحاصلةُ مِنَ الأَرض ، والعيونُ النَّابعةُ فيها ، والمعادنُ الخارجةُ مِنها ؛ كالنَّفطِ والكبريتِ والقارِ والملحِ وغيرِ ذلك .

ومِنْ آياته : أَصنافُ الحيونات ، وانقسامُها إلىٰ ما يَطيرُ وما يمشي ، وإلىٰ ما يَمشي علىٰ أَربعٍ وعلىٰ عَشْرٍ وعلىٰ مئة ، ثمَّ انظرْ إلى انقسامِها في المنافعِ والصُّورِ والأَشكال ، والأَخلاقِ والطِّباع ، ترىٰ فيها مِنَ العجائبِ الَّتي لا تُستقصىٰ ، ما لا تشكُّ معَهُ في عَظَمةِ خالقِهَا وقدرةِ رازقِها .

ولَو أَردْنا أَنْ نذكرَ عجائبَ البقَّةِ أَوِ النَّملةِ أَوِ النَّحلةِ أَوِ العنكبوت ، وهيَ مِنْ صغارِ الحيوانات.. لَضاقَتْ عن بعضِها مجالسُنا .

ومِنْ آياتهِ عزَّ وجل : البحارُ العميقةُ المكتنفةُ لأَقطارِ الأَرض ، فانظرْ إلىٰ سعتِها

وعجائبِ ما فيها مِنَ الحيواناتِ والجواهر ، ففيها مِنَ الحيواناتِ العِظامِ ما ترىٰ ظهورَها في البحرِ فتظنُّ أنَّها جزيرةٌ فينزلُ عليها النَّاس ، فربَّما تحسُّ بالنِّيرانِ إذا اشتعلَتْ فتتحرَّك ، وما مِنْ صنفٍ مِنْ أصنافِ البرِّ إلاَّ وفي البحرِ مِثالُه .

وانظرْ كيفَ خَلَقَ اللهُ اللُّؤلؤَ في الأصداف ، وأنبتَ المرجانَ مِنْ صُمِّ الصُّخورِ تحتَ الماء ، وتأمَّلِ العنبرَ ونحوَهُ كيفَ يقذفُهُ البحر ؟! وانظرْ إلى السُّفنِ كيفَ أمسَكَها اللهُ على الماءِ ثمَّ أرسلَ الرِّياحَ لِتَسُوقَها ولَم تَغرقْ معَ ثِقل جسمِها ولطافةِ الماء ؟! .

ثمَّ انظرْ إلىٰ عجائبِ الجوِّ وما يَظهرُ فيهِ مِنَ الغيومِ والرُّعودِ والبروق ، والأمطارِ والثُّلوج ، والشُّهبِ والصَّواعق . . فهيَ عجائبُ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ المشارِ إليها في قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ .

فتأمَّلِ السَّحابَ الكثيفَ المظلم ، كيفَ اجتمعَ في جوٍّ صاف ، وكيفَ يَخلُقُهُ اللهُ تعالىٰ إذا شاءَ ومتىٰ شاء ، وهوَ معَ رخاوتهِ حاملٌ لِلماءِ الثَّقيلِ إلىٰ أنْ يأذنَ اللهُ سبحانَهُ في إرسالهِ وتقطيعِ قطراتهِ إلىٰ مَنْ يشاء!

فتعساً لِلجاهلِ المغرورِ حيثُ يَزعمُ أنَّ ذلكَ إنَّما هوَ بطبعهِ لِثِقَلِهِ ، ولَم يَنظرْ إلى الماءِ في أسافلِ الشَّجرِ كيفَ يرقىٰ إلىٰ أعالي الأشجارِ شيئاً فشيئاً ، ويَنتشرُ في جميعِ أطرافِ الأوراقِ والفواكهِ فيُغذِّيها ويُنمِّيها ، فلَو كانَ الماءُ يتحرَّك بطَبْعهِ إلىٰ أسفل . . لَمَا وصلَ الماءُ مِنْ عروقِ الشجرة إلىٰ أعلاها ، وما ذاكَ إلاَّ بقدرةِ الحكيمِ القدير .

ومِنْ آياتهِ عزَّ وجل : ملكوتُ السَّمٰواتِ وما فيها مِنَ الكواكبِ وهوَ الأَمرُ كلُّه ، ومَنْ أدركَ الكلَّ وفاتَهُ عجائبُ السَّماوات . . فقد فاتَهُ الكلُّ تحقيقاً ؛ لأَنَّ الأَرضَ وما فيها وَالبحارَ بالنِّسبةِ إلى السَّمٰواتِ كقطرةٍ في بحر ، ولذا عظَّمَها سبحانَهُ في كتابهِ وأقسمَ بها بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴾ ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ .

وكقولِهِ عزَّ وجل : ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ .

وكقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ .

فانظُرْ إِلى الملكوت لترىٰ عجائبَ العزِّ والجبروت ، ولا تظنَّ أَنَّ معنى النَّظر : رؤيةُ زرقةِ السَّماءِ والكواكبِ بالبصر ، فإِنَّ البهائمَ تشاركُكُ في ذلك ، بلِ المراد : اِستدلالكَ بها علىٰ قدرةِ وحدانيّةِ المالك .

فارفَعْ رأْسَك أَيُّها الأَخُ العاقل إِلى السَّماء ، وانظرْ فيها وفي كواكبِها ، وفي دورانِها وطلوعِها وغروبِها ، وشمسِها وقمرِها ، واختلافِ مشارقِها ومغاربِها ، وفي دوامِ حركتِها ، وفي جريها في منازلَ مرتَّبةٍ بحسابٍ مقدَّرٍ لا يزيدُ ولا ينقصُ إِلىٰ أَنْ يَطويها سبحانَهُ طيَّ السّجلِّ للكتاب ، وتدبَّر عددَ كواكِبها وكثرتها ، واختلافَ أَلوانِها وكيفيَّةَ أَشكالِها ، فبعضُها علىٰ هيئَةِ العقرب ، وبعضُها علىٰ صورةِ الجملِ والثَّورِ والإِنسان ، وما مِنْ صورةٍ في الأَرضِ إِلاَّ ولَها مثالٌ في السَّماء .

ثمَّ انظرْ إِلىٰ مَسيرِ الشَّمسِ في فَلَكِها ، وإِيلاجِ اللَّيلِ في النَّهار ، وكيفَ جعلَ اللهُ اللَّيلَ لِباساً والنَّومَ سُباتاً لِلاستراحة ، والنَّهارَ معاشاً .

وقدِ اتَّفقَ النَّاظرونَ علىٰ أَنَّ الشَّمسَ مِثلُ الأَرضِ مئةً ونيِّفاً وستِّينَ مرَّة ، ومِنَ الكواكبِ ما يزيدُ علىٰ مئةِ مرَّةٍ مِنَ الأَرض ، وبهـٰذا تعرفُ ارتفاعَها وبُعدَها .

ولقد أَحسنَ القائِل :

وَالنَّجْـمُ تَسْتَصْغِـرُ الأَبْصَـارُ رُؤْيَتَـهُ وَالذَّنْبُ لِلطَّرْفِ لاَ لِلنَّجْمِ فِي الصِّغَرِ

وفي الأَخبارِ أَنَّ ما بينَ كلِّ سماءٍ إِلى الأُخرىٰ في مسيرةِ خمس مئة عام ، فإِذا كانَ مقدارُ كوكبٍ واحدٍ مِثلَ الأَرضِ أَضعافاً . فانظرْ إِلىٰ كثرةِ الكواكبِ مركوزةً فيها ، وإِلىٰ عِظَمِهَا وسرعةِ حَرَكَتِها ، وأَنتَ لا تُحسُّ بحركَتِها فضلاً عن أَنْ تُدركَ سُرعَتَها ، وانظرْ إِلىٰ عِظَمِ شَخْصِها وخفَّةِ حَرَكَتِها ، ثمَّ انظرْ إِلىٰ قُدرةِ الفاطرِ الحكيمِ كيفَ أَثبتَ صورتَها العظيمةَ في حدقةِ أَعيُننا الصَّغيرة! فسبحانَ مَنْ خَلَقَها وخَلَقَنا ثمَّ خاطَبنا بقوله : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ .

فيا عجباً لِنفسٍ تُنكرُ البعثَ وما أَعماها ، أَما أَظهرَ الأَدلَّةَ لَها وجلاها ؟! مَنِ الَّذي مدَّ الأَرضَ ودَحاها ، وابتعثَ الغمامَ فسقاها ؟! ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ أَما في هٰذا دليلٌ لَها ، فما أَشقاها! ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾ .

إِلٰهٌ عظيمٌ لَم يَزلْ إِلٰهاً ، وملكٌ كبيرٌ لا يتناهىٰ ، يَسمعُ صريفَ الأَقلامِ ومجرَاها ، ولا تخفىٰ عليهِ خافيةٌ ممَّنْ أَخفاها ، يَقسمُ الأَرزاقَ فما يتركُ ذَرَّةً ولا يَنساها ، أَحكَمَ الأُمورَ كلَّها وقضاها ، وعلىٰ ما سَبَق عِلمُهُ بها أَمضاها ، سواءٌ أَسخطَ النُّفوسَ أَو أَرضاها ، وكما قدَّرَ مبدأَها . . قدَّرَ منتهاها .

أَحاطَ الأَجسامَ بمصالحِها ورعاها ، ولَطَفَ بالنُّفوسِ في التَّكليفِ وراعاها ، وفَتَحَ بابَ الكرمِ ثمَّ استدعاها ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ .

مَنْ جاءَ بالشمسِ وضُحاها ، والقمرِ إِذا تلاها ، والنَّهارِ إِذا جلاَّها ، واللَّيلِ إِذا يَغشاها ؟ مَنْ أَهلَكَ ثمودَ بِطَغْوَاها إِذِ انبعثَ أَشقاها ؟

مَنْ رتَّبَ الطَّلعَ في الجُفِّ[1] ، مَنْ صفَّ حبَّ الرُّمانِ إِذْ صفَّ ، مَنْ أَنشأَ ذوات الظِّلفِ والخفِّ ، مَنِ الَّذي تعلَّقت بفضلهِ الأَكُفّ ، فكفَّها بالغرضِ وكفاها ؟

مَنْ أَخرجَ الأُصولَ لا مِنْ أُصول ، مَنْ بقدرتهِ يَبطشُ ويَصول ، ويقولُ للشَّيء : كُن ، فيكونُ كما يقول ؟ لا يمتنعُ عنِ الإِرادةِ ولا يأْباها .

يقولُ لِلأَشياء : عودي . فتَعود ، وترجعُ مخضَّرةً بعدَ يبسِ العُود ، ويَقضي لأَقوامٍ بالشَّقاءِ ولأَقوامٍ بالسُّعود ، واهاً لذلكَ اليومِ واهاً .

خَلَقَ آدمَ مِنْ طينٍ جامد ، وحوَّاءَ مِنْ ضلعٍ واحد ، وعيسىٰ مِنْ أُمٍّ بلا والد ، ذاكَ القادرُ علىٰ إِعادةِ البائد ، فما أَجهلَ النُّفوسَ المنكِرَةَ وما أَجفاها!

مَنْ نقلَ المنيَّ إِلىٰ عَلَقة ، مَنْ خَلَقَ الأَنفَ وشقَّ الحدقَة ، مَنْ أَخرجَ مِنْ يابسِ الغصنِ الورقة ، وقد كانَ عرياناً فاكتساها .

---

(١) الجفُّ ، بضمِّ الجيم : وعاءُ الطَّلعِ أَو غشاؤُهُ . اهـ منه .

تخلو الأَبدانُ مِنْ أَرواحِها وتفرغ ، ثمَّ تطلعُ شمسُ الحياةِ عليها وتَبزغ ، فتصعدُ قلوبُ الكافرِينَ إِلى الحناجرِ وتبلغ ، وتبلغُ نفوسُ المؤمنينَ مُناها .

يومٌ عظيم كم فيهِ مِنْ عذابٍ أَليم ، إِلاَّ مَنْ أَتى اللهَ بقلبٍ سليم ، يَجثوا فيهِ الخليلُ والكليم ، ويشفعُ صاحبُ (طٰه) .

يا هٰذا ؛ تفكَّر في أَمرِك ، وانقضاءِ عمرك ، وإِخراجكَ مِنْ قصرك ، والوزرُ علىٰ ظهرك ، ومحاسبتكَ علىٰ سرِّكَ وجهرك ، تفكَّرْ في إِثباتِ أَعمالِك ، وخيبةِ آمالِك ، ووقوفكَ وسؤَالِك ، وربَّما كنتَ الهالك .

وفَّقنا اللهُ تعالىٰ وإِيَّاكُم لمراضِيه ، وجعلَنا ممَّنْ يتفكَّرُ في نَفْسهِ وظاهرهِ وخافيه .

اللَّهُم ؛ أَسلَمْنا وجوهَنا إِليك ، وفوَّضنا أُمورَنا إِليك ، وأَلجأْنا ظهورَنا إِليك ، رغبةً ورهبةً إِليك ، لا ملجأَ ولا منجا مِنكَ إِلاَّ إِليك .

اللَّهُم ؛ آمنَّا بكتابِكَ الَّذي أَنزلت ، وبنبيِّكَ الَّذي أَرسلت .

اللَّهُم ؛ اجعلْ في قلوبِنا نوراً نهتدي به إِليك ، ووفِّقنا للأَعمالِ الصَّالحةِ المقرّبةِ لَدَيك ، وعامِلْنا بفضلِكَ وكرمِكَ ولا تفضَحْنا ـ يا سيِّدَنا ـ يومَ العرضِ بينَ يديك ، واغفِرْ لَنا ولوالدينا وأَقارِبنا ومشايخِنا وللجماعةِ الحاضرين ، ولجميعِ أَمواتِ المسلمين ، وارحمنا إِذا عُدنا إِليهِم برحمتكَ يا أَرحمَ الرَّاحِمين .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وآلهِ وصحبهِ أَجمعين .

* * *

المجلس الخامس والثَّلاثون
في الغيبة والنميمة وشبههما من الكبائر

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي سيَّرَ بقدرتهِ الفُلكَ والفَلك ، ودبَّرَ بصُنعهِ الضَّوءَ والحلك ، اختارَ آدمَ فحسدَهُ إبليسُ وغبطَهُ الملك ، وافتخرَ بالتَّسبيحِ والتَّقديس ، فأمَّا إبليس . . فهلَك ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ .

أَحمدُه ، وهوَ بالحمدِ جدير ، وأُقرُّ بأَنَّهُ مالكُ التَّصويرِ والتَّصيير ، تعالىٰ عن نظير ، وتنزَّهَ عن وزير ، قبلَ مِنْ خَلقهِ اليسير ، وأَعطىٰ مِنْ رزقهِ الكثير .

أَنشأَ السَّحابَ يَحملُ الماءَ النَّمير ؛ ليعمَّ عبادَهُ بالخيرِ ويمير ، فكلَّما قصَّرَ القطرُ في الوَقع . . صاحَ الرَّعدُ بصوتِ الأَمير ، وكلَّما أَظلمتْ مسالكُ الغيث . . لاحَ البرقُ يوضحُ ويُنير ، فقامتِ الوَرْقُ على الوَرَقِ ، وتصدحُ وتمدحُ علىٰ جَنَباتِ الغدير .

فالجمادُ ينطقُ بلسانِ حاله ، والنَّباتُ يتكلَّمُ بحركاتهِ وأَشكالِه ، والكلُّ إِلى التَّوحيدِ يُشير ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

وأُصلِّي وأُسلِّمُ علىٰ رسولِهِ محمَّدٍ البشيرِ النَّذير ، وعلىٰ صاحبِهِ أَبي بكرٍ الصِّدِّيقِ الكبير ، وعلىٰ عمرَ ذي العدلِ الغزير ، وعلىٰ عثمانَ الَّذي جهَّزَ جيشَ العسرةِ في الزَّمانِ العسير ، وعلىٰ عليٍّ المخصوصِ بالموالاةِ يومَ الغدير ، وعلىٰ بقيَّةِ الآلِ والأَصحابِ ما ذُكِرَ التَّهليلُ والتَّكبير .

أَمَّا بعد : فقدَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ

﴿ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ .

فنقولُ ـ وباللهِ تعالى التَّوفيقُ ـ : اختلفَ المفسرونَ في سببِ نزولِها علىٰ أَقوال :

أَوَّلُها : الَّذي عليهِ الجمهورُ أَنَّ ثابتَ بنَ قيس بنِ شمَّاسٍ كانَ في أُذنيهِ وقر ، وكانَ إذا لقيَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم . . أَوسعوا لَهُ حتَّىٰ يجلسَ إلىٰ جَنْبهِ فيسمعَ ما يقول ، فجاءَ يوماً وقد أَخذَ النَّاسُ مجالسَهُم فجعلَ يتخطَّىٰ رقابَ النَّاس ، ويقول : تفسَّحوا ، تفسَّحوا ، فقالَ لَهُ رجل : قد أَصبتَ مجلساً فاجلِس ، فجلسَ ثابتٌ مغضباً ، ثمَّ قالَ للرَّجل : يا فلانُ ابن فلانة ، يريدُ أَنَّهُ كانَ يُعيَّرُ بها في الجاهليَّة ، فسكتَ الرَّجلُ استحياء ، فنزلَت .

ثانيها : أَنَّها نزلَتْ في كعبِ بنِ مالك ، قالَ لعبدِ الله : يا أَعرابي ؛ فقالَ لَهُ عبدُ الله : يا يهودي .

ثالثها : أَنَّها نزلَتْ في جماعةٍ استهزَؤُوا بالفقراء .

وأَمَّا قولُه تعالىٰ : ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ قيلَ في عائشةَ رضيَ اللهُ عنها وقد عابَتْ أُمَّ سَلمةَ بِالقِصَر .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما : أَنَّ صفيَّةَ بنت حييٍّ أَتت رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَت : إنَّ النِّساءَ يُعيِّرنني ويَقُلْن : يا يهوديَّة بنتَ يهوديين : فقالَ لَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « هَلاَّ قُلْتِ : إِنَّ أَبي هَارُون ، وعَمِّيَ مُوسَىٰ ، وَزَوْجِي مُحَمَّد » .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ أَي : أَحدٌ مِنْ أَحد ، والسُّخريةُ هي : الاستهزاء .

ومعنى الآية : النَّهي عنِ الاستهزاء ، فإِنَّهُ مِنَ الكبائرِ علىٰ ما قيل ، وقد يكونُ كفراً ـ والعياذُ باللهِ تعالىٰ ـ علىٰ ما صرَّحَ بهِ الفقهاءُ الحنفيَّة ، كما إِذا استهزأَ إنسانٌ بواعظٍ أَو

خطيبٍ أَو قاضٍ أَو نحوِ ذلكَ وتزيّا بزيِّهِم ؛ ليُضحِكَ الحاضرين ، كما قدَّمناهُ في بعضِ الدُّروسِ الماضية .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ تعليلٌ لِلنَّهي ؛ أَي : عسىٰ أَنْ يكونَ المسخورُ منهُم خيراً عندَ اللهِ تعالىٰ مِنَ السَّاخرين ، فـ : « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْن ، لاَ يُؤْبَه لَه ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ . . لأَبَرَّه » .

وجُوّزَ أَنْ يكونَ المعنىٰ : لا يحتقرْ بعضٌ بعضاً عسىٰ أَنْ يصيرَ المحتقِرُ ذليلاً والمحتقَرُ عزيزاً فينتقمَ منه ، فهوَ نظيرُ قولِ الشَّاعر :

لاَ تُهِينَ الْفَقِيرَ عَلَّكَ أَنْ تَرْكَعَ يَوْماً وَالدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهْ

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ أَي : لا يعِبْ بعضُكم بعضاً بقولٍ وإِشارة ؛ لأَنَّ المؤمنينَ كنَفْسٍ واحدة ، فمتىٰ عابَ المؤمِنُ المؤمن . . فكأَنَّما عابَ نَفْسَه ، كما في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

وقيل : اللَّمزُ مخصوصٌ بما كانَ مِنَ السُّخريةِ علىٰ وجهِ الخفية ، كالإِشارة .

وقالَ ابنُ جرير : اللَّمزُ باليدِ والعينِ واللِّسانِ والإِشارة ، والهمزُ لا يكونُ إِلاَّ باللِّسان ، وعلىٰ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ .

وقالَ الضَّحاك : لا يَلعنْ بعضُكم بعضاً .

وقد ورد : « سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ ، وَقِتَالُهُ كُفْر » . قالوا : ولا ينبغي كلُّ ذلكَ لِلمؤمنين ، حتَّىٰ قالَ ابنُ مسعود[رضي الله عنه] : لَو سَخِرْتُ مِنْ كلب . . لَخشيتُ أَنْ أُحوَّلَ كلباً! .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ أَي : لا يَدعوا بعضُكم بعضاً باللَّقبِ القبيح . والنَّبز : اللَّقب ، وجمعُهُ : أَنباز .

قالَ المفسِّرون : وذلكَ مثلُ أَنْ يَقولَ لأَخيهِ المسلِم : يا فاسق ، يا منافق ، أَو يقولُ لمَنْ أَسلم : يا يهودي ، أَو : يا خنزير .

وعنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما : التَّنابزُ أَنْ يكونَ الرَّجلُ عَمِلَ السَّيِّئاتِ ثمَّ تابَ منها ، فنهى اللهُ تعالىٰ أَنْ يُعيَّرَ بما سلف .

قيل : والتَّلقيبُ المنهيُّ عنهُ هوَ ما يتداخلُ المدعوَّ بهِ كراهة ، فأَمَّا ما يحبُّه . . فلا بأْس .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ ﴾ أَي : بئسَ الاسمُ أَنْ يُذكَرَ بالفسق . والاسمُ هنا ـ علىٰ ما قالَ بعضُ أَجلَّةِ المفسِّرين ـ ليسَ المرادُ بهِ ما يقابلُ اللَّقبَ والكُنية ، ولا ما يقابلُ الفعلَ والحرف ، بلِ المرادُ به : اَلذِّكرُ المرتفع ؛ لأَنَّهُ مِنَ السُّمو ، مِنْ قولِهم : طارَ اسمُهُ في النَّاسِ بالكَرَم ، كأَنَّهُ قيل : بئسَ الذِّكرُ المرتفعُ لِلمؤْمنينَ بسببِ ارتكابِ هـٰذهِ الجرائمِ أَنْ يُذكَروا بالفسق .

﴿ بَعْدَ ﴾ دخولِهم في ﴿ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ استقباحٌ لِلجمعِ بينَ الإيمانِ والفسق . وقيل : اَلمعنىٰ : إِنَّ مَنْ فعلَ ما نهيَ عنهُ مِنَ السُّخريةِ واللَّمزِ والنَّبز . . فهوَ فاسق .

﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ عمَّا نهى اللهُ عنه ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ لأَنفسِهم ولمَنْ لقَّبوهُ ولمَزوهُ وسخروا به . انتهىٰ ملخَّصاً .

فتبيَّنَ مِنْ سببِ النُّزولِ أَنَّ الغضبَ إِذا لَم يَكُنْ لله . . فإِنَّهُ غيرُ محمود ، وأَنَّ الصَّفحَ أَمرٌ محبوب ، والعفوَ وكظمَ الغيظِ أَعزُّ مطلوب ، فعنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما ، أَنَّهُ سأَلَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : ما يُباعدُني مِنْ غضبِ اللهِ عزَّ وجل ؟ قال : « لاَ تَغْضَب » .

ورُوِيَ أَنَّ رجُلاً قال : يا رسولَ الله ؛ قلْ لي قولاً وأَقلِل ؛ لعلّي أَعيه ، قال : « لاَ تَغْضَب » فأَعادَ عليهِ مراراً ، كلَّ ذلكَ يقول : « لاَ تَغْضَب » .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « ثلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيه . . آوَاهُ اللهُ فِي كَنَفِه ، وَسَترَ عَلَيْهِ برَحْمَتِه ، وَأَدْخَلَهُ فِي محبَّتِه : مَنْ إِذَا أُعْطِي . . شَكَر ، وَإِذَا قَدَر . . غفَر ، وَإِذَا غَضِب . . فَتَر » .

وعن أَبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنه ، أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « إِذا غَضِبَ

أَحدُكُمْ وَهُوَ قَائِم . . فَلْيَجْلِسْ ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَب ، وَإِلا . . فَلْيَضْطَجِع » .

وروي أَيضاً أَنَّ الوضوءَ وقولك : أَعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ مُذهِبٌ لَهُ أَيضاً .

وقد وردت أَيضاً في كظمِ الغيظِ بعضُ الآياتِ الجليلة ، منها : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وفي الحديثِ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « وَالْعَفْوُ لاَ يَزِيدُ العَبْدَ إِلاَّ عِزّاً ، فَاعْفُوا يُعِزُّكُمُ الله » .

وروى الطَّبرانيُّ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « يُنَادِي مُنادٍ يَوْمَ الْقِيَامَة : لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ على اللهِ فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّة » قيل : مَنْ هُم ؟ قال : « الْعَافُونَ عَنِ النَّاس » .

قالَ غيرُ واحدٍ مِنَ العلماء : إِنَّ السُّخريةَ والتَّنابزَ مِنَ الكبائر ، ونحو ذلكَ : التَّهاجرُ ، والتَّشاحنُ ، والتَّلاعنُ ، ونحوه .

ولنذكر بعضَ الأَحاديثِ المتعلِّقةِ بذلكَ لِيتجنَّبَ كلٌّ مِنّا عنِ الوقوعِ في المهالِك ، ففي كتابِ « التَّرغيبِ والتَّرهيب » أَنَّ البخاريَّ روىٰ عن أَنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « لاَ تَقَاطَعُوا وَلاَ تَدَابَرُوا ، وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً ، وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَث » ، زادَ الطَّبراني : « يَلْتَقِيَان ، فَيُعْرِضُ هَـٰذَا ، وَيُعْرِضُ هَـٰذَا ؛ وَالَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ يَسْبِقُ إِلى الْجَنَّة » .

وعن جابرِ بنِ سليمٍ رضيَ اللهُ عنهُ قال : رأَيتُ رجلاً يصدرُ النَّاسُ عن رأْيه ، لا يقولُ شيئاً إِلاَّ صَدروا عنه ، قلت : مَنْ هـٰذا ؟ قالوا : رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، قلت : عليكَ السَّلامُ يا رسولَ الله ـ مرتين ـ . قال : « لاَ تَقُل : عَلَيْكَ السَّلاَم ؛ فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّلاَمُ تَحِيَّةُ المَيْت ، قُل : السَّلامُ عَلَيْك » قال : قلت : أَنتَ رسولُ الله ؟ قال : « أَنَا رَسُولُ اللهِ الَّذِي إِذا أَصَابَكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَه . . كَشَفَهُ عَنْك ، وَإِنْ أَصَابَكَ عَامُ سَنَةٍ فَدَعَوْتَه . . أَنْبَتَهَا لَك ، وَإِذا كُنْتَ بِأَرْضٍ قَفْرَاءَ أَو فَلاَةٍ فَضَلَّتْ رَاحِلَتُكَ فَدَعَوْتَه . . رَدَّهَا عَلَيْك » قال : قلت : اعهدْ إِلي ، قال : « لاَ تَسُبَّنَّ أَحَداً » قال : فما

سببتُ بعدَهُ حُراً ولا عَبْداً ولاَ بعيراً ولا شاة . قال : « ولاَ تَحْقِرَنَّ شَيْئاً مِنَ الْمَعْرُوف ، وَأَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ وَجْهُك ، إِنَّ ذلكَ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَارْفَعْ إِزَارَكَ إِلَىٰ نِصْفِ السَّاق ، فَإِنْ أَبَيْتَ . . فَإِلَى الْكَعْبَيْن ، وَإِيَّاكَ وإِسْبَالَ الإِزَار ؛ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ[1] ، وإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمَخِيلَة ، وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ وَ عَيَّرَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيك . . فَلاَ تُعَيِّرْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيه ، فَإِنَّمَا وَبَالُ ذلِكَ عَلَيْه » رواهُ أبو داوود والتِّرمذي .

وعنِ ابنِ عمرو : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْه » قيل : يا رسولَ الله ؛ وَكيفَ يَلعنُ الرَّجلُ وَالدَيْه ؟ قال : « يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاه ، وَيَسُبُّ أُمَّه » .

وقال : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذا لَعَنَ شَيْئاً . . صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلى السَّمَاء ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا ، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلى الأَرض ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا ، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِيناً وَشِمَالاً ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مَسَاغاً . . رَجَعَتْ إِلى الَّذِي لُعِنَ إِنْ كَانَ أَهْلاً ، وَإِلا . . رَجَعَتْ إِلىٰ قَائِلِها » .

ولنرجع إِلى الكلامِ علىٰ بقيَّةِ الآيات ، فنقول : قالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ الآية .

يُقال : جنَّبَهُ الشَّر ، إِذا أَبعدَهُ عنه ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ والظَّنُّ هنا مجرَّدُ التُّهمةِ الَّتي لا سببَ لَها ، كمَنْ يتَّهمُ غيرَهُ بشيءٍ مِنَ الفواحشِ ولَم يَظهرْ عليهِ ما يقتضي ذلك .

وأَمرَ سبحانَهُ باجتنابِ الكثيرِ وأَبهمَ ليفحصَ المؤمنُ عن كلِّ ظنٍّ يَظنُّهُ حتَّىٰ يعلمَ وَجهَه .

قالَ الزَّجَّاج : هوَ أَنْ يظنَّ بأَهلِ الخيرِ سوءاً ، فأَمَّا أَهلُ السُّوءِ والفسوق . . فلنا أَنْ نظنَّ بِهم مثلَ الَّذي ظهرَ منهُم .

قيل : ولا بأْسَ بهِ ما لَم يتكلَّمْ به ، فإِنْ تكلَّمَ بذلكَ الظَّنِّ وأَبداه . . أَثِم .

ونقلَ ابنُ الجوزيِّ عن بعضِ العلماءِ : أَنَّهُ يأْثمُ بنَفْسِ الظَّنِّ وإِنْ لَم يَنطقْ به . قال :

---

(١) المخيلة : التّكبر والعجب بنفسه . اهـ منه .

وأَمَّا ما وردَ في الحديثِ مِنْ قولِه : « احْتَرِسُوا مِنَ النَّاسِ بِسُوءِ الظَّن » فالمرادُ : الاحتراسُ بحفظِ المال، مثلُ أَنْ يقول : إِنْ تركتُ بابيَ مفتوحاً . . خشيتُ السَّارق . اهـ

قالَ الغزالي : وسببُ تحريمه : أَنَّ أَسرارَ القلوبِ لا يَعلمُها إِلاَّ علاَّمُ الغيوب ، فليسَ لكَ أَنْ تعتقدَ في غيركَ سوءاً إِلاَّ إِذا انكشفَ لكَ بعِيانٍ لا يَقبلُ التَّأْويل ، وهٰذا الظَّنُّ يُلقيهِ الشَّيطان ، وروىٰ أَبو هريرةَ عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَنَّهُ قال : « إِيَّاكَ وَالظَّن ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيث » .

وقالَ العلاَّمةُ أَبو السُّعود :

مِنَ الظَّنِّ ما يجبُ اتِّباعُه ؛ كالظَّنِّ فيما لا قاطعَ فيهِ مِنَ العملياتِ وحُسنِ الظَّنِّ باللهِ تعالىٰ .

ومنهُ ما يَحرم ؛ كالظَّنِّ في الإِلٰهيَّاتِ والنُّبوَّاتِ وحيثُ يخالفُهُ قاطع ـ أَي : دليلٌ ظاهر ـ وظنِّ السَّوءِ بالمؤمنين .

ومنهُ ما يُباح ؛ كالظَّنِّ في الأُمورِ المعاشيَّة . اهـ

ثمَّ لمَّا أَمرهُم سبحانَهُ باجتنابِ كثيرٍ مِنَ الظَّن . . نهاهُم عنِ التَّجسس ، فقال : ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ والتَّجسُّسُ بالجيمِ كما قرأَ الجمهور ، وهو : البحثُ عن معايبِ النَّاسِ حتَّىٰ يَطَّلعَ عليها بعدَ أَنْ سترَها اللهُ تعالىٰ .

وقُرِىءَ بالحاءِ المهملَة ، وهو : طلبُ الأَخبارِ والبحثُ عنها .

وقيل : هُما بمعنىً .

وروىٰ عقبةُ بنُ عامر ، أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « مَنْ رَأَىٰ عَوْرَةً فَسَتَرَهَا . . كَانَ كَمَنْ أَحْيَا مَوْؤُودَة » .

وروىٰ « مسلمٌ » أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « لاَ يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْداً فِي الدُّنْيَا . . إِلاَّ سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَة » .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أَي : لا يتناولْ بعضُكم بعضاً بظَهْرِ الغيبِ بما يَسوؤُه ، ثمَّ ضربَ اللهُ تعالىٰ للغيبةِ مثلاً : ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾

وبيانُه : أَنَّ ذِكرَكَ مَنْ يَحضُركَ بسوءٍ بمنزلةِ أَكلِ لَحْمِهِ وهوَ ميتٌ لا يحسُّ بذلكَ ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ فلا تَفعلوا .

والمعنىٰ : فكما كرهتُم هـٰذا الأَكلَ فاجتنبوا ذِكرَهُ بالسُّوء .

وفي ذلكَ إِشارةٌ إِلىٰ أَنَّ عِرضَ الإِنسانِ كَلَحْمِه ، وهيَ مِنَ الكبائر ، وأَمَّا ما رواهُ أَبو بكرةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ قال : بينما أَنا أُماشي رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وآخِذٌ بيدي ورجلٌ عن يساري . . فإذا نحنُ بقبرَينِ أَمامَنا ، فقال : « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَان ، وَمَا يُعَذَّبَانِ بِكَبِير ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا . . فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَة ، وَأَمَّا الآخَر . . فَكَانَ لاَ يَسْتَنْزِهُ مِنَ الْبَوْل » وفي رواية : « وَمَا يُعَذَّبَانِ إِلاَّ فِي الْغِيبَةِ وَالْبَوْل » فمحمولٌ علىٰ أَنَّ ذلكَ ليسَ بكبيرٍ في زعمِهِما .

والغيبةُ هي : ذِكرُكَ أَخاكَ بما يَكرَه ، فقد روىٰ مسلم أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَة ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُهُ أَعلم! قال : « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَه » فقيل : أَفرأَيتَ إِنْ كانَ في أَخي ما أَقول ؟ فقال : « إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُول . . فَقَدِ اغْتَبْتَه ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيه . . فَقَدْ بَهَتَّه » .

قال الحسن : الغيبةُ ثلاثةُ أَوجه ، كلُّها في كتابِ اللهِ تعالىٰ ؛ الغيبة ، والإِفك ، والبهتان .

فأَمَّا الغيبة ، فهي : أَنْ تقولُ في أَخيكَ ما هوَ فيه .

وأَمَّا الإِفك ، فهو : أَنْ تقولَ فيهِ ما بلغكَ عنه .

وأَمَّا البهتان ، فهو : أَنْ تقولَ ما ليسَ فيه .

وسنوردُ إِنْ شاءَ اللهُ تعالى الأَحاديثَ الواردةَ بجميعِ ذلكَ وشبهه .

واعلَمْ أَنَّ الغيبة أَقسام ، فمِنْ أَعظَمِها : غيبةُ الأَولياءِ نفعنا اللهُ تعالىٰ بهِم ، وغيبةُ العلماء ، حتَّىٰ قالَ بعضُهم : إِنَّهُ لا فَرْقَ في عدمِ جوازِ غيبةِ العالمِ بينَ العاملِ بعِلْمهِ وغيره إِكراماً لعِلْمه .

ولقد أَحسنَ القائل :

لُحُــومُ أَهْــلِ الْعِلْــمِ مَسْمُــومَــةٌ   وَمَــنْ يُعَــادِيهِــم سَــرِيــعُ الْهَــلاَكْ
فَكُــنْ لأَهْــلِ الْعِلْــمِ عَــوْنــاً وَإِنْ   عَــادَيْتَهُــم يَــوْمــاً فَخُــذْ مَــا أَتَــاكْ

قالَ الوالد : والأَشبهُ أَنْ يكونَ حُكمُ مَنِ استمعَ الغيبةَ كحُكمِ مَنِ اغتابَ إِذا كانَ لَهُ قدرةٌ على دفعِها ، ولذا قالوا : إِنَّ الإِنكارَ على المغتابِ واجب ، فقد روىٰ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « مَا مِنْ امْرِىءٍ يَخْذُلُ امْرأً مُسْلِماً فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ ، وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ . . إِلاَّ خَذَلَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَه ، وَمَا مِنْ امْرِىءٍ يَنْصُرُ مُسْلِماً فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِه . . إِلاَّ نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَه » .

وفي حديثٍ آخَرَ ذكرَهُ في « التَّبصرة » أَيضاً : أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « مَنْ أُذِلَّ عِنْدَهُ مُؤْمِنٌ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَىٰ نُصْرَتِهِ فَلَمْ يَنْصُرْه . . أَذَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ » .

ونقلَ الوالدُ عليهِ الرَّحمةُ عنِ الغزاليِّ أَنَّهُ سُئلَ عن غيبةِ الكافر ، فقال : هيَ في حقِّ المسلمِ محذورةٌ لِثلاثةِ علل : الإِيذاء ، وتنقيصُ خَلْقِ اللهِ تعالىٰ ، وتضييعُ الوقتِ بما لا يعنيه ، والأَوَّلُ يقتضي التَّحريم ، والثَّاني الكراهة ، والثَّالثُ خلافَ الأُولىٰ ، وأَمَّا الذِّمي . . فكالمسلم فيما يرجعُ إِلى المنعِ عنِ الإِيذاء ؛ لأَنَّ الشَّرعَ عَصَمَ عِرضَهُ ودَمَهُ ومالَه ، وقد روى ابنُ حبَّانَ في « صحيحه » : أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « مَنْ سَمَّعَ يَهُودِيّاً أَوْ نَصْرَانِيّاً . . فَلَهُ النَّار » .

ومعنىٰ « سمَّعَه » : أَسمعَهُ ما يُؤْذيه . ولا كلامَ بعدَ هـٰذا في الحرمة .

وأَمَّا الحربي : فغيبتُهُ ليست بحرامٍ على الأُولىٰ ، وتُكرَهُ على الثَّانية ، وخلافُ الأَولىٰ على الثَّالثة .

وأَمَّا المبتدع : فإِنْ كفر . . فكالحربي ، وإِلا . . فكالمسلم . وأَمَّا ذِكرُهُ ببدعته . . فليسَ مكروهاً .

وقد تجبُ الغيبةُ لغرضٍ شرعيٍّ لا يتوصَّلُ إليهِ إلاَّ بها ، وتنحصرُ في ستَّةِ أَسباب :

[الأَوَّلُ] : التَّظلُّمُ عندَ مَنْ لَهُ قدرةٌ على الإزالة .

الثَّاني : الاستعانةُ علىٰ تغييرِ المنكَر .

الثَّالث : الاستفتاء .

الرَّابع : تحذيرُ المسلمينَ مِنَ الشَّر ؛ كجرحِ الشُّهودِ والرُّواة ، والمصنِّفين ، والمتَصدِّينَ لإفتاءٍ أَو إقراءٍ معَ عدمِ الأَهلية .

الخامس : أَنْ يتجاهرَ بفِسْقه .

السَّادس : التَّعريفُ بنحوِ لقب ؛ كالأَعمش .

ويجبُ على المغتابِ أَنْ يُبادِرَ إلى التَّوبةِ بشروطِها ، قيل : ومِنها : أَنْ يَستحلَّ مِنَ المغتاب ، وأَنْ يُكثرَ الاستغفارَ ولا سيّما إذا كانَ المغتابُ غائباً أَو ميتاً ، وأَنْ يستغفرَ لَهُم ؛ فإنَّ اللهَ هوَ التَّوابُ الغفور .

ولنذكر بعضَ الأَحاديثِ في الغيبةِ وشبهِها ممَّا وَعَدْنا بذِكرِها :

فمِنْ ذلك : ما رواهُ البراءُ رضيَ اللهُ عنهُ قال : خطبنا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ أَسمعَ العواتِقَ[1] ، ثمَّ قال : « يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنْ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَه ؛ لاَ تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِين ، وَلاَ تَتَبِعُوا عَوْرَاتِهِم ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَةَ أَخِيه . . يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَه ، حَتَّىٰ . . يَفْضَحَهُ فِي جَوْفِ بَيْتِه » .

وعن جابرٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الْغِيبَةُ أَشَدُّ مِنَ الزِّنَا »قالوا : يا رسولَ الله ؛ كيف ؟ قال : « إِنَّ الرَّجُلَ يَزْنِي فَيَتُوبُ فَيَتُوبُ اللهُ عَلَيْه ، وَإِنَّ صَاحِبَ الْغِيبَةِ لاَ يُغْفَرُ لَهُ حَتَّىٰ يَغْفِرَ لَهُ صَاحِبُه » .

وذَكرَ رجلٌ رجلاً عندَ معروفٍ الكرخي ، فجعلَ معروفٌ يقولُ لَه : اذكرِ القطنَ إذا وضعوهُ في عينيك .

---

(١) أَي : النِّساء . اهـ منه .

وقالَ عمرُ بن الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنه : كفىٰ بالمرءِ عَيباً أَنْ يستبينَ لَهُ مِنَ النَّاسِ ما يخفىٰ عليهِ مِنْ نَفْسِه ، ويمقتَ النَّاسَ علىٰ ما يأْتي به .

وقيلَ للرَّبيع : ما نراكَ تذمُّ أَحداً ؟ فقال : ما أَنا علىٰ نَفْسي براضٍ فأَتفرَّغَ مِنْ عيبِها إِلىٰ غيرِها ، إِنَّ النَّاسَ خافوا اللهَ تعالىٰ علىٰ ذنوبِ العبادِ وأَمِنوهُ علىٰ ذنوبِهِم .

ولقد أَحسنَ القائل :

لِسَانَكَ لاَ تَذْكُرْ بِهِ عَوْرَةَ امْرِىءٍ ... فَكُلُّكَ عَوْرَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنُ

وكذا القائل :

يَمْنَعُنِي مِنْ عَيْبِ غَيْرِي الَّذِي ... أَعْرِفُهُ فِيَّ مِنَ الْعَيْبِ
عَيْبِي لَهُمْ بِالظَّنِّ مِنِّي لَهُم ... وَلَسْتُ مِنْ عَيْبِيَ فِي رَيْبِ
إِنْ كَانَ عَيْبِي غَابَ عَنْهُمْ فَقَدْ ... أَخْفَىٰ عُيُوبِي عَالِمُ الْغَيْبِ

وأَمَّا البهتان : فهوَ أَيضاً مِنَ الكبائر ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ .

وروىٰ أَبو داوود عنه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَنَّهُ قال : « مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيه . . أَسْكَنَهُ اللهُ فِي رَدْغَةِ الْخَبَالِ حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِمَّا قَالَه » وردْغة الخبال : عُصارةُ أَهلِ النَّار .

ونحو ذلكَ شهادةُ الزُّور ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ فقد قرنَ سبحانَهُ قولَ الزُّورِ بالشِّرك .

روى البخاريُّ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ » قُلْنَا : بلىٰ يا رسولَ الله . قال : « الإِشْرَاكُ بِالله ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْن » وكانَ مُتَّكِئاً فجلس ، فقال : « أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّور ، أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّور » فما زالَ يقولُ حتَّىٰ قالوا : لا يسكت .

وكذا النَّميمةُ محرَّمة ، بل هيَ مِنَ الكبائر ، ففي « الصَّحيحين » عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّات » وفي لفظ : « نَمَّام » .

وقال عزَّ وجل : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ أي : كثير الحلفِ بالباطل : ﴿ مَّهِينٍ ﴾ أي : كذَّاب ، أو مكثارٍ في الشَّر . ﴿ هَمَّازٍ ﴾ أي : مغتابٍ للنَّاس ، أو عيّابٍ لَهُم . ﴿ مَّشَّآءِ بِنَمِيمٍ ﴾ وهوَ الَّذي يمشي بالنَّميمةِ بينَ النَّاسِ ليُفسِدَ بينَهُم . ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ أَي : بخيل . وقيل : هوَ الَّذي يَمنعُ أَهْلَهُ وعشيرتَهُ عنِ الإِسلام . ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ أي : متجاوزِ الحدِّ في الظُّلم . ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي : كثيرِ الآثام .

﴿ عُتُلٍّ ﴾ قالَ الفرَّاء : هوَ شديدُ الخصومةِ في الباطل .

وقيل : هوَ الشَّديدُ الخلقِ الفاحش .

وقيل : هوَ قاسي القلب .

﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ أَي : بعدَ ما عدَّ من معايبهِ الثَّمانيةِ هوَ مستلحقٌ بالقومِ وليسَ هوَ منهُم .

وقيل : هوَ مَنْ يَمُرُّ على القوم ، فيقولون : هوَ رجلُ سوء .

وقولُهُ تعالىٰ في تتمَّةِ هـٰذهِ الآيةِ ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ والخرطوم : الأنف . والمرادُ بهِ هنا : الوجه ، وذلكَ أَنَّهُ يَسودُّ وَجهُهُ قَبْلَ دُخولهِ النَّار ، والعياذُ باللهِ تعالىٰ .

واعلمْ أَنَّ العلماءَ قالوا : إِنَّ أَعظمَ أَسبابِ هـٰذهِ الأَخلاقِ الذَّميمةِ هوَ الحسد ، وقد وردَ في التَّحذيرِ منهُ آياتٌ وأَحاديثُ كثيرة ، فمنها : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ .

ومنها : ما رواه ابنُ ماجَهْ : « الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَب ، والصَّدَقَةُ تُطْفِىءُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِىءُ الْمَاءُ النَّار ، وَالصَّلاَةُ نُورُ الْمُؤْمِن ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّار » .

وفي « الصَّحيحين » مِنْ حديثِ أَنس [رضي الله عنه] ، عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « لاَ تَبَاغَضُوا ولاَ تَقَاطَعُوا ، وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَدَابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً » .

وروى التِّرمذيُّ في النَّهي عنِ الشَّماتَةِ ـ أَيضاً ـ قوله عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « لاَ تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لأَخِيكَ . . فَيُعَافِيَهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَيَبْتَلِيَكَ » .

قالَ العلماءُ في الكلامِ علىٰ قولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « دَبَّ فِيكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُم : الْحَسَدُ وَالتَّبَاغُض » .

إنَّ أَعْظَمَ الحسدِ بينَ العلماء ، فلذا لا يُقبَلُ قولُ بعضِهم في بعضٍ إلاَّ ببراهينَ واضحة ، وعلىٰ ذلكَ ما رويَ مِنْ قولِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « إِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ النَّارَ قَبْلَ الْحِسَابِ بِسَنَة » قيل : مَنْ هُم يا رسولَ اللهِ ؟ قال : « الأُمَرَاءُ بِالْجَوْر ، وَالْعَرَبُ بِالْعَصَبِيَّة ، وَالدَّهَاقِين بالتَّكبُّر ، وَالتُّجَّارُ بِالْخِيَانَة ، وَأَهْلُ الرُّسْتَاقِ بِالْجَهَالَة ، وَالْعُلَمَاءُ بِالْحَسَد » .

وللهِ تعالىٰ درُّ القائل :

إنْ يَحْسِدُونِي فَإِنِّي غَيْرُ لاَئِمِهِم ... قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الْفَضْلِ قَدْ حُسِدُوا

فَدَامَ لِي ولَهُم مَا بِي وَمَا بِهِمُ ... وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غَيْظاً بِمَا يَجِدُ

ولنذكر قصَّةً مذكورةً في « الزَّواجر » ؛ ليَعتبرَ بالأَوائلِ الأَواخر :

قال : كانَ بعضُ الصُّلَحاءِ يجلسُ إلىٰ جانبِ مَلِكٍ ينصحُه ، ويقول : أَحسِنْ إلى المُحسنِ بإحسانه ، فإنَّ المسيءَ تكفيهِ إساءَتُه . فحسدَهُ علىٰ قُربهِ مِنَ المَلِكِ بعضُ الجهلة ، وأَعملَ الحيلةَ علىٰ قتلِه ، فسعىٰ بهِ لِلملك ، فقالَ لَه : إنَّ فلاناً يزعمُ أَنَّكَ أَبخرُ[1] ، وأَماراتُ ذلك : أَنَّكَ إذا قربتَ منهُ يضعُ يَدَهُ علىٰ أَنفه ، لئلاَّ يشمَّ رائحة البخر .

فقالَ لَه : انصرفْ حتَّىٰ أَنظر ، فخرج ، فدعا ذلكَ الحاسدُ الرَّجلَ الصَّالحَ إلىٰ دارِهِ وأَطعمَهُ طعاماً فيهِ ثوم ، وجاءَ لِلملِكِ وقالَ لَهُ مِثلَ الأَوَّل ، فجاءَ الصَّالحُ فقالَ مِثلَ قولِهِ السَّابق : أَحسِنْ إلى المحسنِ إلخ .

فقالَ لَه : أُدنُ منِّي ، فدنا منه ، فوضعَ يدَهُ علىٰ فِيهِ مخافَةَ أَنْ يشمَّ الملِكُ منهُ رائحة

(١) البخر : تغيُّرُ ريحِ الفمِ . اهـ منه .

الثُّوم ، فقالَ الملِكُ في نَفْسِه : ما أَرىٰ فلاناً إلا صَدق ، وكانَ الملِكُ لا يَكتبُ بخطِّهِ إلاَّ لجائزةٍ أَو صلة ، فكتبَ لَهُ بخطِّهِ لبعضِ عمّالهِ أَنَّهُ إذا أَتاكَ صاحبُ كتابي هٰذا . . فاذبحهُ واسلخهُ واحشُ جلدَهُ تبناً ، وابعثْ بهِ إليّ .

فأَخذَ الكتابَ وخرج ، فلقيَهُ الَّذي سعىٰ به ، فقال : ما هٰذا الكِتاب ؟

فقال : خَطُّ الملِكُ ليَ بصلَة .

فقال : هَبْهُ مِنِّي .

فقال : هوَ لك .

فأَخذَهُ ومضىٰ إلى العامل ، فقالَ العامل : في كتابِكَ أَنْ أَذبحَكَ وأَسلخك .

قال : إنَّ الكتابَ ليسَ هوَ لِي ، اللهَ اللهَ في أَمري حتَّىٰ أُراجعَ المَلِك .

قال : ليسَ لِكتابِ المَلِكِ مراجعة . فذبحَهُ وسلخَهُ وحشىٰ جلدَهُ تبناً وبعثَ به .

ثمَّ عادَ الرَّجلُ إلى الملِكِ كعادتِه ، وقالَ لَهُ مِثلَ قولِه ، فعجبَ الملِك ، وقال : ما فعلتَ بالكتابِ ؟!

فقال : لَقيني فلانٌ فاستوهبَهُ منِّي فدفعتُهُ لَه .

فقالَ لَهُ الملِك : إنَّهُ ذكرَ لي أَنَّكَ تزعمُ أَنِّي أَبخَر .

قال : ما قلتُ ذلك .

قال : فلِمَ وضَعتَ يدَكَ علىٰ فمك ؟

قال : أَطعَمَني ثوماً ، فكرهتُ أَنْ تَشَمَّه .

قال : صدقت ، فقد قُتِل ، وكفى المسيءَ إساءتُه . فإذا برأْسِهِ قد أُتِيَ بهِ إلى الملِك .

ولذا قيل : للهِ درُّ الحسدِ ما أَعدلَه ، بدأَ بصاحبه فقتلَه .

وقد تبيَّنَ لَكم ممَّا تلوناهُ عليكُم مِنَ الآياتِ البيِّنات والأَحاديثِ النَّبويَّاتِ أَنَّ اللِّسانَ سببٌ في أَكثرِ المهالِك ، وسالكٌ بصاحبه ـ إنْ لَم يَصُنْه ـ في أَسوأ المسالك :

تَعَاهَدْ لِسَانَكَ إِنَّ اللِّسَان   سَرِيعٌ إِلَى الْمَرْءِ فِي قَتْلِهِ
وَهٰذا اللِّسَانُ بَرِيدُ الْفُؤَاد   يَدُلُّ الرِّجَالَ عَلَىٰ عَقْلِهِ

وقد وردَ فيهِ جملةُ أَحاديث :

حديثُ معاذ رضي الله عنه : « وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم » .

وروىٰ أَنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حتَّىٰ يَسْتَقِيمَ قَلْبُه ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّىٰ يَسْتَقِيمَ لِسَانُه » .

وعن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أَنَّهُ سمعَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِب » .

ومِنْ آفاتِ اللِّسانِ أَيضاً : اَلكلامُ فيما لا يعنيه ، وفي الحديثِ الصَّحيح : « مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ : تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيه » .

قالوا : ومِنْ جملةِ ذلك : المزاحُ والمدحُ بما لا يصلح ، ولذا قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه : ما شيءٌ أَحوج إِلىٰ طولِ سجنٍ مِنْ لِسانِك .

وقالَ الفضيل : كانَ بعضُ أَصحابِنا يَعُدُّ كلامَهُ مِنَ الجُمعةِ إِلى الجُمعة .

ولقد أَحسنَ القائل :

اغْتَنِمْ رَكْعَتَيْنِ زُلْفَىٰ إِلَى اللّـ   ـهِ إِذَا كُنْتَ فَارِغاً مُسْتَرِيحَا
وَإِذا مَا هَمَمْتَ بِالنُّطْقِ فِي الْبَا   طِلِ فَاجْعَلْ مَكَانَهُ تَسْبِيحَا
فَاغْتِنَامُ السُّكُوتِ أَفْضَلُ مِنْ خَوْ   ضٍ وَإِنْ كُنْتَ فِي الْحَدِيثِ فَصِيحَا

فيا مُطلِقاً لسانَهُ فيما يُؤْذيه ، يا غافلاً عنِ الكلامِ ولَهُ مَنْ يُحصيه ؛ إِنْ أَردتَ قولاً . . فانظرْ قَبْلَ النُّطقِ فيه ، فالسَّعيدُ مَنْ وقفَ علىٰ قدمِ التَّيقُّظِ حارساً علىٰ فِيه :

يَا غَافِلاً يَتَمَادَىٰ   غَداً عَلَيْكَ يُنَادَىٰ
هٰذا الَّذي لَمْ يُقَدِّمْ   قَبْلَ التَّرَحُّلِ زَادَا

هـٰــــذا الّـــــذي وَعَظُـــــوهُ   وَخَــــوَّفُــــوهُ الْمَعَــــادَا
فَلَــــمْ يَكُــــنْ لِمُنَــــادِيـ   ــــهِ طَــــائِعــــاً مُنْقَــــادَا

فأَينَ علامةُ الإيمانِ يا مَنْ يدَّعيه ؟! أَينَ تأْثيرُ الوعظِ يا مَنْ يَسمعُهُ ويَعيه ؟! أَينَ اعتبارُكَ بمَنْ حوى الدُّنيا فأَصبحَ اللَّحدُ يحويه ؟! وأَينَ بكاؤُكَ علىٰ ذنوبك ، وحزنُكَ علىٰ كثرةِ عيوبك ؟! وأَينَ عقلُكَ الَّذي غطَّىٰ عليهِ زخرف التَّمويه ؟! وأَينَ أَسفُكَ لفوتِ مطلوبك ، يا مسؤُولاً عمَّا يَسرُّهُ ويُبديه ؟!

يا مَنْ نَفْسُهُ في الحقيقةِ أَكبرُ أَعاديه ، يا سكرانَ الهوىٰ ومنادي الهدىٰ يُناديه ، يا مَنْ لا يفيقُ حتَّىٰ يَحُلَّ الموتُ بناديه ؛ قلْ لنفسِكَ الجهولةِ الأَمَّارَة : أَما للصَّلاحِ عندَكِ أَمارة ؟! كم يمين ولا حنثٌ ولا كفَّارة ، وطريقِ خوفٍ ولا لكِ خفارة ؟! لا تحقري ذنباً فقد تحرقُ شرارة .

احذرِ الدُّنيا فإِنَّها مكَّارَة ، ولا تثِقْ بأَيمانِها فإِنَّها غدَّارة ، لا تغترَّ بها فإِنَّها سحَّارة ، بينما هيَ قد عقدت هدنةً شنَّتْ غارة ، تُنشِّفُ صافي الكأْسِ وتُبقي الكدارة ، ثمَّ تنتقلُ إِلىٰ لحدٍ بلا عمارة ، ثمَّ تقومُ نادماً وفي الدُّموعِ غزارة ، ثمَّ تعاينُ ناراً شديدةَ الحرارة ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ .

دارٌ قد خُصَّ أَهلُها بالبعاد ، وحُرِمُوا لذَّةَ المُنىٰ والإِسعاد ، بُدِّلَتْ وضاءَةُ وجوهِهِم بالسَّواد ، وضُرِبوا بمقامعَ أَقوىٰ مِنَ الأَطواد ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ .

لَو رأَيتَهُم في الحميمِ يَسرحون ، وعلى الزَّمهريرِ يُطرحون ، وحُزنهُم دائمٌ فما يَفرحون ، مقامهُم محتومٌ فما يَبرحونَ أَبدَ الآباد ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ .

تَعِسَ كلٌّ منهُم فما انتعش ، واأَسفا! قد قتلَهُم الحرُّ والعطش ، والمصيبةُ أَنَّ القدرَ بهِم قد بَطش ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ .

وعذابهُم طريفٌ بديع ، قد خرسَ النَّاطقُ وصمَّ السَّميع ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ والشَّرابُ الحميم ، وهـٰذا الزّاد ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ .

توبيخُهم أَعظمُ مِنَ العذاب ، تأَسُّفُهم أَقوىٰ مِنَ المصاب ، يبكونَ علىٰ تضييعِ

أَوقاتِ الشَّباب ، وكلَّما جاءَ البكاء . . زاد ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ .

أَينَ كسبُهم لِلحُطام ؟! أَينَ سعيُهم في النَّميمةِ بينَ الأَنام ؟! كأَنَّهُ كانَ أَضغاثَ أَحلام ، عندما احترقَتْ تلكَ الأَجسام ، وكلَّما أُهلكَتْ تُعاد ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ .

ويحكَ! اِنتبهْ وأَصلِحْ قلبك ، وتيقَّظْ وافهَمْ عتبَك ، ويحكَ! تُبْ مِنِ استهزائِكَ بالنَّاسِ وراقِبْ ربّك ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

قد بقيَ القليلُ وتُنقل ، وإِلىٰ دارِ الجزاءِ تُحمَل ، كم أُعلِّمُكَ وتَجهل ؟ وكم أَقولُ لكَ ولا تَقبل ؟ أَنا في وادٍ وأَنتَ في واد!

اللَّهُم ؛ فأَعتِقْنا مِنَ النَّار ، ووفِّقنا لِسلوكِ سبيلِ الأَخيار ، واحفظنا مِنَ الحسدِ والغيبةِ والنَّميمةِ وبقَية أَخلاقِ الأَشرار ، وأَدخِلْنا ووالدينا دارَ كرامتِكَ معَ الأَبرارِ والزُّهاد ، وصلِّ علىٰ سيّدنا محمَّدٍ وآلهِ الأَمجاد .

* * *

المجلس السادس والثلاثون
في اتباعه واتباع سننه عليه الصَّلاة والسَّلام

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ قاهرِ المتجبِّرِ ومذلِّه ، ورافعِ المتواضعِ ومُجلِّه ، القريبِ مِنْ عبدهِ فهوَ أَقربُ مِنْ ظِلِّه ، هوَ عندَ المنكسرِ لأَجْلهِ حال ذلِّه ، لا يَعزبُ عن سمعهِ وقعُ القطرِ في أَضعفِ طلّه ، ولا بغام ظبي البرّ[1] ، وكشيش صِلِّه[2] ، ولا يغيبُ عن بصرهِ في الدّجىٰ دبيبُ نَمْلة .

رفعَ مَنْ شاءَ بإعزازهِ كما حطَّ مَنْ شاءَ بذُلِّه ، اختارَ محمَّداً مِنَ الخلقِ فكأَنَّ الكلَّ خُلِقوا مِنْ أَجْلِه ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ .

أَحمدُهُ علىٰ أَجَلِّ الإنعام وأَقلِّه ، وأَشهدُ بوحدانيَّتهِ شهادةَ مصدِّقِ قولهِ بفعلِه ، وأَنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُه ، أَرسلَهُ لِنَقضِ الكفرِ وحلّه ، فقام معجزه ينادي ﴿ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ .

صلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وآلهِ وسلم وعلىٰ أَبي بكرٍ واصلِ حَبْله ، وعلىٰ عمرَ الَّذي كانَ يَفرقُ الشَّيطانُ مِنْ ظِلِّه ، وعلىٰ عثمانَ مجهِّزِ جيشِ العسرةِ وعاقدِ شملةِ[3] شَمْله ، وعلىٰ عليٍّ أَخيهِ وابنِ عمِّهِ ومقدّمِ أَهلِه ، وعلىٰ بقيَّةِ آلهِ وأَصحابهِ السَّامعينَ لأَمرِهِ وقولِه ، وسلَّم تسليماً .

---

(١) **البغام** : صوت الظبي .

(٢) **الكشيش** : صوت الحيّة من جلدها إذا تحركت . **والصِّل** : الحيّة .

(٣) **في نسخة** : سملة .

أمَّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في كتابهِ العزيز : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ : اختلفَ العلماءُ في سببِ نزولِ هٰذهِ الآية :

فقالَ الحسنُ البصري : زعمَ أقوامٌ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُم يُحبُّونَ الله ، فقالوا : يا محمَّد ؛ إِنَّا نُحبُّ ربَّنا . فأنزلَ اللهُ تعالىٰ هٰذهِ الآية .

وفي روايةِ أبي صالح : (إِنَّ اليهودَ لمّا قالوا : نحنُ أبناءُ اللهِ وأحباؤُه . . نزلت ، فعرضَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على اليهودِ ، فأَبوا أَنْ يَقبلُوها) .

وروىٰ محمَّدُ بنُ إسحاق ، عن محمَّدِ بنِ جعفرَ بنِ الزُّبيرِ قال : نزلَتْ في نصارىٰ نجران ، وذلكَ أَنَّهُم قالوا : إِنَّما نُعظِّمُ المسيحَ ونَعبدُهُ حبّاً للهِ وتعظيماً له . فأَنزلَها سبحانَهُ ردّاً عليهم . نقلَ ذلكَ في « روحِ المعاني » .

واختلفوا في محبَّةِ العبدِ للهِ سبحانَه :

فقيل : المرادُ إِنْ كنتُم تُحبُّونَ طاعةَ الله تعالىٰ وثوابه . . فاتبعوني .

وقالَ الأزهري : محبَّةُ العبدِ للهِ ولرسولهِ طاعتُهُ لَهما واتِّباعُهُ أمرَهُما ، ومحبَّةُ اللهِ تعالىٰ للعبادِ إنعامُهُ عليهِم بالغفران .

وقالَ كثيرٌ مِنْ عارفي أهلِ السُّنَّةِ والجماعة : المحبَّةُ تتعلَّقُ حقيقةً بذاتِ اللهِ تعالىٰ ، وينبغي لِلكاملِ أَنْ يُحبَّ اللهَ سبحانَهُ لِذاتِه ، وأَمّا محبَّةُ ثوابِه . . فدرجةٌ نازلة . وقد ذكرنا في بعضِ مجالسِ هٰذا الكتابِ الآتيةِ أَنَّ الحبَّ في اللهِ والبغضَ في اللهِ أيضاً مِنْ متعلّقاتِ حُبِّ الرّسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وشُعَبِ الإيمان .

وأخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ والحاكمُ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَت : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « الشِّرْكُ أَخفَىٰ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاء ، وَأَدْنَاه : أَنْ تُحِبَّ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنَ الْجَوْرِ وَتُبْغِضَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنَ الْعَدْل » وهلِ الدِّينُ إِلاَّ الحُبُّ والبغضُ في اللهِ ؟

قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ . . . ﴾ الآية فيها حثٌّ عظيمٌ على اتِّباعِ أقوالِهِ

وأفعالهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام ، ولذا وردَ في الأَحاديثِ الصَّحيحةِ الحثُّ علىٰ ذلك ؛ كحديث : « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي » وحديث : « مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » .

ولنبيِّنَ في هٰذا الدَّرسِ جملةً مِنْ سُننهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام ، وبعضاً مِنْ هديهِ للأَنام ؛ ليكونَ تعلُّمهُ والعملُ بهِ سبباً لِلفوزِ بدارِ السَّلامِ ومكفِّراً لِلذُّنوبِ والآثام :

فمنها صلاةُ التَّسبيح : روىٰ أَبو داوودَ عنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ للعبّاسِ رضيَ اللهُ عنه : « يَا عَبَّاس ، يَا عَمَّاه ؛ أَلاَ أُعْطِيكَ أَلاَ أَمْنَحُكَ ؟ أَلاَ أَصِلُك ، أَلاَ أَجْعَلُ لَكَ عَشْرَ خِصَال ، إِنْ أَنْتَ فَعَلْتَ ذلِك . . غَفَرَ اللهُ ذَنْبَك ، أَوَّلَهُ وَآخِرَه ، قَدِيمَهُ وَحَدِيثَه ، خَطَأَهُ وَعَمْدَه ، صَغِيرَهُ وَكَبِيرَه ، سِرَّهُ وَعَلاَنِيَتَه ؟ أَنْ تُصَلِّيَ أَرْبَعَ رَكَعَات ، تَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَسُورَة ، فَإِذا فَرَغْتَ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِي أَوَّلِ رَكْعَةٍ وَأَنْتَ قَائِم . . قُلْت : سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَر ، خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّة ، ثُم تَرْكَع ، فَتَقُولُهَا وَأَنْتَ رَاكِعٌ عَشْراً ، ثُمَّ تَرْفَعُ رأْسَكَ مِنَ الرُّكُوعِ فَتَقُولُهَا عَشْراً ، ثمَّ تَهْوِي سَاجِداً فَتَقُولُهَا وَأَنْتَ سَاجِدٌ عَشْراً ، ثمَّ تَرْفَعُ رَأْسَكَ مِنَ السُّجُودِ فَتقُولُهَا عَشْراً ، ثمَّ تَسْجُدُ فَتَقُولُهَا عَشْراً ، ثمَّ تَرْفَعُ رأْسَكَ فَتَقُولُهَا عَشْراً ، فَذلكَ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ مَرَّةً فِي كُلِّ رَكْعَة ، تَفْعَلُ ذلكَ فِي أَرْبَعِ رَكَعَات ، إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُصَلِّيَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّة . . فَافْعَل ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَل . . فَفِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّة ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَل . . فَفِي عُمُرِكَ مَرَّة » .

وقالَ العلاَّمةُ ابنُ عابدِينَ : يَفعلُهَا في كلِّ وقتٍ لا كراهةَ فيه ، أَو في كلِّ يومٍ أَو ليلةٍ مرَّة ، وإلا . . ففي كلِّ أُسبوعٍ أَو جُمُعةٍ أَو شهر ، أَو العمر . وفضلُها عظيم ، ولا يتركُها إِلاَّ متهاونٌ في الدِّين .

وهيَ أَربعٌ بتسليمةٍ أَو تسليمتين ، يقولُ فيها ثلاثَ مئةِ مرَّة : سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولاَ إِلـٰهَ إِلاَّ اللهُ واللهُ أَكبرُ ـ وفي روايةٍ زيادة : ولا حولَ ولا قوَّةَ إِلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ ـ يقولُ ذلكَ في كلِّ ركعةٍ خمسةً وسبعينَ مرَّة ، بعدَ الثَّناءِ خمسةَ عشرَ ثمَّ بعد القراءة ، وفي ركوعهِ والرَّفع منهُ وكلٍّ مِنَ السَّجدتينِ وفي الجلسةِ بينَهُما عشراً عشراً ، بعدَ تسبيحِ

الرُّكوعِ والسُّجود . وهٰذهِ الرِّوايةُ هيَ الَّتي رواها التِّرمذيُّ .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : أَنْ يقالَ فيها بعدَ التَّشهُّدِ قَبْلَ السَّلام :

اللَّهُم ؛ إنِّي أَسأَلُكَ توفيقَ أَهلِ الهدىٰ ، وأَعمالَ أَهلِ اليقينِ ومناصحةَ أَهلِ التَّوبة ، وعَزْمَ أَهلِ الصَّبر ، وجِدَّ أَهلِ الخشية ، وطَلَبَ أَهلِ الرَّغبة ، وتَعَبُّدَ أَهلِ الورع ، وعِرفانَ أَهلِ العلمِ حتَّىٰ أَخافَكَ .

اللَّهُم ؛ إنِّي أَسأَلُكَ مخافةً تَحجزني عن معاصيكَ حتَّىٰ أَعملَ بطاعتِكَ عملاً أَستحقُّ بهِ رضاك ، وحتَّىٰ أُناصحَكَ بالتَّوبةِ خوفاً منك ، وحتَّىٰ أُخلِصَ لكَ النَّصيحةَ حُبّاً لك .

ولنذكر لكُم جملةً مِنْ سُننِ الصَّلاة ، فإنَّ كثيراً مِنَ النَّاسِ لأكثرِها جاهلون ، والغالبُ منهُم في تركِها متهاونون .

فمنها صَلاةُ الوتر : وهيَ ثلاثُ ركعاتٍ بتسليمةٍ عندَ إمامِنا الأَعظم ، وقد قالَ بوجوبِها والقنوتِ فيها وقضائِها إذا فاتَت . وقالت بقيَّةُ المذاهبِ بسُنِّيَّتِها ، وإليها ذهبَ الصَّاحبانِ أَبو يوسفَ ومحمَّد . والأَحاديثُ في فضلِها كثيرة .

ودعاءُ القنوتِ فيها أَنْ يقول : **اللَّهُم** ؛ إنَّا نستعينُكَ ونَستهديكَ ونَستغفرُك ، ونُؤْمِنُ بكَ ونتوبُ إليك ، ونتوكَّلُ عليك ، ونُثني عليكَ الخيرَ كلَّه ، نَشكرُكَ ولا نَكفُرك ، ونَخلعُ ونتركُ مَنْ يَفجُرُك .

اللَّهُم ؛ إيَّاكَ نَعبد ، ولَكَ نُصلِّي ونَسجد ، وإليكَ نَسعىٰ ونحفِد ، نَرجوا رحمتَكَ ونخشىٰ عذابَك ، إنَّ عذابَكَ الجِدَّ بالكفَّار مُلْحَق .

ونحفد ـ بالدَّال المهملة وفاءٍ مكسورة ـ بمعنىٰ نُسرع .

والجِدّ ـ بمعنى الحق . ومُلحَق ـ بكسرِ الحاءِ وفتحِها ـ بمعنىٰ لاحق .

قيل : والأَولىٰ أَنْ يَضمَّ إليهِ أَيضاً : اللَّهُم ؛ اهدني فيمَنْ هديت . . . إلىٰ آخرِ الدُّعاءِ المشهور .

وروي : عنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ كانَ يقولُ بعد (عذابكَ الجدّ بالكفّار مُلحِق) :

اللَّهُم ؛ اغفِرْ لِلمؤمنينَ والمؤمناتِ والمسلمينَ والمسلمات ، وأَلِّفْ بينَ قلوبِهم وأَصلِحْ ذاتَ بينِهم ، وانصرهُم علىٰ عدوِّكَ وعدوِّهم .

اللَّهُم ؛ العَنْ كَفرَةَ الكتابِ الَّذينَ يُكذِّبونَ رُسلَكَ ويقاتلونَ أولياءَكَ . اللَّهُم ؛ خالِفْ بينَ كلمتِهم وزلزلْ أَقدامَهُم ، وأَنزِلْ عليهم بأْسكَ الَّذي لا يُردُّ عنِ القومِ المجرمين .

وأَخرجَ التِّرمذيُّ وغيرُهُ أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ يقولُ في آخِرِ وتره : « اللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِك ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِك ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْك ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِك » قالَ ابنُ عابدين : ولَهُ أَنْ يدعوَ بغيرِ ذلكَ مِنَ الأَدعيةِ الَّتي لا تُشبهُ كلامَ النَّاس .

ومَنْ لا يُحسنُ القنوتَ يقول : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ الآية . وقالَ أَبو اللَّيث : يقول : اللَّهُم ؛ اغفر لِي ، ويُكرِّرها ثلاثاً .

وقيل : يقول : يا ربِّ ، ثلاثَ مرّات . وإِذا نسيَ القنوت . . سجدَ لِلسَّهو .

ومِنْ سُنَنِ الصَّلواتِ المؤكَّدة :

أَربعٌ قَبْلَ الظُّهر ، وأَربعٌ قَبْلَ الجمعة ، وأَربعٌ بعدَها بتسليمة ، وركعتانِ قَبْلَ الصُّبح ، وقيلَ بوجوبِها ؛ لقولِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « مَنْ تَرَكَ أَرْبَعاً قَبْلَ الظُّهْر . . لَمْ تَنَلْهُ شَفَاعَتِي » ؛ أَي : الشَّفاعةُ الخاصَّةُ بزيادةِ الدَّرجات . وروىٰ مسلم : « رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » . وروىٰ أَبو داوودَ : « لاَ تَدَعُوا رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ وَلَوْ طَرَدَتْكُمُ الْخَيْل » .

ومِنَ السُّنَن : ركعتانِ بعدَ الظُّهرِ والمغرب ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يَدعُهُما سفراً ولا حضراً . وركعتانِ بعدَ العشاء .

ويُستحبُّ أَربعٌ قَبْلَ العصرِ وقَبْلَ العشاءِ وبعدَها بتسليمة ، وإِنْ شاءَ ركعتَين ، وكذا بعدَ الظُّهر ، لحديثِ التِّرمذيِّ : « مَنْ حَافَظَ عَلَىٰ أَرْبَعٍ قَبْلَ الظُّهْرِ وَأَرْبَعٍ بَعْدَهَا . . حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّار » . وستٌّ بعدَ المغربِ ليُكتبَ مِنَ الأَوّابين ، جمعُ أَوّاب ؛ أَي : كثيرُ الرُّجوعِ إِلى اللهِ تعالىٰ بالتَّوبةِ والاستغفار . فإِنْ شاءَ صلاَّها بتسليمةٍ أَو ثنتينِ أَو ثلاث .

وقالَ في « مراقي الفلاح » : إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « مَنْ صَلَّىٰ بَعْدَ الْمَغْرِبِ سِتَّ رَكَعَات . . كُتِبَ مِنَ الأَوَّابين » وتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ والأَوَّاب : هوَ الَّذي إذا أَذنبَ ذنباً . . بادرَ إلى التَّوبة .

وعن عمّار بنِ ياسرٍ رضي الله عنهما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ صَلَّىٰ بَعْدَ الْمَغْرِبِ سَتَّ رَكَعَات . . غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ » وفي روايةِ ابنِ عمر : « بَعْدَ الْمَغْرِبِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّم . . غفِرَ لَهُ بِهَا ذُنُوبُ خَمْسِينَ سَنَة » وقدِ اختُلفَ فيها :

فقيل : السِّتُّ غيرُ الثِّنتينِ المؤكَّدَتَين . وقيل : السِّتُّ بثلاثِ تسليمات . وقيل : بتسليمتين . وقيل : بتسليمةٍ واحدة . اهـ

ويُسنُّ تحيَّةُ المسجد ، وهيَ ركعتان ، وأَداءُ الفرضِ أَو غيره ينوبُ عنها .

ونُدِبَ ركعتانِ بعدَ الوضوءِ قَبْلَ الجفاف ؛ لحديثِ مسلم : « مَا مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوء ، وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ يُقْبِلُ بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ عَلَيْهِمَا . . إِلاَّ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّة » قالوا : ومِثْلُ الوضوءِ الغسل .

ويَقرأُ فيهِما : (الكافرونَ) و(الإخلاص) .

ونُدبَ أَربعٌ فصاعداً لِلضُّحىٰ . وفي « المُنية » : أَقلُّها ركعتانِ وأَكثرُها اثنا عشر ؛ لِما رواهُ النَّسائيُّ بسندٍ فيهِ ضعف : أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « مَنْ صَلَّى الضُّحَى اثْنَتَيْ عَشَرَةَ رَكْعَة . . بَنَى اللهُ لَهُ قَصْراً مِنْ ذَهَبٍ فِي الْجَنَّة » .

وقيل : أَكثرُها ثمانية ، ونُسِبَ إلى الإمامِ أَحمد .

ومِنَ المندوبات : رَكعتا السَّفرِ والقدومِ منه ، فقد روىٰ مقطمُ بن المقدام عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « مَا خَلَّفَ أَحَدٌ عِنْدَ أَهْلِهِ أَفْضَلَ مِنْ رَكْعَتَيْنِ يَرْكَعُهُمَا عِنْدَهُمْ حِينَ يُرِيدُ سَفَراً » رواهُ الطَّبراني .

وروىٰ مسلمٌ عن كعبِ بنِ مالك رضي الله عنه : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

وسلَّمَ لا يقدمُ مِنَ السَّفرِ إلاَّ نهاراً في الضُّحىٰ ، فإذا قَدِم . . بدأَ بالمسجدِ فصلَّىٰ فيهِ رَكعتين ، ثمَّ جلسَ فيه) .

ومفادُه : اختصاصُ صلاةِ رَكعتي السَّفرِ بالبيتِ ورَكعتي القدومِ منهُ بالمسجد ، وبهِ صرَّحَ الشَّافعي .

ومنها صَلاةُ اللَّيل : وفي « الجوهرة » : أَنَّها أَفضلُ مِنْ صلاةِ النَّهار .

وقد صرَّحتِ الآياتُ والأَحاديثُ بفَضْلِها والحثِّ عليها ، قالَ تعالىٰ : ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ .

وروىٰ مسلم مرفوعاً : « أَفْضَلُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلاَةُ اللَّيْل » .

وروى الطَّبرانيُّ مرفوعاً : « لاَ بُدَّ مِنْ صَلاَةٍ بِلَيْلٍ وَلَوْ حَلْب شَاة » .

وروىٰ أَبو أُمامةَ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ ؛ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُم ، وَهُوَ قُرْبَةٌ لَكُمْ إِلىٰ رَبكُم ، وَمَكْفَرةٌ لِلسَّيِّئَات ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْم » .

ورويَ أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قال : « ثَلاَثَةٌ يَضْحَكُ اللهُ إِلَيهِم : الرَّجُلُ إِذا قَامَ بِاللَّيْلِ يُصَلِّي ، وَالْقَوْمُ إِذا صَفُّوا فِي الصَّلاَة ، وَالْقَوْمُ إِذا صَفُّوا فِي قِتَالِ الْعَدُو » .

وروىٰ أَصحابُ السُّننِ أَيضاً عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَنَّهُ قال : « رَحِمَ اللهُ رَجُلاً قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّىٰ ، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّت ، فَإِنْ أَبَت . . نَضَحَ فِي وَجهِهَا الْمَاء . رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّت ، وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا ، فَإِنْ أَبَىٰ . . نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاء » .

ورويَ أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قال : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفاً يُرَىٰ ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِها وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا ، أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَىٰ لِمَنْ أَلاَنَ الْكَلاَمَ ، وَأَطْعَمَ الطَّعَام ، وَتَابَعَ الصِّيَام ، وَصَلَّىٰ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَام » .

قالَ بعضُ العلماء : ماكانَ بعدَ صَلاةِ العشاءِ . . فهوَ مِنَ اللَّيلِ ولَو قَبْلَ النَّوم .

وقيل : لا بدَّ وأَنْ تكونَ بعدَ النَّوم ، ولَو نوىٰ في قَلْبِهِ أَنْ يتهجَّدَ ليلاً ، فنامَ ولَم يَستيقظ . . فلَهُ أَجرُ ذلك ؛ فقد روىٰ أَبو ذرٍّ وأَبو الدَّرداءِ رضيَ اللهُ عنهُما : « مَنْ أَتَىٰ إِلىٰ فِرَاشِهِ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ حَتَّىٰ أَصْبَح . . كُتِبَ لَهُ مَا نَوَىٰ » .

ومِنها : إِحياءُ ليلَتي العيدَين : لحديث : « مَنْ أَحْيَا لَيْلَةَ الْعِيد . . أَحْيَا اللهُ قَلْبَهُ يَوْمَ تَمُوتُ الْقُلُوب » .

والدُّعاءُ فيهِما مستجاب ، ويُستحبُّ الإِكثارُ مِنَ الاستغفارِ فيهما وفي سائرِ الأَسحار ، وسيِّدُ الاستغفار : **اللَّهُم** ؛ أَنْتَ ربِّي لا إِلـٰهَ إِلاَّ أَنت ، خَلقتَني وأَنا عبدُك ، وأَنا علىٰ عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعت ، أَعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما صنعت ، أَبوءُ لكَ بنعمتِكَ عليَّ وأَبوءُ بذَنبي ، فاغفِرْ لي ؛ فإِنَّهُ لا يَغفرُ الذُّنوبَ إِلاَّ أَنت .

وإِحياءُ النِّصفِ مِنْ شعبان ، والعشرِ الأَخيرِ مِنْ رمضان ، وليالِ العشرِ الأُوَلِ مِنْ ذي الحجَّة .

ومنها رَكعتا الاستخارة : قالَ شيخُ مشايخِنا ابنُ عابدين : عن جابرِ بنِ عبدِ الله ، قال : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُعلِّمُنا الاستخارةَ في الأُمورِ كلِّها كما يُعلِّمُنا السُّورةَ مِنَ القرآن ، يقول : « إِذا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْر . . فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَة ، ثُمَّ لِيَقُل : اللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِك ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِك ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيم ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِر ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَم ، وَأَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوب . اللَّهُمَّ ؛ إِنْ كُنْت تَعْلَمُ أَنَّ هـٰذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ أَوْ قَالَ : عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِله ـ فَاقْدُرْهُ[1] لِي وَيَسِّرْهُ لِي ، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيه . وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هـٰذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ أَوْ قَالَ : عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِله ـ . فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْه ، وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَان ، ثُمَّ رَضِّنِي بِه . قال : وَيُسَمِّي حَاجَتَه » رواهُ أَصحابُ السُّنَنِ .

---

(١) أَي : اقضه لي وهيئه . اهـ منه .

قالَ ابنُ عابدينَ : روى ابن السّنِّي : إِذا هممتَ بأمر . . فاستَخِرْ ربَّكَ فيه سبعَ مرَّات ، ثمَّ انظرْ إِلى الَّذي سبقَ إِلىٰ قَلْبكَ فإِنَّ الخيرَ فيه .

ولَو تعذَّرتْ عليهِ الصَّلاة . . استخارَ بالدُّعاء . وعن بعضهِم : ينبغي أَنْ ينامَ علىٰ طهارةٍ مستقبلَ القبلةِ بعدَ قراءةِ الدُّعاءِ المأْثور ، فإِنْ رأَىٰ في منامهِ بياضاً أَو خضرة . . فذلكَ الأَمرُ خير ، وإِنْ رأَىٰ سواداً أَو حمرة . . فهوَ شرٌّ ينبغي أَنْ يُجتنَبَ . اهـ

ومِنها : أَربعٌ **صَلاةُ الحاجة** . وقيل : رَكعتان ، وقيل : إِنَّها اثنا عشرَ بسلامٍ واحد .

وأَخرجَ التِّرمذي عن عبدِ اللهِ بن أَبي أَوفىٰ رضي الله عنه ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلى اللهِ حَاجَةٌ أَوْ إِلىٰ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَم . . فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُحْسِنِ الْوُضُوء ، ثُمَّ لِيُصَلِّ رَكْعتَيْن ، ثُمَّ لِيُثْنِ عَلَى اللهِ تَعَالَىٰ ، وَلِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، ثُمَّ لِيَقُل : لاَ إِلـٰهَ إِلاَّ اللهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيم ، سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيم ، الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين ، أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِك ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِر ، وَالسَّلاَمَةَ مِنْ كُلِّ إِثْم ، لاَ تَدَعْ لِي ذَنْباً إِلاَّ غَفَرْتَه ، وَلاَ هَمّاً إِلاَّ فَرَّجْتَه ، وَلاَ حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضاً إِلاَّ قَضَيْتَهَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين » .

ومِنها : أَنْ يُصلِّيَ المسافرُ رَكعتَينِ في كلِّ منزلٍ قَبْلَ أَنْ يَقعد ، كما كان يَفعلُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم .

ومِنْها صَلاةُ التَّوبة : قال المنذريُّ في كتاب « التَّرغيبِ والتَّرهيب » : عن أَبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْباً ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَطَهَّر ، ثُمَّ يُصَلِّي ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ الله . . إِلاَّ غَفَر اللهُ لَه » ثمَّ قرأَ هـٰذهِ الآية : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ إِلخ .

وعنِ الحسنِ رضيَ اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَا أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْباً ثُمَّ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوء ، ثُمَّ خَرَجَ إِلىٰ بَرازٍ مِنَ الأَرضِ فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ تَعَالَىٰ مِنْ ذلِكَ الذَّنْب . . إِلاَّ غَفَرَ اللهُ لَه » .

ومِنها : صَلاةُ الوالدين ، وصَلاةُ رَكعتَينِ عندَ نزولِ الغيث ، ورَكعتينِ في السِّرِّ لِدَفْعِ النِّفاق ، والصَّلاةُ حينَ يدخلُ بيتَهُ ويخرجُ ؛ توقِّياً عن فتنةِ المدخلِ والمخرج .

ومِنها : صَلاةُ رَكعتينِ بعدَ سننِ العشاءِ يُصلِّيها وهوَ جالس ، أَو بعدَ صَلاةِ اللَّيلِ علىٰ ما قالَ بعضُهم ، وفيهما خلافٌ مشهور .

وليُعلَمْ أَنَّ الأَفضل في النَّفلِ غيرِ التَّراويحِ المنزل إلاَّ لخوفِ شغلٍ عنها ، والأَصحُّ أَفضليَّةُ ما كانَ أَخشعَ وأَخلص ، واستثنىٰ بعضُهم تسعةً فنظمها بقولِه :

نَوَافِلُنَا فِي الْبَيْتِ فَاقَتْ عَلَى الَّتِي ... نَقُومُ لَهَا فِي مَسْجِدٍ غَيْرَ تِسْعَةِ
صَلاَةُ تَرَاوِيحٍ كُسُوفٍ تَحِيَّةٍ ... وَسُنَّةِ إِحْرَامٍ طَوَافٍ بِكَعْبَةِ
وَنفْلِ اعْتِكَافٍ أَوْ قُدُومِ مُسَافِرٍ ... وَخَائِفِ فَوْتٍ ثُمَّ سُنَّةِ جُمْعَةِ

أَقول : وأَمَّا صَلاةُ خسوفِ القمر . . فهيَ في البيتِ أَيضاً ؛ بخلافِ صَلاةِ كسوفِ الشَّمسِ فإِنَّها في المسجد ، وكذا صَلاةُ الاستسقاءِ عندَ مَنْ قالَ بسُنيَّتِها فإِنَّها بالصَّحراء .

ومِنها : الصَّلاةُ على الدَّابَّةِ متنفِّلاً خارجَ المصر ، قالَ العلماء : يَقعدُ مُصلِّي النَّفلِ إِنْ أَرادَ كما يَجلسُ في التَّشهُّد ، ويَتنفَّلُ المقيمُ راكباً خارجَ المصر ، فلا تجوزُ صَلاةُ الماشي ولا مَنْ في المصرِ خلافاً لَهما ، وعندَهُما يجوزُ في المصرِ لٰكنْ بكراهةٍ عندَ محمَّد ؛ لأَنَّهُ يَمنعُ مِنَ الخشوع .

وتَنفُّلُ الرَّاكبِ بالإِيماءِ لا بالسُّجودِ على السَّرْجِ إِلىٰ أَيِّ جهةٍ توجَّهَتْ دابَّتُهُ ولوِ ابتداءً عندَ الحنفيَّة ، وقالَ الشَّافعيُّ : يُشترطُ أَنْ يتوجَّهَ أَوَّلاً ابتداءً إِلى القبلةِ ثمَّ إِلىٰ غيرِ جهتِها .

وإِذا حرَّكَ رِجلَهُ أَو ضربَ دابَّتَهُ بعملٍ يسير . . فلا بأْسَ به .

ولوِ افتتحَ النَّفلَ راكباً ثمَّ نزل . . بنىٰ ، وفي عكسهِ لا يَبني ؛ لأَنَّ الأَوَّلَ أَدَّىٰ أَكملَ ممَّا وجبَ عليه ، والثَّاني بعكسه .

ولنذكر شيئاً مِنْ سُننهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ الخارجةِ عنِ الصَّلاة :

فمِنها : أَنَّهُ كانَ يَكتحلُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عندَ النَّومِ ثلاثاً في كلِّ عينٍ بالإثمد .

ومِنها : أَنَّهُ كانَ يَحملُ العصا ، وكانَ لَهُ محجنٌ قدرَ ذراع ـ أَو أَطول ـ يمشي بهِ ويَركبُ به ، ويُعلِّقُهُ بين يديهِ علىٰ بعيره ، ومخصرةٌ وتسمَّى العرجون ، وقضيبٌ مِنَ الشّوحطِ يُسمَّى الممشوق ، قيل : وهوَ الَّذي كانَ تداولَهُ الخلفاء .

ومِنها : أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ لَهُ قَدَحٌ مِنْ قواريرَ .

ومِنها : أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ يَدَّهنُ ويمتشط ـ قيل : وكانَ المشطُ مِنْ عاج ـ وكانت لَهُ مِرآةٌ ينظرُ بها ، وقد وردَ في الأَثرِ أَنَّ الرَّائي يقول : « اللَّهُمَّ ؛ حَسِّنْ خُلُقِي كَمَا حَسَّنْتَ خِلْقَتِي ، وَحَرِّمْ وَجْهِيَ عَلَى النَّار » .

ومِنها : أَنَّهُ كانَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَحملُ السَّيف ، قالَ العلاَّمةُ ابنُ القيِّمِ في « زادِ المعاد » : ومِنْ حديثِ ابنِ عبّاس : (كانَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سيفٌ قائِمتُهُ مِنْ فضَّةٍ وقبيعتُهُ مِنْ فضَّة ، وكانَ يُسمَّىٰ ذا الفقار ، وكانت لَهُ قوسٌ تسمَّى السّداد ، وكانَ لَهُ درعٌ موشَّحٌ بالنُّحاس ، يُسمَّىٰ ذاتَ الفضول ، وكانَ لَهُ حربةٌ تسمَّى البيضاء ، وترسٌ أَبيضُ يُسمَّى الموجز ، وكانَ لَهُ بغلةٌ شهباءُ تُسمَّىٰ دلدلاً ، وكانت لَهُ ناقةٌ تُسمَّى القصواء ، وكانَ لَهُ حمارٌ يُسمَّىٰ يَعفوراً ، وكانَ لَهُ عنزةٌ تسمَّى القمر) .

ومِنها ـ علىٰ ما قالَ ابنُ القيِّم ـ : أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ سابقَ بنَفْسِهِ على الأَقدام ، وصارع ، وخصفَ نعلَهُ بيده ، ورقَّعَ ثوبَهُ بيدِه ، ورقَّعَ دلوَه ، وحَلَبَ شاتَه ، وفلَّىٰ ثوبَه ، وخَدَمَ أَهْلَهُ وَنفْسه ، وَحَمَلَ مَعَهُمُ اللَّبِنَ في بناءِ المسجد ، وربطَ علىٰ بطنهِ الحجرَ مِنَ الجوع تارةً وشبعَ تارة ، وضافَ وأَضاف ، واحتجمَ في وسطِ رأْسهِ وعلىٰ ظهرِ قَدَمِهِ وما بينَ الكتفَين ، وتداوىٰ ، وكوىٰ ولَم يَكتو ، ورقىٰ ولَم يَسترق ، وحمى المريضَ ممَّا يُؤْذيه .

وروى ابنُ عَباسٍ رضي الله عنهما عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « الشِّفَاءُ فِي ثَلاَث : شَرْبَةِ عَسَل ، وَشَرْطَةِ مِحْجَم ، وَكَيَّةِ نَار ، وَأَنَا أَنْهَىٰ أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ » . وفي « الصَّحيحين » مِنْ حديثِ أَنسِ بنِ مالك رضي الله عنه : أَنَّ رهطاً قَدِموا المدينة ،

فأَصابَهُم مرض ، فشكوا ذلكَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فقال : « لَوْ خَرَجْتُمْ إِلىٰ إِبِلِ الصَّدَقَةِ فَشَرِبْتُمْ مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِها » ففعلوا فصحُّوا . قيل : كانَ مرضُهم استسقاء .

ومنها : أَنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلام أَمرَ بغمسِ الذُّبابِ إذا وقعَ في الإِناء ؛ ففي « الصَّحيحين » مِنْ حديثِ أَبي هريرة رضي الله عنه : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « إِذا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُم . . فَامْقُلُوه ؛ فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ دَاءً وَفِي الآخَرِ شِفَاء » .

وفي روايةِ أَبي سعيد رضي الله عنه : « أَحَدُ جَنَاحَيِ الذُّبَابِ سمٌّ وَالآخَرُ شِفَاء ، فَإِذا وَقَعَ فِي الطَّعَام . . فَامْقُلُوه ؛ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ السُّمَّ وَيُؤَخِّرُ الشِّفَاء » .

ومنها : الخضابُ بالكَتَمِ والحنّاء ، وقدِ اختَلَف العلماءُ في خضابهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام :

فالإِمامُ أَحمدُ ابنُ حنبل أَثبتَ خضابَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، ومعَهُ جماعةٌ مِنَ المحدِّثين ، وإِمامُ دارِ الهجرةِ مالكٌ أَنكرَه .

روى البخاريُّ في « صحيحِه » عن عثمانَ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنه قال : دَخلْنا علىٰ أُمِّ سَلَمَةَ رضيَ اللهُ عنها فأَخرجَتْ إِلينا شَعْراً مِنْ شَعْرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فإِذا هُوَ مخضوبٌ بالحنّاءِ والكتم .

والكتمُ غيرُ الوسمة ، ففي « الصِّحاح » : اَلكَتَمُ ـ بالتَّحريك ـ نبتٌ يُخلطُ بالوسمةِ يُخضبُ به .

وفي « سننِ أَبي داوود » عنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قال : مرَّ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلٌ قد خضَّبَ بالحنّاء ، فقال : « مَا أَحْسَنَ هٰذا » فمرَّ آخَرُ قد خضَّبَ بالحنَّاءِ والكتم ، فقال : « هٰذا أَحْسَنُ مِنْ هٰذا » فمرَّ آخَرُ قد خضَّبَ بالصُّفرة ، فقال : « هٰذا أَحْسَنُ مِنْ هٰذا كُلِّه » .

وفي السُّننِ الأَربعة عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « إِنَّ أَحْسَنَ مَا غَيَّرْتُمْ بِهِ الشَّيْب : اَلحِنَّاءُ وَالْكَتَم » .

وفي « الصَّحيحين » أَنَّ أَبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ اختضبَ بالحنّاءِ والكتم .

وثبتَ في حديثِ مسلمٍ النَّهيُ عنِ الخضابِ بالسَّواد .

وهـٰذا البحثُ طويل ، فليرجعْ إِلى الكتبِ المطوَّلةِ مَنْ أَرادَ التَّفصيل .

ومنها : أَمرُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أُمَّتَهُ إِذا سمعوا نهيقَ الحمار . . أَنْ يَتعوَّذُوا باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيم ، وإِذا سمعوا صياحَ الدِّيك . . أَنْ يَسأَلوا اللهَ مِنْ فضلِه ، وأَمرهُم بالتَّكبيرِ عندَ الحريق ؛ فإِنَّ التَّكبيرَ يُطفِؤُه .

ومنها : التَّكبيرُ في البحر ، وجعلَهُ السَّمهوديُّ ممَّا يَغفرُ الذُّنوب ، قال : روىٰ أبو الحسن الرَّبعي : مَنْ عدا في البحرِ أَربعينَ درجةً وهوَ يُكبِّر . . غفرَ اللهُ لَهُ ذنوبَهُ ما تقدَّمَ منها وما تأَخَّر ، وإِنَّ الأَمواجَ لَتحتُّ الذُّنوبَ حَتّاً .

ومنها : أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ إِذا رأَىٰ ما يُحب . . قال : « الْحَمْدُ للهِ الَّذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَات » وإِذا رأَىٰ ما يَكره . . قال : « الْحَمْدُ للهِ علىٰ كُلِّ حَال » .

ومنها : ذِكرُ اللهِ تعالىٰ في آخِرِ المجلس ؛ فقد قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُه ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسه : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِك ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنْت ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْك . . إِلاَّ غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذٰلِك » .

وفي « سُننِ أَبي داود » : أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ يقولُ ذلك .

فطوبىٰ لمَنْ تتبَّعَ سننَ النَّبيِّ المختار ، وواظبَ عليها آناءَ اللَّيلِ وأَطرافَ النَّهار ، ونظرَ إِلى الدُّنيا بعينِ الاعتبار ، فباعَها واشترىٰ بها دارَ القرار ، إِذا انهمكَ أَهلُها في شهواتِها . . صامَ النَّهار ، وإِذا نامَ الغافلون . . فلَهُ عنِ النَّومِ نِفَار .

فسبحانَ مَنْ وفَّقَ المتَّبعينَ للسُّننِ إِلىٰ أَعظمِ الخيرات ، وأَيقظَهم مِنْ سِنةِ الغفلات ، أَترجو لحاقَهُم مِنْ غيرِ أَعمالِهم ؟ هيهات!

عامَلُوا مولاهُم وانفردوا ، وقاموا في الدّياجي فرَكعوا وسَجدوا ، وساروا وخُلِّفْتَ ففاتَكَ ما وَجدوا ، وبقيتَ في أَعقابِهِم فإِنْ لَم تلحَق . . بَعُدوا :

يَـا أَيُّهَـا الـرَّاقِـدُ كَـمْ تَـرْقُـدُ ... قُـمْ يَـا حَبِيبِي قَـدْ دَنَـا الْمَـوْعِـدُ
وَخُـذْ مِـنَ اللَّيْـلِ وَسَـاعَـاتِـهِ ... حَظّـاً إِذا مَـا هَجَـعَ الـرُّقَّـدُ
مَـنْ نَـامَ حَتَّـىٰ يَنْقَضِـي لَيْلُـهُ ... لَـمْ يَبْلُـغِ الْمَنْـزِلَ أَوْ يَجْهَـدُ
قُـلْ لِـذَوِيْ الأَلْبَـابِ أَهْـلِ التُّقَـىٰ ... قَنْطَـرَةُ الْعَـرْضِ لَكُـمْ مَـوْعِـدُ

فيَا مَنْ يُبارزُ مولاهُ بما يَكره ، ويخالفُهُ في أَمرِهِ آمِناً مَكرَه ، ويُنعمُ عليهِ فهوَ يَنسىٰ شُكرَه ، والرَّحيلُ قد دنا وما لَهُ فيهِ فِكرة .

يا مَنْ قبائِحُهُ تُرفَعُ عشاء وبُكرَة ، يا قليلَ الزَّادِ ما أَطولَ السَّفرة ، والنَّقلةُ قد دَنَتْ والمصيرُ الحفرة ؛ متىٰ تعملُ في قلبكَ المواعظ ؟! متىٰ تراقبُ العواقبَ وتُلاحظ ؟! أَما تحذرُ مَنْ أَوعدَ أَو هدَّد ؟! أَما تخافُ مَنْ أَنذرَ وشدَّد ؟! متىٰ تضْرِمُ نارُ الخوفِ في قلبكَ وتتوقَّد ؟! إِلىٰ متىٰ بينَ القصورِ والتَّواني تتردَّد ؟! متىٰ تحذرُ يوماً فيهِ الجُلودُ تشهد ؟! متىٰ تتركُ ما يَفنىٰ رغبةً فيما لا يَنفد ؟! فالبدارَ البدارَ إِلىٰ صالِحِ الأَعمال ، والحذارَ الحذارَ مِنْ قبيحِ الأَقوالِ والأَفعال :

اِغْتَنِـمْ رَكْعَتَيْـنِ زُلْفَـىٰ إِلـى اللَّـ ... ـهِ إِذَا كُنْـتَ فَـارِغـاً مُسْتَـرِيحَـا
وَإِذَا مَـا هَمَمْـتَ أَنْ تَفْعَـلَ الْبَـا ... طِـلَ فَـاجْعَـلْ مَكَـانَـهُ تَسْبِيحَـا

فاعتبروا بمَنْ مضىٰ مِنَ الأَقران ، وتفكَّروا فيمَنْ بنىٰ كيفَ بان . تقلَّبت ـ واللهِ ـ بهِمُ الأَحوال ، ولَعِبَتْ بهِمْ أَيدي البلبال ، وعانَقوا التُّرابَ وفارقوا المال ، فكَم مأْخوذ على الزَّللْ خُتِمَ لَهُ بسوءِ العمل ، نزلَ بهِ الموتُ فيا هولَ ما نزل! وهـٰذا مصيرُ العاقِلِ لَو عَقَل .

وفَّقنا اللهُ تعالىٰ وإِيَّاكُم لمراضيه ، وجعلَ مستقبلَ حالِنا وحالِكمْ خيراً مِنْ ماضيه .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وآلِهِ أَجمعين .

اللَّهُم ؛ إِنَّا نسأَلُكَ بأَسمائِكَ الحسنىٰ ما نعلمُ منها وما لَم نَعْلَم ، وبالقرآنِ العظيم ، وبحبِّكَ لنبيِّكَ الشَّفيعِ المقدَّم ، أَنْ تُثبِّتَ قلوبَنا على الإِيمانِ الكامل ، وأَنْ تعمَّنا ووالدينا في الدَّارَينِ بلُطْفِكَ الشَّامل .

اللَّهُم ؛ اكفِنا بحلالكَ عَنْ حرامِك ، وأَغننا بفضلِكَ عمَّن سِواك ، واجعلنا مُوالِينَ لأَوليائكَ ومُعادِينَ لِعداك .

ربَّنا ؛ اغفرْ لَنا ولإِخوانِنا الَّذينَ سبقونا بالإِيمان ، ولا تجعلْ في قلوبِنا غِلاً للَّذينَ آمنوا ، ربَّنا إِنَّكَ رؤُوفٌ رحيم .

ربَّنا ؛ آتِنا في الدُّنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النَّار ، وأَسكِنَّا الجنَّة ، وكافَّةَ المؤْمنينَ الأَخيار .

* * *

المجلس السابع والثَّلاثون
في أَوَّل بدء الوحي به عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي أَنشأَ الخلائقَ بقُدرتِه ، وأَظهرَ فيهم عجائبَ حِكمتِه ، ودلَّ بإِرشادِهِ علىٰ وحدانيَّتِه ، فقضىٰ على العاصي بمخالفتِه ، ثمَّ مَنَّ عليهِ بقَبولِ توبتِه ، واختصَّ المخلصَ بصدقِ معاملته ، ثمَّ شغلَهُ عنِ الدَّارَينِ بمحبَّتِه ، فاقبَلوا مِنْ نصيحكُم وأَقبلوا علىٰ خدمته ، يُؤْتِكُمْ كِفلَيْنِ مِنْ رحمتِه .

أَحمدُهُ علىٰ سبوغِ نعمتِه ، وأَشكرُهُ علىٰ توفيقِهِ وهدايتِه ، وأَشهدُ أَنَّهُ لا شريكَ لَهُ في صَنعتِه ، وأَنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُه ، أَرسلَهُ إِلىٰ جميعِ بريَّتِه ، بشيراً بجنَّتِه ، ونذيراً بنقمتِه .

صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ خليفتهِ في أُمَّتِه ، أَبي بكرٍ السَّابقِ بمرافقتِهِ ونفقَتِه ، وعلىٰ عمرَ العادلِ في أَقضيتِه ، وعلىٰ عثمانَ المتزوِّجِ بابنةِ الرَّسولِ بعدَ ابنتِه ، وعلىٰ عليٍّ المخصوصِ دونَهُم بإِخوتِه ، وعلىٰ سائرِ آلِه وأَصحابِهِ وقرابتِه ، وسلَّم تسليماً .

أَمَّا بعد : فنروي بسنِدنا إِلى الإِمامِ الهمام ، أَبي عبدِ اللهِ محمَّد بن إِسماعيلَ بن إِبراهيمَ بنِ المغيرةِ بنِ بردزبة ، الجعفيِّ البخاريِّ عليهِ رحمةُ الملكِ الباري ، قال : حدَّثنا يحيىٰ بنُ عبدِ اللهِ بنِ بكير ، قال : حدَّثنا اللَّيث ، عن عقيل ، عنِ ابنِ شهاب ، عن عروةَ بنِ الزُّبير ، عن عائشةَ أُمِّ المؤمنينَ رضيَ اللهُ عنها أَنَّها قالت : (أَوَّلُ ما بُدِىءَ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الوحي الرُّؤْيا الصَّالحةُ في النَّوم ، وكانَ لا يَرىٰ رُؤْيا إِلاَّ جاءَتْ مِثلَ فَلَقِ الصُّبح ، ثمَّ حُبِّبَ إِليهِ الخلاء ، فكانَ يخلو بغارِ حِراءَ فيتحنَّثُ فيه ـ وهوَ التَّعبُّد ـ اللَّيالي ذواتِ العددِ قَبْلَ أَنْ ينزعَ إِلىٰ أَهلهِ ويَتزوَّدُ لذلك ، ثمَّ يَرجعُ

إلىٰ خديجةَ فيتزوَّدُ لمِثلِها ، حتَّىٰ جاءَهُ الحقُّ وهوَ في غارِ حراء ، فجاءَهُ المَلَكُ فقال : اقرأ ، قال عليه الصلاة والسلام : « قُلْت : مَا أَنَا بِقَارِىء . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْد ، ثمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَال : اقْرَأْ ، قُلْت : مَا أَنَا بقَارِىء . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَة حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْد ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَال : اقْرَأْ ، قُلْت : مَا أَنَا بِقَارِىءٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَة ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فقَال : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ » فرجعَ بها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَرجفُ فؤادُه ، فدخلَ علىٰ خديجةَ بنتِ خُوَيلد رضي الله عنها ، فَقَال : « زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي ! » فزمَّلوهُ حتَّىٰ ذهبَ عنهُ الرَّوع ، فقالَ لخديجةَ وأَخبرَها الخبر : « لَقَدْ خَشِيتُ علىٰ نَفْسِي » .

قالتْ لَهُ خديجة : كلا والله ، ما يُخزيكَ اللهُ أبداً ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحم ، وتحملُ الكَلّ ، وتكسبُ المعدوم ، وتقري الضَّيف ، وتعينُ علىٰ نوائبِ الحق .

فانطلقَتْ بهِ خديجةُ رضي الله عنها حتَّىٰ أَتَتْ بهِ ورقةَ بنَ نوفل بنِ أَسدِ بنِ عبدِ العزَّىٰ ، ابنَ عمِّ خديجة ، وكانَ قد تنصَّرَ في الجاهليَّة ، وكانَ يكتبُ الكتابَ العبراني ، فيكتبُ مِنَ الإنجيلِ بالعبرانيةِ ما شاءَ اللهُ أَنْ يكتب ، وكانَ شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابنَ عم ؛ اسمَعْ مِن ابنِ أَخيك .

فقالَ لَهُ ورقة : يا ابنَ أَخي ؛ ماذا ترىٰ ؟ فأَخبرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خبرَ ما رأَىٰ .

فقالَ لَهُ ورقة : هـٰذا النَّاموسُ الَّذي نَزَّلَ اللهُ علىٰ موسىٰ ، يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكونُ حياً إِذ يُخرجكَ قومُك .

فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَوَ مُخرجيَّ هُم ؟ » قال : نَعَم ، لَمْ يأْتِ رجلٌ قطُّ بمِثلِ ما جئتَ بهِ إِلاَّ عُودي ، وإِنْ يُدركني يومُك . أَنصركَ نصراً مُؤزَّراً ، ثمَّ لَم ينشب ورقةُ أَنْ تُوفِّيَ وفترَ الوحي) .

قالَ ابنُ شهاب : وأَخبرَني أَبو سلمةَ بنُ عبدِ الرَّحمـٰن : أَنَّ جابرَ بنَ عبدِ اللهِ الأَنصاريّ رضي الله عنهما قالَ وهو يُحدِّثُ عن فترةِ الوحي، فقالَ في حديثه : « بَيْنَا أَنَا

أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاء ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذا المَلَكُ الَّذي جاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ علىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْض ، فَرَعِبْتُ مِنْهُ فَرَجَعْت ، فَقُلْت : زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي ، فَأَنزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ إِلىٰ قولهِ ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ فَحَمِيَ الوَحْيُ وَتَتَابَع » .

فنقولُ ـ وباللهِ تعالى التَّوفيقُ ـ : راويةُ هٰذا الحديثِ عائشةُ أُمُّ المؤْمنينَ رضيَ اللهُ عنها وهيَ لَم تُدرِكْ زمانَ وقوعِ هٰذهِ القصَّة ، فروَتْها إمَّا سماعاً مِنَ النَّبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وهوَ الظَّاهرُ كما قالَ الطِّيبي ، أَو مِنْ صحابيٍّ آخَر .

وليُعلَم : أَنَّ عائشةَ هيَ الصِّدِّيقةُ بنتُ الصِّدِّيق ، تزوَّجها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بمكَّةَ قَبْلَ الهجرةِ بسنتينِ وهيَ بنتُ ستِّ سنينَ في شوّال ، وبنىٰ بها في المدينةِ بعدَ منصرفهِ مِنْ بدرٍ في شوّال أَيضاً ، سَنةَ ٱثنتينِ مِنَ الهجرةِ وهيَ بنتُ تسعِ سنين ، والأَحاديثُ في فَضْلِها مشهورةٌ كثيرة ، منها :

قولُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « خُذُوا ثُلُثَيْ دِينِكُم ، عَنِ الحُمَيْرَاء » وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى الطَّعَام » .

ومِنْ فضائلِها وخصائصِها علىٰ ما نقلَ السّفيريُّ عنِ التِّرمذي : أَنَّ خديجةَ رضيَ اللهُ عنها لمّا ماتت . . اغتمَّ رسولُ اللهِ ، فجاءَهُ جبريلُ بصورةِ عائشةَ في خرقةِ حريرٍ خضراء ، وقال : هٰذهِ زوجتُكَ في الدُّنيا والآخرة .

وقيل : جاءَ بورقةٍ مِنَ الجنَّةِ منقوشٍ عليها صورةُ عائشة ، وقال : يا محمَّد ؛ الجبَّارُ يُقرؤُكَ السَّلامَ ويقول : « إِنِّي زَوَّجْتُكَ الْبِكْرَ الَّتِي تُشبهُ هٰذهِ الصُّورةَ في السَّماءِ فتزوَّجْها أَنتَ في الأَرض » فدعا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الدَّلاَّلةَ وقال : « هَلْ تَعْرِفِينَ بِمَكَّةَ بِكْراً تُشْبِهُ هٰذهِ الصُّورَةَ ؟ » قالَت : نعَم ، بنتُ أَبي بكرٍ تُشبهُ هٰذهِ الصُّورة .

فدعا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَبا بكر ، وقال : « إِنَّ لَكَ بِنْتاً تُسَمَّىٰ عَائِشَةَ زَوَّجَنِي اللهُ بِهَا فِي السَّمَاء ، وَأَمَرَكَ أَنْ تُزَوِّجَنِي بِهَا فِي الأَرْض » قال : إِنَّها صغيرةٌ .

فقال : « لَو لَمْ تَكُنْ صَالِحَةً لَمَا زَوَّجَنِيهَا الله » فعقدَ النِّكاح ، ورجعَ أَبو بكرٍ إِلىٰ منزلِهِ وأَرسلَ معَ عائشةَ طبقاً مِنَ التَّمر ، وقال : قولي لَه : هٰذا الَّذي سأَلَ عنهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فلا أَدري هل يَصلحُ ؟ فأَتتِ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأَخبَرَتْهُ بذلك ، فقال : « قَبِلْنَا ثُمَّ قَبِلْنَا » .

ومنها : أَنَّها قالت : يا رسولَ الله ؛ ادعُ اللهَ أَنْ يغفرَ لي ما تقدَّمَ مِنْ ذنبي وما تأَخَّر ، فرفعَ يديهِ حتَّىٰ رُؤِيَ بياضُ إِبطيه ، وقال : « اللَّهُمَّ ؛ اغْفِرْ لِعَائِشَةَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ مَغْفِرَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَة ، لاَ تُغَادِرُ ذَنْباً ، وَلاَ تُكْتَبُ بَعْدَهَا خَطِيئَةٌ وَلاَ إِثْم » .

ومنها : أَنَّ اللهَ تعالىٰ أَنزلَ براءَتَها مِنَ السَّماءِ لمّا تكلَّمَ فيها أَهلُ الإِفك ، وقالَ عزَّ وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ الآيات العشر ، فلذا يكونُ قاذفُها كافراً ؛ لأَنَّهُ مكذِّبٌ لِلآيات .

ومنها : أَنَّها كانَتْ أَعلمَ النَّاسِ بالقرآنِ وبالحديثِ وبالشِّعرِ علىٰ ما قالَ عروة ، واستقلَّتْ بالفتوىٰ في زمنِ الخلفاء الرَّاشدين ، وروي لها أَلفُ حديثٍ وعشرةُ أَحاديث ، اتَّفقَ البخاريُّ ومسلمٌ علىٰ مئةٍ وأَربعةٍ وسبعينَ حديثاً ، وانفردَ مسلمٌ بثمانيةٍ وستِّين ، والبخاريُّ بأَربعةٍ وخمسين .

ماتت رضيَ اللهُ عنها سنةَ ثمانٍ وخمسين ، وهيَ بنتُ ستٍّ وستِّينَ سنة ، ودُفِنَتْ ليلاً بالبقيع ، وصلَّىٰ عليها أَبو هريرة .

أَقامت في صُحبةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثمانيةَ أَعوامٍ وخمسةَ أَشهر ، وتوفِّي عنها وهيَ بنتُ ثمانِ عشرةَ سنة .

واختلفَ العلماءُ في أَفضليَّتِها علىٰ خديجةَ وفاطمة ، والَّذي رجَّحَهُ جماعةٌ مِنَ المُتأَخِّرينَ أَنَّ خديجةَ أَفضلُ مِنْ عائشة ، وكذا فاطمةُ أَفضلُ مِنْ عائشة .

قالَ السّبكي : الَّذي نختارُهُ ونَدينُ اللهَ بهِ أَنَّ فاطمةَ أَفضل ، ثمَّ أُمُّها خديجة ، ثمَّ عائشة ، قيل : ثمَّ حفصة .

وكذا اختلُفَ في أَفضليَّةِ فاطمةَ علىٰ مريم : فإِنْ لَم تكنْ مريمُ نبيَّة . . ففاطمةُ أَفضلُ

مِنها ، وقيل : هيَ أَفضلُ مطلَقاً ، واستدلَّ القائلُ بما رواهُ النَّسائيُّ عن حذيفة : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « هٰذَا مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ لِيُسَلِّمَ عَلَي ، وَبَشَّرَنِي أَنَّ حَسَناً وَحُسَيْناً سَيِّدَا شَبَابَ أَهْلِ الْجَنَّة ، وَأُمَّهُمَا سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّة » .

ونقلَ السّفيريُّ عنِ الإمامِ مالكٍ أَنَّهُ قال : لا أُفضِّلُ علىٰ بضعةِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَحداً .

ولنرجع إِلىٰ ما يتعلَّقُ بحديثِها : قالت : (أَوَّلُ ما بُدىءَ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الوحي الرُّؤْيا الصَّالحة . . . إِلخ) بُدىء : بضمِّ الموحَّدةِ وكسرِ الدَّال .

وفي الحديثِ دلالةٌ علىٰ أَنَّ الرُّؤيَا مِنْ أَقسامِ الوحي فـ(مِن) للتَّبعيض ، قالَ السّفيري : وهٰذا متَّفقٌ عليه . أَي : أَنَّهُ لا مدخلَ للشَّيطانِ فيها .

ونقلَ القسطلانيُّ عن أَبي عبدِ اللهِ القزّاز : أَنَّ الرُّؤْيا ليست مِنَ الوحي ، و(مِن) لبيانِ الجنسِ . اهـ

وإِنَّما بُدىءَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالوحي في المنام قَبْلَ جميعِ أَقسامِ الوحي السبعة ؛ ليكونَ تمهيداً لمجيء المَلكِ إِليهِ في اليقظة ؛ لِئَلاَّ يَفجأَهُ الملَكُ ويأْتيهِ بصريحِ النُّبوَّةِ بغتةً فلا تَحملها القوى البشريَّة ، ولقد أَحسنَ البوصيريُّ حيثُ يقول :

لاَ تُنْكِرِ الْوَحْيَ مِنْ رُؤْيَاهُ إِنَّ لَهُ ... قَلْباً إِذا نَامَتِ الْعَيْنَانِ لَمْ يَنَمِ

قالَ العلماء : الرُّؤْيا علىٰ قِسمَين :

صالحة : وتسمَّىٰ صادقة ؛ وهيَ بشارةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ يُبشِّرُ بها عبادَه ؛ ليَكثر شكرُه .

وكاذبة : وتسمَّىٰ بالحلمِ وبأَضغاثِ أَحلام ؛ وهيَ مِنَ الشَّيطان يُريها الإِنسانَ ؛ لِيَحزنَهُ ويقلَّ حظُّهُ مِن الشُّكر ، ولذلكَ أَمرَ بالتَّعوُّذِ مِنْ شرِّه .

وينفث : أَي : ينفخُ عن يسارهِ ثلاثَ مرَّات ، ولا يذكرُها لأَحد ؛ فإِنَّها لا تضرُّه .

وقد ورد في « الصحيحين » : عن أَنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه : أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ

عليهِ وسلَّمَ قال : « الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّة » وفي رواية : « رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّة » .

وفيه غموضٌ عن كثيرٍ مِنَ النَّاس ، وإيضاحُه : أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عاشَ ثلاثاً وستِّينَ سنةً على الصَّحيح ، ومدَّةُ نبوَّتهِ مِنها ثلاثٌ وعشرونَ سنة ؛ لأَنَّهُ نُبِىءَ علىٰ رأسِ الأَربعين ، وكانَ نصفَ سنةٍ يَرى الوحيَ في المنام ، ثمَّ رأَى الملَكَ في اليقظة ، ونِسبةُ نصف السَّنةِ التي رأَى الوحيَ فيها في المنامِ إِلى المدَّةِ الَّتي رآهُ فيها في اليقظةِ كانت نصفَ جزءٍ مِنْ ستة وأربعين جزءاً مِنَ النُّبوَّة ، لـٰكنَّ المشكل رواية لمسلمٍ : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّة » فإِنَّها لا يَظهرُ لَها وجه .

ومَنْ أَرادَ استيفاءَ بحثِ الرُّؤيا . . فعليهِ بـ« روحِ المعاني » و« شرحِ السَّفيري » : وغيرِهما .

وقولُها : (ثمَّ حُبِّبَ إِليهِ الخلاء ، وكان يخلو بغارِ حراء) أَي : حَبَّبَ اللهُ لحبيبهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ الخلوة ؛ أَي : بأَنْ أَلهمَهُ ذلك .

والخلوةُ شأْنُ الصَّالِحِينَ وعبادِ اللهِ تعالى العارفِين ؛ لأَنَّها تُريحُ القلبَ مِنْ أَشغالِ الدُّنيا ، وتُفرِّغُهُ للهِ تعالىٰ فيتفجَّرُ منهُ ينابيعُ الحكمة .

قالَ القسطلاني : والخلوة : أَنْ يَخلوَ عن غيره ، بل وعن نَفْسِه ، بربِّهِ عزَّ وجلَّ وعندَ ذلكَ يصيرُ خليقاً بأَنْ يكونَ قالبُه ممرّاً لوارداتِ علومِ الغيب ، وقلبُهُ مقرّاً لَها .

وخلوتُهُ عليهِ أَفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ إِنَّما كانت لأَجْلِ التَّقرُّب ، لا علىٰ أَنَّ النُّبوَّةَ مكتسبة ، قالَ السَّفيريُّ عليهِ الرحمة : لا بدَّ لمَنْ يقصدُ الخلوةَ مِنْ إِذنِ شيخهِ لَهُ في ذلك ، ولا ينبغي لَهُ أَنْ يقصدَ بدخولهِ أَنْ يصيرَ مكاشفاً أَو ذا كرامةٍ عيانيَّة ، فإِنَّ مَنْ دخلَ علىٰ هـٰذا القصدِ ولَم يُخلِصْ في دخوله . . تصرَّفَ فيه الشَّيطانُ وأَراهُ الأَشياءَ الباطلةَ في صورةِ الحق ، فنعوذ باللهِ تعالىٰ مِنَ الخذلان .

وغارُ حِراءَ ـ بكسرِ الحاءِ وتخفيفِ الرَّاء ـ : نقبٌ في جبل ، بينَهُ وبينَ مكَّة ـ شرَّفَها اللهُ تعالىٰ ـ نحو ثلاثةِ أَميالٍ عن يسارِكَ إِذا سِرْتَ إِلىٰ منىٰ .

وقولُها : (فيتحنَّثُ فيه) بالحاءِ المهملةِ وآخِرُهُ مثلَّثة ، والضَّميرُ المنفصلُ عائدٌ إلىٰ مصدر : (يتحنَّث)[1] وهوَ مِنَ الأفعالِ الَّتي معناها السَّلب ؛ أَي : اِجتنابُ فاعِلِها لمصدرِها ؛ مثل : تأثَّمَ ، وتحوَّبَ إذا اجتنب الإثمَ والحوب . أَو هيَ بمعنىٰ يتحنَّفُ بالفاء ، أَي : يتَّبعُ الحنيفيَّةَ دينَ إبراهيم ، والفاءُ تبدَّلُ ثاء .

وقولُه : (وهوَ التَّعبُّدُ اللَّيالي ذواتِ العدد) قالَ القسطلاني : (هـٰذا التَّفسيرُ لِلزّهريِّ أَدرجَهُ في الخبر) .

و(اللَّيالي) : نُصبَ على الظَّرفيّة ، متعلِّقٌ بقولِه : (يتحنَّث) لا بالتَّعبُّد ؛ لأَنَّ التَّعبُّدَ لا تُشترطُ فيهِ اللَّيالي .

و(ذوات) : نُصبَ بالكسر ، صفةُ اللَّيالي .

والمراد : أَنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ يتعبَّدُ بعضَ اللَّيالي معَ أَيَّامهن . ووَصْفُها بذواتِ العددِ لإرادةِ التَّقليل ، كما في قولِهِ تعالىٰ : ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٍ﴾ وأَبهَمَ العددَ ؛ لاختلافهِ بالنِّسبةِ إلى المُددِ الَّتي يَتخلَّلُها مجيؤُهُ إلىٰ أَهله ، وكانَ أَكثرُها في شهرِ رمضانَ في كلّ سَنة .

وأَقلُّ الخلوةِ ثلاثةُ أَيَّام ، فالأَوَّلُ لِلتَّكفير ، والثَّاني لِلتَّطهير ، والثَّالثُ لِلتَّنوير . ثمَّ سبعةُ أَيَّام ، ثمَّ شهرٌ ولَم يصحَّ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَكثرُ منه .

نَعَم ، روى الأَربعينَ سوارُ بنُ مصعب ، وهوَ متروكُ الحديث .

فإنْ قلت : لِمَ خصَّ حراءَ بالتَّعبُّدِ دونَ غيره ؟

قالَ ابنُ أَبي جمرة : لمزيدِ فَضْلهِ علىٰ غيره ؛ لأَنَّهُ مُنزَوٍ مجموعٌ لتحنُّثه ، وينظرُ منهُ الكعبةَ المعظَّمةَ والنَّظرُ إليها عبادة ، فكانَ لَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فيهِ ثلاثُ عبادات : الخلوة ، والتَّحنُّث ، والنَّظرُ إلى الكعبة .

وليُعلَمْ أَنَّهُم اختلفوا في تعبُّدِه :

---

(١) وأَصل التحنث : التجنب عن الحنث ـ أَي : الإثم ـ فكأَن المتعبّد يُلقي الإثم عن نفسه بالعبادة . اهـ منه .

فقيل : كانَ يتعبَّدُ بالتَّفكر . وقيل : بشريعةِ إبراهيم . وقيل : بشريعةِ موسىٰ . وقيل : بشريعةِ عيسىٰ . وقيل : بشريعةِ نوح . وقيل : بشريعة آدمَ عليهِمُ السَّلام .

وقولُها رضيَ اللهُ عنها : (قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلىٰ أَهله) أَي : كانَ تعبُّدُهُ في الغارِ قَبْلَ أَنْ يحنَّ إِلىٰ أَهلهِ ويشتاقَ إِليهِم ويرجعَ إِليهِم ، فـ(يَنزع) بفتحِ أَوَّلهِ وكسرِ الزّاي .

وقولُها : (ويتزوَّدُ لذلك) مرفوعاً عطفاً علىٰ (فيتحنَّث) وذلكَ : إمَّا إشارةً إلى الخلوةِ وإِمَّا إلى التَّعبُّد ؛ أَي : كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتعبَّدُ في غارِ حراءٍ ويتزوَّدُ لمدَّةِ خلوتهِ وتعبُّدِه .

والتَّزوُّد : اِتِّخاذُ الزّاد ، والمرادُ هو : الطَّعامُ الَّذي يستصحبُهُ المسافر .

وقولُها : (ثمَّ يرجعُ إِلىٰ خديجةَ فيتزوَّدُ لِمِثْلِها) أَي : كانَ بعدَ الفراغِ مِنَ التعبُّدِ في هٰذهِ اللَّيالي يَرجعُ إِلىٰ خديجة ، فإِذا جاءَ وقت تلك اللَّيالي . . يَتزوَّدُ لمثلها ؛ أَي : يصحبُ معَهُ زاداً يكفيهِ لمثلِ تلكَ اللَّيالي .

وقولُها : (حتَّىٰ جاءَهُ الحقُّ وهوَ في غارِ حراء) أَي : الوحي ،(فجاءَهُ الملَكُ) وهوَ جبريلُ عليهِ السَّلام ، وهٰذهِ الفاءُ تسمَّىٰ بالفاءِ التَّفسيريَّة ؛ كقولهِ تعالىٰ : ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ إِذِ القتلُ نفسُ التَّوبة ، وهُنا مجيءُ الملَكِ هوَ عبارةٌ عن مجيءِ الحق .

قالَ القسطلاني : فجاءَهُ جبريلُ عليهِ السَّلامُ يومَ الإثنينِ لسبعَ عشرةَ خَلَتْ مِنْ رمضانَ وهوَ ابنُ أَربعينَ سنة .

وقولُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « مَا أَنَا بِقَارِىء » وفي رواية : « مَا أُحْسِنُ أَنْ أَقْرَأَ » فـ(ما) نافية ، واسمُها (أَنا) و(بقارىء) خبرُها ، والباءُ زائدةٌ لتأْكيدِ النَّفي ، وقيل : اِستفهاميَّة ؛ بدليلِ روايةِ أَبي الأَسود : « قَال: كَيْفَ أَقْرَأُ؟» وفي رواية : « مَاذَا أَقْرَأ؟» .

وقولُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « فَأَخَذَنِي » أَي : جبريل . « فَغَطَّنِي » : بالغينِ المعجمةِ ثمَّ المهملة ؛ أَي : ضمَّني وعَصَرني . وعندَ الطَّبري : « فغتَّني » بالمثناةِ الفوقيَّةِ بدلَ الطَّاء ، وهوَ حبسُ النَّفَس .

وقولُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّيَ الْجَهْد » بفتحِ الجيمِ ونصبِ الدَّال ؛ أَي : بلغَ الغطُّ منِّي الجهد ؛ أَي : غايةَ وُسْعي ، فهوَ مفعولٌ حُذِفَ فاعلُه . ويُروىٰ : الجُهد ، بالضَّمِّ والرَّفع ؛ أَي : بلغَ مِنِّي الجهدُ مبلغه ، فهوَ فاعلُ بَلَغ .

وقولُه : « ثُمَّ أَرْسَلَنِي » أَي : أَطلقَني مِن العصر . « فَقَال : اقْرَأْ ، قُلْت » وفي رواية : « فَقُلْت » : مَا أَنَا بِقَارِىء . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْد ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَال : اقْرَأْ ، فَقُلْت : مَا أَنَا بِقَارِىء . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَة » وهٰذا الغطُّ لِيُفَرِّغَهُ عنِ النَّظرِ إِلىٰ أُمورِ الدُّنيا ، ويُقبلَ بكلِّيَّتِهِ إِلىٰ ما يُلقىٰ إِليه ، وكرَّرَهُ لِلمبالغة . واستُدلَّ بهِ علىٰ أَنَّ المؤدِّبَ لا يضربُ صبياً أَكثرَ مِنْ ثلاثِ ضربات .

وقيل : الغطَّةُ الأُولىٰ ليتخلَّىٰ عنِ الدُّنيا ، والثَّانيةُ ليتفرَّغَ لِما يُوحىٰ إِليه ، والثَّالثةُ لِلمؤانسة .

وعدَّ بعضُهم هٰذا مِنْ خصائصهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام ؛ إِذ لَم يُنقلْ عن أَحدٍ مِنَ الأَنبياءِ أَنَّهُ جرىٰ لَهُ عندَ ابتداءِ الوحي إِليهِ مِثلَه .

وقولُه : فَقَال : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . . . ﴾ إِلخ . أَي : اقرأ ـ يا محمَّد ؛ ما يُوحىٰ إِليك ـ مِنَ القرآنِ مبتدأً أَو مفتتحاً باسمِ ربِّك ؛ أَي : قُل : باسمِ اللهِ ، ثمَّ اقرأ .

واستُدلَّ بذلكَ علىٰ أَنَّ البسملةَ جزءٌ مِنْ كلِّ سورة ، وفيهِ بحث .

وقولُه : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ يعني بني آدم . والعلق : الدَّمُ الجامد ، وإِذا جرىٰ . . فهوَ المسفوح .

وقولُه : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ أَي : الزَّائدُ في الكرمِ علىٰ كلِّ كريم . وقالَ الكلبي : الحليمُ عن جهلِ العباد ، فلَم يُعجِّلْ بعقوبتِهِم .

ونقلَ في « الفتح » عن أَبي حيّان أَنَّهُ قالَ في « البحر » : ومِنْ غريبِ ما رأَينا تسميةُ النَّصارىٰ بهٰذهِ الصِّفةِ الَّتي هيَ صفةُ اللهِ تعالىٰ ، يُسمُّونَ الأَكرمَ والرَّشيد ، وفخرَ السُّعداء ، وسعيدَ السُّعداءِ ، في ديارِ مصر ، ويدعوهُم بها المسلمون ، ويزيدونَ عليه علىٰ سبيلِ التَّعظيمِ الشَّيخَ الأَكرم ، والشَّيخَ الأَسعد ، والشَّيخَ الرَّشيد . فيا لَها مِنْ خزيٍ

يومَ عرضِ الأقوالِ والأفعالِ على اللهِ تعالى . اهـ

وليُعلَمْ أَنَّ في هٰذا دليلاً لِلجمهورِ أَنَّهُ أَوَّلُ ما نزل ، فعنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما : أَوَّلُ شيءٍ نزلَ مِنَ القرآنِ خمسُ آيات ، إلىٰ ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ يعني : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ .

ورويَ عن مجاهد : أَوَّلُ ما نزلَ مِنَ القرآن : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ثم : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ .

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ أَنَّه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

وقيل : الفاتحة .

وقالَ بعضُهم : أَوَّلُ ما نزلَ ﴿ اقْرَأْ ﴾ ثمَّ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ثمَّ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ثمَّ الفاتحة .

وقولُها : (فرجعَ بها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَرجُفُ فؤادُه) أَي : رجعَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بالآياتِ الَّتي علَّمَهُ جبريلُ عليه السلام إيّاها ، وهي : ﴿ اقْرَأْ ﴾ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ حالةَ كونهِ قاصداً بيتَ خديجة ، وحالَ كونهِ يَرجُفُ ـ بضمِّ الجيمِ ـ أَي : يخفقُ فؤادُهُ ـ أَي : قلبُهُ ـ لِمَا فجأَهُ مِنَ الأمرِ المخالفِ للعادةِ والمألوف ، فنفرَ طبعُهُ البشريُّ وهالَهُ ذلك ، ولَم يتمكَّنْ مِنَ التأمُّلِ في تلكِ الحالة ؛ لأَنَّ النُّبوَّةَ لا تُزيلُ الطِّباعَ البشريَّةَ كلَّها . فدخلَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ خديجةَ بنتِ خويلدٍ أُمِّ المؤمنينَ رضيَ اللهُ عنها ، فقال : « زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي » بفتحِ الزَّاي المعجمةِ وكسرِ الميم ؛ أَي : دثِّروني ، كما جاءَ في روايةٍ أُخرىٰ : « دَثِّرُونِي وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِداً » رواها السَّفيري .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ذلكَ ؛ لِشدَّةِ ما لَحِقَهُ مِنَ الهول ، والعادةُ جاريةٌ بسكونِ الرِّعدةِ بالتَّلفُّف .

قالت : (فزَمَّلُوهُ حتَّىٰ ذهبَ عنهُ الرَّوْع) بفتحِ الرَّاء ؛ أَي : الفزع .

فقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لخديجةَ رضيَ اللهُ عنها وأَخبرَها الخبر : « لَقَدْ خَشِيتُ

عَلَىٰ نَفْسِي » أَي : خفتُ عليها ، وهوَ جوابُ قسمٍ محذوف ؛ أَي : والله ، لقد خشيتُ علىٰ نفسي الموتَ مِنْ شدَّةِ الرُّعبِ أَوِ المرض ، وقيلَ غيرُ ذلك . وليسَ معناهُ الشَّك .

قالتْ لَهُ خديجة : (كلا) أَي : لا تَقُلْ ذلك ، أَو : لا خوفَ عليك ، (والله ، ما يُخْزِيكَ اللهُ أَبداً) بضمِّ المثناةِ التَّحتيَّة ، وبالخاءِ المعجمةِ السَّاكنة ، والزَّاي المكسورة ، وبالمثنَّاةِ التَّحتيَّةِ السَّاكنة . أَي : ما يَفضحُكَ الله .

وعنِ الكشميهني : (مَا يُحزنكَ الله) بالحاءِ المهملة ، مِنَ الحزن .

وقولُها : (إِنَّكَ لَتصِلُ الرَّحم) أَي : لَتُحسِنُ إِلىٰ أَقاربك . (وتَحملُ الكَلّ) بفتح الكافِ وتشديدِ اللاَّم ، وهو : اَلَّذي لا يَستقلُّ بأَمره ، أَو (الثِّقْل) بكسرِ المثَلَّثةِ وإِسكانِ القافِ (وتَكسبُ المعدوم) بفتحِ المثناةِ الفوقيَّة ؛ أَي : تُعطي النَّاسَ ما لا يَجدونَهُ عندَ غيرِكَ (وتَقري الضَّيف) بفتح أَوَّلِهِ بلا همز ، وسُمِعَ بضمِّها ؛ أَي : تهيِّءَ لَهُ طعامَهُ ونُزُلَه ، (وتُعينَ علىٰ نوائبِ الحق) أَي : حوادثه . وإِنَّما قالت : نوائبِ الحق ؛ لأَنَّها تكونُ في الحقِّ والباطل ، قالَ لبيد :

نَــوَائِــبُ مِــنْ خَيْــرٍ وَشَــرٍّ كِــلاَهُمَــا فَـلاَ الْخَيْـرُ مَمْـدُودٌ وَلاَ الشَّـرُّ لاَزِبُ

قالَ السَّفيري : ومعنىٰ كلامِ خديجة رضي الله عنها : إِنَّكَ لا يُصيبكَ مكروه ؛ لِما جعلَهُ اللهُ فيكَ مِنْ مكارمِ الأَخلاقِ وجميلِ الصِّفات ، فإِنَّ خصالَ الخيرِ سببٌ للسَّلامةِ مِنْ مصارعِ السُّوء ، والمكارمُ سببٌ لدفعِ المكاره ، وفي هٰذا دليلٌ علىٰ جوازِ مدحِ الإِنسانِ في وجههِ نظراً لمصلحة .

وأَمَّا قولُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « أُحْثُوا عَلَىٰ وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَاب » فهو محمولٌ على المدحِ بباطلٍ ، أَويُؤَدِّي إِلىٰ باطل . وفيهِ دليلٌ علىٰ أَنَّهُ ينبغي لمَنْ حضرَ عندَ مَنْ حصلَ لَهُ مخافةٌ مِنْ شيءٍ أَنْ يذكرَ لَهُ أَسبابَ السَّلامة ، وأَنْ يذكرَ ما فيهِ مِنَ الفضائلِ كما فعلَتْ خديجةُ رضي الله عنها معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم .

وفيهِ أَبلغُ دليلٍ علىٰ كمالِ خديجةَ رضي الله عنها وجزالةِ رأْيها ، وقوَّةِ نَفْسِها وعظيمِ فهمِها ؛ إِذ جَمَعَتْ رضيَ اللهُ عنها جميعَ أَنواعِ المكارمِ وأُمَّهاتِها فيه ؛ لأَنَّ الإِحسانَ إِمَّا

إِلى الأَقاربِ وإِمَّا إِلى الأَجانب ، وإِمَّا بالبدنِ وإِمَّا بالمال ، وإِمَّا علىٰ مَنْ يَستقلُّ بأَمرِهِ وإِمَّا علىٰ غيرِه .

ويدلُّ علىٰ كمالِ عَقْلِها وقوَّةِ معرفتِها : ما ذكرَهُ ابنُ سيِّدِ النَّاسِ أَنَّها قالتْ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : (أَي ابنَ عمِّي ؛ أَتستطيعُ أَنْ تُخبرني بصاحبكَ الَّذي يأْتيكَ إِذا جاءَك ؟ قال : « نعَم » قالت : فإِذا جاءَكَ . . فأَخبرني به ، فجاءَهُ جبرئِل ، فقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « يَا خَدِيجَة ؛ هـٰذا جِبْرِيلُ قَدْ جَاءَنِي » قالت : قُم يا ابنَ عمِّي فاجلسْ علىٰ فَخِذي اليسرىٰ ، فقامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فجلسَ عليها ، قالت : هل تراهُ ؟ قال : « نعَم » قالت : فتحوَّلْ فاقعدْ علىٰ فخذي اليمنىٰ ، فتحوَّلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقعدَ علىٰ فخذِها اليمنىٰ ، فقالت : هل تراهُ ؟ قال : « نعَم » قالت : فتحوَّلْ فاجلسْ في حِجرِي ، فجلسَ في حجرِها ، ثمَّ قالت : هل تراهُ ؟ قال : « نعَم » ثُمَّ حسَرَتْ فأَلقَتْ خِمارَها وهوَ جالسٌ في حجرها ، وقالت : هل تراهُ ؟ قال : « لاَ ! » قالت : فاثبتْ وأَبشِر ، إِنَّ هـٰذا مَلَكٌ وما هوَ بشيطان) اهـ

وقولُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : (فانطلقَتْ به خديجةُ حتَّىٰ أَتتْ ورقةَ بنَ نوفلِ بنِ أَسدِ بنِ عبدِ العزَّىٰ ، ابنَ عمّ خديجة) وورقةُ بفتح الرَّاء ، وإِنَّما كانَ ابنَ عمٍّ خديجةَ ؛ لأَنَّها بنتُ خويلدِ بن أَسد ، وهوَ ورقةُ بنُ نوفل بنِ أَسدِ المذكورِ وكانَ مِنْ علماءِ قريشٍ وشعرائِهم ، وكانَ يَعرفُ اللِّسانَ العربيَّ والعبراني ، وكانَ امرأً تنصَّرَ في الجاهليَّة ، وذلكَ أَنَّهُ خرجَ هوَ وزيدُ بنُ عمرِو بنِ نفيلٍ لمّا كَرِها طريقَ الجاهليَّةِ إِلى الشَّامِ وغيرِها يسأَلانِ عنِ الدِّين ، فأَعجَبَ ورقةَ النَّصرانيَّةُ لِلُقيِّهِ مَنْ لَم يُبدِّلْ شريعةَ عيسىٰ عليهِ السَّلام .

وكانَ ورقةُ أَيضاً يكتُبُ الكتابَ العبراني ، وفي روايةِ مسلمٍ : (يكتبُ الكتابَ العربي) قالَ النَّووي : إِنَّهُ يَكتبُ بالعربيَّةِ والعِبرانيَّة . وهيَ بكسرِ العينِ نسبةً إِلى العبريِّ ؛ بكسر العينِ وإِسكانِ الموحَّدة ، زِيدَتِ الأَلفُ والنُّونُ في النِّسبةِ علىٰ غيرِ قياس .

قيل : سُمِّيتْ بذلكَ ؛ لأَنَّ الخليلَ عليهِ السَّلامُ تكلَّمَ بها لمّا عبرَ الفراتَ فارّاً مِنْ نمروذ .

وقالَ القسطلاني : قيل : (إِنَّ التوراةَ عبرانيَّة ، والإِنجيلَ سرياني) وعن سفيان : (ما نزلَ مِنَ السَّماءِ وحي إِلاَّ بالعربيَّة ، وكانتِ الأَنبياءُ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ تُترجِمُهُ لقومِها . اهـ) .

قالت عائشة : (وكانَ شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت لَهُ خديجة : يا ابنَ العم) وفي روايةِ مسلمٍ : (يا عم) وهيَ مجازٌ لِلاحترامِ (اِسمعْ مِنِ ابنِ أَخيك) تعني النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ لأَنَّ الأَبَ الثَّالثَ لورقةَ هوَ الأَخُ لِلأَبِ الرَّابعِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم . أَو قالتْهُ علىٰ سبيلِ الاحترام .

(فقالَ لَهُ ورقة : يا ابنَ أَخي ؛ ماذا ترىٰ ؟ فأَخبرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خبرَ ما رأَىٰ ، فقالَ لَهُ ورقة : هٰذا النَّاموس!) بالنُّونِ والسِّينِ المهملة ، وهوَ لغةً : صاحبُ سرّ الخير ، والجاسوس : صاحبُ سرِّ الشَّر . والمرادُ بذلكَ جبريلُ عليهِ السَّلام ، وأَهلُ الكتابِ يُسمُّونَهُ النَّاموسَ الأَكبر .

وقولُه : (الَّذي نزَّلَ اللهُ علىٰ موسىٰ) وفي رواية : (علىٰ عيسىٰ) قالَ القسطلاني : نزلَ بحذفِ الهمزةِ يُستعمَلُ فيما نزلَ نجوماً ، وفي رواية : (أُنزل) ، ويُستعمَلُ فيما نزلَ جملة .

ثمَّ قالَ ورقةُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : (يَا ليتني فيها) أَي : يا محمَّد ؛ ليتني أَكونُ في أَيَّامِ الدَّعوةِ جذعاً ـ بفتحِ الجيمِ والذَّالِ المعجمة ـ هوَ الصَّغيرُ مِنَ البهائم ، واستعيرَ للإِنسان ؛ أَي : ليتني كنتُ شاباً قوياً حتَّىٰ أُبالغَ في نُصرتِك .

ثمَّ قالَ ورقة : (ليتني ـ وفي روايةٍ : « يا ليتني » ـ أَكونُ حياً إِذ يُخرجُكَ قومُك) أَي : مِنْ مكَّة . واستعملَ (إِذ) في المستقبلِ كـ(إِذا) علىٰ حدِّ قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ وذلكَ لتنزيلِ المستقبلِ المقطوعِ بوقوعهِ منزلةَ الماضي الواقع .

فقالَ لَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ ؟ » بفتحِ الواوِ وتشديدِ الياءِ مفتوحة ؛ لأَنَّ أَصلَه : مخرجوني ، جمعُ مُخرِج ، مِنَ الإِخراج . وتعليلُ هٰذهِ الكلمةِ في الكتبِ النَّحويَّةِ والحديثيَّة .

والهمزةُ لِلاستفهامِ الإنكاريِّ علىٰ وجهِ التَّفجُّعِ والتَّألُّم ، وكأنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ استبعدَ إخراجَهُ عنِ الوطنِ لا سيّما حَرم اللهِ وبلد أَبيهِ إسماعيلَ مِنْ غير سببٍ يَقتضي ذلك ؛ فإنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ جامعاً لأَنواعِ المحاسنِ المقتضيةِ لإكرامِه وإنزالِهِ منهُم محلَّ الرُّوحِ مِنَ الجسد .

ثمَّ قالَ لَهُ ورقة : (نَعَم ، لَم يأْتِ رجلٌ قطُّ بمثلِ ما جئتَ بهِ مِنَ الوحي إلاَّ عُودِي) يعني أَنَّ أَهلَ الحقِّ يُعاديهم أَهلُ الباطل ، وأَنَّ أَهلَ الفضلِ محسودونَ ولا سيَّما الجاهليَّة ، فإخراجُهُم عن طريقهِم المألوفِ موجب لِعداوتِهم ، وللهِ تعالىٰ درُّ القائل :

إنَّ الْعَـرَانِيـنَ تَلْقَـاهَـا مُحَسَّـدَةً ... وَلاَ تَـرَىٰ لِلِئَـامِ النَّـاسِ حُسَّـادَا

ثمَّ قالَ ورقة : (وإنْ يُدركني يومُكَ أَنصركَ نصراً مؤزَّراً) أَي : إن أُبقيتُ إلىٰ يومِ انتشارِ نبوَّتِكَ أَو يومَ يُخرِجُكَ قومك . . أَنصركَ نصراً قويّاً بليغاً . فـ(مُؤزَّراً) بضمِّ الميمِ وفتحِ الزَّاي المشدَّدةِ آخِرَه ، وراءٍ مهملةٍ مهموزاً .

قالتْ عائشة : (ثمَّ لَم يَنشب) بفتحِ المثناةِ التَّحتيَّةِ والمعجمة ؛ أَي : لَم يَلبثْ (ورقةُ أَنْ توفِّي) بفتحِ الهمزةِ وتخفيفِ النُّون ؛ أَي : لَم تتأَخَّر وفاتُهُ عن هـٰذهِ القصَّة ، واختُلِفَ في وقتِ موته :

فقالَ الواقدي : (إنَّهُ خرجَ إلى الشَّام ، فلمّا بلغَهُ أَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَمرَ بالقتالِ بعدَ الهجرة . . أَقبلَ يُريدُه ، حتَّىٰ إذا كانَ ببلادِ لَخْمٍ وجذامٍ قتلوه) .

قالَ القسطلاني : وهـٰذا غلط ؛ فإنَّهُ ماتَ بمكَّةَ بعدَ المبعثِ بقليلٍ جدّاً .

وكذا اختُلِفَ في إيمانِه :

فقالَ الكرماني : (لا شكَّ أَنَّهُ كانَ مؤمناً بعيسىٰ) .

وقالَ البرماوي : عُلِمَ مِنْ هـٰذا الحديثِ أَنَّهُ آمَن ، بل هوَ أَوَّلُ المسلِمينَ مِنَ الرّجال . وقد روى الحاكمُ في « المستدرَك » عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « لاَ تَسُبُّوا وَرَقَة ؛ فَإنِّي رَأَيْتُ لَهُ جَنَّةً أَو جنَّتَيْن » .

وفي حديثٍ آخَر : « رأَيتُهُ وعَلَيْهِ حُلَّةٌ خَضْرَاءُ يَرْفُلُ فِي الْجَنَّة » .

ورويَ أنَّهُ خاطبَ خديجةَ رضيَ اللهُ عنها حينَ أتتْهُ بقولِه :

فَإنْ يَكُ حَقّاً يَا خَدِيجَةُ فَاعْلَمِي ... حَدِيثَكِ إِيَّانَا فَأَحْمَدُ مُرْسَلُ

وَجِبْرِيلُ يَأْتِيهِ وَمِيكَالُ مَعْهُمَا ... مِنَ اللهِ وَحْيٌ يَشْرَحُ الصَّدْرَ مُنْزَلُ

قولُه : (قالَ ابنُ شهاب... إلخ) هٰذا هوَ الزّهري ، وهوَ الإمامُ أبو بكرٍ محمَّدُ بنُ مسلمِ بنِ عبيدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ شهابِ بن عبدِ اللهِ بنِ الحارثِ بنِ زهرةَ بنِ كلابِ بنِ مُرَّة ، وهوَ تابعيٌّ كبير ، سَمِعَ عشرةً مِنَ الصَّحابة . قالَ اللَّيث : ما رأيتُ عالماً أجمعَ مِنَ الزّهريِّ ولا أكثرَ عِلماً منه . وقالَ الشَّافعي : لولا الزّهريُّ ذهبتِ السُّننُ مِنَ المدينة .

توفِّيَ بالشَّامِ سنةَ أربعٍ وعشرينَ ومئة ، وهو ابنُ اثنينِ وسبعينَ سنة ، وأوصىٰ بأَنْ يُدفنَ على الطَّريقِ بقريةٍ يُقالُ لَها : شغب . وللهِ درُّ القائل :

بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ جَعَلْتُ قَبْرِي ... لأَحْظَىٰ بِالتَّرَحُّمِ مِنْ صَدِيقِي

فَيَا مَوْلَى الْمَوَالِي أَنْتَ أَوْلَىٰ ... بِرَحْمَةِ مَنْ يَمُوتُ عَلَى الطَّرِيقِ

وقولُه : (وأخبرني أبو سَلَمة بنُ عبدِ الرَّحمٰن) هو : عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمٰنِ بنِ عوف ، أحدِ العشرةِ المبشَّرةِ بالجنَّة .

وقولُه : (إنَّ جابرَ بنَ عبدِ اللهِ الأنصاريَّ قال) أي : جابرٌ (وهوَ يُحدِّثُ عن فترةِ الوحي) أي : في حالِ التَّحديثِ عنِ احتباسِ الوحي عنِ النُّزول .

واعلَم : أنَّ العلماءَ اختلفوا في المدَّة :

فقيل : كانت سنتَينِ ونصفاً .

وقيل : ثلاثَ سنين .

قالَ ابنُ إسحٰاق : ليسَ المرادُ بفترةِ الوحي المذكورةِ عدمَ مجيءِ جبريل ، بلِ المرادُ بها عدمُ نزولِ القرآنِ عليهِ فيها فقط ، وأمَّا جبريلُ فإنَّهُ كانَ يتراءىٰ لَهُ في هٰذهِ المدَّةِ كما ذكرَ البخاريُّ في « الصَّحيح » : أنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ فترَ الوحي (كانَ يأتي شواهقَ الجبالِ يَهمُّ بأَنْ يلقي نفْسَه ، فكانَ جبريلُ عليهِ السَّلامُ يتراءىٰ لَهُ بين السَّماءِ

والأَرض ، فيقولُ لَه : يا محمَّد ؛ أَنتَ رسولُ اللهِ حقّاً ، فيسكنُ لذلكَ جأْشُهُ وتقرُّ عينُه) .

قالَ العلماء : وإِنَّما فَتَر الوحي وانقطعَ نزولُ القرآنِ هـٰذهِ المدَّةَ ؛ ليَذهبَ ما حصلَ لَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الخوفِ والفزَعِ عندَ نزولِ جبريلَ في غارِ حراء ، ويَتشوَّقَ إِلىٰ عَوْدِ الوحي إِليه . ثمَّ بعدَ مضيِّ الفترةِ نزلَ عليهِ جبريلُ بالقرآنِ كما أَشارَ بذلكَ البخاريُّ [٤] بقولِه : فقالَ ـ أَي : جابرُ بنُ عبدِ اللهِ ـ : إِنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاء ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ فَرُعِبْتُ ـ بضمِّ الرَّاءِ وكسرِ العينِ المهملة ، وفي روايةٍ : بفتحِ الرَّاءِ وضمِّ العين ؛ أَي : فَرَعُبْتُ مِنْهُ ـ فَرَجَعْتُ إِلىٰ أَهْلِي ـ بِسَبَبِ الرُّعْبِ ـ فَقُلْتُ : زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي ـ وفي رواية : دَثِّرُونِي ـ فأَنزلَ اللهُ عزَّ وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَع » أَي : كثرَ نزولُهُ بعدَ ذلك . وحميَ بفتحِ الحاءِ المهملةِ وكسرِ الميم .

وفي « تفسيرِ ابنِ عادل » : أَنَّ جبريلَ نزلَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَربعةً وعشرينَ أَلفَ مرَّة ، وعلىٰ آدمَ اثني عشرةَ مرَّة ، وعلىٰ إِدريسَ أَربعاً ، وعلىٰ نوحٍ خمسين ، وعلىٰ إِبراهيمَ اثنتينِ وأَربعينَ مرَّة ، وعلىٰ موسىٰ أَربعَ مئة ، وعلىٰ عيسىٰ عشرة . اهـ

ولقد كانَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يُعاني التَّعبَ والكربَ عندَ نزولِه ؛ لأَنَّهُ أَمرٌ طارىءٌ على الطِّباعِ البشريَّة .

قالت عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ولقد رأَيتُهُ يَنزلُ عليهِ الوحيُ في اليومِ الشَّديد البردِ فيقلع عنه ، وإِنَّ جبينَهُ ليتفصَّد ـ أَي : يَسيلُ ـ عرقاً) .

واعلَم : أَنَّ مراتبَ الوحي عديدةٌ كما قالَ ابنُ القيِّمِ وغيرُه :

إِحداها : الرُّؤْيا الصَّادقة .

الثَّانية : ما يُلقيهِ المَلَكُ في رُوعهِ وقَلْبهِ مِنْ غيرِ أَنْ يراه ، كما قالَ عليهِ الصَّلاةُ

والسَّلام : « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي : لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا ، فاتَّقوا اللهَ وأَجملوا في الطَّلب » .

الثَّالثة : كانَ يتمثَّلَ لَهُ رجلاً ، فيُخاطبُه ، فيَعي منهُ ما يقول .

الرَّابعة : كانَ يأْتيهِ في مِثلِ صلصلةِ الجرس .

الخامسة : أَنْ يرى الملَكَ في صورتهِ الَّتي خُلِقَ عليها لَهُ ستُّ مئةِ جناحٍ فيُوحي إِليه ، وهـٰذا وقعَ لَهُ مرَّتَينِ كما في سورةِ النَّجم .

السَّادسة : ما أَوحاهُ اللهُ تعالىٰ إِليه ، وهوَ فوقَ السَّمـٰوات ، مِنْ فرضِ الصَّلواتِ وغيرِها .

السَّابعة : كلامُ اللهِ تعالىٰ لَهُ منهُ إِليهِ كما كلَّمَ موسىٰ .

وزادَ بعضُهم **ثامنة** ، وهو : تكليمُهُ سبحانَهُ بغيرِ حجاب .

وزاد بعضهُم نزولَ إِسرافيلَ إِليهِ بكلماتٍ مِنَ الوحي قَبْلَ جبريلَ عليهِما السَّلام .

وزادَ بعضُهم كلامَهُ تعالىٰ لَهُ في المنام .

وزادَ بعضُهم العِلمَ الَّذي يُلقيهِ في قَلْبِهِ ، وعلىٰ لسانهِ على الاجتهادِ في الأَحكام . وبقيت أَبحاثٌ أُخَر ، مَنْ أَرادَها . . فليرجع إِلىٰ محلِّها .

فعليكُم ـ أَيُّها المؤمنون ـ بالإِيمانِ بما جاءَ بهِ الأَمينُ المأْمون ، وتزوَّدوا لِلدَّارِ الآخرةِ قَبْلَ الفوات ، وامحوا السَّيِّئاتِ بالحسنات ؛ فالدُّنيا ظِلٌّ زائل ، وحالٌ حائِل ، وركُنٌ مائِل ، ورفيقٌ خاذل ، ومَسؤُولٌ باخل ، وغولٌ غائِل ، وسمٌّ قاتِل .

كم تَعِدُ الدُّنيا وتُماطِل ؟ كلُّ وعدِها غرورٌ وباطل ، تاللهِ ما فرحَ بها عاقل .

كم ظالم تعدَّىٰ وجار ، فما راعى الأَهلَ ولا الجار ؟ بينما هوَ يعقدُ عقدَ الإِصرار . . حلَّ بهِ الموتُ فحلَّ مِنْ حليه الأَزرار .

فاعتبروا يا أُولي الأَبصار . يا سكرانَ الهوىٰ متىٰ تَصحو ؟! يا كثيرَ الذُّنوبِ متىٰ تمحو ؟! إِلىٰ كم تَهفو ونعفو ، وتتكدَّرُ ونِعَمُنا تصفو ؟! ابكِ لما بك ، واندبْ في

شيبكَ علىٰ شبابك ، وتأهَّبْ لسيفِ المنونِ فقد عَلِق الشَّبا[1] بِكَ .

فتأمَّلوا عواقبَ الدُّنيا فقد أبانت للنَّواظرِ عيوبَها ، وكشفت لِلبصائرِ غيوبَها ، وعدَّدت على السَّامعِ ذنوبَها ، وما مرَّتْ حتَّىٰ أَمرَّتْ مشروبَها ، فلذَّتُها مثلُ لمعانِ برق ، ومصيبتُها واسعةُ الخَرْق ، سَوَّتْ عواقبُها بينَ أَهلِ الغربِ والشَّرق ، وبين عبدٍ وحرٍّ ولا فَرق ، فما نجا منها ذو عدد ، ولا سلمَ عليها صاحبُ عدد ، مزَّقَتْ ـ واللهِ ـ الكلَّ بكفِّ البدد ، ثمَّ ولَّتْ وما التوتْ علىٰ أحد :

إلامَ تُغَـرُّ بِـالأمَـلِ الطَّـويـلِ ... وَلَيْسَ إلى الإقَامَـةِ مِـنْ سَبيـلِ
فَـدَعْ عَنْـكَ التَّعَلُّـلَ بِـالأَمَـانِـي ... فَمَا بَعْـدَ الْمَشِيـبِ سِوَى الـرَّحِيـلِ
أَتَـرْجُـو أَنْ تَـدُومَ لَـكَ اللَّيَـالِـي ... وَكَـمْ أَفْنَيْـنَ قَبْلَـكَ مِـنْ خَلِيـلِ
وَمَـا زَالَـتْ بَنَـاتُ الـدَّهْـرِ تُفْنِـي ... بَنِـي الأَيَّـامِ جِيـلاً بَعْـدَ جِيـلِ

فطوبىٰ لمَنْ غسلَ دَرَنَ الذُّنوبِ بتوبة ، ورجعَ عن الخطايا قَبْل فَوْتِ الأَوبة ، وبادرَ الممكنَ قَبْلَ أَنْ لا يتمكَّن .

للهِ درُّ أَقوامٍ تَركوا الدُّنيا فأَصابوا ، وسَمِعوا مناديَ الحقِّ يَدعوا فأَجابوا ، وحَضروا مشاهدةَ التُّقىٰ فما غابوا ، واعتذروا معَ التَّحقيقِ ثمَّ تابوا ، وقَصدوا بابَ مولاهُم فما رُدّوا ولا خابوا .

سبحانَ مَنْ وفَّقَ للتَّوبةِ أَقواماً ، وثَبَّتَ لَهم علىٰ صراطِها أَقداماً ، كَفُّوا الأَكفَّ عنِ المحارمِ احتراماً ، وأَتعبوا في استدراكِ الفارط عظاماً ، فكفَّرَ عنهم ذنوباً وآثاماً ، ونشروا لَهم بالثَّناءِ علىٰ ما عملوا أَعلاماً ، فهُم علىٰ رياضِ المدائحِ بتركِ القبائحِ يَتقلَّبون ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ﴾ .

كشفَ لَهُم سجفَ الدُّنيا فرأَوا عيوبَها ، وأَلاحَ لَهُم الأُخرىٰ فتلمَّحوا غيوبَها ، وبادَروا شمسَ الحياةِ يخافونَ غروبَها ، واشتغلوا بالطَّاعاتِ فحصَّلوا مرغوبَها ، وحثَّهُمُ

---

(١) الشبا : حدُّ طرف الشيء . والمراد به هنا حد طرف سيف المنون ، وهو الموت . وهـٰذا كناية عن اقتراب الأجل .

الإيمانُ على الخوفِ فما يأمنون ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ .

نَظَروا إلى الدُّنيا بعينِ الاعتبار ، فعَلِموا أَنَّها لا تصلحُ لِلقرار ، وتأَمَّلوا أَساسَها فإذا هيَ علىٰ شفا جُرُفٍ هار ، فرفَضوا بالصِّيامِ لذَّةَ الهوىٰ بالنَّهار ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ .

هَجروا المنازلَ الأَنيقة ، وقَصموا عُرى الهوى الوثيقة ، وطَلَبوا الآخرةَ ـ واللهِ ـ على الحقيقة ، هـٰكذا يكون ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ .

أَبدانُهم تَلقىٰ مِنَ الجوعِ الضَّرر ، وأَجفانُهم قد حالفَتْ في اللَّيلِ السَّهر ، ودموعُهم تجري دائِمةً كما يَجري المطر ، والقومُ تأَهَّبوا فهُم علىٰ أَقدامِ السَّفر ، عَبروا عليكُم ومرُّوا لَديكُم وما عندكُم خَبَر ، وترنَّمَتْ حداتُهم لَو أَنكُم تسمعون ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ .

اللَّهُم ؛ إِنَّا آمنَّا برسولِكَ الَّذي أَرسلت ، وبكتابكَ الَّذي أَنزلت .

اللَّهُم ؛ إِنَّا نعوذُ بكَ مِنَ الفقرِ والكفر ، والفسوقِ والشِّقاقِ والنِّفاق ، والسُّمعةِ والرِّياء .

اللَّهُم ؛ إِنَّا نعوذُ بكَ مِنَ الكسل ، والجبنِ والبخل ، ونعوذُ بكَ مِنَ الهرمِ والقسوة ، والغفلةِ والذِّلَّة ، والقلَّةِ والمسكنة ، ونعوذُ بكَ مِنَ الجنونِ والبرصِ والجذام ، وسيِّءِ الأَسقام ، وشماتةِ الأَعداء ، ونعوذُ بكَ مِنْ فتنةِ الدَّجالِ وعذابِ القبر ، ومِنْ فتنةِ المحيا والممات .

اللَّهُم ؛ إِنَّا نعوذُ بكَ مِنْ عِلمٍ لا يَنفع ، وقلبٍ لا يَخشَع ، ودعاءٍ لا يُسمَع ، ونفسٍ لا تَشبع .

اللَّهُم ؛ إِنَّا نسأَلُكَ العفوَ والعافيةَ في الدَّارَين ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وآلهِ وأَصحابهِ أَجمعين .

* * *

المجلس الثامن والثلاثون
في يوم عرفة وعيد الأَضحىٰ

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

اَلحمدُ للهِ المعروفِ بدليلِه ، اَلهادي إِلىٰ سبيلِه ، اَلصَّادقِ في قِيلِه ، اَلمشكورِ علىٰ كثيرِ الإِنعامِ وقليلِه ، الَّذي تُسبِّحُهُ الأَصواتُ إِذا عجَّت ، والسَّحائبُ إِذا ثجَّت ، والمياهُ إِذا سكنَتْ أَوِ ارتجَّت ، والقلوبُ إِذا صبرَتْ على البلايا أَو ضجَّت . رافعِ السَّماءِ وبانِيها ، وساطحِ الأَرضِ وداحِيها ، ومُثبِّتِها بالأَطوادِ في نواحيها . اَلعالمِ بما يَحدثُ في أَقاصيها وأَدانِيها .

يَعلمُ ما يَلجُ في الأَرضِ وما يخرجُ منها ، وما ينزلُ مِنَ السَّماءِ وما يعرجُ فيها .

أَحمدُهُ علىٰ فضلهِ الشَّامل ، وأَشكرهُ علىٰ إِحسانهِ الكامل ، وأُومنُ بهِ إِيمانَ مخلصٍ معامل ، وأَعترفُ لَهُ بنعمٍ لا أُحصيها .

وأَشهدُ أَنَّ لا إِلـٰهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَه ، شهادةً ظهرَ نورُها ولاح ، وغدا برهانُها وراح ، وأَشرقَ هُداها في المساءِ والصَّباح ، واكتسبَ قائِلُها شرفاً وتِيهاً .

وأَشهدُ أَنَّ سيّدَنا محمَّداً عبدُهُ ورسولُه ، أَرسلَهُ والحقُّ داثر ، وقَدَمُ الصَّوابِ عاثر ، والحقُّ مندرسٌ والباطلُ ظاهر ، فقمعَ الباطلَ بالحقِّ الظَّاهر ، ونسخَ ظلماتِ الجهالةِ بنورِ العلمِ الزاهر .

صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ آلهِ صَلاةً يمتدُّ علىٰ ممرِّ الزَّمانِ تواليها ، وعلىٰ صاحبهِ في الضِّيقِ أَبي بكرٍ الصِّدِّيق ، الصَّابرِ على الشِّدَّة ، والثَّابتِ على البلايا بنَفْسٍ مستعدَّة ، القائمِ في مقامِ الوحدةِ وحدهُ يومَ الرِّدَّة ، المخصوصِ بفضيلةِ الغارِ فمَنْ ذا يُدانِيهَا .

وعلى الفاروقِ عمرَ بنِ الخطَّاب ، المنفردِ في شدَّتهِ مِنْ بينِ الأَصحاب ، الموفَّقِ

يومَ بدرٍ لإصابةِ الصَّواب ، المتكلِّم بلسانِ الغَيْرةِ حتَّىٰ ضربَ الحجاب ، الَّذي شادَ أَركانَ السّننِ بعدلهِ وعمَّرَ مبانِيها .

وعلىٰ عثمانَ شهيدِ الدَّار ، القائمِ في الأَسحار ، الصَّائمِ في النَّهار ، المخلصِ في الأَذكار ، جامعِ سوَرِ القرآنِ وحاويها .

وعلىٰ عليٍّ بنِ أَبي طالبٍ ذي العلمِ والزَّهادة ، الحريصِ علىٰ طلبِ السَّعادة ، جامعِ العلمِ والعملِ والشَّهادة ، المُطَّلعِ علىٰ دقائقِ العلوم ومعانيها .

وعلى التَّابعينَ لَهم في إخلاصِ الأَعمالِ وصفاءِ القلوب ، ما تردَّدتِ الشمسُ بينَ الطُّلوعِ والغروب ، واستترتِ النُّجومُ وبدا باديها ، وشرَّفَ وكرَّمَ ومجَّد .

أَمَّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في مُحكَمِ كتابهِ ومُبينِ خطابه : ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ الآيات .

فنقول ـ وباللهِ جلَّ وعزَّ التَّوفيق ، وبيدهِ تعالىٰ شأنه أَزمَّةُ التَّحقيق ـ :

قالَ المفسِّرون رحمَهُم الله تعالىٰ : أَقسمَ سبحانَهُ بالصُّبح ، كما رويَ عن عليٍّ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَهُ أَو فَلَقِه ؛ كقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أَو بصَلاته ، كما رويَ ذلكَ عنِ ابنِ عبّاس .

وقال مجاهد : هوَ فجرُ يومِ النَّحرِ خاصَّة .

وقالَ الضَّحاك : فجرُ أَوَّلِ يومٍ مِنْ ذي الحجَّة .

وقالَ قتادة : أَوَّلُ يومٍ مِنَ المحرَّم ؛ لأَنَّهُ تنفجرُ منهُ السَّنة .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ قُرِىءَ بتنوينِ (ليال) [الفجر : ٢] وبإضافتِها بلا تنوين ، فيكونُ المرادُ بالعشر : الأَيَّام ، وهيَ عشرُ ذي الحجَّةِ كما رواهُ ابنُ عطيَّة عنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما ، وبهِ قالَ مجاهد ، ومسروقٌ وقتادة ، والضَّحاكُ والسّدِّيُّ[1] .

---

(١) وهي قراءة شاذة .

ورويَ عنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما أَيضاً : أَنَّها العشرُ الأَواخرُ مِنْ شهر رمضان ، وقالَ يمان : العشرُ الأُوَلُ مِنَ المحرَّم .

وقولُهُ سبحانَه : ﴿ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ﴾ قرأ بكسرِ الواوِ وفتحَها الأَكثرون ، وفيهما عشرونَ قولاً :

مِنها : أَنَّ الشَّفعَ يومُ النَّحر ، والوترَ يومُ عرفة ، كما رواهُ جابرٌ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ عليهِ أَفضلُ الصَّلاةِ والسَّلام ، وروىٰ عمرانُ بنُ حصينٍ رضي الله عنه عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : أَنَّها الصَّلاة ؛ لأَنَّ منها شَفعاً ومنها وتراً .

ومِنها : عنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ الشَّفعَ اَلخلقُ كلُّه ، والوترَ هْوَ اللهُ عزَّ وجل .

ومِنها : ما رويَ عنه أَيضاً : أَنَّ الشَّفعَ آدم ؛ لأَنَّهُ شفعَ بزوجته .

ومِنها : ما قالَهُ عبدُ اللهِ بنُ الزُّبيرِ : أَنَّ الشَّفعَ يومانِ بعدَ يومِ النَّحر ، والوترُ اليومُ الثَّالث .

ومِنها : أَنَّ الشَّفعَ صَلاةُ الغداة ، والوترَ صَلاةُ المغرب .

وقالَ الضَّحاك : اَلشَّفعُ عشرُ ذي الحجَّة ، والوترُ أَيَّامُ مِنى الثَّلاثة .

وقولُهُ سبحانَه : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ أَي : إِذا يمضي ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴾ .

وقالَ الأَخفش : إِنَّ المعنىٰ : إِذا يسري فيه ، كما يقال : ليلٌ نائم ، أَي : نيامٌ فيه .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾ أَي : لِصاحبِ عقل . وسمَّى العقلَ حِجراً ؛ لأَنَّهُ يَحجرُ صاحبَهُ عنِ القبيح .

وسمِّيَ عقلاً ؛ لأَنَّهُ يَعقلُهُ عمَّا لا يَحسن .

وسمِّيَ النُّهىٰ أَيضاً ؛ لأَنَّهُ ينهىٰ عمَّا لا يحلّ .

ومعنى الكلام : أَنَّ مَنْ كان ذا لُب . . عَلِمَ أَنَّ ما أَقسمَ اللهُ تعالىٰ بهِ منْ هـٰذهِ الأَشياءِ

دليلٌ علىٰ توحيدهِ وقدرته ، وهوَ حقيقٌ أَنْ يُقسمَ به .

وجوابُ القسمِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وهوَ المكانُ الَّذي يُترقَّبُ فيه الرَّصد . قالَ البيضاوي : هوَ تمثيلٌ لإرصادهِ العصاةَ بالعقابِ . اهـ

ولنذكُر لكُم ما يتعلَّقُ بهٰذهِ الأَيَّامِ العَشْرِ ـ ولا سيّما يوم عرفةَ ـ مِنَ الآياتِ والأَحاديثِ الطَّيِّبةِ النَّشر ، كما تكلَّمنا على الحجِّ في حديثِ جبريلَ عليهِ السَّلام ، فنقولُ بعونِ الملكِ العلاَّم :

روىٰ حافظُ بغدادَ ابنُ الجوزيِّ بسندهِ إِلى ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبّ إِلى اللهِ عزَّ وَجَلَّ مِنْ هٰذهِ الأَيَّام » ـ يعني أَيَّامَ العَشرِ ـ قيل : يا رسولَ الله ؛ ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟ قال : « وَلاَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله ، إِلاَّ رَجُلاً خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذلكَ بِشَيء » .

وأَخرجَ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ وَلاَ أَحَبّ إِلَيْهِ الْعَمَلُ فِيهِنَّ مِنْ هٰذهِ الأَيَّامِ الْعَشْر ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيد » .

وأَخرجَ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِنَّ أَفْضَلَ أَيَّام الدُّنْيَا أَيَّامُ الْعَشْر » قالوا : يا رسولَ الله ؛ ولا مثلُهنَّ في سبيلِ اللهِ ؟ قال : « إِلاَّ مَنْ عَفَّرَ وَجْهَهُ فِي التُّرَاب » .

وقد رويَ في حديثٍ عنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « صَوْمُ كُلّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْعَشْرِ يَعْدِلُ صِيَامَ سَنَةٍ ، وَلَيْلَةُ جَمْعٍ تَعْدِلُ لَيْلَةَ الْقَدْر » .

ورويَ عن أَبي هريرةَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قال في هٰذهِ الأَيَّامِ : « يَعْدِلُ صِيَامُ كُلٍّ مِنْهَا بِصِيَامِ سَنَةٍ ، وَقِيَامُ كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْهَا بِقِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .

قالَ أَبو عثمان النَّهدي : كانوا يُعظِّمونَ ثلاثَ عشرات : العشرَ الأُوَلَ مِنْ ذي

الحجّة ، والعشرَ الآخِرَ مِنْ رمضان ، والعشرَ الأوَّلَ مِنَ المحرَّم .

واعلموا ـ رحمنَا اللهُ تعالىٰ وإيّاكُم ـ أَنَّ عشرَكم هـٰذا ليسَ كعشرٍ آخَر ، وهوَ يحتوي علىٰ فضائلَ عشر :

الأُولىٰ : أَنَّ اللهَ عز وجلَّ أَقسمَ به ، فقال : ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ .

والثَّانية : سمَّاهُ الأَيَّامَ المعلومات ، قالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : هيَ أَيَّامُ العشر .

وَالثَّالثة : أَنَّ نبيَّنا عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ شهدَ لَهُ بأَنَّهُ أَفضلُ أَيَّامِ الدُّنيا .

والرَّابعة : حثّ علىٰ أَفعالِ الخيرِ فيه .

والخامسة : أَنَّهُ أَمرَ بكثرةِ التَّسبيحِ والتَّحميدِ والتَّهليلِ فيه .

والسَّادسة : أَنَّ فيهِ يومَ التَّروية ، وفي حديثِ ابنِ عبّاسٍ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « مَنْ صَامَ الْعَشْر . فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَوْمُ شَهْر ، وَلَهُ بِصَوْمِ التَّرْوِيَةِ سَنَة » قالَ الزّهري : وإِنَّما سمِّي بيومِ التَّرويةِ ؛ لأَنَّ عرفاتٍ لَم يكنْ لَها ماء ، وكانوا يتروّونَ مِنَ الماءِ إِليها ، وهوَ اليومُ الثَّامنُ مِنْ ذي الحجّة .

والسَّابعة : أَنَّ فيهِ يومَ عرفة ، وصومُهُ كسنتينِ كما سنذكرُ فضائلَهُ قريباً إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

والثَّامنة : أَنَّ فيهِ ليلةَ جمعٍ وهيَ ليلةُ المزدلفة ، وفضلُها عظيم .

والتَّاسعة : أَن فيها الحجَّ الَّذي هوَ ركنٌ مِنْ أَركانِ الإِسلام .

والعاشرة : وقوعُ الأُضحيةِ الَّتي هيَ علَمٌ لِلملَّةِ الإِبراهيميَّةِ والشَّريعةِ المحمَّدية ، قالَ تعالىٰ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ فقد فُسِّرتِ الصَّلاةُ بصلاةِ العيدِ والنَّحرُ بالتَّضحية .

وقد وردَ في فضلِها أَحاديث ، منها : ما روتهُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها ، عنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « إِنَّهَا لَتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَشْعَارِهَا وَأَظْلاَفِهَا ، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ عَلَى الأَرْضِ ، فَطِيبُوا بِهَا نَفْساً » .

ورويَ عنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَنَّهُ قال : « بِكُلِّ شَعْرَةٍ حَسَنَة » .

وقالَ لفاطمةَ رضيَ اللهُ عنها : « قُومِي إِلىٰ أُضْحِيَتِكِ فَاشْهَدِيهَا ؛ فَإِنَّ لَكِ بِكُلِّ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهَا أَنْ يُغْفَرَ لَكِ مَا قَدْ سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِك » فقيلَ لَه : هـٰذا لآلِ محمَّدٍ خاصَّةً ؟ قال : « بَلْ هُوَ لآلِ مُحَمَّدٍ وَلِلنَّاسِ عَامَّة » .

وعن أَبي جعفر قال : أَوَّلُ قطرةٍ مِنْ دمِ الأُضحيةِ كفَّارةٌ لأَربعةِ آلافِ خطيئَة .

ومِنْ شرفِ يومِ النَّحر : أَنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالى ابتلىٰ فيهِ الخليلَ بذبحِ ولدِهِ إِسحقَ أَو إِسماعيل ، والقصَّةُ لِشُهرتِها لا نذكرُها الآنَ لخوفِ التَّطويل .

فمَنْ أَراد أَنْ يُضحِّي ويَقتدي بهـٰذا النَّبيِّ الجليل ، ورسولِنا صاحبِ الجاهِ العريضِ الطَّويل . . فلا يُقلِّم ـ إِذا دَخلتِ العشرُ ـ أَظفارَه ، ولا يَحلقْ شعرَه ، ولا يأْخذْ مِنْ شاربه ؛ فقد روت أُمُّ سَلَمة رضيَ اللهُ عنها قالت : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ كَانَ لَهُ ذِبْحٌ يَذْبَحُهُ فَإِذا أَهَلَّ هِلاَلُ ذي الْحجَّة . . فَلاَ يَأْخُذْ مِنْ شَعْرِهِ وَلاَ مِنْ أَظْفَارِهِ شَيْئاً حَتَّىٰ يُضَحِّي » وبهِ أَخذَ الإِمامُ أَحمد ، فقالَ بكراهةِ أَخذِ شيءٍ مِنْ ذلك ، وعليهِ الإِمامُ الشَّافعي .

وقالَ بعضُ أَصحابِ أَحمد : إِنَّهُ يَحرمُ عليهِ ذلك .

وقالَ إِمامُنا الأَعظم : لا يُكرَهُ ذلك .

ولنبيِّن لكُم أَحكامَ الأُضحية ؛ لتكونوا علىٰ بصيرةٍ فيها :

قالَ الإِمامُ القدّوريُّ الحنفيُّ في كتابهِ المختصرِ ما نصُّه : الأُضحيةُ واجبةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ حرٍّ مقيمٍ موسرٍ في يومِ الأَضحىٰ ، عن نَفْسِهِ وأَولادِهِ الصِّغار ، ويَذبحُ عن كلِّ واحدٍ منهُم شاة ، أَو يَذبحُ بقرةً أَو بدنةً عن سبعة ، وليسَ على الفقيرِ والمسافرِ أُضحية .

ووقتُ الأُضحيةِ يدخلُ بطلوعِ الفجرِ مِنْ يومِ النَّحر ، إِلاَّ أَنَّهُ لا يجوزُ لأَهلِ الأَمصارِ الذَّبحُ حتَّىٰ يُصلِّي الإِمامُ صَلاةَ العيد ، وأَمَّا أَهلُ السَّواد . . فإِنَّهُم يَذبحونَ بعدَ الفجر .

وهيَ جائزة في ثلاثةِ أَيَّام : يومُ النَّحر ، ويومانِ بعدَه ، ولا يُضحّى بالعمياءِ

والعوراء ، والعرجاءِ الَّتي لا تمشي إلى المَنْسَكِ ، والعجفاء ، ولا يجوزُ مقطوعةُ الأذنِ والذَّنب ، ولا الَّتي ذهبَ أكثرُ أُذنِها ، فإنْ بقيَ الأكثرُ مِنَ الأذنِ والذَّنب . جاز ، ويجوزُ أَنْ يُضحِّيَ بالجَّماءِ والخَصِيِّ والثَّولاءِ والجرباء .

والأُضحيةُ مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنم ، يُجزىءُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ الثَّنِيُّ فصاعداً ، إلاَّ الضَّأْنَ فإنَّ الجَذَعَ منهُ يُجزىء .

ويأْكلُ مِنْ لحمِ الأُضحية ، ويُطعمُ الأغنياءَ والفقراء ، ويَدَّخر ، ويُستحبُّ أَنْ لا ينقصَ الصَّدقةَ مِنَ الثُّلث ، ويتصدَّقُ بجِلْدِها ، ويُعملُ منهُ آلةٌ تُستعملُ في البيت .

والأفضلُ أَنْ يذبحَ الأُضحيةَ بيدِهِ إنْ كانَ يُحسنُ الذَّبح ، ويُكرهُ أَنْ يذبحَها الكتابي .

وإذا غلطَ رجلان ، فذبحَ كلُّ واحدٍ منهُما أُضحيةَ الآخَر . . أَجزأَ عنهُما ولا ضمانَ عليهِما .

وقالَ في« الميزان » : أَجمعَ الأئِمَّةُ أَنَّ الأُضحيةَ مشروعةٌ بأَصلِ الشَّرع ، وإنَّما اختلفوا في وجوبِها .

واتَّفقوا علىٰ أَنَّ المرضَ اليسيرَ في الأُضحيةِ لا يمنعُ الإجزاء ، وعلىٰ أَنَّ الكثيرَ يمنع ؛ لأنَّهُ يُفسدُ اللَّحم ، وعلىٰ أَنَّ الجربَ البيِّنَ يمنعُ الإجزاءَ وكذا العَوَر .

وأَجمعوا علىٰ أَنَّ مقطوعةَ الأُذنِ لا تُجزىء ، وكذا مقطوعةُ الذَّنب ؛ لفواتِ جزءٍ مِنَ اللَّحم .

واتَّفقوا علىٰ أَنَّهُ لا يجوزُ أَنْ يأْكلَ شيئاً مِنْ لحمِ الأُضحيةِ المنذورة .

واتَّفقوا علىٰ أَنَّهُ لا يجوزُ بيعُ شيءٍ مِنْ لحمِ الأُضحيةِ والهَدْي ، نذراً كانَ أَو تطوُّعاً ، وكذلكَ بيعُ الجلدِ خلافاً لِلنَّخعيِّ والأَوزاعي ، كما سيأْتي .

واتَّفقوا علىٰ أَنَّ البدنةَ والبقرةَ تُجزىءُ عن سبعة ، والشَّاةَ عن واحد ، وقال إسحٰقُ بنُ راهويه : تُجزىءُ البقرةُ عن عشرة .

وممَّا اختلفوا فيه : أَنَّ الإمامَ أَبا حنيفةَ قال : إنَّ الأُضحيةَ واجبةٌ على المقيمينَ مِنْ أَهلِ الأَمصارِ إذا كانوا مالِكينَ النِّصاب ، وقالَ الثَّلاثةُ وصاحباه : سُنَّةٌ مؤَكَّدة .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعي : يَدخلُ وقتُ الذَّبحِ بطلوعِ الشَّمسِ يومَ النَّحرِ ومضيِّ قدرِ صلاةِ العيدِ والخُطبتين ، صلَّى الإمامُ العيدَ أو لَم يُصَل . معَ قولِ الثَّلاثة : إنَّ شرطَ الذَّبح : أَنْ يُصلِّيَ الإمامُ ويخطبَ إلاَّ أَنَّ أَبا حنيفةَ قال : يجوزُ لأَهلِ السَّوادِ أَنْ يُضَحُّوا إذا طلعَ الفجرُ الثَّاني .

وقالَ عطاء : يدخلُ وقتُ الأُضحيةِ بطلوعِ الشَّمسِ فقط .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعي : إنَّ آخرَ وقتِ التَّضحيةِ هوَ آخرُ أَيَّامِ التَّشريقِ الثَّلاثةِ معَ قولِ أَبي حنيفةَ ومالك : إنَّ آخِرَ وقتِها آخِرُ اليومِ الثَّاني مِنْ أَيَّامِ التَّشريق . ومعَ قولِ سعيدِ بنِ جبير : إنَّهُ يجوزُ لأَهلِ الأَمصارِ التَّضحيةُ في يومِ النَّحرِ خاصَّة . ومعَ قولِ النَّخعي : إنَّهُ يجوزُ تأْخيرُها إلىٰ آخِرِ شهرِ ذي الحجَّة .

ومِنْ ذلك : قولُ الأَئِمَّةِ الثَّلاثة : إنَّ الأُضحيةَ إذا كانت واجبة . . لَم يَفُتْ ذبحُها بفواتِ أَيَّامِ التَّشريق ، بل يذبحُها وتكونُ قضاء . معَ قولِ أَبي حنيفة : إنَّ الذَّبحَ يَسقطُ وتُدفَعُ إلى الفقراءِ حيَّة .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثة : إنَّهُ يُكرَهُ مكسورةُ القرن . معَ قولِ أَحمد : إنَّها لا تُجزىء .

ومِنْ ذلك : قولُ مالكٍ والشَّافعي : إنَّ العرجاءَ لا تُجزىء . . معَ قولِ أَبي حنيفة : إنَّها تُجزىء .

ومِنْ ذلك : قولُ الشَّافعي : إنَّها لا تُجزىءُ مقطوعة شيءٍ مِنَ الذَّنبِ ولَو يَسيراً معَ اختيارِ جماعةٍ مِنَ متأَخِّري أَصحابهِ الإجزاء ، ومعَ قولِ أَبي حنيفةَ ومالك : إنْ ذهبَ الأَقل . . أجزأ ، أَوِ الأَكثر . . فلا . ولأَحمدَ فيما زادَ على الثُّلثِ روايتان .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثة : إنَّهُ يجوزُ لِلمسلمِ أَنْ يَستنيبَ في ذبحِ الأُضحيةِ معَ الكراهةِ في الذِّمِّي . معَ قولِ مالك : إنَّهُ لا يجوزُ استنابةُ الذِّمي ، ولا تكونُ أُضحية .

ومِنْ ذلك : قولُ الأئمَّةِ الثَّلاثة : إنَّهُ لَو اشترىٰ شاةً بنيَّةِ الأُضحية . . لا تصيرُ أُضحيةً بمجرَّدِ ذلك . معَ قولِ أَبي حنيفة : إنَّها تصير .

قالَ الثَّلاثة : ويُستحبُّ أَنْ يقول : اللَّهُمَّ هـٰذا منكَ ولكَ فتقبَّلْ منِّي . وقالَ أَبو حنيفة : يُكرهُ قولُ ذلك .

ومِنْ ذلك : اتِّفاقُ الأَربعةِ على استحبابِ الأَكلِ مِنَ الأُضحيةِ المتطوَّعِ بها ، معَ قولِ بعضِ العلماءِ بوجوبِ الأَكل .

ومِنْ ذلك : اتِّفاقُهم علىٰ أَنَّهُ لا يجوزُ بيعُ جِلدِ الأُضحيةِ المنذورةِ أَوِ المتطوَّعِ بها ، خلافاً لِلنَّخعيِّ والأَوزاعيِّ في بيعِها بآلةِ البيتِ الَّتي تُعار ؛ كالفأْسِ والقِدرِ والغِربالِ ونحو ذلكَ .

ومِنْ ذلك : قولُ الثَّلاثة : إِنَّ الإِبلَ أَفضل ، ثمَّ البقر ، ثمَّ الغنم . معَ قولِ مالكٍ : إِنَّ الأَفضل : الغنم ، ثمَّ الإِبل ، ثمَّ البقر ، اِنتهىٰ .

ولنختم درسَنا هـٰذا بما وردَ في هـٰذا اليومِ الَّذي سمَّاهُ اللهُ تعالىٰ وتراً كما تقدَّم : فقد روىٰ أَبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنه ، عنه صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قالَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ : « الشَّاهدُ وَالْمَشْهُودُ يَوْمُ عَرَفَة » .

قالَ ابنُ الجوزيِّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : **ومِنْ فضائِله** : أَنَّ اللهَ تعالىٰ أَنزلَ فيهِ ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ فقد روى ابنُ شهاب ، قال : (جاءَ رجلٌ مِنَ اليهودِ إِلىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ فقال : يا أَميرَ المؤمنين ؛ إِنَّكم تقرؤونَ آيةً في كتابِكم لَو نزلَتْ علينا معشرَ اليهود . . لاتَّخذنا من ذلكَ اليومِ عيداً .

قال : وأَيُّ هي ؟

قال : قولُه : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ .

قال : فقالَ عمر : والله ، إِنِّي لأَعلمُ اليومَ الَّذي نزلَتْ فيهِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، والسَّاعةَ الَّتي نزلَتْ فيها علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، عشيَّةَ عرفةَ يومَ جمعة) . أَخرجاهُ في « الصَّحيحين » .

ومِنْ فضائِله : أَنَّ اللهَ تعالىٰ يُباهي بالحاجِّ فيهِ ملائكتَهُ ويَعمُّ بالغفران ، وقد أَخرجَ مسلمٌ عنِ ابنِ المسيّب ، قال : قالت عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : إِنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ

عليهِ وسلَّمَ قال : « مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْداً مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَة ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلاَئِكة ، فَيَقُول : مَا أَرَادَ هَـٰؤلاءِ ؟ » .

وروى ابنُ الجوزيِّ بسندهِ عن جابر رضي الله عنه ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إِذا كَانَ عَرَفَةُ . . يَنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُبَاهِي بِكُمُ الْمَلاَئِكَة ، فَيَقُول : انْظُرُوا إِلىٰ عِبَادِي ؛ أَتَوْنِي شُعْثاً غُبْراً مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيق ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُم . فقالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « فَمَا مِنْ يَوِم أَكْثَرُ عُتَقَاءَ مِنْ يَوْمِ عَرَفَة » . وفي روايةٍ أُخرىٰ : أَنَّ عشيَّةَ عرفةَ ينزلُ اللهُ فيهِ إِلى السَّماءِ الدُّنيا فيقولُ لِلملائكة : « انْظُرُوا إِلىٰ عِبَادِي هَـٰؤلاءِ ؛ أَتَوْنِي شُعْثاً غُبْراً ، جَاؤُونِي مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ضَاحِين ، يَسْأَلُونِي رَحْمَتِي وَلاَ يَرَوْنِي ، وَيَتَعَوَّذُونَ مِنْ عَذَابِي وَلَمْ يَرَوْنِي . فَلَمْ يُرَ يَوْمٌ أَكْثَرُ عُتَقَاءَ مِنْه ، وَلاَ يَغْفِرُ اللهُ فِيهِ لِمُخْتَال » .

وعنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « لاَ يَبْقَىٰ أَحَدٌ يَوْمَ عَرَفَةَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالٌ مِنْ إِيمَانٍ إِلاَّ غُفِرَ لَه » فقالَ رجل : لأَهلِ مُعرَّفٍ يا رسولَ الله ؛ أَم للنَّاسِ عامَّة ؟ قال : « لا ، بَلْ لِلنَّاسِ عَامَّة » .

وأَمَّا ثَوَابُ صَائِمِه : فقد رويَ عن أَبي قتادةَ أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سُئِلَ عن صومِ يومِ عرفة ، فقال : « كَفَّارَةُ سَنَتَيْن » .

وعنه : أَنَّ رجلاً قال : يا رسولَ الله ؛ أَرأَيتَ صيامَ يوم عرفةَ ؟ قال : « أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الْبَاقِيَةَ وَالْمَاضِيَة » وفي لفظ : « إِنِّي أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَه » .

واعلموا أَنَّ صومَهُ مستحبٌّ لغيرِ الحاج ، فأَمَّا لِلحاج . . فلا يُستحبُّ لَهُ صومُه ؛ ليتقوَّىٰ به على الدُّعاءِ ولِكونِهِ ضيفاً للهِ عزَّ وجل .

وأَمَّا ما يختصُّ بالذِّكرِ فيه ، فمنه :

التَّكبيرُ عقبَ الصَّلواتِ المفروضات : وابتداؤُهُ في حقِّ المحلِّ صلاةُ الفجرِ يومَ عرفة ، وفي حقِّ المحرِمِ صلاةُ الظُّهرِ مِنْ يومِ النَّحر ، ويُختمانِ في صلاةِ العصرِ آخِرَ

أَيَّامِ التَّشريق . وهٰذا عندَ الحنابلةِ وأَبي يوسفَ ومحمَّد ، وقالَ أَبو حنيفةَ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : أَوَّلُهُ عقبَ صلاةِ الفجرِ مِنْ يومِ عرفة ، وآخرُهُ عقبَ صلاةِ العصرِ مِنْ يومِ النَّحر .

وصفةُ التَّكبير : اللهُ أَكبرُ اللهُ أَكبر ، لاَ إِلٰهَ إِلاَّ الله ، واللهُ أَكبرُ وللهِ الحمد . كما ذكرناهُ أَيضاً وفصَّلناهُ في عيدِ الفطر .

ومِنَ الأَذكار : ما رويَ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « خَيْرُ الدُّعَاءِ[دُعَاءُ] يَوْم عَرَفَة ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَه ، لَهُ الْمُلْك ، وَلَهُ الْحَمْد ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير » .

وكانَ ابنُ عمرَ رضي الله عنهما يُحيي ليلةَ النَّحر ، فقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَفْضَلُ الأَيَّامِ عِنْدَ اللهِ يَوْمُ النَّحْر ، ثُمَّ يَوْمُ الْفِطْر » . وقد سبقَ ذِكرُ آدابِ العيدِ فتذكَّر .

وممّا يُفعَلُ في عيدِ النَّحر : أَنْ لا يأْكلَ حتَّىٰ يَفرغَ مِنَ الصَّلاة ، بخلافِ عيدِ الفطر .

وأَنْ يَغتسلَ ، ويتطيَّبَ ، ويلبسَ أَحسنَ ثيابه .

وأَنْ يُصلِّيَ صَلاةَ العيدِ ثمَّ يُضحِّي من أَمكنَهُ التَّضحية ؛ للأَحاديثِ المتقدِّمةِ في ذلك .

وفَّقنا اللهُ تعالىٰ وإِيَّاكُم لِسلوكِ أَحسنِ المسالك ، ورزَقَ كلَّ واحدٍ منَّا ما يتمنَّاهُ في أُولاهُ وأُخراه .

فيا عبادَ الله ؛ تدبَّروا القرآنَ المجيد ، فقد دلَّكُم على الأَمرِ الرَّشيد ، وأَحضِروا قلوبَكم لِفهمِ الوعدِ والوعيد ، ولازموا طاعةَ ربِّكم ولا سيّما أَيَّام العيد ، فهٰذا شأْنُ العبيد ، واحذروا غضبَهُ فكَم قَصَمَ مِنْ جبَّارٍ عنيد : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ .

أَينَ مَنْ بنىٰ وشادَ وطوَّل ، وتأَمَّرَ على النَّاسِ وسادَ في الأَوَّل ، وظنَّ جهلاً منهُ أَنَّهُ لا يتحوَّل ؟ هيهات! عادَ الزَّمانُ عليهم سالباً ما خوَّل ، فسقُوا كأْساً مِنَ الموتِ علىٰ إِهلاكِهم عوَّل : ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ .

فيا مَنْ أَنذرهُ يومُهُ وأَمسُه ، وحادثَهُ بالعبرِ قمرُهُ وشمسُه ، واستُلبَ مِنهُ ولدُه وأَخوه وعرسُه ، وهوَ يَسعىٰ إِلى الخطا مشمِّراً وقد دنا حبسُه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ ؛ أَما علمتَ أَنَّكَ مسؤولُ الزَّمان ، مشهودٌ عليكَ يومَ تنطقُ الأَركان ، معلومٌ ما قدَّمتَ في زمنِ الإمكان ، محاسَبٌ علىٰ خطواتِ القدمِ وكلماتِ اللِّسان ؟! ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ .

ويا مَنْ يرى العبرَ بعينيه ، ويَسمعُ المواعظَ بأُذنيه ، والنَّذيرُ قد وصلَ إِليه ، وكلماتُهُ تُلقىٰ عليه ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ، كأَنَّكَ بالموتِ قدِ اختطفَكَ اختطافَ البرق ، ولَم تقدرْ علىٰ دَفْعِهِ عنكَ بملكِ الغربِ والشَّرق ، وندمتَ علىٰ تفريطِكَ بعدَ اتِّساعِ الخرق ، وتأْسَفْتَ علىٰ تركِ الأُولىٰ والأُخرىٰ أَحقّ ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ .

ثمَّ ترحَّلتَ عنِ القصورِ إِلى القبور ، علىٰ رحائلِ العيدانِ والظُّهور ، وبقيتَ وحيداً علىٰ مرِّ العصور ، كالأَسيرِ المأْسور ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾ .

فحينئذ أَعادَ الأَجسامَ مَنْ صَنعَها ، وضمَّ شتاتَها بقدرتِهِ وجمعَهَا ، ونادىٰ بنفخةِ الصُّورِ فأَسمعَها ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ .

فيهربُ منكَ الأَخُ وتنسىٰ أَخاك ، ويُعرضُ عنكَ الصَّديقُ ويَرفضُ ولاك ، ويتجافاكَ الحبيبُ المعاشِرُ صباحكَ ومساك ، وتلقىٰ مِنَ الهولِ كلَّ ما أَزعجكَ وساءَك ، فتنسىٰ أَولادكَ وتنسىٰ نساءَك ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

وتجري دموعُ الأَسفِ وابلاً ورذاذاً ، وتنقطعُ الأَكبادُ مِنَ الحسراتِ أَفلاذاً ، ويهبُّ لهيبُ النَّارِ على الكفَّارِ فيجعلُهم جذاذاً ، ولا يجدُ العاصي ملجأ وملاذاً ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ .

فيُجازى العبدُ بفعلِه ولا يُظلَم ، ويتحسَّرُ العاصي علىٰ ما جنىٰ ويتندَّم ، وتسيلُ الدُّموعُ على الأَجفانِ كأَنَّها جرتْ عنْ دمٍ أَو عَنْدَم ، ويأْمرُ المولىٰ بأَخذِ العصاةِ ويتقدَّم ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ .

فتَقدُمُ الزَّبانيةُ إلى الكفَّارِ فتتبادر ، وتسوقُهم سَوْقاً عنيفاً ، وتَثِبُ النَّارُ وثوبَ اللَّيثِ إذا غضبَ وشاجَر ، فيذلُّ عندَ زفيرِها كلُّ مَنْ عزَّ وفاخَر ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ .

ويُنصبُ الصِّراطُ في أَصعبِ الأَماكن ، وتَنزعجُ لوضعِ الميزانِ القلوبُ السّواكن ، ويَقعُ الخِصامُ بينَ البائعِ والمبتاعِ في أَعجبِ المساكن ﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

فيقولُ الرَّبُّ تعالىٰ : قد أَزلتُ المطلَ واللَّي ، وفَصْلُ هٰذا الأَمرِ كلِّه إِلي ، وانتصافُ المظلومِ مِنَ الظَّالمِ عليّ ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ .

أَما أَنذرتُكُم فيما مضىٰ مِنَ الأَيام ، أَما حذَّرتُكم عواقبَ المعاصي والآثام ، أَما أَمرتُكم بتجنُّبِ أَجرامِ الإِجرام ، أَما وعدتُكُم بهٰذا اليومِ في سالفِ الأَيام ؟! ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

فيا لهٰذا المهول ، الَّذي يحارُ فيهِ العاقلُ والجهول ، وتشخصُ الأَبصارُ وتذهلُ العقول ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ ؛ فذاكَ يومُ ثبورِ المنافقين ، وسرورِ الموافقين وسلامةِ الصَّادقين ، وفوزِ السّابقين ، والنَّارُ قدِ انطبقَتْ على الفاسقين ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ .

فيا عثرةَ العاصِينَ ؛ لقد صعبَ تلافيها ، ويا حبرة المخلصينَ ؛ لقد تكاملَ صافيها ، إِذا دخلوا جنَّة . . أَشرقَ ظاهرُها واستنارَ خافيها ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ .

فانظروا ـ عبادَ اللهِ ـ فَرْقَ ما بينَ الفريقينِ بحضورِ قلب ، واستلبوا زمانَ الصّحّةِ بفعلِ الخيرِ أَيّما سَلْب ؛ فاللَّذاتُ تفنىٰ ويبقى العارُ والثَّلْب ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .

وفَّقنا اللهُ تعالىٰ وإِيَّاكُم لمراضيه ، وجَعَلَ مستقبلَ حالِنا وحالِكُم خيراً مِنْ ماضيه ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وآلهِ وصحبهِ أَجمعين .

* * *

المجلس التاسع والثلاثون
في عاشوراء وقتل النفس المحرمة

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي طهَّرَ بتأْديبِهِ مِنْ أَهلِ تقريبِهِ نفوساً ، وسقىٰ أَربابَ مُصافاتهِ مِنْ شرابِ مناجاتهِ كؤُوساً ، ورَفَعَ كيدَ الشَّيطانِ عن قلوبِ أَهلِ الإِيمانِ فأَصبحَ عنها محبوساً ، وصرفَ عن أَهلِ ودادهِ بلُطفهِ وإِسعادِه أَذىً وبوساً ، وأَذلَّ بقهرِهِ مَنْ شاءَ مِنْ خَلْقهِ أَعناقاً ورؤُوساً ، وأَعادَ ذِكرَ الأَصنامِ بعزِّ التَّوحيدِ والإِسلامِ مطموساً ، وجَعَلَ عددَ السِّنينَ بجريانِ الشَّمسِ والقمرِ لِلحاسبينَ محروساً ، وكرَّمَ عشرَ المحرَّمِ وكلَّمَ في عاشوراءَ بهِ موسىٰ .

أَحمدُهُ علىٰ نِعَمٍ لا تُحصىٰ عدداً وما أَقضي بالحمدِ حقّاً ، وأَشكرُهُ ولَم يزل لِلشُّكرِ مستحِقّاً .

وأَشهدُ أَنَّهُ المالكُ لِلرِّقابِ كلِّها رِقّاً ، كوَّنَ الأَشياءَ وأَحكمَها خَلْقاً ، وفَتَقَ السَّماءَ والأَرضَ وكانتا رتقاً ، وقسَّمَ العبادَ فأَسعدَ وأَشقىٰ ، و﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ ﴾ .

وأَشهدُ أَنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ أَشرفُ الخلائقِ خُلقاً ، صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلىٰ صاحبِهِ أَبي بكرٍ الصِّدِّيقِ الَّذي حازَ كلَّ الفضائلِ سَبْقاً ، ويكفيهِ قولُ اللهِ فيه : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴾ وعلىٰ عمرَ العادلِ فما يُحابي خَلْقاً ، وعلىٰ عثمانَ الَّذي استسلمَ لِلشَّهادةِ فما يتوقَّىٰ ، وعلىٰ عليٍّ بائعِ ما يفنىٰ ومُشتري ما يبقىٰ ، وعلىٰ بقيَّةِ آلهِ وأَصحابهِ وعلماءِ أُمَّتِهِ الَّذينَ سارَتْ علومُهم غرباً وشرقاً .

أمَّا بعد : فقدَ قالَ اللهُ تعالىٰ في كتابهِ الكريم : ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ : قد تقدَّمَ الكلامُ علىٰ شيءٍ مِنْ تفسير بعضِ هٰذهِ الآيات ، ولنذكرِ الآنَ في هٰذا الدَّرسِ تكملةَ الكلامِ علىٰ هٰذهِ العَشْرِ ـ وإنَّها علىٰ قولِ كثير : اَلعشرُ الأُوَلُ مِنَ المحرَّمِ الحرام ـ بفصولٍ مفيدةٍ في هٰذا المقام .

اَلفصلُ الأوَّل : في فضائلِ هٰذا الشَّهرِ وما أُعِدَّ لِلصائمِ فيهِ مِنَ الأجر :

فاعلموا أنَّ المحرَّمَ مِنَ الأشهرِ الحُرم ، وقد قالَ سبحانهُ وتعالىٰ فيها : ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ والمرادُ بالشُّهورِ الهلاليَّةِ الَّتي يعتدُّ بها المسلمونَ في عباداتِهم ، الَّتي أوَّلُها المحرَّم ، وآخرُها ذو الحجَّة .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يعني : اللَّوحَ المحفوظ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ هي : رجبُ الفرد ، وذو القعدة ، وذو الحجَّة ، والمحرَّم . واحدٌ فردٌ وثلاثةٌ سرد .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ن ؛ بفعلِ المعاصي وتركِ الطَّاعات ، أو في الأشهرِ الحُرم ، إذِ الظُّلمُ فيهنَّ أعظمُ مِنَ الظُّلمِ فيما سواهُن ، قالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : إنَّ الحسناتِ فيها تُضاعَفُ كتضاعُفِ السَّيِّئات .

وقالَ أبو عبيد : إنَّما قيلَ في المحرَّم : شهرُ الله ؛ لِتعظيمهِ والاعتناءِ بزيادةِ شَرفه ، وذلكَ لأنَّهُ جعلَهُ حراماً لا يَحلُّ فيهِ قتالٌ ولا سَفْكُ دم .

ولذا وردَ في بعضِ الأحاديث : « شَهْرُ اللهِ الأَصَم » ؛ لأنَّهُ لا تُسمَعُ فيهِ قعقعةُ السِّلاح .

وإنَّما لَم يطلقْ ذلكَ علىٰ غيرِهِ مِنَ الأشهرِ الحرمِ ؛ لأنَّ فيهِ ـ واللهُ أعلمُ ـ يومَ عاشوراء ، ولذا أقسمَ بفجره ، قالَ قتادة : أرادَ بالفجرِ فجرَ أوّل يومٍ مِنَ المحرَّم .

وروىٰ ناصرُ السُّنَّةِ ابنُ الجوزيِّ بسندهِ إلىٰ أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : سمعتُ

رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « أَفْضَلُ الصَّوْمِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللهِ الَّذِي يَدْعُونَهُ الْمُحَرَّم » .

ورویٰ أَيضاً بسندهِ عنِ النُّعمانِ بنِ سعد ، عن عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ قال : أَتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلٌ فقال : يا رسولَ الله ؛ أَخبرني بشهرٍ أَصومُهُ بعدَ رمضان ، فقال : « إِنْ كُنْتَ صَائِماً شَهْراً بَعْدَ رَمَضَان . . فَصُمِ الْمُحَرَّم ؛ فإِنَّهُ شَهْرُ الله ، وَفِيهِ يَوْمٌ تَابَ فِيهِ عَلَىٰ قَوْمٍ وَيُتَابُ فِيهِ عَلَىٰ آخَرِين » .

وروى ابنُ شاهينَ مِنْ حديثِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « مَنْ صَامَ يَوْماً مِنَ الْمُحَرَّم . . فَلَهُ ثَلاَثُونَ يَوْماً » .

قالَ ابنُ الجوزي : ويُستحبُّ صيامُ التَّاسعِ والعاشر .

أَمَّا التَّاسع : فمذهبُ ابنِ عبّاسٍ أَنَّهُ هوَ عاشوراء ؛ لأَنَّ العربَ تقولُ ورَدَتِ الإِبلُ عشراً إِذا وردتِ اليومَ التَّاسع .

وأَمَّا عاشوراء : ففي « الصَّحيحين » . مِنْ حديثِ ابنِ عبّاس : (أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَدِمَ المدينةَ فرأَى اليهودَ يصومونَهُ ويقولون : هـٰذا يومٌ عظيمٌ أَنجى اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ فيهِ موسىٰ وقومَه ، وأَغرقَ فرعونَ وقومَه ، فصامَهُ موسىٰ شكراً فنحنُ نصومُه . فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَىٰ بِمُوسَىٰ مِنْكُم » فصامَهُ وأَمرَ بصيامِه) .

وفيهما مِنْ حديثِ سلمةَ بنِ الأَكوع رضي الله عنه : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَمرَ رجلاً مِنْ أَسلمَ أَن : « أَذِّنْ فِي النَّاس : مَنْ كَانَ أَكَلَ فَلْيَصُم - يعني بقيَّةَ يومهِ - وَمَنْ لَمْ يأْكُل . . فَلْيَصُم ؛ فَإِنَّ الْيَوْمَ عَاشُورَاء » .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قال : ما رأَيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صامَ يوماً يتحرَّىٰ فضلَهُ على الأَيَّامِ إِلاَّ هـٰذا اليوم - يعني عاشوراء - وهـٰذا الشَّهر - يعني رمضان - .

وعن أَبي قتادة : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « صَوْمُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ

يُكَفِّرُ الْعَامَ الَّذِي قَبْلَه » انفردَ بإخراجِهِ مسلم .

وقالَ معاويةُ بنُ قرَّة : صامَ نوحٌ ومَنْ معَهُ في السَّفينةِ يومَ عاشوراء .

وفي الجملة : هوَ يومٌ عظيمٌ فينبغي أَنْ يفعلَ فيهِ ما يُمكنُ مِنَ الخيرِ . اهـ

ورویٰ في « التَّرغيبِ والتَّرهيب » بسندِهِ إلى البيهقيِّ عن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أَنَّهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ وَسَّعَ عَلَىٰ عِيَالِهِ وَأَهْلِهِ يَوْمَ عَاشُورَاء . . وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ فِي سَائِرِ سَنَتِه » .

قالَ بعضُ العلماء : كانوا يُعظِّمونَ ثلاثةَ أَعشار : العشرَ الأَخيرَ مِنْ رمضان ، والعشرَ الأُوَلَ مِنْ ذي الحجَّةِ وأَنَّهُ هوَ المقسَمُ بهِ في هٰذهِ الآيات ، والعشرَ الأُوَلَ مِنَ المحرَّمِ وأَنَّها هيَ الَّتي أَتمَّ اللهُ تعالىٰ بها ميقاتَ موسىٰ عليهِ السَّلامُ أَربعينَ ليلة ، وأَنَّ التَّكلُّمَ كانَ في عاشرِها .

قالوا : وينبغي استفتاحُ العامِ بتوبةٍ نصوحٍ تمحو ما سَلَفَ مِنَ الذُّنوبِ في الأَيَّامِ الخالية . ولقد نصحَ القائل :

قَطَعْتَ شُهُورَ الْعَامِ سَهْواً وَغَفْلَةً ... وَلَمْ تَحْتَرِمْ فِيمَا أَتَيْتَ الْمُحَرَّمَا
فَلاَ رَجَبٌ وَفَّيْتَ فِيهِ بِحَقِّهِ ... وَلاَ صُمْتَ شَهْرَ الصَّوْمِ صَوْماً مُتَمِّمَا
وَلاَ فِي لَيَالِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ الَّذِي ... مَضَىٰ كُنْتَ قَوَّاماً وَلاَ كُنْتَ مُحْرِمَا
فَهَلْ لَكَ أَنْ تَمْحُو الذُّنُوبَ بِعَبْرَةٍ ... وَتَبْكِي عَلَيْهَا حَسْرَةً وَتَنَدُّمَا
وَتَسْتَقْبِلَ الْعَامَ الْجَدِيدَ بِتَوْبَةٍ ... لَعَلَّكَ أَنْ تَمْحُو بِهَا مَا تَقَدَّمَا

الفصلُ الثَّاني : إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ اختارَ هٰذا اليومَ الرَّفيعَ القدرِ لاستشهادِ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ أَبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُما وسببُ ذلكَ علىٰ ما قالَ العلاَّمةُ ابنُ حجرٍ في كتابهِ « الصَّواعق » وكثيرٌ مِنَ المؤرِّخين : أَنَّ معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ لمّا استقلَّ بالسَّلطنةِ في دمشق الشَّام بعدَ نزولِ الحسنِ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ الخلافةِ لَه . . بايعَ لولدِهِ يزيدَ عليهِ اللَّعنةُ وجعلَهُ وليَّ عهدِهِ مِنْ بعدِه ، ولمّا توفِّيَ معاويةُ رضيَ اللهُ عنهُ سنةَ ستِّينَ وبايعَ النَّاسُ يزيد . . أَرسلَ لعاملِهِ بالمدينةِ أَنْ يأْخذَ لَهُ البيعةَ على الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُ ففرَّ

لمكَّةَ خوفاً علىٰ نفسه ، فسمعَ بهِ أَهلُ الكوفةِ فأَرسلوا إِليهِ أَنْ يأْتيَهُم ليُبايعوهُ ويمحوَ عنهُم ما هُم فيهِ منَ الجور ، فنهاهُ ابنُ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما وبيَّنَ لَهُ غدرَهُم وقتلَهُم لأَبيهِ وخذلانَهُم لأَخيه ، ثمَّ قال : فإِنْ أَبيت . . فلا تذهبْ بأَهلِك ، فأَبىٰ ، فبكى ابنُ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما فقال : واحبيباهُ ، وقالَ له ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما نحو ذلك ، فبكى ابنُ عمرَ وقبَّلَ ما بينَ عينيه ، وقال : أَستودعُكَ اللهَ مِنْ قتيل . وكانَ قد قالَ لَهُ أَخوهُ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ : إِيَّاكَ وسفهاءَ الكوفة ، وأَنْ يستخفُّوكَ فيخرجوكَ ويُسْلِموك فتندمَ ولاتَ حينَ مناص . وقد تذكَّرَ ذلكَ ليلةَ قَتْلِه ، فترحَّمَ علىٰ أَخيهِ الحسن .

ولمّا بلغَ مسيرُهُ أَخاهُ محمَّدَ ابنَ الحنفيَّةِ كانَ بينَ يديهِ طشتٌ يتوضَّأُ فيه ، فبكىٰ حتَّىٰ ملأَهُ مِنْ دموعهِ! ولَم يبقَ بمكَّةَ أَحدٌ إِلاَّ حزنَ لمسيره ، وقَدمَ أَمامَهُ مسلمُ بنُ عقيلٍ فبايعَهُ مِنْ أَهلِ الكوفةِ اثنا عشرَ أَلفاً ، وقيلَ أَكثرُ مِنْ ذلك ، وأَمرَ يزيدُ ابنَ زيادٍ فجاءَ إِليهِ فقتلَهُ وأَرسلَ برأْسهِ إِليهِ فشكرَهُ وحذَّرَهُ مِنَ الحسين ، وإِلىٰ ذلكَ أَشارَ الفاروقيُّ عليهِ الرَّحمةُ بما أَنشدنيهِ لنَفْسه :

لَوْ كَانَ فِي الْكُوفَةِ غَيْرُ مُسْلِمٍ   مِنْ مُسْلِمٍ مَا قَطَعُوهُ إِرَبَا

ولقيَ الحسينُ في مسيرهِ الفرزدقَ فقال : بيِّنْ ليَ خبر النَّاس ، فقال : أَجَل ، على الخبيرِ سَقَطْتَ ، يا ابنَ رسولِ الله ؛ قلوبُ النّاسِ معكَ وسيوفُهم معَ بني أُميَّة ، والقضاءُ ينزلُ مِنَ السَّماء ، واللهُ يفعلُ ما يشاء .

وسارَ الحسينُ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ علىٰ غيرِ عِلمٍ بما جرىٰ على ابنِ عمِّهِ مسلمِ بنِ عقيل ، حتَّىٰ كانَ علىٰ ثلاثِ مراحلَ مِنَ القادسيَّةِ تلقَّاهُ الحرُّ بنُ يزيدَ التَّميمي وقالَ له : اِرجع فما تركتُ لكَ خلفي خيراً ترجوه ، وأَخبرهُ الخبرَ وقدومَ ابنِ زيادٍ واستعدادَهُ له ، فهمَّ بالرُّجوع ، فقالَ أَخو مسلم : واللهِ لا نرجعُ حتَّىٰ نُصيبَ بثأْرِنا أَو نُقتل .

فقال : لا خيرَ في الحياةِ بعدَكُم ، ثمَّ سار ، فلقيَهُ أَوائلُ خيلِ ابنِ زيادٍ فعدلَ إِلىٰ كربلاءَ ثامنِ المحرَّمِ سنةَ إِحدىٰ وستِّين ، وكانَ لمَّا شارف الكوفةَ سمعَ به أَميرُها

عبيدُ اللهِ بنُ زيادٍ فجهَّزَ إِليهِ عشرينَ أَلفَ مقاتل ، فلمَّا وصلوا إِليه . . التمسوا منهُ نزولَهُ علىٰ حُكمِ ابنِ زيادٍ وبيعتَهُ ليزيد ، فأَبىٰ فقاتلوه ، وكانَ أَكثرَ الخارجينَ لقتالهِ الَّذينَ كاتبوهُ وبايعوه ، ثمَّ لمَّا جاءَهُم . . أَخلفوهُ وفرُّوا عنهُ إِلىٰ أَعدائهِ إِيثاراً لِلسُّحتِ العاجلِ على الخيرِ الآجل ، فحاربَ أُولئِكَ العددَ الكثيرَ وكانَ معَهُ مِنْ إِخوتهِ وأَهلهِ نَيفٌ وثمانونَ نَفْساً ، فثبتَ في ذلكَ الموقف ثباتاً باهراً معَ كثرةِ أَعدائهِ وعددهم ووصولِ سهامِهِم إِليه ، ولمَّا حَمَلَ عليهِم وسيفُهُ مُصْلَتٌ في يده . . أَنشدَ يقول :

أَنَـا ابْنُ عَلِيٍّ الْحَبْرِ مِـنْ آلِ هَـاشِـمٍ ... كَفَـانِـي بِهـٰذَا مَفْخَـراً حِيـنَ أَفْخَـرُ

وَجَـدِّي رَسُـولُ اللهِ أَكْـرَمُ مَـنْ مَشَـىٰ ... وَنَحْـنُ سِـرَاجُ اللهِ فِـي النَّـاسِ نُـزْهِـرُ

وَفَــاطِمَــةٌ أُمِّــي سُـلاَلَــةُ أَحْمَـدٍ ... وَعَمِّـيَ يُـدْعَـىٰ ذَا الْجَنَـاحَيْـنِ جَعْفَـرُ

وَفِينَــا كِتَــابُ اللهِ أُنْــزِلَ صَــادِقــاً ... وَفِينَا الْهُدَىٰ وَالْوَحْيُ وَالْخَيْرُ يُذْكَرُ

ولولا ما كادوهُ بهِ مِنْ أَنَّهُم حالوا بينَهُ وبينَ الماء . . لَم يَقدروا عليه ؛ إِذ هوَ الشُّجاعُ القرمُ[1] الَّذي لا يزولُ ولا يتحوَّل . ولمَّا منعوه وأَصحابَهُ الماءَ ثلاثاً . . قالَ لَهُ بعضُهم : انظر إِليهِ كأَنَّهُ كبدُ السَّماءِ لا تذوقُ منهُ قطرةً حتَّىٰ تموتَ عطشاً ، فقالَ لَهُ الحسين : اللَّهُمَّ اقتلهُ عطشاً ، فلَم يَرْوَ ـ معَ كثرةِ شُربهِ الماء ـ حتَّىٰ ماتَ عطشاً .

ودعا الحسينُ بماءٍ يشربُه ، فحالَ رجلٌ بينَهُ وبينَهُ بسهمٍ ضربَهُ فأَصابَهُ في حَنكه ، فقال : اللَّهُمَّ أَظمِئْه ، فعادَ يصيحُ الحرُّ في بطنهِ والبردُ في ظهره ، وبين يديهِ الثَّلجُ والمراوحُ وخَلْفَهُ الكافور ، وهوَ يصيح : العطش ، فيُؤْتىٰ بسَويقٍ وماءٍ ولبنٍ لَو شربَهُ خمسة . . لكفاهُم ، فيشربُهُ ثمَّ يصيحُ فيسقىٰ كذلكَ إِلىٰ أَنِ انقدَّ بطنه .

ولمَّا استحرَّ القتلُ بأَهلهِ ـ فإِنَّهُم ما زالوا يقتلونَ منهُم واحداً بعدَ واحدٍ حتَّىٰ قتلوا ما يزيدُ على الخمسين ـ . . صاحَ الحسينُ رضيَ اللهُ عنهُ : أَما ذابٌّ يذبُّ عن حريمِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . فحينئذٍ خرجَ الحرُّ بنُ يزيدَ بنِ الحارثِ الرِّياحيّ مِنْ عسكرِ أَعدائهِ راكباً فرسَه ، وقال : يا ابنَ رسولِ الله ؛ لَئِنْ كنتُ أَوَّلَ مَنْ خرجَ علَيْكَ

---

(١) القرم : السيد المعظَّم .

فإِنّي الآنَ مِنْ حزبك ؛ لعلّي أَنالُ بذلكَ شفاعةَ جدِّك . ثمَّ قاتلَ بينَ يديهِ حتَّىٰ قُتِلَ رحمهُ الله ، فلمَّا فنيَ أَصحابُهُ وبقيَ بمفرده . . حَمَلَ عليهم وقَتَلَ كثيراً مِنْ شجعانِهِم ، فحملَ جمعٌ كثيرونَ منهُم فحالوا بينَهُ وبينَ حريمه ، فصاح : كُفُّوا سفهاءَكُم عنِ الأَطفالِ والنِّساءِ . فكفُّوا ، ثمَّ لَم يَزلْ يُقاتلُهم إِلىٰ أَنْ أَثخنوهُ بالجراحِ وسقطَ إِلى الأَرضِ فحزُّوا رأْسَهُ رضيَ اللهُ عنهُ يومَ عاشوراءَ عامَ إِحدىٰ وستِّين ، ووضِعَ بينَ يدي عبيدِ اللهِ بنِ زياد . وأَنشدَ قاتلُهُ لَعَنَهُ اللهُ :

امْــلأْ رِكَــابِــي فِضَّــةً وَذَهَبَــا ... فَقَــدْ قَتَلْــتَ الْمَلِــكَ الْمُحَجَّبَــا

وَمَــنْ يُصَلِّــي الْقِبْلَتَيْــنِ فِــي الصِّبَـا ... وَخَيْــرَهُــم إِذْ يُــذْكَــرُونَ نَسَبَــا

قَتَلْــتُ خَيْــرَ النَّــاسِ أُمّــاً وَأَبَــا

فغضبَ ابنُ زيادٍ مِنْ قولِه ، وقال : إِذاً علمتَ ذلكَ . . فلِمَ قتلتَهُ ؟! واللهِ لا نِلتَ مِنِّي خيراً ، ولأُلحقنَّكَ به ، ثمَّ ضربَ عنقَه .

وقتلَ معَهُ مِنْ إِخوتِهِ وبنيهِ وبني أَخيهِ الحسن ، ومنْ أَولادِ جعفرَ بنِ أَبي طالبٍ وأَخيهِ عقيلٍ تسعةَ عشرَ رجلاً ، وقيل : أَحد وعشرون .

وما أَشجىٰ ما أَنشدَ فيهِ الفاضلُ السَّريُّ عبدُ الباقي أَفندي العُمريّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ لِنَفْسهِ مِنْ قصيدة :

قَضَىٰ نَحْبَهُ فِي كَرْبُلاَءَ ابْنُ حَاشِرٍ ... وَلَمْ يَنْقَضِي نَحْبِي عَلَيْهِ إِلى الْحَشْرِ

قَضَىٰ نَحْبَهُ فِي يَوْمِ عَاشُورَ مَنْ غَدَتْ ... عَلَيْهِ الْعُقُولُ الْعَشْرُ تَلْطِمُ بِالْعَشْرِ

قَضَــىٰ نَحْبَــهُ فِــي نِينَــوَىٰ وَبِهَــا ثَــوَىٰ ... فَعَطَّــرَ مِنْهــاالْكَــائِنَــاتِ ثَــرَى الْقَبْــرِ

قَضَىٰ نَحْبَهُ فِي الطَّفِّ مَنْ فَوْقَهُ طَفَا ... نَجِيــعٌ كَسَــاالآفَــاقَ بِــالْحُلَــلِ الْحُمْــرِ

قَضَــىٰ نَحْبَــهُ فِــي حَــائِــرٍ فَتَحَيَّــرَتْ ... دُمُوعُ بُكَا الدُّنْيَا عَلَىٰ وَجْنَةِ الدَّهْرِ

قَضَىٰ نَحْبَهُ مَنْ رَاحَ لِلْحَرْبِ خَائِضَا ... بِبَحْــرِ دَمٍ فَــانْصَــبَّ بَحْــرٌ عَلَــىٰ بَحْــرِ

قَضَــىٰ نَحْبَــهُ وَالشَّمْــسُ فَــوْقَ جَبِينِــهِ ... تُحَــرِّرُ بِــالأَنْــوَارِ سُــورَةَ ﴿وَالْفَجْــرِ﴾

قَضَــىٰ نَحْبَــهُ والْحُــورُ مُحْــدِقَــةٌ بِــهِ ... كَمَا أَحْدَقَتْ فِي بَدْرِها هَالَةُ الْبَدْرِ

قَضَىٰ نَحْبَهُ وَالدِّينُ أَصْبَحَ بَعْدَهُ إِلَى اللهِ يَشْكُو مَا عَلاَهُ مِنَ الضُّرِّ
قَضَىٰ نَحْبَهُ رَيْحَانَةُ الْمُصْطَفَى الَّتِي تَفُوحُ لِيَوْمِ النَّشْرِ طَيِّبَةَ النَّشْرِ
قَضَىٰ نَحْبَهُ ابنُ الأَنْزَعِ الْبَطَلِ الَّذي أَذَاقَ الرَّدَىٰ عَمْراً وَأَعْرَضَ عَنْ عَمْرِو
قَضَىٰ نَحْبَهُ ابنُ الطُّهْر سَيِّدَةِ النِّسَا سَلِيلَةِ فَخْرِ الْكَائِنَاتِ أَبِيَّ الْغُرِّ
قَضَىٰ نَحْبَهُ الْفَرْدُ الَّذِي هُوَ خَامِسٌ لأَهْلِ كِساً مِنْهُ اكْتَسَى الْفَخْرُ بِالْفَخْرِ
قَضَىٰ نَحْبَهُ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ ثَاوِياً وَمُتَّكِئاً فِيهَا عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرِ

ولمَّا حُملَ رأسُهُ رضيَ اللهُ عنهُ لابنِ زيادٍ لَعَنهُ اللهُ تعالىٰ.. جعلَهُ في طشتٍ وجعلَ يضربُ ثناياهُ بقضيب ، ويقول : ما رأيتُ مِثلَ هٰذا حُسناً .

وروي : أَنَّهُ كانَ حاضراً عندَهُ زيدُ بنُ أَرقم ، فقالَ لَه : ارفع قضيبك ، فواللهِ لَطالما رأَيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُقبِّلُ ما بين هاتينِ الشَّفتَين ، ثمَّ جعلَ زيدٌ يبكي ، فقالَ ابنُ زياد : أَبكى اللهُ عينيك ، لولا أَنَّكَ كبيرٌ قد خرفت.. لضربتُ عنقك ، فنهضَ وهوَ يقول :

أَيُّها النَّاس ؛ أَنتُم العبيدُ بعدَ اليوم ، قتلتُمُ ابنَ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنهُما وأَمَّرتُمُ ابنَ مرجانة ، واللهِ ليَقتُلَنَّ خيارَكُم ويَستبعدنَّ أَشرارَكُم ، فبُعداً لمَنْ رضيَ بالذُّلِّ والعار .

ثمَّ قال : يا ابنَ زياد ؛ لأُحدِّثنَّكَ بما هو أَغْيَظُ عليكَ مِنْ هٰذا : رأَيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَقعدَ حَسناً علىٰ فخذِهِ اليمنىٰ وحُسيناً علىٰ فخذِهِ اليُسرىٰ ، ثمَّ وضعَ يدَيه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ يافوخيهما فقال : « اللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْتَوْدِعُكَ إِيَّاهُمَا وَصَالِحِي الْمُؤْمِنِين » فانظرْ كيفَ كانت وديعةُ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندكَ يا ابنَ زيادٍ .

ثمَّ إِنَّ ابنَ زيادٍ عليهِ اللَّعنةُ جهَّزَ رأسَ الحسينِ معَ السَّبايا مِنْ نسائهِ وبقيَّةِ أَطفالهِ وأَهلِ بيتهِ إِلىٰ يزيدَ ، فجمعَ أَهلَ الشَّام عندَ وصولهِم إِليهِ ووضعَ الرَّأسَ بينَ يديه ، وجعلَ ينكتُهُ بقضيبِ خيزران ويُنشدُ أَبياتاً ـ إِنْ صحَّتْ عنه.. فليسَ في كُفرهِ خلافٌ ـ مِنها :

لَعِبَتْ هَاشِمُ بِالْمُلْكِ فَلاَ خَبَرٌ جَاءَ وَلاَ وَحْيٌ نَزَلَ

وممَّا يُشجىٰ أيضاً في هـٰذا المقامِ تخميسُ الفاروقي المتقدِّمِ ذِكرُهُ لقصيدةِ البوصيري في مدحِ النَّبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام :

آلُ صَخْـرٍ وَالصَّخْـرُ لاَ شَـكَّ أَلْيَـنْ ... مِـنْ قُلُـوبٍ فِيهَـا النِّفَـاقُ تَمَكَّـنْ

أَظْهَـرُوا مِـنْ أَضْغَـانِهِـمْ مَـا تَبَطَّـنْ ... وَقَسَـتْ مِنْهُـم قُلُـوبٌ عَلَـىٰ مَـنْ

بَكَـتِ الأَرْضُ فَقْـدَهُـمْ وَالسَّمَـاءُ

لِحِمَـاهُـمْ يَـا نَـاظِـرِي سَـلْ سَبِيـلا ... وَاسْقِـهِ مِـنْ مَحَـاجِـرِي سَلْسَبِيـلا

إِنْ تَـرُمْ بِـالـدُّمُـوعِ سَبْحـاً طَـوِيـلا ... فَـابْكِهِـم مَـا اسْتَطَعْـتَ إِنَّ قَلِيـلا

فِـي عَظِيـمٍ مِـنَ المُصَـابِ الْبُكَـاءُ

فَتَبَـارِيـحُ سَبْيِهِـم بَـرَّحَـتْ بِـي ... وَالأَسَـىٰ مُشْعِـرٌ بِـإِيجَـابِ سَلْبِـي

وَبِشَـرْقٍ إِذا أَقَمْـتَ وَغَـرْبِ ... كُـلّ يَـوْمٍ وَكُـلّ أَرْضٍ لِكَـرْبِـي

مِنْهُـمُ كَـرْبُـلاَ وَعَـاشُـورَاءُ

فَسُـرُورِي مُحَـرَّمٌ حَيْـثُ حَـلاَّ ... شَهْـرُ ذَبْـحِ الْحُسَيْـنِ وَالْحُـزْنُ حَـلاَّ

لَسْـتُ أَسْلُـوا وَالْهَـمُّ لِلْعَـزْمِ حَـلاَّ ... غَيْـرَ أَنِّـي فَـوَّضْـتُ أَمْـرِي إِلَـى اللَّـهِ

وَتَفْـوِيضِـيَ الأُمُـورَ بَـرَاءُ

آلَ طَـٰـهَ بِمَـدْحِكُـم أَتَطَـاوَلْ ... وَمَـعَ الْـوُرْقِ بِـالـرِّثَـا أَتَسَـاجَـلْ

لَـذَّ قَلْبِـي لِعِـزِّكُـم كُلَّمَـا ذَلْ ... آلَ بَيْـتِ النَّبِـيِّ طِبْتُـمْ فَطَـابَ الْـ

ـمَدْحُ لِـي فِيكُـم وَطَـابَ الـرِّثَـاءُ

وقالَ ناصرُ السُّنَّةِ ابنُ الجوزيِّ عليهِ الرَّحمةُ في كتابِهِ « التَّبصرة » : عنِ ابنِ أَبي نعيم ، قال : جاءَ رجلٌ إِلى ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما وأَنا جالس ، فسأَلَهُ عن دمِ البعوض ، فقالَ لَه : ممَّنْ أَنتَ ؟

فقال : مِنْ أَهلِ العراق .

قال : انظروا إِلىٰ هـٰذا ؛ يَسأَلُ عن دمِ البعوضِ وقد قَتلوا ابنَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ

عليهِ وسلَّم ، وقد سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « هُمَا رَيْحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيا » يعني الحسنَ والحسين .

وفي حديثٍ آخَرَ صحَّحَهُ التِّرمذيُّ : « الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّة » .

وفي حديثٍ آخَر : « هـٰذَانِ ابْنَاي ، فَمَنْ أَحَبَّهُمَا . . فَقَدْ أَحَبَّنِي » .

وروىٰ أَيضاً بسندهِ عن شهرِ بنِ حوشب ، عن أُمِّ سلمةَ زوجِ النَّبيِّ رضيَ اللهُ عنها قالت : (كانَ جبريلُ عندَ النَّبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وحسينٌ معي فبكىٰ ، فتركتُهُ فأَتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأَخذتُه ، فلمَّا أَخذتُه . . بكىٰ ، فأَرسلتُهُ فذهبَ إليه ، فقالَ لَهُ جبريل : أَتحبُّهُ يا محمَّدُ ؟ فقال : « نعَم » فقال : إنَّ أُمَّتَكَ ستقتلُه ، فإنْ شئت . . أَريتُكَ تربةَ أَرضهِ الَّتي يُقتلُ بها ، فبَسطَ جناحَهُ إلى الأَرضِ الَّتي يُقتلُ بها يُقالُ لَها : كربلاء ، وأَخذَهُ بجناحهِ فأَراهُ إيَّاه) .

قالَ حمّاد :(إنَّ الحسينَ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا نزلَ كربلاءَ شمَّ الأَرضَ وسأَلَهُم عنِ اسمها ، فقالوا : كربلاء ، فقال : كربٌ وبلاء ، فقُتلَ بها) .

وروىٰ عبدُ اللهِ بنُ نجيّ عن أَبيه : أَنَّهُ سارَ معَ عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ وكانَ صاحبَ مطهرته ، فلمَّا حاذىٰ نينوىٰ وهوَ منطلقٌ إلىٰ صفِّين . . نادىٰ علي : اِصبر أَبا عبدِ الله ، اصبرْ أَبا عبدِ الله ، بشطِّ الفراتِ تُقتل .

قلت : وماذا ؟

قال : دخلتُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ يومٍ وعيناهُ تفيضان ، قلت : يا نبيَّ الله ؛ أَغضبكَ أَحد ، ما شأْنُ عينيكَ تفيضانِ ؟ قال : « قَامَ مِنْ عِنْدِي جِبْرِيلُ قَبْلُ فَحَدَّثَنِي أَنَّ الْحُسَيْنَ يُقْتَلُ بِشَطِّ الْفُرَات ، وَقَالَ لِي : هَلْ لَكَ أَنْ أُشِمَّكَ مِنْ تُرْبَتِهِ ؟ قُلْت : نعَم ، فَمَدَّ يَدَهُ فَقَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ فَأَعْطَانِيهَا ، فَلَمْ أَمْلِكْ عَيْنَيَّ أَنْ فَاضَتَا » .

وروىٰ عمّارُ بنُ أَبي عمّار ، عنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال : رأَيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ نصفَ النَّهارِ أَشعثَ أَغبر ، معَهُ قارورةٌ فيها دمٌ يلتقطُهُ ويتتبعُ فيها شيئاً ، قلت : يا رسولَ الله ؛ ما هـٰذا ؟ قال : دمُ الحسينِ وأَصحابهِ ، لَم

أَزلْ أَتتبَّعهُ منذُ اليوم . قالَ عمّار : فحفِظنا ذلكَ اليوم ، فوجدناهُ قُتلَ ذاكَ اليوم .

قالَ ابنُ الجوزيّ عليهِ الرَّحمةُ : أَخبرنا عليُّ بنُ عبيدِ الله ، حدَّثنا عليُّ بنُ أَحمدَ البسري ، حدَّثنا أَبو عبد اللهِ بنُ بطَّة ، حدَّثنا أَبو حامدٍ محمَّدُ بنُ هارونَ الحضرمي ، حدَّثنا هلالُ بنُ بشر ، حدَّثنا عبدُ الملكِ بنُ موسىٰ عن هلالِ بنِ ذكوان ، قال : لمَّا قُتلَ الحسينُ رضيَ اللهُ عنهُ . . مُطرنا مطراً بقيَ أَثرهُ في ثيابِنا مثلَ الدَّم .

قلت : لمَّا كانَ الغضبانُ يحمرُّ وجهُهُ فيبينُ بالحُمرةِ أَثرُ غضبه ، والحقُّ سبحانَهُ ليسَ بجسم ، أَظهرَ أَثرَ غضبِهِ بحُمرةِ الأُفقِ حينَ قُتلَ الحسينُ رضيَ اللهُ عنه .

وبالإِسنادِ قالَ ابنُ بطَّة : وحدَّثنا إِسماعيلُ ابنُ إِسحاقَ القاضي ، حدَّثنا سليمانُ بنُ حربٍ عن حمّادِ بنِ زيد ، عن هشام ، عن محمَّدِ ابنِ سيرين ، قال : لَم نرَ هٰذهِ الحمرةَ في السَّماءِ حتَّىٰ قُتلَ الحسين .

قالَ ابنُ بطَّة : وحدَّثنا أَبو ذرٍّ الباغندي ، حدَّثنا حمّادُ بنُ الحسنِ الورّاق ، قال : سمعتُ عليَّ ابنَ أَخي شعيبِ بنِ حربٍ يقول : ناحتِ الجنُّ على الحسينِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما ، فقالت جنيَّة : جِئْنَ نساءُ الجنِّ يبكينَ شجيَّاتٍ ويلطمنَ خدوداً ، كالدَّنانيرِ نقيَّات ، ويلبس ثياب السود بعد القصبيات[1] .

وفي حديثٍ أَنَّهُ حفظَ مِنْ قولِ الجن :

مَسَـــحَ النَّبِـــيُّ جَبِينَـــهُ ... فَلَـــهُ بَـــرِيـــقٌ فِـــي الْخُـــدُودِ

أَبَـــوَاهُ مِـــنْ عُلْيَـــا قُـــرَيْـ ... ـــشٍ جَـــدُّهُ خَيْـــرُ الْجُـــدُودِ

وروي : أَنَّ صخرةً وُجدتْ قَبْلَ مبعثِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بثلاثِ مئةِ سنةٍ وعليها مكتوبٌ باليونانيَّة :

أَيَـــرْجُـــو مَعْشَـــرٌ قَتَلُـــوا حُسَيْنـــاً ... شَفَـــاعَـــةَ جَـــدِّهِ يَـــوْمَ الْحِسَـــابِ

ويحَ قاتلِ الحسين ، كيفَ حالُهُ معَ أَبيهِ وجدّهِ ؟!

---

(١) القصبيات : ثياب تتخذ من كتّان ، رقاق ناعمة .

لَابُــدَّ أَنْ تَـرِدَ الْقِيَـامَــةَ فَـاطِـمُ ... وَقَمِيصُهَــا بِــدَمِ الْحُسَيْــنِ مُلَطَّــخُ
وَيْــلٌ لِمَــنْ شُفَعَــاؤُهُ خُصَمَــاؤُهُ ... وَالصُّــورُ فِـي نَشْـرِ الْخَـلَائِـقِ يُنْفَـخُ

إخواني ؛ باللهِ عليكُم مَنْ قَبَّحَ علىٰ يوسفَ بأيِّ وجهٍ يرىٰ يعقوبَ ؟! لمَّا أُسِرَ العبَّاسُ يومَ بدرٍ . . سمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنينَهُ فما نام ، فكيفَ لَو سمعَ أَنينَ الحسينِ ؟! لمَّا أَسلمَ وحشي . . قالَ لَه : « غَيِّبْ وَجْهَكَ عَنِّي » هـٰذا ـ واللهِ ـ والمسلمُ لا يُؤَاخذُ بما كانَ في الكفرِ ، فكيفَ يقدرُ الرَّسولُ أَنْ يُبصرَ مَنْ قتلَ الحسينَ ؟! اهـ

الفصلُ الثَّالث : في قتلِ النَّفسِ بغيرِ حق ، وأنَّ ذلكَ مِنَ الكبائر ، والعياذُ باللهِ تعالىٰ :

قالَ اللهُ عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ .

وقالَ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ وبهـٰذهِ الآيةِ ونحوِها مِنَ الأَحاديثِ استدلَّ مَنْ جوَّزَ لَعْنَ يزيد ؛ كالقاضي أَبي الحسين ، وابنِ الجوزي ، والوالدِ عليهِ الرَّحمةُ ، ومَنْ وافقهُم ونَسبوا ذلكَ إِلى الإِمامِ أَحمدَ ابنِ حنبل عليهمُ الرَّحمة .

فالقتلُ العمدُ فيهِ القصاصُ والعذاب ، والقتلُ الخطأُ فيهِ الدِّيةُ والكفَّارةُ كما هوَ مفصَّلٌ في الكتبِ الفقهيَّة .

وروى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » مِنْ حديثِ أَبي بكرةَ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قالَ يومَ النَّحرِ بمكَّة : « دِمَاؤُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَام ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هـٰذا ، فِي بَلَدِكُمْ هـٰذا ، فِي شَهْرِكُمْ هـٰذا ، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُم عَنْ أَعْمَالِكُم ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالاً يَضْرِبُ بَعْضُكُم رِقَابَ بَعْض » .

وروىٰ عبدُ اللهِ رضي الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « أَوَّلُ مَا يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاء » .

وروى ابنُ عمرَ رضي الله عنهما عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « لَنْ يَزَالَ الْمَرْءُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَماً حَرَاماً » .

وعنِ ابنِ بريدةَ عن أَبيه رضي الله عنهما : أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : « لَقَتْلُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا » .

وكذلكَ مِنَ الكبائر : أَنْ يقتلَ الإِنسانُ نَفْسَه ، والعياذُ باللهِ تعالىٰ :

أَخرجَ الشَّيخانِ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « مَنْ تَرَدَّىٰ مِنْ جَبَلٍ فَقَتَل نَفْسَه . . فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّىٰ فِيهَا خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً ، وَمَنْ تَحَسَّىٰ سُمّاً فَقَتَلَ نَفْسَه . . فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَة . . فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً » أَي : يَضربُ بها نَفْسَه .

قلت : والنِّساءُ الحواملُ اللَّواتي يَشربنَ الدَّواءَ لإِسقاطِ الجنينِ يلتحقنَ بما نحنُ فيه ، وكذا ساقيهنَّ يلتحقُ بالمُعِينِ ؛ إِذِ الإِعانةُ أَيضاً مِنَ الكبائر ، أَخرجَ الأَصبهانيُّ وابنُ ماجه عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قال : « مَنْ أَعَانَ عَلَىٰ قَتْلِ مُؤْمِنٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَة . . لَقِيَ اللهَ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْه : آيسٌ مِنْ رَحْمَةِ الله » .

وروى الطَّبرانيُّ والبيهقيُّ : « لاَ يَقِفَنَّ أَحَدُكُمْ مَوْقِفاً يُقْتَلُ فِيهِ رَجُلٌ ظُلْماً فَإِنَّ اللَّعنةَ تَنْزِلُ عَلَىٰ مَنْ حَضَرَهُ حَيْثُ لَمْ يَدْفَعْ عنه » ، حتَّىٰ إِنَّ ترويعَهُ أَيضاًمِنَ الكبائر ؛ فقد أَخرجَ البزّارُ وابنُ حبّانَ عن عامر بنِ ربيعةَ رضيَ اللهُ عنهُ أَنَّ رجلاً أَخذ نعلَ رجلٍ فغيَّبها وهوَ يمزح ، فَذُكرَ ذلكَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « لاَ تُرَوِّعُوا الْمُسْلِم ؛ فَإِنَّ رَوْعَةَ الْمُسْلِمِ ظُلْمٌ عَظِيم » .

وأَخرجَ الطَّبراني : « مَنْ أَخَافَ مُؤْمِناً . . كَانَ حَقاً عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُؤَمِّنَهُ مِنْ أَفْزَاعِ يَوْمِ الْقِيَامَة » .

وروى الطَّبراني : « مَنْ نَظَرَ إِلىٰ مُسْلِمٍ نَظْرَةً يُخِيفُهُ فِيهَا بِغَيْرِ حَق . . أَخَافَهُ اللهُ تَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَة » .

وروى الشَّيخانِ : « لاَ يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلىٰ أَخِيهِ بِالسِّلاَح ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّار » ومعنىٰ ينزع : يَرمي ويُفسد .

فإذا كانَ هـٰذا حالَ مَنْ أَخافَ المسلمَ وروَّعَهُ أَو أَعانَ علىٰ قتله . . فكيفَ حالُ مَنْ قتلَ بضعةَ الرَّسولِ وقرَّةَ عينِ فاطمةَ البتولِ ؟ وقتلوا الآلَ الَّذينَ هُم خيرُ آلٍ ؟ فلقد جَمعوا في ظُلمِ الحسينِ ما لَم يَجمعْهُ أَحد ، ومنعوهُ أَنْ يَرِدَ الماءَ فيمَنْ وَرَد ، أَو أَنْ يَرحلَ عنهُم غيرَ بلد ، وما هـٰذا إِلاَّ عن سوءِ معتقد ، نَبَعَ الماءُ مِنْ بينِ أَصابعِ جدِّهِ فما سقوهُ منهُ قطرةً ومنعوهُ عن وردهِ!

كانَ الرَّسولُ مِنْ حُبِّ الحسينِ يُقَبِّلُ شفتيهِ ويَحملُهُ كثيراً علىٰ كتفيه ، ولمّا مشىٰ طفلاً بين يدي النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ على المنبر . . نزلَ إِليه ، فلَو رآهُ ملقىً علىٰ أَحدِ جانبيهِ شديدَ العطشِ والماءُ حاضرٌ لديه ، وأَطفالُهُ يضجُّونَ بالبكاءِ مِنْ جانبيه ، والسُّيوفُ تأْخذُهُ والأَعداءُ حواليه ، والخيلُ قد وطأَتْ صدرَهُ ومشتْ عليه ، ودماؤُهُ تجري بعدَ دموعِ عينيه . . لَضجَّ الرَّسولُ مستغيثاً ويعزُّ عليهِ!

يَـا رَسُـولَ اللهِ لَـوْ عَـايَنْتَهُـمْ	وَهُـمُ مَـا بَيْـنَ قتـلٍ وَسبـا
مِـنْ رَمِيـضٍ يَمْنَـعُ الظِّـلَّ وَمِـنْ	عَـاطِـشٍ يُسْقَـىٰ أَنَـابِيـبَ الْقَنَـا
لَـرَأَتْ عَيْنَـاكَ مِنْهُـم مَنْظَـرا	لِلْحَشَـا شَجْـواً وَلِلْعَيْـنِ قَـذَىٰ
لَيْـسَ هـٰـذا لِـرَسُـولِ اللهِ يَـا	أُمَّـةَ الطُّغْيَـانِ وَالغَـيِّ جَـزَا
غَـارِسٌ لَـمْ يَـأْلُ فِـي الْغَـرْسِ لَهُـم	فَـأَذَاقُـوا آلَـهُ مُـرَّ الْجَنَـا
جَـزَرُوا جَـزْرَ الأَضَـاحِـي نَسْلَـهُ	ثُـمَّ سَـاقُـوا أَهْلَـهُ سَـوْقَ الإِمَـا

فسبحانَ مَنْ رفعَ لِلحسينِ بقتلهِ مكاناً ، ودمغَ مَنْ عاداهُ فعادَ بعدَ العزِّ مُهاناً ، ما ضرَّهُ حينَ الشَّهادةِ مَنْ أَوسعَهُ خذلاناً ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَانًا﴾ .

هلكَ أَهلُ الزَّيغِ والعناد ، وكأَنَّهم ما ملكوا البلاد ، وعادَ عليهم ما عادَ علىٰ عاد ، أَينَ يزيدُ وأَينَ ابنُ زياد ، كأَنَّهُما ما كانا ، لا كانا ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَانًا﴾ .

تمتَّعوا أَيّاماً يسيرة ، ثم عادت أَجنحةُ الملكِ كسيرة ، وبقيت سيرةُ الحسينِ أَحسنَ سيرة ، ومَنْ عزَّتْ عاقبتُهُ والسَّريرة ، فكأَنْ لَم يَلقَ هواناً .

مُزِّقوا واللهِ كلَّ ممزَّق ، وتفرَّقوا بالشَّتاتِ أَيّ متفرَّق ، إِنَّ ناصرَ المظلومِ لَم يتوانىٰ ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَانًا﴾ .

تعزَّزوا علىٰ مِثلِ الحسينِ وطالوا ، وظنُّوا بقاءَ الملكِ لَهم بما احتالوا ، وكِيلَ لَهم مِنَ الذَّمِّ أَضعافَ ما كالوا ، وعُجِّلَ قلعُهُم مِنَ السَّلطنةِ فزالوا سلطاناً سلطاناً ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَانًا﴾ .

ويلَهُم ، لَو دبَّروا أَمرهُم . . لرَفعوا بطاعةِ الحسينِ قدرَهُم ، ملكوا أَيّاماً ثمَّ بقيَ الخزيُ دهرَهُم .

إِخواني ؛ اِشتغلوا اليومَ بتسبيحِكم ودعوا ذِكرَهُم هواناً .

اللَّهُمَّ ؛ يا مَنْ إِلىٰ سُبلِ الإِسلامِ هدانا ، وببركةِ هـٰذا النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الضَّلالِ حَمانا ؛ هَبْ لَنا أَدباً معَهُ ولأَوامرِهِ إِذعاناً ، وارزقنا أَمناً شاملاً ومِنَ النَّارِ أَماناً ، إِنَّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قدير .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وأَهلِ بيتهِ الطَّيبين ، وذرِّيَّتهِ الأَكرمين ، وأَصحابِهِ أَجمعين .

* * *

المجلس المتمم الأربعين
في آية المباهلة وفضائل أهل بيته عليهِ الصَّلاة والسَّلام

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي أَصبحتْ لَهُ الوجوهُ ذليلةً عانية ، وحذرتهُ النُّفوسُ مجدَّةً ومتوانية ، وعظَ مَنْ قَدَّمَ الدُّنيا الحقيرةَ الفانية ، وشوَّقَ إِلىٰ جنَّةٍ قُطوفُها دانية ، وخوَّفَ عطاشَ الهوىٰ أَنْ يُسْقوا مِنْ عينٍ آنية .

أَحمدُهُ علىٰ تقويمِ شانِيَه[1] ، وأَستعيذُهُ مِنْ شرِّ شانٍ وشانيَة[2] ، وأُصحِّحُ بتحقيقِ التَّوحيدِ إِيمانيَة[3] . وأُصلِّي علىٰ رسولهِ محمَّدٍ صلاةً ممهدةً لعزٍّ بانية ، صلى الله عليه وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ السَّابقِ في الوفاقِ والإِنفاقْ والدَّارِ والغربةِ في الغار ، أَربعٌ لِلفخرِ بانِيَة ، وعلىٰ عمرَ مقيمِ السِّياسةِ علىٰ كلِّ نفسٍ جانِيَة ، وعلىٰ عثمانَ الَّذي اختارَهُ الرَّسولُ بعدَ موتِ ابنتهِ الثَّانِيَة ، وعلىٰ عليٍّ المنزَّلِ فيه ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ وعلىٰ سائرِ آلهِ وأَصحابهِ الَّذينَ نفوسُهم مِنْ كلِّ خيرٍ دانية ، وسلَّم تسليماً .

أَمَّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في مُحكمِ كتابهِ العزيز : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ .

---

(١) أي : الشأن بمعنى الحال .

(٢) شان وشانية : مبغض ومبغضة .

(٣) أي : إيماني ، والهاء هنا هي هاء السكت .

فنقول ـ وبالله تعالى التَّوفيق ـ : قالَ الوالدُ عليهِ الرَّحمةُ في تفسيره « روحِ المعاني » : ذكرَ غيرُ واحدٍ أَنَّ وفدَ نجران قالوا لرسولِ اللهِ صلى الله تعالىٰ عليه وسلم : مالكَ تشتمُ صاحِبَنا ـ يعنونَ عيسىٰ عليهِ السّلام ـ ؟ قال : « مَا أَقُول » ؟ قالوا : تقول : إنَّهُ عبدُ الله . قال : « أَجَلْ ، هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى الْعَذْرَاءِ الْبَتُول » فغضبوا وقالوا : هل رأَيتَ إنساناً قطُّ مِنْ غيرِ أَب ؟ فإِنْ كنتَ صادقاً . . فأَرِنا مِثلَه . فأَنزلَ اللهُ تعالىٰ هـٰذِهِ الآية .

وأَخرجَ البيهقيُّ في « الدَّلائِل » : أَنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كتبَ إِلىٰ أَهلِ نجرانَ قَبْلَ أَنْ ينزلَ عليه (طس) سليمان : « بِاسْمِ إِلـٰهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوب : مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَىٰ أسقف نجران وَأَهْلِ نجران : إِنْ أَسْلَمْتُم . . فَإِنِّي أَحْمَدُ اللهَ إِلَيْكُم ، إِلـٰهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوب ، أَمّا بَعْد : فَإِنِّي أَدْعُوكُم إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَاد ، وَأَدْعُوكُمْ إِلَىٰ وِلاَيَةِ اللهِ مِنْ وِلاَيَةِ الْعِبَاد ، فَإِنْ أَبَيْتُم . . فَالْجِزْيَة ، فَإِنْ أَبَيْتُم . . فَقَدْ أُذِنتم بحرب . وَالسَّلاَم » .

فلمّا قرأَ الأُسقُفُّ الكتاب . . فظعَ بهِ وذُعِرَ ذُعراً شديداً ، فبعثَ إِلىٰ رجلٍ مِنْ أَهلِ نجرانَ يُقالُ لَه : شرحبيلُ بنُ وداعة ، فدفعَ إِليهِ كتابَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فقرأَه ، فقالَ لَهُ الأسقف : ما رأَيت ؟ فقالَ شرحبيل : قد علمتَ ما وعدَ اللهُ تعالىٰ إِبراهيمَ في ذرِّيَّةِ إِسماعيلَ مِنَ النُّبوَّة ، فما يُؤْمَنُ أَنْ يَكونَ هـٰذا الرَّجُلُ نبيّاً ، وليسَ لي في النُّبوَّةِ رأْي ، لو كانَ أَمراً مِنْ أُمورِ الدُّنيا . . أَشرتُ عليكَ فيهِ وجهدتُ لك . فبعثَ الأَسقفُ إِلىٰ واحدٍ بعدَ واحدٍ مِنْ أَهلِ نجران ، فكلُّهم قالَ مثلَ قولِ شرحبيل ، فاجتمعَ رأْيُهم علىٰ أَنْ يَبعثوا شرحبيلَ وعبدَ اللهِ بنَ شرحبيلَ وحيّارَ بنَ قنصٍ فيأْتونَهُم بخبرِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم . فانطلقَ الوفدُ حتَّىٰ أَتوا رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، فسأَلوهُ وسأَلَهُم ، فلَم تَزَلْ بهِ وبِهِمُ المسأَلَةُ حتَّىٰ قالوا : ما تقولُ في عيسى ابنِ مريم ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « مَا عِنْدِي فِيهِ شَيءٌ يَوْمِيَ هَـٰذَا ، فَأَقِيمُوا حَتَّىٰ أُخْبِرَكُمْ بِمَا يُقَالُ لِيَ فِي عِيسَىٰ صُبْحَ الْغَدَاة » فأَنزلَ اللهُ تعالىٰ هـٰذِهِ الآية : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ ﴾ إِلىٰ قولِهِ سبحانَه : ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى

﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ فأَبوا أَنْ يُقرُّوا بذلك ، فلمّا أَصبحَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم الغدَ بعدَ ما أَخبرهُم الخبر . أَقبلَ مشتملاً على الحسنِ والحسينِ في خميلةٍ لهُ وفاطمةُ تمشي عند ظَهرهِ لِلمُلاعنةِ ولَهُ يومئذٍ عدَّةُ نسوة ، فقالَ شرحبيلُ لصاحبيه : إِنِّي أَرىٰ أَمراً مقبلاً ، إِنْ كانَ هـٰذا الرَّجلُ نبيّاً مرسَلاً فتلاعنّاه . . لا يبقىٰ علىٰ ظهرِ الأَرضِ منّا شعرٌ ولا ظفرٌ إِلاّ هلك .

فقالا لَه : ما رأْيك ؟

فقال : رأْيي أَنْ أُحكِّمَه ؛ فإِنِّي أَرىٰ رجلاً لا يَحكمُ شططاً أَبداً .

فقالا لَه : أَنتَ وذاك .

فتلقَّىٰ شرحبيلُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فقال : إِنِّي رأَيتُ خيراً مِنْ ملاعنتك .

قالَ « وما هو » ؟

قالَ حكمكَ اليومَ إِلى اللَّيلِ وليلكَ إِلى الصَّباح ، فما حكمتَ فينا . . فهوَ جائز .

فرجعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم ولَم يُلاعنهُم ، وصالحَهُم على الجزية .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ ثمانيةً مِنْ أَساقفةِ أَهلِ نجرانَ قَدِموا علىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، منهم : العاقبُ والسَّيِّد ، فأَنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْا﴾ الآية ، فقالوا : أَخِّرنا ثلاثةَ أَيّام . فذهبوا إِلىٰ بني قريظةَ والنَّضيرِ وبني قينقاعَ فاستشاروهُم ، فأَشاروا عليهِم أَنْ يُصالحوهُ ولا يُلاعنوه ، وقالوا : هوَ النَّبيُّ الَّذي نجدُهُ في التَّوراة . فصالَحوا النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم علىٰ أَلفِ حلَّةٍ في صَفَر وأَلفٍ في رجبَ ودراهم .

ورويَ أَنَّهُم صالحوهُ علىٰ أَنْ يُعطوهُ في كلِّ عامٍ أَلفي حلّة ، وثلاثاً وثلاثينَ درعاً ، وثلاثة وثلاثينَ بعيراً ، وأَربعاً وثلاثينَ فرساً .

وأَخرجَ في « الدَّلائل » أَيضاً مِنْ طريقِ الكلبي : عن أَبي صالح ، عنِ ابنِ عبّاس

رضي الله عنهما : (أنَّ وفدَ نجرانَ مِنَ النَّصارىٰ قدِموا علىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وهُم أَربعةَ عشرَ رجلاً مِنْ أَشرافِهم ، منهُم : السَّيِّدُ وهوَ الكبير ، والعاقبُ وهوَ الَّذي يكونُ بعدَهُ وصاحب رأيهم . فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « أَسلِمَا » قالا : أَسلمنا . قال : « ما أَسْلَمْتُما » . . قالا : بلىٰ قد أَسلمنا قَبْلَك . قال : « كَذَبْتُمَا ، يَمْنَعُكُمَا مِنَ الإِسْلَامِ ثَلَاثٌ فِيكُمَا : عِبَادَتُكُمَا الصَّلِيب ، وَأَكْلُكُمَا الْخِنْزِير ، وَزَعْمُكُمَا أَنَّ للهِ وَلَداً » ونزل : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ ﴾ الآية ، فلمّا قرأَها عليهِم . . قالوا : ما نعرفُ ما تقول!! ونزل : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ ﴾ الآية ، فقالَ لَهمُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « إِنَّ اللهَ قَدْ أَمَرَنِي إِنْ لَمْ تَقْبَلُوا هَـٰذَا . . أَنْ أُبَاهِلَكُم » فقالوا : يا أَبا القاسم ؛ بل نرجعُ فننظرُ في أَمرِنا ثمَّ نأتيك . فخلا بعضُهم ببعضٍ وتصادَقوا فيما بينَهُم ، قالَ السَّيِّدُ للعاقب : قد ـ واللهِ ـ علمتُم أَنَّ الرَّجُلَ نبيٌّ مرسَل ، ولئِنْ لاعنتموه . . إنَّهُ لاستِئْصالُكم ، وما لاَعَنَ قومٌ نبيّاً قطُّ فبقيَ كبيرهُم ولا نبتَ صغيرهُم ، فإِنْ أَنتُم لَنْ تتَّبعوهُ وأَبيتُم إِلاَّ إِلفَ دينكُم . . فوادعوهُ وارجعوا إِلىٰ بلادِكُم . وقد كانَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خرجَ ومعَهُ عليٌّ والحسنُ والحسينُ وفاطمة ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « إِنْ أَنَا دَعَوْت . . فَأَمِّنُوا أَنْتُم » فأَبوا أَنْ يُلاعنوه ، وصالحوهُ على الجزية) .

وعن الشَّعبي : فقالَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « لَقَدْ أَتَانِي الْبَشِيرُ بِهَلَكَةِ أَهْلِ نَجْرَانَ حَتَّى الطَّيْرِ عَلَى الشَّجَرِ لَوْ تَمُّوا عَلَى الْمُلاَعَنَة » .

وعن جابر : « وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَوْ فَعَلا . . لأُمْطِرَ الْوَادِي عَلَيْهِمَا نَاراً » .

ورويَ أَنَّ أَسقفَ نجرانَ لمّا رأَىٰ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مقبلاً ومعَهُ عليٌّ وفاطمةُ والحسنانِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عنهُم قال : يا معشرَ النَّصارىٰ ؛ إِنِّي لأَرىٰ وجوهاً لو سأَلوا اللهَ أَنْ يُزيلَ جبلاً مِنْ مكانِه . . لأَزاله ، فلا تُباهِلوا وتَهلكوا .

هـٰذا ، وإِنَّما ضمَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلى النَّفْسِ الأَبْنَاءَ والنِّساءَ مَعَ أَنَّ القصدَ مِنَ المباهلةِ تبيُّنُ الصّادقِ مِنَ الكاذِبِ وهوَ يختصُّ بهِ وبمَنْ يُباهلُه . . لأنَّ ذلكَ أَتمُّ في الدِّلالةِ علىٰ ثقتهِ بحالهِ واستيقانهِ بصدقه ، وأَكملُ نكايةً بالعدو ، وأَوفرُ إِضراراً بهِ لَو تمّتِ المباهلة .

وفي هٰذهِ القصَّةِ أَوضحُ دليلٍ علىٰ نبوَّتهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، وإلا . . لما امتنَعوا من مباهلته ، ودلالتُها علىٰ فضلِ آل الله تعالىٰ ورسولهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم ممّا لا يَمتري فيها مؤمِن . انتهىٰ

ولنذكر تفسيرَ هٰذهِ الآياتِ ثمَّ نرجع ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ إلىٰ ذِكرِ مناقبِ أَهلِ البيتِ الطَّاهِرينَ رضوانُ اللهِ تعالىٰ عليهِم أَجمعين :

قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ ﴾ أَي : صفتُهُ العجيبةُ وشأنُهُ الغريبُ ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أَي : في تقديرِهِ وحُكمِه ﴿ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ أَي : في صفتهِ وحالهِ العجيبةِ في الخلقِ والإِنشاءِ وتشبيهُ عيسىٰ بآدمَ عليهِما السَّلامُ في كونهِ مخلوقاً بغيرِ أَبٍ كآدم ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ أَي : إنَّ آدمَ عليهِ السَّلامُ لَم يَكُنْ لَهُ أَبٌ ولا أُم ، بل خَلَقَ اللهُ قالبَهُ مِنْ هٰذا الجنسِ وبقيَ ملقىً علىٰ بابِ الجنَّةِ أَربعينَ سنةً لَم تُنْفَخْ فيهِ الرُّوح ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن ﴾ بشراً ؛ أَي : أَنشأَهُ خَلْقاً بالكلمة ﴿ فَيَكُونُ ﴾ أَي : فكانَ بشرا ، وكذلكَ عيسىٰ أَنشأَهُ خلقاً بالكلمة . ففي هٰذهِ الآيةِ دفعٌ لإِنكارِ مَنْ أَنكرَ خَلْقَ عيسىٰ مِنْ غيرِ أَبٍ معَ اعترافهِ بأَنَّ آدمَ خُلِقَ مِنْ غيرِ أَبٍ وأُم ، وهوَ أَغرب .

وحكيَ أَنَّ بعضَ العلماءِ أُسِرَ في بعضِ بلادِ الرُّوم ، فقالَ لَهم : لِمَ تعبدونَ عيسىٰ ؟

قالوا : لأَنَّهُ لا أَبَ لَه .

قال : فآدمُ أَولىٰ ؛ لأَنَّهُ لا أَبَ لَهُ ولا أُم .

قالوا : وكانَ يُحيي الموتىٰ .

فقال : حزقيلُ أَولىٰ ؛ لأَنَّ عيسى أَحيا أَربعةَ نفر ، وأَحيا حزقيل أَربعةَ آلاف .

قالوا : وكانَ يُبرىءُ الأَكمهَ والأَبرص .

قال : فجرجيس أَولىٰ ؛ لأَنَّهُ طُبِخَ وأُحرقَ ثمَّ قامَ سليماً .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ أَي : جاءَكَ الحق . أَو : هوَ الحق ؛ يعني : الَّذي أَخبرتُكَ بهِ مِنْ تمثيلِ عيسىٰ بآدم ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ الخطابُ إمَّا لكلِّ مَنْ يَصلحُ لهُ مِنَ النّاس ؛ أَي : لا يَكنْ أَحدٌ منكُم ممترياً ؛ أَي : شاكّاً . أَو لِلنَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ

وَسَلَّم ، ويكونُ النَّهي لَه ؛ لزيادةِ التَّثبيت ، وهوَ نورٌ علىٰ نور . ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ ﴾ أي : جادلكَ مِن وفدِ نصارىٰ نجران ﴿ فِيهِ ﴾ أي : في عيسىٰ ، وقيل : في الحقِّ ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أَي : الآياتِ البيِّناتِ الموجبةِ لِلعلمِ بأَنَّ عيسىٰ عبدُ اللهِ ورسولُه . . ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ ﴾ أَي : أَقبلوا بالرأي والعزيمةِ ﴿ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾ أَي : يدعُ كلٌّ منَّا ومنكُم أَبناءَهُ ونساءَهُ ونَفْسَهُ لِلمباهَلة ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ أَي : نتضرَّعُ إِلى اللهِ تعالىٰ . وأَصلُ الابتهال : الاجتهادُ في الدُّعاءِ باللَّعنِ وغيره ، يقال : بهلَه ؛ أَي : لعنَه . ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ يعني : مِنّا ومنكُم ، بأَنْ نقول : اللَّهُمَّ ؛ العَنِ الكاذبَ في شأْنِ عيسىٰ عليهِ السّلام ؛ أَي : الَّذي يقولُ إنَّهُ ابنُ الله ، أَو يقول : إنَّهُ إلـٰه ، ويقولُ بالأَقانيم الثَّلاثة .

وفي الآيةِ دليلٌ قاطعٌ وبرهانٌ ساطعٌ علىٰ صحَّةِ نبوَّةِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم ؛ لأَنَّهُ لَم يرَ واحدٌ مِنْ موافقٍ ومخالفٍ أَنَّهُم أَجابوا إِلى المباهَلة ؛ لأَنَّهُم عَرفوا صحَّةَ نبوَّتهِ وما يدلُّ عليها في التَّوراةِ والإِنجيل .

وفي هـٰذهِ الآيةِ أَيضاً برهانٌ واضحٌ علىٰ فضلِ أَصحابِ الكساءِ وبضعةِ سيِّدِ الأَنبياءِ وعترةِ الزَّهراءِ سيِّدةِ النِّساء ، ولنُعطِّر مجلسَنا بما وردَ فيهِم مِنَ الآياتِ الكريمةِ والأَحاديثِ العظيمة :

قالَ ابنُ حجرٍ عليهِ الرَّحمةُ في كتابهِ « الصَّواعق » : قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ .

الرِّجس : الإِثمُ والذَّنب . وقيل : الشَّك . وقيل : السّوء . وقيل : عملُ الشَّيطان .

قالَ أَكثرُ المفسِّرين : إِنَّها نزلَتْ في عليٍّ وفاطمةَ والحسنِ والحسين ؛ لتذكيرِ ضمير ﴿ عَنكُمُ ﴾ .

وقالَ غيرُ واحدٍ مِنَ المفسِّرين : إِنَّها نزلَتْ في نساءِ النَّبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام ؛ لقولهِ تعالىٰ بعدَها : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ وقولهِ تعالىٰ قبْلَها : ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ ونُسبَ هٰذا القولُ لابنِ عبّاس رضي الله عنهما .

وذهبَ الثّعلبيُّ إلىٰ أَنَّ المرادَ في الآيةِ جميعُ بني هاشم . وقيل : هُم مَنْ تحرمُ عليهِ الصَّدقة .

وقد رويَ في التَّفسير الأوّلِ أَحاديث : فقد أَخرجَ الإمامُ أَحمدُ عن أَبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه أنها نزلَتْ في خمسة : النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، وعلي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسينِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عنهُم أَجمعين .

وأَخرجَ التّرمذيُّ وابنُ المنذرِ والبيهقيُّ عن أُمِّ سلمةَ رضي الله عنها قالت : في بيتي نزلَتْ ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ ﴾ الآية ، وفي البيتِ فاطمةُ وعليٌّ والحسنُ والحسينُ فجلَّلهُم رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بكساءٍ كانَ عليه ، ثمَّ قال : « هٰؤلاءِ أهلُ بيتي ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » .

وفي روايةٍ أَنَّ أُمَّ سلمةَ رضي الله عنها قالت لَه : أَلستُ مِنْ أَهلِك ؟ قال : « بَلَىٰ » .

وفي روايةٍ أَنَّها قالت : وأَنا معَهُم ؟ قال : « إنَّكِ عَلَىٰ خَيْر » .

وفي روايةٍ أَنَّهُ قالَ بعدَ ﴿تَطْهِيرًا﴾ : « أَنَا حَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَهُم ، وَسِلْمٌ لِمَنْ سَالَمَهُم ، وَعَدُوٌّ لِمَنْ عَادَاهُم » .

وفي رواية : « أَلاَ مَنْ آذَىٰ قَرَابَتِي . . فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي . . فَقَدْ آذَى اللهَ تَعَالَىٰ » .

وفي أُخرىٰ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه ، لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ بِي حَتَّىٰ يحبني ، ولا يحبني حتى يحب ذوي قرابتي » . فأقامهم عليه الصلاة والسلام مقام نفسه . ومن ثمة صح أنه صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : « إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُم بِهِ لَنْ تَضِلُّوا . . كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِي » .

وَلمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ

﴿عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ . . قالَ كعبُ بنُ عجرة رضي الله عنه : قلنا : يا رسولَ الله ؛ قد عَلِمنا كيفَ نُسلِّمُ عليك ، فكيفَ نُصلِّي عليك ؟ فقال : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّد » .

ويروىٰ : « لا تُصَلُّوا عَلَيَّ الصَّلاَةَ الْبَتْرَاء » . قالوا : وما الصَّلاةُ البتراءُ ؟ قال : « تَقُولُون : اللَّهُمَّ ؛ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَتُمْسِكُون ، بل قولوا اللهم ؛ صل على مُحَمَّد وعلى آل مُحَمَّد » .

وصحَّ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْتَالَ بِالْمِكْيَالِ الأَوْفَىٰ إِذَا صَلَّىٰ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْت . . فَلْيَقُل : اللَّهُمَّ ؛ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ النَّبِي ، وَأَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِين ، وَذُرِّيَّتِهِ وأَهْلِ بَيْتِه ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيم ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيد » . ولذا رويَ عنِ الشَّافعيِّ أَنَّهُ قالَ بوجوبِ الصَّلاةِ على الآلِ في التَّشهُّدِ الأَخير ، ورويَ لَهُ قولُه :

يَـا أَهْـلَ بَيْـتِ رَسُـولِ اللهِ حُبُّكُـمُ فَـرْضٌ مِـنَ اللهِ فِـي الْقُـرْآنِ أَنْـزَلَـهُ
كَفَـاكُـم مِـنْ عَظِيـمِ الْقَـدْرِ أَنَّكُـمُ مَـنْ لاَ يُصَلِّـي عَلَيْكُـم لاَ صَـلاَةَ لَـهُ

وقالَ سبحانهُ وتعالىٰ : ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ فقد نُقلَ عنِ ابنِ عبّاسٍ أَنَّ المرادَ بذلك : سلامٌ علىٰ آلِ مُحَمَّد .

وقالَ تعالىٰ : ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ فقد روى الواحدي ، أَي : عن ولايةِ عليٍّ وأَهلِ البيت .

وقالَ تعالىٰ : ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ فقد أَخرجَ الثَّعلبيُّ عن جعفر الصَّادقِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنهُ أَنَّهُ قال : نحنُ حبلُ اللهِ الَّذِي قالَ تعالىٰ : ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ .

ونقلَ القرطبيُّ عنِ ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنهُما أَنَّهُ قالَ في قولهِ تعالىٰ : ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ : رضا مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنْ لا يدخلَ أَحدٌ مِنْ أَهلِ بيتهِ النَّار .

وأَخرجَ الطَّبرانيُّ والدَّارقطني : « أَوَّلُ مَنْ أَشْفَعُ لَهُ مِنْ أُمَّتي أَهْلُ بَيْتِي ، ثُمَّ الأَقْرَبُ فَالأَقْرَبُ مِنْ قُرَيْش ، ثُمَّ الأَنْصار ، ثُمَّ مَنْ آمَنَ بِي وَاتَّبَعنِي ، ثُمَّ اليَمَن ، ثُمَّ سَائِرُ الْعَرَب ، ثُمَّ الأَعْجَام ، وَمنْ أَشْفَعُ لَهُ أَوَّلاً أَفضَل » .

وعندَ البزّارِ والطَّبرانيِّ وغيرِهما : « أَوَّلُ مَا أَشْفَعُ لَهُ مِنْ أُمَّتِي أَهْلُ الْمَدِينَة ، ثُمَّ أَهْلُ مَكَّة ، ثُمَّ أَهْلُ الطَّائِف » . ويُجمعُ بينَهُما ـ علىٰ ما قالَ ابنُ حجرٍ ـ بأَنَّ ذلكَ فيهِ ترتيبٌ مِنْ حيثُ القبائِل ، وهـٰذا فيهِ ترتيبٌ مِنْ حيثُ البلدان .

وأَخرجَ الغسّاني : « إنَّ ابْنَتِي فَاطِمَةَ حَوْرَاءُ آدَمِيَّة ، لَمْ تَحِضْ وَلَمْ تَطْمِثْ[1] وإنَّما سُمِّيَتْ فَاطِمَة ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فَطَمَهَا وَذُرِّيَّتَهَا » وفي رواية : « وَمُحِبِّيهَا مِنَ النَّار » .

وأَخرجَ الطَّبرانيُّ عن زينِ العابدينَ السَّجادِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ : أَنَّهُ لمّا جِيءَ بهِ أَسيراً عقبَ مقتلِ أَبيهِ الحسينِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ إِلىٰ (دمشق) الشَّام . . قالَ بعضُ جفاةِ أَهلِ الشَّام : الحمدُ للهِ الَّذي قتلَكُم واستأْصَلَكُم ، وقطعَ قَرْنَ الفتنة . فقالَ لَه : ما قرأْتَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ؟ قال : وأَنْتُم هُم ؟! قال : نعَم .

أقول : وفي هـٰذهِ الآيةِ ثلاثةُ أَقوال :

أَحَدُها : أَنَّ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أَي : قل يا مُحمَّدُ لقريش ـ أَو لجميعِ العرب ـ : لا أَطلبُ منكُم علىٰ تبليغِ الرِّسالةِ جُعلاً ولا نفعاً إِلاَّ مودتكم ؛ أَي : أَنْ تودوني لِقرابتي منكُم وتَحفظوني بها .

ثانيها : أَنَّ القربىٰ آلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم .

ثالثُها : أَنَّها منسوخة ، وهوَ قولٌ مردود .

وأَخرجَ الدَّيلميُّ مرفوعاً : « مَنْ أَرَادَ التَّوَسُّلَ إِلَيّ ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ عِنْدِي يَدٌ أَشْفَعُ لَهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامة . . فَلْيَصِلْ أَهْلَ بَيْتِي وَيُدْخِلِ السُّرُورَ عَلَيْهِم » .

---

(١) والمسُّ والدَّنسُ وطمثَتْ حاضَتْ . اهـ منه .

وورِدَ عن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قالَ للزُّبير : انطلق بنا نزورُ الحسنَ بنَ عليٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا ، فتبطَّأَ عليه ، فقال : أَمَا علمتَ أَنَّ عيادةَ بني هاشمٍ فريضةٌ وزيارتَهُم نافلة ؟

وأَخرجَ الخطيبُ مرفوعاً : « يَقُومُ الرَّجُلُ لِلرَّجُل ، إلاَّ بَنِي هَاشِم . . فإنَّهُم لاَ يَقُومُونَ لأَحَد » .

وأَخرجَ الدَّيلميُّ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : « أَدِّبُوا أَوْلاَدكُم عَلَىٰ ثَلاَثِ خِصَال : حُبِّ نَبِيِّكُم ، وَحُبِّ أَهْلِ بَيْتِه ، وَعَلَىٰ قِرَاءَةِ الْقُرْآن » . ولذا كانَ بغضُ أَهلِ البيتِ مِنَ الكبائر ، فقد روى الطَّبرانيُّ والبيهقيُّ بأَلفاظٍ متقاربة : أَنَّ بنتَ أَبي لهبٍ قدمت (المدينة) مسلمةً مهاجرة ، فقيلَ لَها : لا تُغنِ عنكِ هجرتُك ، أَنتِ بنتُ حَطَبِ النّار . فذكرتْ ذلكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فاشتدَّ غضبُه ، ثمَّ قالَ علىٰ منبرِه : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يُؤْذُونَنِي فِي نَسَبِي وَذَوِي رَحِمِي ؟! أَلاَ وَمَنْ آذَىٰ نَسَبِي وَذَوِي رَحِمِي . . فَقَدْ آذانِي ، وَمَنْ آذَانِي . . فَقَدْ آذَى الله » .

وأَخرجَ الإِمَامُ أَحمدُ مرفوعاً : « مَنْ أَبْغَضَ أَهْلَ بَيْتِي . . فَهُوَ مُنَافِق » .

وفي رواية : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُبْغِضُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ أَحَدٌ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّار » اهـ

ولنذكر ما ذكرَهُ العلاَّمةُ ناصرُ السُّنَّةِ ابنُ الجوزيِّ في شأْنِ عليٍّ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَهُ ؛ إِذ هوَ مقدِّمةُ أَهلِ البيتِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُم أَجمعين .

قال : اعلَمْ أَنَّ عليّاً رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ لا يُزاحَمُ في قُربِ النَّسَب ، وقد أَقرَّ الكلُّ بِعلمِهِ وفَضْله . وبُعثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم وهوَ ابنُ سبعِ سنينَ فتبعَه ، ولَم يَزَلْ معَهُ يَكشفُ الكروبَ عن وجهه . وصعدَ علىٰ منكبِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم فرمىٰ صنماً ، كما روىٰ أَبو مريمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : انطلقتُ أَنا ورسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حتَّىٰ أَتينا الكعبة ، فقال : « اجلس » وصعدَ علىٰ منكبي ، فذهبتُ لأَنهضَ بهِ فرأَىٰ مِنِّي ضعفاً فنزل ، وجلسَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وقال : « اصعد علىٰ منكبي » فصعدتُ علىٰ منكبه . قال : فنهضَ بي ـ قال : وإِنَّهُ

يُخيّلُ لي أنّي لَو شئت. . لنلتُ أُفقَ السَّماءِ ـ حتَّىٰ صعدتُ على البيتِ وعليهِ تمثالُ صفر أَو نحاس فجعلتُ أُزاوله عن يمينهِ وعن شماله ، وبينَ يديهِ ومِنْ خَلْفِهِ حتَّىٰ إذا استمكنتُ منه. . قالَ لي رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « اقذف به » فقذفتُ بهِ فتكسَّرَ كما تتكسَّرُ القوارير ، ثمَّ نزلتُ فانطلقتُ أنا ورسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نستبقُ حتَّى توارينا بالبيوتِ ؛ خشيةَ أَنْ يلقانا أَحدٌ مِنَ النَّاس .

وروى التّرمذيُّ في « صحيحه » بسندهِ عنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ أَنَّهُ قال : لمَّا آخىٰ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بينَ صحابتهِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُم جاءَ عليٌّ وعيناهُ تدمعان ، فقال : يا رسولَ الله ؛ آخيتَ بينَ أَصحابكَ ولَم تُؤَاخِ بيني وبينَ أحدٍ! فسمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يقول : « أَنْتَ أَخِي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة » .

قالَ الوالد : وهـٰذهِ مِنْ غُررِ فضائلِ الأَميرِ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَهُ لَم يُشاركهُ فيها أَحد ، وقد أَكَّدَها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بما صحَّ مِنْ قوله : « أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ إِلاَّ أَنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي » . وعلىٰ ذلكَ قولُ العمريِّ عليهِ الرَّحمة :

أَخَـاكَ مَـنْ عَـزَّ قَـدْراً أَنْ يَكُـونَ لَـهُ أَخٌ سِـوَاكَ إِذَا دَاعِـي الإِخَـاءِ دَعَـا

وعن سهلِ بنِ سعدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قالَ يومَ فتح (خيبر) : « لأُعْطِيَنَّ هَـٰذِهِ الرَّايَةَ رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَىٰ يَدَيْه ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُه » . قال : فباتَ النّاسُ يذكرونَ أَيّهم يُعطاها . فلمّا أَصبحَ النّاس. . غَدوا علىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كلُّهم يَرجو أَنْ يُعطاها ، فقال : « أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب ؟ » فقيل : هوَ يشتكي عينيهِ ـ ودعا لَهُ فبرىءَ[1] كأَنْ لَم يكنْ بهِ وَجَعٌ ـ فأَعطاهُ الرّاية ، فقالَ علي : يا رسولَ الله ؛ أُقاتِلُهم حتَّىٰ يكونوا مِثلَنا ؟ قال : « انفذ علىٰ رسلكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِم ، ثُمَّ ادْعُهُم إِلَى الإِسْلاَم ، وَأَخْبِرْهُم بِمَا يَجبُ عَلَيْهِم

(١) وللهِ درُّ البوصيري حيثُ يقول :

وعلـــي لمـــا تفلـــت بعينيـــه وكلتـــاهمـــا معـــاً رمـــداء
فغـــدا نـــاظـــراً بعينـــي عقـــاب فـــي غـــزاة لهـــا العقـــاب لـــواء

اهـ منه .

مِنْ حَقِّ الله ، فَوَاللهِ لَئِنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً . . خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعم » .

وكانَ الخلقُ يَحتاجونَ إِلىٰ علمِ عليٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ ، حتَّىٰ قالَ عمرُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ : آهِ مِنْ مُعضلةٍ ليسَ فيها أَبو الحسن .

فلمّا ولي الخلافة . . لَم يتغيَّرْ عنِ الزُّهدِ في الدُّنيا . وكانَ أَحمدُ ابنُ حنبل رحمَهُ اللهُ يقول : إنَّ علياً ما زانتهُ الخلافةُ بل هوَ زانَها .

مَـــا زَانَـــهُ الْمُلْـــكُ إِذْ حَـــوَاهُ ... بَـــلْ كُـــلُّ شَـــيءٍ بِـــهِ يُـــزَانُ
جَـــرَىٰ فَفَـــاقَ الْمُلُـــوكَ سَبْقـــاً ... فَلَيْـــسَ قُـــدَّامَـــهُ عَنَـــانُ

وروىٰ عطاءٌ عنِ ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما في قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ الآياتُ في سورةِ (هل أتى) : أَنَّها نزلَتْ في عليٍّ ابنِ أَبي طالب ، آجَرَ نَفْسَهُ يَسقي نخلاً بشيءٍ مِنْ شعيرٍ ليلةً حتَّىٰ أَصبح ، فلمّا قبضَ الشَّعير . . طَبخوا ثُلثَهُ وأَصلَحوا منهُ ما يأْكلون ، فلمّا استوىٰ . . رأَىٰ مسكيناً فأَخْرَجَهُ إِليه . ثمَّ عَمِلوا الثُّلثَ الثّاني ، فلمّا تمَّ أَتَىٰ يتيم . . فأَطعموه . ثمَّ عَمِلوا الباقي ، فلمّا تمّ . . أَتَىٰ أَسيرٌ مِنَ المشركينَ فأَطعموه ، وطووا ـ أَي : باتوا ـ جياعاً ، فنزلت هـٰذهِ الآية : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ .

ولله در القائل :

إِلاَمَ أُلاَمُ وَحَتَّـــــىٰ مَتَـــــىٰ ... أُعَنَّـفُ فِـي حُـبِّ هَـٰذَا الْفَتَـىٰ
فَهَـــلْ زُوِّجَـــتْ فَـــاطِـــمٌ غَيْـــرَهُ ... وَفِـي غَيْـرِهِ هَـلْ أَتَـىٰ ﴿هَـلْ أَتَـىٰ﴾

وكذا القائل :

أَهْـــوَىٰ عَلِيّـــاً وَإِيمَـــانِـــي مَحَبَّتُـــهُ ... كَـمْ مُشْـرِكٍ دَمُـهُ مِـنْ سَيْفِـهِ وَكَفَـا
إِنْ كُنْـتَ وَيْحَـكَ لَـمْ تَسْمَـعْ مَنَـاقِبَـهُ ... فَاسْمَعْ مَنَاقِبَهُ مِنْ ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ وَكَفَىٰ

وروى الكلبيُّ عن أَبي صالح ، قال : قالَ معاويةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ لِضرار بن ضمرة : صِفْ لِيَ علياً .

فقال : أَوَ تعفيني ؟ قال : بل تَصِفُه .

قال : أَوَ تعفيني ؟ قالَ : لا أَعفيك .

قال : أَمّا إذ لا بد . . فإنَّهُ ـ واللهِ ـ كانَ بعيدَ المدىٰ ، شديدَ القوىٰ ، يقولُ فصلاً ويَحكمُ عدلاً ، يتفجَّرُ العلمُ مِنْ جوانبه ، وتنطقُ الحكمةُ مِنْ نواحيه ، يتوحَّشُ مِنَ الدُّنيا وزهرتِها ، ويَستأْنسُ باللَّيلِ وظُلمته .

كانَ ـ واللهِ ـ غزيرَ الدَّمعةِ طويلَ الفكرة ، يُقلِّبُ كفَّهُ ويخاطبُ نَفْسَه . يُعجبهُ مِنَ اللِّباسِ ما خشن ، ومِنَ الطَّعامِ ما جشبَ[1] .

كانَ ـ واللهِ ـ كأَحدِنا ، يُجيبنا إِذا سأْلناه ، ويَبتدئُنا إذا أَتيناه ، ويأْتِينا إذا دعوناه . ونحنُ ـ واللهِ ـ معَ تقريبِهِ لَنا وقُربهِ منّا لا نُكلِّمهُ ؛ لهيبتهِ ، ولا نبتديه ؛ لِعظمَته .

يُعظِّمُ أَهلَ الدِّين ، ويُحبُّ المساكين ، لا يَطْمَعُ القويُّ في باطله ، ولا ييأسُ الضَّعيفُ مِنْ عَدْله .

وأَشهدُ باللهِ لرأَيتُهُ في بعضِ مواقفهِ وقد أَرخى اللَّيلُ سدولهُ وغارت نجومُه ، وقد مَثلَ في محرابهِ قابضاً علىٰ لحيته ، يتململُ تململَ السَّليمِ[2] ، ويَبكي بكاءَ الحزين ، وكأَنِّي أَسمعُهُ وهوَ يقول : يا دنيا ؛ أَلي تَعرَّضت ، أَم إِليَّ تَشوَّفتِ ؟ هيهاتَ هيهاتَ! غُرِّي غيري ، قد بتَتُّكِ ثلاثاً لا رجعةَ لي فيك ؛ فعمركِ قصير ، وعيشكِ حقير ، وخطركِ كبير . آهِ مِنْ قلَّةِ الزَّاد ، وبُعْدِ السَّفر ، ووحشةِ الطَّريق .

قال : فذَرَفَتْ عيونُ معاويةَ فما يملكها وهوَ يُنَشِّفها بكُمِّه ، وقدِ اختنقَ القومُ بالبكاء ، فقالَ معاوية : رحمَ اللهُ أَبا الحسن ؛ كانَ ـ واللهِ ـ كذلك . فكيفَ حُزنكَ عليهِ يا ضرار ؟

قال : حزنُ مَنْ ذُبحَ ولدُها في حِجرِها ، فلا ترقأُ عبرتُها ولا تسكنُ حسرتُها . اهـ بزيادة .

---

(١) قوله : جشب ، أي : غلظ أو بلا أدم . اهـ منه .

(٢) السليم : اللديغ . اهـ منه .

وذكرَ الوالدُ عليهِ الرَّحمةُ في شرحهِ لـ« عينيّةِ الفاروقي » المبرور عبدِ الباقي لقوله :

أَنْتَ الْعَلِيُّ الَّذِي فَوْقَ الْعُلاَ رُفِعَا ... بِبَطْنِ (مَكَّة) وَسْطَ الْبَيْتِ إِذْ وُضِعَا

وفي كونِ الأَميرِ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَهُ وُلِدَ في البيتِ أَمرٌ مشهور ، فعن عليِّ بنِ الحسينِ قال : كنّا عندَ الحسينِ في بعضِ الأَيّام ، وإذا بنسوةٍ مجتمعاتٍ فأَقبلتِ امرأَةٌ منهنَّ علينا ، فقلتُ لَها : مَنْ أَنت ؟

فقالت : زيدةُ بنتُ العجلان ، مِنْ بني ساعدة .

فقلت : هل عندكِ شيءٌ تُحدِّثينا به ؟

قالت : إِي والله : حدَّثتني بنتُ أُمِّ عمارةَ بنتِ عبادةَ بنِ نضلةَ : أَنَّها كانت ذاتَ يومٍ في نساءِ العربِ إذ أَقبلَ أَبو طالبٍ كئيباً حزيناً ، فقلتُ لَه : ما شأْنك ؟ قال : إنَّ فاطمةَ بنت أَسدٍ في شدَّةٍ مِنَ الطَّلق . ثمَّ إنَّهُ أَخذَ بيدِها وجاءَ بها إلى الكعبةِ ، فدخلَ بها ، فأَجلَسَها فطلقت طلقةً واحدة ، فولَدَتْ علياً كرَّمَ اللهُ وجهَهُ غلاماً نظيفاً لَم أَرَ أَحسنَ منهُ وجهاً ، وسمّاهُ علياً ، وأَنشدَه :

سَمَّيْتُـهُ بِعَلِـيٍّ كَـي يَـدُومَ لَـهُ ... مِـنَ الْعُلُـوِّ وَفَخْـرُ الْعِـزِّ أَدْوَمُـهُ

وجاءَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وحملَهُ إِلىٰ مَنْزِل أُمِّه . ذَكَرَ ذلكَ في « الفصولِ المهمَّة » .

وقد توفِّيَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ سنةَ أَربعينَ مِنَ الهجرة . قالَ مُحَمَّدُ بنُ عبدونَ في قصيدته :

وَأَجْزَرَتْ سَيْفُ أَشْقَاهَا أَبَا حَسَنٍ ... وَأَمْكَنَـتْ مِـنْ حُسَيـنٍ راحَتـي شَمِـرِ

وَلَيْتَهَـا إِذْ فَـدَتْ عَمْـراً بِخَـارِجَـةٍ ... فَـدَتْ عَلِيّاً بِمَـنْ شَـاءَتْ مِـنَ الْبَشَـرِ

قالَ الشّارح : أَشقاها : هوَ عبدُ الرَّحمـٰنِ بنُ ملجم . وسمّاهُ بذلكَ ؛ لقولِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « يا عَلِي ؛ أَشْقَاهَا الَّذِي يُخَضِّبُ هَـٰذِهِ مِنْ هَـٰذِه » . وأَشارَ إِلىٰ لحيةِ عَلِيٍّ ورأْسِه .

وكانَ سببُ قتلِهِ لعليٍّ كَرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَهُ علىٰ ما ذكر : أَنَّ الخوارجَ قالت : إِنَّ علياً ومعاويةَ قد أفسدا أَمرَ هـٰذهِ الأُمَّة ، فلو قَتلناهُما . لعادَ الأَمرُ إِلىٰ خفة .

فقالَ رجل : والله ، ما عَمرو بدونهِما ، وإِنَّهُ لأَصلُ هـٰذا الفساد .

فقالَ ابنُ ملجم : أَنا أَقتلُ علياً . وقالَ الحجّاجُ بنُ عبدِ الله : أَنا أَقتلُ معاوية . وقالَ رادويه : أَنا أَقتلُ عمرَو بنَ العاصِي .

فأَجمَعوا رأْيَهُم علىٰ أَنْ يكونَ قتلُهُم لَهم ليلةَ إِحدىٰ وعشرينَ مِنْ شهرِ رمضان . وخرجَ كلُّ واحدٍ منهُم إِلىٰ ناحيةِ صاحبه ، وخرجَ ابنُ ملجمٍ تلكَ اللَّيلة ووقفَ علىٰ بابِ المسجدِ في (الكوفة) ، وكانَ عليٌّ يدخلُ مُغلِّساً فيوقظُ النّاسَ لِلصَّلاة ، فلمّا أَرادَ الدُّخول . . ضربَهُ ابنُ ملجمٍ علىٰ وسطِ رَأْسِهِ ، وأُخِذَ ابنُ ملجمٍ ـ عليهِ اللَّعنةُ ـ ثمَّ ماتَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ في اليومِ الثَّالث . ثمَّ قتلَ الحسنُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ ابنَ ملجم ، قيل : بعدَ أَنْ قُطعَتْ يداهُ ورجلاهُ ولسانُه . وكانَ عمرُ عليٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ ثلاثاً وستِّينَ سنة .

وقد اختُلفَ في محلِّ دفنه :

فمنهُم مَنْ قال : إِنَّهُ دُفنَ بمسجدِ (الكوفة) .

ومنهُم مَنْ قال : إِنَّهُ حُمِلَ إِلى (المدينة) وقبرهُ عندَ قبرِ فاطمةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنهَا .

وقيلَ غيرُ ذلك . **والمشهور** : أَنَّهُ في (النَّجَف) .

وحكىٰ أَبو بكر بنُ الأَصبغ ، قال : قَدِمَ علينا شيخٌ كبيرٌ شديدُ البياض ، يُشبهُ بياضُهُ بياضَ البرص ، يقالُ لَه : ابنُ الماء ، وكانَ غريباً . فذكر أَنَّهُ كانَ نصرانياً سنين ، وأَنَّهُ كانَ يتعبَّدُ في صومعته ، فبينا هوَ ذاتَ يومٍ في صومعتِهِ إِذ جاءَ طائرٌ كالنّسرِ ـ أَو كالكُرْكِي ـ فوقفَ عندَ الصَّومعة ، فتقيّأَ بِضَعَ لحمٍ ثمَّ نَقَرَها فالتأَمَتْ رجلاً ، ثمَّ نقرهُ فعادَ بضعاً ، ثمَّ ابتلَعها فطار . فجاءَ في اليومِ الثَّاني ففعلَ مِثلَ ذلك ، ثمَّ في اليومِ الثَّالث ، فلمّا التأَمتْ رجلاً . . قلت : سأَلتُكَ باللهِ مَنْ أَنتَ ؟ قال : أَنا عبدُ الرَّحمـٰنِ بنُ

ملجم ، قاتلُ عليٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ قد وكَّلَ اللهُ بي هـٰذا الطَّائرَ يفعلُ فيَّ ما تراهُ إِلَىٰ يومِ القيامة .

فسبحانَ مَنْ كسا أَهلَ البيتِ نوراً ، وجَعَلَ عليهِم خندقاً يقي الرِّجسَ وسُتوراً ، فإِذا تلقوا يومَ القيامة . . تلقوا حبوراً ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ .

اِدَّخرنا لكُم نعيماً مقيماً ، ومنحناكُم فضلاً جزيلاً عميماً ، وجزينا مَنْ كانَ لِلفقراءِ رحيماً . أَوَ ليسَ أَطعمتُم مسكيناً ويتيماً ، ورحمتُم مأْسوراً ؟ ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ .

مَنْ مِثلُ عليّ ، مَنْ مِثلُ فاطمة ؟ كم صبرا علىٰ أَمواجِ بلايا متلاطمة ، وآثَروا الفقراءَ ونارُ الجوعِ حاطمة ؟ فلهُم نضارةُ الوجوه ، والأَهوالُ لِلوجوهِ خاطمة . يا سرعةَ ما انقلبَ حزنُهم سروراً! ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ .

كانت فاطمةُ بنتُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَحبَّ النّاسِ إِليه ، وكانَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَعزَّ الخلقِ عليه ، وجعلَ اللهُ ريحانتيهِ مِنَ الدُّنيا ولديه ، فإِذا أَحضرَهُمُ الحقُّ غداً عندَهُ ولديه . . أَكرمَهُم إِكراماً عظيماً موفوراً ، ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ .

واعجبـاً ؛ ذكـرَ فـي هـٰـذهِ الآيـاتِ نعيـمَ الجنّـاتِ مِـنَ الملبـوسِ والمشـروبِ والمطعومات ، والأَرائِكِ والقصورِ والعيونِ الجاريات ، ولَم يذكرِ النِّساءَ وهُنَّ غايةُ اللَّذاتْ ؛ اِحتراماً لفاطمةَ أَشرفِ البنات ، ومَنْ يصفُ الزَّهراء . . لا يَذكرُ حوراً ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ .

اللَّهُم ؛ خَلَقْتَنا مُسلِمينَ فسلِّمنا مِنْ عذابِك ، وجعلتَنا مؤمنينَ فآمِنّا مِنْ عقابِك .

اللَّهُم ؛ اجعلْنا في حزبِ آلِ نبيِّك ، وتوفَّنا علىٰ كمالِ حُبِّ حبيبِكَ وخليلك .

اللَّهُم ؛ إِنْ نظرنا إِلىٰ فضلِك . . فالعجبُ ممَّنْ هَلَك ، كيفَ هلك ؟! وإِنْ نظرنا إِلىٰ عدلِك . . فالعجبُ ممَّن نجا ، كيفَ نجا ؟!

اللَّهُم ؛ إِنْ حاسبتَنا بفضلِك . . نلنا رضوانَك ، وإِنْ حاسبتَنا بعدلِك . . لَم نَنَلْ غفرانَك .

اللَّهُم ؛ إِنْ كنّا قد عصيناكَ بجهل . . فقد دعوناكَ بعقل ؛ حيثُ عَلِمنا أَنَّ لَنا ربّاً يغفرُ الذُّنوبَ ولا يُبالي .

اللَّهُم ؛ أَنتَ العالِمُ بالحالِ مِنْ قَبْلِ الشَّكوىٰ ، وأَنتَ قادرٌ علىٰ تحقيقِ الآمالِ وكشفِ البلوىٰ .

اللَّهُم ؛ أَنتَ ملاذُنا إِذا ضاقتِ الحيل ، وملجؤُنا إِذا انقطعَ الأَمل ، بذِكرِكَ نفتخر ، وإِلىٰ جودِكَ نفتقر :

بِـذِكْـرِكَ يَـا مَـوْلَـى الْـوَرَىٰ نَتَنَعَّـمُ ... وَقَدْ خَابَ قَوْمٌ عَنْ سَبِيلِكَ قَدْ عَمُوا

شَهِـدْنَـا يَقِينـاً أَنَّ عِلْمَـكَ وَاسِـعٌ ... فَـأَنْـتَ تَـرَىٰ مَـا فِـي الْقُلُـوبِ وَتَعْلَـمُ

إِلَـٰهِـي تَحَمَّلْنَـا ذُنُـوبـاً عَظِيمَـةً ... أَسَـأْنَـا وَقَصَّـرنَـا وَجُـودُكَ أَعْظَـمُ

سَتَـرْنَـا مَعَـاصِينَـا عَـنِ الْخَلْـقِ غَفْلَـةً ... وَأَنْـتَ تَـرَانَـا ثُـمَّ تَعْفُـو وَتَـرْحَـمُ

وَحَقِّـكَ مَـا فِينَـا مُسِـيءٌ يَسُـرُّهُ ... صُـدُودُكَ عَنْـهُ بَـلْ يَخَـافُ وَيَنْـدَمُ

إِلَـٰهِـي فَجُـدْ وَاصْفَـحْ وَأَصْلِحْ قُلُـوبَنَـا ... فَـأَنْـتَ الَّـذِي تُـولِـي الْجَمِيـلَ وَتُكْـرِمُ

أَلَسْـتَ الَّـذِي قَـرَّبْـتَ قَـوْمـاً فَـوَافَقُـوا ... وَوَفَّقْتَهُـم حَتَّـىٰ أَنَـابُـوا وَأَسْلَمُـوا

لَهُـمْ فِـي الـدُّجَـا أُنْـسٌ بِـذِكْـرِكَ دَائِمـاً ... فَهُـمْ فِـي اللَّيَـالِـي سَـاجِـدُونَ وَقُـوَّمُ

لَـكَ الْحَمْـدُ عَـامِلْنَـا بِمَـا أَنْـتَ أَهْلُـهُ ... وَسَـامِـحْ وَسَلِّمْنَـا فَـأَنْـتَ الْمُسَلِّـمُ

* * *

المجلس الحادي والأربعون

في حديث « لا عدوىٰ ولا صفر » ، وفي الأيام

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

اَلحمدُ للهِ الَّذي لِقدرتهِ يخضعُ مَنْ يَعبد ، ولهيبتهِ ولِعظمَتهِ يَخشعُ مَنْ يَركعُ ويَسجد ، ولِطِيبِ مناجاتهِ يَسهرُ العابدُ ولا يَرقد ، ولِطلبِ ثوابهِ يقومُ المصلِّي ويقعد . يَجلُّ كلامُهُ عن أَنْ يُقال : مخلوق ، ويَبعد ، فذو التَّسليمِ لِصفاتهِ مستقيم ، فمَنْ شبَّهَ أَو عطَّل . . لَم يَرشد . ما جاءَ في القرآن . . قَبِلْنا ، أَو في السُّنَّة . . لَم نَردد .

أَليسَ هـٰذا اعتقادكُم يا أَهلَ الخير ؟!

وكيفَ لا أَتفقَّدُ العقائدَ خوفاً مِنَ الضَّيْر ؟! فإِنَّ سليمانَ تفقَّدَ الطَّيْر ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ .

أَحمدُهُ حَمْدَ مَنْ يَرشُدُ بالوقوفِ ولا يشْرُد . وأُصلِّي على رسولهِ مُحَمَّدٍ الَّذي قيلَ لحاسده : فليَمْدُد . صلَّى اللهُ تَعالىٰ عليهِ وعلى الصِّدّيقِ الَّذي في قلوبِ مُحبِّهِ فرحات ، وفي صدورِ مبغضهِ ترحاتٌ لا تنفد ، وعلىٰ عمرَ الَّذي لَم يَزلْ يُقوِّي الإِسلامَ ويَعضد ، وعلىٰ عثمانَ الَّذي جاءَتْهُ الشَّهادةُ فلَم يَردد ، وعلىٰ عليٍّ الَّذي ينسفُ زَرْعَ الكفرِ بسيفهِ ويَحصد ، وعلىٰ سائرِ آلهِ وأَصحابه ، صلاةً دائمةً مستمرَّةً لقائِلها تعضد ، وسلِّم تسليماً .

أَمَّا بعد : فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ رحمَهُما اللهُ تعالىٰ في « صحيحيهما » عن أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « لاَ عَدْوَىٰ ، وَلاَ هَامَةَ ، وَلاَ صَفَرَ » . فقالَ أَعرابي : يا رسولَ الله ؛ فما بالُ الإِبلِ تكونُ في الرَّملِ كأَنَّها

الظِّباء ، فيخالطُها البعيرُ الأَجربُ فيجربها ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّل » ؟

فأَقولُ ـ وباللهِ تعالى التَّوفيقُ ـ : قد وردَ هٰذا الحديثُ برواياتٍ متعدِّدة :

ففي « المشارق » للصغاني ـ رامزاً لِلبخاريِّ ـ عن أَبي هريرة رضي الله عنه : « لاَ طِيرةَ ، وخيرها الفأل » ورامزاً لِلبخاريِّ ومسلم « لا عدوىٰ ، ولا طيرة ، ولا غول » .

وفي « الجامعِ الصَّغير » لِلسُّيوطيّ ـ رامزاً لـ« مسندِ الإمامِ أَحمد » ولمسلمٍ ـ عن جابرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنهما : « لا عَدْوَىٰ ، وَلاَ طِيَرَة ، وَلاَ هَامَة ، وَلاَ صَفَر ، وَلاَ غُول » اهـ

وفِي كتاب « الآثار » لِلطَّحاويّ عنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « العِيافَةُ وَالطِّيَرَةُ وَالطَّرْقُ مِنَ الْجبْت » أَي : الشِّرك .

قالَ العلماءُ رحمَهُم اللهُ تعالىٰ : أَمَّا العدوىٰ ـ بفتحِ العَين ـ : اسمٌ مِنَ الإعداء ، وهوَ مجاوزةُ العلَّةِ مِنْ صاحبِها إِلىٰ غيره . فمعناها : أَنَّ المرضَ يتعدَّىٰ مِنْ صاحبِهِ إِلىٰ مَنْ يُقاربُهُ مِنَ الأَصحاءِ فيمرضُ بذلك .

وكانتِ العربُ تَعتقدُ العدوىٰ في أَمراضٍ كثيرة ، مِنها : الجرب ، ولذلكَ سأَلَ الأَعرابيُّ عنِ الإبلِ الصَّحيحةِ يخالطُها البعيرُ الأَجربُ فتَجرب ، فقالَ النَّبيُّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّل ؟ » ؛ أَي : إِنَّ الأَوّلَ لَم يَجربْ بالعدوىٰ ، بل بقضاءِ اللهِ تعالىٰ وقَدَرِه ، فكذلكَ الثَّاني وما بعدَه .

قالَ الشَّيخُ أَحمدُ الحنبليُّ الحمويُّ في كتابهِ « عقد الدرر » : وقد وردت أَحاديثُ أَشكلَ علىٰ كثيرٍ مِنَ النَّاسِ بعضُها حتَّىٰ ظَنَّ بعضُهم أَنَّها ناسخةٌ لِقولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « لا عدوىٰ » ففي « الصَّحيحين » عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « لاَ يورد ممرض علىٰ مصح » . والممرض : صاحبُ الإِبلِ المريضة . والمصح : صاحبُ الإبلِ الصَّحيحة .

والمراد : النَّهيُ عن إِيرادِ الإِبلِ المريضةِ على الصَّحيحة .

ومِثلُه : قولُهُ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّم : « فِرَّ مِنَ الْمَجْذُوم فِرَارَكَ مِنَ الأَسَد » .

وقـولـهُ عَلَيْـهِ الصَّـلاَةُ والسَّـلاَمُ فـي الطّـاعـون : « إِذَا سَمِعْتُـم بِـهِ بِـأَرْض. . فَـلاَ تَدْخُلُوهَا » .

ودخولُ النَّسخِ في هـٰذا لا معنىٰ لَه ؛ فإِنَّ قولَهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « لاَ عَدْوَىٰ » خبر ، وهوَ لا يُمكنُ أَنْ يكونَ ناسخاً لِلنَّهي في هـٰذِهِ الأَحاديثِ الثَّلاثةِ وما في معناها ، **فالصَّحيحُ** الَّذي عليهِ الجمهورُ مِنَ العلماءِ أَنَّهُ لا نَسْخَ في ذلك .

واختلَفوا في معنىٰ قولهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « لاَ عَدْوَىٰ » علىٰ أَقوال ، وأَظهرُها : أَنَّها نفي لما يَعتقدُهُ أَهلُ الجاهليةِ مِنْ أَنَّ هـٰذِهِ الأَمراضَ تُعدي بطبعِها ، مِنْ غيرِ اعتقادٍ بقَدَرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لذلك . ويدلُّ عليهِ قولهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّل » ؟

قلت : مِنَ الأَمراضِ المعديةِ ـ كما قيلَ ـ : الجرب ، والحصبة ، والبرص ، والوباء. . وغيرُها ممّا هوَ مذكورٌ في عِلمِ الطِّب .

وأَما نهيهُ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّمَ عن إيرادِ الممرضِ على المصحّ ، وأَمرُهُ بالفرارِ مِنَ المجذوم ، ونهيهُ عنِ الدُّخولِ إِلىٰ موضعِ الطَّاعون. . فإِنَّهُ مِنْ بابِ اجتنابِ الأَسبابِ الَّتي هيَ سببُ البلاءِ إِذا كانَ في عافيةٍ مِنها ، فكما أَنَّهُ مأْمورٌ أَنْ لا يُلقي نَفْسَهُ في الماءِ أَو في النّار ، أَو يدخلَ تحتَ الهدمِ ونحوهِ ممّا جرت بهِ العادةُ أَنَّهُ مهلك. . فكذلكَ اجتنابُ مقاربةِ المجذومِ والقدومُ علىٰ بلدٍ فيهِ الطَّاعون ؛ فإِنَّ هـٰذِهِ كلّها أَسبابُ المرضِ والتَّلف ، واللهُ تعالىٰ هوَ خالقُ الأَسبابِ ومسبّباتِها ، لا خالقَ ولا مقدِّرَ غيره .

وقد روىٰ أَبو داوودَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ مرَّ بحائطٍ مائلٍ فأَسرع ، وقال : « أَخَافُ مَوْتَ الْفَوَات » .

فإِنْ قلت : روىٰ جابرٌ أَنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ أَكلَ معَ مجذوم ، فما وجههُ ؟

. . **قُلنا** : حالُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَقوىٰ مِنْ حالِ الأُمم ، فجازَ أَنْ لا يُخافَ عليهِ ممّا يُخافُ علىٰ غيرهِ مِنَ العللِ المعدية . وقد روىٰ أَبو دَاوودَ والتِّرمذيُّ

أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم لمّا أَكل . . قال : « بِسْمِ اللهِ ثِقَةً باللهِ وتَوَكُّلاً عَلَيْه » . معَ أَنَّ الأَنبياءَ معصومونَ مِنْ مثلِ هـٰذهِ الأَمراضِ المنفِّرة .

قالوا : ونظيرُ ذلكَ ما رويَ عن خالدِ بنِ الوليدِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ مِنْ شربِ السُّم ، فهـٰذا لا يصلحُ إلاَّ لِلخواصِ الكاملِ توكُّلُهم .

ومِنْ هـٰذا : قولُ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ لمّا أُلقيَ في النّارِ فعرضَ لَهُ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فقال : أَلَكَ حاجةٌ ؟ قال : أَمَّا إِليك . . فلا .

وأَمّا الطِّيَرَةُ ـ بكسرِ الطّاءِ وفتحِ الياءِ ـ : اسمُ ما يُتَشَاءمُ . كذا في « الصِّحاح » .

وفي « النِّهاية » : إِنَّهُ مصدرُ تطيَّر ، كما يقال : تخيَّرَ خيرة .

وقالَ المناوي : هي التَّفاؤُلُ بالطَّيْر ، وكانوا يتفاءَلونَ بأَسمائِها وأَصواتِها .

قالَ ابنُ ملك في « شرحِ المشارق » : كانَ أَهلُ الجاهليَّةِ إِذا قَصدوا إِلىٰ حاجةٍ وأَتىٰ مِنَ الجانبِ الأَيسرِ طيرٌ أَو غيرُه . . يتشاءَمُ بهِ فيرجعُ القاصد ، فأَبطلَها النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ بهـٰذا الحديثِ المتقدِّم ، وقال : « وخيرها » أَي : خيرُ الطِّيَرة : « الفأْل » بسكونِ الهمزةِ وربَّما يخففها . فسَّره النَّبيُّ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّمَ بالكلمةِ الصَّالحةِ المسموعةِ علىٰ قصدِ التَّفاؤُل ؛ كسماعِ مريض : يا سالم . ولهـٰذا جاءَ في الخبرِ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ (كانَ يتفاءلُ ولا يَتَطيَّر) و(كانَ يُحبُّ إِذا خرجَ لحاجةٍ أَنْ يَسمع : يا راشد) .

قالَ أَبو جعفر الطَّحاوي : **فإِنْ قيل** : قد روى ابنُ عمرَ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « إِنَّمَا الشُّؤْمُ فِي ثَلاَثَة : فِي الْمَرْأَة ، وَالْفَرَس ، وَالدَّار » .

فالجواب : أَنَّ جماعةً رووا أَنَّهُ قال : « إِنْ كانتِ الطِّيرةُ في شيء . . ففي المرأَةِ والدَّارِ والفرس » أَي : لَو كانت تكونُ في شيء . . لكانت في هـٰؤلاء ، فإِذا لَم تكنْ في هـٰؤلاء . . فليست في شيء .

وقالت عائشة : إِنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « إِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَتَطَيَّرُونَ مِنْ ذَلِك » اهـ

فائدة : في مراسيلِ أَبي داوود أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « لَيْسَ عَبْدٌ لاَ يَدْخُلُ قَلْبَهُ الطِّيَرَة ، فَإِذَا أَحسَّ بِذَلِك . . فَلْيَقُل : أَنَا عَبْدُ الله ، مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله ، لاَ يَأْتِي بِالْحَسَناتِ إِلاَّ الله ، وَلاَ يُذْهِبُ السَّيِّئاتِ إِلاَّ الله ، أَشْهَدُ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِير . ثُمَّ يَمْضِي لِوَجْهِه » .

وقالَ النَّخعي : [معنىٰ] هـٰذا أَنَّ مَنْ تطيَّرَ تطيُّراً منهيّاً عنه ، أَو يراهُ ممّا يتطيَّرُ بهِ حتَّىٰ يمنعُهُ ممّا يريدُهُ مِنْ حاجته ؛ فإِنَّهُ قد يصيبُهُ ما يكرهُه . فأَمَّا مَنْ توكَّلَ على اللهِ عزَّ وجل ، ووثِقَ به ؛ بحيثُ علَّقَ قلبَهُ باللهِ خوفاً ورجاءً وقطعَهُ عنِ الالتفاتِ إِلىٰ هـٰذهِ الأَسبابِ المخوِّفة ، وقالَ ما أُمرَ بهِ مِنْ هـٰذهِ الكلماتِ ومضىٰ . . فإِنَّهُ لا يَضرُّه .

وأَمّا قولُهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « وَلاَ هَامَة » ـ بتخفيفِ الميمِ على الصَّحيح ، وحكىٰ أَبو زيدٍ تشديدَها ـ وهي علىٰ زعمِ العربِ الجاهليّة : دابّةٌ تخرجُ مِنْ رأْسِ القتيلِ أَو تتولَّدُ مِنْ دمه ، فلا تزالُ تصيحُ حتَّىٰ يؤخذَ بثأْره .

وقالَ المناوي : والهامةُ طائرٌ كبير ، يضعفُ بصرهُ بالنَّهار ، ويطيرُ باللَّيلِ ويُصوِّتُ فيه . ويقالُ له : بومٌ والناسُ يتشاءمونَ بصوته .

ومِنْ زعماتِ العرب : أَنَّ روحَ القتيلِ الَّذي لا يُدرَكُ ثأْرُهُ تصيرُ هامة ، وتقول : اسقوني . فإِذا أُدرِكَ ثأْره . . طارت! فأَكذبهُمُ الشَّارعُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم .

وأَمّا قولُهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « ولا غول » .

قالَ المناوي : هوَ بالفتحِ مصدر ، معناه : البعدُ والهلاك . وبالضَّم : الاسم ، وهوَ مِنَ السَّعال . وجمعهُ أَغوالٌ وغيلان .

يحتملُ أَنْ يرادَ بهِ نفيهُ رأساً ، أَو أَنَّ المرادَ نفيهُ على الوجهِ الَّذي يَزعمونَه ؛ فإِنَّهُم يقولون : هوَ ضربٌ مِنَ الجن ، تتغوّلُ ـ أَي : تتلوّنُ ـ لمَنْ يمشي وحدَهُ في فلاةٍ أَو في اللَّيلةِ اللَّيلاءِ وتمشي قدّامَه ، فيظنُّ الماشي خلفَهُ أَنَّهُ إِنسانٌ فيتبعهُ فيقعُ في الهلاكِ . اهـ

قالَ في « شرحِ المشارق » : فإِنْ قيل : ما معنى النَّفي وقد قالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « إِذَا تَغَوَّلَتِ الغيلان . . فَعَلَيْكُم بِالأَذَان » ؟

. . أُجيبَ بأَنَّهُ كانَ ذلكَ في الابتداء ، ثمَّ رفعَهُ اللهُ تعالىٰ عن عباده . أَو يقال : إِنَّ المنفيَّ ليسَ وجودَ الغول ، بلِ المنفيُّ تصرُّفُهُ في نَفْسهِ بزعمِ الجاهليَّة .

وقولُهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « وَلا صفر » ـ بفتح الصاد والفاء ـ فقدِ اختُلفَ في تفسيره :

فقالَ كثيرٌ مِنَ المتقدِّمين : إِنَّهُ دابَّةٌ في البطن ، يقال : إِنَّها دودٌ كبارٌ كالحيَّات ، وكانوا يعتقدونَ أَنَّهُ يُعدي فنفى النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ ذلك . ونسبَهُ في « عقدِ الدُّرر » إِلى الإِمامِ أَحمدَ وابنِ عيينةَ وغيرِهما .

وقالت طائفة : المرادُ بهِ شهرُ صفر .

ثمَّ اختلَفوا علىٰ قولَين :

أَحدُهما : وهوَ المرويُّ عن مالك : أَنَّ المرادَ نفيُ ما كانَ أَهلُ الجاهليَّةِ يفعلونَهُ في النَّسيء ، كما حكىٰ ذلكَ عنهُم سبحانَهُ وتعالىٰ بقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ الآية . والنسء لغة : التّأْخير .

والمرادُ هنا : تأْخيرُ شهرٍ إِلىٰ شهرٍ آخَر ، فقد كانتِ العربُ تعتقدُ تعظيمَ الأشهرِ الحرم ـ وهي : رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجَّة ، ومحرَّم . وكانَ ذلكَ ممّا تمسَّكت بهِ مِنْ ملَّةِ إِبراهيمَ عليهِ السَّلام ، وكانت عامَّةُ معايشهِم مِنَ الصَّيدِ والغارة ، وكانَ يشقُّ عليهِمُ الكفُّ عن ذلكَ ثلاثةَ أشهرٍ على التَّوالي ، وكانوا يُؤَخِّرونَ تحريمَ المحرَّمِ إِلىٰ صفر ويَستحلُّونَ المحرَّم .

والقولُ الثّاني ـ وهوَ الَّذي حكاهُ داوودُ عن مُحَمَّدِ بنِ راشدِ المكحوليّ ـ : أَنَّ أَهلَ الجاهليَّةِ كانوا يَتشاءَمونَ بصفر ، ويقولون : إِنَّهُ مشؤوم ، فأَبطلَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ ذلك .

تتمَّة : فلنذكر أَشياءَ ممّا يَتشاءَمُ منها النّاسُ أَو يَلحقهُم منها مكروه :

فمن ذلك : تشاؤُمُ أَهلِ الجاهليَّةِ بِشوّال في النِّكاحِ فيهِ خاصَّة . وقد قيل : إِنَّ

طاعوناً وقعَ في شوّال في سنةٍ مِنَ السِّنين ، فماتَ فيهِ كثيرٌ مِنَ الخَلْقِ العرائس ، فتشاءَمَ بذلكَ أَهلُ الجاهليّة .

وقد وردَ الشَّرعُ بإِبطاله : قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا : تزوَّجني رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ في شوّال وبنىٰ في شوَّال ، فأَيُّ نسائهِ كانت أَحظىٰ عندَهُ مِنِّي ؟

وكانت عائشةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا تحبُّ أَنْ تُدخلَ نساءَها في شوَّال .

وتزوَّجَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ أُمَّ سلمةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا أَيضاً في شوَّال .

ومِنْ ذلك : تشاؤُمُ النّاسِ في أَيّامِ العجائِزِ ـ ويقالُ لَها : العجوز ـ في آخِرِ الشِّتاء ، وترك الأسفار ونحوها فيها .

وكذلكَ عندَ نزولِ القمرِ العقربَ ، وقد أَخرجَ الخطيبُ في « التّاريخ » أَنَّ عليّاً كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَهُ كَرِهَ أَنْ يتزوَّجَ الرَّجُلُ أَو يُسافرَ في الْمحاق ، أَو إِذا نَزَلَ القمرُ العقرب .

قال : والمحاق إِذا بقيَ مِنَ الشَّهرِ يومٌ أَو يومان .

وكذلكَ السَّفرُ يومَ الأَحد ، وفي الأَثر : نعوذُ باللهِ مِنْ يومِ الأَحد ؛ فإِنَّ لَهُ حدّاً أَحدُّ مِنَ السَّيف . قالَهُ المناوي ، وفيهِ ما سيأْتي .

ومِنْ ذلك : التَّشاؤُمُ بيومِ الأَربعاء .

قالَ الوالدُ عليهِ الرَّحمةُ عندَ تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ ما ملخَّصُه :

الصَّرْصَر : الرِّيحُ الباردة . وقيل : شديدةُ الصَّوت . و﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ أَي : مشؤوم عليهم ذلكَ ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ ذلك الشؤم ؛ لأَنَّهم بعدَ أَنْ أُهلِكوا لَم يَزالوا معذَّبينَ في البرزخِ حتَّىٰ يَدخلوا جهنَّم ، والمشهورُ أَنَّهُ يومُ الأَربعاء .

وقرأَ الحسن : ﴿ يَوْمِ نَحِسٍ ﴾ بتنوين (يوم) وكسر حاء (نحس) وجعله صفة ليوم ، فيتعيَّنُ كونُ (مستمر) صفةً ثانيةً لَه[1] .

---

(١) وهي قراءة شاذة .

وأَيَّدَ بعضُهم بالآيةِ ما أَخرَجَهُ وكيع ، وابنُ مردويه ، والخطيبُ البغداديُّ عنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما مرفوعاً : « آخِرُ أَرْبِعَاء فِي الشَّهْرِ يَوْمُ نَحْسٍ مُسْتَمِر » قالَ السَّخاوي : طُرقُهُ واهية . وضعَّفوا أَيضاً خبرَ الطَّبراني : « يَوْمُ الأَرْبِعَاءِ يَوْمُ نَحْسٍ مُسْتَمِر » .

وفي « الفردوس » عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا مرفوعاً : « لَوْلاَ أَنْ تَكْرَهَ أُمَّتِي . لأَمَرْتُهَا أَنْ لاَ يُسَافِرُوا يَوْمَ الأَرْبِعَاء . وَأَحَبُّ الأَيّامِ إِليّ الشّخُوص فِيهَا : يَوْمُ الْخَمِيس » . قالَ الوالد : وهوَ غيرُ معلومِ الصّحّةِ عندي .

وأَخرجَ أَبو يعلىٰ عنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما : « يَوْمُ السَّبْتِ يَوْمُ مَكْرٍ وَخَدِيعةٍ ، وَيَوْمُ الأَحَدِ يَوْمُ غَرْسٍ وَبِناءٍ ، وَيَوْمُ الإِثْنَيْنِ يَوْمُ سَفَرٍ وَطَلَبِ رِزْقٍ ، وَيَوْمُ الثَّلاَثَاءِ يَوْمُ حَدِيدٍ وَبَأْسٍ ، وَيَوْمُ الأَرْبِعَاءِ لاَ أَخْذٌ وَلاَ عَطَاءٌ ، وَيَوْمُ الْخَمِيسِ يَوْمُ طَلَبِ الْحَوائِجِ وَالدُّخُولِ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَالْجُمُعَةُ يَوْمُ خِطْبَةٍ وَنِكَاحٍ » . وتعقَّبهُ السَّخاويُّ بأَنَّ سندَهُ ضعيف .

وروى ابنُ ماجه عنِ ابنِ عمر رضي الله عنهما ـ مرفوعاً ـ وخرَّجَهُ الحاكمُ مِنْ طريقينِ آخَرين : « لاَ يَبْدُو جُذَامٌ وَلاَ بَرَصٌ إِلاَّ يَوْمَ الأَرْبِعَاء » .

وفي بعضِ الآثارِ النَّهيُ عن قصِّ الأَظفارِ في يومِ الأَربعاء ، وأَنَّهُ يُورثُ البرص . وكثيرٌ مِنَ النّاسِ تطيَّرَ مِنْ آخِرِ أَربعاءٍ وتَركوا السَّعيَ لمصالحِهم فيه ، ويقولونَ له : أَربعاءُ لا تدور . وعليهِ قولُ الشّاعر :

لِقَــاؤُكَ لِلْمُبَكِّــرِ فَــأْلُ سُــوءٍ   وَوَجْهُــكَ أَرْبِعَــاءٌ لاَ تَــدُورُ

وكرهَ بعضُهم عيادةَ المرضىٰ فيه ، وعليهِ قيل :

لَــمْ يُــؤْتَ فِــي الأَرْبِعَـا مَـرِيـضٌ   إِلاَّ دَفَنَّــاهُ فِــي الْخَمِيــسِ

وقالَ العلاَّمةُ ابنُ عابدين :

فائدة : يتشاءَمُ النّاسُ في زمانِنا مِنَ العيادةِ في يومِ الأَربعاء ، فينبغي تركُها إِذا كانَ يَحصلُ لِلمريضِ بذلكَ ضرر .

وعلىٰ نحوسته حَمَلَ بعضُهم بيتَ البوصيري :

لَـوْ أُرِيـدُوا فِـي حَـالِ سَبْـتٍ بِخَيْـرٍ كَـانَ سَبْتـاً لَـدَيْهِـمُ الأَرْبعَـاءُ

وكانتِ الجاهليَّةُ تقول : إِنَّهُ يومُ عطارد ، وهوَ نحسٌ معَ النُّحوسِ وسعدٌ معَ السُّعود . وهوَ قولٌ باطلٌ لِلمنجِّمين .

وجاءَ في بعضِ الأخبارِ ما يُشعِرُ بمدحِه : ففي « شُعَبِ البيهقي » أَنَّ الدُّعاءَ يُستجابُ يومَ الأَربعاءِ بعدَ الزَّوال .

وعن صاحبِ « الهداية » أَنَّه : « مَا بُدِىءَ شَيءٌ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ إِلاَّ وَتَم ، وَهُوَ يَوْمٌ خَلَقَ اللهُ فِيهِ النُّور » .

وروى الدَّيلميُّ عن جابرٍ مرفوعاً : « مَنْ غَرَسَ الأَشْجَارَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ وَقَال : سُبْحَانَ الْبَاعِثِ الْوَارِث . . آتَتْهُ أُكُلَهَا » .

وحكيَ عن بعضِ العلماءِ أَنَّ التَّطيّرَ مكروهٌ كراهيةً شرعيَّة ، إلاَّ أَنَّ الشَّرعَ أَباحَ لمَنْ أصابَهُ في آخرِ أَربعاءٍ شيءٌ في مصالحهِ أَنْ يدعَ التَّصرُّفَ فيه ، لا علىٰ جهةِ التَّطيّرِ واعتقادِ أَنَّهُ يضرُّ أَو ينفعُ بغيرِ إِذنِ اللهِ تعالىٰ ، بل علىٰ جهةِ اعتقادِ إِباحةِ الإِمساكِ فيهِ لما كَرِهَتْهُ النَّفْس ، لا اقتفاءً للتَّطيّرِ ولـٰكنْ إِثباتاً لِلرُّخصةِ في التَّوقِّي فيهِ لمَنْ يشاء ، معَ وجوبِ اعتقادِ أَنَّ شيئاً لا يضرُّ شيئا .

ونقلَ عنِ الحليميِّ أَنَّهُ قال : عَلِمنا ببيانِ الشَّريعةِ أَنَّ مِنَ الأَيّامِ نحساً ، ويقابلُ النَّحسَ السَّعد ، وإِذا ثبتَ الأَوَّل . . ثبتَ الثَّاني أَيضاً . فالأَيّامُ منها نحسٌ ومنها سعد ، كالأَشخاص : منهُم شقيٌّ ومنهُم سعيد . لـٰكنّ زَعْمَ أَنَّ الأَيّامَ والكواكبَ تنحسُ أَو تُسعِدُ باختيارِها أَوقاتاً أَو أَشخاصاً . . باطل . والقولُ أَنَّ الكواكبَ قد تكونُ أَسباباً للحَسَنِ والقبيحِ والخيرِ والشَّرِّ والكلُّ فعلُ اللهِ تعالىٰ وحدَهُ ممّا لا بأْسَ به .

ثمَّ قالَ المناوي : **والحاصلُ** أَنَّ توقِّيَ الأَربعاءِ علىٰ جهةِ الطِّيرةِ ، وظنِّ اعتقادِ المنجِّمينَ . . حرامٌ شديدُ التَّحريم ؛ إِذِ الأَيَّامُ كلُّها للهِ تعالىٰ لا تنفعُ ولا تضرُّ بذاتِها ، وبدونِ ذلكَ لا ضيرَ ولا محذورَ فيه . ومَنْ تطيَّر . . حاقت بهِ نحوستُه ، ومَنْ أَيقنَ أَنَّهُ

لا يضرُّ ولا ينفعُ إلاَّ اللهُ عزَّ وجل . . لم يُؤَثِّرْ فيهِ شيءٌ مِنْ ذلك ، كما قيل :

تَعَلَّمْ أَنَّهُ لاَ طَيْرَ إلاَّ عَلَىٰ مُتَطَيِّرٍ وَهْوَ الثُّبُورُ

وأقول : كلُّ الأيّامِ سواء ، ولا اختصاصَ لذلكَ بيومِ الأربعاء ، وما مِنْ ساعةٍ مِنَ السّاعاتِ إلاَّ وهي سعدٌ علىٰ شخصٍ نحسٌ علىٰ آخر ، باعتبارِ ما يُحدثُ اللهُ تعالىٰ فيها مِنَ الملائمِ والمنافرِ والخيرِ والشَّر ، فكلُّ يومٍ مِنَ الأيّامِ يتَّصفُ بالأمرينِ لاختلافِ الاعتبار . وإنِ استنحسَ يومَ الأربعاءِ لوقوعِ حادثٍ فيه . . فليستنحس كلَّ يوم ، فما أُولجَ اللَّيلُ في النَّهارِ والنَّهارُ في اللَّيلِ . . إلاَّ لإيلادِ الحوادث . وقد قيل :

أَلاَ إِنَّمَا الأَيَّامُ أَبْنَاءُ وَاحِدٍ وَهٰذِي اللَّيَالِي كُلُّهَا أَخَوَاتُ

وتفصيلُ هٰذا البحثِ في « روحِ المعاني » و« الشَّرحِ الكبيرِ للجامعِ الصَّغير » للمناوي ، مَنْ أرادَه . . فليرجع إليهما .

خاتمةٌ في فوائدَ مهمَّةٍ تتعلَّقُ بما نحنُ فيه :

منها إصابةُ العَيْن : قالَ الطُّوفيُّ البغداديُّ وغيرُهُ عندَ تفسيرِ قولهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ : قد خشيَ يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ علىٰ أولادهِ مِنَ العَيْن ؛ لأنَّهم كانوا ذوي زيٍّ حَسَن ، فخافَ عليهم ، وهي الحاجةُ الَّتي كانت في نَفْسهِ فقضاها . وقد أثنى اللهُ عَزَّ وجَلَّ عليهِ بذلك ، فقال : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ ﴾ الآية . ووافقَ ذلكَ قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « الْعَيْنُ حَقٌّ » . فاتَّفقَ علىٰ ذلكَ شرعُنا وشرعُ مَنْ قَبْلَنا فتأكَّدَ حُكمُها .

وفي كيفيَّةِ الإصابةِ بالعينِ خلاف :

فقيل : هوَ سمٌّ ينفصلُ عنِ العَينِ لخبثٍ في النَّفس ، يتَّصلُ بالشَّيءِ معَ الشُّعاعِ البصريِّ فيغيِّره .

وقيل : وهمُ قوَّةِ نفس ، تنفعلُ لهُ الأجسامُ العنصريَّةُ كانفعالِ الحديدِ بالمغناطيس ، والعاشقِ للمعشوق ، والنُّجومِ لما تؤثرُ فيهِ علىٰ رأيِ أَهلِها .

وقيل : هوَ تغيُّرٌ يُحدثُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مقارناً لرؤية الرّائي ، تنبيهاً لَهُ علىٰ أَنَّ الدَّارَ دارُ

تغيُّرٍ وزوال ، ولا يغترّ بما هي عليهِ مِنْ حُسنِ الحالِ تزهيداً لَهُ فيها وترغيباً عنها . وقيلَ غيرُ ذلك .

وقالَ الوالدُ عليهِ الرَّحمةُ في « روحِ المعاني » في تفسيرِ قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ المعنىٰ : إِنَّهُم مِنْ شدَّةِ عداوتهِم ينظرونَ إليكَ شزراً بحيثُ يكادونَ يزلونَ قدمَكَ فيرمونَك ، مِنْ قولِهم : نظرَ إليَّ نظراً يكادُ يَصرعني ، أَو يكادُ يأْكلني . أَي : لَو أَمكنَهُ بنظرهِ الصَّرعُ أَوِ الأَكل . . لَفَعَلَه .

وقرأَ ابنُ عبّاسٍ والأَعمش : (ليزهقونك) بالهاء[1] ؛ أَي : لَيهلكونَك . أَوْ إِنَّهُم يكادون يُصيبونكَ بالعين ؛ إِذ رُويَ أَنَّهُ كانَ في بني أسدٍ عيّانون ، فأَراد بعضُهم أَنْ يعينَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّم ، فنزلت .

وقالَ الكلبي : كانَ رجلٌ مِنَ العربِ يمكثُ يومين أَو ثلاثةً لا يأْكلُ ثمَّ يرفعُ جانبَ خبائه ، فيقول : لَم أَرَ كاليوم إِبلاً ولا غنماً أَحسنَ مِنْ هٰذهِ! فتسقطُ طائفةٌ منها وتهلك ، فاقترحَ الكفّارُ منهُ أَنْ يُصيبَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ فأَجَابَهُم ، وأَنشد :

قَدْ كَانَ قَوْمُكَ يَحْسَبُونَكَ سَيِّداً ‏ ‏ ‏ ‏ وَأَخَالُ أَنَّكَ سَيِّدٌ مَعْيُونُ

فعصَمَ اللهُ تعالىٰ نبيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ وأَنزلَ عليهِ هٰذهِ الآية .

وقد قيل : إِنَّ قراءتَها تدفعُ ضررَ العين ، ورُويَ ذلكَ عنِ الحسن .

وفي كتابِ « الأَحكام » : إِنَّها أَصلٌ في أَنَّ العينَ حق . والأَوْلَى الاستدلالُ علىٰ ذلكَ بما وردَ وصحَّ عن عدَّةِ طرق : « إِنَّ الْعَيْنَ تُدْخِلُ الرَّجُلَ القبر ، وَالْجَمَلَ الْقِدْر » .

وبما أَخرجهُ الإِمامُ أَحمد بسندٍ رجالُه ـ كما قالَهُ الهيثميّ ـ ثقات ، عن أَبي ذرٍّ رضي الله عنه مرفوعاً : « إِنَّ العينَ لتولع بالرجل بإِذن الله حتىٰ يصعد حالقاً ثم يتردىٰ منه » . إِلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الأَحاديثِ الكثيرة .

---

(١) وهي قراءة شاذة .

وذلكَ مِنْ خصائصِ بعضِ النُّفوسِ ـ ولله تعالىٰ أَنْ يخصَّ ما شاءَ منها بما شاءَ ـ وإضافتُهُ إلى العينِ باعتبارِ أَنَّ النَّفسَ تُؤَثِّرُ بواسطتِها غالباً . وقد يكونُ التَّأْثيرُ بلا واسطتِها ؛ بأَنْ يوصَفَ لِلعائنِ شيءٌ فتتوجَّهُ إليهِ نفسُهُ فتفسدُه .

ومَنْ قال : إنَّ اللهَ تعالىٰ أَجرى العادةَ بخَلْقِ ما يشاءُ عندَ مقابلةِ عينِ العائنِ مِنْ غيرِ تأثيرٍ أَصلاً . . فقد سدَّ علىٰ نَفْسِهِ بابَ العللِ والتَّأْثيراتِ والأَسبابِ والمسبَّبات ، وخالفَ جميعَ العقلاء . قالَهُ العلاَّمةُ ابنُ القيِّم .

وقالَ بعضُ أَصحابِ الطَّبائِع : إنَّهُ ينبعثُ مِنَ العينِ قوَّةٌ سميَّةٌ تُؤَثِّرُ فيما نظرَه ؛ كما فصَّلَ في « شرحِ مسلم » .

وهٰذا لا يتمُّ عندي فيما لَم يَرَه ، ولا في نحوِ ما تضمَّنَهُ حديثُ أَبي ذرٍّ المتقدِّمُ آنفاً ، ولا في إِصابةِ الإِنسانِ عينَ نَفْسِهِ كما حكاهُ المناوي ؛ فإِنَّهُ لا يقتلُ الصِّلَّ[١] سمُّه .

ومِنْ ذلك : ما حكاهُ الغسّاني ، قال : نظرَ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ في المرآةِ فأَعجبتهُ نفسُه ، فقال : كانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ نبيّاً ، وكانَ أَبو بكرٍ صدِّيقاً ، وكانَ عمرُ فاروقاً ، وعثمانُ حيياً ، ومعاويةُ حليماً ، ويزيدُ صبوراً ، وعبدُ الملكِ سايساً ، والوليدُ جبّاراً ، وأَنا الملكُ الشّاب ، وأَنا الملكُ الشّاب . فما دارَ عليهِ الشَّهرُ حتَّىٰ مات .

ومثلُ ذلك : ما قيلَ إِنَّهُ مِنْ بابِ التَّأْثيرِ في القوَّةِ المعروفةِ اليومَ بالقوَّةِ الكهربائيَّةِ عندَ الطَّبائِعيّينَ المحدثين ؛ فقد صحَّ أَنَّ بعضَ النّاسِ يُكرِّرُ النَّظرَ إِلىٰ بعضِ الأَشخاصِ مِنْ فَرْقهِ إِلىٰ قَدَمِهِ فيصرعُهُ كالمغشيِّ عليه ، وربَّما يقفُ وراءَهُ جاعلاً أَصابعَهُ حذاءَ نقرةِ رأْسه ، ويوجِّهُ نَفْسَهُ إِليهِ حتَّىٰ يُضعفَ قواهُ فيغشاهُ نحو النَّوم ، ويَتكلَّمُ إِذ ذاكَ بما لَم يَتكلَّم بهِ في وقتٍ آخَر .

وأَنا لا أَزيدُ على القولِ بِأَنَّهُ مِنْ تأْثيراتِ النُّفوس ، ولا أُكيِّفُ ذلك ؛ فالنَّفسُ

---

(١) الصِّلُّ : الحية التي تقتل إذا نهشت من ساعتها ، ولا تنفع معها الرقية .

الإنسانيَّةُ مِنْ أَعجبِ مخلوقاتِ اللهِ تعالىٰ ، وكم طويَ فيها أَسرارٌ وعجائبُ تتحيَّرُ فيها العقول ، ولا يُنكرُها إلاَّ مجنونٌ أَو مجهولٌ ؟ ولا يَسعني أَنْ أُنكرَ العين ؛ لِكثرةِ الأَحاديثِ الواردةِ فيها ، ومشاهدةِ آثارِها على اختلافِ الأَعصار . ولا أَخصُّ ذلكَ بالنُّفوسِ الخبيثةِ ـ كما قيل ـ فقد يكونُ مِنَ النُّفوسِ الزَّكيَّة .

والمشهورُ أَنَّ الإصابةَ لا تكونُ معَ كراهةِ الشَّيءِ وبُغضه ، وإنَّما تكونُ معَ استحسانه . وإلىٰ ذلكَ ذهبَ القشيري ، وكأَنَّهُ يشيرُ بذلكَ إلى الطَّعنِ في صحَّةِ الرِّوايةِ هٰهنا ؛ لأَنَّ الكفَّارَ كانوا يُبغضونَهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ فلا يتأَتَّىٰ لَهم إصابتُهُ بالعين ، وفيهِ نظر .

وحُكمُ العائنِ علىٰ ما قالَ القاضي عياض : أَنَّهُ يُجتنَب ، وينبغي للإمامِ حبسُهُ ومنعُهُ عن مخالطةِ النّاس ، كفّاً لِضررِهِ ما أَمكن ، ويرزقُهُ حينئذٍ مِنْ بيتِ المالِ . اهـ باقتصار .

وفي « زادِ المعاد » لِلعلاَّمةِ مُحَمَّدِ ابنِ القيّمِ في هديهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّمَ في علاجِ المصابِ بالعينِ في « صحيحِ مسلم » عَنْ أَنس رضي الله عنه : أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ (رخَّصَ في الرُّقيةِ مِنَ الحُمَةِ والعينِ والنَّملة) .

وفي « الصَّحيحين » عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : (أَمَرَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنْ يُسْتَرْقىٰ مِنَ العين) .

وأَمرَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ العائنَ بالاغتسال ، قالَ الزّهري : يُؤمَرُ الرَّجلُ العائنُ بقدحٍ فيُدخلُ كفَّهُ فيه ، فيتمضمضُ ثمَّ يمجُّهُ في القدح ، ويَغسلُ وجهَهُ في القدح ، ثمَّ يُدخلُ يدَهُ اليسرىٰ فيصبُّ علىٰ ركبتهِ اليمنىٰ في القدح ، ثمَّ يُدخلُ يدَهُ اليمنىٰ فيصبُّ علىٰ ركبتهِ اليسرىٰ ، ثمَّ يغسل داخلَ إزاره ، ولا يوضعُ القدحُ في الأَرض ، ثمَّ يصبُّ علىٰ رأْسِ الرَّجلِ الَّذي تُصيبُهُ العينُ مِنْ خلفهِ صبَّةً واحدة .

والعينُ عينان : عينٌ إنسيَّة ، وعينٌ جنِّيَّة . فقد صحَّ عن أُمِّ سلمة رضي الله عنها : أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ رأَىٰ في بيتِها جاريةً في وجهِها سفعة ـ أَي : نظرةٌ ـ مِنَ الجن ، فقال : « اسْتَرْقُوا لَهَا ؛ فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَة » .

ومِنَ التَّعوُّذاتِ والرُّقَىٰ : الإكثارُ مِنْ قراءةِ المعوِّذتين ، وفاتحةِ الكتاب ، وقولهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شرِّ مَا خَلَق » ونحو : « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّة » ونحو : « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لاَ يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلاَ فَاجِر ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الأَرْضِ وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار ، وَمِنْ شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيل ، إِلاَّ طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيْر ، يَا رَحمٰن » .

ومِنها : قول : ما شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله .

ومِنها : إِذا كان العائِنُ يخشىٰ ضرَر عينه ، فَلْيدفعْ شرَّها بقوله : اللَّهمَّ ؛ بارِكْ عليه .

ومِنها : رقيةُ جبريلَ لِلنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : (بسمِ اللهِ أرقيك مِنْ كلِّ شيء يُؤْذِيكَ ومنْ شَرِّ كل نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ [أَوْ] حَاسِدٍ اللهُ يشفيكَ بسمِ اللهِ أَرقيك) .

وقَال جَماعةٌ منَ السَّلَف : لا بأْسَ بكتابةِ الآياتِ مِنَ الْقرآنِ ثم يشربُها .

ومِنها : ما ذكرهُ البغويُّ : أَنَّ عثمانَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ رأَىٰ صبيّاً مليحاً ، فقال : دسِّموا نونتَهُ ؛ لئلاَّ تُصيبَهُ العين . أَي : سوِّدوا النُّقرةَ الَّتي تكونُ في ذقنِ الصَّبي .

ومنها : ما ذكرَ عن أَبي عبدِ اللهِ التَّاحي : أَنَّهُ كانَ في بعضِ أَسفارهِ ـ لِلحجِّ أَوِ الغزوِ ـ علىٰ ناقةٍ فارهة ، وكانَ في الرُّفقةِ رجلٌ عائن ؛ قَلَّما نظَرَ إِلىٰ شيءٍ إِلاَّ أَتلفَه ، فقيلَ لأَبي عبدِ الله : احفظْ ناقتَكَ مِنَ العائن .

قال : ليسَ لَهُ إِلىٰ ناقتي سبيل .

فأُخبرَ العائنُ بقوله ، فتحيَّنَ غيبةَ أَبي عبدِ اللهِ فجاءَ إِلىٰ رحله ، فنظرَ إِلىٰ ناقتهِ فاضطربت وسقطت ، فجاءَ أَبو عبدِ اللهِ فأُخبرَ أَنَّ العائِنَ قد عانها وهيَ كما ترىٰ ، فقال : دلُّوني عليه ؟ فدُل ، فوقفَ عليهِ وقال : بسمِ اللهِ حبسٌ حابس ، وحجرٌ يابس ،

وشهابٌ قابس ، رددتُ عينَ العائنِ عليهِ وعلىٰ أحبِّ النّاسِ إليهِ ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ فخرجَتْ حدقَةُ العائِنِ وقامتِ النّاقةُ لابأس بها .

ومِنْ هديهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ في رقيةِ اللَّديغِ بالفاتحة :

أَخرجا في « الصَّحيحين » مِنْ حديثِ أَبي سعيدِ الخدري ، قال : اِنطلقَ نفرٌ مِنْ أَصحابِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ في سفرةٍ سافَروها حتَّىٰ نَزَلوا علىٰ حيٍّ مِنْ أَحياءِ العرب ، فاستضافوهُم فأَبوا أَنْ يُضيِّفُوهم ، فلُدِغَ سيِّدُ ذلكَ الحي ، فسَعوا لَهُ بكلِّ شيءٍ فلَم يَنفعهُ شيء ، فقالَ بعضُهم : لَو أَتيتمُ هـٰؤلاءِ الرَّهطَ الَّذينَ نَزَلوا ، لعلَّهُ أَنْ يكونَ عندَ بعضِهم شيء ؟ فأَتَوهُم فقالوا : يا أَيُّها الرَّهط ؛ إِنَّ سيِّدَنا لُدِغَ وسَعَيْنَا لَهُ بكلِّ شيءٍ لا ينفعهُ شيء ، فهل عندَ بعضِكم مِنْ شيء ؟

فقالَ بعضُهُم : نعَم ، واللهِ إِنِّي لأَرقي ، ولـٰكنِ استضفناكُم فلَم تُضيِّفُونا ، فما أَنا براقٍ حتَّىٰ تَجعلوا لَنا جُعلاً .

فصالَحوهُم علىٰ قطيعٍ مِنَ الغنم ، فانطلقَ يَتفلُ عليهِ ويقرأ : (الحمد لله رب العالمين)[1] فكأَنَّما نشطَ مِنْ عقال ، فانطلقَ يمشي وما بهِ قلبة .

قال : فأَوفوهُم جُعلَهُمُ الَّذي صالَحوهُم عليه ، فقالَ بعضُهم : اقتسِموا .

فقالَ الَّذي رقىٰ : لا تَفعلوا حتَّىٰ نأْتيَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ فنذكرَ لَهُ الَّذي كان ، فننظرَ ما يأْمرُنا . فقَدِموا علىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ فَذَكروا لَهُ ذلك ، فقال : « وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَة » ؟ ثمَّ قال : « أَصَبْتُم ، اِقْتَسِمُوا ، وَاضْرِبُوا لِيَ مَعَكُم سَهْماً » .

ومِنْ هديهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ في علاجِ لدغةِ العقربِ بالرُّقية :

روى ابنُ أَبي شيبةَ مِنْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعود ، قال : (بينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ يُصلِّي إِذ سجد ، فلدغتهُ عقربٌ في أُصبعه ، فانصرفَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ

---

(١) يعني سورة الفاتحة .

عَلَيهِ وسَلَّمَ وقال : « لَعَنَ اللهُ الْعقْرَبَ ؛ مَا تَدَعُ نَبِيّاً وَلاَ غَيْرَه » . قال : ثمَّ دعا بإِناءٍ فيهِ ماءٌ وملح ، فجعلَ يضعُ موضعَ اللَّدغةِ في الماءِ الملحِ ويقرأ : (قل هو الله أحد) والمعوِّذتَينِ حتَّىٰ سكنت) .

ففي هـٰذا الحديثِ العلاجُ بالدَّواءِ المركَّبِ مِنَ الأَمرين : الطَّبيعيِّ ، والإلـٰهي .

ومِنْ هديهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ في رقيةِ النملة : ما جاء في « سننِ أَبي داوود » عن الشَّفَّاءِ بنتِ عبدِ اللهِ قالت : دخلَ عليَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ وأَنا عندَ حفصة ، فقال : « ألاَ تُعَلِّمِينَ هـٰذِهِ رُقْيَةَ النَّمْلَةِ كَمَا عَلَّمْتِيها الْكِتَابَة » .

النَّمْلَة : قروحٌ تخرجُ في الجنبين ، وهوَ داءٌ معروف . وسمِّي نملةً ؛ لأَنَّ صاحبَهُ يحسُّ مكانهُ كأَنَّ نملةً تدبُّ عليهِ وتعضُّه .

وروى الخلالُ أَنَّها عَرضتْ رقيتَها علىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم ، فقالت : بسمِ اللهِ صليت حتَّىٰ تعودَ مِنْ أَفواهها ولا تضرّ أَحداً ، اللَّهُمَّ ؛ اكشفِ البأسَ ربَّ النّاس . قال : ترقي بها علىٰ عودٍ سبعَ مرّات ، ويقصدُ مكاناً نظيفاً ويدلكهُ علىٰ حجرٍ بخلٍّ خمرٍ حاذق ، وتطليهِ على النَّملة .

ومِنْ هديهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ في رقيةِ القرحةِ والجرح :

قد أَخرجا في « الصَّحيحين » عن عائشة ، قالت : كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ إِذا اشتكى الإِنسانُ أَو كانت بهِ قرحةٌ أَو جرح . . وضعَ سبَّابتهُ بالأَرض ، ثمَّ رفعَها وقال : « بِسْمِ اللهِ تربة أَرضنا ، بريقة بعضنا ؛ ليشفى سقيمنا ، بإِذن ربنا » .

ومعنى الحديث : أَنَّهُ يمسحُ بهِ على الجرح .

ومِنْ هديهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ في علاجِ الوجعِ بالرُّقية :

روىٰ مسلم عن عثمانَ بنِ أَبي العاصِ رضي الله عنه أَنَّهُ شكىٰ إِلىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ وجعاً يَجِدُهُ في جسدهِ منذُ أَسلم ، فقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَليهِ وسَلَّم : « ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ ، وَقُل : بِسْمِ اللهِ ـ ثَلاثاً ـ ، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّات : أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِر » .

وفي « الصَّحيحين » : أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ كانَ يعوذُ بعضَ أهله ، يمسحُ عليهِ بيدِهِ اليمنىٰ ، ويقول : « اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاس ؛ أَذْهِبِ البَاسَ وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي ، لاَ شِفَاءَ إلاَّ شِفَاؤُك ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَماً » .

وقد ختمَ ابنُ القيِّمِ مباحثَهُ الطِّبيَّةَ في وصايا نافعة ، نذكرُ بعضَها تكميلاً لِلفائدة :

قالَ ناقلاً عنِ ابنِ ماسويه : مَنْ أَكَلَ البصلَ أَربعينَ يوماً . . فلا يلومنَّ إلاَّ نَفْسَه .

ومَنِ افتصدَ فأَكلَ مالحاً ، فأَصابَهُ البهقُ والجرب . . فلا يَلومنَّ إلاَّ نَفْسَه .

ومَنِ احتلمَ فلَم يغتسلْ حتَّىٰ وطىءَ أَهْلَه ، فولدتْ مجنوناً . . فلا يلومنَّ إلاَّ نَفْسَه .

ومَنْ جامعَ فلَم يَصبرْ حتَّىٰ يفرغَ فأَصابَهُ حصاة . . فلا يلومنَّ إلاَّ نَفْسَه .

ومَنْ نظرَ في المرآةِ ليلاً فأَصابَهُ لقوَةٌ أَو داء . . فلا يلومنَّ إلاَّ نَفْسَه .

وقالَ بعضُ الأَطبَّاء : احذرْ أَنْ تجمعَ بينَ البَيْضِ والسَّمك ، وبينَ اللَّبنِ والسَّمك . والحذرَ مِنْ دخولِ الحمّامِ عقبَ الامتلاء ، وإِيّاكَ مِنْ إدخالِ الطَّعامِ على الطَّعام .

وقد أَطنبَ فيما يُشبهُ هـٰذهِ الأَبحاث ، فعليكَ بهِ إِنْ أَردتَه .

وفي « ردِّ المحتار » لشيخ مشايخنا ابنِ عابدين ، قال : ستٌّ تورثُ النِّسيان : سُؤْرُ الفأرة ، وإلقاءُ القملةِ وهيَ حيَّة ، والبولُ في الماءِ الرَّاكد ، وقطعُ القطارِ[1] ، ومضغُ العلك ، وأَكلُ التُّفَّاح .

ومنهُم مَنْ ذكرَهُ حديثاً ، لـٰكنْ قالَ أَبو الفرجِ ابنُ الجوزي : إِنَّهُ حديثٌ موضوع .

وإطلاقُ التُّفَّاحِ هنا موافقٌ لِما في كتبِ الطِّبِّ مِنْ أَنَّهُ كله مورثٌ لِلنِّسيان ، وذكرَ بعضُهُم الحديثَ مقيِّداً التُّفاحَ بالحامض .

تتمَّة : زادَ بعضُهم ممّا يُورثُ النِّسيانَ أَشياء ، منها :

العصيان ، والهموم ، والأَحزانُ بسببِ الدُّنيا ، وكثرةُ الاشتغالِ بها ، وأَكلُ الكزبرةِ الرَّطبة ، والنَّظرُ إلى المصلوب ، والحجمُ في نقرةِ القفا ، واللَّحمُ الملح ، والخبزُ

---

(١) قوله : القطار ؛ أي : الدواب . اهـ

الحامي ، والأَكلُ مِنَ القدر ، وكثرةُ المزح ، والضَّحكُ بينَ المقابر ، والوضوءُ في محلِّ الاستنجاء ، وتوسُّدُ السَّراويلِ أَوِ العمامة ، ونظرُ الجنبِ إِلى السَّماء ، وكنسُ البيتِ بالخرق ، ومسحُ وجههِ أَو يديهِ بذيله ، ونفضُ الثَّوبِ في المسجدِ ، ودخولُهُ باليسرىٰ وخروجُهُ باليمنىٰ ، واللَّعبُ بالمذاكيرِ أَوِ الذَّكرِ حتَّىٰ يُنزلَ والنَّظرُ إِليه .

والبولُ في الطَّريق ، أَو تحتَ شجرةٍ مثمرة ، أَو فِي الماءِ الرَّاكد ، أَو في الرَّماد .

والنَّظرُ إِلى الفرج ، أَو في مرآةِ الحجَّام . والامتشاطُ بالمشطِ المكسور ، وغيرُ ذلك ، اِنتهىٰ .

وقد أَلَّفَ بعضُهم رسالةً في أَشياءَ تجلبُ الفقر ، وأَشياءَ تورثُ النِّسيان ، وأَشياءَ تضرُّ بالأَبدان ، فمنها ما تقدَّمَ ذِكرُه .

ومنها ممّا يورثُ الفقر : التَّهاونُ في صَلاةِ الجماعة ، والمشيُ بينَ المعزِ والغنم ، وطولُ الأَظفارِ وتقليمُها بالفم ، واحتكارُ الطَّعام ، وحرقُ قشرِ البصلِ والثُّوم ، والنَّومُ عرياناً ، وكثرةُ النَّوم ، والكتابَةُ بالقلمِ المعقود ، وأَكلُ الجنُبِ ونومُه ، ومشيهُ قدّامَ شيخهِ وأَبيهِ ونداؤُهما باسمِهما ، وتطييرُ الحمامِ على السُّطوح ، وتركُ القمامةِ ـ وهيَ الزّبلُ ـ في البيت ؛ فقد ورد : « نَظِّفُوا أَفْنِيَتَكُم ؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ لاَ يُنَظِّفُونَ أَفْنِيَتَهُم » .

ومنه : بيتُ العنكبوت ، والإِسرافُ والتَّقتير ، وشراءُ كِسَرِ الخبزِ مِنَ الفقراء ، والدُّعاءُ على الأَهلِ بالشَّر ، وتخييطُ الثَّوبِ وهوَ على البدن .

وممَّا يورثُ النِّسيان : النَّظرُ في الماءِ الرَّاكد ، والمشيُ بينَ المرأتَين ، وقراءَةُ ما كُتبَ على القبور ، وطرحُ القمل ، وكثرةُ السَّهر ، وأَكل لحمِ المعز ، ولبسُ النَّعلِ الأَسود ، وبولُهُ في المستحمِّ ـ وقيل : يورثُ الوسواسَ أَيضاً ـ وكثرةُ شُربِ الخلِّ[1] وأَكلِ السَّمك .

وممَّا يورثُ الفقرَ والنِّسيان : الجلوسُ في عتبةِ الدّار ، ونومُ الضُّحىٰ ، وتجفيفُ وجههِ بذَيْله ، وتسرولُ القائِم ، وتعمُّمُ القاعد .

---

(١) عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما عنهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ : « نعم الإِدام الخل » رواه في الجامعِ الصَّغيرِ . اهـ منه .

ومنها أَشياءُ مضرَّةٌ بالبدن : الجمعُ بينَ البطِّيخِ والعسل ، والرُّمانِ والهريسة ، والغُسلُ ليلاً بلا سترِ عورة ، والنَّومُ منفرداً بالبيت ، وتخليلُ الأَسنانِ بالقصب ، واستعمالُ الماءِ المشمَّس ، وطرحُ السِّواكِ بالأَرض ، وحكُّ جسمهِ بمقطوعِ ظفرهِ قبلَ أَنْ يَغسلَه ، والحجامةُ على الشِّبع ، أَو يومَ الخميسِ أَو يومَ الجمعةِ أَو يومَ السَّبتِ أَو يومَ الأَحد ؛ ففي « زادِ المعاد » لابنِ القيِّم : روى التِّرمذيُّ « إِنَّ خَيْرَ مَا يَحْتَجِمُونَ فِيهِ : يَوْمَ سَبْعَ عَشْرَةَ ، وَيَوْمَ تِسْعَ عَشْرَةَ ، ويومَ إِحدىٰ وعشرين » .

قالَ ابنُ القيِّم : وإِذا استُعملَت عندَ الحاجةِ إِليها . . نفعت أَيَّ وقتٍ كان . وفي أَثر : الحجامةُ على الرِّيقِ دواءٌ وعلى الشِّبَعِ داء .

وقيل : تُكرهُ يومَ السَّبتِ ويومَ الأَربعاءِ ويقولون : يومَ الجمعة . وعن أَبي هُريرةَ [رضي الله عنه] مرفوعا : « مَنِ احْتَجَمَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ أَوْ يَوْمَ السَّبْتِ فَأَصَابَهُ بَيَاضٌ أَوْ بَرَص . . فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَه » .

ورويَ أَنَّ الإِمامَ أَحمدَ سُئلَ عنِ النُّورةِ والحجامةِ يومَ السَّبتِ والأَربعاء ، فكرِهَها .

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمر رضي الله عنهما : لاَ تحتجموا الخميسَ ولا الجمعة ، ولا السَّبتَ ولا الأَحَد ، واحتجِموا الإِثنين ، وما كانَ مِنْ جذامٍ ولا برصٍ إِلاَّ نزلَ يومَ الأَربعاء .

وعن نافع : احتجموا الإِثنينَ والثُّلاثاء . وقيل : تُكرهُ في الثَّلاثاءِ أَيضاً . اِنتهىٰ

ومِنها : عدمُ كظمِ الفمِ عندَ التَّثاؤُب ، والالتفاتُ عندَ العطاس[1] ، والأَكلُ مِنْ غيرِ إِحضارِ الماءِ عندَه ، ومدافعةُ الأَخبثَين ـ أَي : اَلغائِطِ والبول ـ والنَّومُ في الشَّمسِ أَو علىٰ سطحٍ غيرِ محفوظ ، وذهابُهُ في البريَّةِ مسافراً وحدَه .

فأَسأَلهُ تعالىٰ أَنْ يحفظَنا مِنْ كافَّةِ الآلام ، ويجعلَنا وإِيّاكم مِنَ المتَّبعينَ لهدي خيرِ الأَنامْ عَلَيْهِ وآلهِ الصَّلاةُ والسَّلاَم .

فيا أَيُّها المتشائِمُ بالطُّيورِ والأَيّام ؛ تَشاءَمْ مِنْ خطاياكَ والآثام ، واتركْ أَفعالَكَ الَّتي

---

(١) فإِنَّ ذلكَ مضرٌّ طبّاً كما هوَ مجرَّبٌ . اهـ منه .

هي أَفعىٰ لك ، وتجنَّبِ الأَعمالَ المذمومة ؛ فإِنَّها في الآخرةِ مشؤومة . فالأَيّامُ لكَ كالمطايا ، فأَينَ العدّةُ قَبْلَ المنايا ؟ وقد علمتَ أَنْ سَرِيةَ الموتِ لا تُشبهُ السَّرايا ، وملكَ الموتِ لا يَقبلُ الهدايا .

فعجباً لمؤثرِ الفانية على الباقية ، ولبائعِ البحر الخضم بساقية ، ولمختارِ دارِ الكدرِ على الصَّافية!

أَيُّها المتوطِّنُ بيتَ غروره ؛ تأَهَّبْ لانزعاجِك . أَيُّها المسرورُ بقصوره ؛ تهيَّأْ لإِخراجِك . خُذْ عدَّتك ، وانهضْ إِلىٰ قضاءِ حاجك قَبْلَ فراقِ أَولادِكَ وأَزواجِك ، ما الدُّنيا دارُ مقامِك ، بل حلبةُ إِدلاجِك .

أَتأْمنُ بَطْشَ ذي البطش ، وتُبارزهُ عالماً برؤْيتهِ ولَم تَخش ؟ !

أَنسيتَ الرُّكوبَ علىٰ ظَهْرِ النَّعش ، أَنسيتَ النُّزولَ في بيداءِ الدَّبيبِ والوحش ، أَنسيتَ الحلولَ في لحدٍ خشنِ الفرش ؟

يا مَنْ لا يصبرُ لِلقضاءِ ولا علىٰ خَدْش ، يا مغتراً بزخرفِ الهوىٰ قد أَلهاهُ النَّقش ، يا مَنْ إِذا وزنَ طفَّفَ وإِذا باعَ غَش ؛ إِذا جنيتَ علىٰ نَفْسِكَ فعلىٰ مَنِ الأَرش ؟ كُنْ متيقِّظاً فإِنَّكَ بعَيْنِ ذِي العرش .

يا هـٰذا ؛ عليكَ بالجدِّ والاجتهاد ، وخلِّ هـٰذا الكسلَ والرُّقاد ؛ فطريقُكَ لابدَّ لَهُ مِنْ زاد :

اِنْهَـضْ إِلَـىٰ الْمَعَـالِـي	وَاجْسُـرْ وَلاَ تُبَـالِـي
وَخُـذْ مِـنَ الـزَّمَـانِ	حَظّـاً فَـأَنْـتَ فَـانِ
الْمَجْـدُ بِـالْمُخَـاطَـرَهْ	وَالنَّصْـرُ بِـالْمُصَـابَـرَهْ
مَـا لِلْـوَرَىٰ فِـي غَفْلَـةِ	قَـدْ خُـدِعُـوا بِـالْمُهْلَـةِ
أَلاَ لَبِيـبٌ يَعْقِـلُ	أَلاَ جَهُـولَ يَسْـأَلُ
أَأَنْتُـمْ فِـي رِيْبَـةِ	مَـا أَعْظَـمَ الْمُصِيْبَـةِ
دُنْيَـاكُـمْ حَبِيبَـةُ	فِـي حُسْنِهَـا رَطِيبَـةُ

لَكنَّهَا غَدَّارَهْ   خَدَّاعَةٌ غَرَّارَهْ

لَيْسَ لَهَا حَبِيبُ   زَوَالُهَا قَرِيبُ

كَالْمُومِسِ الْبَغِيِّ   تَلْبَسُ كُلَّ زِيِّ

مَلُولَةٌ خَوَّانَه   لَيْسَ لَهَا أَمَانَه

عَزِيزُهَا ذَلِيلُ   كَثِيرُهَا قَلِيلُ

تُفَرِّقُ الأَحْبَابَا   تُشَتِّتُ الأَتْرَابَا

حَرْبٌ لِمَنْ سَالَمَهَا   غِلٌّ لِمَنْ لاَزَمَهَا

لِقَاؤُهَا فِرَاقُ   وَعُرْسُهَا طَلاَقُ

وَوَصْلُهَا صُدُودُ   وَوَعْدُهَا وَعِيدُ

وِصَالُهَا عَنَاءُ   صُدُودُهَا بَلاَءُ

شَرَابُهَا سَرَابُ   نَعِيمُهَا عَذَابُ

إِنْ أَقْبَلَتْ فَفِتْنَه   أَوْ أَدْبَرَتْ فَمِحْنَه

أَخلاَقُهَا مَذْمُومَه   لَذَّاتُهَا مَسْمُومَه

يَحظَىٰ بِهَا الْجُهَّالُ   وَيَنْعُمُ الأَنْذَالُ

يَشْقَىٰ بِهَا اللَّبِيبُ   وَيَتْعَبُ الأَدِيبُ

فَخَلِّ عَنْهَا يَا فَتَىٰ   إِلَىٰ مَتَىٰ إِلَىٰ مَتَىٰ

اللَّهُم ؛ إِنَّا نعوذُ بكَ مِنْ منكَراتِ الأَخلاقِ والأَعمالِ والأَهواءِ والأَدواء ، ونسأَلُكَ الفوزَ في القضاء ، وعَيْشَ السُّعداء ، والنَّصرَ على الحسّادِ والأَعداء .

اللَّهُم ؛ اجعلْنا هادِينَ مُهتدِين ، غيرَ ضالِّينَ ولا مُضلِّين .

اللَّهُم ؛ إِنَّا نسأَلُكَ إِيماناً يُباشرُ قلوبَنا ، حتَّىٰ نعلمَ أَنَّهُ لا يُصيبنا إِلاَّ ما كتبت لنا ورضِّنا بما قسمتَ لَنا .

ونسأَلُكَ العفوَ والعافيةَ في الدِّينِ والدُّنيا والآخِرة ، وارحمنا والمسلمين ، وصلِّ علىٰ مُحَمَّدٍ وآلهِ أَجمعين ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين .

* * *

المجلس الثاني والأربعون
في شعب الإيمان

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيم

الحمدُ للهِ مبلِّغِ الرَّاجي فوقَ مأمولِه ، ومُعطي اللاَّجيء زيادةً علىٰ مَسؤُولِه ، اَلمنّانِ على التَّائِبِ بصَفْحِهِ وقَبولِه .

خَلَقَ الآدميَّ وأَنشأَ لَهُ داراً لحلولِه ، وجَعَلَ الدُّنيا مرحلةً لِنزولِه ، فتوطَّنها مَنْ لَم يَعرفْ شَرَفَ الدَّارِ الأُخرىٰ لخمولِه ، أَوَ ما ترىٰ غربانَ البَيْنِ تَنوحُ علىٰ طلولِه ؟ ارحلوا عنها بإِيمانٍ كاملٍ فرُبَّ قفرٍ يُخافُ مِنْ غولِه ، سابِقوا إِلىٰ مغفرةٍ مِنْ رَبِّكُم وجنَّةٍ عرضُها كعرضِ السَّماءِ والأَرض ، أُعدَّت للَّذينَ آمَنوا باللهِ ورسولِه .

أَحمدُهُ علىٰ نَيْلِ الهدىٰ وحصولِه ، وأُقِرُّ بوحدانيَّتِهِ إِقرارَ عارفٍ بالدَّليلِ وأُصولِه . وأُصلِّي وأُسلِّمُ علىٰ سيِّدِنا مُحَمَّدٍ عبدِهِ ورسولِه ، وعلىٰ صاحبِهِ أَبي بكرٍ الصِّديقِ الَّذي يُبغضُهُ المبتدِعُ الرَّافضي بفضولِه ، وعلىٰ عُمرَ حامي الإِسلامِ بسيفِ عَزْمٍ لا يخافُ مِنْ فلولِه ، وعلىٰ عثمانَ الصَّابرِ على البلاءِ حينَ نزولِه ، وعلى ابنِ عمِّهِ عليِّ بنِ أَبي طالبٍ الصَّائِلِ بشجاعتِه قبْلَ أَنْ يصولَ بنصولِه ، وعلىٰ سائرِ آلِهِ وأَصحابِهِ الفائِزينَ مِنَ الإِيمانِ بشُعَبِهِ وأُصولِه ، صلاةً وسلاماً دائِمينِ ما تردَّدَ النَّسيمُ بينَ شمالِهِ وجَنوبِهِ وقبولِه .

أَمّا بعد : فأَروي بسندي إِلى المولى الهمام ، محدِّثِ الإِسلام : أَبي عبدِ اللهِ محمَّد بنِ إِسماعيلَ بنِ إِبراهيم بنِ المغيرة بن بردزبه الجعفيِّ البخاري ، لا زالَ صيبُ الغفرانِ علىٰ ضريحِهِ غادياً وساري . فإِنَّهُ قالَ في كتابِهِ الصَّحيح ، الحريِّ بالتَّرجيح : « بابُ أُمورِ الإِيمان » :

حدَّثنا عبدُ اللهِ بنُ مُحَمَّد ، قال : حدَّثنا أَبو عامرٍ العقدي ، قال : حدَّثنا سليمانُ بنُ

بلال ، عَنْ عبدِ اللهِ بنِ دينار ، عن أَبي صالح ، عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « الإيمَانُ بِضْعَةٌ وستُّونَ شُعْبَة ، فأفضلها شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَان » .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ : قد روىٰ هـٰذا الحديثَ أَيضاً الإمامُ مسلمٌ في « صحيحه » وفي رواية : « بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَة ، أَعْلاَهَا » وفي روايةٍ « أَرْفَعُهَا » .

وقولُه : « بِضْعَة » وفي بعضِ النُّسخ (بِضع) بكسرِ الباء ، ويجوزُ الفتح ـ : هوَ ما بينَ الثّلاثةِ والتِّسعة ، ولا يُستعملُ إلاَّ معَ العشرة ، أَوِ العشرينَ إلى التّسعين .

والشُّعبة ـ بضمِّ الشِّين ـ : غصنُ الشَّجرةِ وفرعُ كلِّ أصل . والمرادُ هنا : الخصلة .

قالَ العلماء : شبَّهَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ الإيمانَ بشجرةٍ ذاتِ أَغصانٍ وشُعَب ، والمعنىٰ : أَنَّ الإيمانَ يتشعَّبُ مِنْ شُعَبٍ كثيرة ، كما يتشعَّبُ مِنَ الشَّجرةِ أَغصان ، فيقال : لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ شُعبة ، والصَّلاةُ شُعبة ، والحياءُ شُعبة . . وهلمَّ جرّاً . ولمّا كانَ أَكثرُ المؤمنينَ غافلينَ عن تعدادِ هـٰذهِ الشُّعبِ ومعرفتِها . . لزمَ عليَّ أَنْ أُبيِّنَها ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ وأَعدّها وأَجعلَها مع ما يلزمُ بيانهُ كرؤُوسِ المسائِل ، وأَقنعُ في كلِّ شُعبةٍ بالاستدلالِ في آيةٍ كريمةٍ أَو حديثٍ صحيح ، مختصِراً ذلكَ مِنْ كلامِ الشَّيخِ أَبي حفصٍ عمرَ القزويني ، الَّذي اختصرَهُ مِنْ كتابِ « شُعَبِ الإيمان » للإمامِ أَحمدَ بنِ الحسينِ البيهقي ؛ لأَنَّ بيانَ هـٰذهِ الشُّعبِ واجبٌ على العلماء ، وتعلُّمها فرضٌ على الجهلاء . فاسمعْ ما نعدُّهُ عليك ، وهيَ أَمانةٌ سلَّمتُها إليك :

الأُولىٰ : الإيمانُ باللهِ عَزَّ وَجَل : قالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ .

وقالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا : لاَ إِلـٰهَ إِلاَّ الله ، فَمَنْ قَالَ لاَ إِلـٰهَ إِلاّ الله فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّه ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله » .

وقولُه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لاَ إِلـٰهَ إِلاَّ الله . . دَخَلَ الْجَنَّة » .

الثّانية : الإِيمانُ برسله .

الثّالثة : الإِيمانُ بملائِكتِه .

الرّابِعَة : الإِيمانُ بالقرآنِ وجميعِ كتبهِ المنزلة .

وهـٰذهِ كلُّها لحديثِ جبريل ، وقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ .

الخامسة : الإِيمانُ بالقدَرِ خيرِه وشرِّهِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلّ : لقولهِ تعالىٰ : ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ . وقولهِ تعالىٰ : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ . ولحديثِ جبريلَ أَيضاً المتقدِّمِ في الدُّروسِ الماضية .

السّادِسة : الإِيمانُ باليومِ الآخِر : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ .

قالَ الحليمي : ومعناه : اَلتَّصديقُ بأَنَّ لأَيّامِ الدُّنيا آخِراً وأَنَّها منقضية ، ففي الاعترافِ بانقضاءِ العالَم اعتراف بابتدائه ؛ إِذِ القديمُ لا يفنىٰ ، ولا يتقدَّمُ ولا يتغيَّر .

السّابعة : الإِيمانُ بالبعث : لقولهِ تعالىٰ : ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ .

الثّامِنة : الإِيمانُ بالحشرِ بعدَ البعثِ مِنَ القبورِ إِلى الموقف : لقولهِ تعالىٰ : ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ .

وفي الحديث : « يغيب أحدهم في رشحه إِلى أنصاف أذنيه » .

التّاسعة : الإِيمانُ بأَنَّ دارَ المؤمنينَ الجنَّة ، ودارَ الكافرينَ النّار : للآياتِ العديدة . ولقولهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « إِذَا مَاتَ أَحَدُكُم . . عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِي : إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّة . . فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّة ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النّار . . فَمِنْ أَهْلِ النّار . وَيُقَال : هـٰذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَة » .

العاشرة : الإِيمانُ بوجوبِ محبَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلّ : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ ولقولهِ عليهِ السَّلام :

« ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيه . . وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَان : أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا

سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لله ، وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُوقَدَ لَهُ نَارٌ فَيُقْذَفَ فِيهَا » .

وكانت رابعةُ إذا غلب عليها حالُ الحبِّ تقول :

تَعْصِي الإِلَـٰـهَ وَأَنْـتَ تُظْهِـرُ حُبَّـهُ ... هَـٰـذا مُحَـالٌ فِـي الْفِعَـالِ بَـدِيـعُ
لَـوْ كَـانَ حُبُّـكَ صَـادِقـاً لأَطَعْتَـهُ ... إِنَّ الْمُحِـبَّ لِمَـنْ يُحِـبُّ مُطِيـعُ

الحاديةَ عشر : الإيمانُ بوجوبِ الخوفِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

الثَّانيةَ عشر : الإيمانُ بوجوبِ الرَّجاءِ مِنَ اللهِ تعالىٰ : لقولهِ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ .

وقولهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَة . . مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَد ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ رحمته أَحَد » .

الثَّالثةَ عشر : الإيمانُ بوجوبِ التَّوكُّلِ على اللهِ عَزَّ وَجَلَّ : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

وفي « الصحيحين » في سؤال أصحابه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ له عنِ السَّبعينَ أَلفاً الَّذينَ يدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حساب ، فقالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « هُمُ الَّذِينَ لاَ يَكْتَوُونَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَتَطَيَّرُون » . فقامَ عُكاشَةُ فقال : ادعُ اللهَ أَنْ يجعلني منهُم ، فقال : « أَنْتَ مِنْهُم » . ثمَّ قامَ رجلٌ آخر فقال : ادعُ اللهَ أَنْ يجعلني منهُم يا رسولَ الله . فقال : « سَبَقَكَ بِهَا عُكاشَة » .

ومِنْ جملةِ التَّوكُّل : تفويض الأَمر إِليهِ عَزَّ وَجَلَّ والثِّقةُ بهِ معَ ما قدَّرَ له مِنَ التَّسبُّب . فلا منافاةَ بينَ التَّوكُّلِ وتعاطي أَسبابِ المعيشة ؛ فقد رويَ عن أَبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قال : دينكَ لمعادك ، ودرهمكَ لمعاشك ، ولا خيرَ في امرىءٍ بلا درهم .

الرّابعةَ عشر : الإيمانُ بوجوبِ حبِّ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : لحديثِ أَنس [رضي الله عنه] : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين » .

وقالَ لَهُ رجل : إِنِّي أُحبُّ اللهَ ورسولَه ، فقال : « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْت » .

الخامسةَ عشر : الإيمانُ بوجوبِ تعظيمِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ وتبجيلهِ وتوقيره : لقولهِ تعالىٰ : ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ .

قلت : وينبغي أَنْ يُلحقَ هنا حبُّ آلِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ وذريتهِ وزوجاتهِ وصحابتهِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم أجمعينَ ، ويلتحقُ بذلكَ حبُّ العرب ، قالَ في « الصَّواعق » : أَخرجَ البيهقيُّ والدَّيلميُّ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَليهِ وسَلَّمَ قال : « لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِه ، وَتَكُونَ عِتْرَتِي أَحَبَّ إِلَيهِ مِنْ عِتْرَتِه ، وَيَكُونَ أَهْلُ بَيْتِي أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ ، وَيَكُونَ ذَاتِي أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ ذاته » .

وأَخرجَ الدَّيلميُّ وأَبو الشَّيخ : « مَنْ لَمْ يَعْرِفْ حَقَّ عِتْرَتِي وَالأَنْصَارِ وَالْعَرَب . . فَهُوَ لإِحْدَىٰ ثَلاث : إِمَّا مُنَافِق ، وَإِمَّا وَلَدُ زَنِية ، وَإِمَّا امْرُؤٌ حَمَلَتْ بِهِ أُمُّهُ فِي غَيْرِ طُهْر » .

وأَخرجَ الدّيلمي : « مَنْ أَحَبَّ اللهَ . . أَحَبَّ الْقُرْآن ، وَمَنْ أَحَبَّ الْقُرْآن . . أَحَبَّنِي ، وَمَنْ أَحبَّنِي . . أَحَبَّ أَصْحَابِي وَقَرَابَتِي » . انتهىٰ

وروى السّيوطيُّ في « الجامعِ الصَّغير » عن أَنس رضي الله عنه : « حُبُّ الْعَرَبِ إِيمَانٌ ، وَبُغْضُهُم نِفَاق » . وفي روايةٍ أُخرىٰ : « وَبُغْضُهُم كُفْر ، فَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَب . . فَقَدْ أَحَبَّنِي ، وَمَنْ أَبْغَضَ الْعَرَب . . فَقَدْ أَبْغَضَنِي » .

قالَ الحليمي : فمَنْ فضَّلَ العجمَ عليهِم . . فقد آذى الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم ، ومَنْ آذاه . . فقد آذى اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ .

السّادسةَ عشرة : شُحُّ المرءِ بِدينه : لحديثِ أَنس رضي الله عنه : « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيه . . » الحديثِ المتقدِّم في العاشرة .

السّابعةَ عشر : طلبُ العِلْم : وهو : عِلمُ الدِّين ؛ كالعقائد ، والفقه ، والحديث ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

الثّامنةَ عشر : نشرُ العِلْم : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ .

التّاسعةَ عشرة : تَعظيمُ القرآنِ المجيدِ بتعلُّمهِ وتعليمه ، وتجويده ، وحفظِ أَحكامه ، وتبجيلِ أَهلهِ وحفّاظه : قالَ تعالىٰ : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ .

وروىٰ عثمانُ بنُ عفّان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَه » .

وروىٰ عبدُ اللهِ بنُ عمر رضي الله عنهما : « لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْن : رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ هَـٰذَا الْكِتَابَ فَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهار ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللهُ مَالاً فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهار » .

العشرون : الطّهارة : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ الآية .

ولحديثِ أَبي مالكٍ الأَشعري : « الطَّهُورُ[1] شَطْرُ الإِيمَان ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلأُ الْمِيزَان ، وَسُبْحَانَ الله وَاللهُ أَكْبَرُ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْض ، وَالصَّلاةُ نُور ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَان ، وَالصَّبْرُ ضِياء ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْك » .

وليُعلم : أَنَّ الوضوءَ الصَّحيحَ هو : أَنْ لا يبقىٰ لمعةٌ في أَعضاءِ الوضوءِ لَم يَصِلْهَا الماء . فينبغي للمتوضِّىءِ أَنْ لا يُبقي وسخاً في أَظفاره ، وأَنْ يدلكَ يديهِ ورجليه ، وأَنْ يتجاوزَ غسلَ المرفقينِ والكعبين ؛ لقولهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّار » .

---

(١) ولذا قال كثير من العلماء : إن من صلىٰ بغير طهارة متعمداً يكفر . اهـ منه .

ولقد أَحسنَ القائِل :

سَتأْتِي النَّاسُ فِي الْعَرَصَاتِ سَكْرَىٰ ... بِـلاَ أَثَـرٍ يَكُـونُ لَهُـمْ مُـزِينَـا
وَتَـأْتِـي أُمَّـةُ الْمُخْتَـارِ غُـرّاً ... بِـآثَـارِ الْـوُضُـوءِ مُحَجَّلِينَـا

الحاديةُ والعشرون : الصّلواتُ الخمس : لقولهِ تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ .

ولحديثِ ابنِ مسعود رضي الله عنه ، قال : سأَلتُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : أَيُّ الأَعمالِ أَحبُّ إِلى اللهِ عَزَّ وَجَلّ ؟ قال : « الصَّلاةُ لِوَقْتِهَا » . قلت : ثمَّ أَيّ ؟ قال : « بِرُّ الْوَالِدَيْن » . قلت : ثمَّ أَيّ ؟ قال : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله » .

ولحديث جابر رضي الله عنه : « إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاَة » .

الثّانيةُ والعشرون : الزّكاة : لقولهِ تعالىٰ : ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ .

الثّالثةُ والعشرون : الصّيام : لقولهِ تعالىٰ : ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ .

ولقولهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَىٰ خَمْس . . . » الحديث .

الرّابعةُ والعشرون : الاعتكاف : لقولهِ تعالىٰ : ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ .

ولحديث : « مَنِ اعْتَكَفَ فَوَاقَ نَاقَة . . فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ رَقَبَة » .

الخامسةُ والعشرون : الحج : لقولهِ تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ .

ولحديث : « مَنْ لَمْ يَحْبِسْهُ مَرَضٌ أَوْ حَاجَةٌ ظَاهِرَةٌ أَوْ سُلْطَانٌ جَائِر ، وَلَمْ يَحُج . . فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيّاً أَوْ نَصْرَانِيّاً » .

السّادسةُ والعشرون : الجهاد : لقولهِ تعالىٰ : ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ .

ولقولهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَة ، فَإِذَا

لَقِيتُمُوهُم . . فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوف » .

السّابعةُ والعشرون : المرابَطةُ في سبيلِ الله : وهي : الإقامةُ في وجهِ العدوِّ مستعدّاً له ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ .

ولحديث : « رِباطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا » .

الثّامنةُ والعشرون : الثّباتُ للعدو ، وتركُ الفرارِ مِنَ الزَّحف : لقولهِ سبحانَه : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ الآية . وللحديثِ المارِّ آنفاً .

التّاسعةُ والعشرون : أداءُ الخُمسِ مِنَ المغنم : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ الآية .

الثّلاثون : العتق : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ .

ولحديثِ أَبي هريرة : « مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً . . أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْواً مِنْهُ مِنَ النَّارِ ، حَتَّىٰ فرجَه بفرجِه » .

الحاديةُ والثّلاثون : الكفّاراتُ الواجباتُ بالجنايات : وهي بالكتاب والسُّنَّةِ أَربع :

كفّارة القتل ، وكفّارةُ الظِّهار ، وكفّارةُ اليمين ، وكفّارةُ المسيس في صومِ رمضان .

وممّا يقرب منها : ما يجب باسمِ الفدية ؛ لأَنَّها إِمّا عن ذنبٍ سبق ، أَوْ يرادُ بها التَّقرُّبُ إِلى اللهِ تعالىٰ بشيءٍ يعفي أثرَ أَمرٍ قد وقع ، ذنباً كانَ أَو غيرَ ذنب .

الثّانيةُ والثّلاثون : الإِيفاءُ بالعقود : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ قالَ ابنُ عبّاس : يعني ما أَحلَّ اللهُ وما حرَّم ، وما فرضَ وما حدَّ في القرآن .

وقولهِ تعالىٰ : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾ .

ولحديثِ ابنِ عمرو في « الصَّحيحين » : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيه . . كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنهُن . كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّىٰ يَدَعَهَا : إِذَا حَدَّث . .

كَذَب ، وَإِذَا عَاهَد . . غَدَر ، وَإِذَا وَعَد . . أَخْلَف ، وَإِذَا خَاصَم . . فَجَر » . وفي روايةٍ أُخرىٰ : « وَإِذَا ائْتُمِن . . خَان » .

الثّالثةُ والثّلاثون : تعديدُ نعمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وما يجبُ مِنْ شكرِها : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ .

الرّابعةُ والثّلاثون : حفظُ اللِّسانِ عمّا لا يحتاجُ إِليه ، مِنْ غيبةٍ ونميمةٍ وكذب ، ونحوِ ذلك : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ .

ولقولهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ . . تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيه » .

الخامسةُ والثّلاثون : أداءُ الأَمانةِ إِلىٰ أَهلِها : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ . ولقولهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَىٰ مَنِ ائْتَمَنَك ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَك » .

ومنها : تولية المناصبِ والأَعمالِ لأَصحابِها .

السّادسةُ والثّلاثون : تحريمُ قتلِ النَّفْسِ والجناياتِ عليها : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ الآية .

السّابعةُ والثّلاثون : تحريمُ الفروج ، وما يجبُ فيها مِنَ التّعفُّف : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ ﴾ أي : أطهر .

ولحديث « الصّحيحين » : « لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِن ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِن ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِن » .

الثّامنةُ والثّلاثون : قبضُ اليدِ عنِ الأَموالِ المحرَّمة : ويدخلُ فيه : تحريمُ السَّرقة ، وقطعُ الطَّريق ، وأَكلُ الرِّبَا ، وأَخذُ الرُّشا ، وهديةُ القضاةِ ونحوهم منَ الحكّام ، والتَّطفيف ، وكلُّ ما لا يستحقُّهُ شرعاً ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ .

وقولهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « لَعَنَ اللهُ الرَّاشِيَ والْمُرْتَشِي ، والرَّائِشَ بَيْنَهُمَا » .

التّاسعةُ والثّلاثون : وجوبُ التَّورُّعِ في المطاعمِ والمشارب ، وبالاجتنابِ عمّا لا يحلُّ منهُما ؛ كالميتة ، والخمر ، والنَّبيذ ، والحيواناتِ الَّتي لا تُؤكَل : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ ﴾ الآية . ولقولهِ تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ .

ولحديثِ عائشة رضي الله عنها : « كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَر . . فَهُوَ حَرَام » . ولحديث : « مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا . . حُرِمَهَا فِي الآخِرَة » .

وعن عبدِ اللهِ بنِ إدريسَ قولُه :

كُلُّ شَرَابٍ مُسْكِرٍ كَثِيرُهُ … مِنْ تَمْرٍ أَوْ مِنْ عِنَبٍ عَصِيرُهُ

فَإِنَّهُ مُحَرَّمٌ يَسِيرُهُ … إِنِّي لَكُمْ مِنْ شَرِّهِ نَذِيرُهُ

الأَربعون : تحريمُ الملابسِ والزِّيّ[1] ، والأَواني ، وما يكرهُ منها : لحديثِ أَنس رضي الله عنه : « مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ ـ يعني في الدُّنيا ـ فَلَيْسَ يَلْبَسُهُ فِي الآخِرَة » . ولحديثِ حذيفة رضي الله عنه : « الْحَرِيرُ وَالدِّيبَاجُ وَآنِيَةُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ لَهُم[2] فِي الدُّنْيَا ، ولَكُم فِي الآخِرَة » .

الحاديةُ وَالأَربعون : تحريمُ الملاعبِ والملاهي والمخالفةُ للشَّريعة : ومنه : التَّغنِّي المحظورُ ـ ومنهُ ما يفعلُهُ المؤذِّنونَ في المساجدِ ـ ونحوِها مِنَ التَّغنِّي بالأَبياتِ المشتملةِ علىٰ ذِكرِ الولدانِ والنِّساء . ومنه : دقُّ النّاي والعود وشبههما ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ﴾ .

ولحديثِ مسلمٍ : « مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِير . . فَكَأَنَّمَا غَمَسَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِه » .

---

(١) قوله : والزي ، يعني على الرجال كما تقدم . اهـ منه .

(٢) لهم ؛ أي : للكفار . اهـ منه .

الثانيةُ والأربعون : الاقتصادُ في النَّفقةِ وتحريمُ الإسراف ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ .

ولحديثِ مسلم : « نهىٰ عن ثلاث : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال » .

الثالثةُ والأربعون : تركُ الغلِّ والحسد : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ . وقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ .

قالَ الحسن : هوَ أَوّلُ ذنبٍ كانَ في السَّماءِ ، وأَوّلُ شيءٍ كانَ في الأَرضِ مِنِ ابني آدم ، علىٰ ما قيل .

وعنِ الأَحنفِ بنِ قيس : خمسٌ هنَّ كما أَقول : لا راحةَ لحسود ، ولا مروءَةَ لكذوب ، ولا وفاءَ لملولٍ ، ولا حيلةَ لبخيل ، ولا سؤْددَ لسيّءِ الخلُق .

وعن المبرّدِ أَنَّهُ أَنشد :

عَيْنُ الْحَسُودِ عَلَيْكَ الدَّهْرَ حَارِسَةٌ ... تُبْدِي الْمَسَاوِيَ وَالإِحْسَانَ تُخْفِيهِ
يَلْقَاكَ بِالْبِشْرِ يُلْقِيهِ مُكَاشَرَةً ... وَالْقَلْبُ مُكْتَتِمٌ فِيهِ الَّذِي فِيهِ

الرّابعةُ والأَربعون : تحريمُ أَعراضِ النّاسِ وما يجبُ مِنْ تركِ الوقيعةِ فيها : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ .

وقولهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ .

ولحديثِ « الصَّحيحين » : « لاَ يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلاً بِالْفِسْقِ وَلاَ يَرْمِيهِ بِالْكُفْر . . إِلاَّ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِك » .

الخامسةُ والأربعون : إخلاصُ العملِ للهِ عَزَّ وَجَل ، وتركُ الرِّياء : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ .

وعن عيسىٰ عليهِ السَّلام : إذا كانَ يومُ صومِ أَحدِكُم . . فليدهنْ لحيتَهُ[1] ، وليمسحْ شفتيه ، وليخرج إلى النّاسِ حتَّىٰ كأَنَّهُ ليسَ بصائم . وإذا أَعطىٰ بيمينه . . فليُخفِهِ عن شماله . وإذا صلَّىٰ أَحدُكم . . فليُسدلْ سترَ بابه ؛ فإنَّهُ تعالىٰ يقسمُ الثَّناءَ كما يقسمُ الرِّزق .

قلت : ولذا ذكرَ الفقهاءُ أَنَّ صلاةَ النَّوافلِ في البيوتِ أَفضل .

وعنِ ابنِ الأَعرابي : أَخسرُ الخاسرينَ مَنْ أَبدىٰ للنّاسِ صالحَ أَعماله ، وبارزَ بالقبيحِ مَنْ هوَ أَقربُ إليهِ مِنْ حبلِ الوريد .

السّادسةُ والأَربعون : السُّرورُ بالحسنةِ والاغتمامُ بالسَّيِّئَة : لحديثِ جابر رضي الله عنه : « مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُه . . فَهُوَ مُؤْمِن » .

السّابعةُ والأَربعون : معالجةُ كلِّ ذنبٍ بالتَّوبة : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

الثّامنةُ والأَربعون : القرابينُ و هيَ الهديُ والأُضحيةُ والعقيقة : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ ولقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ .

ولحديثِ الحسنِ بنِ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « مَنْ ضَحَّىٰ أُضْحِيَةً طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُه ، مُحْتَسِباً الأُضْحِيَة . . كَانَتْ لَهُ حِجَاباً مِنَ النّار » . ولحديث : « الْوَلَدُ مَرْهُونٌ بِعَقِيقَتِه » .

فعليكم ـ إخواني ـ بالتَّمَسُّكِ بهٰذهِ الشُّعب ؛ فإنَّها العروةُ الوثقىٰ عندَ حُسنِ المنقلَب . فسبحانَ مَنِ اختارَ أَقواماً للإفادة ، فصارت نهمتُهم في تحصيل الاستفادة ، وما زالت بهمُ الرِّياضةُ حتَّىٰ تركوا العادة ، شغلتهُم مخاوفهُم عن كلِّ غادة ، وأَنالهُمُ المقامَ الأَسنىٰ ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ .

كلٌّ منهُم قد هجرَ مرادَه ، وعلَتْ هممهُم فطلبوا السِّيادة ، وعاملوا محبوبَهُم

(١) وهٰذا في غيرِ الفرضِ وإلاّ فلا رياءَ في الفرائضِ وإنَّما الأَعمالُ بالنِّيّاتِ اهـ منه .

يرجونَ وداده ، رَفعوا مكتوبَ الحزنِ وجعلوا الدَّمعَ مدادَهْ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ .

رفضوا الدُّنيا شغلاً بالدِّين ، وسَلكوا منهاجَ المهتدين ، وسابقوا سابقي العابدين ، فصاروا أئِمَّةً لِلمريدينْ وقادة ، لو رأَيتَهُم واللَّيل قد سجىٰ ، وقد أَقبلوا إلىٰ بابِ المرتجىٰ فلَم يجدوا ذلكَ البابَ[1] مُرْتَجاً ، حلفوا في ظلام الدُّجىٰ ، علىٰ سهرِ الوسادة .

سبحانَ مَنْ أَنعمَ عليهِم وأَفادَهُم ، وأَعطاهم مناهُم وزادهُمَ! ما ذاكَ بإِرادتهِم بل هوَ أَرادَهُم ، سبقت إِرادتَهُم تلكَ الإِرادة . أَجرىٰ لَهم أجراً لا يوازىٰ ، ووهبَ لَهم في مفازةِ الخطرِ مفازاً ، وأَنجزَ موعدَهُم يومَ اللِّقاءِ إِنجازاً ، وجازىٰ عبادَهُ علىٰ سابق العبادة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ .

اللَّهُم ، يا مَنْ سبقتْ لَهُ بالخيرِ والشَّرِّ الإِرادة ؛ اجعلنا ممَّنْ يستمعونَ القولَ فيتَّبعونَ أحسنَه ، ووفِّقنا للطَّاعةِ والعِلْمِ والعبادة ، وثبِّتنا عندَ الموتِ على الشَّهادة ، واجعلْنا مِنَ الفرقةِ النَّاجيةِ الَّتي هيَ للسُّنَّةِ منقادة ، واحفظنا مِنْ بدعِ أَهلِ الأَهواء ؛ فإِنَّها بئستِ العادة ، واحشرنا يومَ الفزعِ الأَكبرِ معَ الصَّالحينَ والعلماءِ العاملينَ مِنْ أَهلِ الشَّهادة .

* * *

(1) قولهُ : مرتجاً ؛ أَي : مغلوقاً . اهـ منه .

المجلس الثالث والأربعون
في شعب الإيمان أيضاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ المنفردِ بالعزِّ والجلال ، المتفضِّلِ بِالعطاءِ والإفضال ، مسخِّرِ السَّحابِ الثِّقال ، مربِّي الزَّرعِ تربيةَ الأَطفال ، جلَّ عن مِثلٍ ومثال ، وتعالىٰ عن الفكرِ والخيال . قديمٌ لَم يزلْ ولا يزال ، يتفضّلُ بالإنعامِ فإنْ شُكر . . زاد ، وإنْ لَم يُشكر . . زال .

أحمدُهُ علىٰ كلِّ حال ، وأَشهدُ أَنَّهُ الواحدُ الأَحدُ الكبيرُ المتعال ، وأَنَّ سيِّدنا مُحَمَّداً عبدُهُ ورسولُه ، أَشرفُ مَنْ وعظَ وبشَّرَ وأَنذرْ وقال ، صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم على مَمرِّ الأَيّامِ واللَّيال ، وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ باذلِ النَّفسِ والمال ، وعلىٰ عمرَ العادلِ فما جارَ ولا مال ، وعلىٰ عثمانَ الثّابتِ للشَّهادةِ ثبوتَ الجبال ، وعلى أَخيهِ وابنِ عمِّهِ عليٍّ الَّذي نزلْ فيه ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ فيا لَهُ فخرٌ لا يُنال ، وعلىٰ بقيَّةِ القرابةِ والصَّحابةِ والتّابعين ، ومَنْ حازَ شُعبَ الإيمانِ مِنَ النِّساءِ والرِّجال .

أَمّا بعد : فقد روي في « الصَّحيحين » عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : « الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَة ، أَعْلاَهَا : قَوْل : لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الله . وَأَدْنَاهَا : إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيق . وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَان » .

فنقول ـ وباللهِ التَّوفيق ـ : قد تقدَّمَ الكلامُ في الدَّرسِ الماضي علىٰ كثيرٍ مِنْ هـٰذهِ الشُّعب : وبقيَ منها شُعبٌ يلزمُ بيانُها في هـٰذا الدَّرس ، فسنذكرُها لكم إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ :

فأَمّا الشُّعبةُ التّاسعةُ والأَربعون : فهيَ طاعةُ أُولي الأَمر : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ قيل : هُم أُمراءُ السَّرايا . وقيل : هُمُ العلماء .

ولحديث : « مَنْ أَطَاعَنِي . . فَقَدْ أَطَاعَ الله ، وَمَنْ عَصَانِي . . فَقَدْ عَصَى الله . وَمَنْ يُطِعِ الأَمِير . . فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِير . . فَقَدْ عَصَانِي » .

ولحديثِ أَبي ذرّ رضي الله عنه : « يا أَبا ذرّ ؛ اسْمَعْ وَأَطِعْ وَلَوْ عَبْداً حَبَشِيّاً مُجَدَّعَ الأَطْرَاف » .

الخمسون : التَّمسُّكُ بما عليهِ الجماعة : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ .

ولحديثِ مسلمٍ : « مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَة ، ثُمَّ مَات . . مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّة » .

الحاديةُ والخمسون : الحُكمُ بالعدل : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ .

الثّانيةُ والخمسون : الأَمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عنِ المنكَر : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ .

وقولهِ تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ الآية .

ولحديثِ أَبي سعيد رضي الله عنه : « مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَراً . . فَلْيُنْكِرْه ، أَوْ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِه ، فإِنْ لَمْ يَسْتَطِع . . فَبِلِسَانِه ، فَإِنْ لَمْ يستطِع . . فَبِقَلْبِه ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَان » .

الثالثةُ والخمسون : التَّعاونُ على البِرِّ والتَّقوىٰ : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ .

ولحديث : « المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً » .

الرّابعةُ والخمسون : الحياء : لحديث : « إِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الإِيمَان ، وَالإِيمَانُ فِي الْجَنَّة » .

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ذاتَ يومٍ لأَصحابه : « اسْتَحْيُوا مِنَ الله » . قالوا : إِنَّا نستحيي اللهَ يا رسولَ الله ، والحمدُ لله . قال : « لَيْسَ ذَلِك ، وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَن تَحْفَظَ الرَّأْسَ ومَا وَعَىٰ ، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَىٰ ، وَتَذْكر الْمَوْتَ وَالْبِلَىٰ ،

وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَة . . تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا وَآثَرَ الآخِرَةَ عَلَى الأُولَىٰ ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِك . . فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاء » .

قال : ومعنىٰ : « أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْس . . إلخ » أي : ما حفظهُ مِنَ السَّمعِ والبصرِ واللِّسان ، فلا يستعملها إلاَّ فيما يحلّ .

وقوله : « وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَىٰ » . يريد : لا يجمعُ فيهِ إلا الحلال ، ولا يأكلُ إلاَّ الطَّيِّب . أو يرادُ بحفظِ الفرجِ والقلبِ والرِّجل .

وفي « صحيحِ البخاري » : « إِنَّ مِمّا أَدْرَكَ النّاسَ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ الأُولَىٰ : إِذَا لَمْ تَسْتَحِ . . فَاصْنَعْ مَا شِئْت » .

الخامسةُ والخمسون : برُّ الوالدين : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

وقولهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « أَفْضَلُ الأَعْمَال : الصَّلاةُ لِوَقْتِهَا ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْن » .

السّادسةُ والخمسون : صلةُ الأَرحام : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ .

ولحديثِ أَنس رضي الله عنه : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسطَ لَهُ الرِّزْقُ وَيُنسأَ لَهُ في أَجَلِه . . فَلْيَصِلْ رَحِمَه » .

ولحديثِ جُبير رضي الله عنه : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِع » أَي : للرَّحم . قال أَبو حفص القزويني : ولا فرقَ بينَ أَنْ يكونَ برّاً أو فاجراً .

السّابعةُ والخمسون : حُسنُ الخلُق : ويدخلُ فيه : كظمُ الغيظ ، ولينُ الجانب ، والتَّواضع ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ .

ولحديث : « خِيَارُكُم أَحْسَنُكُم أَخْلاَقاً » . وفي رواية : « إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُم إِلَيَّ أَحْسَنكُمْ أَخْلاَقاً » .

الثّامنةُ والخمسون : الإحسانُ إلى المماليك : لحديث : « إنَّ إِخْوَانكُم خَوَلُكُم ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُم ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِه . . فَلْيُطْعِمْهُ مِمّا يَأْكُل ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمّا يَلْبَس ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُم مَا يَغْلِبُهُم ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُم . . فأَعِينُوهُم عَلَيه » .

التّاسعةُ والخمسون : حقُّ السّادةِ على المماليك : لحديثِ ابنِ عمر رضي الله عنهما : أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : « إنَّ الْعَبْدَ إِذَا نَصَحَ لِسَيِّدِهِ وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ اللهِ . . فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْن » .

وفي « سننِ أَبي داوود » : « الْعَبْدُ الآبِقُ لاَ تُقْبَلُ لَهُ صَلاةٌ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَىٰ موْلاَه » .

السِّتُّون : حقوقُ الأَولادِ والأَهلين : وهو : قيامُ الرَّجلِ علىٰ ولدهِ وأَهله ، وتعليمُهُ إِيّاهُم مِنْ أُمورِ دِينهم ما يحتاجونَ إِليه ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ الآية .

قالَ الحسن : أَي : مروهُم بطاعةِ اللهِ وعلِّموهم الخير .

وقالَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ : علِّموهم أَدِّبوهم .

ولحديثِ أَنسٍ رضي الله عنه في « مسلم » : « مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّىٰ يَبْلُغَا . . جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ هٰكَذَا » . وضمَّ أُصبعيه .

وليُعلَم : أَنَّهُ ينبغي لَهُ أَنْ يُعلِّمَ ولدَهُ حرفةً وصنعةً يكتسبُ بها معيشتَه ؛ فإِنَّ الرَّجلَ ينبغي لَهُ أَنْ يعملَ للدُّنيا وللآخرة .

الحاديةُ والسِّتُّون : مقاربةُ أَهلِ الدِّينِ ومودَّتُهم : وإِفشاءُ السَّلام بينَهُم والمصافحةُ لَهم ، ونحو ذلكَ مِنْ أَسبابِ تأْكيدِ المودَّة : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ .

ولحديثِ أَبي هريرة رضي الله عنه : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه ، لاَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا ، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَحَابُّوا أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ شَيءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوه تَحَابَبْتُم ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُم » .

وحديثِ قتادة ، قال : قلتُ لأَنسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْه : أَكانتِ المصافحةُ في أَصحابِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ؟ قال : نَعَم .

وحديثِ أَبي هريرة رضي الله عنه : « إِنَّ اللهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَة : أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي ؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي » .

الثّانيةُ والسِّتُّون : ردُّ السَّلام ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ .

ولحديثِ أَبي سعيدِ الخدري رضي الله عنه : « إِيَّاكُم وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَات » . قَالوا : يا رسولَ الله ؛ ما لَنا مِنْ مجالِسنا بُدٌّ نتحدَّثُ فيها . فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « إِذَا أَبَيْتُم إِلاَّ الْمَجَالِس . . فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّه » . قالوا : وما حقُّ الطَّريق ؟ قال : « غَضُّ الْبَصَر ، وَكَفُّ الأَذَىٰ ، وَرَدُّ السَّلاَم ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَر » .

الثّالثةُ والسِّتُّون : عيادةُ المريض : لحديثِ البراء : (أَمرنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم بسَبعٍ ونهانا عن سَبع : أَمرنا بعيادةِ المريض ، واتِّباعِ الجنائز ، وردِّ السَّلام ، وتشميتِ العاطس ، وإِبرارِ القسَم ، ونصرِ المظلوم ، وإِجابةِ الدّاعي . ونهانا عن : حلقةِ الذَّهبِ ـ أو قالَ : خاتمِ الذَّهبِ ـ وآنيةِ الذَّهبِ والفضَّة . . » الحديث .

ولحديثِ ثوبان رضي الله عنه : « عَائِدُ الْمَرِيضِ فِي مَخْرَفَةِ الْجَنَّة » .

قالَ القزويني : ولا فرقَ بينَ أَنْ يكونَ برّاً أَو فاجراً ، لٰكنْ ينبسطُ إِلى البرّ ، وينقبضُ عنِ الفاجر .

الرّابعةُ والسِّتُّون : اَلصَّلاةُ علىٰ مَنْ ماتَ مِنْ أَهلِ القِبْلَة : لحديثِ ثوبان رضي الله عنه : « مَنْ صَلَّىٰ عَلَىٰ جِنَازَة . . فَلَهُ قِيرَاط ، وَمَنْ شَهِدَ دَفْنَهَا . . فَلَهُ قِيرَاطَان ، الْقِيرَاطُ مِثْلُ أُحُد » .

الخامسةُ والسِّتُّون : تشميتُ العاطس : لحديثِ مسلمٍ عن أَبي موسىٰ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْه : « إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُم فَحَمِدَ الله . . فَشَمِّتُوه[1] ، فَإِنْ لَمْ يَحْمَدِ الله . . فَلاَ تُشَمِّتُوهُ » .

---

(١) التشميت : أن يقال للعاطس : رحمك الله .

السّادسةُ والسِّتُّون : مباعدةُ الكفّارِ والمفسدين ، والغِلظةُ على الفاسقين ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ الآية .

وقولهِ تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية .

ولحديثِ أَبي هريرة رضي الله عنه : « إِذَا لَقِيتُمُ الْمُشْرِكِينَ فِي طَرِيق . . فَلاَ تَبْدَؤُوهُم بِالسَّلاَم ، وَاضطَرُّوهُم إِلَىٰ أَضْيَقِهَا » .

وحديث أَبي سعيد رضي الله عنه : « لاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِي ، وَلاَ تَصْحَبْ إِلاَّ مُؤْمِناً » .

وليُعلَم : أَنَّ مجاوزةَ الحدِّ الَّذي حدَّهُ الشّارعُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ممنوعة ، فعدمُ موالاتِهم وتعظيمِهِم ومحبَّتِهم لا يستلزمُ الجورَ عليهِم ؛ فقد وردت أَخبارٌ صحيحةٌ في عدمِ أَذيَّةِ أَهلِ الذِّمَّة ، فلا تَغفل .

السّابعةُ والسِّتُّون : إكرامُ الجار : لقولهِ تعالىٰ : ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ .

قيل في التَّفسير : ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الجارُ الملاصقُ ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ : البعيدُ غيرُ الملاصق . ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ : الرَّفيقُ فِي السَّفر .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما ومجاهد : (الجار ذي القربى) [النساء : ٣٦] : الَّذي بينكَ وبينهُ قرابة . و(الجار الجنب) [النساء : ٣٦] : الأَجنبيُّ عنك . و(الصاحب بالجنب) : [النساء : ٣٦] الرَّفيقُ في السَّفر . قيل : والحضر .

وعن عليٍّ وابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُما : (الصاحبُ بالجنب) : المَرأَة .

ولحديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُه » .

الثّامنةُ والسِّتُّون : إكرامُ الضَّيف : لحديثِ « الصَّحيحين » : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ

وَالْيَوْمِ الآخِرِ . . فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَته » . قالوا : وما جائِزَتهُ ؟ قال : « يَوْمُهُ وَلَيْلَتُه ، وَالضِّيافَةُ ثَلاَث ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِك . . فَهُوَ صَدَقَة » .

التَّاسعةُ والسِّتُّون : السَّترُ علىٰ أَصحابِ الذُّنوب : لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ولحديثِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما في « الصَّحيحين » : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِم ، لاَ يُسْلِمُهُ وَلاَ يَظْلِمُه ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيه . . كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِه ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَة . . فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَة ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً . . سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَة » .

السَّبعون : الصبرُ على المصائِب ، وعمّا تنزعُ النَّفسُ إِليهِ مِنْ لذَّةٍ وشهوة : لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ .

قالَ مجاهد : أَرادَ بالصَّبر : الصَّوم .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

ولحديثِ ابنِ مسعود رضي الله عنه : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذىً مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاه . . إِلاَّ حَتَّ اللهُ[1] عَنْهُ مِنْ سَيِّآتِهِ كَمَا تَحتُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَها » .

الحاديةُ والسَّبعون : الزُّهدُ وقصرُ الأَمل : لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ .

---

(١) في « القاموس » : حتَّهُ فركَهُ وقشره ، فانحتَّ وتحات . والورقُ سقطتْ كانحتَّتْ وتحاتَّتْ . اهـ منه .

ولقد أحسنَ القائل :

خُبْـــزٌ وَمَـــاءٌ وظِـــلٌّ هَـٰـــذَا النَّعِيـــمُ الأَجَـــلُّ
جَحَـــدْتُ نِعْمَـــةَ رَبِّـــي إِنْ قُلْـــتُ : إِنِّـــي مُقِـــلُّ

الثَّانيةُ والسَّبعون : الغيرةُ وتركُ المذاءِ[1] : لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ .

ولحديثِ « البخاري » : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَغَار ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَار ، وَغَيْرَةُ الله : أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلّ » .

ولحديثِ أَبي سعيد رضي الله عنه : « الْغَيْرَةُ مِنَ الإِيمَان ، وَإِنَّ الْمَذاءَ مِنَ النِّفاق » .

قالَ الحليمي : هوَ أَنْ يجمعَ بينَ الرِّجالِ والنِّساء ، ثمَّ يُخليهم يماذي بعضُهم بعضاً . وأُخذ مِنَ المذي .

وقيل : هوَ إِرسالُ الرِّجالِ معَ النِّساء . مِنْ قولِهم : مَذَيْتُ الفرس ، إِذا أرسلتَها ترعىٰ .

الثَّالثةُ والسَّبعون : الإعراضُ عنِ اللَّغو : لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ .

واللَّغوُ هو : الباطلُ الَّذي لا يعنيه، ولا يكونُ لقائلِهِ فيهِ فائدة ، وربَّما كانَ وبالاً عليه .

الرَّابعةُ والسَّبعون : الجودُ والسَّخاء : لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ .

---

(١) وفي « القاموس » : والمذاءُ كسماء ، جمعُ الرِّجالِ والنِّساءِ وتركهُم يلاعبُ بعضُهُم بعضاً . أَو هو الدِّياثة . وأَمذىٰ : قادَ علىٰ أَهلِهِ اهـ منه .

ولِما في « الصَّحيحين » : « مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ إِلاَّ وَمَلَكَانِ يَنْزِلاَن ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ ؛ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً ، وَيَقُولُ الآخَر : اللَّهُمَّ ؛ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً » .

الخامسةُ والسَّبعون : رحمةُ الصَّغيرِ وتوقيرُ الكبير : لحديثِ مسلمٍ : « مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ لاَ يَرْحَمُهُ اللهُ » .

وحديثِ أَبي داوودَ [٤٩٤٣] : « مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا . . فَلَيْسَ مِنّا » .

ولحديثِ « الصَّحيحين » : « جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْء ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِين ، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءاً وَاحِداً ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْق ، حَتَّىٰ تَرْفَع الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَه » .

السّادسةُ والسَّبعون : إصلاحُ ذاتِ البين : لقولهِ تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ .

ولحديثِ « الصَّحيحين » عن أُمِّ كلثوم بنتِ عقبة رضي الله عنها : « لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَيَقُولُ خَيْراً أَوْ يَنْمِي خَيْراً » قالت : ولَم أَسمعْهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يُرخِّصُ في شيءٍ ممّا يقولهُ النّاسُ كذباً إلاّ في ثلاث : الحرب ، والإِصلاحِ بينَ النّاس ، وحديثِ الرَّجلِ امرأتَهُ وحديثِ المرأةِ زوجَها .

السّابعةُ والسَّبعون : أَنْ يُحبَّ الرَّجلُ لأخيهِ المسلمِ ما يحبُّ لنفْسه ، ويَكرهُ لَهُ ما يَكرهُهُ لِنفْسه : لحديثِ جريرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْه : (بايعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم علىٰ إقامةِ الصَّلاة ، وإِيتاءِ الزَّكاة ، والنُّصحِ لكلِّ مسلم) .

قالَ أَبو حفصٍ القزويني : ويدخلُ فيهِ إِماطةُ الأذىٰ عَنِ الطَّريقِ المشارُ إِليهِ في حديثِ أَبي هريرةَ رضي الله عنه المتقدِّم : « أَفْضَلُهَا : قَوْلُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الله ، وَأَدْنَاهَا : إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيق » اهـ

ولنذكر ما يتعلَّقُ بهاتينِ الشُّعبتين :

فأمّا الشُّعبةُ الأُولىٰ : فهيَ الأَصلُ الرّاسخُ والغصنُ الأَعظمُ الشّامخ ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ .

ولحديثِ « الصَّحيحين » عن أَنس رضي الله عنه ، قال : كانَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ومعاذٌ رديفه على الرَّحل ، فقال : « يَا مُعَاذ » قالَ : لبَّيكَ يا رسولَ اللهِ وسعديك . قال : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . . إِلاَّ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّار » . قال : يا رسولَ الله ؛ أَلا أُخبرُ بها النّاسَ فيستبشرونَ ؟ قال : « إِذاً يَتَّكِلوا » فأخبرَ بها معاذٌ عندَ موتهِ تأثُّماً[١] .

وفي « الصَّحيحين » عن عتبانَ بنِ مالك ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : « إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَال : لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الله ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله » .

وفي « الصَّحيحين » عن أَبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : « مَا مِنْ عَبْدٍ قَال : لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الله ، ثُمَّ مَاتَ عَلَىٰ ذَلِكَ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّة » قلت : وإِنْ زنىٰ وإِنْ سرق ؟ قال : « وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَق » قالها ثلاثاً . ثمَّ قالَ في الرّابعة : « عَلَىٰ رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرّ » فخرجَ أَبو ذرٍّ وهوَ يقول : وإِنْ رَغم أَنفُ أَبي ذرّ .

وعن أَبي ذرٍّ أَيضاً قال : قلت : يا رسُولَ الله ؛ علِّمني عملاً يُقرِّبني مِنَ الجنَّةِ ويُباعدني مِنَ النّار ؟ قال : « إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَة . . فَاعْمَلْ حَسَنَة ؛ فإِنَّهَا عَشْرُ أَمْثَالِهَا » . قلت : يا رسولَ الله ؛ اللهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هوَ مِنَ الحسنات ؟ قال : « هِيَ أَحْسَنُ الْحَسَنَات ، وَهِيَ تَمْحُو الذُّنُوبَ وَالْخَطَايَا » .

وعن أُمِّ هانىء رضي الله عنها ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهُ قال : « لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ لاَ تَتْرُكُ ذَنْباً وَلاَ يَسْبِقُهَا عَمَل » .

وفي المسند : أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قالَ لأَصحابه : « جَدِّدُوا إِيمَانَكم » قالوا : كيفَ نجدِّدُ إِيمانَنا ؟ قال : « قُولُوا : لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ الله » .

---

(١) **تأثماً** ؛ أي : خروجاً من الإثم لأنه علم مسألة فلا يكتمها . اهـ منه .

وفي المسندِ أَيضاً : أَنَّ موسىٰ عليهِ السَّلامُ قال : يا رب ؛ علِّمني شيئاً أَذكرك وأَدعوكَ به .

قال : يا موسىٰ ؛ قُل : لا إلـٰهَ إلاَّ الله .

قالَ : يا رب ؛ كلُّ عبادكَ يقولونَ هـٰذا .

قال : قُل : لا إلـٰهَ إلاَّ الله .

قال : لا إلـٰهَ إلاَّ أَنْت ، إنَّما أُريدُ شيئاً تخصُّني به .

قال : يا موسىٰ ؛ لَو أَنَّ السَّمـٰواتِ السَّبعَ وعامرهنَّ غيري ، والأَرضينَ السَّبعَ في كفَّة ، ولا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ في كفَّة . . مالت بهنَّ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ .

وكذلكَ ترجحُ بصحائفِ الذُّنوب ، كما في حديثِ السِّجلاَّتِ والبطاقة ، وقد أَخرجَهُ الإمامُ أَحمدُ والنَّسائيُّ والتِّرمذي ، ومجمله : أَنَّهُ يؤْتَىٰ بسجلاَّتِ شخصٍ يومَ القيامةِ عندَ وزنِ الأَعمالِ وليسَ فيها حسنة ، ثمَّ يؤْتَىٰ ببطاقةٍ فيها كلمةُ التَّوحيدِ فتوضعُ في كفَّةِ الميزان ، فترجحُ تلكَ البطاقةُ علىٰ تلكَ السِّجلاَّت .

ولها فضائِلُ كثيرة ، ولقائِلها حسناتٌ وفيرة . فنسأَلُ اللهَ تعالىٰ أَنْ يميتنا علىٰ شهادةِ أَنْ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ وأَنَّ مُحمَّداً رَسولُ الله ، وأَنْ يحشرنا عليهما ، ويجعلَهُما في موازينِ حسناتِنا ، إنَّهُ أَرحمُ الرّاحمين .

وأَمّا الشُّعبةُ الأَخيرة ، وهي : إماطةُ الأَذىٰ عن الطَّريق . . فالمراد : إزالةُ كلّ ما يؤْذي المارّين ؛ كالحجرِ والشَّوك ، والعظمِ والنَّجاسة ، والجيفِ والقشور ، وزيادة الرَّش ، ورمي المأْكولاتِ بوضعِها في الطُّرق ، والجلوسِ فيها ، ونحوِ ذلكَ ممّا يؤْذي العابرين . عن أَبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي ؛ حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا ، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا : الأَذىٰ يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِىءِ أَعْمَالِهَا : النُّخَامَةُ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لاَ تُدْفَن » .

ورويَ عنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « نَزَعَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ غُصْنَ شَوْكٍ عَنِ الطَّرِيق ، فَشَكَرَ اللهُ ذَلِكَ لَهُ فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّة » .

وعن أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ

ابْنِ آدَمَ إِلاَّ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْس » . قيل : يا رسولَ الله ؛ مِنْ أَينَ لَنا صدقةٌ فنتصدَّقَ بها ؟ فقال : « إِنَّ أَبْوَابَ الْخَيْرِ لَكَثِيرَة : اَلتَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيد ، وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيل ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَر ، وَتُمِيطُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيق ، وَتُسْمِعُ الأَصَم ، وَتَهْدِي الأَعْمَىٰ ، وَتَدُلُّ الْمُسْتَدِلَّ عَلَىٰ حَاجَتِه ، وَتَسْعَىٰ بِشِدَّةِ سَاقَيْكَ مَعَ اللَّهْفَانِ الْمُسْتَغِيث ، وَتَحْمِلُ بِشِدَّةِ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيف . . فَهَـٰذَا كُلُّهُ صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَىٰ نَفْسِك » .

وفي رواية : « وَتَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَة » .

وليُعلم : أَنَّ مِنْ جملةِ إماطةِ الأذىٰ عنِ الطَّريق : قَتْلَ المؤذياتِ الَّتي فيها ؛ كالكَلْبِ الكَلِبِ والعقور ، والهوامِ المؤذية ؛ كالعقاربِ والحيَّاتِ والوزغ ، وكرفعِ الجرصوناتِ الخارجةِ مِنَ البيوتِ بغيرِ وجهٍ شرعيٍّ والسُّباطات[1] ، ولاسيَّما المنخفضة المؤذية المارِّين .

ولنذكر بعضَ الأَحاديثِ الواردةِ بذلك :

فقد رويَ عن سائبةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : أَنَّها دَخلت علىٰ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فرأَتْ في بيتِها رمحاً موضوعاً ، فقالت : يا أُمَّ المؤمنين ؛ ما تصنعينَ بهـٰذا ؟ قالت : أَقتلُ بهِ الأَوزاغ ؛ فإِنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَخبرنا أَنَّ إِبراهيمَ عليهِ السَّلامُ لمّا أُلقي في النّار . . لَم تكنْ دابَّةٌ في الأَرضِ إِلاَّ أَطفأَتِ النّارَ عنهُ غير الوزغ ، فإِنَّهُ كانَ ينفخُ عليه ، فأَمرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ بقَتْله .

وعنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « مَنْ قَتَلَ حَيَّة . . فَلَهُ سَبْعُ حَسَنَات ، وَمَنْ قَتَلَ وَزغاً . . فَلَهُ حَسَنَة ، وَمَنْ ترك حَيَّةً مَخَافَةَ عَاقِبَتِها . . فَلَيْسَ مِنَّا » .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما عنهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « مَنْ تَرَكَ الْحَيَّاتِ مَخَافَةَ طَلَبِهِن . . فَلَيْسَ مِنَّا ، مَا سَالَمْنَاهُنَّ مُنْذُ حَارَبْنَاهُن » .

---

(١) **السباطات** ـ جمع ساباطٍ ـ وهو الممر المرفوع الذي يتوصل بالمرور عليه بين بنائين .

واختلفَ في قتلِ الحيّاتِ قَبْلَ الإنذار :

قالَ المنذري : ذهبَ طائفةٌ إلىٰ قتلِها في الصَّحارىٰ والبيوتِ بالمدينةِ وغيرِها .

وقالت طائفة : تُقتلُ الحيّاتُ أجمعُ إلاَّ سواكنَ البيوت .

وقالت طائفةٌ بِنَذْرِ سواكنِ البيوت ، فإنْ بَدَيْنَ بعدَ الإنذار . . قُتِلْن ، وما وُجِدَ منهنَّ في غيرِ البيوت . . قُتلَ بلا إنذار .

وقالَ مالك : يقتلُ ما وُجِدَ منها في المساجد . واستدلَّ القائلُ بالإنذارِ بقولهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « إنَّ لهٰذِهِ البيوتِ عَوَامِر ، فَإِذَا رَأَيْتُم مِنْهَا شَيْئاً . فَحَرِّجُوا عَلَيْهَا ثَلاثاً ، فَإِنْ ذَهَب ، وَإِلاَّ . . فَاقْتُلوْه . . » أي : فإنَّهُ شيطان .

ورويَ أنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ سُئِلَ عَن حيّاتِ البيوت ، فقال : « إِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُنَّ شَيْئاً فِي مَسَاكِنِكُم . . فقُولُوا : أَنْشُدُكُمُ الْعَهْدَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْكُم نُوح ، أَنْشُدُكُمُ الْعَهْدَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْكُم سُلَيْمَانُ أَنْ لاَ تُؤْذُونَا . فَإِنْ عُدْن . . فَاقْتُلُوهُن » .

وقالَ مالك : يكفيهِ أَنْ يقول : أُحَرِّجُ عليكَ باللهِ واليومِ الآخِرِ أَنْ لا تَبدوَ لَنا ولا تُؤْذينا . اِنتهىٰ باختصار .

فعليكُم ـ عبادَ الله ـ بالتَّمسُّكِ بِشُعَبِ الإيمان ؛ لِتَنجوا مِنَ النِّيرانِ وتَفوزوا بالْجِنان .

فيا مَنْ يُؤْمَرُ بما يُصلحُهُ فلا يَقبل ؛ أَمَا الشَّيبُ نذيرٌ بالموتِ قد أَقبلْ ؟! أَمَا أَنتَ الَّذي عن أَفعالِكَ تُسأَل ؟! أَمَا أَنتَ تخلو في اللَّحدِ بما تَعمل ؟! ستعلَمُ يومَ الحسابِ عندَ العتابِ مَنْ يَخجل .

يا مبادراً بالخطا ؛ توقَّفْ ولا تَعجل : يا غافلاً في بطالتِه ، يا مَنْ لا يفيقُ مِنْ سكرتِه ؛ أَينَ ندمُكَ علىٰ ذنوبك ، أَينَ حُزنُكَ علىٰ عيوبك ؟! إلىٰ متىٰ تُؤْذي بالذَّنبِ نفْسَك ، وتُضيِّعُ يومَكَ تضييعَ أَمسِك ؟ لا معَ الصَّادقينَ لكَ قَدَم ، ولا معَ التَّائبينَ لكَ نَدَم! هلاّ بَسطتَ في الدُّعاءِ يداً سائِلة ، وأَجريتَ في السَّحَرِ دمعة سائِلة !

خَـــدَعَتْنَـــا زَخَــارِفُ الآمَـــالِ فَلَهَيْنَـــا بِهَـــا عَـــنِ الآجَـــالِ
نَحْـــنُ سُفْـــنٌ وَإِنَّمَـــا أَمْهَلَتْنَـــا رَيْثَمَـــا تَسْتَعِـــدُّ لِلتَّـــرْحَـــالِ

أَسفاً لمَنْ إذا ربحَ العاملون.. خَسِر ، وإذا أُطلقَ المتَّقون.. أُسِر ؛ مَنْ لَهُ إذا خُوصمَ يَنتصر ، ونُسيَ يومَ الرَّحمةِ فما ذُكر ؟!

فالجدَّ الجدَّ أَيُّها الغافل ، فأَيَّامُ العمرِ كلُّها قلائِل . لو رأَيتَ العصاةَ والكربُ يغشاهُم ، والنَّدمُ قد أَحاطَ بهِم وكفاهُم ، والأَسَفُ علىٰ ما فاتَهُم قد أَضناهُم ، يتمنَّونَ العافيةَ وهيهاتَ مُناهُم! ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ ؟

نَزَلَ بِهِمُ المرض فأَلقاهُم كالحَرَض[1] ، فانكفَّ أَملُهم وانقبض ، وانعكسَ عليهِمُ الغرض ، ورحمَهُم في صرعتِهم مَنْ عاداهُم ، ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ ؟

يتمنون عندَ الموتِ راحة ، ويَشتهونَ عندَ الكربِ استراحة ، ويُناقَشونَ على الخطأ ولا سماحة ، وهُم كطائرٍ قُصَّ جناحه ، في حبس ، الفزعُ والكربُ يَغشاهُم ، ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ ؟

أَلَمُ أَسفهِم أَشدُّ ما في العلَّة ، وتحسُّرهُم علىٰ كلِّ ما مضىٰ مِنْ زلَّة ، وجَبَلُ ندمهِم قد نُتق كأَنَّهُ ظلَّة ، فلو رأَيتَهُم بعدَ التَّكبُّرِ عادوا أَذِلَّة ، وتملَّكَ أَموالَهُم بعدَهُم سواهُم ، ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ ؟

ما نفعَهُم ما تَعِبوا لتحصيلِهِ وجالوا ، ولا ردَّ عنهُم ما جَمعوا واحتالوا ، جاءَ المرضُ فأَذلَّهم بعدَ أَنْ صالوا ، فإذا قالَ العائِدُ لأَهليهِم : كيفَ باتوا ؟ قالوا : إِنَّ السّقمَ قد وهاهُم . ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ ؟

فالبدارَ البدارَ قَبْلَ الفوات ، والحذارَ الحذارَ مِنْ يومِ الغفلات ، قَبْلَ أَنْ يقولَ المذنب : ربِّ ارجعون ، ويقال : فات .

ويح الغافِلينَ عنَّا ما أَعماهُم! ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ ؟

نبهنا اللهُ تعالىٰ وإِيَّاكُم مِنْ هـٰذهِ الرَّقدة ، وذكَّرنا الموتَ وما بعدَه ، وصلَّى اللهُ تعالىٰ علىٰ سيِّدنا مُحَمَّدٍ والنَّبيِّينَ وآلهِ وصحبهِ أَجمعين .

* * *

(١) المريض والهالك . اهـ منه.

المجلس الرابع والأربعون
في ولادته عليه الصلاة والسلام

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي أَلبسَ المتَّقينَ لباسَ التَّقوىٰ وتولَّىٰ حِفظَ مَلْبَسهِم ، وآنَسَ العارفينَ أُنساً حُلواً فاشتَغَلوا بمؤْنِسِهم ، وكانَ معَ الصَّابرينَ لطيفاً ، فيا طيبَ مجلسهِم . وابتعثَ مُحَمَّداً بالفصاحةِ فعادَ قسُّهم كأَخرسِهِم ، فعارضَهُ مسيلمة فكانَ في المعارضةِ منْ أَنجسهِم ، فكادوه وبالغوا فأَصبحَ أَبو جهلٍ مِنْ أَبْخَسهِم ، فرماهُ كلُّ المعادينَ على الدِّينِ فعادت عليهِم أَسهُم أَقْوُسِهِم ، فقُلِبَ رؤَساؤُهُم في القَلِيبِ[1] علىٰ وجوههِم ورؤوسهِم ، ولقد كانوا يَعرفونَ أَصلَهُ ونسبتَه ، وأَنَّهُ مُذْ نشأَ فيهِم مِنْ أَنفَسهِم ، ويكفيهِم : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ .

فصلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ الَّذي كانَ في الانقيادِ مِنْ أَسْلَسهِم ، وعلىٰ عمرَ قاهرِ الأَكاسرةِ علىٰ شدَّةِ شوسهِم وشَرَسِهِم[2] ، وعلىٰ عثمانَ الَّذي هوَ مِنْ أَرفقهِم وأَكيسهِم ، وعلىٰ عليٍّ محبوبِ أَهلِ السُّنَّةِ ومُقدَّسهِم ، وعلىٰ سائرِ آلهِ وأَصحابهِ المجاهِدِينَ لِلكفارِ والماحينَ لرِجسهِم ، وسلَّم تسليماً .

أَمّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في مُحَكمِ كتابهِ العزيز : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ

---

(١) القليب : في أصل اللغة : البئر العادية وهي : التي لا يعلم لها صاحب ولا حافر ، والمراد بها هنا : على الخصوص قليب بدر ؛ التي ألقي بها هـٰؤلاء الكفرة .

(٢) قوله : شوسهم ، الشوس ـ بالشين المعجمة وبعدها واو وسين مهملة ـ النظر بمؤخر العين تكبراً أو تغيظاً والشرس ـ بالشين المعجمة وبعدها راء وسين مهملتين ـ سوء الخلق وشدة الخلاف والأشرس : الجريء في القتال ويقال : جمل لم يشرس لم يرض وأرض شرساء شديدة . اهـ منه .

بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ :

قالَ المفسِّرون : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : أَنعمَ وتفضَّلَ عليهِم ، وخصَّهُم بالذِّكر ؛ لكونهِم المنتفعينَ ببعثته ، وإلاَّ . . فهوَ رحمةٌ لكافَّةِ العالمين .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أَي : مِنْ نَسَبِهِم ، أَو مِنْ جنسهِم عربياً مِثلَهُم ، أَو مِنْ بني آدم ، لا ملَكاً ولا جِنِّياً . وقُرِىء[1] : (مِنْ أَنْفَسِهِم) بفتحِ الفاء ؛ أَي : مِنْ أَشرَفِهِم ؛ لأَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ مِنْ أَشرفِ القبائلِ وبطونِها ، وهوَ أَمرٌ معلومٌ ينبغي اعتقادُهُ لِكلِّ مؤمن .

قالَ الوالدُ عليهِ الرَّحمة : وقد سُئلَ الشَّيخُ وليُّ الدِّينِ العراقي : هلِ العلمُ بكونهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ بشراً ومِنَ العربِ . . شرطٌ في صحَّةِ الإيمان ، أَو مِنْ فرضِ الكفاية ؟

فأَجابَ بأَنَّهُ شرطٌ في صحَّةِ الإيمان . ثمَّ قال :

فلَو قال : شخصٌ أُومِنُ برسالةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ إِلىٰ جميعِ الخلق ، لـٰكنْ لا أَدري : هل هوَ مِنَ البشرِ أَو مِنَ الملائكةِ أَو مِنَ الجن . أَو : لا أَدري هل هوَ مِنَ العربِ أَو مِنَ العجم . . فلا شكَّ في كُفره ؛ لِتكذيبهِ القرآن ، وجحدهِ ما تلقَّتهُ قرونُ الإِسلامِ خَلَفاً عن سلفٍ وصارَ معلوماً بالضَّرورة عند الخاص والعام ، ولا أَعلمُ في ذلك خلافاً .

فلو كانَ ذلكَ غبيّاً لا يَعرفُ ذلك . . وَجَبَ تعليمُهُ إِيّاه ، فإِنْ جَحدَهُ بعدَ ذلك . . حَكمنا بكفره . اِنتهىٰ .

وهل يُقاسُ اعتقادُ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ مِن أَشرفِ القبائلِ والبطون علىٰ ذلكَ فيجب ذلكَ في صحَّةِ الإِسلام ، أَو لا يقاس ؟ فيهِ تأَمُّل . اِنتهىٰ

---

(١) شذوذاً .

إذا علمتَ ذلك . . فهوَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : النَّبيُّ العربيُّ الأَبطحي ، الهاشميُّ القرشي ، سيِّدُ العالَمِين ، مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطَّلبِ ـ واسمه : شيبةُ الحمد ، أَوِ اسمه : عامر ـ ابنِ هاشمٍ ـ واسمه : عَمرو ، وإِنَّما سمِّيَ هاشماً لأَنَّهُ كانَ يَهشمُ الثَّريدَ لقومه ـ ابنِ عبدِ مناف ـ واسمه : المغيرةُ ـ ابنِ قصي ـ تصغيرُ قصا ؛ أَي : بَعُد ـ ابنِ كلاب ـ واسمهُ حكيم ـ ابنِ مرَّةَ بنِ كعبِ بنِ لؤي بنِ غالبِ بنِ فِهر ـ واسمه : قريش ، وإِليهِ تُنسَبُ قريش ، فما كانَ فوقَهُ فكِنانيّ لا قرشي ـ ابنِ مالكِ بنِ النَّضر ـ واسمه : قيس ـ ابنِ كِنانةَ بنِ خُزيمةَ بنِ مُدركةَ بنِ إِلياسَ ـ بكسرِ الهمزةِ أَو بفتحِها ، ويُذكَرُ أَنَّهُ كانَ يسمع في صلبهِ تلبية النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ بالحج ـ ابنِ مضرَ بنِ نِزار ـ بكسرِ النُّون ـ ابنِ معدِّ بنِ عدنان .

وللهِ تعالىٰ درُّ القائل :

وَكَـمْ أَبٍ قَـدْ عَـلاَ بِـابْـنٍ ذُرَا شَـرَفٍ   كَمَـا عَلَـتْ بِـرَسُـولِ اللهِ عَـدْنَـانُ

وَأَمَا أُمُّهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم ، فهي : آمنةُ بنتُ وهبِ بنِ عبدِ منافِ بنِ زهرةَ بنِ كلابِ بنِ مرَّةَ بنِ كعبِ بنِ لؤي بنِ غالبِ بنِ فهر .

قالَ في « المواهبِ اللَّدنيّة » : إِنَّهُ لمّا تعلَّقت إِرادةُ الحقِّ تعالىٰ بإِيجادِ خَلْقه . . أبرزَ الحقيقةَ الحمديَّةَ وأَعلمَهُ سبحانَهُ بنبوَّتهِ وآدمُ عليهِ السَّلامُ لَم يَكنْ إِلاَّ بينَ الرُّوحِ والجسد .

أَخرجَ مسلمٌ في « صحيحه » مِنْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « إِنَّ اللهَ تعالىٰ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرضَ بِخَمْسِينَ أَلفِ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء » .

ومِنْ جملةِ ما كتبَ في الذِّكرِ ـ وهوَ أُمُّ الكتاب ـ : أَنَّ مُحَمَّداً خاتمُ النَّبيِّين .

وروى الإِمامُ أَحمدُ والبيهقيُّ عنِ العرباضِ بنِ سارية [رضي الله عنهما] ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « إِنِّي عِنْدَ اللهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِه » . أَي : طريحٌ ملقىً في الأرضِ قَبْلَ نفخِ الرُّوحِ فيه .

وعن ميسرةَ الضَّبي رضي الله عنه ، قال : قلت : يا رسولَ الله ؛ متىٰ كنتَ نبيّاً ؟ قال : « وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَد » . أَخرجهُ الإمام أَحمد .

وقالَ الحنبليُّ الحموي : زادَ الحافظُ البيهقيُّ في رواية : « إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَال : أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ إِلاَّ ما غَفَرْتَ لِي . فَقَال : إِنَّهُ لأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَي ، وَإِذْ سَأَلْتَنِي بِحَقِّه . . فقَدْ غَفَرْتُ لَك . . وَلَوْلاَ مُحَمَّداً مَا خَلَقْتُك ، وَهُوَ آخِرُ الأَنْبيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِك » .

وفي ذلكَ قالَ ابنُ جابر :

بِــهِ قَــدْ أَجَــابَ اللهُ آدَمَ إِذْ دَعَــا ... وَنُجِّــيَ فِــي بَطْــنِ السَّفِينَــةِ نُــوحُ

وَمَــا ضَــرَّتِ النَّــارُ الْخَلِيــلَ لِنُــورِهِ ... وَمِــنْ أَجْلِــهِ نَــالَ الْفِــدَاءَ ذَبِيــحُ

وعنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما مرفوعاً : « إِنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ سَبْعاً ، فَاخْتَارَ الْعُلْيَا مِنْهَا فَأَسْكَنَهَا مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِه ، ثُمَّ خَلَقَ الْخَلْقَ فَاخْتَارَ مِنْهُمْ بَنِي آدَم ، وَاخْتَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ الْعَرَب ، وَاخْتَارَ مِنَ الْعَرَبِ مُضَر ، وَاخْتَارَ مِنْ مُضَرَ قُرَيْشاً ، وَاخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِم ، وَاخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِم ، فَأَنَا خِيَارٌ مِنْ خِيَار » .

وروى الطَّبرانيُّ عنِ ابنِ عمرَ عنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « إِنَّ اللهَ اخْتَارَ خَلْقَه ، فَاخْتَارَ مِنْهُمْ بَنِي آدَم ، ثُمَّ اخْتَارَ بَنِي آدَمَ فَاخْتَارَ مِنْهُمُ الْعَرَب ، ثُمَّ اخْتَارَنِي مِنَ الْعَرَب ، فَلَمْ أَزَلْ خِيَاراً مِنْ خِيَار . أَلاَ مَنْ أَحَبَّ الْعَرَب . . فَبِحُبِّي أَحَبَّهُم ، وَمَنْ أَبْغَضَ الْعَرَبَ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُم » .

وما أَحسنَ ما أَنشدنيه لنفسه الفاضلُ المرحومُ عبدُ الباقي أَفندي الفاروقيّ الموصلّي قولَه :

تَخَيَّــــرَكَ اللهُ مِــــنْ آدَمِ ... وَلَــوْلاَكَ آدَمُ لَــمْ يُخْلَــقِ

بِجَبْهَتِــهِ كُنْــتَ نُــوراً مُضِيئــاً ... كَمَــا ضَــاءَ تَــاجٌ عَلَــىٰ مَفْــرِقِ

لِــذَلِــكَ إِبْلِيــسُ لَمَّــا أَبَــىٰ ... سُجُــوداً لَــهُ بَعْــدَ طَــرْدٍ شَقِــي

وَمَــعْ نُــوحٍ اذْ كُنْــتَ فِــي فُلْكِــهِ ... نجــا وبِمَــنْ فِيــهِ لَــمْ يَغْــرَقِ

وَخَلَّــلَ نُــورُكَ صُلْــبَ الْخَلِيــلِ ... فَبَــاتَ وَبِــالنَّــارِ لَــمْ يُحْــرَقِ

وَمِنْكَ التَّقَلُّبُ فِي السَّاجِدِينَ ... بِهِ الذِّكْرُ أَفْصَحَ بِالْمَنْطِقِ
بِمِثْلِكَ أَرْحَامُهَا الطَّاهِرَاتُ ... مِنَ النُّطَفِ الْغُرِّ لَمْ تَعْلَقِ
سِوَاكَ مَعَ الرُّسْلِ فِي إِيلِيَا[1] ... مَعَ الرُّوحِ وَالْجِسْمِ لَمْ يَلْتَقِ
فَجِئْتَ مِنَ اللهِ فِي أَخْذِهِ ... لَكَ الْعَهْدُ مِنْهُمْ عَلَىٰ مَوْثِقِ
وَفِي الْحَشْرِ لِلْحَمْدِ ذَاكَ اللِّوَاءُ ... عَلَىٰ غَيْرِ رَأْسِكَ لَمْ يَخْفِقِ
لَقَدْ رَمَقَتْ بِكَ عَيْنُ الْعَمَىٰ ... وَفِي غَيْرِ نُورِكَ لَمْ تَرْمُقِ
فَيَا لاَحِقاً قَطُّ لَمْ يُسْبَقِ ... وَيَا سَابِقاً قَطُّ لَمْ يُلْحَقِ
تَصَوَّبْتَ مِنْ صَاعِدٍ هَابِطاً ... إِلَىٰ صُلْبِ كُلِّ تَقِيٍّ نَقِي
فَكَانَ هُبُوطُكَ عَيْنَ الصُّعُودِ ... فَلاَ زِلْتَ مُنْحَدِراً تَرْتَقِي

ورويَ عن عليٍّ بن أَبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وَجهَهُ أَنَّهُ قال : لَم يبعثِ اللهُ تعالىٰ نبيّاً مِنْ آدمَ فمَنْ بعدَهُ إلاَّ أَخَذَ عليهِ العهدَ في مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : لئِنْ بُعِثَ وهوَ حي . . ليؤمننَّ بهِ ولينصرنَّه ، ويأْخذُ العهدَ بذلكَ علىٰ قومه .

وقيل : إنَّ اللهَ تعالىٰ لمّا أَنْ خلقَ نورَ نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم . . أَمرَهُ أَنْ يَنظرَ إلىٰ أَنوارِ الأَنبياءِ عليهِمُ السَّلام ، فغشيَهُم مِنْ نورهِ ما أَنطقَهُمُ اللهُ تعالىٰ به ، وقالوا : يا ربَّنا ؛ مَن غَشِيَنا نورُه ؟

فقالَ اللهُ تعالىٰ : هـٰذا نورُ مُحَمَّدِ بنِ عبدِ الله ، إِنْ آمنتُم به . . جعلتُكم أَنبياء .

قالوا : آمنّا بهِ وبنبوَّته .

فقالَ اللهُ عزَّ وجل : أَشهدُ عليكُم ؟

قالوا : نعَم . فذلكَ قولهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ الشَّٰهِدِينَ ﴾ .

---

(١) قوله (في إيليا) أي : بيت المقدس . اهـ منه .

قالَ الشَّيخُ تقيُّ الدِّينِ السّبكي : في هـٰذهِ الآيةِ الشَّريفةِ مِنَ التَّنويهِ بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ وتعظيمِ قَدْرِهِ العليِّ ما لا يخفىٰ . وفيهِ معَ ذلك : أَنَّهُ علىٰ تقديرِ مجيئهِ في زمانهِم . . يكونُ مرسَلاً إليهِم ، فتكونُ نبوَّتُهُ ورسالتُهُ عامَّةً لجميعِ الْخَلْقِ مِنْ زمنِ آدمَ إلىٰ يومِ القيامة ، وتكونُ الأَنبياءُ عليهِمُ السَّلامُ وأُممهُم كلُّهم مِنْ أُمَّتهِ عليهِ أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلام ، ويكونُ قوله : « وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّة » . لا يختصُّ بهِ النّاسُ مِنْ زمانهِ إلىٰ يومِ القيامة ، بل يتناولُ مَنْ قبلَهُم أيضا . ويتبيَّنُ بذلكَ معنىٰ قولهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « كُنْتُ نَبِيّاً وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَد » .

ثمَّ قال : فإذا عرفتَ هـٰذا . . فالنَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ نبيُّ الأَنبياء ، ولهـٰذا ظهرَ ذلكَ في الآخرة ، فجميعُ الأَنبياءِ عليهمُ السّلامُ تحتَ لوائهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم ، وفي الدُّنيا كذلك ؛ ففي ليلةِ الإِسراءِ صلَّىٰ بهِم . ولوِ اتَّفقَ مجيئُهُ في زمنهِم . . لَوجبَ عليهم وعلىٰ أُممهِمُ الإِيمانُ بهِ اِنتهىٰ .

وروىٰ عبدُ الرَّزَّاقِ بسندهِ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ الأَنصاري رضي الله عنه ، قال : قلت : يا رسولَ الله ؛ بأَبي أَنتَ وأُمِّي ، أَخبرني عن أَوّلِ شيءٍ خَلَقَهُ اللهُ تعالىٰ قَبْلَ الأَشياءِ ؟ قال : « يَا جَابِر ؛ إِنَّ اللهَ خَلَقَ قَبْلَ الأَشْيَاءِ نُورَ نَبِيِّكَ مِنْ نُوره ، فَجَعَلَ ذَلِكَ النُّورَ يَدُورُ بِالْقُدْرَةِ حَيْثُ شَاءَ اللهُ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَوْحٌ وَلاَ قَلَم ، وَلاَ جَنَّةٌ وَلاَ نَار ، وَلاَ مَلَك ، وَلاَ سَمَاءٌ وَلاَ أَرْض ، وَلاَ شَمْسٌ ولاَ قَمَر ، وَلاَ جِنِّي ، وَلاَ إِنْسِي . فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْق . . قَسَّمَ ذَلِكَ النُّورَ أَرْبَعَةَ أَجْزَاء : فَخَلَقَ مِنَ الْجُزْءِ الأَوَّلِ الْقَلَم ، وَمِنَ الثّاني اللَّوْح ، وَمِنَ الثَّالِثِ الْعَرْش ، ثُمَّ قَسَّمَ الْجُزْءَ الرَّابِعَ أَرْبَعَةَ أَجْزَاء : فَخَلَقَ مِنَ الأَوَّلِ حَمَلَةَ الْعَرْش ، وَمِنَ الثَّانِي الْكُرْسِي ، وَمِنَ الثَّالِثِ بَاقِي الْمَلاَئِكَة ، ثُمَّ قَسَّمَ الْجُزْءَ الرَّابِعَ أَرْبَعَةَ أَشْيَاء : فَخَلَقَ مِنَ الأَوَّلِ السَّمـٰوَات ، وَمِنَ الثَّانِي الأَرضين ، وَمِنَ الثَّالِثِ الْجَنَّةَ وَالنَّار ، ثُمَّ قَسَّمَ الرَّابِعَ أَرْبَعَةَ أَجْزَاء : فَخَلَقَ مِنَ الأَوَّلِ نُورَ أَبْصَارِ الْمُؤْمِنِين ، وَمِنَ الثَّانِي نُورَ قُلُوبِهِم ، وَهِيَ الْمَعْرِفَةُ بِالله ، وَمِنَ الثَّالِثِ نُورَ أُنْسِهِم وَهُوَ التَّوْحِيد : لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله » الحديث .

وذكرَ الحافظُ ابنُ عبدِ البر : أَنَّ عبدَ المطَّلبِ جدَّ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ بينما هوَ نائمٌ في الحجر . . اِنتبهَ مذعوراً . قالَ العبّاس : فتبعتُهُ وأَنا يومئذٍ غلامٌ أَعقلُ ما يقال ، فأَتىٰ كهنةَ قريش ، فقال : رأَيتُ كأَنَّ سلسلةً مِنْ فضَّةٍ خرجت مِنْ ظَهري ولها أَربعةُ أطراف : طرفٌ قد بلغَ مشارِقَ الأَرض ، وطرفٌ قد بلغَ مغاربَها ، وطرفٌ قد جاوزَ عنانَ السَّماء ، وطرفٌ قد جاوزَ الثَّرىٰ . فبينما أَنا أَنظرُ إِليها . . عادت شجرة خضراءَ لها نور ، فبينا أنا كذلكَ قامَ عليَّ شيخان ، فقلتُ لأَحدِهما : مَنْ أَنتَ ؟ قال : أَنا نوحٌ نبيُّ ربِّ العالمين . وقلتُ للآخَر : مَنْ أَنتَ ؟ قال : إِبراهيمُ خليلُ ربِّ العالمين . ثمَّ انتبهت .

قالوا : إِنْ صدقت رؤياك . . ليخرجنَّ مِنْ ظَهركَ نبيٌّ يُؤْمِنُ بهِ أَهلُ السَّمٰواتِ وأَهلُ الأَرض .

ودلَّت السِّلسلةُ علىٰ كثرةِ أَتباعه وأَنصارهِ وقوَّتهم ، لِتداخُلِ حِلَقِ السِّلسلة . ورجوعُها شجرةً يدلُّ علىٰ ثباتِ أَمرهِ وعلوِّ ذِكره ، وسيهلكُ مَنْ لم يُؤْمِنْ بهِ كما هَلَكَ قومُ نوح ، وستظهرُ بهِ ملَّةُ إِبراهيم . وعلىٰ هٰذا وقعت إِشارةُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ يومَ خيبرَ حيثُ قال :

أَنَــــا النَّبِـــــيُّ لاَ كَــــــذِبْ أَنَــــا ابْــــنُ عَبْـــــدِ الْمُطَّلِــــبْ

كأَنَّهُ يقول : أَنا ابنُ صاحبِ تلكَ الرُّؤْيَة ، مفتخراً بها ؛ لما فيها مِنْ عِلْمِ نبوَّتهِ وعلوِّ كلمته .

قالَ ابنُ هشامٍ في « سيرته » : وزوَّجَ عبدُ المطَّلبِ ابنهُ عبدَ اللهِ ـ وكانَ أَعزَّ أَولادهِ ـ بآمنةَ بنتِ وهب ، فحملَتْ بمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم . وكانت تُحدِّث : أَنَّها أُتِيَتْ حينَ حَمَلتْ بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ فقيلَ لَها : إِنَّكِ قد حَمَلْتِ بسيِّدِ هٰذهِ الأُمَّة ، فإِذا وقعَ إِلى الأَرض . . فقولي : أُعيذُهُ بالواحدِ مِنْ شرِّ كلِّ حاسد ، ثمَّ سمِّيهِ مُحَمَّداً .

ورأَتْ حينَ حَمَلَتْ بهِ أَنَّهُ خرجَ منها نورٌ رأَتْ بهِ قصور (بصرىٰ) مِنْ أَرض (الشَّام) .

ثمَّ لَم يَلبثْ عبدُ اللهِ بنُ عَبدِ المطَّلب ـ أَبو رسولِ اللهِ صَلَّى الله عَلَيهِ وسَلَّم ـ أَنْ تُوفِّيَ وأُمُّ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ حاملٌ به اهـ .

واختلفَ العلماءُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم كم أَقامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ حملاً في بطنِ أُمِّه ؟

فقيل : تسعةَ أَشهر . وقيل : عشرة . وقيل : ستَّة . وقيل : سبعة . وقيل : ثمانية .

وتوفِّيَ أَبوهُ عبدُ اللهِ وهوَ حمل . وقالَ الواقديُّ وكاتبهُ مُحَمَّدُ بنُ سعد : لا يَثبتُ أَنَّهُ توفِّيَ وهوَ حمل ، بل توفِّيَ بعدَ ولادتهِ بسبعةِ أَشهُر ، واللهُ تعالىٰ أَعلم .

وقالَ العلاَّمةُ ابنُ رجبٍ في « اللَّطائف » : واختلَفوا في أَيِّ شهر ؟ فقيل : في شهرِ رمضان .

وقيلَ في رجب ، ولا يصح .

وقيل : في ربيعِ الأَوّل ، وهوَ المشهور ، وهوَ قولُ الجمهور .

والصَّحيحُ الَّذي عليه الجمهور : أَنَّهُ وُلِدَ يومَ الإِثنين ، ثاني عشرَ ربيعِ الأَوَّل . وهوَ قولُ ابنِ إِسحاقَ وغيرِه . اِنتهىٰ .

وكانَ ذلكَ لِعَشرٍ مضت مِنْ نَيسان ، وقيل : في العشرينَ منه ، وذلكَ بالعفرِ مِنَ المنازل ولذا قيل :

خَيْرُ الْمَنَازِلِ فِي الأَبَدْ ‏ ‏ ‏ ‏ بَيْنَ الزّبَانا وَالأَسَدْ

وهوَ مولدُ النَّبيِّين .

ورويَ عن سهلِ بنِ عبدِ الله ، قال : لمَّا أَرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ خَلْقَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ في بطنِ أُمِّهِ آمنةَ في شهرِ رجبَ أَمرَ في تلكَ اللَّيلةِ رضوانَ خازنَ الجنانِ أَنْ يَفتحَ بابَ الفردوس الأَعلىٰ ، ويُناديَ منادٍ في السَّماواتِ والأَرض : أَلا إِنَّ النُّورَ المخزونَ الَّذي يكونُ منهُ النَّبيُّ الهادي العربيُّ القرشيُّ التّهاميُّ مُحَمَّدٌ في هٰذهِ اللَّيلةِ يَستقرُّ في بطنِ أُمِّهِ آمنة . فعلىٰ هٰذا تكونُ مدَّةُ حَمْلهِ تسعةَ أشهر ، واللهُ تعالىٰ أَعلم .

وفي كتابِ « السّنن » للقاضي عياض رحمهُ اللهُ تعالىٰ : إنَّ الشَّفَّاء ، قابلة النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم ، لمّا سقطَ علىٰ يَدَيْها . . سَمِعَتْ بأُذنَيْها قائلاً يقول : يرحمكَ ربُّك . ورأَتْ بِعَيْنَيْها أَنَّهُ أَضاءَ لها ما بينَ المشرقِ والمغربِ حتَّىٰ نَظَرتْ إلىٰ قصور (الشَّام) .

وولدَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ مسروراً ـ أَي : مقطوعَ السّرّة ـ مختوناً .

وقيل : بل خَتَنَهُ جدُّهُ عبدُ المطَّلبِ يومَ سابعه .

وقيل : خُتِنَ يومَ شَقَّ الملائِكةُ قلبَهُ عندَ حليمةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا .

وقالَ في « عقدِ الدُّرر » أَيضاً : قالت آمنة : ولدتهُ جاثياً علىٰ رُكبتيه ، يَنظرُ إلى السَّماءِ ويُشيرُ إليها ، ثمَّ قَبَضَ قبضةً مِنَ الأَرضِ وأَهوىٰ ساجداً ، فغطَّيتُهُ ببرمةٍ[1] لئلاَّ يراهُ أَحدٌ قَبْلَ جدِّه ـ أَو قالت : بإِناء ـ فانفلقَ عنهُ وإذا به ، يمصُّ إِبهامَهُ وهوَ يشخبُ لبناً . وسمعتُ قائلاً يقول : أَبشري يا آمنة ، فقد ولدتِ سيِّدَ هـٰذهِ الأُمَّة .

وذكرَ القاضي جمالُ الدِّينِ ابنُ أَبي الدَّمِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : أَنَّ آمنةَ قالت حينَ ولدت مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : خَرَجَ سَاجِداً رافعاً رأْسَهُ وأُصبُعَهُ نحوَ السَّماء ، وخَرَجَ مَعَهُ نُورٌ مَلأَ البيت ، ودنتِ النُّجومُ منهُ حتَّىٰ ظننتُ أَنَّها تسقطُ على الأَرض .

وقد وُلِدَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ عامَ الفيلِ في (مكَّة) زادَها اللهُ شرفاً ، في أَيّام كِسرىٰ أنوشروان فارتعدَ إيوانُهُ وانشقَّتْ منهُ حيطانُه ، وسقطت منهُ أَربعةَ عشرَ شرافةً بعددِ مَنْ سيملكُ منهُم مِنْ سلطان ، وخَمدت نار (فارس) وفاضَ وادي (سماوة) وغارت بحيرة (ساوة) وللهِ تعالىٰ درُّ الفاروقيّ عليهِ الرَّحمةُ حيثُ يقولُ في تخميسه :

فِـي كِتَـابِ الـزَّبُـورِ نَعْتُـكَ يُتْلَـىٰ وَبِلَـوْحِ التَّـوْرَاةِ وَصْفُـكَ يُمْلَـىٰ
وَبِنَـصِّ الإِنْجِيـلِ قَـدْ صَـحَّ نَقْـلاَ مَـا مَضَـتْ فَتْـرَةٌ مِـنَ الـرُّسُـلِ إِلاَّ
بَشَّـرَتْ قَـوْمَهَـا بِـكَ الأَنْبِيَـاءُ

(١) البرمة : القِدْر .

إِنَّ خَيْـرَ الْقُـرُونِ قَـرْنُـكَ يَنْمُـو   مِنْـهُ فَضْـلٌ كُـلَّ الـدُّهُـورِ يَعُـمُّ
بِـكَ يَـزْهُـو عَـامٌ وَشَهْـرٌ وَيَـوْمُ   تَتَبَـاهَـىٰ بِـكَ الْعُصُـورُ وَتَسْمُـو
بِـــكَ عَلْيَـــاءُ بَعْـــدَهَـــا عَلْيَـــاءُ

جِئْـتَ لِلْخَلْـقِ رَحْمَـةً يَـا رَحِيـمُ   فَحَبَـا النَّـاسَ مِنْـكَ فَضْـلٌ عَمِيـمُ
كَيْـفَ يَخْشَـىٰ وُجْدَانَ فَقْـدٍ عَـدِيـمُ   وَبَـدَا لِلْـوُجُـودِ مِنْـكَ كَـرِيـمُ
مِـــنْ كَـــرِيـــمٍ آبَـــاؤُهُ كُـــرَمَـــاءُ

كُـلُّ صَـدْرٍ مِنْهُـمْ بِنَحْـرِ عُـلاَهُ   عِقْـدَ مَجْـدٍ فِـي الْجِيـدِ مَـا أَحْـلاَهُ
حَسَـبٌ فَـاخِـرٌ عَلَيْنَـا تَـلاَهُ   نَسَـبٌ تَحْسِـبُ الْعُـلاَ بِحُـلاَهُ
قَلَّـــدَتْـــهُ نُجُـــومَهَـــا الْجَـــوْزَاءُ

إِنَّ آبَـــاءَكَ السَّـــراة ســـوار   أَنْـتَ قُطْـبٌ وَهُـم عَلَيْـكَ سِـوَارُ
عقـدتهـم سمطـا بنـان اقتـدار   حَبَّـذَا عِقْـدُ سُـؤْدُدٍ وَفَخَـارِ
أَنْـــتِ فِيـــهِ الْيَتِيمَـــةُ الْعَصْمَـــاءُ

لَـكَ فَـرْقٌ حَكَـى الصَّبَـاحَ وَضِـيءُ   مِنْـكَ إِذْ شَـرَّفَ الْـوُجُـودَ مَجِـيءُ
أَنْـتَ بَـدْرٌ مِـنَ الْخُسُـوفِ بَـرِيءُ   وَمُحَيّـاً كَـالشَّمْـسِ مِنْـكَ مُضِـيءُ
أَسْفَـــرَتْ عَنْـــهُ لَيْلَـــةٌ غَـــرَّاءُ

نَجْـمُ مَجْـدٍ بَـدَا بِطَـالِـعِ سَعْـدِ   فَـاسْتَـوَى اللَّيْـلُ وَالنَّهَـارُ بـوقـدِ
هَـلْ عَلِمْتُـم مَـا لَيْلَـةُ الْقَـدْرِ عِنْـدِي   لَيْلَـةُ الْمَـوْلِـدِ الَّـذِي كَـانَ لِلـدِّيْـ
نِ سُـــرُورٌ بِيَـــوْمِـــهِ وَازْدِهَـــاءُ

حَيْـثُ جِبْـرِيـلُ بِـالسَّمَـاوَاتِ مَجَّـدْ   يُعْلِـنُ الْبِشْـرَ فِـي وِلاَدَةِ أَحْمَـدْ
سَمِعَـتْ أُمُّـهُ أَبْشِـرِي بِمُحَمَّـدْ   وَتَـوَالَـتْ بُشْـرَى الْهَـوَاتِـفِ أَنْ قَـدْ
وُلِـــدَ الْمُصْطَفَـــىٰ وَحُـــقَّ الْهَنَـــاءُ

روي : أَنَّ أُمَّهُ آمنةَ أَرضعتْهُ ثلاثةَ أَيام ، وقيل : سبعةَ أَيَام .

وقيل : أَرضعتْهُ ثُويبة - جاريةُ عمِّهِ أَبي لهب - أَيّاماً قَبْلَ قدومِ حليمة . وفي إِسلامِ ثويبةَ قولان .

وأَرضعتْهُ أُمُّ أَيمن - واسمُها بركة - جاريةُ أَبيهِ عبدِ الله .

ومِنْ مراضعِه : خولةُ بنتُ المنذر . فهٰذه ثلاثُ مراضع ، والرَّابعةُ المشهورةُ بالرَّضاعةِ الَّتي حصلَتْ لَها السَّعادةُ بكثرةِ الضَّراعة : حليمةُ بنتُ أَبي ذؤَيبٍ السَّعديَّةُ رَضِيَ اللهُ تَعالَىٰ عَنْهَا ، فإِنَّها أَسلمَتْ وآمنَتْ بهِ بعدَ نبوَّته . ومِنْ قصَّتها المشهورةِ الَّتي ذكرَها العلماءُ مِنْ أَصحابِ المغازي والسِّيَر : أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ استُرضِعَ مِنْ حليمةَ السَّعديَّةِ بعدَ مولدِهِ بسبعةِ أيّام .

قالت حليمة : خرجتُ مِنْ بلدي معَ زوجي وابنٍ لي - رضيع - في نسوةٍ مِنْ بني سعدٍ ذواتِ حالٍ فظيع ، نلتمسُ الرُّضعاءَ مِنْ ذواتِ البيوتِ في سَنةٍ شهباءَ لَم تُبْقِ لَنا شيئاً مِنَ القُوت ، علىٰ أَتانٍ لي ، فمرَّةً أَركبُها . ومعنا شارفٌ لنا مِنَ النُّوقِ نجذبها قد هزلَتْ مِنَ الجوعِ بعدَ السِّمَن ، وهي - والله - ما تبضُّ بقطرةِ لبن ، حتَّىٰ قَدِمْنَا مكَّة أَشرفَ البلادِ ومأْوى العبَّادِ مِنَ العباد ، فما مِنّا امرأَةٌ إِلاَّ وقد عرضَ عليها ذو الوجهِ الوسيمِ فتأْباهُ إِذا قيلَ لَها : إِنَّهُ يتيم . فلمّا أَجمعنا على الانطلاقِ وحَصَلَ منّا على العزمِ الاتِّفاق . . قلتُ لِصاحبي : لأَذهبنَّ إِلىٰ أَخْذِ ذلكَ اليتيم ، فلهوَ سيِّدٌ حسيبٌ كريم . فذهبتُ إِليهِ راجيةً خيرَه ؛ لأَنِّي لَمْ أَجِدْ طفلاً غيرَه ، فلمّا أَخذتُهُ ووضعتُهُ فِي حِجْري . . أَقبلَ عليهِ ثدياي بما شاءَ مِنْ لبن ، فشَربَ هوَ وأَخوهُ وهدأَ وسَكَن ، وشارفُنا إِذا بها حافلٌ وقد أَخصبَ ثديُها الماحل ، فحلبَ زوجي منها وشَرِبَ حتَّىٰ كِدنا مِنَ الشِّبَعِ والرِّيِّ نضطرب! وسارت أَتاني مسرعةً في العودةِ بخلافِ الصِّفةِ المعهودة ، فيقلن لَها : يا ٱبنةَ أَبي ذؤيب ؛ أَما هٰذهِ أَتانُكِ الَّتي كانت معنا ؟ فأَقول : نعَم . فيقُلن : إِنَّ لَها لشأْناً .

وكانت غنمُنا تروحُ شباعاً لبناً ، وأَغنامُ الحيِّ تَغدو بهزالٍ وعَنَا . قالت حليمة : فلَم يُزِلِ اللهُ البركةَ حتَّىٰ بلغَ سَنتيْه ، وكانَ يشبُّ شباباً لا تشبُّهُ الغلمان ، فلمَّا بلغَ السَّنتَين . .

كانَ غلاماً جفراً . والجفرُ : الجذعُ مِنَ الغنمِ مالَهُ أَربعُ سنين ، وقيلَ فيهِ ذلكَ ؛ لأَنَّهُ كانَ كمَنْ بلغَ تلكَ السِّنين .

وروى البيهقيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ في « دلائِلِ النُّبوَّة » عن عبدِ اللهِ بنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قال : كانت حليمةُ تحدِّثُ أَنَّها لمّا فطمتِ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم . تكلَّم ـ قال : فسمعَتْهُ يقولُ كلاماً عجيباً ، سَمعتْهُ يقول : اَللهُ أَكبرُ كبيراً ، والحمدُ للهِ كثيراً ، وسبحانَ اللهِ بُكرةً وأَصيلاً .

ويرویٰ عنِ الشَّماء ـ أُختُهُ مِنَ الرَّضاعة ـ أَنَّها كانت تحملُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ وترقِصُه ، وتقول :

مُحَمَّــــدٌ خيــــرُ البشـــرِ ممَّـــنْ مضـــىٰ ومَـــنْ غَبَـــر
أَحســـنُ مِـــنْ وَجْـــهِ القمـــرِ مِـــنْ كُـــلِّ أُنْثَـــىٰ وَذَكَـــر
وكـــلِّ منســـوبٍ أَغـــرّْ

ويرویٰ : أَنَّ حليمة رَدَّتْهُ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّمَ بعدَ انقضاءِ سنتيه ، قالت : فقدِمنا علىٰ أُمِّهِ ومكَّة وَبِئَة ، فقُلنا : دعي ابني عندي حتَّىٰ يشتدَّ عودُ شجرته ؛ فإنِّي أَخشىٰ عليهِ مِنْ وباء مكَّة وكثرته . فلم تَزَلْ حتَّىٰ سمحت بردِّهِ معنا ، رحمةً مِنَ اللهِ تُرادُ بنا ، فرَجَعْنَا بهِ فَرِحينَ وعُدنا مسرورِينَ منشرِحين .

قالت : فمكثَ عندنا بعدَ عَوْدِهِ شَهرينِ أَو ثلاثة ـ وقالَ ابنُ قتيبة : أَقامَ عندهُم خمسَ سنين ـ فبينما هو يلعبُ معَ الغلمانِ خَلْفَ البيوت . . إِذْ جاءَ أَخوهُ يشتدّ ، فقالَ لي ولأَبيه : أَدركا أَخي القرشي ، فقد جاءَ رجلانِ فأَضجعاهُ وشقّا بطنَه! فخرجنا نشتدُّ نحوه ، فانتهينا إِليهِ وهوَ قائمٌ منتقعٌ لونُه ، فاعتنقتُهُ واعتنقَهُ أَبوهُ وقال : مالَكَ يا بُنَيّ ؟ قال : أَتاني رجلانِ عليهِما ثيابٌ بِيض ، فأَضجعاني وشقّا بطني ، وواللهِ ما أَدري ما صنعا .

وفي روايةٍ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ قال : « جاءَنِي ثَلاَثَةُ رَهطٍ مَعَهُم طشْتٌ مِنْ ذَهَبٍ قَدْ مُلِيءَ ثَلْجاً ، فَعَمَدَ أَحَدُهُم فَأَضْجَعَنِي إِضْجَاعاً رَفِيقاً ، ثُمَّ شَقَّ مَا بَيْنَ مَفْرِقِ صَدْرِي

إِلىٰ مُنْتَهَىٰ عَانَتِي ، وَلَمْ أَجِدْ لِذَلِكَ أَلماً . ثُمَّ أَخرَجَ أَحْشَاءَ بَطْنِي فَغَسَلَهَا بِمَاءٍ وَثَلْجٍ فَأَنْعَمَ غَسْلَهَا ، ثُمَّ رَدَّهَا إِلَىٰ مَكَانِهَا . ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَأَخْرَجَ مِنْ قَلْبِي مُضْغَةً سَوْدَاءَ فَرَمَىٰ بِهَا ، وَإِذَا بِيَدِهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ مِنْ نُورٍ فَخَتَمَ بِهِ قَلْبِي فَامْتَلأَ نُوراً ، ثُمَّ رَدَّهُ إِلَىٰ مَكَانِه ، فَوَجَدْتُ بَرْدَ الْخَاتَمِ فِي قَلْبِي دَهْراً . ثُمَّ أَمَرَّ الثَّالِثُ يَدَهُ عَلَىٰ صَدْرِي فالْتَأَمَ ذَلِكَ الشَّقُّ بِإِذْنِ اللهِ ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَانْتَهَضَنِي ، ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبِه : زِنْهُ وَاجْعَلْهُ فِي كفَّةٍ وَاجْعَلْ أَلْفاً مِنْ أُمَّتِهِ فِي كفَّة ، ففَعَلَ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الأَلْفِ فَرَجَحْتُ عَلَيْهِم ، فَانْطَلَقَا وَهُمَا يَقُولاَن ـ أَو قال : فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَقُولُون ـ : لو أَنَّ أُمَّتَهُ وُزِنَتْ به . . لرَجَحهُم . ثُمَّ أَقْعَدونِي وَقَبَّلُوا رَأْسِي ، وَقَالُوا : يا حَبِيبَ الله ؛ لاَ تُرَع ، إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَاذَا يُرادُ بك ـ أَوْ مِنْك ـ لَوْ عَلِمْت . . لَقَرَّتْ عَيْنَاك . قال : فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ وَإِذَا بِالْحَيِّ قَدْ أَقْبَلُوا بِحَذَافِيرِهِم ، وَإِذَا بِأُمِّي وَظِئْرِي ـ يعني حليمة ـ تَهْتِفُ فِي أَوَائِلِهم وَتَقُولُ بِأَعْلىٰ صَوْتِهَا : يَا ضَعِيفَاهُ . فَقَالَ أَحَدُهُم : حَبَّذَا أَنْتَ مِنْ ضَعِيف فَقَالَت : يَا يَتِيمَاه . فَقَالَ آخر : حَبَّذَا أَنْتَ مِنْ يَتِيم . وَأَخَذَتْنِي وَضَمَّتْنِي إِلَىٰ صَدْرِهَا ، وَجَعَلَتْ تَقُول : اسْتُضْعِفْتَ مِنْ بَيْنِ أَتْرَابِك ، وَتَبْكِي » فقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « والَّذِي نَفْسِي بِيَدِه ، إِنِّي لَفِي حِجْرِهَا وَإِنَّ يَدِي فِي بَعْضِ يَدِ الْقَوْمِ وَأَنَا أَلْتَفِتُ إِلَيْهِم ، أَظُنُّ أَنَّ الْقَوْمَ يُبْصِرُونَهُم ، فَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْحَيّ : هٰذَا الْغُلاَمُ قَدْ أَصَابَهُ لمم ، فانْطَلِقُوا بِهِ إِلَى الْكَاهِنِ لِيَنْظُرَ إِلَيْه . فَذَهَبُوا بِي إِلَى الْكَاهِن ، فَسَأَلَنِي عَنْ قِصَّتِي فَأَخْبَرْتُه ، فَضَمَّنِي إِلَىٰ صَدْرِهِ وَصَاحَ بِأَعلىٰ صَوْتِه : يَا مَعَاشِرَ الْعَرَب ؛ اقْتُلُوهُ وَاقْتُلُونِي مَعَه ، فَوَاللاَّتِ وَالْعُزَّىٰ لَئِنْ تَرَكْتُمُوه . . لَيُبَدِّلَنَّ دِينَكُم . فَصَاحَتْ أُمِّي : انظُرْ لِنَفْسِكَ قَاتِلاً غَيْرَنَا ؛ فَإِنَّ وَلَدَنَا مَا بِهِ مِمَّا قُلْتَ شَيء ، ولَقَدْ شُبِّهَ عَلَيْك » .

قالت حليمة : فاحتملناهُ ورَجعنا به ، وقالَ زوجي : يا حليمة ؛ واللهِ ما أَرى الغلامَ إِلاَّ قَدْ أُصيب ، فانطلقي لِنردَّهُ إِلىٰ أُمِّه قَبْلَ أَنْ يَظهرَ بهِ ما نتخوَّفُ عليه . فرَجعنا إِلىٰ أُمِّه ، فقالت : ما ردَّكُما بهِ وقد كُنتما حَريصينِ عليه ؟

فقُلنا لها : قد كفلناهُ وأَدَّينا ما علينا مِنَ الحق ، ثمَّ خفنا عليهِ الأحداث .

فقالت : واللهِ ما ذاكَ بكما ، فأخبراني خبرَه . فأَخبرناها ، فقالت : أَتخوَّفتُما عليه ؟ واللهِ إِنَّ لابني هٰذا شأناً .

وأَخرجَ ابنُ سعدٍ عنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما ، وعنِ الزُّهري ، وعن عاصمِ بنِ عمرَ قالوا : لمّا بلغ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ ستَّ سِنين . . خرجت بهِ أُمُّهُ إِلىٰ أَخوالهِ بني عدي بنِ النَّجّارِ بـالمدينة تزورهُم ، ومعَهُ أُمُّ أَيمن ، فنزلت بهِ دارَ النَّابغةِ فأَقامت عندَهُم شهراً ، وتعلَّمَ العومَ[1] في بئرِ بني عدي بنِ النَّجار ، فلمّا كانت أُمُّهُ بالأَبواء . . توفِّيت .

ولقد أَحسنَ الحافظُ شمسُ الدِّينِ ابنُ ناصرِ الدِّينِ الدِّمشقيُّ حيثُ قال :

حَبَـا اللهُ النَّبِـيَّ مَـزِيـدَ فَضْـلٍ عَلَـىٰ فَضْـلٍ وَكَـانَ بِـهِ رَؤُوفَـا

فَـأَحْيَـا أُمَّـهُ وَكَـذَا أَبَـاهُ لإِيمَـانٍ بِـهِ فَضْـلاً لَطِيفَـا

فَسَلِّـمْ فَـالقَـديـم بِـذَا قَـدِيـرٌ وَإِنْ كَـانَ الْحَـدِيـثُ بِـهِ ضَعِيفَـا

وقد كانت أُمُّ أَيمن ـ بركة ـ دايتَهُ وحاضنتَهُ بعدَ موتِ أُمِّه ، وكانَ يقولُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ لَها : « أَنتِ أُمِّي بَعدَ أُمِّي » .

ثمَّ توفِّيَ جدُّهُ عبدُ المطَّلِبِ ولَهُ ثماني سنين ، وعمرُهُ مئةٌ وعشرونَ سنة ، وقيلَ أكثر . وكفلَهُ أَبو طالبٍ عمُّه ـ واسمُه : عبدُ مناف ـ وكانَ عبدُ المطَّلبِ قد أَوصاهُ بذلك ؛ لِكونهِ شقيقَ عبدِ الله . ولمّا بلغَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّمَ اثنتي عشرةَ سنة . . خرجَ معَهُ عمُّهُ أَبو طالبٍ إِلى الشَّام حتَّىٰ بلغ بصرىٰ فرآهُ بَحيرى الرَّاهبُ فعرفَهُ بصفتِه ، فقالَ وهوَ آخذٌ بيده : هٰذا سيِّدُ العالَمين ، هٰذا يَبعثُهُ اللهُ رحمةً لِلعالمين . فقيلَ لَه : وما علمت بذلك ؟

فقال : إِنَّكُم حينَ أَشرفتُم بهِ مِن العقبة لَم يَبْقَ شجرٌ ولا حجرٌ إِلاَّ خرَّ ساجداً ولا تَسجدُ إِلاَّ لنبيّ ، وإِنِّي أَعرفُهُ بخاتمِ النُّبوَّةِ في أَسفل مِنْ غضروفِ كتفهِ مِثل

---

(١) قوله : العوم ؛ أي : السباحة . اهـ منه .

التُّفاحة ، وإنَّا نَجدُهُ فِي كُتبنا . وسأَلَ أَبا طالب أَنْ يردَّهُ خوفاً عليهِ مِنَ اليهود . . اَلحديث . وفيه : أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَقبلَ وعليهِ غمامةٌ تُظلُّه .

قالَ ابنُ الجوزي : وكانت آياتُ النُّبوَّةِ تظهرُ عليهِ قَبْلَ النُّبوَّة ، فكانَ يُرى النُّورُ والضَّوء ، ولا يمرُّ بحجرٍ ولا شجرٍ إلاَّ قال : السّلامُ عليكَ يا رسولَ الله . وقال : « إنِّي لأَعرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَث ، إنِّي لأَعْرِفُهُ الآن » .

ثمَّ رُمِيَتِ الشَّياطينُ بالشُّهبِ لبعثه . ولمّا بلغَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ مِنَ العمرِ خمساً وعشرين . . خرجَ معَ ميسرةَ في تجارةِ خديجةَ بنتِ خويلدٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا ونزلَ تحتَ شجرة ، ورأىٰ نسطورا الرّاهب ، وقال : ما نزلَ تحتَ هٰذهِ الشَّجرةِ قطُّ إلاَّ نبيّ . وقالَ لميسرة : لا تُفارقْه ؛ فهوَ خاتمُ النَّبِيِّين . وكانَ ميسرةُ إذا اشتدَّ الحرُّ في الهاجرة . . يرىٰ مَلكَينِ يُظِلاَّنه .

ولمّا رجعَ مِنْ سفرِه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم . . طَلَبتْ خديجةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا أَنْ يتزوَّجَها ؛ لِمَا عَلِمَتْ مِنْ أَمَانَتِهِ وحُسنِ خُلُقِهِ وصِدْقِ حديثه ، ولِما أَخبرَها ورقةُ بنُ نوفلَ بأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ نبيُّ هٰذهِ الأُمَّةِ للأَماراتِ الَّتي فيه ، فتزوَّجها عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ ، وولدت لَه :

القاسم ، وماتَ ابنَ سنتين .

وعبدَ الله ، ويُسمَّى الطَّيب والطَّاهر . وقيل : هُما غيرُه .

وزينب ، وفاطمةَ الزَّهراء ، ورقيَّة ، وأُمَّ كلثوم . وأَمّا إبراهيم . . فإنَّهُ مِنْ مارية . وكلُّهم ماتوا قَبْلَهُ إلاَّ فاطمةَ علىٰ أَبيها وعليها الصَّلاةُ والسَّلامُ فإنَّها عاشت بعدَهُ ستَّةَ أَشهر .

ومِنْ مناقبِ خديجة كما في الصَّحيح : أَنَّ جبريلَ جاءَ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ فقال : هٰذهِ خديجة : أَقرِئْها مِنْ ربِّها السَّلامَ ومنِّي ، وبشِّرها ببيتٍ في الجنَّةِ مِنْ قصبٍ لا صَخَبَ فيهِ ولا نَصَب . ولَم يتزوَّج عليها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ حتَّىٰ ماتت .

ولمّا أَتت عليهِ أَربعونَ سنة . . بعثَهُ اللهُ تعالىٰ نبيّاً ، وجاءَهُ جبريلُ نجيّاً ، وأُنزلَ عليهِ القرآن ، وتوالت معجزاتُهُ الظّاهرةُ لِلعَيان ، منها : أَنَّ الماءَ نَبَعَ مِنْ بينِ أَصابعه ، وكثرةُ الطَّعامِ ببركته ، وتكليمُ الحجرِ لَه ، وحنين الجذعِ وشكايةُ البعيرِ إِليه ، وتكليمُ الذِّراعِ المسمومِ مِنَ الشّاة ، والإِخبارُ عن كثيرٍ مِنَ المغيَّبات ، وانشقاقُ القمر ، والمعراج .

ثمَّ مِنْ بعدِ نحوِ عشرِ سنواتٍ هاجرَ إِلى المدينةِ المنوَّرة وبها كانت الوفاة ، كما هُوَ مفصَّلٌ في الكتبِ المطوَّلات .

وكانَ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَجودَ النّاس ، وأَصدقَهُم لهجة ، وأَكرمَهُم عشيرة ، وأَشجَعهُم قلباً وأَعلاهُم لُبّاً ، وأَحسنَهُم خُلُقاً ، وأَبهاهُم خَلْقاً . كأَنَّ وجهَهُ القمر ، ربعةً ليسَ بالطَّويلِ ولا بالقصير ، أَدعجَ العينين ، واضحَ الجبين ، دقيقَ العرنين ، أَقنى الأَنف ، أَسيلَ الخدَّين ، يرىٰ في الظَّلماءِ كما يَرىٰ في الضَّوء ، فصيحَ اللِّسان ، سريعَ البيان .

ولقد أَحسنَ البوصيريُّ حيثُ يقول :

فَهُـوَ الَّـذِي تَـمَّ مَعْنَـاهُ وَصُـورَتُـهُ ... ثُـمَّ اصْطَفَـاهُ حَبِيبـاً بَـارِىءُ النَّسَـمِ

مُنَـزَّهٌ عَـنْ شَـرِيـكٍ فِـي مَحَـاسِنِـهِ ... فَجَـوْهَـرُ الْحُسْـنِ فِيـهِ غَيْـرُ مُنْقَسِـمِ

فَمَبْلَـغُ الْعِلْـمِ فِيـهِ أَنَّـهُ بَشَـرٌ ... وأَنَّـهُ خَيْـرُ خَلْـقِ اللهِ كُلِّهِـمِ

فالحمدُ للهِ الَّذي جعلَنا مِنْ أَتباعِ هٰذا النَّبيِّ الكريمِ الأَمين ، والرَّسولِ الرَّؤُوفِ الرَّحيم ، المرسولِ رحمةً لِلعالَمين .

فطوبىٰ لمن آمَنَ بهِ وصدَّقَه ، وويلٌ لمَنْ كذَّبَهُ وشاققَه . وسبحانَ مَنْ أَيقظَ المتَّقين ، وخَلَعَ عليهِم خِلَعَ اليقين ، وأَلحقَهُم بتوفيقهِ في السابقين ، فباتوا في حلباتِ الجدِّ مُسابقين . كلَّما أَذهبَ الأَعمارَ طلوعهُم وغروبهُم . . سالَتْ مِنَ الأَجفانِ جزعاً غروبهُم . وكلَّما لاحت لَهم في مرآةِ الفكرِ ذنوبهُم . . تجافَتْ عنِ المضاجعِ جنوبهُم . وكلَّما نَظَروا فساءَ لَهم مكتوبهُم . . وَجِلَتْ قلوبهُم .

دموعهُم على الدَّوامِ تجري ، وعزَّتي لأَربحنَّ في معاملتي تَجْري[1] ، عَظَمَةَ قدرتي في صدورِهم وقَدْري ، فاستعاذوا بوصالي مِنْ هجري ، عاملوا معاملةَ مَنْ يَفهمُ ويدري ، فنومهُم علىٰ فراشِ القلقِ وهبوبهم ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

أَمواتٌ عنِ الدُّنيا ما دُفِنوا ، غَمَّضُوا عنها عيونَهُم وحَزِنوا ، ولَو فَتَحوا أَجفانَ الشَّرَه . . لَفُتِنوا . باعوها بما يَبقىٰ ، فلا واللهِ ما غُبِنوا ، تاللهِ لقد حصلَ مطلوبهُم ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

حَبَسوا النُّفوسَ في سجنِ المحاسَبة ، وبَسطوا عليها أَلسُنَ المعاتَبة ، ومدُّوا نحوَها أَكُفَّ المعاقبة ، ويحقُّ ذلكَ لمَنْ بينَ يديهِ المناقشةُ والمطالبة ، فارتفَعت بالمعاينةِ غيوبهُم ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

شاهَدوا الأُخرىٰ باليقينِ كرأيِ عيْن ، فبايعوا العقارَ وأَخرجوا العين ، وعَلِموا بمقتضى الدِّينِ أَنَّ التُّقىٰ دَيْن ، فدنياهُم خراب ، وآخِرتُهم على الزَّين ، قَنعوا بكِسرتَينِ وجرعتين ، هـٰذا مأْكولُهم وهـٰذا مشروبهُم ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

فنسأَلكَ **اللّٰهُمَّ** ؛ أَنْ تُصلِّيَ علىٰ سيِّدنا مُحَمَّدٍ صلاةً تُنجينا بها مِنْ جميعِ الأَهوالِ والآفات ، وتقضي لَنا بها جميعَ الحاجات ، وتُطهِّرُنا بها مِنْ جميعِ السَّيِّآت ، وترفَعُنا بها عندكَ أعلى الدَّرجات ، وتُبلِّغُنا بها أَقصى الغايات ، مِنْ جميعِ الخيرات ، في الحياةِ وبعدَ الممات .

اللّٰهُمَّ ؛ أَحينا علىٰ مِلَّتِه ، وتوفَّنا علىٰ سُنَّتِه ، وعلىٰ كمالِ حُبِّكَ وحُبِّه ، وحُبِّ آلِهِ وصحابتِه . واجعلْنا عندَ السُّؤالِ ثابتين ، وممَّنْ يأْخذُ الكتابَ باليمين ، واجعلْنا يومَ الفزَعِ الأَكبرِ آمِنين ، ونجِّنا بِعَفوِكَ وحِلْمكَ مِنَ العذابِ الأَليم ، وأَوْصِلْنا وآباءَنا وأُمَّهاتِنا برحمتِكَ وكرمِكَ إِلىٰ جنَّاتِ النَّعيم .

وارحمِ **اللّٰهُم** ؛ أَقارِبنا ومشايخَنا ومَنْ لَهُ حقٌّ علينا ، وكافَّةَ المسلمِينْ الأَحياءِ والميِّتِيْن .

---

(١) **تجري** : تجارتي .

اللَّهُم ؛ إنَّا نسأَلُكَ العفوَ والعافية ، في الدِّينِ والدُّنيا والآخرة .

اللَّهُمَّ ؛ استُرنا بسَترِكَ الجميلِ في الدّارين ، وبارِكْ لَنا في جميع ما أَعطيتَنا ، وقرَّ برؤْيتِكَ في الجنَّةِ منَّا العَيْن ، وصلِّ وسلِّم علىٰ كافَّةِ الأَنبياءِ والمرسَلين . وآخِرُ دعوانا أَنِ الحمدُ للهِ رَبِّ العالَمين .

* * *

المجلسُ الخامسُ والأربعون
في وفاتهِ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلام

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيم

الحمدُ للهِ مذكِّرِ المنهمِكينَ في شهواتِهِم بالمقابر ، ومنبِّهِ الرَّاقدينَ في غفلاتِهِم بالزَّواجرِ ، كاشفِ العواقبِ لِلعقلاء ، فاللَّبيبُ يرى الآخر . الَّذي اختارَ مُحَمَّداً مِنَ الخَلْقِ فكأَنَّ الكلَّ خُلِقوا مِنْ أَجلِه ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ .

أَحمدُهُ علىٰ أَجلِّ الإِنعامِ وأَقلِّه ، وأَشهدُ بوحدانيَّتِهِ شهادةَ مُصدِّقٍ قولَهْ بفعلِه ، وأَنَّ مُحَمَّداً عبدُهُ ورسولهُ أَرسلَهُ لنقضِ الكفرِ وحَلِّه . فسبحانَهُ مِنْ إِلـٰهٍ خَلَقَ آدمَ بيدِ قُدرته ، وأَسجدَ لَهُ جميعَ ملائكتهِ وأَسكنَهُ في جنتِه ، وحَكَمَ بالموتِ عليهِ وعلىٰ ذرِّيَّتِه ، وقالَ لنبيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُخبرهُ بقضيَّتِه : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ فأَبلغَ في تسليتِه .

ونجَّىٰ نوحاً مِنَ الطُّوفان ، وأَغرقَ مخالفيهِ صيانةً لأَهلِ الإِيمان ، وقضىٰ بالموتِ على الإِنسِ والجان ، فقالَ لنبيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ .

واتَّخذَ اللهُ إِبراهيمَ خليلاً ووفَّقَهُ وسدَّدَه ، وأَرَاهُ ملكوتَ السَّمـٰواتِ والأَرضِ وأَشهدَه ، وفوّق إِليهِ سهامَ الموتِ المُرْصَدَة ، وقالَ لحبيبهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذْ أعلمَهُ بحالهِ وأَيَّدَه : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ .

واختارَ موسىٰ نجيّاً وأَسمعَهُ كلامَه ، وبلَّغَهُ مِنْ لذيذِ خِطابهِ قَصْدَهُ ومرامَه ، وأَنفذَ فيهِ مِنَ الموتِ سِهامَه ، وقالَ لرسولهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ .

وخَلَقَ عيسىٰ مِنْ غيرِ أَبٍ بلا شكٍّ ولا غيّ ، فأبرأَ الأَكمهَ والأَبرص ـ بإذنه ـ وأَعادَ الميتَ مِنْ قبرهِ حَيّ ، وقالَ لنبيِّهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم إخباراً عن عيسىٰ عليهِ السَّلام : ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ .

واصطفىٰ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم النَّبيَّ العربيَّ الأَمينَ المأَمون ، صاحبَ الجاهِ العريضِ والعِرْضِ المصون ، ومعَ هـٰذا القُرْبِ والمنزلةِ الَّتي لا يصلُ إليها الواصلون . . نعىٰ إليهِ نَفْسَهُ الكريمةَ وأَنذرَهُ ريبَ المَنون ، وسلاَّهُ بمَنْ ماتَ مِنْ قَبْلهِ مِنَ المرسَلين ، فقالَ في كتابهِ المكنون : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ .

صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم وعلىٰ آلهِ وأَصحابهِ الَّذينَ قضوا بالحقِّ وبهِ يعدلون ، لاسيَّما علىٰ أَبي بكرٍ الصِّديقْ الَّذي هوَ في الغارِ خيرُ رفيق ، وعلىٰ عمرَ بنِ الخطّاب ، الَّذي نَزَلَ علىٰ لِسانهِ الكتاب ، وعلىٰ عثمانَ مُصابرِ البلاء ، ومَنْ نالَ الشَّهادةَ العظمىٰ مِنْ يدِ الأَعداء ، وعلى ابنِ عمِّهِ عليٍّ بنِ أَبي طالب ، مَنْ نصَّ عليهِ أَنَّهُ أَقضىٰ أهل المشارقِ والمغارب ، الشَّهيدِ أَبي الشُّهداء ، والأَئمَّةِ الأُمناء ، وعلىٰ جميعِ الصَّحابةِ والقرابةِ والتَّابعينَ لَهم بإحسانٍ إلىٰ يومِ الدِّين ، رضوانُ اللهِ تعالىٰ عليهم أَجمعينَ ، آمين .

أَمّا بعد : فقد قالَ اللهُ تباركَ وتعالىٰ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيم : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ : قالَ المفسِّرون : نزلَتْ هـٰذهِ السُّورةُ علىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَوسطَ أَيّامِ التَّشريقِ بـمِنىٰ وهوَ في حجَّةِ الوداع ، كما قالَهُ ابنُ عمر رضي الله عنهما . وقالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : نزلَتْ بالمدينة فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي » . وفي رواية : « وَقَرُبَ إِلَيَّ أَجَلِي » .

وتسمَّىٰ سورةَ التَّوديع ، وسورةَ النَّصر .

وعن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه : (إذا جاء نصر الله) ربعُ القُرآن ، وهي آخِرُ سُورَةٍ نزلت جميعاً :

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ ﴾ قيل : (إذا) بمعنىٰ (قد) . وقيل : بمعنىٰ (إذ) .

وقالَ جملةٌ مِنَ المفسِّرين : أَي إذا جاءَكَ يا مُحَمَّدُ وحصلَ لكَ نصرُ اللهِ وإظهارُهُ لكَ علىٰ أَعداءِك ، وهُم قريش أو مطلق من قاتلك من الكفار .

﴿ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ أي : فتحُ مكَّة . وقيل : هوَ فتحُ سائرِ البلاد . وقيل : هوَ ما فتحَ اللهُ عليهِ مِنَ العلوم .

﴿ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ ﴾ مِنَ العربِ وغيرِهم ﴿ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ الَّذي بعثكَ به ، وهوَ دينُ الإِسلامِ ﴿ أَفۡوَاجٗا ﴾ أي : جماعات ، فوجاً بعدَ فوج .

قالَ الحسن : لمّا فتحَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مكَّة قالَ العرب : أَمّا إذ ظَفِرَ مُحَمَّدٌ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلامُ بأهلِ الحرَمِ وقد أَجارَهُمُ اللهُ تعالىٰ مِنْ أَصحابِ الفيل . . فليسَ لكُم بهِ يدان . فكانوا يَدخلونَ في دِينِ اللهِ جماعاتٍ كثيرةً بعدَ أَنْ كانوا يَدخلونَ واحداً واحداً أَوِ اثنينِ اثنين ، فصارتِ القبيلةُ تدخلُ بأسرِها في الإِسلام .

وقالَ عكرمةُ ومقاتل : أَرادَ بالنّاسِ أَهلَ اليمن وذلكَ أَنَّهُ وردَ مِنها سبع مئة إِنسان وأَسلَموا .

وعنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما : بينما رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم في المدينة إِذ قال : « اللهُ أَكبرُ اللهُ أَكبر ، جاءُ نَصْرُ اللهِ والفتح ، وجاءَ أَهلُ اليمن » . قيل : يا رسولَ الله ؛ وما أَهل اليمن ؟ قال : « قومٌ رقيقةٌ قلوبُهُم ، ليِّنةٌ طباعُهُم . الإِيمانُ يمان ، والفقه يمان ، والحكمةُ يمانيَّة » .

وقالَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلامُ في الثَّناءِ عليهِم أَيضاً : « إِنّي أَجدُ نَفَسَ رَبّكُم مِنْ قِبَلِ الْيَمَن » . أَي : تنفيسَهُ سبحانَهُ وتعالىٰ .

وأَخرجَ ابنُ مردويه عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنْهُما قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يقول : « إِنَّ النَّاسَ دَخلُوا فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً ، وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجاً » .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أَي : فنزِّههُ تعالىٰ بكلِّ ذِكرٍ يدلُّ على التَّنزيه ، حامداً لَهُ جلَّ وعلا زيادةً في عبادتهِ والثّناءِ عليهِ سبحانَه ؛ لزيادةِ إنعامهِ عليك . فالتَّسبيح : التَّنزيه ، لا التَّلفُّظُ بكلمة : سبحانَ الله . والباءُ للملابَسة .

وقيل : أَي : فقل : سبحانَ الله .

﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ أَي : اطلبْ منهُ أَنْ يغفرَ لك . فعن أُمِّ سلَمة رضي الله عنها : كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم في آخِرِ أمرهِ لا يقومُ ولا يقعدُ ، ولا يذهبُ ولا يجيءُ إلاَّ قال : « سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِه » .

وعن عائشة رضي اللهُ تعالىٰ عنْهاقالت : كَانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُكثر من قَول : « سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْه » . فقلت : يا رسولَ الله ؛ أَراكَ تُكثرُ مِنْ قول : سبحانَ اللهِ وبحمده ، وأَستغفرُ اللهَ وأَتوبُ إليه ؟ فقال : « أَخْبَرَنِي رَبِّي سَأَرَىٰ عَلاَمَةً مِنْ أُمَّتِي ، فَإِذَا رَأَيْتُهَا . . أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِي : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِه ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْه . فَقَدْ رَأَيْتُهَا : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فَتْحُ مَكَّةَ ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ﴾ إلخ » .

وأَخرجَ الشَّيخانِ وغيرُهما عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالَت : كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُكْثِرُ أَنْ يقولَ في ركوعهِ وسجوده : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِك ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي » . يتأوّل القرآن[1] .

قالَ الوالد : شُرِعَ الاستغفارُ بعدَ كثيرٍ مِنَ الطّاعات ، مِنها : أَنَّهُ يُشرعُ لمصلّي المكتوبةِ أَنْ يَستغفرَ عقبها ثلاثاً ، ولِلمتهجِّدِ في الأَسحارِ أَنْ يستغفرَ ما شاءَ اللهُ تعالىٰ ، ولِلحاجِّ أَنْ يَستغفرَ بعدَ الحج ، ولختمِ الوضوء ، ولختمِ كلِّ مجلس . وقد كانَ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم يقولُ إِذا قامَ مِنَ المجلس : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ [أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنْتَ] ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْك » .

---

(١) قولُه : (يتأوّلُ القرآن) قالَ القسطلانيُّ في باب (التَّسبيح والدُّعاءِ في السُّجود) : أَي يفعلُ ما أُمرَ بهِ فيه ، أَي : في قولهِ تعالىٰ : ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ أَي : سبِّح بنَفْسِ الحمد ؛ لما تضمَّنَهُ الحمدُ مِنْ معنى التَّسبيحِ الَّذي هوَ التَّنزيه . وتمامُ البحثِ فيهِ . اهـ منه .

واستغفارُهُ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، قيل : لأَنَّهُ كانَ دائماً في التَّرقّي ، فإذا ترقَّىٰ إلىٰ مرتبة . . استغفرَ لما قَبْلَها .

وقيل : ممّا هوَ في نظرِهِ الشَّريفِ خلافُ الأَولىٰ بمنصبهِ المنيف .

وقيل : عمّا كانَ في سهوٍ ولَو قَبْلَ النُّبوَّة .

وقيل : هوَ استغفارُهُ لأُمَّتهِ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلام ؛ لأَنَّهُ مغفورٌ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبهِ وما تأَخَّر . وقيلَ غيرُ ذلك .

واعلَمْ أَنَّهُ قيل : إنَّ المرادَ بالتَّسبيح : الصَّلاة ؛ لاشتمالها عليه . ونقلَهُ ابنُ الجوزيِّ عنِ ابنِ عبّاس .

وقد رويَ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : (لمّا دخلَ مكَّة . . صلَّىٰ في بيتِ أُمِّ هانىءٍ ثماني ركعات) . والقولُ بأَنَّهُ صلاَّها داخلَ الكعبةِ ليسَ بصحيح . وأَيّاً ما كانَ فهيَ صلاةُ الفتح ، وهيَ سُنَّة ، وقد صلاَّها سعدُ بنُ أَبي وقّاصٍ رضي الله عنه يومَ فتحِ المدائن .

وقيل : صلاةُ الضُّحَى . وقيل : أَربعٌ مِنها لِلفتح ، وأَربعٌ لِلضُّحىٰ .

وقد أَخرجَ ابنُ ماجه عن أَبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « مَنْ حَافَظَ عَلَىٰ شُفْعَةِ الضُّحَىٰ . . غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْر » .

وأَمّا قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ فتعليلٌ لأَمرِهِ سبحانَهُ نبيَّهُ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم بالاستغفار .

وتوّاب : مِنْ صيغِ المبالغة ، ففيهِ دلالةٌ علىٰ أَنَّهُ سبحانَهُ مبالِغٌ في قَبولِ توبةِ التّائِبينَ المذنبينَ المستغفرين .

وليُعلَم : أَنَّ كثيراً مِنَ المفسِّرينَ حكى اتّفاقَ الصّحابةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُم علىٰ أَنَّ هٰذهِ السُّورةَ دلَّتْ علىٰ نعي رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم .

وعنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما : أَنَّها نزلَتْ بمِنى في حجَّةِ الوداع ، ثمَّ نزل : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ فعاشَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بعدَها ثمانينَ يوماً . وقيل : عاشَ بعدَ هـٰذهِ السُّورةِ أَقلَّ مِنْ ذلك .

وما زالَ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُعَرِّضُ باقتراب أَجَلِهِ في آخِرِ عمرِه ؛ فإنَّهُ لمّا خطبَ في حجَّةِ الوداع . . قالَ للنّاس : « خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُم ، فَلَعَلِّي لاَ أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَـٰذَا ؟ » ؟ وطفقَ يودِّعُ النّاس ، فقالوا : هـٰذهِ حجَّةُ الوداع . فلمّا رجعَ مِنْ حجَّتِهِ إِلى المدينة جمعَ النّاسَ بماءٍ يُدعىٰ خَمّاً في طريقهِ بينَ مكَّة والمدينة فخطبَهُم ، وقال : « أَيُّهَا النّاس ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيني رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيب » . ثمَّ حضَّ على التَّمسُّكِ بكتابِ اللهِ ووصَّىٰ بأَهلِ بيته .

قالَ ابنُ رجب : وكانَ ابتداءُ مرضهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم في أَواخرِ صفر ، وكانَ في بيتِ ميمونةَ كما في روايةِ معمرٍ عنِ الزّهري ، وهوَ المعتمَد .

وقيل : في بيتِ زينبَ بنتِ جحش . وقيل : في بيتِ ريحانة .

وذكرَ الخطابيُّ أَنَّهُ ابتدىءَ يومَ الإِثنين . وقيل : يومَ السّبت . وقيل : يومَ الأَربعاء .

واختُلفَ في مدَّةِ مرضه :

فقيل : عشرةُ أَيّام . وقيل : اثنا عشرَ يوماً . وقيل : أَربعةَ عشر . والأَكثرونَ علىٰ أَنَّها ثلاثةَ عشرَ يوماً ، وأَنَّ ابتداءَهُ في أَواخرِ صفر .

وروى ابنُ هشامٍ في « سيرته » عن أَبي مويهبة مولىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، قال : بعثني رسولُ اللهِ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلامُ مِنْ جوفِ اللَّيل ، فقال : « إِنِّي قَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأَهْلِ هـٰذا الْبَقِيع ، فَانْطَلِقْ مَعِي » فانطلقتُ معَه ، فلمّا وقفَ بينَ أَظهرِهم . . قال : « السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْمَقَابِر ؛ لِيَهْنِأَ لَكُم مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ فِيه ، أَقْبَلَتِ الْفِتَنُ كَقطعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِم ، يَتْبَعُ آخِرُهَا أَوَّلَهَا ، الآخِرَةُ شَرٌّ مِنَ الأُولَىٰ » . ثمَّ أَقبلَ عليَّ ، فقال : « يَا أَبَا مُوَيْهِبَة ؛ إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا

وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّة ، فَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَينَ لِقَاءِ رَبِّي وَالْجَنَّة » قال : فقلت : بأبي أنت وأمي ؛ فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة . قال : « لا وَالله - يَا أَبَا مُوَيْهِبَة - لَقَدْ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي وَالْجَنَّة » ثمَّ استغفرَ لأَهلِ البقيع ثمَّ انصرف . فبدأَ برسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وجعُهُ الَّذي قَبَضَهُ اللهُ تعالىٰ فيه .

وقالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا : رَجَعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مِنَ البقيع فوجدَني وأَنا أَجدُ صداعاً في رأسي ، وأَنا أَقول : وارأساه ، فقال : « بَلْ أَنَا - وَالله يَا عَائِشَة - وَا رأْسَاه » قالت : ثمَّ قال : « ومَا ضَرَّكِ لَوْ مِتِّ قَبْلِي ، فَقُمْتُ عَلَيْكِ وَكَفَّنْتُك ، وَصَلَّيْتُ عَلَيْكِ وَدَفَنْتُك » قالت : قلت : والله ، لكأَنّي بكَ لَو قد فعلتَ ذلك . . لقد رجعتَ إِلىٰ بيتي فأَعرستَ فيهِ ببعضِ نسائك . قالت : فتبسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . اهـ

وروى الدّارميّ أَنَّهُ خرجَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وهوَ معصوبُ الرّأْسِ بخرقةٍ حتَّىٰ أَهوىٰ إِلى المنبرِ فاستوىٰ عليه ، فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه ، إِنِّي لأَنْظُرُ إِلى الْحَوْض مِنْ مَقَامِي هَـٰذَا » ثُمَّ قال : « إِنَّ عَبْداً خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهِ زَهْرَةَ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَه ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَه » فبكىٰ أَبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقال : يا رسولَ الله ؛ فديناكَ بآبائِنا وأُمَّهاتِنَا .

قال : فعجبنا ، وقال الناس : انظروا إِلىٰ هـٰذا الشيخ ؛ يخبر رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عبد خيَّره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده ، وهو يقول : فديناك بآبائنا وأمهاتنا . قال : فكانَ رسولُ اللهِ هوَ المخيَّر ، وكانَ أَبو بكرٍ أَعلَمنا به ، فقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « إِنَّ أَمَنَّ النّاسِ عَلَيَّ في صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْر ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً . . لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، وَلَـٰكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلاَم ، لاَ يَبْقَىٰ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلاَّ سُدَّتْ إِلاَّ خَوْخَةَ[1] أَبِي بَكْر » رواه الشيخان .

وفي هـٰذا إِشارةٌ إِلىٰ أَنَّهُ هوَ الإِمامُ بعدَه ؛ لاحتياجِهِ إِلىٰ سُكنى المسجدِ والاستطراقِ فيهِ بخلافِ غيره .

---

(١) الخوخة : الباب الصغير . اهـ منه .

وفي « البخاري » : قالتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا : (لمّا ثقل رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم واشتدَّ وجعُه . استأذنَ أزواجَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ أنْ يُمرَّضَ في بيتي ، فأَذِنَّ لَهُ فخرجَ وهوَ بينَ رجلَينِ تخطُّ رِجلاهُ في الأَرض ، بينَ عبّاسِ بنِ عبدِ المطَّلبِ ، وبينَ رجلٍ آخَر) قالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : هوَ عليُّ بنُ أَبي طالبٍ .

وفي روايةٍ لمسلم : (بينَ الفضلِ بنِ عبّاسٍ ، ورجلٍ آخَر) .

وفي أُخرىٰ : (رجلَين ؛ أَحدُهما أُسامة) .

ويجمعُ بينها ـ أي : الروايتين ـ بالحملِ علىٰ تعدُّدِ الخروجِ[1] .

وفي روايةٍ أَنَّ المرضَ تمادىٰ بعدَ ذلكَ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، وهوَ معَ ذلكَ يدورُ علىٰ نسائهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ حتَّىٰ كانَ يومُ ميمونةَ رضي الله عنها وهوَ في بيتها ، فاجتمعَ رأْيُ مَنْ في البيتِ علىٰ أَنْ يَلُدُّوه ، وتخوَّفوا أَنْ يكونَ بهِ ذات الجنب[2] فلدُّوه ، ثمَّ فرَّجَ عنهُ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلام ، قال : « مَنْ صَنَعَ هَـٰذَا ؟ » فَهِبْنَهُ نساؤُه واعتللنَ بالعبّاس ـ معَ أَنَّهُ لَم يَكُنْ لَهُ في ذلكَ رأْي ـ وقالوا : تخوَّفنا أَنْ يكونَ بكَ ذاتُ الجنب . فقال : « إنَّها ـ أي : ذات الجنب ـ مِنَ الشَّيْطَان ، وَلَمْ يَكُنِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُسَلِّطُهُ عَلَيَّ وَلاَ لِيُرْهِبَنِي بِهَا ، وَلَـٰكِنْ هَـٰذا عَمَلُ النِّسَاء ، لاَ يَبْقَىٰ فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ إِلاَّ لُدَّ إِلاَّ عَمي الْعَبّاس ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْكُم » فلدُّوا كُلُّهم ، ولدَّتْ ميمونةُ وكانت صائمة . ثمَّ خرجَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلامُ إِلىٰ بيتِ عائشةَ وكانَ يومَها .

قالَ في « المواهب » : (اللُّدُود) ما يُجعلُ في جانبِ الفمِ مِن الدَّواء ، وهوَ القسطُ المذابُ بزيت .

قالَ ابنُ العربي : إنَّما أَمرَ بلَدِّهِم ؛ لِئَلاَّ يأْتوا يومَ القيامةِ وعليهِم شيءٌ فيقعوا في خطيئةٍ عظيمة .

---

(١) يعني : يجمع بين الروايتين بأن يحملا علىٰ تعدد خروج النبي صلى الله عليه وسلّم علىٰ هـٰذه الحالة من المرض .

(٢) ذات الجنب : قرحةٌ تصيب الإنسان داخل جنبه ، وهي علة صعبة تثقب البطن ، وهي الدمَّل الكبيرة التي تظهر في باطن الجنب وتنفجر إلىٰ داخل ، وقلّما يسلم صاحبها ، والله أعلم .

وعنها رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنهَا : أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قالَ لِنسائه : « إِنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدُورَ فِي بُيُوتِكُن ، فَإِنْ شِئْتُن . . أَذِنْتُنَّ لِي » أي : في البقاءِ عندَ عائشة .

وفي رواية : أَنَّهنَّ قُلن : يا رسولَ الله ؛ قد وهبنا أيّامنا لأُختنا عائشة .

وقيل : إنَّ فاطمةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا هيَ الَّتي خاطبت أُمَّهاتِ المؤمنينَ بذلك ، فدخلَ في بيتِها يومَ الإثنين .

وتوفِّيَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلامُ يومَ الإثنين . وكانَ أَوّلَ مرضهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الصُّداع ، والظّاهرُ أَنَّهُ كانَ معَهُ حمَّىٰ ؛ فإنّها اشتدَّت ، حتَّىٰ رويَ عنها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنّها قالَت : ما رأَيتُ أَحداً كانَ أَشدّ عليهِ الوجعُ مِنْ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . بل قَدْ روي : أَنَّهُ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلامُ كانتْ عليهِ قطيفة ، فكانتِ الحمَّىٰ تصيبُ مَنْ يضعُ يدَهُ عليهِ مِنْ فوقِها ، فقيلَ لَهُ في ذلك ، فقال : « إنَّا كَذَلِك : يُشَدَّدُ عَلَيْنَا الْبَلاَء ، وَيُضَاعَفُ لَنَا الأُجُور » .

وعن عبدِ اللهِ رضي الله عنه قال : دخلتُ على النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وهوَ يُوعَكُ ، فقلت : يا رسولَ الله ؛ إنَّكَ توعَكُ وعكاً شديداً ؟ قال : « أَجَل ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجلاَنِ مِنْكُم » قلت : ذلكَ أَنَّ لكَ أَجرين ؟ قال : « أَجَلْ ، ذَلِك كَذَلِكَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ أُوذِيَ بِشَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا . . إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهِ سَيِّآتِهِ كَمَا تَحُتُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا » .

ولهٰذا كانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لِشدَّةِ وجعِهِ يقول : « أَهْرِيقُوا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُن ؛ لَعَلِّي أَعْهَدُ إِلَى النّاس » . قالت عائشة : فأَجلسناهُ في مِخْضَبٍ لحفصة ، ثمَّ طفِقْنا نصبُّ عليهِ مِنْ تلكَ القربِ حتَّىٰ طفقَ يشيرُ إِلَيْنا بيدِهِ أَنْ قد فعلتُنّ .

ولعلَّ الحكمة : أَنَّ هٰذا العددَ لَهُ خاصيَّةٌ في دفعِ ضررِ السّمِّ والسِّحر ؛ فإنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كانَ يقول : « مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَر ، فَهٰذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي[1] مِنْ ذَلكَ السّم » .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنهُما قال : لمّا نزلَتْ على النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

---

(١) وهو عرق في القلب . اهـ منه .

وَسَلَّم ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ إِلىٰ آخِرِها . . قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي » فأقبلَ إِلىٰ منزلِ عائشةَ والحمّىٰ عليه .

قالَ بلالٌ رَضِيَ اللهُ تَعالَىٰ عَنه : فلمّا أَصبحت . . أَتيتُ إِلىٰ حجرةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فناديت : السّلامُ عليكُم يا أَهلَ بيتِ النُّبوَّةِ ومعدنَ الرِّسالة ، الصّلاة جامعة . فقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لفاطمة : « مُرِي بِلالاً يُقرِىءُ أَبَا بَكْرٍ السَّلام ، وَيَقُولُ لَهُ يُصَلِّي بِالنَّاس » .

قالَ بلال : فرجعتُ باكياً وأُنادي : وا سيِّداه ، وا نبيّاه ، وا سوءَ منقلباهُ ؛ ليتَ بلالاً لم تلده أُمُّه . ثمَّ أَتيتُ المسجدَ فوجدتُهُ محتبكاً بالنّاس ، فبلَّغتُ أَبا بكرٍ السَّلامَ والرِّسالة ، ثمَّ ناديت : الصَّلاةَ يرحمكُم الله . فأَقمتُ الصَّلاة ، فلمّا قلت : اللهُ أَكبر . . قالَ المسلمون : كبَّرناهُ تكبيراً ، وعظَّمناهُ تعظيماً . فلمّا قلت : أَشهدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ الله . . قالَ المسلمون : شهِدنا بها معَ كلِّ شاهد . فلمّا قلت : أَشهدُ أَنَّ مُحَمَّداً رسولُ الله . . غلبني البكاءُ فبكيتُ وبكى النّاس ، فتقدَّمَ أَبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعالَىٰ عَنْهُ فأَمَّ النّاس ، فلمّا قرأَ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾ نظرَ إِلىٰ موضعِ أَقدامِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فخنقتْهُ العَبرةُ فبكىٰ وبكتِ النَّاس ، فلمّا سمعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ضجَّةَ النّاسِ بالبكاء . . قالَ لفاطمة : « مَا هَـٰذِهِ الضَّجَّةُ الَّتي فِي الْمَسْجِد ؟ » قالت : إِنَّ المسلمينَ فقدوكَ وقتَ الصَّلاة . فرفعَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يديه ، وقال : « اللَّهُم ؛ مُرْ مَلَكَ الْحُمَّىٰ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْ نَبِيِّكَ حَتَّىٰ أَخْرُجَ وَأُصَلِّيَ بِالنَّاس ، وَأُودِّعَ أَصْحَابِي قَبْلَ فِرَاقِ الدُّنْيَا » فوجدَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خفَّةً في بدنهِ فتوضّأ ، وخرجَ متوكّئاً على الفضلِ بنِ عبّاسٍ وأُسامةَ بنِ زيدٍ وعليِّ بنِ أَبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم . فلمّا رَأَى المسلمونَ أَنوارَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تخترقُ في المسجد وأحسُّوا بمجيئه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . جَعلُوا يَنْفرجُونَ صَفّاً صفّاً ، والنبيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَختَرِق الصُّفوف ، حتّىٰ وصلَ إِلى المحراب ، فوقفَ بِإِزاءِ أَبي بكرٍ فصلّىٰ بالنّاس ، فلمّا فرغ . . رقى المنبرَ يخطبُ النّاس ، فحمدَ اللهَ تعالىٰ وأثنىٰ عليه ، ثمَّ أَقبلَ على النّاسِ بوجههِ الكريمِ كالمودِّعِ لهُم فقال : « يَا أَيُّهَا

النّاس ؛ أَلَمْ أُبَلِّغْكُمُ الرِّسَالَة ، وَأُؤَدِّي لَكُمُ الأَمَانَةَ وَالنَّصِيحَة ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسولَ الله ؛ قد بلَّغتَ الرِّسالة ، وأَدَّيتَ الأَمانة ، ونصحتَ الأُمَّة ، وعبدتَ اللهَ حتَّىٰ أَتاكَ اليقين ، فجزاكَ اللهُ أَفضلَ ما جزىٰ نبيّاً عن أُمَّته . ثمَّ نزلَ فودَّعَ أَصحابَهُ وصافحَهُم وهُم يبكون ، ثمَّ أَقبلَ إِلىٰ منزلِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا .

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه ـ كما نقلَهُ القسطلانيُّ في « المواهبِ اللدُّنيَّة » ـ قال : نعىٰ لنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نَفْسَهُ قَبْلَ موتهِ بشهر ، فلمّا دنا الفراق . . دخلنا علىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم في بيتِ أُمِّنا عائشةَ فنظرَ إِلينا ودمعتْ عيناه ، ثمَّ قال : « مَرْحَباً بِكُم ، حَيَّاكُمُ الله ، آوَاكُمُ الله ، نَصَرَكُمُ الله . أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله ، وَأَسْتَخْلِفُ اللهَ عَلَيْكُم ، وَأُحَذِّرُكُم اللهَ وَأُوصِي اللهَ بِكُم ، إِنِّي لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِين ، أَلاَّ تَعْلُوا عَلَى اللهِ فِي عِبَادِهِ وَبِلاَدِه ؛ فَإِنَّهُ قالَ لِي ولَكُم : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقال : ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ قُلنا : يا رسولَ الله ؛ متىٰ أَجَلُك ؟ قال : « قَدْ دَنَا الأَجَل ، وَالْمُنْقَلَبُ إِلَى الله ، وَإِلَىٰ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ، وَإِلَىٰ جَنَّةِ الْمَأْوَىٰ وَالْكَأْسِ الأَوْفَىٰ ، فَاقْرَؤُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمُ السَّلاَمَ وَعَلَىٰ مَنْ دَخَلَ فِي دِينِكُم بَعْدِيَ السَّلاَم » .

وأَعتقَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم في مرضهِ هٰذا أَربعينَ نَفْساً . ويروىٰ أَنَّهُ كانت عندَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سبعةُ دنانير ـ أَو ستَّة ـ فأَمرَ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بالتَّصدُّقِ بها بعدَ أَنْ وضعَها في كفِّهِ وقال : « ما ظَنُّ مُحَمَّدٍ بِرَبِّهِ أَنْ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَٰذِهِ عِنْدَه » ثمَّ تصدَّقَ بها كلّها .

وعن فاطمةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لمّا صارَ يتغشّاهُ الكرب . . قالت : وا كربَ أَبتاه! فقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « لَيْسَ عَلَىٰ أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ هَٰذَا الْيَوْم » .

وجاءَ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : « وَا كَرْبَاه » .

وقال : « لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ الله ، إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرات » . « اللَّهُم ؛ أَعِنِّي عَلَىٰ سَكَرَاتِ الْمَوْت » . وفي رواية : « اللَّهُم ؛ أَعِنِّي عَلَىٰ كُرَبِ الْمَوْت » .

ولَم يَزَلْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم متمرّضاً حتَّىٰ إذا كانَ يومَ الإثنين ، قيل : أَوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ ملكِ الموتِ أَنِ اهبطْ إلىٰ حبيبي بأحسنِ زي ، وارفقْ بهِ في قبضِ روحه ؛ فإنْ أَمركَ أَنْ تدخل . . فادخل ، وإنْ نهاك . . فارجع . فهبطَ ملكُ الموتِ في صورةِ رجلٍ أَعرابي ، فوقفَ بِبَابِ حُجرةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، ثمَّ نادىٰ : السَّلامُ عليكُم يا أَهلَ بيتِ النُّبوَّةِ ومعدنَ الرِّسالة ، أَتأْذنونَ ليَ بالدُّخولِ إلىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ؟

ورویٰ في « المواهب » عنِ الطَّبرانيِّ مِنْ حديثِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما ، قال : (جاءَ ملكُ الموتِ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم في مرضهِ ورأْسُهُ في حِجرِ علي ، فاستأْذنَ فقال : اَلسلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه . فقالَ لَهُ علي : ارجع ؛ فإنَّا مشاغيلُ عنك . فقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « هَـٰذَا مَلَكُ الْمَوْت ، ادْخُلْ رَاشِداً » . فلمّا دخل . . قال : إنَّ ربَّكَ يُقرئُكَ السَّلام) فبلَغني أَنَّ ملكَ الموتِ لَم يُسلِّم علىٰ أَهلِ بيتٍ قَبْلَهُ ولا يُسَلِّمُ بعدَهُ . اهـ

وفي رواية : (فخرجَتْ فاطمةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فقالت : يا عبدَ الله ؛ إنَّ رسولَ اللهِ مشغولٌ بنَفْسه . ثمَّ نادى الثَّانِيَة : السلامُ عليكُم . . إلخ ، أأَدخلُ ولابدَّ مِنَ الدُّخول ؟ فسمعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فقال : « يَا فَاطِمَة ؛ مَنْ عَلَى الْبَاب » ؟ فقالت : رجلٌ أَعرابيٌّ يستأذن بالدخول فقلت : إنَّ رسولَ اللهِ مشغولٌ بنَفْسه ، ثمَّ نادى الثّانية ، فقلتُ مِثلَه ، ثمَّ نادى الثَّالثةَ بصوتٍ اقشعرَّ منه بدَني ، وارتعدَتْ فرائِصي ، وتغيَّرَ لوني . فقالَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلام : « أَتَدْرِينَ مَنْ هُو ؟ » فقالت : يا أَبتِ ؛ لهوَ رجلٌ أَعرابي . فقال : « هَـٰذَا مَلَكُ الْمَوْت ، هَـٰذَا هَاذِمُ[1] اللَّذَّات ، وَقَاطِعُ الشَّهوات ، وَمُفَرِّقُ الْجَمَاعَات ، وَمُخَرِّبُ الدُّور ، وَمُعَمِّرُ القُبُور ، ٱئْذَنِي لَه » فأذنتُ لَهُ فدخلَ وسلَّم ، فقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ يَا مَلَكَ الْمَوْت ، أَجِئْتَ زَائِراً أَمْ قَابِضاً ؟ » قال : جِئتُ زائراً ، وقابضاً إنْ أَذنتَ لي ، وإلا . . رجعت ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَرسلَني إليكَ وأَمرني أَنْ لا أَقبضكَ حتَّىٰ تَأْمرني ، فما أَمْرُكَ ؟ قال : « وَتَفْعَل » قال :

---

(١) هاذم بالذال المعجمة . اهـ منه .

بذلكَ أُمرت . فقال : « يَا مَلَكَ الْمَوْت ؛ أَيْنَ خَلَّفْتَ حَبِيبِي ؟ » - يعني : جبريل - قال : خلَّفتُهُ في سماءِ الدُّنيا ، فلَم يَلبثْ أَنْ هبطَ جبريلُ عليهِ السَّلامُ وجلسَ عندَ رأسه .

وفي روايةٍ مذكور مفصّلها في « عقدِ الدُّرر واللآلىء » : (إِنَّ اللهَ يُقرئُكَ السَّلام ، ويقول : كيفَ يجدُكَ وهوَ أَعلمُ بالَّذي تجدُ منكَ ؟ ولكنْ أَرادَ أَنْ يزيدكَ كرامةً وشرفاً ، وأَنْ يُتمَّ كرامتَكَ وشرفَكَ على الخلق ، وأَنْ تكونَ سُنَّةً في أُمَّتِك . فقال : « أَجِدُنِي وَجِعاً » قال : (أبشر فإِنَّ اللهَ أَرادَ أَنْ يُبلِّغكَ ما أَعَدَّ لك) .

وفي رواية : « أَجِدُنِي يَا جِبْرِيلُ مَغْمُوماً ، أَجِدُنِي يَا جِبْرِيلُ مَكْرُوباً » ثمَّ أَتاهُ جبريلُ عليهِ السَّلامُ في اليوم الثّاني فقالَ لهُ مِثلَ ذلك ، فقال : « يَا جِبْرِيل ؛ إِنَّ مَلَكَ المَوْتِ قَدِ اسْتَأْذَنَ وَأَخْبَرَنِي بِالْخَبَر » فقال : يا مُحَمَّد ؛ إِنَّ ربَّكَ إِليكَ مشتاق ، أَلم أُعلمك بالَّذي أَرادَ منك ؟ وإِنَّ ملكَ الموتِ ما استأْذنَ علىٰ أَحدٍ قَبْلَك ، ولا يستأْذنُ علىٰ أَحدٍ بَعدك ، إِلاَّ أَنَّ اللهَ مُتمٌّ شرفكَ ، وهوَ مشتاقٌ إِليك . ثمَّ قال : « يَا جِبْرِيل ؛ أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الأَمْرَ قَدْ قَرُب » قال : نعَمْ يا حبيبَ الله . قال : « بَشِّرْنِي مَا لِيَ عِنْدَ الله » قال : إِنَّ أَبوابَ السَّماءِ قد تفتَّحت ، والملائكةَ صَفّوا صفوفاً لروحك . قال : « لِوَجْهِ رَبِّي الْحَمْد ، بَشِّرْنِي يَا جِبْرِيلُ مَا لِي عِنْدَ الله ؟ » قال : إِنَّ أَبوابَ الجنانِ قد فُتِّحتْ ، وحورُها قد زُيِّنت . قال : « لِوَجْهِ رَبِّي الْحَمْد ، بَشِّرْنِي يَا جِبْرِيل » قال : أَنتَ أَوّلُ شافعٍ ، وأَوّل مشفَّعٍ يومَ القيامة . قال : « الْحَمْدُ لله ، بَشِّرْنِي » قال : عمَّ تسأَلُنِي ؟ قال : « عَنْ هَمِّي وَغَمِّي ، مَا لِقُرَّاءِ الْقُرآن ، وَمَا لِصُوَّام شَهْرِ رَمَضَان ، وَمَا لِزُوَّارِ بَيْتِ الله ، وَمَا لأُمَّتِي الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَار ؟ » قال : إِنَّ اللهَ يقول : قد حرَّمتُ الجنَّةَ علىٰ سائرِ الأنبياءِ والأُممِ حتَّىٰ تدخلَها أَنتَ وأُمَّتُك . قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « الآنَ طابَ قَلْبِي » وفي ذلكَ الوقتِ أَذنَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ للنِّساء ، فقال : « ادْنِ مِنِّي يَا فَاطِمَة » فانكبَّتْ عليهِ فناجاها طويلاً ، فرفعت رأْسَها وعيناها تذرفانِ ، وما تُطيقُ الكلام ، ثمَّ قالَ : « ادْنِ مِنِّي رَأْسَك » فانكبَّتْ عليهِ فناجاها ، فرفعت وهيَ تضحكُ ، وما تطيقُ الكلام . فكانَ الذي رأَينا عجباً ، فسأَلناها عن ذلك ؟ فقالت : قال لي :

« إِنِّي مَيِّتٌ الْيَوْم » فبكيت ، ثمَّ قال : « دَعوتُ اللهَ أَنْ يُلْحِقكِ بي أَوَّلَ أَهْلِي ، وَأَنْ يَجْعَلَكِ مَعِي » فضحكت . ثمَّ أَدنتِ ابنيها الحسن والحسين فشمَّهما ، ثمَّ دنا ملكُ الموتِ فقال : ما تأمرُ يا مُحَمَّد ؟ قال : « أَلْحِقْنِي بِرَبِّي الآن » قال : بلىٰ ، إِنَّ رَبَّكَ إِليكَ مشتاق ، ولٰكنَّ ساعتكَ أَمامك . فقالَ جبريلُ حينئذ : عليكَ السَّلامُ يا رسولَ الله ؛ هٰذا آخِرُ ما أَنزلُ فيهِ إِلى الأَرض ، فقد طُوِيَ الوحيُ وطُويتِ الدُّنيا ، وما كانَ لي في الدُّنيا حاجةٌ إِلاَّ حضورك ، إِنَّما كُنْتَ صاحبي في الدُّنيا) .

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّها قالت : أُغميَ علىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ في حِجري ، فجعلتُ أَمسحُهُ وأَدعو لَهُ بالشِّفاء ، فلمَّا أَفاق . . قال : « أَسْأَلُ اللهَ الرَّفِيقَ الأَعْلَىٰ ، مَعَ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيل » .

وذكرَ الواقدي : أَنَّ بعضَ الصَّحابةِ قال : يا نبيَّ الله ؛ مَنْ يلي غسلَك ؟ قال : « رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ، الأَقْرَبُ فَالأَقْرَب » قال : ففيمَ نُكفِّنكَ ؟ قال : « فِي ثِيَابِي هَٰذِه ، وَفِي حُلَّةٍ يَمَانِيَّة ، وَفِي بَيَاضِ مِصْر » قال : كيفَ الصَّلاةُ عليكَ مِنّا ؟ وبكينا ، فبكىٰ ، ثمَّ قال : « غَفَرَ اللهُ لَكُم ، وَجَزاكُم عَنْ نَبِيِّكُم خَيْراً ، إِذَا غَسَّلْتُمُونِي وَكَفَّنْتُمُونِي . . فَضَعُونِي عَلَىٰ سَرِيرِي فِي بَيْتِي هَٰذَا عَلَىٰ شَفِيرِ قَبْرِي ، ثُمَّ اخْرُجُوا عَنِّي سَاعَة ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُصَلِّي عَلَيَّ حَبِيبِي جِبْرِيل ، ثُمَّ مِيكَائِيل ، ثُمَّ مَلَكُ الْمَوْتِ وَمَعَهُ جُنُودٌ مِنَ المَلاَئِكَةِ بِأَجْمَعهم . ثُمَّ ادْخُلُوا عَلَيَّ فَوْجاً فَوْجاً ، فَصَلُّوا عَلَيَّ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ، ولاَ تُؤْذُونِي بِتَزْكِيَتِي » وفي رواية : « وَلاَ صَيْحَةٍ وَلاَ رَنَّة . وَلْيَبْدَأْ بِالصَّلاةِ عَلَيَّ رِجَالُ أَهْلِ بَيْتِي ، ثُمَّ نِسَاؤُهُم ، ثُمَّ أَنتُم ، وَاقْرَؤوا السَّلامَ عَلَىٰ مَنْ غَابَ مِنْ أَصْحَابِي ، وَاقْرَؤُوا السَّلاَمَ عَلَىٰ مَنْ تَبِعَنِي عَلَىٰ دِينِي مِنْ يَوْمِي هَٰذَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَة » قُلنا : يا رسولَ الله ؛ مَنْ يُدخلكَ القبر ؟ قال : « أَهْلِي مَعَ مَلاَئِكَةٍ كَثِيرَةٍ يَرَونَكُم مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُم » .

ولمّا اشتدَّ بهِ الأَمر قالت عائشة رضي الله عنها : جَعلَ يُغمىٰ عليهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ حتَّىٰ يُغلَب ، وجبهتُهُ ترشحُ رشحاً ما رأيتُهُ مِنْ إِنسانٍ قط ، فجعلتُ أُرسل ذلكَ العرق ، وما وجدتُ رائحةً أَطيبَ منه ، فكنتُ أَقول : بأبي أَنتَ وأُمِّي ، ما تلقاهُ

جبهتكَ مِنَ الرَّشح ؟ فقال : « يَا عَائِشَة ؛ إِنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ تَخرُجُ بِالرَّشْح ، وَنَفْسُ الْكَافِرِ تَخْرُجُ مِنْ شِدْقِهِ كَنَفْسِ الْحِمَار » وكانَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ بينَ يديهِ ركوةٌ مِنْ ماءٍ فجعلَ يُدخلُ يدَهُ فيها ، ويقول : « لاَ إِلَـهَ إِلاَّ الله ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَات » .

وفي بعضِ الكتب : لمّا أرادَ ملَكُ الموتِ أَنْ يقبضَ روحَه ـ روحي فداءه ـ . قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « خَفِّف » قال : خففْتُ يا رسولَ الله ؛ ولٰكنَّ النَّزعَ شَديد . قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « أَوَ يَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أُمَّتِي مِثْلُ هَـٰذِهِ الشَّدَائِد ؟ » قال : أَضعافٌ مِنْ هـٰذا . قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « ضَعْ عَلَى رُوحِي الشَّدَائِدَ كُلَّهَا ، حَتَّىٰ يَكُونَ عَلَيْهِم أَهْوَن » .

ورويَ أَنَّهُ لمّا بلغتِ الرُّوحُ السُّرَّة . . قال : « يَا جِبْرِيل ؛ مَا أَشَدَّ مَرَارَةَ الْمَوْت! » فولَّى جبريلُ وجهَهُ عنه ، فقال : « يَا جبريل ؛ أَكَرِهْتَ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِي ؟ » فقالَ جبريل : ومَنْ يطيبُ قلبُهُ أَنْ ينظرَ إِلىٰ وجهكَ وأَنتَ تُعالجُ سكراتِ الموت ؟! ثمَّ نصبَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ يدَهُ وهوَ يقول : « اللَّهُم ؛ الرَّفِيقَ الأَعْلَىٰ » حتَّىٰ قضىٰ نحبَه .

قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَه : لمّا قُبضَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم . . صعدَ ملكُ الموتِ باكياً إِلى السَّماء . فوالَّذي بعثَهُ بالحق ، لقد سمعتُ صوتاً مِنَ السَّماءِ يُنادي : وا محمّداه .

وكانَ آخِرَ كلامه : « الصَّلاةَ الصَّلاَة ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم » .

وروىٰ ثابتٌ عن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ قال : لمّا ثقلَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم . . جَعَلَ يتغشّاهُ الكرب ، فقالت فاطمةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : وا كربَ أَبتاه . فقالَ لَها عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « لَيْسَ عَلَىٰ أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْم » . فلمّا ماتَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم . . قالت : يا أَبتاه ؛ إِلىٰ جبريلَ نَنْعاه . فلمّا دُفن . . قالت : كيفَ طابتْ أَنفسُكم أَنْ تحثوا علىٰ نبيِّكُمُ التُّراب ؟!

قيل : وأَخَذَتْ مِنْ ترابِ القبرِ الشَّريفِ وقالَت :

مَـاذَا عَلَـىٰ مَـنْ شَـمَّ تُـرْبَـةَ أَحْمَـدِ   أَنْ لاَ يَشَـمَّ مَـدَى الـزَّمَـانِ غَـوَالِيَـا
صُبَّـتْ عَلَـيَّ مَصَـائِـبٌ لَـوْ أَنَّهَـا   صُبَّتْ عَلَى الأَيَّام . . صِرْنَ لَيَالِيَا

وقد تولَّىٰ غسلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَهلُ بيته ، ومنهُم : عمُّهُ العبّاس ، وعلي ، والفضلُ بنُ العبّاس ، وأُسامةُ بنُ زيد ، وصالحٌ مولاه ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُم .

وتولَّىٰ عليٌّ كرَّمَ اللهُ تَعالىٰ وجهَهُ غسلَهُ بِنَفْسِه ، وأَسندَهُ إِلىٰ صدرِهِ وعليهِ قميصُه ، وهوَ يقول : بأَبي أَنتَ وأُمِّي ، ما أَطيبكَ حيّاً وميتاً! وأَنزلَهُ في قبرِهِ عمُّهُ العبّاس ، وعلي ، وقثمُ بنُ العبّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم .

وكانت وفاتهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ يومَ الإِثنين ، ودُفنَ يومَ الأَربعاء .

ولمّا توفّيَ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّم . . اقتحمَ النّاسُ حينَ ارتفعتِ الرّنَّة .

قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا : وسجَّى الملائكةُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّمَ بثوبي ، واضطربَ المسلمونَ اضطراباً شديداً ، فمنهُم مَنْ دُهشَ فَخَلَطَ في كلامه ، ومنهُم مَنْ كَذَّبَ بموته ؛ كعمرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ فإِنَّهُ قال : إِنَّ رسولَ اللهِ لَم يَمُت ، وإِنَّما واعدَهُ ربُّهُ كما واعدَ موسىٰ عليهِ السَّلام ، وهوَ آتيكم .

وقيل : قال : أَيُّها النَّاس ؛ كُفُّوا أَلسنتَكُم عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم ، فإِنَّهُ لَم يَمُت . والله ، لاَ أَسمعُ أَحداً يذكرُ أَنَّ رسولَ اللهِ قد مات . . إِلاَّ علوتُهُ بسَيفي .

ومنهُم مَنْ أُخرسَ فلَم يُطقِ الكلام ؛ كعثمانَ بنِ عفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فإِنَّهُ لَم يُكلِّمْ أَحداً ، وجعلَ يؤخذُ بيدِهِ فيُجاءُ بِهِ ويذهَبُ .

ومنهُم مَنْ أُقعدَ فلَم يُطقِ القيام ؛ كعليِّ بنِ أَبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وَجهَهُ فإِنَّهُ لَم يَبرحْ في بيته . إِلاَّ أَبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فإِنَّهُ أَقبلَ مسرعاً وكانَ في بنِي الحارثِ بنِ الخزرج ، فدخلَ علىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ وهُوَ مسجَّىً ، فكشفَ عن وجههِ الشَّريفِ وأَكبَّ عليه ، وقَبَّلَ وجهَهُ مراراً وهوَ يبكي ويقول : وا نبيّاه ، وا خليلاه ، وا صفيّاه! وقال : إِنَّا للهِ وإِنَّا إِليهِ راجعون . ماتَ واللهِ رسولُ الله .

ثمَّ قال : بأَبي وأُمِّي ، ما كانَ اللهُ لِيُذيقكَ الموتَ مرَّتين[1] ، أمّا الموتةُ الَّتي كُتبتْ

---

(١) واختُلفَ في قولهِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ : لا يَجمعُ اللهُ عليكَ الموتَ مرَّتين . فقيل : هوَ علىٰ حقيقته ، وأَشارَ بذلكَ إِلى الرَّدِّ علىٰ مَنْ زعمَ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّمَ سيجيءُ فيقطعُ أَيدي رجال . =

عليك. . فقد مُتَّها . ثمَّ دخلَ المسجدَ وعمرُ يَتكلَّمُ وهُم مجتمعونَ عليه ، فتكلَّمَ أَبو بكر ، وتشهَّدَ وحمدَ الله ، فأقبلَ النَّاسُ إليهِ وتركوا عمر ، فقال : مَنْ كانَ يَعبدُ مُحمَّداً . . فإنَّ مُحَمَّداً مات ، ومَنْ كانَ يعبدُ ربَّ مُحَمَّد . . فإنَّهُ حيٌّ لا يموت . ثمَّ تلا : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ . فاستيقنَ النَّاسُ كلُّهم بموتهِ وكأنَّهُم لَم يَسمعوا هٰذهِ الآيَةَ إلاَّ ذلكَ اليوم ، فتلقَّاها النَّاسُ منهُ فما سُمعَ أَحدٌ إلاَّ يتلوها .

فيا عبادَ الله ؛ كانتِ الجماداتُ تتصدّعُ مِنْ أَلَمِ مفارقةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم ، فكيفَ بقلوبِ المؤمنين ؟! فتذكَّروا حنينَ الجذعِ الَّذي كانَ يَخطبُ عليهِ قبلَ اتِّخاذِ المنبر ، لمّا فقدَهُ وفارقَه . . صاحَ وحنَّ إليه ، فنزلَ مِنْ منبرِهِ واعتنقَه ، فجعلَ يهدأُ كالصَّبيِّ الَّذي يَسكنُ عنهُ بكاؤُه ، فقالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه ، لَوْ لَمْ أَلْتَزِمْه . . لَحَنَّ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَة » .

فكيفَ نحنُ نلتذُّ باللَّذَّات، وقد قالَ صاحبُ المعجزات : « إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَات؟!»

أَما تمرَّرَ حلو عيشِكُم والحياة حِينَ قالَ عندَ الموت : « وَا كَرْبَاه ؟! » .

أَما يُبكيكُم توجُّعُ فاطمةَ البتول ، حينَ قالتْ لأَبيها الرَّسول : وا كربي لِكربكَ يا أَبتاه ؟! .

فأَينَ أَربابُ العقول ، أَينَ مَنْ بمَنْ يَعنيهِ مشغول ، أَينَ مَنِ اغترَّ بالبقاءِ في هٰذهِ الدَّارِ الفانيةِ وقد فُقدَ الرَّسول ؟!

فإذا ماتَ صاحبُ المقامِ المحمودِ والحوضِ المورود ، واللِّواءِ المعقودِ والشَّفاعةِ العظمىٰ في اليومِ الموعود . . فكيفَ بكَ يا مَنْ صحائفُ أَعمالهِ سود ، ولا يدري : هل هوَ مقبولٌ أَو مردود ؟!

= وقيل : أَرادَ لا يموتُ موتةً أُخرىٰ في القبرِ كغيرِه ؛ إذ يُحيَى لِيُسئلَ ثمَّ يموت . وقيل : لا يجمعُ اللهُ موتَ نَفْسِكَ وموتَ شريعتك .

وقيل : كنَّىٰ بالموتِ الثَّاني عنِ الكرب ؛ أَي : لا تلقىٰ بعدَ كربِ هٰذا اليومِ كرباً آخَر . « مواهب » ملخَّصاً . اهـ منه

ولقد أحسنَ حسّان بقولهِ في رثاءِ سيِّدِ الإنسِ والجان :

كُنْـتَ السَّـوَادَ لِنَـاظِـرِي ... فَعَمِـيَ عَلَيْـكَ النّـاظِـرُ
مَـنْ شَـاءَ بَعْـدَكَ فَلْيَمُـتْ ... فَعَلَيْـكَ كُنْـتُ أُحَـاذِرُ

وكذا عمَّتُهُ صفيَّةُ بقولها :

أَلاَ يَـا رَسُـولَ اللهِ كُنْتَ رَجَاءَنَا ... وَكُنْتَ بِنَا بَرّاً وَلَمْ تَكُ جَافِيَا
وَكُنْتَ رَحِيماً هَادِياً وَمُعَلِّمَا ... لِيَبْكِ عَلَيْكَ الْيَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيَا
لَعَمْرُكَ مَا أَبْكِي النَّبِيَّ لِفَقْدِهِ ... وَلَٰكِنْ لِمَا أَخْشَىٰ مِنَ الْهَجْرِ آتِيَا
كَأَنَّ عَلَىٰ قَلْبِي لِذِكْرِ مُحَمَّدٍ ... وَمَا خِفْتُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ الْمَكَاوِيَا
أَفَاطِمُ صَلَّى اللهُ رَبُّ مُحَمَّدٍ ... عَلَىٰ جدث أَمْسَىٰ بِيَثْرِبَ ثَاوِيَا
فِدَىً لِرَسُولِ اللهِ أُمِّي وَخَالَتِي ... وَعَمِّي وَخَالِي ثُمَّ نَفْسِي وَمَالِيَا
فَلَوْ أَنَّ رَبَّ النَّاسِ أَبْقَىٰ مُحَمَّداً ... سَعِدْنَا وَلَٰكِنْ أَمْرُهُ كَانَ مَاضِيَا
عَلَيْكَ مِنَ اللهِ السَّلاَمُ تَحِيَّةً ... وَأُدْخِلْتَ جَنّاتٍ مِنَ الْعَدْنِ رَاضِيَا
أَرَىٰ حَسَناً أَيْتَمْتَهُ وَتَرَكْتَهُ ... لِيَبْكِي وَيَدْعُو جَدَّهُ الْيَوْمَ نَائِيَا

ورثاهُ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ بقوله :

لَمَّا رَأَيْتُ نَبِيَّنَا مُتَجَنْدِلاً ... ضَاقَتْ عَلَيَّ بِعَرْضِهِنَّ الدُّورُ
وَارْتَاعَ قَلْبِي عِنْدَ ذَاكَ بِهُلْكِهِ ... والْعَظْمُ مِنِّي مَا حَيِيتُ كَسِيرُ
أَعَتِيقُ وَيْحَكَ إِنَّ حِبَّكَ قَدْ ثَوَىٰ ... فَالصَّبْرُ عَنْكَ لِمَا بقِيتَ يَسِيرُ
يَا لَيْتَنِي مِنْ قَبْلِ مَهْلَكِ صَاحِبِي ... غُيِّبْتُ فِي جَدَثٍ عَلَيَّ صُخُورُ
فَلَتَحْدُثَنَّ بَدَائِعٌ مِنْ بَعْدِهِ ... يَعْيَىٰ بِهِنَّ جَوَانِحٌ وَصُدُور

ورثاهُ آخرُ بقوله :

أَسَفِي عَلَىٰ فَقْدِ الرَّسُولِ طَوِيلُ ... أَسَفِي مَدَى الأَيَّامِ لَيْسَ يَزُولُ
رِزْءٌ تَكَادُ الأَرْضُ مِنْهُ وَالسَّمَا ... هَٰذِي تَمِيدُ بِهِ وَتِلْكَ تَمِيلُ

غَمَـرَ الْقُلُـوبَ بِحُـزْنِـهِ وَبِـوَجْـدِهِ وَبِكُـلِّ قَلْـبٍ لَـوْعَـةٌ وَعَـوِيـلُ

وَالأَرْضُ بُـدِّلَ صَفْـوُهَـا بِتَكَـدُّرٍ وَجَـرَتْ بِحَـارٌ بِـالْبُكَـا وَسُيُـولُ

وَالْجَـوُّ أَظْلَـمَ بَعْـدَ فَقْـدِ الْمُصْطَفَـىٰ وَالسُّحْـبُ أَدْمُعُهَـا عَلَيْـهِ هُطُـولُ

أَسَفـاً عَلَـىٰ مَـنْ جَـاءَنَـا بِهِـدَايَـةٍ وَعَلَيْـهِ حَقّـاً أُنْـزِلَ التَّنْـزِيـلُ

مِنْ بَعْدِ مَوْتِ الْمُصْطَفَىٰ هَلْ لامْرِئٍ فِـي الـدَّهْـرِ يَـوْمـاً لِلْبَقَـاءِ سَبِيـلُ

فيا أيُّها الإِخوان ؛ إنَّ لَنا في رسولِ اللهِ أُسوةً حسنةً حيّاً وميتاً ، وفعلاً وقولاً . وجميعُ أحوالهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ عبرةٌ لِلنّاظرين ، وتبصرةٌ لِلمتبصِّرين ؛ إذْ لَم يَكُنْ أَحدٌ أكرمَ على اللهِ تعالىٰ منه ؛ إذْ كانَ خليلَ اللهِ وحَبيبَه ، ونجيَّهُ وصفيَّه ، ورسولَهُ ونبيَّه . . فانظرْ هل أَمهلَهُ ساعةً عندَ انقضاءِ مدَّته ، وهل أَخَّرهُ لحظةً بعدَ حضورِ منيَّته ؟! لا ، بل أَرسلَ إِليهِ الملائكةَ الكرام ، الموكَّلينَ بقبضِ أرواحِ الأنام ، فَجَدُّوا بروحهِ الزَّكيَّةِ الكريمةِ لينقلوها إِلىٰ رحمةٍ ورضوان ، وخيراتٍ حسان ، بل إِلى مقعدِ صدقٍ في جوارِ الرَّحمـٰن . فاشتَّدَ معَ ذلكَ في النَّزْعِ كربُه ، وظهرَ أَنينُه ، وارتفعَ حنينُه ، وتغيَّرَ لونُه ، وعرقَ جبينُه ، حتَّىٰ بكىٰ لمصرعهِ الزكيِّ مَنْ حَضَرَه ، وانتحبَ لشدَّةِ حالهِ مَنْ شاهدَ منظرَه ، وقدِ امتثلَ الملَكُ ما كانَ بهِ مأْموراً ، واتَّبعَ ما وجدَ في اللَّوحِ مسطوراً .

فهـٰذا كانَ حالُهُ وهوَ عندَ اللهِ تعالىٰ صاحبُ المقامِ المحمود والحوضِ المورود ، وهوَ أوّلُ مَنْ تنشقُّ عنهُ الأَرض ، وصاحبُ الشَّفاعةِ العظمىٰ يومَ الزِّحامِ والعَرْض ، فالعجبُ أَنَّا لا نعتبرُ بحضرتهِ الكريمة! ولَسنا علىٰ ثقةِ النَّجاةِ فيما نلقاهُ مِنَ الأَحوالِ الجسيمة ، غيرَ أَنَّا أُسراءُ الشَّهوات ، وقرناءُ المعاصي والسَّيئات!

فما بالُنا لا نتَّعظُ بمصرعِ سيِّدِ المرسلِين ، وكربِ إمامِ المتَّقين ، ونَزْعِ حبيبِ ربِّ العالَمين ؟! فلعلَّنا نظنُّ أَنّنا مخلدون! أَو نتوهَّمُ أَنّا معَ سوءِ أَفعالِنا وقُبحِ أَحوالِنا عندَ اللهِ مكرمون ؟! هيهاتَ هيهات! بل ستخرجُ مِنّا الأَرواحُ وتذهبُ الأَفراح ، ونلقىٰ كرباتِ الوفاةِ ولا نسترجعُ ما فات ، والكلُّ على النّارِ واردون ، ثمَّ لا ينجو منها إلاَّ المتَّقون . فنحنُ لِلورودِ مستيقنون ، ولِلرُّجوعِ عنها متوهِّمون ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعون .

إخواني ؛ تفكَّروا في الرَّاحِلين ، واعتبِروا بالسّالِفين ، وتأمَّلوا بالبصائرِ حالَ الدَّفين ، وتأهَّبوا ؛ فأنتُم في أثرِ الماضين .

أينَ الأخلاّءُ وأينَ الإخوان ؟! أينَ الرُّفقاءُ وأينَ الأقران ؟! رَحلوا عنّا إلىٰ أعجبِ الأوطان ، وبَنوا في القلوبِ بيوتَ الأحزان . فمَن الَّذي طلبَهُ الموتُ فأعجزَه ؟! مَنِ الَّذي تحصَّنَ في قبرِهِ وما أبرزَه ؟! مَنِ الَّذي سعىٰ في مُناهُ فما أعوزَه ؟ مَنِ الَّذي أمَّلَ طولَ الأجَلِ فما حجزَه ؟!

أيُّ عيشٍ صفىٰ وما كدَّرَه ، أيُّ قدمٍ سعىٰ وما عثرَه ، أيّ غصنٍ علا علىٰ ساقهِ وما كسرَه ؟

أمَا أخذَ الآباءَ والأجداد ؟ أما ملأَ القبورَ والألحاد ؟ أما حالَ بينَ المريدِ والمراد ؟! أما سلبَ الحبيبَ وقطعَ الوداد ؟! أما أرملَ النّسوانَ وأيتمَ الأولاد ، أما تتبَّعَ قومَ تُبَّعٍ وعادَ علىٰ عاد ؟!

ما هٰذا الانزعاجُ عندَ موتِ الأحباب ؟! أو ما علىٰ هٰذا الشَّرطِ رُقمَ الكتاب ؟!

هل لِلبقاءِ سبيلٌ للنّاس ؟! هل يصحُّ البناءُ معَ تضعضعِ الأساس ؟!

يا حزيناً لفراقِ أترابِه ، كئيباً لرحيلِ أحبابِه ، يبكي ذهابَهُم غافلاً عن ذَهابِه ؛ إنَّ حزنَهُ عليهِ لا عليهِم أولىٰ بِه :

عَــزَاءٌ فَمَــا يَصْنَــعُ الْجَــازِعُ ... وَدَمْــعُ الأَسَــىٰ أَبَــداً ضَــائِــعُ
بَكَـى النَّـاسُ مَـنْ قَبْـلُ أَحْبَـابَهُـم ... فَهَــلْ مِنْهُــم أَحَــدٌ رَاجِــعُ
عَـرَفْنَـا الْمَصَـائِـبَ قَبْـلَ الْـوُقُـوعِ ... فَمَــا زَادَنَــا الحَــادِثُ الْــوَاقِــعُ
يُــدَلَّـى ابْـنُ عِشْـرِيـنَ فِـي قَبْـرِهِ ... وَتِسْعُــونَ صَــاحِبُهَــا رَاتِــعُ
وَلِلْمَــرْءِ لَــوْ كَــانَ يُنْجِـي الْفِـرَا ... رُ فِــي الأَرْضِ مُضْطَـرَبٌ وَاسِــعُ
وَمَــنْ حَتْفُــهُ بَيْــنَ أَضْــلاَعِــهِ ... أَيَنْفَعُــــــهُ أَنَّـــــهُ دَارِعُ
وَكُــلُّ أَبِــيٍّ لِــدَاعِـي الْحِمَـامِ ... متَـىٰ يَـدْعُـهُ سَـامِـعٌ طَـائِـعُ

يُسَلِّـــمُ مُهْجَتَـــهُ سَـــامِحـــاً كَمَـــا مَـــدَّ رَاحَتَـــهُ الْبَـــائِـــعُ
وَلَـــوْ أَنَّ مِـــنْ حَـــدَثٍ سَـــالِمـــا لَمَـــا خُسِـــفَ الْقَمَـــرُ الطَّـــالِـــعُ
وَكَيْـــفَ يُـــوقَّـــى الْفَتَـــىٰ مَـــا يَخَـــافُ إِذَا كَـــانَ حَـــاصِـــدَهُ الـــزَّارِعُ

هٰذا المصيرُ ـ يا معاشرَ الغافِلين ـ واللُّحودُ المنازلُ بعدَ التَّرفِ واللِّين ، والأَعمالُ الأَقران . . فاعملوا ما يزينُ ، والقيامةُ تجمَعُكم وتُنصبُ الموازين ، والأَهوالُ العِظام ، فأَينَ المتفكِّرُ الحزين ؟ ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ .

اللَّهُم ؛ اجعلْنا ممَّنْ أَفاقَ لِنَفْسه ، وفاقَ بالتَّحفُّظِ أَبناءَ جِنسه ، وأَعدَّ عدَّةً تصلحُ لِرَمْسِه[1] ، واستدركَ في يومِهِ ما ضيَّعَ في أَمْسِه .

واجعلْنا اللَّهُمَّ بطاعتكَ عاملين ، وعلىٰ ما يرضيكَ مقبلين ، وآمِنّا مِنَ الفزعِ الأَكبرِ يومَ الدّين ، وثبِّتنا على القولِ الثَّابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة ، وأَنلنا شفاعةَ سيِّدِ المرسَلين ، واغفر لَنا ولوالدينا ولأقارِبنا ، وارحمنا وكافَّةَ المسلِماتِ والمسلمين ، الأَحياءِ منهُم والميِّتين ، وصلِّ علىٰ مُحَمَّدٍ وعلىٰ آلهِ أَجمعين .

* * *

---

(١) الرَّمس : القبر .

المجلس السادس والأربعون
في الزهد وطول الأمل

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي ظهر لأَبصارِ البصائرِ عياناً ، فامتلأَتْ قلوبُ عارفيهِ بهِ إِيماناً ، وولهتْ أَفئدةُ محبِّيهِ هيماناً ، فعادتْ تطلبُ وصلَهُ مِنْ هجرهِ أَماناً . الحيُّ الباقي فلا يزولُ ولا يَتفانا ، السَّميعُ البصيرُ فهوَ يَسمعُنا ويرانا .

نحمدُهُ علىٰ ما منحنا وأَولانا ، ونشكرُه ، وكيفَ لا نشكرُ مولانا ؟ ونشهدُ لَهُ بالوحدانيَّةِ سرّاً وإِعلاناً ، وأَنَّ مُحَمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ أَرسلَهُ وشجرةُ الكفرِ قد فرَّعتْ أَغصاناً ، فقطعَها بمنجلِ مجاهدتهِ وزرعَ مِنَ الحقائقِ بستاناً . صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ أَصحابهِ الَّذينَ كانوا أَنصاراً لَهُ على الحقِّ وأَعواناً ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا ﴾ ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ رزقَنا اللهُ تعالىٰ محبَّتَهُم على الوصفِ الَّذي وصّانا .

فمنهُم : أَبو بكرٍ الَّذي يوقدُ في قلوبِ مبغضيهِ نيراناً ، وعمرُ الَّذي جعلَ لِعطاءِ المسلمينَ ديواناً ، وعثمانُ الَّذي يقطعُ اللَّيلَ صلاةً وقُرآناً ، وعليٌّ الَّذي نهواهُ معاشرَ السُّنَّةِ ويهوانا ، ما علتِ الورقُ منابرَ الورقِ ورجَّعتْ أَلحاناً .

أَمّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في كتابهِ العزيز : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ :

قالَ المفسِّرون : هـٰذهِ تهديدٌ لِلكفَّار ؛ أَي : خَلِّ هـٰؤلاءِ الكفرة ودَعْهُم عمّا أَنتَ

بصددهِ مِنَ الأَمرِ لَهُم والنَّهي ؛ فهمُ لا يرعوونَ أَبداً ؛ لأَنَّهُم كالأَنعامِ الَّتي لا تهتمُّ إِلاَّ بالأَكلِ والشُّرب .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ أي : يشغلُهم طولُ الأَملِ والعمر وبلوغُ الوطرِ واستقامةُ الحالِ عنِ الإِيمانِ والأَخذِ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ . وهُم لا يزالونَ في الآمالِ الفارغةِ حتَّىٰ يُسفرَ الصُّبحُ لِذي عينين ، وينكشفَ الأَمرُ ويَروا العذابَ يومَ القيامة ، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبةَ أَمرِهم وسوءَ صنيعهِم .

قالَ في « الفتح » : وفي هـٰذا تنبيهٌ علىٰ أَنَّ إِيثارَ التَّلذُّذِ والتَّنعمِ وما يؤَدّي إِليهِ طولُ الأَملِ ليسَ مِنْ أَخلاقِ المؤمنين . قالَ أَميرُ المؤمنينَ عليُّ بنُ أَبي طالبٍ كَرَّمَ الله تعالىٰ وَجْهَهُ إِنَّما أَخشىٰ عليكُم اثنتين : طولُ الأَملِ واتِّباعُ الهوىٰ ؛ فإِنَّ الأولَ يُنسي الآخِرَ ، والثَّاني يصدُّ عنِ الحق .

وعن عَمْرِو بنِ شعيب ، عَن أبيه ، عن جدِّهِ ؛ قال : قَالَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « نَجَا أَوَّلُ هَـٰذِهِ الأُمَّةِ بِالْيَقِينِ وَالزُّهْد ، وَيَهْلِكُ آخِرُ هَـٰذِهِ الأُمَّةِ بِالْبُخْلِ وَالأَمَل » .

ولنذكرْ لكُم في هـٰذا الدَّرسِ ـ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ ما وردَ في اليقينِ والزُّهد ، والبخلِ وطولِ الأَمل ، وما يتعلَّقُ بجميعِ ذلك ، وما يناسبُهُ مِنَ الأَحاديثِ الشَّريفةِ والآثارِ المنيفة ، والمواعظِ اللَّطيفة :

قالَ ابنُ الجوزيِّ عليهِ الرَّحمة : عنِ الحسنِ رحمَهُ اللهُ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « إِنَّ النَّاسَ لَمْ يُؤْتَوْا فِي الدُّنْيَا خَيْراً مِنَ اليقينِ والْعَافِيَة ، فَاسْأَلُوهُمَا اللهَ عَزَّ وَجَلّ » .

وقالَ أَبو الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عَنْه : ذرَّةُ برٍّ مِنْ صاحبِ تقوىٰ ويقينٍ أَفضلُ مِنْ أَمثالِ الجبالِ مِنْ عبادةِ المُفترين .

وقالَ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : يا ابنَ آدم ؛ إِنَّ مِنْ ضعفِ يقينكَ أَنْ تكونَ بما في يدكَ أَوثقَ منكَ بما في يدِ اللهِ عزَّ وجلّ .

وقالَ أَيضاً : إِنَّا نوقنُ بالموتِ والحسابِ والجزاءِ ، ولا نعملُ عملَ موقن وكأننا في شكّ .

وكان شميط بن عجلان إذا وصف الموقنين يقول : أتاهم من الله تعالىٰ أمر ، وذادهم عن الباطل ، فأَسهروا العيون ، وأجاعوا البطون ، وأَظمؤوا الأَكباد ، ونَصبوا الأَبدان ، واهتدموا الطَّارفَ والتَّالد[1] .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيد : مررتُ براهب ، فقالَ لي : يا عبدَ الواحد ؛ إِنْ أَحببتَ أَنْ تعلمَ عِلمَ اليقين . . فاجعلْ بينكَ وبينَ الشَّهواتِ حائِطاً مِنْ حديد .

وإِذ قد بانَ فضلُ اليقين . . فاليقينُ في بابِ العلومِ ما لا يحتملُ الشَّكّ .

وقد يقال : فلانٌ ضعيفُ اليقينِ بالموت ، معَ عِلمنا أَنَّهُ لا يشكُّ فيه ، ولـٰكنْ يرادُ بذلك : العملُ بمقتضىٰ ما أَيقنَ به . والصَّالحونَ أَيقنوا بالآخرةِ مِنْ حيثُ الدَّليل ، فلا يتداخلُهم ريب ، واستعملوا الجوارحَ بمقتضىٰ ما أَيقنوا به . علىٰ أَنَّ علومَ المؤْمِنينَ تزيدُ وتنقصُ علىٰ قدرِ قوَّةِ الدَّليلِ عندَهُم وضعفه ، وليسَ وضوحُ ما ثبتَ بدليلٍ كوضوحِ ما ثبتَ بأَدلَّة .

واعلَم : أَنَّ جميعَ المؤمنينَ يوقنونَ بأَنَّ اللهَ تعالىٰ يراهُم في جميعِ أَحوالِهم ، غيرَ أَنَّ قوَّةَ اليقينِ والعملَ بمقتضاهُ أَظهرتْ على الأَولياءِ المراقبةَ والتَّأَدُّبَ في القولِ والفعل ، كما يتأَدَّبُ مُحاضِرُ الملك . فاليقينُ شجرة ، وخصالُ الخيرِ فروعُها ، فالعجبُ لموقنٍ لا يعملُ بمقتضىٰ يقينه !

وما أَحسنَ ما قالَهُ عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ في خُطبته : إِنْ كنتُم توقنون . . فأنتُم حمقىٰ ، وإِن كنتم لا توقنون . . فأَنتُم هَلكىٰ .

وهـٰذا لأنَّ مَن أيقنَ بقصدِ السَّبُعِ إِيّاه ، وعَلِمَ أَنَّهُ لا نجاةَ لَهُ إِلاَّ بأَنْ يفرَّ فَلم يَبرحْ مِنْ مكانهِ فهـٰذا في غايةِ الحمق . فكذلكَ مَنْ أَيقنَ بندمهِ علىٰ تفريطه ، ثمَّ دام عليهِ مَيلاً

---

(١) أي : السابق واللاحق . اهـ منه .

إلى التَّسويفِ الَّذي هوَ فيهِ علىٰ خطر . . فإنَّهُ مُغترٌّ ، فإنِ استدركَ أَمرَهُ بالعلاج ، وإلا . . نازلَهُ النَّدَمُ في حالِ الفَوْت ، ولاتَ حينَ مناص .

وعن أَبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِين : أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ الله ، وَأَنْ تَحْمَدَهُم عَلَىٰ رِزْقِ الله ، وَأَنْ تَذُمَّهُم عَلَىٰ مَا لَمْ يُؤْتِكَ الله » .

إِنَّ رِزقَ اللهِ لا يجرُّهُ حرصُ حريصٍ ولا يردُّهُ كرهُ كاره ، إِنَّ اللهَ بحكمتهِ وجلالهِ جعلَ الرُّوحَ والفرحَ في الرِّضا واليقين ، وجعلَ الغمَّ والحزنَ في الشَّكِّ والسُّخط .

ولقد أَحسنَ القائل :

قَصِّرْ بِدُنْيَاكَ الأَمَل ... مِنْ قَبْلِ إِدْرَاكِ الأَجَلْ
فَلَتَرْحَلَنَّ كمِثْلِ مَنْ ... قَدْ كَانَ قَبْلَكَ وَارْتَحَلْ
وَاحْذَرْ وُقُوفَكَ فِي غَدٍ ... عِنْدَ الْحِسَابِ مِنَ الْخَجَلْ
وَقَدِ اعْتَرَفْتَ بِمَا اقْتَرَفْـ ... ـتَ مِنَ الخَطَايَا وَالزَّلَلْ
فَإِلَىٰ مَتَىٰ هَـٰذَا الْفُتُو ... رُ وَذَا التَّوَانِي وَالْكَسَلْ

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قال : أَخذَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ بمنكبيَّ فقال : « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيل » . وكانَ ابنُ عمرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُما يقول : إِذَا أَمسيت . . فلا تنتظرِ الصَّباح ، وإِذَا أَصبحت . . فلا تنتظرِ المساء . وخُذْ مِنْ صحَّتِكَ لمرضِك ، ومِنْ حياتِكَ لِموتك .

وعن سهلِ بنِ سعدٍ رضي الله عنه قال : جاءَ رجلٌ إِلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم ، فقال : يا رسولَ الله ؛ مُرني بعملٍ إِذا أَنا عملتُهُ أَحبَّني اللهُ وأَحبَّني النّاس ؟ فقالَ لهُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ الله ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاس » .

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : أَنتُم أَطولُ صلاةً وأَكثرُ اجتهاداً مِنْ أَصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم ، وهُم كانوا أَفضلَ منكُم .

فقيلَ لَه : بأَيِّ شيء ؟

قال : إِنَّهم كانوا أَزهدَ في الدُّنيا ، وأَرغبَ في الآخرةِ منكُم .

وقالَ أَبو واقدٍ اللَّيثي : تابعنا الأعمالَ فلَم نَجِدْ عملاً أَبلغَ في طلبِ الآخرةِ مِنَ الزَّهادةِ في الدُّنيا .

واعْلَم : أَنَّ معنى الزُّهد : انصرافُ الرَّغبةِ عنِ الشَّيء .

وأحوالُ الزُّهّادِ تختلف :

فمنهُم مَنْ تركَ الدُّنيا لذمِّ الشَّرعِ لها .

ومنهُم مَنْ خافَ طولَ الحسابِ عليها .

ومنهُم [من] رآها قاطعةً لَهُ عنِ الآخرة .

ومنهُم مَنْ رأى الالتفاتَ إِليها يوجبُ الاشتغالَ عنِ الحبيب ، فلَم يُعِرْهَا الطَّرف .

واعلَم : أَنَّ الزُّهدَ الممدوحَ : هو تركُ الفُضولِ الَّتي لا تدعو إِليها الحاجة .

والمهمّاتُ الضَّروريَّةُ سبعة :

أَحدُها : المطعم : فهِمَّةُ الزَّاهِدِ ما يدفعُ بهِ الجوعَ ممَّا يوافقُ بدنَهُ ويقوّيهِ على الطَّاعة ، فإِنْ قَصَدَ الالتذاذَ بشيءٍ مِنَ المتناوَلاتِ ليُعطي النَّفْسَ حظّاً يتقوَّىٰ به . . لَم يَخرجْ مِنَ الزُّهد ، وقد كانَ سفيانُ الثَّوريُّ حَسَنَ المطعم ، وربَّما سافرَ وفي سُفْرَتهِ اللَّحمُ المشويُّ والفالُوذَج .

وقد يدَّخِرُ الزَّاهدُ شيئاً يَتقوَّتُه[1] فلا يخرجُهُ مِنَ الزهد ؛ فقد كانَ لسفيانَ بضاعة ، وورثَ داوودُ الطَّائيُّ عشرين ديناراً فأنفقَها في عشرينَ سَنَة .

والثَّاني : الملبس : والزَّاهدُ يقتصرُ علىٰ ما يدفعُ الحرَّ والبردَ ويسترُ العورة ،

---

(١) وروىٰ في « الجامع الصَّغير » : « نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى الدِّينِ قُوتُ سَنَة » . قالَ المناوي : بكسرِ الدَّالِ أَي : ادِّخارُ قوتِ سَنة . وذلكَ لا ينافي الزُّهد ، وفي هٰذا الحديثِ ضعفٌ . اهـ منه .

ولا بأسَ أَنْ يكونَ فيهِ نوعُ تجمُّل ؛ لئَلاَّ يُخرجَهُ التَّقشُّفُ إلى الشُّهرة ، وقد كانَ أَكثرُ لباسِ السَّلفِ خشناً ، فصارَ الخشنُ اليومَ شهرة . وخطبَ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالنَّاسِ وهوَ خليفةٌ وعليهِ إزارٌ فيهِ ثنتا عشرةَ رقعة . وكانَ أَبو معاويةَ الأَسودُ يلتقطُ الخرقَ مِنَ المزابلِ ويُلفِّقها ، ويقول : ما ضرَّهُم ما أَصابَهُم في الدُّنيا ، جبرَ اللهُ لَهُم بالجنَّةِ كلَّ مصيبة .

والثَّالث : المسكن : وقد كانَ بعضهُم يقنعُ بزوايا المساجد ؛ كأهلِ الصّفة ، وبعضهُم يَبني كوخاً . ومتىٰ قصدَ ما يخرجُهُ عن حدِّ الضرورة . . خرجَ عنِ الزُّهد . وقد توفِّي رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ ولَم يَضعْ لَبنَةً علىٰ لَبنة .

والرَّابع : أَثاثُ المنزل : وينبغي لِلزَّاهدِ أَنْ يقتصرَ فيهِ على الخزف . وفي « الصَّحيحين » مِنْ حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا قالت : كانَ ضجاعُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ الَّذي ينامُ عليهِ باللَّيلِ مِنْ أَدمٍ[1] محشوٌّ ليفاً .

وقالَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْه : تزوَّجتُ فاطمةَ ومالي ولَها فراشٌ غيرُ جلدِ كبش ، كنّا ننامُ باللَّيلِ عليهِ ونعلفُ عليهِ النّاضح بالنَّهار ، وما لي خادمٌ غيرُها .

والخامس : المنكَح : وليسَ مِنَ الزُّهدِ تركُه ؛ فإِنَّ التَّشاغُلَ بهِ للعفافِ لازم ، ولطلبِ النَّسلِ فضيلة . ومَنْ لا يجتمعُ همُّهُ إلاَّ بطلبِ المستحسن . . فذلكَ في حقِّهِ فضيلة . فأَمّا إِذا خافَ عدمَ النَّفقة ، وشتاتَ القلب ، وأَمكنَ الاقتصارُ على الدُّون . فحَسَن .

والنِّكاحُ مِنْ سننِ المرسَلينَ وشعارِ الصَّالحين .

والسَّادس : المال : والزَّاهدُ يقتصرُ منهُ علىٰ ما يدفعُ حاجة الوقت ، ويقطعُ عنهُ مِننَ الخلْق .

والسَّابع : الجاه ، ومعناه : ميلُ القلوبِ ليتوصَّلَ بهِ إلى الاستعانةِ علىٰ ما يريدُهُ مِنَ الأَغراضِ ودفعِ ما يؤذيه . والزَّاهدُ يُمَهِّدُ لَهُ الجاه ، فليحذرْ مِنْ شرِّ ذلك . وقد يَتزهَّدُ

---

(١) الأدم : الجِلدُ . اهـ منه .

الإنسانُ في المطعمِ والمشربِ ويلبسُ الخشن ، ويقصدُ المدحَ بالزُّهد . . فذاكَ الخاسر ، فلابدَّ مِنْ عدمِ هـٰذا القصدِ الرَّديء ، ودفعهِ بسترِ الحال ، وأَنْ لا يلتفتَ بالقلبِ إِليه .

والعملُ كلُّهُ على النِّيّاتِ والبواطن ، فنسأَلُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سلامةً تعمُّ بواطننا وظواهرَنا بمنِّهِ وكرمه .

قالَ حجَّةُ الإِسلامِ الغزَّاليُّ في « الإِحياء » : اعلَم : أَنَّهُ قد يُظَنُّ أَنَّ تَارِكَ المالِ أَو لابسَ الصُّوفِ زاهد ، وليسَ كذلك ؛ فكَم مِنَ الرُّهبانِ مَنْ لازمَ ديراً لا باب له ، وقلل أَكلَه ؛ ليعرفَ النَّاسُ حالَهُ ومدحهم له .

فلابدَّ لِلزَّاهِدِ من أن يزهد في المال والجاه جميعاً ، ومن يُرائي في ملبسه ومأكله فهو من أكلة الدنيا بالدين ، و ينبغي للزاهد أَنْ لا يفرحَ بموجودٍ ولا يحزنَ علىٰ مفقود ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ بل ينبغي أَنْ يحزنَ بوجودِ المالِ ويفرحَ بفقده .

ومِنْ علاماتِ الزَّاهد : أَنْ يستويَ عندَهُ ذامُّهُ ومادحُه . وأَنْ يكونَ أُنْسُهُ باللهِ تعالىٰ ، والغالبُ علىٰ قلبهِ حلاوةُ الطَّاعة .

وقالَ يحيى بنُ معاذ : علامةُ الزُّهد : السَّخاءُ بالموجود .

وقالَ الإِمامُ أَحمدُ ابنُ حنبل : علامة الزهد : قصرُ الأَمل . انتهىٰ ملخَّصاً .

قالَ في « التَّبصرة » : وليُعلَم : أَنَّ الزُّهدَ لا يتمُّ إِلاَّ بالتَّوكُّل ، وهو : اعتمادُ القلبِ على اللهِ وحدَه ، ومَنِ اعتمدَ على السَّبب . . فليسَ بمتوكِّل . ثمَّ إِنَّ التَّوكُّلَ فِعلُ القلب ، ولا ينافيهِ الكسبُ بالبدنِ والادخار ، وجلبُ المنافعِ ودفعُ المضار ، والتَّداوي ؛ ففي « الصَّحيحين » مِنْ حديثِ عمرَ بنِ الخطّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْه : (أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ كانَ يحبسُ لأَهلهِ قوتَ سَنتهِم) .

ولا يُلتفتُ إِلىٰ قولِ مَنْ قال : إِنَّ المتوكِّلَ لا يدَّخرُ ولا يتعرَّضُ بالسَّبب ؛ فإِنَّ أُولئكَ قومٌ جَهِلوا معنى التَّوكُّل ، وآثَروا الرَّاحةَ والبطالة ، وقد قالَ اللهُ عَزَّ وَجل :

﴿ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ وقال : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ .

فإنْ قالَ قائل : إذا أخَذَ المتوكِّلُ سلاحَهُ وأغلقَ بابَه . . فبأَيِّ معنىً يكونُ متوكِّلاً ؟ يكون كذلك بالعِلْمِ والحال .

أَمّا العلمُ فهو : أَنْ يعلمَ أَنَّ العدوَّ إنِ اندفعَ فبدفعِ اللهِ تعالىٰ ، لا بأْخذِ السِّلاح .

وإنْ سَلِمَ مِنَ اللِّصِّ فبمنعِ اللهِ تعالىٰ ، لا بغلقِ الباب ، فيتوكَّلُ على المسبِّبِ لا على السَّبب .

وأَمّا الحال : فيكونُ راضياً بما يقضي اللهُ تعالىٰ عليه ، ومتىٰ عرضَ لَهُ أَنَّهُ لَوِ احترزَ لَم يُسْرَقْ متاعُه . . فهوَ بعيدٌ عنِ التَّوكُّل . وإذا علمَ أَنَّ الخِيرةَ فيما يَقضي اللهُ تعالىٰ . . لَم يحزنْ فيما جرىٰ .

وليُعلَمْ : أَنَّ القَدَرَ كالطَّبيبِ للمريض ، فإنْ قدَّمَ إليهِ الطَّعام . . فرح ، وقال : لولا أَنَّهُ علِمَ أَنَّ الغذاءَ يَنفعني . . ما قدَّمَه . وإنْ منعَه . . فرح ، وقال : لولا أَنَّهُ علمَ أَنَّ الغذاءَ يؤذيني . . ما منعني .

رويَ عنِ الفيضِ بنِ إسحاقَ أَنَّهُ قال : قلتُ لِلفضيل : حُدَّ ليَ التَّوكُّل ؟

فقال : كيفَ تتوكَّلُ عليهِ وأَنتَ مختارٌ لكَ فتسخطُ قضاءَه ؟ أَرَأَيتَ لَو دخلتَ بيتَكَ فوجدتَ امرأَتَكَ وقد عميت ، وابنتَكَ قد أُقعِدَت ، وأَنتَ قد أَصابكَ الفالج . . كيفَ كانَ رضاكَ بقضائه ؟

قلت : أَخافُ أَنْ لا أَصبر .

فقال : لا ، حتَّىٰ يكونَ عندكَ واحد ؛ أَن ترضىٰ بكلِّ ما صنعَ في العافيةِ والبلاء .

فبانَ أَنَّ التَّوكُّلَ عملُ القلب ، واعتمادُهُ على الخالق ، ورؤْيتهُ أَنْ لا نَفْعَ ولا ضررَ إلاَّ منه ، ورضاهُ بما يدبِّره ؛ لأَنَّهُ حكيم .

وقالَ في « الإحياء » : اعلَمْ أَنَّ التَّوكُّلَ مِنْ أَبوابِ الإِيمان ، وقد وردتْ في فضلهِ الآياتُ والأَحاديثُ والأَخبار :

أمّا الآيات : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ وقالَ عزَّ وَجَل : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : عزيز ، لا يذلُّ مَنِ استجارَ به ، ولا يضيعُ مَنْ لاذ بجنابهِ والتجأَ إِلىٰ ذِمامهِ وحِماهُ ، حكيمٌ لا يقصرُ عن تدبيرِ مَنْ توكَّلَ علىٰ تدبيره .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ ﴾ . بيَّنَ أَنَّ كلَّ ما سوى اللهِ تعالىٰ عبدٌ مسخَّر ، حاجتُهُ مِثلُ حاجتكُم ، فكيفَ يُتوكَّلُ عليه ؟

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ﴾ .

وكلُّ ما ذكرَ في القرآنِ مِنَ التَّوحيد . . فهوَ تنبيهٌ علىٰ قطعِ الملاحظةِ عنِ الأَغيار ، والتَّوكُّلِ على الواحدِ القهّار .

وأمّا الأَخبار : فقد روى ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه ـ كما ذكرنا في بعضِ الدُّروسِ الماضية ـ قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « رَأَيْتُ الأُمَمَ فِي الْموْسِم ، فَرَأَيْتُ أُمَّتِي قَدْ مَلؤُوا السَّهْلَ وَالْجَبَل ، فَأَعْجَبَتْني كَثْرَتُهُم وَهَيْئَتُهُم ، فَقِيلَ لِي : أَرَضِيت ؟ قُلْت : نَعَم . قِيل : وَمَعَ هَـٰؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَاب » . قيل : مَنْ هُم يا رسولَ الله ؟ قال : « الَّذِينَ لاَ يَكْتَوُون ، وَلاَ يَتَطَيَّرُون ، وَلاَ يَسْتَرقُون ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون » فقامَ عكاشة ، فقال : يا رسولَ الله ؛ ادعُ اللهَ أَنْ يَجعلني منهُم . فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « اللَّهُم ؛ اجْعَلْهُ مِنْهُم » فقامَ آخَر ، فقال : يا رسولَ الله ؛ ادعُ اللهَ أَنْ يَجعلني منهُم . فقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « سَبَقَكَ بِهَا عُكاشَة » .

وعن عمرَ بنِ الخطّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ يقول : « لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُم عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّله . . لَرَزَقَكُم كَمَا يَرْزُقُ الطَّير ، تَغْدُو خِماصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً » .

وقالَ سيِّدي وجدِّي ، الشَّيخُ عبدُ القادرِ الكيلاني : مَنْ أَرادَ السَّلامةَ في الدُّنيا والآخرة . . فعليهِ بالصَّبرِ والرِّضا ، وتركِ الشَّكوىٰ إِلىٰ خَلْقه ، وإِنزالِ حوائجهِ بربِّهِ عَزَّ وَجَل ، ولزومِ طاعته ، وانتظارِ الفرجِ منهُ سبحانَه ، والانقطاعِ إِليه ؛ فحرمانُهُ عطاء ، وعقوبتُهُ نعماء ، وبلاؤهُ دواء ، ووعدُهُ حال ، وقولُهُ فِعل ، وكلُّ أفعالهِ حسنةٌ وحكمةٌ ومصلحة ، غيرَ أَنَّهُ طَوَىٰ عَزَّ وَجَلَّ عِلْمَ المصالحِ عن عبادهِ ، وتفرَّدَ به ، فليسَ إِلاَّ الاشتغال بالعبوديَّة ، وأَداء الأَوَامرِ واجتناب النَّواهي ، والتَّسليم في القدر ، وتركِ الاشتغالُ بالرُّبوبيَّة ، والسُّكون عن : لِم ، وكيف ، ومتىٰ ؟

وتستندُ هـٰذهِ الجملةُ إِلىٰ حديثِ ابنِ عبّاس ، قال : بينما أَنا رديفُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ إِذْ قال : « يَا غُلاَم ؛ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْك ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَك ، وَإِذَا سَأَلْت . . فَاسْأَلِ الله ، وَإِذَا اسْتَعَنْت . . فَاسْتَعِنْ بِالله . جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِن ، وَلَوْ جَهِدَ الْعِبَادُ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَقْضِهِ اللهُ لَك . . لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْه ، وَلَوْ جَهِدُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَقْضِهِ اللهُ عَلَيْك . . لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْه . فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ للهِ بِالصِّدْقِ فِي الْيَقِين . . فَاعْمَل ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِع . . فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُ خَيْراً كَثِيراً . وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْر ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْب ، وأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً » .

فينبغي لِكلِّ مؤمنٍ أَنْ يجعلَ هـٰذا الحديثَ مرآةَ قلبه ، وشعارَهُ ودِثارَه ، وحديثَه ، فيعمل بهِ مِنْ جهةِ حركاتهِ وسكناته ، حتَّىٰ يسلمَ في الدُّنيا والآخرة ، ويجدَ العزَّةَ برحمةِ اللهِ تعالىٰ عَزَّ وَجَل . انتهىٰ

وليعُلَمْ أَنَّهُ كما كانَ التَّوكُّلُ مِنْ صفاتِ المؤمنين . . فالرِّضا أَيضاً مِنْ خصالِ الزَّاهدينَ والأَولياءِ المقرَّبين ؛ فقد قالَ عزَّ وجل : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ .

قالَ العلماء : رضا اللهِ تعالىٰ على العبدِ هو : إِنعامُهُ عليهِ بإِصلاحِ أَحوالهِ وتقريبهِ إِلىٰ حضرته . وأَمّا رضا العبدِ عنِ اللهِ سبحانَه . . فإِنَّ أَدونَ المقاماتِ في ذلك : أَنْ يقعَ رضا العبدِ لجهلهِ بالمصالح ، ورُبَّ صلاحٍ في ضمنِ بلاء ، وما قضى اللهُ تعالىٰ لمؤمنٍ قضاءً إِلاَّ كانَ خيراً له .

وأَعلى المقامات : أَنْ يكونَ العبدُ محباً للهِ تعالىٰ فيرضىٰ بما يقضي ، ومَنْ أحبَّ محبوباً . . رضيَ بأفعاله .

وروىٰ أَبو العلاءِ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهُ قال : « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً . . أَرْضَاهُ بِمَا قَسَمَ لَه ، وَبَارَكَ لَهُ فِيه . وَإِذَا لَمْ يُرِدْ بِهِ خَيْراً . . لَمْ يُرْضِهِ بِمَا قَسَمَ لَه ، وَلَم يُبَارِكْ لَهُ فِيه » .

وقالت أُمُّ الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : إِنَّ الرَّاضينَ بقَضاءِ اللهِ لهم في الجنَّةِ منازلُ يغبطهُم بها الشُّهداءُ يومَ القيامة .

وروىٰ في « التَّبصرة » : عن سعيدِ بنِ المسيّب رحمَهُ اللهُ تعالىٰ قال : قالَ لقمانُ لابنه : يا بُنيَّ ؛ لا ينزلنَّ بِكَ أَمرٌ رضيتَهُ أَو كرهتَهُ . . إلاَّ جعلتَ في الضَّميرِ منكَ أَنَّ ذلكَ خيرٌ لك .

قال : أَمّا هـٰذِه . . فلا أقدرُ أَن أُعطِيكَها دونَ أَنْ أَعلمَ ما قلتَ أَنَّهُ كما قلت .

قال : يا بني ؛ فإِنَّ اللهَ تعالىٰ قد بعثَ نبيّاً ، هلمَّ حتَّىٰ نأْتيه فعندَهُ بيانُ ما قلتُ لك .

قال : اذهبْ بِنا نأْته .

فخرجَ هوَ علىٰ حمار ، وابنُهُ علىٰ حمار ، فتزوَّدا ما يُصلحُهما ، ثمَّ سارا أَيّاماً وليالي حتَّىٰ تلقَّتهُما مغارةٌ فدخلاها ، فسارا ما شاءَ الله ، فاشتدَّ الحرُّ ونفدَ الماءُ والزَّاد ، واستبطئا حماريهِما فنزلا ، فجعلا يشتدّانِ علىٰ سوقهِما ، فبينما هما كذلكَ إِذْ نظرَ لقمانُ فإِذا هوَ بسوادٍ ودخان ، فقالَ في نَفْسه : السَّوادُ شجر ، والدُّخانُ عمرانٌ وناس .

فبينما هما يشتدّانِ إِذْ وطئَ ابنُ لقمانَ علىٰ عظمٍ ناتئٍ على الطَّريق ، فدخلَ في باطنِ القدمِ حتَّىٰ ظهرَ مِنْ أَعلاها ، فخرَّ ابنُ لقمانَ مغشيّاً عليه ، فحانتْ مِنْ لقمانَ ٱلتفاتةٌ فإِذا هوَ بابنهِ صريعٌ فوثبَ إِليه ، فضمَّهُ إِلىٰ صدرِهِ واستخرجَ العظمَ بأَسنانه ، وشقَّ عمامةً كانت عليهِ فلاثَ بها رِجلَه ، ثمَّ نظرَ إِلىٰ وجهِ ابنهِ فذرفَتْ عيناه ، فقطرتْ قطرةٌ مِنْ دموعهِ علىٰ خدِّ الغلامِ فانتبهَ فنظرَ إِلىٰ أَبيهِ يَبكي ، فقال : يا أَبت ؛ أَنتَ تبكي

وأَنتَ تقول : هٰذا خيرٌ لي ، كيفَ يكونُ هٰذا خيراً لِي وقد نفدَ الطَّعامُ والماء ، وبقيتُ أَنا وأَنتَ في هٰذا المكان ؟ فإِنْ ذهبتَ وتركتَني علىٰ حالي . . ذهبتَ بهَمٍّ وغمٍّ ما بقيت ، وإِنْ أَقمتَ معي . . متنا جميعاً ، فكيفَ يكونُ هٰذا خيراً لي ؟!

فقال : أَمّا بكائِي ـ يا بنيَّ ـ فوددتُ أَنّي فديتكَ بجميعِ مالي وحظّي مِنَ الدُّنيا ، ولٰكنّي والدٌ ومِنّي رقَّةُ الوالد . وأَمّا ما قلت : كيفَ يكون هٰذا خيراً لي . . فلعلَّ ما صُرفَ عنك ـ يا بنيّ ـ أَعظمُ ممّا ابتُليتَ به ، ولعلَّ ما ابتُليتَ بهِ أَيسرُ ممّا صُرفَ عنك .

فبينا هوَ يحاورهُ إِذْ نظرَ لقمانُ أَمامَهُ فلَم يَرَ ذلكَ الدُّخانَ والسَّواد ، فقالَ في نَفْسه : قد رأَيت ، ولعلَّهُ أَنْ يكونَ ربيّ عزَّ وجلَّ قد أَحدثَ بما رأَيتُ شيئاً ؟ فبينما هوَ يُفكِّرُ في هٰذا إِذْ نظرَ أَمامَه ، فإِذا هوَ بشخصٍ قد أَقبلَ علىٰ فرسٍ أَبلقَ عليهِ ثيابٌ بِيضٌ وعمامةٌ بيضاءُ يمسحُ الهواءَ مسحاً ، فلَم يَزَلْ يَؤُمُّهُ حتَّىٰ كانَ منهُ قريباً فتوارىٰ عنه ، ثمَّ صاحَ بِهِ فقال : أَنتَ لقمان ؟

قال : نعَم . قال : أَنتَ الحكيم ؟ قال : كذلكَ يقال ، وكذلكَ نعتني ربِّي .

قال : ما قالَ لكَ ابنُكَ هٰذا السَّفيه ؟ قال : مَنْ أَنتَ يا عبدَ الله ؟ أَسمعُ كلامكَ ولا أَرىٰ وجهك .

قال : أَنا جبريل ، لا يراني إِلاَّ مَلَكٌ مقرَّبٌ أَو نبيٌّ مرسَل ، لولا ذلك . . لرأَيتني ، فما قالَ لكَ ابنُكَ هٰذا السَّفيه ؟

فقالَ لقمان : إِنْ كنتَ جبريل . . فأَنتَ أَعلمُ بما قالَ ٱبني .

فقالَ جبريل : ما لي بشيءٍ مِنْ أَمرِكُمَا عِلْم إِلاَّ أَنْ حفظتُكما ، وقد أَمرني ربِّي بخَسفِ هٰذهِ المدينةِ وما يَليها ، فأَخبروني أَنَّكُما تريدانِ هٰذهِ المدينةَ فدعوتُ ربِّي أَنْ يَحْبسَكُما عنّي بما شاء ، فحَبَسَكُما عَنّي بما ابتليَ بهِ ابنك ، ولولا ما ابتُليَ بهِ ابنُك . . لَخُسِفَ بكما معَ مَنْ خُسِفَ به .

قال : ثمَّ مَسَحَ جبريلُ يدَهُ علىٰ قدمِ الغلامِ فاستوىٰ قائِماً ، ومَسحَ يَدَهُ على الَّذي

كانَ فيهِ الطَّعامُ فامتلأَ طعاماً ، ومَسَحَ يدَهُ على الَّذي كانَ فيهِ الماءُ فامتلأَ ماء ، ثم حملَهُما وحماريهِما فإذا هُما في الدَّارِ الَّتي خرجا مِنها .

وليُعلَمْ أَنَّهُ مِنْ أَعظمِ أَدلَّةِ الزُّهدِ واليقين : الكرمُ والتَّصدُّقُ على الفقراءِ والمساكين ، وقد وردتْ في ذلكَ آياتٌ كريمة ، وأَحاديثُ عديدة :

فقد قالَ سبحانَه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ .

قالَ المفسِّرون : أَي : أَعطىٰ حقَّ اللهِ مِنْ ماله ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وهوَ الخلف ؛ أَي : بأَنَّ اللهَ يُخلفُ عليه . وقيل : هي الجنَّة . وقيل : كلمةُ التَّوحيد .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أي : للطريقةِ اليُسرىٰ ، وهي : العملُ بالطَّاعة . وقيل : اليسرى الجنَّة . وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ أَي : بخلَ بالإنفاقِ في الطَّاعات ، واستغنىٰ في دُنياهُ باللَّذَّاتِ ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَي : بكلمةِ التَّوحيدِ ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ : ١٠] أَي : النَّار . وسُمِّيتْ عسرىٰ ؛ لإِفضائِها إِلى العسر .

وروىٰ أَبو موسى الأَشعريُّ رضي الله عنه عنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهُ قال : « عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَة » قالوا : فإِنْ لَمْ يَجد ؟ قال : « فَلْيَعْمَلْ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّق » قالوا : فإِنْ لَم يَستطع ، أَو لَم يَفعل ؟ قال : « فَيُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوف » قالوا : فإِنْ لَم يَفعل ؟ قال : « فَلْيَأْمُرْ بِالْخَيْر » قالوا : فإِنْ لَمْ يَفعل ؟ قال : « فَيُمْسِكُ عَنِ الشَّر ، فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَة » .

وفي الصَّحيحِ عن أَبي هريرة رضي الله عنه : أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : « مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ وَمَلَكَانِ يَنْزِلاَن ، فَيَقُولُ أَحَدُهُما : اللَّهُمَّ ؛ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً ، وَيَقُولُ الآخَر : اللَّهُمَّ ؛ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً » .

وعن أَبي الدَّرداء رضي الله عنه : أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : « مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ قَطُّ إِلاَّ بُعِثَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَان ، يُسْمِعَانِ أَهْلَ الأَرْضِ إِلاَّ الثَّقَلَيْن : يَأَيُّها النَّاس ؛ هَلُمُّوا إِلىٰ رَبِّكُم ؛ فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَىٰ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَىٰ . وَمَا غَرَبَتْ

شمْسٌ قطُّ . . إلاَّ وَبِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَان : اللَّهُم ؛ عَجِّل لِمُنْفِقٍ خَلَفاً ، وَلِمُمْسِكٍ مَالَهُ تَلَفاً » .

وعن سعدِ بنِ أَبي وقّاص رضي الله عنه : أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : « إنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إلاَّ أُجِرْتَ بِهَا ، حَتَّىٰ مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِك » .

وقالَ السَّفيري : رويَ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهُ قالَ للزُّبير رضي الله عنه : « يَا زُبَيْر ؛ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً وَإِلَيْكَ خَاصَّة . أَتَدْري مَاذَا قَالَ رَبُّكُم حِينَ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ عَرْشِهِ وَنَظَرَ إِلَىٰ خَلْقِهِ ؟ قَال : عِبَادِي ؛ أَنْتم خَلْقِي وَأَنَا رَبُّكُم أَرْزاقُكُم بِيَدِي ، فَلاَ تَتْعَبُوا فِيمَا تَكَفَّلْتُ لَكُم ، فَاطْلُبُوا مِنِّي أَرْزَاقَكُم ، وَإِلَيَّ فَارْفَعُوا حَوَائِجَكُم ، انْصبوا إِلَيَّ أَنْفُسَكُم أَصُبُّ عَلَيْكُم أَرْزَاقَكُم . أَتَدْرُون ، مَاذَا قَالَ رَبُّكُم ؟ قال : عَبْدِي ؛ أَنْفِقْ أُنْفِق عَلَيْك ، وَأَوْسِعْ أُوسِع عَلَيْك ، وَلاَ تُضَيِّقْ فَأُضَيِّق عَلَيْك . إِنَّ بابَ الرِّزْقِ مَفْتُوحٌ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاواتٍ مُتَوَاصِلٌ إِلَى الْعَرْش ، فَلاَ يُغْلَقُ فِي لَيْلٍ وَلاَ نَهَار ، وَيُنْزِلُ اللهُ مِنْهُ الرِّزْقَ عَلَىٰ كُلِّ امْرِىءٍ بِقَدْرِ نِيَّتِهِ وَعَطِيَّتِهِ وَصَدَقَتِهِ وَنَفَقَتِه ، مَنْ أَكْثَر . . أَكْثَرَ اللهُ لَه ، وَمَنْ أَقَل . . أَقَلَّ اللهُ لَه .

يَا زُبَيْر ؛ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الإِنْفَاق ، وَيُبْغِضُ الإِقْتَار ، وَإِنَّ السَّخَاءَ مِنَ اليَقِين ، وَالْبُخْلَ مِنَ الشَّك ، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ أَيْقَن ، وَلاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ شَكّ .

يَا زُبَيْر ؛ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ السَّخَاءَ وَلَوْ بفلق تَمْرَة ، وَيُحِبُّ الشَّجَاعَةَ وَلَوْ بِقَتْلِ عَقْرَبٍ أَوْ حَيَّة » .

خاتمة : اعلم إنَّ الدُّعاءَ لا ينافي التَّوكُّل ، كما أَنَّ التَّطبُّبَ ومعاطاةَ الأَسبابِ لا تُنافي التَّوكُّل . وقد وردَ الأَمرُ بهِ في آياتٍ وأَحاديثَ كثيرة :

قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ .

وعن أَبي سعيدِ الخدريِّ رضي الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :

« مَا مِنْ مُسْلِمٍ دَعَا دَعْوَةً لَيْسَ فيها قَطِيعَةُ رَحِمٍ وَلاَ إِثْم . . إلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَىٰ ثَلاَثِ خِصَال : إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَه ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَ لَهُ فِي الآخِرَة ، وَإِمَّا أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا » .

وعن أَبي هريرةَ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهُ قال : « مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَنْصبُ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ يَسْأَلُهُ مَسْأَلَة . . إلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهَا : إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَها ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مَا لَمْ يَعْجَل » قالوا : وما عجلتُه ؟ قال : « يَقُول : دَعَوْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَلاَ أُرَاهُ يُسْتَجَابُ لِي » .

قالَ العلماء : وللدُّعاءِ آداب ، مِنها : أَنْ يرصدَ به الأَوقاتَ والأَحوالَ الشَّريفة ، كما أَخَّرَ يعقوبُ عليهِ السَّلامُ الاستغفارَ لبنيهِ إِلى السَّحَر .

وعن أَنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَة . . فُتِّحتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَاسْتُجِيبَ الدُّعَاء » .

وروىٰ مسلمٌ في « صحيحه » مِنْ حديثِ أَبي هريرةَ رَضِيَ الله عَنْهُ ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهُ قال : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِد ، فَأَكْثِرُوا مِنَ الدُّعَاء » .

وفي حديثِ أَنَسٍ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهُ قال : « يُسْتَجَابُ الدُّعَاءُ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاطِن : عِنْدَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ إِذَا صَفُّوا لِلصَّلاَة ، وَعِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآن ، وَعِنْدَ نُزُولِ الْغَيْث ، وَعِنْدَ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ الله » .

وَ« عِنْدَ كُلِّ خَتْمَةٍ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَة » .

ومِنها : الصَّلاةُ على النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : فروى التِّرمذيّ (أَنَّ عمرَ بنَ الخطّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : إِنَّ الدُّعاءَ موقوفٌ بينَ السَّماءِ والأَرض ، لا يصعدُ منهُ شيءٌ حتَّىٰ تُصلِّيَ علىٰ نبيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم) .

ومِنها : حضورُ القلب ؛ ففي حديثِ أَبي هريرةَ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهُ قال : « إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَه » .

ومنها : أَكلُ الحلالِ قَبْلَ الدُّعاء ؛ ففي أفرادِ « مسلم » مِنْ حديثِ أَبي هريرةَ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « أَنَّهُ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَر ، يَمُدُّ يَدَهُ إِلى السَّمَاء : يَا رَبّ يَا رَبّ ؛ وَمَطْعَمُهُ حَرَام ، وَمَشْرَبُهُ حَرَام ، وَمَلْبَسُهُ حَرَام ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَام ، فَأَنَّىٰ يُسْتَجَابُ لِذَلِك ؟! » .

ومنها : أَنْ لا يستعجلَ الإجابة ، فربَّما كانتِ المصلحةُ في التَّأْخير ؛ فعنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهُ قال : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَدْعُو عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ يَوْمَ الْقِيامَة ، فَيَقُول : أَي عَبْدِي ؛ إِنِّي أَمَرْتُكَ أَنْ تَدْعُوَنِي وَقَدْ وَعَدْتُكَ أَنْ أَسْتَجِيبَ لَك ، فَهَلْ كُنْتَ تَدْعُونِي ؟ فَيَقُول : نَعَمْ يَا رَبّ . فَيَقُول : وَهَلْ كُنْتَ تَرَىٰ لبعْضِ دُعَائِك إِجَابَةً وَبَعْضَهُ لاَ تَرَىٰ لَهُ إِجَابَة ؟ فيَقُول : نَعَمْ يَا رَبّ . فَيَقُول : أَمَا إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي بِدَعْوَةٍ إِلاَّ اسْتَجَبْتُ لَك ، فَإِمَّا أَنْ عَجَّلْتُهَا لَكَ فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا ادَّخَرْتُهَا لَكَ فِي الآخِرَة . أَلَيْسَ دَعَوْتَنِي يَوْمَ كَذَا وَكَذَا بِغمٍّ نَزَلَ بِكَ أَنْ أُفَرِّجَ عَنْكَ فَفَرَّجْتُ عَنْكَ ؟ فيَقُول : بَلَىٰ يَا رَبّ . فَيَقُولُ : إِنِّي عَجَّلْتُهَا لَكَ في الدُّنْيَا . وَدَعَوْتَنِي يَوْمَ كَذَا وَكَذَا لِحَاجَةٍ فَلَمْ أَقْضِهَا لك ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ يَا رَبّ . فَيَقُولُ : إِنِّي ادَّخَرْتُ لَكَ بِهَا في الْجَنَّةِ كَذَا وَكَذَا . قَال : فَيَتَمَنَّى الْعَبْدُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فَيَقُول : يَا لَيْتَنِي لَمْ يُعَجَّلْ لِي مِنْ دُعَائِي بِشَيء » .

فيا مَنْ زادُهُ قليلٌ وطريقُهُ بعيد ، يا مقبلاً وعَجِلاً علىٰ ما يضرُّهُ تاركاً ما يُفيد ؛ أَنسيتَ هجومَ الموتِ العظيمِ الشَّديد ؟! أَغفلْتَ عن نزولِ اللَّحدِ المهلِكِ المبيد ؟! أَمَا تخافُ الحسابَ إِذا نشرَ الكتابَ رقيبٌ عتيد ؟! مَنْ لكَ إِذا تلهَّفَ القادم ، وتأَسَّفَ النَّادم ، وأَقلقتِ المظالم ، وتعلَّقَ المظلومُ بالظالم ؟!

كم متجبِّرٍ هانَ بالامتهان ، ووَدَّ عندَ شهادةِ الأَركانِ أَنَّهُ ما كان! يا لَهُ مِنْ يوم يخرسُ فيهِ لسانُ الإنسان ، ويقلقُ عندَ بروزِ النِّيرانِ الحيران! فابْكِ علىٰ ذنوبكَ وتأَسَّفْ لِلعصيان ، فما يوضعُ في الميزانِ مثلُ الأَحزان .

يا قليلَ الإخلاصِ والتُّقىٰ ؛ ستندمُ على التَّفريطِ يومَ اللِّقا .

يا مُطمئِناً إِلىٰ دارٍ قليلةِ البَقا . . إِيثارُ ما يفنىٰ علىٰ ما يبقىٰ مِنَ الشَّقا .

كم معصية فعلتَها وما اتقيت ؟! كم خطيئة بارزتَ بها وما استحييت ؟! كم موعظة سمعتَها وما أَرعويت ؟! كم دُعيتَ إِلىٰ ما ينفعكَ فأَبيت ؟! كم أقبلَ عليكَ مولاكَ بعظتهِ فولَّيت ؟!

يا مَنْ زمانُهُ ينقضي بعسىٰ وسوفَ وأَرجو وليت ، يا مَنْ جسدُهُ حيٌّ وقلبُهُ ميت ؛ متىٰ تتَّقي مَن براك ، متىٰ تراقبُ مَنْ يراك ؟! متىٰ تعرفُ شكرَ مَنْ أَولاك ؟! متىٰ تخجلُ مِنْ ذلِّ زللٍ قد علاك ؟!

يا بعيدَ الأَمل ؛ أَجلكَ قريب .

أَيُّها الغافلُ ؛ ستُدعىٰ فتجيب ، يا مغترّاً بالسَّلامة ؛ سهمُ التَّلفِ مُصيب ، يا راحلاً عن قليل ؛ ساكنُ القبرِ غريب ، يا ناسياً ما بينَ يديهِ مِنَ الأمرِ العجيب .

كَـمْ تُنَـادِيـكَ الْخَطَـايَـا رَائِـدُ الْمَـوْتِ الْمَشِيـب
سَـوْفَ تَـدْعُـوكَ الْمَنَـايَـا وَعَلَـىٰ رَغْـمٍ تُجِيـب

أَيُّها المشغولُ طولَ اللَّيلِ بالمنام ، وطولَ النَّهارِ بالحُطام ؛ أَترضىٰ بمشاركةِ الأَنعام ؟! هذِّبِ النَّفسَ فهيَ المقصود ، لا الأَجسام .

يَا خَادِمَ الْجِسْمِ كَمْ تَشْقَىٰ بِخِدْمَتِهِ أَتَطْلُبُ الرِّبْحَ فِيمَا فِيهِ خُسْرَانُ
أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لا بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ

كيفَ يسوغُ لكَ المطعَمُ وقد فعلتَ ما تَعلم ؟! يا معوجاً بالشِّقاقِ لا يتقوَّم ، يا مرتضعاً ثديَ الأَمل ؛ عن قليلٍ تُفْطَم . أَما يُؤَثِّرُ فيكَ عذلُ اللُّوَّم ؟ إِنْ كان لك عذر . . فقلْ وتكلَّم ، سيظهرُ قبيحكَ غداً ، فإِلىٰ كم يُكتَم ؟!

أَينَ غضُّكَ عنْ كلِّ محرَّم ؟! أَينَ إِمساكُكَ لسانَك ، فالتُّقىٰ ملجم ؟! تأْخذُ أَعراضَ النَّاسِ وتلدغُها لَدْغَ أَرقم ، لِسانُكَ معسولٌ بالخداعِ وقلبُكَ علقم! اَللَّذَّةُ تفنىٰ والعذابُ يبقىٰ ، هل تفهم ؟!

يا مصرّاً على الذُّنوب ؛ مِثْلُكَ لا يَسلَم ، إِنْ كنتَ قدِ انتبهت . . فاعزمْ علىٰ هجرِ

النُّوَّمِ ، إِنْ كنتَ رجلاً . . فزاحِمْ أُوَيْساً وابنَ أَدهم . القلبُ غائبٌ والسِّرُّ ذاهل ، فمَنْ ذا يُكلِّم ؟

وفَّقنا اللهُ تعالىٰ وإِيَّاكُم لمراضيه ، وجعلَ مستقبلَ حالِنا خيراً مِنْ ماضيه .

اللَّهُم ؛ يا مَنْ فَتَحَ بابَهُ للطالبين ، وأَطلقَ بالسُّؤَالِ أَلسنةَ القاصدين ؛ نسأَلُكَ أَنْ تجعلَنا مِنْ أَوليائكَ المقرَّبينَ المتوكِّلين ، وحزبكَ المفلِحين ، وأَنْ تجعلَنا مِنَ الآمنينَ مِنَ الفزعِ الأَكبرِ يومَ الدِّين .

اللَّهُم ؛ اجعلِ الإِيمانَ لَنا سراجاً ولا تجعلْهُ لَنا استدراجاً ، وعلِّمنا ما لَم نَعلَم ، وثبِّتْ قلوبَنا علىٰ دِينِ نبيِّكَ المعظَّم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وعلىٰ آلهِ الطَّيِّبينَ وأَصحابهِ المكرَّمين .

وآخِرُ دعوانا أَنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين .

* * *

المجلس السابع والأربعون
في فضل الصحابة يقرأ في جمادىٰ

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ القديمِ الأَحدي ، العظيمِ الصَّمدي ، الدَّائِمِ الأَبدي ، القائمِ السَّرمدي . رَفَعَ بقدرتهِ السَّماء ، وأَجرىٰ بحكمتهِ الماء ، وعلَّمَ آدمَ الأَسماء .

تفرَّدَ بالإِنعامِ والجود ، وأذلَّ الأَعناقَ لَهُ بالسُّجود ، وتنزَّهَ عن مشابهةِ كلِّ موجودِ بالوجودِ الأَزلي .

موصوفٌ بالرِّضا ويُحذرُ منهُ السَّخَط ، ومعروفٌ بالكرمِ فإِيّاكَ والقنط . شرطَ عليكَ التَّقوىٰ فقُمْ بالَّذي شرط ؛ فإِنَّهُ لا ينسىٰ أَجر التُّقىٰ . قضى القضاءَ قَبْلَ خَلْقِ الخلْقِ وفرغ ، وأَنزلَ القرآنَ والزَّمنُ مِنَ النُّذُرِ قد فرغ ؛ ليُنذركُم بهِ ومَنْ بلَغَ باللِّسانِ العربي . وهوَ المكتوبُ المسموعُ المعروف ، المحفوظُ المتلوُّ المألوف ، والمتكلِّمُ بهِ بالكلامِ موصوف . نزَّلَهُ روحُ القُدُسِ علىٰ قلبِ النَّبي ، لا يَخْلُقُ علىٰ كثرةِ التَّكرارِ ولا يَبلَىٰ ، ولا يقدرُ الخلْقُ علىٰ مِثله ، حاشا وكلا . تعرفُ الملائكةُ كلَّ بيتٍ فيهِ يُتلىٰ معرفتَهُم بالكوكبِ المضي .

أَحمدُهُ على العزمِ القويمِ القويّ ، وأَستعيذُهُ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ الغويّ ، وأَشهدُ لَهُ بالتَّوحيدِ شهادةً خالصةً مِنَ الشَّكِّ الرَّدي ، وأَشهدُ أَنَّ مُحَمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ استخرجَهُ مِنَ العنصرِ الزَّكي ، ونصرَهُ بالرُّعْبِ قَبْلَ المشرفي ، أَرسلَهُ بالدَّليلِ الواضحِ الجلي ، وزهَّدَهُ في مجالسةِ الغنيِّ الغبي ، ورغَّبَهُ في صحبةِ الفقيرِ الضَّعيفِ القصي ، وعاتبَهُ في صهيبِ الرُّوميِّ وبلالِ الحبشي : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ .

فصلّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا مُحَمَّدٍ الهاشميِّ القرشي ، المكيِّ التّهامي ، الزَّمزميِّ

الأَبطحي ، وعلىٰ صاحبهِ المخصوصِ بفضيلةِ ثَانِيَ اثْنَيْن ، وهوَ في القبرِ مضاجعُهُ كهاتين ، كيفَ لا ، وقد كانا رفيقينْ في الزَّمانِ الجاهليِّ ؟ وعلى الَّذي كانتِ الشَّياطينُ تفرُّ مِنْ ظلِّه ، وتتفرَّقُ هيبةً مِن أَجْلِه ، إِذَا سَمِعوا خَفْقَ نعله . . هربوا مِنَ الأَحوذي .

وعلىٰ مُصابرِ البلاء مِنْ أَيدي الأَعداء ، الَّذي تستحي منهُ ملائكةُ السَّماء ، سلامُ اللهِ علىٰ ذلكَ الحيي . وعلى الَّذي مُلِيءَ علماً وخوفاً ، وعاهدَ علىٰ تركِ الدُّنيا فأَوفىٰ ، ونحنُ ـ والله ـ بحبِّهِ أَوفىٰ مِنْ حُبِّ الرَّافضي . وعلىٰ جميعِ أَصحابهِ وأَزواجهِ وأَتباعهِ علىٰ منهاجهِ ما قامَ مكلَّفٌ بالفَرْضِ الرَّسمي ، وسلّم تسليماً .

أَمّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ .

فنقول : ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ : الكلامُ علىٰ هـٰذهِ الآياتِ في أَربعةِ فصول :

الفصلُ الأَوَّلُ في تفسيرِها : قالَ المفسِّرونَ رحمَهُمُ اللهُ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أَي : متلبِّساً به . أَو : لأَجْلِ الهدىٰ . والمرادُ به : الدَّليلُ الواضح ، أَوِ القرآن .

﴿ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ هوَ الإِسلامُ ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أَي : لِيُعليَهُ علىٰ كلِّ الأَديان ، بنسخِ ما كانَ حقّاً وإِظهارِ فسادِ ما كانَ باطلاً .

وقيل : لِيُظهرَ رسولَهُ عَليهِ الصَّلاةُ والسّلام . وقد كانَ ذلكَ بحمدِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإِنَّ دينَ الإِسلامِ قد ظهرَ علىٰ جميعِ الأَديان ، وانقهرَ لَهُ كلُّ أَهلِ المِلل .

وقيل : إِنَّ تمامَ هـٰذا الإِعلاءِ عندَ نزولِ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ وخروجِ المهديِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيثُ لا يبقىٰ حينئذٍ دِينٌ سوىٰ دِينِ الإِسلام .

﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ علىٰ أَنَّ ما وعدَهُ عزَّ وجلَّ مِنْ إِظهارِ دِينهِ علىٰ جميعِ الأَديان

ـ أَوِ الفتح ـ كائناً لا محالة . أَو : كفىٰ باللهِ شهيداً علىٰ رسالتهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ؛ لأَنَّهُ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ادَّعاها ، وأَظهرَ اللهُ تعالى المعجزةَ علىٰ يده ، وذلكَ شهادة منهُ تعالىٰ عليها .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ أَي : هوَ ـ أَو ذاكَ الرَسولُ ـ المرسلُ بالهدىٰ مُحمَّد . وقُرِىءَ بنصبِ ﴿محمد﴾ على المدح .

﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ والمرادُ بمَنْ معَهُ عندَ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما : مَنْ شهدَ الحديبية ، وهُم : أَهلُ بيعةِ الرُضوانِ الّذينَ بايَعُوهُ تحتَ الشَّجرةِ وهيَ سمرةٌ أَو سدرة . وكانتِ البيعةُ علىٰ أَنْ يُقاتِلوا قريشاً ولا يَفرُّون . وقيل : بايَعوهُ على الموت . وكانَ عدَدُهم خمسَ عشرةَ مئة ، وقيل : أَربعَ عشرةَ مئة .

وقالَ الجمهور : المرادُ بِهم جميعُ أَصحابهِ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلام .

و﴿ أَشِدَّآءُ ﴾ جمعُ شديد . و﴿ رُحَمَآءُ ﴾ جمعُ رحيم .

والمعنىٰ : أَنَّ فيهِم غلظةً وشدَّةً علىٰ أَعداءِ الدِّين ، ورحمةً ورقَّةً علىٰ إِخوانهِمُ المؤمنين ، ونحوهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وقد رويَ عنِ الحسن : أَنَّ مِنْ تشدُّدِهم على الكفّارِ أَنَّهُم كانوا يتحرَّزونَ مِنْ ثيابهِم ومِنْ أَبدانهِم أَنْ تمسَّ أَبدانَهُم . وبلغَ مِنْ ترحُّمهِم فيما بينَهُم أَنَّهُ كانَ لا يرىٰ مؤْمنٌ مؤْمناً إِلاَّ صافحهُ وعانقَه .

قالَ الوالدُ عليهِ الرَّحمةُ في « روحِ المعاني » : والمصافحةُ لَم يَختلفْ فيها الفقهاء ؛ فقد أَخرجَ أَبو داوود عنِ البراءِ قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ فَتَصَافَحَا ، وَحَمِدَا اللهَ وَاسْتَغْفَرَاه . . غُفِرَ لَهُمَا » وفي روايةِ التِّرمذي : « مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلاَّ غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقَا » . وفي « الأذكارِ النَّوويَّة » أَنَّها مستحبَّةٌ عندَ كلِّ لقاء .

وأَمّا المعانقة : فقالَ الزَّمخشري : كرهَها أَبو حنيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْه . وكذلكَ التَّقبيل، قال: لا أُحبُّ أَنْ يُقَبِّلَ الرَّجلُ مِنَ الرَّجلِ وجهَهُ ولا يدَه ، ولا شيئاً مِنْ جسده .

ورخَّصَ أبو يوسفَ عليهِ الرَّحمةُ [في] المعانقة .

ويؤيِّدُ ما رويَ عنِ الإمامِ أبي حنيفة : ما أخرجَهُ « التّرمذي » عن أنسٍ قال : سمعتُ رجلاً يقولُ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : يا رسولَ الله ؛ الرَّجُلُ مِنّا يلقىٰ أخاه ، أينحني لَه ؟ قال : « لا » قالَ أفيلتزمُهُ ويُقبِّلُه ؟ قال : « لا » . وفي رواية : « إلاَّ أنْ يَأْتِي مِنْ سَفَر » قال : أيَأْخذُ بيدِهِ ويُصافحُه ؟ قال : « نَعَم » اهـ .

وفي « فتاوى ابنِ حجرِ الحديثيَّة » : لابأسَ بالبرِ والإحسانِ علىٰ عدوِّ الدِّين إذا تضمَّنَ مصلحةً شرعيَّة .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أَي : مُصلِّين ، وهوَ إخبارٌ عن كثرةِ صلاتهِم ومداومتهِم عليها .

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهوَ الجنَّةُ ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ يعني : رِضا اللهِ تعالىٰ عنهُم .

﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي : علامتهُم . وقُرِىء[1] (سيمياؤُهم) بزيادةِ ياءٍ بعدَ الميمِ والمدّ ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ أي : في جباهِهِم أو هيَ علىٰ ظاهرِها . ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ وهل هـٰذهِ العلامةُ في الدُّنيا أوِ الآخرة ؟ في ذلكَ قولان :

أَحدُهُما : إنَّهُ في الدُّنيا .

وهيَ : السَّمتُ الحسن ، والخشوعُ والوَقارُ والتَّواضع .

وقيل : ندى الطّهورِ وأَثرُ التُّرابِ على الجباه .

وقيل : اصفرارُ الوجهِ مِنْ أَثرِ السَّهر .

وقيل : ظهورُ الأنوارِ عليه . وشاعَ تفسيرُ ذلكَ بما يحدثُ في جبهةِ السّجّادِ ممَّا يُشبهُ أَثرَ الكيِّ وثفنةَ البعير . وكانَ عليُّ بنُ الحسينِ زينُ العابدينَ وعليُّ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم يقالُ لِكلٍّ منهُما : ذو الثَّفنات ؛ لأَنَّ كثرةَ سجودِهما أَحدثَ في مواقعهِ مِنهُما أَشباهَ ثفناتِ البعير ، وهيَ ما يقعُ على الأَرضِ مِنْ أَعضائهِ إذا غلظ .

---

(١) شذوذاً .

قالَ البقاعي : إنَّ مِنَ السِّيما ما يَصنعُهُ بعضُ المرائِينَ مِنْ أَثرِ هيئةِ السُّجودِ في جبهته ، فإنَّ ذلكَ مِنْ سِيْما الخوارج .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « إِنِّي لأُبْغِض الرَّجُلَ وَأَكْرَهُهُ إِذَا رَأَيْتُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرَ السُّجُود » ذكرهُ الخطيب .

وأَخرجَ البيهقيُّ عن حميدِ بنِ عبدِ الرَّحمـٰن ، قال : كنتُ عندَ السَّائبِ إِذْ جاءَ رجلٌ وفي وجههِ أَثرُ السُّجود ، فقال : لقد أَفسدَ هـٰذا وجهَه ، أَما واللهِ ما هيَ السِّيما التي سمى اللهُ ، ولقد صلَّيتُ علىٰ وجهي منذُ ثمانينَ سنةً ما أَثَّرَ السُّجودُ بينَ عيني .

ونظيرُه : ما حكيَ عن بعضِ المتقدِّمين ، قال : كنَّا نُصلِّي فلا يُرىٰ بينَ أَعيُننا شيء ، ونرىٰ أَحدنا الآنَ يُصلِّي فترىٰ بينَ عينيهِ ركبةَ البعير ، فما ندري! أثقلتِ الأَرؤسُ أَمْ خشنتِ الأَرض ؟

والقولُ الثَّاني : إنَّ هـٰذهِ السِّيما في الآخرة . أَخرجَ البخاريُّ في « تاريخه » عنِ ابنِ عبّاسٍ أَنَّهُ قالَ في الآية : بياضٌ يَغشىٰ وجوهَهُم يومَ القيامة . وفي رواية : هوَ النُّورُ يومَ القيامة .

وقيل : إنَّهُم يبعثونَ غرّاً محجَّلينَ مِنْ أَثرِ الطَّهور .

﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ ﴾ أي : صفتهُم . والمعنىٰ : إنَّ صفةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وأَصحابهِ ﴿ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ هـٰذا ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ ﴾ أَي : هـٰذا المثَلُ المذكورُ في التَّوراةِ هوَ مَثلُهم في الإِنجيل .

وقيل : إنَّ المتقدِّمَ مَثَلُهم في التَّوراة ، وأَمّا مَثَلُهم في الإِنجيل ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ .

وقيل : إنَّ مَثَلَهُم في التَّوراةِ والإِنجيلِ كزَرْع ﴿ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾ أَي : فراخَه . وهوَ ما خرجَ منهُ وتفرَّعَ في شاطئَيه ؛ أَي : في جانبيه . وقالَ قطرُب : شوكُ السُّنبلِ يخرجُ مِنَ الحبَّةِ عشر سنبلات .

﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ أَي : ساواهُ وصارَ مِثلَهُ فقوَّاه ؛ لأَنَّ الأَصلَ يتقوَّىٰ بفروعهِ ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾ أَي : صارَ ذلكَ الزَّرعُ غليظاً بعدَ أَنْ كانَ

رقيقاً ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ وهوَ جمعُ ساق ؛ أَي : فاستقامَ علىٰ قصبهِ وأُصوله . ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ أَي : زرّاعَه ؛ لقوّتهِ وحُسنِ منظرهِ ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ وهنا تمَّ المثل ، وهوَ مَثَلٌ ضربَهُ اللهُ تعالىٰ للصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم قلّوا في بدءِ الإِسلام ، ثمَّ كثروا واستحكَموا ، فترقَّىٰ أَمرهُم يوماً فيوماً بحيثُ أَعجبَ النَّاس . وهٰذا ما اختارَهُ بعضُهُم ، وقد أَخرجَهُ ابنُ جريرٍ وابنُ المنذرِ عنِ الضَّحَّاك ، وابنُ جريرٍ وعبدُ بنُ حميدٍ عن قتادة . وذكرا عنهُ أَنَّهُ قالَ أَيضاً : مكتوبٌ في الإِنجيل : سيخرجُ قومٌ ينبتونَ نباتَ الزَّرع ، يخرجُ منهُم قومٌ يأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عنِ المنكر .

وفي « الكشّاف » : هوَ مَثَلٌ ضربَهُ اللهُ تعالىٰ لبدءِ ملَّةِ الإِسلامِ وترقّيهِ في الزّيادةِ إِلىٰ أَنْ قويَ واستحكم ؛ لأَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قامَ وحدَه ، ثمَّ قوّاهُ اللهُ تعالىٰ بمَنْ معَهُ كما يُقوِّي الطَّاقةَ الأُولىٰ ما يحتفُّ بها ممّا يتولَّدُ مِنها .

وظاهرُهُ أَنَّ الزَّرْعَ هوَ النَّبيُّ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلام ، والشَّطءُ : أَصحابُهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ، فيكونُ مثلاً لَهُ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلامُ وأَصحابه ، لا لأَصحابهِ فقط كما في الأَوّل ، ولكلٍّ وجهة .

قالَ الإِمامُ مالكُ بنُ أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه : مَنْ أَصبحَ وفي قَلْبِهِ غيظٌ علىٰ أَصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم . . فقد أَصابَتْهُ هٰذهِ الآية .

الفصلُ الثَّاني : فيما وردَ في حقِّ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم مِنَ الآياتِ والأَحاديثِ وأَقوالِ السَّلف .

واعلَمْ أَوّلاً أَنَّ تعريفَ الصَّحابيِّ علىٰ ما هوَ المشهور : منْ رأَى النَّبيَّ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلامُ أَو رآهُ النَّبي ، وماتَ على الإِيمان ، وإِنْ تخللَتْ بينَهُما ردَّة .

قالَ ابنُ حجر : اعلَمْ أَنَّ الَّذي أَجمعَ عليهِ أَهلُ السُّنَّة : أَنَّهُ يجبُ علىٰ كلِّ أَحدٍ تزكيةُ جميعِ الصَّحابة ؛ بإِثباتِ العدالةِ لَهُم ، والكفِّ عنِ الطَّعنِ فيهِم ، والثَّناءِ عليهِم . فقد أَثنى اللهُ تعالىٰ عليهِم في آياتٍ مِنْ كتابهِ العزيز ، فمنها : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ فأَثبتَ سبحانَهُ لَهُم الخيريَّةَ علىٰ سائرِ الأُمم ، ولا شيءَ يعادلُ شهادةَ اللهِ تعالىٰ لَهُم بذلك .

ومِنها : قولُهُ عزَّ وجل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ والصَّحابةُ رضوانُ اللهِ عليهِم في هاتينِ الآيتينِ هُمُ المشافَهونَ بهٰذا الخطاب ، ولا يكونُ الأخيرُ والشَّاهدُ إلاَّ عدلاً .

ومنها قولهُ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ ﴾ .

ومِنها : قولُهُ عزَّ شأنُه : ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ .

ومِنها : قولُهُ عزَّ مِنْ قائل : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ .

وقد رضيَ سبحانَهُ وتعالىٰ في هٰذه الآيات ، ولا يقعُ الرِّضا منهُ سبحانَهُ إلاَّ علىٰ مَنْ عَلِمَ موتَهُ على الإسلام ، وأمّا مَنْ عَلِمَ موتَهُ على الكفر . . فلا يُمكنُ أَنْ يخبرَ اللهُ تعالىٰ بأَنَّهُ راضٍ عنه .

وعلم أَنَّ هٰذهِ الآياتِ صريحةٌ في ردِّ مَنْ يزعمُ أَنَّ الصَّحابةَ غيرُ عدول ، أَو أَنَّهُم ارتدُّوا بعدَ وفاةِ نبيِّهم إلاَّ نحوَ ستَّة أَنفسٍ منهُم ، سبحانَكَ هٰذا بهتانٌ عظيم .

فينبغي لِلمسلمِ أَنْ يتَّصفَ بقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وأَمّا الأَحاديثُ النَّبويَّةُ فكثيرة ، منها : ما في « الصَّحيحين » أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَلَوْ أَنَّ أَحداً وفي رواية : أَحَدَكُم أَنفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً . . مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم وَلاَ نَصِيفَه » .

وروى الدَّارميُّ وابنُ عديّ وغيرُهُما أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « أَصْحَابِي كَالنُّجُوم ، بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُم » .

قالَ في « التَّبصرة » : رويَ عنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « إِنَّ اللهَ اخْتَارَنِي

وَاختَارَ لِيَ أَصْحَاباً ، فَجَعَلَ لِي مِنهُم وُزَرَاءَ وَأَنْصَاراً وَأَصْهَاراً ، فَمَنْ سَبَّهُم . . فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ والْمَلاَئِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِين ، لاَ يَقبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صرفاً[1] وَلاَ عَدْلاً » .

وروى الترمذيّ والحاكم : « خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم » .

وفي رواية أُخرىٰ : « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي الَّذِي أَنا فِيه ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم ، والآخِرُونَ أَرْذَال » .

وأَخرجَ الخطيبُ البغداديُّ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ قال : « إِذَا ظَهَرَتِ الْفِتَن ـ أَو قالَ : البِدَع ـ وَسُبَّ أَصْحَابِي . . فَلْيُظْهِرِ الْعَالِمُ عِلْمَه ، فَمَن لم يَفْعَلْ ذَلِك . . فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ والملائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِين ، لاَ يَقْبَلُ اللهُ منه صَرْفاً وَلاَ عَدْلاً » .

وروى الدَّيلميُّ عن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه : « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي خَيْراً . . أَلْقَىٰ حُبَّ أَصْحَابِي فِي قَلْبِه » .

وروىٰ « الترمذي » : عن عبدِ الله بنِ مغفل : « اَللهَ اَللهَ في أَصْحَابِي ، لاَ تَتَّخِذُوهُم غَرَضاً بَعْدِي ، فَمَنْ أَحَبَّهُم . . فَبِحُبِّي أَحَبَّهُم ، وَمَنْ أَبْغَضَهُم . . فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُم ، وَمَنْ آذَاهُم . . فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي . . فَقَدْ آذَى الله ، وَمَنْ آذَى الله . . يُوشِكُ أَنْ يأْخُذَه » .

وروى الطَّبرانيُّ وغيرُهُ عن عليٍّ كَرَّمَ الله وجهَه : اَللهَ اَللهَ في أَصحابِ نبيِّكُم ، فإِنَّهُ أَوصىٰ بهِم .

وأَمَّا أَقوالُ السَّلف ، فمنها : ما قالَهُ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه : إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ نظرَ في قلوبِ العباد ، فوجدَ قَلْبَ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ خيرَ قلوبِ العبادِ فاصطفاهُ لِنَفْسِهِ وابتعثَهُ برسالته ، ثمَّ نظرَ في قلوبِ العبادِ بعدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم ، فوجدَ قلوبَ أَصحابهِ خيرَ قلوبِ العبادِ فجعلَهُم وزراءَ نبيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم .

وقالَ ابنُ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما : كانَ أَصحابُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ خيرَ

---

(١) قوله (صرفاً) أي : فرضاً ونفلاً . اهـ منه .

هـٰذهِ الأُمَّة ، أَبرّها قلوباً وأَعمقها علماً وأَقلّها تكلُّفاً ، قومٌ اختارَهُم اللهُ عزَّ وجلَّ لصحبةِ نبيِّهِ ونَقْلِ دِينه .

وقالَ العلماء : ولَو لَم يَرِدْ شيءٌ مِنَ الآياتِ والأَحاديثِ الَّتي ذكرناها . لأَوجبتِ الحالةُ الَّتي كانوا عليها مِنَ الهجرةِ والجهاد ، ونصرةِ الإسلام ، وبذلِ المهجِ والأَموال ، وقتلِ الآباءِ والأَولاد ، والمناصحةِ في الدِّين ، والصَّبرِ والورَعِ واليقين القطعَ بتعديلهِم ، والاعتقادَ بنزاهتهِم وأَنَّهُم أَفضلُ مِنْ جميعِ الجائِينَ بعدَهُم .

وَليُعلَمْ أَنَّ الصَّحابةَ أَصناف : مهاجرون ، وأَنصار ، وخلفاء .

والمشهورُ أَنَّ أَفضلَهُم : أَبو بكر ، فعمر ، فعثمان ، فعلي . وقالَ كثيرٌ مِنَ العلماءِ بتفضيلِ عليٍّ علىٰ عثمان ، ثمَّ بقيَّةِ العشرةِ المبشّرينَ بالجنَّة ، ثمَّ أَهل بدر ، ثمَّ باقي أَهلِ أُحد ، ثمَّ باقي أَهلِ بيعةِ الرِّضوانِ بالحديبية ثمَّ باقي الصَّحابة ، رضوانُ اللهِ عليهم أَجمعين .

الفصلُ الثَّالث : في فضائلِ أَبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْه ، واسمُهُ عبدُ اللهِ بنُ عثمانَ بنِ عامر ، يلتقي معَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ في مُرَّة . ولقَّبَهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم عتيقاً لجمالِ وجهه .

قالَ ابنُ الجوزي : وكانَ عليُّ بنُ أَبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ يحلفُ باللهِ أَنَّ اللهَ أَنزلَ اسمَ أَبي بكرٍ مِنَ السَّماءِ الصِّدِّيق ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ ليلةَ أسرىٰ بهِ جبريل : « إِنَّ قَوْمِي لاَ يُصَدِّقُونِي » فقالَ لَهُ جبريل : يُصدِّقكَ أَبو بكر ، وهوَ الصِّدّيق .

ويَكفيهِ فخراً قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ قالَ الشَّعبي : عاتبَ اللهُ أَهلَ الأَرضِ جميعاً في هـٰذهِ الآيةِ غيرَ أَبي بكر .

وذكرَ المفسِّرونَ أَنَّ المشركينَ كانوا يُؤذونَ المسلمِينَ في مكَّة فتجهَّزَ أَبو بكرٍ ليلحقَ بالمدينة فقالَ لَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « علىٰ رِسلِك ـ أَي : اِصبر ـ فإِنِّي أَرجو أَنْ يُؤْذَنَ لي » ثمَّ خرجا إِلى الغار ـ وهوَ غارٌ بجبلِ ثور ، قريبٌ مِن مكَّة وبينَهُما

مسيرةُ ساعةٍ فجعلَ أَبو بكرٍ يشقُّ ثوبَهُ ويسدُّ الأَنقاب ، فبقيَ نقبٌ فسدَّهُ بِعَقِبه ، فمكثا ثلاثَ ليالٍ في الغارِ فخرجت قريش تطلبُ الآثار ، فلمّا مرُّوا بالغار . . رأَوا نَسْجَ العنكبوتِ فقالوا : لَو دخلَ هـٰهنا . . لَم يَكُنْ نَسْجُ العنكبوتِ على الباب .

ولقد أَحسنَ البوصيريُّ بقوله :

أَخْـرَجُـوهُ مِنْهَـا وَآوَاهُ غَـارٌ ... وَحَمَتْـهُ حَمَـامَـةٌ وَرْقَـاءُ

وَكَفَتْـهُ بِنَسْجِهَـا عَنْكَبُـوتٌ ... مَـا كَفَتْـهُ الْحَمَـامَـةُ الْحَصْـدَاءُ

وَاخْتَفَـىٰ مِنْهُـمُ عَلَـىٰ قُـرْبِ مَـرْآ ... هُ وَمِـنْ شِـدَّةِ الظُّهُـورِ الْخَفَـاءُ

وَنَحَـا الْمُصْطَفَـى الْمَـدِينَـةَ فَـاشْتَا ... قَـتْ إِلَيْـهِ مِـنْ مَكَّـةَ الأَنْحَـاءُ

وقولُه :

فَالصِّدْقُ فِي الْغَارِ وَالصِّدِّيقُ لَمْ يَرِمَا ... وَهُـم يَقُـولُـونَ مَـا بِـالْغَـارِ مِـنْ أَرَمِ

ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَىٰ ... خَيْـرِ الْبَـرِيَّـةِ لَـمْ تَنْسِـجْ وَلَـمْ تَحُـمِ

وِقَـايَـةُ اللهِ أَغْنَـتْ عَـنْ مُضَـاعَفَـةٍ ... مِـنَ الـدُّرُوعِ وَعَـنْ عَـالٍ مِـنَ الأُطُـمِ

وأَخرجا في « الصَّحيحين » عن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه : أَنَّ أَبا بكرٍ حدَّثَه ، قال : قلتُ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ ونحنُ في الغار : لَو أَنَّ أَحدَهُم نظرَ إِلىٰ قدميه . . لأَبصرَنا تحتَ قدميه . فقال : « يَا أَبَا بَكْر ؛ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا ؟ » .

وليُعلَمْ أَنَّ أَبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ معروفُ الفضلِ في الجاهليّةِ والإِسلام ، ولما جاءَ الإِسلام . . كانَ أَوّلَ مَنْ أسلم ، وهوَ أَوّلُ مَنْ خاصمَ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم .

رويَ عن أَسماءَ ذاتِ النِّطاقينِ بنتِ أَبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُما قالت : أَتى الصّريخُ أَبا بكر ، فقيلَ لَه : أَدركْ صاحبَك . فخرجَ مِنْ عندِنا وإِنَّ لَهُ غدائر ، فدخلَ المسجدَ وهوَ يقول : ويلَكُم ، أَتقتلونَ رجلاً يقولُ ربِّيَ اللهُ ؟ فلهَوا عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ ، وأَقبَلُوا علىٰ أَبي بكر ، فرجعَ إِلينا ، فجعلَ لا يمسُّ شيئاً مِن غدائره إِلاَّ جاءَ

معَهُ[1] ، وهوَ يقول : تباركتَ يا ذَا الجلالِ والإكرام .

وفي « الصَّحيحين » مِنْ حديثِ أَبي سعيدٍ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « إِنَّ أَمَنَّ النّاسِ عَلَيَّ في صُحْبَتِهِ وَمَالِه : أَبُو بَكْر ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً غَيْرَ رَبِّي . . لاتَّخذْتُ أَبَا بَكْر ، وَلَـٰكِنْ أُخُوَّةُ الإِسلامِ وَمَوَدَّتُه ، لا يَبْقَىٰ في المسجِدِ بَابٌ إِلاَّ سُدَّ إِلاَّ بَاب أَبِي بَكْر »[2] .

وعن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « مَا لأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلاَّ وَقَدْ كَافَأْنَاهُ مَا خَلاَ أَبَا بَكْر ، فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَداً يُكَافِئُهُ اللهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَة ، وَمَا نَفَعَنِي مَالُ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْر » . فَبَكَىٰ أَبو بكرٍ ، وقال : وهل أَنا ومالي إِلاَّ لكَ يا رسولَ الله ؟!

وعن أَبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : رآني النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أمشي أَمامَ أَبي بكرٍ فقال : « يَا أَبَا الدَّرْدَاء ؛ تَمْشِي أَمَامَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ في الدُّنْيَا وَالآخِرَة ؟! مَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلاَ غَرَبَتْ عَلَىٰ أَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْر » .

قالَ في « التَّبصرة » : وقدِ انفردَ أَبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بأَنْ أَفتىٰ في حضرةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم ، وقدَّمَهُ في الصَّلاة ، ونصَّ عليهِ نصّاً خفيّاً بإقامتهِ مكانَهُ في الصَّلاة . وبما رويَ عن مُحَمَّدِ بن جبيرِ بنِ مطعمٍ عن أَبيه ، قال : أَتتِ امرأَةٌ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ فأَمرها أَنْ ترجعَ إِليه ، فقالت : أَرأَيتَ إِنْ جئتُ ولَم أَرك ـ كأَنَّهَا تقولُ الموت ـ؟ قال : « إِنْ لَمْ تَجِدِينِي . . فَاطْلُبِي أَبَا بَكْر » أَخرجاهُ في «الصَّحيحين » .

وفيهما أَيضاً : أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قالَ لعائشة رضي الله عنها : « ادعي ليَ أَبَاكِ وَأَخَاكِ حَتَّىٰ أَكْتُبَ لأَبِي بَكْرٍ كِتَاباً ؛ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ وَيَتَمَنَّىٰ مُتَمَنٍّ ، وَيَأْبَى اللهُ وَالمُؤْمِنُونَ إِلاَّ أَبَا بَكْر » .

وأَخرجَ الواقديُّ والحاكمُ عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كانَ أَوّلُ بدءِ مرضِ

---

(١) قولها (فلهوا) أي : تركوا . وقولها (فجعل . . . إلا جاء معه) أي أن شعره المضفور على عادة العرب صار يتهرّى من شدة ما ضرب على رأسه .

(٢) وقد تقدم هـٰذا الحديث في بعض الدروس برواية خوخة فلا تغفل اهـ منه .

أَبي أَنَّهُ اغتسلَ يومَ الإثنينِ لسبعٍ خلونَ مِنْ جمادى الآخرة ، وكانَ يوماً بارداً ، فحُمَّ خمسة عشرَ يوماً لا يخرجُ إلى الصَّلاة ، وتوفِّيَ ليلةَ الثَّلاثاءِ لثمانٍ بقينَ مِنْ جمادى الآخرةِ سنةَ ثلاثَ عشرةَ مِنَ الهجرة ، وسِنُّهُ ثلاثٌ وستّونَ سنة ، وافقَ عمرُهُ عمرَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم ، وكانَ أَسنَّ أَصحابِ رسولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم .

وأَخرجَ الطَّبرانيُّ عنِ الحسنِ بنِ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قال : لمّا احتضرَ أَبو بكر . . قال : يا عائشة ؛ انظري اللّقحة التي كنّا نشربُ مِنْ لَبَنها ، والجفنة الَّتي كنَّا نطبخُ فيها ، والقطيفةَ الَّتي كُنَّا نلبسُها ؛ فإِنَّا كُنَّا ننتفعُ بذلكَ حينَ كنَّا نلي أَمرَ المسلمين ، فإِذا مت . . فارددِيهِ إِلىٰ عمر . فلمَّا مات . . أرسلت بِهِ إِلىٰ عمر ، فقال : رحمكَ اللهُ يا أَبا بكر ، لقد أَتعبتَ مَنْ جاءَ بَعدَك .

ولمَّا احتضر . . كتبَ كتاباً بعدَ أَنْ شاورَ أَعيانَ الصَّحابةِ في خلافةِ عمرَ بنِ الخطَّاب ، ثمَّ ختمَهُ وسلَّمَهُ لعثمان ، وخرجَ بِهِ إِلى النَّاسِ فبايَعوا .

وقالت عائشة رضي الله عنها : لمّا أُحضرَ أَبو بكر . . قال : انظروا ثوبيَّ هـٰذينِ فاغسلوهُما وكفِّنوني فيهما ؛ فإِنَّ الحيَّ أَحوجُ إِلى الجديدِ مِنَ الميت .

ودُفِنَ في حُجرةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم ، وكانت مدَّةُ خلافتهِ نحواً مِنْ سنتينِ ونصف ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه .

الفصلُ الرَّابع : في فضلِ أَميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : هوَ عمرُ بنُ الخطّابِ بنِ نفيل ، وعندَ كعبِ بنِ لؤَيّ يلتقي معَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ في النَّسب . وقد كانَ مقدّماً في الجاهليَّةِ والإِسلام ، وهوَ أَوّلُ مَنْ تلقَّبَ بأَميرِ المؤمنين ، وكانَ أَبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُلقَّبُ بخليفةِ رسولِ الله ، ثمَّ كانَ عمرُ يَكتبُ فِي أَيّامِ خلافته : مِنْ خليفةِ خليفةِ رسولِ الله ، ثمَّ لُقِّبَ بهـٰذا اللَّقب .

قالَ الحافظُ الذَّهبي : أَسلمَ في السَّنةِ السَّادسةِ مِنَ النُّبوَّةِ ولَهُ سبعٌ وعشرونَ سَنة ، وكانَ إِسلامُهُ بعدَ أَربعينَ رجلاً وإِحدىٰ عشرةَ امرأة ، ففرحَ بِهِ المسلمونَ وظهرَ الإِسلامُ بمكَّة عقبَ إِسلامه .

ورويَ عن أَنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : خرجَ عمرُ متقلِّداً بالسَّيف ، فلقيَهُ رجلٌ مِنْ بني زهرة ، قال : أَينَ تعمدُ يا عمر ؟

قال : أُريدُ أَنْ أَقتلَ مُحَمَّداً .

قال : وكيفَ تأْمنُ في بني هاشمٍ وبني زهرةَ وقد قتلتَ مُحَمَّداً ؟!

فقالَ لهُ عمر : ما أراكَ إلاَّ قد صبوتَ وتركتَ دِينكَ الَّذي أَنتَ عليه ؟!

قال : أَوَلاَ أَدُلُّكَ على العجبِ يا عمر ؟! إِنَّ خَتَنَكَ وَأُختكَ قد صَبوا وتركا دِينكَ الَّذي أَنتَ عليه .

فمشىٰ عمرُ فأتاهُما وعندَهُما رجلٌ مِنَ المهاجرين ، يقالُ لَه : خبّاب . فلمَّا سمعَ خبّابٌ حِسَّ عمر . . تواریٰ في البيت ، فدخلَ عليهِما فقال : ما هـٰذهِ الهينمةُ الَّتي سمعتُها عندكُم ؟ قال : فكانُوا يقرؤون (طه) ، فقالا : ما عدا حديثاً تحدَّثناهُ بيننا .

قال : فلعلَّكُما قد صَبوتما ؟

فقالَ لهُ خَتَنُه : أَرأَيتَ يا عمرُ إِنْ كانَ الحقُّ في غيرِ دِينك ؟ فوثبَ عمرُ علىٰ خَتَنِه فوطئَهُ وطأً شديداً ، فجاءَتْ أُختُهُ لِتدفعَهُ عن زوجها فنفحَها نفحةً بيدهِ فدمىٰ وجهَها ، فقالت وهيَ غضبىٰ : يا عمر ؛ إِنْ كانَ الحقُّ في غيرِ دِينك . . فأَنا أَشْهدُ أَنْ لا إِلـٰهَ إِلاَّ اللهُ وأَشهدُ أَنَّ مُحَمَّداً رسولُ الله .

فلمّا يئسَ عمر . . قال : أَعطوني هـٰذا الكتابَ الَّذي عندكُم فأقرؤُه . فقالتْ أُختُه : إِنَّكَ رجس ، ولا يمسُّهُ إِلاَّ المطهَّرون ، فقُمْ فاغتسلْ أَو توضّأ . فتوضّأَ ثُمَّ أَخذَ الكتاب ، فقرأَ ﴿طه﴾ ، حتَّى انتهىٰ إِلىٰ قوله : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ فقالَ عمر : دلُّوني علىٰ مُحَمَّد .

فلمَّا سمعَ خبّابٌ قولَ عمر . . خرجَ مِنَ البيتِ فقال : أَبشرْ يا عمر ؛ فإِنِّي أَرجو أَنْ تكونَ دعوةَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ ليلةَ الخميس : « اللَّهُم ؛ أَعِزَّ الإِسْلاَمَ بِعمَرَ بنِ الْخَطاب ، أَوْ بِعمرِو بنِ هِشام » .

قال : وكانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ في الدَّارِ الَّتي في أَصلِ الصَّفا ، فانطلقَ

عمرُ حتَّىٰ أَتى الدَّار ـ قال : وعلىٰ بابِ الدَّارِ حمزةُ وطلحةُ وأُناسٌ مِنْ أَصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم ـ فلمّا رأىٰ حمزةُ وجلَ القومِ مِنْ عمر . . قالَ حمزة : نَعَم ، فهـٰذا عمر ، فإِنْ يُرِدِ اللهُ بعمرَ خيراً . . يُسلِم ويتَّبع النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم ، وإِنْ يُرِدْ غيرَ ذلك . . يَكُنْ قتلهُ علينا هيِّناً . قال : والنَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ داخلٌ يوحىٰ إِليه ، فخرجَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ حتَّىٰ أَتىٰ عمرَ فأَخذَ بمجامعِ ثوبهِ وحمائلِ السَّيف ، وقال : « مَا أَنْتَ بِمُنْتَهٍ يَا عُمَرُ حَتَّىٰ يُنْزِلَ اللهُ بِكَ مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ مَا أَنْزَلَ بِالْوَلِيدِ بنِ الْمُغِيرَة » ثمَّ قال : « اللَّهُمّ ؛ اهْدِ عُمَرَ بنَ الْخَطَّاب ، اللَّهُم ؛ أَعِزَّ الدِّينَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب » فقالَ عمر : أَشهدُ أَنْ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وأَنَّكَ رسولُ الله . فأَسلم ، وقال : اخرجْ يا رسولَ الله .

قالَ ابنُ عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما : لمّا أَسلمَ عمر . . كبَّرَ أَهلُ الدَّارِ تكبيرةً سمعهَا أَهلُ المسجد ، وقال : يا رسولَ الله ؛ أَلسنا على الحقِّ إِنْ مِتنا وإِنْ حيينا ؟ قال : « بَلَىٰ والَّذِي نَفْسِي بِيَدِه » قال : ففيمَ الاختفاء ؟! والَّذي بعثكَ بالحقِّ لَنَخرجَن . قالَ عمر : فخرجنا في صَفَّين ، حمزةُ في أَحدِهما وأَنا في الآخَر ، حتَّىٰ دخلْنا المسجد ، فنظرتْ قريشٌ إِلىٰ حمزةَ وإِليَّ فأَصابتْهُمْ كآبةٌ لَم يُصبهُم مِثلُها ، قال : فسمّاني رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ يومئذٍ الفاروق .

وأَخرجَ « ابنُ ماجه » عنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما ، قال : لمّا أَسلمَ عمر . . نزلَ جبريلُ فقال : يا مُحمَّد ؛ لقدِ استبشرَ أَهلُ السَّماءِ بإِسلامِ عمر .

وروى البزّارُ والحاكمُ عنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما ، قال : لمّا أَسلمَ عمر . . قالَ المشركون : قَدِ انتصفَ القومُ منّا اليوم . وأُنزل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ .

وروى البخاريّ وغيرُهُ عنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال : ما زِلنا في عزَّةٍ منذُ أَسلمَ عمر . وابنُ سعدٍ عنه ـ أَيضاً ـ قال : كانَ إِسلامُ عمرَ فتحاً ، وكانت هجرتُهُ نصراً ، وإِمامتُهُ رحمة ، ولقد رأَيتنا وما نستطيعُ أَنْ نصلَ إِلى البيتِ حتَّىٰ أَسلمَ عمر ، فلمّا أَسلم . . قاتلَهُم حتَّىٰ تركونا وسبيلَنا .

وأخرجَ أحمدُ ابنُ حنبل ، و« الترمذيّ » ، والطَّبرانيّ عنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « لَوْ كَانَ نَبِيٌّ بَعْدِي . . لَكَانَ عُمَرَ بنَ الْخَطَّابِ » .

وأَخرجَ التّرمذيُّ : « إِنِّي لأَنْظُرُ إِلَىٰ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ قَدْ فَرُّوا مِنْ عُمَرَ » .

وفي « الصَّحيحين » مِنْ حديثِ سعدِ بنِ أَبي وقّاصٍ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قالَ لِعمر : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكاً فَجّاً . . إِلاَّ سَلَكَ فَجّاً غَيْرَ فَجِّك » .

وفي حديثِ أَبي هريرةَ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « إِنَّ اللهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَىٰ لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِه » .

وأَخرجَ النَّسائيُّ وأَحمدُ عن عائشةَ أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ نَاسٌ مُحَدَّثُون ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَد . . فَإِنَّهُ عُمَر » .

وفي حديثِ عليِّ بنِ أَبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « اتَّقُوا غَضَبَ عُمَر ؛ فَإِنَّ اللهَ يَغْضَبُ إِذَا غَضِب » .

ومِنْ كَراماته : ما أَخرجَهُ البيهقيّ ، والخطيبُ البغدادي ، وأَبو نعيم : أَنَّ عمرَ وجَّهَ جيشاً في أَيّامِ خلافتهِ إِلىٰ نهاوند مِنْ بلادِ العجم ، ورأسَ عليهِم رجلاً يُدعىٰ سارية ، فبينا عمرُ يومَ الجمعةِ يخطبُ في مسجدِ المدينةِ جعلَ ينادي : يا ساريةُ ؛ الجبلَ الجبل ؛ مَنِ استرعى الذِّئب . . ظَلَم . فالتفتَ النّاسُ بعضُهُم لبعض ، فقالَ لَهم علي : ليخرجنَّ ممَّا قال . فلمَّا فرغ . . سأَلوه ، فقال : وقعَ في خَلَدي أَنَّ المشركينَ هزموا إِخوانَنا وأَنَّهُم يمرُّونَ بجبل ، فإِنْ عَدلوا إِليه . . قاتَلوا ، وإِن جاوزوا . . هلَكوا ، فخرجَ منّي ما تزعمونَ أَنَّكُم سمعتموه . قالَ ابنُ مردويه : فجاءَ البشيرُ بعدَ شهر ، فذكرَ أَنَّهم سَمِعوا صوتَ عمرَ في ذلكَ اليومِ فعدلوا إِلى الجبل ، ففتحَ اللهُ عليهِم . انتهىٰ ، ولهُ طرقٌ أُخَر .

ورآهُ طلحةُ ليلةً يدخلُ بيتاً ، فلمّا أَصبح . . دخلَ طلحةُ ذلكَ البيتَ فإِذا عجوزٌ عمياءُ مقعدة ، فقال : ما صنعَ عندَكِ ذلكَ الرَّجُل ؟

فقالت : إنَّهُ يتعاهدني منذُ كذا ، ويأْتيني بما يُصلحني ، ويُخرجُ عنِّي الأذىٰ .

فقالَ طلحة : ثكلتكَ أُمّكَ يا طلحة ، أَعثراتِ عمرَ تتّبع ؟

وكانَ يقول : لَو ماتَ جَدْيٌ بطفِّ الفرات . . لخشيتُ أَنْ يُحاسبَ اللهُ عمر .

وكانَ في وجههِ خطّانِ أَسودانِ مِنَ البكاء . وقد توفِّيَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في آخِرِ ذي الحجَّة ، سنةَ ثلاثٍ وعشرينَ مِنَ الهجرة ، وسِنُّهُ ستّونَ سنة . ومدَّةُ خلافته : عشرُ سنينَ وستَّةُ أَشهُر .

وكانَ سببُ وفاته : أَنَّهُ كانَ للمغيرةِ عبدٌ مجوسي ، اسمُهُ أَبو لؤلؤة ، وكانَ ضربَ عليهِ المغيرةُ مئةَ درهمٍ في الشَّهر ، فجاءَ إِلىٰ عمرَ يشتكي شدَّةَ الخَراج ، فقال : ما صَنْعَتُك ؟

قال : حدَّادٌ ونقّاشٌ ونجّار .

قال : ما خَراجُكَ بكثير .

فانصرفَ ساخطاً ، ثمَّ عادَ بعدَ ليالٍ فقال : يا أَميرَ المؤمنين ؛ إِنَّ المغيرةَ زادَ عليَّ فكلِّمْهُ كي يُخفِّفَ عنِّي .

فقال : أَحسِنْ إِلىٰ مولاك ـ ومِنْ نيَّةِ عمرَ أَنْ يُكَلِّمَ المغيرةَ فيه ـ فغضب ، وقال : يسعُ النّاسَ كلَّهُم عدلُهُ غيري . وأَضمرَ قَتْلَه ، واتَّخذَ خنجراً ذا رأسينِ نصابُهُ في وسطهِ وسنَّه ، فكمنَ في زاويةٍ مِنْ زوايا المسجدِ في الغَلَس ، فلَمْ يَزَلْ هناكَ حتَّىٰ خرجَ عمرُ يوقظُ النّاسَ لِلصّلاة ، فلمّا دنا منه . . طعنَهُ ثلاثَ طعنات . وكانَ ذلكَ يومَ الأَربعاءِ لأَربعٍ بقينَ مِنْ ذِي الحجَّة ، ودُفنَ يومَ الأَحدِ مستهلَّ المحرَّمِ بجنبِ أَبي بكرٍ في حجرةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم .

وقالَ سعدُ بنُ أَبي طلحة : خطبَ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال : رَأيتُ كأَنَّ ديكاً نقرَني نقرةً أَو نقرتين ، وإِنِّي لا أَراهُ إِلاَّ حضورَ أَجلي ، وإِنْ قوماً يأْمرونني أَنْ أَستخلفَ وإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ أَنْ يُضيعَ دِينَهُ ولا خلافتَه ، فإِنْ عجلَ بي . . فأَمرُ الخلافةِ شورىٰ بَيْنَ هـٰؤُلاءِ السِّتَّةِ الَّذينَ توفِّيَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وهوَ عنهُم راض ، وقد جعلتُها

شوریٰ في : عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزُّبير ، وعبدِ الرَّحمـٰنِ بنِ عوف ، وسعدِ بنِ أَبي وقّاص . ثمَّ إنَّ أَهلَ الشُّورىٰ بايعوا عثمان ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أَجمعين .

الفصلُ الخامس : في فضائلِ الخليفةِ الثَّالثِ عثمانَ بنِ عفّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بن أَبي العاصِ بنِ أُميَّةَ بنِ عبدِ شمسِ بنِ عبدِ مَناف ، وبهِ يجتمعُ معَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . وكانَ حَسَنَ الوجه ، كثَّ اللِّحية ، أَجملَ النّاسِ إِذا اعتَمّ[1] .

وهوَ مِنَ السَّابقينَ الأَوَّلين ، وَأَوَّلِ المهاجرين ، وأَحدِ العشرةِ المشهودِ لَهُم بالجنَّة ، وأَحدِ السِّتَّةِ الَّذينَ توفِّيَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وهوَ عنهُم راض ، وأَحدِ الصَّحابةِ الَّذينَ جَمعوا القرآن .

قالَ في « الصَّواعق » : ولا يُعرفُ أَحدٌ تزوَّجَ بنتي نبيٍّ غيرُه ؛ فقد تزوَّجَ رقيَّةَ بنتَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قبلَ النُّبوَّة ، وماتتْ عندَهُ في ليالي غزوةِ بدر ـ فتأَخَّرَ عنها لتمريضِ رقيَّة ، فضربَ لَهُ سهمه ، ولذا عدُّوهُ مِنَ البدريّين ـ ثمَّ زوَّجَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أُختَها أُمَّ كلثوم ، وتوفّيتْ عندَهُ سنةَ تسعٍ مِنَ الهجرة .

ولمّا أَسلمَ بعدَ أَبي بكرٍ وعليٍّ وزيدِ بنِ حارثة . . أَخذَهُ عمُّهُ الحكَمُ بنُ أَبي العاصِ بنِ أُمَيَّةَ فأَوثقَهُ رباطاً ، وقال : ترغبُ عن مِلَّةِ آبائِكَ إِلىٰ دِينٍ مُحدَث ؟! واللهِ لا أَفكُّكَ أَبداً حتَّىٰ تدعَ ما أَنتَ عليه .

فقالَ عثمان : واللهِ لا أَدعُهُ أَبداً ولا أُفارقُه . فلمّا رأَى الحكَمُ صلابتَهُ في دِينه . . تركَه .

وعن أَنسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ أَوّلُ مَنْ هاجرَ إِلى الحبشة بأَهله . وقالَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلام : « إِنَّ عُثْمَانَ لأَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ بِأَهْلِهِ إِلَى اللهِ بَعْدَ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلاَم » .

وأَخرجَ أَحمدُ ومسلمٌ أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : « أَلاَ أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلاَئِكَة ؟ » .

وأَخرجَ أَبو نعيم : « عُثْمَانُ أَحْيَىٰ أُمَّتِي وَأَكْرَمُهَا » .

---

(١) أي : لبس العمامة .

وعن أَبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : رأَيتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلىٰ أَنْ طلعَ الفجرُ رافعاً يديهِ يدعو لعثمانَ بنِ عفّانَ ، يقول : « اللَّهُم ؛ عُثْمَانُ رَضِيتُ عَنْهُ فَارْضَ عَنْه » .

وعن أَبي سلمةَ بنِ عبدِ الرَّحمـٰنِ قال : أَشرفَ عثمانُ مِنَ القصرِ وهوَ محصور ، فقال : (أَنشدُ باللهِ مَنْ شهدَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يومَ أُحدٍ إِذِ اهتزَّ الجبلُ فركلَهُ بقدمه ، ثمَّ قال : « اسْكُنْ أُحُد ؛ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلاَّ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيد » وأَنا معَه ؟ قال : فانتشدَ لَهُ رجال .

قال : أَنشدُ باللهِ مَنْ شهدَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يومَ بيعةِ الرِّضوانِ إِذْ بعثني إِلى المشركينَ أَهل مكَّة فقال : « هَـٰذِهِ يَدِي ، وَهَـٰذِهِ يَدُ عُثْمَان » فبايعَ لَه ؟ فانتشدَ لَهُ رجال .

قال : أَنشدُ باللهِ مَنْ شهدَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : « مَنْ يُوسِعُ لَنَا بِهَـٰذَا الْبَيْتِ فِي الْمَسْجِدِ بِبَيْتٍ لَهُ فِي الْجَنَّة » ، فابتعتُهُ مِنْ مالي ، فوسَّعتُ بهِ المسجد ؟ فانتشدَ لَهُ رجال .

قال : وأَنشدُ باللهِ مَنْ شهدَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يومَ جيشِ العسرةِ قال : « مَنْ يُنْفِقِ الْيَوْمَ نَفَقَةً مُتَقَبَّلَة » فجهَّزتُ نصفَ الجيشِ مِنْ مالي ؟ قال : فانتشدَ لَهُ رجال .

قال : وأَنشدُ باللهِ مَنْ شهدَ[1] بئرَ رومةَ[2] يباعُ ماؤُها ابنَ السَّبيل ، فابتعتُها مِنْ ماليَ ، وأَبحتُها ابنَ السَّبيل ؟ فانتشدَ لَهُ رجال) .

وقالَ عبدُ الرَّحمـٰنِ بنُ خبّاب : (شهدتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حثَّ علىٰ جيشِ العسرة ، فقامَ عثمانُ فقال : يا رسولَ الله عليَّ مئةُ بعير بأَحلاسِها[3] وأَقتابِها في سبيلِ الله ، ثمَّ حثَّ على الجيش ، فقامَ عثمانُ فقال : يا رسولَ الله ؛ عليَّ مئة بعيرٍ

---

(١) قوله (من شهد بئر رومة . . إلخ) كذا بأصل . اهـ مصححه .

(٢) الرومة ـ بالراء المهملة المضمومة ـ : بئر بالمدينة . اهـ منه .

(٣) جمع حلس : كساء على ظهر البعير تحت البرذعة . اهـ منه .

بأَحلاسِها وأَقتابِها في سبيلِ اللهِ ثم حض رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجيش ، فقام عثمان فقال : يا رسول الله ؛ عليَّ مئةُ بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله . قالَ عبدُ الله : فأَنا رأَيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم على المنبرِ وهوَ يقول : « مَا عَلَىٰ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْم ») .

وفي « الشِّفا » أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : « يُقْتَلُ عُثْمَانُ وَهُوَ يَقْرَأَ الْمُصْحَف ، وَإِنَّ اللهَ عَسَىٰ أَنْ يُلْبِسَهُ قَمِيصاً وَإِنَّهُم يُرِيدُونَ خَلْعَه » .

وفي حديثٍ آخَر : « يَا عُثْمَان ؛ إِنَّ اللهَ مُقَمِّصُكَ قَمِيصاً ، فَإِنْ أَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ عَلَىٰ خَلْعِه . . فَلاَ تَخْلَعْهُ حَتَّىٰ تَلْقَانِي » .

وقد قُتلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يومَ الجمعةِ صبيحةَ عيدِ الأَضحىٰ ، سنةَ خمسٍ وثلاثينَ مِنَ الهجرة . وقصَّةُ قَتْلِهِ أَشهرُ مِنْ أَنْ تُذكر ، وكانَ قد أُحصرَ في دارِهِ في المدينة أَياماً ولَم يَدخلْ عليهِ أَحدٌ مِنْ بابِ الدَّار ؛ لأَنَّ الحسنَ والحسينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما وجماعةٌ مِنْ أَبناءِ الصَّحابةِ كانوا علىٰ بابِ دارهِ يمنعونَ النَّاسَ مِنَ الدُّخولِ عليه ، فدخلَ الأَعداءُ عليهِ مِنْ دارِ مُحَمَّدِ بنِ حزمٍ الأَنصاري ، وأَوَّلُ مَنْ ضربَه : كنانةُ بنُ بشير ـ لعنَهُ الله ـ وكانَ رجلاً أَزرقَ قصيراً .

وقد كانَ عثمانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رأَىٰ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم في منامِهِ ليلةَ قَتْلِهِ وهوَ يقول : « أَفْطِرْ عِنْدَنَا اللَّيْلَة » فأَصبحَ صائِماً . وأَوَّلُ ما ضُربَ علىٰ يدهِ بالسَّيفِ فقُطعتْ يدُه ، فقال : أَما واللهِ إِنَّها أَوَّلُ كفٍّ خطَّتِ القرآن .

وممَّا يُشجي قولُ الشَّاعر :

وَكَـفَّ يَـدَيْـهِ ثُـمَّ أَوْثَـقَ بَـابَـهُ ... وَأَيْقَـنَ أَنَّ اللهَ لَيْـسَ بِغَـافِـلِ
وَقَـالَ لأَهْـلِ الـدَّار : لاَ تَقْتُلُـوهُـم ... عَفَا اللهُ عَنْ ذَنْبِ امْرِىءٍ لَمْ يُقَاتِل
فَكَيْـفَ رَأَيْـتَ اللهَ صَـبَّ عَلَيْهِـمُ الْـ ... ـعَـدَاوَةَ وَالْبَغْضَـاءَ بَعْـدَ التَّـوَاصُـل
وَكَيْـفَ رَأَيْـتَ الْخَيْـرَ أَدْبَـرَ بَعْـدَهُ ... عَـنِ النَّـاسِ إِدْبَـارَ النَّعَـامِ الْجَـوَافِـل

وفي ذلكَ يقولُ أَيضاً أَيمنُ بنُ خزيم :

ضَحَّوْا بِعُثْمَانَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَلَمْ	يَخْشَوْا عَلَى مَطْمَحِ الكَفِّ الَّذِي طَمِحُوا
تَعَاقَدَ الذَّابِحُو عُثْمَانَ ضَاحِيَةً	فَأَيَّ ذِبْحٍ حَرَامٍ وَيْحَهُمْ ذَبَحُوا
وَأَيَّ سُنَّةِ كُفْرٍ سَنَّ أَوَّلُهُمْ	وَبَابَ كُفْرٍ عَلَىٰ سُلْطَانِهِمْ فَتَحُوا
مَاذَا أَرَادُوا أَضَلَّ اللهُ سَعْيَهُمُ	بِسَفْكِ ذَاكَ الدَّمِ الزَّاكِي الَّذِي سَفَحُوا

ودُفنَ قرب البقيع وكانَ عمرهُ اثنينِ وثمانينَ سنة . وكانَ مدَّةُ خلافتهِ اثنتي عشرةَ سنة . وصلَّىٰ عليهِ الزُّبيرُ بنُ العوّام .

وعن زيدِ بنِ أَبي حبيب : بلغني أَنَّ عامَّةَ مَنْ أَشارَ بقتلِ عثمانَ جُنُّوا .

وعن حذيفةَ رضي الله عنه قال : أَوَّلُ الفتنِ قَتْلُ عثمان ، وآخِرُ الفتنِ خروجُ الدَّجّال ، والَّذي نفسي بيده ، لا يموتُ رجلٌ وفي قلبهِ مثقالُ حبَّةٍ مِنْ حُب قَتْلِ عثمانَ إلاَّ تبعَ الدَّجّالَ إِنْ أَدركَه ، وإِنْ لَم يُدركْه . . آمَنَ بهِ في قبره .

وعن أَنسٍ : « إِنَّ للهِ سَيْفاً مَغْمُوداً فِي غِمْدِهِ مَا دَامَ عُثْمَانُ حَيّاً ، فَإِذَا قُتِلَ عُثْمَان . . جُرِّدَ ذَلِكَ السَّيْفُ فَلَمْ يُغْمَدْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَة » .

فعليكُم ـ إِخواني ـ بموالاةِ الأَصحابِ الكرام ، ومحبَّةِ المهاجرينَ والأَنصارِ للنَّبيِّ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلام ؛ فقد كانت أقدامُهم في الدُّجىٰ قائِمة ، وأَعينُهُم ساهرةٌ لا نائِمة ، وقلوبُهُم على الطَّاعةِ عازمة ، وهـٰذهِ أَفعالُ النُّفوسِ الحازمة ، فوجبَتْ لَهُم نجاةٌ قطعية جازمة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ .

وجوهٌ طالَما غسلَتْها الدُّموع ، وجوهٌ طالَما أَذلَّها الخشوع ، وجوهٌ ظهرَ عليها الاصفرارُ مِن الجوع ، خاطرتْ في المهالكِ فأَصبحتْ سالمة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ .

وجوهٌ إِذا عنت . . أَذعنتْ وذلَّت ، وجوهٌ أَلِفَتِ السُّجودَ فما ملَّت ، وجوهٌ توجَّهتْ إِلينا وعن غيرنا تولَّت ، زالَتْ عنها قترةُ الهجرِ وتجلَّت ، فجلَتْ غائمة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ .

سهرهُم إِلى الصَّباحِ قد أَثَّر في الوجوهِ الصِّباح ، واقتناعُهم بالخبزِ القفارِ والماءِ

القراح ، قد عملَ في الأَجسامِ والأشباح ، وخوفهُم مِنِ اجتراحِ الجناحْ قد صيَّرهُم كمقصوصِ الجناح ، وعلى الحقيقةِ فكلُّ الأَرواحِ مِنَ الخوفِ هائِمة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ .

تجري دموعهُم في الخدودِ كالمياهِ في الأُخدود ، وتعملُ نارُ الحذرِ في الكبود ، فيتمنّونَ عدمَ الوجود ، فهُم بينَ الرُّكوعِ والسُّجود ، ونصبِ الأَقدامِ القائمة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ .

يتفكَّرونَ في السَّابقة ، ويَحذرونَ مِنَ اللَّاحقة ، وكأَنَّهم يتَّقونَ الصَّاعقة ، أَو كأَنَّ السُّيوفَ علىٰ أَعناقِهِم بارقة ، يا شدَّةَ قلقهِم مِنَ الخاتمة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ .

وفَّقَنا اللهُ تعالىٰ وإِيَّاكُم لمراضيه ، وجعلَ مستقبلَ حالِنا خيراً مِنْ ماضيه .

اللَّهُم ؛ انفعنا بما علَّمتَنا ، وعلِّمنا ما ينفعُنا ، وزِدنا عِلماً ، وامنحنا فهماً وحِلماً .

اللَّهُم ؛ اقسِمْ لَنا مِنْ خشيتِكَ ما يحولُ بيننا وبينَ معاصيك ، ومِنْ طاعتكَ ما تُبلِّغنا بهِ جنَّتك ، ومِنَ اليقينِ ما يُهوِّنُ علينا مصائبَ الدُّنيا ، ومتِّعنا بأَسماعِنا وأَبصارِنا وقوَّتِنا ما أَحييتَنا ، واجعلْهُ الوارث منّا ، واجعلْ ثأْرَنا علىٰ مَنْ ظَلَمنا ، وانصرنا علىٰ مَنْ عادانا ، ولا تجعلْ مصيبتَنا في دِيننا ، ولا تجعلِ الدُّنيا أَكبرَ هَمِّنا ، ولا مبلغَ عِلْمنا ، ولا تُسلِّطْ علينا مَنْ لا يرحمُنا .

اللَّهُم ؛ إِنَّا نسأَلُكَ الهدىٰ والتُّقىٰ ، والعفافَ والغنىٰ .

اللَّهُم ؛ طهِّر قلوبَنا مِنَ النِّفاق ، وأَعمالَنا مِنَ الرِّياء ، وأَلسنتنا مِنَ الكذب ، وأَعيننا مِنَ الخيانة ؛ فإِنَّكَ تعلمُ خائِنةَ الأَعينِ وما تُخفي الصُّدور .

اللَّهُم ؛ ارحمْ آباءنا وأُمَّهاتِنا وأَقارِبنا ، وكافَّةَ أَمواتِ المسلمين ، يا خيرَ الرَّاحمين . وصلَّى الله علىٰ سيِّدنا مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين .

* * *

المجلس الثامن والأربعون
في المعراج يقرأُ في رجب

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ فالقِ الحَبِّ والنَّوىٰ ، وخالقِ العبدِ وما نوىٰ ، المطَّلعِ علىٰ باطنِ الضَّميرِ وما حوىٰ ، بمشيئتهِ رَشَدَ مَنْ رَشَدَ وغوىٰ مَنْ غوىٰ ، وبإرادتهِ فسدَ مَنْ فسدَ واستوىٰ ما استوىٰ ، وصرفَ مَنْ شاءَ إلى الهدىٰ ، وعطفَ مَنْ شاءَ إلى الهوىٰ . قرَّبَ موسىٰ نجيّاً ، وقد كانَ مطوياً مِنْ شدَّةِ الطَّوىٰ ، فمنحَهُ فلاحاً وكلَّمهُ كفاحاً ، وهوَ بالوادِ المقدَّسِ طُوىٰ . وعرجَ بمُحَمَّدٍ إليهِ فرآهُ بعينيه ، ثمَّ عادَ وفراشُهُ ما انطوىٰ ، فأَخبرَ بقُربهِ مِنْ ربِّهِ وحدَّثَ بما رأَىٰ وروىٰ ، فأَقسمَ علىٰ تصديقهِ مَنْ حرسَهُ بتوفيقهِ عنِ الهوىٰ : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ .

أَحمدُهُ علىٰ صرفِ الجَوىٰ[1] ، حَمْدَ مَنْ أَنابَ وارعوىٰ[2] . وأَشهدُ أَنْ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ فيما نشرَ وطوىٰ ، وأَنَّ سيِّدَنا مُحَمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ وعودُ الهدىٰ قد ذوىٰ ، فسقاهُ بماءِ المجاهدةِ حتَّى ارتوىٰ ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ أَبي بكرٍ الصِّدِّيقِ صاحبهِ إنْ رحلَ أَو ثوىٰ[3] ، وعلى الفاروقِ الَّذي وسمَ بحدِّهِ جبينَ كلِّ جبّارٍ وكوىٰ ، وعلىٰ ذي النُّورينِ الصَّابرِ على الشَّهادةِ وما التوىٰ ، وعلىٰ عليٍّ الَّذي زهدَ في الدُّنيا فباعَها واجتوىٰ ، وعلىٰ جميعِ آلهِ وأَصحابهِ الَّذينَ هُم كزرعٍ علىٰ سُوقهِ استوىٰ .

أَمّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في مُحكمِ كتابهِ العزيز ، وكلامهِ البليغِ الوجيز ، بعدَ

---

(١) **الجوىٰ** : شدة الوجد ؛ من عشقٍ أو حزن .

(٢) **ارعوىٰ** : ندم وتاب .

(٣) **ثوىٰ** : أقام .

أعوذُ باللهِ السَّميعِ العليمِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيم ، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيم : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ : قالَ الوالدُ عليهِ الرَّحمةُ في « تفسيره » :

أقسمَ سبحانَهُ بجنسِ النَّجمِ المعروف . ومعنىٰ ﴿ هَوَىٰ ﴾ غرب ، وقيل : طلع .

وقالَ الحسنُ وأبو حمزة : أَقسمَ سبحانَهُ بالنُّجومِ إذا انتثرتْ في القيامة . وفي روايةٍ عنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما : إذا انقضَّتْ في إثْرِ الشَّياطين .

وقيل : المرادُ بالنَّجمِ الثُّريّا . قالَهُ مجاهدٌ وسفيان ؛ فإنَّ النَّجمَ صارَ عَلَماً بالغلبةِ لَها . ومنهُ قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « إِذَا طَلَعَ النَّجْمُ صَباحاً . ارْتَفَعَتِ الْعَاهَة » . وقولُ العرب :

طَلَعَ النَّجْمُ عِشَاءَ فَابْتَغَى الرَّاعِي كِسَاءَ
طَلَعَ النَّجْمُ غُدَيَّةْ فَابْتَغَى الرَّاعِي كُسَيَّةْ

وقيل : هوَ الشِّعرى المرادةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾ [النجم : ٤٩] والكهانُ يتكلَّمونَ على المغيَّباتِ عندَ طلوعِها .

وقيل : الزُّهرة ، وكانتْ تُعبَد .

وقالَ ابنُ عبّاسٍ ومجاهدُ والفرّاء : النَّجمُ المقدارُ النَّازلُ مِنَ القرآنِ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . و﴿ إِذَا هَوَىٰ ﴾ بمعنىٰ : إذا نزلَ عليهِ معَ جبريلَ عليهِ السَّلام .

وقالَ جعفرٌ الصَّادقُ رَضِيَ اللهُ عَنْه : هوَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . وهويُّه : نزولُهُ مِنَ السَّماءِ ليلةَ المعراج .

وقيل : هوَ الصَّحابة .

وقيل : العلماء ، والمرادُ بهويِّهم : غوصُهُم في بحارِ الأفكارِ لاستخراجِ دُررِ الأَسرار . وقيلَ غيرُ ذلك .

﴿ مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ وهوَ نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ؛ أَي : ما عدلَ عن طريقِ الحق ، وهٰذا جوابُ القسَم . ﴿ وَمَاغَوَىٰ ﴾ أَي : ما اعتقدَ باطلاً ولا يتكلَّمُ بهِ قطُّ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ أَي : عن هوىٰ نَفْسهِ ورأيه .

قالَ العلاَّمةُ ابنُ الجوزيّ في « التَّبصرة » : وذلكَ أَنَّهُم قالوا : إنَّهُ يقولُ القرآنَ مِنْ تلقاءِ نَفْسه .

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ أَي : ما القرآنُ إلاَّ وحيٌ مِنَ اللهِ يوحىٰ ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ أَي : علَّمَ جبريلُ عليهِ السَّلامُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أَي : قوَّة . وكانَ مِنْ قوَّتهِ أَنَّهُ قلعَ قُرىٰ قومِ لوطٍ وحملَها علىٰ جناحهِ فقلَبَها عليهِم ، وصاحَ بثمود فأَصبحوا خامدين .

﴿ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ فيهِ قولان :

أَحدُهُما : ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ جبريلُ ﴿ وَهُوَ ﴾ يعني : النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . المعنىٰ : أَنَّهُما استويا بالأُفقِ الأَعلىٰ لمّا أُسريَ برسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم .

والثّاني : ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ أَي : فاستقامَ جبريلُ وهو ـ يعني جبريلَ ـ بالأُفقِ الأَعلىٰ علىٰ صورتهِ الحقيقيَّة ؛ لأَنَّهُ كانَ يتمثَّلُ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إذا هبطَ عليهِ بالوحي في صورةِ رجل ، فأَحبَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهُ يراهُ علىٰ حقيقته ، فاستوىٰ في أُفقِ المشرقِ فملأَ الأُفق . فيكونُ المعنىٰ : فاستوىٰ جبريلُ بالأُفقِ الأَعلىٰ في صورته .

والأُفُقُ الأَعلىٰ : مطلعُ الشَّمس . وإنَّما قيلَ لَه : الأَعلىٰ ؛ لأَنَّهُ فوقَ جانبِ الغربِ في صعيدِ الأَرض ، لا في الهوىٰ .

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ قالَ الزَّجّاج : (دَنا) بمعنىٰ : قرب . (وتدلى) زادَ في القُرب . وفي المشارِ إِليهِ بذلكَ ثلاثةُ أَقوال :

أَحدُها : أَنَّهُ اللهُ جلَّ جلالُه ، والمرادُ به : القُربُ المذكورُ في قولهِ تعالىٰ : « مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْراً . . تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً » .

والثّاني : دنا مُحَمَّدٌ مِنْ رَبِّه .

والثّالث : أَنَّ جبريلَ دنا مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم .

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ القاب : القدر . قالَ الكسائي : المرادُ بالقوسينِ قوسٌ واحد .

﴿ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ : بل أدنىٰ ﴿ فَأَوْحَىٰٓ ﴾ أَي : جبريلُ عليهِ السَّلامُ ﴿ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ أَي : عبدِ الله ، وهوَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . وقال : ﴿ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ ولَم يَقل : (رسوله) تشريفاً لَهُ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلام ؛ كما قالَ الشّاعر :

أَصَـمُّ إِذَا نُـودِيـتُ بِـاسْمِـي وَإِنَّنِـي ... إِذَا قِيـلَ لِـي يَـا عَبْـدَهَـا لَسَمِيـعُ

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ ﴾ أَي : الَّذي أَوحاهُ جبريلُ عليهِ السَّلام . وإِبهامُ الموحىٰ بهِ للتَّفخيم ؛ مثلُ قولهِ تعالىٰ : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ .

ورویٰ في « المواهبِ اللَّدنيَّة » عن جعفر الصَّادقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قال : لمّا قربَ الحبيبُ مِنَ الحبيبِ غايةَ القرب . . نالَتْهُ غايةُ الهيبة ، فلاطفَهُ الحقُّ تعالىٰ بغايةِ اللُّطف ، وذلكَ قولُهُ جلَّ جلالُه : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ أي : كانَ ما كانَ وجرىٰ ما جرىٰ ، وقالَ الحبيبُ للحبيبِ ما يقولُ الحبيبُ للحبيب ، وأَلطفَ بهِ إِلطافَ الحبيبِ بالحبيب ، فخفيَ السِّرُّ ولَم يَطَّلعْ عليهِ أَحد ، ولَم يَعْلَمْ أَحدٌ ما أُوحيَ إِلاَّ الَّذي أَوحىٰ .

وعن سعيدِ بنِ جبير : أُوحيَ إِليهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : أَلَمْ أَجِدكَ يتيماً فآويتك ؟ أَلم أَجدْك ضالاً فهديتُك ؟ أَلم أجدْكَ عائلاً فأغنيتُك ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ .

وقيل : أَوحىٰ إِليهِ سبحانَه : إِنَّ الجنَّةَ حرامٌ على الأَنبياءِ حتَّىٰ تدخلَها يا مُحَمَّد ؛ وعلى الأُممِ حتَّىٰ تدخلَها أُمَّتُك . ذكرَهُ الثَّعلبيُّ والقشيري . وقيلَ غيرُ ذلك .

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ قالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : رأىٰ ربَّهُ عزَّ وجل . **والمعنىٰ** : ما أَوهمَهُ فؤادُهُ أَنَّهُ رأىٰ ولَم يَر .

واختلَفوا في الرُّؤْية :

فأنكرَتْها عائشةُ رضي الله عنها ومَنْ وافقَها .

وقالَ كثيرٌ بوقوعِها ، لـٰكنَّهُمُ اختلَفوا : فقالَ بعضُهُم : رأَىٰ ربَّهُ بعينه . ومنهُم مَن قال : بقَلْبه . ومنهُم مَنْ قال : بالتَّعدُّد ، فمرَّةً بعينِ رأسِهِ والأُخرىٰ رآهُ بفؤَادِه . ومنهُم مَنْ توقَّف .

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ أَي : أَفتكذِّبونَهُ فتجادلونَهُ علىٰ ما يراهُ معاينةً فتمارونَه ؟ عَطْفٌ علىٰ محذوف .

وقرأَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : ﴿أَفَتمْرُونه﴾ بفتحِ التّاءِ وسكونِ الميم[1] . يقال : مريتهُ حقَّهُ إِذا جحدته .

أَوِ المراد: بما يرىٰ ما رآهُ مِنْ صورةِ جبريلَ عليهِ السَّلام، علىٰ ما قالَ كثيرٌ مِنَ العلماء.

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ هيَ شجرةُ النَّبقِ فوقَ السَّماءِ السَّابعةِ ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ قالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : هيَ يمينُ العرش ، وهيَ منزلُ الشُّهداء . وقيلَ لها : سدرةُ المنتهىٰ ؛ لأَنَّها ـ كما رويَ عنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما ـ إِليها ينتهي عِلمُ كلِّ عالم ، وما وراءَها لا يعلمُهُ إِلاَّ اللهُ تعالىٰ . أَو لأَنَّها تنتهي إِليها أَعمالُ الخلائق ، بأَن تُعرضَ على اللهِ تعالىٰ عندَها . أَو لأَنَّها ينتهي إِليها ما ينزلُ مِنْ فوقِها وما يصعدُ مِنْ تحتِها . أَو لأَنَّها تنتهي إِليها أَرواحُ الشُّهداءِ أَوِ المؤْمنين .

وفي « الكشّاف » : لأَنَّها منتهى الجنَّةِ وآخِرُها .

﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ متعلِّقٌ بـ(رآه) أَو بالجملةِ المنفيَّةِ الآتية . والغشيانُ اَلتَّغطية . وفي إِبهامِ ما يغشىٰ مِنَ التَّفخيمِ ما لا يخفىٰ .

وعنِ الحسن : غشيها نورُ ربِّ العزَّةِ جلَّ شأْنُه .

وعن سلمة قال : استأْذنتِ الملائكةُ الرَّبَّ تباركَ وتعالىٰ أَنْ يَنظروا إِلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، فأَذِنَ لَهم فغشيتها . وقيلَ غيرُ ذلك .

---

(١) وهي قراءة متواترة معروفة .

وهـٰذهِ السِّدرةُ نبقها كقلالِ هجر ، وأَوراقُها مِثلُ آذانِ الفِيَلَة ، يسيرُ الرَّاكبُ في الفننِ مِنها مئة سَنةٍ كما في الأَحاديثِ الصَّحيحة .

﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ ﴾ أَي : ما عدلَ بصرُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يميناً ولا شمالاً ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ أَي : ما جاوزَ ما رأَىٰ ، بل أَثبتَهُ إِثباتاً صحيحاً مستيقناً . أَو ما عَدَلَ عنْ رؤيةِ العجائبِ الَّتي أُمرَ برؤْيتِها وما جاوزَها إِلىٰ ما لَم يُؤْمَرْ برؤْيته .

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ أَي : والله ، لقد رأَى الآياتِ الكبرىٰ مِنْ آياتهِ تعالىٰ وعجائبهِ الملكيَّةِ والملكوتيَّة .

وجاءَ في بعضِ الأَخبارِ أَنَّهُ رأىٰ رفرفاً أَخضرَ مِنَ الجنَّةِ قد سَدَّ الأُفق .

وعنِ ابنِ زيد : رأَىٰ جبريلَ في الصُّورةِ الَّتي هوَ بها . وروي أَنَّ لَهُ ستّ مئَةِ جناح ، كلّ جناحٍ مِنها يسدُّ الأُفق .

هـٰذا ما كانَ في ليلةِ المعراجِ قَبْلَ الهجرة ، انتهىٰ بزيادةٍ مِنَ « المواهب » و« روحِ المعاني » .

وليُعلَمْ أَنَّهُ قد ثبتَ في هـٰذهِ الآياتِ الكريماتِ عروجُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلى السَّماء . قالَ في « بدءالأَمالي » :

وَحَــقٌّ أَمْــرُ مِعْــرَاجٍ وَصِــدْقٌ   فَفِيــهِ نَــصُّ أَخْبَــارٍ عَــوَالِــي

قالَ الشَّارحُ الفاضلُ الملاَّ عليُّ القاري : أَمَّا الإِسراءُ مِنَ الْمَسْجِدِ الحرامِ إِلى المسجدِ الأَقصىٰ . . فيَكفرُ مُنكِرُه ؛ لِثبوتهِ بقولهِ تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

وأَمَّا إِلى السَّماء . . فقد قالوا : إِنَّ مُنْكِرَهُ مبتدع . انتهىٰ .

وقدِ **اختلفَ العلماءُ** رحمَهُمُ اللهُ تعالىٰ : هل كان الإِسراءُ بجسدهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم معَ روحه ، أَو بروحهِ فقط ؟

فذهبَ مُعظَمُ السَّلَفِ والخَلَفِ إِلى الأَوَّل . وذهبَ إِلى الثَّاني طائفةٌ مِنَ العلماء ، منهم : عائشةُ ومعاويةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما .

وذهبتْ طائفةٌ إِلى التَّفصيل ، فقالوا : كانَ الإِسراءُ بجسدهِ يقظةً إِلىٰ بيتِ المقْدس ، وإِلى السَّماءِ بالرُّوح .

والصَّحيحُ هوَ قولُ الجمهور ؛ للأَحاديثِ المتعدِّدةِ في ذلك .

وكذا اختلَفوا في تاريخِ الإِسراء :

فرويَ أَنَّ ذلكَ كانَ قَبْلَ الهجرةِ إِلى المدينة بسَنة .

وقيل : في ربيعِ الأَوَّل ، ليلةَ سبعٍ وعشرين .

وقيل : لسبعةَ عشرَ مِنْ رمضان .

وقيل : في رجب . وقيلَ غيرُ ذلك .

وكذا اختلفوا في الموضعِ الَّذي أُسريَ منه :

فقالَ الحسنُ وقتادة : أُسريَ بهِ مِنْ نفسِ المسجد . ويُؤَيِّدُهُ حديثُ « الصَّحيحَين » .

وقالَ كثيرٌ مِنَ المفسِّرين : إِنَّهُ أُسريَ بهِ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلامُ مِنْ بيتِ أُمِّ هانىءٍ بنتِ أَبي طالب رضي الله عنها ، واسمُها هند . ففي « سيرةِ ابنِ هشام » أَنَّها كانت تقول : ما أُسريَ برسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلاَّ وهوَ في بيتي نائمٌ عندي تلكَ اللَّيلة : وذكرَ حديثَها بطُوله .

قالَ في « التَّبصرة » : رويَ أَنَّ نبيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حدَّثَ عن ليلةِ أُسريَ به ، قال : « بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَطِيمِ مُضْطَجِعاً إِذْ أَتَانِي آتٍ فَقَدَّ ـ أَي : شَق ـ مَا بَيْنَ هَـٰذِهِ إِلىٰ هَـٰذِه ـ يعني : مِنْ ثغرةِ نحرهِ إِلىٰ شعرته ، قال ـ فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي . قَال : ثُمَّ أُتِيتُ بِطِشْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَاناً ، فَغُسِلَ قَلْبِي ثُمَّ حُشِيَ ثُمَّ أُعِيد ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ أَبيض ، يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصَىٰ طَرْفِهِ ـ قالَ ـ فَحُمِلْتُ عَلَيْه ، فَانْطَلَقَ بِيَ جِبْرِيلُ حَتَّىٰ أَتَيْتُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا ، فَاسْتَفْتَح ، فَقِيل : مَنْ هَـٰذَا ؟ قَال :

جِبْرِيل . قِيل : وَمَنْ مَعَك ؟ قَال : مُحَمَّد . قِيل : وَ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْه ؟ قَال : نَعَم . قِيلَ مَرْحَباً بِه ، فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاء . ـ قَال : ـ فَفَتَح ، فلَمَّا خلَصْتُ فإذَا فِيهَا آدَم ، فقَال : هَـٰذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ـ قَال ـ فَسَلَّمْتُ عَلَيْه ، فَرَدَّ السَّلاَمَ ثُمَّ قَال : مَرْحَباً بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالح .

ثُمَّ صَعِدَ حَتَّىٰ أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ ، فَاسْتَفْتَح ، قِيل : مَنْ هَـٰذَا ؟ قَال : جِبْرِيل . قِيل : وَمَنْ مَعَك ؟ قَال : مُحَمَّد . قِيل : وَ قَدْ أَرْسِلَ إِلَيْه ؟ قَال : نَعَم . قَالَ مَرْحَباً بِه ، فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاء ـ قَال ـ فَفَتَح ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ، وَهُمَا ابْنَا الْخَالَة ، قَال : هَـٰذَا يَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا ، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّا ، ثُمَّ قَالا : مَرْحَباً بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالح .

ثُمَّ صَعِدَ حَتَّىٰ أَتَى السَّمَاءَ الثَّالِثَةَ فَاسْتَفْتَح ، قِيل : مَنْ هَـٰذَا ؟ قَال : جِبْرِيل . قِيل : وَمَنْ معَك ؟ قَال : مُحَمَّد . قِيل : وَ قدْ أُرْسِلَ إِلَيْه ؟ قَال : نَعَم . قِيلَ : مَرْحَباً بِه ، ونِعْمَ الْمَجِيءُ جَاء ، فَفُتِح ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يُوسُف ، قَال : هَـٰذَا يُوسُفُ فَسَلِّمْ عَلَيْه ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ ، ثُمَّ قَال : مَرْحَباً بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالح .

ثُمَّ صَعِدَ حَتَّىٰ أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَاسْتَفْتَح ، قِيل : مَنْ هَـٰذَا ؟ قَال : جِبْرِيل . قِيل : وَمَنْ مَعَك ؟ قَال : مُحَمَّد . قِيل : أَوَ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْه ؟ قَال : نَعَم . قِيل : مَرْحَباً بِه ، فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاء ، فَفُتِح ، فلَمَّا خَلَصْتُ إِلَىٰ إِدْرِيسَ ، قَال : هَـٰذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْه ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ ، ثُمَّ قَال : مَرْحَباً بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالح .

ثُمَّ صَعِدَ حَتَّىٰ أَتَى السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ ، فَاسْتَفْتَح ، قِيل : مَنْ هَـٰذَا ؟ قَال : جِبْرِيل . قِيل : وَمَنْ مَعَك ؟ قَال : مُحَمَّد . قِيل : وَ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْه ؟ قَال : نَعَم . قِيلَ : مَرْحَباً بِه ، فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاء ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا هَارُون ، قَال : هَـٰذَا هَارُونُ ، فَسَلِّمْ عَلَيْه ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ ، ثُمَّ قَال : مَرْحَباً بِالأَخِ الصَّالحِ والنَّبِيِّ الصَّالح .

ثُمَّ صَعِدَ حَتَّىٰ أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ ، فَاسْتَفْتَح ، فَقِيل : مَنْ هَـٰذَا ؟ قَال : جِبْرِيل . قِيل : فَمَنْ مَعَك ؟ قَال : مُحَمَّد . قِيل : وَ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْه ؟ قَال : نَعَم . قَالَ : مَرْحَباً بِه ، فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاء ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا مُوسَىٰ ، قَال : هَـٰذَا مُوسَىٰ فَسَلِّمْ عَلَيْه ،

فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ ، ثُمَّ قَال : مَرْحَباً بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِح . قَال : فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ . . بَكَىٰ ، قِيل : مَا يُبْكِيك ؟ قَال : أَبْكِي لأَنَّ غُلاَماً بُعِث بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّن يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي .

ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَح جِبْرِيلُ ، قِيل : مَنْ هَـٰذَا ؟ قَال : جِبْرِيل . قِيل : وَمَنْ مَعك ؟ قَال : مُحَمَّد . قِيل : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْه ؟ قَال : نَعَم . قَالَ : مَرْحَباً بِه ، فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاء ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيم ، قَال : هَـٰذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْه ، ـ قال ـ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ السَّلاَم ، قَال : مَرْحَباً بالابنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِح .

ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَىٰ فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلاَلِ هَجَر ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيلَة ، قَال : هَـٰذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَىٰ . وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَار : نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنهْرَانِ ظَاهِرَان ، فَقُلْت : مَا هَـٰذَانِ يَا جِبْرِيل ؟ قَال : أَمَّا الْبَاطِنَان . . فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّة ، وَأَمَّا الظَّاهِرَان . . فَالنِّيلُ وَالْفُرَات . ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتِ الْمَعْمُور ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ ، وَإِنَاءٍ مِن لَبَنٍ ، وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ ، فَأَخذْتُ اللَّبنَ ، فَقَالَ : هِي الْفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ . ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلوات خَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْم . فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَىٰ مُوسَىٰ ، فَقَال : بِمَ أُمِرْت ؟

قَال : أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلاةً كُلَّ يَوْم .

قَال : إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ ، وَإِنِّي ـ والله ـ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَة ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِك .

فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْراً . فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ ، فَقَال : مِثْلَهُ فَرَجَعْت ، فَوَضَعَ عَنِّي عَشْراً . فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ ، فَقَالَ : مِثْلَهُ فَرَجَعْت ، فَوَضَعَ عَنِّي عَشْراً . فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ ، فَقَال : مِثْلَهُ فَرَجَعْت ، فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ فَرَجَعْتُ ، فَقَال : مِثْلَهُ فَرَجَعْت ، فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْم . فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ ، فَقَال : بِمَ أُمِرْت ؟

قُلْت : أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَواتٍ كُلَّ يَوْم .

قَال : إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَواتٍ كُلَّ يَوْمٍ ، وإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ ، وعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائيلَ أَشَدَّ الْمعَالَجَةِ فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِك .

قَال : سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْت ، وَلَـٰكِنِّي أَرْضَىٰ وَأُسَلِّم . ـ قال ـ : فَلَمَّا جَاوَزْتُ . . نَادىٰ مُنَاد : قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي » . أخرجاه في « الصَّحيحين » .

وفي أفراد « مسلم » مِنْ حديثِ أَنس ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « أُتِيتُ بِالبُرَاقِ فَرَكِبْتُه ، فَسَارَ بِي حَتَّىٰ أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِس ، فَرَبَطْتُ الدَّابَّةَ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ فِيهَا الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ دَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْن » .

وإِنَّما كانَ الإِسراءُ إِلىٰ بيتِ المقْدسِ والمعراجُ مِنْ هناكَ إِلى السَّماءِ لأَربعِ فوائِد :

الأُولَىٰ : أَنَّهُ لَوْ أَخبرَ بصعودِهِ إِلى السَّماءِ في بدءِ الحديث . . لاشتدَّ إِنكارُهُم ، ولو وصفَها لَهم . . لَمْ يَكُنْ عندَهُم عِلْمٌ بذلك ، فلمّا أَخبرَهُم ببيتِ المقدسِ ووصفَهُ لَهُم . . دلَّ صِدْقُهُ في ذلكَ علىٰ صِدْقِهِ في حديثِ المعراج .

الثَّانية : أَنَّهُ سُيِّرَ في الأَرضِ ليستأْنس ، ثمَّ درجَ إِلى الصُّعودِ إِلى السَّماء .

الثَّالثة : أنَّ الأنبياءَ عليهِمُ السَّلامُ جُمِعوا لَهُ هناكَ فصلَّىٰ بهِم ، فبانَ فضلُهُ بالتَّقدُّمِ عليهِم في دارِ التَّكليف .

الرَّابعة : أَنَّهُ مرَّ بالنَّواحي الَّتي كُلِّم عندَها موسىٰ عليهِ السَّلام ، ثمَّ صَعِدَ فَكُلِّمَ في السَّماء ؛ ليظهرَ التَّفاوتُ بينَهما .

وفي « المواهبِ اللَّدنيَّة » لِلقسطلانيّ عليهِ الرَّحمة : أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ لمَّا رجعَ مِنْ سفرِ الإِسراء . . مرَّ في بعضِ طريقهِ بِعيرٍ لقريشٍ تحملُ طعاماً ، فيها جملٌ عليهِ غرارتان : غرارةٌ سوداء ، وغرارةٌ بيضاء . فلمّا جازَ بالعِير . . نَفَرَتْ منهُ واستدارت ، وتَصرَّعَ ذلكَ البعير ـ وفي رواية : أَضلُّوا بعيراً قد جمعهُ فلان ـ قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِم ، فَقَالَ بَعْضُهُم : هَـٰذا صَوْتُ مُحَمَّد » ثمَّ أَتىٰ (مكَّة) قَبْلَ الصُّبْحِ وأَخبرَ قومَهُ بما رأىٰ ، وقالَ لَهم : « إِنَّ مِنْ آيَتِي مَا أَقُولُ لَكُم : إِنِّي مَرَرْتُ بِعِيرِ

لَكُم فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا ، وَقَدْ أَضَلُّوا بَعِيراً لَهُم فَجَمَعَهُ فُلَان ، وَإِنَّ مَسِيرَهُم يَنْزِلُونَ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا ، وَيَأْتُونَكُم يَوْمَ كَذَا ، يَقْدُمُهُم جَمَلٌ آدَمُ عَلَيْهِ مَسْحٌ أَسْوَدُ وَغرارتان » فلمَّا كانَ ذلكَ اليوم . . أَشرفَ النَّاسُ ينظرون ، حتَّىٰ إِذَا كانَ قريبٌ مِنْ نصفِ النَّهار . . أَقبلَتِ العيرُ يقدمُهُم ذلكَ الجملُ الَّذي وصفَهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم .

وفي روايةٍ إلى المسجد الأقصىٰ ؛ سألوهُ آية ، فأَخبرَهُم بقدومِ العيرِ يومَ الأربعاء ، فلمّا كانَ ذلكَ اليوم . . لَم يَقدُموا ، حتَّىٰ كادتِ الشَّمسُ أَنْ تغربَ فدعا اللهَ تعالىٰ فحبسَ الشَّمسَ حتَّىٰ قدموا كما وصف .

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : لمَّا أُسريَ بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم . . أَصبحَ يُحدِّثُ النَّاسَ بذلكَ فارتدَّ ناسٌ كانوا آمنوا ، وسعىٰ رجالٌ مِنَ المشركينَ إِلىٰ أَبي بكرٍ فقالوا : هل لكَ إِلىٰ صاحبك ، يزعمُ أَنَّهُ أُسريَ بهِ اللَّيلةَ إِلىٰ بيتِ المقْدس!

قال : أَو قد قالَ ذلك ؟

قالوا : نَعَم .

قال : لَئِنْ قالَ ذلك . . لقد صَدَق .

قالوا : أَتصدِّقُهُ أَنَّهُ ذهبَ إِلىٰ بيتِ المقْدسِ وجاءَ قَبْلَ أَنْ يُصبح ؟

فقال : نَعَم ، إِنِّي لأُصَدِّقُهُ فيما هوَ أَبعدُ مِنْ ذلكَ في خبرِ السَّماءِ في غدوةٍ وروحة : فلذلكَ سُميَ الصِّدِّيق . رواهُ الحاكمُ في « المستدرك » ، وابنُ إِسحاقَ وزاد : ثمَّ أَقبلَ حتَّى انتهىٰ إِلىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم ، فقال : يا رسولَ الله ؛ حدَّثَ هـٰؤُلاءِ أَنَّكَ جئْتَ بيتَ المقْدسِ هـٰذهِ اللَّيلة ؟

قال : « نَعَم » .

قال : يا نبيَّ الله ؛ صِفْهُ لِي ؛ فإِنِّي قد جِئْتُه .

قالَ الحسن : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « فَرُفِعَ لِي حَتَّىٰ نَظَرْتُ إِلَيْه » فجعلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ يَصِفُهُ لأَبي بكر ، فيقولُ أَبو بكر : صَدَقْت ، أَشهدُ أَنَّكَ رسولُ الله . كلَّما وصفَ لَهُ منهُ شيئاً .

وقولُ أَبي بكر : (صِفهُ لي) لَم يكُنْ عن شيء ؛ فإنَّهُ صَدَّقَهُ مِنْ أَوَّلِ وهلة ، ولـٰكنَّهُ أَرادَ إِظهار صدقه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ لقومه ، فإنَّهُم كانوا يَثقونَ بأَبي بكر ، فإذا طابقَ خبرُهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ ما كانَ يَعلمُ أَبو بكرٍ وصدَّقَه . . كانَ حجَّةً ظاهرةً عليهِم .

وفي رواية « البخاري » : « جَلاَ اللهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِس » أي : كشفَ الحجبَ بيني وبينَهُ حتَّىٰ رأَيتُه .

وفي رواية « مسلم » : « فَسَأَلُونِي عَنْ أَشْيَاءَ لَمْ أُثْبِتْهَا ، فَكَرِبْتُ كَرْباً شَدِيداً لَمْ أَكْرَبْ مِثْلَهُ قَط ، فَرَفَعَهُ اللهُ لي أَنْظُرُ إِلَيْه ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إلاَّ أَنْبَأْتُهُم بِه » .

فيحتملُ أَنْ يكونَ حُمِلَ إِلىٰ أَنْ وضعَ بحيثُ يَراهُ ثمَّ أُعيد ، ففي حديثِ ابنِ عبّاسٍ عندَ أَحمدَ والبزَّار : « فَجِيءَ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْه » وهـٰذا أَبلغُ في المعجزة ، ولا استحالةَ فيه ؛ فقد أُحضرَ عرشُ بلقيسَ في طرفةِ عين .

وأمّا ما وقعَ في حديثِ أُمِّ هانىءٍ عندَ ابن سعد : « فَخُيِّلَ إِلَيَّ بَيْتُ الْمَقْدِسِ فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُم » فإنْ ثبت . . احتملَ أَنْ يكونَ المرادُ مثلاً قريباً منه ، كما قيلَ في حديث : « أُرِيتُ الْجَنَّةَ وَالنَّار » .

ويُؤَوَّلُ قولُه : « جِيءَ بِالْمَسْجِد » جيءَ بمثاله .

وفي حديثِ أُمِّ هانىءٍ المذكورِ أَنَّهم قالوا لَه : كم لِلمسجدِ مِنْ باب ؟ قال : « وَلَمْ أَكُ عَدَدْتُهَا ـ قَال ـ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَأَعُدُّهَا بَاباً بَاباً » .

ولله تعالىٰ درُّ القائل :

سُرَى النَّبِيِّ غَرِيبٌ وَهْوَ مُعْجِزَةٌ	عَظِيمَةٌ وَذَوُو الأَخْبَارِ تَرْوِيهِ
بِهِ عَلاَ لِذَوِي السَّبْعِ الْعُلَىٰ وَدَنَا	إِلَىٰ مَقَامٍ شَرِيفٍ جَلَّ مُدْنِيهِ
فَقَابُ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ مَسَافَتُهُ	وَرُؤْيَةُ اللهِ أَعْلَىٰ نِعْمَةٍ فِيهِ

فسبحانَ مَنْ أَسرىٰ بعبدهِ فعادَ الحسَّادُ أَسرىٰ ، قَصَرَتْ دولتُهُ قيصرَ وكَسَرَتْ هيبتُهُ كسرىٰ ، أَقامَهُ باللَّيلِ مِنْ وطائه ودثاره ، ورفعَهُ فوقَ السَّموات بقوَّتهِ واقتدارِه ، وأَراهُ ما في جنَّتهِ وما في نارِه ، وأَوحىٰ إِليهِ ما أَوحىٰ مِنْ أَسرارِه ، ثمَّ أَعادَهُ في اللَّيلِ إِلىٰ

مسكنهِ وقراره . جاوزَ أُفقَ الشَّمسِ والقمر ، وعلا على الملائكةِ والبشر ، وفازَ بالتَّقريبِ والنَّظر ، وما حضرَ أَحدٌ قطُّ حيثُ حَضَر . ارتقىٰ إِلىٰ مقامِ القُربِ بقدمَيْه ، والأَملاكُ تحفُّ بهِ مِنْ جانبيه ، وجبريلُ يمشي خادماً بينَ يديه ، والرَّبُّ قد أَنعمَ بتقريبهِ إِليه ، وكشفَ لَهُ الحجابَ حتَّىٰ رآهُ بعينيه . حماهُ بأَلطافهِ مِنَ الزَّيغِ في طريقِه ، وأَيَّدَهُ بإِسعافهِ وإِسعادِهِ وتوفيقِه ، وعضدَهُ في صدقهِ بتصديقِ صديقِه .

سبحانَ مَنْ رفعَهُ فوقَ الأَفلاك ، وقدَّمَهُ على الأَنبياءِ والأَملاك ، وإِنَّه ـ واللهِ ـ أَهلٌ لذاك ؛ لأَنَّهُ أَطولُ القومِ في جهادِ أَهلِ الإِشراكِ ذيلاً ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ .

أَوقدَ لهدايةِ الخلْقِ سِراجَه ، وشادَ قواعدَ دِينهِ وأَبراجَه ، وقوَّىٰ دليلَهُ وأَظهرَ احتجاجَه ، فالخزيُ كلُّ الخزي لمَنْ جحدَ معراجَه ، ويلاً لَهُ ويلاً ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ .

كلَّمَهُ كفاحاً ومنحَهُ فلاحاً ، وسقاهُ مِنْ شرابِ المحبَّةِ راحاً ، يميلُ بأَعطافهِ مَيلاً ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ .

أَصلَحَ بتدبيرهِ طباعَ المرضىٰ ، وجَعَلَ طاعتَهُ على الخلْقِ فرْضاً ، وضمنَ أَنْ يُعطيَهُ حتَّىٰ يرضىٰ ، كيلا يحصرَ ما يعطىٰ وزناً وكَيْلاً ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ .

سبحانَ مَنْ شرَّفَنا بهـٰذا الرَّسول ، ورزقَنا موافقةَ المنقول ، فنحنُ أَهلُ السُّنَّةِ لا أَهلُ الفضول ، لا نزالُ على الصِّراطِ ولا نزول ، ما نعرفُ ميلاً ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ .

فخرُ نبيِّنا أَجلُّ وأَعلىٰ ، ومناقبُهُ مِنَ الشَّمسِ أَجلىٰ ، وذِكرهُ في قلوبِنا ـ واللهِ ـ أَحلىٰ عندَ قيسٍ مِنْ ليلىٰ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ .

اللَّهُم ؛ وفِّقنا لمتابعةِ نبيِّكَ الكريم ، وارزقنا الاستمساكَ بسُنَّتهِ ودِينهِ القويم ، واحشرنا في زُمرتهِ وآمِنَّا مِنَ الهولِ العظيم .

اللَّهُم ؛ وأَيقظْ قلوبَنا مِنْ رقداتِ الآمال ، وذكِّرنا قُربَ الرَّحيلِ ودنوَّ الآجال ، وصبِّرْنا علىٰ أَقومِ الأُمورِ وأَشرفِ الخصال ، في غدواتِنا وفي الآصال .

اللَّهُم ؛ اشفِ بلطفِكَ مرضانا ، وارحمْ بفضلِكَ موتانا ، واسترْ علينا عيوبَنا ، واغفرْ لَنا ذنوبَنا . ربَّنا لا تُزغْ قلوبَنا بعدَ إِذ هديتَنا ، وهَبْ لَنا مِنْ لدنكَ رحمةً إِنَّكَ أَنتَ الوهّاب .

ربَّنا اغفرْ لَنا ذنوبَنا وإِسرافَنا في أَمرِنا ، وثبِّتْ أَقدامَنا وانصرنا على القومِ الكافرين . وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِ الأَنبياءِ والمرسَلينَ مُحمَّدٍ وآلهِ وصحبهِ أَجمعين ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين .

تتمَّة : ولنذكرْ مجلساً مسجعاً ملحقاً بهـٰذا المجلسِ لمَنْ يريدُ قراءةَ المعراجِ علىٰ وجهِ الاختصار ، منقولاً مِنْ كتابِ « تحفةِ الإِخوان » لشهابِ الدّينِ أَحمدَ بنِ حجازيّ عليهِ رحمةُ الرَّحمـٰنِ وهو :

الحمدُ للهِ الَّذي أَشرقَتْ بنورهِ الحُجُبُ والأَستار ، ومِنْ عندهِ جَرَتِ الأَقدار ، وكلُّ شيءٍ عِنْدَهُ بمقدار . وأَشهدُ أَنْ لا إِلـٰهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَه ، إِلـٰهٌ تقدَّسَ وتعالىٰ عمّا يقولُ الكفَّار . وأَشهدُ أَنَّ مُحمَّداً عبدُهُ ورسولُه ، السَّيِّدُ الفائقُ والأَمينُ الصَّادق ، والحبيبُ الموافق ، والمنقِذُ بشفاعتهِ أُمَّتَهُ مِنَ النَّار ، صلَّى اللهُ وسلَّمَ عليهِ أَفضلَ الصَّلواتِ وأَزكى السَّلام ، وساقَ إِليهِ أَطيبَ التَّحيَّاتِ وأَنماه ، وجزاهُ اللهُ عنَّا أَفضلَ الجزاءِ وأَرضاه ، وآتاهُ الوسيلةَ في دارِ القرار . ورضيَ عنه وعن آلهِ السَّادةِ النُّجباء ، وأَصحابهِ القادةِ الكرماء ، وتابعيهِم وسائرِ العلماء ، ما انفجرَ صبحٌ ونار ، وطلعَ قمرٌ واستنار .

وبعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في كتابهِ المنير : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

أَخبرَ اللهُ تعالىٰ بما أَكرمَ نبيَّنا مُحمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ مِنَ الإِسراءِ بهِ ليلاً مِنَ المسجدِ الحرام إِلى المسجدِ الأَقصى المقدَّسِ الأَسنىٰ ، ثمَّ عرجَ بهِ إِلى السَّماوات ؛ ليُريَهُ مِنَ الآيات . وقد صرَّحَ اللهُ تعالىٰ بذلكَ وأَثنىٰ بقوله : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ إِلىٰ قوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ .

وكانَ المسرىٰ برسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ مِن حِجر مكَّة المعظَّمِ ليلاً ، في اليقظةِ لا في المنام ، بجسدهِ الشَّريفِ على الصَّحيحِ بينَ العلماءِ الأَعلام . وللهِ[1] تعالىٰ درُّ الفاروقيِّ حيثُ يقول :

مِـنَ الْغَـرَائِـبِ مَـوْلاَهُ بَـرَاهُ لَنَـا شَمْساً وَأَسْرَىٰ بِهِ فِي حِنْدِسِ الظُّلَمِ

وعمرهُ إِذْ ذاكَ إِحدىٰ وخمسونَ سنة ، وثمانيةُ أَشهر ، وثلاثةَ عشرَ يوماً حسنة ، قَبْلَ الهجرةِ بسَنة ، ليلةَ سبعَ عشرةَ مِنْ ربيعِ الأَوَّل . وقيل : ليلةَ سبعٍ وعشرينَ مِنْ رجب . وعلى الأَوَّلِ المعوَّل .

وقد روىٰ هـٰذهِ القصَّةَ طائفةٌ كثيرةٌ مِنَ الصَّحابةِ الأَكرمين ، مِنْ روايةِ جماعةٍ كثيرةٍ مِنَ التَّابعين ، مِنْ طرقٍ جيِّدةٍ حسنةٍ ووجوهٍ يشقُّ حصرُها على الأَلسنة ، جَمعتُ غالبَها وسُقْتُهُ في هـٰذا المجلسِ وجعلتُهُ كاللُّبَاب ؛ لأَنَّ فيهِ مِنْ أَمرِ اللهِ تعالىٰ وقدرتهِ وسُلطانهِ وعجائبِ مخلوقاتهِ عبرةً لأُولي الأَلباب .

فكانَ فيما بَلَغَنا عن مسرىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ منَ الخبرِ : أَنَّهُ بينما هوَ نائمٌ في الحِجْرِ إِذْ جاءَهُ ثلاثةُ نفرٍ مِنَ الملائكةِ الكرام ، وفيهم جبريلُ عليهِ السَّلام ، فلَم يُكلِّموهُ حتَّى احتملوه ، وعندَ بئرِ زمزمَ وضعوه ، فتولاَّهُ منهُم جبريلُ فشقَّ صدرَهُ الجليل وغسَّلَهُ مِنْ ماءِ زمزمَ بيدهِ حتَّىٰ أَنقاه ، وأَتىٰ بطشتٍ مِنْ ذهبٍ محشوٍّ إِيماناً وحِكمةً فطيَّبَ بهِ صدرَهُ وحشاه ، وشرحَ صدرَهُ هـٰذهِ المرَّةَ لِلقاءِ الرَّحمـٰن ، وتلكَ المرَّة ـ الَّتي عندَ حليمة ـ لإِزالةِ حظِّ الشَّيطان . ثمَّ قدَّمَ جبريلُ البراقَ مُسرَجاً ملجماً بينَ يديه ، وهوَ دابَّةٌ أَبيضُ بينَ البغلِ والحمار ، في فخذيهِ جناحانِ يحفزُ بهما رجليه ، يضعُ حافرَهُ عندَ أَقصىٰ طرفهِ ومنتهاه ، وهوَ مركبُ الأَنبياءِ قَبْلَ نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ ومسراه . فذهبَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ لِيركبَهُ فاستصعبَ عليهِ وتشدَّد ، فأَمسكَ جبريلُ بأَياديه ، وقال : أَلا تستحي يا براق ؟ فواللهِ ما ركبكَ أَحدٌ فيما تقدَّمَ أَكرمُ على اللهِ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم . فتصبَّبَ البراقُ عرقاً ثمَّ قرَّ لَهُ حتَّىٰ صارَ راكبَه ، فسارَ

---

(١) قوله (ولله . . إلىٰ آخرِ البيتِ) هـٰذا ملحَقٌ بالأَصلِ وليسَ فيهِ . اهـ منه .

ومعَهُ جبريلُ لا يفارقُ أَحدُهُما صاحبَه ، حتَّىٰ بلغا أَرضاً ذاتَ نخل ، فقالَ جبريل : إنزلْ فَصَلِّ أَيُّها الخليل . ففَعل ، فقال : إِعلَمْ أَنَّ هٰذهِ لَطَيْبَة الَّتي وقفتَ عليها وتكونُ هجرتُكَ إِليها .

ثمَّ سارَ قليلاً معَ الأَمان ، فقالَ لَهُ جبريل : إنزلْ فصَلِّ بهٰذا المكان . ففَعلَ ما أَمرَهُ مِنْ ذلك ، فقال : إِنَّكَ صلَّيتَ بطور سيناء حيثُ كلَّمَ اللهُ تعالىٰ موسىٰ هنالك .

ثمَّ سارا يَعلوهُما نور ، حتَّىٰ بلغَ أَرضاً ذاتَ قصور ، فقالَ لَهُ جبريل : اِنزلْ فَصلِّ بهٰذهِ البقعةِ الشَّريفة . ففعل ، فأَخبرَهُ أَنَّها بيتُ لحم حيثُ ولدَ عيسى ابنُ مريمَ العفيفة .

ثمَّ سارا إِلىٰ أَنْ دخلا بيتَ المقْدسِ مِنَ البابِ اليماني ، وحصلَ بذلكَ الشَّرفُ والعزُّ والتَّهاني ، ونزلَ عنِ البراقِ سيِّدُ الأَنام ، وربطَهُ بالحلقةِ الَّتي يربطُ بها الأَنبياءُ عليهِمُ السَّلام ، ثمَّ دخلا المسجدَ مِنْ بابٍ يميلُ نور القمرين ، فصَلىٰ نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ حيثُ شاءَ اللهُ في المسجدِ ركعتين ، ثمَّ وجدَ إِبراهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ وداوودَ وسليمانَ في نفرٍ مِنَ الأَنبياءِ قد جُمعوا لَهُ في ذلكَ المكان ، فصلَّىٰ بهِم إِماماً لديهِم ؛ ليكملَ لَهُ الشَّرفُ عليهِم . ثمَّ إِنَّ كلاً منهُم أَثنىٰ علىٰ ربِّهِ الجليلِ بما خصَّهُ مِنَ الثَّناءِ الجميل ، فلَّما سمعَ نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ ما أَثنىٰ كلٌّ مِنْ صحبه . . أَثنىٰ بثناءٍ عظيمٍ علىٰ ربِّه ، فقال : « الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَرْسَلَنِي رَحمَةً لِلْعَالَمِين ، وَكَافَّةً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الْفُرْقَانَ فِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيء ، وَجَعَلَ أُمَّتِي خير أمةٍ أخرجت للناس ، وجعل أمتي وسطاً ، وجعل أمتي هُمُ الأَوَّلُونَ وَهُمُ الآخِرُون ، وَشَرَحَ لِيَ صَدْرِي ، وَوَضَعَ عَنِّي وِزْرِي ، وَرَفَعَ لِي ذِكْرِي وجعلني فَاتِحاً خَاتماً » . فلمّا فرغَ مِنَ الثَّناءِ المحمود . . قالَ إِبراهيمُ للأَنبياءِ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلاَم : بهٰذَا فضلَكُم مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم .

ثمَّ أُتيَ بثلاثةِ أَوانٍ قريبة : لبنٍ وماءٍ وخمر ، عجيبة . وقد ثبتَ مِنْ طُرقٍ واتَّصلَ أَنَّهُ عُرِضَ عليهِ إِناءٌ مِنْ عسل ، فأَخذَ اللَّبنَ وشَرِبَه ، وتركَ الماءَ والمدام ، فقالَ لَهُ جبريل : أَصبتَ الفطرةَ أَنتَ وأُمَّتُكَ الكرام .

ثمَّ توجَّها نحوَ صخرةِ بيتِ المقْدسِ ويمَّماها ، فصعدا مِنْ جهةِ المشرقِ أَعلاها ، فاضطربتْ تحتَ قدمِ نبيِّنا ولانت ، فأَمسكَتْها الملائكةُ لمّا تحرَّكَتْ ومالَت . ثمَّ أتي بالمعراجِ الفائقِ فنُصبَ بينَ يديه ، وهوَ الَّذي يمدُّ المحتضرُ إِليهِ عينيه ، فأَصعدَهُ جبريلُ عليهِ وعَرجا فيهِ إِلى السَّماءِ الدُّنيا ، فضربَ جبريلُ باباً مِنْ أَبوابِها العُليا ، عليهِ الملائكةُ صافِّينَ يحفظونَهُ بأَمرِ الملكِ المُعِين ، فقالَ لَهُ الموكلون : مَنْ ذا ؟ فقال : جبريل .

قالوا : ومَنْ معكَ مِنَ الأَنام ؟ قال : مُحَمَّدٌ عليهِ أَفضلُ الصَّلاةُ والسَّلام .

قال : أَوَ قَدْ بَعثَ إِليهِ العليُّ الأَعلىٰ ؟ قال : نعَم .

قالوا : مرحباً بهِ وأَهلاً .

فاستبشرَ أَهلُ السَّماءِ بقدومهِ المباركِ الميمون ، وتلقَّتْهُ الملائكةُ حينَ دخلَ ضاحكينَ مُستبشِرين ، يقولونَ لَهُ خيراً ويدعون . ولقيَهُ مَلَكٌ عابس ، فقالَ خيراً ودعا ، فقالَ جبريل : يا مُحَمَّد ؛ هـٰذا مالكُ خازنُ النَّارِ أَتىٰ إِليكَ وسعىٰ ، ولَم يُرَ ضاحكاً مِنْ حين خَلَقَهُ الجبّار .

فقال : مُره فليُريني النَّار .

فقال : يا مالك ؛ أَرِ مُحَمَّداً النّار . فكشفَ عنها غطاءَها ففارَتْ وخَرجت ، وكادتْ أَنْ تأْخذَ ما رأَتْ حينَ ارتفعَت ، فأَمرهُ جبريلُ بِردِّها ، فقالَ لَها مالك : اِخسئي ، فرَجَعَت .

ثمَّ رأَىٰ رجلاً جالساً يرىٰ أَسودةً[1] عن يمينهِ فيضحكُ ويستبشر ، ثمَّ يلتفتُ عن شمالهِ فيَبكي ويَعتبر ، فقالَ جبريل : هـٰذا أَبوكَ آدم ، فسلِّمْ عليه . فالتفتَ آدمُ إِليهِ وخاطبَهُ بخطابِ الوالدِ النَّاصح ، وقال : مرحباً وأَهلاً بالولدِ الصَّالحِ والنَّبيِّ النَّاصح . فسأَلَ جبريلَ عنِ الأَسودةِ الَّتي رآها المختار ، فقال : هيَ نسم بنيهِ المؤمنينَ والكفَّار ، فأَهلُ اليمينِ أَهلُ الجنَّةِ ذاتِ القرار ، وأَهلُ الشِّمالِ أَهلُ النَّار .

ثمَّ رأَىٰ رجالاً لَهم مشافرُ عظيمة ، في أَيديهِم قطعٌ مِنْ نارٍ جسيمة ، يقذفونَها في

---

(١) العدد الكثير من الناس وعامتهم . اهـ منه .

أَفواهِهِم فتخرجُ مِنْ أَدبارِهم ، فسأَلَ جبريلَ عنهُم ليزدادَ عِلماً ، فقال : هـٰؤلاءِ أَكلَةُ أَموالِ اليتامىٰ ظُلماً .

ثمَّ أَبصرَ ناساً يُعرَضونَ على النَّار ، لكلِّ واحدٍ منهُم بطنٌ كبيرٌ عظيمٌ يمرُّ عليهِم كالإبلِ الهيم ، كلَّما مَرُّوا هنالك . . لا يتحوَّلونَ عن مكانهِم ذلك ، فقالَ جبريل : هـٰؤلاءِ أَكَلةُ الرِّبَا الهوالك .

ثمَّ نظرَ إِلىٰ رجالٍ بينَ أَيديهِم لَحمٌ طيِّبٌ سمين ، وبجانبهِم لحمٌ مُنتنٌ مهين ، مِنَ الغثِّ المنتنِ يأْكلون ، وللسَّمينِ الطَّيبِ تاركون ، فقالَ جبريل : يا مُحَمَّد ؛ هـٰؤلاءِ تاركوا ما أَحلَّ اللهُ لَهُم مِنَ النِّساءِ الطَّيِّبات ، ومُرتكِبوا الحرام مِنَ النِّساءِ الخبيثات .

ثمَّ رأَىٰ نساءً معلَّقاتٍ بأَبزازهنَّ[1] ، فسأَلَ جبريلَ عن أَحوالِهن ، فقال : هُنَّ اللاَّتِي أدخلنَ علىٰ أَزواجهنَّ بالفسادِ ماليسَ لَهم بأَولاد .

ثمَّ مضىٰ جبريلُ بمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم ، فرأَىٰ نهراً عليهِ قصرٌ مِنْ لؤلؤٍ وزبرجد ، فضربَ بيدهِ إِلىٰ ترابهِ فشمَّهُ فإِذا هوَ مِسكٌ أَذفر ، فقالَ لَهُ جبريل : هـٰذا ما خبأَ لكَ ربُّك ، هـٰذا الكوثر .

ثمَّ صعدَ بهِ إِلى السَّماءِ الثَّانية ، ولَم يَزَلْ يَعرجُ بهِ مِنْ سماءٍ إِلىٰ سماءٍ حتَّى انتهىٰ إِلى السَّماءِ السَّابعةِ ذاتِ العجائبِ الرَّائعة ، والملكوتِ الباهرِ والآياتِ البديعة ، فرأَى الأَنبياءَ في السَّمواتِ علىٰ قدرِ منازِلِهمُ الرَّفيعة : فآدمُ في الأُولىٰ ـ كما تقدَّم ـ وفي الثَّانيةِ يحيىٰ وعيسىٰ بنُ مريم ، وفي الثَّالثةِ يوسفُ الصِّدِّيق ، وفي الرَّابعةِ إِدريسُ الرَّفيق ، وفي الخامسةِ هارون الكريم ، وفي السَّادسةِ موسى الكليم ، وفي السَّابعةِ إِبراهيمُ الخليلُ ذو الشَّيبةِ والنُّور ، جالسٌ علىٰ كرسيٍّ مِنْ نور ، متوجِّهاً للبيتِ المعمور ، فرحَّبَ بهِ واستبشرَ بقدومهِ العظيم ، وسلَّمَ علينا علىٰ لسانِ نبيِّنا الكريم ، فعليهِما أَنمى الصَّلاة وأَزكى التَّسليم .

ثمَّ دخلَ بهِ جبريلُ جنَّةَ المأْوىٰ ، وسَقْفُها عرشُ الرَّحمـٰن ، فرأَىٰ فيها قبابَ اللُّؤْلؤِ

---

(١) الظاهر : بفروجهن . اهـ منه . والأبزاز : الثُّدِي .

والياقوتِ والمرجان ، ترابهُا المسكُ الأذفر ، ونقارُها الدُّرُّ والجوهر .

ثمَّ عرجَ بهِ جبريلُ مِنْ ذلكَ المقامِ إلىٰ مستو سمعَ فيهِ صريفَ الأقلام ، ثمَّ أَتىٰ بهِ سدرةَ المنتهىٰ في الحال ، وإذا ورقُها كآذانِ الفِيلَةِ ونبقُها كالقلال ، في أَصلِها نهرانِ ظاهرانِ ونهرانِ باطنان ، فقالَ جبريل : أَمّا الباطنان . . ففي الجنَّةِ دارِ المسرّات ، وأَمّا الظّاهران . . فالنِّيلُ والفرات . ثمَّ غشيها مِنَ اللهِ تعالىٰ ما غشيها فتغيَّرت ، فما أَحدٌ مِنَ الخلْقِ يستطيعُ ينْعَتها مِنْ حُسنِ ما تزيَّنَت . ثمَّ تأَخَّرَ عنهُ جبريلُ وتقدَّمَ الحبيبُ الخليل ، فناداهُ الرَّبُّ الجليل ، فقال : لبَّيكَ وسعديك ، والخيرُ في يديك . فأمرَهُ بسؤاله ؛ ليفيضَ عليهِ مِنْ جزيلِ نواله ، فقال : يا رب ؛ إِنَّكَ اتَّخذتَ إِبراهيمَ خليلاً وموسىٰ كليماً ، وأَلَنْتَ لداوودَ الحديد ، وسخَّرتَ لهُ الجبالَ وأَعطيتَهُ فضلاً عظيماً ، وأَعطيتَ سليمانَ مُلكاً عظيماً لا ينبغي لأحدٍ مِنَ العالَمين ، وسخَّرتَ لَهُ الرِّيحَ والجنَّ والإِنسَ والشَّياطين ، وعلَّمتَ عيسى التَّوراةَ والإنجيلَ الكريم ، وجَعَلْتَهُ يُبرىءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ والسَّقيم ، وأَعذتَهُ وأُمَّهُ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيم . . وجَعلَ يَذكرُ لَهُ معجزاتِ الأَنبياءِ الأَخيار ، فخاطبَهُ الملكُ الجبّار ، طمأْنينةً لِقَلْبهِ وتطييباً : يا مُحمَّد ؛ قدِ اتَّخذتُكَ حبيباً ، وأَرسلتُكَ كافَّةً إلى النَّاسِ أَجمعين . وجعلتُكَ أَنتَ وأُمَّتَكَ الآخرينَ السَّابقين ، فلا تجوزُ لَهُم خطبةٌ في مقامٍ حتَّىٰ يَشهدوا أَنَّكَ عبدي ورسولي إلى الأَنام ، وجعلتُكَ أَوَّلَ النَّبيِّينَ خَلْقاً وآخِرَهُم بَعْثاً ؛ لِتُذهبَ عنِ القلوبِ المريضةِ ظُلماً ووعثاً . واخترتُكَ هادياً مهديّاً ، وآتيتُكَ سَبعاً مِنَ المثاني لَمْ أُعْطِهَا قَبْلَكَ نَبيّاً ، وأَعطيتُكَ خواتيمَ سورةِ البقرةِ الجليلةِ المفتخَرة ، مِنْ كنزٍ تحتَ عرشي ، عطاءً دائِماً ، وجعلتُكَ فاتحاً خاتماً .

وأَباحَهُ الجبَّارُ عزَّ وجلَّ النَّظرَ إليه ، وأَجزلَ نِعَمَهُ وفَضلهُ لديه ، وفَرضَ في كلِّ يومٍ وليلةٍ خمسينَ صلاةً عليه ، فَرَجَعَ وعليهِ خلعُ القربِ والرِّضوان ، مغموراً بمواهبِ الرَّحمـٰن ، إلىٰ أَنْ هبطَ بهِ جبريلُ الكريمُ حتَّىٰ بلغَ موسى الكليم ، فقالَ موسىٰ : يا مُحمَّد ؛ ماذا فرضَ ربُّكَ علىٰ أُمَّتِكَ مِنَ العبادات ؟ فقال : « فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسِينَ مِنَ الصَّلَوَات » فقال : يا مُحمَّد ؛ إِنِّي خَبرتُ النَّاسَ قَبْلَك ، وعالجتُ بني إِسرائيلَ أَشدَّ المعالجةِ علىٰ أَقلَّ مِنْ هـٰذا ، وإِنَّ أُمَّتَكَ لا تستطيعُ هـٰذا العملَ الكثير ،

فارجعْ فليُخفِّفْ عنكَ اللطيفُ الخبير . فالتفت إِلىٰ جبريلَ كأَنَّهُ مستشيرٌ هنالك ، فقالَ لهُ جبريل : نَعَمْ إِنْ شئْتَ ذلك . فعلا بهِ إِلى الجبَّارِ جلَّ وعز ، ودنا فقال : « يَا رَبِّ ؛ خَفِّفْ عَنّا مِمَّا بِهِ أَمَرْتَنَا » فوضعَ عنهُ عشرَ صلواتٍ مِنَ الخمسين . فرجعَ بهِ جبريلُ الأَمينُ حتَّىٰ بلغَ بهِ موسىٰ ، فسأَلَه : بما أُمر ؟ فقال : بأَربعين . فردَّهُ موسىٰ إِلىٰ كاشفِ الضُّرِّ والأَزمة ، فسأَلَهُ التَّخفيفَ لهـٰذهِ الأُمَّةِ شفقةً منهُ علينا ورحمة ، وتلذُّذاً بكلامِ مَنْ سمعَ خطابَ الرَّحمـٰن ، وفازَ بالرُّؤْيةِ العظيمةِ الشَّان ، ولَم يَزَلْ يردّهُ حتَّىٰ صارَت الصَّلواتُ خمساً ، فرجعَ إِلىٰ موسىٰ وقد وجدَ بهِ أُنساً ، فأَخبرَهُ بما فرضَ عليهِ ، وأُوحيَ في هـٰذهِ الأَسرارِ إِليه ، فقال : يا مُحَمَّد ؛ قد ـ والله ـ عالجتُ بني إِسرائيلَ وراودتُهم علىٰ أَدنىٰ مِنْ هـٰذا العملِ القليلِ فلَم يَقبلوه ، وضَعفوا عنهُ وتركوه ، وإِنَّ أُمَّتَكَ أَضعفُ أَجساداً وأَسماعاً وأبصاراً ، وأَقلُّ الأُممِ أَعماراً ، فارْجعْ إِلىٰ ربِّكَ الجليلِ ليأْمركَ بعملٍ قليل ـ وهوَ في كلِّ ذلكَ يلتفتُ إِلىٰ جبريلَ لِيستشيره ، ولا يكرهُ ذلكَ جبريلُ ليتمَّ سروره ، فرفعَهُ عندَ ذلكَ إِلى الجبّار ـ فقال : « يَا رَب ؛ خَفّفْ عَنْ أُمَّتِي ؛ فَإِنَّهُم ضُعَفَاءُ الأَبْدَانِ قِصَارُ الأَعْمَار » فقال : يا مُحَمَّد ؛ قال : لبَّيكَ وسعديك ، تلذُّذاً بالخطاب . قال : إِنَّهُ لا يُبَدَّلُ القولُ لديَّ كما فرضتُهُ عليكَ في أُمِّ الكتاب ، فالخمسةُ بعشرِ أَمثالها مضاعفةً مأْثورة ، وهيَ خمسونَ في أُمِّ الكتابِ وخمسٌ عليكَ مسطورة ، ومَنْ همَّ بحسنةٍ فلَم يُمضِ لَها أَمراً . كُتِبَتْ حسنة ، فإِنْ عملَها . . كُتبتْ لَهُ عشراً ، ومَنْ همَّ بسيئةٍ فلَم يَعْمَلها . . لَم تُكتَب عليه ، فإِنْ عملها . . صارتْ واحدةً لديه . فرجعَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ حتَّىٰ أَتىٰ موسىٰ عليهِ السّلامُ فأَخبرهُ بما أَمرهُ الملكُ العلاَّم ، فقالَ موسىٰ : قد ـ والله ـ راودتُ قومي علىٰ أَدنىٰ مِنْ ذلكَ فلَم يَبلغوا تلكَ المسالك ، فارجعْ إِلىٰ ربِّكَ واسأَلهُ التَّخفيفَ للأُمَّةِ وزيادةَ النِّعمة . فقال : « يَا مُوسَىٰ ؛ قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِمَّا أَخْتَلِفُ إِلَى اللهِ تَعَالَىٰ » قال : اهبطْ باسمِ الله .

فهبطَ بهِ جبريلُ عليهِما الصَّلاةُ والسَّلام ، فأَصبحَ وهوَ في المسجدِ الحرام ، فلمّا صلَّىٰ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ الفجر . قالَ لأُمِّ هانيء : « لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَكُمُ الْعِشَاءَ الآخِرَةَ ثُمَّ جِئْتُ بَيْتَ الْمَقْدِس ، فَصَلَّيْتُ فِي بُقْعَتِهِ الْفَاخِرَة ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَكُمُ الصُّبْحَ الْيَوْم ،

وَلأُحَدِّثَنَّ بِهِ الْقَوْم ، وَلاَ أَخْشَىٰ مِنْ عَتبِ وَلاَ لَوْم » فقالت : يا نبيَّ الله ؛ لا تُحدِّثْهم بذلكَ فيُكذِّبوك ، ولا تذكرهُ لَهم فيؤذوك . فذكرَهُ لقريشٍ فأَنكرتْهُ وكذَّبتْهُ وجحدتْه ، وارتدَّتْ طائفةٌ ممَّن أَسلم ، ونسبوهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ إلى الكذبِ واللَّمم ، وافتُتِنَ ناسٌ ، فأَنزلَ اللهُ تعالىٰ فيهم : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ .

وذهبَ النَّاسُ لأَبي بكرٍ وأَخبروهُ الخبر ، فقال : إنْ كانَ قالَه . . فقد صدقَ فيما ذكر ، وما يُعجبُكُم ممَّا سمعتُم مِنْ صَلاتهِ هنالك ، فواللهِ إنَّهُ ليُخبرني الخبرَ يأْتيهِ مِنَ السَّماءِ إلى الأَرضِ في ساعةٍ وأُصدِّقهُ في ذلك . ثمَّ أَتى النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ واستخبرَه عمّا تفوَّهَ بهِ وتكلَّم ، وقال : صِفْ لي بيتَ المقدس ؛ فإنِّي مشتاقٌ لرؤيةِ ذلكَ الحرمِ وقد زرتهُ ورأَيتُه . فكشفَ اللهُ لَهُ عن بيتِ المقْدسِ وجلاَّهُ لديه ، فطفقَ يُخبرهُم عن آياتهِ وهوَ ينظرُ إليه ، كلَّما وصفَ شيئاً ممّا رآهُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم . . يقولُ لَهُ أَبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : صدقتَ! أَنا أَشهدُ أَنَّكَ رسولُ الله ، لقد صدقَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ فيما ذكرَهُ وأَبداه . فلمّا انتهىٰ في الوصفِ على التَّحقيق . . قالَ لَه : لقد أَجبتَ وأَصبت . فقالَ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « وَأَنْتَ مُوَفَّقٌ يَا أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيق » .

ثمَّ أَخبرَ قريشاً بأَماراتٍ جليَّة ، تدلُّهم علىٰ تحقيقِ هٰذهِ القضيَّة ؛ أَنَّهُ مرَّ بِعِيرِ قومٍ بينما هُم في الخبرِ بوادٍ وصفَهُ لَهم فيما ذكر ، فأَنفرهُم حِسُّ الدَّابَّةِ فندَّ لَهم بعيرٌ لديه ، فطلبوهُ فدلَّهم عليهِ وهوَ ذاهبٌ إلى الشَّام فلمَّا رجعَ عَلَيْهِ أفضل الصَّلاَةِ والسَّلاَم . . مرَّ بِعِيرِ بني فلانٍ وهوَ سائرٌ بضجنان[1] ، فوجدَ القومَ نياماً بذلكَ المكانِ ، ولَهم إناءٌ فيهِ ماءٌ ، فشربَهُ ثمَّ غطّاهُ كما كان .

وزادَ قريشاً مِنَ الدِّلالاتِ والتَّفهيم : أَنَّ تلكَ العير تصوّبُ عليهِم مِنَ البيضاءِ ثنية التَّنعيم ، يقدمها جملٌ أَورقُ عليهِ مسحٌ أَسودُ كأَنَّهُ رداء ، وعليهِ غرارتان : برقاءُ وسوداء . فلمَّا سمعَ القومُ كلامَ سيِّدِ الأَصفياء . . سأَلوهُ عنِ العير : متىٰ تجيء ؟ فقال : يومَ الأَربعاء . فلمّا كانَ ذلكَ اليوم . . أَشرفَ القوم ـ يعني قريشا ـ ينظرونَ العيرَ

(١) ضجنان كسكران : جبل قرب مكة وجبل آخر . اهـ منه .

هل تجيءُ كما قالَ البشيرُ النّذير ؟ فلَم تَجىء ، حتَّىٰ كادَ اليومُ يدخلُ في أَمسٍ فدعا نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ فزِيدَ لَهُ في النَّهارِ ساعةً وحُبستْ لَهُ الشَّمس ، فأَقبلَتِ العيرُ مِنَ الثَّنيَّة ، يقدمُها ذلكَ الجملُ المعلَّمُ كما وصفَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم ، وسأَلوهُم عنِ الإناءِ فأَخبروهُم أَنَّهُم ملؤُوهُ ماءً وخمَّروه[1] ، فلم يَجدوا فيهِ ماءً حينَ كشفوه . وسأَلوا الآخرينَ عن خبرِ البعيرِ الَّذي ندَّ لَهم ووجدوهُ بعدَ أَنْ نفر ، فقالوا : صدق ـ واللهِ ـ في الخبر ، لقد أنفرنا في الوادي الَّذي ذكَر ، وفُقدَ لَنا بَعِيرٌ وطلبناه ، فسمعنا صوتَ مُحَمَّدٍ يدعونا إِليهِ حتَّىٰ أَخذناه .

فصدَّقَ بهـٰذهِ القصَّةِ أَهلُ الطَّاعةِ والإِيمان ، وجحدَها أَهلُ النِّفاقِ والعصيانِ بعدَ أَنْ قامتِ الدَّلالاتُ القاطعةُ للجدال . ولقد أَحسنَ مَنْ قال :

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الأَذْهَانِ شَيءٌ ... إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَىٰ دَلِيلِ

فكيَف تُنكرُ هـٰذهِ القصةُ الباهرة ، ودلالاتُها بيِّنةٌ ظاهرة ، وقد ذكرَها الرَّحمـٰنُ في مُحْكَمِ القرآن ؟

ولقد أَحسنَ القائِل :

سَادَ الأَنَامَ مُحَمَّدٌ خَيْرُ الْوَرَىٰ ... بِفَضَائِلٍ جَلَّتْ عَنِ الإِحْصَاءِ
وَجَوَامِعِ الْكَلِمِ الَّتِي مَا نَالَهَا ... أَحَدٌ مِنَ الْفُصَحَاءِ وَالْبُلَغَاءِ
وَإِلَى الْخَلائِقِ كُلِّهِم إِرْسَالُهُ ... فَشَفَى الْقُلُوبَ الْجَمَّةَ الأَدْوَاءِ
وَلَهُ الْوَسِيلَةُ وَالشَّفَاعَةُ فِي غَدٍ ... وَمَقَامُهُ السَّامِي عَلَى الشُّفَعَاءِ
وَيَجِيءُ يَوْمَئِذٍ كَمَا قَدْ قَالَهُ ... أَنَا رَاكِبٌ وَالنَّاسُ تَحْتَ لِوَائِي
وَلَقَدْ دَنَا مِنْ رَبِّهِ لَمَّا دَنَا ... فِي لَيْلَةِ الْمِعْرَاجِ وَالإِسْرَاءِ
سَمِعَ الْخِطَابَ بِحَضْرَةٍ قُدْسِيَّةٍ ... مَا حَلَّهَا أَحَدٌ مِنَ الْعُظَمَاءِ
وَبِرُؤْيَةِ الْجَبَّارِ فَازَ ويَالَهَا ... مِنْ نِعْمَةٍ جَلَّتْ عَلَى النَّعْمَاءِ

---

(١) أي : غطوه . اهـ منه .

مَا نَالَ مُوسَىٰ وَالْخَلِيلُ وَمَا اجْتَبَىٰ مَـــا نِلْتَـــهُ يَـــا سَيِّـــدَ النُّجَبَـــاءِ
وَنَـرُومُ فَضْـلاً مِـنْ جَنَـابِـكَ سَيِّـدِي وَشَفَـــاعَـــةً يَـــا أَعْظَـــمَ الْعُظَمَـــاءِ
فَـإِلَيْـكَ سَـاقَ اللهُ سُحْـبَ صَـلاَتِـهِ وَجَـزَاكَ رَبُّ الْعَـرْشِ خَيْـرَ جَـزَاءِ
وَعَلَـىٰ صَحَـابَتِـكَ الـرِّضَـا مُتَعَـدِّداً وَالآلِ وَالأَتْبَـــاعِ وَالْعُلَمَـــاءِ

اللَّهُم ؛ صلِّ علىٰ سيِّدِنا مُحَمَّدٍ صلاةً تُنجينا بها مِنْ جميعِ الأَهوالِ والآفات ، وتقضي لَنا بها جميعَ الحاجات ، وتُطهِّرُنا بِها مِنْ جميعِ السَّيِّئات ، وترفعُنا بها أَعلَى الدَّرجات ، وتُبلِّغُنا بها أَقصى الغايات ، مِنْ جميعِ الخيرات ، فِي الحياةِ وبعدَ الممات ، وعلىٰ آلهِ وصحبهِ وزوجاتهِ أُمَّهاتِ المؤمنين ، وسَلِّمْ تسليماً . والحمدُ للهِ رَبِّ العالَمين .

* * *

المجلس التاسع والأربعون

في فضائل شعبان المعظم

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ القديمِ في الذَّاتِ والصِّفات ، الأَوّل المنزَّهِ عنِ الحدوثِ فلاَ يتغيَّرُ ولا يتحوَّل ، المنعمِ على العبادِ فكَم أَعطىٰ وأَجزل ، ومَنَّ فزادَ وأَكثرَ ونوّل ، وأَسدىٰ وأَغنىٰ وأَقنىٰ وموَّل ، ثمَّ عادَ وأعادَ وجادَ وتطوَّل ، وأَطمعَ ورجّا وخوَّفَ وهوَّل ، وأَعانَ على العدوِّ كلَّما زخرفَ وسوَّل ، فهوَ المرجوُّ لِلشَّدائِدِ وعلىٰ فضلهِ المعوّل ، يحكُمُ مَا يشاءُ ولا يُسئَلُ عَمّا يفعل .

أَحمدُهُ علىٰ لُطفه ؛ فإِنَّهُ حليمٌ لا يَعجل ، وأُقرُّ بوحدانيَّتِهِ إِقرارَ موقنٍ لا يجهَل . وأُصلِّي علىٰ رسولهِ المقدَّمِ على الأَنبياءِ المفضَّل ، وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ الَّذي عليهِ في صُحبةِ الغارِ عوّل ، وعلىٰ عمرَ المتورِّعِ فما ترخَّصَ ولا تأَوّل ، وعلىٰ عثمانَ المعطي جزيلاً فما قلَّل ، وعلىٰ عليِّ بنِ أَبي طالبِ الأَقربِ الأَعلَمِ الأَفضل ، وعلىٰ بقيَّةِ آلهِ وأَصحابهِ المرضيّينَ الكُمَّل ، وسلَّمْ تسليماً .

أَمّا بعد : فقد قالَ اللهُ في كتابهِ العزيزِ وكلامهِ البليغِ الوجيز : ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ : قالَ المفسرون : ﴿حمٓ﴾ فيهِ قولان :

أَحدُهُما : أَنَّهُ مِنَ المتشابهِ الَّذي استأْثرَ اللهُ بعِلمْه . وهوَ مذهبُ السَّلَفِ الصَّالح ، قالوا : هيَ سرُّ اللهِ في القرآن ، وللهِ في كلِّ كتابٍ مِنْ كتبهِ سِر . فهيَ وأَمثالُها

كـ : ﴿ألم﴾ و﴿طسم﴾ و﴿كهيعص﴾ مِنَ المتشابهِ الَّذي انفردَ اللهُ بِعِلْمِه ، ولا نحبُّ أَنْ نتكلَّمَ فيها ، ولٰكنْ نُؤْمِنُ بها ونُمِرُّها كما جاءَت . ورويَ هٰذا القولُ عن أَبي بكرٍ الصِّدِّيقِ وعليٍّ بنِ أَبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما وغيرِهما مِنْ أَكابرِ الصَّحابة .

ثانيهما : أَنَّ هٰذهِ الحروفَ معروفةُ المعنىٰ . وإِليهِ ذهبَ جمعٌ مِنَ العلماء ، واختلَفوا في ذلكَ علىٰ أَقوال :

فعنِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما : أَنَّ الحروفَ المقطَّعةَ مِنَ القرآنِ اسمُ اللهِ الأَعظم ، إِلاَّ أَنّا لا نعرفُ تأْليفَهُ مِنها .

وقالَ الفرّاءُ والمبرِّدُ وغيرُهُما : هيَ إِشارةٌ إِلىٰ حروفِ الهجاء ، أَعلمَ اللهُ تعالىٰ بها العربَ حينَ تحدَّاهُم بالقرآنِ أَنَّهُ مؤتَلِفٌ مِنَ الحروفِ الَّتي بُنِيَ كلامُهُم عليها ؛ ليكونَ عجزهُم عنهُ أَبلغَ في الحجَّةِ عليهِم ، إِذْ لَمْ يَخرجْ عن كلامهِم ، فقد كانوا يَنفرونَ عند استماع القرآن ، فلمَّا نزل ﴿الم﴾ ﴿المص﴾ . استنكروا هٰذا اللَّفظ ، فلمَّا أَنصتُوا لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَقبلَ عليهِم بالقرآنِ المؤتَلف ؛ ليثبتَهُ في أَسماعِهِم وآذانِهِم ويقيمَ الحجَّةَ عليهِم .

وقالَ بعضُهُم : هيَ حروفٌ دالَّةٌ علىٰ أَسماء أُخذتْ مِنها وحُذفَتْ بعينِها فـ(الأَلف) مِنَ اللهِ و(اللاَّم) مِنْ جبريلَ و(الميم) مِنْ مُحَمَّد . و﴿حم﴾ (الحاء) مِنْ حميدٍ و(الميم) مِنْ مجيد . وقيلَ غيرُ ذلكَ كما هوَ مفصَّلٌ بما لَهُ وعليهِ في التَّفاسيرِ المطوَّلة .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أَي : القرآن ﴿ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ هيَ ليلةُ القدْرِ كمارويَ عنِ ابنِ عبّاسٍ وقتادةَ وابنِ جبيرٍ ومجاهد ، وعليهِ أَكثرُ المفسِّرينَ كما ذكرناهُ أَيضاً في مجلسِ ليلةِ القدْر .

وقالَ عكرمةُ وجماعة : هي ليلةُ النِّصفِ مِنْ شعبان .

وتُسمَّىٰ ليلةَ الرَّحمة ، واللَّيلةَ المباركة ، وليلةَ الصَّكِّ وليلة البراءة . قالَ الوالدُ عليهِ الرَّحمةُ في تفسيرهِ « روحِ المعاني » : ووجهُ تسميتِها بالأَخيرين : أَنَّ البندارَ إِذا

استوفى الخَراجَ مِنْ أَهله . . كتبَ لَهُمُ البراءةَ والصَّك ، كذلكَ إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يكتبُ لعبادِهِ المؤْمنينَ البراءةَ والصَّكَّ في هٰذهِ اللَّيلة . ولفظَة البراءَةِ بهٰذا المعنىٰ عاميَّة ، ولم تُسمَعُ مِنَ العرب .

وقيل : أَصلُهُ أَنَّ الجانيَ كانَ إذا جنىٰ وعفا عنهُ الملكُ كتبَ لَهُ كتابَ أَمانٍ ممّا خافَه . . فكانَ يقال : كتبَ السُّلطانُ لفلانٍ براءة . ثمَّ عُمِّمَ ذلكَ فيما كُتِبَ مِنْ أُولي الأَمرِ وأَمثالِهم . انتهىٰ

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ أَي : يُفصَلُ ويُلخَّصُ ويُبيَّن .

و(الحكيمُ) بمعنى المحكَم ؛ لأَنَّهُ لا يُبَدَّلُ ولا يُغيَّرُ بعدَ إبرازِهِ للملائكةِ عليهمُ السَّلامُ بخلافهِ قَبْلَه . وهوَ في اللَّوحِ المحفوظ ، فإِنَّ اللهَ تعالىٰ يمحو منهُ ما يشاءُ ويُثبت . أَخرجَ ابنُ أَبي حاتمٍ عنِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قالَ في ذلك : يُكتبُ مِنْ أُمِّ الكتابِ في ليلةِ القدْرِ ما يكونُ في السَّنة : مِنْ رزق ، أَو موتٍ أَو حياة ، أَو مطر ، حتَّىٰ يكتبُ الحجَّاج : يحجُّ فلانٌ ويحجُّ فلان .

وأَخرجَ عبدُ بنُ حميدٍ عن ربيعةَ بنِ كلثوم ، قال : كنتُ عندَ الحسن ، فقالَ لَهُ رجل : يا أَبا سعيد ؛ ليلةُ القدْرِ في كلِّ رمضانَ هي ؟ قال : إِي واللهِ إِنَّها لفي كلِّ رمضان ، وإِنَّها لَليلةٌ يُفرَقُ فيها كلُّ أَمرٍ حكيم ، فيها يَقضي اللهُ تعالىٰ كلَّ أَجَلٍ وعملٍ ورزقٍ إِلىٰ مِثلها . ورويَ هٰذا التَّعميمُ عن غيرِ واحدٍ مِنَ السَّلَف .

وقيل : يُبْدأُ في استنساخِ كلِّ أَمرٍ حكيمٍ من اللَّوحِ المحفوظِ في ليلةِ البراءةِ ويقعُ الفراغُ في ليلةِ القدر ، فتُدفعُ نسخةُ الأَرزاقِ إِلىٰ ميكائيلَ عليهِ السَّلام ، ونسخةُ الحروبِ إِلىٰ جبريلَ عليهِ السَّلام ، وكذلكَ الزَّلازلُ والصَّواعقُ والخسف ، ونسخةُ الأَعمالِ إِلىٰ إِسماعيلَ عليهِ السَّلامُ صاحبِ سماءِ الدُّنيا ـ وهوَ ملكٌ عظيم ـ ونسخةُ المصائبِ إِلىٰ ملكِ الموت .

وقد ذكروا في ليلةِ النِّصفِ مِنْ شعبانَ أَخباراً كثيرة ، مِنها : ما أَخرجَهُ ابنُ ماجه عن عليٍّ كَرَّمَ الله وَجْهَهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « إِذَا كَانَ لَيْلَةُ النِّصْفِ

مِنْ شَعْبَان . . فَقُومُوا لَيْلَهَا وَصُومُوا نَهَارَهَا ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَنْزِلُ فِيهَا لِغُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى السَّماءِ الدُّنْيَا ، وَيَقُول : أَلاَ مُسْتَغْفِرٌ فَأَغْفِرَ لَه ، أَلاَ مُسْتَرزِقٌ فَأَرْزُقَه ، أَلاَ مُبْتَلَىً فَأُعَافِيَه ، أَلاَ كَذَا أَلاَ كَذَا حَتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْر » .

وأَخرجَ الإمامُ أَحمدُ أَنَّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « يَطَّلِعُ اللهُ إِلَىٰ خَلْقِهِ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَيَغْفِرُ لِعِبَادِهِ إِلاَّ اثْنَيْن : مُشَاحِنٌ ، وَقَاتِلُ نَفْس » .

وروى ابنُ الجوزيِّ في « التَّبصرة » عن عائشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : كانتْ ليلةُ النِّصفِ مِنْ شعبانَ ليلتي فباتَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ عندي ، فلمّا كانَ في جوفِ اللَّيل . . فقدتُه ، فأَخذني عليهِ ما يأْخذُ النّساءَ مِنَ الغيرة ، فتلفعتُ بمرطي ـ أَما والله ، ما كانَ مِرطي خزّاً ولا قزّاً ، ولا حريراً ولا ديباجاً . ولا قطناً ولا كتّاناً . فقيل : ممَّ كان ؟ قالت : سداهُ كانَ شعراً ، ولُحمتُهُ أَوبارَ الإبل ـ فطلبتُهُ في حجرِ نسائهِ فلَم أَجِدْه ، فانصرفتُ إلىٰ حُجرتي فإِذا بهِ كالثّوبِ السّاقطِ علىٰ وجهِ الأَرضِ ساجداً وهوَ يقولُ في سجوده : « سَجَدَ لَكَ سَوَادِي وَخَيَالِي ، وَآمَنَ بِكَ فُؤَادِي ، هَـٰذِهِ يَدِي وَمَا جَنَيْتُ بِهَا عَلَىٰ نَفْسِي . يَا عَظِيماً يُرْجَىٰ لِكُلِّ عَظِيم . . اغْفِرِ الذَّنْبَ الْعَظِيم ، أَقُولُ كَمَا قَالَ دَاوُودُ عَلَيْهِ السَّلاَم : أُعَفِّرُ وَجْهِيَ بِالتُّرابِ لِسَيِّدِي ، وَحُقَّ لَهُ أَنْ يَسْجُد . سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَه » ثمَّ رفعَ رأْسهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ فقال : « اللَّهُمَّ ؛ ارْزُقْنِي قَلْباً نَقِيّاً تقياً مِنَ الشِّرْكِ بَرِيّاً ، لاَ كَافِراً وَلاَ شَقِيّاً » ثمَّ سجد ، وقال : « أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِك ، وَأَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ مُعَاقَبَتِك ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِك » قالت : ثمَّ انصرفَ ودخلَ معي في الخميلةِ ولي نَفَسٌ عال ، فقال : « مَا هَـٰذَا النَّفَسُ يَا حُمَيْرَاء ؟ » قالت : فأخبرتُه ، فطفقَ يمسحُ بيدهِ علىٰ رُكْبَتَيَّ ويقول : « ويس هَاتَيْنِ الرُّكْبَتَيْنِ مَا لَقِيَتَا فِي هَـٰذِهِ اللَّيْلَة ، لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَان ؟ إِنَّ اللهَ يَنزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَغْفِرُ لِعِبَادِهِ إِلاَّ لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِن » .

وفي روايةٍ أُخرىٰ : أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قالَ لَها : « يَا حُمَيْرَاء ؛ أَمَا تَدْرِينَ مَا هَـٰذِهِ اللَّيْلَة ؟ هَـٰذِهِ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَان . إِنَّ للهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَـٰذِهِ اللَّيْلَةِ عُتَقَاءَ مِنَ النَّارِ بِعَدَدِ شَعْرِ غَنَمِ بَنِي كَلْب » قلت : يا نبيَّ الله ؛ وما بالُ غنم بني كلب ؟ قال :

« لَيْسَ فِي الْعَرَبِ قَوْمٌ أَكْثَرَ غَنَماً مِنْهُمْ . لا أَقُولُ فِيهِم سِتَّةُ [نفر] : مُدْمِنُ خَمْر ، وَلاَ عَاقٌّ وَالِدَيْه ، ولاَ مُصِرٌّ عَلَىٰ رِباً أَوْ زِناً ، وَلاَ مُصَارِم ، وَلاَ مُصَوِّر ، وَلاَ قَتَّات » .

وقد ذكرتُ لَكُم هـٰذا في غيرِ هـٰذا المجلس ، واللهُ تعالىٰ أعلم .

وفي « الدُّرِّ المختار » و« حاشيته » : ومِنَ المندوبِ إحياءُ ليلتي العيد ، والنِّصفِ مِنْ شعبان ، والعشرِ الأَخيرِ مِنْ رمضان ، وليالي العَشرِ الأُوَلِ مِنْ ذِي الحجَّةِ فُرادَىٰ ؛ لأَنَّهُم صَرَّحوا بكراهةِ الاجتماعِ علىٰ إِحياءِ ليلةٍ مِنْ هـٰذهِ اللَّيالِي في المساجدِ اهـ بتصرف .

قالَ في « البحر » : ومِنْ هنا يُعلَمُ كراهةُ الاجتماعِ علىٰ صلاةِ الرَّغائبِ الَّتي تُفعلُ في رجبَ في أَوَّلِ جمعةٍ منهُ وأَنَّها بدعة ، وما يحتالُهُ بعضُهُم مِنْ نذرِها لتخرجَ عنِ النَّفلِ والكراهة . . فباطل .

قالَ الوالدُ عليهِ الرَّحمة : وذكرَ بعضُهُم فيها صلاةً مخصوصة ، وإِنَّها تعدلُ عشرينَ حجَّةً مبرورةً وصيامَ عشرينَ سَنَةً مقبولة . وروىٰ في ذلك حديثاً طويلاً عن عليٍّ كرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ وقد أَخرجَهُ البيهقيّ . ثمَّ قال : يُشبهُ أَنْ يكونَ هـٰذا الحديثُ موضوعاً ، وهوَ منكَر ، ولهـٰذا أَعرضْنا عنه .

وليُعلَمْ أَنَّهُ يحصلُ قيامُ هـٰذهِ اللَّيالي بالصَّلاةِ نفلاً فرادىٰ ، مِنْ غيرِ عددٍ مخصوص ، وبقراءةِ القرآنِ والأَحاديثِ وسماعِها ، وبالتَّسبيح ، والثَّناء ، والصَّلاةِ والسَّلامِ على النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ الحاصلِ ذلكَ في معظمِ اللَّيل ، وقيل : بساعةٍ منه ، وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما بصلاةِ العشاءِ جماعةً والعزمِ علىٰ صلاةِ الصُّبحِ جماعة ، كما قالوهُ في إِحياءِ ليلتي العيدين .

وفي « صحيح مسلم » قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « منْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَة . . فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْل ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَة . . فَكَأَنَّمَا قَامَ اللَّيلَ كُلَّه » .

ولنذكرْ لَكُم ممّا يتعلَّقُ بشهرِ شعبان . . فإِنَّهُ شهرُ نبي الإِنسِ والجان .

قالَ في « عقدِ الدُّررِ واللآلي في فضلِ الشُّهورِ والأَيَّامِ واللَّيالي » : قالَ بعضُهُم : إِنَّما سمِّيَ شعبانَ ؛ لأَنَّهُ يتشعَّبُ فيهِ خيرٌ كثيرٌ لرمضان .

وقيل : لِتشعُّبِ القبائلِ المتفرِّقةِ فيه ؛ لأَنَّ العربَ كانت تفترقُ في رجبَ ولا تجتمعُ على الغاراتِ فيه ، ولذا سمِّيَ برجبَ الأَصم . فإِذا انسلخَ رجب . . اجتمعتْ وتشعَّبتْ كما كانتْ في غيره .

وقيل : مشتقٌّ مِنْ شُعَبِ الخيرات ، والإِيمانُ أَعظمُها ، وأَعظمُ شعبِ الإِيمان : اَلصَّلاةُ والصَّوم ، فينبغي لِلمؤْمِنِ أَنْ يجتهدَ فيهِ بالطَّاعاتِ ويُكثرَ الصِّيامَ والصَّلوات . ولقد أَحسنَ القائل :

مـن ذا يُشَعِّـبُ فـي شعبـان همتـه ... ويستقيـم علـى الطـاعـات إذعـانـا
فـإِنـه شهـرُ مَـن تُـرجـىٰ شفـاعتـه ... يـومَ القيـامـة فيمـن كـان خَـوَّانـا
سُمِّي لِمَـا فيـه مـن خيـر ومـن نِعَـمٍ ... تشعَّبـت بعـد صَـدْعٍ كـان شعبـانـا

وقد رويَ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ كانَ يقولُ إِذَا رأَىٰ هلالَ شعبان : « اللَّهُم ؛ بَارِكْ لَنَا فِي رَجَبَ وَشَعْبَان ، وَبَلِّغْنَا رَمَضَان » .

وفي « الغُنية » لِسيِّدي الكيلانيِّ ـ قُدِّسَ سِرُّه ـ : عن أَبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « رَجَبُ شهْرُ الله ، وَشَعْبَانُ شَهْرِي ، وَرَمَضَانُ شَهْرُ أُمَّتِي » .

وقد وردَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ كانَ يأْمرُ منادياً يقول : « شَعْبَانُ شَهْرِي ، فَرَحِمَ اللهُ مَنْ أَعَانَنِي عَلَىٰ شَهْرِي » يعني بالصَّومِ والصَّلاةِ والصَّدقة .

فينبغي للمسلمِ إِكثارُ الخيرِ فيه ؛ لأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ قد أَضافَهُ إِليه . ولزمَ أَيضاً أَنْ يُكثرَ فيهِ الصَّلاةَ عليه .

وروى العلاَّمةُ الحافظُ أَبو الفَرجِ بنُ الجوزيِّ في « التَّبصرة » بسندهِ إِلىٰ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ يصومُ شعبانَ كُلَّه ، فقلت : يا رسولَ الله ؛ إِنَّ شهرَ شعبانَ لَمِنْ أَحبِّ الشُّهورِ إِليكَ أَنْ تصومَه ؟ فقال : « نَعَمْ

يَا عَائِشَة ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ فِي السَّنَةِ إِلاَّ كُتِبَ أَجَلُهَا فِي شَعْبَان ، فَأُحِبُّ أَنْ يُكْتَبَ أَجَلِي وَأَنا فِي عِبَادَةِ رَبِّي وَالْعَمَلِ الصَّالح » .

وعن عثمانَ بنِ المغيرةِ أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « تُقْطَعُ الآجَالُ مِنْ شَعْبَانَ إِلَىٰ شَعْبَان ، حَتَّىٰ أَنَّ الرَّجُلَ يَنْكِحُ وَيُولَدُ لَهُ وَلَقَدْ خَرَجَ اسْمُهُ فِي الْمَوْتَىٰ » قال : فهٰذانِ الحديثانِ لَم يُعيِّنْ فيهِما متىٰ يكونُ ذلكَ مِنْ شعبان .

وعنِ الحسنِ بنِ سهل ، قال : قالَ شعبان : يا ربِّ ؛ جعلتني بينَ شهرينِ عظيمين ، فما لي ؟ قال : جعلتُ فيكَ قراءةَ القرآن .

وفي « الصَّحيحين » عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : ما كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ يصومُ مِنْ شهرٍ أَكثرَ مِنْ صيامهِ مِنْ شعبان ، كانَ يصومُهُ كلَّه ؛ لأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ ما كانَ يصومُ جميعَ أَيّامِ السَّنةِ بل كانَ يُفطرُ أَيّاماً ويصومُ أَيّاماً ، فقد قالتْ عائشةُ وابنُ عبّاسٍ وأَنس رضي الله عنهم : (كانَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ يصومُ حتَّىٰ نقول : لا يفطر ، ويُفطرُ حتَّىٰ نقول : لا يصوم) قالَ العلماء : وما ذاكَ إِلاَّ لتقويةِ البدَن ؛ لِئلاَّ يضعفَ عن سائرِ العبادات .

وقد قالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقّاً ، وَلِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقّاً ، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّه » ولذا كانَ صومُ الدَّهرِ مكروهاً عندَ كثيرٍ مِنَ العلماء . وكانَ صومُ داوودَ أَفضلَ الصِّيام ؛ فإِنَّهُ كانَ يصومُ يوماً ويُفطرُ يوماً كما وردَ في الحديث .

وكانَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ يصومُ يومَ الإِثنينِ ويومَ الخميس ، كما قالَ أَبو هريرة رضي الله عنه : (كانَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ يصومُ الإِثنينِ والخميس) ، ويغفرُ اللهُ تعالىٰ فيهِما لكلِّ مسلم إِلاَّ لمتهاجرين ، يقول : دعوهُما حتَّىٰ يصطلِحا) نقلَهُ في « عقدِ الدُّرر » ثمَّ قال : ورويَ كراهةُ صيامهِما عن أَنسِ بنِ مالك .

وكَرِهتْ طائفةٌ صيامَ يومٍ معيَّنٍ دائماً ؛ لِئلاَّ يتأَسَّىٰ بهِ جاهلٌ فيَظنّ أَنَّ ذلكَ واجب . وإِنْ فعلَ علىٰ غيرِ اعتقادِ الوجوب . . فحسن .

أَقول : ولذلكَ اختلفَ العلماءُ في صومِ يومِ الشَّك ، وهوَ اليومُ الَّذي يلي التَّاسعَ

والعشرينَ مِنْ شعبان ؛ يعني يومَ الثّلاثينَ منه . ولنذكرْ لَكُم ما قالوا فيهِ علىٰ سبيلِ الإِجمال ، ذاكرينَ بعضَ المذاهبِ والأَقوال :

فقد قالَ أَئِمَّتُنا الحنفيَّةُ في كتبِهِم ما نصُّه : ولا يصامُ يومُ الشَّكِّ إلاَّ نفلاً ، ويُكرَهُ غيرُهُ مِنْ فرضٍ أَو واجب ، ولو صامَهُ لواجبٍ آخر . . كرهَ تنزيهاً ، ولَو جزمَ أَنْ يكونَ مِنْ رمضان . . كرهَ تحريماً ؛ للتَّشبُّهِ بأَهلِ الكتاب ؛ لأَنَّهُم زادوا في صومِهِم . وعليهِ حمِلَ حديثُ أَبي هريرةَ رضي الله عنه عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « لا تَقَدَّمُوا رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْن ، إِلاَّ رَجُلٌ كَانَ يَصُومُ صَوْماً . . فَلْيَصُمْه » والتَّنفُّلُ فيهِ أَفضلُ إِنْ وافقَ صوماً يعتاده ، أَو صامَ مِنْ آخِرِ شعبانَ ثلاثةً أَو أَكثرَ لا أَقلّ ؛ لِلحديثِ المتقدِّم ، وإِنْ لَم يوافقْ صوماً يعتاده ، ولا صامَ مِنْ آخِرِ شعبانَ ثلاثةً فأَكثر . . استحبَّ صومُهُ لِلخواص ، ولا يُعلمُ العَوامُّ بذلك ؛ كيلا يعتادوا صومَهُ فيظنّهُ الجهّالُ زيادةً علىٰ رمضان .

وأَمّا العوام . . فيفطرونَ بعدَ الزَّوال . وكلُّ مَنْ علمَ كيفيَّةَ صومِ يومِ الشَّكِّ فهوَ مِنَ الخواص ، وإِلاّ . . فمِنَ العوام .

وكيفيَّةُ النِّيَّةِ المعتبرةِ هنا : أَنْ ينويَ التَّطوُّعَ علىٰ سبيلِ الجزم ، ولا يخطرَ ببالهِ أَنَّهُ إِنْ كانَ مِنْ رمضان . . فعنه . ولَو ردد في أَصلِ النِّيَّة . . فهوَ ليسَ بصائم ؛ بأَنْ نوىٰ أَنْ يصومَ غداً إِنْ كانَ مِنْ رمضان ، وإِلاّ . . فلا أَصوم ؛ لِعدمِ الجزمِ بالنِّيَّة . ولو نوىٰ : إِنْ كانَ مِنْ رمضانَ فعنه ، وإِلاَّ فعن نفل . . فهوَ مكروه . انتهىٰ

وقالَ الإمامُ أَبو سليمانُ الخطابيُّ في شرحِهِ لـ« سُننِ أَبي داوود » ما نصُّه : عن أَبي إِسحاقَ عن صلة ، قال : كنَّا عِندَ عمّارٍ في اليومِ الَّذي يُشَكُّ فيه ، فأَتىٰ بشاةٍ فتنحَّىٰ بعضُ القوم ، فقالَ عمَّار : مَنْ صامَ هـٰذا اليوم . . فقد عصىٰ أَبا القاسمِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم .

قُلت : اختلفَ النّاسُ في معنى النَّهي عن صيامِ يومِ الشَّك .

فقالَ قوم : إِنَّما نهي عن صيامهِ إِذا نوي بهِ أَنْ يكونَ عن رمضان ، فأَمَّا مَنْ نوىٰ بهِ

عن صومِ يومِ شعبان . . فهوَ جائز . هـٰذا قولُ مالكِ بنِ أَنسٍ والأَوزاعيِّ وأَصحابِ أَبي حنيفة ، ورخَّصَ فيهِ علىٰ هـٰذا الوجهِ أحمدُ ابنُ حنبل وإِسحـٰقُ بنُ راهويه .

وقالت طائفة : لا يصامُ ذلكَ اليومُ عن فرضٍ ولا تطوُّع ؛ للنَّهيِ فيه ، وليقعَ الفصلُ بذلكَ بينَ شعبانَ ورمضان . هـٰكذا قالَ عكرمة ، ورويَ معناهُ عن أَبي هريرةَ وابنِ عبّاس .

وكانتْ عائشةُ وأَسماءُ ابنتا أَبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم تصومانِ ذلكَ اليوم . وكانتْ عائشةُ تقول : لأَنْ أَصومَ يوماً مِنْ شعبانَ أَحبُّ إِليَّ مِنْ أَنْ أُفطرَ يوماً مِنْ رمضان . وكانَ هـٰذا مذهبُ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ ؛ صومُ يومِ الشَّكِّ إذا كانَ مِنْ ليلهِ في السَّماءِ سحابٌ أَو قترة ، فإِنْ كانَ صحواً ولَم يَرَ النَّاسُ الهلال . . أَفطرَ معَ النَّاس . وإِليهِ ذهبَ أَحمدُ ابنُ حنبل .

وقالَ الشَّافعي : إِنْ وافقَ يومُ الشَّكِّ يوماً كانَ يصومُه . صامَه ، وإِلاَّ . . لَم يَصُمْه . وهو : أَنْ يكونَ مِنْ عادتهِ أَنْ يصومَ صومَ داوود ، فإِنْ وافقَ يومَ صومه . . صامَه ، وإِنْ وافقَ يومَ فطره . . لَم يَصُمْه . انتهىٰ

وفي « عقدِ الدُّرر » لشهابِ الدّينِ الحنبليِّ في الكلامِ علىٰ حديثِ أَبي هريرة رضي الله عنه : « إِذَا انْتَصَفَ شَعْبَان . . فَلاَ تَصُومُوا » ما نصُّه : أَنَّ النَّهيَ عنِ الصِّيامِ بعدَ النِّصفِ إِنَّما هوَ لمَنْ ليسَ لَهُ عادة ، وإِلاَّ . . فلا يُمنعُ مِنْ هـٰذهِ الطَّاعة ، كيفَ وقد ثبتَ في « الصَّحيحين » عن سيِّدِ الثَّقلَينِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مِنْ حديثِ عمرانَ بنِ حصينٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قالَ لرجل : « هَلْ صُمْتَ مِنْ سَرَر هَـٰذَا الشَّهْرِ ؟ » ـ وفي رواية : « مِنْ سَرَر شَعْبَانَ شَيْئاً ؟ » ـ قال : لا . قال : « فَإِذَا أَفْطَرْت . . فَصُمْ يَوْمَيْن » . والسَّرر ـ بفتحِ السِّينِ المهملَة ـ : آخِرُ الشَّهرِ علىٰ ما هوَ المشهور ؛ لاستسرارِ القمرِ فيه .

وقدِ اختلفتِ الرِّوايةُ عنِ الإِمامِ أَحمد إِذا حالَ دونَ المطلعِ غيم :

فرويَ عنهُ وجوبُ صيامهِ مِنْ رمضان ، وهوَ قولُ عمرَ وعلي .

ورويَ عنهُ أَيضاً : أَنَّهُ إِذا لَم يَحُلْ دونَ مطلعهِ شيء . . أَصبحَ النَّاسُ مفطرين ، فإِنْ جاءَهم خبر . . كانَ عليهِم يومٌ مكانَهُ ولا كفَّارة .

ورويَ عنهُ أَيضاً : أَنَّهُم يفعلونَ ما يفعلُهُ إِمامُهُم . وكانَ عمرُ بنُ الخطَّابِ إِذا كانت تلكَ اللَّيلةُ معتمة . . يصوم ، ويقول : ليسَ هٰذا بالتَّقدُّمِ ولٰكنَّهُ بالاحتياط . فمَنْ أَفطر . . أَخذَ بالجواز ، ومَنْ صام . . أَخذَ بالاحتياط .

وأَصحُّ مَنْ روي عنهُ صومهُ عبدُ اللهِ بنُ عمر رضي الله عنهما . قالَ ابنُ عبدِ البر : وإِلىٰ قولهِ ذهبَ طاووسُ اليمانيُّ وأَحمدُ ابنُ حنبل رحمَهُمُ اللهُ تعالىٰ . انتهىٰ باختصار .

ومَنْ أَرادَ التَّفصيل . . فعليهِ بالكتبِ المطوَّلة ، واللهُ تعالىٰ أَعلمُ بالصَّواب .

فيا إِخواني ؛ اجتهدوا في هٰذا الشَّهرِ بمحوِ ذنوبِكُم ، واستغيثوا إِلىٰ مولاكُم مِنْ عيوبكُم . وهٰذهِ ليلةُ الإِنابة ، فيها تُفتَحُ أَبوابُ الإِجابَة .

أَينَ اللائذُ بِالجناب ، أَينَ المتعرِّضُ لِلباب ؟! أَينَ الباكي علىٰ ما جنىٰ ، أَينَ المستعدُّ لأَمرٍ قد دنا ؟!

أَلا رُبَّ فَرِحٍ بما يؤتىٰ ، فقد خَرَجَ اسمُهُ في الموتىٰ! أَلا رُبَّ غافلٍ عن تدبر أَمرِه ، فقدِ انفصمتْ عُرىٰ عُمره . أَلاَ رُبَّ معرضٍ عن سبيلِ رُشدِه ، قد آنَ أَوانُ شقِّ لَحدِه . أَلاَ رُبَّ رافلٍ في ثوبِ شبابِه ، قَد أَزفَ فراقُهُ لأَحبابِه . أَلا رُبَّ مُقيمٍ علىٰ جهله ، قد قربَ رحيلُهُ عن أَهلِه . أَلا رُبَّ مشغولٍ بجمعِ مالِه ، قد حانت خيبةُ آمالِه . أَلا رُبَّ ساعٍ في جمعِ حطامِه ، قد دنا تشتُّتُ عظامِه . أَلا رُبَّ مُجِدٍّ في تحصيلِ لذَّاته ، قَد آنَ خرابُ ذاتِه!

أَينَ مَنْ كانَ في مثلِ هٰذهِ الأَيّامِ في منازلِه ، مشغولاً بشهواتِه ، مغروراً بعاجلِه ؟ أَما أَصابَ مقاتلَهُ سهمُ مقاتلِه ، أَما ظهرتْ خسارتُهُ عندَ حسابِ معاملتِه ؟

أَينَ المعتذِرُ ممّا جناه ؛ فقدِ اطلعَ عليهِ مولاه ؟! أَينَ الباكي علىٰ تقصيرِهِ قَبْلَ تحسُّرِهِ في مصيرِه ؟!

إِذَا لَـمْ تَكُـنْ دُنْيَـاكَ دَارَ إِقَـامَـةٍ فَمَـا لَـكَ تَبْنِيهَـا بِنَـاءَ مُقِيـمِ
ومـا صـح ودُّ الخِـلِّ فيهـا وإنمـا يُغَـرُّ بـودٍّ فـي الحيـاة سقيـمِ
وجَدْتُ بني الأيام في كل موطن يَعُـدُّون فيهـا شقـوة كنعيـمِ
تـزيـدك فقـراً كلمـا ازددتَ ثـروة فتلفـى غنيـاً فـي ثيـاب عـديـمِ

هٰذهِ ليلةٌ أَمرها عظيم ، والخيرُ فيها جزيلٌ عميم ، وكفىٰ وصفُها في الكلامِ القديم : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ . فيها تقسيمُ الآجالِ والأعمار ، فيها يُكتبُ الحجَّاجُ والعمّار .

كم جامعٍ ديناراً إِلىٰ دينار ، وأَكفانُهُ عندِ القصّار ، وهوَ يُعمِّرُ الدَّارَ عمارةَ مقيم! ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ .

كم مؤَمِّلٍ أَملاً خاب ، كم منقول علىٰ ذمٍّ وعاب! يا هٰذا مضىٰ زمانُ الشَّباب ، يا مَنْ كبرَ على الزَّللِ وشاب . . قدِ استشنَّ الأَديم ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ .

يا سيّءَ السِّرِّ والعلَن ، يا جارياً علىٰ أَقبحِ سَنن ، يا ناسياً لحانَ مَنْ ظَعَن ، يا سليماً في الجسمِ والبدَن ، لٰكنَّهُ سليم ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ .

إِخواني ؛ إِلىٰ كم معَ البلايا ، إِلامَ تأْمنونَ الرَّزايا ؟ أَينَ الاستعدادُ لِلمنايا ؟ اِعتذروا اللَّيلةَ مِنَ الخطايا ؛ فالمولىٰ كريم ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ .

أَقبِلوا بالقلوبِ اللَّيلةَ إِليه ، وقِفوا بالخضوعِ والخشوعِ لَدَيْه ، وتعلَّقوا بجودِهِ تعويلاً عليه ، وانكسِروا بالذُّلِّ بينَ يديه ؛ فإِنَّهُ رحيم ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ .

مدُّوا أَناملَ الرَّجاءِ إِلىٰ بابه ، واتَّبِعوا في البكاءِ طريقَ أَحبابه ، وتعرَّضوا اللَّيلةَ لجزيلِ ثوابه ، واحذَروا مِنْ سطوتهِ وعقابه ؛ فعقابُهُ أَليم ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ .

بينَ أَيديكُم يومٌ لا كالأَيّام ، يتنبَّهُ فيهِ كلُّ مَنْ غفلَ ونام ، وتزفرُ جهنَّمُ علىٰ أَهلِ الآثام ، فيجثوا الخليلُ والكليم ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ .

قوموا بِنا إِلىٰ مطلوبِنا ، قِفوا بنا علىٰ بابِ محبوبِنا ، هلّموا لِنستغيثَ مِنْ ذنوبِنا ؛

لعلَّهُ يهبُّ عن قلوبِنا مِنَ العفوِ نسيم ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ .

اللَّهُم ؛ يا خالقَ الإنسانِ وبناه ، واللِّسانِ وأَجراه ، يا مَنْ لا يخيبُ مَنْ دعاه . . هَبْ لِكلٍّ مِنَّا في هـٰذهِ اللَّيلةِ ما رجاه ، وبلِّغهُ مِنْ خيرِ الدَّارينِ مُناه ، يا أَكرمَ مِنْ كلِّ كريم .

اللَّهُم ؛ وإِذا اطَّلعتَ في ليلتِنا هـٰذهِ علىٰ خلقِك . . فعُدْ علينا بِمَنِّكَ وعِتقك ، وقدِّرْ لَنا مِنَ الحلالِ واسعَ رزقك ، واجعلْنا ممَّنْ عرفَكَ وقامَ بحقِّك ، وارحمنا برحمتِكَ يا رحيم .

اللَّهُم ؛ مَنْ قضيتَ بوفاته . . فاقضِ معَ ذلكَ رحمتك ، ومَنْ قدَّرتَ طولَ حياته . . فاجعلْ في ذلكَ نعمتَك ، وأَسبلْ على الجميعِ ستركَ ومغفرتك ، وعامِلنا بعفوكَ يا حليم .

اللَّهُم ؛ اشفِ في هـٰذهِ اللَّيلةِ مرضانا ، وارحمْ بفضلكَ موتانا ، واسترْ علينا عيوبَنا ، واغفرْ لَنا ذنوبَنا ، يا ذا الفضلِ العميم .

اللَّهُم ؛ إنَّا نسأَلُكَ مِنْ خيرِ ما تعلَم ، ونعوذُ بِكَ مِنْ شرِّ ما تعلم ؛ فإنَّكَ تعلمُ ولا نعلَم ، فعُمَّنا بلطفكَ القديم ، وارحمْ آباءَنا وتجاوزْ عن أُمَّهاتِنا ، واغفرْ لمشايخِنا وأَقارِبنا ، واحفظْ ذرِّيَّاتِنا ، وأَدخِلْنَا جميعاً جنَّةَ النَّعيم . وصلِّ علىٰ سيِّدنا مُحَمَّدٍ وآلهِ أَجمعين .

* * *

المجلس المتمم الخمسين
في الميزان والصراط والحساب والكتاب

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيم

الحمدُ للهِ الواحدِ المجيد ، الخالقِ الرّازقِ ومَنْ عندَهُ المزيد ، الفعّالِ في عبيدهِ لما يريد . يُسبِّحُهُ الحَبُّ النَّضيد ، والأَبُّ الحصيد ، والدُّما في البيد ، والدِّماءُ في الوريد ، والقريبُ والبعيد ، والرَّقيبُ والعتيد . اقتضتْ[1] نعمةُ الخالقِ شكراً ، فوجدَتِ النُّفوسَ بالجهلِ سكرىٰ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .

أَوجدَ ما شاء كما شاءَ وأَعدم ، وأَماتَ وأَحيىٰ وعافا وأَسقم ، وأَغنىٰ وأَفقرَ وأَهانَ وأَكرم ، واطَّلعَ علىٰ أَسرارِ الخلقِ وفاوتَ بينَهم وقَسَم ، فمنهُم شقيٌّ وسعيد .

أَحمدُهُ علىٰ ما ينعمُ ويفيد ، وأُقرُّ بوحدانيَّتهِ عن برهانٍ لا عن تقليد ، وأُصلِّي وأُسلِّمُ علىٰ رسولهِ وعبدِهِ معدنِ الرِّسالةِ وأَفضلِ العبيد ، صَلَّى اللهُ تعالىٰ عليهِ وعلىٰ صاحبهِ أَبي بكرٍ الثَّابتِ علىٰ وقعةِ يومِ الرِّدَّةِ ثباتَ الحديد ، وعلىٰ عمرَ القويِّ في دِينِ اللهِ الشَّديد ، وعلىٰ عثمانَ التَّقيِّ النَّقيِّ الرَّشيد ، وعلىٰ عليٍّ مقدَّمِ الأَهلِ وبيتِ القصيد ، وعلىٰ سائرِ آلهِ وأَصحابهِ ذوي الرَّأْيِ السَّديد ، وسلَّم تسليماً .

أَمّا بعد : فقد قالَ تعالىٰ في مُحكَمِ كتابهِ العزيز : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ : (القسط) العادلة . وإنَّما أُفردَ ؛ لأَنَّهُ في الأَصْلِ مصدر ، أَو علىٰ حذفِ مضاف ؛ أَي : ذواتُ القسط .

---

(١) في هامش (خ) : (نسخة : اقتضت نعمته الخلق شكراً) .

والمقسِط : العادل ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ .

وأَمَّا القاسط : فهوَ الجائر ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ .

فقَسَطَ الثّلاثيُّ بمعنىٰ جار ، وأَقسطَ الرُّباعيُّ بمعنىٰ عدل . كذا قيل .

ومِنَ الغريب : ما حكيَ أَنَّ الحجَّاج ـ عاملَهُ اللهُ تعالىٰ بعدله ـ لمّا أَحضرَ سعيدَ بنَ جبير رَضِيَ اللهُ تَعالَىٰ عَنْهُ قال : ما تقولُ فيّ ؟ قالَ : قاسطٌ عادلٌ . فأَعجبَ الحاضرين . فقالَ لَهُم الحجّاج : ويلَكُم ، لَم تَفهموا ، جعلَني جائراً كافراً ، أَلَم تَسمعوا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ وقولَهُ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أَي : لأَهلِها . وقيل : (اللاّم) بمعنىٰ (في) .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ أَي : لا ينقصُ مِنْ إِحسانِ محسن ، ولا يزادُ في إِساءَةِ مسيء .

وقولُهُ سبحانَه : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ قُرِىءَ بنصب (مثقالَ) وبرفعه . ومثقالُ الشَّيءِ ميزانُه ؛ أَي : وإِنْ كانَ العملُ في غايةِ الخفَّةِ والقلَّةِ والحقارة ، فإِنَّ حبّةَ الخردلِ مَثَلٌ في الصِّغَر .

﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ أَي : أَحضرناها وجئْنا بها ـ أَي : بموزونِها ـ للمجازاةِ عليها . ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ أَي : مُحصينَ لِكُلِّ شيء . والحسبُ في الأَصلِ معناه : العد . وقيل : عالمين .

وليُعلَمْ أَنَّ الأُمورَ الَّتي تقعُ في الدَّارِ الآخرةِ ويجبُ على المكلَّفِ الإِيمانُ بها واعتقادُها كثيرة ، فمنها : الميزان ، والصِّراط ، والشَّفاعة ، والحوض ، ورؤيةُ الباري جلَّ جلالُه . . وغيرُ ذلك . فلنذكر أَشياءَ ممّا هنالك :

قالَ السَّفارينيُّ عليهِ الرَّحمةُ في منظومته :

وَاجْـزِمْ بِـأَمْـرِ الْبَعْـثِ وَالنُّشُـورِ ... وَالْحَشْـرِ جَـزْمـاً بَعْـدَ نَفْـخِ الصُّـورِ
كَـذَا وُقُـوفُ الْخَلْـقِ لِلْحِسَـابِ ... وَالصُّحْـفُ وَالْمِيـزَانُ لِلثَّـوَابِ

كَذَا الصِّرَاطُ ثُمَّ حَوْضُ الْمُصْطَفَىٰ ... فَيَا هَنَا لمن به نَالَ الشِّفَا
عَنْهُ يُذَادُ الْمُفْتَرِي كَمَا وَرَدْ ... وَمَنْ نَحَا سُبْلَ السَّلَامِ لَمْ يُرَدْ
فَكُنْ مُطِيعاً وَٱقْفُ أَهْلَ الطَّاعَةِ ... فِي الْحَوْضِ وَالْكَوْثَرِ وَالشَّفَاعَةِ
فَإِنَّهَا ثَابِتَةٌ لِلْمُصْطَفَىٰ ... كَغَيْرِهِ مِنْ كُلِّ أَرْبَابِ الْوَفَا
مِنْ عَالِمٍ كَالرُّسْلِ وَالأَبْرَارِ ... سِوَى الَّتِي خُصَّتِ بِذِي الأَنْوَارِ

قالَ العلماء :

إنَّ مراتبَ المعاد : البعثُ والنُّشور ، ثمَّ المحشر ، ثمَّ القيامُ لربِّ العالَمين ، ثمَّ العرض ، ثمَّ تطايرُ الصُّحفِ وأَخذُها باليمينِ والشِّمال ، ثمَّ السُّؤَالُ والحساب ، ثمَّ الميزان .

أَمّا الحشرُ والنَّشر . فقد ذكرناهُ في بعضِ الدُّروس ، فلا حاجةَ إِلى التَّكرار .

وأَمّا الحساب : فقد ثبتَ في الكتابِ والسُّنَّةِ وإِجماع أَهلِ الحق . قالَ تعالىٰ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في حقِّ أعدائه : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ ﴾ .

والحسابُ لغة : العَدّ . واصطلاحاً : توقيفُ اللهِ عبادَهُ قَبْلَ الانصرافِ مِنَ المحشرِ علىٰ أَعمالِهم ، خيراً كانت أَو شرّاً ، تفصيلاً لا بالوزنِ إلاَّ مَنِ ٱستثني منهُم .

وقدِ اختُلفَ في معنىٰ محاسبةِ اللهِ تعالىٰ عبادَهُ علىٰ ثلاثةِ أقوال :

أَحُدها : أَنَّهُ يُعلمهُم ما لَهُم وما عليهِم . قيل : بأَنْ يخلقَ اللهُ في قلوبهِم علوماً ضروريَّةً بمقاديرِ أَعمالِهم .

الثّاني : ـ ونقلَ عنِ ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعالَىٰ عَنْهُما ـ : أَنْ يوقفَ اللهُ تعالىٰ عبادَهُ

بينَ يديه ، ويُؤْتيهم كتبَ أَعمالِهم فيها سيِّئاتُهُم وحسناتُهُم ، فيقول : هـٰذِهِ سيِّئاتُكُم وقد تجاوزتُ عنها ، وهـٰذِهِ حسناتُكُم وقد ضاعفتُها لكُم .

الثَّالث : أَنْ يُكلِّمَ اللهُ تعالىٰ عبادَهُ في شأْنِ أَعمالِهم ، وكيفيَّةِ مالَها مِنَ الثَّوابِ وما عليها مِنَ العقاب .

أَخرجَ الطَّبرانيُّ والبزَّار بإسنادٍ صحيحٍ مِنْ حديثِ معاذِ بنِ جبلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه : « لَنْ تَزُولَ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَال : عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاه ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاَه ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَه ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيه ؟ » .

وعنِ ابنِ الزُّبير رضي الله عنه ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « مَنْ نُوقِشَ الْحِسَاب . . هَلَك » .

وروى الإمامُ أَحمد : يُقتصُّ لِلخلْقِ بعضِهم مِنْ بعض ، حتَّى الجمّاءِ[1] مِنَ القرناء[2] ، وحتَّى الذَّرَّةِ مِنَ الذَّرَّة .

وروى الإمامُ أَحمد ـ أيضاً ـ مِنْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ أُنيسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ أَنَّهُ سمعَ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يقول : « يَحْشُرُ اللهُ الناس يوم القيامة ـ أو قال : الْعِبَادَ ـ عُرَاةً غُرْلاً ـ أَي : غيرَ مختونين ـ بُهْماً قال : قلنا : وما بُهْماً ؟ قال : لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْء ، ثُمَّ يُنَادِيهِم بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُب : أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّان ، لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّىٰ أَقْضِيَهُ مِنْه ، وَلاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّىٰ أَقْضِيَه ، حَتَّى اللَّطْمَة » قال : قلنا : كيف ، وإنَّما نأْتي عُراةً غرلاً بُهماً ؟ قال : « بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَات » .

وروىٰ أَبو هريرةَ رضي الله عنه عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهُ قال : « الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاة ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَـٰذَا

---

(١) **الجماء** : التي لا قرن لها .
(٢) **القَرناء** : التي لها قرن .

وَقَذَفَ هَـٰذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَـٰذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَـٰذَا ، وَضَرَبَ هَـٰذَا ، فَيُعْطَىٰ هَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِه ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْه . . أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُم فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّار » .

وَأَمَّا وقوفُ الخلْقِ لأخذِ الصُّحف ـ وهيَ الكتبُ الَّتي كَتَبْتْها الملائكةُ وأَحصوا ما فعلَهُ كلُّ إنسانٍ مِنْ سائرِ أَعمالهِ في الدُّنيا القوليَّةِ والفعليَّة ـ فقد ثبتَ بالكتابِ والسُّنَّة :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ أَي : لِلحساب . وإنَّما يُؤْتَىٰ بها إلزاماً لِلعباد ، ورفعاً للجدالِ والعناد .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ قالَ العلماء : معنىٰ ﴿ طَٰٓئِرَهُۥ ﴾ عملَه .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ وفي آية أُخرىٰ : ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ .

والفتيل : هوَ القشرُ الَّذي في شقِّ النَّواة . وهـٰذا يُضربُ مثلاً للشيءِ الحقير .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ تعالَىٰ عَنْهُما : أَنَّهُ الوسخُ الَّذي يظهرُ بفتلِ الإنسانِ إبهامَهُ بسبَّابته .

وأَمّا السُّنَّة : فقد أخرجَ العقيليُّ عن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهُ قال : « الْكُتُبُ كُلُّهَا تَحتَ الْعَرْش ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَة . . يَبْعَثُ اللهُ رِيحاً فَتُطَيِّرُهَا بِالأَيْمَانِ والشَّمَائِل ، أَوَّلُ خطٍّ فِيهَا : ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ » قالَ قتادة : يقرأُ يومئذٍ مَنْ لَم يَكُنْ قارئاً في الدُّنيا .

وعن أَبي هريرةَ رضي الله عنه مرفوعاً : « عُنْوَانُ كِتَابِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُسْنُ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْه » .

وأَخرجَ الإمامُ أحمد عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : يا رسولَ الله ؛ هل يذكرُ الحبيبُ حبيبَهُ يومَ القيامة ؟ قال : « يا عائشة ؛ أَمَّا عِنْدَ ثَلَاث . . فَلا : عِنْدَ الْمِيزَانِ

حَتَّىٰ يَعْلَمَ أَيَثْقُلُ أَمْ يَخِفّ ؟ وَ عِنْدَ تَطَايرِ الْكُتُب ؛ فَإِمَّا أَنْ يُعْطَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ أَوْ بِشِمَالِه ، وَحِينَ يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّار » اَلحديث .

قالَ بعضُ العلماء : يُعطى المؤْمنُ الطَّائعُ كتابَهُ بيمينهِ مِنْ أَمامه ، ويُعطى المؤْمنُ العاصي كتابَهُ بشمالهِ مِنْ أَمامهِ ـ وقيل : بيمينهِ أَيضاً ـ ويُعطى الكافرُ كتابَهُ بشمالهِ مِنْ وراءِ ظهرِه ؛ بأَنْ تنخلعَ أَوْ يدخلَها مِنْ صدره .

وأَمّا الميزان : فالإيمانُ بهِ ثابتٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ والإجماع ، ولا عبرةَ بمَنْ أَنكرَهُ مِنَ المعتزلة .

قالَ العلماء : إذَا انقضى الحساب . . كانَ بعدَهُ وزنُ الأَعمال ؛ لأَنَّ الوزنَ لِلجزاء ، فينبغي أَنْ يكونَ بعدَ المحاسبة ، فإنَّ المحاسبةَ لتقريرِ الأَعمال ، والوزن لإظهارِ مقاديرِها ؛ لِيكونَ الجزاءُ بحسبِها .

قالَ تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾ الآية .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ .

وأَخرجَ البزَّارُ والبيهقيُّ عَن أَنسِ بنِ مالك رضي الله عنه ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهُ قال : « يُؤْتَىٰ بِابْنِ آدمَ يَوْمَ الْقِيَامَة ، فَيُوقَفُ بَيْنَ كِفَّتَي الْمِيزَانِ وَيُوكَلُ بهِ مَلَك ، فَإِنْ ثَقُلَ مِيزَانُه . . نَادى الْمَلَكُ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الْخَلاَئِق : سَعِدَ فُلاَنُ ابْنُ فُلاَنٍ سَعَادَةً لاَ يَشْقَىٰ بَعْدَهَا أَبداً . وَإِنْ خَفَّ مِيزَانُه . . نَادَى الْمَلَكُ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الْخَلاَئِق : أَلاَ شَقِيَ فُلاَنُ ابْنُ فُلاَنٍ شَقَاوَةً لاَ يَسْعَدُ بَعْدَهَا أَبداً » .

قالَ كثيرٌ مِنَ العلماء : الَّذي جاءَ في أكثرِ الأَخبار : أَنَّ الجنَّةَ توضعُ عن يمينِ العرشِ والنَّارُ عن يسارِ العرش ، ثمَّ يُؤْتَىٰ بالميزانِ فيُنصبُ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، فتوضعُ كِفَّةُ الحسناتِ مقابلَ الجنَّةِ وكِفَّةُ السَّيِّئَاتِ مقابلَ النَّار .

قالوا : والميزانُ كميزانِ الدُّنيا ، لَهُ لِسانٌ وكفَّتان : إحداهُما مِنْ نورٍ والأُخرىٰ مِنْ ظُلمة ، فالأُولىٰ لِلحسناتِ والثَّانيةُ للسَّيِّئَات ، ويرجحُ فيهِ الثَّقيلُ ويعلو فيهِ الخفيف .

وعن بعضِ العلماءِ أَنَّهُ عكسُ ميزان الدُّنيا ، فالرَّاجحُ يصعدُ والخفيفُ يهبط ؛ لأَنَّ الآخرةَ عكسُ الدُّنيا ، ولهـٰذا نحنُ يومَ القيامةِ نرى الجنَّ ولا يرونا .

والصَّحيح : أَنَّهُ كميزانِ الدُّنيا ، ويدلُّ عليهِ حديثُ البطاقةِ الَّذي ذكرناهُ في بعضِ المجالس .

ويروىٰ أَنَّ داوودَ عليهِ السلاَّمُ سأَلَ ربَّهُ أَنْ يُريَهُ الميزان ، فلمَّا رآه . . فإذا كِفَّتُهُ كما بينَ المشرقِ والمغربِ فغشي عليه ، فلمّا أَفاق . . قال : إِلـٰهي ؛ مَنْ يقدر يملأُ كِفَّتَهُ حسنات! ؟ فقال : يا داوود ؛ إذا رضيتُ عن عبدي . . ملأْتُها بنصفِ تمرةٍ أَو بلقمة . ذكرَها السّفارينيُّ الحنبليُّ والسّفيريُّ الشَّافعي .

وليُعلَمْ أَيضاً : أَنَّ العلماءَ اختلَفوا أَيضاً في مسائلَ أُخَرَ تتعلَّقُ بالميزان ، **فمنها** : أَنَّ الَّذي يوزنُ هل هوَ الصَّحيفةُ أَم غيرُها ؟

فقيل : نفسُ الصَّحيفة ، وهوَ الصَّحيح .

وقيل : أَعمالُ العبدِ بدونِ الصَّحيفة ، فتُجعلُ الحسناتُ أَجساماً نورانيَّةً والسَّيِّئاتُ أَجساماً ظلمانيَّة ، وتُوضَعُ في الميزان .

وقيل : نَفْسُ الْعبدِ يوزنُ معَ عمله .

وهل توزنُ الأَعمالُ كلُّها ، أَم خواتيمُها ؟

فالجمهورُ على الأَوَّل . وقالَ وهبُ بنُ منبه : توزنُ الخواتيم ؛ لقولهِ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلام : « الأَعْمَال بِخَوَاتِيمِهَا » .

واختلفوا في ميزانِ الآخرةِ هل هوَ واحدٌ أَو متعدِّد ؟ والصَّحيحُ أَنَّهُ واحد .

وقالَ بعضُهُم : إنَّهُ متعدِّد ، واستدلَّ بقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ﴾ .

والجواب : أَنَّهُ جمعَ باعتبارِ تنوُّعِ الأَعمال .

وليُعلَمْ أَيضاً : أَنَّ الموكلَ بالميزانِ هوَ جبريلُ عليهِ السَّلام ، وأَنَّ سبعينَ أَلفاً مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّم يدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حساب ، لا يُدفعُ لَهم ميزانٌ

ولا يأخذونَ صحفاً . والجنُّ توزنُ أَعمالُهم كما توزنُ أَعمالُ الإِنس .

وأَمّا الصِّراط : فإِنَّهُ حقٌّ ثابت ـ أَيضاً ـ بلا شطاط . وهوَ في اللُّغة : اَلطَّريقُ الواضح .

وفي الشَّرع : جسرٌ ممدودٌ علىٰ متنِ جهنَّم ، يردهُ الأَوَّلونَ والآخِرون . فهوَ قنطرةُ جهنَّمَ بينَ الجنَّةِ والنَّار ، خُلِقَ مِنْ حين خُلقتْ جهنَّم

قالَ القرطبيُّ في « تذكرته » : إنَّ في الآخرةِ صراطين :

أَحدُهُما مجازٌ لأَهلِ المحشرِ كلِّهم ، ثقيلِهم وخفيفِهِم ، إلاَّ منْ دخلَ الجنَّةَ بغيرِ حساب ، وإلاَّ مَنْ يلتقطُهُ عنقٌ مِنَ النَّار .

فإذا خلصَ مَنْ خلصَ مِنْ هـٰذا الصِّراطِ الأَكبرِ الَّذي ذكرناه ـ ولا يخلصُ عنهُ إلاَّ المؤْمنونَ الَّذينَ علمَ اللهُ منهُم أَنَّ القصاصَ لا يستنفدُ حسناتِهِم ـ حبسوا علىٰ صراطٍ آخَرَ خاصٍّ لَهم . ولا يرجعُ إِلى النَّارِ مِنْ هـٰؤلاءِ أَحدٌ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ؛ لأَنَّهُم قد عَبروا الصِّراطَ الأَوَّلَ المضروبَ علىٰ متنِ جهنَّمَ الَّتي يَسقطُ فيها مَنْ أَوبقتْهُ ذنوبُهُ وزادَ على الحسناتِ جرمهُ وعيوبه . فقد أَخرجَ البخاريُّ والإِسماعيليّ عن أَبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم في هـٰذهِ الآية : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قَال : « يَخْلُصُ المؤمنونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَىٰ قَنْطَرةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّار ، فَيَقْتَصُّ بَعْضُهُم مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُم فِي الدُّنْيَا ، حَتَّىٰ إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا . أُذِنَ لَهُم في دُخُولِ الْجَنَّة . فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه ، لأَحَدُهُم أَهْدَىٰ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ فِي الدُّنْيَا »

قالَ الحافظُ ابنُ حجر : قولُه : « يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّار » أَي : ينجونَ مِنَ السُّقوطِ فيها بمجاوزةِ الصِّراط .

واختُلفَ في القنطرةِ المذكورة :

فقيل : إنَّها مِنْ تتمَّةِ الصِّراط ، وهوَ طَرَفُهُ الَّذي يلي الجنَّة .

وقيل : إنَّها صراطٌ آخر .

قالَ العلماء : اَلصِّراطُ أَدقُّ مِنَ الشَّعرة ، وأَحدُّ مِنَ السَّيف ، وأَحمىٰ مِنَ الجمرة . فقد أَخرجَ الطَّبرانيُّ بإِسنادٍ حسنٍ عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ قال : يوضعُ الصِّراطُ علىٰ سواءِ جهنَّمَ مثلَ حدِّ السَّيفِ المرهفِ مَدْحَضَةٌ ـ أَي : مزلقة ـ أَي : لا تثبتُ عليهِ قدمٌ بل تَزِلُّ عنه ، إلاَّ مَنْ يُثبِّتُهُ اللهُ تعالىٰ . عليهِ كلاليبُ مِنْ نارٍ تخطفُ أَهلَها فتمسكُ بهواديها ، ويَستبقونَ عليهِ بأَعمالِهم ، فمنهُم مَنْ شَدُّهُ كالبرقِ فذاكَ الَّذي لا ينشبُ أَنْ ينجو ، ومنهُم مَنْ شَدُّهُ كالرِّيح ، ومنهُم مَنْ شدُّهُ كالفرسِ الجواد ، ومنهُم مَنْ شدُّهُ كهرولةِ الرَّجل ، ثمَّ كرملِ الرَّجل ، ثمَّ كمشي الرَّجُل .

وآخِرُ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ رجلٌ قد لوَّحتْهُ النَّار ، فيقولُ اللهُ لَه : سَلْ وتمن . فإِذا فرغ . . قال : لكَ ما سأَلتَ ومِثلُه .

وأَخرجَ ابنُ عساكرَ عنِ الفضيلِ بنِ عياض ، قالَ : بلَغنا أَنَّ الصِّراطَ مسيرةُ خمسةَ عشرَ أَلف سنة ، خمسةُ آلافٍ صعود ، وخمسةُ آلافٍ هبوط ، وخمسةُ آلاف استواء . أَدقُّ مِنَ الشَّعرةِ وأَحدُّ مِنَ السَّيف ، علىٰ متنِ جهنَّم ، لا يجوزُ عليهِ إلاَّ ضامرٌ مهزولٌ مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ .

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قال : الصِّراطُ علىٰ جهنَّم مِثلُ حدِّ السَّيف ، فتمرُّ الطَّبقةُ الأُولىٰ كالبرق ، والثَّانيةُ كالرِّيح ، والثَّالثةُ كأَجودِ الخيل ، والرَّابعةُ كأَجودِ البهائم ، يمرُّونَ والملائكةُ يقولون : اللَّهُمَّ سَلِّم ، اَللَّهُم سلِّم .

وفي روايةٍ أَنَّ النَّبيَّ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسّلامُ يقول : « يا رَبِّ ؛ سَلِّمْ سَلِّم » .

وأَنكرَ العلاَّمةُ القرافيُّ وشيخُهُ العزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ كونَ الصِّراطِ أدقَّ مِنَ الشَّعرِ وأَحدَّ مِنَ السَّيف ، وأَنَّهُ ليسَ ذلكَ في الرِّواياتِ الصَّحيحة ، وإِنْ وردَت . . فهيَ مؤوَّلة . قالَ القرافي : والصَّحيحُ أَنَّهُ عريض .

وقيل : طريقان ، يُمنىٰ ويُسرىٰ . فأَهلُ السَّعادةِ يسلكُ بهِم ذاتَ اليمين ، وأَهلُ الشَّقاوةِ يسلكُ بهِم ذاتَ الشِّمال . وفيهِ طاقات ، كلُّ طاقةٍ تنفضُّ إِلىٰ طبقةٍ مِنْ طبقاتِ جهنَّم ، وجهنَّمُ بينَ الخلْقِ وبينَ الجنَّةِ والجسرُ علىٰ ظهرِها منصوب ، فلا يدخلُ أَحدٌ

الجنَّةَ حتَّىٰ يمرَّ علىٰ جهنَّمَ وهوَ معنىٰ قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ علىٰ أَحدِ التَّفاسير .

وأَنكرَ القاضي عبدُ الجبّارِ المعتزليُّ وأَتباعُهُ ظاهرَ الآياتِ والأَحاديثِ الواردةِ في الصِّراط ، وقالوا : إِنَّهُ لا تعذيبَ على المؤمنينَ يومَ القيامة ، وإِنَّما المرادُ بالصِّراط : طريقُ النَّارِ والجنَّة . ومفصَّلُ الأَدلَّةِ والأَجوبةِ في محلِّها .

وقد ذكرَ القرطبيُّ في « تذكرته » عن بعضِ أَهلِ العِلْمِ أَنَّهُ قال : لَنْ يجوزَ أَحدٌ الصِّراطَ حتَّىٰ يُسْأَلَ علىٰ سبع[1] قناطر : فعندَ القنطرةِ الأُولىٰ يُسْأَلُ عنِ الإِيمانِ بالله ، وهي : شهادةُ أَنْ لا إِلـٰهَ إِلاَّ الله ، فإِنْ جاءَ بها مخلصاً ـ والإِخلاصُ قولٌ وعمل ـ جاز ، ثمَّ يُسْأَلُ عندَ القنطرةِ الثَّانيةِ عنِ الصَّلاة ، فإِنْ جاءَ بها تامَّة . . جاز ، ثمَّ يُسْأَلُ عندَ القنطرةِ الثَّالثةِ عن صومِ رمضان ، فإِنْ جاءَ به تامّاً . . جاز ، ثمَّ يُسْأَلُ في الرَّابعةِ عنِ الزَّكاة ، فإِنْ جاءَ بها تامَّة . . جاز ، ثمَّ يُسْأَلُ في الخامسةِ عنِ الحجِّ والعمرة ، فإِنْ جاءَ بهما تامَّين . . جازَ إِلى القنطرةِ السَّادسة ، فيُسأَلُ عنِ الْغُسلِ والوضوء ، فإِنْ جاءَ بهما تامَّين . . جازَ إِلى السَّابعة ـ وليسَ في القناطرِ أَصعبُ مِنها ـ فيُسأَلُ فيها عن ظُلاماتِ النَّاسِ وتبعاتِ الخلْق . نقلَهُ السّفارينيُّ في « شرحه » .

وأَمّا حوضُ نبيِّنا المصطفىٰ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّم : فهوَ حقٌّ ثابتٌ بإِجماعِ أَهلِ الحق ، بعدَ البعثِ والنُّشورِ وأَخْذِ الصُّحفِ والمرور ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ .

قالَ الحافظُ جلالُ الدِّينِ السّيوطيُّ في كتابهِ « البدورُ السَّافرة » : وردَ ذِكرُ الحوضِ مِنْ روايةِ بضعةٍ وخمسينَ صحابيّا ، منهُمُ الخلفاءُ الرَّاشدونَ وحفَّاظُ الصَّحابةِ المكثرون . **واختُلف** : هل هوَ بعدَ الصِّراطِ أَو قبلَه ؟ علىٰ قولَينِ للعلماء .

وقالَ القرطبيُّ في « التّذكرة » : إِنَّ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ حوضين : أَحدُهُما في الموقفِ قَبْلَ الصِّراط ، والثَّاني في الجنَّة ، وكلاهُما يُسمَّىٰ كوثرا .

---

(١) نسخة عند سبع . اهـ منه .

والكوثرُ في كلامِ العرب : الخيرُ الكثير . ولا يَخطرُ ببالكَ أَنَّ الحوضَ يكونُ علىٰ هـٰذهِ الأَرض ، وإِنَّما يكونُ على الأَرضِ المبدَّلة ؛ وهيَ أَرضٌ بيضاء كالفضَّة ، لَمْ يُسفَكْ عليها دمٌ ولَم يُظلَمْ علىٰ ظهرِها أَحد .

وأَخرجَ الشَّيخانِ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْر ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَن ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْك ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاء ، مَنْ شَرِبَ مِنْه . . لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً » .

وأَخرج الإِمامُ أَحمد عن أَبي أُمامةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ سَبْعِينَ أَلْفاً بِغَيْرِ حِسَاب » فقالَ يزيدُ بنُ الأَخنس : واللهِ ما أُولئكَ في أُمَّتِكَ إِلاَّ كالذُّباب الأَصهبِ في الذّبّان . فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « كان ربي عز وجل قَدْ وَعَدَنِي سَبْعِينَ أَلْفاً مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفاً ، وَزَادَنِي ثَلاَثَ حَثيات » قالَ : فما سعةُ حوضكَ يا نَبيَّ الله ؟ قال : « كَمَا بَيْنَ عَدَنَ إِلَىٰ عمان ، وأَوْسَعُ وَأَوْسَع » يشير بيده ـ قال : فيه مثعبان من ذهب وفضة ، قال : فماءُ حوضكَ يا نبيَّ الله ؟ قال : « أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَن ، وَأَحْلَىٰ مَذَاقَةً مِنَ الْعَسَل ، وَأَطْيَبُ رَائِحةً مِنَ الْمِسْك . مَنْ شَرِبَ مِنْه . . لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبداً ، وَلَم يَسْوَدَّ وَجْهُهُ أَبَداً » .

وأَخرج مسلم عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : أَغفىٰ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّمَ إِغفاءَةً ثمَّ رفعَ رأْسَهُ مُتَبَسِّماً ، فقلنا : ما أَضحكك يا رسول الله ؟ قال : « إِنَّهُ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَة . فقَرَأَ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ ثمَّ قال : أَتَدْرُونَ مَا الْكَوثَر ؟ » فقلنا : اللهُ ورسولهُ أَعلم . قال : « فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنيهِ رَبِّي عَزَّ وجَلَّ ، عَلَيهِ خيرٌ كثيرٌ ، هو حوضٌ تَرِدُ عَلَيهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، آنِيَتُهُ عَدَدَ النُّجوم فَيُخْتَلَجُ[1] الْعَبْدُ مِنْهُم » ـ وفي روايـة : « فَيجلـون » أَي : يُطـردونَ ـ « فَـأَقـول : رَبّ ؛ إِنَّـهُ مِـنْ أُمَّتِـي » ـ

(١) يُختلَج : يُجتذب .

وفي رواية : « أَصْحَابِي » . فيُقَال : مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثْتَ بَعْدَكَ » .

وأَخرجَ ابنُ أَبي عاصم عنِ الحسنِ بنِ عليٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُما أَنَّ علياً كرَّمَ اللهُ تعالىٰ وجهَهُ يذودُ المنافقينَ عنِ الحوض .

قالَ العلماء : كلُّ مَنِ ارتدّ ـ والعياذُ باللهِ تعالىٰ ـ عن دِينِ الله ، أَو أَحدثَ فيهِ ما لا يرضاه ، أَو خالفَ الجماعةَ وِ السُّنَّة ، أَوِ ابتدعَ في الدِّين ، أَو ظلمَ وجار ، أَو أَعلنَ بالكبائر ، أَو أَنكرَ الحوض . . فهوَ يُذادُ ويُطرَدُ عنِ الحوض .

أَخرجَ الحكيمُ في « نوادرِ الأُصول » عن عثمانَ بنِ مظعون ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ تَعالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « يَا عُثْمَان ؛ لاَ تَرْغَبْ عنْ سُنَّتِي ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي ثُمَّ مَاتَ قَبْلَ أَنْ يَتُوب . . ضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ وَجْهَهُ عَنْ حَوْضِي يَوْمَ الْقِيَامَة » .

وأخرجَ التِّرمذيّ والحاكمُ عن كعبِ بنِ عجرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ خرجَ عليهِم وقال : « هَلْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاء ؟ فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِم فَصَدَّقَهُم بِكَذِبِهِم وَأَعَانَهُم عَلَىٰ ظُلْمِهِم . . فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنه ، وَلَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَيَّ الْحَوْضَ . وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِم وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَىٰ ظُلْمِهِم وَلَمْ يُصَدِّقْهُم بِكَذِبِهِم . . فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْه ، وَهُوَ وَارِدٌ عَلَيَّ الْحَوْض » .

وليُعلَمْ أَنَّ المعتزلةَ لَم تُثبتِ الحوض ، وقد ثبتَ عندنا بالسُّنَّةِ الصَّريحة ، وأَمّا ثبوتُهُ بالقُرآن . . فمحتملٌ وليسَ بصريح . وأَمّا قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ ففيهِ اختلاف :

قيل : هوَ الحوض . وقيل : الخيرُ الكثير . وقيل : النَّهرُ الَّذي في الجنَّة .

وليُعلَمْ أَيضاً أَنَّ لكلِّ نبيٍّ حوضا ، فقد أَخرجَ التِّرمذيُّ مِنْ حديثِ سمرةَ بنِ جندبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضاً تَرِدُهُ أُمَّتُه ، وَإِنَّهُم يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُم أَكْثَرُ وَارِدَة ، وَإِنِّي أَرْجُوْ أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُم وَارِدَة » .

ووردَ في بعضِ الأَخبارِ أَنَّ لكلِّ نبيٍّ حوضاً إِلاَّ صالحاً عليهِ السَّلام ، فإِنَّ حوضَهُ ضَرعُ ناقته ، واللهُ تعالىٰ أَعلم .

وأَمَّا الشَّفاعة : فيجبُ اعتقادُها أَيضا ؛ لتعدُّدِ الأَحاديثِ فيها لنبيِّنا صَلَّى اللهُ تَعالَىٰ عَلَيهِ وسَلَّمَ وسائرِ الرُّسلِ والأنبياءِ عليهِمُ السَّلامُ والملائكة ، والصَّحابةِ والشُّهداء ، والصِّدِّيقينَ والأَولياءِ على اختلافِ مراتبِهم ومقاماتِهم ، وبقدرِ جاهِهم ووجاهتِهم . روىٰ أَبو هريرةَ وجابرُ بنُ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « أَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ » . أَخرجَهُ « مسلم » .

وأَخرجَ البيهقيُّ عنِ ابنِ مسعود رضي الله عنه : يشفعُ نبيُّكُم رابعَ أَربعة : جبريل ، ثمَّ إبراهيم ، ثمَّ موسىٰ أَو عيسىٰ ، ثمَّ نبيُّكُم - لا يشفعُ أَحدٌ في أكثرَ ممّا يشفعُ فيهِ نبيُّكُم - ثمَّ الملائكة ، ثمَّ النَّبيُّون ، ثمَّ الصِّدِّيقون ، ثمَّ الشُّهداءُ .

وأَخرجَ البيهقيُّ عن عثمانَ بنِ عفّانَ رَضِيَ اللهُ تَعالَىٰ عَنْهُ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْعُلَمَاءُ ثُمَّ الشُّهَدَاء » وفي رواية : « ثُمَّ الْمُؤَذِّنُون »[1] .

وأخرجَ الطَّبرانيُّ عنِ ابنِ مسعود رضي الله عنه ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « لَيَدْخُلنَّ الْجَنَّةَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ عُذِّبُوا فِي النَّارِ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعالَىٰ وَشَفَاعَةِ الشَّافِعِين » .

وأَخرجَ ابنُ أَبي عاصمٍ عن أَبي أُمامةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « يُجَاءُ بِالعَالِمِ وَالْعَابِد ، فَيُقَالُ لِلْعَابِد : ادْخُلِ الْجَنَّة . وَيُقَالُ لِلْعَالِم : قِفْ حَتَّىٰ تَشْفَعَ لِلنَّاس » وفي رواية : « بِمَا أَحْسَنْتَ أَدَبَهُم » .

وأَخرجَ الديلميُّ مِنْ حديثِ ابنِ عمرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُما - مرفوعا : « يُقَالُ لِلْعَالِم : اشْفَعْ فِي تَلَامِذَتِكَ وَلَوْ بَلَغَ عَدَدُهُم نُجُومَ السَّمَاء » .

وعن أَبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ يقول : « الشَّهِيدُ يَشْفَعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِه » .

---

(١) وقد ذكرنا في بعض المجالس : أن المؤذن يلزمه أن يؤذن بالألفاظ الصحيحة حسبة لله تعالىٰ ، وإذا بلغ وراء الإمام . . ينبغي أن يبلغ علىٰ قدر ما يلزم من غير تمطيط وغناء فاحش ، ومن غير إدخال واو علىٰ (أكبر) فلا تغفل . اهـ منه .

وأَخرجَ البزَّارُ عن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَشْفَعُ فِي الرَّجُلِ وَالرَّجُلَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ يَوْمَ الْقِيَامَة » .

وأَخرجَ الطَّبرانيُّ عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : لا تزالُ الشَّفاعةُ بالنَّاسِ وهُم يخرجونَ مِنَ النَّار ، حتَّىٰ إِنَّ إِبليسَ الأَبالسِ ليتطاولُ لَها رجاءَ أَنْ تصيبَه .

وأَخرجَ البزَّار عن أَبي موسى الأَشعريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « الحَاجُّ يَشْفَعُ فِي أَرْبَعِ مِئةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِه » .

والحاصل : أَنَّ للنَّاسِ شفاعاتٍ بقدرِ أَعمالِهم وقُربِهم مِنَ اللهِ تعالىٰ ، والقرآنُ يشفعُ لأَهله ، والإِسلامُ يشفعُ لأَهله ، والحجرُ الأَسودُ يشفعُ لمستلمه ، ولٰكنْ لا يشفعونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضىٰ وهُم مِنْ خشيتهِ مشفقونَ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ .

وليُعلَم : أَنَّ لنبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ شفاعاتٍ مختصَّةً بجنابهِ الرَّفيعِ وقدرهِ المجيد ، وهيَ عدَّة :

أَوَّلُها ـ وهيَ أَعظمُها وأَعمُّها ـ : شفاعتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ لفصلِ القضاءِ بينَ الورىٰ ، بعدَ التَّردُّدِ إِلى الأَنبياءِ وتدافعِها بينَ أَخيارِ الملأ إِلىٰ أَنْ تصلَ إِلىٰ صاحبِ الحوضِ الموردِ والمقامِ المحمود ، وقد عمَّ الخلْقَ زيادةُ القلقِ وتصاعدُ العرق ، وقاسوا مِنْ ذلكَ ما يذيبُ الأَكبادَ ويُنسي الأَولاد ، وهٰذهِ مُجمعٌ عليها لا يُنكرها أَحد ؛ فقد روىٰ البخاري بسَندهِ عن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ تَعالَىٰ عَنْهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَة ، فَيَقُولُون : لَوِ اسْتَشْفَعْنَا عَلَىٰ رَبِّنَا حَتَّىٰ يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا . فَيَأْتُونَ آدَم ، فَيَقُولُون : أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِه ، وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَك ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا . فَيَقُول : لَسْتُ هُنَاكُم ـ وَيَذْكُرُ خَطِيئَته ويقول ـ: ائْتُوا نُوحاً ، أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ الله . فَيَأْتُونَه ، فَيَقُول : لَسْتُ هُنَاكُم ـ وَيَذْكُرُ خَطِيئَته ـ، ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلاً . فَيَأْتُونَه ، فَيَقُول : لَسْتُ هُنَاكُم ـ وَيَذْكُرُ خَطِيئَته ـ ائْتُوا مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ الله . فَيَأْتُونَه ، فَيَقُول : لَسْتُ

هُناكُم ـ فيَذْكُرُ خطِيئَته ـ ائتُوا عِيسَىٰ : فيَأْتُونَه ، فيَقُول : لَسْتُ هُنَاكُم ، ائتُوا مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم ؛ فقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّر . فيَأْتُونِي ، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ رَبِّي ، فَإِذَا رَأَيْتُه . . وَقَعْتُ سَاجِداً ، فَيَدَعُنِي مَا شَاء ، ثُمَّ يُقَالُ لِي : ارْفَعْ رَأْسَك ، سَلْ تُعْطه ، وَقُلْ يُسْمَع ، وَاشْفَعْ تُشَفَّع . فَأَرْفَعُ رَأْسِي ، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِي ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدّا ، ثُمَّ أُخْرِجُهم مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّة ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ سَاجِداً مِثْلَهُ فِي الثَّالِثَة أَوِ الرَّابِعَة ، حَتَّىٰ مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلاَّ مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآن » . وَكانَ قتادةُ يقولُ عندَ هـٰذا : أَي : وجبَ عليهِ الخلود .

وذكرَ كثيرٌ مِنَ المفسِّرينَ لقولِه تعالىٰ : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ أَنَّهُ المقامُ الَّذي يقومُهُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ لِلشَّفاعةِ يومَ القيامةِ للنَّاس ؛ لِيُريحَهُم ربُّهُم سبحانَهُ ممَّا هُم فيهِ مِنَ الغمِّ والكرب ، كما هوَ مفصَّلٌ في « المواهبِ اللَّدنيَّة » وغيرِها .

ثانيها : أَنَّهُ يشفعُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ عندَ ربِّهِ في إدخالِ قومٍ مِنْ أُمَّتهِ الجنَّةَ بغيرِ حساب ، فإِنَّ هـٰذهِ خاصَّةٌ بهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ كما قالَ القاضي عياض .

ثالثُها : شفاعتُهُ صَلَّى الله عَلَيهِ وسَلَّمَ في قومٍ استوجَبوا النَّارَ بأَعمالِهِم ، فيشفعُ فيهِم فلا يدخلونَها . وقيل : هـٰذهِ غيرُ مختصَّة .

رابعُها : في رفعِ درجاتِ ناسٍ في الجنَّة . قالَ السَّفاريني : وهـٰذهِ لا تنكرُها المعتزلةُ كالأُولىٰ .

خامسُها : الشَّفاعةُ في عمومِ أُمَّتهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ مِنَ النَّارِ حتَّىٰ لا يبقىٰ منهُم أَحد ، ذكرَهُ العلاَّمةُ السُّبكي .

ومنها : شفاعتُهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ لجماعةٍ مِنْ صلحاءِ المسلمينَ ليتجاوزَ عنهُم في تقصيرهم في الطَّاعات .

واعلَمْ أَنَّ المعتزلةَ أَنكرتِ الشَّفاعةَ فيمَنِ استحقَّ النَّارَ مِنَ المؤْمنينَ أَنْ لا يدخلَها ، وفيمَنْ دخلَها منهُم أَنْ يخرجَ مِنها . والأَحاديثُ دامغةٌ لرؤوسهِم ، فمِنها : ما أَخرجَهُ

البيهقيُّ عن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : « مَنْ كَذَّبَ بِالشَّفَاعَة . . فَلاَ نَصِيبَ لَهُ فِيهَا ، وَمَنْ كَذَّبَ بِالْحَوْض . . فَلَيْسَ لَهُ فِيهِ نَصيب » .

وليُعلَمْ أَنَّ الأَعمالَ الموجبةَ لِشفاعتهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ كثيرة ، فمِنها : قولُ لا إِلَـهَ إِلاَّ الله . فقد قالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَال : لاَ إِلَـهَ إِلاَّ الله ، خَالِصاً مِنْ قِبَلِ نَفْسِه » .

ومِنها : إِجابةُ المؤذِّن . روىٰ جابرٌ عنهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ أَنَّهُ قال : « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاء : اللَّهُمَّ رَبَّ هَـٰذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاَةِ الْقَائِمَة ؛ آتِ مُحَمَّداً الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَة ، وَابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً الَّذِي وَعَدْتَه . . حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَة » .

ومِنها : ما أَخرجَهُ مسلمٌ : « لاَ يَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَىٰ لأْوَاءِ المَدِينَةِ وَجَدْبِهَا . . . إِلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً أَوْ شَهِيداً يَوْمَ الْقِيَامَة » .

ومِنها : ما أَخرجَهُ ابنُ ماجه عنِ ابنِ عمر رضي الله عنهما « مَنِ اسْتَطَاعَ أَن يَمُوتَ بِالْمَدِينَة . . فَلْيَمُتْ بِها ؛ فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا » .

وعن سلمان رضي الله عنه : « مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الْحَرَمَيْن . . اسْتَوْجَبَ شَفَاعَتِي ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الآمِنِين » .

ومِنها : ما رواهُ أَبو الدَّرداء رضي الله عنه : « مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ حِينَ يُصْبِحُ عَشْراً وَحِينَ يُمْسِي عَشْراً . . أَدْرَكَتْهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَة » .

ومِنها : زيارةُ قبره . أَخرجَ البزَّارُ عنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما مرفوعاً : « مَنْ زَارَ قَبْرِي . . وَجَبَتْ لَهُ شَفاعَتِي » .

وأَمَّا المحرومونَ مِنْ شفاعتهِ ـ والعياذُ باللهِ تعالىٰ ـ مِنَ الحرمان . . فأَصناف ، مِنهُم ـ كما أَخرجَهُ البيهقيُّ عن معقل رضي الله عنه : « رَجُلاَنِ لاَ تَنَالُهُمَا شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ : إِمَامٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ عَسُوفٌ ، وَآخَرُ غَالٍ فِي دِينِ اللهِ مَارِقٍ مِنْه » . وأَخرجَ البيهقيُّ عن عثمانَ بنِ عفَّان رضي الله عنه : « مَنْ غَشَّ الْعَرَب . . لَمْ يَدْخُلْ فِي شَفَاعَتِي » نقلَ ذلكَ كلَّهُ السَّفاريني .

ومِنَ الأُمورِ الَّتي يجبُ الإيمانُ بها أَيضا : **رُؤْيَةُ اللهِ تعالىٰ** بالأَبصارِ في الجنَّة ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وقد تعامتِ المعتزلةُ أيضاً عن هـٰذهِ الآيةِ وعنِ الأَحاديثِ الآتية ، وأَنكرتِ الرُّؤْيَةُ . قالَ السّفارينيُّ في « منظومته » :

فَـــإِنَّـــهُ يُنْظَـــرُ بِـــالأَبْصَـــارِ   كَمَـا أَتَـىٰ فِـي النَّـصِّ وَالأَخْبَـارِ

وأَخرج مسلم والتِّرمذي عن صهيب رَضِيَ الله عَنْه ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قال : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّة . . يَقُولُ اللهُ : تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُم ؟ فَيَقُولُون : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنْجِنا مِنَ النَّار ؟ قَال : فَيَكْشِفُ الْحِجَاب » أي : الموانعَ عن إِدراكِ أَبصارِهم « حَتَّىٰ يَرَوْه ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبّ إِلَيْهِم مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِم » ثمَّ تلا هـٰذهِ الآيَةَ ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ فالحسنىٰ هيَ الجنَّة ، والزِّيادةُ هيَ النَّظرُ إِلىٰ وجهِ الرَّحمـٰن . وروى اللاَّلكائيُّ وغيرُهُ مِثلَهُ عن عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَه .

وروى الطَّبرانيُّ عن عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ أَنَّهُ قالَ في قولهِ تعالىٰ : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ هوَ النَّظرُ إِلىٰ وجهِ اللهِ عزَّ وجل .

وفي « الصَّحيحين » عنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قالَ لمّا نظرَ إِلى القمرِ ليلةَ أَربعةَ عشر : « إِنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبَّكُم عِيَاناً كَمَا تَرَوْنَ هَـٰذَا القمر ، لاَ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَتِه » أَي : لا ترتابون . وفي لفظ : « لاَ تُضَامُون » بضمِّ أَوَّلهِ وتخفيفِ الميم . أَي : لا يلحقكم ضيمٌ ولا مشقَّةٌ في رؤيته .

وأَخرجَ اللاَّلكائيُّ عنِ الحسنِ في قولهِ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ قال : إِذَا كانَ يومُ القيامة . . برزَ ربُّنا تباركَ وتعالىٰ ، فيراهُ الخلْقُ ويُحجبُ الكفّار .

وبقيتْ في هـٰذهِ المسائلِ أَبحاثٌ كثيرة ، منْ أَرادَها . . فعليهِ بالمطوَّلات .

فيا كثيرَ الخلافِ يا عظيمَ الشِّقاق ، يا قليلَ الصَّوابِ يا عديمَ الوفاق ، يا مَنْ سيبكي كثيراً إِذا انتبهَ وأَفاق ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ ؛ أَينَ مَنْ أَنِسَ بالدُّنيا ، ونسيَ الزَّوال ؟! أَينَ مَنْ عمَّرَ القصور ، وجَمَعَ المال ؟! تقلَّبتْ بالقومِ أَحوالُ الأَهوال .

كم أَراكَ مولاكَ عبرة ، وقد قال : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ ﴾ .

أَينَ صديقُكَ المؤانس ؟ أَينَ رفيقكَ المجالس ؟! أَينَ الماشي فقيراً ، وأَينَ الفارس ؟ اِمتدَّتْ إلى الكلِّ كفُّ المخالس ، فنزلوا تحتَ الأَطباق ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ . وكأَنْ قد رحلتَ كما رَحلوا ، ونزلتَ قريباً حيثُ نزلوا ، وحُملتَ إلى القبرِ كما حُملوا ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ .

مَنْ لكَ إذا أَلَمَّ الأَلَمُ وسكنَ الصَّوت ، وتمكَّنَ النَّدمُ ووقعَ الفَوْت ، وأَقبلَ لأَخذِ الرُّوحِ مَلَكُ الموت ، وجاءَتْ جنودُه ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ ونزلتَ منزلاً ليسَ بمسكون ، وتعوَّضتَ بعدَ الحركاتِ سكون ؟

فيا أَسفي لكَ كيفَ تكون ، وأَهوالُ القبرِ لا تُطاق ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ وفُرِّقَ مالُكَ وسُكِنَتِ الدَّار ، ودارَ البلىٰ فما دارٌ إِذْ دار ، وشغلَكَ الوزرُ عمَّنْ هجرَ أَو زار ، ولَم ينفعكَ نَوْحُ ندمِ الرِّفاق ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ .

أَما أَكثرُ عمركَ قد مضىٰ ؟! أَما معظمُ زمانكَ قدِ انقضىٰ ؟! أَفي أَفعالكَ ما يصلحُ للرِّضا ، إِذا التقينا يومَ التَّلاق ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ .

يا ساعياً في هواه ؛ تذكَّرْ أَمسك ، يا مَنْ سعىٰ إِلىٰ خطايا خطاه ؛ تذكَّرْ حبسك ، يا مأْسوراً في سجنِ الشَّهوات ؛ خلِّصْ نفسَكَ قَبْلَ أَنْ تعزَّ السَّلامةُ ويعتاقَ الإِعتاق ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ .

ويُنصبُ الصِّراطُ ويوضعُ الميزان ، ويُنشرُ الكتابُ بجزاءِ ما قد كان ، ويَشهدُ الجِلدُ والملكُ والمكان ، والنَّارُ الحبسُ والحاكمُ الخلاَّق ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ فحينئذٍ يشيبُ المولود ، وتَخرَسُ الأَلسنةُ وتنطقُ الجلود ، وتظهرُ الوجوهُ بينَ بِيضٍ وسود ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ .

فانتهبْ عمراً يفنىٰ بالمساءِ والصَّباح ، وعامِلْ مولىً يجزلُ العطايا والأَرباح ، ولا تبخل ؛ فقد حثَّ على السَّماح ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ .

اللَّهُم ، يا حبيبَ كلِّ غريب ، ويا أَنيسَ كلِّ كئيب ؛ أَيَّ منقطعٍ إِليكَ فلَم تَصِلْه ؟!

أَمْ أَيّ داعٍ دعاكَ فلَم تُجبه ؟! ويروىٰ عنكَ سبحانكَ أَنَّكَ قلت : « وَمَا غَضِبْتُ عَلَىٰ أَحَدٍ كَغَضَبِي عَلَىٰ مُذْنِبٍ أَذْنَبَ ذَنْباً فَاسْتَعْظَمَهُ فِي جَنْبِ عَفْوِي » .

فيا مَنْ يغضبُ علىٰ مَنْ لا يسأله ؛ لا تَمنعْ مَنْ قد سأَلك ، أَنتَ الَّذي دلَّلتَ بجودِكَ عليك ، وأطلقتَ الألسنةَ بالسُّؤَالِ لديك .

اللَّهُم ؛ أَعطِ كلَّ سائلٍ لكَ مِنَ الخيرِ مراده ، وأنلنا الحسنىٰ والزِّيادة ، واجعلْنا على الصِّراطِ مِنَ العابرين ، وعلىٰ حوضِ نبيِّكَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ مِنَ الواردينَ الشَّاربين ، وأَعطِنا صحائِفَنا باليمين ، وامحُ سيِّئاتِنا ، وثقّلْ ميزانَ حسناتِنا ، واجعلْنا مِنْ أَهلِ شفاعةِ نبيِّكَ الأَمين .

وارحمِ **اللَّهُمَّ** ما خَلَقْت ، واغفرْ ما قدَّرت ، وطيِّبْ ما رَزَقت ، ولا تهتكْ في الدَّارينِ ما سَترت ، وارحمنا ووالدينا والمسلمين ، وكافَّةَ المؤْمناتِ والمؤْمنين . وصلِّ علىٰ مُحَمَّدٍ وآلهِ أَجمعين ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمين .

* * *

المجلس الحادي والخمسون
في النار أعاذنا الله منها والجنة ونسأله دخولها

بِسْمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ مبلِّغِ الرَّاجي فوقَ مأمولِه ، ومعطي اللاَّجي زيادةً علىٰ سؤلِه ، المنّانِ على التَّائبِ بِصَفْحِهِ وقَبولِه . خَلَقَ الآدميَّ وأَنشأَ لَهُ داراً لِحُلُولِه ، وجعلَ الدُّنيا مرحلةً لِنزولِه ، فتوطَّنها مَنْ لَم يَعرفْ شرفَ الدَّارِ الأُخرىٰ لخمولِه . أَو ما ترىٰ غربانَ البينِ تنوحُ علىٰ طلولِه ؟! ارحلوا عنها بإيمانٍ كامل ، فرُبَّ قفرٍ يُخَافُ مِنْ غولِه . سابقوا إِلىٰ مغفرةٍ مِنْ ربِّكُم وجنَّةٍ عرضُها كعرضِ السَّماءِ والأَرضِ أُعدَّتْ لِلذينَ آمَنوا باللهِ ورسولِه .

أَحمدُهُ علىٰ نَيْلِ الهدىٰ وحصولِه ، وأُقِرُّ بوحدانيَّتِهِ إِقرارَ عارفٍ بالدَّليلِ وأُصولِه . وأُصلِّي وأُسلِّمُ علىٰ سيِّدِنا مُحَمَّدٍ عبدِهِ ورسولِه ، وعلىٰ صاحبِهِ أَبي بكر الصِّدِّيقِ الَّذي يُبغِضُهُ المبتدعُ[1] بفضولِه ، وعلىٰ عمرَ حامي الإسلام بسيفِ عزمٍ لا يخافُ مِنْ فلولِه ، وعلىٰ عثمانَ الصَّابرِ على البلاءِ حينَ نزولِه ، وعلىٰ عليٍّ بنِ أَبي طالبِ الصَّائلِ بشجاعتِهِ قَبْلَ أَنْ يصولَ بنصولِه ، وعلىٰ سائرِ آلِهِ وأَصحابِهِ الفائزينَ مِنَ الإِيمانِ بشُعبِهِ وأُصولِه ، صلاةً وسلاماً دائمينِ ما تردَّدَ النَّسيمُ بينَ شمالِهِ وجنوبِهِ وقبولِه .

أَمّا بعد : فقد قالَ اللهُ تعالىٰ في مُحكم كتابه : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ

---

(١) نسخة : (الرافضي) . اهـ منه .

أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

فنقول ـ وباللهِ تعالى التَّوفيق ـ :

قالَ المفسِّرونَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية . أَي : ساقتِ الملائكةُ الكافرينَ بعدَ انقضاءِ الحسابِ سوقاً عنيفاً ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أَي : إِلى النَّار ، حالَ كونهم ﴿زُمَرًا﴾ أَي : جماعاتٍ متفرِّقة ، بعضُها يتلوا بعضاً ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أَي : أبوابُ النَّارِ ليدخلوها . وهيَ سبعةُ أَبواب ، وكانت قَبْلَ ذلكَ مغلَّقة .

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ جمعُ خازن ، وهُمُ الملائكةُ المأْمورونَ عليها : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أَي : مِنْ أَنفُسِكُم وجنسِكُم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ الَّتي أَنزلَها عليكُم ؛ كالتَّوراةِ المبشِّرِ فيها ببعثةِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ والقرآنِ المبين .

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أَي : يُخوِّفونَكُم لقاءَ ﴿هَٰذَا﴾ الوقتِ الشَّديد . وإِنَّما قالوا لَهم ذلكَ توبيخاً لَهم ، فأَجابوا معترفينَ ولَم يقدروا على الجدلِ الَّذي كانوا يَتعلَّلونَ بهِ في الدُّنيا ؛ لظهورِ الأَمرِ وانكشافه ، ولهٰذا ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهي : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ .

ثم ﴿قِيلَ﴾ لهم أَي : قالَ لَهُمُ الملائكةُ الموكلونَ بعذابهم : ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ الَّتي قد فُتِّحَتْ لدخولِكُم ﴿خَالِدِينَ﴾ أَي : مقدَّرينَ الخلودَ ﴿فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ . جهنَّم .

وليُعلَمْ أَنَّهُ قد وردت أَحاديثُ وآياتٌ كريمةٌ في عددِ أَبوابِ جهنَّمَ وصفاتِها ـ أَجارَنا اللهُ تعالىٰ وإِيَّاكُم مِنها :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ

مَقۡسُومٌ ﴾ قالَ ابنُ جريج : أَوَّلُها جهنَّم ، ثمَّ لظىٰ ، ثمَّ الحطمة ، ثمَّ السَّعير ، ثمَّ سقر ، ثمَّ الجحيم ، ثمَّ الهاوية .

قالَ عليٌّ كرَّمَ الله وجهَهُ : إِنَّ أَبوابَ جهنَّمَ هٰكذا بعضُها فوقَ بعض . وأَومأَ[1] الرَّاوي بأَصابعه .

وقالَ الضَّحّاك : هيَ سبعةُ أَدراك ، بعضُها فوقَ بعض :

فأَعلاها فيهِ أَهلُ التَّوحيدِ يُعذَّبونَ علىٰ قدرِ ذنوبهِم ، ثمَّ يخرجون .

والثّاني : فيهِ النَّصارىٰ .

والثَّالثُ : فيهِ اليهود .

والرَّابعُ : فيهِ الصّابئون .

والخامسُ : فيهِ المجوس .

والسَّادسُ : فيهِ مُشركوا العرب .

والسَّابعُ : فيهِ المنافقون .

وعن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « أُوقِدَ عَلَى النّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمرَّت ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابيَضَّت ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنةٍ حتَّى اسْوَدَّت ، فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَة » .

وفي « الصَّحيحين » عنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « نَارُكُم هَـٰذِهِ الَّذِي يُوقِدُ بَنُو آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ حَرِّ جَهَنَّم » قالوا : واللهِ إِنْ كانتْ لكافيةً يا رسولَ الله . قال : « فَإِنَّها فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءاً ، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا » .

ورَوىٰ مسلم عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَام ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا » .

---

(١) أَومَأَ : أشار .

وروى ابنُ عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّوم قَطَرَتْ فِي الأَرْض . . لأَمَرَّتْ عَلَىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا مَعِيشَتَهُم ، فكيفَ بمَنْ هوَ طعامُهُ وليسَ لَهُ طعامٌ غيره ؟ »

ورويَ أَنَّ عمرَ بنَ الخطّابِ رَضِيَ الله عَنْهُ قالَ يوماً لكعب : يا كَعْب ؛ خوِّفنا .

فقال : يا أَميرَ المؤمنين ؛ اعملْ عملَ رجلٍ ، لَو وافيتَ القيامةَ بعملِ سبعينَ نبيّاً . . لازدريتَ عملكَ ممّا ترىٰ . فأَطرقَ عمرُ مليّاً ، ثمَّ أَفاق ، فقال : زِدنا يا كعب .

فقلت : يا أَميرَ المؤمنين ؛ لَو فُتِح مِنْ جهنَّمَ قدرُ منخرِ ثورٍ بالمشرقِ ورجلٍ بالمغرب . . لَغلىٰ دماغُهُ حتَّىٰ يسيلَ مِنْ حرِّها . فأَطرقَ عمرُ مليّاً ، ثمَّ أَفاقَ فقال : زِدنا يا كعب .

فقال : يا أَميرَ المؤمنين ؛ إِنَّ جهنَّمَ لتزفرُ يومَ القيامةِ زفرةً لا يبقىٰ ملكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسَلٌ إِلاَّ خرَّ جاثياً علىٰ رُكبتيه ، يقول : نَفْسي نَفْسي ، لا أَسأَلُكَ اليومَ إِلاَّ نَفْسي .

وقالَ أَبو عمران : إِذا كانَ يومُ القيامة . . أَمرَ اللهُ تعالىٰ بكلِّ جبّارٍ عنيد ، وكلِّ شيطانٍ مريد ، وكلِّ مَنْ يخافُ النَّاسُ في الدُّنيا شرَّهُ فأُوثِقوا بالحديد ، ثمَّ أَمر بهِم إِلىٰ جهنَّمَ ثمَّ أَوصدوها عليهِم ـ أَي : أَطبقوها وأَغلقوها ـ فلا واللهِ لا تستقرُّ أَقدامُهُم علىٰ قرارٍ أَبداً ، ولا تلتقي جفونُ أَعينهِم علىٰ غمضِ نومٍ أَبداً ، ولا يذوقونَ فيها باردَ شرابٍ أَبداً .

وأَنشدَ بعضُهم في ذلك :

لَـوْ أَبْصَـرَتْ عَيْنَـاكَ أَهْـلَ الشَّقَـا	سِيقُـوا إِلَـى النَّـارِ وَقَـدْ أُحْـرِقُـوا
يَصْلَـوْنَهَـا حِيـنَ عَصَـوْا رَبَّهُـم	وَخَـالَفُـوا الـرُّسْـلَ وَمَـا صَـدَّقُـوا
تَقُـولُ أُخْـرَاهُـمْ لأُولاَهُـمُ	فِـي لُجَـجِ الْمُهْـلِ وَقَـدْ أُغْـرِقُـوا
قَـدْ كُنْتُـم حُـذِّرْتُـمُ حَـرَّهَـا	لَكِـنْ مِـنَ النِّيـرَانِ لَـمْ تَفْـرَقُـوا

وَجِـيءَ بِـالنِّيـرَانِ مَـذْمُـومَـةً ... شرارُهَـا مِـنْ حَـوْلِهَـا مُحْـدِقُ
وَقِيـلَ لِلنِّيـرَانِ أَنْ أَحْـرِقِـي ... وَقِيـلَ لِلخُـزَّانِ أَنْ أَطْبِقُـوا
وَأَوْلِيَـاءُ اللهِ فِـي جَنَّـةٍ ... قَـدْ تُـوِّجُـوا فِيهَـا وَقَـدْ طُـوِّقُـوا

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ ﴾ أَي : ساقتْهُمُ الملائكةُ سَوْقَ إعزازٍ وتشريفٍ وتكريم .

والمرادُ بذلكَ السَّوق : إيفادهُم إِلىٰ دارِ الكرامةِ والرِّضوان ، بخلافِ السَّوْقِ الأَوَّل ؛ فَإِنَّهُ للتَّعذيبِ والهوان .

وقيل : الكلامُ علىٰ حذفِ مضاف ؛ أَي : سيقت مراكبُهُم ، إِذْ لا يُذهبُ بِهِم إِلاَّ راكبين .

﴿ زُمَرًا ﴾ أَي : جماعات ، فجماعةُ أَهلِ الصَّلاةِ علىٰ حِدَةٍ وأَهلِ الصَّومِ كذلك ، إِلىٰ غيرِ ذلك .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا ﴾ جوابُ (إِذا) محذوف ، تقديرُه : سَعِدوا ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ وقيل : الجوابُ : فتِّحَتْ ، و(الواو) زائدة .

وقيلَ إِنَّ هـٰذهِ الواو تسمَّىٰ واو الثَّمانية ؛ وذلكَ أَنَّ مِن عادةِ العربِ أَنَّهُم كانوا يقولونَ في العدد : خمسة ، ستَّة ، سبعة ، وثمانية . وفي الآيةِ وجوهٌ أُخَرُ فلتُطلَبْ في التَّفاسيرِ المطوَّلات .

ثمَّ أَخبرَ سبحانَهُ أَنَّ خزنةَ الجنَّةِ يُسلِّمونَ على المؤمنين ، فقال : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أَي : سلامةٌ لَكُم مِنْ كلِّ آفةٍ لا يعتريكُم بعدَها مكروه . وقد حيَّتْهُمُ الملائكةُ بما حيَّتْ بهِ آدمَ عليهِ السَّلام ، فقد أَخرجَ الإمامُ أَحمد عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قالَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِه » أَي : لَم يَنْمُ كالأَطفال « طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً ، فَلَمَّا خَلَقَه . . قَالَ له : اذهَبْ فَسَلِّمْ عَلَىٰ أُولَـٰئِكَ النَّفَر ، وَهُم نَفَرٌ مِنَ المَلاَئِكَةِ جُلُوس ، فَاسْمَعْ مَا يُحَيُّونَك ؛ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُك وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِك . فَذَهَب ، فَقَال : اَلسَّلامُ عَلَيْكُم . فَقَالُوا : السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ الله .

قَال : فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ آدَمَ طُولُهُ ستُّونَ ذِرَاعاً ، فَلَمْ يَزَلْ يَنْقُصُ الْخلْقُ بَعْدُ حتَّى الآن » متَّفقٌ عليه .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿طِبْتُمْ﴾ أَي : طُهِّرتُم في الدُّنيا ، فلَم تُدنِّسوا بالشِّركِ والمعاصي .

وقيل : طابَ لكُم المقام .

وقالَ مقاتل : إذا قَطعوا جسرَ جهنَّم . . حُبِسوا علىٰ قنطرةٍ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ فيقتصُّ لبعضِهِم مِنْ بعضٍ مظالمَ كانت بينَهُم ، حتَّىٰ إذا هُذِّبوا وطُيِّبوا . . قالَ لَهم رضوانُ خازنُ الجِنانِ وأَصحابُه : سلامٌ عليكُم طِبتُم ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ أَي : ادخلوا الجنَّةَ مقدّرينَ الخلود ﴿وَ﴾ عندَ ذلكَ ﴿قَالُواْ﴾ أَي : أَهلُ الجنَّة : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بالبعثِ والثَّوابِ بالجنَّةِ في قولهِ سبحانَه : ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أَي : أَرضَ الجنَّة ، كأَنَّها صارت مِنْ غيرِهِم إِليهِم فملكُوها وتصرَّفوا فيها تصرُّفَ الوارثِ فيما يرثُه .

وقالَ أَكثرُ المفسِّرين : إِنَّ المؤمنينَ ورِثوا الأَرضَ الَّتي كانت لأَهلِ النَّارِ لَو كانوا مؤمنين .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أَي : نتَّخذُ مِنَ المنازِلِ فيها ما نشاءُ حيثُ نشاء ، فلا يختارُ أَحدٌ مكانَ غيرِه . وقيل : يتخيَّرُ كلُّ واحدٍ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَينَ ينزل ، تكرمةً لَهُ وإِنْ كانَ لا يختارُ إِلاَّ ما قُسمَ لَه . وأَمّا بقيَّةُ الأُمم . . فيدخلونَ بعدَ أُمَّةِ نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ فينزلون فيما فضلَ عنهُم .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أَي : في الدُّنيا وأَجرهُم في الجنَّة ، وهٰذا مِنْ تمامِ قولِ أَهلِ الجنَّة .

وقيل : هوَ مِنْ قولِ اللهِ سبحانَه .

ولنذكر لكُم بعضاً مِنْ صفاتِ أَهلِ الجنَّةِ ومنازلِهم وأَماكنِهُم ، وما يتعلَّقُ بذلك :

أَخرج الإِمامُ أَحمد عن أَبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْداً مُرْداً بِيضاً مُكَحَّلِين ، أَبْنَاءَ ثَلاَثٍ

وَثَلاَثِين ، وَهُمْ عَلَىٰ خَلْقِ آدَمَ ستُّونَ ذِرَاعاً فِي عَرْضِ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ » .

ومِنْ روايةِ أَنس : « ثُمَّ يُذْهَبُ بِهِم إِلَىٰ شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ فَيُكْسَوْنَ مِنْهَا ، لاَ تَبْلَىٰ ثِيَابُهُم وَلاَ يَفْنَىٰ شَبَابُهُم » .

ومِنْ روايتهِ الأُخرىٰ : « عَلَىٰ حُسْنِ يُوسُف ، وَعَلَىٰ لِسَانِ مُحَمَّد » .

وفي رواية : « وَقَلْبِ أَيُّوبَ ذَوِي أَفَانِين » أَي : شعورٍ وجمم .

وقد وردَ في رواياتٍ مختلفةٍ : أَنَّ أهلَ الجنة لا بولَ لَهم ولا غائط ، ولا يولدُ لَهم أَولاد ، ولا ينامون ، وليسَ لأَحدٍ منهُم لحية .

وما ذُكِرَ أَنَّ لبعضِ الأَنبياءِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ لحىً . . فهوَ قولٌ مردودٌ وخبرٌ مصنوع . وكذا مَنْ زَعَمَ أَنْ ليسَ لأَهلِ الجنَّةِ أَسنان ، وكذا مسأَلةُ التَّوالدِ فيها خلاف .

وقالَ بعضُهم : إِنَّ المؤمِنَ إِذا اشتهى الولدَ في الجنَّة . . كانَ حَمْلُهُ ووضْعُه وسِنُّهُ في ساعةٍ واحدةٍ كما يشتهي ، كما نصَّ علىٰ ذلكَ الشَّيخُ مُحَمَّدٌ السّفارينيُّ في كتابهِ « البحورُ الزَّاخرة » .

وأَعلىٰ أَهلِ الجنَّةِ منزلة : نبيُّنا وشفيعُنا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم ؛ إِذْ هيَ الوسيلةُ الَّتي وُعِدَ بها عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم .

وأَخرجَ التِّرمذيُّ عنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُما قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « إِنَّ أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَة : لَمَنْ يُنْظَرُ إِلَىٰ جِنَانِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَنَعِيمِهِ وَخَدَمِهِ وَسُرُرِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَة ، وَأَكْرَمُهُم عَلَى الله : مَنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ وَجْهِهِ غدوة وَعَشِيَّة » ثمَّ قرأَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

قالَ السّفاريني : وأَمّا تحفةُ أَهلِ الجنَّةِ إِذا دخلوها . . فزيادةُ كبدِ النُّون ـ أَي : الحوت ـ كما أَخرجَهُ مسلمٌ في « صحيحه » عن ثوبانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : كنتُ قائماً عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ فجاءَ حبرٌ مِنْ أَحبارِ اليهود ، فقال : السَّلامُ عليكَ يا مُحَمَّد . فدفعتُهُ دفعةً كادَ يصرعُ مِنها ، فقال : لِمَ تدفعُني ؟ فقلت : أَلا تقول : يا رسولَ الله ؟! فقالَ اليهودي : إِنَّما ندعوهُ باسمهِ الَّذي سمّاهُ بهِ أَهلُه . فقالَ صَلَّى اللهُ

عَلَيهِ وسَلَّم : « إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهلي » فقالَ اليهودي : جئْتُ أَسأَلُك . فقالَ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم : « أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُك ؟ » قال : أَسمعُ بأُذنيَّ .

فنكتَ[1] رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ بعُودٍ معَه ، فقال : « سَل » فقالَ اليهودي : أَينَ تكونُ النَّاسُ يومَ تُبدَّلُ الأَرضُ غيرَ الأَرضِ والسَّموات ؟ فقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « هُمْ فِي ظُلْمَةٍ دُونَ الْجِسْر[2] » قال : فمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجازةً[3] ؟ قال : « فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِين » قالَ اليهودي : فما تحفتُهم[4] حينَ يدخلونَ الجنَّةَ قال : « زِيَادَةُ كَبِدِ النُّون[5] » قال : فما غذاؤُهم علىٰ أَثرِها ؟ قال : « يُنْحَرُ لَهُم ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : فما شرابُهُم عليه ؟ قال : « مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً » قال : صدقت . قال : وجئْتُ أَسأَلُكَ عن شيءٍ لا يعلمُهُ أَحدٌ مِنْ أَهلِ الأَرضِ إِلاَّ نبيٌّ أَو رجلٌ أَو رجلان . قال : « يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُك ؟ » قال : أَسمعُ بأُذني . قال : جئْتُ أَسأَلُكَ عن الولد . قال : « مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَر ، فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلاَ مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَة . . أَذْكَرَا بِإِذْنِ الله ـ أَي : أَتَى المولودُ ذَكراً ـ وَإِذَا عَلاَ مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُل . . آنَثَا بِإِذْنِ الله ـ أَي : جاءَ المولودُ أُنثىٰ ـ فقالَ اليهودي : لقد صدقت ، وإِنَّكَ لنبي . ثمَّ انصرف فذهبَ .

فقالَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « لَقَدْ سَأَلَنِي هَـٰذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ وَمَالِيَ عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ حَتَّىٰ أَتَانِي اللهُ بِه » .

وعن وهبِ بنِ منبهٍ ، عنِ ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قال : خلقَ اللهُ الجنانَ يومَ خلقَها ، وفضَّلَ بعضَها علىٰ بعض ، فهيَ سبعُ جنان : دارُ الجلال ، ودارُ السَّلام ، وجنَّةُ عدن ـ وهيَ قَصَبَةُ الجنَّة ، وهيَ مشرفةٌ على الجنانِ كلّها ، وبابُ جنَّةِ عدنٍ

---

(١) **نكت** : نقر الأرض بعود ، ولعله القضيب الذي اتخذه صلى الله عليه وسلم كما ذكروه في أدواته في كتب السيرة .

(٢) **الجسر هنا** : الصراط .

(٣) **إجازةً** : عبوراً .

(٤) **التحفة** : ما يهدىٰ إلى الرجل ، ويخصّ ويُلاطَف به .

(٥) **النّون** : الحوت .

مصراعانِ مِنْ زمرُّذ وزبرجدٍ كما بينَ المشرقِ والمغرب ـ وجنَّةُ المأوىٰ ، وجنَّةُ الخلد ، وجنَّةُ الفردوس ، وجنَّةُ النَّعيم .

وعن أَبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مئةَ دَرَجَة ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرض ، وَإِنَّ جنَّةَ الْفِرْدَوْسِ أَوْسَطُهَا ، وأَعْلاَهَا سَمَاء ، وَعَلَيْهَا يُوضَعُ الْعَرْشُ يَوْمَ الْقِيَامَة ، وَمِنْهَا تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّة » . قالَ رجل : بأَبي أَنتَ وأُمِّي يا رسولَ الله ، فيها خيل ؟ قال : « نَعم ، والَّذي نَفْسِي بِيَدِه ، إِنَّ فِيهَا لَخَيْلاً مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ تَزِنّ بِهِم خِلاَلَ وَرَقِ الْجَنَّةِ يَتَزاوَرُون عَلَيْهَا » فجاءَ رجلٌ فقال : بأَبي وأُمِّي يا رسولَ الله ، هل فيها إِبل ؟ قال : « نَعَم ، وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِه ، إِنَّ فِيهَا لإِبلاً مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاء ، أَرحَالُهَا الذَّهَبُ والْفِضَّةُ مُحَفِّينَ نمارق الديباج تَزِنُّ بهم بين خلال ورق الجنة يتزاورون عليها » فجاءَ رجلٌ فقال : بأبي أَنتَ وأُمِّي ، هل فيها صوت ؟ قال : « نعَم ، والَّذي نَفْسِي بيَدِه ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيُوحِي إِلَىٰ شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ أَنْ أَسْمِعِي عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ الَّذِينَ شَغَلَهُم ذِكْرِي فِي الدُّنْيَا عَنْ عَزْفِ الْمَزاهِرِ وَالْمَزَامِيرِ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيس » .

وفي « التَّبصرة » عن عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ قال : (يُساقُ الَّذينَ اتَّقوا ربَّهُم زُمرا ، حتَّىٰ إِذا انتهوا إِلىٰ أَوَّلِ بابٍ مِنْ أَبوابِها . . وجدوا عندَها شجرةً يخرجُ مِنْ تحتِ ساقِها عينانِ تجريان ، فعمدوا إِلىٰ إِحداهُما كأَنَّما أُمروا بها فشَربوا مِنها ، فأَذهبَ ما في بطونِهم مِنْ قذىً وأَذىً ، ثمَّ عَمدوا إِلى الأُخرىٰ فتطهَّروا مِنها ، فجرت عليهم نضرةُ النَّعيم ، فلَنْ تتغيَّرَ أَبشارُهُم بعدَها أَبداً ولَنْ تشعثَ أَشعارُهم ، كأَنَّمَا دهنوا ، ثمَّ انتهوا إِلىٰ خزنةِ الجنَّةِ فقالوا : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ ثمَّ تلقاهُمُ الولدانُ يطيفونَ بهِم كما يطيفُ ولدانُ الدُّنيا بالحميمِ يقدمُ مِنْ غيبته ، فيقولونَ لَه : أَبشِرْ بما أَعدَّ اللهُ لَكَ مِنْ إِكرامه . قال : ثمَّ ينطلقُ غلامٌ مِنْ أُولئِكَ الغلمانِ إِلىٰ بعضِ أزواجهِ مِن الحورِ العين ، فيقول : قد جاءَ فلانٌ باسمهِ الَّذي كانَ يُدعىٰ بهِ في الدُّنيا . فتقول : أَنتَ رأَيتَه ؟ فيقول : أَنا رأَيتُه ، وهـٰذا بأَثري فيستخفُّ إِحداهنَّ الفرح حتَّىٰ تقومَ علىٰ أُسْكُفَّةِ بابِها . فإِذا انتهىٰ إِلىٰ منزلها . . نظرَ أَيُّ شيءٍ أَساسُ بنيانه ؟ فإِذا جندلُ اللُّؤلؤ

فوقَهُ صرحٌ أَخضرُ وأَصفرُ وأَحمرُ ومِنْ كلِّ لون ، ثمَّ رفعَ رأْسَهُ فنظرَ إِلىٰ سقفهِ فإِذا مِثلُ البرق ، فلولا أَنَّ اللهَ تعالىٰ قدَّرَهُ له . . لأَلَمَّ أَنْ يذهبَ بصرُه . ثمَّ طأْطأَ رأْسَهُ فنظرَ إِلىٰ أَزواجهِ وأَكوابٍ موضوعةٍ ونمارقَ مصفوفةٍ وزرابيِّ مبثوثة ، فقالوا : الحمدُ للهِ الَّذي هدانا لهـٰذا وما كنّا لنهتديَ لولا أَنْ هدانا الله . ثمَّ ينادي مناد : تَحيونَ فلا تموتون ، وتُقيمونَ فلا تَظعنون) .

وقالَ أَبو هريرة رضي الله عنه : إِنَّ أَدنىٰ أَهلِ الجنَّةِ منزلة : مَنْ يغدو عليهِ كلَّ يومٍ ويروحُ خمسةَ عشرَ أَلف خادم ، ليسَ منهُم خادمٌ إِلاَّ معَهُ طُرفةٌ ليستْ معَ صاحبه .

وَأَمّا ريحُ الجنَّة : فقد أَخرجَ الطَّبرانيُّ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو رضي الله عنهما ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً مِنْ أَهْلِ الذِّمَّة . . لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّة ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ مئةِ عَام » وأَخرجه « البخاري » بلفظ : « لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَاماً » .

وأَخرج أَبو داوود الطَّيالسي عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْه : « مَنِ ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيه . . لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّة ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِينَ عَاماً » . وفي رواياتٍ أُخَر : « لاَ يَجِدُ رِيحَهَا مَنَّانٌ بِعَمَلِه ، وَلاَ عَاق ، وَلاَ مُدْمِنُ خَمْر ، وَلاَ قَاطِعُ رَحِم ، وَلاَ شَيْخٌ زَان ، وَلاَ جَارٌّ إِزَارَهُ خُيَلاء » .

وعن أَبي هريرةَ مرفوعاً : « مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَىٰ بِهِ وَجْهُ اللهِ لاَ يَتَعَلَّمُهُ إِلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ غَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا . . لَمْ يَجِدْ عرف الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَة » .

وأَمّا النِّداءُ في الجنَّة : فقد أَخرجَ مسلمٌ عن أَبي سعيدٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « يُنَادِي مُنَاد : إِنَّ لَكُم أَنْ تَصِحُّوا فَلاَ تَسْقَمُوا أَبَداً ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلاَ تَمُوتُوا أَبَداً ، وَإِنَّ لَكُم أَنْ تَشِبُّوا فَلاَ تَهْرَمُوا أَبَداً ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلاَ تَبْأَسُوا أَبَداً » وذلكَ قولُ اللهِ عزَّ وجل : ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ .

وأَمّا أَشجارُها : قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴾ أَي : لا شوكَ فيه ﴿ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴾ أَي : موز متراكم قد نضدَ بالحملِ مِنْ أَوَّلهِ إِلىٰ آخره . قالَهُ في « البحورِ الزّاخرة » .

وأخرجَ الشَّيخانِ عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِئَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا ، فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُم : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ » .

وأمَّا ثمارُها : فقد قالَ الرَّبيعُ بنُ أَنسٍ ويحيىٰ بنُ كثير : عشبُ الجنَّةِ الزَّعفرانُ وكثبانُها المسك ، فيطوفُ عليهِمُ الولدانُ بالفاكهةِ فيأكلُونَها ثمَّ يأْتونَهُم بمثلِها ، فيقولون : هـٰذا الَّذي جئتُمونا بهِ آنفا! فيقولُ لهمُ الخدم : كُلوا ؛ فاللَّونُ واحدٌ والطَّعمُ مختلف ، فهوَ قولُهُ عزَّ وجل : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أي : لا تكونُ في وقتٍ دونَ وقتٍ كثمارِ الدُّنيا ، ولا تُمنَعُ ممَّنْ أَرادَها .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ أَي : ثمارُها قريبةٌ يتناولونَها كيف شاؤوا ، قياماً وقعوداً ومضَّجعين .

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُما : ثمرُ الجنَّةِ أَمثالُ القلالِ والدِّلاء ، أَشدُّ بياضاً مِنَ اللَّبنِ وأَحلىٰ مِنَ العسلِ وأَلينُ مِنَ الزُّبد ، ليسَ فيهِ عجم .

القلال : جمعُ قلَّة ، وهي الحبُّ العظيمُ أَوِ الجرَّة . والدِّلاء : جمعُ دلو . والعجم : النَّوىٰ .

وَأمّا أَنهارُها وعيونُها وطعامُ أَهلِها وشرابُهم وآنيتُهم وثيابُهم : قالَ تعالىٰ : ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ أي : لا يتغيَّرُ ولا ينتنُ مِنْ طولِ المكث . ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ .

وأَخرجَ ابنُ أَبي الدُّنيا عن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : أَظنُّكُم تظنُّونَ أَنهارَ الجنَّةِ أُخدوداً في الأَرض ؟ لا والله ، إِنَّها لسائحةٌ علىٰ وجهِ الأرض ، إِحدىٰ حافَّتيها اللُّؤلُؤُ

والأُخرى الياقوت ، وطينةُ المسكُ الأذفر . أَي : الخالصُ الشَّديدُ الرَّائحة .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ .

أَخرجَ الشَّيخانِ عن حذيفةَ بنِ اليمان رضي الله عنهما : أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : « لاَ تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلاَ تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهِمَا ؛ فَإِنَّها لَهُم فِي الدُّنْيَا وَلَكُم فِي الآخِرَة » .

وأَمّا لباسُهم وفرشُهم : قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ .

قالَ في « حادي الأَرواح » : السُّندسُ : ما رقّ مِنَ الدِّيباج ، والإِستبرقُ : ما غلظَ منه .

وأَخرجَ الشَّيخان : « مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا . . لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَة » .

وعنِ الحسن : الحلي فِي الْجَنَّةِ عَلَى الرِّجَالِ أَحْسَنُ مِنْهُ عَلَى النِّسَاء[1] .

وعن سعدِ بنِ أَبي وقّاصٍ رضي الله عنه مرفوعاً : « لَوْ أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَ فَبَدَا بِسِوَارِه . . لطَمَسَ ضَوْءَ الشَّمْسِ كَمَا تَطْمِسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجُوم » . وفي هـٰذا الحديثِ ابنُ لهيعة ، وثَّقَه الإِمامُ أَحمد .

---

(١) قال القسطلاني في « شرحه للبخاري » : قال عليه الصلاة والسلام : « أحل الذهب والحرير لإناث أمتي ، وحرم على ذكورها » قال الترمذي : حسن صحيح . نعم ؛ الأصح عند الرافعي : تحريم افتراشها إياه ؛ لأنه ليس في الفرش ما في اللبس من التزين للزوج المطلوب .

وصحح النووي حِلَّه قال : وبه قطع العراقيون وغيرهم ؛ لإطلاق الحديث السابق ، وبه قال أبو حنيفة ، وكرهه صاحباه ، فلو صلى فيه الرجل . . أجزأته صلاته ، لـٰكنه ارتكب حراماً ، وقال الحنفية : تكره وتصح ، وقال المالكية : يعيد في الوقت إن وجد ثوباً غيره . وقد ذكرنا بعضاً من هـٰذا في بعض الدروس فلا تغفل . اهـ منه .

وعنِ الإمام أَحمد : « قَيْدُ سَوْطِ أَحَدِكُم مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا ، وَلَنَصِيفُ امْرَأَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا ومِثْلِهَا مَعَهَا » رواهُ أَبو هريرة رضي الله عنه . والنَّصيف : اَلخمار .

وأَخرجَ ابنُ أَبي الدُّنيا : « ما مِنْ أَحدٍ يدخلُ الجنَّةَ إلاَّ انطلقَ بهِ إلىٰ شجرةِ طوبىٰ ، فتُفتَّحُ لَهُ أَكمامُها فيأْخذُ ما شاءَ مِنَ الثِّياب : إِنْ شاءَ بِيضاً ، وَإِنْ شاءَ حُمراً ، وإِنْ شاءَ خُضراً ، وإِنْ شاءَ صُفراً ، وإِنْ شاءَ سوداً ، مثل شقائِقِ النُّعمان » .

وفي « حادي الأَرواح » عن أَبي سعيدٍ رضي الله عنه مرفوعاً : « إِنَّ الرَّجُلَ في الْجَنَّةِ لَيَتَّكِيءُ سَبْعِينَ سَنَةً قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّل ، ثُمَّ تَأْتِيهِ امْرَأَةٌ فَتَضْرِبُ عَلَىٰ منكبهِ فَيَنْظُرُ وَجْهَهُ في خَدِّهَا أَصْفَىٰ مِنَ الْمِرْآة ، وَإِنَّ أَدْنَىٰ لُؤْلُؤَةٍ عَلَيْهَا لَتُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِب ، فَتُسَلِّمُ عَلَيْهِ ، فَيَرُدُّ السَّلَام ، وَيَسْأَلُهَا : مَنْ أَنْت ؟ فَتَقُول : أَنَا الْمَزِيد . وَإِنَّهُ لَيَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثَوْباً فَيَنْفُذُهَا بَصَرُهُ حَتَّىٰ يَرَىٰ مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ ذَلِك » .

وأَخرجَ الطَّبرانيُّ في قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ قال : مسيرة أَربعينَ سَنة .

وأَمّا خدمُهم ونساؤُهم وغلمانُهم : فقد قالَ تعالىٰ : ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ .

قالَ الفرّاء : ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ لا يهرمون ولا يتغيَّرون .

وقالَ بعضُ العلماء : ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ مقرطون ؛ أَي : في آذانهِمُ القرط .

وعنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهما : إِنَّ أَدنىٰ أَهلِ الْجَنَّةِ منزلاً مَنْ يسعىٰ عليهِ أَلفُ خادم ، كلُّ خادمٍ علىٰ عملٍ ليسَ عليهِ صاحبُه .

وعن أَنسٍ رضي الله عنه مرفوعاً : « إِنَّ أَسْفَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دَرَجَةً مَنْ يَقُومُ عَلَىٰ رَأْسِهِ عَشَرَةُ آلافِ خَادم » .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ إلىٰ قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

قالَ في « البحورِ الزّاخرةِ في أَحوالِ الآخرة » : والمطهَّرة الَّتي طهرتْ مِنَ الحيضِ

والبول ، والنّفاسِ والغائط ، والمخاطِ والبصاق ، وكلِّ قذر . وطهرَ لسانُها منَ الفحش ، ونظرُها مِنْ طمحِ عينها إلىٰ غيرِ زوجِها .

وأخرج التّرمذي عن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : « يَتَزَوَّجُ الْعَبْدُ فِي الْجَنَّةِ سَبْعِينَ زَوْجَة » قيْل : يا رسولَ الله ؛ أَيُطيقُها ؟ قال : « يُؤْتَىٰ قُوَّةَ مِئَةِ رَجُل » .

وأَخرجَ البيهقيُّ عن عبدِ الرَّحمـٰنِ بنِ سابطٍ موقوفاً : « إنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَوَّجُ خَمْسَ مِئَةِ حَوْرَاءَ ، وَأَرْبَعَةَ آلاَفِ بِكْرٍ ، وَثَمَانِيَةَ آلاَفِ ثَيِّب ، يُعَانِقُ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ مِقْدَارَ عُمُرِهِ مِنَ الدُّنْيَا » .

وأَخرجَ الطَّبرانيُّ عَن أُمِّ سَلمة رضي الله عنها ، قالت : يا رسولَ الله ؛ إنَّ المرأَةَ مِنّا تتزوَّجُ الزَّوجينِ والثّلاثةَ والأَربعةَ ثمَّ تموت ، فتدخلُ الجنَّةَ ، ويدخلونَ معَها ، مَنْ يكونُ زوجها ؟ قال : « يَا أُمَّ سَلَمة ؛ تُخَيَّرُ فَتَخْتَارُ أَحْسَنَهُم خُلُقاً ، فَتَقُول : أَي رَبِّ ؛ إنَّ هَـٰذَا كَانَ أَحْسَنَهُم مَعِيَ خُلُقاً فِي دَارِ الدُّنْيَا فَزَوِّجْنِيه . يَا أُمَّ سَلَمَة ؛ ذَهَبَ حُسْنُ الْخُلُقِ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَة » .

قالَ في « البحورِ الزّاخرة » : فيهِ ضعف ، وقد وردَ خلافُه ؛ فعن حذيفة : أَنَّ المرأَةَ لآخِرِ أَزواجِها .

وخطبَ معاويةُ أُمَّ الدَّرداءِ فأَبت ، وقالت : سمعتُ أَبا الدَّرداءِ يُحدِّثُ عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « إنَّ الْمَرْأَةَ لآخِرِ أَزْوَاجِهَا فِي الآخِرَة » .

وفي « الصَّحيحين » مِنْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ قيس ، قال : قالَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « إنَّ لِلْعَبْدِ الْمُؤْمن فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَة ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلاً ، لِلْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِم ، لاَ يرىٰ بَعْضُهُم بَعْضاً » .

وأَخرجَ ابنُ أَبي الدُّنيا عن سعيدِ بنِ جبير : أَنَّ شهوتَهُ لتجري في جسدهِ سبعينَ عاماً يجدُ اللَّذَّة ، ولا يَلحقهُم بذلكَ جنابة فيحتاجونَ إلى التَّطهير ، ولا ضعفٌ ولا انحلالُ قوَّة ، بل وطؤُهم وطءُ الْتذاذِ نعيم ، لا آفَةَ فيهِ بوجهٍ مِنَ الوجوه .

وأَخرجَ أَبو نعيمٍ ، قال : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « سَطَعَ نُورٌ فِي الْجَنَّةِ فَرَفَعُوا رُؤُوسَهُم ، فَإِذَا هُوَ مِنْ ثَغْرِ[1] حَوْرَاءَ ضَحِكَتْ فِي وَجْهِ زَوْجِهَا » وإِلىٰ هـٰذا أَشار :

فَلَوْ أَنَّ حَوْرَا فِي الدَّيَاجِي تبَسَّمَتْ ... تَجَلَّىٰ دُجَى الظَّلْمَاءِ فِي الأَرْضِ نُورُهَا
وَلَـوْ مُـزِجَ الْمَـاءُ الأُجَـاجُ بِـرِيقِهَـا ... لأَصْبَـحَ عَـذْبـاً سَلْسَبِيـلاً بُحُـورُهَـا

فيا إخواني ؛ سبحانَ مَنْ قدَّرَ الأُمورَ وأَمضاها! أَسخطَ النُّفوسَ تقديرُهُ وأَرضاها ، أَحضرَ زمرَ المتَّقينَ ثمَّ نجّاها ، زرعوا جنّاتِ التَّقوىٰ فالتقطوا جَناها ، فأَمّا زمرُ الكفرِ . . فالنّارُ مأْواها ، تستغيثُ عطشاً ، ولو رحمَها . . سقاها ، الغِسلينُ شرابُها والزَّقُّومُ مرعاها . حُرموا لذَّةَ المنىٰ والإِسعاد ، وبُدِّلَتْ وضاءَة وجوههم بالسّواد ، وضُربوا بمقامعَ أقوىٰ مِنَ الأَطواد ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ لو رأَيتَهُم في الحميمِ يَسرحون ، وعلى الزَّمهريرِ يُطرَحون ، حُزنهُم دائِمٌ فما يَفرحون ، مقامُهم محتومٌ لا يبرحون أَبَدَ الآباد ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ والشَّراب الحميم ، وهـٰذا الزّاد .

وأَمَّا زُمرُ المتَّقين . . فقد سِيقوا إِلى الجنّاتِ وفُتِّحتْ لَهمُ الأَبواب ، وتلقاهُم الحورُ يَقُلْن . . آنَ الإِياب . وغنَّتهُم الأَماني أَطيبَ مِنْ غناءِ الرَّباب ، فكلَّما غنَّت . . رنَّتْ مِنَ القصورِ القِباب . وأَعطاهُم مولاهُم ما لَمْ يَكُنْ بالحساب ، فهُم في النَّعيمِ يتقلَّبون ، وعلى الأرائِكِ يَنظرون ، ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ .

فسبحانَ مَنْ أَصلحَ بالَهم ، طوبىٰ لَهم وحُسنُ مآب .

نزلوا واللهِ المقامَ الأَمين ، وكُتبوا في أَصحابِ اليمين ، ونالوا كلَّ مثمَّنٍ ثمين ، وأُسكنوا القصورَ وأُعطوا الحورَ العِين ، كلُّهنَّ أَبكارٌ ليسَ فيهِنَّ عون . قد عُوِّضوا عن حريقِ القلقِ الرَّحيق ، وأُبدِلوا عن بريقِ السُّيوفِ الأَباريق ، وقوبلَت رياضاتُهم بالرَّوضِ الأَنيق ، فهُم يرتعونَ فيما يرتعون . نقوا بالآدابِ الشَّرعيَّةِ وهُذِّبوا ، فإِذا أُبعدتُم يومَ الحضورِ وقُرِّبوا . . فماذا تصنعون ؟!

---

(١) الثّغر : الفم .

فنسأَلُكَ **اللَّهُمَّ** أَنْ تجعلَنا والجماعةَ الحاضرينَ مِنَ القومِ الَّذينَ اغتنموا الأيّام ، واجتنبوا الخطايا والآثام ، وصَمتوا عن رديءِ الكلام ، وصَموا عنِ استماعِ الحرام ، فكأَنَّهم ما يَسمعون .

واحشرنا في زُمرةِ العلماءِ العامِلين ، واجعلْنا يومَ الفزَعِ الأكبرِ مِنَ الآمنين ، وتحتَ لواءِ سيِّدِ المرسَلين ، عليهِ وعلىٰ آلهِ وأَصحابهِ أَفضلُ صلاةِ المصلّين .

اللَّهُم ؛ وأَعتِقْنا مِنَ النّار ، وسلِّمنا مِنْ دارِ البَوار ، ووفِّقنا لسلوكِ سبيلِ عبادِكَ الأَخيار ، واغفرْ لَنا جميعَ الذُّنوبِ والأَوزار ، وعامِلنا بمحضِ فضلكَ وكرمِكَ يا أَكرمَ الأَكرمين ، وعُمَّنا بعفوكَ ومغفرتكَ ووالدينا وجميع المرسلين ، الأَحياءِ منهُم والميتين ، برحمتكَ يا أَرحمَ الرَّاحمين .

اللَّهُم ؛ إنَّا نسأَلُكَ الجنَّةَ وما يُقرِّبنا إِليها مِنْ قولٍ وعمل ، ونسأَلُكَ الصَّبرَ والشُّكرَ والعفوَ والعافيةَ وبلوغَ الأَمل .

واْسْلُكِ **اللَّهُمَّ** بنا مسالكَ الصّادقينَ الأَبرار ، وأَلحِقْنا بأَوليائِكَ الأَخيار .

وارحم **اللَّهُمَّ** آباءَنا وأُمّهاتِنا ، وأَقارِبنا ومشايِخَنا ، وكافَّةَ المسلِمين .

وانصرِ **اللَّهُمَّ** مَنْ نصرَ الدِّين ، واخذلْ مَنْ خذلَ الموحِّدين ، واحفظِ المجاهدينَ والعساكرَ المرابطين ، وأَيِّدْ شريعةَ نبيِّكَ المصطفىٰ ، وكثِّرْ أَتباعَ دِينهِ المرتضىٰ ، وَأَلِّفْ بينَ قلوبِ أُمَّته ، واجعلْنا والحاضرينَ مِنَ المتمسِّكينَ بسُنَّتِه ، اَلفائزينَ بكمالِ حُبِّه ، وآلهِ وأَصحابهِ وزوجاتهِ وذرّيَّته . وثبِّتْ قلوبَنا علىٰ دِينهِ المبين ، والطفْ بِنا لُطفاً خفيّاً يا ربّ العالَمين ، وصلِّ وسلِّمْ علىٰ جميعِ أَنبيائِك والمرسَلين ، وأَهلِ طاعتكَ أَجمعين .

* * *

[خاتمة الكتاب]

هـٰذا آخِرُ ما سهّلَ اللهُ تعالىٰ تحريرَه ، وغايةُ طيبِ ما دبَّجتُ بالتَّوفيقِ تحبيره ، مِنَ الكتابِ الموسومِ بـ« الغاليةِ في المجالسِ العالية » .

وإنِّي أَحمدُ اللهَ سبحانَهُ علىٰ إتمامه ، وترصيفهِ في سلكِ نظامه ، وأَبتهلُ إليهِ عزَّ سلطانُهُ أَنْ يكونَ ذلكَ سبباً لغفرانه ، وموجِباً في الدّارينِ لإحسانه ، وأَنْ يعفوَ عمّا طغىٰ بهِ القلم ، أَو زلَّتْ في بعضِ كلماته القدَم ، أَو صدرَ تكاسلٌ في التَّنقيح ، أَو توانٍ في بيانِ التَّصحيح ؛ فإنَّ لي عُذرَينِ قويّين ؛ وهُما : تشويشُ البال ، وتشتُّتُ الحالِ في هـٰذا الزَّمنِ الَّذي قدِ استولتْ فيهِ علىٰ أَربابِ العقولِ المحن .

والعذرُ الَّذي هوَ أَوسعُ مِنْ هـٰذينِ عندَ ذوي العرفان : أَنَّ الإنسانَ محلُّ السَّهوِ والنِّسيان .

فالمرجوُّ ممَّنْ سلمَ مِنْ داءِ الجهلِ والحسد . . أَنْ يُصلحَ ما فسد ، ويدرأَ السَّيِّئةَ بالحسنات ، ويذكرَ أَنَّ العصمةَ مِنْ خواصِّ ذوي المعجزات .

ومعَ هـٰذا ، فأظنّني قد أَتيت ـ والحمدُ للهِ تعالىٰ ـ بما هوَ في هـٰذا الوقتِ درياقٌ لأَهلِ العراق ، بلِ الآفاق .

وقد جمعتُهُ مِنْ عدَّةِ أَسفار ، غدت كالشَّمسِ في رابعةِ النَّهار ، وهي :

« تبصرة » العلامةِ ابنِ الجوزي .

و« روحُ المعاني » تفسيرُ الفهّامةِ والدنا المبرور .

و « عقدُ الدُّررِ واللآلي » للحمويِّ الحنبلي .

و« الترغيبُ والتَّرهيب » لِلحافظِ المنذريِّ و« مختصرُه » .

و« الزَّواجر » و« الصَّواعق » لِلعلاَّمةِ ابن حجر .

و« ميزانُ » العارف الشَّعرانيِّ الشَّافعي .

وكتابُ « اختلافِ المذاهب » للوزير .

و« كشفُ الغُمَّة » للشَّعراني .

و« ردّ المحتار » حاشيةُ « الدُّرِّ المختار » لِلعلاَّمةِ ابنِ عابدينَ الحنفي .

و« المواهبُ اللَّدنيَّة » للقسطلانيِّ الشافعي .

و« زادُ المعاد » للحافظِ ابنِ القيِّمِ الحنبلي .

و« صحيحا » الإمامين البخاري ومسلم .

و« شرحُ سننِ أَبي داوود » للإمامِ الخطّابي .

« وشرحُ السَّفيريِّ الشَّافعيِّ لبعضِ أَحاديثِ البخاري » .

و« البدورُ السَّافرة » و« الحبائك » للحافظِ السّيوطي .

و« البحورُ الزّاخرة » للشَّيخِ مُحَمَّدٍ السَّفارينيِّ الحنبلي . وشرحُ عقيدته .

و« شرحُ الجامعِ الصَّغير » للمناويِّ الشّافعي .

وكتابُ « نصابُ الاحتساب » و« إحياءُ العلوم » لحجَّةِ الإسلامِ الغزالي .

وقد كانَ أغلبُهُ أَوراقاً مسوَّدةً وطروساً مبدَّدة ، انتهبتُها مِنْ أَيدي الضَّياعِ واختطفتُها مِنْ زوايا البقاع ، فاستخرجتُهُ للتَّبييضِ معَ زيادةٍ وتنقيحٍ وتهذيب ، كالرَّوضِ الأَريض . في شهرِ ربيعِ الآخِر ، مِنْ شهورِ السَّنةِ المتمِّمةِ لثلاثِ مئةٍ بعدَ الأَلفِ ، مِنْ هجرةِ ذي العزِّ والشَّرف ، سيِّدِ بني عدنان ، ورسولِ الإنسِ والجان ، الشَّفيعِ الأَعظمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلى آلهِ وصحبه وسلَّمَ ما لَفَظَ لافظٌ ونصحَ واعظ ، وعلىٰ كافَّةِ العلماءِ العامِلين ، وآخِرُ دعوانا أَنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين[١] .

(١) جاء في خاتمة النسخ الخطية : وقد نسختُ هـٰذهِ النُّسخة مِنَ التَّسويدِ الَّذي كانَ المؤلِّفُ يمليهِ على الكاتبِ المجيد ، فلمّا أَنْ تمَّمَ جمعَها وكمَّلَ حسنَها وحرَّرها . . بادرَ وقالَ في آخِرِها :

يقولُ الفقيرُ إِلىٰ رحمةِ ربِّهِ الغنيِّ مُحَمَّدُ علي الشَّهيرُ بآلِ قفطان النَّجفي : إِنِّي بعدَ أَنْ يبسَ مِنَ القلمِ رِيقُه ، وخُتمَ مِنْ هـٰذا الكتابِ رحيقُه . . أَنشدَ صادحُ اللِّسانِ أبياتاً هيَ عندَ الأُدباءِ رياضٌ يانعات ، =

. . . .

* * *

= مؤرِّخاً عامَ الإتمام بهٰذا النِّظام ، فاسمعْهُ لا زلتَ بسلام :

أَنُجُـــومٌ أَمْ دَرَارِي بَـــادِيَـــهْ | أَمْ مَصَـابِيـحُ ظَـلاَمٍ سَـارِيَـهْ
أَمْ مِـنَ الآفَـاقِ شُهْـبٌ أُرْسِلَـتْ | رَاجِمَـاتٍ لِلنُّفُـوسِ الطَّـاغِيَـهْ
أَمْ هُـوَ الْبَـدْرُ بَـدَا فِـي غَلَـسٍ | فَمَحَـا ظُلْمَـةَ لَيْـلٍ دَاجِيَـهْ
بَـلْ هُـوَ الأَسْفَـارُ مِـنْ كُتُـبِ السَّمَـا | حَمَلَتْهَـا نَفْـسُ قُـدْسٍ زَاكِيَـهْ
جَمَعَـتْ مَـا جَـاءَتِ الـرُّسْـلُ بِـهِ | مِـنْ كِتَـابٍ وَحَـدِيـثٍ حَـاوِيَـهْ
لِفُنُـونِ الْـوَعْـظِ صَـارَتْ مَجْمَعـاً | حَـاوِيـاً جُـلَّ الصِّحَـاحِ الْعَـالِيَـهْ
دَاعِيـاً لله فِيهَـا بَيْنَنَـا | رَحِـمَ اللهُ مُلَبِّـي دَاعِيَـهْ
أُرِّجَـتْ بَغْـدَادُ مِسْكـاً مُـذْ مَشَـىٰ | حَـامِلُـوهَـا يَـا لَهَـا مِـنْ غَـالِيَـهْ
فَهْـيَ لِلْـوَعْـظِ دُرُوسٌ كَـافِيَـهْ | وَهْـيَ لِلطَّـالِـبِ رُشْـداً شَـافِيَـهْ
جَـادَ خَيْـرُ الـدِّيـنِ فِيهَـا فَـاسْتَمِـعْ | بَعْـضَ مَـا خَـصَّ بِـأُذْنٍ وَاعِيَـهْ
عَـالِـمٌ مَـا زَالَ يُبْـدِي عِلْـمَ مَـا | قَـدْ جَهِلْنَـاهُ وَيَجْلُـو خَـافِيَـهْ
وَلَـهُ حِلْـمٌ وَصَفْـحٌ رَاسِـخٌ | وَأَيَـادٍ بِنَـدَاهَـا هَـامِيَـهْ
وَبِـهِ رُوحُ الْمَعَـانِـي قَـدْ بَـدَتْ | فَلِمَعْنَـاهُ وُجُـوهٌ عَـانِيَـهْ
وَبِـهِ عَـزَّ الْهُـدَىٰ فِـي هَـدْيِـهِ | وَعُـرُوشُ الغـيِّ أَضْحَـتْ خَـاوِيَـهْ
ذُو تُقَـىً قَـدْ حَـالَـفَ الْحَـقَّ فَمَـا | سَـاوَرَتْـهُ الْهَفَـوَاتُ الشَّـانِيَـهْ
ذَا قَلِيـلٌ مِـنْ كَثِيـرٍ قُلْـتُ فِـي | مَـدْحِ مَـنْ أَكْثَـرَ فِـي إِكْـرَامِيَـهْ
فَـاعْفِنِـي عَـنْ عَـدِّ أَفْضَـالٍ لَـهُ | لَيْـسَ يُحْصِـي فَضْلَـهُ تَعْـدَادِيَـهْ
دَامَ فِـي أَوْجِ عُـلاهُ سَـامِيَـا | وَبُيُـوتُ الْمَجْـدِ فِيـهِ زَاهِيَـهْ
وَلِـوَاءُ الْعِـزِّ مَعْقُـودٌ لَـهُ | وَحُلَـى الْفَخْـرِ عَلَيْـهِ ضَـافِيَـهْ
مُـذْ شَمَمْنَـا طِيبَهَـا أَرَّخْتُهَـا | (زَالَ وَجْـدِي بِنَسِيـمِ الْغَـالِيَـهْ)

٣٨+ ٢٣ + ١٦٢ + ١٠٧٧

= سنة (١٣٠٠)

وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة أول ذي الحجة من سنة (١٣٠٠) ثلاث مئة وألف من هجرة من خلق على أجمل وصف ، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

كتبه الشيخ عبد اللطيف أفندي المولوي الطرابلسي في إسلامبول المحميَّة في ذي القعدة سنة ثلاث مئة وألف (١٣٠٠) .





فهرس الكتاب

* * *